

٢١٢
س.خ

السراج المنير فى الاعانه على معرفة كلام ربنا
العليم الخبير، تأليف الخطيب الشربينى،
محمد بن احمد - ٩٧٧هـ. كتب فى القرن
الثانى عشر الهجرى تقديرا.
ج ٢، ٣ فى ٢مج (٣٨٣، ٣٧٧ق) ٣٣س
٣٠،٥ر × ٢٠ سم

٩٦٣

نسخه حسنه، خطها نسخ، ناقصة، طبع
الازهرية ١ : ٢٦٧ معجم المطبوعات
١ : ١١٠٩
١ـ التفسير، القرآن الكريم وعلومه. أ- المؤلف
ب- تاريخ النسخ. ج- تفسير الشربينى.

وعلى امم ممن معك

ذريته وبين لعلي ذلك قوله تعالى وجعلنا ذريته هم الباقين فثبت ان نوحا كان ادم الاصغر
فكان ابا الانبيا والخلق بعد الطوفان كلهم منه ومن ذريته وكان بين نوح وادم ثمانية
اجداد وقوله تعالى وبركات عليك يحتمل ان تكون من للبيان فيراد الامم الذين كانوا
معه في السفينة لانهم كانوا جماعات اوقيل لهم امم لان الامم تتشعب منهم وان
تكون لابتدا الغاية اي على امم ناشية ممن معك وهي الامم الى اخر الدهر قال في
الكشاف وهو الوجه وقوله تعالى وامم بالرفع على الابتدا وقوله تعالى سنمتعهم
اي في الدنيا صفة والخبر محذوف تقديره وممن معك امم سنمتعهم وانما حذف
لان قوله ممن معك يدل عليه والمعنى ان السلام منا والبركات عليك وعلى امم مومنين
ينشون من معك وممن معك امم ممتعون في الدنيا ثم يمسهم منا عذاب اليم في
الاخرة وهم الكفار وعن محمد بن كعب القرظي دخل في ذلك السلام كل مومن ومومنة
الى يوم القيامة وفيما بعده من المتاع والعذاب كل كافر وقيل المراد بالامم الممتعة
قوم هود وصالح ولوط وشعيب ولما شرح تعالى قصة نوح عليه السلام على
التفصيل قال تعالى تلك اي قصة نوح التي شرحناها ومحل تلك رفع على الابتدا
وخبرها من انبا الغيب اي من الاخبار التي كانت غايبة عن الخلق وقوله تعالى
نوحيها اليك خبر ثان والضمير لها اي موحاة اليك وقوله تعالى ما كنت تعلمها
انت ولا قومك من قبل هذا اي نزول القران خبر اخر والمعنى ان هذه القصة مجهولة
عندك وعند قومك من قبل ايحاينا اليك ونظيره هذا ان تقول انسان الاخر لا تعرف
هذه المسئلة لا انت ولا اهل بلدك فان قيل كانت قصة طوفان نوح مشهورة عند
اهل العلم اجيب بان ذلك كان بحسب الاجمال واما التفاصيل المذكورة فما
كانت معلومة او بانه صلى الله عليه وسلم كان اميا لم يقرا الكتب المتقدمة ولم
يعلمها وكذلك كانت امته ثم قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم فاصبر اي
انت وقومك على اذى هولا الكفار كما صبر نوح وقومه على اذى اوليك الكفار
ان العاقبة للمتقين اي الشرك والمعاصي وفي هذا تنبيه على الصبر عاقبته النصر
والفرح والسرور كما كان لنوح عليه السلام ولقومه فان قيل هذه القصة
ذكرت في يونس فما الحكمة والفايدة في اعادتها اجيب بان القصة الواحدة قد
ينتفع بها من وجوه ففي السورة الاولى كان الكفار يستعجلون نزول العذاب
فذكر تعالى قصة نوح في بيان ان قومه كانوا يكذبونه بسبب ان العذاب ما كان يظهر
ثم في العاقبة ظهر فكذا في واقعة محمد صلى الله عليه وسلم وفي هذه السورة ذكرت لاجل
ان الكفار كانوا يبالغون في الايحاش فذكرها الله تعالى لبيان ان اقدام الكفار على الايذا
والايحاش كان حاصلا في زمان نوح عليه السلام فلما صبر فاز وظفر فكن يا محمد
كذلك لتنال المقصود ولما كان وجه الانتفاع بهذه القصة في كل سورة من وجه
اخر لم يكن تكريرها خاليا عن الحكمة والفايدة القصة الثانية من القصص التي ذكرها
الله تعالى في قصة هود هذه السورة قصة هود عليه السلام المذكورة في قوله تعالى



والي عاد اي وارسلنا الي عاد اخاهم فهو معطوف علي قوله تعالى نوحا وقوله تعالي
هودا عطف بيان ومعلوم ان تلك الاخوة ماكانت في الدين وانما كانت في النسبة
لان هودا كان رجلا من قبيلة عاد قبيلة من العرب كانوا بناحية اليمن فان قيل انه
تعالي قال في ابن نوح انه ليس من اهلك فبين ان قرابة النسب لا تفيد اذا لم تحصل
قرابة الدين وهنا اثبت هذه الاخوة مع الاختلاف في الدين اجيب بان قوم محمد
صلي الله عليه وسلم كانوا يستبعدون ان يكون رسولا من عند الله مع انه واحد
من قبيلتهم فذكر الله تعالى ان هودا كان واحدا من عاد وان صالحا كان واحدا من
ثمود لازالة هذا الابعاد ولما تقدم امر نوح عليه السلام مع قومه استشرف
السامع الي ما قال هود عليه السلام هل هو مثل قوله اولا فاستانف الجواب
بقوله قال يا قوم اعبدوا الله اي وحدوه ولا تشركوا معه شيا في العبادة
ما لكم من اله غيره اي هو الهكم لا هذه الاصنام التي تعبدونها فانها حجارة
لا تضر ولا تنفع فان قيل كيف دعاهم الي عبادة الله قبل اقامة الدليل
علي ثبوت الاله اجيب بان دلايل وجود الله تعالى ظاهرة وهي دلايل
الافاق والانفس وقل ما يوجد في الدنيا طايفة ينكرون وجود الله تعالى
الاله ولذلك قال تعالي في صفة الكفار ولين سالتهم من خلقهم
ليقولن الله من خلق السموات والارض ليقولن الله وقرا
الكساي بكسر الها والرا صفة علي اللفظ والباقون صفة علي محل
الجار والمجرور ومن زايدة ان انتم الا مفترون اي كاذبون في عبادتكم غيره
وكرر قوله يا قوم للاستعطاف وقوله لا اسالكم عليه اجرا ان اجري الا علي الذي فطرني
اي خلقني خاطب به كل رسول قومه ازالة للتهمة وتمحيضا للنصيحة
فانها لا تنجع ما دامت مشوبة بالمطامع افلا تعقلون اي افلا تستعملون
عقولكم فتعرفوا المحق من المبطل والصواب من الخطا فتتعظون وقال
ويا قوم ايضا لما ذكر استغفروا ربكم اي آمنوا به ثم توبوا اليه من
عبادة غيره لان التوبة لا تصح الا بعد الايمان يرسل السما اي المطر عليكم
مدرارا اي كثير الدر ويزدكم قوة الي قوتكم اي ويضاعف قوتكم وانما
رغبهم بكثرة المطر وزيادة القوة لان القوم كانوا اصحاب زروع وبساتين
وعمارات حراصا عليها اشد الحرص فكانوا احوج شي الي الما وكانوا مدلين
غيرهم بما اوتوا من شدة القوة والبطش والباس والنجدة مهابين في كل
ناحية وقيل اراد القوة في المال وقيل القوة علي النكاح وقيل حبس عنهم
المطر ثلاث سنين وعقمت ارحام نساهم وعن الحسن بن علي رضي الله
تعالى عنهما انه وفد علي معاوية فلما خرج تبعه بعض حجابه فقال اني
رجل ذو مال ولا يولد لي فعلمني شيا لعل الله يرزقني ولدا فقال عليك
بالاستغفار فكان يكثر الاستغفار حتى ربما استغفر في يوم واحد

سبعماية مرة فولد له عشر بنين فبلغ ذلك معاوية فقال هلا سالته مما قال
ذلك فوفد مرة اخري فساله الرجل فقال الم تسمع قول هود ويزدكم قوة الي قوتكم
وقول نوح ويمددكم باموال وبنين ولا تتولوا اي ولا تعرضوا عن قبول قولي
ونصحي حال كونكم مجرمين اي مشركين اي ولما حكي الله تعالى عن هود ما ذكره بقوله
حكي ايضا ما ذكره قومه له وهو اشيا اولها ذكره تعالى بقوله قالوا يا هود ما جيتنا ببينة
اي بحجة تدل علي صحة دعواك وسميت بينة لانها تبين الحق ومن المعلوم انه عليه
الصلاة والسلام كان اظهر لهم المعجزات وثانيها قولهم وما نحن بتاركي الهتنا اي عبادة
وقولهم عن قولك اي صادرين عن قولك حال من الضمير في تاركي وهذا ايضا
من جهلهم فانهم كانوا يعرفون بان النافع والضار هو الله تعالي وان الاصنام لا تضر
ولا تنفع وذلك حكم فطرة العقل وبديهة النفس وثالثها قولهم وما نحن لك بمومنين
اي مصدقين وفي ذلك اقناط له من الاجابة والتصديق ورابعها قولهم ان اي ما
نقول في شانك الا اعتراك اي اصابك بعض الهتنا بسو لسبك اياها
فجعلتك مجنونا وافسدت عقلك ثم انه تعالى ذكر لما انهم قالوا ذلك قال هود
عليه السلام اني اشهد الله علي واشهدوا انتم ايضا علي اني بري مما تشركون من دونه
اي الله وهي الاصنام التي كانوا يعبدونها فكيدوني اي احتالوا في هلاكي جميعا
انتم واصنامكم التي تعتقدون انها تضر وتنفع فانها لا تضر ولا تنفع فاين ثم اتفق
القرا علي اثبات اليا في كيدوني هنا وقفا ووصلا لثباتها في المصحف ثم لا تنظرون
اي تمهلون وهذا فيه معجزة عظيمة لهود عليه السلام لانه كان وحيدا في قومه
وقال لهم هذه المقالة ولم يهبهم ولم يخف منهم مع ما هم فيه من الكفر
والجبروت ثقة بالله تعالي كما قال تعالي اني توكلت علي الله ربي وربكم اي فوضت
امري اليه واعتمدت عليه ما من دابة تدب علي الارض ويدخل في هذا جميع
بني آدم والحيوان لانهم يدبون علي الارض الا هو آخذ بناصيتها اي مالكها
وقاهرها فلا يقع نفع ولا ضر الا باذنه والناصية كما قال الازهري عند العرب
منبت الشعر في مقدم الراس وسمي الشعر النابت هنا ناصية باسم منبته
والعرب اذا وصفوا انسانا بالذلة والخضوع قالوا ما ناصية فلان الا بيد فلان
وكانوا اذا اسروا الاسير وارادوا اطلاقه والمن عليه جزوا ناصيته ليكون ذلك
علامة لقهره فخوطبوا في القران بما يعرفونه من كلامهم ان ربي علي صراط مستقيم اي
علي طريق الحق والعدل فلا يظلمكم ولا يعاملكم الا بالاحسان والانصاف فيجازي
المحسن باحسانه والمسي بعصيانه وقوله تعالى فان تولوا فيه حذف احدي
التاين اي تعرضوا فقد ابلغتكم جميع ما ارسلت به اليكم فان قيل الابلاغ كان
قبل التولي فكيف وقع جزا الشرط اجيب بان معناه فان تتولوا لم اعاتب علي
تقصير في جهتي وصرتم محجوبين لانكم انتم الذين اصررتم علي التكذيب وقوله
ويستخلف ربي قوما غيركم استيناف بالوعيد لهم بان الله تعالى يهلكهم

ويستخلف قوماً آخرين في ديارهم واموالهم يوحدونه ويعبدونه ولا تضرونه أي الله بإضراركم شيئاً من الضرر إنما تضرون انفسكم وقيل لا تنقصونه شيئاً إذا اهلككم لان وجودكم وعدمكم عنده سواء ان ربي على كل شيء صغيراً وكبيراً حقيراً وجليل حفيظ اي رقيب عالم بكل شيء وقادر على كل شيء فيحفظني ان تنالوني بسوء وحفيظاً لاعمال العباد حتى يجازيهم عليها او حفيظ على شيء يحفظه من الهلاكة اذا شاء ويهلكه اذا شاء ولما لم يرجعوا ولم يرعوا بينة ولا رغبة ولا رهبة جاء امرنا اي عذابنا وذلك هو ما نزل بهم من الريح العقيم عذبهم الله تعالى بها سبع ليال وثمانية ايام حسوماً تدخل في مناخرهم وتخرج من ادبارهم وترفعهم وتضربهم على الارض على وجوههم حتى صاروا كاعجاز نخل خاوية وها همزتان مفتوحتان من كلمتين قرا قالون والبزي وابو عمرو باسقاط الاولى وقرا ورش وقنبل بتخفيف الاولى وتسهيل الثانية والباقون بتحقيقهما نجينا هوداً والذين امنوا معه اي من هذا العذاب وكانوا اربعة الاف برحمة منا لان العذاب اذا نزل قد يعم المؤمن والكافر فلما انجاهم تعالى المؤمنين من ذلك العذاب كان برحمته وفضله وكرمه ونجيناهم من عذاب غليظ هو عذاب الاخرة ووصفه بالغلظ لانه اغلظ من عذاب الدنيا ونجينا هوداً والذين امنوا معه من ان يصل اليهم الكفار بسوء مع اجتهادهم في ذلك ونجيناهم من عذاب غليظ هو الريح المذكورة ولما ذكر الله تعالى قصة عاد خاطب امة محمد صلى الله عليه وسلم فقال وتلك عاد وهو اشارة الى قبورهم واثارهم كانه تعالى قال سيحوا في الارض فانظروا اليها واعتبروا ثم انه تعالى جمع اوصافهم ثم ذكر عاقبة احوالهم في الدنيا والاخرة اما اوصافهم فثلاثة الصفة الاولى قوله تعالى جحدوا بايات ربهم اي بالمعجزات التي اتى بها هود عليه السلام الصفة الثانية قوله تعالى وعصوا رسله اي هوداً وحده وانما اتى به بلفظ الجمع اما للتعظيم او لان من عصى رسولاً فقد عصى جميع الرسل لقوله تعالى لا نفرق بين احد من رسله الصفة الثالثة قوله تعالى واتبعوا امر كل جبار عنيد اي السفلة كانوا يقلدون الرؤساء في قولهم ما هذا الا بشر مثلكم فاطاعوا من دعاهم الى الكفر وما يرديهم وعصوا من دعاهم الى الايمان وما لا يرديهم والجبار المرتفع والعنيد والعنود والمعاند هو المنازع المعارض ولما ذكر تعالى اوصافهم ذكر احوالهم بقوله تعالى واتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيمة اي جعل اللعن رديفاً لهم ومتابعاً ومصاحباً في الدنيا والاخرة ومعنى اللعنة الابعاد من رحمة الله تعالى ومن كل خير وقيل اللعنة في الدنيا من الناس وفي الاخرة لعنة على رؤس الاشهاد ثم انه تعالى بين السبب الاصلي في نزول هذه الاحوال المكروهة بهم بقوله تعالى الا ان عاداً كفروا ربهم اي كفروا بربهم فحذف الباء والمراد بجحدوا بالكفر الجحد اي جحدوا ربهم وقيل هو من باب حذف المضاف اي كفروا نعمة ربهم تنبيه الا اداة استفتاح لا تذكر الا بين يدي كلام يعظم موقعه ويجل خطبه ثم قال الا بعداً لعاد دعاء عليهم بالهلاك والمراد به الدلالة على انهم

كانوا



ثم ذكر الحامل على العجب وهو اسم كان بقوله تعالى ان اوحينا اي ايحاؤنا الى رجل منهم اي من اهل مكة ومن قريش وهو محمد صلى الله عليه وسلم يعرفون صدقه ونسبه وامانته قيل كانوا يقولون العجب ان الله لم يجد رسولاً يرسله الى الناس الا يتيم ابي طالب وهو من فرط حماقتهم وقصور نظرهم على الامور العاجلة وجهلهم بحقيقة الوحي والنبوة وهو صلى الله عليه وسلم لم يكن يقصر عن عظمائهم فيما يعتبر فيه الا في المال وخفة المال اهون شيء في هذا الباب ولذلك كان اكثر الانبياء عليهم الصلاة والسلام قبله كذلك وقد قال تعالى وما اموالكم ولا اولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى ان انذر الناس اي عامة اي اعلمهم مع الخوف ما امامهم من البعث وغيره وان هي المفسرة لان الايحاء فيه معنى القول وبشر الذين امنوا اعاهم في الانذار لانه قل ان يسلم احد من كبيرة او صغيرة او هفوة جليلة او حقيرة على اختلاف الرتب وتباين المقامات وخصص البشارة اذ ليس للكافر ما يبشر به ان اي بان لهم قدم اي سلف صدق عند ربهم اختلفت عبارات المفسرين واهل اللغة في معنى قدم صدق فقال ابن عباس اجراً حسناً بما قدموا من اعمالهم وقال مجاهد الاعمال الصالحة صلاتهم وصيامهم وصدقهم وتسبيحهم وقال الحسن عمل صالح اسلفوه يقدمون عليه وقال عطاء مقام صدق لا زوال له ولا بؤس فيه وقال زيد بن اسلم هو شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم واضيف القدم الى الصدق وهو نعته كمسجد الجامع وصلاة الاولى وحب الحصيد وقال ابو عبيدة كل سابق في خير او شر فهو عند العرب قدم قال الشاعر

صل لذي العرش واتخذ قدما ينجيك يوم العثار والندم

وهو مؤنث فيقال قدم حسنة او قدم صالحة وقوله تعالى قال الكافرون ان هذا لساحر مبين قرا نافع وابو عمرو وابن عامر بكسر السين وسكون الحاء على ان الاشارة للقرآن المشتمل على ذلك والباقون بفتح السين والف بعدها وكسر الحاء على ان الاشارة للنبي صلى الله عليه وسلم ان ربكم الموجد لكم والمربي والمحسن هو الله الذي خلق اي قدر واوجد السموات والارض على اتساعهما وكثرة ما فيهما من المنافع في ستة ايام اي من ايام الدنيا اي في قدرها لانه لم يكن ثم شمس فان قيل ولو شاء لخلقهما في لمحة والعدول عنه لتعليم خلقه التثبت فان قيل ان اليوم قد يراد به اليوم مع ليلته وقد يراد به النهار وحده فما المراد اجيب بان الغالب في اللغة ان يراد باليوم اليوم بليلته ولما اوجد سبحانه وتعالى هذا الخلق الكبير المتباعد والاقطار الواسع الانتشار المفتقر الى عظيم التدبير ولطيف التصريف والتقدير عبر سبحانه وتعالى عن عمله فيه عمل الملوك في ممالكهم بقوله مشيراً الى عظمته باداة التراخي ثم استوى

او عمل في تدبيره واتقان مافيه واحكامه عمل المعني بذلك على العرش المتقد
وصفه في الاعراف بالعظمة وليست ثم للترتيب بل كناية عن علو المرتبة وليست
ثم للترتيب بل كناية عن علو المرتبة وبعد منازلها بين ذلك الاستوا بقوله
يدبر الامر كله فلا يخفي عليه عاقبة امر من الامور لان التدبير اعدل احوال
الملك فالاستوا كناية عنه وقوله تعالى ما من شفيع الا من بعد اذنه تقرير
لعظمته جل وعلا ورد من زعم ان الهتهم تشفع لهم عند الله وفيه اثبات
الشفاعة لمن اذن له ذلكم الله اي الموصوف بتلك الصفات المقتضية للالوهية
والربوبية ربكم اي الذي يستحق العبادة منكم فاعبدوه اي وحدوه
ولا تشركوا به بعض خلقه من ملك او انسان فضلا عن جماد لا يضر ولا ينفع
وان عبادتكم مع الشريك ليست عبادة ولولا فضله لم يكن لمن نزل ادنى منزلة
طاعة وقوله تعالى افلا تذكرون قراه حفص وحمزة والكسائي بتخفيف الذال
والباقون بالتشديد بادغام التاء في الاصل اي افلا تتفكرون ادنى تفكر فينبهكم
على انه المستحق للربوبية والعبادة لا ما تعبدونه اليه تعالى مرجعكم اي
رجوعكم بالموت والنشور حال كونكم جميعا لا يتخلف منكم احد فاستعدوا
للقائه وقوله تعالى وعد الله منصوب بفعله المقدر موكد لنفسه لان
قوله تعالى اليه مرجعكم وعد من الله وقوله تعالى حقا اي صدقا لا خلف
فيه مصدر اخر منصوب بفعله المقدر موكد لغيره وهو ما دل عليه
وعد الله انه يبدؤا الخلق اي يحييهم ابتداء ثم يعيده اي ثم يميتهم ثم يحييهم
وفي هذا دليل على الحشر والنشر والمعاد وصحة وقوعه ورد على منكري
البعث ووقوعه لان القادر على خلق هذه الاجسام المولفة والاعضاء
المركبة على غير مثال سبق قادر على اعادتها بعد تفرقها بالموت والبلا فيركب
تلك الاجزا المتفرقة تركيبا ثانيا ويخلق الانسان الاول مرة اخرى
وكما يمكن تعلق النفس بالبدن في المرة الاولى لم يمتنع تعلقها بالبدن مرة
اخرى فاذا ثبت القول بصحة المعاد والبعث بعد الموت كان المقصود
منهما منه ايصال الثواب للمطيع والعقاب للعاصي وهو قوله تعالى
ليجزي الذين امنوا وعملوا الصالحات بالقسط اي بالعدل
لا ينقص من اجورهم شيا والذين كفروا لهم شراب من حميم وهو ما
حار قد انتهى حره وعذاب اليم اي بالغ في الايلام بما كانوا
يكفرون اي بسبب كفرهم هو الذي جعل الشمس ضياء اي ذات
ضيا والقمر نورا اي ذا نور وخص الشمس بالضيا لانه اقوي واكمل من
النور وخص القمر بالنور لانه اضعف من الضيا لان الشمس نيرة في ذاتها
والقمر نير بعرض مقابلة الشمس والاكتساب منها وقرا قنبل
قنبل بهمزة مفتوحة ممدودة بعد الضيا والباقون بيا مفتوحة ممدودة

بعد الضياد

بعد الضاد والباقون بيا مفتوحة والضمير في قوله تعالى وقدره منازل
يرجع الى الشمس والقمر اي قدر مسير كل واحد منهما او قدره ذا منازل
او يرجع الى القمر فقط وتخصيصه بالذكر لسرعة مسيره ومعاينة منازله
واناطة احكام الشرع ولذلك علل بقوله تعالى لتعلموا عدد السنين
والحساب اي حساب الاوقات من الاشهر والايام في معاملاتكم وتصرفاتكم
لان الشهور المعتبرة في الشريعة كما قال تعالى ان عدة الشهور عند الله
اثنا عشر شهرا في كتاب الله تعالى فايدة منازل القمر ثمانية وعشرون
منزلة واسماوها . الشرطين . والبطين . والثريا . والدبران . والهقعة
. والهنعة . والذراع . والنثرة . والطرف . والجبهة . والزبرة .
والصرفة . والعوا . والسماك . والغفر . والزبانان . والاكليل
. والقلب . والشولة . والنعايم . والبلدة . وسعد الذابح .
وسعد بلع . وسعد السعود . وسعد الاخبية . وفرع الدلو المقدم
. وفرع الدلو الموخر . وبطن الحوت . وهذه المنازل مقسومة على
البروج وهي اثنا عشر برجا . الحمل . والثور . والجوزا . والسرطان .
والاسد . والسنبله . والميزان . والعقرب . والقوس . والجدي
. والدلو . والحوت . لكل برج منزلتان وثلث فينزل القمر كل
ليلة منها منزلا فيستتر ليلتين ان كان الشهر ثلاثين وان كان
تسعا وعشرين فليلة واحدة فيكون الشهر مع نزوله تلك المنازل ويكون
مقام الشمس في كل منزلة ثلاثة عشر يوما فيكون انقضا السنة مع
انقضائها وانتفاع الخلق بضوء الشمس وبنور القمر عظيم فالشمس سلطان
النهار والقمر سلطان الليل وبحركة الشمس تنفصل السنة الى هذه الفصول
الاربعة وبالفصول الاربعة ينتظم مصالح هذا العالم وبسبب الحركة
اليومية يحصل النهار والليل والنهار يكون زمان التكسب والطلب
والليل يكون زمانا للراحة ما خلق الله ذلك المذكور الا بالحق اي لم يخلق
ذلك باطلا ولا عبثا تعالى الله عن ذلك اظهارا لقدرته ودلايل وحدانيته
ونظيره قوله تعالى في ال عمران ويتفكرون في خلق السموات والارض ربنا
ما خلقت هذا باطلا وقال تعالى في سورة اخرى وما خلقنا السموات
والارض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا يفصل اي يبين
الايات اي الدلايل الباهرة واحدة في اثر واحدة بيانا شافيا
لقوم يعلمون فانهم المنتفعون بالتامل فيها وقرا ابن كثير وابو عمرو وحفص
باليا والباقون بالنون ولما استدل سبحانه وتعالى على اثبات الالهية
والتوحيد بقوله تعالى ان ربكم الله الذي خلق السموات والارض وثانيا
احوال الشمس والقمر استدل ثالثا بقوله تعالى ان في اختلاف الليل



والنهار اي بالمجيء والذهاب والزيادة والنقصان ورابعها بقوله تعالى
وما خلق الله في السموات من ملائكة وشمس وقمر ونجوم وغير ذلك وما خلق
الله تعالى في الارض من حيوان وجبال وبحار وانهار واشجار وغير ذلك
فاقسام الحوادث الحادثة في هذا العالم محصورة في اربعة اقسام احدها
الاحوال الحادثة في هذه العناصر الاربعة ويدخل فيها ويدخل فيها انواع
الرعد والبرق والسحاب والامطار ويدخل فيها ايضا البحار والصواعق والزلازل
والخسف وثانيها احوال المعادن وهي عجيبة كثيرة وثالثها اختلاف
النبات ورابعها اختلاف احوال الحيوانات وجملة هذه الاقسام الاربعة
داخلة في قوله تعالى وما خلق الله في السموات والارض والاستقصاء في
شرح هذه الاحوال لا يدخل تحت الحصر بل كلما ذكر العقلاء في احوال اقسام
هذا العالم فهو جزء مختصر من هذا الباب لآيات اي دلالات على قدرته
تعالى لقوم يتقون الله فان عملهم على الفكر والتذكر وخصهم بالذكر لانهم
المنتفعون بها قال القفال من تدبر في هذه الاحوال علم ان الدنيا
مخلوقة لشقا الناس فيها وان خالقها وخالقهم ما اهملهم بل جعلها لهم
دار عمل واذا كان كذلك فلا بد من امر ونهي ثم من ثواب وعقاب ليتميز المحسن
من المسيء فهذه الاحوال في الحقيقة دالة على صحة القول باثبات
المبدا واثبات المعاد ولما اقام سبحانه وتعالى الدلائل القاهرة على صحة
القول باثبات الاله الرحيم الحكيم وعلى صحة القول بالمعاد والحشر
والنشر شرع في شرح احوال من يكفر بها وشرح احوال من يومن بها
وقد ابتدا باولها ووصفه باربع صفات مبتدا باولها بقوله تعالى
ان الذين لا يرجون لقانا اي لا يخافونه لانكارهم البعث وما لهم بالمحسوسات
عما وراها فهم يكذبون بالثواب والعقاب والرجا يكون بمعنى الخوف وبمعنى
الطمع فمن الاول قول العرب فلان لا يرجو فلانا بمعنى لا يخافه ومنه
قوله تعالى ما لكم لا ترجون لله وقارا ومنه قول ابو ذويب الهذلي
اذا لسعته النحل لم يرج لسعها اي لم يخفها ومن الثاني قولهم فلان يرجو
فلانا اي يطمع فيه والمعنى لا يطمعون في ثوابنا والصفة الثانية قوله
تعالى ورضوا بالحياة الدنيا واطمانوا بها فيعملون لها عمل المقيم فيها
مع ما يشاهدونه من سرعة زوالها متمكنين في لذاتها وزخارفها
وسكنوا سكون من لا يزعج عنها والصفة الرابعة قوله تعالى والذين هم
عن آياتنا اي دلايل وحدانيتنا غافلون تاركون النظر فيها بمنزلة
الغافل عن الشيء الذي لا يخطر بباله طول عمره ذكر ذلك الشيء وبالجملة
فهذه الصفات دالة على شدة بعدهم عن طلب الاستعداد بالسعادات
الاخروية ويحتمل ان الصفة الاخيرة لفريق آخر ويكون المراد بالاولين

من انكر البعث ولم يرد الا الحياة الدنيا وبالآخر من الهاه حب العاجل عن التامل
في الآجل والاعداد له ولما وصفهم الله تعالى بتلك الصفات قال اولئك
ماواهم النار بما كانوا يكسبون من الشرك والمعاصي ولما شرح احوال
المنكرين الجاحدين شرح تعالى من يومن بها فقال ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات
والاعمال الصالحات عبارة عن الاعمال التي تحمل النفس على ترك الدنيا
وطلب الآخرة والاعمال المذمومة ما تكون بالضد من ذلك يهديهم اي
يرشدهم ربهم بايمانهم اي بسبب ايمانهم الى سلوك سبيل يودي الى الجنة
او لما يريد وندب في الجنة او لادراك الحقايق كما قال صلى الله عليه وسلم
من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم وقال مجاهد المومنون يكون لهم
نور يمشي بهم الى الجنة والكافر اذا خرج من قبره صور له عمله في صورة سيئة
فيقول انا عملك فينطلق به حتى يدخله النار ومفهوم ترتب الهداية على
الايمان والعمل الصالح قد دل على ان سبب الهداية هو الايمان والعمل الصالح
لكن هل منطوق قوله جل وعلا بايمانهم على استقلال بالسببية وان العمل
الصالح كالتتمة والرديف ثم انه تعالى لما وصفهم بالايمان والاعمال الصالحة
ذكر بعد ذلك درجات كراماتهم ومراتب سعاداتهم وهي اربعة الاولى قوله
تعالى تجري من تحتهم الانهار في جنات النعيم اي يكونون جالسين على سرر
مرفوعة في البساتين والانهار تجري بين ايديهم ينظرون اليها من اعالي اسرتهم
وقصورهم ونظيره قوله تعالى قد جعل ربك تحتك سريا فهي ما كانت
قاعدة عليها ولكن المعنى بين يديك وكذا قوله وهذه الانهار تجري من تحتي
اي بين يدي فكذا هنا الثانية قوله تعالى دعواهم فيها قال بعض المفسرين
اي طلبهم لما يشتهون في الجنة ان يقولوا سبحانك اي ننزهك من كل سوء
ونقيصة اللهم اي يا الله فاذا ما طلبوه بين ايديهم على موايد كل مايدة ميل
في ميل على كل مايدة سبعون الف صحفة في كل صحفة لون من الطعام
لا يشبه بعضها بعضا فاذا فرغوا من الطعام حمدوا الله تعالى فذلك
قوله تعالى وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين او ان المراد بقوله
سبحانك اللهم اشتغال اهل الجنة بالتسبيح والتحميد والتقديس لله
تعالى والثنا عليه بما هو اهله وفي هذا الذكر سرورهم وابتهاجهم
وكمال لذاتهم وهذا اولى ويدل عليه ما روي عن جابر رضي الله تعالى عنه انه
قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اهل الجنة ياكلون فيها
ويشربون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يتمخطون قال فما بال الطعام
قال جشا ورشح كرشح المسك يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس
اي يخرج ذلك الطعام جشا وعرقا الثالثة قوله تعالى وتحيتهم فيما بينهم
وتحية الملائكة لهم فيها اي الجنة سلام وتاتيهم الملائكة ايضا من عند ربهم

بالسلام قال تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم وقال
تعالى سلام قولا من رب رحيم الرابعة قوله تعالى **واخر دعواهم** اي واخر دعائهم
ان الحمد لله رب العالمين اي ان يقولوا ذلك وان هي المخففة من الثقيلة وقد
ذكرنا ان بعض المفسرين حمل التسبيح والتحميد على احوال اهل الجنة بسبب الماكول
والمشروب فانهم اذا اشتهوا شيئا قالوا سبحانك اللهم فيحصل ذلك الشي
فاذا فرغوا من قالوا الحمد لله رب العالمين فترتفع الموائد عند ذلك قال الرازي
وهذا القائل ما رفع نظره في دنياه واخراه عن الماكول والمشروب
وحقيق بمثل هذا الانسان ان يعد في زمرة البهائم واما المحققون فقد
تركوا ذلك التشهي ولا يبغي هذه المبالغة فقد قال البغوي وتبعه جماعة
من المفسرين وقال الزجاج اعلم الله ان اهل الجنة يفتتحون بتعظيم
الله وتنزيهه ويختمون بشكره والثناء عليه قال البيضاوي المعنى انهم
اذا دخلوا الجنة وعاينوا عظمة الله تعالى وكبريائه مجدوه ونعتوه بنعوت
الجلال ثم حياهم الملائكة بالسلامة عن الآفات والفوز باصناف الكرامات
او الله حمدوه واثنوا عليه بصفات الاكرام ولما وصف الله تعالى الكفار
بانهم لا يرجون لقاء الله ورضوا بالحياة الدنيا واطمانوا بها وكانوا عن آيات
الله غافلين بين ان من غفلتهم ان الرسول متى انذرهم استعجلوا العذاب
جهلا منهم وسفها بقوله تعالى **ولو يعجل الله للناس الشر** اي ولو يعجل الله
للناس اجابة دعائهم بالشر فيما لهم مضرة ومكروه **استعجالهم بالخير** اي كما
يحبون ان يعجل لهم اجابتهم بالخير **لقضي اليهم اجلهم** اي لاهلكهم ولكن
يمهلهم نزلت في النضر بن الحارث حيث قال اللهم ان كان هذا هو الحق من
عندك فامطر علينا حجارة من السما او ائتنا بعذاب اليم ويدل عليه قوله
تعالى **فنذر** اي نترك **الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم** اي في تمردهم وعتوهم
يعمهون اي يترددون متحيرين وقال ابن عباس هذا في قول الرجل عند الغضب
لاهله وولده لعنكم الله لا بارك الله فيكم وقال قتادة هو دعا الرجل على
نفسه واهله وماله بما يكره ان يستجاب له فيه وعن ابي هريرة ان رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال اللهم اني اتخذ عندك عهدا لن تخلفنيه
انما انا بشر فاي المومنين اذيته او شتمته او جلدته او لعنته فاجعلها
له صلاة وزكاة وقربة تقربه بها الى يوم القيامة فان قيل قابل التعجيل
في الاية بالاستعجال وكان مقتضى النظم ان يقال التعجيل بالتعجيل
والاستعجال بالاستعجال اجيب بان تقدير الكلام ولو يعجل الله للناس
الشر تعجيله للخير حين استعجلوه استعجالا كاستعجالهم بالخير فحذف
منه ما حذف لدلالة الكلام الباقي عليه وقال في الكشاف اصل هذا الكلام
ولو يعجل الله للناس الشر تعجيله لهم بالخير الا انه وضع استعجالهم

بالخير موضع تعجيله له بالخير اشعارا بسرعة اجابته لهم واسعافه بطلبتهم
حتى كان استعجالهم بالخير تعجيل لهم ولما حكى الله تعالى انهم يستعجلون في نزول
العذاب بين انهم كاذبون في ذلك الطلب والاستعجال بقوله تعالى **واذا مس
الانسان** اي الكافر **الضر** اي المرض والفقر **دعانا لجنبه** اي على جنبه
مضطجعا **او قاعدا او قائما** وفائدة الترديد تعميم الدعا لجميع الاحوال والاصناف
المضار والمعنى انه لو نزل بالانسان ادنى شي يكرهه ويوذيه فانه يتضرع الى
الله تعالى في ازالتها عنه وفي دفعه عنه وذلك يدل على انه ليس صادقا في طلب
الاستعجال **فلما كشفنا عنه ضره** اي ازلنا عنه ما نزل به **مر** اي مضى على
ما كان عليه من الكفر **كان لم يدعنا** اي كانه فاسقط الضمير على سبيل
التخفيف ونظيره قوله تعالى كان لم يلبثوا **الى ضر مسه** قال الحسن نسي
ما دعى الله فيه وما صنع الله به في ازالة ذلك البلا عنه وانما حمل الانسان
في هذه الاية على الكافر لان العمل المذكور لا يليق بالمسلم البتة وقال
بعضهم كل موضع في القرآن ورد فيه الانسان فالمراد هو الكافر ورد
نقد قال تعالى هل اتى على الانسان حين من الدهر وقال تعالى ولقد
خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه واما المومن اذا ابتلي ببلية
او محنة وجب عليه رعاية امور اولها ان يكون راضيا بقضاء الله تعالى
غير معترض بالقلب واللسان عليه وانما وجب عليه ذلك لانه مالك على
الاطلاق وملك بالاستحقاق فله ان يفعل في ملكه ما يشا ولانه تعالى حكيم
على الاطلاق وهو منزه عن فعل العبث فكل ما فعله فهو حكمة وصواب
فيجب عليه الصبر وترك القلق فان ابقى عليه تلك المحنة فهو عدل وان
ازالها عنه فهو فضل وثانيها انه في ذلك الوقت ان اشتغل بذكر الله تعالى
والثنا عليه بدلا عن الدعا كان افضل لقوله صلى الله عليه وسلم حكاية عن الله
تعالى من شغله ذكري عن مسئلتي اعطيته افضل ما اعطي السائلين
ولان الاشتغال بالذكر اشتغال بالحق والاشتغال بالدعا اشتغال
بطلب حظ النفس ولا شك ان الاول وثالثها انه تعالى اذا ازال عنه تلك
البلية وجب عليه ان يبالغ في الشكر وان لا يخلو عن ذلك الشكر في
السرا والضرا واحوال الشدة والرخا فهذا هو الطريق الصحيح
عند نزول البلا وحينئذ يكون المومن على الضد من الكافر لان الكافر منهمك
في الشهوات والاعراض عن العبادات كما قال تعالى **كذلك** اي مثل ما زين
لهولا الكافرين هذا العمل القبيح **زين للمسرفين** اي المشركين **ما
كانوا يعملون** من القبيح لاعراضهم عن الذكر واتباعهم الشهوات وانما
سمي الكافر مسرفا لانه اتلف نفسه بتضييعها في عبادة الاوثان واتلف
ماله في البحيرة والسائبة والوصيلة والمزين هو الله تعالى لانه مالك الملك

والخلق كلهم عبيده يتصرف فيهم كيف يشاء وقيل هو الشيطان وذلك باقدار الله
تعالى اياه على ذلك والا فهو اخس واحقر ولقد اهلكنا القرون اي الامم
الماضية من قبلكم يا اهل مكة لما ظلموا اي حين اشركوا وقوله تعالى وجاءتهم
رسلهم بالبينات اي بالحجج الدالة على صدقهم حال من الواو باضمار قد او عطف على
ظلموا وما اي والحال انهم ما كانوا ليؤمنوا اي وما استقام لهم ان يؤمنوا ولو
جاءتهم كل اية لعلمه تعالى بانهم يموتون على كفرهم لتاكيد النفي كذلك اي مثل
ذلك الجزاء العظيم وهو اهلاكهم لما كذبوا رسلهم نجزي القوم المجرمين اي
نجزيكم يا اهل مكة بتكذيبكم محمدا صلى الله عليه وسلم فوضع المظهر موضع المضمر
للدلالة على كمال جرمهم وانهم اعلام فيه ثم جعلناكم اي ايها المرسل اليهم
اشرف رسلنا خلائف جمع خليفة في الارض من بعدهم اي استخلفناكم فيها بعد
القرون التي اهلكناها استخلاف من يختبر لننظر ونحن اعلم بكم من انفسكم
في علم الشهادة لاقامة الحجة كيف تعملون من خير او شر فنجازيكم به وقد
مر نظائر هذا ومنه قوله تعالى ليبلوكم ايكم احسن عملا وقال صلى الله عليه
وسلم ان الدنيا خضرة حلوة وان الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون
وقال قتادة صدق الله ربنا ما جعلنا خلفاء الا لينظر الى اعمالنا فاروا
الله من اعمالكم خيرا بالليل والنهار قال الزجاج وموضع كيف نصب بقوله
تعملون اي لا معمول ننظر لانها حرف استفهام والاستفهام لا يعمل فيه ما قبله
لان له صدر الكلام فلا يتقدمه عامله وظاهر كلامه ان كيف مفعول
لتعملون وجمهور النحاة على انه حال من ضمير تعملون واذا تتلى عليهم اي واذا
قرئ على هولاء المشركين اياتنا اي القرآن الذي انزلناه اليك يا محمد حالة
كون تلك الايات بينات اي ظاهرات تدل على وحدانيتنا وصحة نبوتك
قال الذين لا يرجون لقاءنا اي لا يخافون عذابنا ولا يرجون ثوابنا لانهم لا يؤمنون
بالبعث بعد الموت وكل من كان منكرا للبعث بعد الموت فانه لا يرجو ثوابا
ولا يخاف عقابا ائت من عندك بقرآن اي كلام مجموع جامع لما يريد
بقرآن في نظمه ومعناه او بدله بالفاظ اخرى والمعاني باقية وقد غير هذا
كانوا عالمين بانه صلى الله عليه وسلم مثلهم في العجز عن ذلك ولكنهم قصدوا
انه ياخذ في التغيير حرصا على اجابة مطلوبهم فيبطل ما ادعاه او يهلك ۝
واختلف في هذا القائل فقال قتادة هم مشركوا اهل مكة وقال مقاتل
هم خمسة نفر عبد الله بن امية المخزومي والوليد بن المغيرة ومكرز بن حفص
وعمرو بن عبد الله بن ابي قيس العامري والعاصي بن عامر بن هشام قالوا
للنبي صلى الله عليه وسلم ان كنت تريد ان نؤمن بك فات بقرآن ليس فيه ترك
لعبادة اللات والعزى ومناة وليس فيه عيبها وان لم ينزلها الله فقل
انت من عند نفسك او بدله فاجعل مكان اية عذاب اية رحمة او مكان حرام

حلالا

حلالا او مكان حلال حراما ولما كان كانه قيل فماذا اقول لهم قال الله تعالى قل لهم ما يكون
اي ما يصح لي ولا يتصور بوجه من الوجوه ان ابدله من تلقاء اي من قبل نفسي وانما
اكتفى بالجواب عن التبديل لاستلزام امتناعه امتناع الاتيان بقرآن اخر وقرا
نافع وابو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون ان اي ما اتبع الا ما يوحى الي فيما امركم به
وانهاكم عنه اي لا اتي بشيء ولا اذر شيئا من نحو ذلك الا اتباعا لوحي الله تعالى
واوامره ان نسخت اية تبعت النسخ وان بدلت اية مكان اية تبعت التبديل
وليس الي تبديل ولا نسخ اني اخاف ان عصيت ربي اي بتبديله عذاب يوم عظيم
فاني مؤمن به غير مكذب ولا شاك كغيري ممن يتكلم الهذيان بما لا يخاف عاقبته في
ذلك اليوم الذي تذهل فيه كل مرضعة عما ارضعت وقرا نافع وابن كثير وابو عمرو
ربي واني بفتح الياء والباقون بالسكون قل يا محمد لهولاء المشركين الذين طلبوا
منك تغيير القرآن وتبديله لو شاء الله ما تلوته عليكم اي لو شاء الله لم ينزل
هذا القرآن ولم يامرني بقراءته عليكم ولا ادراكم به ولا اعلمكم به على لساني
وقرا ابن كثير بخلاف عن البزي بقصر الهمزة بعد اللام جواب لو اي لاعلمكم
على لسان غيري والباقون بالمد المنفصل وقوله تعالى فقد لبثت اي مكثت
قراءة نافع وابن كثير وعاصم باظهار الثاء عند التاء والباقون بالادغام
فيكم عمرا سنين اربعين من قبله اي قبل ان يوحى الي هذا القرآن لا اتلوه
ولا اعلمه وفي ذلك اشارة الى ان هذا القرآن معجز خارق للعادة وتقريره
ان اولئك الكفار كانوا شاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من اول
عمره الى ذلك الوقت وكانوا عالمين باحواله وانه ما طالع كتابا ولا تلمذ لاستاذ
ولا تعلم من احد ثم بعد انقراض اربعين سنة على هذا الوجه جاءهم بهذا
الكتاب العظيم المشتمل على نفائس علوم الاصول ودقائق علم الاحكام
ولطائف علم الاخلاق واسرار قصص الاولين وعجز عن معارضته العلماء والبلغاء
والفصحاء وكل من له عقل سليم فانه يعرف ان مثل هذا لا يحصل الا بالوحي
والالهام من الله تعالى افلا تعقلون اي فلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكر
لتعلموا ان مثل هذا الكتاب العظيم على من لم يتعلم ولم يتلمذ ولم يطالع كتابا ولم
يمارس لا يكون الا على سبيل الوحي من الله تعالى لا من مثلي وهذا جواب عما
دسوه تحت قولهم ائت بقرآن غير هذا من اضافة الافتراء اليه تنبيه
اقام صلى الله عليه وسلم بعد ان اوحي اليه بمكة ثلاث عشرة سنة ثم هاجر
فاقام بالمدينة عشر سنين وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة قال
النووي ورد في عمره صلى الله عليه وسلم ثلاث روايات احداها انه توفي صلى الله
عليه وسلم وهو ابن سبعين سنة والثانية خمس وستون سنة والثالثة ثلاث
وستون سنة وهي اصحها واشهرها وتاول رواية ستين بان راويها اقتصر
فيها على العقود وترك الكسر ورواية الخمس ايضا متاولة وحصل فيها اشتباه

أحد
ولما اقيمت الدلايل على ان هذا القران من عند الله وجب ان يقال انه ليس في الدنيا اجهل
ولا اظلم على نفسه من منكري ذلك كما قال تعالى فمن اي لا احد اظلم ممن افترى
اي تعمد على الله كذبا اي اي كذب كان من شريك او ولدا وغير ذلك وكان الاصل مبنى
على تقدير ان لا يكون هذا القران من عند الله ولكنه وضع هذا الظاهر مكانه
تعميما وتعليقا للحكم بالوصف او كذب باياته اي دلايل توحيده فكفر بها كما
فعلتم انتم وذلك من اعظم الكذب وقوله تعالى انه اي الشان لا يفلح بوجه
من الوجوه المجرمون اي المشركون تاكيد لما سبق من هذين الوصفين
ويعبدون اي هولاء المشركون من دون الله اي غيره ما لا يضرهم اي ان لم
يعبدوه ولا ينفعهم اي ان عبدوه وهو الاصنام لانها حجارة وجماد لا
تضر ولا تنفع والكفار قادرون على التصرف فيها تارة بالاصلاح وتارة بالافنا
واذا كان العابد اصلح حالا من المعبود كانت العبادة باطلة لان العبادة اعظم
انواع التعظيم فلا تليق الا بمن يضر وينفع بان يثيب على الطاعة ويعاقب على المعصية
وكان اهل الطايف يعبدون اللات واهل مكة يعبدون العزي ومناة وهبل
واسافا ونايلة ويقولون هولاء اي الاصنام التي نعبدها شفعاونا عند الله
ونظيره قوله تعالى اخبارا عنهم ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى وقيل
انهم وضعوا هذه الاصنام والاوثان على صور انبيايهم واكابرهم وزعموا انهم متى
اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل فان هولاء الاكابر يكونون شفعا لهم عند الله وقال
الرازي ونظيره في هذا الزمان اشتغال كثير من الخلق بتعظيم قبور الاكابر على اعتقاد
انهم اذا عظموا قبورهم فانهم يكونوا شفعا لهم عند الله انتهي ولكن تعظيمهم لهولاء
ليس كتعظيم الكفار وفي هذه الشفاعة قولان احدهما انهم يزعمون انها تشفع
لهم فيما يهمهم من امور الدنيا في اصلاح معايشهم قاله الحسن لانهم كانوا لا
يعتقدون بعث الموت والثاني انهم يزعمون انها تشفع لهم في الاخرة ان يكون
بعث قاله ابن جريج عن ابن عباس وكلهم كانوا شاكين فيه وهذا من فرط جهالتهم
حيث عبادة موجدهم الضار النافع الى عبادة ما لم يعلم قطعا انه لا يضر ولا ينفع
على توهم انه ربما يشفع لهم قاله النضر بن الحارث اذا كان يوم القيمة تشفع
اللات والعزي وقوله تعالى قل يا محمد لهولاء المشركين اتنبئون الله اي اتخبرون
الله وهو العالم بكل شي المحيط بكل محيط بما لا يعلم اي بما لا يوجد له به
علم في وقت من الاوقات استفهام انكار تهكم بهم وبما ادعوه من المحال الذي هو
شفاعة الاصنام واعلامه بان الذي انبأوا به باطل غير منطو تحت الصحة
فكانهم يخبرونه بشي لا يتعلق به علمه وقوله تعالى في السموات ولا في الارض تاكيد
لنفيه لان ما لم يوجد فيهما منتف معدوم وهذا على طريق الالزام والمقصود
نفي علم الله بذلك التشفيع وانه لا وجود له البتة لانه لو كان موجودا لكان
معلوما لله تعالى وحيث لم يكن معلوما لله تعالى وجب ان لا يكون معلوما موجود

وهذا مثل مشهور في العرب فاذا الانسان اذا اراد نفي شي عن نفسه يقول ما علم الله
مني ذلك ومقصوده انه ما حصل ذلك الشي منه قط ولا وقع سبحانه اي تنزيها
له عن كل شايبة نقص وتعالى عما يشركون ما مصدرية او موصولة اي عن اشرا
كهم
او عن الشركا الذين يشركونهم به وقرا حمزة والكسايي بالتاء على الخطاب لقوله
اتنبئون الله والباقون بالياء على الغيبة فكانه قيل للنبي صلى الله عليه وسلم قل
انت سبحانه وتعالى عما يشركون ويجوز ان يكون الله سبحانه وتعالى هو الذي نزه
نفسه عما قالوه فقال سبحانه وتعالى عما يشركون ولما اقام الله تعالى الدلالة
الباهرة على فساد القول بعبادة الاصنام بين السبب في كيفية حدوث هذا
المذهب الفاسد بقوله وما كان الناس الا امة واحدة اي جميعا على الدين
الحق وهو دين الاسلام وقيل على الضلال في فترة الرسل واختلف القايلون
بالاول انهم متى كانوا كذلك فقال ابن عباس ومجاهد كانوا على دين الاسلام من لدن ادم
الى ان قتل قابيل هابيل وقال قوم الى زمن نوح فبعث الله تعالى اليهم نوحا وقال
اخرون كانوا على دين الاسلام من زمن نوح بعد الغرق حيث لم يذر الله على الارض
من الكافرين ديارا الى ان ظهر الكفر فيهم وقال اخرون من عهد ابراهيم عليه
السلام الى زمن عمرو بن لحي وهذا القايل قال المراد من الناس في قوله تعالى
وما كان الناس الا امة واحدة العرب خاصة فاختلفوا بان ثبت بعض وكفر
بعض ولولا كلمة سبقت من ربك وهو تاخير الحكم الى يوم القيامة وقيل تلك
الكلمة هي قوله سبحانه وتعالى سبقت رحمتي غضبي فلما كانت رحمته
غالبة اقتضت تلك الرحمة الغالبة اسبال الستر على الجاهل الضال
وامهاله الى وقت الوجدان لقضي بينهم اي الناس بنزول العذاب في الدنيا
دون يوم القيامة فيما فيه يختلفون باهلاك المبطل وابقاء المحق
وكان ذلك فصلا بينهم ويقولون اي كفار مكة لولا اي هلا انزل عليه اي
محمد صلى الله عليه وسلم اية من ربه اي ما جابه كما كان للانبيا من الناقة
والعصى واليد فقل يا محمد لهولاء الكفرة المعاندين انما الغيب اي ما
غاب عن العباد امره لله اي هو المختص بعلمه ومنه الايات فلا ياتي بها الا
هو وانما علي التبليغ فانتظروا اي نزول ما اقترحتموه وقيل نزول العذاب
ان لم تؤمنوا اني معكم من المنتظرين اي لما يفعل الله بكم لعنادكم وجحودكم الايات
وكفى بالقران وحده اية باقية على وجه الدهر بديعة في الايات رفيعة المسلك
بين المعجزات مع عجزكم عن معارضته بتبديل او غيره فاي عناد اعظم من هذا واذا
اذقنا الناس اي كفار مكة رحمة اي صحة وسعة من بعد ضرا اي شدة وبلا
مستهم سلط الله تعالى القحط سبع سنين على اهل مكة حتى كادوا يهلكون
ثم رحمهم فانزل عليهم المطر الكثير حتى اخصبت البلاد وعاش الناس بعد ذلك
فلم يتعظوا بعد ذلك بل رجعوا الى العناد والكفر كما قال تعالى اذا لهم مكر

فلا ياتنا بالاستهزا والتكذيب وقيل لا يقولون هذا من رزق الله انما يقولون سقينا
بنوء كذا وعن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه ان الله ليصبح القوم بالنعمة ويمسيهم بها
فيصبح طائفة منهم بها كافرين يقولون مطرنا بنوء كذا والنوء عند العرب هي منازل
القمر اذا طلع نجم سقط نظيره قل الله اي قل لهم يا محمد الله اسرع مكرا منكم اي العجل
الحفظة الكرام الكاتبين عقوبة واشد اي لانهم وكلوا بكم اخذوا واقدر على
الجزا وتبين الوصف بالاسرعية انه قضي بعقابهم قبل تدبيرهم مكايدهم والمكر
اخفا الكيد وهو من الله تعالى اما الاستدراج اي الجزا على المكر فانهم لما قابلوا نعمة
الله بالمكر قابل مكرهم باشد منه وهو امهالهم الى يوم القيامة ان رسلنا اي
الحفظة الكرام الكاتبين يكتبون ما تمكرون لانهم وكلوا بكم قبل كونكم نطفا ولم
يوكلوا بكم الا بعد علم موكلهم بكل ما تفعلونه ولا يكتبون مكركم الا بعد اطلاعهم
عليه واما هو سبحانه وتعالى فانه اذا اقتضى قضا لا يمكن ان يطلع عليه رسله اي لا
باطلاعهم فكيف بغيرهم واذا تبين انه عالم بامورهم وهم جاهلون بامورهم علم
انه لا يدعهم يدبرون كيدا الا وقد سبب له ما يجعله في نحورهم وقرا ابو عمرو
بسكون السين والباقون بالرفع ثم اخذ سبحانه وتعالى يبين ما يتضح به اسرعية
مكره في مثال دال على ما في الاية قبلها لان المعنى الكلي لا يصل الى افهام السامعين
ولا يذكر مثال جلي واضح يكشف عن حقيقة ذلك المعنى الكلي فقال تعالى هو
الذي يسيركم اي يحملكم على السير في كل وقت تسيرون فيه على تقدرون على الانفكاك
عنه ويمكنكم منه في البر والبحر اي يسبب لكم اسبابا توجب مسيركم فيهما
وقرا ابن عامر بعد الياء الاولى بنون ساكنة بعدها شين معجمة مضمومة ○
والباقون بسين مهملة مفتوحة بعدها يا مكسورة مشددة ولما كان العطب
بسير البحر اظهر مع ان السير فيه من اكبر الايات واوضح البينات بينه موضحا عن
ذكر البر بقوله تعالى حتى اذا كنتم في الفلك اي السفن فان قيل كيف جعل
الكون في الفلك غاية للسير في البحر مع ان الكون في الفلك متقدم لا محالة على
التسير في البحر اجيب بانه لم يجعل الكون في الفلك غاية للسير بل تقدير
الكلام كانه قيل هو الذي يسيركم حتى اذا وقع في جملة التسيرات الحصول
في الفلك كان كذا وكذا ولفظ الفلك يطلق على الواحد وعلى الجمع فان اريد
الواحد كان كقفل او الجمع كان كحمر والمراد هنا الجمع لقوله تعالى وجرين
بهم اي فيها وعدل عن الخطاب الى الغيبة للمبالغة كانه يذكر لغيرهم حالهم
ليعجبهم منها ويستدعي منهم الانكار والتقبيح والالتفات في الكلام من الغيبة
الى الحضور والعكس في فصيح كلام العرب بريح طيبة اي لينة الهبوب
وفرحوا بها اي بتلك الريح وبالفلك الجارية بها وقوله تعالى جاءتها جواب
اذا والضمير للفلك او للريح الطيبة بمعنى قلعتها بمعنى تلقتها ريح عاصف
اي شديدة الهبوب فازعجت سفنهم واسالتهم وجاءهم الموج اي وجاء

٣ اي كونا لاجراح تلكم منهم

ركاب

ركاب لسفينة الموج وهو ما ارتفع وعلا من اضطراب الما في البحر وقيل هو شدة حركة الما
واختلاطه من كل مكان اي يعتاد مجي الموج منه فارجف قلوبهم وظنوا انهم احيط بهم
اي فظنوا ان الهلاك قد احاط بهم وسدت عليهم مسالك الخلاص كمن احاط
بهم العدو دعوا الله مخلصين له الدين اي من غير اشراك به لانهم لا
يدعون حينئذ غيره لان الانسان في هذه الحالة لا يطمع الا في فضل الله ورحمته
ويصير منقطعا عن جميع الخلق ويصير بقلبه وروحه وجميع اجزائه متضرعا
الى الله تعالى وقوله تعالى لئن انجيتنا من هذه الشدايد التي نحن فيها وهي الريح العاصف
والامواج الشديدة لنكونن من الشاكرين على ارادة القول او مفعول دعوا
لانه من جملة القول اي لنكونن من الشاكرين لك بالايمان والطاعة على انعامك
علينا بانجائنا مما نخاف من هذه الشدة فلما انجاهم اهولا الذين ظنوا انه
احيط بهم من الشدة التي كانوا فيها اجابة لدعائهم اذا هم يبغون اي فاجاوا الفساد
واسرعوا الى ما كانوا عليه من الكفر والمعاصي في الارض اي جنسها بغير الحق فان
قيل البغي لا يكون بحق فما معنى قوله بغير الحق اجيب بانه قد يكون بحق كاستيلا
المسلمين على ارض الكفرة وهدم دورهم واحراق زروعهم وقطع اشجارهم كما فعل
صلى الله عليه وسلم ببني قريظة فان ذلك افساد بحق قال صاحب الفرائد
البغي على ضربين احدهما غير محمود وهو مجاوزة الحق الى الباطل والى الشبهة اي
والاخر كفعل المسلمين ما ذكر يا ايها الناس انما بغيكم اي ظلمكم على انفسكم
لعود وباله عليها خاصة قال صلى الله عليه وسلم اسرع الخير ثوابا صلة الرحم
واعجل الشر عقابا البغي واليمين الفاجرة وروي ثنتان يعجلهما الله في الدنيا
البغي وعقوق الوالدين وعن ابن عباس لو بغى جبل على جبل لاندك الباغي
وكان المامون يتمثل بهذين البيتين

يا صاحب البغي ان البغي مصرعة * فاربع فخير فعال الخير اعدله
فلو بغى جبل يوما على جبل * لاندك منه اعاليه واسفله

وعن محمد بن كعب ثلاث من كن فيه كن عليه البغي والنكث والمكر وعلى تقدير
الانتفاع بالبغي هو عرض زايل كما قال تعالى متاع الحياة الدنيا اي لا
بقا لها لكم بغي بعضكم على بعض الا اياما قليلة وهي مدة حياتكم مع قصرها وسرعة
انقضائها ثم الينا اي بعد البعث مرجعكم في القيامة فننبئكم اي
فنخبركم بما كنتم تعملون في الدنيا من البغي والمعاصي فنجازيكم عليها وقرا
حفص متاع بنصب العين على انه مصدر موكد اي تتمتعون متاع الحياة الد
انبعه بمثل عجيب ضربه والباقون بالرفع على انه خبر بغيكم وعلى انفسكم صلته
او انه خبر مبتدا محذوف وتقديره ذلك متاع الحياة الدنيا وعلى انفسكم خبر بغيكم
ولما قال تعالى يا ايها الناس انما بغيكم على انفسكم متاع الحياة الدنيا اتبعه بمثل
عجيب ضربه لمن يبغي في الارض ويغتر بالدنيا ويشتد تمسكه بها ويقوى

اعراضه عن امر الآخرة والتأهب لها بقوله تعالى انما مثل الحياة الدنيا اي حالها العجيبة
في سرعة تقضيها وذهاب نعيمها بعد اقبالها واغترار الناس بها والمثل قول سائر
يشبه به حال الثاني بالاول كماء انزلناه وحقق امره وبينه بقوله تعالى من السماء
فاختلط به اي بسببه نبات الارض اي اشتبك بعضه ببعض والاختلاط
تداخل الاشياء بعضها في بعض مما يأكل الناس من الحبوب والثمار ونحو ذلك
ومما يأكل الانعام من الحشيش ونحوه حتى اذا اخذت الارض زخرفها
اي حسنها وبهجتها من النبات وازينت باظهار الوان زهرها من ابيض واصفر
واحمر وغير ذلك من الزهور كالعروس اذا اخذت الثياب الفاخرة من كل لون
فاكتستها وتزينت بغيرها من الوان الزينة واصل ازينت تزينت ابدلت التاء
زايا وادغمت في الزاي وظن اهلها اي تلك الارض انهم قادرون عليها اي متمكنون
من تحصيل جذاذها وحصادها اتاها امرنا اي قضاؤنا من الحر والبرد المفرط
او غيره ليلا او نهارا اي في الليل او في النهار فجعلناها اي زرعها حصيدا
اي كالمحصود بالمناجل وقوله تعالى كأن مخففة اي كأنها لم تغن اي لم تكن بالامس
تلك الزروع والاشجار قائمة على ظاهر الارض وحذف المضاف من فجعلناها
ومن كان لم تكن للمبالغة تنبيه تشبيه الحياة الدنيا بهذا النبات يحتمل وجوها
الاول ان عاقبة هذه الدنيا التي ينفقها المرء في باب الدنيا كعاقبة هذا النبات
الذي حين عظم الرجاء في الانتفاع به وقع اليأس منه لان الغالب ان المتمسك
بالدنيا اذا وضع قلبه عليها وعظمت رغبته فيها يأتيه الموت وهو معنى
قوله تعالى حتى اذا فرحوا بما اوتوا اخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون
اي خاسرون الدنيا وقد انفقوا اعمارهم فيها وخاسرون من الآخرة مع انهم
توجهوا اليها الثاني انه تعالى بين انه لم يكن يحصل لذلك الزرع عاقبة محمودة
فكذلك المغتر بالدنيا المحب لها لا يحصل له عاقبة تحمد مع ان المنافع التي
تحصل فيها مخلوطة بالمضار والمتاعب فان سعادة الدنيا غير خالصة عن
الآفات بل هي ممزوجة بالبليات والاستقراء يدل عليه ولذلك قال
صلى الله عليه وسلم من طلب ما لم يخلق اتعب نفسه ولم يرزق فقيل يا رسول
الله وما هو قال سوء رزق يوم بتمامه الثالث ان مالك ذلك النبات لما عمرها
باتعاب النفس وكد الروح وعلق قلبه على الانتفاع بها فاذا حصل ذلك السبب
المهلك صار العنا الشديد الذي تحمله في الماضي سببا لحصول الشقا الشديد
له في المستقبل وهو ما يحصل له في قلبه من الحسرات فكذا حال من وضع
قلبه على الدنيا واتعب نفسه في تحصيلها فاذا مات وفاته كل ما فات صار العنا الذي
تحمله في تحصيل اسباب الدنيا سببا لحصول الشقا العظيم له في الآخرة كذلك
اي مثل هذا التفصيل الذي ذكرناه نفصل الآيات اي نبينها لقوم يتفكرون
لانهم المنتفعون بها ولما نفر الله تعالى الغافلين عن الميل الى الدنيا بالمثل السابق

رضيهم

رضيهم في الآخرة بقوله والله يدعوا اي تعلق دعاؤه على سبيل التجدد والاستمرار
بالمدعوين الى دار السلام قال قتادة السلام هو الله وداره الجنة وسمي سبحانه
وتعالى السلام لانه واجب الوجود لذاته فقد سلم من الفناء والتغير وسلم في احتياجه
في ذاته وصفاته من الافتقار الى الغير وهذه الصفة ليست الا لله تعالى كما قال
تعالى والله الغني وانتم الفقراء وقال تعالى يا ايها الناس انتم الفقراء الى الله
وقيل السلام بمعنى السلامة وقيل المراد بالسلام الجنة سميت الجنة دار
السلام لان اهلها يحيي بعضهم بعضا بالسلام والملائكة تسلم قال الله
تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم ومن رحمته وجوده وكرمه
على عباده انه دعاهم الى جنته التي هي دار السلام وفيه دليل ان فيها ما لا عين رأت
ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر لان العظيم لا يدعوا الا الى عظيم ولا يوصف
الا عظيما وقد وصف الله تعالى الجنة في آيات كثيرة من كتابه وعن جابر قال
جاءت ملائكة الى النبي صلى الله عليه وسلم وهو نائم فقالوا ان لصاحبكم هذا مثلا
مثله كرجل بنى دارا وجعل فيها مائدة ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل
من المائدة والدار الجنة والداعي محمد صلى الله عليه وسلم والله يهدي من يشاء
من عباده بما يخلق في قلبه من الهداية الى صراط مستقيم وهو دين الاسلام
عمم سبحانه وتعالى بالدعوة اولا اظهارا للحجة وخص بالهداية ثانية اظهارا للقدرة
لان الحكم له في خلقه وقال الجنيد رضي الله عنه الدعوة عامة والهداية خاصة
بل الهداية عامة والصحبة خاصة بل الصحبة خاصة والاتصال خاص وقيل يدعو
بالآيات ويهدي للحقائق والمعارف وقيل الدعوة لله والهداية من الله وقال
بعضهم لا تنفع الدعوة لمن سبق له من الله الهداية للذين احسنوا اي بالايمان
الحسنى اي الجنة وزيادة وهي النظر اليه تعالى في الآخرة كما في الحديث الصحيح
اذا دخل اهل الجنة الجنة نودوا ان يا اهل الجنة فيكشف الحجاب فينظرون
اليه فوالله ما اعطاهم الله شيئا احب اليهم منه والزمخشري في كشافه قال
وهذا زعمت المشبهة والمجبرة لان المعتزلة ينكرون الرؤية ويرد عليهم قول
الله تعالى وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة واثبت الله تعالى لاهل الجنة امرين
احدهما النضارة وهي حسن الوجوه والثاني النظر الى الله تعالى وعن ابن عباس
رضي الله تعالى عنهما وعن الحسن عشر امثالها الى سبعمائة ضعف وعن مجاهد
الزيادة مغفرة من الله ورضوان وعن زيد بن شجرة الزيادة ان تمر السحابة باهل الجنة
فتقول ما تريدون ان امطركم فلا يريدون شيئا الا امطرتهم ولا مانع ان تفسر
الزيادة بذلك كله اذ لا تنافي فيها والفضل واسع ولا يرهق اي يغشى
وجوههم قتر اي سواد ولا ذلة اي كآبة وكسوف فظهر منه الانكسار والهوان
اولئك اصحاب الجنة وقوله تعالى هم فيها خالدون اشارة الى كونها دائمة
آمنة من الانقطاع ولا زوال فيها ولا انقراض بخلاف الدنيا وزخارفها

ولما بين تعالى حال الفضل فيمن احسن بين حال العدل فيمن اسا بقوله تعالى والذين
كسبوا السيئات اي الشرك جزاء سيئة منهم بمثلها بعدل الله من غير
زيادة وفي ذلك اشارة الى الفرق بين الحسنات والسيئات لان الحسنات
يضاعف ثوابها العاملها من الواحد الى العشرة الى السبعمائة الى اضعاف كثيرة تفضلا
منه تعالى وتكرما واما السيئة فانه يجازي عليها بمثلها عدلا منه تعالى وترهقهم
اي تغشاهم ذلة عكس اهل الجنة ما لهم من الله من عاصم اي يعصمهم
يمنعهم من عذاب الله اذا نزل بهم كانما اغشيت وجوههم قطعا
من الليل مظلما لفرط سوادها وقرا ابن كثير والكسائي بسكون الطا اي جزا
والباقون بفتحها جمع قطعة اجزاء اولئك اي هولاء الاشقيا اصحاب النار
هم فيها خالدون لا يتمكنون من مفارقتها واذكر يوم نحشرهم اي الفريقين
الناجين والهالكين العابدين منهم والمعبودين من كل جانب وناحية الى موقف
الحساب حال كونهم جميعا لا يتخلف منهم احد وهو يوم القيمة والحشر الجمع
يكون الى موقف واحد ثم نقول للذين اشركوا مكانكم اي الزموا مكانكم لا
تبرحوا منه حتى تنظروا حتى ما يفعل بكم وقوله تعالى انتم تاكيد للضمير المستتر
في الفعل المقدر ليعطف عليه وشركاؤكم اي من كنتم تعبدونه من دون الله
تعالى فزيلنا اي فرقنا بينهم اي بين المشركين وشركائهم وقطعنا ما كانت
بينهم من التواصل في الدنيا وذلك حين تبرا كل معبود من دون الله من عبدهم
وقيل فرقنا بينهم وبين المومنين كما في اية وامتازوا اليوم ايها المجرمون
والاول انسب بقوله تعالى وقال شركاؤهم لهولا المشركين ما كنتم ايانا تعبدون
اي انما كنتم تعبدون الشياطين حيث امروكم ان تتخذوا لله اندادا واطعتموهم
واختلفوا في المراد بهولاء الشركا فقال بعضهم الملائكة واستشهد بقوله
تعالى ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة اهولاء اياكم كانوا يعبدون ومنهم
من قال هي الاصنام والدليل عليه ان هذا الخطاب مشتمل على التهديد والوعيد
وذلك لا يليق بالملائكة المقربين وسموا شركا لانهم جعلوا ايضا من اموالهم لتلك
الاصنام فصيروهم شركا لانفسهم في تلك الاموال ثم اختلفوا في هذه الاصنام
كيف ذكرت هذا الكلام فقال بعضهم ان الله تعالى خلق الحياة والعقل والنطق فيها
فقدرت على ذكر هذا الكلام وقال اخرون ان الله تعالى خلق فيها الكلام من
غير ان يخلق فيها الحياة حتى سمع منها ذلك الكلام والاول اظهر لان ظاهر
قوله تعالى وقال شركاؤهم يقتضي ان يكون فاعل ذلك القول هو الشركا
فان قيل اذا احياها الله تعالى هل يبقيها او يفنيها اجيب بان الكل محتمل
فان الله تعالى يفعل في خلقه ما يشا واحوال القيامة غير معلومة الا
القليل الذي اخبر الله تعالى عنه في القران وعلى لسان انبيائه عليهم الصلاة والسلام
وقال بعضهم المراد بهولاء الشركا كل من عبد من دون الله من انس وملك وجني

وشمس

وشمس وقمر وصنم وهذا اظهر وعلى هذا والاول سموا شركا لان الله تعالى لما
خاطب العابدين والمعبودين بقوله تعالى مكانكم صاروا شركا في هذا الخطاب ولما
قال لهم شركا وهم ذلك قالوا بل كنا نعبدكم فقال الشركاؤهم فكفى بالله شهيدا بيننا
وبينكم فانه العالم بكنه الحال ان كنا عن عبادتكم لغافلين اي لم نامركم بها ولم
نعلم بها وعلى القول بانها الاصنام فيقول ما كنا نسمع ولا نبصر ولا نعقل لانها
جمادات لا احس لها بشي ولا شعور البتة تنبيه ان هي المخففة من الثقيلة
واللام هي الفارقة بين المخففة والنافية هنالك اي في ذلك الموقف من
المكان العظيم الاهوال المتوالي الزلزال تبلو اي تختبر كل نفس اي طايعة
وعاصية ما اسلفت اي ما قدمت من عمل فتعاين نفعه وضره يؤدي الى سعادة
او شقاوة وقرا حمزة والكسائي بتائين من التلاوة اي تقرا ذكر ما قدمت او
من التلو فيتبع كل شخص عمله الى الجنة او الى النار والباقون بعد التا بباء موحدة
من البلو وهو الاختبار وردوا الى الله اي جزائه اياهم عما اسلفوا فلم يكن
لهم قدرة على قصد غيره مولاهم الحق اي ربهم ومتولي امرهم على الحقيقة ولا
التفات الى ما سواه من تلك الاباطيل بل انقطع رجاؤهم من كل ما يدعون في
الدنيا وهو المراد بقوله تعالى وضل عنهم اي ذهب وبطل وضاع ما كانوا يفترون
اي يتعمدون كذبه من ان معبوداتهم شركا ويشفعوا في ذلك المقام ان تولية غير
الله كان باطلا غير حق ولما بين فضايح عبدة الاوثان اتبعها بذكر الدلايل على
فساد هذا المذهب الحجة الاولى قوله تعالى قل اي قل يا محمد لهولا المشركين من
يرزقكم من السماء بالمطر والارض بالنبات فانحصر الرزق في ذلك اما من السماء
فبنزول الامطار واما من الارض فلان الغذا اما ان يكون نباتا وحيوانا اما النبات
فلا ينبت الا من الارض والحيوان فهو محتاج ايضا الى الغذا ولا يمكن ان يكون
غذا كل حيوان حيوانا اخر والا لزم الذهاب الى ما لا نهاية له وذلك محال فثبت ان
اغذية الحيوانات يجب انتهاؤها الى النبات وثبت ان تولد النبات من الارض
فثبت ان الارزاق لا تحصل الا من السماء والارض ام من يملك السمع اي الاسماع
والابصار اي من يستطيع خلقهما وتسويتهما على الحد الذي سوى عليه من الفطرة
العجيبة عن علي رضي الله عنه كان يقول سبحان من بصر بشحم واسمع بعظم وانطق
بلحم ويحميهما ويحفظهما من الافات مع كثرتهما في المدد الطوال وهما لطيفان
يؤذيهما ادنى شي وحفظه ومن يخرج الحي من الميت كان يخرج الانسان
من النطفة والطائر من البيضة ويخرج الميت من الحي كان يخرج النطفة
من الانسان والبيضة من الطائر وقيل المراد ان يخرج المومن من الكافر والكافر من
المومن وقرا نافع وحفص وحمزة والكسائي ميت في الموضعين بعد الميم بكسر الياء
المشددة والباقون بعد الميم بسكون الياء ومن يدبر الامر اي ومن يلي تدبير الخلايق
وهو تعميم بعد تخصيص وذلك لان اقسام تدبير الله تعالى في العالم السفلي وفي العالم

بكلأته صح

العلوي وبعالم الارواح والاجساد امور لا نهاية لها وذكر كلها كالمتعذر فلما ذكر بعضها لك الا فاصيل عقبها بالكلام الكلي ليدل على الباقي ثم بين تعالى ان الرسول صلى الله عليه وسلم اذا سالهم عن مدبر هذه الاحوال فسيقولون الله اذ لا يقدرون على المكابرة والعناد في ذلك لفرط وضوحه واذا كانوا يقرون بذلك فقل لهم يا محمد افلا تتقون الشرك مع اعترافكم بان كل الخيرات في الدنيا والاخرة انما تحصل من رحمة الله واحسانه فذلكم الله ربكم الحق اي الثابت ربوبيته ثباتا لا ريب فيه واذا ثبت ان هذا هو الحق وجب ان ما سواه يكون ضلالا لان النقيضين يمتنع ان يكونا حقين وان يكونا باطلين فاذا كان احدهما حقا وجب ان يكون ما سواه باطلا كما قال تعالى فماذا بعد الحق الا الضلال اذ لا واسطة بينهما فهو استفهام تقريري اي ليس بعد غيره فمن اخطا الحق وهو عبادة الله تعالى وقع في الضلال ولذلك سبب قوله تعالى فانى اي وكيف ومن اي جهة تصرفون اي تعدلون عن عبادته وانتم تقرون بانه هو الحق كذلك اي كما حقت الربوبية لله تعالى او ان الحق بعده الضلال او انهم مصروفون عن الحق حقت كلمت ربك في الازل على الذين فسقوا اي تمردوا في كفرهم وخرجوا عن حد الاستصلاح وقوله تعالى انهم لا يؤمنون بدل من الكلمة اي حق عليهم انتفاء الايمان وعلم الله منهم ذلك والمراد بكلمة العذاب بالعذاب وهو لاملان جهنم الاية وانهم لا يؤمنون تعليل بمعنى لانهم لا يؤمنون او ذلك تفسير لكلمة التي حقت وقرا نافع وابن عامر كلمة بالالف بعد الميم على الجمع والباقون بغير الف بعد الميم على الافراد الحجة الثانية قوله تعالى قل اي قل يا محمد لهؤلاء هل من شركائكم الذين زعمتموهم شركاء واشركتموهم في اموالكم من انعامكم وزرعكم من يبدؤا الخلق كما بدايه ليصح لكم ما ادعيتم من الشركة ثم يعيده كما كان فان قيل كيف هم غير معترفين بالاعادة فكيف احتج عليهم تعالى بها كالابتداء في الالزام بها اجيب بانها لظهور برهانها وان لم يقروا بها وقع موضع ما ان دفعه دافع كان مكابرا رادا للظاهر البين الذي لا مدخل للشبهة فيه دلالة على انهم في انكارهم لها منكرون امرا مسلما معترفا بصحته عند العقلاء ولذلك امر رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ينوب عنهم في الجواب بقوله تعالى قل الله يبدؤا الخلق ثم يعيده لان لجاجهم لا يدعهم يعترفوا بها فانى اي فكيف تؤفكون عن عبادته مع قيام الدليل فان قيل ما الفائدة في ذكر هذه الحجة على سبيل السؤال والاستفهام اجيب بان الكلام اذا كان ظاهرا جليا ثم ذكر على سبيل الاستفهام كان ذلك ابلغ واوقع في القلب الحجة الثالثة قوله تعالى قل اي يا محمد لهم هل من شركائكم من يهدي الى الحق بنصب الحجج وخلق الاهتداء وارسال الرسل ولما كانوا جاهلين الجواب الحق في ذلك ومعاندين امر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ان يجيب بقوله تعالى

قل الله

قوله الذي له الاحاطة الكاملة يهدي للحق من يشاء لا احد ممن زعمتموه شركا فلا اشتغال بشيء منها بعبادة او غيرها جهل محض قال الزجاج يقال هديت الى الحق وهديت للحق بمعنى واحد فالله تعالى ذكرهما في قوله تعالى من يهدي الى الحق وفي قوله تعالى قل الله يهدي للحق وقوله تعالى افمن يهدي الى الحق وهو الله تعالى احق ان يتبع امن لا يهدي اي يهتدي الا ان يهدى احق ان يتبع استفهام تقرير وتوبيخ اي الاول احق فما لكم كيف تحكمون هذا الحكم الفاسد من اتباع من لا يستحق الاتباع وقوله تعالى وما يتبع اكثرهم فيه وجهان الاول وما يتبع اكثرهم في اقرارهم لله تعالى الا ظنا لانه قول غير مستند الى برهان عندهم بل سمعوه من اسلافهم الثاني وما يتبع اكثرهم الا ظنا في قولهم للاصنام الهة وانها شفعاء عند الله الا الظن حيث قلدوا اباءهم قال الرازي والقول الاول اقوى لانا في القول الثاني نحتاج الى تفسير الاكثر بالكل ان الظن لا يغني من الحق شيئا فيما المطلوب فيه العلم شيئا من الاغناء فدلت هذه الاية على ان من كان ظانا في مسايل الاصول وما كان قاطعا لا يكون مومنا فان قيل فقول اهل السنة انا مومن ان شاء الله يمنع من القطع فوجب ان يلزمهم الكفر اجاب الرازي بان هذا ضعيف من وجوه الاول ان مذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه ان الايمان عبارة عن مجموع الاعتقاد والاقرار والعمل فالشك حاصل في ان هذه الاعمال هل هي موافقة لامر الله تعالى والشك في احد اجزاء الماهية لا يوجب الشك في تمام الماهية الثاني ان الغرض من قوله ان شاء الله بقاء الايمان عند الخاتمة الثالث الغرض هضم النفس وكسرها ان الله عليم اي بالغ العلم بما يفعلون اي من اتباعهم الظن وتكذيبهم الحق اليقين فيجازيهم عليه وقوله تعالى وما كان عطف على قوله ما يكون لي ان ابدله من تلقاء نفسي الخ فهو من مقول القول اي قل لهم ذلك الكلام هذا القران اي الجامع لكل خير مع النادية باساليب الحكمة المعجزة لجميع الخلق ان يفترى اي افتراء من دون الله اي غيره لان المفتري هو الذي ياتي به البشر وكفار مكة زعموا ان محمدا صلى الله عليه وسلم اتى بهذا من عند نفسه فاخبر الله تعالى ان هذا القران وحي انزله عليه وانه مبرا عن الافتراء والكذب وانه لا يقدر عليه احد الا الله ثم ذكر ما يؤكد هذا بقوله تعالى ولكن تصديق الذي بين يديه اي قبله من الكتب التي انزلها على انبيائه كالتوراة والانجيل فثبت بذلك انه وحي من الله انزله على نبيه صلى الله عليه وسلم وانه معجز له فانه كان اميا لا يقرا ولا يكتب ولم يجتمع باحد من العلماء ثم انه صلى الله عليه وسلم اتى بهذا القران العظيم المعجز وفيه اخبار الاولين وقصص الماضين وقيل تصديق الذي القران بين يديه من القيمة والبعث وتفصيل الكتاب اي يبين ما كتب الله من الاحكام وغيرها لا ريب اي لا شك

فيه وقوله تعالى **من رب العالمين** متعلق بتصديق او بانزل المحذوف **ام** اي
بل **يقولون افتراه** اي اختلقه محمد ومعنى الهمزة فيه للانكار **قل** اي قل لهم ان
كان الامر كما تقولون **فاتوا بسورة مثله** في الفصاحة والبلاغة وحسن النظم
فانتم عرب مثله في البلاغة والفطنة فان قيل هل يتناول ذلك جميع السور الصغار
والكبار او يختص بالسور الكبار اجيب بان هذه الاية في سورة يونس وهي مكية
فيكون المراد مثل هذه السورة لانها اقرب ما يمكن ان يشار اليه هكذا اجاب الرازي
والاولى التناول لجميع السور فانهم لا يقدرون ان ياتوا باقصر سورة فان قيل لم قال
في البقرة سورة من مثله وهنا سورة مثله اجيب بانه صلى الله عليه وسلم لم يقرا
ولم يكتب ولم يتلمذ لاحد فقيل في سورة البقرة فاتوا بسورة من مثله بناء على ان الضمير
يرجع للنبي صلى الله عليه وسلم اي فليات انسان يساوي محمدا صلى الله عليه وسلم
في عدم مطالعة الكتب وعدم الاشتغال بالعلوم بسورة تساوي هذه السورة
وحيث ظهر العجز ظهر المعجز فهذا لا يدل على ان السورة في نفسها معجزة ولكنه يدل على
ان ظهور مثل هذه السورة من انسان مثل محمد صلى الله عليه وسلم في عدم التعلم
والتلمذ معجز ثم بين تعالى في هذه السورة ان تلك السورة في نفسها معجزة
فان الخلق وان تلمذوا وتعلموا وطالعوا وتفكروا لا يمكنهم الاتيان بمعارضة سورة
واحدة من هذه السور وهو المراد من قوله تعالى **وادعوا من استطعتم** اي فاستعينوا
بمن امكنكم ان تستعينوا به **من دون الله** اي غيره فان الله تعالى وحده قادر على
ذلك **ان كنتم صادقين** اي فاني اتيت به من عندي لان العاقل لا يجزم بشيء الا
اذا كان عنده منه مخرج وذلك لا يكون الا عن دليل ظاهر وسلطان قاهر باهر
ثم ان مراتب تحدي رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن ستة اولها انه
تحداهم بكل القرآن كما قال تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان ياتوا بمثل
هذا القرآن لا ياتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ثانيها انه تحداهم
بعشر سور فقال تعالى فاتوا بعشر سور مثله مفتريات ثالثها انه تحداهم
بسورة واحدة كما قال تعالى فاتوا بسورة من مثله رابعها انه تحداهم بحديث
مثله خامسها ان في تلك المراتب الاربعة كان يطلب منهم ان ياتي بالمعارضة
رجل يساوي رسول الله صلى الله عليه وسلم في عدم التلمذ والتعلم ثم في
هذه السورة طلب منهم معارضة سورة واحدة من اي انسان سواء تعلم
العلوم ام لم يتعلمها سادسها ان في المراتب المتقدمة تحدى واحدا من الخلق
وفي هذه المرتبة تحدى جميعهم وجوز ان يستعين البعض بالبعض في الاتيان
بهذه المعارضة كما قال تعالى وادعوا من استطعتم من دون الله وهاهنا اخر المراتب
فهذا مجموع الدلائل التي ذكرها الله تعالى في اثبات ان القرآن معجز ثم ان الله تعالى ذكر
السبب الذي لاجله كذبوا بالقرآن فقال تعالى بل كذبوا اي اوقعوا التكذيب
اي لا تكذيب اشنع منه مسرعين في ذلك **بما لم يحيطوا بعلمه** اي القرآن

اول

اول ما سمعوه قبل ان يتدبروا اياته من غير شبهة اصلا بل عنادا وطغيانا ونفورا
مما يخالف دينهم فهو من باب من جهل شيئا عاداه والاحاطة ادارة ما هو
كالحائط حول الشيء واحاطة العلم بالشيء العلم به من جميع وجوهه **ولما ياتهم**
اي الى زمن تكذيبهم **تاويله** اي تاويل ما فيه من الاخبار بالغيوب وعاقبة
ما فيه من الوعيد حتى يتبين لهم انه صدق ام كذب ومعنى التوقع في لما انه قد
ظهر لهم بالاخرة اعجازه لما كرر عليهم التحدي فجربوا قواهم في معارضته
فتصاغرت وضعفت دونها ومع هذا لم يقلعوا عن التكذيب تمردا وعنادا **كذلك**
اي مثل تكذيبهم هذا التكذيب العظيم في الشناعة قبل تدبر المعجزة **كذب الذين**
من قبلهم اي من كفار الامم الماضية فظلموا فاهلكناهم بظلمهم **فانظر** يا محمد
كيف كان عاقبة الظالمين بتكذيب الرسل الى اخر امرهم من الهلاك فكذلك نهلك
من كذبك من قومك وفي ذلك تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ويحتمل ان يكون
الخطاب لكل فرد من الناس والمعنى فانظر ايها الانسان كيف كان عاقبة من ظلم
فاحذر ان تفعل مثل فعله **ومنهم** اي من قومك يا محمد **من يؤمن به** اي القرآن
اي يصدق به في نفسه ويعلم انه حق ولكنه يعاند بالتكذيب **ومنهم من لا يؤمن به**
في نفسه لغباوته وقلة تدبره او منهم من سيؤمن به في المستقبل بان يتوب عن
الكفر ويبدله بالايمان ومنهم من يصر ويستمر على الكفر وانما فسرت هذه الاية
بهذين التاويلين لان كلمة يؤمن تصلح للحال والاستقبال **وربك اعلم بالمفسدين** اي
المعاندين على التفسير الاول والمصرين على التفسير الثاني وفي ذلك تهديد لهم
وان كذبوك اي وان يكذبك يا محمد بعد الزام الحجة **فقل** لهم **لي عملي** من
الطاعة وجزاء ثوابها **ولكم عملكم** من الشرك وجزاء عقابه اي فتبرا منهم فقد
اعذرت والمعنى لي جزاء عملي ولكم جزاء عملكم حقا كان او باطلا **انتم بريئون مما اعمل وانا**
بريء مما تعملون لا تؤاخذون بعملي ولا اؤاخذ بعملكم واختلف في معنى ذلك
فقيل معنى الاية الزجر والردع وقيل بل معناه استمالة قلوبهم وقال مقاتل والكلبي
هذه الاية منسوخة باية السيف قال الرازي وهذا بعيد لان شرط الناسخ
ان يكون رافعا لحكم المنسوخ ومدلول هذه الاية اختصاص كل واحد بافعاله وبثمرة
افعاله من الثواب والعقاب وذلك لا يقتضي حرمة القتال واية القتال ما رفعت
شيئا من مدلولات هذه الاية فكان القول بالنسخ باطلا انتهى ولا ينبغي هذه
المبالغة مع مثل من ذكر وقد تبعهما جماعة من المفسرين ولما قسم تعالى الكفار
على قسمين منهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به قسم من لا يؤمن به قسمين
منهم من يكون في نهاية البغض له والعداوة له ونهاية النفرة عن قبول دينه
ومنهم من لا يكون كذلك فوصف القسم الاول في قوله تعالى **ومنهم** اي من
هؤلاء المشركين **من يستمعون اليك** اذا قرات القرآن وعلمت الشرائع
باسماعهم الظاهرة ولا ينفعهم لشدة عداوتهم وبغضهم لك لان الانسان

اذا قوي بعضه لآخر وعظمت نفرته منه صارت نفسه معرضة عن جميع جهات
محاسن كلامه **افانت تسمع الصم** اي انقدر على اسماعهم **ولو كانوا** مع الصمم
لا يعقلون اي لان الاصم العاقل ربما تفرس واستدل اذا وقع في صماخه
دوي الصوت فاذا اجتمع سلب السمع والعقل جميعا فقد تم الامر فكما انك
لا تقدر على اسماع الاصم الذي لا يعقل لا تقدر على اسماع من اصم الله قلبه
فان الله تعالى صرف قلوبهم عن الانتفاع بما يسمعون ولم يوفقهم لذلك
فشبههم بالصم في عدم الانتفاع بما يتلى عليهم ثم وصف القسم
الثاني في قوله تعالى **ومنهم من ينظر اليك** اي يعاينون دلايل نبوتك ولا
يصدقونك **افانت تهدي العمي** اي اتقدر على هدايتهم **ولو كانوا** مع العمى **لا يبصرون**
اي لا بصيرة لهم لان الاعمى الذي في قلبه بصيرة قد يحدث ويظن فاما العمى
مع الحمق فجهد البلا فلا تقدر على هداية من اعمى الله تعالى بصيرته فهو سلاي
في الياس من ان يقبلوا ويصدقوا فكالصم والعمى الذين لا عقول لهم ولا
بصاير فلا يقدر لهم على اسماعهم وهدايتهم الا الله تعالى تنبيه اختلف
في ان السمع افضل ام البصر فمنهم من قال السمع واحتج على ذلك بامور
منها تقدمه في الاية ومنها ان القوة السامعة تدرك المسموعات
من جميع الجوانب والقوة الباصرة لا تدرك المرئي الا من جهة واحدة
وهي المقابل ومنها ان الانسان لا يستفيد العلم الا من التعلم من الاستاذ
وذلك لا يكون الا بقوة السمع باستكمال النفس بالكمالات العلمية لا تحصل
الا بقوة السمع ومنها ان الانبيا عليهم الصلاة والسلام يراهم الناس
ويسمعون كلامهم فنبوتهم ما حصلت بسبب ما معهم من الصفات
المرئية وانما حصلت بسبب ما معهم من الاحوال المسموعة وهو
الكلام وتبليغ الشرايع وتعليم الاحكام ومنها ان المعنى الذي يمتاز به
الانسان من سائر الحيوانات هو النطق بالكلام وانما ينتفع بذلك بالقوة
السامعة فمتعلق السمع النطق الذي يحصل به شرف الانسان ومتعلق
البصر ادراك الالوان والاشكال وذلك امر مشترك فيه بين الناس وبين
سائر الحيوانات ومنهم من قال البصر واحتج بامور منها ان آلة القوة
الباصرة هي النور وآلة القوة السامعة هي الهوا والنور اشرف من
الهوى ومنها ان جمال الوجه يحصل بالبصر وبذهابه عيبه وذهاب
السمع لا يورث الانسان عيبا في جمال وجهه والعرب تسمي العينين
الكريمتين ولا تصف السمع بمثل هذا وفي الحديث يقول الله تعالى
من اذهبت كريمتيه فصبر واحتسب لم ارض له ثوابا دون الجنة ه
ومنها انهم قالوا في المثل المشهور ليس ورا العيان بيان وذلك يدل
على ان اكمل وجوه الادراكات هو الابصار ومنها ان كثيرا من الانبياء

وبيان صح

سمع الله واختلفوا في انه هل راه منهم احد ام لا وايضا فموسى عليه السلام اسمعه
الله تعالى كلامه من غير سبق سوال والتماس فلما طلب الرؤية قال لن تراني وذلك
يدل على ان حال الرؤية اعلى من حال السماع وهذا هو الظاهر ولما حكم تعالى على اهل
الشقاوة بالشقاوة بقضائه وقدره السابق فيهم اخبر تعالى ان تقدير الشقوة
عليهم ما كان ظلما منه بقوله تعالى **ان الله لا يظلم الناس شيئا** لان الله تعالى
في جميع احواله متفضل وعادل فيتصرف في ملكه في ملكه كيف يشا والخلق كلهم عبيده
وكل من تصرف في ملكه بالفضل والعدل لا يكون ظالما وانما قال تعالى **ولكن الناس
انفسهم يظلمون** لان فعلهم منسوب اليهم بسبب الكسب وان كان قد سبق
قضا الله تعالى وقدره فيهم ففي ذلك دليل على ان للعبد كسبا وانه ليس مسلوب
الاختيار كما زعمت المجبرة وقرا حمزة بكسر النون مخففة ورفع الناس ولما وصف
والباقون بنصب النون مشددة ونصب الناس ولما وصف تعالى هولا الكفار
بقلة الاصغا وترك التدبر اتبعه بالوعيد بقوله تعالى **ويوم يحشرهم** اي
واذكر يا محمد يوم يحشر هولا المشركين لموقف الحساب واصل الحشر اخراج الجما عة
وازعاجهم عن مكانهم **كان** اي كانهم **لم يلبثوا** في دنياهم والجملة في موضع الحال
من ضمير يحشرهم البارز اي مشبهين بمن لم يلبثوا **الا ساعة** حقيرة **من النهار** اي
يستقصرون مدة مكثهم في الدنيا وفي القبور لهول ما يرون **يتعارفون بينهم**
اي يعرف بعضهم بعضا اذا بعثوا ثم ينقطع التعارف لشدة الاهوال والجملة في موضع
الحال حال مقدرة متعلق الظرف والتقدير يتعارفون يوم يحشرهم وقوله تعالى
قد خسر الذين كذبوا بلقا الله اي بالبعث يحتمل وجهين الاول ان يكون على ارادة
القول اي يتعارفون بينهم قائلين ذلك الثاني ان يكون كلام الله تعالى فيكون شهادة
من الله تعالى عليهم بالخسران والمعنى ان من باع آخرته بالدنيا فقد خسر لانه الكثير
الشريف الباقي واخذ القليل الخسيس الفاني **وما كانوا مهتدين** اي الى رعاية مصا لح
التجارة وذلك لانهم اغتروا بالظاهر وغفلوا عن الحقيقة فصاروا كمن راى زجاجة خسيسة
فظنها جوهرة شريفة فاشتراها بكل ما ملكه فاذا عرضها على الناقدين خاب سعيه
وفات امله ووقع في حرقة الروح وعذاب القلب وقوله تعالى **واما** فيه ادغام ان الشرطية
في ما الزايدة **نرينك** يا محمد **بعض الذي نعدهم** به من العذاب في حياتك وجواب
الشرط محذوف اي فذاك **او نتوفينك** قبل ان نريك ذلك الوعد في الدنيا فانك
ستراه في الاخرة وهو قوله تعالى **فالينا** بعد البعث **مرجعهم** نريك هناك ما هو
اقر لعينك واسر لقلبك وقوله تعالى **ثم الله شهيد على ما يفعلون** فيه وعيد
وتهديد لهم اي انه تعالى شهيد على افعالهم التي فعلوها في الدنيا فيجازيهم عليها يوم
القيامة ولما بين تعالى حال محمد صلى الله عليه وسلم مع قومه بين ان حال كل الانبيا
عليهم السلام مع اقوامهم كذلك بقوله تعالى **ولكل امة** اي من الامم التي خلت
قبلك **رسول** يدعوهم الى الله تعالى وقوله تعالى **فاذا جا رسولهم قضي بينهم بالقسط**

في اضمار تقديره فاذا جاء رسولهم فبلغهم ما ارسل به اليهم فكذبه قوم وصدقه
آخرون قضي اي حكم وفصل بينهم بالقسط اي بالعدل وفي وقت هذا القضا
والحكم بينهم قولان احدهما انه في الدنيا بان يهلك الكافرين وينجي رسوله والمومنين
لقوله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا والثاني في الاخرة وذلك ان الله
تعالى اذا جمع الامم يوم القيمة للحساب والفصل بين المومن والكافر والطايع والعاصي
يجي بالرسل لتشهد عليهم لقوله تعالى وجيء بالنبيين والشهدا وقضي بينهم
والمراد منهم المبالغة في اظهار العدل وهو قوله تعالى وهم لا يظلمون في جزا اعمالهم
شيا بل يجازي كل واحد على قدر عمله فكذلك يفعل بهولا ويقولون متى هذا الوعد
الذي تعدنا به يا محمد من نزول العذاب او من قيام الساعة وانما قالوا ذلك على
وجه التكذيب والاستبعاد ان كنتم صادقين اي فيما تعدونا به وانما قالوا بلفظ الجمع
على سبيل التعظيم او خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمومنين او ان كل امة قالوا
لرسولها مثل ذلك وهو الموافق لقوله تعالى ولكل امة رسول قال الله تعالى
قل اي قل لهم يا محمد لا املك لنفسي ضرا من مرض ونقر دفعه ولا نفعا من صحة
او غنى اجلبه الا ما شاء الله ان يقدرني عليه فكيف املك لكم حلول العذاب
او قيام القيامة ولا يقدر على ذلك احد الا الله تعالى لكل امة اجل اي مدة
مضروبة اذا جاء اجلهم اي انقضت مدة اعمارهم فلا يستاخرون اي لا يتاخرون
ساعة ثم عطف على الجملة الشرطية بكمالها ولا يستقدمون اي ولا يتقدمون
اي فلا يستعجلون فان الوفا بالوعد لا بد منه والسين فيهما بمعنى الوجدان
اي لا يوجد لهم المعنى الذي صنع منه الفعل ويجوز ان يكون المعنى لا يجدون
التاخر ولا التقدم وان اجتهدوا في الطلب فيكون في السين معنى الطلب
وتدل الاية على ان احدا لا يموت الا بانقضا اجله وكذا المقتول لا يقتل الا
على هذا الوجه وقرا قالون والبزي وابو عمرو باسقاط الهمزة الاولى وسهل ورش
وقنبل الثانية وابدلها ايضا حرف مد والباقون بالتحقيق قال الله تعالى
قل اي قل لهم يا محمد ايضا ارايتم ان اتاكم عذابه الذي تستعجلون به
بياتا اي في الليل بغتة كما يفعل العدو او نهارا اي وقت انتم فيه
تشتغلون بطلب المعاش والكسب ماذا اي اي شي يستعجل منه
اي من عذابه وعذابه كله مكروه لا يحتمل شي منه المجرمون اي المشركون
وضع المجرمون موضع المضمر للدلالة لانهم لجرمهم ينبغي ان يفزعوا من مجي
الوعيد لا ان يستعجلوه وجملة الاستفهام جواب الشرط محذوف وهو
تندموا على الاستعجال او تعرفوا الخطا فيه اثم اذا ما وقع اي حل بكم امنتم به
اي امنتم بالله او العذاب وقت نزول العذاب وهو وقت الياس والهمزة لانكار
التاخر فلا تقبل منكم وقوله تعالى الآن على ارادة القول اي قيل لهم اذا امنوا
وقت نزول العذاب الآن وقد كنتم به تستعجلون تكذيبا واستهزا تنبيه

انتق

اتفق قالون مع ورش على النقل هنا واتفق القرا كلهم على همزة الوصل التي بعد همزة
الاستفهام ان فيها وجهان وهما البدل والتسهيل وقوله تعالى ثم قيل للذين ظلموا
عطف على قيل المقدر اي من اي قايل كان استهزا بهم وقرا هشام والكسائي باشمام
القاف وهو ان تضم القاف قبل اليا والباقون بالكسر ذوقوا عذاب الخلد اي الذي
تخلدون فيه والاتيان بثم اشارة الى تراخي ذلك عن الاهلاك في الدنيا بالمكث في البرزخ
الذي عذابه ادنى من عذاب يوم الدين هل اي ما تجزون الا بما كنتم تكسبون
في الدنيا من الكفر والمعاصي ويستنبئونك اي يستخبرونك يا محمد احق هو
اي ما وعدتنا به من نزول العذاب وقيام الساعة وهو استفهام على جهة الانكار
والاستهزا قاله حيي بن اخطب لما قدم مكة قل لهم في جوابهم اي وربي انه لحق
اي كاين ثابت لا بد من نزوله بكم تنبيه اي بمعنى نعم وهو من لوازم القسم ولذلك
توصل بواوه في التصديق فيقال اي والله ولا ينطقون به وحده وما انتم بمعجزين
اي بفايتين العذاب لان من عجز عن شي فقد فاته ولو ان لكل نفس ظلمت اي
اشركت ما في الارض من الاموال لافتدت به من عذاب يوم القيمة لم ينفعها
لقوله تعالى ولا يوخذ منها عدل ولا هم ينصرون واسروا الندامة لما راوا العذاب
اي حين عاينوه وابصروه صاروا مبهوتين متحيرين فلم يطيقوا عنده بكا ولا صراخا
سوى اسرار الندم كالحال فيمن ذهب به ليصلب فانه يبقى مبهوتا متحيرا لا ينطق
بكلمة وقيل انهم اخلصوا لله في تلك الندامة ومن اخلص في الدعا اسره وفيه تهكم بهم
وباخلاصهم لانهم انما اتوا بهذا الاخلاص في غير وقته بل كان من الواجب عليهم
ان ياتوا به في دار الدنيا وقت التكليف وقيل المراد بالاسرار الاظهار وهو من الاضداد
لانهم انما اخفوا الندامة على الكفر والفسق في الدنيا لاجل حفظ الرياسة وفي
القيامة بطل هذا فوجب الاظهار وليس هناك تجلد فان قيل اسروا جا على لفظ
الماضي والقيامة من الامور المستقبلة اجيب بانها لما كانت واجبة الوقوع جعل
الله مستقبلها كالماضي وقضي بينهم اي بين الخلايق بالقسط اي بالعدل وهم
لا يظلمون فان قيل لم هذه الاية مكررة اجيب بانها لما كانت واجبة بان
الاولى في القضا بين الانبيا ومكذبيهم وهذه عامة وقيل بين المومنين والكفار
وقيل بين الروسا والاتباع فان الكفار وان اشتركوا في العذاب فلا بد ان يقضي الله
تعالى بينهم لانه لا يمتنع ان يكون قد ظلم بعضهم بعضا في الدنيا وخانه فيكون في ذلك
القضا تخفيف عذاب بعضهم وتثقيل لعذاب الباقين ولا سبيل اليه الا ان يخفف
من عذاب المظلومين ويثقل في عذاب الظالمين وقوله تعالى الا ان لله ما في السموات
والارض تقرير لقدرته تعالى على الاثابة والعقاب الا ان وعد الله اي ما وعد به
على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم من البعث للجزا ومن ثواب الطايع وعقاب
العاصي حق لا شك فيه ولكن اكثرهم اي الناس لا يعلمون اي جاهلون
عن حقيقة ذلك وهم باقون على الجهل معدودون مع البهايم لقصور عقلهم

الا ان الله هو يحيي ويميت اي قادر علي الاحياء والاماتة لا يتعذر عليه شي مما اراد واليه ترجعون بعد الموت للجزا
وقوله تعالي يايها الناس خطاب عام وقيل لاهل مكة قد جاءتكم موعظة من ربكم اي كتاب
فيه ما لكم وعليكم وهو القران وشفاء اي دوا لما في الصدور اي القلوب من
دا الجهل لان دا الجهل اضر للقلب من المرض للبدن وامراض القلب هي الاخلاق الذميمة
والعقايد الفاسدة والجهالات المهلكة والقران مزيل لهذه الامراض كلها لان فيه
المواعظ والزواجر والتخويف والترغيب والترهيب والتحذير والتذكير فهو الشفا
لهذه الامراض القلبية وانما خص تعالي بالذكر لانه موضع القلب وغيره وهو اعز
موضع الانسان لمكان القلب فيه وهدى من الضلالة ورحمة اي اكرام عظيم
للمومنين لانهم هم الذين انتفعوا به دون غيرهم واختلف في تفسير قوله
تعالي قل بفضل الله وبرحمته فقال مجاهد وقتادة فضل الله القران ورحمته
ان جعلنا من اهله وقال ابن عباس والحسن فضل الله الاسلام ورحمته
القران وعن ابي بن كعب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تلى قل بفضل الله
وبرحمته فقال بكتاب الله والاسلام وقال ابن عمر فضل الله الاسلام
ورحمته تزيينه في قلوبنا وقيل فضل الله الاسلام ورحمته الجنة وقيل فضل
الله القران ورحمته السنن ولا مانع ان تفسر الاية بجميع ذلك اذ لا تنافي
بين هذه الاقوال والباء في بفضل الله متعلقة بمحذوف يفسره ما بعده تقديره
قل فليفرحوا بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا والتكرير للتاكيد
والتقرير وايجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوايد
الدنيا فحذف احد المفعولين لدلالة المذكور عليه والفا داخلة لمعنى الشرط
كانه قيل ان فرحوا بشي فليفرحوا بهما فانه لا مفروح به احق منهما هو اي المحدث
عنه من الفضل والرحمة خير مما يجمعون اي من حطام الدنيا ولذاتها الفانية وقرا
ابن عامر بالتا علي الخطاب والباقون باليا علي الغيبة قل يا محمد لكفار مكة
ارايتم اي اخبروني ما انزل اي خلق الله لكم من رزق وانه تعالي
جعل الرزق منزلا لانه مقدر في السما يحصل باسباب منها فجعلتم منه
اي من ذلك الرزق حراما وحلالا وهو مثل ما ذكروه من تحريم السايبة
والوصيلة والحام ومثل قولهم هذه انعام وحرث حجر ومثل قولهم هذه
الانعام خالصة لذكورنا ومحرم علي ازواجنا ومثل قولهم ثمانية ازواج من
الضان اثنين قل لهم يا محمد الله اذن لكم في هذا التحريم والتحليل ام
اي بل علي الله تفترون اي تكذبون علي الله بنسبة ذلك اليه وما ظن
الذين يفترون اي يتعمدون علي الله الكذب اي اي شي ظنهم به يوم القيمة
ايحسبون ان لا يواخذهم ولا يجازيهم علي اعمالهم فهو استفهام بمعنى
التوبيخ والتقريع والتهديد والوعيد العظيم لمن يفتري علي الله الكذب

ان الله

ان الله لذو فضل علي الناس بنعم كثيرة لا تحصي منها انزال الكتب مفصلا فيها ما يرضيه وما
يسخطه ومنها ارسال الرسل عليهم الصلاة والسلام لبيانها بما تحتمله عقول
الخلايق منها ومنها طول امهالهم علي سوء فعلهم ومنها انعامه عليهم بالعقل فكان
شكرهم واجب عليهم ولكن اكثرهم اي الناس لا يشكرون هذه النعم ولا
يستعملون العقل في دلايل الله تعالي ولا يقبلون دعوة انبيايه ولا ينتفعون
باستماع الله كتب الله وقوله تعالي وما تكون خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم
في شان اي عمل من الاعمال وجمعه شوون والضمير في قوله تعالي وما تتلو منه
اما للشان لان تلاوة القران من شان رسول الله صلى الله عليه وسلم بل هو معظم
شانه واما للتنزيل كانه قيل وما تتلو من التنزيل من قران لان كل جزء منه
قران والاضمار قبل الذكر تفخيم له واما لله تعالي والمعنى وما تتلو من الله من قران نازل
عليك وقوله تعالي ولا تعملون من عمل اي اي عمل كان تعميم للخطاب بعد تخصيصه
بمن هو راسهم وهو النبي صلى الله عليه وسلم ولذلك ذكر حيث خص ما فيه
فخامة وهو الشان وذكر حيث عم بقوله تعالي من عمل بما يتناول الجليل والحقير
وقيل ان الكل داخلون في الخطابين الاولين ايضا لانه من المعلوم انه اذا خوطب
رييس القوم كان القوم داخلون في ذلك الخطاب كما في قوله تعالي يايها النبي
اذا طلقتم النسا الا كنا عليكم شهودا اي رقبا نحصي عليكم اعمالكم لان الله تعالي
رقيب علي كل شي وعالم بكل شي اذ لا محدث ولا خالق ولا موجد الا الله تعالي
فكل ما يدخل في الوجود من احوال العباد واعمالهم الظاهرة والباطنة داخل في علمه
وشاهد عليه اذ تفيضون اي الله شاهد عليكم حين تدخلون وتخوضون فيه
اي في ذلك العمل وقيل الافاضة الدفع بكثرة وقال الزجاج اذ تنشرون فيه يقال
افاض القوم في الحديث اذا انتشروا فيه وما يعزب اي يغيب عن ربك بالجهد
من مثقال اي وزن ذرة وهي النملة الحمرا الصغيرة خفيفة الوزن جدا وقيل
المراد بها الهبا وهو الشي المنبث الذي تراه في البيت في ضوء الشمس وقرا الكسائي
بكسر الزاي والباقون بالضم ومن صلة علي القراتين وانما قيد بقوله تعالي في الارض ولا
في السما تقريبا لعقول العامة فان قيل لم قدم ذكر الارض علي السما وقدم ذكر السما
علي الارض في سورة سبا حيث قال لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الارض
فما فايدة ذلك اجيب بان الكلام هنا في حال اهلها والمقصود منه هنا البرهان علي
احاطة علمه علي ان العطف بالواو حكمه حكم التثنيه ولا اصغر من ذلك اي الذرة ولا
اكبر اي منها الا في كتاب مبين اي بين وهو اللوح المحفوظ وقرا حمزة برفع الرايين
اصغر واكبر علي الابتدا والخبر والباقون بالنصب علي ان ذلك اسم لا وفي كتاب خبرها
الا ان اوليا الله اي الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة لا خوف عليهم
من لحوق مكروه ولا هم يحزنون بفوات مامول وفسرهم بقوله تعالي الذين امنوا
وكانوا يتقون الله بامتثال امره ونهيه وهذا الذي فسر الله به الاوليا

لا مزيد عليه وعن علي رضي الله عنه هم قوم صفر الوجوه من السهر عمش العيون من العبر خمص
البطون من الجوى وعن سعيد بن جبير ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل من اولياء الله هم
تعالى فقال هم الذين يذكرون الله برؤيتهم يعني السمت والهيبة وعن ابن عباس لاخبات
والسكينة وعن عمر رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان من عباد الله
عبادا ما هم بانبيا ولا شهدا تغبطهم الانبيا والشهدا يوم القيمة لمكانهم من الله قالوا يا رسول
الله خبرنا من هم وما اعمالهم فلعلنا نحبهم قال هم قوم تحابوا في الله بغير ارحام بينهم ولا
اموال يتعاطونها فوالله ان وجوههم لنور وانهم لعلى منابر من نور لا يخافون اذا خاف الناس
ولا يحزنون اذا حزن الناس ثم قرا الاية ونقل النووي في مقدمة شرح المهذب عن
الامامين الشافعي وابي حنيفة رضي الله تعالى عنهما ان كلا منهما قال اذا لم تكن العلما
اوليا الله فليس لله ولي وذلك في العالم العامل بعلمه وقال القشيري من شرط الولي
ان يكون محفوظا كما ان النبي من شرط النبي ان يكون معصوما فكل من كان للشرع عليه اعتراض
فهو مغرور مخادع فالولي هو الذي توالت افعاله على الموافقة ولما نفى الله عنهم الخوف
والفزع والحزن زادهم فقال تعالى مبينا التولية لهم بعد ان شرع بتوليتهم له **لهم**
البشرى اي الكاملة **في الحياة الدنيا وفي الاخرة** اما البشرى في الدنيا ففسرت باشيا
منها الرويا الصالحة يراها المومن او ترى له وقال صلى الله عليه وسلم ذهبت النبوة
وبقيت المبشرات وقال الرويا الصالحة من الله والحلم من الشيطان فاذا حلم احدكم
حلما يخافه فليتعوذ منه وليبصق عن شماله ثلاث مرات فانه لا يضره وقال الرويا
الصالحة جزء من ستة واربعين جزءا من النبوة ومنها محبة الناس لهم وذكرهم اياه
بالثنا الحسن وعن ابي ذر قال قلت يا رسول الله ان الرجل يعمل العمل لله ويحبه
الناس فقال تلك عاجل بشرى المومن ومنها البشرى لهم عند الموت قال تعالى تتنزل
عليهم الملئكة ان لا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة واما البشرى في الاخرة
فتلقي الملئكة اياهم مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة وما يرونه من بياض وجوههم
واعطا الصحايف بايمانهم وما يقرون منها وسلام الله تعالى عليهم كما قال تعالى
سلام قولا من رب رحيم وغير ذلك من البشارات مما بشر الله به عباده المتقين
في كتابه وعلى السنة انبيايه من جنته وكريم ثوابه فان لفظ البشارة مشتق
من خبر سار يظهر اثره في بشرة الوجه فكل ما كان كذلك دخل في هذه الاية ثم انه تعالى
لما ذكر صفة اوليايه وشرح احوالهم قال تعالى **لا تبديل** اي بوجه من الوجوه
لكلمات الله اي لا تغيير لاقواله ولا اخلاف لمواعيده والكلمة والقول سوا ونظيره
قوله تعالى ما يبدل القول لدي وقوله تعالى **ذلك** اشارة الى كونهم مبشرين
في الدارين **هو الفوز العظيم** هذه الجملة والتي قبلها اعتراض لتحقيق المبشر به
وتعظيم شانه وليس من شرطه ان يقع بعده كلام يتصل بما قبله **ولا يحزنك قولهم**
يا محمد اي هولا المشركين اي لا يغمك تكذيبهم وتهديدهم وتشويرهم
في تدبير هلاكك وابطال امرك وساير ما يتكلمون به في شانك وقرا نافع بضم اليا

ح تقدم ان صلى الله عليه وسلم قال البشرى هي الرويا الصالحة

ذكر

ذكر الزاي من احزنه والباقون بفتح اليا وضم الزاي وكلاهما بمعنى وقوله تعالى **ان**
العزة لله جميعا استيناف بمعنى التعليل كانه قيل ما لي لا احزن فقيل ان العزة
لله جميعا اي ان الغلبة والقهر في مملكة الله لله جميعا لا يملك احد شيا منها لا هم
ولا غيرهم فهو يغلبك وينصرك عليهم قال تعالى لاغلبن انا ورسلي وقال تعالى
انا لننصر رسلنا وقيل ان المشركين كانوا يتعززون بكثرة اموالهم واولادهم وعبيدهم
فاخبر الله تعالى ان جميع ذلك في ملكه فهو قادر على ان يسلب جميع ذلك ويذلهم بعد العز
هو السميع اي البليغ السمع لاقوالهم **العليم** اي المحيط العلم بضمايرهم وجميع احوالهم
فهو البالغ القدرة على كل شي فيجازيهم وهو تعليل التفرد بالعزة لانه تفرد بهذين
الوصفين فانتفيا عن غيره ومن انتفيا عنه كان دون الحيوانات البهم فاني يكون له عز
فان قيل قوله تعالى ان العزة لله جميعا يض وقوله تعالى ولله العزة ولرسوله وللمومنين
اجيب بالمنع لان عزة الرسول والمومنين كلها بالله فهي لله **الا ان لله من في السموات ومن في الا** رض
ملكا وخلقا فان قيل قد ذكر الله تعالى في الاية المتقدمة الا ان لله ما في السموات
والارض بلفظ ما وقال هنا بلفظ من فما فايدة ذلك اجيب بانه تعالى غلب
في الاية الاولى ما لا يعقل على من يعقل لكثرته وفي هذه غلب العاقل على غيره
لشرفه وقيل لمجموع الايتين قال على ان الكل خلقه وملكه وقيل ان المراد بمن
في السموات الملايكة ومن في الارض الثقلان وانما خصهم بالذكر لشرفهم واذا
كان هولا في ملكه وتحت قهره فما لا يعقل منها احق ان لا يكون له ندا وشريكا فهو
كالدليل على قوله تعالى **وما يتبع الذين يدعون** اي يعبدون **من دون الله** اي
غيره اصناما **شركا** على الحقيقة وان كانوا يسمونها شركا تعالى الله عن ذلك
ان اي ما **يتبعون** في ذلك **الا الظن** اي ظنهم انها الهة تشفع لهم وانها
تقربهم الى الله تعالى ثم بين تعالى ان هذا الظن لا حكم به بقوله تعالى **وان** اي ما
هم الا يخرصون اي يكذبون في ذلك ويجوز ان تكون وما يتبع في معنى الاستفهام
اي واي شي يتبعون وشركا على هذا انتصب بيدعون وعلى الاول بيتبعون كانه
وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركا شركا فاقتصر على احدهما للدلالة وقوله
تعالى **هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه** اي ليزول عنكم التعب والكلال فيه
بما تقاسونه في نهاركم من تعب التردد في المعاش **والنهار مبصرا** اي مضيا
تبصرون فيه مطالب ارزاقكم ومكاسبكم تنبيه على كمال قدرته وعظيم نعمته
المتوحد هو بهما ليدلهم على تفرده باستحقاق العبادة واضافة الابصار الى النهار
مع انه يبصر فيه على طريق نقل الاسم من المسبب الى السبب كقوله ليل نايم لان
الليل سببا للسكون قال قطرب تقول العرب اظلم الليل اي صار ذا ظلمة واضا
النهار اي صار ذا ضيا **ان في ذلك** المذكور **لايات** اي دلالات على وحدانيته
تعالى **لقوم يسمعون** سماع اعتبار وتدبر فيعلمون بذلك ان الذي خلق الاشيا
كلها هو الاله المعبود المتفرد بالوحدانية في الوجود ثم ذكر الله تعالى نوعا

من باطيل الكفار بقوله تعالى قالوا اي اليهود والنصارى ومن زعم ان الملائكة بنات الله
اتخذ الله ولدا قال الله تعالى سبحانه اي تنزيها عن الولد هو الغني عن كل احد
وانما يطلب الولد من يحتاج اليه ثم بين تعالى غناه بقوله تعالى له ما في السموات وما في الارض
من ناطق وصامت ملكا وخلقا ولما بين تعالى بالدليل الواضح امتناع ما اضافوا
اليه عطف بالانكار والتوبيخ فقال ان اي ما عندكم من سلطان اي حجة بهذا اي
الذي تقولونه ثم بالغ تعالى في ذلك الانكار عليهم بقوله تعالى اتقولون على الله ما لا تعلمون
حقيقته وصحته وتضيفون اليه ما لا يجوز اضافته اليه تعالى جهلا منكم وهو استفهام
للتوبيخ قل يا محمد لهولاء الذين يختلقون على الله الكذب فيقولون على الله الباطل
ويزعمون ان له ولدا ان الذين يفترون اي يتعمدون على الله الكذب لا يفلحون اي
لا ينجحون في سعيهم ولا يفوزون بالجنة ومن الناس من اذا فاز بشي من المطالب
العاجلة والمقاصد الخسيسة ظن انه قد فاز بالمقصد والله سبحانه وتعالى
ازال هذا الخيال بان قال متاع في الدنيا وفيه اضمار تقديره افتراوهم متاع
في الدنيا يقيمون به رياستهم في الكفر او حياتهم او تقلبهم متاع في الدنيا وهو
ايام يسيرة بالنسبة الى طول مقامهم في العذاب ثم الينا مرجعهم بالموت ثم
نذيقهم العذاب الشديد بعد الموت بما اي بسبب ما كانوا يكفرون ولما ذكر سبحانه
وتعالى في هذه السورة من احوال كفار قريش وما كانوا عليه من الكفر والعناد
شرع بعد ذلك في قصص الانبياء وما جرى لهم مع اممهم وذكر تعالى منهم
في هذه السورة ثلاثة قصص القصة الاولى قصة نوح عليه السلام
المذكورة بقوله تعالى واتل يا محمد عليهم اي كفار قريش نبا اي خبر
نوح وذلك ليكون لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولاصحابه اسوة بمن سلف
من الانبياء فانه صلى الله عليه وسلم اذا سمع ان معاملة هولاء الكفار مع كل
الرسل ما كان الا على هذا الوجه خف ذلك على قلبه كما يقال المصيبة اذا عمت خفت
ولان الكفار اذا سمعوا هذه القصص وعلموا ان الجهال وان بالغوا في ايذاء الانبياء
المتقدمين الا ان الله تعالى اعانهم بالاخرة ونصرهم وايدهم وقهر اعداءهم
كان سماع هولاء الكفار لامثال هذه القصص سببا لانكسار قلوبهم ووقوع
الخوف والوجل في صدورهم ولان الكلام اذا طال في تقرير نوع من انواع العلوم
فربما حصل نوع من انواع الملالة فاذا انتقل الانسان من ذلك الفن من العلم الى فن
آخر شرح الله صدره وطاب قلبه ووجد من نفسه رغبة جديدة وقوة حادثة
وميلا قويا ولانه صلى الله عليه وسلم لما لم يتعلم علما ولم يطالع كتابا ثم ذكر هذه القصص
من غير تفاوت ومن غير زيادة ومن غير نقصان دل ذلك على انه صلى الله عليه
وسلم انما عرفها بالوحي والتنزيل ويبدل من نبا نوح اذ قال لقومه وهم بنو
قابيل يا قوم ان كان كبر اي شق وعظم عليكم مقامي اي لبثي فيكم الف سنة
الا خمسين عاما وتذكيري اي وعظي اياكم بآيات الله اي بحججه وبيناته

فعزمتم

فعزمتم على قتلي وطردي فعلى الله توكلت اي فهو حسبي وثقتي او قيامي على الدعوة
لانهم كانوا اذا وعظوا الجماعة قاموا على ارجلهم يعظونهم ليكون مكانهم بينا وكلامهم
مسموعا كما يحكى عن عيسى عليه السلام انه كان يعظ الحواريين قائما وهم قعود فاجمعوا امركم
اي فاعزموا على امر تفعلونه بي اذاي بالاهلاك او غيره وشركاءكم اي وادعوا شركاءكم
او الواو بمعنى مع اي مع شركائكم وهي الاصنام وانما حثهم على الاستعانة بها بناء على
مذهبهم الفاسد واعتقادهم انها تضر وتنفع مع اعتقاده انها جماد لا تضر ولا تنفع
تبكيتا وتوبيخا لهم ثم لا يكن امركم اي الذي تقصدونني به عليكم غمة اي مستورا
من غمه اذا ستره بل اظهروه وجاهروني مجاهرة فانه لا معارضة لي بغير الله الذي
يستوي عنده السر والجهر ثم اقضوا الي اي امضوا ما في انفسكم وافرغوا منه
يقال قضى فلان اذا مات ومضى وقضى دينه اذا فرغ منه وقيل معناه توجهوا الي بالقتل
والمكروه وقيل فاقضوا ما انتم قاضون وهذا مثل قول السحرة لفرعون فاقض
ما انت قاض اي اعمل ما انت عامل ولا تنظرون اي ولا تؤخرون بعد اعلامكم اياي
ما انتم عليه وانما قال ذلك اظهارا لقلة مبالاته وثقته بما وعده ربه من كلاءته
وعصمته وانهم لن يجدوا اليه سبيلا فان توليتم اي اعرضتم عن تذكيري فما سألتكم
من اجر اي من جعل وعوض على تبليغ الرسالة فيتنفركم عني وتتهموني لاجله
من طمع في اموالكم وطلب اجر على عظتكم ومتى كان الانسان فارغا عن الطمع كان قوله
اقوى تاثيرا في القلب ان اجري الا على الله وهو الثواب اي يثيبني به في الاخرة اي ما
انصحكم الا لوجه الله لا لغرض من اغراض الدنيا وهكذا ينبغي لكل من ينفع الناس
بعلم او ارشاد الى طريق الله تعالى وامرت ان اكون من المسلمين اي اني مامور
بالاستسلام بكل مكروه يصل الي منكم لاجل هذه الدعوة وقيل دين الاسلام
وانا ماض فيه غير تارك له قبلتموه ام لم تقبلوه فكذبوه اي اصروا على
تكذيبه بعد ما الزمهم الحجة وبين ان توليهم ليس الا لعنادهم وتمردهم لا جرم
حقت عليهم كلمة العذاب فنجيناه من الغرق ومن معه في الفلك اي السفينة
وكانوا ثمانين وجعلناهم اي الذين انجيناهم معه في الفلك خلائف في الارض
يخلفون الهالكين بالغرق واغرقنا الذين كذبوا بآياتنا بالطوفان وقوله تعالى
فانظر اي ايها الانسان او يا محمد كيف كان عاقبة المنذرين تعظيم لما جرى
عليهم وتحذير لمن انذرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مثله وتسلية له
وهذه القصة اذا سمعها من صدق النبي صلى الله عليه وسلم ومن كذب به كانت
زجرا للمكلفين من حيث يخافون ان ينزل عليهم مثل ما نزل بقوم نوح وتكون
داعية للمومنين على الثبات على الايمان ليصلوا الى مثل ما وصل اليه قوم نوح وهذه
الطريقة في التحذير والترغيب اذا جرت على سبيل الحكاية عمن تقدم كانت ابلغ
من الوعيد المبتدا وهذا الوجه اكثر تعالى ذكر اقاصيص الانبياء عليهم السلام
ثم بعثنا من بعده اي نوح رسلا الى قومهم لم يسم هنا تعالى من كان بعد نوح

من الرسل وقد كان بعده هود وصالح وابراهيم ولوط وشعيب صلوات الله
وسلامه عليهم فجاؤهم بالبينات اي بالمعجزات الواضحات التي تدل على صدقهم
فما كانوا ليؤمنوا اي فما استقام لهم ان يؤمنوا لشدة عنادهم وخذلان الله تعالى
اياهم بما اي بسبب ما كذبوا به من قبل اي انهم كانوا قبل بعثة الرسل وقبلها
كان لم يبعث اليهم احد كذلك اي مثل ما طبعنا على هولاء بسبب تكذيبهم الرسل
نطبع اي نختم على قلوب المعتدين في كل زمن لكل من تعمد العدو فيما لا يحل لهم
فلا يقبل الايمان لانهماكهم في الضلال واتباعهم المالوف وفي امثال ذلك دليل
على ان الافعال واقعة بقدرة الله تعالى وكسب العبد القصة الثانية قصة موسى
عليه السلام المذكورة بقوله تعالى ثم بعثنا من بعدهم اي هولاء الرسل موسى
وهرون الى فرعون وملائه اي اشراف قومه وغيرهم تبع لهم فهو مرسل الى الجميع
باياتنا التسع فاستكبروا عن اتباعها والايمان بها وهو اعظم الكبر ان
يتمادون العبد برسالة ربهم بعد تبينها ويتعظموا عن قبولها وكانوا قوما مجرمين
اي كفارا ذوي اثام عظام فلذلك استكبروا عنها واجترؤا على ردها فلما جاءهم
الحق اي جا فرعون وقومه من عندنا اي الذي جا به موسى من عند ربه وعرفوا
انه ليس من عند موسى وهرون لتظاهر المعجزات الظاهرات المزيحة للشك
قالوا اي غير متاملين له ولا ناظرين في امره لفرط تمردهم ان هذا لسحر مبين
اي بين ظاهر يعرفه كل احد وهم يعلمون ان الحق ابعد شي من السحر الذي لا
يظهر الا على كافر او فاسق وقوله تعالى قال موسى اتقولون للحق لما جاءكم اسحر هذا
فيه حذف تقديره اتقولون للحق لما جاءكم هو سحر اسحر هذا فحذف السحر الاول
اكتفا بدلالة الكلام عليه ثم قال اسحر هذا وهو استفهام على سبيل الانكار
بمعنى انه ليس بسحر ثم احتج على صحة قوله تعالى فقال ولا يفلح الساحرون فانه لو
كان سحرا لاضمحل ولم يبطل سحر السحرة فقلب العصا حية وفلق البحر معلوم
بالضرورة انه ليس من باب التموية والتخييل فثبت انه ليس بسحر قالوا اي
قوم فرعون لموسى اجئتنا لتلفتنا اي لتردنا وتصرفنا واللفت والفتل
اخوان عما وجدنا عليه اباءنا اي من الدين وعبادة الاصنام ثم قال موسى
وهارون وتكون لكما الكبرياء اي الملك والعز في الارض اي ارض مصر قال
الزجاج سمي الملك كبريا لانه اكبر ما يطلب من امر الدنيا وايضا الملوك موصوفون
بالكبر ولهذا وصف ابن الرقيات مصعبا في قوله

ملكه ملك رافة ليس فيه ۞ جبروت منه ولا كبريا

يعني ما عليه الملوك من ذلك ويجوز ان يقصدوا بذلك ذمهما وانهما ان ملكا ارض
مصر تجبرا وتكبرا كما قال القبطي لموسى عليه السلام ان تريد الا ان تكون جبارا
في الارض وما نحن لكما بمؤمنين اي بمصدقين فيما جئتما به وقال فرعون
لقومه ارادة المناظرة لما اتى به موسى عليه السلام ايتوني بكل ساحر عليم اي بالغ

في السحر لبلا يبقى شي من السحر بناخر البعض وقرا حمزة والكسائي بغير الف بين السين والحا
وتشديد الحا مفتوحة والف بعدها بصيغة فعال دالة على زيادة تمكن فرعون
والباقون بالف بعد السين وتخفيف الحا مكسورة ولا الف بعدها فلما جا السحرة اي
كل من في ارض مصر منهم قالوا لموسى اما ان تلقي واما ان نكون نحن الملقين قال لهم موسى
القوا جميع ما انتم ملقون فان قيل كيف امرهم بالكفر والسحر والامر بالكفر
كفر اجيب بانه انما امرهم بالقا ما معهم من الحبال والعصي التي معهم ليظهر للخلق انما اتوا
به عمل فاسد وسعي باطل على طريق انه عليه السلام امرهم بالسحر فلما القوا ما معهم
من الحبال والعصي وخيلوا بسحرهم اعين الناس انها تسعى قال موسى منكرا عليهم
ما جئتم به السحر قراه ابو عمرو بهمزتين الاولى همزة الاستفهام فهي مفتوحة والثانية
همزة وصل له فيها وجهان التسهيل والبدل فما استفهامية مبتدا وجئتم به خبرها
والسحر بدل منه وقرا الباقون بهمزة وصل فتسقط في الوصل اي الذي جئتم به هو السحر
لا ما سماه فرعون وقومه سحرا ثم اخبر موسى عليه السلام بقوله ان الله سيبطله اي
يهلكه ويظهر فضيحة صاحبه ان الله لا يصلح عمل المفسدين اي لا يثبته ولا يقويه
وقول البيضاوي وفيه دليل على ان السحر افساد وتمويه لا حقيقة له يحمول على ما
يفعله اصحاب الحيل بمعونة الالات والادوية والا فله حقيقة فهو حق عند اهل
السنة وهو علم بكيفية استعدادات تقتدر بها النفوس البشرية على ظهور التاثير
في عالم العناصر ويحق اي يثبت ويظهر الله الحق بكلماته اي بقضايه ووعده
الصادق لموسى عليه السلام وقد اخبر الله تعالى في غير هذه السورة انه كيف ابطل
ذلك السحر وذلك بسبب ان ذلك الثعبان قد تلقف تلك الحبال والعصي
ولو كره المجرمون ذلك ولما بين تعالى ان قوم موسى شاهدوا هذه المعجزات
ومع ذلك لم يؤمن منهم الا القليل كما قال تعالى فما امن لموسى الا ذرية من قومه وانما ذكر تعالى
ذلك تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم لانه كان يغتم بسبب اعراض القوم عنه واستمرار
على الكفر بين تعالى ان له في هذا الباب بسائر الانبيا اسوة لان الذي ظهر من موسى
عليه السلام من المعجزات كان امرا عظيما ومع ذلك فما امن له الا ذرية من قومه والذرية
اسم يقع على القليل من القوم قال ابن عباس الذرية القليل والها التي في قومه ترجع
الى موسى فما امن من قومه الا طايفة من ذراري بني اسرايل كانه قيل الا اولاد من اولاد
قومه وذلك انه دعي الابا فلم يجيبوه خوفا من فرعون واجابته طايفة من ابنايهم مع الخوف
وقيل راجعة الى فرعون والذرية امراته اسية ومومن ال فرعون وخازن فرعون وامراة
خازنه وما شطته على خوف من فرعون وملايهم اي خوف منه لانه كان شديد البطش
وكان قد اظهر العداوة مع موسى واذا علم ميل القوم الى موسى كان يبالغ في ايذايهم فلهذا
السبب كانوا خايفين منه ومن اشراف قومه والضمير لفرعون وجمعه على ما هو المعتاد
في ضمير العظمة لانه ذو اصحاب ياتمرون به وقيل المراد بفرعون اله كما يقال ربيعة
ومضر ان يفتنهم اي يصرفهم ويصدهم عن الايمان وان فرعون لعال اي متكبر

سهم

قاهر في الارض اي ارض مصر وانه لمن المسرفين اي المجاوزين الحد فانه كان من
اخس العبيد وادعي الربوبية واكثر الفساد وكان كثير القتل والتعذيب لبني اسرائيل
وقال موسى لقومه يا قوم ان كنتم امنتم بالله اي صدقتم به وباياته فعليه توكلوا
اي ثقوا به واعتمدوا عليه فانه ناصر اوليائه ومهلك اعدائه ان كنتم مسلمين
اي مستسلمين لقضاء الله تعالى مخلصين له وقيل ان كنتم امنتم بالقلب واسلمتم
بالظاهر فقالوا مجيبين له على الله توكلنا اي عليه اعتمادنا لا على غيره ثم دعوا
ربهم فقالوا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين اي لا تسلطهم علينا فيفتنونا
ونجنا اي خلصنا برحمتك من القوم الكافرين اي من ايدي قوم فرعون لانهم
كانوا يستعبدونهم ويستعملونهم في الاعمال الشاقة وانما قالوا ذلك لانهم
كانوا مخلصين لا جرم ان الله تعالى قبل توكلهم واجاب دعاءهم ونجاهم واهلك من
كانوا يخافونه وجعلهم خلفاء في الارض وفي تقديم التوكل على الدعا تنبيه على
ان الداعي ينبغي ان يتوكل اولا لتجاب دعوته ولما شرح الله تعالى خوف
المومنين من الكافرين وما ظهر فيه من التوكل على الله تعالى اتبعه بان امر موسى
وهرون عليهما السلام باتخاذ البيوت بقوله تعالى واوحينا الى موسى واخيه
اي الذي طلب موازرته ومعاضدته ان تبوءا اي اتخذا لقومكما بمصر بيوتا
تسكنون فيها او ترجعون اليها للعبادة واجعلوا انتما وقومكما بيوتكم اي
تلك البيوت قبلة مصلى او مساجد كما في قوله تعالى في بيوت اذن الله ان
ترفع ويذكر فيها اسمه موجهة نحو القبلة اي الكعبة وكان موسى عليه السلام
يصلي اليها وقرا ورش وابو عمرو وحفص بيوتا وبيوتكم برفع البا والباقون
بالخفض واقيموا الصلاة فيها ذكر المفسرون في كيفية هذه الواقعة
وجوها ثلاثة الاول ان موسى عليه السلام ومن معه كانوا في اول امرهم مامورين
بان يصلوا في بيوتهم خفية من الكفرة لئلا يظهروا عليهم ويؤذوهم ويفتنوهم
عن دينهم كما كان المومنون على هذه الحالة في اول الاسلام بمكة الثاني قيل
انه تعالى لما ارسل موسى اليهم امر فرعون بتخريب مساجد بني اسرائيل
ومنعهم من الصلاة فامرهم الله تعالى ان يتخذوا مساجد في بيوتهم ويصلوا
فيها خوفا من فرعون الثالث انه تعالى لما ارسل موسى اليهم واظهر فرعون تلك
العداوة الشديدة امر الله تعالى موسى وهرون وقومهما باتخاذ المساجد
على رغم الاعداء وتكفل الله تعالى بان يصونهم عن شر الاعدا وقد خص الله
تعالى موسى وهرون في اول هذه الاية بالخطاب بقوله تعالى ان تبوءا لقومكما
لان التبوء للقوم واتخاذ المعابد مما يتعاطاه روس القوم للتشاور ثم عمم
هذا الخطاب فقال واجعلوا بيوتكم قبلة لان جعل البيوت مساجد والصلاة
مما ينبغي ان يفعله كل احد ثم خص موسى عليه السلام في اخر الكلام بالخطاب
فقال تعالى وبشر المومنين اي بالنصر في الدنيا والجنة في العقبى لان

الغرض الاصلي من جميع العبادات حصول هذه البشارة فخص الله تعالى موسى بها
ليدل بذلك على ان الاصل في الرسالة موسى عليه السلام وان هرون عليه السلام
تبع له ثم ان موسى عليه السلام لما بالغ في معجزات اظهار المعجزات القاهرة الظاهرة
لله وراى القوم مصرين على الجحد والعناد والانكار اخذ يدعو عليهم ومن
حق من يدعو على الغير ان يذكر اولا سبب اقدامه على تلك الجرائم وكان جرمهم هو
لاجل حبهم الدنيا تركوا الدين فلهذا السبب قال موسى ربنا انك اتيت فرعون وملاه
اي اشراف قومه على ما هم عليه من الكفر والكبر زينة اي عظيمة يتزينون بها
من الحلية واللباس وغيرهما من الدواب والغلمان واثاث البيت الفاخر ونحو ذلك
واموالا اي كثيرة من الذهب والفضة وغيرهما في الحياة الدنيا روي عن ابن
عباس رضي الله تعالى عنهما كانت له من فسطاط مصر الى ارض الحبشة جبال فيها
معادن من ذهب وفضة وزبرجد وياقوت ثم بين غايتها لهم فقال مفتتحا
بالندا باسم الرب لبعيد وانا عدم من مثل حالهم ربنا اي يا ربنا اتيتهم ذلك
ليضلوا اي في عاقبته انفسهم ويضلوا غيرهم عن سبيلك اي دينك
واللام للعاقبة وهي متعلقة باتيت كقوله تعالى فالتقطه ال فرعون ليكون
لهم عدوا وحزنا وقيل لا كي اي اتيتهم كي تفتنهم وقيل هو دعا عليهم
بما علم من ممارسة احوالهم انه لا يكون غير ذلك وقرا عاصم وحمزة والكسائي
بضم اليا والباقون بالفتح ربنا اطمس على اموالهم اي امسخها وغيرها عن هيئتها
قال قتادة صارت اموالهم وحروثهم وزروعهم وجواهرهم حجارة
وقال محمد بن كعب جعل سكرهم حجارة وقال ابن عباس بلغنا ان الدراهم
والدنانير صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحا وانصافا واثلاثا وارباعا ودعا
عمر بن عبد العزيز بخريطة فيها اشيا من بقايا ال فرعون واخرج منها البيضة
مشقوقة والجوز مشقوقا وانها لحجر وقال السدي مسخ الله اموالهم حجارة
والنخل والثمار والدقيق والاطعمة فكانت احدى الايات التسع واشدد
على قلوبهم اي اطبع عليها واستوثق حتى لا تنشرح للايمان وقوله فلا
يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم جواب الدعا او دعا بلفظ النهي او عطف على
ليضلوا وما بينهما دعا معترض وقوله تعالى قال قد اجيبت دعوتكما فيه وجهان
الاول قال ابن عباس ان موسى كان يدعو وهرون كان يومن فلذلك قال
دعوتكما وذلك ان من يقول عند دعا الداعي امين فهو ايضا داع لان قوله امين
تاويله استجب فهو سائل كما ان الداعي سائل ايضا الثاني ان يكون كل منهما ذكر هذا
غاية ما في الباب ان يقال انه تعالى حكى هذا الدعا عن موسى بقوله تعالى وقال
موسى ربنا وهذا لا ينافي ان يكون هرون قد ذكر الدعا ايضا واما قوله تعالى
فاستقيما اي فامضيا امركما على الدعوة والرسالة والزيادة في الزام الحجة
فقد لبث نوح في قومه الف عام الا خمسين عاما فلا تستعجلا قال ابن جريج



حاصله

ان فرعون لبث بعد هذا الدعا اربعين سنة ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون اي الجاهلين
الذين يظنون انه متى كان الدعا مجابا كان المقصود حاصلا في الحال فربما اجاب الله تعالى
الدعا الانسان في مطلوبه الا انه انما يوصله اليه في وقته المقدور والاستعجال لا
يصدر الا من الجهال وهذا كما قال تعالى لنوح عليه السلام اني اعظك ان تكون من
الجاهلين وهذا النهي لا يدل على ان ذلك قد صدر من موسى عليه السلام كما ان
قوله تعالى لئن اشركت ليحبطن عملك لا يدل على صدور الشرك منه صلى الله عليه
وسلم وقرا ابن ذكوان بتخفيف النون والباقون بتشديدها لان نون التوكيد
تثقل وتخفف ولما اجاب الله تعالى دعاهما امر بني اسرائيل وكانوا ستمائة الف
بالخروج من مصر في الوقت المعلوم ويسر لهم اسبابه وفرعون كان غافلا عن
ذلك فلما سمع انهم خرجوا وعزموا على مفارقة مملكته خرج في عقبهم كما قال تعالى
وجاوزنا اي قطعنا ببني اسرائيل اي عبدنا المخلص لنا البحر حتى بلغوا
الشط حافظين لهم فاتبعهم فرعون وجنوده اي لحقهم وادركهم يقال تبعه
واتبعه اذا ادركه ولحقه بغيا وعدوا اي ظلما وعدوانا وقيل بغيا في
القول وعدوا في الفعل فلما ادركهم فرعون قالوا لموسى اين المخلص والمخرج البحر
امامنا وفرعون وراءنا قد كنا نلقى من فرعون البلا العظيم فاوحى الله تعالى الى
موسى ان اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق لموسى وقومه فكان كل فرق
كالطود العظيم وكشف عن وجه الارض وانتشر لهم البحر فلما وصل فرعون
الى البحر هاب دخوله وكان فرعون على حصان وكان معه في عسكره ثمانمائة
الف حصان على لون حصانه وميكائيل يسوقهم حتى لم يشذ منهم احد
فلما خرج اخر بني اسرائيل من البحر تقدمهم جبريل على فرس وخاض البحر فلما وجد الحصان
ريح الانثى لم يملك فرعون من امره شيئا فنزل البحر واتبعه جنوده حتى اذا كملوا
جميعا في البحر وهموا بالخروج التطم عليهم البحر فلما اتاه الغرق اتى بكلمة
الاخلاص كما قال تعالى حتى اذا ادركه الغرق اي لحقه قال امنت انه اي بانه
لا اله الا الذي امنت به بنو اسرائيل وانا من المسلمين فان قيل انه امن ثلاث مرات اولها قوله
امنت وثانيها قوله لا اله الا الذي امنت به بنو اسرائيل وثالثها قوله وانا من المسلمين
فما السبب في عدم القبول اجاب العلما عن ذلك باجوبة منها انه انما امن عند نزول
العذاب والايمان والتوبة عند معاينة الملئكة والعذاب غير مقبول ويدل عليه قوله
تعالى فلم يك ينفعهم ايمانهم لما راوا باسنا ودس جبريل في فيه من حما البحر مخافة
ان تناله الرحمة وقال له الان تؤمن وقد عصيت قبل وضيعت التوبة
وضيعت التوبة في وقتها واثرت دنياك الفانية على الاخرة الباقية وكنت من
المفسدين بضلالك واضلالك عن الايمان والتوبة حتى اغلق بابها بحضور
الموت ومعاينة الملئكة وانما قال له وكنت من المفسدين في مقابلة قوله وانا من
المسلمين ومنها ان فرعون انما قال هذه الكلمة ليتوصل بها الى دفع ما نزل به من البلية

الحاضرة

الحاضرة لم يكن قصده الاقرار بوحدانية الله تعالى والاعتراف له بالربوبية فلم ينفعه ما
قاله في ذلك الوقت ومنها ان فرعون كان من الدهرية المنكرين لوجود الصانع الخالق
جل وتعالى ولهذا قال امنت انه لا اله الا الذي امنت به بنو اسرائيل فلم ينفعه
ذلك لحصول الشك في ايمانه ومثل هذا الاعتقاد الفاسد لا تزول ظلمته
الا بنور الحجة القطعية والدلايل اليقينية ومنها ما روي في بعض الكتب ان بعض
اقوام بني اسرائيل لما جاوزوا البحر اشتغلوا بعبادة العجل فلما قال فرعون امنت
بالذي امنت به بنو اسرائيل انصرف ذلك الى العجل الذي امنوا بعبادته في
ذلك الوقت فكانت هذه الكلمة في حقه سببا لزيادة الكفر ومنها ان الايمان انما
كان يتم بالاقرار بوحدانية الله تعالى وبالاقرار بنبوة موسى عليه السلام وفرعون
لم يقر بالنبوة لم يصح ايمانه ونظيره ان الواحد من الكفار لو قال الف مرة اشهد ان لا
اله الا الله فانه لا يصح ايمانه الا اذا قال معه واشهد ان محمدا رسول الله فكذا
هنا ومنها ان جبريل عليه السلام اتى فرعون يستفتيه ما قول الامير في عبد
نشا في مال مولاه ونعمته فكفر نعمته وجحد حقه وادعى السيادة دونه
فكتب فرعون فيه يقول ابو العباس الوليد بن مصعب جزا العبد الخارج عن سيده
الكافر بنعمته ان يغرق في البحر ثم ان فرعون لما غرق رفع جبريل عليه السلام اليه خطه
فان قيل ما فايدة دس جبريل في فم فرعون ذلك لانه في تلك الحالة اما ان يكون
التكليف ثابتا ام لا فان كان فكيف يمنعه من التوبة وان كان غير مكلف فلا فايدة
في ذلك اجيب بان التكليف كان ثابتا وجبريل عليه السلام لم يفعل ذلك من
قبل نفسه فانه عبد مامور والله يفعل ما يشا كما قال تعالى فان الله يضل من
يشا ويهدي من يشا وقال تعالى ونقلب افئدتهم وابصارهم كما لم يؤمنوا به اول
مرة وهكذا فعل بفرعون منعه من الايمان عند الموت جزا على تركه الايمان اولا
فدس الحما في فم فرعون من جنس الختم والطبع على القلب ومن الناس من قال قايل
هذا القول هو الله تعالى لانه ذكر بعده فاليوم ننجيك اي نخرجك من البحر
ببدنك اي جسمك الذي لا روح فيه كاملا سويا لم يتغير او نخرجك من
البحر عريانا من غير لباس وان المراد بالبدن الدرع قال الليث البدن هو الدرع
الذي يكون قصير الكمين وهذا القول منقول عن ابن عباس قال كان عليه درع من
ذهب يعرف به فاخرجه الله تعالى من الماء مع ذلك الدرع ليعرف لتكون لمن خلفك
اي بعدك اية اي عبرة فيعرفوا عبوديتك ولا يقدموا على مثل فعلك وعن
ابن عباس ان بعض بني اسرائيل شكوا في موته فاخرج لهم ليروه ويشاهدوه على
ذلك الذل والمهانة بعد ما سمع منه قوله انا ربكم الاعلى ليعلموا ان دعواه كانت
باطلة وان ما كان فيه من عظم الشان وكبر الملك امره الى ما يرون لعصيانه ربه وان
كثيرا من الناس عن اياتنا لغافلون اي لا يعتبرون بها وهذا الكلام ليس الا كلام
الله تعالى ولكن القول الاول اشهر ولقد بوانا اي انزلنا بني اسرائيل مبوا صدق



اي منزلا صالحا مرضيا وهو مصر والشام وانما وصف المكان بالصدق لان من عادة العرب
اذا مدحت شيئا اضافته الى الصدق تقول العرب هذا رجل صدق وقدم صدق
والسبب فيه ان الشيء اذا كان كاملا صالحا لابد ان يصدق الظن فيه وقيل ارض
الشام والقدس والاردن لانها بلاد الخصب والخير والبركة ورزقناهم من الطيبات اي
الحلالات المستلذات من الفواكه والحبوب والالبان والاعسال وغيرها واورث
تعالى بني اسرائيل جميع ما كان تحت ايدي فرعون وقومه من الناطق والصامت والحرث
والنسل كما قال تعالى واورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق
الارض ومغاربها فما اختلفوا اي هولاء الذين فعلنا بهم هذا الفعل من بني اسرائيل
في امر دينهم حتى جاءهم العلم اي جاءهم ما كانوا به عالمين وذلك انهم كانوا قبل
مبعث محمد صلى الله عليه وسلم مقرين به مجمعين على نبوته غير مختلفين فيه لما
يجدونه مكتوبا عندهم وكانوا يخبرون بمبعثه وصفته ونعته ويفتخرون
بذلك على المشركين فلما بعث صلى الله عليه وسلم اختلفوا فيه فآمن به بعضهم
كعبد الله بن سلام واصحابه وكفر به بعضهم بغيا وحسدا وايثارا لبقاء الرياسة
وانهم ما اختلفوا في دينهم الا من بعد ما قرؤوا التوراة وعلموا احكامها ان ربك
يا محمد يقضي بينهم يوم القيامة الذي هو اعظم الايام فيما كانوا اي بافعالهم
الجلية فيه يختلفون اي فيميز الحق من الباطل والصديق من الزنديق هو
ويسكن كلا داره واختلف المفسرون فيمن المخاطب بقوله تعالى فان كنت في
شك مما انزلنا اليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب اي التوراة من قبلك
اي فانه ثابت عندهم يخبرونك بصدقه فقيل هو النبي صلى الله عليه وسلم في
الظاهر والمراد امته كقوله تعالى يا ايها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين
والمنافقين وقوله لئن اشركت ليحبطن عملك وقوله تعالى لعيسى عليه
السلام ءانت قلت للناس اتخذوني وامي الهين من دون الله ومن الامثلة
المشهورة اياك اعني واسمعي يا جارة والذي يدل على صحة ذلك وجوه الاول
قوله تعالى في اخر السورة يا ايها الناس فبين ان ذلك المذكور في اول الاية
على سبيل الرمز هم المذكورون في هذه الاية على سبيل التصريح الثاني انه
صلى الله عليه وسلم لو كان شاكا في نبوة نفسه لكان شك غيره في نبوته
بنفسه اولى وهذا يوجب سقوط الشريعة بالكلية الثالث اذا قدر ان
يكون شاكا في نبوة نفسه فكيف يزول ذلك الشك باخبار اهل الكتاب
عن نبوته مع انهم في الاكثر كفار فثبت ان الخطاب وان كان في الظاهر معه
صلى الله عليه وسلم الا ان المراد هو الامة ومثل هذا معتاد فان السلطان
اذا كان له امير وتحت راية ذلك الامير جمع فاذا اراد ان يامر الرعية
بامر مخصوص فانه لا يوجه خطابه عليهم بل يوجه ذلك الخطاب على ذلك
الامير الذي جعله اميرا عليهم ليكون ذلك ابلغ في قلوبهم وقيل الخطاب

للنبي صلى الله عليه وسلم على حقيقته ولكن الله تعالى علم انه صلى الله عليه وسلم لا
يشك في ذلك الا ان المقصود انه متى سمع هذا الكلام فانه يصرح ويقول
يا رب لا اشك ولا اطلب الحجة من قول اهل الكتاب بل اكتفي بما انزلته علي من الدلائل
الظاهرة وهذا قال صلى الله عليه وسلم لا اشك ولا اسال احدا منهم
ونظير هذا قوله للملائكة اهؤلاء اياكم كانوا يعبدون والمقصود ان يصرحوا بالجواب
الحق ويقولوا سبحانك انت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن وكما قال
لعيسى عليه السلام ءانت قلت للناس اتخذوني وامي الهين من دون الله والمقصود
ان يصرح عيسى عليه السلام بالبراءة عن ذلك فكذلك هنا وقرأ ابن كثير والكسائي
بنقل حركة الهمزة الى السين والباقون بالهمزة وسكون السين وقيل الخطاب
لكل من يسمع اي ان كنت ايها السامع في شك مما انزلنا على لسان نبينا اليك وفيه
تنبيه على ان من خالجته شبهة في الدين ينبغي ان يسارع الى حلها بالرجوع الى
اهل العلم واظهر هذه الاقوال اولها وهذه الاقوال تجري في قوله تعالى لقد جاءك
الحق من ربك اي الايات القاطعة لا مدخل للمرية فيه فلا تكونن من الممترين
اي الشاكين فيه وفي قوله تعالى ولا تكونن من الذين كذبوا بايات الله فتكون من الخاسرين اي
الذين خسروا انفسهم ان الذين حقت عليهم كلمة ربك اي ثبت عليهم قول الله
تعالى الذي كتب في اللوح المحفوظ واخبر به الملائكة انهم لا يؤمنون اي يموتون
كفارا فلا يكون غيره اذ لا يكذب كلامه ولا ينتقض قضاؤه ولو جاءتهم كل اية
فان السبب الاصلي لايمانهم وهو تعلق ارادة الله تعالى به مفقودة فان الدليل
لا يهدي الا باعانة الله تعالى فاذا لم تحصل تلك الاعانة ضاعت تلك الاعانة
ضاعت تلك الدلائل حتى يروا العذاب الاليم فحينئذ لا ينفعهم الايمان كما لم ينفع فرعون
وقرأ نافع وابن عامر كلمات بالالف بعد الميم على الجمع والباقون بغير الف على الافراد القصة
الثالثة قصة يونس عليه السلام المذكورة بقوله تعالى فلولا اي فهلا كانت
قرية واحدة من قرى الامم الماضية التي اهلكناها امنت اي امن اهلها عند
اتيان الايات او عند رؤية اسباب العذاب فنفعها اي فتسبب من ايمانها ذلك
انه نفعها ايمانها بان تقبله الله تعالى منها وكشف العذاب عنها وقوله تعالى الا
قوم يونس استثناء منقطع بمعنى ولكن قوم يونس لما امنوا اي لما اخلصوا الايمان
اول ما راوا اية العذاب ولم يؤخروه الى حلوله كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا
ويجوز ان يكون متصلا والجملة في معنى النفي لتضمن حرف التحضيض معناه كانه
قيل ما امن اهل قرية من القرى الهالكة فنفعهم ايمانهم الا قوم يونس ومتعناهم
الى حين الى انقضاء اجالهم روي عن ابن مسعود وغيره ان قوم يونس كانوا بارض
نينوى من ارض الموصل فارسل الله تعالى اليهم يونس يدعوهم الى الايمان
فدعاهم فابوا فقيل له ان العذاب مصبحهم الى ثلاث فاخبرهم بذلك فقالوا انا
لم نجرب عليه كذبا فانظروا فان بات فيكم تلك الليلة فليس بشيء وان لم يبت

فاعلموا ان العذاب مصبحكم فلما كان في جوف تلك الليلة خرج يونس عليه السلام
من بين اظهرهم فلما اصبحوا تغشاهم العذاب فكان فوق رؤسهم قدر ميل
وقال وهب غامت السماء غيما عظيما اسود هائلا يدخن دخانا عظيما فهبط
حتى غشي مدينتهم واسودت سطوحهم فلما رأوا ذلك ايقنوا بالهلاك فطلبوا
يونس بينهم فلم يجدوه وقذف الله في قلوبهم التوبة فخرجوا الى الصعيد بانفسهم
ونسائهم وصبيانهم ودوابهم ولبسوا المسوح واظهروا الايمان والتوبة
واخلصوا النية وفرقوا بين كل والدة وولدها من الناس والدواب فحن
بعضها الى بعض وعلت اصواتها واختلطت باصواتهم وعجوا وتضرعوا الى
الله تعالى وقالوا امنا بما جاء به يونس عليه السلام فرحمهم الله تعالى واستجاب
دعاهم وكشف عنهم العذاب بعد ما اظلهم وكان ذلك يوم عاشوراء يوم
الجمعة وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه بلغ من توبتهم ان ترادوا المظالم
حتى ان الرجل كان يقلع الحجر وكان قد وضع عليه اساس بنيانه فيرده وقيل
خرجوا الى شيخ من بقية علمائهم فقالوا قد نزل بنا العذاب فما ترى فقال لهم
قولوا يا حي حين لا حي ويا حي محيي الموتى ويا حي لا اله الا انت فقالوها
فكشف عنهم وعن الفضيل بن عياض اللهم ان ذنوبنا قد عظمت وجلت
وانت اعظم منها واجل افعل بنا ما انت اهله ولا تفعل بنا ما نحن اهله وسياتي
بقية القصة ان شاء الله تعالى في سورة الصافات فان قيل قد حكى الله تعالى
عن فرعون انه تاب في اخر الامر ولم يقبل توبته وحكى عن قوم يونس انهم
امنوا وقبل توبتهم فما الفرق بين الحالين اجيب بان فرعون انما تاب بعد ان
شاهد العذاب وهو وقت الياس من الحياة واما قوم يونس فانهم تابوا قبل ذلك
فانهم لما ظهرت امارات دلت على قرب العذاب تابوا قبل ان ينزل بهم ولم يباشرهم
فكانوا كالمريض يخاف الموت ويرجو العافية وان الله تعالى قد علم صدق نياتهم
في التوبة فقبل توبتهم بخلاف فرعون فانه لم يصدق في ايمانه ولا اخلص فلم
يقبل منه قال الله تعالى ولو شاء ربك يا محمد لآمن بك وصدقك من
في الارض كلهم بحيث لم يشذ منهم احد جميعا اي مجتمعين على ذلك وانت
واحدا لا يختلفون في شيء منه ولكن لم يشا ان يصدقك الا من سبقت
له السعادة في الازل وفي هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم فانه كان
حريصا على ايمانهم كلهم فاخبر الله تعالى انه لا يؤمن به الا من سبقت له السعادة
الازلية فلا تتعب نفسك على ايمانهم وهو قوله تعالى افانت تكره الناس اي
الذين لم يرد الله ايمانهم حتى يكونوا مؤمنين اي ليس ايمانهم اليك حتى تكرههم
عليه وتحرص عليه انما ايمان المؤمن واضلال الكافر بمشيئة الله
تعالى وقضائه ليس لاحد ذلك سواه كما قال تعالى وما كان اي وما ينبغي وما
يتاتى لنفس اي واحدة فما فوقها ان تؤمن اي يقع منها ايمان في وقت ما

الا باذن الله اي بارادته لها بالايمان فان هدايتها الى الله هو المضل والمهدي وقال
ابن عباس بامر الله وقال عطاء بمشيئة الله ويجعل الله الرجس اي العذاب والخذلان
فانه بسببه وقرا شعبة وحده بالنون على الذين لا يعقلون اي لا يتدبرون في اياته
فينتفعون بها وهم يدعون انهم اعقل الناس فيتساقطون في مساوي الاخلاق
وهم يدعون انهم ابعد الناس عنها فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ولما بين
الله تعالى في الايات السابقة ان الايمان لا يحصل الا بتخليق الله تعالى ومشيئته
امر بالنظر والاستدلال في الدلايل بقوله تعالى قل انظروا اي قل يا محمد لهؤلاء
المشركين الذين يسالونك الايات ماذا اي الذي في السموات والارض اي من
من الايات وواضح الدلالات من عجايب صنعه ليدلكم على وحدته وكمال قدرته
ففي العالم العلوي الشمس والقمر وهما دليلان على الليل والنهار والنجوم وحركات
الافلاك ومقاديرها واوضاعها والكواكب وما يختص بذلك من المنافع وفي العالم
السفلي الجبال والبحار والمعادن والنبات والحيوان واخصها حال الانسان
كل ذلك من الايات الدالات على وحدانية الله تعالى وانه خالقها كما قال القايل
وفي كل شيء له اية تدل على انه واحد وقرا حمزة وعاصم في الوصل بكسر اللام
والباقون بضمها واما الهمزة من انظروا فكل القراء يبتدئون بالضم وما
تغني الايات اي وان كانت في غاية الوضوح والنذر جمع نذير اي الرسل
عن قوم لا يؤمنون في علم الله وحكمه تنبيه قال النحويون ما هنا تحتمل
وجهين ان تكون نفيا بمعنى ان هذه الايات والنذر لا تفيد الفايدة في حق من
حكم الله تعالى عليه بانه لا يؤمن كقولك ما يغني عنك المال اذا لم تنفق والثاني
ان تكون استفهاما كقولك اي شيء يغني عنك عنهم وهو استفهام بمعنى
الانكار فهل اي ما ينتظرون اي اهل مكة بتكذيبك الا اياما اي وقايع
مثل ايام اي وقايع الذين خلوا من قبلهم اي من مكذبي الامم كالقبط وقوم نوح
وما انطوى بينهما من الامم اي مثل وقايعهم من العذاب قل اي قل لهم يا محمد
فانتظروا اي العذاب اني معكم من المنتظرين اي لنزول العذاب بكم وقوله
تعالى ثم ننجي رسلنا والذين امنوا عطف على محذوف دل عليه قوله تعالى الا مثل ايام
الذين خلوا من قبلهم كانه قيل نهلك الامم ثم ننجي رسلنا ومن امن بهم على حكاية
الاحوال الماضية وقرا ابو عمرو وحده بسكون النون كذلك اي ننجي رسلنا
والذين امنوا معهم من الهلاك كذلك حقا علينا ننج المؤمنين اي ننجيك يا محمد
ومن امن معك وصدقك من الهلاك والعذاب فان قيل قوله تعالى حقا يقتضي
الوجوب والله تعالى لا يجب عليه شيء اجيب بان ذلك حق بحسب الوعد والحكم
لا انه حق بحسب الاستحقاق ولما ثبت ان العبد لا يستحق على خالقه شيء وهو اعتراض
بين المشبه والمشبه به ونصب بفعله المقدر وقيل بدل من كذلك وقرا حفص
والكسائي بسكون النون بسكون النون الثانية والباقون بفتحها واما الوقف

عليها فجميع القراء يقفون على الجيم لانها مرسومة في المصحف بالجيم بلا ياء فهي في القراءات
وقفا ووصلا بلا يا بالجيم القرا ولما ذكر تعالى الدلايل على اقصى الغايات وابلغ النهايات
امر رسوله صلى الله عليه وسلم باظهار دينه فقال قل يا محمد يا ايها الناس اي الذين
ارسلت اليهم فشكوا في امرك ولم يؤمنوا بك ان كنتم في شك من ديني اي الذي ادعوكم
اليه انه حق واصررتم على ذلك وعبدتم الاصنام التي لا تضر ولا تنفع فلا اعبد الذين
تعبدون من دون الله اي غيره وهي الاصنام التي لا قدرة لها على شيء ولكن اعبد الله
الذي يتوفاكم يقبض ارواحكم التي لا شيء عندكم بيدها فانه الذي يستحق العبادة وانما
خص الله تعالى بهذه الصفة للتهديد وقيل انهم لما استعجلوا بطلب العذاب فاجابهم
بقوله ولكن اعبد الله الذي هو قادر على اهلاككم ونصري عليكم وامرت اي باذن
ان اكون من المؤمنين اي المصدقين بما جاء من عند الله وقيل انه لما ذكر العبادة وهي
من اعمال الجوارح اتبعه بذكر الايمان لانه من اعمال القلوب فان قيل كيف قال في شك
وهم كفار يعتقدون بطلان ما جا به اجيب بانه كان فيهم شاكين او انهم لما راو
الايات اضطربوا وشكوا في امره صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى وان اقم وجهك
للدين عطف على ان اكون غير انه صلة ان بحكيه بصيغة الامر ولا فرق بينهما في الغرض
لان المقصود وصلها بما تضمن معنى المصدر ليدل معه عليه وصيغ الافعال
كلها كذلك سوا الخبر منها او الطلب والمعنى وامرت بالاستقامة في الدين والاشتداد
فيه باداء الفرايض والانتها عن القبايح او في الصلاة باستقبال القبلة ونحوها
وقوله حنيفا حال من فاعل اقم او من الدين او من الوجه ومعناه مايلا عن الدين
غير معوج عنه الى دين اخر وقوله تعالى ولا تكونن من المشركين اي ممن يشرك بالله في
عبادته غيره فهذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد غيره اي ولا تكونن ايها
الانسان وكذا قوله تعالى ولا تدع اي تعبد من دون الله اي غيره ما لا ينفعك اي
عبدته ولا يضرك اذا لم تعبده ولا يضرك ذلك فان فعلت فانك اذا لمن الظالمين
لانك وضعت العبادة في غير موضعها والظلم وضع الشيء في غير محله فاذا كان ما
سوى الحق معزولا عن التصرف كان اضافة التصرف الى ما سوى الحق وضعا للشيء
في غير موضعه فيكون ظلما ولما ذكر تعالى الاوثان وبين انها لا تقدر على ضر ولا نفع بين
تعالى انه القادر على كل شيء وانه ذو الجود والكرم والرحمة بقوله تعالى وان يمسسك
ان يصيبك الله بضر كفقر ومرض فلا كاشف اي لا دافع له الا هو لا انه الذي
انزله لك وان يردك بخير كرخا وصحة فلا راد اي دافع لفضله اي الذي ارادك
به يصيب به اي الخير من يشاء من عباده وهو الغفور اي البليغ الستر للذنوب
الرحيم اي البالغ في الاكرام وقرا ابو عمرو وقالون والكسائي بسكون الها والباقون
بالضم فرجح سبحانه وتعالى جانب الخير على جانب الشر من ثلاثة اوجه الاول انه تعالى
لما ذكر امساس بين انه لا كاشف له الا هو وذلك يدل على انه تعالى يزيل المضارات
الاستثنا من النفي اثبات ولما ذكر الخير لم يقل انه يدفعه بل قال انه لا راد لفضله

من الظالمين

وذلك يدل على ان الخير مطلوب بالذات وان الشر مطلوب بالعرض كما قال صلى الله عليه
وسلم عن ربه تعالى انه قال سبقت رحمتي غضبي الثاني انه سبحانه وتعالى قال في صفة
الخير يصيب به من يشاء من عباده وذلك يدل على ان جانب الخير اقوى الثالث انه تعالى
قال وهو الغفور الرحيم وهذا ايضا يدل على جانب الرحمة وحاصل الكلام انه في
هذه الاية بين انه منفرد بالخلق والايجاد والتكوين والابداع وانه لا موجود سواه
ولا معبود الا اياه وان جميع الممكنات مستندة اليه والعقول والهة فيه والرحمة والجود
فايض منه ولما قرر تعالى الدلايل المذكورة في التوحيد والنبوة والمعاد وزين الله هذه
السورة بهذه البيانات الدالة على كونه تعالى مبتدا بالخلق والابداع والتكوين والاختراع
ختمها بهذه الخاتمة الشريفة العالية لئلا يبقى لاحد عذر بقوله تعالى قل يا محمد
يا ايها الناس اي الذي ارسلت اليهم قد جاءكم الحق من ربكم هو رسول الله صلى
الله عليه وسلم جاءكم بالحق من الله تعالى والقران فلم يبق لكم عذر فمن اهتدى اي
امن بالنبي صلى الله عليه وسلم وعمل بما في الكتاب فانما يهتدي لنفسه لانه تبع الحق
وترك الباطل الزايل فانقذ نفسه من النار واوجب لها الجنة ثواب اهتدايه له
ومن ضل اي كفر بها او بشيء منها فانما يضل عليها اي على نفسه لان وبال ضلاله
عليها لان من ترك الباقي وتمسك بما ليس في يده منه شيء فقد غبن نفسه ثم قال
صلى الله عليه وسلم وما انا عليكم بوكيل اي حفيظ موكول الي امركم وانما انا نذير
وبشير قال ابن عباس وهذه الاية منسوخة باية السيف قال الله تعالى
لنبيه واتبع يا محمد ما يوحى اليك بالامتثال والتبليغ واصبر اي على دعوتهم
وتحمل اذيتهم حتى يحكم الله اي ينصرك عليهم ويظهر دينك او بالامر بالقتال
وهو خير الحاكمين اي لا يمكن الخطا في حكمه تعالى لاطلاعه على السراير كاطلاعه
على الظواهر فحكم بقتل المشركين والجزية على اهل الكتاب يعطونها عن يد وهم
صاغرون وانشد بعضهم في الصبر

ساصبر حتى يعجز الصبر عن صبري ۞ واصبر حتى يحكم الله في امري
ساصبر حتى يعلم الصبر انني ۞ صبرت على شيء امر من الصبر

وروي ان ابا قتادة تخلف عن تلقي معاوية حين قدم المدينة وقد تلقته الانصار
ثم دخل المدينة فقال له ما لك لم تلقنا قال لم يكن عندنا دواب قال فاين
النواضح قال قطعناها في طلبك وطلب ابيك يوم بدر وقد قال صلى الله عليه
وسلم يا معشر الانصار ستلقون بعدي اثرة قال معاوية فماذا قال فاصبروا
حتى تلقوني قال فاصبر قال اذا نصبر فقال عبد الرحمن بن حسان ۞

الا ابلغ معاوية بن حرب ۞ امير الظالمين نثا كلامي
بانا صابرون فمنظروكم ۞ الى يوم التغابن والخصام

وقول البيضاوي تبعا للزمخشري عن رسول الله صلى
الله عليه وسلم من قرا سورة يونس اعطي من الاجر عشر حسنات بعدد
من صدق بيونس وكذب به وبعدد من غرق مع فرعون حديث موضوع

سورة هود عليه السلام مكية

الا في الصلاة الاية ولا في قوله تعالى فلعلك تارك الاية واولئك يؤمنون به الاية وهي مائة
وثنتان او ثلاث وعشرون اية وكلماتها الف وسبعماية وخمس عشرة وحروفها
سبعة الاف وخمسماية وخمسة احرف وعن ابي بكر رضي الله عنه قال قلت
يا رسول الله عجل اليك الشيب قال شيبتني هود واخواتها الحاقة والواقعة
وعم يتساءلون وهل اتاك حديث الغاشية بسم الله اي الذي له تمام العلم
وكمال الحكمة وجميع القدرة الرحمن لجميع خلقه بعموم البشارة والنذارة الرحيم
لاهل ولايته بالحفظ في سلوك سبيله وقوله تعالى الر كتاب مبتدا وخبر
او كتاب خبر مبتدا محذوف وتقدم الكلام على اوايل السور اول سورة البقرة
وقرا ابو عمرو وابن عامر وشعبة والكسائي بالامالة والباقون بالفتح وقوله تعالى
احكمت اياته صفة للكتاب وفسر الاحكام بوجوه الاول احكمت اياته اي نظمت
نظما محكما لا يقع فيه نقص ولا خلل كالبناء المحكم المرصف ولا يعتريه اخلال من
جهة اللفظ والمعنى ولا يستطيع احد نقض شيء منه ولا الطعن في شيء من بلاغته
او فصاحته والثاني ان الاحكام عبارة عن منع الفساد من الشيء فقوله احكمت
اياته اي لم تنسخ بكتاب كما نسخت الكتب والشرائع به كما قال ابن عباس والثالث
انها احكمت بالحجج والدلايل او جعلت حكيمة منقول من حكم بالضم اذا صار حكيما
لانها مشتملة على امهات الحكم النظرية والعملية وقوله تعالى ثم فصلت صفة
اخرى للكتاب اي بينت بالاحكام والقصص والمواعظ والاخبار وبالانزال نجما
نجما او فصل فيها وخص ما يحتاج اليه او جعلها سورا وقال الحسن احكمت بالامر
والنهي ثم فصلت بالوعد والوعيد تنبيه معنى ثم في قوله ثم فصلت ليست
للتراخي في الوقت لكن في الحال كما تقول هي محكمة احسن الكلام ثم مفصلة احسن
التفصيل وفلان كريم الاصل ثم كريم الفعل وقوله تعالى من لدن حكيم خبير اي
الله تعالى صفة اخرى للكتاب والتقدير الر كتاب من حكيم خبير او خبر بعد خبر
والتقدير الر من لدن حكيم خبير او صلة لاحكمت وفصلت اي احكمت وفصلت
من لدن حكيم خبير وعلى هذا التقدير قد حصل بين اوايل هذه السورة وبين اخرها
مناسبة لطيفة كانه يقول تعالى بيقول احكمت اياته من لدن حكيم وفصلت
من لدن خبير عالم بكيفيات الامور وقوله تعالى ان لا تعبدوا الا الله يحتمل وجوها
الاول ان يكون مفعولا له والتقدير كتاب احكمت اياته ثم فصلت لاجل ان لا
تعبدوا الا الله الثاني ان تكون مفسرة لان في تفصيل الايات معنى القول
قال الرازي والحمل على هذا اولى لان قوله تعالى وان استغفروا معطوف على قوله
تعالى ان لا تعبدوا فيجب ان يكون معناه اي لا تعبدوا وليكون الامر معطوفا على
النهي فان كونه بمعنى لان لا تعبدوا يمنع عطف الامر عليه الثالث ان يكون كلاما
مبتدا منقطعا عما قبله على لسان النبي صلى الله عليه وسلم اغراء منه على اختصاص

الله تعالى بالعبادة ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم انني لكم منه اي الله
نذير بالعقاب على الشرك وبشير بالثواب على التوحيد كانه قيل ترك عبادة غير
الله تعالى بمعنى الزموها انني لكم منه نذير وبشير كقوله تعالى فضرب الرقاب
تنبيه هذه الاية الكريمة مشتملة على اشيا مرتبة الاول انه تعالى امر ان لا
تعبدوا الا الله لان ما سواه محدث مخلوق مربوب وانما حصل بتكوين الله وايجاده
والعبادة عبارة عن اظهار الخضوع والخشوع ونهاية التواضع والتذلل وذلك
لا يليق الا بالخالق المدبر الرحيم المحسن فثبت ان عبادة غير الله تعالى
منكرة المرتبة الثانية قوله تعالى وان استغفروا ربكم المرتبة الثالثة قوله
ثم توبوا اليه واختلفوا في بيان الفرق بين هاتين المرتبتين على وجوه الاول
ان معنى قوله وان استغفروا اي اطلبوا من ربكم المغفرة لذنوبكم ثم بين
الشيء الذي يطلب به ذلك وهو التوبة فقال ثم توبوا اليه لان الداعي
الى التوبة والمحرك عليها هو الاستغفار الذي هو عبارة عن طلب المغفرة
فالاستغفار مطلوب بالذات والتوبة مطلوبة لكونها من متممات الاستغفار
وما كان اخرا في الحصول كان اولا في الطلب فلهذا السبب قدم ذكر الاستغفار
على التوبة الثاني وان استغفروا من الشرك والمعاصي ثم توبوا اي ارجعوا
اليه بالطاعة الثالث الاستغفار طلب من الله تعالى لازالة ما لا ينبغي
والتوبة سعي من الانسان في ازالة ما لا ينبغي فقدم الاستغفار ليدل على
ان المؤمن يجب عليه ان لا يطلب الشيء الا من مولاه فانه هو الذي يقدر على
تحصيله ثم بعد الاستغفار ذكر التوبة لانها عمل ياتي به الانسان ويتوسل
به الى دفع المكروه والاستعانة بفضل الله تعالى تقدم الاستعانة بسعي
النفس ثم انه تعالى لما ذكر هذه المراتب الثلاثة ذكر بعدها ما يترتب عليها
من الاثار المطلوبة ومن المعلوم ان المطالب محصورة في نوعين لانه اما ان يكون
حصولها في الدنيا او في الاخرة اما المنافع الدنيوية فهي المراد من قوله تعالى
يمتعكم متاعا حسنا اي بطيب عيش وسعة رزق الى اجل مسمى وهو
الموت فان قيل ان النبي صلى الله عليه وسلم قال الدنيا سجن المؤمن وجنة
الكافر وقال ايضا خص البلاء بالانبياء ثم الاولياء ثم الامثل فالامثل
وقال تعالى ولولا ان يكون الناس امة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن
لبيوتهم سقفا من فضة فهذه النصوص دالة على ان نصيب المشتغل
بالطاعات في الدنيا هو الشدة والبلية ومقتضى هذه الاية ان نصيب
المشتغل بالطاعات الراحة في الدنيا فكيف الجمع بينهما اجيب بان المشتغل
بعبادة الله ومحبته مشتغل بحب شيء يمتنع تغيره وزواله وفناؤه فكلما
كان امعانه في ذلك الطريق اكثر وتوغله فيه اتم كان انقطاعه عن الخلق
اتم واكمل وكلما كان الكمال في هذا الباب اكثر كان الابتهاج والسرور اكمل

لانه آمن من فقد مطلوبه وامن من زوال محبوبه واما من كان مشتغلا بغير الله كان ابدا في ألم الخوف من فوات المحبوب وزواله وكان عيشه منغصا وقلبه مضطربا ولذلك قال تعالى في صفة المشتغلين بخدمته فلنحيينه حياة طيبة وقيل المراد بالمتاع الحسن عدم العذاب بعذاب الاستيصال كما استاصل اهل القرى الذين كفروا وسمي حسنه وتعلق منافع الدنيا بالمتاع لاجل التنبيه على حقارتها وقلتها ونبه تعالى على انها منقضية بقوله تعالى الى اجل مسمى فصارت هذه الاية دالة على كونها حقيرة خسيسة منقضية واما المنافع الاخروية فقد ذكر تعالى بقوله تعالى ويؤت اي في الاخرة كل ذي فضل اي في العمل فضله اي جزاءه لان مراتب السعادة في الاخرة مختلفة لانها مقدرة بمقدار الدرجات الحاصلة في الدنيا فلما كان الاعراض عن غير الحق والاقبال على عبودية الحق درجات غير متناهية فكذا مراتب السعادات الاخروية غير متناهية فلهذا السبب قال تعالى ويؤت كل ذي فضل فضله وقال ابو العالية من كثرت طاعاته في الدنيا زادت درجاته في الاخرة وقال ابن عباس من زادت حسناته على سيئاته دخل الجنة ومن زادت سيئاته على حسناته دخل النار ومن استوت حسناته وسيئاته كان من اهل الاعراف ثم يدخلون الجنة وقال ابن مسعود من عمل سيئة كتبت له سيئة ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات فان عوقب بالسيئة التي عملها في الدنيا بقيت له عشر حسنات وان لم يعاقب بها في الدنيا اخذ من حسناته العشر واحدة وبقي له تسع حسنات ثم يقول ابن مسعود هلك من غلب احاده اعشاره وقوله تعالى وان تولوا فيه حذف احدى التائين اي وان تعرضوا عما جئتكم به من الهدى فاني اي فقل لهم اني اخاف عليكم عذاب يوم كبير هو يوم القيامة وصف بالكبير كما وصف بالعظم والثقل وقيل هو يوم الشدائد وقد ابتلوا بالقحط حتى اكلوا الجيف الى الله مرجعكم اي رجوعكم في ذلك اليوم فيثيب المحسن على احسانه ويعاقب المسيء على اساءته وهو على كل شيء قدير اي قادر على جميع المقدورات لا دافع لقضائه ولا مانع لمشيئته ومنه الثواب والعقاب وفي ذلك دلالة على قدرة عالية وجلالة عظيمة لهذا الحاكم وعلى ضعف لهذا العبد والملك القاهر العالم اذا رأى عاجزا مشرفا على الهلاك فانه يخلصه من الهلاك ومنه المثل المشهور ملكت فاسجح اي فاعف يقول مصنف هذا الكتاب * قد افنيت عمري في خدمة العلم * ومطالعة الكتب ولا رجاء لي * في شيء الا اني في غاية الذلة والقصور * والكريم اذا اقدر عفى فاسألك * يا اكرم الاكرمين وارحم الراحمين وساتر عيوب المعيوبين ان تفيض * سجال رحمتك على وعلى والدي واولادي واخواني واحبابي وان تخصني واياهم بالفضل والتجاوز والجود والكرم واختلفوا في سبب نزول قوله تعالى الا انهم يثنون صدورهم فقال ابن مسعود نزلت في الاخنس بن شريق وكان رجلا

حلو الكلام حلو المنظر يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يحب وينطوي بقلبه على ما يكره فمعنى قوله يثنون صدورهم يخفون ما في صدورهم من الشحناء والعداوة وقال عبد الله ابن شداد نزلت في بعض المنافقين كان اذا مر برسول الله صلى الله عليه وسلم ثنى صدره وظهره وطأطأ رأسه وغطى وجهه كي لا يراه النبي صلى الله عليه وسلم وقال قتادة كانوا يحنون ظهورهم كي لا يسمعوا كلام الله تعالى ولا ذكره وروى البخاري عن ابن عباس انها نزلت فيمن كان يستحي ان يتخلى ويجامع فيفضي الى السماء وقيل كان الرجل من الكفار يدخل بيته ويرخي ستره ويتغشى بثوبه ويقول هل يعلم الله ما في قلبي وقال السدي يثنون صدورهم اي يعرضون بقلوبهم من قولهم ثنيت عناني ليستخفوا منه اي من الله تعالى بسرهم فلا يطلع رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون عليه ومن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد قيل انها نزلت في طائفة من المشركين قالوا ان ارخينا علينا ستورنا واستغشينا ثيابا وطوينا صدورنا على عداوة محمد كيف يعلم الا حين يستغشون ثيابهم اي يأوون الى فراشهم ويتغطون بثيابهم يعلم تعالى ما يسرون في قلوبهم وما يعلنون بافواههم اي انه لا تفاوت في علمه تعالى بين اسرارهم واعلانهم فلا وجه لتوصلهم الى ما يريدون من الاخفاء انه تعالى عليم بذات الصدور اي بالقلوب واحوالها ولما اعلم تعالى انه يعلم ما يسرون وما يعلنون اردفه بما يدل على كونه عالما بجميع المعلومات بقوله تعالى وما من دابة في الارض الا على الله رزقها فذكر تعالى ان رزق كل حيوان انما يصل اليه من الله تعالى فلو لم يكن عالما بجميع المعلومات لما حصلت هذه المهمات اسم كل حيوان دب على وجه الارض ولا شك ان اقسام الحيوانات وانواعها كثيرة وهي الاجناس التي تكون في البر والبحر والجبال والله تعالى عالم بكيفية طباعها واعضائها واحوالها واغذيتها ومساكنها وما يوافقها وما يخالفها فالاله المدبر لاطباق السموات والارض والطبائع الحيوانات والنبات كيف لا يكون عالما باحوالها روي ان موسى عليه السلام عند نزول الوحي عليه تعلق قلبه باحوال اهله فامره الله ان يضرب عصاه على صخرة فانشقت وخرج صخرة ثانية ثم ضرب عصاه عليها فانشقت وخرج منها صخرة ثالثة ثم ضرب بعصاه عليها فانشقت فخرج منها دودة كالذرة وفي فيها شيء يجري مجرى الغذاء لها ورفع الله تعالى الحجاب عن سمع موسى عليه السلام فسمع ان الدودة كانت تقول سبحان من يراني ويسمع كلامي ويعرف مكاني ويذكرني ولا ينساني فان قيل ان كلمة على للوجوب فيدل على ان ايصال الرزق الى الدابة واجب على الله تعالى اجيب بانه تعالى انما اتى بذلك تحقيقا لوصوله بحسب الوعد والفضل والاحسان وحملا على التوكل فيه وفي هذه الاية دليل على ان الرزق قد يكون حراما لانه ثبت ان ايصال الرزق الى كل حيوان واجب على الله تعالى بحسب الوعد والله تعالى لا يخل به ثم قد نرى ان انسانا لا يأكل من الحلال طول عمره فلو لم يكن الحرام رزقا لكان الله تعالى ما اوصل

رزقا اليه فيكون الله تعالى اخل بالواجب وذلك محال فعلمنا ان الحرام قد يكون رزقا
ويعلم تعالى مستقرها قال ابن عباس هو المكان الذي تاوي اليه وتستقر فيه ليلا
ونهارا ومستودعها هو الذي تدفن فيه اذا ماتت وقال عبد الله بن مسعود
المستقر ارحام الامهات والمستودع المكان الذي تموت فيه وقال عطا المستقر
ارحام الامهات والمستودع اصلاب الابا وقيل الجنة او النار والمستودع
القبر لقوله تعالى في صفة الجنة والنار حسنت مستقرا وساءت مستقرا ومقاما
ولا مانع ان يفسر ذلك بهذا كله كل اي كل واحد من الدواب ورزقها ومستقرها
ومستودعها في كتاب اي ذكرها مثبت في اللوح المحفوظ مبين اي بين اي
كما قال تعالى ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين ولما اثبت تعالى بالدليل المتقدم
كونه عالما بالمعلومات اثبت تعالى كونه قادرا على كل المقدورات بقوله تعالى
وهو الذي خلق السموات والارض في ستة ايام اي من ايام الدنيا اولها الاحد
واخرها الجمعة وتقدم الكلام على تفسير ذلك في سورة الاعراف وكان عرشه
على الما قال كعب خلق الله ياقوتة خضرا ثم نظر اليها بالهيبة فصارت
ماء ثم خلق الريح فجعل الما على متنها ثم وضع العرش على الما وقال ابو
بكر الاصم ومعنى قوله تعالى وكان عرشه على الما كقولهم السما على الارض
وليس في ذلك على سبيل كون احدهما ملتصقا بالاخر وقال ضمرة ان الله عز وجل
كان عرشه على الما ثم خلق السموات والارض وخلق القلم فقال اكتب فكتب به
ما هو خالق وما هو كاين من خلقه ثم ان ذلك الكتاب سبح الله تعالى ومجده الف عام
قبل ان يخلق شيا من خلقه ففي هذا دلالة على كمال قدرته تعالى لان العرش مع
كونه اعظم من السموات والارض كان على الما وقد امسكه الله تعالى من غير
دعامة تحته ولا علاقة فوقه وقوله تعالى ليبلوكم متعلق بخلق اي خلقها
وما فيها منافع لكم ومصالح ليختبركم وهو اعلم بكم ايكم احسن عملا اي اطوع
لله واورع عن محارم الله وهذا قيام الحجة عليهم وقد مر امثال ذلك ولما
بين تعالى انه انما خلق هذا العالم لاجل ابتلا المكلفين وامتحانهم وهذا يوجب
القطع بحصول الحشر والنشر لان الابتلا والامتحان يوجب تخصيص المحسن
بالرحمة والثواب وتخصيص المسي بالعقاب وذلك لا يتم الا مع الاعتراف
بالمعاد والقيامة خاطب تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم فقال تعالى ولين قلت
يا محمد لهولا الكفار من قومك انكم مبعوثون من بعد الموت اي للحساب والجزا ليقولن
الذين كفروا ان اي ما هذا اي القران بالبعث والذي تقوله الا سحر مبين
اي بين وقرا حمزة والكسائي بفتح السين والف بعدها وكسر الحا فيكون ذلك راجعا
للنبي صلى الله عليه وسلم ولما حكى تعالى عن الكفار انهم يكذبون رسول الله صلى
الله عليه وسلم حكى عنهم نوعا اخر بقوله تعالى ولين اخرنا عنهم العذاب الى
امة اي جماعة من الاوقات معدودة اي قليلة ليقولن اي استهزا

ما يحبسه

ما يحبسه اي ما يمنعه من الوقوع قال الله تعالى الا يوم ياتيهم كيوم بدر ليس مصروفا
اي مدفوعا العذاب عنهم وحاق اي نزل بهم من العذاب بهم ما كانوا به يستهزءون اي الذي
كانوا يستعجلون فوضع يستهزءون موضع يستعجلون لان استعجالهم كان استهزا
فان قيل لم قال وحاق على لفظ الماضي مع ان ذلك لم يقع اجيب بانه وضع الماضي موضع المستقبل
تحقيقا ومبالغة في التاكيد والتقرير والتهديد ولما ذكر تعالى ان عذاب الكفار وان
تاخر الا انه لا بد وان يحيق بهم ذكر بعده ما يدل على كفرهم وعلى كونهم مستحقين لذلك
العذاب بقوله تعالى ولين اذقنا اي اعطينا الانسان اي الكافر منا رحمة اي نعمة
كغنى وصحة بحيث يجد لذتها ثم نزعناها اي سلبنا تلك النعمة منه انه ليوس اي قنوط
من رحمة الله تعالى لقلة صبره وعدم ثقته به كفور اي جحود لنعمتنا عليه واما المسلم
الذي يعتقد ان تلك النعمة من جود الله تعالى وفضله واحسانه فانه لا يحصل له الياس
بل يقول لعله تعالى يردها علي بعد ذلك احسن واكمل وافضل مما كانت ولين اذقناه
اي الكافر نعما بعد ضرا مسته كصحة بعد سقم وغنى بعد عدم وفي اختلاف
الفعلين وهما اذقناه ومسته من حيث الاسناد اليه تعالى في الاول والى الضرا في الثاني
نكتة عظيمة وهي ان النعمة صادرة من الله تعالى تفضلا منه لخبر ما احد يدخل
الجنة الا برحمة الله تعالى قيل ولا انت يا رسول الله قال ولا انا والضر صادر
من العبد كسبا لانه السبب فيه باجتلابه اياه بالمعاصي غالبا لقوله تعالى ما اصابك
من حسنة فمن الله وما اصابك من سيئة فمن نفسك ولا ينافي ذلك قوله تعالى
قل كل من عند الله فان الكل منه ايجادا غير ان الحسنة احسان وامتنان والسيئة مجازاة
وانتقام لخبر ما من مسلم يصيبه نصب ولا وصب حتى الشوكة يشاكها وحتى
انقطاع شسع نعله الا بذنب وما يعفو الله اكثر ليقولن اي الذي اصابه الغنى
والصحة ذهب السيات اي المصايب التي اصابتني عني ولم يتوقع زوالها
ولا يشكر عليها انه لفرح اي فرح بطر فخور على الناس بما اذا قدم الله تعالى من نعمايه
قد شغله الفرح والفخر عن الشكر فبين سبحانه وتعالى في هذه الايتين ان احوال
الدنيا غير باقية بل هي ابدا في التغير والزوال والتحول والانتقال فان الانسان
اما ان يتحول من النعمة الى المحنة ومن اللذات الى الافات كالقسم الاول واما ان يكون
بالعكس وهو ان ينتقل من المحبوب الى المكروه كالقسم الثاني ولما بين تعالى ان الكافر
عند الابتلا لا يكون من الصابرين وعند الفوز بالنعمة لا يكون من الشاكرين بين حال
المتقين بقوله تعالى الا اي لكن الذين صبروا على الضرا وعملوا الصالحات اي في النعما
اي فانهم اذا اصابتهم شدة صبروا وان نالتهم نعمة شكروا اولئك لهم مغفرة واجر كبير
جمع لهم تعالى بين هذين المطلوبين احدهما زوال العقاب والخلاص منه وهو المراد
من قوله تعالى لهم مغفرة والثاني الفوز بالثواب ودخول الجنة وهو المراد من قوله
تعالى واجر كبير فلعلك يا محمد تارك بعض ما يوحى اليك فلا تبلغهم لتهاونهم به
فانهم كانوا يستهزءون بالقران ويضحكون منه وقرا حمزة والكسائي

بالامالة محضة وورش بين اللفظين والباقون بالفتح وضائق به صدرك اي بتلاوته عليهم
لاجل ان يقولوا لولا اي هلا انزل عليه كنز ينفقه في الاستتباع كالملوك او جاء معه
ملك يصدقه كما اقترحنا وروي عن ابن عباس ان رؤساء مكة قالوا يا محمد اجعل لنا جبال
مكة ذهبا ان كنت رسولا وقال اخرون ائتنا بالملائكة ليشهدوا بنبوتك فقال لا اقدر
على ذلك فنزل انما انت نذير فلا عليك الا البلاغ لا الاتيان بما اقترحوه والله على كل شيء وكيل
فتوكل عليه انه عالم بحالهم وفاعل بهم جزاء اقوالهم وافعالهم ام اي بل يقولون كفار مكة
افتراه اي اختلقه من تلقاء نفسه وليس هو من عند الله قال الله تعالى قل لهم يا محمد
فاتوا بعشر سور مثله في البيان وحسن النظم مفتريات فانكم عربيون مثلي قال ابن
عباس هذه السور التي وقع بها هذا التحدي معينة وهي سورة البقرة وال عمران والنساء والمائدة
والانعام والاعراف والانفال والتوبة ويونس وهود وقيل التحدي وقع بمطلق السور
وهو متقدم على التحدي بسورة واحدة والتحدي بسورة واحدة وقع في سورة البقرة
وفي سورة يونس اما تقدم هذه السورة على سورة البقرة فظاهر لان هذه السورة
مكية وسورة البقرة مدنية واما في سورة يونس فلان كل واحدة من هاتين السورتين
مكية فتكون سورة هود متقدمة في النزول على سورة يونس كما قاله الرازي وانكر المبرد
هذا وقال بل سورة يونس اولا وقال معنى قوله في سورة يونس فاتوا بسورة مثله
اي مثله في الخبر عن الغيب والاحكام والوعد والوعيد فعجزوا فقال لهم في سورة هود
ان عجزتم عن الاتيان بسورة مثله في الاخبار والاحكام والوعد والوعيد فاتوا
بعشر سور من غير وعد ولا وعيد وانما هي مجرد البلاغة وادعوا اي وقل لهم يا محمد
ادعوا للمعاونة على ذلك من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين في انه مفترى
والضمير في قوله تعالى فان لم يستجيبوا لكم اي باتيان ما دعوتموهم اليه للنبي صلى الله عليه
وسلم وللمؤمنين لانه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين كانوا يتحدونهم وقال تعالى في موضع
اخر فان لم يستجيبوا لك فاعلم والتعظيم للنبي صلى الله عليه وسلم فاعلموا انما انزل
ملتبسا بعلم الله اي بما لا يعلمه الا الله تعالى من نظم يعجز الخلق واخبار بغيوب
لا سبيل لهم اليه ولا يقدر عليه سواه وقوله تعالى وان مخففة من الثقيلة
اي وانه لا اله الا هو وحده وان توحيده واحد والاشراك به ظلم عظيم فهل
انتم مسلمون اي ثابتون على الاسلام راسخون مخلصون فيه اذ تحقق عندكم
اعجازه مطلقا وقيل الخطاب للمشركين في لم يستجيبوا لمن استطعتم اي فانه لم يستجب
لكم من تدعونه من دون الله الى المظاهرة على معارضته لعلمهم بالعجز عنه وان طاقتهم
اقصر من ان تبلغه فاعلموا انه منزل من عند الله وان ما دعاكم اليه من التوحيد حق فهل
انتم بعد هذه الحجة القاطعة مسلمون اي اسلموا وفي هذا الاستفهام ايجاب بليغ لما
فيه من معنى الطلب والتنبيه على قيام الموجب وزوال العذر واختلف في سبب
نزول قوله تعالى من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها اي بعمله الذي يعمل من اعمال البر
نوف اليهم اعمالهم اي التي عملوها من خير كصدقة وصلة رحم فيها اي الدنيا

وهم

وهم فيها لا يبخسون اي يوصل اليهم اجور اعمالهم وافية كاملة من غير بخس في الدنيا
وهو ما يرزقون فيها من الصحة والرياسة وسعة الرزق وكثرة الاولاد ونحو ذلك اولئك
الذين ليس لهم في الاخرة الا النار وحبط اي بطل ما صنعوا اي عملوا فيها
في الاخرة فلا ثواب له وباطل ما كانوا يعملون لانه لغير الله تعالى فقال مجاهد
قال مجاهد نزلت في اهل الريا قال صلى الله عليه وسلم ان اخوف ما اخاف
عليكم الشرك الاصغر قالوا يا رسول الله وما الشرك الاصغر قال الريا والريا هو
ان يظهر الانسان الاعمال الصالحة ليحمده الناس ويعتقدوا فيه الصلاح فهذا
هو العمل الذي لغير الله نعوذ بالله من الخذلان وقال اكثر المفسرين انها نزلت
في الكافر واما المؤمن فيريد الدنيا والاخرة وارادته الاخرة غالبة فيجازى بحسناته
في الدنيا ويثاب عليها في الاخرة وعن انس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال ان الله لا يظلم المؤمن حسنة يثاب عليها الرزق في الدنيا ويجزى بها في
الاخرة واما الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا حتى اذا افضى الى الاخرة لم يكن له
حسنة يعطى بها خيرا وقيل نزلت في المنافقين الذين يطلبون بغزوهم مع النبي صلى
الله عليه وسلم الغنائم من غير ان يؤمنوا بالاخرة وثوابها وقيل في اليهود والنصارى
وهو منقول عن انس ولما ذكر تعالى الذين يريدون باعمالهم الحياة الدنيا وزينتها
ذكر من كان يريد بعمله وجه الله تعالى والدار الاخرة بقوله تعالى افمن كان على بينة
من ربه قيل هو النبي والبينة هو القران ويتلوه اي يتبعه شاهد يصدقه
منه اي من الله تعالى وهو جبريل عليه السلام ومن قبله اي القران كتاب
موسى وهو التوراة شاهد له ايضا وقوله تعالى اماما اي كتابا مؤتما
به في الدين ورحمة اي على المنزل عليهم لانه الوصلة الى الفوز بخير الدارين حال
من كتاب موسى والجواب محذوف لظهوره والتقدير افمن كان على بينة من ربه كمن
يريد الحياة الدنيا وزينتها وليس لهم في الاخرة الا النار ليس مثله بل بينهما
تفاوت بعيد وتباين بين وقيل هو من امن من اليهود كعبد الله بن سلام وغيره
والمراد بالبينة هو البيان والبرهان والمراد بالشاهد هو القران ومنه اي
من الله ومن قبله كتاب موسى اي ويتلو ذلك البرهان من قبل مجيء القران كتاب
موسى اي في دلالته على هذا المطلوب لا في الوجود قال الرازي وهذا القول
هو الاظهر لقوله تعالى اولئك يؤمنون به وهذه صيغة جمع ولا يجوز رجوعه الى
محمد صلى الله عليه وسلم انتهى ويجوز ان تكون للتعظيم او له صلى الله عليه وسلم
ومن تبعه وربما يكون هذا اولى كما جرى عليه بعض المفسرين والاشارة
الى من كان على بينة والضمير في به للقران واذا كان هذا الفريق ليس له في الاخرة
الا النار فهذا الفريق ليس له في الاخرة الا الجنة ومن يكفر به اي بالنبي صلى
الله عليه وسلم او القران من الاحزاب اي اصناف الكفار فيدخل فيهم اليهود والنصارى
والمجوس فالنار موعده يلقى في الاخرة روي سعيد بن جبير عن ابي موسى

ي

ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لا يسمع بي يهودي ولا نصراني فلا يؤمن بي الا كان من اهل
النار قال ابو موسى فقلت في نفسي ان النبي صلى الله عليه وسلم لا يقول مثل هذا الا
من القرآن فوجدت الله تعالى يقول ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده قال بعض
العلما ولما دلت الاية على ان من يكفر به كانت النار موعده وقوله تعالى فلا تك في مرية
اي شك منه اي القرآن والموعد انه الحق من ربك الخطاب للنبي صلى الله
عليه وسلم والمراد غيره لانه صلى الله عليه وسلم لم يشك قط ويؤيد ذلك قوله
تعالى ولكن اكثر الناس لا يؤمنون اي لا يصدقون بما اوحينا اليك او من ان موعد
الكفار النار ثم وصف الله تعالى هؤلاء المنكرين الجاحدين بصفات كثيرة في معرض
الذم الصفة الاولى كونهم مفترين على الله كما قال تعالى ومن اظلم ممن افترى
على الله كذبا بنسبة الشريك والولد اليه او اسند اليه ما لم ينزله او نفى عنه
ما انزله الصفة الثانية انهم يعرضون على الله تعالى في موقف الذل والهوان
كما قال تعالى اولئك يعرضون على ربهم اي يوم القيمة فان قيل هم لا يختصون
بهذا العرض لان العرض عام في كل العباد كما قال وعرضوا على ربك صفا اجيب
بانهم يعرضون فيفتضحون بشهادة الاشهاد عليهم كما قال تعالى ويقول
الاشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم فيحصل لهم من الخزي والنكال ما لا مزيد
عليه وهذه الصفة الثالثة واختلف في هؤلاء الاشهاد فقال مجاهد هم
الملئكة الذين يحفظون اعمالهم عليهم في الدنيا وقال مقاتل هم الناس
كما يقال على رؤس الاشهاد اي على رؤس الناس فقال قوم هم الانبيا كما قال
تعالى فلنسئلن الذين ارسل اليهم ولنسئلن المرسلين والفائدة في اعتبار
قول الاشهاد المبالغة في اظهار الفضيحة فان قيل العرض على الله يقتضي ان
يكون الله تعالى في حيز وهو منزه تعالى عن ذلك اجيب بانهم يعرضون على
الاماكن المعدة للحساب والسؤال او يكون ذلك عرضا على من يوبخ بامر الله تعالى
من الانبيا والمؤمنين والاشهاد جمع شاهد كصاحب واصحاب او جمع شهيد
كشريف واشراف قال ابو علي الفارسي وكان هذا ارجح لان ما جاء منه من ذلك
في التنزيل جاء على فعيل كقوله تعالى وجئنا بك على هؤلاء شهيدا عن عبد الله بن عمر
ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الله يدني المؤمن يوم القيمة فيستره من
الناس فيقول اي عبدي تعرف ذنب كذا وكذا فيقول نعم حتى اذا قرره بذنوبه
قال تعالى سترت عليك في الدنيا وقد سترتها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته
واما الكافر والمنافق فتقول الاشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ولما اخبر
الله تعالى عن حالهم في عقاب القيامة اخبر عن حالهم في الحال بقوله تعالى الا لعنة
الله على الظالمين فبين تعالى انهم في الحال ملعونون من عند الله وهذه هي
الصفة الرابعة ثم وصفهم بالصفة الخامسة بقوله تعالى الذين يصدون
عن سبيل الله اي دينه ثم وصفهم بالصفة السادسة بقوله تعالى ويبغونها اي

يطلبون السبيل عوجا اي معوجة اي كانهم طلبوا ان ينسبهم بالتزام الكفر والضلال
فقد اضافوا اليه المنع من الدين الحق والقاء الشبهات وتعويج الدلايل المستقيمة
لانه لا يقال في العاصي انه يبغي عوجا وانما يقال ذلك فيمن يعرف كيف الاستقامة
وكيفية العوج بسبب القاء الشبهات وتقرير الضلالات ثم وصفهم بالصفة
السابعة بقوله تعالى وهم اي والحال انهم بالاخرة هم كافرون وتكرير لفظ هم
لتاكيد كفرهم وتوغلهم فيه الصفة الثامنة كونهم عاجزين عن الفرار من
عذاب الله تعالى اولئك لم يكونوا معجزين في الارض اي لم يكونوا معجزين الله في الدنيا ان
يعاقبهم اذ لا يمكنهم ان يهربوا من عذابه فان هرب العبد من عذاب الله تعالى
محال لانه تعالى قادر على جميع الممكنات ولا تتفاوت قدرته بالقرب والبعد
والقوة والضعف الصفة التاسعة انهم ليس لهم اوليا يدفعون عقاب
الله تعالى عنهم كما قال تعالى وما كان لهم من دون الله اي غيره من اولياء
اي انصار يمنعونهم من عذابه الصفة العاشرة مضاعفة العذاب كما قاله
تعالى يضاعف لهم العذاب اي بسبب اضلالهم غيرهم وقيل لانهم كفروا بالله
وكفروا بالبعث والنشور الصفة الحادية عشر قوله تعالى ما كانوا يستطيعون
السمع قال قتادة صم عن سماع الحق فلا يسمعون خيرا فينتفعوا به وما
كانوا يبصرون خيرا فياخذوا به قال ابن عباس اخبر الله تعالى انه حال
بين اهل الشرك وبين طاعة الله في الدنيا والاخرة اما في الدنيا فانه قال ما كانوا
يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون واما في الاخرة خاشعة ابصارهم
دة الصفة الثانية عشر قوله تعالى اولئك الذين خسروا انفسهم فانهم اشتروا عبادة
الالهة بعبادة الله تعالى فكان مصيرهم الى النار المؤبدة عليهم وذلك
اعظم وجوه الخسرانات الصفة الثالثة عشر قوله تعالى وضل عنهم اي غاب
عنهم ما كانوا يفترون على الله تعالى من دعوى الشريك وان الالهة تشفع
لهم الصفة الرابعة عشر قوله تعالى لا جرم انهم في الاخرة هم الاخسرون اي لا احد
ابين واكثر خسرانا منهم قال الفراء لا جرم بمنزلة قولنا لا بد ولا
محالة ثم كثر استعمالها حتى صارت بمنزلة حقا تقول العرب لا جرم انك
محسن على معنى انك محسن وقال الزجاج ان كلمة لا نفي لما ظنوا انه
ينفعهم وجرم معناه كسب ذلك الفعل لهم الخسران في الدنيا والاخرة قال
الازهري وهذا من احسن ما قيل في هذا الباب وقال سيبويه لا رد على
اهل الكفر كما مر وجرم معناه احق والمعنى انه احق كفرهم وقوع العذاب والخسران
بهم واحتج سيبويه بقول الشاعر ولقد طعنت ابا عيينة طعنة
جرمت فزارة بعدها ان يغضبوا اراد حقت الطعنة فزارة ان
يغضبوا ولما ذكر تعالى عقوبة الكافرين وخسرانهم اتبعه بذكر احوال المؤمنين
في الدنيا وربحهم في الاخرة بقوله تعالى ان الذين امنوا وعملوا الصالحات واخبتوا الى ربهم

اي اطمانوا اليه وخشعوا اليه اذ الاخبات في اللغة هو الخشوع والخضوع
وطمانينة القلب ويتعدي بالي وباللام فاذا قلت خبت فلان الي كذا فمعناه
اطمان اليه واذا قلت اخبت له فمعناه خشع وخضع له فقوله تعالي ان الذين
امنوا وعملوا الصالحات اشارة الي اعمال القلوب وهي الخشوع والخضوع لله
تعالي وان هذه الاعمال الصالحة لا تنفع في الاخرة الا بحصول اعمال القلب
وهي الخشوع والخضوع اولئك اي الذين هذه صفتهم فاخبر تعالي عن حالهم
في الاخرة بانهم من اهل الجنة التي لا انقطاع لنعيمها ولا زوال ولما ذكر سبحانه
وتعالي احوال الكفار وما كانوا عليه من العمي عن طريق الحق ومن الصمم عن
سماعه وذكر احوال المومنين وما كانوا عليه من البصيرة وسماع الحق والانقياد
للطاعة ذكر فيهما مثالا مطابقا بقوله تعالي مثل اي صفة الفريقين
اي الكفار والمومنين الفريقين هذا مثل الكافر شبهه بالاعمي لتغافله عن
ايات الله وبالاصم لتصامه عن استماع كلام الله تعالي وتابيه عن تدبر معانيه
كالاعمي والاصم هذا مثل المومن شبهه بالسميع والبصير لان امره بالضد
من الكافر فيكون كل منهما مشبها باثنين باعتبار وصفين او يشبه الكافر
بالجامع بين العمي والصمم والمومن بالجامع بين ضديهما علي ان تكون الواو في الاصم
وفي الصفة لعطف الصفة علي الصفة بخلاف فعلي التشبيه الاول فانه لعطف
الموصوف علي الموصوف ويعبر عنه بعطف الذات علي الذات هل يستويان اي
هل يستوي الفريقان مثلا اي تشبيها لا يستويان ويصح ان يكون صفة
لمصدر محذوف اي استوا مثلا وان يكون حالا من فاعل يستويان وقوله تعالي
افلا تذكرون فيه ادغام التا في الاصل اي تتعظون بضرب الامثال والتامل
فيها وقرا حفص وحمزة والكسائي بتخفيف الذال والباقون بالتشديد وقد جرت
عادة الله تعالي بانه اذا اورد علي الكفار انواع الدلايل اتبعها بالقصص ليصير
ذكرها موكدا لتلك الدلايل وفي هذه السورة ذكر انواع من القصص
القصة الاولي قصة نوح عليه السلام المذكورة في قوله تعالي ولقد ارسلنا نوحا
الي قومه اني وقوله اني لكم قراه ابن كثير وابو عمرو والكسائي بفتح الهمزة
اي باني والباقون بكسرها علي ارادة القول نذير مبين اي بين النذارة
اخوف بالعقاب لمن خالف الله تعالي وقوله ان لا تعبدوا الا الله بدل من اني لكم او
مفعول مبين اني اخاف عليكم اي ان عبدتم غيره عذاب يوم اليم اي مولم
موجع في الدنيا او الاخرة قال ابن عباس بعث نوح بعد اربعين سنة
ولبث يدعو قومه تسعماية وخمسين سنة وقيل وهو ابن مايتين وخمسين
سنة ومكث يدعو قومه تسعماية وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان مايتين
وخمسين سنة فكان عمره الف سنة واربعماية وخمسين سنة ولما حكي
تعالي عن نوح عليه السلام انه دعا قومه الي عبادة الله تعالي حكي عنهم انهم

طعنوا

طعنوا في نبوته بثلاثة انواع من الشبهات بقوله تعالي فقال الملا الذين كفروا من قومه وهم
الاشراف ما نراك الا بشرا مثلنا هذه الشبهة الاولي اي انك بشر مثلنا لا مزية
لك علينا تخصك بالنبوة ووجوب الطاعة وانما قالوا هذه المقالة وتمسكوا
بهذه الشبهة جهلا منهم لان الله تعالي اذا اصطفي عبدا من عباده واكرمه بنبوته
ورسالته وجب علي من ارسله اليهم اتباعه الشبهة الثانية ما ذكره الله تعالي
عنهم بقوله تعالي وما نراك اتبعك الا الذين هم اراذلنا اي اسافلنا كالحاكة واهل
الصنايع الخسيسة وهو جمع ارذل بفتح الهمزة كقوله تعالي اكابر مجرميها وقوله
صلي الله عليه وسلم احاسنكم اخلاقا او جمع ارذل بضم الذال جمع رذل بسكونها
فهو علي الاول جمع مفرد وعلي الثاني جمع جمع ثم قالوا ولو كنت صادقا لاتبعك الاكابر
من الناس والاشراف منهم وانما قالوا ذلك جهلا منهم ايضا لان الرفعة بالدين
واتباع الرسول لا بالمناصب العالية والمال بادي الراي اي اتبعوك في اول الراي
من غير تثبت وتفكر في امرك ولو تفكروا ما اتبعوك ونصب علي الظرف اي وقت حدوث
اول رايهم وقرا ابو عمرو بادي بهمزة مفتوحة بعد الدال والباقون بيا مفتوحة وابدل
السوسي همزة الرا الفا وقفا ووصلا واما حمزة فابدلها وقفا لا وصلا الشبهة
الثالثة ما ذكره الله تعالي عنهم في قوله تعالي وما نري لكم اي لك ولمن تبعك
علينا من فضل اي بالمال والشرف والجاه وليستحقون بها الاتباع منا وهذا
ايضا جهل منهم لان الفضيلة المعتبرة عند الله تعالي بالايمان والطاعة لا
بالشرف والرياسة وقولهم بل نظنكم كاذبين خطاب لنوح عليه السلام
في دعوي الرسالة وادرجوا قومه معه في الخطاب وقيل خاطبوه بلفظ الجمع
علي سبيل التعظيم وقيل كذبوه في دعوي النبوة وكذبوا قومه في دعوي العلم
بصدقه فغلب المخاطب علي الغايبين ولما ذكروا هذه الشبهة لنوح عليه السلام
قال لهم يا قوم ارايتم اي اخبروني ان كنت علي بينة اي نبوة ورسالة من ربي
واتاني رحمة اي نبوة ورسالة من عنده من فضله واحسانه فعميت اي
خفيت والتبست عليكم ووحد الضمير اما لان البينة في نفسها هي الرحمة
واما انه لكل واحدة منهما وقرا حفص وحمزة والكسائي بضم العين وتشديد
الميم والباقون بفتح العين وتخفيف الميم انلزمكموها اي انكرهكم علي قبولها
وانتم لها كارهون لا تختارونها ولا تتاملون فيها لا نقدر علي ذلك قال
قتادة والله لو استطاع نبي الله لالزمها قومه ولكنه لا يملك ذلك واتفق
القرا علي ضم النون من انلزمكموها لاتصالها باللام رسما وحيث اجتمع ضميران
وليس احدهما مرفوعا وقدم الاعرف منهما جاز في الثاني الوصل كما في الاية
والفصل كان يقال انلزمكم اياها ويا قوم لا اسالكم عليه اي علي تبليغ الرسالة
وهو وان لم يذكر معلوم مما ذكر مالا اي جعلا تعطونيه ان اي ما اجري الا علي الله
اي ما ثواب تبليغي الا عليه فانه المامول منه وقرا ابن كثير وشعبة وحمزة والكسائي

ص جميع عمل الجوارح واخشع
وقوله الي اعمال
الشارح اعمال

وقال تعالي لبث
الف سنة الا خمسين
وقيل وهو
ابن مايتين
وقيل مايتين
سنة

بـكون الياء والباقون بالفتح وقول نوح عليه السلام وما انا بطارد الذين امنوا جواب
لهم حين طلبوا طردهم فانهم طلبوا من نوح عليه السلام ان يطرد الذين امنوا
وهم الارذلون في زعمهم فقال ما يجوز لي ذلك انهم ملاقوا ربهم اي بالبعث فيخاصمون
طاردهم عنده وياخذ لهم ممن ظلمهم وطردهم اوانهم ملاقونه ويفوزون بقربه
فكيف اطردهم ولكني اراكم قوما تجهلون اي ان هولاء المومنين خير منكم او عاقبة
امركم او تسفهون عليهم بان تدعوهم اراذل ويا قوم من ينصرني اي يمنعني
من الله اي من عقابه ان طردتهم عني وهم مومنون مخلصون افلا اي فهلا
تذكرون اي تتعظون وقرا حفص وحمزة والكسائي بتخفيف الذال والباقون
بالتشديد بادغام التا في الاصل في الذال ولا اقول لكم عندي خزاين الله اي خزاين رزقه
فجما اني لا اسالكم مالا فكذلك لا ادعي اني املك مالا ولا لي غرض في المال لا اخذا ولا
دفعا وقوله ولا اعلم الغيب عطف على عندي فلا تعاظم به عليكم حتى تقولوا ما انت الا بشر
مثلنا بل طريقتي التواضع والخضوع وما كان هذا شانه وطريقته كذلك فانه
لا يستنكف عن مخالطة الفقرا والمساكين ولا يطلب مجالسة الامرا والسلاطين
ثم اكد ذلك بقوله ولا اقول للذين تزدري اي تحتقر اعينكم اي لا اقول في حقهم
لن يوتيهم الله خيرا فان ما اعد الله تعالى لهم في الاخرة خير مما اتاكم في الدنيا
الله اعلم بما في انفسهم وهذا كالدلالة على انهم كانوا ينسبون اتباعه مع الفقر والذلة
الى النفاق اني اذا اي ان فعلت ذلك لمن الظالمين لنفسي ومن الظالمين لهم
فان قيل هذه الاية تدل على تفضيل الملكة على الانبيا عليهم الصلاة والسلام
فان الانسان اذا قال لا ادعي كذا وكذا انما يحسن اذا كان ذلك الشي اشرف من
احوال ذلك القايل اجيب بان نوحا عليه السلام انما ذكر ذلك جوابا عما ذكروه
من الشبه فانهم طعنوا في اتباعه بالفقر فقال ولا اقول لكم عندي خزاين الله حتى
اجعلهم اغنيا وطعنوا فيهم ايضا بانهم منافقون فقال ولا اعلم الغيب حتى اعرف
كيفية باطنهم وانما تكليفي بنا الاحوال على الظواهر وطعنوا فيه انه من البشر
فقال ولا اقول اني ملك حتى تنفوا عني ذلك وحينيذ فالاية ليس فيها ذلك
فان قيل في هذه الاية دلالة على ان طرد المومنين لطلب مرضاة الكفار من اصول
المعاصي فكيف طرد محمد صلى الله عليه وسلم بعض فقرا المومنين لطلب مرضاة
المستغني حتى عاتبه الله تعالى في قوله ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي اجيب
بان الطرد المذكور في هذه الاية محمول على الطرد المطلق على سبيل التابيد واما
الطرد المذكور في هذه الاية الواقعة لمحمد صلى الله عليه وسلم محمول على التبعيد
في اوقات معينة رعاية للمصلحة ولما ان الكفار اوردوا تلك الشبهة واجاب
نوح عليه السلام عنها بالجوابات الموافقة الصحيحة اوردوا عليه كلاما من
الاول ما حكاه الله تعالى عنهم بقوله تعالى قالوا يا نوح قد جادلتنا اي خاصمتنا
فاكثرت جدالنا اي فاطنبت فيه وهذا يدل على انه عليه السلام كان قد اكثر

في الجدال معهم وذلك الجدال ما كان الا في اثبات التوحيد والنبوة والمعاد وهذا
يدل على ان الجدال في تقرير الدلايل وازالة الشبهات حرفة الانبيا عليهم الصلاة
والسلام وعلى ان التقليد والجهل حرفة الكفار الثاني ما ذكره الله تعالى عنهم في قوله
تعالى فاتنا بما تعدنا اي من العذاب ان كنت من الصادقين في الدعوى والوعيد فان
مناظرتك لا توثر فينا قال لهم نوح عليه السلام في جواب ذلك انما ياتيكم به الله ان شا
تعجيله لكم فان امر اليه ان شا عجله وان شا اخره لا الي وما انتم بمعجزين اي بفايتين
الله ولما اجاب نوح عليه السلام عن شانهم ختم الكلام بخاتمة قاطعة فقال ولا ينفعكم
نصحي ان اردت ان انصح لكم ان كان الله يريد ان يغويكم اي يضلكم وجواب الشرط
دل عليه ولا ينفعكم نصحي وتقدير الكلام ان الله يريد ان يغويكم فان اردت ان انصح لكم
فلا ينفعكم نصحي فهو من باب اعتراض الشرط على الشرط ونظير ذلك ما لو قال الرجل
لزوجته انت طالق ان دخلت الدار ان كلمت زيدا فدخلت ثم كلمت لم تطلق
فيشترط في وجوب الحكم وقوع الشرط الثاني قبل وقوع الاول وفي الاية
دليل على ان الله قد يريد الكفر من العبد فانه اذا اراده منه ذلك فانه يمتنع صدور
الايمان منه هو ربكم اي خالقكم والمتصرف فيكم وفق ارادته واليه ترجعون
فيجازيكم على اعمالكم قال تعالى ام اي بل يقولون افتراه اي اختلقه وجا به
من عند نفسه والها ترجع الى الوحي الذي بلغه اليهم قل لهم ان افتريته فعلي
اجرامي وهذا من باب حذف المضاف لان المعنى فعلي اثم اجرامي والاجرام
اقتراف المحظور وفي الاية محذوف اخر وهو ان المعنى ان كنت افتريته فعلي
عقاب جرمي وان كنت صادقا وكذبتموني فعليكم عقاب ذلك التكذيب الا
انه حذف هذه البقية لدلالة الكلام عليها وانا بري مما تجرمون اي من عقاب
جرمكم في اسناد الافترا الي تنبيه اكثر المفسرين على ان هذا من بقية كلام نوح
عليه السلام مع قومه وقال مقاتل ام يقولون اي المشركون من كفار
مكة افتراه اي محمد صلى الله عليه وسلم اختلق القران من عند نفسه
وهذه الاية وقعت في قصة محمد صلى الله عليه وسلم في اثنا قصة نوح عليه
السلام قال الرازي وقوله بعيد جدا واوحي الى نوح انه لن يومن من قومك اي لن يستمر
على الايمان لقوله تعالى الا من قد امن قال ابن عباس ان قوم نوح كانوا يضربون نوحا
حتى يسقط فيلفونه في لبد ويلقونه في بيت يظنون انه قد مات فيخرج في اليوم
الثاني ويدعوهم الى الله تعالى ويروى ان شيخا منهم جا متوكيا على عصاه ومعه
ابنه فقال لابنه لا يغوينك هذا الشيخ المجنون فقال يا ابتاه امكني من العصا
فاخذها من ابيه وضرب بها نوحا عليه السلام حتى شجه شجة منكرة فاوحى
الله تعالى اليه انه لن يومن من قومك الا من قد امن فلا تبتيس اي تحزن عليهم
فاني مهلكهم بما اي بسبب ما كانوا يفعلون من الشرك ونفذك منهم فحينيذ
دعا عليهم نوح عليه السلام فقال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا

وحكى محمد بن اسحق عن عبيد بن عمير الليثي انه بلغه انهم كانوا يبطشون به فيخنقونه
حتى يغشى عليه فاذا افاق قال رب اغفر لقومي فانهم لا يعلمون حتى تمادوا في المعصية
واشتد عليه منهم البلاء وهم ينظرون من الجيل الى الجيل فلا يأتي قرن الا كان
اخبث من الذين قبلهم ولقد كان يأتي القرن الاخر منهم فيقول قد كان هذا الشيخ
مع ابائنا واجدادنا هكذا مجنونا فلا يقبلون منه شيأ فشكى الى الله تعالى فقال
رب اني دعوت قومي ليلا ونهارا حتى قال رب لا تذر على الارض من الكافرين
ديارا فاوحى الله تعالى اليه واصنع الفلك اي السفينة باعيننا قال ابن عباس
بمرأى منا وقال مقاتل بعلمنا وقيل بحفظنا ووحينا اي بامرنا لك كيف تصنعها
ولا تخاطبني في الذين ظلموا اي ولا تراجعني في الكفار ولا تدعني في استدفاع العذاب
عنهم انهم مغرقون اي محكوم عليهم بالاغراق فلا سبيل الى كفه وقيل لا تخاطبني
في ابنك كنعان وامرأتك راعلة فانهما هالكان مع القوم وروي ان جبريل
عليه السلام اتى نوحا فقال ان ربك يامرك ان تصنع الفلك قال كيف اصنع
ولست بنجار قال ان ربك يقول اصنع فانك باعيننا فاخذ القدوم وجعل
ينجر ولا يخطي وصنعها فعملها مثل جؤجؤ الطير وفي قوله تعالى ويصنع الفلك
قولان احدهما انه حكاية حال ماضية اي في ذلك الوقت كان يصدق عليه انه
يصنع الفلك الثاني التقدير فاقبل يصنع الفلك فاقتصر على قوله ويصنع
الفلك ثم ان نوحا عليه السلام اقبل على عملها ولهى عن قومه وجعل يقطع
الخشب ويضرب الحديد ويهيئ عدة الفلك من القار وغيره وجعل قومه يمرون
عليه ويسخرون منه قال تعالى وكلما مر عليه ملأ اي جماعة من قومه سخروا منه
اي استهزؤا به ويقولون يا نوح قد صرت نجارا بعد النبوة فاعقم الله
ارحام نسائهم فلا يولد لهم قال ابن عباس رضي الله عنهما اتخذ نوح عليه السلام
السفينة في سنتين وكان طول السفينة ثلثماية ذراع وكانت من خشب الساج
وجعل لها ثلاثة بطون فجعل في البطن الاول الوحوش والهوام وفي البطن الاوسط
الدواب وركب هو ومن معه البطن الاعلى مع ما يحتاج اليه من الزاد وقال قتادة
كان بابها في عرضها وروي عن الحسن كان طولها الف ذراع ومايتي ذراع وعرضها
ستماية وقيل ان الحواريين قالوا لعيسى عليه السلام لو بعثت لنا رجلا شهد
السفينة يحدثنا عنها فانطلق بهم حتى انتهى بهم الى كثيب من تراب فاخذ كفا من
ذلك التراب فقال اتدرون من هذا قالوا الله ورسوله اعلم قال كعب بن حام
قال فضرب الكثيب بعصاه فقال قم باذن الله فاذا هو قائم ينفض عن راسه
وقد شاب فقال له عيسى عليه السلام هكذا هلكت قال لا ولكن مت وانا شاب
ولكني ظننت انها الساعة فمن ثم شبت قال حدثنا عن سفينة نوح قال كان طولها
الف ذراع وكانت ثلاث طبقات طبقة الدواب والوحوش وطبقة للطاير ثم قال
عد كما كنت فعاد ترابا قال البغوي والمعروف ان طولها ثلثماية ذراع وعن زيد

ابن اسلم

ابن اسلم قال مكث نوح ماية سنة يغرس الاشجار ومائة سنة يعمل الفلك
وعن كعب الاحبار ان نوحا عمل السفينة في ثلاثين سنة وروي انها كانت ثلاث
طبقات الطبقة السفلى للدواب والوحوش والطبقة للطاير الوسطى فيها الانس
والطبقة العليا فيها الطير فلما كثرت ارواث الدواب اوحى الله تعالى لنوح عليه
السلام ان اغمز ذنب الفيل فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة فاقبلا على الروث
ولما افسد الفار في السفينة فجعل يقرض احبالها فاوحى الله اليه ان اضرب
بين عيني الاسد فضرب فخرج من منخره سنور وسنورة وهو القط فاقبلا
على الفار فاكلاه قال الرازي واعلم ان امثال هذه المباحث لا تعجبني لانها امور
لا حاجة الى معرفتها البتة ولا يتعلق بمعرفتها فائدة البتة فكان الخوض
فيها من باب الفضول لا سيما مع القطع بانه ليس ههنا ما يدل على الجانب الصحيح
والذي نعلمه انها كانت في السعة بحيث تسع المؤمنين من قومه وما يحتاجون
اليه ولحصول زوجين من كل حيوان لان هذا القدر مذكور في القران وما
امن معه الا قليل فاما تعيين ذلك فغير معلوم قال لهم لما سخروا منه ان تسخروا
منا فانا نسخر منكم كما تسخرون اذا نجونا وغرقتم فان قيل السخرية لا تليق بمنصب
النبوة اجيب بان ذلك ذكر على سبيل الازدواج في مشاكلة الكلام كما في قوله تعالى
وجزاء سيئة سيئة مثلها والمعنى ان تسخروا منا فسترون عاقبة سخريتكم
وهو قوله تعالى فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه اي يهينه في الدنيا وهو
الغرق ويحل عليه في الاخرة عذاب مقيم وهو النار التي لا انقطاع لها وقوله
تعالى حتى اذا جاء امرنا باهلاكهم غاية لقوله ويصنع الفلك وما بينهما حال
من الضمير فيه او حتى هي التي يبتدأ بعدها الكلام واختلف في التنور
في قوله تعالى وفار التنور فقال عكرمة والزهري هو وجه الارض وذلك انه
قيل لنوح عليه السلام اذا رأيت الما فار على وجه الارض فاركب السفينة وروي
عن علي رضي الله عنه قال فار التنور وقت طلوع الشمس ونور الصبح وقال
الحسن ومجاهد والشعبي انه التنور الذي يخبز فيه وهو قول اكثر المفسرين
ورواية عطية وابن عباس لانه حمل الكلام على حقيقته ولفظ التنور حقيقة
هو الموضع الذي يخبز فيه وهو قول اكثر المفسرين فوجب حمل اللفظ عليه
وهو لا اختلفوا منهم من قال انه تنور لنوح عليه السلام ومنهم من قال انه كان
لادم عليه السلام قال الحسن كان تنورا من حجارة كانت حوا تخبز فيه فصار الى
نوح فقيل لنوح عليه السلام اذا رأيت الما يفور من التنور فاركب السفينة
انت واصحابك واختلفوا ايضا في موضعه فقال مجاهد والشعبي كانت في ناحية
الكوفة وكان الشعبي يحلف بالله ما فار التنور الا من ناحية الكوفة وقال اتخذ
نوح السفينة في جوف مسجد الكوفة وكان التنور على يمين الداخل مما يلي باب
كنده وكان فوران الما منه علما لنوح وقال مقاتل كان ذلك تنور ادم عليه السلام

وكان بالشام بموضع يقال له عين وردة وروي عن ابن عباس انه كان بالهند ومعنى فار
نبع على قوة وشدة تشبيهًا بغليان القدر عند قوة النار ولا شبهة ان التنور لا يفور
والمراد فار الماء من التنور فلما فار امر الله تعالى نوحا عليه السلام ان يحمل في السفينة
ثلاثة من الاشيا الاول قوله تعالى **قلنا احمل فيها** اي السفينة **من كل زوجين
اثنين** والزوجان عبارة عن كل شيئين يكون احدهما ذكرا والاخر انثى والتقدير
من كل شيئين هما كذلك فاحمل منهما في السفينة اثنين واحد ذكر وواحد انثى
وفي القصة ان نوحا عليه السلام قال يا رب كيف احمل من كل زوجين اثنين
فحشر الله اليه السباع والطير فجعل يضرب بيديه في كل جنس فيقع الذكر في
يده اليمنى والانثى في يده اليسرى فيجعلهما في السفينة وقرا حفص بتنوين
لام كل اي واحمل من كل شي زوجين اثنين الذكر زوج والانثى زوج فان قيل
ما الفائدة في قوله زوجين اثنين والزوجان لا يكونان الا اثنين اجيب بان هذا على
مثال قوله تعالى الهين اثنين وقوله تعالى نفخة واحدة والباقون بغير تنوين
فهذا السوال غير وارد النوع الثاني من الاشيا التي امر الله تعالى نوحا
عليه السلام ان يحملها في السفينة قوله تعالى واهلك اي ابناه وزوجته
وقوله تعالى **الا من سبق عليه القول** بانه من المغرقين وهو ابنه كنعان وامه
راعلة وكانا كافرين حكم الله تعالى عليهما بالهلاك بخلاف سام ونوح حام ويافث
وزوجاتهم ثلاثة وزوجته المسلمة فان قيل الانسان اشرف من سائر الحيوانات
فلم بدا بالحيوان اجيب بان الانسان عاقل فهو لعقله مضطر الى دفع اسباب
الهلاك عن نفسه فلا حاجة فيه الى المبالغة في الترغيب بخلاف السعي في تخليص
سائر الحيوانات فلهذا السبب وقع الابتدا به النوع الثالث من الاشيا التي امر الله
تعالى نوحا عليه السلام بحملها في السفينة قوله تعالى واحمل ومن امن اي واحمل
معك من امن معك من قومك واختلف في العدد الذي ذكره الله تعالى في قوله
تعالى **وما امن معه الا قليل** فقال قتادة وابن جريج لم يكن معه في السفينة الا
ثمانية نفر نوح وامراته المسلمة وثلاثة بنين له وهم سام وحام ويافث ونساوهم
وقال ابن اسحاق كانوا عشرة سوى نسايهم نوح وبنوه الثلاثة وستة
اناس ممن كان امن به وازواجهم جميعا وقال مجاهد كانوا اثنين وسبعين
نفرا رجلا وامراة وعن ابن عباس قال كان في سفينة نوح ثمانون نصفهم رجال
ونصفهم نسا وقال الطبري والصواب من القول في ذلك ان يقال كما قال الله
تعالى وما امن معه الا قليل فوصفهم بالقلة فلم يحد عددا بمقدار فلا ينبغي ان
يجاوز في ذلك حد الله تعالى اذ لم يرد عدد في كتاب الله تعالى ولا في خبر صحيح عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم وتقدم نحو ذلك عن الرازي وقال مقاتل حمل نوح معه في
السفينة جسد ادم عليه السلام فجعله معترضا بين الرجال والنسا وقصد
نوح عليه السلام جميع الدواب والطير ليحملها قال ابن عباس اول ما حمل نوح الدرة

واخر ما حمل الحمار فلما دخل الحمار وصدره تعلق ابليس بذنبه فلم تستقل رجلاه
فجعل نوح يقول ويحك ادخل فينهض فلا يستطيع حتى قال ويحك ادخل وان كان
معك الشيطان كلمة زلت على لسانه فلما قالها خلى الشيطان سبيله فدخل ودخل
الشيطان معه فقال نوح على يا عدو الله قال الم تقل ادخل وان كان معك
الشيطان ... ما لك بد ان تحملني معك فكان
معه على ظهر السفينة هكذا نقله البغوي قال الرازي واما الذي يروى ان
ابليس دخل السفينة فبعيد لانه من الجن وهو جسم ناري او هوائي فكيف يوثر
الغرق فيه وايضا كتاب الله تعالى لم يدل عليه ولم يرد في ذلك خبر صحيح فالاولى ترك
الخوض فيه في ذلك قال البغوي وروي ان بعضهم قال ان الحية والعقرب اتيا
نوح عليه السلام فقالا احملنا معك فقال انكما سبب البلا فلا احملكما فقالا
احملنا فانا نضمن لك ان لا نضر احدا ذكرك فمن قرا حين يخاف سلام على نوح في
العالمين لم يضراه وقال الحسن لم يحمل نوح في السفينة الا ما يلد ويبيض
فاما ما يتولد من الطين من حشرات الارض كالبق والبعوض لم يحمل منها شيا
وقال نوح لمن معه **اركبوا** اي صيروا **فيها** اي السفينة وجعل ذلك ركوبا لانها
في الما كالمركب في الارض وقوله **بسم الله مجريها ومرسيها** متصل باركبوا حال من الواو في
اركبوا اي اركبوا فيها مسمين الله او قايلين بسم الله وقت اجرايها وارسايها
قال الضحاك كان نوح اذا اراد ان تجري السفينة قال بسم الله جرت واذا اراد
ان ترسو قال بسم الله رست وقرا حفص وحمزة والكسائي بفتح من جرت
ورست اي جريها اي بسم الله اجراوها وارساوها وامال الالف بعد الرا ابو عمرو
وحفص والكسائي محضة وورش بين اللفظين والباقون بالفتح وذكروا في عامل الاعراب ب
في بسم الله وجوها الاول اركبوا بسم الله الثاني ابدوا بسم الله الثالث
بسم الله اجراوها **ان ربي لغفور رحيم** اي لولا مغفرته لفرطاتكم ورحمته اياكم
لما نجاكم وقوله تعالى **وهي تجري بهم** متعلق بمحذوف دل عليه اركبوا اي فركبوا
مسمين الله تعالى وهي تجري وهم فيها **في موج** وهو ما ارتفع من الما اذا اشتدت
عليه الريح كالجبال في عظمه وارتفاعه على الما قال العلما بالسير ارسل الله تعالى
المطر اربعين يوما وليلة وخرج الما من الارض فذلك قوله تعالى ففتحنا ابواب
السما بما منهمر وفجرنا الارض عيونا فالتقى الما على امر قد قدر فصار الماء
نصفين نصف من السما ونصف من الارض وارتفع الما على اعلى جبل واطوله
اربعين ذراعا وقيل خمسة عشر ذراعا حتى اغرق كل شي وروي انه لما كثر الما في
السكك خافت امراة على ولدها من الغرق وكانت تحبه حبا شديدا فخرجت
به الى الجبل حتى بلغت ثلثه فلما بلغها الما ذهبت حتى استوت على الجبل فلما بلغ الما
رقبتها رفعت الصبي بيديها حتى ذهب بها الما فلو رحم الله منهم احدا لرحم الله
هذه المراة وما قيل من ان الما طبق ما بين السما والارض وكانت السفينة تجري
في جوفه كما تسبح السمكة فليس بثابت قال البيضاوي والمشهور انه على شوامخ

خمسة عشر ذراعا فان صح اي انه طبق ما بين السماء والارض فقد ذلك اي ماذكر من
علو الموج قبل التطبيق ونادى نوح ابنه كنعان وكان كافرا كامر وقيل كان بامر
وكان في معزل عزل فيه نفسه اما عن ابيه او دينه ولم يركب معه واما عن السفينة
واما عن الكفار كانه انفرد عنه وظن نوح عليه السلام ان ذلك انما كان لانه احب
مفارقتهم ولذلك ناداه بقوله يا بني اركب معنا في السفينة وقرا عاصم بفتح الياء
اقتصارا على الفتح من الالف المبدلة من ياء الاضافة يا ابنا والباقون بالكسر
في الوصل ليدل على ياء الاضافة المحذوفة كما قال الشاعر

يا ابنة عمي لا تلومي واهجعي ثم حذف الالف للتخفيف ولا تكن مع الكافرين
اي في دين او مكان فتهلك ولما قال له ذلك قال ساوي اي التجي واصير الى
جبل يعصمني من الماء اي يمنعني قال له نوح عليه السلام لا عاصم اي لا مانع
اليوم من امر الله اي من عذابه وقوله الا من رحم استثناء منقطع كانه قيل ولكن
من رحمه الله فهو المعصوم كقوله تعالى ما لهم به من علم الا اتباع الظن وقيل
من رحم اي الا الراحم وهو الله تعالى وقيل الا مكان من رحمه الله فانه مانع من
ذلك وهو السفينة وحال بينهما الموج اي بين نوح وابنه والجبل الموج المذكور
في قوله موج كالجبال فكان ابنه من المغرقين اي فصار من المهلكين بالماء لما
تناهى الطوفان واغرق قوم نوح وقيل اي قال الله تعالى او ملك بامره تعالى
يا ارض ابلعي ماءك اي اشربيه ويا سماء اقلعي اي امسكي ماءك ناداهما بما
ينادي به الحيوان المميز على لفظ التخصيص والاقبال عليهما بالخطاب من بين
سائر المخلوقات ثم امرهما بما يؤمر به اهل التمييز والعقل تمثيلا لكمال انقيادهما
لما يشاء تكوينه فيهما وها هنا همزتان مختلفتان من كلمتين الاولى مضمومة والثانية
مفتوحة قرا ابو عمرو ونافع وابن كثير بابدال الثانية واوا خالصة والباقون بالتحقيق
وغيض الماء اي نقص وذهب وقرا هشام والكسائي باشمام الغين وهو ضم الغين
قبل الياء والباقون بالكسر وكذا وقيل وقضي الامر اي وانجز ما وعد من اهلاك
الكافرين وانجاء المؤمنين اي استقرت السفينة واستوت على الجودي وهو جبل
بالجزيرة قرب من الموصل وقيل او قال الله تعالى او ملك بامره بعدا
اي هلاكا للقوم الظالمين ومجي اخباره على الفعل المبني للمفعول للدلالة على
الجلال والكبريا وان تلك الامور العظام لا تكون الا بفعل فاعل قادر وتكوين
مكون وان فاعلها فاعل واحد لا يشارك في افعاله فلا يذهب الوهم الى ان
يقول غيره يا ارض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي ولا ان يقضي ذلك الامر الهائل غيره
ولا ان تستوي على متن الجودي وتستقر عليه الا بتسويته واقراره وروي
ان السفينة لما استقرت بعث نوح عليه السلام الغراب لياتيه بخبر الارض
فوقع على جيفة فلم يرجع فبعث الحمامة فجاءت بورق زيتون في منقارها ولطخت
رجليها بالطين فعلم نوح ان الماء قد نقص فقيل انه دعا على الغراب بالخوف فلذا

لا يالف البيوت وطوق الحمامة الخضرة التي في عنقها ودعا لها بالامان فمن ثم تالف
البيوت وروي ان نوحا ركب السفينة لعشر مضت من رجب وجرت بهم السفينة
ستة اشهر ومرت بالبيت العتيق وقد رفعه الله تعالى من الغرق وبقي موضعه
فطافت السفينة به سبعا واودع الحجر الاسود في جبل ابي قبيس وهبط نوح
ومن معه في السفينة يوم عاشوراء فصامه نوح وامر من معه بصيامه شكرا لله
تعالى وبنوا قرية بقرب الجبل وسميت ثمانين فهي اول قرية عمرت على وجه الارض بعد
الطوفان وقيل انه لم ينج احد من الكفار من الغرق غير عوج بن عنق وكان الماء يصل
الى حجزته وهذا لا ياتي على القول باطباق الماء قال هذا القائل وسبب نجاته ان
نوحا احتاج الى خشب ساج للسفينة فلم يمكنه نقله فحمله اليه عوج من الشام
فنجاه الله تعالى من الغرق فان قيل كيف اغرق الله تعالى من لم يبلغ الحلم من الاطفال
اجيب بانه تعالى متصرف في خلقه لا يسال عما يفعل وقيل ان الله تعالى اعقم ارحام
نسائهم اربعمائة سنة فلم يولد لهم تلك المدة ونادى نوح ربه اي دعاه وساله
فقال رب ان ابني من اهلي وقد وعدتني ان تنجيني واهلي وان وعدك الحق اي
الصدق الذي لا خلف فيه وانت احكم الحاكمين لانك اعلمهم واعدلهم فان
قيل اذا كان النداء هو قوله فكيف عطف قال رب على نادى بالفاء اجيب بان
الفاء تفصيل لمجمل نادى مثلها في توضا فغسل وقيل نادى اي اراد نداءه فقال
رب قال الله تعالى له يا نوح اي هذا الابن الذي سالت نجاته انه
ليس من اهلك اي المحكوم بنجاتهم لايمانهم لكفره ولهذا علل بقوله تعالى انه عمل
غير صالح وقرا الكسائي بكسر الميم ونصب اللام بغير تنوين ونصب الراء اي
عمل الكفر والتكذيب وكل هذا غير صالح والباقون بفتح الميم ورفع اللام منونة
ورفع الراء اي ذو عمل غير صالح فجعل ذاته العمل للمبالغة كقول الخنساء
تصف ناقة ترتع فانما هي اقبال وادبار واختلف علماء التفسير هل كان ذلك
الولد ابن نوح او لا على اقوال الاول وهو قول ابن عباس وعكرمة وسعيد بن
جبير والضحاك والاكثرون انه ابنه حقيقة ويدل عليه انه تعالى نص عليه
فقال ونادى نوح ابنه ونوح ايضا نص عليه فقال يا بني وصرف هذا اللفظ
انه رباه واطلق عليه اسم الابن لهذا السبب صرف الكلام عن حقيقته الى
مجازه من غير ضرورة القول الثاني انه كان ابن امراته وهو قول محمد بن علي
الباقر وقول الحسن البصري الثالث وهو قول مجاهد والحسن انه ولد
حنث ولد على فراشه ولم يعلم نوح بذلك واحتج هذا القائل بقوله تعالى
في امراة نوح وامراة لوط فخانتاهما قال الرازي وهذا قول خبيث يجب
صون منصب الانبياء عن هذه الفضيحة لا سيما وهو خلاف نص القرآن
وقد قيل لابن عباس ما كانت تلك الخيانة فقال كانت امراة نوح تقول
زوجي مجنون وامراة لوط تدل الناس على ضيفه اذا نزل به ولا تسال الذي

ما ليس لك به علم اي بالاعتقاد الصواب هو ابنه لا لان اللايق بامثالك من اولي القرب بناء امورهم على التحقيق وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر بفتح اللام وتشديد النون والباقون بسكون اللام وتخفيف النون واثبت اليا بعد النون في الوصل دون الوقف ورش وابو عمرو وحذفها الباقون وقفا ووصلا **اني اعظك** اي بمواعظ كراهة **ان تكون من الجاهلين** فسال كما يسال الولد وانما سمي نداه سؤالا لتضمن ذكر الوعد بنجاة اهله واستنجازه في شان ولده **قال** نوح **رب اني اعوذ بك** اي من ان **اسألك** في شي من الاشيا **ما ليس لي به علم** تادبا بادبك واتعاظا بوعظك **والا تغفر لي** اي الان ما فرط مني وفي المستقبل ما يقع مني **وترحمني** اي تستر زلاتي وتمحها وتكرمني **اكن من الخاسرين** اي العريقين في الخسارة فان قيل هذا يدل على عدم عصمة الانبيا لوقوع هذه الزلة من نوح عليه السلام اجيب بان الزلة الصادرة من نوح انما هي كونه لم يستقص ما يدل على نفاق ابنه وكفره لان قومه كانوا على ثلاثة اقسام كافر يظهر كفره ومومن يخفي ايمانه ومنافق لا يعلم حاله في نفس الامر وقد كانت حكم المومنين هو النجاة وحكم الكافرين هو الغرق وكان ذلك معلوما واهل النفاق فبقي امرهم مخفيا وكان ابن نوح منهم وكان يجوز فيه كونه مومنا وكانت الشفقة المفرطة التي تكون للاب في حق الابن تحمله على حمل اعماله وافعاله لا على كونه كافرا بل على الوجوه الصحيحة فاخطا في ذلك الاجتهاد كما وقع لادم عليه السلام في الاكل من الشجرة فلم يظهر عنه الا الخطا في الاجتهاد ولم تصدر منه معصية فلجا الى ربه تعالى وخشع له ودعاه وساله المغفرة والرحمة كما قال ادم عليه السلام ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين لان حسنات الابرار سيئات المقربين **قيل** اي قال الله تعالى او ملك بامره **يا نوح اهبط** اي انزل من السفينة او من الجبل الى الارض المستوية **بسلام** اي بتحية وامن وسلامة **منا** وذلك ان الغرق لما كان عاما في جميع الارض فعندما خرج عليه السلام من السفينة علم انه ليس في الارض شي مما ينتفع به من النبات والحيوان فكان كالخائف في انه كيف يعيش وكيف يدفع جهات الحاجات عن نفسه من الماكول والمشروب فلما قال الله تعالى اهبط بسلام منا زال عنه ذلك الخوف لان ذلك يدل على حصول السلامة وان لا يكون الا مع الامن وسعة الرزق ثم انه تعالى لما وعده بالسلامة اردفه بان وعده بالبركة بقوله تعالى **وبركات عليك** وهو عبارة عن الدوام والبقا والثبات لان الله تعالى صير نوحا ابا البشر لان جميع من بقي كانوا من نسله لان نوحا لما خرج من السفينة مات من كان معه ممن لم يكن من ذريته ولم يحصل النسل الا من ذريته فالخلق كلهم من نسله او انه لم يكن معه في السفينة الا من كان من نسله وذريته وعلى التقديرين فالخلق كلهم من

ذريته

كانوا مستوجبين لما نزل بهم بسبب ما حكي عنهم وانما كرر الا وعاد ذكرهم تفظيعا لامرهم وحثا على الاعتبار بحالهم وقوله تعالى **قوم هود** عطف بيان لعاد وفائدته تمييزهم من عاد الثانية عاد ارم والايما الى استحقاقهم للبعد بما جرى بينهم وبين هود

القصة الثالثة التي ذكرها الله في هذه السورة قصة صالح عليه السلام المذكورة في قوله تعالى **والى ثمود** وهم سكان الحجر اي وارسلنا الى ثمود **اخاهم** فهو معطوف على قوله تعالى نوحا كما عطف عليه والى عاد وقوله تعالى **صالحا** عطف بيان وتلك الاخوة كانت في النسب لا في الدين كما في هود ثم اخرج عليه السلام على تقدير سؤال بقوله **قال يا قوم** اي من يعجز على ان يحصل لهم سوء **اعبدوا الله** اي وحدوه وخصوه بالعبادة **ما لكم من اله غيره** هو الحكيم المستحق العبادة لا هذه الاصنام ثم ذكر الدلايل الدالة على وحدانيته بقوله **هو انشاكم** اي ابتدا خلقكم **من الارض** وذلك انهم من بني ادم وادم خلق من الارض او ان الانسان من المني وهو متولد من الدم والدم متولد من الاغذية وهي اما حيوانية واما نباتية فاما الحيوانية فحالها كحال الانسان فوجب انتهاء الكل الى النبات والنبات تولد من الارض فثبت انه تعالى انشا الانسان من الارض وقيل من بمعنى في كما في قوله تعالى اذا نودي للصلاة من يوم الجمعة **واستعمركم فيها** اي جعلكم عمارها وسكانها وقال الضحاك اطال اعماركم فيها حتى ان الواحد منهم يعيش ثلثمائة سنة الى الف سنة وكذا كان قوم عاد وروي ان ملوك فارس قد اكثروا من حفر الانهار وغرس الاشجار وحصلت لهم الاعمار الطويلة فسال نبي من انبيا زمانهم ربه ما سبب تلك الاعمار فاوحى اليه انهم عمروا بلادي فعاش فيها عبادي واخذ معاوية في احيا الارض في اخر عمره فقيل له فقال ما حملني عليه الا قول القايل

ليس الفتى بفتى لا يستضاء به * ولا يكون له في الارض اثار

وقال مجاهد اعمركم من العمرى اي جعلها لكم ما عشتم فاذا متم انتقلت الى غيركم ولما بين لهم عليه السلام عظمة الله تعالى بين لهم طريق الرجوع اليه بقوله **فاستغفروه** اي امنوا به **ثم توبوا اليه** من عبادة غيره لان التوبة لا تصح الا بعد الايمان وقدم مثل ذلك **ان ربي قريب** من خلقه بعلمه لكن من اقبل عليه من غير حاجة الى حركة **مجيب** لكل من ناداه لا كمعبوداتكم في الامرين ولما قررهم عليه السلام هذه الدلايل **قالوا** له **يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا** اي قبل الذي جئت به لما نرى فيك من مخايل الرشد والسداد فانك كنت تعطف على فقيرنا وتعين ضعيفنا وتعود مرضانا فقوي رجاؤنا فيك انك تنصر ديننا فكيف اظهرت العداوة ثم انهم اضافوا الى هذا التعجب الشديد فقالوا **اتنهانا ان نعبد ما كان يعبد اباؤنا** من الالهة ومقصودهم بذلك التمسك بطريق التقليد ووجوب متابعة الاباء والاسلاف ونظير هذا التعجب ما حكاه الله تعالى عن كفار مكة حيث قالوا اجعل الالهة الها واحدا ان هذا لشيء عجاب ثم قالوا **وانا لفي شك مما تدعونا اليه**

من التوحيد وترك عبادة الاصنام **مريب** اي موقع في الريبة وهي قلق النفس وانتفاء
الطمانينة باليقين والرجاء تعلق النفس بمجي الخير على جهة الظن ونظيره الامل
والطمع والنهي المنع من الفعل بصيغة لا تفعل وقولهم هذا مبالغة في تزييف
كلامه **قال** صالح عليه السلام مجيبا لهم **يا قوم ارايتم** اي اخبروني **ان كنت**
على بينة اي بيان وبصيرة **من ربي** واتى بحرف الشك على سبيل الجزم لبلاسيم
الخطاب حال المخاطبين **وآتاني منه رحمة** اي نبوة ورسالة **فمن ينصرني** اي يمنعني
من الله اي عذابه **ان عصيته** اي ان خالفت امره في تبليغ رسالته والمنع عن
الاشراك به **فما تزيدونني** اي بامركم لي بذلك **غير تخسير** اي تضليل قال الحسن
ابن الفضل لم يكن صالح في خسارة حتى يقول فما تزيدونني غير تخسير وانما المعنى
فما تزيدونني بما تقولون الا نسبتي اياكم الى الخسارة ولما كانت العادة فيمن
يدعي النبوة عند قوم يعبدون الاصنام ان يطلبوا منه المعجزة وامر صالح
عليه السلام هكذا كان يروى ان قومه خرجوا في عيدهم فسالوه ان ياتيهم
باية وان يخرج لهم من صخرة معينة اشاروا اليها ناقة فدعا ربه فخرجت
كما اشاروا اليها بقوله **ويا قوم هذه ناقة** واضافها الى الله اضافة تشريف كبيت
الله **لكم آية** اي معجزة من وجوه الاول انه خلقها الله تعالى من الصخرة ثانيها
انه تعالى خلقها في جوف الجبل ثم شق الجبل عنها ثالثها انه تعالى خلقها حاملا
من غير ذكر ثم ولد فصيلا يشبهها رابعها انه تعالى خلقها على تلك الصورة
دفعة واحدة خامسها ما روي انه كان لها شرب يوم ولكل القوم شرب يوم
اخر سادسها انه كان يحصل منها لبن كثير يكفي الخلق العظيم به فكل واحد من
هذه الوجوه معجز قوي وليس في القرآن الا هذه الناقة كانت آية معجزة
واما بيان انها كانت معجزة من اي الوجوه فليس فيه بيان نصب آية نصب
على الحال وعاملها معنى الاشارة ولكم حال منها تقدمت على الحال ثم قال لهم
فذروها اي اتركوها على اي حالة كانت نترككم لها **تأكل** مما ارادت **في ارض**
الله من العشب والنبات فليس عليكم مؤنتها فصارت مع كونها آية لهم
تنفعهم ولا تضرهم لانهم كانوا ينتفعون بلبنها ثم انه عليه السلام خاف عليها
منهم لما شاهد من اصرارهم على الكفر فان الخصم لا يحب ظهور حجة خصمه بل يسعى
في اخفائها وابطالها باقصى الامكان فلهذا السبب كان يخاف من اقدامهم على
قتلها وقال **ولا تمسوها** اي بعقر وغيره ثم توعدهم بقوله **بسوء فياخذكم** اي
بسببها **عذاب قريب** اي في الدنيا لا يتاخر عن مسكم لها الا يسيرا
وذلك تحذير شديد لهم في الاقدام على قتلها فخالفوه **فعقروها** وذبحوها
فقال لهم عند بلوغه الخبر **تمتعوا** اي عيشوا **في داركم** والتمتع التلذذ
بالمنافع والملاذ التي تدرك بالحواس وذلك لا يحصل الا للحي وفي المراد من الديار
وجهان احدهما البلد وتسمى البلد الديار لانه يدار فيها اي يتصرف يقال ديار بكر

هم

سر يأتيكم العذاب [illegible]

لبلادهم اي في دار الدنيا اي تمتعوا في الدنيا **ثلاثة ايام** وذلك انهم لما عقروا الناقة انذر
صالح عليه الصلاة والسلام بنزول العقاب بعد هذه المدة قال ابن عباس انه تعالى
لما امهلهم تلك الايام الثلاثة فقد رغبهم في الايمان ثم قالوا لصالح عليه السلام
وما علامة ذلك قال تصير وجوهكم في اليوم الاول مصفرة وفي الثاني محمرة وفي الثالث
مسودة ثم ياتيكم العذاب فتحنطوا واستعدوا للعذاب فصبحهم اليوم الرابع كما قال
تعالى **ذلك** اي الوعد العالي الرتبة في الصدق **وعد غير مكذوب** اي فيه فاتسع في
الظرف بحذف الحرف واجرائه مجرى المفعول به كقوله ويوم شهدناه اي ورب يوم
شهدنا فيه سليما وعامرا وغير مكذوب على المجاز ووعد غير كذب على انه مصدر وقوله
تعالى **فلما جاء امرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا** في تفسيره وقوله
المراد بين وعدد الذين آمنوا مثل ما تقدم في قصة عاد **ومن خزي يومئذ** ومن
هلاكهم بالصيحة او ذلهم او فضيحتهم يوم القيمة وقرا نافع والكسائي بفتح الميم
من يومئذ على البناء لاضافتها الى المبني وكسرها الباقون على الاعراب والاول اكثر
ان ربك هو القوي فهو يغلب كل شيء **العزيز** اي القادر على منع غيره من غير ان يقدر احد
عليه ثم اخبر تعالى عن عذاب قوم صالح بقوله **واخذ الذين ظلموا** اي انفسهم
بالكفر **الصيحة** اي صيحة جبريل عليه السلام صاح بهم صيحة واحدة فهلكوا جميعا
او اتاهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم في صدورهم فماتوا جميعا كما قال تعالى
فاصبحوا في ديارهم جاثمين اي باركين على الركب ميتين تنبيه انما قال تعالى واخذ
ولم يقل واخذت لان الصيحة محمولة على الصياح وايضا فصل بين الفعل والاسم
المؤنث بفاصل فكان الفاصل كالعوض من تاء التانيث وقوله تعالى **كان** مخففة من الثقيلة
واسمها محذوف اي كانهم **لم يغنوا** اي يقيموا **فيها** اي ديارهم ولم يسكنوها مدة من الدهر
تقول غنيت بالمكان اذا اقمت به وقوله تعالى **الا ان ثمود كفروا ربهم الا بعدا لثمود**
تفسيره ما تقدم في قوله تعالى الا ان عادا كفروا ربهم الآية وقرا حفص وحمزة الا ان
ثمود بغير تنوين للتعريف والتانيث بمعنى القبيلة والباقون بالتنوين الذهاب الى الحي
او الى الحي الاكبر ومن نون وقف على الف بعد الدال ومن لم ينون وقف على الدال ساكنة
وقرا الكسائي بعدا لثمود بتنوين ثمود مع الكسر والباقون بغير تنوين مع الفتح
لما مر **القصة الرابعة** التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة قصة ابراهيم
عليه الصلاة والسلام المذكورة في قوله تعالى **ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى** اي
باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب والمراد بالرسل الملائكة ولفظ رسلنا جمع واقله
ثلاثة واختلف في الزائد على ذلك واجمعوا على ان الاصل فيهم كان جبريل عليه السلام
واقتصر ابن عباس وعطاء على اقل الجمع فقالا كانوا ثلاثة جبريل وميكائيل واسرافيل
وهم الذين ذكرهم الله تعالى في سورة الذاريات بقوله تعالى هل اتاك حديث ضيف ابراهيم
المكرمين وفي الحجر ونبئهم عن ضيف ابراهيم المكرمين وقال الضحاك كانوا تسعة هم
وقال محمد بن كعب القرظي كان جبريل ومعه سبعة املاك وقال السدي

كان جبريل ومعه احدى عشر ملكا على صورة الغلمان الذين يكونون في غاية الحسن قالت
النحويون ودخلت كلمة قد ههنا لان السامع لقصص الانبيا يتوقع قصة بعد قصة وقد
للتوقع ودخلت اللام في لقد لتاكيد الخبر **قالوا سلاما** اي سلمنا عليك سلاما ويجوز
نصبه فقالوا على معنى ذكروا سلاما سلمنا **قال سلام** اي امركم او جوابي سلام اذ
وعليكم سلام تحيته قوله سلام اكمل من قوله السلام لان التنكير يفيد الكمال
والمبالغة والتمام ولهذا صح وقوعه مبتدا لان النكرة اذا كانت موصوفة جاز
جعلها مبتدا واما لفظ السلام فانه لا يفيد الا الماهية فاذا قيل فلاي شي جاء
الاول في التحلل من الصلاة عند النووي اجيب بان ذلك سنة متبعة وقرا
حمزة والكسائي بكسر السين وسكون اللام ولا الف بعدها والباقون
بفتح السين والف بعدها قال الفرا ولا فرق بين القراءتين كما يقال حل وحلال
وحرم وحرام وقيل سلم هو بمعنى الصلح اي نحن سلم صلح غير حرب **فما لبث
ان جا بعجل حنيذ** اي فما ابطا مجيئه به والحنيذ المشوي على
الحجارة المحماة في حفرة من الارض وكان سمينا يقطر ودكه كما قال في موضع اخر
فجا بعجل سمين قال قتادة كان عامة مال ابراهيم البقر وروي ان ابراهيم
مكث خمس عشر ليلة لم ياته ضيف فاغتم لذلك وكان يحب الضيف ولا
ياكل الا معه فلما جا الملايكة راى اضيافا لم ير مثلهم فعجل قراهم وجا بعجل
سمين مشوي **فلما راى ايديهم** اي الاضياف **لا تصل اليه** اي لا يمدون
ايديهم اليه **نكرهم** اي انكرهم وانكر حالهم لامتناعهم من الطعام **واوجس** اي
اضمر في نفسه **منهم خيفة** اي خوفا قال قتادة وذلك انهم كانوا اذا نزل
بهم ضيف فلم ياكل من طعامهم ظنوا انه لم يات بخير وانما جا بشر **قالوا لا تخف** يا ابراهيم
انا ملايكة الله **ارسلنا الى قوم لوط** بالعذاب وانما لم نمد له ايدينا لانا
لا ناكل **وامراته** اي ابراهيم سارة وهي ابنة عم ابراهيم **قائمة** وراء الستر
تسمع محاورتهم او على روسهم للخدمة فسمعت البشارة بالولد التي دلت
عليها فيما مضى قوله بالبشرى **فضحكت** سرورا من تلك البشرى لزوجها
مع كبره ولما ظنته من غيرها لانها كانت عجوزا عقيما فازال ذلك الظن عنها
بقوله تعالى **فبشرناها** اي على لسان الملايكة تشريفا لها وتفخيما
لشانها **باسحاق ومن ورا اسحاق يعقوب** اي يكون يعقوب عليه السلام
ابنا لاسحاق عليه السلام فعيش حتى ترى ولد ولدها قال البقاعي والذي
يدل على هذا التقدير من انهم بشروه بالولد قبل امراته فسمعت بما اتى عن
نص التوراة وساق من التوراة عبارة مطولة وقيل سبب سرورها زوال
الخيفة او هلاك اهل الفساد وقيل فضحكت فحاضت كما قال الشاعر
عهدي بسلمى ضاحكا في لبانه اي حائضا في جماعة من النسا وهذا رد على الفرا
حيث قال فضحكت يعني حاضت لم تسمعه من ثقة وقال اخر

تضحك

تضحك الضبع لقتلى هذيل اراد انها تحيض فرحا تنبيه ههنا همزتان مكسورتان
من كلمتين قرا قالون والبزي بتسهيل الاولى مع المد والقصر وقرا ورش وقنبل
بتسهيل الثانية وابدالها ايضا حرف مد وقرا ابو عمرو باسقاط احدهما مع
المد والقصر والباقون بتخفيف الهمزتين ولا الف بينهما **قالت يا ويلتى** هذه
كلمة تقال عند امر عظيم والالف مبدلة من يا الاضافة **االد وانا عجوز** وكانت
ابنة تسعين سنة في قول ابن اسحق وقال مجاهد تسع وتسعين سنة
وهذا بعلي اي زوجي سمي بذلك لانه قيم امرها وقولها **شيخا** نصب على
الحال قال الواحدي وهذا من لطيف النحو وغامضه فان كلمة هذا للاشارة
فكان قولها وهذا بعلي شيخا قايم مقام ان يقال اشير الى بعلي حال كونه شيخا والمقصود
تعريف هذه الحالة المخصوصة وهي الشيخوخة وكان ابن مائة وعشرين سنة
في قول ابن اسحق وقال مجاهد مائة سنة وكان بين الولادة والبشارة سنة
ان هذا لشي عجيب اي ان الولد من هرمين فهو استعجاب من حيث العادة دون
القدرة ولذلك **قالوا** اي الملايكة لسارة **اتعجبين من امر الله** منكرين عليها ذلك
اي لا تعجبين من ذلك فان الله تعالى قادر على كل شي واذا اراد شيئا كان سيما فات
خوارق العادات باعتبار اهل بيت النبوة ومهبط المعجزات وتخصيصهم بمزيد
النعم والكرامات ليس بمستغرب **رحمة الله وبركاته عليكم اهل البيت** اي بيت ابراهيم
واهل منصوب على المدح او النداء لقصد التخصيص كقولهم اغفر لنا ايتها العصابة
وهذا على معنى الدعا من الملايكة لهم بالخير والبركة وفيه دليل على ان ازواج الرجل
من اهل بيته **انه تعالى حميد** اي محمود على كل حال او فاعل ما يستوجب به الحمد
مجيد اي كثير الخير والاحسان القصة الخامسة التي ذكرها الله تعالى
في هذه السورة قصة لوط عليه السلام المذكورة في قوله تعالى **فلما ذهب عن ابراهيم
الروع** اي الخوف وهو ما اوجس من الخيفة حين انكر اضيافه واطمان قلبه بعرفانهم
وجاته البشرى بدل الروع بالولد اخذ **يجادلنا** اي يجادل رسلنا **في** شان
قوم لوط وجواب لما اخذ يجادلنا الا انه حذف اللفظ لدلالة الكلام عليه
وقيل تقديره لما ذهب عن ابراهيم الروع جادلنا فان قيل كيف جادل ابراهيم الملايكة
مع علمه بانهم لا يمكنهم مخالفة امر الله وهذا منكر اجيب بان المراد من هذه المجادلة
تاخير العذاب عنهم لعلهم يومنون ويرجعون عما هم عليه من الكفر والمعاصي
لان الملايكة قالوا انا مهلكوا اهل هذه القرية او ان مجادلته انما كانت في قوم لوط
بسبب مقام لوط فيهم ولهذا قال ابراهيم عليه السلام ارايتم لو كان فيها
خمسين رجلا من المومنين اتهلكونها قالوا لا قال او اربعون قالوا لا قال فثلاثون
قالوا لا قال فعشرون قالوا لا حتى بلغ خمسة قالوا لا قال ارايتم لو كان فيها
رجل مسلم اتهلكونها قالوا لا فعند ذلك قال ان فيها لوطا وقد ذكر الله تعالى
هذا في سورة العنكبوت فقال ولما جات رسلنا لوطا ابراهيم بالبشرى

قالوا انا مهلكوا اهل هذه القرية ان اهلها كانوا ظالمين قال ان فيها لوطا قالوا نحن اعلم
بمن فيها لننجينه واهله الا امراته كانت من الغابرين قال ابن جريج وكان في قرى لوط
اربعة الاف الف ولو كانت هذه المجادلة مذمومة ما مدحه بقوله تعالى ان ابراهيم
لحليم اي لا يتعجل مكافاة غيره بل يتاني فيه بل يتاخر ويعفو ومن هذا حاله
يحب من غيره هذه الطريقة وهذا مدح عظيم من الله تعالى لابراهيم ثم ضم الى
ذلك ما يتعلق بالحلم وهو قوله اواه اي كثير التاوه من الذنوب والتاسف
على الناس منيب اي رجاع فلما اطال مجادلتهم قالوا له يا ابراهيم اعرض عن هذا
اي الجدال وان كانت الرحمة ديدنك فلا فائدة فيه انه قد جاء امر ربك اي قضاؤه
الازلي بعذابهم وهو اعلم بحالهم وانهم اتيهم عذاب غير مردود اي لا سبيل الى دفعه
ورده ولما جاءت رسلنا لوطا اي هؤلاء الملئكة الذين بشروا ابراهيم بالولد قال
ابن عباس انطلقوا من عند ابراهيم الى لوط وهو ابن اخي ابراهيم عليهما السلام
وبين القريتين اربع فراسخ ودخلوا عليه على صورة شباب مرد من بني ادم
وكانوا في غاية الحسن ولم يعرف لوط انهم ملئكة الله تعالى سيء بهم اي حزن
بسببهم وضاق بهم ذرعا اي صدرا يقال ضاق ذرع فلان بكذا اذا وقع في مكروه
لا يطيق الخروج منه وذلك ان لوطا نظر الى حسن وجوههم وطيب روائحهم
فخاف عليهم خبث قومه وان يعجز عن مقاومتهم وقيل ساءه ذلك لانه عرف
بالاخرة انهم ملئكة الله تعالى وانهم جاؤا لاهلاك قومه فرق قلبه على قومه
وقال هذا يوم عصيب اي شديد كانه قد عصب به الشر والبلاء اي شد به
ماخوذ من العصابة التي تشد به الراس قال قتادة خرجت الملئكة من عند
ابراهيم نحو قرية لوط فاتوا لوطا نصف النهار وهو في ارض له يعمل فيها وروي
انه كان يحتطب وقد قال الله تعالى لهم لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط اربع
شهادات فاستضافوه وانطلق بهم فلما مضى ساعة قال لهم ما بلغكم
من امر هذه القرية قالوا وما امرهم قال اشهد بالله انها لشر قرية في الارض
عملا يقول ذلك اربع مرات وروي ان الملئكة جاؤا الى بيت لوط فوجدوه في داره
ولم يعلم بذلك احد الا اهل بيت لوط فخرجت امراته فاخبرت قومها وقالت ان
في بيت لوط رجالا ما رايت مثل وجوههم قط وجاءه قومه لما علموا بهم يهرعون
اي يسرعون اليه قال ابن عباس وقال الحسن الاهراع المشي بين مشيتين
ومن قبل اي قبل مجيئهم الى لوط وقيل من قبل مجي الرسل اليهم كانوا يعملون
السيئات اي الفعلات الخبيثة والفاحشة القبيحة وهي اتيان الرجال في
ادبارهم قال لوط لقومه حين قصدوا اضيافه وانهم غلمان من بني ادم
يا قوم هؤلاء بناتي قال هؤلاء بناتي مجاهد وسعيد بن جبير اراد بناته نساء قومه
واضافهن الى نفسه لان كل نبي هو ابو امته كالوالد لهم اي فتزوجوا منهن وقيل
اراد بنات نفسه عرضهن عليهم بشرط الاسلام وقيل كان في ذلك الوقت

وفي بنا

وفي بنات الشريعة يباح تزويج المراة المسلمة بالكافر كما زوج رسول الله صلى الله
عليه وسلم ابنته من عتبة بن ابي لهب وابن العاص بن وائل قبل الوحي وهما كافران
وقيل كان لهم سيدان مطاعان فاراد ان يزوجهما ابنتيه هن اطهر لكم اي انظف
فعلا فان قيل افعل التفضيل يقتضي كون العمل الذي كانوا يطلبونه طاهرا
ومعلوم انه فاسد لانه لا طهارة في اتيان الرجال اجيب بان هذا جار
مجرى قوله تعالى اذلك خير نزلا ام شجرة الزقوم ومعلوم ان شجرة الزقوم
لا خير فيها وكقوله صلى الله عليه وسلم لما قالوا يوم احد اعل هبل قال
الله اعلى واجل ولا مماثلة بين الله تعالى والصنم وانما هو كلام خرج مخرج المقابلة
ولهذا نظاير كثيرة فاتقوا الله وراقبوه واتركوا ما انتم عليه من الكفر والمعاصي
ولا تخزون اي تفضحون في ضيفي اي اضيافي اليس منكم رجل رشيد يهدي الى الحق
فيامر بالمعروف وينهى عن المنكر قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق اي حاجة
وانك لتعلم ما نريد من اتيان الذكور وما لنا فيه الشهوة قال لوط عليه السلام لو ان
لي بكم قوة اي طاقة او اوي الى ركن شديد اي عشيرة تنصرني شبه بركن الجبل في شدته
وعنه صلى الله عليه وسلم رحم الله اخي لوطا كان ياوي الى ركن شديد والركن الشديد
نصر الله ومعونته فكان النبي صلى الله عليه وسلم استغرب من لوط عليه السلام
قوله او اوي ووجده نادرة اذ لا يمكن اشد من الركن الذي كان ياوي اليه وجواب لو محذوف
تقديره لبطشت بكم او لدفعتكم روي انه اغلق بابه دون اضيافه واخذ يجادلهم
من وراء الباب فتسوروا الجدار فلما رات الملئكة ما على لوط من الكرب قالوا يا لوط
انا رسل ربك لن يصلوا اليك بسوء فافتح الباب ودعنا واياهم ففتح الباب فدخلوا
فاستاذن جبريل ربه في عقوبتهم فاذن له فقام في الصورة التي يكون فيها فنشر
جناحه وله جناحان وعليه وشاح من در منظوم وهو براق الثنايا فضرب
بجناحه وجوههم فطمس اعينهم كما قال تعالى فطمسنا اعينهم فصاروا
لا يعرفون الطريق ولا يهتدون الى بيوتهم فخرجوا وهم يقولون النجا النجا ان في
بيت لوط قوما سحرة تنبيه لن يصلوا اليك جملة موضحة للتي قبلها لانهم اذا
كانوا رسل الله لن يصلوا اليه ولن يقدروا على ضرره ثم قالوا له فاسر باهلك بقطع
اي طائفة من الليل وقرا نافع وابن كثير بعد الفاء بهمزة وصل من السري والباقون
بهمزة قطع من الاسراء ولا يلتفت منكم احد اي لا ينظر الى ورائه لئلا يرى عظيم
ما نزل بهم وفوقهم له الا امراتك قراه ابن كثير وابو عمرو برفع التاء على انه بدل من احد
والباقون بالنصب على انه استثناء من الاهل اي فلا تسر بها انه مصيبها ما اصابهم
فلم يخرج بها وقيل خرجت والتفتت فقالت واقوماه فجاءها حجر فقتلها وروي
انه قال لهم متى موعد هلاكهم فقالوا له ان موعدهم الصبح قال اني اريد اسرع
من ذلك قالوا اليس الصبح بقريب اي فاسرع الخروج بمن امرت بهم فلما جاء امرنا اي
عذابنا باهلاكهم جعلنا عاليها اي قراهم سافلها روي ان جبريل عليه السلام

لهم

ادخل جناحه تحت قرى قوم لوط المؤتفكات المذكورة في سورة براءة وكانت خمس مدائن وفيها اربعمائة
الف وقيل اربعة الاف الف فرفع المدائن كلها حتى سمع اهل السماء صياح الديكة ونهيق
الحمير ونباح الكلاب لم يكفأ لهم اناء ولم ينتبه نائم ثم اسقطها مقلوبة الى الارض
وامطرنا عليها اي المدن بعد قلبها وقيل على شذاذها وهو بضم الشين المعجمة وبالذالين
المعجمتين اولاهما مشددة وهم الذين ليسوا من اهلها يكونوا في القوم وليسوا منهم
حجارة من سجيل اي من طين طبخ بالنار كما قال تعالى في موضع اخر من طين وقيل مثل السجل
وهو الدلو العظيمة منضود اي متتابع يتبع بعضهم بعضا مسومة اي معلمة عليها اسم
من يرمى بها وقال ابو صالح رايت منها عند ام هانئ وهي حجارة فيها خطوط حمر على هيئة
الجزع وقال الحسن عليها امثال الخواتيم وقال ابن جريج كان عليها سيما يعلم بها
انها ليست من حجارة الارض وقوله تعالى عند ربك ظرف لها وما هي اي الحجارة
من الظالمين اي مشركي مكة ببعيد اي بشيء بعيد او بمكان بعيد لان وان كانت في السما
وهي مكان بعيد الا انها اذا وقعت منها فهي اسرع شيء لحوقا بالمرمي فكأنها بمكان قريب
منه وفيه وعيد لهم وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم سال جبريل يعني ظالمي امتك
ما من ظالم منهم الا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة الى ساعة وقيل الضمير للقرى
اي هي قريبة من ظالمي مكة يمرون عليها في مسيرهم القصة السادسة التي ذكرها
الله تعالى في هذه السورة قصة شعيب عليه السلام المذكورة في قوله تعالى والى مدين
اي وارسلنا الى مدين وهم قبيلة ابوهم مدين بن ابراهيم عليه السلام وقيل هو اسم
مدينة بناها مدين المذكور وعلى هذا فالتقدير وارسلنا الى اهل مدين بحذف المضاف
لدلالة الكلام عليه اخاهم اي في النسب لا في الدين و شعيبا عطف بيان وكان
قائلا قال ما قال لهم فقيل قال ما قال اخوانه من الانبياء في البداءة باصل الدين
يا قوم مستعطفا لهم مظهرا غاية الشفقة اعبدوا الله اي وحدوه ولا تشركوا
به شيئا ما لكم من اله غيره فلقد اتفقت كلمة كلهم واتحدت الى الله دعوتهم
وهذا دعوتهم قطعي الدلالة على صدق كلهم منهم لما تقطع علم قطعا من تباعد اعصارهم
وتنائي ديارهم وان بعضهم لم يلم بالعلوم ولا عرف اخبار الناس لامر الحي القيوم
ولما دعاهم الى العدل فيما بينهم وبين الله تعالى دعاهم الى العدل فيما بينهم وبين عبيده
في اقبح ما كانوا اتخذوه بعد الشرك تدينا فقال ولا تنقصوا بوجه من الوجوه المكيال
والميزان اي لا الكيل ولا الة ولا الوزن ولا الته والكيل تعديل الشيء بالالة في
القلة والكثرة والعدل تعديله في الخفة والثقل فالكيل العدل في الكمية والوزن
العدل في الكيفية ثم علل ذلك بقوله اني اراكم بخير اي بثروة وسعة تغنيكم عن
التطفيف قال ابن عباس كانوا موسرين في نعمة وقال مجاهد كانوا في خصب
وسعة فحذرهم زوال تلك النعمة وغلاء السعر وحلول النقمة ان لم يؤمنوا ويتوبوا
وهو قوله واني اخاف عليكم ان لم تؤمنوا عذاب يوم محيط اي يحيط بكم فيهلككم
جميعا وهو عذاب الاستئصال في الدنيا وعذاب النار في الاخرة ومنه قوله تعالى

وان جهنم لمحيطة بالكافرين والمحيط من صفة اليوم في الظاهر وفي المعنى من صفة
العذاب وذلك مجاز مشهور كقوله هذا يوم عصيب ويا قوم اوفوا اي اتموا
اتماما حسنا المكيال والميزان اي الكيل والوزن والتهما فان قيل النهي عن النقصان
امر بالايفاء فما فائدة قوله تعالى اوفوا اجيب بانهم نهوا اولا عن القبيح الذي كانوا عليه
من نقص المكيال والميزان لان في التصريح بالقبيح نعيا على المنهي وتعييرا له ثم ورد الامر بالايفاء
الذي هو حسن في العقول مصرحا بلفظه لزيادة ترغيب فيه وبعث عليه وجيء به مقيدا
بالقسط اي ليكون الايفاء على وجه العدل والتسوية من غير زيادة ولا نقصان
امرا بما هو الواجب لان ما جاوز العدل فضل وامر مندوب اليه غير المامور به وقد
يكون محظورا كما في الربا وقوله ولا تبخسوا الناس اشياءهم تعميم بعد تخصيص فانه اعم
من ان يكون في المقدار او في غيره فانهم كانوا ياخذون من كل شيء يباع كما تفعل السماسرة
وكانوا يمكسون الناس وكانوا ينقصون من اثمان ما يشترون من الاشياء فنهوا عن
ذلك فظهر بهذا البيان ان هذه الاشياء غير مكررة بل في كل واحد منها فائدة
زائدة والحاصل انه تعالى نهى في الاية الاولى عن النقصان في المكيال والميزان وفي الثانية
امر باعطاء قدر من الزيادة ولا يحصل الجزم واليقين باداء الواجب الا عند اداء ذلك
القدر من الزيادة ولهذا قال الفقهاء انه تعالى امر بغسل الوجه وذلك لا
يحصل الا عند غسل جزء من الراس فكانه تعالى نهى اولا عن سعي الانسان في ان
يجعل مال غيره ناقصا ليحصل له تلك الزيادة وفي الثاني امر بان يسعى في
تنقيص مال نفسه ليخرج باليقين عن العهدة كما قيده بقوله تعالى بالقسط
وفي الاية الثالثة نهى عن النقص في كل الاشياء وكذا قوله تعالى ولا تعثوا في الارض
مفسدين فان العثو يعم تنقيص الحقوق وغيره من انواع الفساد
ومفسدين حال موكدة لمعنى عاملها وفائدتها اخراج ما يقصد به الاصلاح
كما فعله الخضر عليه السلام بقيت الله قال ابن عباس يعني ما ابقى الله لكم من
الحلال بعد ايفاء الكيل والوزن خير لكم مما تاخذونه بالتطفيف وقال
مجاهد مما يحصل لكم في الدنيا من المال الحرام ان كنتم مؤمنين اي مصدقين بما
قلت لكم وامرتكم به فائدة رسمت بقيت بالتاء المجرورة ووقف عليها ابن
كثير وابو عمرو والكسائي والباقون وقفوا بالهاء وما انا عليكم بحفيظ اي على جميع
اعمالكم واقدر على كفكم عما يكون منها فسادا ولما امرهم شعيب عليه السلام
بشيئين بالتوحيد وترك البخس قالوا له يا شعيب سموه باسمه استخفافا
وغلظة وانكروا عليه مستهزئين به اصلواتك تامرك ان نفعل معك من يامر
دائما بتكليفنا ان نترك ما يعبد اي على سبيل المواظبة اباؤنا من الاصنام
فحذف الذي هو التكليف لان الانسان لا يؤمر بفعل غيره قالوا له ذلك في جواب
امره لهم بالتوحيد او ان نترك ان نفعل اي دائما في اموالنا ما نشاء من قطع
الدراهم والدنانير وافساد المعاملة والمقامرة ونحوها مما يكون افسادا

للمال قالوا له ذلك في جواب النهي عن التطفيف والامر بالايفاء وانما اضافوا ذلك الى الصلاة
تهكما واستهزاء بها واشعارا بان مثل هذا لا يدعو اليه داع عقلي وانما دعاك اليه
خطرات ووساوس من جنس ما تواظب عليه وكان شعيب عليه الصلاة والسلام
اكثر الصلاة في الليل والنهار وكان قومه اذا راوه يصلي تغامزوا وتضاحكوا وقصدوا
بقولهم اصلواتك تامرك السخرية والهزء كما اذا رايت معتوها يطالع كتابا ثم يذكر
كلاما فاسدا فيقال له هذا مطالعة تلك الكتب على سبيل الهزء وكذا اهنا وقرأ
حفص وحمزة والكسائي اصلاتك بالافراد والباقون بالجمع وانتا بالرفع في القرائين
وغلظ ورش اللام في اصلواتك وقولهم له انك لانت الحليم الرشيد تهكم به وقصدوا
وصفه بضد ذلك كما يقال للبخيل الخسيس لو راك حاتم لسجد لك وعللوا انكار
ما سمعوه منه واستبعدوه بانه موسوم بالحلم والرشد المانعين من المبادرة
الى مثل ذلك ثم اخرج قوله عليه السلام على تقدير سؤال بقوله قال يا قوم
مستعطفا لهم لما بينهم من عواطف القرابة منبها لهم على احسن النظر
فيما ساقه على سبيل الفرض والتقدير ليكون ادعى الى سبيل الوفاق والانصاف
ارايتم اي اخبروني ان كنت على بينة اي برهان من ربي وعطف على جملة
الشرط المستفهم عنه قوله ورزقني والضمير في منه لله تعالى اي من عنده
باعانته بلا كد مني في تحصيله وعظم الرزق بقوله رزقا حسنا جليلا وما لا
حلالا لم اظلم فيه احدا وجواب الشرط محذوف فهل يسع مع هذا الانعام
الجامع للسعادات الروحانية والجسمانية ان اخون في وحيه فاخالفه في امره
ونهيه وهذا اعتذار عما انكروه عليه من تغيير المالوف والنهي عن دين الاباء
وما اريد ان اخالفكم اي واذهب الى ما انهاكم عنه فارتكبه ان اي ما اريد
اي فيما امركم به وانهاكم عنه الا الاصلاح اي ما اريد الا ان اصلحكم بموعظتي
ونصيحتي وامري بالمعروف ونهيي عن المنكر ما استطعت اي وهو الابلاغ والانذار
فقط ولا استطيع اجباركم على الطاعة لان ذلك الى الله تعالى فانه يضل من يشاء ويهدي
من يشاء وما توفيقي اي لاصابة الحق والصواب الا بالله اي بمعونته وتاييده
عليه لا على غيره توكلت اي اعتمدت في جميع اموري فانه القادر على كل شيء
وما عداه عاجز وهذه الصيغة تفيد الحصر فلا ينبغي للانسان ان يتوكل على احد
الا على الله تعالى وفيه اشارة الى محض التوحيد الذي اقصى مراتب المبدا واما قوله
واليه انيب ففيه اشارة الى معرفة المعاد وهو ايضا يفيد الحصر لانه قوله واليه
انيب يدل على انه لا مآب للخلق الا الى الله تعالى وروي عنه انه كان صلى الله عليه
وسلم انه كان اذا ذكر شعيبا قال ذلك خطيب الانبياء لحسن مراجعته قومه
ويا قوم لا يجرمنكم اي لا يكسبنكم شقاقي اي خلافي وهو فاعل الجرم
والضمير مفعول اول والمفعول الثاني ان يصيبكم عذاب العاجلة على كفركم
وافعالكم الخبيثة قال في الكشاف جرم مثل كسب في تعديته الى مفعول واحد

والى

والى منصوبين تقول جرم ذنبا وكسبه وجرمته ذنبا وكسبته اياه ومنه قوله تعالى لا يجرمنكم
شقاقي ان يصيبكم مثل ما اصاب قوم نوح من الغرق او قوم هود من الريح العقيم او
قوم صالح من الرجفة وما قوم لوط منكم ببعيد يعني لا في الزمان ولا في المكان لانهم
كانوا حديثي عهد بهلاكهم وكانوا جيران قوم لوط وبلادهم قريبة من بلادهم فان كفر
في الزمان والمكان يفيد المعرفة وكمال الوقوف على الاحوال فكانه يقول اعتبروا باحوالهم
واحذروا من مخالفة الله ومنازعته حتى لا ينزل بكم مثل ذلك العذاب فان قيل لم قال
ببعيد ولم يقل ببعيدين اجيب بان التقدير وما اهلاكهم بشيء بعيد وايضا يجوز ان
يستوي في قريب وبعيد وقليل وكثير بين المذكر والمؤنث لورودهما على زنة المصادر
التي هي الصهيل والنهيق ونحوهما انتهى واستغفروا ربكم اي امنوا به ثم توبوا اليه من
عبادة غيره لان التوبة لا تصح الا بعد الايمان وقد مر مثل ذلك ثم توبوا اليه اي
عظيم الرحمة للتائبين ان ربي رحيم ودود اي محب لهم ولما بالغ عليه السلام في التقرير
والبيان اجابوه بانواع فاسدة الاول قالوا له يا شعيب ما نفقه اي ما نفهم
كثيرا مما تقول فان قيل انه كان يخاطبهم بلسانهم فلم قالوا ما نفقه اجيب
بانهم كانوا لا يلقون اليه اذهانهم لشدة نفرتهم عن كلامه وهو قوله وجعلنا على قلوبهم
اكنة ان يفقهوه وانهم فهموه ولكنهم ما اقاموا له وزنا فذكروا هذا الكلام على وجه
الاستهانة كما يقول الرجل لصاحبه اذا لم يعبا بحديثه ما ادري ما تقول النوع
الثاني قولهم له وانا لنراك فينا ضعيفا اي لا قوة لك فتمتنع منا ان اردنا بك سوءا
او ذليلا لا عزلك وقيل اعمى بلغة حمير قاله قتادة وفي هذا تجويز العمى على
الانبياء الا ان هذا اللفظ لا يحسن الاستدلال به في اثبات هذا المعنى
لانه ترك الظاهر من غير دليل وقيل ضعيف البصر قاله الحسن النوع الثالث
قولهم له ولولا رهطك اي عشيرتك وعزتهم عندنا لكونهم على ملتنا لا لخوف
من شوكتهم لرجمناك بالحجارة حتى تموت والرهط من الثلاثة الى عشرة وقيل
الى السبعة والمقصود من هذا الكلام انهم بينوا انه لا حرمة له عندهم ولا وقع
له في صدورهم وانه انما لم يقتلوه لاجل احترام رهطه النوع الرابع قولهم له وما
انت علينا بعزيز اي لا تعز علينا ولا تكرم حتى نكرمك من القتل ونرفعك عن الرجم
وانما يعز علينا رهطك لانهم من اهل ديننا ولم يختاروك علينا ولم يتبعوك
دوننا ولما خوف الكفار شعيبا بالقتل والايذاء حكى الله عنهم ما ذكروه في
هذا المقام وهو نوعان الاول قال لهم يا قوم مستعطفا لهم مع غلظهم
عليه ارهطي اعز عليكم من الله المحيط بكل شيء قدرة وعلما حتى نظرتم اليهم
في اي لقرابتي منهم ولم تنظروا الى الله تعالى في قربي منه لما ظهر علي من كرامته
واتخذتموه وراءكم ظهريا اي جعلتموه كالمنسي المنبوذ وراء الظهر باشراككم به
والاهانة برسوله قال في الكشاف والظهري منسوب الى الظهر والكسر
من تغييرات النسب ونظيره قولهم في النسبة الى الامس امسي

منكم

زيادة م

اي عظيم الرحمة للتائبين م

بكسر الهمزة وقوله ان ربي بما تعملون محيط اي انه عليم باحوالكم فلا يخفى عليه شي منها
النوع الثاني قوله ويا قوم اعملوا على مكانتكم والمكانة الحالة التي يتمكن صاحبها من عمله
والمعنى اعملوا حال كونكم موصوفين بغاية المكنة والقدرة وكل ما في وسعكم وطاقتكم
من ايصال الشرور الي اني ايضا عامل ما اتاني الله من القدرة والطاعة سوف
تعلمون من ياتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب من موصولة مفعول العلم فان قيل
لم لم يقل فسوف تعلمون اجيب بان ادخال الفا وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل
واما حذف الفا فيجعله جوابا عن سوال مقدر وهو المسمى في علم البيان الاستيناف
البياني تقديره انه لما قال ويا قوم اعملوا على مكانتكم اني عامل فكانهم قالوا فما
يكون بعد ذلك فقال فسوف تعلمون فظهر ان حذف حرف الفا ههنا اكمل في
بيان الفصاحة والتهويل لانه استيناف وارتقبوا اي انتظروا عاقبة امركم اني
معكم رقيب اي منتظر والرقيب بمعنى الراقب من رقب كالضريب بمعنى الضارب
والصارم او بمعنى المراقب كالعشير والنديم او بمعنى المرتقب كالفقير والرفيع بمعنى المفتقر
والمرتفع ولما جا امرنا بعذابهم واهلاكهم نجينا شعيبا والذين امنوا معه برحمة
اي بفضل منا بان هديناهم للايمان ووفقناهم للطاعة فان قيل لم جا قصة عاد
وقصة مدين بالواو وقصة صالح ولوط بالفا اجيب بان قصة عاد ومدين
لم يسبقهما ذكر وعد يجري مجرى السبب له بخلاف قصتي صالح ولوط فانهما
ذكرا بعد الوعد وذلك قوله تعالى وعد غير مكذوب وقوله ان موعدهم الصبح
فلذلك جا بفا السببية واخذت الذين ظلموا اي ظلموا انفسهم بالشرك والبخس
الصيحة اي صيحة جبريل السلام صاح بهم صيحة خرجت ارواحهم وماتوا جميعا
وقيل اتتهم صيحة من السما فاصبحوا في ديارهم جاثمين اي باركين على الركب ميتين
كان لم يغنوا اي كانهم لم يقيموا فيها اي ديارهم مدة من الدهر ماخوذ من قولهم
غني بالمكان اذا اقام فيه مستغنيا به عن غيره الا بعدا اي هلاكا لمدين كما بعدت ثمود
انما شبههم بهم لان عذابهم كان ايضا بالصيحة لكن صيحتهم كانت من تحتهم
وصيحة مدين كانت من فوقهم قال ابن عباس لم يعذب الله تعالى بعذاب
الاقوم شعيب وقوم صالح فاما قوم صالح فاخذتهم الصيحة من تحتهم واما قوم
شعيب فاخذتهم الصيحة من فوقهم القصة السابعة التي ذكرها الله
تعالى في هذه السورة وهي اخر قصصها قصة موسى عليه السلام المذكورة في قوله
تعالى ولقد ارسلنا موسى باياتنا اي التورية مع ما فيها من الشرايع والاحكام وسلطان
مبين اي برهان بين ظاهر على صدق نبوته ورسالته وقيل المراد بالايات
المعجزات وبالسلطان المبين العصى لانها اظهر الايات وذلك لان الله تعالى اعطى
موسى تسع ايات بينات وهي العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع
والدم ونقص الثمرات والسنين ومنهم من ابدل نقص الثمرات والسنين
باظلال الجبل وفلق البحر قال بعض المحققين سميت الحجة سلطانا لان صاحب

الحجة يقهر من لا حجة له كالسلطان يقهر غيره والعلماء سلاطين بسبب كمالهم في القوة العلمية
والملوك سلاطين بحسب ما معهم من القدرة والمكنة الا ان سلطنة العلما اكمل واقوى من
سلطنة الملوك لان سلطنة العلما لا تقبل النسخ والعزل وسلطنة الملوك يقبلهما ولان
سلطنة الملوك تابعة لسلطنة العلما لان سلطنة العلما من جنس الانبيا وسلطنة
الملوك من جنس سلطنة الفراعنة الى فرعون طاغية القبط وملائه اي اشراف قومه
الذين تبعهم الاذناب لان المقصد الاكبر رفع ايديهم عن بني اسرائيل فاتبعوا امر فرعون
اي اتبعوا طريقة فرعون المنهمك في الضلال والطغيان الداعي الى ما لا يخفى فساده
على من له ادنى مسكة في العقل ولم يتبعوا موسى الهادي الى الحق المويد بالمعجزات الظاهرة
الباهرة لفرط جهالتهم وعدم استبصارهم وما امر فرعون برشيد اي بسديد ولا
حميد العاقبة ولا يدعو الى خير وقيل رشيد ذو رشد وانسلاخ فرعون من الرشد
كان ظاهرا لانه كان دهريا نافيا للصانع والمعاد وكان يقول لا اله للعالم وانما يجب على اهل
كل بلد ان يشتغلوا بطاعة سلطانهم وعبوديته رعاية لمصلحة العالم وكل الرشد في
عبادة الله تعالى ومعرفته فلما كان هو نافيا لهذين الامرين كان خاليا عن الرشد بالكلية
يقدم قومه يوم القيمة الى النار كما كان يقدمهم في الدنيا الى الضلال او كما قومه تقدموا
في الدنيا فادخلهم البحر واغرقهم فكذا يتقدمهم في القيامة فيدخلهم النار كما قال تعالى
فاوردهم النار فان قيل لم يقل يتقدم قومه فيوردهم بل اتى بلفظ الماضي اجيب
بانه انما اتى بلفظ الماضي مبالغة في تحقيقه ونزول النار له منزلة الما فسميت اتيانها
موردا ولهذا قال تعالى وبئس الورد المورود وردهم لان الورد انما يراد لتسكين العطش
وتبريد الاكباد والنار ضده فان قيل لفظ النار مونث فكان مقتضى ذلك ان يقال وبئست
الورد المورود اجيب بان لفظ الورد مذكر فكان التذكير والتانيث جايزين كما تقول
نعم المنزل دارك ونعمت المنزل دارك من ذكر غلب لفظ المنزل ومن انث بني على تانيث الدار واتبعوا
في هذه اي الدنيا لعنة اي طردا وبعدا عن الرحمة ويوم القيمة اي واتبعوا يوم
القيمة لعنة اخرى فهم ملعونون في الدنيا والاخرة ونظيره قوله تعالى في سورة القصص
واتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيمة هم من المقبوحين بئس الرفد اي
العون المرفود رفدهم سال رافع بن الازرق ابن عباس عن ذلك فقال
هو اللعنة بعد اللعنة وقال قتادة ترادفت عليهم لعنتان من الله لعنة في
الدنيا ولعنة في الاخرة وكل شي جعلته عونا لشي فقد رفدته به وسميت
اللعنة عونا لانها اذا اتبعتهم في الدنيا ابعدتهم عن الرحمة واعانتهم على ما هم
فيه من الضلال وسميت رفدا اي عونا لهذا المعنى على التهكم كقول القايل
تحية بينهم ضرب وجيع وسميت معانا لانها اردفت في الاخرة بلعنة اخرى لها
هاديين الى طريق الجحيم ولما ذكر الله تعالى قصص الاولين قال تعالى ذلك اي المذكور
وهو مبتدا خبره من انبا القرى اي اخبار اهل القرى وهم الامم السالفة في القرون
الماضية وقوله تعالى نقصه عليك اي نخبرك به يا محمد خبرا بعد خبر وفايدة

ذكر هذه القصص على النبي صلى الله عليه وسلم ليعلم السامع ان المؤمن يخرج من الدنيا مع الثنا الجميل في الدنيا والثواب
الجزيل في الاخرة وان الكافر يخرج من مع اللعنة في الدنيا والعقاب في الاخرة واذا
تكررت هذه الاقاصيص على السمع فلا بد وان يلين القلب وتخضع النفس وتزول
العداوة ويحصل في القلب خوف يحمله على النظر والاستدلال وفي اخباره صلى
الله عليه وسلم بهذه القصص من غير مطالعة كتب ولا تلمذ دلالة على نبوته فان
ذلك لا يكون الا بوحي من الله تعالى منها اي القرى قائم اي باق كالزرع القائم
هلك اهله دونه ومنها حصيد اي في محاق الاثر كالزرع المحصود هلك مع
اهله وما ظلمناهم باهلاكهم بغير ذنب ولكن ظلموا انفسهم بالكفر والمعاصي وقال
ابن عباس يريد وما نقصناهم في الدنيا من النعيم والرزق ولكن نقصوا حظ
انفسهم حيث استخفوا بحقوق الله تعالى فما اغنت اي دفعت عنهم الهتهم
اي اصنامهم التي يدعون اي يعبدون من دون الله اي غيره من شيء اي شيا
من مزيد لما جاء امر ربك اي عقابه وما زادوهم بعبادتهم غير تتبيب اي
تخسير وقيل تدمير ولما اخبر رسوله صلى الله عليه وسلم في كتابه بما فعله بامم
من تقدم من الانبيا عليهم السلام لما خالفوا الرسل وما ورد عليهم من
عذاب الاستيصال وبين انهم ظلموا انفسهم فحل بهم العذاب في الدنيا قال
تعالى بعده وكذلك اي ومثل ذلك الاخذ العظيم اخذ ربك اذا اخذ القرى وهي
اي القرى ظالمة والمراد اهلها ونظيره في قوله تعالى وكم اهلكنا من قرية بطرت
معيشتها وقوله تعالى وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة ثم بين تعالى ان عذابه
ليس مقصورا على من تقدم بل الحال في اخذ كل الظالمين يكون كذلك ولما بين
تعالى كيفية اخذ الامم المتقدمة ثم بين تعالى انه انما ياخذ جميع الظالمين
على ذلك الوجه اتبعه بما يزيده تاكيدا وتقوية بقوله تعالى ان اخذه اليم اي مولم
شديد اي صعب على المأخوذ وعن ابي موسى الاشعري رضي الله تعالى عنه
ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله ليملي الظالم حتى اذا اخذه
لم يفلته ثم قرا وكذلك اخذ ربك اذا اخذ القرى وهي ظالمة ان اخذه اليم
شديد وفي هذه الاية الكريمة والحديث الشريف دلالة على من اقدم على ظلم
فانه يتداركه بالتوبة والانابة ورد الحقوق الى اهلها ان كان الظلم للغير
لئلا يقع في هذا الوعيد العظيم والعذاب الشديد ولا يظن ان هذه الاية مختصة
بظالمي الامم الماضية بل هي عامة في كل ظالم ويعضده الحديث ان في ذلك اي
ما ذكر من عذاب الامم الماضية واهلاكهم لاية اي لعبرة وموعظة لمن خاف
عذاب يوم الحياة الاخرة لانه ينظر ما حل الله تعالى بالمجرمين في الدنيا وما هو
الا انموذج مما اعد لهم في الاخرة فاذا راى عظمه وشدته اعتبر به عظم العذاب
الموعود فيكون له عبرة وعظة ولطفا في زيادة التقوى والخشية من الله
وقوله ذلك اشارة الى يوم القيامة لان عذاب الاخرة دل عليه يوم مجموع

له الناس اي ان خلق الاولين والاخرين كلهم يحشرون في ذلك اليوم ويجمعون
ثم وصفه تعالى بوصف اخر بقوله تعالى وذلك يوم مشهود اي يشهده اهل السموات
واهل الارض وما نؤخره اي ذلك اليوم وهو يوم القيمة الا لاجل اي وقت معدود
اي معلوم محدود وذلك الوقت لا يعلمه الا الله تعالى يوم يات ذلك اليوم لا
تكلم فيه حذف احدى التائين اي لا تتكلم نفس الا باذنه تعالى وقرا نافع وابو
عمرو والكسائي باثبات اليا بعد التاء من يات وقفا ووصلا وحذفها الباقون
واما التاء من تكلم فشددها البزي في الوصل وخففها الباقون فان قيل كيف يوفق
بين قوله تعالى يوم تاتي كل نفس تجادل عن نفسها وقوله تعالى هذا يوم لا ينطقون
ولا يؤذن لهم فيعتذرون اجيب بان ذلك اليوم يوم طويل له مواقف
ومواطن ففي بعضها يجادلون عن انفسهم وفي بعضها يكفون عن الكلام ولا
يؤذن لهم وفي بعضها يؤذن لهم فيتكلمون وفي بعضها يختم على افواههم وتكلم
ايديهم وتشهد ارجلهم فمنهم اي الناس شقي ومنهم سعيد اي
فمنهم من سبقت له الشقاوة فوجبت له النار بمقتضى الوعيد ومنهم من سبقت
له السعادة فوجبت له الجنة بموجب الوعد وعن علي رضي الله تعالى عنه قال
كنا في جنازة في بقيع الغرقد فاتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقعد وقعدنا
حوله وبيده مخصرة ثم نكت بها الارض ساعة ثم قال ما من نفس منفوسة
الا وقد كتب مكانها من الجنة او النار فقالوا يا رسول الله افلا نتكل على كتابنا فقال اعملوا
فكل ميسر لما خلق له اما من كان من اهل السعادة فسيصير الى عمل اهل
السعادة ومن كان من اهل الشقاوة فسيصير لعمل اهل الشقاوة ثم قرا
فاما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى الاية وبقيع
الغرقد هو مقبرة اهل المدينة الشريفة ومدفنهم فيه والمخصرة كالسوط
والعصا مما يمسكه الانسان بيده والنكت بالنون والتاء المثناة من فوق ضرب
الشي بتلك المخصرة وباليد ونحو ذلك حتى يوثر فيه فاما الذين شقوا في علمه
تعالى ففي النار لهم فيها زفير وهو صوت شديد وشهيق وهو صوت ضعيف وقيل
الزفير اخراج النفس والشهيق رده وقيل الشهيق بمنزلة ابتداء صوت الحمار بالنهيق
والشهيق بمنزلة اخر صوت الحمار اذا رده في صدره وقيل الزفير في الحلق
والشهيق في الصدر وعلى كل فالمراد منهما الدلالة على شدة كربهم وغمهم خالدين
فيها وقوله تعالى ما دامت السموات والارض فيه وجهان احدهما سموات
الاخرة وارضها وهي مخلوقة دائما للابد والدليل على انها سموات وارض قوله تعالى
يوم تبدل الارض غير الارض والسموات وقوله تعالى واورثنا الارض نتبوا من الجنة
حيث نشاء ولانه لا بد لاهل الاخرة مما يقلهم ويظلهم اما سما يخلقها الله تعالى
او يظلهم العرش وكل ما اظلك فهو سما وكل ما استقر عليه قدمك فهو ارض والوجه
الثاني ان المراد مدة دوامهما في الدنيا الا اي غير ما شاء ربك من الزيادة

على مدتهما مما لا منتهى له وذلك هو الخلود فيها ابدا إن ربك فعال لما يريد من غير
اعتراض وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك كما
تقدم ودل عليه قوله تعالى عطاء غير مجذوذ اي مقطوع وقيل الاستثناء في اهل
الشقاوة يرجع الى قوم من الموحدين يدخلهم الله تعالى النار بذنوب اقترفوها
ثم يخرجهم منها فيكون ذلك استثناء وذلك كاف في صحة الاستثناءات
زوال الحكم عن الكل يكفيه زواله عن البعض من غير الجنس لان الذين اخرجوا
من النار سعدوا في الحقيقة استثناهم الله تعالى من الاشقياء لما روي عن
جابر انه صلى الله عليه وسلم قال يخرج قوم من النار بالشفاعة وفي رواية
ان الله يخرج ما شاء من النار فيدخلهم الجنة وفي رواية انه صلى الله عليه
وسلم ليصيبن قوم سفع من النار بذنوب اصابوها عقوبة ثم يدخلهم
الله بفضل ورحمته الجنة وفي رواية انه صلى الله عليه وسلم قال يخرج قوم
من النار بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم فيدخلون الجنة فيسمون الجهنميين
وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه ابوابها ليس فيها
احد اي من اهل الكبائر من امة محمد صلى الله عليه وسلم بان تخل طبقتهم
التي كانوا فيها وان نازع في ذلك الزمخشري على مذهبه الفاسد من ان
اهل الكبائر يخلدون في النار واما الاستثناء في اهل السعادة فيرجع الى
مدة لبثهم في النار قبل دخولهم الجنة او ان الاستثناء راجع الى الفريقين
فانهم مفارقوا الجنة ايام عذابهم وان التأبيد من مبدإ معين ينتقض
باعتبار الابتداء كما ينتقض باعتبار الانتهاء وهؤلاء وان شقوا بعصيانهم فقد سعدوا بايمانهم
ولا يقال فعلى هذا لم يكن قوله تعالى فمنهم شقي وسعيد تقسيما صحيحا لانه شرط
ان يكون صفة كل قسم منتفية عن قسيمه لان ذلك الشرط حيث التقسيم لانفصال
اي وهذا ليس كذلك حقيقي او مانع من الجمع والنار مدة تعذيبهم في الدنيا واحتباسهم
في البرزخ وهو ما بين الموت الى البعث ومدة وقوفهم للحساب ثم يدخل اهل الجنة الجنة
واهل النار النار فيكون المعنى خالدين في الجنة والنار الا هذا المقدار وقيل معناه لو
شاء ربك لاخرجهم منها ولكنه لا يشاء لانه تعالى حكم لهم بالخلود وقال الفراء هذا
استثناء استثناه الله تعالى ولا يفعل كقولك والله لاضربنك الا ان ارى غير
ذلك وعزيمتك ان تضربه وقال اهل المعاني هذه عبارة عن التأبيد على عادة العرب
يقولون لا آتيك ما دامت السموات والارض ولا يكون كذا ما اختلف الليل والنهار يعنون
ابدا وقيل ان اهل النار ينقلون منها الى الزمهرير وغيره من العذاب احيانا وكذلك اهل
الجنة ينعمون بما هو اعلى من الجنة وهو الفوز برضوان الله تعالى ولقائه كما قال تعالى
وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ومساكن طيبة
في جنات عدن ورضوان من الله اكبر وقرأ حفص وحمزة والكسائي سعدوا بضم السين
على البناء للمفعول من سعده الله بمعنى اسعده والباقون بفتحها وعطاء نصب على المصدر

الموكد

الموكد اي اعطوا عطاء والحال من الجنة ولما شرح تعالى اقاصيص عبدة الاوثان ثم اتبعه
باحوال الاشقياء واحوال السعداء شرح للرسول صلى الله عليه وسلم احوال الكفار من قومه
فقال فلا تك يا محمد في مرية اي شك مما يعبد هؤلاء المشركون من الاصنام
انا نعذبهم كما عذبنا من قبلهم وهذه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ما يعبدون
الا كما يعبد آباؤهم اي كعبادتهم من قبل وقد عذبناهم وانا لموفوهم مثلهم
نصيبهم اي حظهم من العذاب غير منقوص اي كاملا غير ناقص ولما ذكر تعالى في هذه
الاية اعراضهم عن الاتباع مع ما اتى به من المعجزات وانزل عليه من الكتاب سلاه
باخيه موسى عليه السلام بقوله تعالى ولقد آتينا موسى الكتاب اي التوراة الجامعة للخير
فاختلف فيه اي الكتاب فامن به قوم وكفر به قوم كما اختلف هؤلاء في القرآن ولولا
كلمة سبقت من ربك بتأخير الحساب والجزاء للخلائق الى يوم القيامة لقضي اي لوقع القضاء
بينهم اي بين من اختلف في كتاب موسى في الدنيا فيما اختلفوا فيه بانزال ما
يستحقه المبطل ليتميز به المحق ولكن سبقت الكلمة ان القضاء الكامل انما يكون يوم
القيامة كما قال تعالى في سورة يونس عليه السلام فما اختلفوا حتى جاءهم العلم
الاية ولما كان الاختلاف قد يكون بغير الكفر بين تعالى انه به لان كل طائفة من اليهود
تركشكها فيه وفعلها فعل الشاك فقال تعالى موكدا وانهم لفي شك اي عظيم محيط بهم
منه اي من الكتاب والقضاء مريب اي موقع في الريب والتهمة والاضطراب مع
ما رأوا من الايات التي منها سماع كلام الله تعالى ورؤية ما كان يتجلى في جبل الطور
من خوارق الاحوال وقيل الضمير في وانهم راجع لكفار مكة وفي منه للقرآن وان
كلا اي كل الخلائق وقوله تعالى لما ما زائدة واللام موطئة للقسم مقدر تقديره
والله ليوفينهم ربك اعمالهم فيجازي المصدق على تصديقه الجنة ويجازي
المكذب على تكذيبه النار وقرأ نافع وابن كثير وشعبة بتخفيف وان والباقون
بالتشديد وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بتشديد ميم لما والباقون بالتخفيف فائدة
قال بعض الفضلاء انه تعالى لما اخبر عن توفية الاجزية على المستحقين في هذه الاية
ذكر فيها سبعة انواع من التأكيدات اولها كلمة ان وهي للتأكيد وثانيها لفظة كل
وهي ام الباب في التأكيد وثالثها اللام الداخلة على خبر ان تفيد التأكيد ايضا ورابعها حرف
ما اذا جعلناه على قول الفراء موصولا وخامسها القسم المضمر وسادسها اللام الثانية
الداخلة على جواب القسم وسابعها النون المذكورة في قوله تعالى ليوفينهم فجميع
هذه الالفاظ السبعة الدالة على التوكيد في هذه الكلمة الواحدة تدل على ان امر
الربوبية والعبودية لا يتم الا بالبعث والقيامة وامر الحشر والنشر ثم اردفه
بقوله تعالى انه بما يعملون خبير وهو من اعظم الموكدات فانه تعالى لا يخفى عليه شيء
من اعمال عباده ففيه وعد للمحسنين ووعيد للمكذبين الكافرين ولما بين تعالى امر
الوعد والوعيد قال لنبيه صلى الله عليه وسلم فاستقم اي على دين ربك
كما امرت والامر في ذلك للتأكيد فانه صلى الله عليه وسلم كان على الاستقامة لم يزل

بيان من خارق

عليها فهو كموتك للقايم فرحتي اتيك اي دم علي ما انت عليه من القيام حتي اتيك وتوطية
لقوله تعالي ومن تاب معك اي وليستقم ايضا علي دين الله والعمل بطاعته من امن معك
قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه الاستقامة ان تستقيم علي الامر والنهي ولا تروغ عنه
روغان الثعلب واشار صلي الله عليه وسلم الي شدة الاستقامة بقوله شيبتني هود واخواتها
وعن ابن عباس رضي الله تعالي عنهما ما نزلت علي النبي صلي الله عليه وسلم اية اشد ولا اشق
من هذه الاية وعن بعضهم رايت رسول الله صلي الله عليه وسلم في النوم فقلت له روي
عنك انك قلت شيبتني هود فقال نعم فقلت باي اية قال قوله تعالي فاستقم كما امرت
وعن سفيان بن عبد الله الثقفي قال قلت يا رسول الله قل لي في الاسلام قولا لا اسال عنه احدا
غيرك قال قل امنت بالله ورسوله ثم استقم قال الامام الرازي ان هذه الاية
اصل عظيم في الشريعة وذلك لان القران لما ورد بالامر باعمال الوضوء مرتبة في اللفظ
وجب اعتبار الترتيب فيها لقوله فاستقم كما امرت ولما ورد الامر بالزكاة باداء الابل من
الابل والبقر من البقر وجب اعتبارها وكذا القول في كل ما ورد امر الله تعالي به انتهي
ولما كانت الاستقامة هي التوسط بين طرفي الافراط والتفريط نهي عن الافراط بقوله
تعالي ولا تطغوا اي تتجاوزوا الحد فيما امرتم به او نهيتم عنه بالزيادة افراطا فان
الله تعالي انما امركم ونهاكم لتهذيب انفسكم لا لحاجته الي ذلك ولن تطيقوا ان تقدروا
الله حق قدره والدين متين لن يشاده احد الا غلبه كما ورد عن ابي هريرة رضي الله عنه
انه صلي الله عليه وسلم قال ان الدين يسر ولن يشاد الدين احد الا غلبه فسددوا
وقاربوا وابشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشي من الدلجة فقوله صلي الله
عليه وسلم ان الدين يسر ضد العسر اراد به التسهيل في الدين وترك التشديد فان
هذا الدين مع يسره وسهولته قوي فلن يغالب ولن يقاوي وقوله وسددوا اي اقصدوا
السداد في الامور وهو الصواب وقاربوا اي اطلبوا المقاربة وهو القصد الذي لا غلو
فيه ولا تقصير والغدوة الرواح بكرة والرواح الرجوع عشا والمراد منه اعملوا بالنهار
واعملوا بالليل ايضا وقوله واستعينوا بشي من الدلجة اشارة الي تقليله ولما نهي
تعالي عن الافراط وهو الزيادة تصريحا افهم النهي عن التفريط وهو النقص عن المامور
تلويحا من باب اولي ثم علل ذلك موكدا تنزيلا لمن يفرط او يفرط منزلة المنكر فقال
انه بما تعملون بصير اي عالم باعمالكم كلها ولا يخفي عليه شي منها فيجازيكم عليها
ولا تركنوا اي تميلوا الي الذين ظلموا ادني ميل فتمسكم النار اي تصيبكم
بحرها والنهي متناول الانحطاط في هواهم والانقطاع اليهم ومصاحبتهم ومجالستهم
وزيارتهم ومداهنتهم والرضي باعمالهم والتشبه بهم والتزيي بزيهم ومد العين الي
زهرتهم وذكرهم بما فيه تعظيم لهم وتامل قوله تعالي ولا تركنوا فان الركون هو الميل
اليسير وحكي ان الموفق صلي خلف الامام فقرا بهذه الاية فغشي عليه فلما افاق
قيل له فقال هذا فيمن ركن الي من ظلم فكيف بالظالم ولما خالط الزهري السلاطين
كتب اليه اخ في الدين عافانا الله واياك يا ابا بكر من الفتن فقد اصبحت بحال

ينبغي

ينبغي لمن عرفك ان يدعو الله لك ويرحمك اصبحت شيخا كبيرا وقد اثقلتك نعم الله
بما فهمك من كتابه وعلمك من سنة نبيه وليس كذلك اخذ الله الميثاق علي العلما
قال الله سبحانه وتعالي لتبيننه للناس ولا تكتمونه واعلم ان ايسر ما ارتكبت
واخف ما احتملت انك انست وحشة الظالم وسهلت سبيل الغي بدنوك
ممن لم يود حقا ولم يترك باطلا حين ادناك اتخذوك قطبا تدور عليك رحا باطلهم
وجسرا يعبرون عليك الي بلائهم وسلما يصعدون فيك الي ضلالهم يدخلون بك
الشك علي العلما ويقتادون بك قلوب الجهلا فما ايسر ما عمروا لك في جنب ما خربوا
عليك وما اكثر ما اخذوا منك فيما افسدوا عليك من دينك فما يومنك ممن قال الله
تعالي فيهم فخلف من بعدهم خلف اضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا
فانك تعامل من لا يجهل ويحفظ عليك من لا يغفل فداوي دينك فقد دخله سقم
وهيي زادك فقد حضر السفر البعيد وما يخفي علي الله من شي في الارض ولا في السماء
والسلام وقال سفيان في جهنم واد لا يسكنه الا القرا الزايرون للملوك وعن الاوزاعي
ما من شي ابغض الي الله من عالم يزور عاملا اي من الظلمة وعن محمد بن سلمة الذباب علي
العذرة احسن من قاري علي هولاء وقال صلي الله عليه وسلم من دعي لظالم بالبقا فقد
احب ان يعصي الله في ارضه ولقد سيل سفيان عن ظالم اشرف علي الهلاك في برية هل
يسقي شربة فقال لا فقيل له يموت فقال دعه يموت وقوله تعالي وما لكم من دون الله من اوليا
اي اعوانا وانصارا يمنعونكم من عذابه حال من قوله فتمسكم النار اي فتمسكم النار
وانتم علي هذه الحالة ثم لا تنصرون اي لا تجدون من ينصركم ويخلصكم من عذاب
الله في القيامة ففي الاية وعيد لمن ركن الي الظلمة بان تمسه النار فكيف يكون حال
الظالم في نفسه ولما امر الله تعالي بالاستقامة اردفه بالامر بالصلاة بقوله تعالي
واقم الصلاة وذلك يدل علي ان اعظم العبادات بعد الايمان بالله تعالي الصلاة
وقوله تعالي طرفي النهار الغداة والعشي اي الصبح والظهر والعصر وقوله تعالي
وزلفا جمع زلفة اي طايفة من الليل اي المغرب والعشا ان الحسنات كالصلوات
الخمس يذهبن اي يكفرن السيات اي الذنوب الصغاير لما رواه مسلم انه صلي
الله عليه وسلم قال الصلوات الخمس والجمعة الي الجمعة كفارة لما بينهن ما اجتنبت
الكباير وزاد في رواية اخري ورمضان الي رمضان مكفرات لما بينهن اذا اجتنبت
الكباير وعن ابي هريرة انه سمع رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول ارايتم لو ان نهرا
بباب احدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات ما تقولون هل يبقي من درنه شي قالوا لا
يا رسول الله فقال ذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا وعن جابر
قال قال رسول الله صلي الله عليه وسلم مثل الصلوات كمثل نهر جار غمر علي
باب احدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات وعن الحسن ان الحسنات قول العبد سبحان
الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر وسبب نزول هذه الاية ما رواه الترمذي
عن ابي اليسر بن عمرو قال اتتني امراة وزوجها بعثه النبي صلي الله عليه وسلم في بعث

فقالت بقي في بيتي تمر افقال فاعجبتني فقلت ان في البيت تمرا هو اطيب من هذا فالحقيني
فدخلت معي البيت فاهويت لها فقبلتها فاتيت ابا بكر فذكرت ذلك له فقال استر على
نفسك وتب ولا تخبر احدا
نفسك وتب فاتيت عمر فذكرت له ذلك فقال استر على نفسك وتب ولا تخبر احدا
فاتيت النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فقال اخنت رجلا غازيا في سبيل الله
في اهله بمثل هذا حتى تمنى انه لم يكن اسلم الا تلك الساعة حتى ظن انه من اهل النار
واطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلا حتى اوحي اليه واقم الصلاة طرفي النهار
وزلفا من الليل الي قوله تعالى **ذلك ذكرى للذاكرين** اي عظة للمتقين قال ابو اليسر
فاتيته فقرا علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
الهذا خاصة ام للناس عامة قال بل للناس عامة قال الترمذي هذا حديث حسن
غريب وعن عبد الله بن مسعود ان رجلا اصاب من امراة قبلة فاتى النبي صلى الله
عليه وسلم فذكر ذلك له فنزلت فقال رجل يا رسول الله الهذا خاصة فقال بل الناس
كافة وعن معاذ بن جبل قال اتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل فقال يا رسول الله
ارايت رجلا لقي امراة ليس بينهما معرفة وليس ياتي الرجل الى امراته شيئا الا قد اتى
هو اليها الا انه لم يجامعها قال فانزل الله تعالى هذه الاية وامر النبي صلى الله عليه
وسلم ان يتوضا ويصلي قال معاذ فقلت يا رسول الله اهي له خاصة ام للمومنين
عامة قال بل للمومنين عامة قال العلما الصغاير من الذنوب تكفرها الاعمال
الصالحة مثل الصلاة والصدقة والذكر والاستغفار ونحو ذلك من اعمال البر واما
الكباير من الذنوب فلا يكفرها الا التوبة النصوح ولها شرايط الاول الاقلاع عن الذنب
بالكلية الثاني الندم على فعله الثالث العزم التام على ان لا يعود اليه في المستقبل
فاذا حصلت هذه الشرايط صحت التوبة وكانت مقبولة ان شاء الله تعالى والاشارة
في قوله تعالى ذلك ذكرى الى ما تقدم ذكره من قوله تعالى فاستقم كما امرت الى هنا وقيل
هو اشارة الى القران وقوله تعالى **واصبر** خطاب النبي صلى الله عليه وسلم
اي واصبر يا محمد على اذى قومك او على الصلاة وهو قوله تعالى وامر اهلك بالصلاة
واصطبر عليها **فان الله لا يضيع اجر المحسنين** اي اجر اعمالهم وعدل عن الضمير ليكون
كالبرهان على المقصود ودليلا على ان الصلاة والصبر احسان وايماء بانه لا يعتد بهما
دون الاخلاص ولما بين تعالى ان الامم المتقدمين حل بهم عذاب الاستيصال بين ان
السبب فيه امران السبب الاول انه ما كان فيهم قوم ينهون عن الفساد في الارض
فقال تعالى **فلولا** اي فهلا **كان من القرون** اي الامم الماضية **من قبلكم اولوا بقية** اي
اصحاب راي وخير وفضل **ينهون عن الفساد في الارض** وسمي الفضل والجود بقية
لان الرجل يستبقي ما يخرجه اجوده وافضله فصار مثلا في الجودة والفضل
ويقال فلان من بقية القوم اي من خيارهم وبه فسر بيت الحماسة ان تذنبوا
ثم ياتيني بقيتكم ومنه قولهم في الزوايا خبايا وفي الرجال بقايا ويجوز ان
تكون البقية بمعنى التقوى اي فهلا كان منهم ذوو ابقاء على انفسهم وصيانة لها

الله تعالى وعقابه فان قلت حكي عن الخليل انه قال كلما في القران من كلمة لولا فمعناه هلا
الا التي في الصافات قال صاحب الكشاف وما صحت هذه الحكاية ففي غير الصافات
لولا ان تداركه نعمة من ربه ولولا رجال مومنون ولولا ان ثبتناك انتهى وقوله تعالى
الا قليلا ممن انجينا منهم استثنا منقطع معناه ولكن قليلا ممن انجينا من القرون نهوا
عن الفساد وسايرهم تاركون للنهي السبب الثاني لنزول عذاب الاستيصال قوله تعالى
واتبع الذين ظلموا ما اترفوا فيه اي ما نعموا فيه من الشهوات واهتموا بتحصيل اسبابها
واعرضوا عن ما وراء ذلك **وكانوا مجرمين** اي كافرين تنبيه قوله تعالى واتبع الذين
ظلموا ان كان معناه واتبعوا الشهوات كان معطوفا على مضمر لان المعنى الا قليلا
ممن انجينا منهم نهوا عن الفساد واتبع الذين ظلموا شهواتهم فهو عطف على نهوا
وان كان معناه واتبعوا جزاء الاتراف فالواو للحال فكانه قيل انجينا القليل وقد
اتبع الذين ظلموا جزاءهم وقوله تعالى وكانوا مجرمين عطف على اترفوا اي اتبعوا
الاتراف وكونهم مجرمين لان تابع الشهوات مغمور بالاثام او على اتبعوا اي اتبعوا
شهواتهم وكانوا مجرمين بذلك ثم بين تعالى انه ما اهلك اهل القرى بظلم بقوله
تعالى **وما كان ربك ليهلك القرى بظلم** اي بشرك **واهلها مصلحون** فيما بينهم والمعنى
انه لا يهلك اهل القرى بمجرد كونهم مشركين اذا كانوا مصلحين في المعاملات
فيما بينهم والحال ان عذاب الاستيصال لا ينزل لاجل كون القوم معتقدين الشرك
بل انما ينزل ذلك العذاب اذا اساوا في المعاملات وسعوا في الايذا والظلم
ولهذا قال ان حقوق الله تعالى مبناها على المسامحة والمساهلة وحقوق
العباد مبناها على الضيق والشح ويقال في الاثر الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى
مع الظلم وانما نزل على قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عذاب الاستيصال
لما حكى الله عنهم من ايذا الناس وظلم الخلق **ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة**
اي اهل ملة واحدة وهي الاسلام كقوله تعالى ان هذه امتكم امة واحدة وفي الاية
دليل على ان الامر غير الارادة وقوله تعالى ان الله تعالى لم يرد الايمان من كل احد وانما اراده
يجب وقوعه والمعتزلة يحملون هذه الاية على مشية الالجا والاجبار ولهذا قال
الزمخشري لا مضطرين الى ان يكونوا اهل ملة واحدة **ولا يزالون مختلفين** اي على
اديان شتى ما بين يهودي ونصراني ومجوسي ومشرك ومسلم فكل اهل دين من
هذه الاديان اختلفوا في دينهم ايضا اختلافا كثيرا لا ينضبط عن ابي هريرة رضي
الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يفترق على اليهود على احدى وسبعين
فرقة وفي رواية الا ان من قبلكم من اهل الكتاب افترقوا على اثنين وسبعين ملة وان
هذه الامة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة وفي رواية الا ان من قبلكم من اهل
الكتاب افترقوا على اثنين وسبعين ملة وان هذه الامة ستفترق على ثلاث
وسبعين ملة ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة والمراد بهذه الفرق
اهل البدع والاهوا كالقدرية والمعتزلة والرافضة والمراد بالواحدة هي ملة السنة

والجماعة الذين اتبعوا الرسول صلى الله عليه وسلم في اقواله وافعاله فان قيل ما الدليل على ان الاختلاف في الاديان فلم لا يجوز ان يحمل على الاختلاف في الالوان والالسنة والارزاق والاعمال اجيب بان الدليل عليه ما قبل هذه الاية وهو قوله تعالى ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة فيجب حمل الاختلاف على ما يخرجهم من ان يكونوا امة واحدة وما بعد هذه الاية هو قوله تعالى **الا من رحم ربك** اي اراد لهم الخير فلا يختلفون فيه فيجب حمل الاختلاف على معنى يصح ان يستثنى منه ذلك وفي هذه الاية دلالة على ان الهداية والايمان لا يحصل الا بتخليق الله تعالى لان تلك الرحمة ليست عبارة عن اعطا القدرة والعقل هو انه سبحانه وتعالى خلق فيه تلك الهداية والمعرفة **ولذلك خلقهم** اي خلق اهل الاختلاف للاختلاف وخلق اهل الرحمة للرحمة روي عن ابن عباس انه قال خلق الله اهل الرحمة لئلا يختلفوا وخلق اهل العذاب لان يختلفوا وخلق الجنة وخلق لها اهلا وخلق النار وخلق لها اهلا والحاصل ان الله تعالى خلق اهل الباطل وجعلهم مختلفين وخلق اهل الحق وجعلهم متفقين فحكم على بعضهم بالاختلاف وهم اهل الباطل ومصيرهم الى النار وحكم على بعضهم بالاتفاق وهم اهل الحق ومصيرهم الى الجنة ويدل لذلك قوله تعالى **وتمت كلمة ربك** وهي **لاملان جهنم من الجنة** اي الجن **والناس اجمعين** وهذا صريح بان الله تعالى خلق اقواما للجنة والرحمة فهداهم ووفقهم لاعمال اهل الجنة وخلق اقواما للضلالة والنار فخذلهم ومنعهم من الهداية ولما ذكر تعالى القصص الكثيرة في هذه السورة ذكر نوعين من الفائدة احدهما تثبيت الفؤاد بقوله **وكلا** اي وكل نبا **نقص عليك** وقوله تعالى **من انباء الرسل** اي نخبرك به بيان لكل وقوله تعالى **ما نثبت به فؤادك** بدل من كلا ومعنى ومعنى تثبيت الفؤاد زيادة يقينه وطمانينة قلبه وثبات نفسه على اداء الرسالة وعلى الصبر واحتمال الاذى وذلك ان الانسان اذا ابتلي بمحنة وبلية فاذا راى له فيها مشاركا خف ذلك على قلبه كما يقال المصيبة اذا عمت خفت واذا سمع الرسول صلى الله عليه وسلم هذه القصص وعلم ان حال جميع الانبياء مع اتباعهم هكذا سهل عليه تحمل الاذى من قومه وامكنه الصبر عليه الفائدة الثانية قوله تعالى **وجاءك في هذه الحق** اي في السورة وعليها الاكثر وقيل في هذه الانباء المقتصة فيها وقال الحسن في هذه الدنيا قال الرازي وهذا بعيد غير لائق بهذا الموضع لانه لم يجر للدنيا ذكر حتى يعود الضمير اليه فان قيل قد جاءه الحق في غير هذه السورة بل القران كله حق وصدق اجيب بانه انما خصها بالذكر تشريفا لها **وموعظة وذكرى للمؤمنين** وخصهم بالذكر لانتفاعهم بذلك بخلاف الكفار فذكر تعالى امورا ثلاثة الحق والموعظة والذكرى اما الحق فهو اشارة الى البراهين الدالة على التوحيد والعدل والنبوة والمعاد واما الموعظة فهو اشارة الى التنفير عن الدنيا وتقبيح احوالها واما الذكرى فهي اشارة الى الارشاد الى الاعمال

وارسال الرسل وانزال الكتب وازاحة العذر فان كل الكفار وحقق ذلك حاصل بالاتفاق فلم يبق الا الرحمة فهو

النافعة الصالحة في الدار الاخرة ولما بلغ تعالى الغاية في الانذار والاعذار والترغيب والترهيب اتبع ذلك بان قال لرسوله صلى الله عليه وسلم **وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على** **مكانتكم** اي حالتكم فيه وعيد وتهديد وان كانت صيغته صيغة الامر فهو كقوله تعالى لابليس واستفزز من استطعت منهم بصوتك واجلب عليهم بخيلك ورجلك وقرا شعبة بعد النون بالالف على الجمع والباقون بغير الف على الافراد على حالتنا التي امرنا بها ربنا **انا عاملون** **وانتظروا** اي ما يعدكم الشيطان به من الخذلان **انا منتظرون** اي ما يحل بكم من نقمة الله وعذابه نحو ما نزل على امثالكم وقيل انا منتظرون ما وعدنا الرحمن من انواع الغفران والاحسان ثم انه تعالى ذكر خاتمة شريفة عليه جامعة لكل المطالب الشريفة المقدسة فقال **ولله غيب السموات والارض** اي علم ما غاب فيهما فعلمه تعالى نافذ في جميع مخلوقاته خفيها وجليها **واليه** لا الى غيره **يرجع الامر كله** اي اليه يرجع امر الخلق كلهم في الدنيا والاخرة وقرا نافع وحفص بضم اليا وفتح الجيم على البنا للمفعول والباقون بفتح اليا وكسر الجيم ولما كان اول درجات السير الى الله تعالى عبوديته واخرها التوكل عليه قال تعالى **فاعبده** ولا تشتغل بعبادة غيره **وتوكل عليه** اي ثق به في جميع امورك فانه كافيك **وما ربك بغافل عما تعملون** فيحفظ على العباد اعمالهم لا يخفى عليه شي منها فيجزي المحسن باحسانه والمسي باساءته وقرا نافع وابن عامر وحفص بالتا على الخطاب والباقون باليا على الغيبة فائدة قال كعب الاحبار خاتمة التوراة خاتمة سورة هود وقال البيضاوي تبعا للزمخشري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرا سورة هود اعطي من الاجر عشر حسنات بعدد من صدق بنوح ومن كذب به وهود وصالح وشعيب ولوط وابراهيم وموسى وكان يوم القيامة من السعدا حديث موضوع

سورة يوسف عليه السلام مكية كلها

مائة واحدى عشرة اية وعدد كلماتها الف وتسعمائة وست وتسعون كلمة وعدد حروفها سبعة الاف ومائة وستة وستون حرفا **بسم الله** الذي وسع كل شي قدرة وعلما **الرحمن** لجميع خلقه المبين لهم طريق الهدى **الرحيم** الذي خص حزبه بالابعاد عن مواطن الردى وقوله تعالى **الر** تقدم الكلام على اوائل السور اول سورة البقرة وقرا ورش بالامالة بين بين وابو عمرو وابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي بالامالة المحضة والباقون بالفتح واختلف في سبب نزول هذه السورة فعن سعيد بن جبير انه قال لما انزل القران على رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يتلوه على قومه فقالوا يا رسول الله لو حدثتنا فنزل الله نزل احسن الحديث كتابا متشابها مثاني فقالوا لو ذكرتنا فنزل الم يان للذين امنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله وعن ابن عباس انه قال سالت اليهود النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا حدثنا عن امر يعقوب وولده

وشان يوسف فنزلت هذه السورة وقوله تعالى الٓر اشارة الى ايات هذه السورة
المسماة بالرجي تلك الكتاب اي القران المبين اي البين فيه الهدى والرشد والحرام
والحلال المظهر للحق من الباطل الذي ثبت فيه قصص الاولين والاخرين وشرحت فيه احوال
المتقدمين انا انزلناه اي الكتاب قرانا عربيا اي بلغة العرب لكي يعلموا معانيه
ويفهموا ما فيه روي ان علما اليهود قالوا لكبرا المشركين اسالوا محمدا لم انتقل ال يعقوب
من الشام الى مصر وعن كيفية قصة يوسف فانزل الله تعالى هذه الاية وذكر فيه انه
تعالى عبر عن هذه القصة بالفاظ عربية ليتمكنوا من فهمها والتقدير انا انزلنا هذا
الكتاب الذي فيه قصة يوسف حال كونه قرانا عربيا وسمي بعض القران قرانا لان القران
اسم جنس يقع على الكل والبعض لعلكم يا اهل مكة تعقلون اي ارادة ان
تفهموا وتحيطوا بمعانيه ولا يلتبس عليكم ولو جعلناه قرانا اعجميا لقالوا لولا
فصلت اياته واختلف العلما هل في القران شي بغير العربية فقال ابو عبيدة من
زعم ان في القران لسانا غير العربية فقد اعظم على الله القول واحتج بهذه الاية انا
انزلناه قرانا عربيا وروي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة ان فيه من غير لسان العرب
من سجيل ومشكاة واليم واستبرق وجمع بعض المفسرين بين القولين بان هذه
الالفاظ لما تكلمت بها العرب ودارت على السنتهم صارت عربية فصيحة
وان كانت غير عربية في الاصل لكنهم لما تكلموا بها نسبت اليهم وصارت لهم لغة
وهو جمع حسن نحن نقص عليك احسن القصص اي احسن الاقتصاص لانه اقتص على
ابدع الاساليب والقصص اتباع الخبر بعضه بعضا واصله في اللغة من قص
الاثر اذا اتبعه وانما سميت الحكاية قصة لان الذي يقص الحديث يذكر تلك القصة
شيا فشيا والمعنى انا نبين لك يا محمد اخبار الامم السالفة والقرون الماضية
احسن البيان او قصة يوسف عليه السلام خاصة وسماها احسن القصص لما فيها
من العبر والحكم والنكت والفوايد التي تصلح للدين والدنيا وما فيها من سير الملوك والمماليك
والغلمان ومكر النسا والصبر على اذى الاعدا وحسن التجاوز عنهم بعد اللقا وغير
ذلك قال خالد بن معدان سورة يوسف ومريم يتفكه فيها اهل الجنة في الجنة
وقال ابن عطا لا يسمع سورة يوسف محزون الا استراح اليها بما اي بسبب
ما اوحينا اي بايحاينا اليك يا محمد هذا القران الذي قالوا فيه انه مفترى
فنحن نتابع القصص القصة بعد القصة حتى لا يبقى شك ولا يمتري ممتري
انه من عند الله وان كنت من قبله اي بايحاينا اليك او هذا القران لمن الغافلين
اي عن قصة يوسف واخوته لانه صلى الله عليه وسلم انما علم ذلك بالوحي وقيل
لمن الغافلين عن الدين والشريعة وان هي المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة
بينها وبين النافية اذ قال يوسف لابيه بدل من احسن القصص او منصوب
باضمار اذكر ويوسف اسم عبري وقيل عربي ورد بانه لو كان عربيا لصرف وسيل
ابو الحسن الاقطع عن يوسف فقال الاسف في اللغة الحزن والاسيف العبد

الجمع

واجتماعاتي بيوسف فسمي به وعن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الكريم
ابن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم وقوله يا ابت
اصله يا ابي عوض من اليا تا التانيث لتناسبهما في الزيادة ولذلك قلبها ابن
كثير وابن عامر هاء في الوقف ووقف الباقون بالتا كالرسم وفي الوصل بالتا للجميع
وفتح التا في الوصل ابن عامر وكسرها الباقون اني رايت احد عشر كوكبا والشمس والقمر
قال اهل التفسير راى يوسف في منامه وكان ابن اثني عشر سنة وقيل سبع
عشرة وقيل سبع سنين ليلة الجمعة وكانت ليلة القدر كان احد عشر كوكبا
نزلت من السما ومعها الشمس والقمر فسجدوا له وفسر الكواكب باخوته
وكانوا احد عشر يستضا بهم كما يستضا بالنجوم والشمس بابيه وامه يجعل
الشمس للام لانها مونثة والقمر للاب لانه مذكر والذي رواه البيضاوي تبعا
للكشاف عن جابر ان يهوديا قال للنبي صلى الله عليه وسلم اخبرني عن النجوم التي
راهن يوسف فاخبره باسمايها فقال اليهودي اي والله انها لاسماوها قال ابن
الجوزي انه لموضوع وقوله رايتهم لي ساجدين استيناف بيان حالهم التي
راهم عليها فلا تكرير لان الروية الاولى تدل على انه شاهد الكواكب والشمس والقمر
والثانية تدل على مشاهدة كونها ساجدة له وقال بعضهم انه لما قال اني رايت
احد عشر كوكبا قيل له كيف رايت قال رايتهم لي ساجدين وقال اخرون يجوز ان
يكون احدهما من الرويا والاخر من الروية وهذا القايل لم يبين ان ايهما يحمل على الروية
وايهما يحمل على الرويا قال الرازي فذكره لا يحصل الا غير مبين فان قيل قوله رايتهم
وقوله ساجدين لا يليق الا بالعقلا في حق الجمادات اجيب بانه افردها لفضلها
بانها لما وصفت بالسجود صارت كانها تعقل واخبر عنها كما اخبر عن من يعقل
كما قال تعالى في صفة الاصنام وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون وكما في قوله
تعالى يا ايها النمل ادخلوا مساكنكم فان قيل لم افرد الشمس والقمر بالذكر مع انهما من
جملة الكواكب اجيب بانه افردهما لفضلهما وشرفهما على ساير الكواكب كقوله
تعالى وملايكته وجبريل وميكال وهل المراد بالسجود نفس السجود او التواضع كلاهما محتمل
والاصل في الكلام حمله على الحقيقة قال اهل التفسير ان يعقوب عليه السلام
كان شديد الحب ليوسف عليه السلام فحسده اخوته لهذا السبب وظهر ذلك
ليعقوب فلما راى يوسف هذه الرويا وكان تاويلها ان اخوته وابويه يخضعون له
وخاف عليه حسدهم وبغيهم قال له ابوه يا بني يا بني بصيغة التصغير للشفقة
او لصغر سنه لا تقصص رؤياك على اخوتك اي لا تخبرهم برؤياك فانهم يعرفون تاويلها
فيكيدوا لك كيدا اي فيحتالوا في هلاكك فان قيل لم يقل فيكيدوك كما قال
فكيدوني اجيب بان هذه اللام تاكيد للصلة كقوله للرويا تعبرون وكقوله
نصحتك ونصحت لك وشكرتك وشكرت لك وقيل صلة كقوله لربهم يرهبون
ان الشيطان للانسان عدو مبين اي ظاهر العداوة لما فعل بادم وحوا فلا يالو

جهد في تسويلهم واثارة الحسد بينهم حتى يحملهم على الكيد وعن ابي قتادة قال كنت ارى
الرويا تمرضني حتى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الرويا الصالحة من
الله فاذا راى احدكم ما يحبه فلا يحدث بها الا من يحب واذا راى ما يكره فلا يحدث
به وليتفل عن يساره ثلاثا وليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم وشرها فانها لا تضره
وعن ابي سعيد الخدري انه صلى الله عليه وسلم قال اذا راى احدكم رويا يحبها فانها
من الله فليحمد الله عليها وليحدث بها واذا راى غير ذلك مما يكره فانها من الشيطان
فليستعذ بالله من شرها ولا يذكرها لاحد فانها لا تضره وعن ابي رزين العقيلي ان رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال رويا المومن جزء من اربعين جزءا من النبوة وهي على رجل طائر
ما لم يحدث بها فاذا احدث بها سقطت قال واحسبه قال لا تحدث بها الا لبيبا او حبيبا
واضيفت الرويا المحبوبة الى الله اضافة تشريف بخلاف الرويا المكروهة وان كانتا
جميعا من خلق الله تعالى وارادته وتدبيره ولا فعل للشيطان فيها ولكنه يحضر المكروهة
ويرتضيها فيستحب اذا راى الشخص في منامه ما يحب ان يحدث به ما يحب
واذا راى ما يكره فلا يحدث به وليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم من شرها وليتفل
ثلاثا وليتحول عن جنبه الاخر فانها لا تضره فان الله تعالى جعل هذه الاسباب
سببا لسلامته من المكروه كما جعل الصدقة سببا لوقاية المال قال الحكماء
الرويا الردية يظهر تعبيرها عن قرب والروية الجيدة انما يظهر تعبيرها بعد حين
قالوا والسبب فيه ان رحمة الله تعالى تقتضي ان لا يحصل الاعلام بوصول الشر الا
عند قرب وصوله حتى يكون الحزن والغم اقل واما الاعلام بالخير فانه يحصل متقدما
على ظهوره بزمن طويل حتى تكون البهجة الحاصلة بسبب توقع حضور ذلك الخير
اكثر واتم ولهذا لم تظهر روية يوسف عليه السلام الا بعد اربعين سنة وهو قول
اكثر المفسرين وقال الحسن البصري كان بينهما ثمانون سنة حتى اجتمع عليه
ابواه واخوته وخروا له ساجدين **وكذلك** اي وكما اجتباك ربك للاطلاع على
هذه الروية العظيمة الدالة على شرف وعز وكمال نفس **يجتبيك** اي يختارك
ويصطفيك **ربك** بالدرجات العالية واجتبا الله تخصيصه بفيض الهي يحصل
منه انواع الكرامات بلا سعي من العبد وذلك مخصوص بالانبيا وببعض ما يقاربهم
من الصديقين والشهدا والصالحين وقوله **ويعلمك** كلام مستانف خارج عن
التشبيه والتقدير وهو يعلمك **من** اي بعض **تاويل الاحاديث** من تاويل الرويا
وغيرها من كتب الله تعالى والاخبار الرويا عن الانبيا المتقدمين وكان يوسف عليه
السلام في تعبير الرويا وغيرها غاية والتاويل ما يوول اليه عاقبة الامر
ويتم نعمته عليك بالنبوة قاله ابن عباس لان منصب النبوة اي مع الرسالة
اعلى من جميع المناصب وكل الخلق دون درجة الانبيا فهذا من تمام النعمة عليهم لان
جميع مناصب الخلق دون منصب الرسالة والنبوة فالكمال المطلق والتمام المطلق
في حق البشر ليس الا النبوة والرسالة وقيل يجتبيك بالنبوة ويتم نعمته عليك

بسعادات

بسعادات الدنيا وسعادات الاخرة اما سعادات الدنيا فالاكثار من الاولاد والخدم
والتوسع في المال والجاه والاجلال في قلوب الخلق وحسن الثنا والحمد واما سعادات
الاخرة فالعلوم الكثيرة والاخلاق الفاضلة والاستغراق في معرفة الله تعالى
وعلى ال يعقوب اي اولاده وهذا يقتضي حصول تمام النعمة لال يعقوب وايضا
ان يوسف عليه السلام قال اني رايت احد عشر كوكبا وكان تاويله احد عشر نفسا
لهم فضل وكمال ويستضي بعلمهم ودينهم اهل الارض لانه لا شي اضوا من الكواكب
وبها يهتدي وذلك يقتضي ان تكون جملة اولاد يعقوب انبيا ورسلا فان قيل كيف
يجوز ان يكونوا انبيا وقد اقدموا على ما اقدموا عليه في حق يوسف عليه السلام
اجيب بان ذلك وقع منهم قبل النبوة والعصمة انما تعتبر بعد النبوة لا قبلها
على خلاف فيه **كما اتمها على ابويك** بالنبوة والرسالة وقيل اتمام النعمة على ابراهيم
عليه السلام خلاصه من النار واتخاذه خليلا وعلى اسحق خلاصه من الذبح وفداوه
بذبح عظيم على قول ان الذبيح اسحق هو الذبيح **من قبل** اي من قبل هذا الزمان
وقوله **ابرهيم واسحاق** عطف بيان لابويك ثم ان يعقوب عليه السلام
لما وعده بهذه الدرجات الثلاثة ختم الكلام بقوله **ان ربك عليم** اي بليغ العلم
حكيم اي بليغ الحكمة وهي وضع الاشيا في اتقن مواضعها **لقد كان** اي في
خبر **يوسف واخوته** وهم احد عشر يهودا وروبيل وشمعون ولاوي
وزبالون قال البقاعي بزاي موحدة ويشجر وامهم ليا بنت ليان وهي ابنت
خال يعقوب وولد له من سريتين احداهما زلفى والاخرى بلهم كذا قاله البغوي
وقال الرازي والاخرى بلهة اربعة اولاد واسماهم دان ونفتالي قال
البقاعي بنون مفتوحة وفا ساكنة ومثناه فوقانية ولام بعدها يا وجاد
واشر ثم توفيت ليا فتزوج باختها راحيل فولدت له يوسف وبنيامين
وقيل جمع بينهما ولم يكن الجمع محرما حينئذ **ايات** اي علامات ودلايل على
قدرة الله تعالى وحكمته في كل شي **للسايلين** عن قصصهم قال الرازي ولمن لم
يسال عنها وهو كقوله تعالى في اربعة ايام سوا للسايلين وقيل ايات على نبوة
محمد صلى الله عليه وسلم وذلك ان اليهود سالوه عن قصة يوسف وقيل سالوه عن
سبب انتقال ولد يعقوب من ارض كنعان الى ارض مصر فذكر لهم قصة يوسف
فوجدوها موافقة لما في التوراه فتعجبوا منه فكان دلالة على نبوته صلى الله عليه
وسلم لان من لم يقرا الكتب المتقدمة ولم يجالس العلما واصحاب الاخبار ولم ياخذ
عنهم شيا فدل ذلك على ان من ياتي به وحي سماوي اوحاه الله تعالى اليه وعرفه
به وهذه السورة تشتمل على انواع من العبر والمواعظ والحكم منها رويا
يوسف عليه السلام وما حقق الله تعالى فيها من حسد اخوته وما آل اليه
امره من الملك ومنها ما اشتمل على حزن يعقوب وصبره على فقد ولده وما ال
اليه امره من بلوغ المراد وغير ذلك من الايات التي اذا فكر فيها اعتبر وقرا ابن

كثرا به على التوحيد والباقون على الجمع اذ اي واذكر اذ قالوا اي بعض اخوة يوسف لبعض بعدما بلغتهم الرويا وقال ما يرضى ان يسجد له اخوته حتى يسجد له ابواه ليوسف واخوه بنيامين احب الى ابينا منا اللام لام الابتدا وفيها تاكيد وتحقيق لمضمون الجملة اراد وان زيادة محبته لهما امر ثابت لا شبهة فيه وخبر المبتدا احب ووحده لانه افعل من يستوي فيه بين الواحد وما فوقه مذكرا كان او مونثا اذا لم يعرف او يضف وقيل اللام لام قسم تقديره والله ليوسف وانما قالوا اخوه وهم جميعا اخوته لان امهما كانت واحدة والواو في قولهم ونحن عصبة واو الحال اي يفضلهما في المحبة علينا وهما اثنان صغيران لا كفاية فيهما ولا منفعة ونحن جماعة اقويا نقوم بمرافقته فنحن احق بزيادة المحبة منهما لفضلنا بالكثرة والمنفعة عليهما والعصبة والعصابة العشرة فما فوقها وقيل الى الاربعين سموا بذلك لانهم جماعة تعصب بهم الامور وتستكفى النوائب ان ابانا لفي ضلال اي خطا مبين اي بين في ايثاره حب يوسف واخيه علينا والقرب المقتضي في الحب في كلنا واحد لانا في البنوة سوا ولنا مزية تقتضي تفضيلنا وهي انا عصبة لنا من النفع له والذب عنه والكفاية ما ليس لهما تنبيه ههنا سوالات الاول انه من المعلوم ان تفضيل بعض الاولاد على بعض يورث الحقد والحسد فلم قدم يعقوب عليه السلام على ذلك اجيب بانه انما فضلهما في المحبة والمحبة ليست في وسع البشر فكان معذورا فيه ولا يلحقه بسبب ذلك لوم الثاني كيف اعترضوا على ابيهم فانهم ان كانوا مومنين بنبوته لكن جوزوا ان يكون فعله باجتهاد ثم ان اجتهادهم ادى الى تخطئة ابيهم في ذلك الاجتهاد لكونهم اكبر سنا واكثر نفعا وغاب عنهم ان تخصيصهما بالبركات لوجوه احدها انه امهما ماتت ثانيها انه كان في يوسف من اثار الرشد والنجابة ما لم يجد في ساير اولاده ثالثها انه وان كان صغيرا الا انه كان يخدم اباه بانواع من الخدمة اعلا واشرف مما كان يصدر من ساير الاولاد والحاصل ان هذه المسئلة كانت اجتهادية وكانت مخلوطة بميل النفس وموجبات الفطرة فلا يلزم من وقوع الاختلاف فيها طعن احد الخصمين في دين الاخر الثالث انهم نسبوا اباهم الى الضلال عن رعاية مصالح الدنيا والبعد عن طريق الرشد لا الضلال عن الدين الرابع ان قولهم ليوسف واخوه احب الى ابينا منا محض حسد والحسد من امهات الكباير لا سيما وقد قدموا بذلك الحسد على امور مذمومة منها قولهم اقتلوا يوسف او اطرحوه ارضا اي بحيث يحصل الياس من اجتماعه بابيه ومنها القاوه في ذل العبودية ومنها انهم القوا اباهم في الحزن الدايم والاسف العظيم ومنها اقدامهم على الكذب وكل ذلك يقدح في العصمة والنبوة اجيب بما تقدم ان ذلك كان قبل النبوة وقرا نافع وابن كثير وهشام والكسائي بضم التنوين من مبين في الوصل والباقون بالكسر فان وقف على مبين وابتدى

في الابتدا

في الابتدا ابتدى بالضم للجميع وقولهم يخل لكم وجه ابيكم جواب الامر يصف لكم وجه ابيكم فيقبل بكليته عليكم ولا يلتفت عنكم الى غيركم ولا ينازعكم في محبته احد وقولهم وتكونوا مجزوم بالعطف على يخل لكم او منصوب باضمار ان من بعده اي قتل يوسف او طرحه قوما صالحين بان تتوبوا الى الله تعالى بعد فعلكم وانه يعفو عنكم وقال مقاتل يصلح امركم فيما بينكم وبين ابيكم قال قايل منهم هو يهوذا وكان احسنهم رايا فيه وهو الذي قال فلن ابرح الارض وقيل روبيل وكان اكبرهم سنا لا تقتلوا يوسف والقوه اي اطرحوه في غيابة الجب اي في اسفله وظلمته والغيابة كل موضع ستر شيا وغيبه عن النظر قال القايل شعر

فان انا يوما غيبتني غيابتي * فسيروا بسيري في العشيرة والاهل

اراد غيابته حفرته التي يدفن فيها والجب البير الكبيرة التي ليست مطوية سميت جبا لانها قطعت قطعا ولم يحصل فيها شي غير القطع من طي وما اشبهه وانما ذكر الغيابة مع الجب دلالة على ان المشير اشار بطرحه في موضع مظلم من الجب لا يلحقه نظر الناظرين قال بعض اهل العلم انهم عزموا على قتله وعصمهم الله رحمة بهم ولو فعلوا لهلكوا اجمعين واختلف في موضع ذلك الجب فقال قتادة هو بيت المقدس وقال وهب هو بارض الاردن وقال مقاتل هو على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب وقرا نافع بالف بين البا والنون على الجمع والباقون بغير الف على التوحيد يلتقطه اي ياخذه بعض السيارة جمع سيار اي المبالغ في السير وذلك الجب كان معروفا يرد عليه كثير من المسافرين فاذا اخذوه ذهبوا به الى ناحية اخرى فتستريحوا منه ان كنتم فاعلين اي ما اردتم من التفريق فاكتفوا بذلك ولما اجمعوا على التفريق بين يوسف وابيه بضرب من الحيل قالوا اعمالا للحيلة في الوصول اليه مستفهمين لاوجه التعجب لانه كان احس منهم الشر فكان يحذرهم عليه يا ابانا ما لك لا تامنا على يوسف و الحال انا له لناصحون اي قايمون بمصلحته وحفظه تنبيه اتفق القراء على اخفا النون الساكنة عند النون المتحركة واتفقوا ايضا على ادغامها مع الاشمام ارسله معنا غدا اي الى الصحرا نرتع اي نتسع في اكل الفواكه ونحوها واصل الرتع اكل البهايم في الخصب في زمن الربيع ويستعار للانسان اذا اريد الاكل الكثير ونلعب يروى انه قيل لابي عمرو كيف يقولون نلعب وهم انبيا فقال لم يكونوا يومئذ انبيا وايضا جاز ان يكون المراد باللعب الاقدام على المباحات لاجل انشراح الصدر كما روي انه صلى الله عليه وسلم قال لجابر فهلا بكرا تلاعبها وتلاعبك وايضا كان لعبهم الاستباق والانتضال والغرض منه المحاربة والمقاتلة مع الكفار والدليل عليه قولهم انا ذهبنا نستبق وانما سموه لعبا لانه في صورته وقرا ابن كثير وابو عمرو وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وكسرها الباقون في الوصل ولقنبل وجه اخر وهو اثبات اليا في يرتع بعد العين وقفا وانا له لحافظون اي بليغون له في الحفظ حتى نرده اليك سالما قال ابو حيان وانتصب غدا على الظرف وهو ظرف

مستقبل يطلق على اليوم الذي يلي يومك وعلى الزمن المستقبل من غير تقييد
واصل عند عدو تحذف الواو وانتهى ثم ان يعقوب عليه السلام اعتذر لهم
بعذرين الاول ما حكاه الله تعالى عنهم بقوله قال اني ليحزنني ان تذهبوا به اي ذهابكم
به والحزن هنا الم القلب بفراق المحبوب لانه كان لا يقدر ان يصبر عنه ساعة وقرا
نافع بضم اليا وكسر الزاي والباقون بضم الزاي وفتح اليا والثاني قوله واخاف ان
ياكله الذيب وانتم عنه غافلون بالرتع واللعب او لقلة اهتمامكم به وكان يعقوب
عليه السلام راى في النوم ان الذيب شد على يوسف فكان يحذره من هذا فكر ذلك
وكانه لقنهم العلة وفي امثال العرب البلا موكل بالمنطق والمراد به الجنس وكانت
ارضهم كثيرة الذياب قالوا مجيبين عن الثاني عابلين الاب لارساله موكدين
لتطييب خاطره لئن على القسم بلامه لئن اكله الذيب ونحن اي والحال انا عصبة
اي جماعة عشرة رجال بمثلهم يعصب الامور ويكفي الخطوب واجابوا عن القسم
بما اغنى عن جواب الشرط بقولهم انا اذا اي اذا كان هذا لخاسرون اي كاملون
في الخسارة لانا اذا ضيعنا اخانا نحن لما سواه من اموالنا اشد تضييعا واعرضوا
عن جواب الاول لان حقدهم وغيظهم كان بسبب العذر الاول وهو شدة حبه
لهم فلما سمعوا ذلك المعنى تغافلوا عنه واقله ما لهم ان يقولوا اما وجه تنح
بفراقه يوما والسماح بفراقنا كل يوم وقرا الذيب ورش والسوسي والكسائي
بابدال الهمزة يا وقفا ووصلا وقوله تعالى فلما ذهبوا به فيه اضمار واختصار
تقديره فارسله معهم فلما ذهبوا به واجمعوا ان يجعلوه في غيابت الجب اي وعزموا
على القائه فيها ولابد من تقدير جواب وهو فجعلوه فيها وحذف الجواب في القران
كثير بشرط ان يكون المذكور دليلا عليه وهنا كذلك قال وهب وغيره
من اهل السير والاخبار ان اخوة يوسف قالوا له ما تشتاق ان تخرج معنا
الى مواشينا فتصيد وتستبق قال بلى قالوا فاسال اباك ان يرسلك معنا
قال يوسف افعل فدخلوا جميعا الى ابيهم وقالوا يا ابانا ان يوسف قد احب
ان يخرج معنا الى مواشينا فقال يعقوب ما تقول يا بني قال نعم يا ابت اني ارى
من اخوتي اللين واللطف فاحب ان تاذن لي وكان يعقوب يكره
مفارقته ويحب مرضاته فاذن له فارسله معهم فلما خرجوا به من عند ابيهم
جعلوا يحملونه على رقابهم وابوهم ينظر اليهم فلما بعدوا عنه وصاروا الى
الصحرا القوه على الارض واظهروا له ما في انفسهم من العداوة واغلظوا القول
وجعلوا يضربونه فجعل كلما جا الى واحد واستغاث به يضربه فلم ير منهم رحيما
فضربوه حتى كادوا يقتلوه وهو يصيح يا ابتاه ويا يعقوب لو رايت يوسف
وما نزل به من اخوته لاحزنك ذلك وابكاك يا ابتاه ما اسرع ما نسوا عهدك
وجعل يبكي بكا شديدا فاخذه روبيل فجلد به الارض ثم جلس على صدره واراد
قتله فقال له مهلا يا اخي لا تقتلني فقال له يا ابن راحيل انت صاحب الاحلام

الكاذبة قل لرؤياك تخلصك من ايدينا ولوى عنقه فاستغاث يوسف بيهودا وقال
له اتق الله في وحل بيني وبين من يريد قتلي فادركته رحمة ورقة فقال يهودا يا اخوتاه
ما على هذا عاهدتموني فانطلقوا به الى الجب ليطرحوه فيه فجاوا به على بير على غير الطريق
واسع الاسفل ضيق الراس فجعلوا يدلونه في البير فتعلق بشفير البير فربطوا يديه
ونزعوا قميصه فقال يا اخوتاه ردوا علي قميصي استتر به في الجب فقالوا ادع الكواكب
والشمس والقمر تخلصك وتونسك فقال اني لم ار شيا فالقوه فيها وكان في البير
ما فسقط فيه ثم اوى الى صخرة كانت في البير فقام عليها فنادوه فظن انها رحمة ادركتهم
فاجابهم فارادوا ان يرضخوه بصخرة ليقتلوه فمنعهم يهودا من ذلك وكان يهودا ياتيه
بالطعام وبقي فيها ثلاث ليال واوحينا اليه في الجب في صغره وهو ابن سبع عشرة سنة
او دونها كما اوحي الى يحيى وعيسى عليهما السلام في صغرهما وفي القصص ان ابراهيم
عليه السلام حين القي في النار جرد عن ثيابه فاتاه جبريل عليه السلام بقميص
من حرير الجنة فالبسه اياه ودفعه ابراهيم الى اسحق واسحق الى يعقوب فجعله يعقوب
في تميمة علقها بيوسف فاخرجها جبريل والبسه اياه لتنبئنهم اي لتخبرنهم
بعد هذا اليوم بامرهم هذا اي بصنعهم وهم لا يشعرون اي انك يوسف لعلو شانك
وبعده عن اوهامهم وطول العهد المغير للهيآت كما قال فعرفهم وهم له منكرون
والمقصود من ذلك تقوية قلبه وانه سيخلص مما هو فيه من المحنة ويصير مستوليا
عليهم ويصيرون تحت امره ونهيه وقهره روي انهم لما دخلوا عليه لطلب الحنطة
عرفهم وهم له منكرون دعي بالصواع فوضعه على يده ثم نقره فطن فقال انه
ليخبرني هذا الجام انه كان لكم اخ من ابيكم يقال له يوسف فطرحتموه وقلتم لابيكم
اكله الذيب وقيل لا يشعرون بايحائنا اليك وانت في البير بانك ستخبرهم
بصنيعهم هذا والفايدة في اخفا ذلك الوحي عنهم انهم لو عرفوه فربما ازداد
حسدهم وكانوا يقصدون قتله وقيل ان المراد من هذا الوحي الالهام كما في
قوله تعالى واوحينا الى ام موسى وقوله تعالى واوحى ربك الى النحل ولما كان من المعلوم
انه ليس بعد هذا الفعل الذي فعلوه الا الاعتذار جاؤا اباهم دون يوسف
عشا في ظلمة الليل ليلا يتفرس ابوهم في وجوههم اذا راها في ضيا النهار ضد ما
جاوا به من الاعتذار وقد قيل لا تطلب الحاجة في الليل فان الحيا في العينين ولا تعتذر
بالنهار من ذنب فتتلجلج في الاعتذار يبكون والبكا جريان الدمع والاية تدل
على انه لا يدل على الصدق لاحتمال التصنع روي ان امراة حاكمت الى شريح
فبكت فقال الشعبي يا ابا امية اما تراها تبكي فقال قد جا اخوة يوسف يبكون
وهم ظلمة كذبة لا ينبغي للانسان ان يقضي الا بالحق فعند ذلك فزع يعقوب
عليه السلام فقال هل اصابكم في غنمكم شي قالوا لا قال فما فعل يوسف قالوا يا ابانا
انا ذهبنا نستبق قال الزجاج يسابق بعضنا بعضا في الرمي ومنه قوله
عليه الصلاة والسلام لا سبق الا في خف او نصل او حافر يعني بالنصل الرمي

وقيل العدو ولبنين ابنا اكثر عدوا وتركنا يوسف عند متاعنا اي ماكان معنا مما نحتاج اليه في ذلك الوقت من ثياب وزاد ونحو ذلك فاكله اي فتسبب عن انفراده فاكله الذيب وما اي والحال انت ما انت بمؤمن اي بمصدق لنا ولو كنا صادقين في هذه القصة لمحبة يوسف عندك فكيف وانت تسي الظن بنا لانه لا دليل لنا على صدقنا وان كنا صادقين عند الله ولما علموا انه لا يصدقهم بغير امارة جاوا على قميصه اي يوسف عليه السلام بدم كذب قال الفرا اي مكذوب فيه الا انه وصفه بالمصدر على تقدير ذي كذب او مكذوب اطلق عليه المصدر مبالغة لانه غير مطابق للواقع لانهم ادعوا انه دم يوسف عليه السلام والواقع انه دم سخلة ذبحوها ولطخوه بذلك الدم قال القاضي ولعل غرضهم في نزع قميصه عند القايه في غيابة الجب ان يفعلوا هذا توكيد الصدقهم اذ يبعد ان يفعلوا ذلك طمعا في نفس القميص ولا بد في المعصية من ان يقترن بها الخذلان فلو خرقوه مع لطخه بالدم لكان الايهام اقوى فلما شاهد يعقوب عليه القميص صحيحا علم كذبهم روي ان يعقوب عليه السلام اخذ القميص منهم والقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص وقال تالله ما رايت كاليوم ذيبا احلم من هذا اكل ابني ولم يمزق قميصه ثبته على قميصه محل النصب على الظرفية كانه قيل وجاوا فوق قميصه بدم كما تقول جا على جماله باحماله ولا يصح ان يكون حالا متقدمة لان حال المجرور لا يتقدم عليه قال الشعبي قصة يوسف كلها في قميصه وذلك انهم لما القوه في الجب نزعوا قميصه ولطخوه بالدم وعرضوه على ابيه ولما شاهد الشاهد قال ان كان قميصه قد من قبل ولما اتي بقميصه الى يعقوب والقي على وجهه فارتد بصيرا ثم ذكر تعالى ان اخوة يوسف لما ذكروا ذلك الكلام واحتجوا على صدقهم بالقميص الملطخ بالدم قال يعقوب عليه السلام بل سولت اي زينت لكم انفسكم امرا فتعلمتوه به واختلف في السبب الذي عرف به كونهم كاذبين على وجوه الاول انه كان يعرف الحسد الشديد في قلوبهم والثاني كان عالما بانه حي لانه عليه السلام قال وكذلك يجتبيك ربك وذلك دليل على كذبهم في ذلك القول الثالث انه لما راي قميصه صحيحا قال كذبتم لو اكله الذيب لخرق ثوبه وقيل انه لما قال ذلك قال بعضهم بل قتله اللصوص فقال كيف قتلوه وتركوا قميصه وهم الى قميصه احوج منهم الى قتله فلما اختلفت اقوالهم عرف بذلك كذبهم وقوله فصبر جميل مرفوع بالابتدا لكونه موصوفا وخبره محذوف والتقدير فصبر جميل اولى من الجزع ومنهم من اضمر المبتدا قال الذي افعله فصبر جميل وقال قطرب معناه فصبري صبر جميل وقال الفرا فهو صبر جميل وعن الحسن ان النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الصبر الجميل فقال صبر لا شكوى فيه فمن بث لم يصبر كما قال يعقوب انما اشكو بثي وحزني الى الله وقال مجاهد فصبر جميل اي من غير جزع وقال الثوري ان من الصبر ان لا تحدث بوجعك ولا بمصيبتك ولا تزكي نفسك وروي

ان يعقوب

ان يعقوب عليه السلام كان قد سقط حاجباه وكان يرفعهما بخرقة فقيل له ما هذا فقال طول الزمان وكثرة الاحزان فاوحى الله يا يعقوب اتشكوني فقال خطيئة اخطاتها فاغفرها لي وروي ان عايشة رضي الله تعالى عنها في قصة الافك انها قالت والله لئن حلفت لا تصدقوني ولئن اعتذرت لا تعذروني فمثلي ومثلكم كمثل يعقوب وولده والله المستعان على ما تصفون فانزل الله في عذرها ما انزل وقوله فصبر جميل يدل على ان الصبر قسمين قد يكون جميلا وقد يكون غير جميل فالصبر الجميل ان يكشف ان هذا البلا من الحق فاستغراقه في شهود نور المبلي يمنعه من الاشتغال بالشكاية عن البلا وكذلك قيل المحبة التامة لا تزداد بالوفا ولا تنقص بالجفا لانها لو ازدادت بالوفا لكان المحبوب هو النصيب والحظ وموصل النصيب لا يكون محبوبا بالذات بل بالعرض فهذا هو الصبر الجميل واما الصبر لا للرضا بقضا الله تعالى بل كان لساير الاغراض فذلك الصبر لا يكون جميلا فان قيل الصبر على قضا الله واجب واما الصبر على ظلم الظالمين فغير واجب بل الواجب ازالته لا سيما في الضرر العايد الى الغير فلم صبر يعقوب على ذلك ولم يبالغ في البحث مع شدة رغبته في حضور يوسف ونهاية محبته له وكان من بيت عظيم شريف وكان الناس يعرفونه ويعتقدون فيه اجيب بانه يحتمل ان يكون منع من الطلب بوحي تشديدا للمحنة عليه زيادة في اجره او انه لو بالغ في البحث لربما اقدموا على ايذائه ولم يمكنوه من الطلب والفحص فراي ان الاصوب الصبر والسكوت وتفويض الامر بالكلية الى الله تعالى وقال والله المستعان اي المطلوب منه العون على ما تصفون اي تذكرون من امر يوسف والمعنى ان اقدامه على الصبر لا يكون الا بمعونة الله تعالى لان الدواعي النفسانية تدعوه الى اظهار الجزع وهي قوية والدواعي الروحانية تدعوه الى الصبر فكان المحاربة وقعت بين الصنفين فما لم تحصل اعانة الله لم تحصل الغلبة فقوله فصبر جميل يجري مجرى قوله اياك نعبد وقوله المستعان على ما تصفون يجري مجرى قوله واياك نستعين ولما اراد الله تعالى خلاص يوسف من الجب يسر سببه بقوله تعالى وجات سيارة وهم القوم المسافرون سموا بذلك لانهم يسيرون في الارض وكان رفقة من مدين يريدون مصر فاخطاوا الطريق فانطلقوا يهيمون على غير طريق فهبطوا على ارض فيها جب يوسف وكان الجب في قفرة بعيدة عن العمران لم يكن الا للرعاة روي ان ماءه كان ملحا فعذب حين القي يوسف فيه فلما نزلوا ارسلوا رجلا يقال له مالك بن ذعر لطلب الما فذلك قوله تعالى فارسلوا واردهم اي الذي يرد الما ليستقي منه والوارد هو الذي يتقدم الرفقة الى الما فيهيي الارشية والدلي فادلى اي فارسل دلوه في البير يقال ادليت الدلو اذا ارسلتها في البير ودلوتها اذا اخرجتها والدلو معروف والجمع الدلا فلما ارسلها تعلق بالحبل يوسف عليه السلام فلما خرج فاذا هو بغلام احسن ما يكون قال صلى الله عليه وسلم اعطي يوسف شطر الحسن ويقال انه ورث ذلك الجمال من جدته سارة وكانت جدته قد اعطيت سدس الحسن قال ابن اسحاق ذهب يوسف وامه

بشاني الحسن وحكي الثعلبي عن كعب الاحبار قال كان يوسف حسن الوجه جعد الشعر
ضخم العينين مستوي الخلق ابيض اللون غليظ الساعدين والعضدين والساقين
خميص البطن صغير السرة وكان اذا ابتسم رايت النور من ضواحكه واذا تكلم رايت شعاع
النور من ثناياه لا يستطيع احد وصفه وكان حسنه ضوء النهار عند الليل وكان
يشبه ادم عليه السلام يوم خلقه الله وصوره قبل ان يصيب الخطيئة فلما راه مالك
ابن دعر **قال يا بشرى هذا غلام** نادي البشري بشارة لنفسه كانه تعالى قال فهذا
اوانك ومن الاعمش انه قال دعى امراة اسمها بشري وعن السدي ان المدلي
نادي صاحبه وكان اسمه بشري فقال يا بشري كما قراه حمزة وعاصم والكسائي
فانهم قروا بحذف اليا بعد الالف والباقون باثبات اليا وقيل ذهب به فلما دنى
من اصحابه صاح بذلك وقيل ان جدران البير كانت تبكي على يوسف حين اخرج منها
واختلف في ضمير **واسروه** الى من يعود وفيه قولان الاول انه عايد الى الوارد
واصحابه اخفوا من الرفقة انه وجدوه في الجب وذلك انهم قالوا ان قلنا للسيارة
التقطناه شاركونا وان قلنا اشتريناه سالونا الشركة فالاصوب ان نقول
ان اهل الما جعلوه **بضاعة** عندنا على ان نبيعه لهم بمصر والثاني ونقل عن
ابن عباس انه قال واسروه يعني اخوة يوسف اسروا شانه وذلك ان يهودا
كان ياتيه بالطعام كل يوم فلم يجده في البير فاخبر اخوته فطلبوه فاذا هم بمالك
ابن دعر واصحابه نزول فاتوهم فاذا هم بيوسف فقالوا هذا عبد لنا ابق منا وتابعهم
يوسف على ذلك لانهم توعدوه بالقتل بلسان العبرانية قال الرازي والاول
اولي لان قوله واسروه بضاعة يدل عليه على ان المراد انهم اسروه حال ما حكموا
بانه بضاعة وذلك انما يليق بالوارد لا باخوة يوسف ثم البضاعة
القطعة من المال تجعل للتجارة من بضعت الشي اذا قطعته قال الزجاج وبضاعة
منصوب على الحال كانه قال واسروه حال ما حكموا انه بضاعة ولما جعل تعالى
هذا البلا سببا لوصوله الي مصر ثم نارت وقايعه الى ان صار ملك مصر وحصل
ذلك الذي راه في النوم فكان العمل الذي عمله الاعدا في دفعه عن ذلك
المطلوب صيره الله تعالى سببا لحصول ذلك المطلوب فلهذا المعنى قال تعالى
والله عليم اي بالغ العلم **بما يعملون** اي لم يخف عليه ما فعلوه بيوسف وابيهم
وشروه اي باعوه اذ يطلق لفظ الشرا على البيع لان الضمير في شروه وفي كانوا
فيه من الزاهدين يرجع الي شي واحد وذلك ان اخوته زهدوا فيه فباعوه وقيل
ان الضمير يعود الى مالك بن دعر واصحابه وعلى هذا يكون لفظ الشرا على بابه
وقال محمد بن اسحق ربك اعلم ااخوته باعوه ام السيارة واختلفوا في
معنى قوله تعالى **بثمن بخس** قال الضحاك اي حرام لان ثمن الحر حرام وسمي الحرام
بخسا لانه مبخوس البركة وقال ابن مسعود اي زيوف وقال عكرمة اي
بثمن قليل ويدل لهذا قوله تعالى **دراهم معدودة** لانهم كانوا في ذلك الزمان

يقال شريت الشيء بمعنى
اذا حمل هذا الشرا على
البيع صح

لا يزنون

لا يزنون ما كان اقل من اربعين درهما انما كانوا ياخذون ما دونها عدا فاذا بلغت وقية
وزنوها واختلفوا في عدد تلك الدراهم فقال ابن عباس كانت عشرين درهما فاقتسموها
درهمين درهمين وعلى هذا لم ياخذ اخاه بنيامين شقيقه منها شيا وقال مجاهد كانت
اثنين وعشرين درهما وقال عكرمة اربعين درهما **وكانوا** اي اخوته **فيه** اي يوسف
من الزاهدين لانهم لم يعلموا منزلته عند الله تعالى ومعنى الزهد قلة الرغبة يقال زهد
فلان كذا اذا لم يرغب فيه واصلها القلة يقال رجل زهيد اذا كان قليل الطمع وقيل كانوا في
الثمن من الزاهدين لانهم لم يكن قصدهم تحصيل الثمن وانما كان قصدهم تبعيد يوسف
عن ابيه وقيل الضمير في كانوا للسيارة لانهم التقطوه والملتقط للشي يتهاون
به خايف من انتزاعه مستعجل في بيعه لا جرم باعوه باوكس الاثمان روي في الاخبار
ان مالك بن دعر انطلق هو واصحابه بيوسف وتبعهم اخوته يقولون استوثقوا منه لانه
ابق فذهبوا به حتى اتوا مصر وعرضه مالك على البيع فاشتراه قطفير او اطفير وهو العزيز
الذي كان على خزاين مصر والملك يوميذ الريان بن الوليد رجل من العمالقة وقد امن بيوسف
ومات في حياة يوسف فملك بعده قابوس بن مصعب فدعاه يوسف الى الاسلام فابى
واشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة فاقام في منزله ثلاث عشرة سنة واستوزره
ريان بن الوليد وهو ابن ثلاثين سنة واتاه الله تعالى العلم والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين
سنة وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة وقيل كان الملك في ايامه فرعون موسى
من اولاد فرعون عاش اربعمائة سنة بدليل قوله تعالى ولقد جاكم يوسف من قبل بالبينات
وقيل فرعون موسى من اولاد فرعون يوسف واشتراه العزيز بعشرين دينارا وزوج نعل
وثوبين ابيضين وقال وهب بن منبه قدمت السيارة بيوسف مصر فدخلوا به السوق
يعرضونه للبيع فترادف الناس في ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنه ذهبا ووزنه فضة ووزنه
مسكا وحريرا وكان وزنه اربعمائة رطل وكان عمره حينئذ سبع عشرة سنة وقيل ثلاث
عشرة سنة فابتاعه قطفير من مالك بهذا الثمن فذلك قوله تعالى **وقال الذي اشتراه
من مصر لامراته** وكان اسمها زليخا وقيل راعيل **اكرمي مثواه** قال الرازي واعلم ان
هذه الروايات لم يدل عليها القران ولم يثبت ايضا في خبر صحيح وتفسير كتاب الله تعالى
لا يتوقف على شي من هذه الروايات فاللايق بالعاقل ان يحترز من ذكرها انتهى ولكن
البغوي ذكرها وتبعه على ذلك جماعة من المفسرين واللام في لامراته متعلقة بقال
لا باشتراه والمثوي موضع الاقامة اي اجعلي منزله ومقامه عندنا كريما اي حسنا
مرضيا بدليل قول يوسف انه ربي احسن مثواي والمراد تفقديه بالاحسان وتعهديه
بحسن الملكة حتى تكون نفسه طيبة في صحبتنا ساكنة في كنفنا قال المحققون
امر العزيز امراته باكرام مثواه دون اكرام نفسه يدل على انه كان ينظر اليه على
سبيل الاجلال والتعظيم وهو كما يقال سلام الله على المجلس العالي ولما امر باكرام
مثواه علل ذلك بان قال **عسى ان ينفعنا** اي يقوم باصلاح مهماتنا ان
نبيعه بالربح ان اردنا بيعه **او نتخذه ولدا** اي نتبناه وكان حصور الليس له ولد

قال ابن مسعود افرس الناس ثلاثة العزيز في يوسف حيث قال لامراته اكرمي مثواه عسى ان
ينفعنا وابنة شعيب حين قالت يا ابت استاجره وابو بكر في عمر حيث استخلفه
وكذلك اي وكما نجيناه من القتل والجب وعطفنا عليه قلب العزيز مكنا ليوسف في الارض
اي ارض مصر قال البقاعي التي هي كالارض كلها لكثرة منافعها بالملك فيها ليتمكن من
الحكم بالعدل والنبوة وقوله تعالى ولنعلمه من تاويل الاحاديث اي تعبير الرؤيا عطف
على مقدر متعلق بمكنا اي لنمكنه او الواو زائدة والله غالب على امره اي الامر الذي
يريده لانه تعالى فعال لما يريد ولا دافع لقضائه ولا مانع عن حكمه في ارضه وسمائه
او على امر يوسف اراد اخوته قتله فغلب امره عليهم وارادوا ان يلتقطه بعض
السيارة ليندرس اسمه فغلب امره تعالى حتى صار ملكا وسجدوا بين يديه ثم
ارادوا ان يضروا اباهم ويطيبوا قلبه حتى يخلو لهم وجهه فغلب امره تعالى
فاظهره على مكرهم واحتالت عليه امراة العزيز لتخدعه عن نفسه فغلب
امره تعالى فعصمه حتى لم يهم بسوء بل هرب منه غاية الهرب ثم ابذلت جهدها في
اذلاله والقت التهمة عليه فابى الله تعالى الا اعزازه وبراءته ثم اراد يوسف عليه
السلام ذكر الساقي له فغلب امره تعالى فانساه ذكره حتى مضى الاجل الذي
ضربه الله تعالى وكم من امر كان في هذه القصة وفي غيرها يرشد الى انه لا امر لغيره
ولكن اكثر الناس وهم الكفار لا يعلمون ان الامر كله بيد الله او ان اكثر الناس
لا يعلمون ما هو صانع بيوسف وما يريد منه فمن تامل في احوال الدنيا وعجائب
احوالها عرف وتيقن ان الامر كله لله وان قضاء الله تعالى غالب ولما بين تعالى ان اخوته
اليه وصبر على تلك الشدائد والمحن ومكنه في الارض اتبعه الاعلام بتمام النعمة
عليه بقوله تعالى ولما بلغ اشده اي منتهى شبابه وقوته وشدته تقول العرب
بلغ فلان اشده اذا انتهى منتهاه في شبابه وقوته وهذا اللفظ مستعمل في الواحد
والجمع يقال بلغ اشده وبلغوا اشدهم وهو ثلاث وثلاثون سنة وقال السدي
بلغ ثلاثين سنة وقال الضحاك عشرين سنة وقال الكلبي الاشد ما بين
ثمانية عشر الى ثلاثين وقيل اقصاه اثنان وستون سنة قال الاطباء ان
الانسان يحدث في اول الامر ويتزايد كل يوم شيئا فشيئا الى ان ينتهي الى غاية
الكمال ثم ياخذ في التراجع الى ان ينتهي الى العدم والمحاق كالقمر آتيناه حكما اي حكمة
وهو العلم المؤيد بالعمل او حكما بين الناس وعلما اي علم تاويل الاحاديث
وقيل المراد بالحكم النبوة والرسالة وتقدم ان قوله تعالى واوحينا اليه وحي حقيقة
قال الرازي فلا يبعد ان يقال ان ذلك الوحي عليه في ذلك الوقت لا لاجل بعثه
الى الخلق بل لاجل تقوية قلبه وازالة الحزن عن صدره ولاجل انه استانس
بحضور جبريل عليه السلام وكذلك اي ومثل ذلك الجزاء الذي جزيناه
به نجزي المحسنين قال ابن عباس يعني المومنين وعنه ايضا المهتدين
وقال الضحاك يعني الصابرين على النوائب كما صبر يوسف وعن الحسن

من احسن عبادة ربه في شبيبته آتاه الله الحكمة في كهالته ولما اخبر تعالى انه سبب النعمة عليه
احسانه اتبعه دليله فقال تعالى وراودته التي هو في بيتها اي امراة العزيز راودت يوسف
عن نفسه لانها لما رأته في غاية الحسن والجمال طمعت فيه ويقال ان زوجها كان عاجزا والمراودة
مفاعلة من راد يرود اذا جاء وذهب كان المعنى خادعته عن نفسه اي فعلت ما
يفعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد ان يخرجه من يده يحتال ان يغلبه عليه
وياخذه منه وهو عبارة عن التمحل لمواقعته اياها وغلقت الابواب اي اطبقتها
وكانت سبعة والتشديد للتكثير او للمبالغة في الايثاق لان مثل هذا الفعل
لا يكون الا في ستر وخفية لا سيما اذا كان حراما ومع قيام الخوف الشديد وقالت
له هيت لك اي تهيات وتصنعت لك خاصة فاقبل الي وامتثل امري قال
الواحدي هيت لك اسم للفعل نحو رويد وصه ومه ومعناه هلم في قول جميع اهل
اللغة وقرا نافع وابن عامر بكسر الهاء والباقون بالفتح وقرا هشام بعدها بهمزة
ساكنة والباقون بياء ساكنة وقرا ابن كثير بضم التاء وفتحها والباقون بالفتح قال
لها يوسف عليه السلام معاذ الله اي اعوذ بالله واعتصم به والجا اليه مما تدعوني
اليه انه اي الذي اشتراني ربي اي سيدي احسن مثواي اي اواني
اي اكرم منزلي فلا اخونه في اهله وقيل انه اي الله ربي احسن مثواي اي
اواني ومن بلاء الجب انجاني انه لا يفلح الظالمون اي ان فعلت هذه الفعلة
فانا ظالم ولا يفلح الظالمون ولقد همت به وهم بها اي قصدت مخالطته وقصد
مخالطتها والهم بالشيء قصده والعزم عليه ومنه الهمام وهو الذي اذا هم
بالشيء امضاه والمراد بهمه ميل الطبع ومنازعة الشهوة لا القصد الاختياري
مما لا يدخل تحت التكليف بل الحقيق بالمدح والاجر الجزيل من الله تعالى
من يكف نفسه عن الفعل عند قيام هذا الهم ولهذا قال بعض اهل الحقائق
الهم قسمان هم ثابت وهو اذا كان معه عزم وعقد ورضا مثل هم امراة العزيز
فالعبد ماخوذ به وهم عارض وهو الخطرة وحديث النفس من غير اختيار
ولا عزم مثل هم يوسف عليه السلام والعبد ماخوذ به ما لم يتكلم او يعمل
كما روي عن ابي هريرة رضي الله تعالى انه صلى الله عليه وسلم قال يقول الله
عز وجل اذا تحدث عبدي بان يعمل حسنة فانا اكتبها حسنة ما لم يعملها
فاذا عملها فانا اكتبها له بعشر حسنات امثالها واذا تحدث بان يعمل سيئة
فانا اغفرها له ما لم يعملها فاذا عملها فانا اكتبها له بمثلها قال في الكشاف
ويجوز ان يريد بقوله وهم بها شارف ان يهم بها كما يقول قتلته لو لم اخف
الله يريد مشارفة القتل ومشارفته كانه شرع فيه لولا ان رأى
اي بعين قلبه برهان ربه اي الذي آتاه اياه من الحكم والعلم اي لهم بها
لكنه كان البرهان حاضرا لديه حضور من يراه بالعين فلم يهم اصلا مع كونه
في غاية الاستعداد لذلك لما آتاه الله تعالى من القوة مع كونه في سن الشباب

ولولا المراقبة لهم بها لتوفر الدواعي غيرات نور الشهود محاها اصلا وهذا التقدير
هو اللائق بمثل مقامه عليه السلام مع انه الذي يدل عليه اساليب هذه الايات
من جعله من المخلصين والمحسنين المصروف عنهم السوء وان السجن احب اليه مما ذكر
مع قيام القاطع على كذب ما تضمنه قولها ما جزاء من اراد باهلك سوءا الاية من
مطلق الارادة ومع ما يحتم تقدير ما ذكر بعد لولا في خصوص هذا التركيب من
اساليب كلام العرب فانه يجب ان يكون المقدر بعد كل شرط من معنى ما دل عليه
ما قبله وهذا مثل قوله تعالى ان كادت لتبدي به لولا ان ربطنا على قلبها اي لابدت
واما ورد عن السلف مما يعارض ذلك تفسيرهم يوسف بان حل الهميان وجلس بها
مجلس المجامع وبانه حل سراويله وقعد بين شعبها الاربع وهي مستلقية على قفاها
ومن تفسير البرهان بانه سمع صوتا اياك واياها فلم يكترث له فسمعه ثانيا
فلم يعمل به فسمع ثالثا اعرض عنها فلم ينجع فيه حتى مثل له يعقوب عاضا على
انملته وقيل ضرب بيده على صدره فخرجت شهوته من انامله وقيل كل ولد ليعقوب
ولد له اثنا عشر ولدا الا يوسف فانه ولد له احد عشر ولدا من اجل ما نقص
من شهوته حين هم وقيل صيح به يا يوسف لا تكن كالطاير فلما زنا قعد لا ريش له
وقيل بدت كف فيما بينهما ليس لها عضد ولا معصم مكتوب فيها وان عليكم لحافظين
كراما كاتبين فلم ينصرف ثم راى فيها واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله فلم ينجع
فقال الله تعالى لجبريل ادرك عبدي قبل ان يدرك الخطيئة فانحط جبريل
وهو يقول يا يوسف تعمل عمل السفهاء وانت مكتوب في ديوان الانبياء وقيل راى
تمثال العزيز وقيل قامت المراة الى صنم هناك فسترته وقالت استحي ان يرانا
فقال يوسف استحييت ممن لا يسمع ولا يبصر ولا استحيي من السميع
العليم بذات الصدور فلم يصح منه شي عن احد منهم مع ان هذه الاقوال
التي وردت عنهم اذا جمعت تناقضت وتكاذبت قال الزمخشري وهذا
ونحوه مما يورده اهل الجبر والحشو الذين دينهم بهت الله وانبيايه فاخزى الله
اوليك في ايرادهم ما يؤدي الى ان يكون انزل الله السورة التي هي احسن القصص
في القرآن العربي المبين ليقتدي بنبي من انبيا الله تعالى بما ذكروه واهل العدل
والتوحيد ليسوا من مقالاتهم ورواياتهم بحمد الله بسبيل واطال في رد ذلك
وكذا نقل الرازي وقيل هم بها اي بزجرها ووعظها وقيل هم بها اي غمه امتناعه
منها وقيل هم بها اي نظر اليها وقيل هم بضربها ودفعها وقيل هذا كله قبل نبوته
وقد ذكر بعضهم ما زال النسا يملن الى يوسف ميل شهوة حتى نباه الله تعالى
فالقى عليه هيبة النبوة فشغلت هيبته كل من راه عن حسنه كذلك اي
مثل ذلك التثبيت ثبتناه في كل امر لنصرف عنه السوء اي الهم بالزنا وغيره و
والفحشاء اي الزنا وغيره وقيل السوء مقدمات الفاحشة من القبلة والنظر
بالشهوة والفحشاء هو الزنا فكانه قيل لم فعل بهذا فقيل انه من عبادنا المخلصين اي

الذين عظمناهم المخلصين اي هو في عبادنا الذين هم خلص لا يخالطهم غش وقرا
ابن كثير وابو عمرو وابن عامر بكسر اللام بعد الخاء والباقون بالفتح قال الرازي فوروده باسم
الفاعل دل على كونه اتيا بالطاعات والقربات مع صفة الاخلاص ووروده باسم المفعول
يدل على ان الله تعالى اصطفاه واستخلصه لحضرته وعلى كلا اللفظين فانه ادل الالفاظ
على كونه منزها عما اضافوه اليه وهذا مع قول ابليس لاغوينهم اجمعين الا عبادك
منهم المخلصين شهادة من ابليس ان يوسف عليه السلام بري من الهم فمن نسبه
الى الهم ان كانوا من اتباع يوسف وجنوده فليقبلوا شهادة الله على طهارته قال
ولعلهم يقولون كنا في اول الامر تلامذة ابليس الا انا زدنا وتفوقنا عليه في
السفاهة كما قال الجزوري

وكنت فتى من جند ابليس فارتقى * بي الامر حتى صار ابليس من جندي
فلو مات قبلي كنت احسن بعده * طرايق فسق ليس يحسنها بعدي

ثم ذكر سبحانه وتعالى في الامتناع بالجد في الهرب دليلا على اخلاصه وانه لم يهم
اصلا فقال واستبقا الباب اي اوجد المسابقة بغاية الرغبة كل منهما
هذا للهرب منها وهذا للمنع فكل منهما بذل اقصى جهده في السبق فلحقته عند
الباب الاقصى مع انه قد كان سبقها بقوة الرجولية وقوة الداعية الى الفرار الى
الله تعالى ولكن عاقها انفاذها للمكر بكون الابواب كانت مغلقة فكان يشتغل
بفتحها فتعلقت بادنى ما وصلت اليه من قميصه وهو ما كان من ورائه خوف فوته
فاشتد تعلقها به مع اعراضه هو عنها وهربه منها ففتحه فاراد الخروج فمنعته
ولم تزل تنازعه حتى قدت اي شقت قميصه وكان القد من دبر اي
الناحية من الخلف منه وانقطعت منه قطعة فبقيت في يدها والفيا اي وجدا
سيدها اي زوجها قطفير وهو العزيز تقول المراة لبعلها سيدي ولم
يقل سيدهما لان ملك يوسف لم يصح فلم يكن سيدا له على الحقيقة لدى
اي عند الباب جالسا مع ابن عم المراة فان قيل كيف وحد الباب وقد جمعه
في قوله وغلقت الابواب اجيب بانه اراد الباب البراني الذي هو المخرج من
الدار والمخلص فقد روى كعب الاحبار ان يوسف لما هرب جعل فراش
القفل يتناثر ويسقط حتى خرج من الابواب فلما رات المراة ابن عمها هابته
وخافت التهمة فسابقت يوسف بالقول وقالت لزوجها ما جزاء من اراد
باهلك سوءا اي فاحشة زنا او غيره ثم خافت عليه ان يقتل وذلك لشدة حبها له
فقالت الا ان يسجن اي يحبس في السجن ويمنع التصرف او عذاب اليم اي
مولم بان يضرب بالسياط ونحوها وانما بدات بالسجن قبل العذاب لان المحب
لا يشتهي ايلام المحبوب وانما ارادت ان يسجن عندها يوما او يومين ولم ترد
السجن الطويل فانه لا يعبر عنه بهذه العبارة بل يجب ان يجعل من المسجونين
الا ترى ان فرعون هكذا قال في حق موسى عليه السلام في قوله لئن اتخذت الها غيري

لا تجعلنك من المسجونين فلما سمع يوسف عليه السلام مقالتها قال مبرئا نفسه
بضمير الغيبة استحيايه بمواجهتها باشارة او ضمير خطاب راودتني عن
نفسي اي طلبت مني الفاحشة فابيت وفررت منها وذلك ان يوسف عليه
عليه السلام ما كان يريد ان يذكر ذلك القول ولا يهتك سترها ولكن لما قالت ما
قالت ولطخت عرضه احتاج الى ازالة هذه التهمة عن نفسه وصدقه لعمري فيما قال
لا يحتاج الى بيان اكثر من الحال الذي كان فيه وهو انهما وهو انهما عند الباب ولو كانت
الطلب منه لما كان الا في محلها الذي يجلس فيه وهو صدر البيت واشرف موضع فيه
وايضا عبد لهم والعبد لا يمكنه ان يسلط على مولاه الى هذا الحال وايضا ان المراة تزينت
نفسها على كمل الوجوه واما يوسف فما كان عليه اثر من اثار تزيين النفس فكانت
الحاق هذه الفتنة بالمراة اولى ثم انه تعالى اظهر ليوسف دليلا اخر يقوي تلك
الدلايل المذكورة ويدل على انه بري من الريب وان المراة هي المذنبة وهو قوله
تعالى وشهد شاهد من اهلها اي وحكم حاكم من اهل المراة واختلفوا في هذا الشاهد
فقال سعيد بن جبير والضحاك كان صبيا في المهد انطقه الله تعالى كرامة ليوسف
عليه السلام وروي انه صلى الله عليه وسلم قال تكلم في المهد اربعة وهم صغار
شاهد يوسف وابن ماشطة بنت فرعون وعيسى بن مريم وصاحب جريج
الراهب رواه الامام احمد وفي الصحيحين انه صلى الله عليه وسلم قال لم يتكلم
في المهد الا ثلاثة عيسى ابن مريم وصاحب جريج وفتى كان يرضع امه فمر راكب
حسن الهيئة فقالت المراة اللهم اجعل ابني مثل هذا فقال الصبي اللهم لا تجعلني
مثله وبهذا الاعتبار صار واحدة وزاد الثعلبي شاهدا وهو يحيى بن
زكريا وزاد غيره على ذلك ولعل الحصر فيما ذكر في الحديث كان قبل العلم
بالزيادة ثم لا تناقض واوصلهم السيوطي الى احد عشر ونظمهم فقال

تكلم في المهد النبي محمد ∗ ويحيى وعيسى والخليل ومريم ∗
ومبري جريج ثم شاهد يوسف ∗ وطفل لدى الاخدود يرويه مسلم ∗
وطفل عليه مر بالامة التي ∗ يقال لها تزني ولا تتكلم ∗
وماشطة في عهد فرعون طفلها ∗ وفي زمن الهادي المبارك يختم ∗

وقالت طايفة عظيمة من المفسرين انها كان لها ابن عم وكان رجلا حكيما واتفق في
ذلك الوقت مع الملك يريد ان يدخل عليها فقال قد سمعنا الجلبة من ورا الباب
وشق القميص الا انا لا ندري ايكما قدام صاحبه ولكن ان كان قميصه قد من قبل
اي من قدام فصدقت وهو من الكاذبين وان كان قميصه قد من دبر اي من خلف فكذبت وهو
من الصادقين لانه لولا ادباره عنها واقبالها عليه لما وقع ذلك فعرف سيده
صحة ذلك بلا شبهة كما قال تعالى فلما راى اي سيدها قميصه اي يوسف
عليه السلام قد من دبر قال لها زوجها قطفير وقد قطع بصدقه وكذبها
موكدا لاجل انكارها انه اي هذا القذف له من كيدكن معشر النساء

والكيد طلب الانسان بما يكره ان كيدكن عظيم والعظيم ما ينقص مقدار غيره عنه حسا او
معنى فان قيل كيف وصف كيد النسا بالعظم مع قوله تعالى وخلق الانسان ضعيفا
وهلا كان مكر النساء اقوى من مكر الرجال اجيب بان الانسان ضعيف بالنسبة
لخلق ما هو اعظم منه كخلق السموات والارض وبان كيدهن ادق من كيد الرجال
والطف واخفى لان الشيطان عليهن لنقصهن اقدر ومكرهن في هذا الباب اعظم من كيد
جميع البشر لان لهن من المكر والحيل والكيد في تمام مرادهن ما لا يقدر عليه الرجال
ولما ظهر للقوم براة يوسف عن ذلك الفعل المنكر حكى تعالى انه قال يوسف اي
يا يوسف اعرض اي انصرف بكليتك مجاوزا عن هذا الحديث فلا تذكره لاحد
حتى لا يشيع ويشتهر بين الناس ثم التفت الى المراة وقال لها واستغفري لذنبك
اي توبي الى الله تعالى مما رميتي يوسف به من الخطية وهو بري منها انك كنت من
الخاطيين اي الاثمين قال ابو بكر الاصم ان ذلك الزوج كان قليل الغيرة فاكتفى
منها بالاستغفار وقيل ان القايل المذكور هو الشاهد فان قيل كيف قال من الخاطيين
بلفظ التذكير اجيب بانه قال ذلك تغليبا للذكور على الاناث او المراد انك
من نسل الخاطيين فمن ذلك النسل سرى ذلك العرق الخبيث فيك ثم شاع الخبر
واشتهر وقال نسوة اي وقالت جماعة من النسا وكن خمسا امراة الساقي
وامراة الخباز وامراة صاحب الدواب وامراة صاحب السجن وامراة الحاجب والنسوة
اسم مفرد لجمع المراة وتانيثه غير حقيقي ولذلك لم يلحق فعله تا التانيث وقوله
في المدينة اي مدينة مصر ظرف اي اشعن الحكاية في مصر او صفة نسوة وقيل
مدينة عين شمس امراة العزيز وانما اضفنها الى زوجها ارادة الاشاعة
للخبر لان النفس الى سماع اخبار اولي الاخطار اميل ويريدن قطفير والعزيز الملك
بلسان العرب ورسم امرات بالتا المجرورة فوقف عليها ابن كثير وابو عمرو والكسايي
بالها والباقون بالتا واما الوصل فهو بالتا للجميع تراود فتاها اي عبدها الكنعاني
يقال فتاي وفتاتي اي عبدي وجاريتي عن نفسه اي تطلب منه الفاحشة وهو
يمتنع منها قد شغفها حبا اي شق شغاف قلبها وهو حجابه حتى وصل الى فوادها
وحبا نصب على التمييز وقيل جلدة رقيقة يقال لها لسان القلب قال النابغة
وقد حال هم دون ذلك والج ∗ مكان الشغاف تبتغيه الاصابع ∗ وقرا نافع
وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار دال قد عند الشين والباقون بالادغام
انا لنراها اي نعلم امرها علما هو كالروية في ضلال اي خطا مبين اي
بين ظاهر حيث تركت ما يجب على امثالها من العفاف والستر بسبب حبها اياه
فلما سمعت زليخا بمكرهن اي قولهن وانما سمي ذلك مكرا لوجوه الاول ان
النسوة انما ذكرن ذلك الكلام استدعاء لروية يوسف عليه السلام والنظر الى
وجهه لانهن عرفن انهن اذا قلن ذلك عرضت يوسف عليهن ليتمهد عذرها
عندهن الثاني ان زليخا اسرت اليهن حبها ليوسف عليه السلام وطلبت

منهن كتمان هذا السر فلما اظهرن السر كان ذلك مكرا الثالث انهن وقعن في غيبتها
والغيبة انما تذكر على سبيل الخفية فاشبهت المكر **ارسلت اليهن** تدعوهن لتقيم
عذرها عندهن قال وهب اتخذت مايدة ودعت اربعين امراة من اشراف قومها
مدينتها فيهن الخمس **واعتدت** اي اعتدت **لهن متكا** اي طعاما يقطع بالسكين
وهو الاترج وانما سمي الطعام متكا لانه يتكا للنبيذ عنده قال جميل
فظللنا بنعمة واتكانا ⁂ وشربنا الحلال من قلله
والمتكا ما يتكا عليه عند الطعام والشراب والحديث لانهم كانوا يتكون للطعام
والشراب والحديث كعادة المترفين ولذلك جا النهي عنه في الحديث ان ياكل الرجل
متكيا وقال صلى الله عليه وسلم لا اكل متكيا وقيل انها زينت البيت بالوان
الفواكه والاطعمة ووضعت الوسايد ودعت النسوة اللاتي عيرنها
بحب يوسف عليه السلام **واتت** اي اعطت **كل واحدة منهن سكينا** اي لتاكل
بها وكانت عادتهن ان ياكلن اللحم والفواكه بالسكين **وقالت** زليخا ليوسف
اخرج عليهن اي النسوة وكان يخاف من مخالفتها فخرج عليهن يوسف وكانت
قد زينته واخفته في مكان وقرا ابو عمرو وعاصم وحمزة والكساي بكسر التاء
في الوصل والباقون بالضم واما الابتدا فجميع القرا يبتدون الهمزة بالضم
فلما رايته اي النسوة **اكبرنه** اي اعظمته ودهشن عند رويته اتفق الاكثرون
على انهن انما اكبرنه بحسب الجمال الفايق والحسن الكامل وكان يوسف قد
اعطي شطر الحسن وقال عكرمة كان فضل يوسف في الحسن كفضل القمر
ليلة البدر على ساير الكواكب وروي انه صلى الله عليه وسلم قال رايت يوسف
ليلة اسري بي الى السما كالقمر ليلة البدر ذكره البغوي بغير سند وقال ابن اسحق
كان يوسف اذا سار في ازقة مصر يلالا وجهه على الجدران كما يري نور
الشمس من الما عليها ويقال انه ورث حسن ادم عليه السلام يوم خلقه
الله تعالى قبل ان يخرج من الجنة وقيل ورث الجمال من جدته سارة وقيل اكبرنه
يعني حضن والها للسكت يقال اكبرت المراة اذا حاضت وحقيقته دخلت
في الكبر لانها بالحيض تخرج من حد الصغر الى حد الكبر وكان ابا الطيب اخذ
اخذ من هذا التفسير قوله
خف الله واستر ذا الجمال ببرقع ⁂ فان لحت حاضت في الخدور العواتق
وقيل امنين قال الكميت
ولما راته الخيل من راس شاهق ⁂ صهلن وامنين المني المدفقا
وقال الرازي انما اكبرته لانهن راين عليه نور النبوة وسيما الرسالة
واثار الخضوع والاخبات وشاهدن منه مهابة الهيبة وهيبة ملكية
وهي عدم الالتفات الى المطعوم والمنكوح وعدم الاعتداد بهن وكان الجمال
المفرط العظيم مقرونا بتلك الهيبة فوقع الرعب والمهابة منه في قلوبهن

وقطعن ايديهن اي جرحنها بالسكاكين التي معهن ومن تحسبن انهن يقطعن الاترج ولم
يجدن الالم من فرط الدهشة بيوسف وقال وهب ماتت جماعة منهن **وقلن حاش لله**
اي تنزيها له الرسم بغير الف بعد الشين والباقون وقرا ابو عمرو في الوصل دون الوقف
بالف بعد الشين والباقون بغير الف وقفا ووصلا **ما هذا** اي يوسف عليه السلام
بشرا واعمل ما عمل ليس في اللغة العربية الحجازية ويدل عليها هذه الاية وقوله تعالى
ما هن امهاتهم **ان** اي ما **هذا الا ملك كريم** اي على الله لما حواه من الحسن الذي لا يكون
عادة في النسمة البشرية فان الجمع بين الجمال الرايق والكمال الفايق والعصمة البالغة
من خواص الملكية **قالت** اي زليخا للنسوة لما راين يوسف ودهشن عند رويته
فذلكن اي فهذا هو **الذي لمتنني فيه** اي في اي في محبته قبل ان تتصورنه
حق تصوره ولو تصورنه بما عاينتن لعذرتنني ثم انها صرحت بما فعلت فقالت **ولقد
راودته عن نفسه فاستعصم** اي فامتنع من ذلك الفعل الذي طلبت واعاصرحت
بذلك لانها علمت انها لا ملامة عليها منهن وانهن قد اصابهن ما اصابها عند رويته
ثم قالت **ولين لم يفعل ما امره** اي وان لم يطا وعني فيما دعوته اليه **ليسجنن** اي
ليعاقبن بالحبس **وليكونا من الصاغرين** اي الذليلين المهانين فقال النسوة
ليوسف اطع مولاتك فيما دعتك اليه فاختار يوسف عليه السلام السجن على ما
دعت اليه وذلك **قال رب السجن احب الي مما يدعونني اليه** وان كان هذا مما تشتهيه
النفس وذلك مما تكرهه نظرا الى العاقبة فان الاول فيه الذم في الدنيا والعقاب
في الاخرة والثاني فيه المدح في الدنيا والثواب الدايم في الاخرة فان قيل ان الدعا
كان منها فلم اضافه اليهن جميعا اجيب بانهن خوفنه عن مخالفتها وزين له
مطاوعتها وقيل انهن دعونه الى انفسهن قال بعض العلما لو لم يقل السجن
احب الي لم يبتل بالسجن والاولى بالعبد ان يسال الله العافية ولذلك
رد رسول الله صلى الله عليه وسلم على من كان يسال الصبر بقوله سالت الله البلا
فاساله العافية رواه الترمذي **والا** اي وان لم **تصرف عني كيدهن** اي فيما اردن
مني في التثبيت على العصمة **اصب** اي اميل **اليهن** يقال صبا فلان الى كذا اذا
مال اليه واشتاقه **واكن** اي اصر **من الجاهلين** اي من السفها بارتكاب ما يدعونني
اليه فان الحكيم لا يفعل القبيح وفي ذلك دليل على ان من ارتكب ذنبا انما يرتكبه عن
جهالة والقصد بذلك الدعا ولذا قال تعالى **فاستجاب له ربه** اي فاجاب الله
دعاءه الذي تضمنه هذا الثنا لان الكريم يغنيه التلويح عن التصريح كما قيل
اذا اثنى عليك المرء يوما ⁂ كفاه من تعرضك الثنا **فصرف عنه
كيدهن** اي ثبته بالعصمة حتى وطن نفسه على مشقة السجن
واثرها على اللذة المتضمنة للعصيان **انه هو السميع** اي لدعا الملتجين اليه
العليم اي بالضماير والنيات فيجيب ما صح فيه القصد وطاب منه العزم **ثم بدا** اي
ظهر **لهم** اي العزيز واصحابه **من بعد ما راوا الايات** اي الدلالات على براة يوسف

الجاهلين ع

عليه السلام كشهادة الصبي وقدّ القميص وقطع النساء ايديهن واستعصامه عنهن
ليسجننه حتى اي الى حين ينقطع فيه كلام الناس وذلك ان المراة قالت لزوجها ان هذا
العبد العبراني قد فضحني في الناس يقول لهم اني راودته عن نفسه وانا لا اقدر على
اظهار عذري فاما ان تاذن لي فاخرج واعتذر واما ان تحبسه كما حبستني
فعند ذلك وقع في قلب العزيز ان الاصلح حبسه حتى يسقط عن السنة الناس
ذكر هذا الحديث وحتى تقل الفضيحة فسجنه تنبيه في فاعل بدا اربعة اوجه
احسنها انه ضمير يعود على السجن بفتح السين اي ظهر له حبسه والثاني
ان الفاعل ضمير المصدر المفهوم من الفعل وهو بدا اي بدا لهم بدا والثالث
انه مضمر يدل عليه السياق اي بدا لهم راي والرابع اي محذوف وليسجننه قائم
مقامه اي بدا لهم السجن فحذف واقيم الجملة مقامه وليست الجملة فاعلا
لان الجمل لا تكون كذلك وقيل الحبس ههنا خمس سنين وقيل سبع سنين
وقال مقاتل بن سليمان حبس يوسف اثنى عشر سنة وقال الرازي
والصحيح ان هذه المقادير غير معلومة وانما القدر المعلوم انه بقي محبوسا
مدة طويلة لقوله تعالى وادكر بعد امة وعن عكرمة قال قال رجل ذو راي
للعزيز متى تركت هذا العبد يعتذر الى الناس ويقص عليهم امره فاترك في
بيتها لا تخرج الى الناس فان خرج للناس عذروه وفضحوا اهلك فامر به فسجن
ودخل معه السجن فتيان وهما غلامان كانا للوليد بن ثروان العمليقي ملك مصر
الاكبر احدهما خبازه صاحب طعامه والاخر ساقيه صاحب شرابه غضب
الملك عليهما فحبسهما وكان السبب فيه ان جماعة من اشراف مصر ارادوا المكر
بالملك واغتياله وقتله فضمنوا لهذين الغلامين مالا على ان يسما الملك
في طعامه وشرابه فاجابا الى ذلك ثم ان الساقي ندم ورجع عن ذلك وقبل الخباز
الرشوة وسم الطعام فلما حضر الطعام بين يدي الملك قال الساقي لا تاكل
ايها الملك فان الطعام مسموم فقال الخباز ولا تشرب فان الشراب مسموم
فقال الملك للساقي اشرب فشرب فلم يضره وقال للخباز كل من طعامك
فابى فاطعم من ذلك الطعام دابة فهلكت فامر بحبسهما وكان يوسف عليه
السلام حين دخل السجن قال لاهله اني اعبر الاحلام فقال احد الفتيين
لصاحبه هلم فلنجرب هذا العبد العبراني فنترايا له رويا قال ابن مسعود وما
رايا شيئا وانما تحالما ليجربا يوسف وقال قوم بل كانا رايا حقيقة فراها
يوسف وهما مهمومان فسالهما عن شانهما فذكرا انهما صاحبا الملك حبسهما
وقد رايا رويا غمتهما فقال يوسف قصا علي ما رايتما قال احدهما وهو صاحب
شراب الملك اني اراني اعصر خمرا فان قيل كيف يعقل عصر الخمر اجيب عن ذلك
بثلاثة اقوال احدها ان يكون المعنى اعصر عنب خمر اي العنب
الذي يكون عصيره خمرا فحذف المضاف الثاني ان العرب تسمي الشيء باسم ما يؤول

اليه

اليه تقول فلان يطبخ دبسا وهو يطبخ عصيرا الثالث قال ابو صالح الازد وعمان
يسمون العنب بالخمر فوقعت هذه اللفظة الى اهل مكة فنطقوا بها قال الضحاك
نزل القران بالسنة جميع العرب وذلك انه قال اني رايت في المنام كاني في بستان
واذا فيه شجرة فيها ثلاثة اغصان عليها ثلاثة عناقيد من عنب فجنيتها وكان كاس
الملك بيدي فعصرتها فيه وسقيت الملك فشربه وقال الاخر اني اراني احمل
فوق راسي خبزا تاكل الطير منه وذلك انه قال رايت في المنام كان فوق راسي ثلاث
سلال فيها الخبز والوان الطعام وسباع الطير تنهش منه نبئنا اي اخبرنا بتاويله
اي بتفسيره انا نراك من المحسنين اي في علم التفسير لانه متى عبر لم يخط كما قال
وعلمتني من تاويل الاحاديث وقيل في امر الدين لانه كان شديد المواظبة على الطاعة
من الصوم والصلاة فانه كان يصوم النهار ويقوم الليل كله ومن كان كذلك فانه
يوثق بما يقول في تعبير الرويا وفي سائر الامور وقيل في حق الشركاء والاصحاب
لانه كان يعود مرضاهم ويونس حزينهم واذا ضاق على احدهم وسع عليه واذا احتاج
احدهم جمع له شيئا قيل انه لما دخل السجن وجد قوما اشتد بلاؤهم وانقطع رجاؤهم
وطال حزنهم فجعل يسكنهم ويقول ابشروا واصبروا توجروا فيقولون بارك الله
فيك يا فتى ما احسن وجهك وخلقك وحديثك لقد بورك لنا في جوارك فمن انت
يا فتى قال انا يوسف بن صفي الله يعقوب بن ذبيح الله اسحق بن خليل الله ابراهيم
فقال له عامل السجن والله يا فتى لو استطعت لخليت سبيلك ولكن ساحسن
جوارك فكن في اي بيوت السجن شئت وروي ان الفتيين لما رايا يوسف قالا
لقد حببناك حين رايناك فقال لهما يوسف انشدكما الله ان لا تحباني فوالله ما
احبني احد قط الا دخل علي من حبه بلاء لقد احبتني عمتي فدخل علي بلاء ثم احبني
ابي فالقيت في الجب واحبتني امراة العزيز فحبست فلما قصا عليه الرويا
كره يوسف ان يعبر لهما ما سالاه لما علم في ذلك من المكروه على احدهما قال معرضا
عن سوالهما اخذا في غيره من اظهار المعجزة في الدعا الى التوحيد لا ياتيكما طعام ترزقانه
اي في منامكما الا نباتكما بتاويله اي في اليقظة قبل ان ياتيكما تاويله وقيل اراد به
في اليقظة يقول لا ياتيكما طعام ترزقانه من منازلكما تطعمانه الا نباتكما بتاويله
بقدره ولونه والوقت الذي يصل اليكما قبل ان يصل واي طعام اكلتم ومتى اكلتم
وهذا معجزة عيسى عليه السلام حيث قال وانبئكم بما تاكلون وما تدخرون في
بيوتكم فقالا هذا فعل العرافين والكهنة فمن اين لك هذا العلم فقال ما انا بكاهن
ذلكما اي هذا التاويل والاخبار بالمغيبات مما علمني ربي وفي ذلك حث على ايمانهم
ثم قواه بقوله اني تركت ملة اي دين قوم لا يومنون بالله وهم بالاخرة هم كافرون
وكرر لفظة هم للتاكيد لشدة انكارهم للمعاد ولما ادعى يوسف عليه السلام
النبوة واظهر المعجزة اظهر انه من اهل بيت النبوة بقوله واتبعت ملة ابائي ابراهيم
واسحاق ويعقوب ليسمعوا قوله ويطيعوا امره فيما يدعوهم اليه من التوحيد

فان الانسان متى ما ادعى حرفة ابيه وجده لم يستبعد ذلك منه وايضا فكمال درجة
ابراهيم واسحق ويعقوب امر مشهور في الدنيا فاذا ظهر انه ولدهم عظموه ونظروا اليه
بعين الاجلال فكان انقيادهم اليه اتم وتاثر قلوبهم بكماله اكمل فان قيل انه كان نبيا
فكيف قال اتبعت ملة ابائي والنبي لابد وان يكون مختصا بشريعة نفسه اجيب
بان مراده التوحيد الذي لا يتغير ولعله كان رسولا من عند الله الا انه كان يمشي على
شريعة ابراهيم عليه السلام وقرا عاصم وحمزة والكسائي كوفيا آبائي والباقون
بالفتح ما كان اي ما صح لنا معشر الانبيا ان نشرك بالله من شيء لان الله تعالى
طهره وطهر اباءه عن الكفر ونظيره قوله تعالى ما كان لله ان يتخذ من ولد وانما قال
من شيء لان اصناف الشرك كثيرة فمنهم من يعبد الاصنام ومنهم من يعبد
النار ومنهم من يعبد الكواكب ومنهم من يعبد الملئكة فقوله من شيء رد على
هولاء الطوايف وارشاد الى الدين الحق وهو انه لا موجود ولا خالق ولا رازق
الا الله تعالى ذلك اي التوحيد من فضل الله علينا بالوحي وعلى الناس اي سائرهم
ببعثنا بارشادهم وتنبيههم عليه ولكن اكثر الناس اي المبعوثون اليهم
لا يشكرون هذه النعمة التي انعم الله تعالى بها عليهم لانهم تركوا عبادته وعبدوا
غيره ثم دعاهما الى الايمان فقال يا صاحبي السجن اي يا صاحبيّ في السجن
فاضافهما الى السجن كما تقول يا سارق الليلة فكما ان الليلة مسروق فيها
غير مسروقة فكذلك السجن مصحوب فيه غير مصحوب وانما المصحوب غيره
وهو يوسف عليه السلام او يا ساكني السجن كما يقال لسكان الجنة اصحاب
الجنة ولسكان النار اصحاب النار ءارباب اي الهة متفرقون اي متباينون
من ذهب وفضة وصفر وحديد وخشب وحجارة وصغير وكبير ومتوسط وغير
ذلك خير اي اعظم في صفة المدح واولى بالطاعة ام الله الواحد القهار اي
المتوحد بالالوهية الذي لا يغالب ولا يشاركه في الربوبية غيره خير والاستفهام
للتقرير وفي الهمزتين في ءارباب من القراآت ما في انذرتهم وقد مر فان قيل هل يجوز
التفاضل بين الاصنام وبين الله تعالى حتى يقال خير ام الله اجيب بان ذلك
خرج على سبيل الفرض والمعنى لو سلمنا انه حصل منها ما يوجب الخير فهو خير
ام الله الواحد القهار ثم بين عجز الاصنام فقال ما تعبدون وانما خاطبهم بلفظ
الجمع وقد ابتدا بالتثنية في المخاطبة لانه اراد جميع من في السجن من المشركين
والعبادة خضوع القلب في اعلا مراتب الخضوع وبين حقارة معبوداتهم وسفولها
بقوله من دونه اي الله الذي قام البرهان على الهيته وعلى اختصاصه بذلك
الا اسماء وبين ما يريد وما اوضحه بقوله سميتموها اي ذوات اوجبتم لها
اسماء انتم سميتموها الهة وارباب وهي حجارة جماد خالية عن المعنى لا حقيقة
لها وآباؤكم من قبلكم سميتموها كذلك ما انزل الله بها اي بعبادتها من
سلطان اي حجة وبرهان ان الحكم اي ما الحكم الا لله اي المختص بصفات

الكمال

الكمال والحكم فصل الامر بما تدعو اليه الحكمة امر وهو النافذ الامر المطاع الحكم ان لا
تعبدوا الا اياه لانه المستحق للعبادة لا هذه الاسماء التي سميتموها الهة
ولما قام الدليل على هذا الوجه الذي كان جديرا بالاشارة الى فضله اشار اليه
باداة البعد تنبيها على علو مقامه وعظيم شانه فقال ذلك اي الشان الاعظم وهو
توحيده وافراده عن خلقه الدين القيم اي المستقيم الذي لا عوج فيه ولكن اكثر الناس
وهم الكفار لا يعلمون لما يصيرون اليه من العذاب فيشركون ولما قرر يوسف عليه
امر التوحيد والنبوة عاد الى الجواب عن السؤال الذي ذكراه فقال يا صاحبي السجن
اي الذي يحصل فيه الانكسار للنفس والرقة في القلب فتخلص فيه المودة ولما كان
في الجواب ما يسوء الخباز ابهم ليجوز كل منهما انه الفايز فان الجاه الى التعبير كان
ذلك عذرا له في الخروج عن اللايق فقال اما احدكما وهو صاحب شراب الملك
فيسقي ربه اي سيده خمرا على عادته والعناقيد الثلاث هي ثلاثة ايام
يبقى في السجن ثم يدعو به الملك فيرده الى مرتبته التي كان عليها تاويل رؤياه
واما الاخر وهو صاحب طعام الملك فيصلب والسلال الثلاثة ثلاثة ايام
ويدعو به الملك فيصلبه فتاكل الطير من راسه هذا تاويل رؤياه قال ابن مسعود
فلما سمعا قول يوسف عليه السلام قالا ما راينا شيئا انما كنا نلعب فقال لهما
يوسف عليه السلام قضي اي تم الامر الذي فيه تستفتيان اي تطلبان الافتا
فيه عملا بالفتوة فسالتما عن تاويله وهو تعبير رؤياكما كذبتما او صدقتما لم اقله
عن جهل ولا غلط وقال يوسف عليه السلام للذي ظن اي علم وتحقق فالظن
بمعنى العلم لانه قاله عن وحي لقوله قضي الامر ويجوز ان يكون ضمير ظن للساقي
فهو حينئذ على بابه انه ناج منهما وهو الساقي اذكرني عند ربك اي سيدك
ملك مصر بما رايت مني من معالي الاخلاق وطهارة الشيم الدالة على بعدي
عما رميت به والمراد بالرب هنا غير المراد به في قوله ارباب متفرقون فنجا الساقي
وصلب صاحبه وفق ما قاله لهما يوسف عليه السلام واختلف في ضمير فانساه
الشيطان ذكر ربه على قولين احدهما انه يعود الى الساقي وهو قول جماعة من
المفسرين اي فانسى الشيطان الساقي ان يذكر يوسف عليه السلام عند
الملك قالوا لان صرف وسوسة الشيطان الى ذلك الرجل الساقي حتى انساه
ذكر يوسف اولى من صرفها الى يوسف والقول الثاني وعليه اكثر المفسرين انه
يرجع الى يوسف عليه السلام وقال الرازي انه الحق اي ان الشيطان انسى
يوسف ذكر ربه تعالى حتى استعان بمخلوق مثله وتلك غفلة عرضت له عليه
السلام فان الاستعانة بالمخلوق في رفع الظلم جايزة في الشريعة الا ان حسنات
الابرار سيئات المقربين فهذا وان كان جايزا لعامة الخلق الا ان الاولى بالصديقين
ان يقطعوا نظرهم عن الاسباب بالكلية وان لا يشتغلوا الا بمسبب الاسباب
فلهذا صار يوسف عليه السلام مواخذا بهذا القول ولم يواخذه تعالى بتلك الغفلة

اليه بل ذكره باعظم وجوه المدح والثنا فعلم بذلك عليه السلام انه كان مبرا مما نسبه
الجهال والحشوية اليه فان قيل كيف تمكن الشيطان من يوسف حتى انساه ذكر ربه
اجيب بان ذلك انما كان مشغل خاطره واما النسيان الذي هو عبارة عن
ترك الذكر وازالته عن القلب بالكلية فلا يقدر عليه واختلف في قدر البضع
في قوله تعالى فلبث في السجن بضع سنين فقال مجاهد ما بين الثلاث الى التسع
وقال ابن عباس ما دون العشرة قال البغوي واكثر المفسرين على ان البضع في هذه
الاية سبع سنين وكان قد لبث قبله خمس سنين فجملته اثني عشر سنة وقال وهب
اصاب ايوب البلا سبع وترك يوسف في السجن سبع سنين وقال مالك بن دينار لما قال
يوسف للساقي اذكرني عند ربك قيل له يا يوسف اتخذت من دوني وكيلا
لاطيلن حبسك فبكى يوسف فقال يا رب انسى قلبي كثرة البلوي فقلت كلمة قال الحسن
قال النبي صلى الله عليه وسلم رحم الله يوسف لولا كلمته التي قالها ما لبث في السجن
ما لبث ثم بكى الحسن وقال نحن اذا نزل بنا الامر فزعنا الى الناس ذكره الثعلبي مرسلا
وبغير سند وقال الحسن ايضا دخل جبريل على يوسف عليهما السلام في السجن
فلما راه يوسف عرفه فقال له يا اخا المنذرين ما لي اراك بين الخاطيين فقال له
جبريل يا طاهر ابن الطاهرين يقرا عليك السلام رب العالمين ويقول لك
اما استحييت اذ استشفعت بالادميين وعزتي لالبثنك في السجن بضع سنين
قال يوسف وهو في ذلك عني راض قال نعم قال اذا لا ابالي وقال كعب قال جبريل
ليوسف ان الله تعالى يقول لك من خلقك قال الله قال فمن علمك تاويل الرويا
قال الله قال فمن حببك الى ابيك قال الله قال فمن انجاك من البير قال الله هو
تعالى قال فمن صرف عنك السو والفحشا قال الله قال فكيف استشفعت
بادمي مثلك قال محمد بن عمر الرازي في تفسيره والذي جربته من اول عمري الى
اخره ان الانسان كلما عول في امر من الامور على غير الله تعالى صار ذلك سببا
للبلا والمحنة والشدة والرزية واذا عول على الله تعالى ولم يرجع الى احد من الخلق
حصل ذلك المطلوب على احسن الوجوه فهذه التجربة قد استمرت لي من اول
عمري الى هذا الوقت الذي بلغت الى السابع والخمسين فعند ذلك استقر قلبي
على انه لا مصلحة للانسان في التعويل على شي سوى فضل الله واحسانه ولما
دنى فرج يوسف عليه السلام راي ملك مصر الاكبر الريان بن الوليد رويا عجيبة
هايلة كما قال تعالى وقال الملك اني اري اي رايت عبر بالمضارع حكاية للحال لشدة ما هاله
من ذلك سبع بقرات سمان اي خرجن من نهر يابس والسمن زيادة البدن
من الشحم واللحم وسمان جمع سمينة ويجمع سمين ايضا عليه يقال رجال سمان
ونسا سمان كما يقال رجال كرام ونسا كرام ياكلهن اي يبتلعهن سبع اي
من البقر سبع عجاف جمع عجفا اي مهازيل خرجن من ذلك النهر تنبيه جمع عجفا
على عجاف والقياس عجف نحو حمرا وحمر حملا له على سمان لانه نقيضه ومن ابهم

حمل الطير على الطير والنقيض على النقيض واني اري سبع سنبلات خضر اي قد انعقد
حبها واخر اي سبع سنبلات يابسات اي قد ادركت فالتوت اليابسات
على الخضر حتى غلبن عليها وانما استغنى عن بيان حالها بما نص من حال البقرات والسنبلة
نبات كالقصبة جملة حبوب منتظمة فكانه قيل فكان ماذا فقيل قال الملك بعد
ان جمع السحرة والكهنة والمعبرين يا ايها الملا اي الاشراف النبلا الذين تملا العيون
مناظرهم والقلوب ماثرهم افتوني في روياي اي اخبروني بتاويلها ان كنتم للرويا تعبرون
اي ان كنتم عالمين بتعبير الرويا فاعبروها تنبيه اللام في الرويا مزيدة فلا تتعلق
لها بشي وزيدت لتقدم المعمول تقوية للعامل كما زيدت اذا كان العامل فرعا
كقوله تعالى فعال لما يريد ولا تزاد فيما عدا ذينك الا ضرورة وقيل ضمن تعبرون
معنى ما يتعدي باللام تقديره ان كنتم تنتدبون لعبارة الرويا وقيل متعلقة
بمحذوف على انها للبيان كقوله تعالى وكانوا فيه من الزاهدين تقديره اعني فيه وكذلك
هذا تقديره اعني للرويا وعلى هذا يكون مفعول تعبرون محذوف تقديره تعبرونها
وفي الاية ما يوجبه حال العلما من حاجة الملوك اليهم فكانه قيل فما قالوا فقيل
قالوا هذه الرويا اضغاث اي اخلاط احلام مختلطة مختلفة مشتبهة
جمع ضغث بكسر الضاد واسكان الغين المعجمة وهي قبضة حشيش مختلطة
الرطب باليابس والاحلام جمع حلم بضم الحا واسكان اللام وضمه وهو الرويا
فقيدوها بالاضغاث وهو ما يكون من الرويا باطلا لكونه من حديث النفس
ووسوسة الشيطان لكونها تشبه اخلاط النبات التي لا تناسب بينها
لان الرويا تارة تكون من الملك وهي الصحيحة وتارة تكون من تحزين الشيطان
وتخليطه وتارة من حديث النفس ثم قالوا وما نحن اي باجمعنا بتاويل
الاحلام اي المنامات الباطلة بعالمين اي ليس لها تاويل عندنا وانما التاويل
للمنامات الصادقة كانه مقدمة ثانية للعذر ولما سال الملك عن هذه الرويا
واعترف الحاضرون بالعجز عن الجواب تذكر ذلك الشرابي واقعة يوسف عليه
السلام لانه كان يعتقد فيه كونه متبحرا في هذا العلم كما قال تعالى وقال الذي نجا اي
خلص منهما اي من صاحبي السجن وهو الشرابي ان في الحبس رجلا فاضلا صالحا
كثير العلم كثير الطاعة قصصت انا والخباز عليه منامين فذكر تاويلهما فصدق في
كل ما ذكر وما اخطا في حرف فكانت هذه الرويا سببا لخلاص يوسف عليه السلام
ولم يتذكر الشرابي الا بعد طول المدة كما قال تعالى وادكر بالدال المهملة اي طلب
الذكر بالذال المعجمة وزنه افتعل بعد امة اي وتذكر يوسف بعد جماعة من الزمان
مجتمعة اي مدة طويلة والجملة اعتراض ومقول القول انا انبيكم بتاويله فارسلون
اي الى يوسف عليه السلام فانه اعلم الناس فارسلوه اليه قال ابن عباس رضي الله
تعالى عنهما ولم يكن السجن بالمدينة فاتاه فقال الساقي المرسل اليه مناديا له نداء
القرب تحببا اليه يوسف وزاد في التحبب بقوله ايها الصديق اي البليغ

في الصدق والتصديق لانه جرب احواله وعرف صدقه في تاويل رؤياه ورؤيا صاحبه ط
وهذا يدل على من اراد ان يتعلم من رجل شيئا فانه يجب عليه ان يعظمه وان يخاطبه بالالفاظ
المشعرة بالاجلال ثم انه اعاد السؤال بعين اللفظ الذي ذكره الملك فقال افتنا اي
اذكر لنا الحكم في سبع بقرات سمان اي رآهن الملك ياكلهن سبع من البقر عجاف في
وسبع سنبلات جمع سنبلة وهي مجمع الحب من الزرع خضر في سبع واخر من السنابل
يابسات اي في رؤيا ذلك وتعلم ما فعل من ذكر السؤال بعين اللفظ فان تعبير الرؤيا
قد تختلف بحسب اختلاف الالفاظ كما هو مذكور في ذكر العلم ثم قال لعلي ارجع الى الناس
اي الى الملك وجماعته بفتواك قبل ان يمنعني لعلهم يعلمون اي تاويل هذه الرؤيا
وقيل منزلتك في العلم وقرا نافع وابن كثير وابو عمرو وابن عامر بفتح اليا والباقون
بالسكون قال يوسف عليه السلام معبرا لتلك الرؤيا اما البقرات السمان والسنبلات
الخضر فسبع سنين مخصبات واما البقرات العجاف والسنبلات اليابسات فسبع
سنين مجدبة فذلك قوله تزرعون سبع سنين وهو خبر بمعنى الامر كقوله تعالى
والمطلقات يتربصن والوالدات يرضعن وانما خرج الامر في صورة الخبر للمبالغة في
الايجاب فيجعل كانه وجد فهو يخبر عنه والدليل على كونه في معنى الامر قوله فذروه
في سنبله وقوله دأبا نصب على الحال اي دائبين اي سبع سنين متتابعة على
عادتكم في الزراعة والدأب العادة وقيل ازرعوا بجد واجتهاد وهذا التاويل
للسبع السمان والسنبلات الخضر وقرا حفص بفتح الهمزة وسكنها الباقون
وابدلها السوسي الفا وقفا ووصلا وحمزة وقفا فقط فما حصدتم فذروه اي
اتركوه في سنبله لئلا يفسد ولا يقع فيه السوس وذلك ابقى له على طول الزمان
الا قليلا مما تاكلون اي ادرسوا قليلا من الحنطة للاكل بقدر الحاجة ايضا وهو
وقت السنين المجدبة كما قال ثم ياتي من بعد ذلك اي السبع المخصبات سبع شداد
اي مجدبات صعاب وهي تاويل السبع العجاف والسنبلات اليابسات ياكلن ما
قدمتم لهن اي ياكل اهلهن ما ادخرتم لاجلهن فاسند اليهن على المجاز تطبيقا
بين المعبر وهو ياكلهن سبع عجاف والمعبر به وهو ياكلن ما قدمتم لهن الا قليلا
مما تحصنون اي تحرزون وتوخرون للبذر والاحصان الاحراز وهو ابقاء الشيء
في الحصن بحيث يحفظ ولا يضيع ثم ياتي من بعد ذلك اي السبع المجدبات عام
فيه يغاث الناس اي يمطرون من الغيث وهو المطر وقيل ينقذون من قول العرب
استغثت فاغاثني وفيه يعصرون من العنب خمرا ومن الزيتون زيتا ومن السمسم
دهنا واراد بذلك كثرة النعم والخير وقال ابو عبيدة ينجون من الكرب والشدة
والجدب وقرا حمزة والكسائي بالتاء على الخطاب لان الكلام كله مع الخطاب والباقون
باليا على الغيبة ردا الى الناس ولما رجع الشرابي الى الملك وعرض عليه التعبير الذي
ذكره يوسف عليه السلام استحسنه وقال الملك اي العزيز في خدمته ائتوني
به لاسمع ذلك منه واكرمه وهذا يدل على فضيلة العلم فانه سبحانه وتعالى

جعل

جعل علمه سببا لخلاصه من المحنة الدنيوية فكيف لا يكون العلم سببا للخلاص من المحن
الاخروية فاتاه الرسول لياتي به الى الملك فلما جاءه اي يوسف عليه السلام عن قرب
من الزمان الرسول بذلك اي الساقي وقال له اجب الملك قال له يوسف عليه السلام
ارجع الى ربك اي سيدك الملك ولم يخرج معه حتى يظهر برهانه للملك ولا يراه بعين
النقص ولذلك قال فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن ايديهن وانما
قال يوسف عليه السلام ما بال النسوة ولم يقل فاسأله ان يفتش عن حالهن لان قوله
فاسأله يحتمل ان يكون بمعنى المسألة اي اسأله عن شأنهن فحسن تهييجه بلفظ
ما التي يسأل بها عن حقيقة الشيء ليهيجه ان يتحرك الى التفتيش عن حالهن لان
الانسان حريص على تحقيق الشيء ويستنكف ان ينسب الى الجهل به بخلاف ما لو قال
سله ان يفتش اي يطلب منه فانه لا يبالي بهذا الطلب ولا يلتفت اليه لا سيما
الملوك وانما لم يتعرض لسيدته مع ما صنعته به كرما ومراعاة للادب وقدم سؤال
النسوة وفحص حالهن ليظهر براءة ساحته لانه لو خرج في الحال لربما كان يبقى في قلب الملك
من تلك التهمة اثر فلما التمس من الملك ان يفحص عن حال تلك الواقعة دل ذلك على
براءته عن تلك التهمة فبعد خروجه لا يقدر احد ان يلطخه بتلك الرذيلة وان يتوسل
بها الى الطعن فيه وفي ذلك على انه ينبغي للشخص ان يجتهد في نفي التهم ويتقي مواقعها
وروي انه صلى الله عليه وسلم قال لقد عجبت من يوسف وصبره والله يغفر له حين
سئل عن البقرات العجاف والسمان ولو كنت مكانه ما اجبتهم حتى اشترطت
ان يخرجوني ولقد عجبت منه حين اتاه الرسول فقال ارجع الى ربك ولو كنت مكانه
ولبثت في السجن ما لبثت لاسرعت الاجابة وبادرتهم الباب ولما ابتغيت العذر
ان كان لحليما ذا اناة واصل الحديث في الصحيحين مختصرا وانما قال صلى الله عليه
وسلم ذلك على سبيل التواضع لانه صلى الله عليه وسلم كان في الامر منه مبادرة وعجلة
لو كان مكان يوسف والتواضع لا يصغر كبيرا ولا يضع رفيعا ولا يبطل لذي حق حقه
لكنه يوجب لصاحبه فضلا ويلبسه جلالة وقدرا وقوله والله يغفر له مثل هذه
المقدمة مشعرة بتعظيم المخاطب من توقيره وتوقير حرمته كما تقول لمن تعظمه عفا
الله عنك ما صنعت في امري ورضي الله تعالى عنك ما جوابك عن كلامي وقوله ان كان
لحليما ان هي المخففة من الثقيلة والاناة الوقار وقيل هو اسم من التاني في الامور
وقرا ابن كثير والكسائي بفتح السين ولا همز بعدها والباقون بسكون السين وهمزة
مفتوحة بعدها ان ربي اي الله بكيدهن عليم حين قلن اطع مولاتك وفيه تعظيم
كيدهن والاستشهاد بعلم الله تعالى عليه وانه بريء مما عيب به والوعيد لهن على
كيدهن وقيل المراد بربي الملك وجعله ربا لنفسه لكونه مربيا له وفيه اشارة الى
كون ذلك الملك عالما بكيدهن ومكرهن ولما قال يوسف عليه السلام ذلك وابى ان
يخرج من السجن قبل تبين الامر رجع الرسول الى الملك فاخبره بما قال عليه السلام
فكانه قيل فما فعل الملك فقيل قال للنسوة بعد ان جمعهن وامرأة العزيز معهن

ما خطبكن اي ما شانكن العظيم وقوله اذ راودتن اي خادعتن يوسف عن نفسه دليل
على ان براءته كانت متحققة عند كل من علم القصة وانما خاطب الملك جميع النسوة
بهذا الخطاب والمراد بذلك امراة العزيز وحدها ليكون استر لها وقيل ان امراة العزيز
راودته عن نفسه وسائر النسوة امرنه بطاعتها فلذلك خاطبهن فكانه قيل فما
قلن قلن حاش لله اي عياذا بالملك الاعظم وتنزيها له من هذا الامر ما علمنا عليه
اي يوسف عليه السلام واغرقن في النفي فقلن من سوء اي من جنايته في شي من
الاشيا ولما ان يوسف عليه السلام راعي جانب امراة العزيز حيث قال ما بال النسوة
النسوة اللاتي قطعن ايديهن فذكرهن ولم يذكر تلك المراة البتة وعرفت المراة
انه انما ترك ذكرها رعاية لحقها وتعظيما لجانبها واخفي الامر عليها ارادت ان تكافيه
علي هذا الفعل الحسن فلاجرم ازالت الغطا والوطا فلذلك قالت امراة العزيز
مصرحة بحقيقة الحال الان حصحص الحق اي ظهر وتبين انا راودته اي خادعته
عن نفسه واكدت ما افصحت به مدحا ونفيا له كل سو بقولها موكدا لاجل ما تقدم
وانه لمن الصادقين اي الغريقين في هذا الوصف في نسبة المراودة الي وتبراة نفسه
فقد شهد النسوة كلهن ببراته وانه لم يقع منه ما ينسب به الي شي من السو البتة
فمن نسب بعد ذلك هما او غيره فهو تابع لمجرد الهوي في نبي من المخلصين قال الرازي
رايت في بعض الكتب ان امراة جات بزوجها الي القاضي وادعت عليه المهر فامر القاضي
بان تكشف عن وجهها حتي يتمكن الشهود من اقامة الشهادة فقال الزوج لا حاجة
الي ذلك فاني مقر بصدقها في دعواها فقالت المراة لما اكرمتني الي هذا الحد فاشهد
اني ابرات ذمتك من كل حق لي عليك ولما رجع الرسول الي يوسف عليه السلام
واخبره بشهادتهن ببراته قال ذلك اي الخلق العظيم في تثبتي في السجن
الي ان تبين الحق ليعلم العزيز باقرارها وهي في الامن وانا في محل الضيق والخوف
علما موكدا اني لم اخنه اي في اهله ولا في غيرها بالغيب اي والحال انه كلانا
غايب عن صاحبه هذا قول الاكثرين انه قول يوسف عليه السلام قال
الفرا ولا يبعد وصل كلام انسان بكلام اخر اذا دلت القرينة عليه ومثاله قوله
تعالي ان الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا اعزة اهلها اذلة
هذا كلام بلقيس ثم قال الله تعالى وكذلك يفعلون وقوله تعالي ربنا انك
جامع الناس ليوم لا ريب فيه كلام الداعي ثم قال الله تعالى ان الله لا يخلف الميعاد
ثم ختم الكلام بقوله وان الله لا يهدي اي يسدد وينجح بوجه من الوجوه كيد
الخاينين اي ولو كنت خاينا لما خلصني الله من هذه الورطة العظيمة وحيث
خلصني منها ظهر اني بريا عما نسبوني اليه وقيل انه كلام امراة العزيز والمعني اني
وان كنت احلت عليه الذنب في حضوره لكني ما احلت الذنب عليه في غيبته اي لم اقل
فيه وهو في السجن خلاف الحق ثم انها بالغت في تاكيد هذا القول فقالت وان الله
لا يهدي كيد الخاينين اي لما اقدمت علي الكيد والمكر لاجرم افتضحت وانه لما كان

بريا من الذنب لاجرم طهره الله عنه واعلم ان هذه الاية على القول الاول دالة على طهارة
يوسف عليه السلام من وجوه كثيرة الاول قولها انا راودته عن نفسه والثاني قولها لمن
الصادقين وهو اشارة الي انه صادق في قوله هي راودتني عن نفسي والثالث قول
يوسف عليه السلام ذلك ليعلم اني لم اخنه بالغيب والحشوية يذكرون انه لما
قال يوسف هذا الكلام قال جبريل عليه السلام ولا حين هممت قال الرازي
وهذا من رواياتهم الخبيثة وما صحت هذه الرواية في كتاب معتمد اي وانما اسندها
بعضهم لابن عباس بل هم يلحقونها بهذا الموضع سعيا منهم في تحريف القراءات
ورابعها ان اقدامه علي قوله ذلك ليعلم اني لم اخنه بالغيب مع انه خانه باعظم
وجوه الخيانة اقدام علي وقاحة عظيمة وعلي كذب عظيم من غير ان يتعلق به مصلحة
بوجه ما والاقدام علي مثل هذه الوقاحة من غير فايدة اصلا لا يليق باحد من
العقلا فكيف يليق اسناده الي نبي مرسل من سلالة الانبيا الاصفيا فثبت
ان هذه الاية تدل دلالة قاطعة علي براته عما يقول الجهال والحشوية واختلفوا
في تفسير قوله وما ابري نفسي لان ذلك يختلف باختلاف ما قبله لان قوله
ذلك ليعلم اني لم اخنه بالغيب ان كان من كلام يوسف عليه السلام وقد مر انه
قول الاكثرين فهو ايضا كلامه وان كان من كلام المراة فهذا ايضا كلامها فعلى الاول
قد تمسك به الحشوية وقالوا انه عليه السلام لما قال ذلك ليعلم اني لم اخنه
بالغيب قال له جبريل ولا حين حللت تكة سراويلك فعند ذلك قال يوسف
عليه السلام وما ابري نفسي ان النفس لامارة بالسو اي بالزنا الا ما رحم اي
عصم ربي ان ربي غفور اي للهم الذي هممت رحيم اي لو فعلته لتاب علي وهذا
ضعيف كما قاله الرازي كما تقدم ان الاية المتقدمة برهان قاطع علي براته عن الذنب وانما
قال ذلك عليه السلام لانه لما قال ذلك ليعلم اني لم اخنه بالغيب كان ذلك
جاريا مجري المدح للنفس وتزكيتها وقد قال تعالى فلا تزكوا انفسكم فاستدرك
ذلك علي نفسه بقوله وما ابري نفسي والمعني وما ازكي نفسي ان النفس لامارة
بالسو مايلة الي القبايح راغبة في المعصية وعلي الثاني انها لما قالت ذلك ليعلم
اني لم اخنه بالغيب قالت وما ابري نفسي من الخيانة مطلقا فاني قد خنته
حين احلت الذنب عليه وقلت ما جزا من اراد باهلك سوا الا ان يسجن واودعته
في الحبس كانها ارادت الاعتذار مما كان واختلف في قوله وقال الملك فمنهم
من قال هو العزيز ومنهم من قال هو الريان الذي هو الملك الاكبر قال الرازي
وهذا هو الاظهر لوجهين الاول ان قول يوسف اجعلني علي خزاين الارض يدل
عليه الثاني قوله استخلصه لنفسي يدل علي انه قبل ذلك ما كان خالصا
وقد كان يوسف عليه السلام قبل ذلك خالصا للعزيز فدل هذا علي ان هذا الملك
هو الملك الاكبر اسنبي وانما لم صرح به ولم يكتف بضميره كراهية الالتباس
لما تخلل بينه وبين جواب امراة العزيز من كلام يوسف عليه السلام

ولوكان الكل من كلامها لا استغني بالضمير ولم يحتج الي ابرازه **ائتوني به استخلصه لنفسي**
اي اجعله خالصا لي دون شريك قال ابن عباس فاتاه الرسول فقال له الق عنه ثياب
السجن والبسه ثيابا جددا وقم الي الملك فدعا له اهل السجن وهو يومئذ ابن ثلاثين
سنة فاغتسل وتنظف ولبس ثيابا جددا بعد ان دعا لاهل السجن فقال اللهم
عطف عليهم قلوب الاخيار ولا تعم عنهم الاخبار وكتب على باب السجن هذه منازل
البلوي وقبور الاحيا وبيوت الاحزان وتجربة الاصدقا وشماتة الاعدا ثم نزل
الي الملك فلما راه غلاما حدثا فقال ايعلم هذا رؤياي ولا يعلمها السحرة والكهنة
ثم اقعده قدامه وقال له لا تخف والبسه طوقا من ذهب وثياب حرير واكسبه دابة
واعطاه دابة مسرجة مزينة كدابة الملك وروي ان جبريل عليه السلام دخل علي
يوسف وهو في الحبس وقال قل اللهم اجعل لي من امري فرجا ومخرجا وارزقني من
حيث لا احتسب فقبل الله دعاه واظهر هذا السبب في تخليصه من السجن
وروي ان يوسف لما دخل عليه قال اللهم اني اسالك بخيرك من خيره واعوذ
بعزتك وقدرتك من شره ثم سلم عليه بالعربية فقال ما هذا اللسان قال
لسان ابائي قال وهب كان الملك يتكلم بسبعين لغة لم يعرف هذين اللسانين
وكان الملك كلما كلمه بلسان اجابه يوسف عليه السلام وزاد بالعربية والعبرانية
فلما كلمه اي كلم الملك يوسف وشاهد منه ما شاهد من جلال النبوة وجميل الوزارة
وخلال السيادة ومخايل السعادة اقبل عليه وقال اني احب ان اسمع منك تاويل رؤياي
شفاها فاجابه بذلك الجواب شفاها وشهد قلبه بصحته فعند ذلك **قال** له
انك اليوم لدينا مكين امين اي ذو مكانة وامانة علي امرنا فما تري ايها الصديق **قال**
اري ان تزرع في هذه السنين المخصبة زرعا كثيرا وتبني الخزاين وتجمع فيها الطعام
فاذا جات السنين المجدبة بعنا الغلال فيحصل بهذا الطريق مال عظيم فقال الملك
ومن لي بهذا الشغل فقال يوسف **اجعلني علي خزاين الارض** جمع خزانة واراد خزاين الطعام
والاموال والارض ارض مصر اي خزاين ارضك مصر وقال الربيع بن انس اي خرج مصر
ودخله روي ابن عباس عن رسول الله صلي الله عليه وسلم في هذه الاية قال رحم الله
اخي يوسف لو لم يقل اجعلني علي خزاين الارض لاستعمله من ساعته لكنه لما قال
ذلك اخره الله تعالي سنة فاقام في بيته سنة مع الملك قال الرازي وهذا من
العجايب لانه لما تلبث قيل عند الخروج من السجن سهل الله عليه ذلك علي احسن الوجوه
ولما سارع في ذكر هذا الالتماس اخره الله تعالي ذلك المطلوب عنه وهذا يدل علي
ترك التصرف والتفويض بالكلية الي الله تعالي اولي ثم قال **اني حفيظ عليم** اي ذو
حفظ وعلم بامرها وقيل كاتب وحاسب فان قيل لم طلب يوسف عليه السلام
الامارة والنبي صلي الله عليه وسلم قال لعبد الرحمن بن سمرة لا تسال الامارة ولم
طلب الامارة من سلطان كافر ولم لم يصبر مدة ولم اظهر الرغبة في طلبها في الحال
ولم طلب الخزاين مع ان هذا يورث نوع تهمة ولم مدح نفسه وقد قال تعالي

فلا تزكوا

فلا تزكوا انفسكم ولم ترك الاستثنا في هذا وقد قال تعالي ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك
غدا الا ان يشا الله فهذه سبعة اسئلة اجيب بان الاصل في جواب هذه الاسئلة
ان التصرف في امور الخلق كان واجبا عليه لوجوه الاول انه كان رسولا حقا من الله تعالي
الي الخلق والرسول يجب مراعات الامة بقدر الامكان والثاني انه علم بالوحي انه سيحصل
القحط والضيق الشديد فلعله تعالي امره ان يدبر في ذلك ويأتي بطريق لاجله يقل ضرر
ذلك القحط في حق الخلق والثالث ان السعي في ايصال النفع الي المستحقين ودفع الضرر
عنهم امر مستحسن في العقول فكان مكلفا عليه السلام برعاية المصالح من هذه
الوجوه وما كان يمكنه رعايتها الا بهذا الطريق وما لا يتم الواجب الا به فهو واجب
وانما مدح نفسه لان الملك وان علم كلامه كماله في علوم الدين لكن ما كان عالما انه
يفي بهذا الامر وايضا مدح النفس انما يكون مذموما اذا قصد به التفخيم والتطاول
والتفاخر والتوصل الي غير ما يحل واما بهذا الوجه فليس بمذموم وقوله تعالي
فلا تزكوا انفسكم المراد به تزكية حال من لا يعلم كونها تزكية والدليل قوله تعالي
بعد هذه الاية هو اعلم بمن اتقي اما اذا كان الانسان عالما بانه صدق وحق فهذا
غير ممنوع منه وانما ترك الاستثنا لانه لو ذكره لربما اعتقد الملك فيه انه انما ذكره
لعلمه انه لا قدرة له علي ضبط هذه المصلحة كما ينبغي فلهذا المعنى ترك الاستثنا
ولما سال يوسف ما تقدم قال معلما قد اجيب بتنجيز الله له **وكذلك** اي
كانعامنا عليه بالخلاص من السجن **مكنا ليوسف في الارض** اي ارض مصر



يتبوأ اي ينزل **منها حيث يشا** بعد الضيق والحبس قال ابن عباس
وغيره ولما انقضت السنة من يوم سال الامارة دعاه الملك فتوجه وجعل
خاتم الملك في اصبعه وقلده بسيفه وجعل له سريرا من ذهب مكللا بالدر
والياقوت طوله ثلاثون ذراعا وعرضه عشرة اذرع عليه ستون فراشا
فقال يوسف عليه السلام فاما السرير فاشد به ملكك واما الخاتم فادبر
به امرك واما التاج فليس من لباسي ولا من لباس ابائي وامره ان يخرج فخرج
لونه كالثلج ووجهه كالقمر يري الناظر لونه في صفا لونه فانطلق حتى
جلس علي ذلك السرير ودانت له الملوك ودخل الملك بيته وفوض اليه
امر مصر وعزل قطفير عما كان عليه وجعل يوسف مكانه قال ابن اسحاق قال
ابن زيد وكان لملك مصر خزاين كثيرة فسلم سلطانه كله اليه وجعل امره
وقضاه نافذا في مملكته ثم مات قطفير بعد ذلك فزوجه الملك امراته زليخا
فلما دخل عليها قال اليس هذا خيرا مما كنت تريدين قالت ايها الصديق
لا تلمني فاني كنت امراة حسناء ناعمة كما تري في ملك ودنيا وكان صاحبي لا ياتي
النسا وكنت كما جعلك الله في حسنك وهيئتك فغلبتني نفسي فوجدها
يوسف عليه السلام عذرا فاصابها فولدت له ذكرين افرايم وميشا فاقام
العدل بمصر واحبه الرجال والنسا واسلم علي يديه الملك وكثير من الناس

وباع من اهل مصر في سنين القحط الطعام بالدراهم والدنانير في السنة الاولى
ثم بالحلي والجواهر في السنة الثانية ثم بالدواب في السنة الثالثة ثم بالعبيد
والاماء في السنة الرابعة ثم بالضياع والعقار في السنة الخامسة ثم باولادهم
في السنة السادسة ثم برقابهم في السنة السابعة حتى لم يبق بمصر حر ولا حرة
الا صار عبدا له فقال الناس ما راينا كاليوم ملكا اجل ولا اعظم من هذا صار كل
الخلق عبيدا له فلما سمع ذلك قال اني اشهد والله اني اعتقت اهل مصر عن
اخرهم ورددت عليهم اموالهم املاكهم وكان لا يبيع احدا ممن ياكل الطعام اكثر
من حمل بعير لئلا يضيق الطعام على الباقين هذا ملخص ما قاله البغوي والزمخشري
وغيرهما قال الرازي والله اعلم بحقيقة الحال وروي ان يوسف عليه السلام
كان لا يشبع من طعام في تلك الايام فقيل له تجوع وبيدك خزاين الارض فقال
اني اخاف ان شبعت ان انسى الجايع وامر يوسف طباخ الملك ان يجعل غداه نصف النهار
اراد بذلك ان يذيق الملك طعم الجوع فلا ينسى الجايعين قال البغوي فمن ثمه
جعل الملوك غداهم نصف النهار قال الله تعالى **نصيب** اي نخص **برحمتنا**
من نشاء في الدنيا والاخرة **ولا نضيع اجر المحسنين** بل نوفي اجورهم عاجلا
واجلا لان اضاعة الاجر اما ان تكون للعجز او للجهل او للبخل والكل ممتنع في حق
الله تعالى فالاضاعة ممتنعة **ولاجر الاخرة خير للذين امنوا وكانوا يتقون** الشرك والفواحش
قال الرازي وهذا تنصيص من الله تعالى على ان يوسف كان في الزمان السابق
من المتقين وليس ههنا زمان سابق يحتاج الى بيان انه كان فيه من المتقين
الا ذلك الوقت الذي قال الله تعالى فيه ولقد همت به وهم بها فكان هذا شهادة
من الله تعالى على انه عليه السلام كان في ذلك الوقت من المتقين وايضا قوله
تعالى ولا نضيع اجر المحسنين شهادة من الله تعالى على انه عليه السلام
من المخلصين فثبت ان الله تعالى شهد بان يوسف كان من المتقين ومن
المحسنين ومن المخلصين والجاهل الحشوي يقول انه كان من المذنبين
ولا شك ان من لم يقبل قول الله تعالى مع هذه التاكيدات كان من الاخسرين
ولما اشتد القحط وعظم البلاء عم ذلك جميع البلاد حتى وصل الى بلاد
الشام وارض كنعان وقصد الناس مصر من كل مكان للميرة فجعل يوسف
عليه السلام لا يعطي احدا اكثر من حمل بعير وان كان عظيما تقسيطا بين
الناس من تزاحم الناس عليه ونزل بال يعقوب ما نزل بالناس من الشدة
فبعث الى مصر للميرة وامسك بنيامين اخا يوسف لامه وابيه فذلك
قوله تعالى وجاء اخوة يوسف وكانوا عشرة وكان منزلهم بالعربات من ارض
فلسطين بغور الشام وكانوا اهل ابل وشياه فدعاهم ابوهم يعقوب
عليه السلام وقال بلغني ان بمصر ملكا صالحا يبيع الطعام وههنا
همزتان مختلفتان من كلمتين فقرا نافع وابن كثير وابو عمرو بتسهيل الثانية

والباقون

والباقون بالتحقيق ولما امرهم ابوهم بذلك خرجوا حتى قدموا مصر **فدخلوا عليه**
فعرفهم قال ابن عباس باول نظرة اليهم عرفهم وقال الحسن لم يعرفهم
حتى تعرفوا اليه **وهم له منكرون** اي لم يعرفونه ولذلك لوجوه الاول انه عليه
السلام امر حجابه ان يوقفوهم من البعد وما كان يتكلم معهم الا بواسطة الثاني
انهم حين القوه في الجب كان صغيرا ثم انهم رأوه بعد وفور اللحية وكبر الجثة قال
ابن عباس وكان بين ان قذفوه في البير وبين ان دخلوا عليه اربعون سنة فلذلك
انكروه وقال عطا انما لم يعرفوه لانه كان على سرير الملك وكان بزي ملوك مصر
عليه ثياب حرير وفي عنقه طوق من ذهب ثم ان يوسف عليه السلام امر بانزالهم
واكرامهم وكانت عادته ان لا يزيد احدا على حمل بعير وكانوا عشرة فاعطاهم
عشرة احمال كما قال تعالى **ولما جهزهم بجهازهم** اي اوفاهم كيلهم والجهاز ما
يعد من الامتعة للنقلة كعدد السفر وما يحمل من بلدة الى اخرى وما تزف به المراة
الى زوجها فقالوا ان لنا شيخا كبيرا واخا اخر بقي معه وذكروا ان اباهم لاجل سنه
وشدة حزنه لم يحضر وان اخاهم في خدمة ابيه ولا بد لهما ايضا من حملين اخرين
من الطعام فلما ذكروا ذلك قال يوسف فهذا يدل على ان حب ابيكم له ازيد من حبه
لكم وهذا شي عجيب لانكم انتم مع جمالكم وعقولكم وادبكم اذا كانت محبة ابيكم لذلك
الاخ اكثر من محبته لكم دل ذلك على انه اعجوبة في العقل والادب فجيوا به حتى
اراه كما قال تعالى حكاية عنه **قال ايتوني باخ لكم من ابيكم** اي الذي خلفتموه عنده
وقيل انهما نظر اليهم وكلموه بالعبرانية قال لهم اخبروني من انتم وما امركم فاني
انكرت شانكم قالوا قوم من ارض الشام اصابنا ما اصاب الناس فجينا نمتار
فقال لعلكم جيتم لتنظروا الى عورة بلادنا قالوا لا والله لسنا بجواسيس انما نحن
اخوة بنو اب واحد وهو شيخ صديق يقال له يعقوب نبي من انبياء الله تعالى قال
وكم كنتم قالوا كنا اثني عشر فذهب اخ لنا الى البرية فهلك فيها وكان احبنا
الى ابينا قال فكم انتم ههنا قالوا عشرة قال واين الاخير قالوا عند ابينا
لانه اخو الذي هلك وابوه يتسلى به قال فمن يعلم ان الذي تقولون حق قالوا
ايها الملك انا ببلاد لا يعرفنا فيها احد فقال يوسف فاتوني باخيكم الذي
من ابيكم ان كنتم صادقين فانا ارضى بذلك فقالوا ان ابانا يحزن على فراقه وسنراود
عنه قال فدعوا بعضكم عندي رهينة حتى تاتوني باخيكم فاقترعوا بينهم
فاصابت القرعة شمعون وكان احسنهم رايا في يوسف فخلفوه عنده ثم انه
قال لهم **الا ترون اني اوفي الكيل** اي اتمه ولا ابخس منه شيا الا ترون مزاني
والباقون بالسكون واما الياء من اوفي فجميع القراء يثبتونها في الوقف لثباتها في الرسم
وحذفوها في الوصل لالتقاء الساكنين **وانا خير المنزلين** اي المضيفين فانه كان
قد احسن ضيافتهم مدة اقامتهم عنده قال الرازي وهذا يضعف قول من
يقول من المفسرين انه اتهمهم ونسبهم الى انهم عيون وجواسيس ولو شافههم

لهم

بهذا الكلام فلا يليق به ان يقول لهم الا ترون اني اوف الكيل وانا خير المنزلين وابعد من يوسف عليه السلام مع كونه صديقا ان يقول لهم انهم عيون وجواسيس مع انه يعرف براتهم عن هذه التهمة لان البهتان لا يليق بحال الصديق ثم قال عليه السلام فان لم تاتوني به اي باخيكم فلا كيل لكم عندي اي فلا ميرة ولم يمنعهم من عاجرهم ولا تقربون نهي او عطف على محل فلا كيل اي لا تحرموا ولا تقربوا مني ولا تدخلوا دياري فجمع لهم عليه السلام بين الترغيب والترهيب فالترغيب في قوله الاول والترهيب في قوله الثاني لانهم كانوا في نهاية الحاجة الى الطعام وما كان يمكنهم تحصيله الا من عنده ومع ذلك لم يخطر ببالهم انه يوسف فكانه قيل فما قالوا فقيل قالوا سنراود اي بوعد لا خلف فيه حتى نصل عنه اباه اي سنكلمه فيه وننازعه الكلام ونحتال فيه ونتلطف في ذلك ولا ندع جهدا وانا لفاعلون اي ما امرتنا به والتزمناه ولما رغبهم وارهبهم في شان اخيه وقال لفتيانه اي غلمانه الكيالين جمع فتى وقرا حفص وحمزة والكسائي بالف بعد اليا المثناة تحت وبعد الالف نون مكسورة والباقون بالتاء المثناة تحت ثم تا مثناة فوق مكسورة اجعلوا بضاعتهم اي التي اتوا بها ثمن الميرة وكانت دراهم وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما انها كانت النعال والادم في رحالهم جمع رحل اوعيتهم التي يحملون فيها الطعام لعلهم يعرفونها اي بضاعتهم اذا انقلبوا اي رجعوا الى اهلهم وفتحوا اوعيتهم لعلهم يرجعون الينا واختلف في السبب الذي من اجله رد يوسف عليه السلام بضاعتهم في رحالهم على اوجه الاول انه اراد ان يكون ذلك المال معونة لهم على شدة الزمان وكان يخاف اللصوص من قطع الطريق فوضع تلك الدراهم في رحالهم حتى تبقى مخفية الى ان يصلوا الى بيوتهم الثاني انه اراد ان يعرف اباه انه اكرمهم وطلبهم لمزيد الاكرام فلا يثقل على ابيه ارسال اخيه الثالث مقصوده ان يعرفوا انه لا يطلب ذلك الاخ لاجل الايذا والظلم ولا لطلب زيادة في الثمن الرابع اراد ان يحسن اليهم على وجه لا يلحقهم فيه عيب ولا منة الخامس قال الفرا انهم متى شاهدوا بضاعتهم في رحالهم وقع في قلوبهم انهم وضعوا تلك البضاعة في رحالهم على سبيل السهو وهم انبيا واولاد انبيا فيرجعون ليعرفوا السبب فيه ويردوا المال الى مالكه السادس اراد به التوسعة على ابيه لان الزمان كان زمان القحط السابع راى انه اخذ ثمن الطعام من ابيه ومن اخوته على شدة حاجتهم الى الطعام لوم الثامن خاف ان لا يكون عند ابيه من المال ما يرجعون به مرة اخرى انهم التاسع انهم متى فتحوا المتاع فوجدوا بضاعتهم فيه علموا ان ذلك كرم من يوسف عليه السلام وسخاه فيبعثهم ذلك الى العود اليه والحرص على معاملته عليه السلام ،،

فلما رجعوا

فلما رجعوا اي اخوة يوسف عليه السلام الى ابيهم قالوا يا ابانا انا قدمنا على خير رجل انزلنا واكرمنا كرامة عظيمة لو كان رجلا من ال يعقوب ما اكرمنا اكرامه فقال يعقوب عليه السلام اذا رجعتم الى ملك مصر فاقروه مني السلام وقولوا له ان ابانا يدعو لك بما اوليتنا ثم قال لهم اين شمعون قالوا ارتهنه ملك واخبروه بالقصة وقولهم منع منا الكيل فيه قولان احدهما انهم لما طلبوا الطعام لاخيهم الغايب عند ابيهم منعوا منه والثاني انهم منعوا الكيل في المستقبل وهو قول يوسف عليه السلام فلا كيل لكم عندي ولا تقربون ويدل لهما قولهم فارسل معنا اخانا بنيامين نكتل فان حمزة والكسائي قرا بالياء اي يكتل لنفسه وهذا يدل للقول الاول والباقون بالنون اي نكتل نحن واياه وهذا يدل للقول الثاني وانا له لحافظون عن ان يناله مكروه حتى نرده اليك فلما قالوا ليعقوب عليه السلام هذه المقالة قال لهم هل امنكم اي اقبل منكم الان وفي مستقبل الزمان تامنكم لي فيه بما يسوقني تامينا مستقبلا عليه اي بنيامين الا كما امنتكم اي في الماضي على اخيه يوسف عليه السلام من قبل فانكم اكدتم غاية التاكيد فلم تحفظوه لي ولم تردوه الي والامن اطمينان القلب الى سلامة النفس فانا في هذا لا امن عليه الا الله تعالى فالله المحيط علما وقدرة خير حفظا منكم ومن كل احد ففيه التفويض الى الله تعالى والاعتماد عليه في جميع الامور وقرا حفص وحمزة والكسائي بفتح الحا وهو منصوب على التمييز في القرائتين ويحتمل الاولى النصب على الحال اللازمة وهو ارحم الراحمين اي ارحم بي من ان يجمعني به بعد مصيبتي باخيه فلا تجتمع علي مصيبتان بل ارده وتفريغ ما قد صوابه من الميرة فتحوا متاعهم اوعيتهم التي حملوها من مصر وجدوا بضاعتهم اي ما كان معهم من ثمن الطعام للشرا القوت ردت اليهم والوجدان ظهور الشي للنفس بحاسة او ما يغني عنها فكانه قيل ما قالوا فقيل قالوا اي لابيهم عليه السلام يا ابانا ما استفهامية اي اي شي نبغي اي نريد جميع القرا اثبتوا اليا وقفا ووصلا لثباتها في الرسم فكانه قال لهم ما الخبر فقالوا يا ابانا لذلك وتاكيدا للسوال في استصحاب اخيهم هذه بضاعتنا ردت الينا هل من مزيد على ذلك اكرمنا واحسن مثوانا وباع منا ورد علينا متاعنا ولما كان التقدير ونرجع بها اليه باخينا فيظهر له نصحنا وصدقنا ونمير اهلنا اي نجلب اليهم الميرة برجوعنا اليه والميرة الاطعمة التي تحمل من بلد الى بلد ونحفظ اخانا فلا يصيبه شي مما تخشى عليه تاكيد للوعد بحفظه ونزداد كيل بعير لاخينا ذلك كيل يسير اي سهل على الملك لسخايه وحرصه على البذل وقيل قصير المدة ليس سبيل مثله ان يطول مدته بحبس الجنس والتاخر وقيل قليل فابعث اخانا معنا حتى نبدل تلك القلة بالكثرة فكانه قيل ما قال لهم

قال يعقوب عليه السلام لن ارسله اي بنيامين كائنا معكم اي في وقت من
الاوقات حتى تؤتون موثقا اي عهدا موكدا من الله قرا ابن كثير باثبات اليا بعد
النون وقفا ووصلا وابو عمرو باثبات اليا وقفا لا وصلا وحذفها الباقون وقفا
ووصلا وقوله لتأتنني اي كلكم من الاتيان وهو يجيء في كل حال جواب
القسم والمعنى حتى تحلفوا بالله لتأتنني به الا في حال ان يحاط اي تحصل
الاحاطة بمصيبة من المصائب لا طاقة لكم بها بكم فتهلكوا عند اخركم كل
ذلك زيادة في التوثق بما حصل له من المصيبة بيوسف عليه السلام
وان كان الاعتماد في حفظه انما هو على الله تعالى وهذا من باب اعقلها وتوكل
فاجابوه الى ذلك كما قال تعالى فلما اتوه موثقهم بذلك قال الله على ما نقول
نحن وانتم وكيل اي شهيد وارسله معهم بعد ذلك فان قيل لم ارسله
معهم وقد شاهد منهم ما شاهد في يوسف عليه السلام اجيب بان
ذلك لوجوه احدها انهم كبروا ومالوا الى الخير والصلاح انه كان شاهد
انه ليس بينهم وبين بنيامين من الحسد والحقد مثل ما كان بينهم وبين
يوسف عليه السلام الثالث لعل الله اوحى اليه وضمن حفظه وايصاله
ثم لما عزموا على الخروج الى مصر وكانوا موصوفين بالكمال والجمال وابنا رجل
واحد قال لهم يا بني لا تدخلوا اذا قدمتم الى مصر من باب واحد من ابوابها
وادخلوا من ابواب واحترز من ان تكون متلاصقة او متقاربة حد بقوله
متفرقة اي تفرقا كثيرا وهذا حكم التكليف لئلا يصابوا بالعين وهي من
قدر الله تعالى وقد ورد شرعا بذلك ففي الصحيحين وغيرهما عن ابي هريرة ان النبي
صلى الله عليه وسلم قال العين حق وفي رواية عن احمد يحضرها الشيطان
وحسد ابن ادم وفي رواية لمسلم العين حق ولو كان شيء سابق القدر لسبقته
العين وفي رواية عن جابر ان العين لتدخل الجمل القدر والرجل القبر وفي رواية
انه صلى الله عليه وسلم كان يعوذ الحسن والحسين فيقول اعيذكما بكلمات
الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة ويقول هكذا كان
يعوذ ابراهيم اسمعيل واسحق صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر
النبيين وعن عبادة بن الصامت قال دخلت على رسول الله صلى الله عليه
وسلم في اول النهار فوجدته شديد الوجع ثم عدت اليه اخر النهار فوجدته
معافى فقال ان جبريل عليه السلام اتاني فرقاني فقال بسم الله ارقيك من
كل شيء يؤذيك من كل عين وحاسد الله يشفيك قال فافقت وفي رواية
ان بني جعفر بن ابي طالب كانوا غلمانا بيضا فقالت اسما يا رسول الله ان
العين اليهم سريعة فاسترق لهم من العين فقال نعم وفي رواية دخل رسول
الله صلى الله عليه وسلم بيت ام سلمة وعندها صبي يشتكي فقالوا يا رسول
الله اصابته العين فقال اما تسترقون له من العين وعن عايشة رضي

الله تعالى عنها كان يؤمر العاين ان يتوضا ثم يغتسل منه المعين الذي اصيب بالعين
ولما خاف يعقوب عليه السلام ان يسبق الى وهم بعض الاوهام ان الحذر ينجي
عن القدر نفى بذلك بقوله عليه السلام وما اغني اي ادفع عنكم بقولي بذلك
من الله من شيء قدره عليكم وانما ذلك شفقة ومن مزيد للتاكيد
واعلم ان الانسان مامور بان يراعي الاسباب المعتبرة في هذا العالم بان يجزم بانه
لا يحصل الا ما قدره الله تعالى وان الحذر لا يدفع القدر فان الانسان مامور
بان يحذر الامور المهلكة والاغذية الضارة ويسعى في تحصيل المنافع ودفع
المضار بقدر الامكان ومع ذلك يكون جازما بانه لا يصل اليه الا ما قدره
الله ولا يحصل في الوجود الا ما اراده الله تعالى فقوله عليه السلام لا تدخلوا
من باب واحد وادخلوا من ابواب متفرقة اشارة الى رعاية الاسباب المعتبرة
في هذا العالم وقوله وما اغني عنكم من الله من شيء اشارة الى عدم الالتفات
الى الاسباب الى التوحيد المحض والبراءة عن كل شيء سوى الله تعالى ولما
قصر الامر كله اليه تعالى وجب رد كل امر اليه وقصر النظر عليه فقال منبها
على ذلك ان الحكم الا لله اي على الله وحده الذي ليس الحكم الا له عليه توكلت اي جعلته
وكيلي فرضيت بكل ما يفعل وعليه وحده فليتوكل المتوكلون اي الثابتون في
باب التوكل فان ذلك من اعظم الواجبات من فعله فاز ومن اغفله خاب
وقد ثبت بالبرهان ان لا حكم لله فلزم القطع بان حصول كل الخيرات ودفع كل
الافات من الله تعالى وذلك يوجب ان لا نتوكل الا على الله تعالى فهذا مقام شريف
عالي والشيخ ابو حامد الغزالي اكثر في تقرير هذا المعنى في كتاب التوكل من كتب
احيا علوم الدين فمن اراد الاستقصا فيه فليطالع ذلك الكتاب ولما قال يعقوب
وما اغني عنكم من الله من شيء صدقه الله تعالى في ذلك فقال ولما دخلوا من حيث امرهم ابوهم
اي متفرقين ما كان ذلك التفرق يغني عنهم من الله اي من قضائه واعرف
في النفي فقال من شيء اي مما قضاه عليهم كما تقدم من قول يعقوب عليه السلام
فسرقوا واخذ بنيامين وابرزها من نفسه الى اولاده فعملوا فيها بمراده فلا تغني
عنهم الخلاص من عقوبة ابيهم فقط الا حاجة في نفس يعقوب قضاها اي يعقوب عليه السلام من امره
لبنيه بذلك وانه لذو علم اي معرفة بالحكمين حكم التكليف وحكم التقدير واطلاع
على الكونين عظيم لما علمناه بالوحي ونصب الحجج ولذلك قال وما اغني عنكم من
الله من شيء ولم يغتر بتدبيره وما كان قد بطن ان كل احد يكون كذلك اي يعلم
ما علمه نفى ذلك بقوله تعالى ولكن اكثر الناس اي لاجل ما نالهم من الاضطراب
لا يعلمون اي ليسوا بذوي علم لما علمناه لاعراضهم عنه واستفراغ قواهم
في الاهتمام بما وقع التكليف لهم به من احوال الدنيا ومغالبة فطرهم القويمة
السليمة ردها الى ما تدعوهم اليه الحظوظ والشهوات حين لا يكون ربط بالخلق
ولما اخبر تعالى عن دخولهم البلد اخبر عن دخولهم لحاجتهم الى يوسف عليه السلام

تقال ولما دخلوا اي اخوة يوسف عليه السلام على يوسف في المقدمة الثانية بلحيهم
بنيامين قالوا هذا اخونا فقال احسنتم واصبتم وستجدون خير ذلك عندي
ثم انزلهم واكرم منزلهم ثم اضافهم واجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقي بنيامين
وحيدا فبكى وقال لو كان اخي يوسف حيا اجلسني معه فقال يوسف لقد بقي
اخوكم هذا وحيدا فاجلسه معه على مائدته وصار يواكله فلما كان الليل
ان ينزل كل اثنين منهم بيتا فبقي بنيامين وحده فقال يوسف هذا ينام معي
على فراشي كما قال تعالى آوى اليه اخاه فبات معه وجعل يوسف
يضمه اليه ويشمه ثم قال له ما اسمك فقال بنيامين فقال وما بنيامين
قال المثكل وذلك انه لما ولد هلكت امه قال وما اسم امك قال
راحيل بنت لاوي قال فهل لك من ولد قال نعم عشر بنين ولما راي تاسفه
لاخ له هلك قال له اتحب ان اكون اخاك بدل اخيك فقال ومن يجد اخا مثلك
ولكنك لم يلدك يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف وقام اليه وعانقه قال اني
انا اخوك فلا تبتئس اي لا تحزن بما كانوا يعملون اي بشيء فعلوه بنا فيما مضى
فان الله قد احسن الينا فلا تلتفت الى اعمالهم المنكرة التي اقدموا عليها وقد
جمعنا الله على خير ولا تعلمهم بشيء من ذلك وقرا نافع وابن كثير وابو عمرو وفتح
اليا والباقون بالسكون ومد بعد النون من انا اخوك قبل الهمزة المفتوحة
نافع والباقون بالقصر ثم انه ملأ لهم اوعيتهم كما ارادوا وكان في المرة الاولى
ابطا في تجهيزهم ليتعرف اخبارهم في طول المدة من حيث لا يشعرون ولذلك
لم يعطف بالفا واسرع في تجهيزهم في هذه المرة قصدا الى انفراده باخيه
من غير رقيب بالحيلة التي دبرها فلذلك اتت الفا في قوله فلما جهزهم
اي جعل جهازا واحدا بجهازهم جعل بنفسه او بمن امره السقاية
اي الشربة التي كان يشرب بها في رحل اخيه اي وعا طعام اخيه بنيامين
كما فعل ببضاعتهم في المرة الاولى قال ابن عباس كانت من زبرجد وقال
ابن اسحق كانت من فضة وقيل من ذهب وقال عكرمة كانت مشربة من
فضة مرصعة بالجواهر وجعلها يوسف مكيالا لئلا يكال بغيرها وكان
يشرب فيها قال الرازي هذا بعيد لان الانا الذي يشرب فيه الملك
لا يصلح ان يكون صاعا وقيل كانت الدواب تسقى بها قال وهذا ايضا بعيد
لان الآنية التي تسقى الدواب فيها لا تكون كذلك قال والاصوب ان يقال
كان ذلك الانا له قيمة اما الى هذا الحد الذي ذكروه والسقاية والصواع
واحد ثم ارتحلوا وامهلهم يوسف عليه السلام حتى انطلقوا وذهبوا
منزلا وقيل حتى خرجوا من العمارة ثم بعث خلفهم من استوقفهم وحبسهم
ثم اذن اي اعلن فيهم بالندا مؤذن قائلا برفيع صوته وان كانوا في
غاية القرب منه بما دل عليه اسقاط الاداة ايتها العير اي القافلة

قال

قال ابو الهيثم كل ما سير عليه من الابل والحمير والبغال فهو عير قال وقول من قال
العير الابل خاصة باطل فقوله ايتها العير اي اصحاب العير كقوله يا خيل
الله اركبوا قال الفرا كانوا اصحاب ابل وقال مجاهد كانت العير حميرا وقرا ورش
بابدال همزة مؤذن واوا وقفا ووصلا وحمزة في الوقف فقط والباقون بالهمز
انكم لسارقون فقفوا حتى ننظر الذي فقدناه والسرقة اخذ ما ليس له اخذه
في خفاء من حرز مثله فان قيل كان هذا الندا بامر يوسف عليه السلام او ما كان
بامره فان كان بامره فكيف يليق بيوسف عليه السلام مع علو منصبه ان يبهت
اقواما وينسبهم الى السرقة كذبا وبهتانا وان كان بغير امره فهلا اظهر
براءتهم عن تلك التهمة اجيب باجوبة الاول انه عليه السلام لما اظهر
لاخيه انه يوسف قال لست افارقك قال لا سبيل الى ذلك الا بحيلة
انسبك فيها الى ما لا يليق بك قال رضيت بذلك وعلى هذا لم يتالم قلبه
بسبب هذا الكلام لانه قد رضي به فلا يكون ذنبا الثاني انكم لسارقون يوسف من
ابيه الا انهم ما اظهروا هذا الكلام فهو من المعاريض وفي المعاريض مندوحة عن
الكذب الثالث ان المنادي انما ذلك الندا على سبيل الاستفهام وعلى هذا
يخرج ان يكون كذبا الرابع ليس في القرآن ما يدل على انهم قالوا هذا بامر يوسف
عليه السلام قال الرازي والاقرب الى ظاهر الحال انهم فعلوا ذلك من انفسهم
لانهم لما طلبوا السقاية فلم يجدوها ولم يكن هناك احد غيرهم غلب على ظنهم
انهم الذين اخذوها ولما وصل اليهم الرسول قال لهم الم نحسن ضيافتكم
ونكرم مثواكم ونوف كيلكم وفعلنا بكم ما لم نفعل بغيركم قالوا بلى وما ذاك
قالوا سقاية الملك فقدناها ولا نتهم عليها غيركم فذلك قوله تعالى قالوا
والحال انهم قد اقبلوا عليهم اي على جماعة الملك المنادي وغيره ماذا اي ما الذي
تفقدون مما يمكننا اخذه والفقدان ضد الوجود قالوا نفقد وكان للسقي
اسمان فعبروا بقولهم صواع الملك والصواع هو المكيال وهو السقاية المتقدمة
سموه تارة كذا وتارة كذا وانما اتخذوا هذا الانا مكيالا لعزة ما يكال به في ذلك الوقت
ولمن جاء به حمل بعير اي من الطعام والبعير يطلق لغة على الذكر خاصة واطلقه
بعضهم على الناقة ايضا وجعله نظير انسان وهو ما جرى عليه الفقها في باب
الوصية والجمع في القلة على ابعرة وفي الكثرة على بعران وانا به زعيم قال مجاهد
والزعيم هو الذي اذن والزعيم الكفيل وهذه الآية تدل على ان الكفالة كانت صحيحة
في شرعهم وقد حكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله الزعيم غارم واذا ورد من شرعنا
ما يقرر شرع غيرنا هل يكون شرعا لنا في ذلك خلاف والراجح انه ليس بشرع لنا
فان قيل كيف تصح هذه الكفالة مع ان السارق لا يستحق شيئا اجيب بانهم لم
يكونوا سراقا في الحقيقة فيحمل ذلك على مثل رد الضايع فيكون ذلك جعالة
او ان مثل هذه الكفالة كانت جايزة عندهم في ذلك الزمان قالوا اي اخوة

يوسف عليه السلام تالله الناهرف قسم وهي عند الجمهور بدل من واو القسم والواو
بدل من الباء في فرع الفرع فلذلك ضعفت عن التصريف في الاسما فلا تدخل الا على
الجلالة الكريمة او مضافا الى الرب مضافا للكعبة او الرحمن في قول ضعيف ولو قلت تالرحيم
لم يجز اي والله لقد علمتم اي بما جربتم اي من امانتنا قبل هذا في كون ما جئنا ما
جئنا واكد النفي باللام فقالوا لنفسد اي لنوقع الفساد في الارض اي ارض
مصر ولقد علمتم ما كنا اي بوجه من الوجوه سارقين اي موصوفين بهذا
الوصف قطعا فان قيل من اين علموا اجيب بان ذلك بعلم ما رأوا من احوالهم
وقيل لانهم ردوا البضاعة التي جعلت في رحالهم قالوا فلو كنا سارقين ما رددناها
وقيل قالوا ذلك لانهم كانوا معروفين بانهم لا يتناولون ما ليس لهم وكانوا اذا
دخلوا مصر كمموا افواه دوابهم كيلا تتناول شيئا من حروث الناس قالوا اي
اصحاب يوسف عليه السلام المنادي ومن معه فما جزاؤه اي السارق وقيل
الصواع ان كنتم كاذبين في قولكم ما كنا سارقين ووجد فيكم والجزاء مقابلة
العمل بما يستحق من خير وشر قالوا وثوقا منهم بالبراءة واخبارا بالحكم عندهم
جزاؤه من وجد في رحله ولتحققهم البراءة علقوا الحكم على مجرد الوجدان
لا السرقة ثم اكدوا ذلك بقولهم فهو جزاؤه قال ابن عباس كان في ذلك الزمان
كل سارق بسرقته فلذلك قالوا ذلك اي فالسارق جزاؤه ان يسلم السارق
بسرقته الى المسروق منه فيسترق سنة وكان ذلك سنة آل يعقوب
في حكم السارق وكان حكم ملك مصر ان يضرب السارق ويغرم ضعفي قيمة المسروق
فاراد يوسف ان يحبس اخاه عنده فرد الحكم اليهم ليتمكن من حبسه عنده
على حكمهم كذلك اي الجزاء نجزي الظالمين بالسرقة قال اصحاب يوسف
ولا بد من تفتيش رحالكم فردوهم الى يوسف عليه السلام فامر بتفتيشها بين
يديه فبدأ باوعيتهم ففتشها قبل وعاء اخيه لئلا يتهمهم فلم يجد فيها شيئا
ثم اي بعد تفتيش اوعيتهم والثاني في ذلك استخرجها اي السقاية
او الصاع لانه يذكر ويؤنث من وعاء اخيه فلما خرج الصاع من وعاء بنيامين نكس
اخوته رؤسهم من الحياء واقبلوا على بنيامين يلومونه ويقولون له اي شيء الذي
صنعت فضحتنا وسودت وجوهنا يا ابن راحيل ما زال لنا منكم بلاء متى اخذت
هذا الصاع فقال بنيامين بل بنو راحيل ما زال لهم منكم بلاء ذهبتم باخي فاهلكتموه
في البرية ان الذي وضع هذا الصاع في رحلي هو الذي وضع البضاعة في رحالكم
فاخذ بنيامين رقيقا وقيل ان المنادي واصحابه هم الذين تولوا تفتيش رحالهم
وهم الذين استخرجوا الصاع من رحله فاخذوه برقبته وردوه الى يوسف عليه
السلام تنبيه هاهنا همزتان مختلفتان من كلمتين قرأ نافع وابن كثير وابو عمرو
بابدال الثانية ياء والباقون بالتحقيق كذلك اي مثل ذلك الكيد كدنا
ليوسف خاصة بان علمناه اياه جزاءهم على كيدهم بيوسف عليه السلام

في الابتدا

في الابتدا وقد قال يعقوب عليه السلام فيكيدوا لك كيدا والكيد من الخلق الحيلة
ومن الله التدبير بالحق فالمراد من هذا الكيد هو ان الله تعالى القى في قلب اخوته بان حكموا ان
جزاء السارق هو ان يسترق لا جرم لما ظهر الصاع في رحله حكموا عليه بالاسترقاق
وصار ذلك سببا لتمكن يوسف عليه السلام من امساك اخيه عنده ولما
كان الكيد يشعر بالحيلة والخديعة وهو في حق الله تعالى محال حمل على الغاية ونهايته
ها الفا الانسان من حيث لا يشعر في امر مكروه لا سبيل له الى دفعه فالكيد في حق
الله تعالى محال على هذا المعنى والمراد بالكيد هنا ان اخوة يوسف سعوا في ابطال
امره والله تعالى نصره وقواه واعلا امره وقوله تعالى ما كان اي يوسف ليأخذ
اخاه في دين الملك اي حكمه بيان للكيد لان جزاءه كان عنده الضرب وتغريم مثلي
ما اخذ لانه يستبعد وقوله تعالى الا ان يشاء الله فيه وجهان احدهما انه استثناء منقطع
تقديره ولكن بمشيئة الله اخذه في دين غير دين الملك وهو دين آل يعقوب عليه السلام
ان الاسترقاق جزاء السارق والثاني انه مفرغ من الاحوال العامة والتقدير ما كان
ليأخذه في كل حال الا في حال التباسه بمشيئة الله اي اذنه في ذلك ولما كان يوسف
عليه السلام انما تمكن من ذلك لعلو درجته وتمكنه ورفعته بعد ما كان فيه عندهم
من الصغار كان ذلك محل عجب فقال تعالى التفاتا الى مقام التكلم نرفع درجات من نشاء
اي بالعلم كما رفعنا درجته وكان الاصل درجاته ولكنه عمم لانه دل على العظمة فكان
البق بمظهرها وفي هذه الاية دليل على ان العلم اشرف المقامات واعلى الدرجات
لان الله تعالى لما اهدى يوسف عليه السلام الى هذه الحيلة مدحه لاجل ذلك
ورفع درجته على اخوته ووصف ابراهيم عليه السلام بقوله تعالى نرفع درجات
من نشاء عند ما حكي عنه دلائل التوحيد والبراءة عن الهية الشمس والقمر والكواكب
وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بتنوين التاء والباقون بغير تنوين وفوق كل ذي علم عليم
قال ابن عباس فوق كل عالم عالم الى ان ينتهي العلم الى الله تعالى فالله تعالى فوق كل
عالم لانه هو الغني بعلمه عن التعلم وفي الاية دليل على ان اخوة يوسف عليه السلام
كانوا علماء وكان يوسف اعلم منهم قال ابن الانباري يجب ان يتهم العالم نفسه
ويستشعر التواضع لربه ولا يطمع نفسه في الغلبة في العلوم لانه لا يخلو عالم
من عالم فوقه ولما حصل لاخوة يوسف من اخراج الصواع من رحل بنيامين ما حصل
فكانه قيل فما كان فعلهم عند ذلك فقيل قالوا تسلية لانفسهم ودفعا للعار
عن خاصتهم ان يسرق ولم يجزموا بسرقته لعلمهم بامانته وظنهم ان الصواع
دس في رحله وهو لا يشعر كما دست بضاعتهم في رحالهم وكان قد قال ذلك
فقد سرق اخ له من قبل اي يوسف وكان غرضهم من ذلك انا لسنا على طريقته
ولا على سيرته وهو واخوه مختصان بهذه الطريقة لانهما من ام اخرى واختلفوا
في التي نسبوها الى يوسف عليه السلام على اقوال فقال سفيان بن عيينة
اخذ دجاجة من الطير التي كانت في بيت يعقوب فاعطاها سائلا وقال مجاهد

جاء سائل فاخذ بيضة من البيت فناولها السائل وقال وهب كان يخبا الطعام من
مائدة يعقوب للفقراء وقال سعيد بن جبير كان لجده ابو امه يعبد الوثن وامرته
امه ان يسرق تلك الاوثان ويكسرها فلعله يترك عبادة الاوثان ففعل ذلك
فهذا هو السرقة وقال محمد بن اسحاق ان يوسف عليه السلام كان عند عمته ابنة
اسحق وكانت تحبه حبا شديدا فارادت ان تمسكه عند نفسها وكان قد بقي معها
منطقة لابيها اسحق عليه السلام وكانوا يتبركون بها فشدتها على وسط يوسف
عليه السلام من تحت ثيابه وهو صغير لا يشعر ثم قالت انه سرقها وكان علمهم
ان من سرق يسترق فقال يعقوب عليه السلام ان كان فعل ذلك فهو سلم لك
فامسكه عندها حتى ماتت فتوسلت بهذه الحيلة الى امساكه عند نفسها قال
ابن الانباري وليس في هذه الافعال كلها سرقة ولكنها تشبهها فعيروه بها عند الغضب
وقيل انهم كذبوا عليه وبهتوه وكانت قلوبهم مملوة من الغضب على يوسف بعد تلك
الوقايع وبعد انقضاء المدة الطويلة قال الرازي وهذه الواقعة تدل على ان قلب الحاسد
لا يطهر عن الغل البتة **فاسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم** اي يظهرها
والضمير للكلمة التي هي قوله **قال** اي في نفسه **انتم شر مكانا** اي من يوسف
واخيه اي لسرقتكم اخاكم من ابيكم وظلمكم له وقيل الضمير يرجع الى الكلمة التي قالوا
في حقه وهي قولهم فقد سرق اخ له من قبل وعلى هذا المعنى فاسر يوسف جواب
الكلمة التي قالوها في حقه **والله اعلم منكم بما تصفون** اي تقولون وانه ليس كما
قلتم قال اصحاب الاخبار والسير ان يوسف عليه السلام لما استخرج الصاع
من رحل بنيامين نقره وادناه الى اذنه ثم قال ان صاعي هذا يخبرني انكم اثني
عشر رجلا لاب واحد وانكم انطلقتم باخ لكم من ابيكم فبعتموه فقال
بنيامين ايها الملك صاعك من جعله في رحلي ثم نقره وادناه الى اذنه فقال
ان صاعي غضبان وهو يقول كيف تسالوني عن صاحبي وقد رايت مع من كنت
قالوا فغضب روبيل لذلك وكانوا اولاد يعقوب اذا غضبوا لم يطاقوا وكان
روبيل اذا غضب لم يقم لغضبه شي وكان اذا صاح القت كل حامل حملها ان سمعت
صوته وكان مع هذا اذا امسه احد من ولد يعقوب عليه السلام يسكن غضبه
وكان اقوى الاخوة واشدهم ويروى انه قال لاخوته كم عدد الاسواق بمصر
قالوا عشرة فقال اكفوني انتم الاسواق وانا اكفيكم الملك او اكفوني انتم الملك
وانا اكفيكم الاسواق ودخلوا على يوسف فقال روبيل لتردن علينا اخانا او
لاصيحن صيحة لا يبقى بمصر امراة حامل الا القت ولدها وقامت كل شعرة في
جسده حتى خرجت من ثيابه فقال يوسف لابن له صغير قم جنب روبيل فمسه وبروى
خذ بيده فاتني به فذهب الغلام فمسه فسكن غضبه فقال لاخوته من
مسني منكم قالوا لم يصبك منا احد فقال روبيل ان ههنا بذرا من بذر يعقوب
فقال يوسف من يعقوب وروي انه غضب ثانيا فقام اليه يوسف فركضه برجله

واخذ بتلابيبه فوقع على الارض وقال انتم يا معشر العبرانيين تظنون ان لا احد
اشد منكم فلما صار امرهم الى هذا وروا ان لا سبيل لهم الى خلاصه خضعوا وذلوا و
قالوا يا ايها العزيز فخاطبوه بما يليق بالاكابر ليرق لهم **ان له** اي هذا الذي وجد
الصاع في رحله **ابا شيخا كبيرا** اي في سنه وقدره وهو مغرم به لا يقدر على فراقه
ولا يصبر عنه **فخذ احدنا مكانه** واحسن الى ابيه بارساله اليه **انا نراك** اي نعلمك
علما هو كالروية او نخبر ما رايناه **من المحسنين** اي العريقين في صفة الاحسان
فاجر في امرنا على عادة احسانك فكانه قيل فما اجابهم قيل **قال معاذ الله** نصب على
المصدر وحذف فعله واضيف الى المفعول اي نعوذ بالله الذي لا مثل له معاذا
عظيما من **ان ناخذ الا من وجدنا متاعنا عنده** ولم يقل سرق متاعنا لانه لم يفعل في الصاع
فعل السارق ولم يقع منه قبل ذلك ما يصح اطلاق الوصف عليه ثم علله بقوله
انا اذا اي اذا اخذنا احدا مكانه **لظالمون** اي غارقون في الظلم في دينكم فلم
تطلبون ما هو ظلم عندكم ولما ايسهم بما قال عن اطلاق بنيامين حكى الله تعالى
عنهم ما اثمر من الراي فقال **فلما** دالا بالفا على قرب زمن تلك المراجعات **استياسوا**
اي ايسوا **منه** لما راوا من احسانه ولطفه ورحمته باسا شديدا بما راوا من
ثباته على اخذه بعينه وعدم استبداله **خلصوا** اي انفردوا من غيرهم حال
كونهم **نجيا** وهو مصدر يصلح للواحد وغيره اي ذوي نجوى يناجي بعضهم بعضا
فكانه قيل فما قالوا فقيل **قال كبيرهم** في السن وهو روبيل وقيل في العقل
والعلم وهو يهوذا وقيل شمعون وكان له الرياسة على اخوته **الم تعلموا**
مقررا لهم بما يعرفونه مع قرب الزمان ليشتد توجههم في بذل الجهد في الخلاص
من غضب ابيهم **ان اباكم** اي الشيخ الكبير الذي فجعتموه في احب ولده اليه
قد اخذ عليكم اي قبل ان يعطيكم هذا الولد الاخر **موثقا** اي عهدا وثيقا **من
الله** في اخيكم وانما جعل حلفهم بالله موثقا منه لانه باذن منه وتاكيد من
جهته وقوله **ومن قبل ما فرطتم** في هذه الاية وجوه اظهرها ان ما مزيدة
فيتعلق الظرف بالفعل بعدها والتقدير ومن قبل هذا فرطتم اي قصرتم في
حق يوسف وشانه وزيادة ما كثيرة وبه بدا الزمخشري وغيره وقيل انها
مصدرية في محل رفع بالابتدا والخبر هو قوله في يوسف او تفريطكم كاين او
مستقر في يوسف والى هذا ذهب الفارسي وقيل غير ذلك ولا نطيل بذكره
لان هذا القدر كفاية **في يوسف فلن ابرح** اي افارق **الارض** اي ارض مصر **حتى ياذن لي**
ابي بالعود اليه **او يحكم الله لي** بخلاص اخي **وهو خير الحاكمين** اي اعدلهم فان
قيل هذه الواقعة من اولها الى اخرها تزوير وكذب فكيف يجوز ليوسف عليه
السلام ان يعمل مثل هذه الاعمال بابيه ولم يعلمه بمكانه وحبس اخاه
ايضا عنده مع علمه بشدة وجدان ابيه عليه وشدة غمه وفيه ما فيه من
العقوق وايذا الناس من غير ذنب لا سيما وهو يعلم انه اذا حبس اخاه عنده

اي لن ابرح الارض

برئ من التهمة فانه يعظم حزن ابيه ويشتد غمه فكيف يليق بالرسول المعصوم المبالغة في
التزوير الى هذا الحد اجيب باجوبة كثيرة للعلماء واحسنها انما فعل ذلك بامر الله تعالى
له لا عن امره وانما امره الله تعالى بذلك ليزيد بلاء يعقوب عليه السلام فيضاعف له الاجر
على البلاء ويلحقه بدرجة ابائه ولله تعالى اسرار لا يعلمها احد من خلقه وهو المتصرف
في خلقه بما يشاء فهو الذي اخفى خبر يوسف عن يعقوب في هذه المدة مع قرب المسافة
لما يريد ان يدبر فيهم والله اعلم باحوال عباده ثم قال كبيرهم ارجعوا الى ابيكم اي دو
فقولوا له متلطفين في خطابكم يا ابانا واكدوا مقالتكم فانه منكر لها وقولوا ان
ابنك سرق فان قيل كيف حكموا عليه بانه سرق من غير بينة وهو قد اجابهم بالجواب
الشافي فقال الذي جعل الصاع في رحلي هو الذي جعل البضاعة في رحالكم اجيب
بانهم لما شاهدوا الصاع وقد اخرج من متاعهم غلب على ظنهم انه سرق فلذلك نسبوه
الى السرقة في ظاهر الامر لا في حقيقة الحال ويدل على انهم لم يقطعوا عليه بالسرقة
قولهم وما شهدنا عليه الا بما علمنا ظاهرا من رؤيتنا الصاع يخرج من وعائه
واما قوله وضع الصاع في رحلي من وضع البضاعة في رحالكم فالفرق ظاهر لان هؤلاء
لما رجعوا بالبضاعة اليهم اعترفوا بانهم هم الذين وضعوها في رحالكم واما هذا
الصاع فان احدا لم يعترف بانه هو الذي وضع الصاع في رحله فلهذا السبب غلب
على ظنونهم انه سرق فشهدوا بنا على الظن وما كنا للغيب اي ما غاب عنا حين
اعطينا الموثق حافظين اي ما كنا نعلم ان ابنك سيسرق ويصير امرنا الى هذا
ولو علمنا ذلك ما ذهبنا به معنا وانما قلنا ونحفظ اخانا مما لنا الى حفظه سبيل
او حقيقة الحال غير معلومة لنا فان الغيب لا يعلمه الا الله تعالى فلعل الصاع
دس في رحله ونحن لا نعلم ذلك فلعل حيلة دبرت في ذلك غاب عنا علمها كما صنع
في رد بضاعتنا واسأل القرية اي اهلها على حذف المضاف وهو مجاز مشهور
وقيل لانه مجاز من باب اطلاق المحل على الحال التي كنا فيها وهي مصر عما اخبرناك
به يخبروك بصدقنا فان الامر قد اشتهر عندهم وقيل هي قرية من قرى مصر
كانوا ارتحلوا منها الى مصر واسأل العير اي القافلة وهم قوم من كنعان جيران
يعقوب عليه السلام التي اقبلنا فيها والسؤال طلب الاخبار بادواته من
الهمزة وهل وغيرهما والقرية الارض الجامعة لحدود فاصلة واصلها
قريت الماء جمعته والعير قافلة الحمير من العير بالفتح وهو الحمار هذا هو الاصل ثم كثر
حتى استعمل في غير الحمير ولما كان ذلك بالانكار ربما يتحقق من كرم اخيهم اكدوه
بقولهم وانا اي والله لصادقون في اقوالنا ولما رجعوا الى ابيهم وقالوا له
ما قال كبيرهم فكانه قيل فما قال لهم فقيل قال لهم بل سولت اي
زينت واستزينتا به على لكم انفسكم امرا اي حدثتكم بامر ففعلتموه والا
فما ادري الملك ان السارق يوخذ بسرقته فصبر جميل اي فامري صبر
جميل او فصبر جميل صبري او اجمل وقدم مثل ذلك في واقعة يوسف الا انه قال

فيها والله المستعان على ما تصفون وقال هنا عسى الله ان ياتيني بهم اي بيوسف وشقيقه
بنيامين والاخ الثالث الذي اقام بمصر جميعا اي فلا يتخلف منهم احد وانما قال يعقوب
عليه السلام هذه المقالة لانه لما طال حزنه واشتد بلاؤه ومحنته علم ان الله سيجعل
له فرجا ومخرجا عن قريب فقال ذلك على سبيل حسن الظن بالله تعالى وتفرس ان هذه
الافعال نشات عن يوسف عليه السلام وان الامر يرجع الى سلامته واجتماع
ثم علل ذلك بقوله انه هو العليم اي البليغ العلم بما خفي عنا من ذلك فيعلم
اسبابه الموصلة الى المقاصد الحكيم اي البليغ فيما يدبره ويقضيه ولما ضاق قلب
يعقوب عليه السلام بسبب الكلام الذي سمعه من ابنائه في حق بنيامين وتولى
عنهم اي انصرف بوجهه عنهم لما توالى عنده من الحزن وقال يا اسفى اي يا اسفي
على يوسف اي تعالى هذا اوانك والاسف اشد الحزن والحسرة والالف بدل
من ياء المتكلم وانما تاسف على يوسف دون اخويه والحادث انما هو مصيبتهما لان
مصيبته كانت قاعدة المصائب والحزن القديم اذا صادفه حزن اخر كان ذلك
اوجع للقلب واعظم لهيجان الحزن الاول كما قال متمم بن نويرة لما راى قبرا جديدا
جدد حزنه على اخيه مالك · فقالوا اتبكي كل قبر رايته · لقبر ثوى بين اللوى والدكادك
فقلت لهم ان الاسى يبعث الاسى · فدعني فهذا كله قبر مالك · ولانه كان
واثقا بحياتهما دون حياته وفي حديث رواه الطبراني لم تعط امة من الامم
انا لله وانا اليه راجعون عند المصيبة الا امة محمد صلى الله عليه وسلم الا ترى
الى يعقوب حين اصابه ما اصابه لم يسترجع وقال يا اسفي وابيضت عيناه اي انمحق
سوادهما وبدل بياضا من الحزن اي من كثرة البكاء عليه وقيل غلبة البكاء عند كثرة الماء
البكاء في العين فتصير العين كانها ابيضت من بياض ذلك الماء وقيل ضعف بصره
حتى صار يدرك ادراكا لطيفا وقيل عمي وقال مقاتل لم يبصر بهما ست سنين
حتى كشفه الله بقميص يوسف عليه السلام قيل ان جبريل دخل على يوسف فقال
ان بصر ابيك ذهب من الحزن عليك فوضع يده على راسه وقال ليت امي لم تلدني
ولم اكن حزنا على ابي فان قيل هذا اظهار للجزع وجار مجرى الشكاية وهو لا يليق بمثل
يعقوب عليه السلام اجيب بانه لم يذكر الا هذه الكلمة ثم عظم بكاؤه ثم امسك لسانه
عن النياحة وذكر ما لا ينبغي ولم يظهر الشكاية مع احد من الخلق ويدل لذلك قوله
فهو كظيم اي مغموم مكروب لا يظهر كربه وقوله انما اشكو بثي وحزني الى الله
فكل ذلك يدل على انه لما عظمت مصيبته وقويت محنته انه صبر وتجرع الغصة
وما اظهر الشكاية به فلا جرم استوجب به المدح العظيم والثناء الجزيل روي ان
يوسف عليه السلام قال لجبريل عليه السلام هل لك علم بيعقوب قال نعم
قال فكيف حزنه قال حزن سبعين ثكلى وهي التي لها ولد واحد يموت قال فهل له
اجر قال نعم اجر مائة شهيد ولعل ان ذلك لا يدخل تحت التكليف فانه قل من
يملك نفسه عند الشدائد وايضا البكاء مباح فقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم

على ولده ابراهيم وقال القلب يحزن والعين تدمع ولا نقول ما يسخط الرب وانا على
فراقك يا ابراهيم لمحزونون رواه الشيخان تنبيه شرف الانسان باللسان والعين
والقلب فبين تعالى ان هذه الثلاثة كانت غريقة في الغم فاللسان كان مشغولا بقوله
يا اسفا والعين بالبكا والبياض والقلب بالغم الشديد الذي يشبه الوعا المملو الذي
سد فلا يمكن خروج الما منه وهذا مبالغة في وصف ذلك الغم ولما وقع من يعقوب
عليه السلام ذلك كان قايلا يقول فما قال اولاده فقيل قالوا له حنقا من ذلك
تالله تفتؤ اي لا تفتؤ اي لا تزال تذكر يوسف تفجعا فتفتؤ جواب القسم وهو على حذف
لا كقول الشاعر فقلت يمين الله ابرح دايما * ولو قطعوا راسي اليك واوصالي *
ويدل على حذفها انه لو كان مثبتا لاقترن بلام الابتدا ونون التوكيد معا عند البصريين
او احدهما عند الكوفيين فتفتؤ هنا ناقصة بمعنى لا تزال كما تقرر ورسمت تفتؤ بالواو
حتى اي الى ان تكون حرضا اي مشرفا على الهلاك لطول مرضك وهو مصدر يستوي
فيه الواحد وغيره او تكون من الهالكين اي الموتى فان قيل لم حلفوا مع انهم
لم يعلموا ذلك قطعا اجيب بانهم بنوا الامر على الظاهر قال اكثر المفسرين قايل
هذا الكلام هم اخوة يوسف وقال بعضهم ليسوا الاخوة بل الجماعة الذين
كانوا في الدار من اولاده وخدمه ولما قالوا له ذلك فكان قايلا يقول فما ذا قال لهم
فقيل قال لهم انما اشكو بثي والبث اشد الحزن سمي بذلك لانه من صعوبته لا يطاق
حمله فيباح به اي ينشر وحزني مطلقا وان كان سببه خفيفا بقدر الخلق على ازالته
الى الله المحيط بكل شي علما وقدرة لا الى غيره فهو الذي تنفع الشكوى اليه
واعلم من الله اي الملك الاعلى من اللطف بنا اهل البيت ما لا تعلمون فياتيني
بالفرج من حيث لا احتسب وفي ذلك اشارة الى انه كان يعلم حياة يوسف
ويتوقع رجوعه اليه وذكروا لسبب هذا التوقع امورا احدها ان ملك الموت
اتاه فقال له يا ملك الموت هل قبضت روح ولدي يوسف قال لا يا نبي الله
ثم اشار الى جانب مصر وقال اطلبه من هنا ولذلك قال يا بني اذهبوا
فتحسسوا اي والتحسس طلبوا الخبر بالحاسة وهو قريب من التجسس بالجيم
وقيل التحسس بالحا يكون في الخير وبالجيم يكون في الشر ومنه الجاسوس وهو
الذي يطلب الكشف عن عورة الناس والمعنى تحسسوا خبرا من اخبار
يوسف واخيه اي اطلبوا خبرهما وثانيها انه علم ان رويا يوسف عليه السلام
صادقة لان امارات الرشد والكمال ظاهرة في حق يوسف عليه السلام
ورويا مثله لا تخطي وثالثها لعله تعالى اوحى اليه انه سيوصله اليه ولكنه تعالى
ما عين الوقت فلهذا بقي في القلق ورابعها قال السدي لما اخبره بنوه
بسيرة الملك وكمال حاله واقواله وافعاله طمع في ان يكون هو يوسف
وقال يبعد ان يظهر في الكفار مثله ثم تلطف بنيه وقال لهم ولا تياسوا اي تقنطوا
من روح الله قال ابن عباس من رحمة الله وقال قتادة من فضل الله وقال ابن زيد

من فرج الله انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون اي الغريقون في الكفر قال
ابن عباس ان المومن على خير من الله يرجوه في البلا ويحمده على الرخا والكافر على الضد من
ذلك فان الياس من رحمة الله لا يحصل الا اذا اعتقد الانسان ان اله العالم غير قادر
على الكمال او غير عالم بجميع المعلومات او ليس بكريم بل هو بخيل وكل واحد من هذه الثلاثة
يوجب الكفر واذا كان الياس لا يحصل الا عند حصول احد هذه الثلاثة وكل واحد
منها كفر ثبت ان الياس لا يحصل الا لمن كان كافرا وقرا البزي بعد اليا من تياسوا وبعد
اليا من لا ييأس بالف وبعدها يا مفتوحة بخلاف عنه والباقون بهمزة مفتوحة قبلها
يا ساكنة ولما قال يعقوب عليه السلام لبنيه ذلك قبلوا منه هذه الوصية وعادوا
الى مصر فلما دخلوا عليه اي على يوسف عليه السلام قالوا يا ايها العزيز وكان العزيز
وكان العزيز لقبا لملك مصر يوميذ مسنا واهلنا اي من خلفنا ورانا الضر
اي لابسنا ملامسة عنها وجينا ببضاعة وقالوا مزجاة اما لنقصها او لردايتها نها
او لهما جميعا وقال الحسن البضاعة المزجاة القليلة واختلفوا في تلك الرداءة
فقال ابن عباس كانت دراهم ردية لا تقبل في ثمن الطعام وقيل متاع الاعراب الصوف
والسمن وقيل الاقط وقيل النعال والادم وقيل ان دراهم مصر كان ينقش فيها
صورة يوسف عليه السلام والدراهم التي جاوا بها ما كان فيها ذلك فما كانت
مقبولة عند الناس ثم سببوا عن هذا الاعتذار لانه اقرب الى رحمة الله اهل الكرم
قولهم فاوف لنا الكيل اي شفقة علينا بسبب ضعفنا وتصدق اي تفضل
علينا زيادة على الوفا كما عودتنا بفضل نرجو ثوابه ولما رووا افعاله تدل على
تمسكه بدين الله تعالى عللوا ذلك بقولهم ان الله اي الذي له الكمال
كله يجزي المتصدقين اي وان كانت على غني قوي فكيف اذا كانت على اهل الحاجة
والضعف فايدة سيل سفيان بن عيينة هل حرمت الصدقة على نبي من
الانبيا سوى نبينا عليه وعليهم الصلاة والسلام قال سفيان الم
تسمع قوله وتصدق علينا يريد ان الصدقة كانت حلالا لهم ولابيهم وروي
ان الحسن سمع رجلا يقول اللهم تصدق علي فقال ان الله لا يتصدق وانما
يتصدق من يبغي الثواب قل اللهم اعطني وتفضل علي فان قيل اذا كان ابوهم
امرهم ان يتحسسوا من يوسف واخيه فلم عادوا الى الشكوى اجيب
بان المتحسس يتوصل الى مطلوبه بجميع الطرق والاعتراف بالعجز وضيق
الحال وقلة المال وشدة الحاجة وذلك مما يرقق القلب فقالوا نجربه في هذه
الامور فان رق قلبه لنا ذكرنا له المقصود والا سكتنا فقدموا هذه المقدمة
قال ابو اسحق ذكر لي انهم لما كلموه بهذا الكلام ادركته الرقة على اخوته فارفض
دمعه فباح بالذي كان يكتم فلذا قال لهم هل علمتم مقررا لهم بعد ان استانسوا
به قال البقاعي والظاهر انه هذا كان بغير ترجمان ما اي القبح الذي فعلتم
بيوسف اي اذيتكم الذي حللتم بينه وبين ابيه واخيه في جعلكم اياه فريدا

بيان ... تجربه

منه دليل بيتكم في قولكم له لما وجد الصاع في رحله لا يزال ياتينا البلا من قبلكم يا بني
راحيل وانما قال لهم ذلك نصحا لهم وتحريضا على التوبة وشفقة عليهم لما راى من
عجزهم وتمسكنهم لا معاتبة وتثريبا وقيل اعطوه كتاب يعقوب عليه السلام في
تخليص بنيامين وذكروا ما هو فيه من الحزن على فقد يوسف واخيه فقال لهم ذلك وقوله
اذ انتم جاهلون اي فاعلون فعلهم اولانهم كانوا حينئذ صبيانا طياشين تلوحا
الى معرفته فقد روي انه لما قال هذا تبسم وكان في تبسمه امر من الحسن لا يجهله
معه من راه ولو مرة واحدة فعرفوه بذلك فلذلك قالوا ائنك لانت يوسف استفهام
تقرير ولذلك حقق بان واللام عليه وقيل عرفوه بنظره وخلقه حين كلمهم
وقيل رفع التاج عن راسه فروا علامة بقرنه تشبه الشامة البيضا وكانت
لسارة واسحاق ويعقوب مثلها وقرا ابن كثير بهمزة مكسورة بعدها نون على الخبر
وقرا قالون وابو عمرو بهمزة مفتوحة بعدها همزة مكسورة مسهلة بينهما الف
على الاستفهام ايضا وقرا الباقون بتحقيق الهمزتين مع القصر ولهشام وجه
ثان وهو المد وقيل انهم لم يعرفوه حتى قال لهم انا يوسف وزادهم بقوله
وهذا اخي بنيامين شقيقي وانما ذكره لهم ليزيدهم ذلك معرفة له وتثبيتا في امره
وليبني عليهم قوله قد من الله علينا قال ابن عباس بكل خير في الدنيا والاخرة
وقال اخرون بالجمع بيننا بعد التفرقة انه من يتق اي عن المعاصي ويصبر
اي على البليات واذى الناس وقال ابن عباس يتق الزنا ويصبر على العزوبة
وقال مجاهد يتق المعصية ويصبر على السجن فان الله لا يضيع اجر المحسنين والمعنى
انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع اجرهم فوضع المحسنين موضع المضمير
لاشتماله على المتقين وقرا قنبل باثبات اليا بعد القاف وقفا ووصلا وخلف
المعربون في ذلك على وجهين اجودهما ان اثبات حرف العلة في الجزم لغة لبعض العرب
وانشدوا عليه قول قيس بن زهير • الم ياتيك والانبا تنمي • بما لاقت لبون بني زياد •
وقول الاخر • اذا العجوز غضبت فطلق • ولا ترضاها ولا تملق • وقول الاخر
• هجوت زبان ثم جيت معتذرا • من هجو زبان لم تهجو ولم تدع • والثاني
انه مرفوع غير مجزوم ومن موصولة والفعل صلتها فلذلك ثم يحذف لامه
وسكن تصبر لتوالي الحركات وان كان كلمتين وقرا الباقون بالحذف وقفا ووصلا
ولما ذكر يوسف عليه السلام لاخوته ان الله تعالى من عليه وانه من يتق ويصبر
فان الله تعالى لا يضيعهم صدقوه فيه واعترفوا له بالفضل والرتبة ولذلك قالوا
مقسمين بقولهم تالله اي الملك الاعظم لقد اثرك اي اختارك الله علينا
بالعلم والعقل والحلم والحسن والملك والتقوى وغير ذلك واحتج بعضهم بهذه
الاية على ان اخوته ما كانوا انبيا لان جميع المناصب التي تكون مغايرة لمنصب
الانبيا كالعدم بالنسبة اليه فلو شاركوه في منصب النبوة لما قالوا ذلك ثم
قالوا وان كنا لخاطئين اي والحال ان شاننا انا كنا مذنبين بما فعلنا معك ولذلك

اذن

اذنا الله تعالى لك فكانه قيل ما قال لهم على قدرته وتمكنه مع ما سلف من اهانتهم له
فقيل قال لهم قول الكرام اقتدا باخوانه من الانبيا والرسل عليهم السلام
لا تثريب اي لا لوم ولا تعنيف ولا اهلاك عليكم اليوم وانما خصه بالذكر لانه
مظنة التثريب فاذا انتفى ذلك فيه فما ظنك بما بعده ولما اعفاهم من التثريب كانوا في
مظنة السؤال عن كمال العفو المزيل للعقاب من الله تعالى فاتبعه الجواب عن ذلك
بالدعا لهم بقوله يغفر الله اي الذي لا اله غيره لكم اي ما فرط منكم وعبر في الدعا
بالمضارع ارشادا لهم على اخلاص التوبة ورغبهم في ذلك ورجاهم بالصفة التي
هي سبب الغفران فقال وهو تعالى ارحم الراحمين لجميع العباد لا سيما
التائب فهو جدير بادرار النعم روي انهم ارسلوا اليه انك تدعونا الى طعامك
وكرامتك بكرة وعشيا ونحن نستحيي مما فرط منا فقال ان اهل مصر ينظرونني
وان ملكت فيهم بعين العبودية فيقولون سبحان من بلغ عبدا بعشرين درهما ما بلغ
ولقد شرفت الان بكم وعظمت في العيون حيث علم الناس انكم اخوتي واني من ذرية
ابراهيم عليه السلام ولما قر اعينهم بعد اجتماع شملهم بازالة ما يخشونه دنيا
واخرى سال عن ابيه فقال ما فعل ابي بعدي قالوا ابيضت عيناه من الحزن فاعطاهم
قميصه وقال اذهبوا بقميصي هذا وهو قميص ابراهيم عليه السلام الذي لبسه
حين القي في النار عريانا فاتى له جبريل بقميص من حرير الجنة فالبسه اياه
وكان ذلك عند ابراهيم فلما مات ابراهيم ورثه اسحق فلما مات اسحق ورثه
يعقوب فلما نشا يوسف جعل يعقوب ذلك في قصبة من فضة وسد راسها
وعلقها في عنقه لما كان يخاف عليه من العين وكان لا يفارقه فلما القي في البير
عريانا جاءه جبريل وعلى يوسف ذلك التعويذ فاخرج القميص منه والبسه اياه
ففي الوقت جاء جبريل عليه السلام وقال ارسل ذلك القميص فان فيه ريح الجنة
لا يقع على مبتلى ولا سقيم الا عوفي فدفع يوسف ذلك القميص الى اخوته
وقال اذا وصلتم الى ابي فالقوه على وجه ابي يات اي يصير بصيرا اي
يرد اليه بصره كما كان او يات الي حال كونه بصيرا واتوني اي ابي وانتم باهلكم
اي مصاحبين لكم اجمعين لا يتخلف منكم احد فرجعوا بالقميص لهذا القصد
وروي ان يهوذا هو الذي حمل القميص لما لطخوه بالدم فقال لا يحمل هذا غيري
لا فرحه كما احزنته فحمله وهو حاف من مصر الى كنعان وبينهما ثمانون فرسخا
ولما فصلت العير من عريش مصر وهو اخر بلاد مصر الى اول بلاد الشام قال
ابوهم لولد ولده ومن حوله من اهله موكدا لعلمه انهم ينكرون قوله اني لاجد
ريح يوسف اوصله اليه ريح الصبا باذن الله تعالى من مسيرة ثلاثة ايام او ثمانية
او اكثر قال مجاهد هبت ريح فصفقت القميص ففاحت روايح الجنة في الدنيا
واتصلت بيعقوب فوجد ريح الجنة الا ما كان من ذلك القميص فلذا قال اهل المعاني
ان الله تعالى اوصل اليه ريح يوسف عليه السلام عند انقضا مدة المحنة ومجي

وقت الفرج من المكان البعيد ومنع من وصول خبره اليه مع قرب احدى البلدتين من الاخرى
في مدة ثمانين سنة وذلك يدل على ان كل سهل فهو في زمان المحنة صعب وكل صعب
فهو في زمان الاقبال سهل ومعنى اجد ريح يوسف اشم وعبر بالوجود لانه وجدان
له بحاسة الشم لولا ان تفندون اي تنسبون الى الخرف قال ابو بكر الانباري
افند الرجل اذا خرف وتغير عقله وعن الاصمعي اذا كثر كلام الرجل من خرف فهو مفند
قال في الكشاف يقال شيخ مفند ولا يقال عجوز مفندة لانها لم تكن في شبيبتها ذات
راي حتى تفند في كبرها وقيل التفنيد الافساد يقال فندت فلانا اذا افسدت
رايه ورددته قال ٭ يا صاحبي دعا لومي وتفنيدي ٭ فليس ما فات من امر بمردود
ولما ذكر يعقوب عليه السلام ذلك قالوا اي الحاضرون عنده تالله انك لفي ضلالك
اي حبك القديم ليوسف لا تنساه ولا تذهل عنه على بعد العهد وهو كقول
اخوة يوسف ان ابانا لفي ضلال مبين وقال مقاتل معنى الضلال هنا الشقا
اي شقا الدنيا والمعنى انك لفي شقائك القديم بما تكابد من الاحزان على يوسف
وقال الحسن انما خاطبوه بذلك لاعتقادهم ان يوسف قد مات فكان يعقوب
في ولوعه بذكره ذاهبا عن الرشد والصواب ثم انهم عجلوا له بشيرا فاسرع
قبل وصولهم بالقميص فلما وزيدت ان لتاكيد محبته على تلك الحالة
وزيادتها بعد لما قياس مطرد البشير وهو يهوذا بذلك القميص القاه
اي طرحه البشير على وجهه اي يعقوب وقيل القاه يعقوب على وجه نفسه
فارتد اي رجع بصيرا اي صيره الله بصيرا كما كان كما يقال طالت النخلة والله تعالى
هو الذي اطالها ولما القى القميص على وجهه وبشر بحياة يوسف عليه السلام
عظم فرحه وانشرح صدره وزالت احزانه فعند ذلك قال لبنيه الم اقل لكم
اني اعلم من الله ما لا تعلمون من حياة يوسف وان الله تعالى يجمع بيننا قال السدي لما
جا البشير الى يعقوب اعطاه في بشارته كلمات كان يرويها عن ابيه عن جده
عليهم السلام وهي يا لطيفا فوق كل لطيف الطف بي في اموري كلها كما احب ورضني
في دنياي واخرتي وروي ان يعقوب عليه السلام قال للبشير كيف تركت يوسف
قال تركته ملك مصر قال ما اصنع بالملك على اي دين تركته قال على دين الاسلام
قال الان تمت النعمة فعند ذلك قالوا يا ابانا منادين بالاداة التي تدل على الاهتمام
العظيم بما بعدها لما له من عظيم الوقع استغفر اي اطلب من الله ان يغفر
لنا ذنوبنا اي التي اقترفناها ثم قالوا مؤكدين تحقيقا للاخلاص في التوبة انا
كنا خاطئين اي متعمدين للاثم بما ارتكبنا في امر يوسف عليه السلام ومن حق
المعترف بذنبه ان يصفح عنه ويسال له المغفرة قال صلى الله عليه وسلم ان العبد
اذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه فكانه قيل وما قال لهم فقيل قال
سوف استغفر اي اطلب ان يغفر لكم ربي الذي احسن الي بان يغفر لبني حتى
لا يفرق بيني وبينهم في دار البقا والربوبية ملك هو اتم الملك على الاطلاق

وهو

وهو ملك الله تعالى وظاهر هذا الكلام انه لم يستغفر لهم في الحال بل وعدهم بان يستغفر
بعد ذلك واختلفوا في سبب هذا المعنى على وجوه فقال ابن عباس والاكثرون اراد
ان يستغفر لهم في وقت السحر لان هذا الوقت اوفق الاوقات لرجا الاجابة وفي رواية
اخرى له انه اخر الاستغفار الى ليلة الجمعة لانها اوفق لاوقات الاجابة وقال
وهب كان يستغفر لهم كل ليلة جمعة في نيف وعشرين سنة وقال طاوس اخر الى
السحر من ليلة الجمعة فوافق ليلة عاشورا وقيل استغفر لهم في الحال وقوله سوف
استغفر لكم معناه اني اداوم على هذا الاستغفار في الزمان المستقبل وقيل
قام الى الصلاة في وقت السحر فلما فرغ رفع يديه وقال اللهم اغفر لي جزعي على يوسف
وقلة صبري عنه واغفر لاولادي ما فعلوا في حق يوسف فاوحى الله اليه اني قد
غفرت لك ولهم اجمعين وعن الشعبي قال اسال يوسف ان عفا عنكم استغفر لكم
ربي انه هو الغفور الرحيم كل ذلك تسكينا لقلوبهم وتصحيحا لرجائهم وروي ان
يوسف عليه السلام كان بعث مع البشير الى يعقوب عليه السلام مائتي راحلة
وجهازا كثيرا ليأتوا بيعقوب واهله وولده فتهيأ يعقوب عليه السلام للخروج
الى مصر فخرج بهم فلما دنا من مصر كلم يوسف الملك الذي فوقه فخرج يوسف
عليه السلام والملك في اربعة الاف من الجند والعظما وركب اهل مصر معهما باجمعهم
يتلقون يعقوب وكان يعقوب يمشي وهو يتوكأ على يهوذا فنظر الى الخيل والناس
فقال يا يهوذا هذا فرعون مصر قال لا هذا ابنك يوسف فلما دنا كل واحد منهما
من صاحبه ذهب يوسف يبدؤه بالسلام فقال له جبريل لا حتى يبدأ يعقوب بالسلام
فقال يعقوب السلام عليك يا مذهب الاحزان وقال الثوري لما التقى يعقوب
ويوسف عليهما السلام عانق كل واحد منهما صاحبه وبكى فقال يوسف يا ابت بكيت
علي حتى ابيضت عيناك الم تعلم ان القيامة تجمعنا قال بلى يا بني ولكن خشيت
ان يسلب دينك فيحال بيني وبينك فذلك قوله تعالى فلما دخلوا على يوسف اوى
اي ضم اليه ابويه قال الحسن اباه وامه وكانت حية اكراما لهما بما يتميزان به
وغلب الاب في التثنية لذكوريته وعن ابن عباس انها خالته ليا وكانت امه قد
ماتت في نفاس بنيامين قال البغوي وفي بعض التفاسير ان الله تعالى احيا امه
حتى جاءت مع يعقوب الى مصر فان قيل ما معنى دخولهم عليه قبل مصر اجيب
بانه حين استقبلهم نزل بهم في خيمة او بيت هناك وقال مكرما ادخلوا مصر
اي البلد المعروف واتى بالشرط للامن لا للدخول فقال ان شا الله امنين من جميع
ما ينوبه حتى مما فرطتم في حقي وحق اخي وروي ان يعقوب عليه السلام وولده دخلوا
مصر وهم اثنان وسبعون ما بين رجل وامراة وخرجوا منها مع موسى عليه السلام
والمقاتلون ستمائة الف وخمسمائة وبضعة وسبعون رجلا سوى الصبيان
والشيوخ لما استقرت بهم الدار بدخول مصر ورفع ابويه اي اجلسهما معه
على العرش اي السرير الرفيع والرفع هو النقل الى العلو وخروا له اي انحنوا

ابواه واخوته سجدا اي سجود انحنا والتواضع قد يسمي سجودا كقوله نزي الي كم نبها سجدا
للحوافر ولا وضع جبهة وكان تحيتهم في ذلك الزمان اوانهم وضعوا الجباه وكان ذلك
على ذلك طريق التحية والتعظيم لا على طريق العبادة وكان ذلك جايزا في الامم السالفة
فنسخت في هذه الشريعة وروي عن ابن عباس انه قال معناه خروا لله سجدا بين
يدي يوسف عليه السلام فيكون سجود شكر لله لاجل وجدان يوسف ويدل عليه
قوله تعا ورفع ابويه على العرش وخروا له سجدا وذلك يشعر بانهم صعدوا على السرير
ثم سجدوا لله تعا ولو انهم سجدوا ليوسف لسجدوا له قبل الصعود على السرير
لان ذلك ادخل في التواضع فان قيل هذا التاويل لا يطابق قول يوسف عليه السلام
وقال يا ابت هذا تاويل رؤياي من قبل والمراد منه قوله اني رايت احد عشر كوكبا والشمس
والقمر رايتهم لي ساجدين اي رايتهما ساجدين لاجلي اي انهما سجدا لطلب مصلحتي
والسعي في اعلا منصبي واذا كان هذا محتملا سقط السوال قال الرازي وعندي
ان هذا التاويل متعين لانه يبعد من عقل يوسف ودينه ان يرضي بان يسجد له
ابوه مع سابقته بحقوق الولادة والشيخوخة والعلم والدين وكمال النبوة اوانهم
جعلوا يوسف كالقبلة وسجدوا شكر النعمة وجوده [وجدانه] فانه يقال صليت للكعبة
كما يقال صليت الى الكعبة قال حسان

ماكنت اعرف ان الامر منصرف ٭ عن هاشم ثم منها عن ابي حسن
اليس اول من صلى لقبلتكم ٭ واعرف الناس بالاثار والسنن

ثم استانف يوسف عليه السلام فقال قد جعلها ربي اي الذي ربانى بما اوصلني
اليها حقا اي مطابقة للواقع لتاويلها وتاويل ما اخبرتني به انت والتاويل
تفسير بما يؤول اليه معنى الكلام وعن سلمان رضي الله تعالى عنه ما بين رؤياها
وتاويلها اربعون سنة وعن الحسن انه التقي في الجب وهو ابن سبع عشرة سنة وبقي في
العبودية والسجن والملك ثمانين سنة ثم وصل الى ابيه واقاربه وعاش بعد ذلك
ثلاثة وعشرين سنة وقد احسن اي اوقع احسانه بي تصديقا بما بشرتني به
من اتمام النعمة وتعديته احسن بالبا ادل على القرب من التعدية بالى كما قال تعالى
واحسن كما احسن الله اليك وقيل ضمن معنى لطف فعدي بالبا كقوله تعالى
وبالوالدين احسانا وقال اذ اخرجني من السجن ولم يذكر اخراجه من الجب لوجوه
اولها انه قال لاخوته لا تثريب عليكم اليوم ولو ذكر واقعة الجب لكان ذلك تثريبا لهم
فكان اهماله جاريا مجرى الكرم ثانيها انه لما اخرج من الجب لم يصر ملكا بل صيره عبدا
وانما صار ملكا بعد اخراجه من السجن فكان هذا الاخراج اقرب من ان يكون انعاما
كاملا ثالثها انه لما خرج من الجب وقع في المضار الحاصلة بسبب تهمة المراة ولما خرج
من السجن وصل الى ابيه واخوته فكان هذا اقرب الى المنفعة مع ان اللفظ محتمل
للجب ايضا لكنه احتمالا خفيا ولما كان يعقوب وولده بارض كنعان وتحول الى بدو
قال ابن عباس ومنها قدم على يوسف عليه السلام قال يوسف وجا بكم من البدو

اي من اطواف بادية فلسطين وذلك من اكبر النعم كما جاء في الحديث من يرد الله به خيرا ينقله
من البادية الى الحاضرة والبد وضد الحاضرة وهو من الظهور بدا يبدو واذا سكن في البادية
يروي عن عمر اذا بدو وتاجفوا اي تخلقنا باخلاق البدويين قال الواحدي البدو بسط
من الارض يظهر فيه الشخص من بعيد واصله من بدا يبدو وابدوا ثم سمي المكان باسم
المصدر وفي الاية دلالة على ان فعل العبد خلق الله تعالى لانه اضاف اخراجه من
السجن الى الله تعا ومجيئهم من البدو اليه من بعد ان نزغ اي فسد الشيطان
بسبب الحسد بيني وبين اخوتي واصل النزغ دخول في امر لافساده فان قيل
اضافة يوسف عليه السلام الخير الى الله تعالى والشر الى الشيطان يقتضي ان
فعل الشر ليس من الله تعا كما قاله بعض المبتدعة ولو كان منه لاضافه اليه
اجيب بان اضافة هذا الفعل الى الشيطان مجازا لان الفاعل المطلق هو الله
تعالى في الحقيقة قال تعالى لو كان فيهما الهة الا الله لفسدتا فثبت بذلك
ان الكل من عند الله وبقضايه وقدره وليس للشيطان فيه مدخل الا بالقا
الوسوسة والتحريض لافساد ذات البين وذلك باقدار الله تعالى اياه على ذلك
كما حكى الله تعالى ذلك عنه بقوله تعا وما كان لي عليكم من سلطان الا ان دعوتكم
فاستجبتم لي ولما كان حصول الاجتماع وبين اخوته وابويه مع الالفة والمحبة
وطيب العيش وفراغ البال كان في غاية البعد عن العقول الا انه تعا لطيف
قال يوسف عليه السلام ان ربي لطيف لما يشا اي لطيف التدبير له اذ ما من
صعب الا وتنفذ فيه مشيئته ويتسهل دونها فاذا اراد حصول الشي سهل
اسبابه فحصل وان كان في غاية البعد عن الحصول انه هو العليم بوجوه
المصالح والتدابير الحكيم اي الذي يفعل كل شي في وقته وعلى وجه يقتضي الحكمة
روي ان يوسف عليه السلام طاف بابيه في خزاينه فلما ادخله في خزانة القرطاس
قال يا بني ما اغفلك عندك هذه القراطيس وما كتبت الي على ثمان مراحل
قال امرني جبريل بذلك قال او ما تساله قال انت اقرب اليه مني فساله
فقال جبريل الله امرني بذلك لقولك واخاف ان ياكله الذيب قال فهلا خفتني
ولما حضر يعقوب الموت وصي يوسف عليه السلام ان يحمله ويدفنه عند ابيه
فمضى بنفسه ودفنه ثمة ثم عاد الى مصر واقام بعده ثلاثا وعشرين سنة
ولما تم امره وعلم انه لا يدوم تاقت نفسه الى الملك الدايم فقال رب قد اتيتني
وافتتح بقد لان الحال حال توقع السامع لشرح حال الرؤيا من الملك اي بعضه
بعد تعديه منه جدا وهو ملك مصر وعلمتني من اي بعض تاويل الاحاديث
طبق ما بشرني به ابي واخبرت به انت من التمكين والتعليم قبلك قولك والله
غالب على امره ثم ناداه بوصف جامع للعلم والحكمة فقال فاطر اي خالق السموات
والارض ثم اعلمه بما هو اعلم به منه من انه لا يعول على غيره في شي من الاشيا
انت وليي اي الاقرب الي باطنا وظاهرا في الدنيا والاخرة اي لا ولي لي غيرك

والولي يفعل لوليه الاصلح والاحسن فاحسن لي في الاخرة اعظم ما احسنت لي في الدنيا روي انه صلى الله عليه وسلم حكى عن جبريل عن رب العزة جل وعلا انه قال من شغله ذكري عن مسئلتي اعطيته افضل ما اعطي السائلين فلهذا المعنى من اراد الدعا لا بد وان يقدم عليه ذكر الثنا على الله تعالى فههنا يوسف عليه السلام لما اراد ان يذكر الدعا قدم عليه الثنا وهو قوله رب قد اتيتني من الملك وعلمتني من تاويل الاحاديث فاطر السموات والارض ثم ذكر عقبه الدعا وهو قوله توفني اي اقبض روحي وافيا تاما في جميع امري حتا ومعنى حال كوني مسلما ولما كان المسلم حقيقة من كان غريقا في الاخلاص عقبه بقوله والحقني بالصالحين ونظيره ما فعله الخليل عليه السلام في قوله الذي خلقني فهو يهدين فمن ههنا الى قوله رب هب لي حكما ثنا على الله تعالى الى اخر الكلام دعا فكذا ههنا تنبيه اختلف في قوله توفني مسلما هل هو طلب منه الوفاة ام لا فقال قتادة سال ربه اللحوق به ولم يتمن نبي قط الموت قبله وكثير من المفسرين على هذا القول وقال ابن عباس في رواية عطا يريد اذا توفيتني فتوفني على الاسلام فهذا طلب لان يجعل الله تعالى وفاته على الاسلام وليس فيه ما يدل على انه طلب للوفاة واللفظ صالح للامرين ولا يبعد في الرجل العاقل اذا كمل عقله ان يتمنى الموت وتعظيم رغبته فيه لوجوه كثيرة منها ان الخطبا والبلغا وان اطنبوا في مذمة الدنيا الا ان حاصل كلامهم يرجع الى ثلاثة امور احدها ان هذه السعادات سريعة الزوال مشرفة على الفنا والالم الحاصل عند زوالها اشد من اللذة الحاصلة عند وجدانها وثانيها انه غير خالصة بل هي ممزوجة بالمنغصات والمكدرات وثالثها ان الاراذل من الخلق يشاركون الافاضل فيها بل ربما كانت حصة الاراذل اعظم بكثير من حصة الافاضل فهذه الجهات الثلاثة منفردة عن هذه اللذات ولما عرف العاقل انه لا يحصل تحصيل هذه اللذات الا مع هذه الجهات الثلاث المنفردة لا جرم تمنى الموت ليتخلص عن هذه الافات ومنها ان مداخل اللذات الدنيوية قليلة وهو ثلاثة انواع لذة الاكل ولذة النكاح ولذة الرياسة ولكل واحدة منها عيوب كثيرة اما لذة الاكل ففيها عيوب احدها ان هذه اللذة ليست لذة قوية فانه لا يمكن ابقاوها فان الانسان اذا اكل وشبع لم يبق فيه الالتذاذ بالاكل فهذه اللذة ضعيفة ومع ضعفها غير باقية وثانيها انها في نفسها خسيسة وان الاكل عبارة عن ترطيب ذلك الطعام بالبزاق المجتمع في الفم ولا شك انه شي منفر ولما يصل الى المعدة يظهر فيه الاستحالة الى الفساد النتن والعفونة وذلك ايضا منفر وثالثها ان جميع الحيوانات الخسيسة مشاركة له فيها ورابعها ان الاكل انما يطيب عند اشتداد الجوع والجوع نقص وافة وخامسها ان الاكل مستحقر عند العقلا حتى قيل من كانت همته ما يدخل في بطنه فقيمته ما يخرج من بطنه فهذه اشارات مختصرة الى معايب الاكل واما لذة النكاح فما ذكر في الاكل حاصل ههنا مع اشيا اخر وهي ان النكاح سبب لحصول الولد وحينئذ تكثر الاشخاص فتكثر الحاجات الى المال فيحتاج الانسان بسببها الى

الاحتيال في المال بطرق لا نهاية لها وربما صار هالكا بسبب طلب المال واما لذة الرياسة فعيوبها كثيرة منها انه يكون على شرف الزوال في كل حين واوان ومنها انه عند حصولها في الخوف الشديد من الزوال ومنها انه يكون عند زوالها في الاسف العظيم والحزن الشديد بسبب ذلك الزوال والعاقل اذا تامل في هذه المعاني علم قطعا انه لا صلاح له في طلب هذه اللذات فيكون لقاء الله عنده ارجح فيتمنى الموت وعن عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه ان ميمون بن مهران بات عنده فراه كثير البكا والمسئلة للموت فقال صنع الله لك خيرا كثيرا احييت سننا كثيرة وامت بدعا وفي حياتك خير وراحة للمسلمين فقال افلا اكون كالعبد الصالح لما اقر الله عينه وجمع له امره قال توفني مسلما والحقني بالصالحين فان قيل الانبيا عليهم الصلاة والسلام يعلمون انهم يموتون لا محالة يموتون على الاسلام فكان هذا الدعا حاصله طلب تحصيل الحاصل وانه لا يجوز اجيب بان حال كمال الاسلام ان يستسلم لحكم الله تعالى على وجه يستقر قلبه على ذلك الاستسلام ويرضى بقضاء الله وتطمئن النفس وينشرح الصدر وينفسح القلب في هذا الباب وهذه حالة زائدة على الاسلام الذي هو ضد الكفر والمطلوب ههنا هو الاسلام بهذا المعنى فان قيل ان يوسف عليه السلام كان من اكابر الانبيا والصلاح ح
اول درجة المومنين فالواصل الى الغاية كيف يليق به ان يطلب البداية اجيب بان ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال يعني ان يلحقه باباية ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والمعنى الحقني بهم في ثوابهم ودرجاتهم وولد ليوسف عليه السلام من امراة العزيز ثلاثة افرايثم وميشا وهو جد يوشع بن نون ورحمة امراة ايوب عليهم السلام ولما تاقت نفسه الى الملك المخلد وتمنى الموت فلم يات عليه اسبوع حتى توفاه الله عز وجل طيبا طاهرا وتشاح الناس في دفنه فطلب اهل كل محلة ان يدفن في محلهم رجا بركته حتى هموا بالقتال فراوا ان يجعلوه في صندوق من مرمر ويدفنوه في النيل حيث يفرق الما بمصر ليجري عليه وتصل الى بركته الى جميعهم قال عكرمة دفن في الجانب الايمن من النيل فاخصب ذلك الجانب واجدب الجانب الاخر فنقل الى الجانب الايسر فاخصب ذلك الجانب واجدب الجانب الاخر فدفنوه في وسطه وقدروا ذلك بسلسلة فاخصب الجانبان الى ان اخرجه موسى عليه السلام ودفنه بقرب ابائه بالشام وقد يسر الله تعالى زيارته وزيارة ابائه في عام شرعت في هذا التفسير سنة اربعة وستين وتسعماية جمعني الله تعالى وابائي واهلي واصحابي واحبابي معهم في دار كرامته ولما تم الذي كان من امر يوسف عليه السلام واخوته على الوجه الاحكم والصراط الاقوم من ابتدايه الى انتهايه قال تعالى مشيرا الى انه دليل كاف في تصحيح نبوته صلى الله عليه وسلم بقوله ذلك اي الذي ذكرت لك يا محمد من قصة يوسف عليه السلام وما جرى له مع اخوته ثم صار الى الملك بعد الرق من انباء الغيب اي اخبار ما غاب عنك نوحيه اليك اي الذي اخبرناك به من اخبار يوسف وحي اوحيناه اليك والحال انك وما كنت لديهم اي عند

اخوة يوسف عليه السلام اذ اي حين اجمعوا امرهم اي عزموا على امر واحد وهو القا
يوسف في الجب وهم يمكرون اي يدبرون الاذى في الخفية بيوسف والمعنى ان هذا النبا
غيب لانه صلى الله عليه وسلم ما طالع الكتب ولا تلمذ لاحد ولا كانت البلدة بلدة العلما
واتيانه صلى الله عليه وسلم بهذه القصة الطويلة على وجه لا يقع فيه تحريف و لا
غلط من غير مطالعة ولا تعلم ومن غير ان يقال انه حاضر معهم لا بد وان يكون معجزا وقوله
تعالى وما كنت لديهم ذكر على سبيل التهكم به لان كل احد يعلم ان محمدا ما كان معهم
ولما سالت قريش واليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم كما نقله ابو حيان عن ابن
الانباري عن قصة يوسف عليه السلام فنزلت مشروحة هذا الشرح الشافي
مبينة هذا البيان الوافي فامل النبي صلى الله عليه وسلم ان يكون ذلك سبب
اسلامهم فخالفوا تامله عزاه الله تعالى بقوله وما اكثر الناس اي اهل مكة ولو
حرصت على ايمانهم بمؤمنين لعنادهم وتصميمهم على الكفر وكان ذلك اشارة
الى ما ذكر الله تعالى في قوله تعالى انك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء
ثم نفى عنه التهمة بقوله تعالى وما تسالهم عليه اي هذا الكتاب الذي اوحيناه اليك
واغرق في النفي فقال من اجر حتى يكون سوالك سببا لان يتهموك او يقولوا لولا
انزل عليه كنز ليستغني به عن سوالنا ثم نفى عن هذا الكتاب كل غرض دنيوي
بقوله تعالى ان هو الا ذكر اي عظة من الله تعالى للعالمين عامة ثم ان الله تعالى
اخبر عنهم انهم لما تاملوا الايات الدالة على توحيده تعالى بقوله تعالى وكاين اي
وكم من اية دالة على وحدانية الله تعالى في السموات كالنيرين وسائر الكواكب والسحاب
وغير ذلك مما لا يحصيه الا الله تعالى من اية من الجبال والشجر والدواب وغير ذلك
مما لا يحصيه الا الله تعالى في السموات اي يشاهدونها وهم عنها معرضون اي
لا يتفكرون فيها فلا عجب اذا لم يتاملوا في الدلائل على نبوتك فان العالم مملوء من دلايل
التوحيد والقدرة والحكمة ثم انهم يمرون عليها ولا يلتفتون اليها ولما كان ربما
قيل كيف يوصفون بالاعراض وهم يعتقدون ان الله تعالى فاعل تلك الايات
بين ان اشراكهم سقط لذلك بقوله تعالى وما يؤمن اكثرهم بالله حيث يقرون بانه
الخالق الرازق الا وهم مشركون بعبادتهم الاصنام قال تعالى ولئن سالتهم
من خلقهم ليقولن الله لكنهم كانوا يثبتون شريكا في العبودية وعن ابن عباس ان
هذه الاية نزلت في تلبية مشركي العرب كانوا يقولون في تلبيتهم لبيك لا شريك لك
الا شريكا هو لك تملكه وما ملك يعنون الاصنام وعنه ايضا ان اهل مكة قالوا الله
ربنا وحده لا شريك له والملئكة بناته فلم يوحدوا بل اشركوا وقال عبدة الاصنام
ربنا وحده والاصنام شفعاونا عنده وقالت اليهود ربنا وحده وعزير ابن الله
وقالت النصارى المسيح ابن الله وقال عبدة الشمس والقمر ربنا الله وحده
وهولاء اربابنا وقال المهاجرون والانصار ربنا الله وحده لا شريك له ولما كان
اكثر هولا لا ينقادون الا بالعذاب قال تعالى افامنوا الكار فيه معنى التوبيخ

وكم من اية دالة على وحدانية الله تعالى في السموات كالنيرين وسائر الكواكب والسحاب وغير ذلك مما لا يحصيه الا الله تعالى والارض من الجبال والشجر والدواب وغير ذلك مما لا يحصيه الا الله تعالى

والتهديد ان تاتيهم في الدنيا غاشية اي نقمة تغشاهم وتشملهم من عذاب الله
اي الذي له الامر كله كما اتى من ذكرنا قصصهم من الامم او تاتيهم الساعة بغتة اي فجاة
وهم عنها في غاية الغفلة وقوله تعالى وهم لا يشعرون اي بوقت اتيانها قبله كالتاكيد
لقوله بغتة ولما كان صلى الله عليه وسلم مطلعا عن الله تعالى امرهم ان يامرهم باتباعه
بقوله تعالى قل يا اعلا الخلق واصفاهم واعظمهم نصحا واخلاصا هذه اي الدعوة
الى الله تعالى التي ادعو اليها سبيلي اي طريقتي التي ادعو اليها الناس وهي توحيد
الله ودين الاسلام وسمي الدين سبيلا لانه الطريق المودي الى ثواب الجنة ادعو
الى الله اي الى توحيده والايمان به على بصيرة اي حجة واضحة وقوله انا تاكيد
للمستتر في ادعو على بصيرة لانه حال منه او مبتدا خبره على بصيرة وقوله ومن اتبعني
اي ممن امن بي وصدق بما جاء به عطف عليه لان كل من ذكر الحجة واجاب عن الشبهة فقد
دعا بمقدور وسعه الى الله وهذا يدل على ان الدعاة الى الله انما يحسن ويجوز مع هذا
الشرط وهو ان يكون على بصيرة مما يقول ويقين فان لم يكن كذلك والا فهو محض الغرور
وقال صلى الله عليه وسلم العلما امنا الرسل على عباد الله من حيث يحفظون ما يدعون
اليه فاثبت جميع القراء يثبتون اليا وقفا ووصلا لثباتها في الرسم وسبحان الله
اي وقل سبحان الله تنزيها له تعالى عما يشركوا به وما انا من المشركين اي الذين
اتخذوا مع الله ضدا وندا ولما قال اهل مكة للنبي صلى الله عليه وسلم هلا بعث الله
ملكا قال تعالى وما ارسلنا من قبلك الى المكلفين الا رجالا اي مثل ما انك رجل لا
ملائكة ولا اناثا كما قاله ابن عباس ولا من الجن كما قاله الحسن نوحي اليهم
بواسطة الملئكة مثل ما يوحي اليك وقرا حفص قبل الواو بالنون وكسر الحا
والباقون باليا وفتح الحا وضم الها من اليهم حمزة على اصله وكسرها الباقون
من اهل القرى اي من اهل الامصار والمدن المبنية بالمدر والحجر ونحوه
لا من اهل البوادي ومكة ام القرى لانها تجمع لجميع الخلايق لما امروا به من حج
البيت وكان العرب كلهم ياتونها فكيف تعجبوا في حقك قال الحسن لم يبعث
الله نبيا من البادية لغلظهم وجفايهم ثم هددهم سبحانه وتعالى بقوله تعالى
افلم يسيروا اي هولاء المشركون المكذبون في الارض فينظروا كيف كان عاقبة
الذين من قبلهم من المكذبين الرسل والايات فيحذروا تكذيبك ويعتبروا بهم
وعاجلهم من عذابنا ولما ان الله تعالى نجى المومنين عند نزول العذاب بالامم
الماضية المكذبة وما في الاخرة خير لهم بين ذلك بقوله تعالى ولدار الاخرة اي
ولدار الحال الاخرة او الساعة الاخرة او الحياة الاخرة خير وهي الجنة
للذين اتقوا الله بين حياة اهونه ما لها الموت وان فرض فيها من المحال انها امتد
الف عام وكان عيشها كله رغدا من غير الام افلا تعقلون فيستعملون عقولهم
فيتبعوا الداعي الى هذا السبيل الاقوم وقرا نافع وابن عامر وعاصم بالتا على الخطاب
لاهل مكة والباقون باليا على الغيبة لهولا المشركين المكذبين وقوله تعالى

حتى اذا استيأس الرسل غاية محذوف دل عليه اي لا يغررهم تمادي ايامهم فان من قبلهم امهلوا
حتى ايس الرسل من النصر عليهم في الدنيا وعن ايمانهم لانهماكهم في الكفر مترفين متمادين فيه
من غير وازع وظنوا اي ايقن الرسل انهم قد كذبوا بالتشديد كما قراه غير حمزة
وعاصم والكسائي تكذيبا لا ايمان بعده واما بالتخفيف كما قراه هولاء فالمعنى ان
الامم ظنوا ان الرسل قد اخلفوا وعدوا ابه من النصر جاءهم نصرنا لهم بخذلان اعدائهم
فنجي من نشاء اي النبي والمومنين وقرا ابن عامر وعاصم بنون مضمومة بعدها
جيم مشددة وياء بعد الجيم مفتوحة والباقون بنونين الاولى مضمومة والثانية
ساكنة وتخفيف الجيم وسكون الياء ولا يرد بأسنا اي عذابنا عن القوم المجرمين
اي المشركين فانزل بهم ولما ذكر سبحانه وتعالى هذه القصص وحث على الاعتبار
بها بقوله افلم يسيروا انبعه بان في احاديثهم اعظم عبرة فقال حاثا على تاملها
والاستبصار بها لقد كان في قصصهم اي يوسف واخوته او في قصص الرسل
عبرة اي عظة عظيمة لاولي الالباب اي لذوي العقول المبراة من شوائب الكدر
يعبرون بها الى ما يسعدهم لان من قدر على ما قص من امر يوسف عليه السلام
ويعلي كلمته وينصره على من عاداه كائنا من كان كما فعل بيوسف وغيره ولما كان من
اجل العبرة في ذلك القطع بحقية القران نبه على ذلك بتقدير سوال فقال
تعالى ما كان حديثا يفترى اي يختلق لان الذي جاء به من عند الله وهو محمد صلى الله
عليه وسلم لا يصح منه ان يفتريه لانه لم يقرا الكتب ولم يتلمذ لاحد ولم يخالط العلماء
فمن المحال ان يفتري هذه القصة بحيث تكون مطابقة لما ورد في التوراة
من غير تفاوت كما يعلم من قوله تعالى ولكن تصديق الذي بين يديه اي من الكتب
الالهية المنزلة من السما كالتوراة والانجيل ففي ذلك اشارة الى ان هذه القصة
وردت على الوجه الموافق لما في التوراة من ذكر قصة يوسف عليه السلام زاد
على ذلك بكونه وتفصيل اي تبيين كل شيء اي يحتاج اليه من الدين اذ ما من امر
ديني الا وله سند من القران بوسط او بغير وسط وقيل المراد تفصيل كل شيء
من واقعة يوسف مع ابيه واخوته قاله الواحدي وعلى التفسير حقيقة فهو
من العام الذي اريد به الخاص كقوله تعالى ورحمتي وسعت كل شيء اذ تدخل
فيها وقوله واوتيت من كل شيء وهدى من الضلال ورحمة ينال بها خير الدارين
لقوم يومنون اي يصدقون خصهم بالذكر لانهم هم الذين انتفعوا به كقوله تعالى
هدى للمتقين سبحان من انزله معجزا باهرا وقاضيا بالحق لا يزال ظاهرا وما
رواه البيضاوي تبعا للكشاف من انه صلى الله عليه وسلم قال علموا ارقاءكم
سورة فانه ايما مسلم تلاها وعلمها اهله وما ملكت يمينه هون الله عليه سكرات الموت
واعطاه القوة ان لا يحسد احد حديث موضوع

سورة الرعد مكية

الا ولا يزال الذين كفروا الاية ويقول الذين كفروا لست مرسلا الاية او مدنية

الا ولو ان قرانا سيرت به الجبال وهي ثلاث واربع او خمس او ست واربعون اية وعدد كلماتها
ثمانمائة وخمس وخمسون كلمة وحروفها ثلاثة الاف وخمسمائة وسبعة احرف بسم الله
الحق الذي كل ما عداه باطل الرحمن الذي عم بالرغبة والرهبة لعموم الرحمة الرحيم الذي
خص من شاء بما يرضاه عظيم الرهبة المر قال ابن عباس معناه انا الله اعلم وارى
وقال في رواية عطا انا الله الملك الرحمن وقد تقدم الكلام على شيء من اوائل السور في اول
سورة البقرة وقرا قالون وابن كثير وحفص بالفتح وقرا ورش بين بين والباقون بالامالة
تلك اي هذه الايات ايات الكتاب اي القران والاضافة بمعنى من وقيل المراد
بالكتاب السورة الكاملة ووصف بالكمال من تعريف الكتاب بال لان خبر المبتدا اذا عرف
بلام الجنس افاد المبالغة وقوله تعالى والذي انزل اليك من ربك اي القران
مبتدا وخبره الحق اي الموضوع كل شيء منه في موضعه على ما تدعو اليه الحكمة الواضح
الذي لا يتخلف شيء منه عن مطابقة الواقع من بعث ولا غيره ولكن اكثر الناس اي مشركي
مكة لا يومنون لاخلالهم بالنظر والتامل فيه قال مقاتل نزلت في مشركي مكة
حين قالوا ان محمدا يقوله من تلقاء نفسه فرد الله تعالى عليهم بذلك ولما ذكر تعالى
ان اكثر الناس لا يومنون ذكر عقبه ما يدل على صحة التوحيد والمعاد بامور احدها
قوله تعالى الله الذي رفع السموات بغير عمد اي سواري جمع عمود كاديم وادم او عماد
كاهب واهاب والعمود جسم مستطيل يمنع المرتفع ان يميل ترونها اي وانتم
ترون السماء مرفوعة بغير عمد من تحتها يسندها ولا من فوقها علاقة
تمسكها فالعمد منفية بالكلية قال اياس بن معاوية السما مقبية على الارض
مثل القبة ففي ذلك دلالة عظيمة على وحدانية الله تعالى لان هذه الاجسام
العظيمة بقيت واقفة في الجو العالي ويستحيل ان يكون بقاؤها هناك لاعيانها
ولذاتها فهذا برهان باهر على وجود الاله القادر القاهر وقيل الضمير راجع
الى العمد اي ان لها عمدا ولكن لا ترونها انتم ومن قال بهذا القول يقول ان
عمدها على جبل قاف وهو جبل من زمرد محيط بالدنيا والسما عليه مثل
القبة وهذا قول مجاهد وعكرمة قال الرازي وهذا التاويل في غاية السقوط
لان السموات لما كانت مستقرة على جبل قاف فاي دلالة تبقى فيها على وجود
الاله تنبيه الله مبتدا والذي رفع السموات خبره ويجوز ان يكون الموصول صفة
والخبر يدبر الامر ثانيها قوله تعالى ثم استوى على العرش بالحفظ والتدبير
والقهر والقدرة اي انه من فوق العرش الى تحت الثرى في حفظه وتدبيره
وفي الاحتياج اليه وتقدم الكلام على ذلك في سورة الاعراف ما فيه كفاية
وثالثها قوله تعالى وسخر اي ذلل الشمس والقمر لمنافع خلقه مقهوران
يجريان على ما يريد كل اي كل منهما يجري في فلكه لاجل مسمى اي الى وقت
معلوم وهو وقت زوال الدنيا وفنائها وعند مجيء ذلك الوقت تنقطع هذه
الحركات وتبطل تلك التسييرات كما وصف الله تعالى ذلك بقوله اذا الشمس

كورت واذا النجوم انكدرت واذا السما انشقت واذا السما انفطرت وعن ابن عباس
للشمس مائة وثمانون منزلا كل يوم لها منزل وذلك يتم في ستة اشهر ثم انها تعود مرة
اخري الي واحد واحد منها في ستة اشهر مرة اخري وكذلك القمر له ثمانية وعشرون
منزلا فالمراد بقوله تعالى كل يجري لاجل مسمى هذا وتحقيقه انه تعالى قدر لكل
واحد من تلك الكواكب سيرا الي جهة خاصة بمقدار خاص من السرعة والبطو وجب
ان يكون لها بحسب كل لحظة ولمحة حالة اخرى ما كانت حاصلة قبل ذلك ثم انه تعالى
لما ذكر هذه الدلايل قال يدبر الامر اي يقضي امر ملكه من الايجاد والاعدام والاحيا
والاماتة والاغنا والافقار ويدخل فيه انزال الوحي وبعثة الرسل وتكليف العباد
وفي ذلك دليل عجيب على كمال القدرة والرحمة وذلك لان هذا العالم المعلوم من
اعلا العرش الي ما تحت الثرى انواع واجناس لا يحيطها الا الله عز وجل والدليل
المذكور دل على ان اختصاص كل واحد منها بوضعه وموضعه وصفته وطبيعته وحليته
ليس الا من الله تعالى ومن المعلوم ان من اشتغل بتدبير شي اخر فانه يشغله شان
عن شان فالعاقل اذا تامل في هذه الاية علم انه تعالى يدبر عالم الاجساد وعالم الارواح
ويدبر الكبير كما يدبر الصغير فلا يشغله شان عن شان ولا يمنعه تدبير عن تدبير
وذلك يدل على انه تعالى متعال في ذاته وصفاته وعلمه وقدرته عن مشابهة
المحدثات والممكنات ولما كان هذا بيانا شافيا لا لبس فيه قال تعالى يفصل
اي يبين الايات التي برزت الي الوجود وتدبيرها الدالة على وحدانيته
وكمال حكمته المشتملة عليها مبدعاته تتفرقها عليها وبيان تباينها مباينة
لا لبس فيها تقريبا لعقولكم وتدريبا لفهومكم لتعلموا انها فعل الواحد المختار
ولما كان هذا التدبير وهذا التفصيل دالا على تمام القدرة وغاية الحكمة وكان البعث
لفصل القضا والحكم بالعدل واظهار العظمة هو محيط الحكمة علل ذلك بقوله
لعلكم يا اهل مكة بلقاء ربكم بالبعث توقنون فتعلمون ان من قدر على خلق
هذه الاشيا وتدبيرها على عظمتها وكثرتها قادر على ايجاد الانسان واحيايه
بعد موته يروى ان واحدا قال لعلي ابن ابي طالب رضي الله تعالى عنه انه تعالى
كيف يحاسب الخلق دفعة واحدة فقال كما يرزقهم الان دفعة واحدة وكما يسمع
ندايهم ويجيب دعاهم الان دفعة واحدة وحاصل الكلام انه تعالى كما قدر على
ابقا الاجرام الفلكية والنيرات الكوكبية في الجو العالي لا يبعد ان يرد الارواح
الي الاجساد وان كان الخلق عاجزين عنه وكما يمكنه ان يدبر ما فوق العرش الي
ما تحت الثرى لا يشغله شان عن شان فكذلك يحاسب الخلق لا يشغله شان
عن شان تنبيه اليقين صفة من صفات العلم وهي فوق المعرفة والدراية
وهي سكون الفهم مع ثبات الحكم وزوال الشك ولما ذكر تعالى الدلايل الدالة على
وحدانيته وكمال قدرته من رفع السما بغير عمد واحوال الشمس والقمر اردفها
بذكر الدلايل الارضية بقوله تعالى وهو الذي مد الارض اي بسطها طولا وعرضا

لتثبت

لتثبت عليها الاقدام ويتقلب عليها الحيوانات ولو انها جعلها كالجدار والازج لا
يستطاع القرار عليها هذا اذا قلنا ان الارض مسطحة لا كرة وعند اصحاب الهيئة انها كرة
فكيف يقولون بذلك ومد الارض ينافي كونها كرة كما ثبت بالدليل اجيب بان الارض
جسم عظيم والكرة اذا كانت في غاية الكبر كان كل قطعة منها تشاهد كالسطح كما ان الله
تعالى جعل الجبال اوتادا مع ان العالم من الناس يستقرون عليها فكذلك ههنا ومع
هذا فالله تعالى قد اخبر انه مد الارض ودحاها وانه بسطها وكل ذلك يدل على التسطيح
والله تعالى اصدق قيلا وابين دليلا من اصحاب الهيئة هذا هو الدليل الاول من الدلايل
الارضية الثاني منها قوله وجعل اي وخلق فيها اي الارض رواسي اي جبالا
ثوابت واحدها راسية اي ثابتة باقية في حيزها غير منتقلة عن مكانها لا تتحرك
ولا يتحرك ما هي راسية فيها فيه وهذا لابد وان يكون بتخليق القادر الحكيم قال
ابن عباس اول جبل وضع على وجه الارض جبل ابي قبيس ولما غلب على وصفها بالرواسي
صارت الصفة تغني عن الموصوف فجمع جمع الاسم كحايط وكاهل قاله ابو حيان
الثالث منها قوله تعالى وانهارا اي وجعل في الارض انهارا جارية لمنافع الخلق
والنهر المجرى الواسع من مجاري الما واصله الاتساع ومنه النهار لاتساع ضيايه
الرابع منها قوله تعالى ومن كل الثمرات وهو متعلق بقوله تعالى جعل فيها اي
الارض زوجين اثنين اي وجعل فيها من جميع انواع الثمر صنفين اثنين
والاختلاف اما من حيث الطعم كالحلو والحامض او اللون كالاسود والابيض او الحجم
كالصغير والكبير او الطبيعة كالحار والبارد فان قيل الزوجان لابد وان يكونا
اثنين فما الفايدة في اثنين اجيب بانه قيل انه تعالى اول ما خلق العالم وخلق
فيه الاشجار خلق من كل نوع من الانواع اثنين فقط فلو قال خلق زوجين لم يعلم
ان المراد النوع او الشخص فلما قال اثنين علم انه تعالى اول ما خلق من كل زوجين
اثنين لا اقل ولا ازيد فكان الناس وان كان فيهم الان كثرة فابتداوهم من زوجين
اثنين بالشخص ادم وحوا فكذا القول في جميع الاشجار والزروع الخامس منها قوله
تعالى يغشي اي يغطي الليل بظلمته النهار اي والنهار الليل بضويه
فيعتدل فعلهما على ما قدره الله تعالى لهما في السير من الزيادة والنقصان وذلك من
الحكم النافعة في الدين والدنيا الظاهرة لكل ذي عقل انها تدبيره بفعله واختياره
وقهره واقتداره وقراءة شعبة وحمزة والكسائي بفتح الغين وتشديد الشين
والباقون بسكون الغين وتخفيف الشين ولما ذكر تعالى هذه الدلايل النيرة والقواطع
القاهرة جمع مناطها بالتفكر فقال تعالى ان في ذلك اي الذي وقع التحدث عنه من
الايات لايات اي دلالات لقوم يتفكرون اي يجتهدون بالفكر فيستدلوا
بالصنعة على الصانع وبالسبب على المسبب والتفكر والتدبر تصرف القلب في
طلب معاني الاشيا ثم انه تعالى ذكر دليلا ظاهرا جدا بقوله تعالى وفي الارض اي
التي انتم سكانها تشاهدون ما فيها مشاهدة لا تقبل الشك قطع اي بقاع

بيان الثمار

مختلفة متجاورات اي متقاربات بقرب بعضها من بعض واحدة طيبة والاخرى سبخة
لا تنبت واخرى صالحة للزرع لا للشجر واخرى بالعكس واخرى قليلة الريع واخرى
كثيرة مع انتظام الكل في الارضية وهو من دلائل قدرته تعالى وجنات اي بساتين
فيها انواع الاشجار من نخيل واعناب وغير ذلك كما قال تعالى من اعناب وزرع ونخيل
صنوان جمع صنو وهي النخلات يجمعها اصل واحد وتتشعب فروعها
ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في عمه العباس عم الرجل صنو ابيه يعني انهما من اصل واحد
وغير صنوان اي متفرقات مختلفة الاصول وسمي البستان جنة لانه يستر
باشجاره الارض وقرا ابن كثير وابو عمرو وحفص برفع العين واللام والنون وعدم
التنوين الثانية من صنوان والراء من غير مع التنوين في العين واللام والنون وعدم
التنوين في الرا والباقون بالخفض في الاربعة وعدم التنوين في الراء ولما كان الماء
بمنزلة الاب والارض بمنزلة الام وكان الاختلاف مع اتحاد الاب والام اعجب وادل
على الاسناد الى الواحد المسبب لا الى شي من الاسباب قال تسقى قرا ابن عامر
وعاصم بالياء على التذكير اي المذكور وقرا الباقون بالتاء على التانيث اي الجنات
وما فيها بماء واحد تخرج اغصانها وثمارها في وقت معلوم لا يتاخر عنه ولا يتقدم
والماء جسم رقيق مائع به حياة كل نام وقيل في حده جوهر سيال به قوام الارواح
ونفضل بعضها على بعض في الاكل اي في الطعم ما بين حلو وحامض وغير ذلك وفي الشكل
والرائحة ايضا مما يدل على القادر الحكيم فان اختلافها مع اتحاد الاصول والاسباب
لا يكون الا بتخصيص قادر مختار قال مجاهد ذلك كمثل بني ادم صالحهم
وخبيثهم وابوهم واحد وقال الحسن هذا مثل ضربه الله تعالى لقلوب
بني ادم كانت الارض طينة واحدة في يد الرحمن فسطحها فصارت
قطعا متجاورات فينزل عليها الماء من السماء فتخرج هذه زهرتها وشجرها وثمرها
ونباتها وتخرج هذه سبخها وملحها وخبيثها وكل يسقى بماء واحد وكذلك الناس
خلقوا من ادم فينزل عليهم من السماء تذكرة فترق قلوب قوم فتخشع وتخضع
وتقسو قلوب قوم فتلهو ولا تسمع وقال الحسن والله ما جالس القران احد
الا قام من عنده بزيادة او نقصان قال تعالى وننزل من القران ما هو شفاء ورحمة
للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا وقرا حمزة والكسائي بالياء ليطابق قوله تعالى
يدبر الامر والباقون بالنون وقرا نافع وابن كثير بسكون الكاف والباقون بالرفع ان
في ذلك اي الامر العظيم الذي ذكرناه لايات اي دلالات لقوم يعقلون اي
يستعملون عقولهم بالتدبر والتفكر في الايات الدالة على وحدانيته تعالى ولما ذكر
تعالى الدلائل القاهرة الدالة على معرفة المبدا ذكر بعده ما يدل على المعاد بقوله
تعالى وان تعجب اي يا اكرم الخلق من تكذيب الكفار لك بعد ان كنت تعرف
عندهم بالصادق الامين فعجب اي فحقيق ان يتعجب منه قولهم اي
منكري البعث أئذا كنا ترابا اي بعد الموت أئنا لفي خلق جديد اي خلقنا بعد

الموت اي خلقنا بعد الموت كما كنا قبله ولم يعلموا ان القادر على انشا
الخلق وما تقدم على غير مثال قادر على اعادتهم وقيل وان تعجب من اتخاذ المشركين ما لا
يضرهم ولا ينفعهم الهة يعبدونها مع اقرارهم بان الله خلق السموات والارض وهو يضر
وينفع وقد راوا قدرة الله تعالى وما ضرب لهم به الامثال فعجب قولهم ذلك والعجب
تغير النفس برؤية المستبعد في العادة وقال المتكلمون العجب هو الذي لا يعرف سببه
وذلك في حق الله تعالى محال لانه تعالى علام الغيوب لا يخفى عليه خافية وقرا ابو عمرو وخلاد
والكسائي بادغام الباء في الفاء والباقون بالاظهار تنبيه هنا ايتان في كل منهما همزتان
فقالون بتحقيق الهمزة الاولى وتسهيل الثانية ويدخل بينهما الفا على
الاستفهام وفي الاية الثانية بهمزة مكسورة بعدها نون مشددة على الخبر
وورش كذلك الا انه لا يدخل بين الهمزتين في ابدا الفا ويسهل الثاني على اصله
وابن كثير يقرا بالاستفهام فيهما من غير ادخال الف بين الهمزتين مع تحقيق الاولى
وتسهيل الثانية فيهما وابو عمرو كذلك مع ادخال الف بينهما وابن عامر في الاولى
بهمزة مكسورة بعدها ذال مفتوحة على الخبر وفي الثاني بهمزة مفتوحة محققة
وهمزة مكسورة محققة على الاستفهام وادخل هشام بينهما الفا بخلاف عنه والباقون
بهمزتين محققتين الاولى مفتوحة والثانية مكسورة ولا الف بينهما في الموضعين
فائدة جميع ما في القران من ذلك احدى عشر موضعا في تسع سور والاحدى
عشر مكررة فتصير اثنين وعشرين في هذه السورة موضع والثاني والثالث
في سورة الاسرا والرابع في المومنون والخامس في النمل والسادس في العنكبوت
والسابع في السجدة والثامن والتاسع في الصافات والعاشر في الواقعة والحادي
عشر في النازعات واذكر ان شاء الله تعالى في كل سورة من السور المذكورة
مذهبهم في محله اولئك اي الذين جمعوا انواعا من البعد من كل خير الذين
كفروا بربهم اي غطوا ما يجب اظهاره بسبب الاستهانة بالذي بدا خلقهم
ثم رباهم بانواع اللطف فاذا انكروا اعادتهم فقد انكروا بداتهم واولئك البعدا
البغضا الاغلال يوم القيامة في اعناقهم بسبب كفرهم والغل طوق من حديد
تقيد به اليد في العنق وقيل المراد بالاغلال ذلهم وانقيادهم يوم القيامة كما
يقاد الاسير بالغل وقيل انهم مقيدون بالضلال لا يرجى فلاحهم واولئك
اي الذين لا خسارة اعظم من خسارتهم اصحاب النار هم فيها خالدون اي ثابت
دخولهم دايما لا يخرجون منها ولا يموتون ولما كان صلى الله عليه وسلم يهددهم
تارة بعذاب يوم القيامة وتارة بعذاب الدنيا والقوم كلما هددهم بعذاب يوم
القيامة انكروا القيامة والبعث والحشر والنشر وهو الذي تقدم ذكره في الاية
الاولى وكلما هددهم بعذاب الدنيا قالوا فجئنا بهذا العذاب وطلبوا منه اظهاره
وانزاله على سبيل الطعن واظهار ان الذي يقوله كلام لا اصل له نزل ويستعجلونك
اي استهزاء وتكذيبا والاستعجال طلب التعجيل وهو تقديم الشي قبل وقته

الذي نقدر له بالسيئة اي العذاب قبل الحسنة اي الرحمة وذلك ان مشركي
مكة كانوا يقولون اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء او
ائتنا بعذاب اليم تنبيه قوله قبل الحسنة فيه وجهان احدهما متعلق بالاستعجال
ظرفا له والثاني انه متعلق بمحذوف على انه حال مقدرة من السيئة قاله ابو البقا
وقد اي والحال انه قد خلت من قبلهم المثلات جمع مثلة بفتح الميم وضم المثلثة كصدقة
وصدقات اي عقوبات امثالهم من المكذبين افلا تعتبرون وان ربك لذو مغفرة
للناس على ظلمهم والا لم يترك على ظهرها دابة كما قال تعالى ولو يؤاخذ الله بما كسبوا
ما ترك على ظهرها من دابة معناه لذو تجاوز عن المشركين اذا امنوا
وان ربك لشديد العقاب للمصرين على الشرك الذين ماتوا عليه وقال مقاتل
انه لذو تجاوز عن شركهم في تاخير العذاب عنهم وشديد العقاب اذا عاقب
ولما بين سبحانه وتعالى ان الكفار طعنوا في نبوة النبي صلى الله عليه وسلم
بسبب طعنهم في الحشر والنشر اولا ثم طعنوا في نبوته بسبب طعنهم في صحة
ما ينذرهم به من نزول عذاب الاستيصال ثانيا ثم طعنوا في نبوته بان طلبوا
منه المعجزة والبينة ثالثا وهو المذكور في قوله تعالى ويقول الذين كفروا لولا اي هلا
انزل عليه اي محمد صلى الله عليه وسلم اية من ربه اي مثل عصى موسى وناقة
صالح وذلك لانهم انكروا كون القران من جنس المعجزات وقالوا هذا كتاب مثل
سائر الكتب واتيان الانس بتصنيف معين وكتاب معين لا يكون معجزا مثل معجزا
موسى وعيسى عليهما السلام وكان صلى الله عليه وسلم راغبا في اجابة مقترحاتهم
لشدة التفاته الى ايمانهم قال الله تعالى له انما انت منذر اي ليس عليك غير
الانذار والتخويف وليس عليك اتيان الايات ولكل قوم هاد اي نبي يدعوهم
الى ربهم بما يعطيه من الايات لا بما يقترحون وقرا ابن كثير في الوقف بياء بعد
الدال وفي الوصل بغير ياء وتنوين الدال والباقون بغير ياء في الوقف والوصل
مع تنوين الدال ولما سالوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الايات اخبرهم الله تعالى
عن عظيم قدرته وكمال علمه بقوله تعالى الله يعلم ما تحمل كل انثى من ذكر وغيره
وواحد ومتعدد وغير ذلك وما تغيض الارحام اي تنقص من مدة الحمل وما
تزداد اي من مدة الحمل قد تكون ستة اشهر وازيد عليها الى سنتين
عند ابي حنيفة والى اربع عند الشافعي والى خمس عند مالك رضي الله تعالى
عنهم وقيل ان الضحاك ولد لسنتين وهرم بن حيان بقي في بطن امه
اربع سنين ولذلك سمي هرما وقيل ما تنقصه الرحم من الاولاد وتزيده منهم
يروي ان شريكا كان رابع اربعة في بطن امه وقيل من نقصان الولد فيخرج
ناقصا والزيادة تمام خلقه وقيل ما ينقص بالسقط عن ان يتم وما يزداد
بالتمام وقيل ما ينقص بظهور دم الحيض وذلك انه اذا سال الدم في وقت الحمل
ضعف الولد ونقص بمقدار حصول ذلك قال ابن عباس كلما سال الحيض

في وقت الحمل يوما زاد في مدة الحمل يوما ليحصل الجبر ويعتدل الامر والاية تحتمل ذلك
ذا الانثى في هذه الاقوال ويدل لذلك قوله تعالى وكل شيء من هذا وغيره من
الايات المقترحات وغيرها عنده اي في علمه وقدرته بمقدار في كيفيته وكميته
لا يجاوزه ولا ينقص عنه لانه تعالى عالم بكيفية كل شيء وكميته على الوجه المفصل
المبين تنبيه قوله تعالى عنده يجوز ان يكون مجرور المحل صفة لشيء او مرفوعه
صفة لكل او منصوبه ظرفا لقوله بمقدار او ظرفا للاستقرار الذي تعلق به
الجار لوقوعه خبرا عالم الغيب وهو ما غاب عن كل مخلوق والشهادة وهو ما
يشاهد وقيل الغيب هو المعدوم والشهادة هو الموجود وقيل الغيب
ما غاب عن الحس والشهادة ما حضر في الحس الكبير اي العظيم المتعال
عن خلقه بالقهر المنزه عن صفات النقص وهو تعالى موصوف بالعلم الكامل
والقدرة التامة وقرا ابن كثير في الوقف والوصل بالياء بعد اللام والباقون بغير ياء
وقفا ووصلا ولما كان علمه تعالى شاملا لجميع الاشيا قال تعالى سواء منكم
اي في علمه تعالى من اسر القول اي اخفى معناه في نفسه ومن جهر به اي اظهره
فقد استوى في علمه تعالى السار بالقول والجاهر به ومن هو مستخف اي مستتر
بالليل اي بظلامه وسارب اي ظاهر بذهابه في سربه بالنهار والسرب
بفتح السين وسكون الرا الطريق وقال ابن عباس سواء ما اضمرته القلوب
واظهرته الالسنة وقال مجاهد سواء من يقدم على القبائح في ظلمات الليل
ومن ياتي بها في النهار الظاهر على سبيل التواري والضمير له يعود الى من في
قوله سواء منكم من اسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل والانسان
معقبات اي ملائكة تعقبه والذي عليه الجمهور ان المراد بالملائكة الحفظة
وانما صح وصفهم بالمعقبات اما لاجل ملائكة الليل تعقب ملائكة النهار
وبالعكس واما لاجل انهم يتعقبون اعمال العباد ويتبعونها بالحفظة والكتابة
وكل من عمل عملا ثم عاد اليه فقد عقب فعلى هذا المراد من المعقبات ملائكة
الليل والنهار روي عن عثمان انه قال يا رسول الله اخبرني عن العبد كم معه من
ملك فقال صلى الله عليه وسلم ملك عن يمينك للحسنات وهو امير على الذي
على الشمال فاذا عملت حسنة كتبت عشرا واذا عملت سيئة قال الذي على الشمال
لصاحب اليمين اكتب قال لا لعله ان يتوب او يستغفر فيستاذنه ثلاث مرات
فاذا قال ثلاثا قال اكتب اراحنا الله منه فبئس القرين ما اقل مراقبته لله واستحياه
منا فهو قوله تعالى له معقبات من بين يديه اي قدامه ومن خلفه اي وراءه
وملك قابض على ناصيتك فاذا تواضعت لربك رفعك وان تجبرت قصمك
وملكان على شفتيك يحفظان عليك الصلاة وملك على فيك لا يدع ان تدخل الحية
في فيك وملك على عينيك فهذه عشرة املاك على كل ادمي ملائكة بالليل وملائكة
بالنهار فهم عشرون ملكا على كل ادمي وعن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه

به

بكة

ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار
ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسالهم الله تعالى
وهو اعلم بهم كيف تركتم عبادي فيقولون تركناهم وهم يصلون وقال مجاهد ما من
عبد الا وله ملك موكل يحفظه من الجن والانس والهوام في نومه ويقظته فان
قيل الملائكة ذكور فلم ذكروا في جمع الاناث وهو المعقبات اجيب بجوابين الاول
قال الفرا المعقبات ملائكة معقبة واحدها معقب ثم جمعت معقبة بمعقبات
كما قيل ابناوات سعد ورجالات جمع ابنا ورجال والذي على التذكير قوله تعالى
يحفظونه والثاني وهو قول الاخفش انما انث لكثرة ذلك منها نحو نسابة
وعلامة وهو ذكر واختلف في المراد من قوله تعالى من امر الله على اقوال احدها
انه على التقديم والتاخير والتقدير له معقبات من امر الله يحفظونه ثانيها ان
فيه اضمارا اي ذلك الحفظ من امر الله اي مما امر الله تعالى به فحذف الاسم وابقى
خبره وثالثها ان كلمة من معناها البا والتقدير يحفظونه بامر الله واعانته وقال
كعب الاحبار لولا ان الله تعالى وكل بكم ملائكة يذبون عنكم في مطعمكم ومشربكم
وعوراتكم لتخطفتكم الجن وقال ابن جريج يعني يحفظونه اي يحفظون عليه
الحسنات والسيئات فان قيل ما الفائدة في تخصيص هولاء الملائكة مع بني
ادم وتسلطهم عليهم اجيب بان الانسان اذا علم ان الملائكة تحصي عليه
اعماله كان الى الحذر من المعاصي اقرب لان من اعتقد جلالة الملائكة وعلو مراتبهم
فاذا حاول الاقدام على معصية واعتقد انهم يشاهدونها زجره الحيا منهم
على الاقدام اليها كما يزجره اذا حضر من يعظمه من البشر واذا علم ان الملائكة
يكتبونها كان الردع اكمل ولما دل ذلك على غاية القدرة والعظمة قال تعالى
ان الله مع قدرته لا يغير ما بقوم اي لا يسلبهم نعمته حتى يغيروا ما اي
الذي بانفسهم من الاحوال الجميلة الى الاحوال القبيحة واذا اراد الله
بقوم سوءا اي هلاكا وعذابا فلا مرد له اي لا يقدر احد لا من المعقبات ولا من
غيرها ان يرد ما نزل بهم من قضائه وقدره وما لهم اي ان اراد الله بهم سوءا
من دونه اي غير الله من وال يلي امرهم وينصرهم ويمنع العذاب عنهم وقرا ابن
كثير الوقف باثبات اليا بعد اللام دون الوصل والباقون بغير يا بعد اللام
وقفا ووصلا ولما خوف الله تعالى بقوله واذا اراد الله بقوم سوءا اتبعه
بذكر ايات تشبه النعم والاحسان من بعض الوجوه وتشبه العذاب
والقهر من بعض الوجوه بقوله تعالى هو الذي يريكم البرق خوفا اي للمسافرين
من الصواعق وطمعا اي للمقيم في المطر وقيل ان كل شيء يحصل في الدنيا
يحتمل الخير والشر فهو خير بالنسبة الى قوم وشر بالنسبة الى اخرين فكذلك
المطر خير في حق من يحتاج اليه في اوانه وشر في حق من يضره ذلك اما بحسب
المكان واما بحسب الزمان والبرق معروف وهو لمعان يظهر من بين السحاب

ويسبح

وينشي اي يخلق السحاب الثقال اي بالمطر تنبيه خوفا وطمعا مصدران ناصبهما
محذوف اي تخافون اي تخافون خوفا وتطمعون طمعا ويجوز غير ذلك والسحاب
قال علي ابن ابي طالب رضي الله تعالى عنه غربال الما وهو غيم ينسحب في السما
وهو اسم جنس جمعي واحده سحابة واكثر المفسرين على ان الرعد في قوله تعالى
ويسبح الرعد بحمده على انه اسم للملك الذي يسوق السحاب والصوت المسموع منه
تسبيحه ولا يرد ذلك عطف الملائكة عليه في قوله والملائكة اي تسبحه من
خيفته اي الله لانه انفرد بالذكر تشريفا له كما في قوله تعالى وملائكته ورسله
وجبريل وميكال قال ابن عباس اقبلت يهود على النبي صلى الله عليه وسلم
فقالوا اخبرنا عن الرعد ما هو فقال ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق
من نار يسوق بها السحاب قال ابن الاثير والمخاريق جمع مخراق وهو في
الاصل ثوب يلف ويضرب به الصبيان بعضهم بعضا وهي الة تزجر بها
الملائكة السحاب وتسوقه وقد جا تفسير المخراق في حديث اخر وهو سوط
من نور تزجر به الملائكة السحاب وعن ابن عباس انه قال من سمع صوت الرعد
فقال سبحان من يسبح له الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شي
قدير فان اصابته صاعقة فعلى ديته وعن عبد الله بن الزبير انه كان اذا
سمع صوت الرعد ترك الحديث وقال سبحان من يسبح الرعد بحمده
والملائكة من خيفته وفي بعض الاخبار يقول الله تعالى لو ان عبادي اطاعوني
لسقيتهم المطر بالليل واطلعت الشمس عليهم بالنهار ولم اسمعهم صوت
الرعد وفي رواية عن ابن عباس الرعد ملك موكل بالسحاب يسوقه حيث
يومر وانه يحوز الما في نقرة ابهامه وانه يسبح الله تعالى اذا سبح لا يبقى
ملك في السما الا رفع صوته بالتسبيح فعندها ينزل المطر وعن الحسن
ان الرعد خلق من خلق الله ليس بملك وقد اختلفت الروايات في ذلك
ففي بعضها انه ملك يسوق السحاب بالتسبيح كما يسوق الحادي الابل
بحدائه وفي بعضها انه ملك سمي به وهو الذي تسمعون صوته وقد مرت الاشارة
الى ذلك في البقرة وقيل هولا الملائكة اعوان الرعد جعل الله تعالى له اعوانا
فهم خائفون خاضعون طائعون وقيل المراد بهم جميع الملائكة واستظهر واقوله
تعالى ويرسل الصواعق جمع صاعقة وهي العذاب المهلك تنزل من البرق
فتحرق من تصيبه فيصيب بها من يشاء فيهلكه وهم يجادلون في الله حيث
يكذبون رسول الله صلى الله عليه وسلم والتكذيب التشديد في الخصومة
روي ان عامر بن الطفيل واربد بن ربيعة اخا لبيد وفدا الى رسول الله صلى الله
عليه وسلم قاصدين لقتله فاخذه عامر بالمجادلة ودار اربد من خلفه ليضربه
بالسيف فتنبه له رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اللهم اكفنيهما بما شئت
فارسل الله تعالى على اربد صاعقة فقتلته ورمى عامرا بغدة فمات في بيت

سلولية فكان يقول غدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية فنزلت وعن الحسن
انه قال كان رجل من طواغيت العرب بعث اليه النبي صلى الله عليه وسلم نفرا يدعونه
الى الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم فقال لهم اخبروني عن رب محمد هذا الذي
تدعوني اليه مم هو امن ذهب او فضة او حديد او نحاس فاستعظم مقالته
فانصرفوا الى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله ما راينا رجلا اكفر قلبا
ولا اعتى على الله منه فقال صلى الله عليه وسلم ارجعوا اليه فرجعوا اليه فجعل
لا يزيدهم على مقالته الاولى وقال اجيب محمدا الى رب لا اراه ولا اعرفه
فانصرفوا وقالوا يا رسول الله ما زادنا على مقالته الاولى واخبث فقال ارجعوا
اليه فرجعوا فبينما هم عنده ينازعونه ويدعونه وهو يقول هذه المقالة اذ
ارتفعت سحابة فكانت فوق رؤسهم فرعدت وبرقت ورمت بصاعقة
فاحرقت الكافر وهم جلوس فجاؤا يسعون ليخبروا رسول الله صلى الله عليه
وسلم فاستقبلهم قوم من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا
احترق صاحبكم فقالوا من اين علمتم فقالوا اوحى الله الى النبي صلى الله عليه
وسلم ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله
وهو شديد المحال واختلف المفسرون في قوله تعالى وهو شديد المحال
فقال علي شديد الاخذ وقال ابن عباس شديد الحول وقال مجاهد شديد
القوة وقال ابو عبيدة شديد القوة والمغالبة واختلف في قوله تعالى له
اي الله دعوة الحق فقال علي دعوة التوحيد وقال ابن عباس شهادة ان لا اله الا
الله وقال الحسن الحق هو الله تعالى وكل دعا اليه دعوة الحق والذين يدعون اي
وهم الكفار من دونه اي غير الله وهي الاصنام لا يستجيبون اي الاصنام
لهم اي الكفار بشيء مما يطلبونه من نفع او دفع ضر الا اي الا استجابة ○
كباسط اي كاستجابة باسط كفيه الى الماء اي على شفير البير يدعوه
ليبلغ فاه اي بارتفاعه من البير اليه وما اي الماء ببالغه اي فاه
ابدا لانه جماد لا يشعر بدعائه ولا يقدر على اجابته فكذلك ما هم بمستجيبين
ابدا لان اصنامهم كذلك وقيل شبهوا في قلة فائدة دعائهم لالهتهم من
اراد ان يغرف الماء بيديه ليشربه فبسطهما ناشرا اصابعه ولم يصل كفاه الى
ذلك الماء ولم يبلغ مطلوبه من شربه ثم انه تعالى عمم في انه لا يستجاب لهم
بقوله تعالى وما دعاء الكافرين الا في ضلال اي ضياع لا منفعة فيه لانهم
ان دعوا الله لم يجبهم وان دعوا الهتهم لم تستطع اجابتهم وقيل المراد بالدعاء
في الحالين العبادة وقوله تعالى ولله يسجد من في السموات والارض يحتمل ان يراد
به السجود على حقيقته وهو وضع الجبهة وعلى هذا فيكون قوله تعالى طوعا
للملائكة والمومنين ومن المقلين حالتي الشدة والرخاء وقوله تعالى وكرها
للكافرين والمنافقين الذين اكرهوا على السجود بالسيف وانما يراد به

التعظيم والاعتراف بالعبودية فكل من في السموات والارض معترف بعبودية الله
تعالى كما قال تعالى ولئن سالتهم من خلقهم ليقولن الله وان يراد به الانقياد والخضوع
وترك الامتناع وكل من في السموات والارض ساجد لله بهذا المعنى لانه قدرته ومشيته
نافذة في الكل قوله تعالى طوعا وكرها اما مفعول من اجله واما حال اي طائعين وكارهين
واختلف في تفسير قوله تعالى وظلالهم بالغدو اي البكر والاصال اي العشايا اي تسجد
فقال اكثر المفسرين كل شخص كان مومنا ام كافرا فان ظله يسجد لله قال مجاهد
ظل المومن يسجد لله وهو طائع وظل الكافر يسجد لله وهو كاره وقال الزجاج جاء
في التفسير ان الكافر يسجد لغير الله وظله يسجد لله قال ابن الانباري ولا
يبعد ان يخلق الله تعالى في الظلال عقولا وافهاما تسجد بها لله وتخشع
وقيل المراد من سجود الظلال ميلها من جانب الى جانب وطولها بسبب انحطاط
الشمس وقصرها بسبب ارتفاع الشمس وهي منقادة مستسلمة في طولها
وقصرها وميلها من جانب الى جانب وانما خص الغدو والاصال بالذكر لان
الاصال الظلال انما تعظم وتكثر في هذين الوقتين تنبيه الغدو جمع غداة
كقناة وقنا والاصال جمع الاصل والاصل جمع اصيل وهو ما بين العصر الى
غروب الشمس ولما بين تعالى ان كل من في السموات والارض ساجد لله عدل الى
الرد على عبادة الاصنام بقوله تعالى قل يا اشرف الخلق على الله تعالى لقومك
من رب السموات والارض اي مالكهما وما فيهما ومدبرهما وخالقهما قل الله اي
اجب عنهم بذلك ان لم يقولوه ولا جواب لهم غيره ولانه البين الذي لا يمكن
المراء فيه ولقنهم الجواب به وروي انه لما قال للمشركين ذلك عطفوا عليه
وقالوا اجب انت فامره الله تعالى فاجاب بذلك ثم الزمهم الحجة على عبادتهم
الاصنام بقوله تعالى قل لهم افاتخذتم من دونه اي غير الله اولياء اي اصناما
يعبدونها لا يملكون لانفسهم نفعا يجلبونه ولا ضرا يدفعونه فكيف يملكون لكم
ذلك وقرا ابن كثير وحفص باظهار الذال في اتخذتم عند التاء والباقون بالادغام
ثم ضرب الله تعالى مثلا للمشركين الذين يعبدون الاصنام والمومنين الذين
يعبدون الله فقال تعالى هل يستوي الاعمى والبصير قال ابن عباس يعني المشرك
والمومن وانما مثل الكافر بالاعمى لانه لا يهتدي سبيلا ثم ضرب الله مثلا للايمان
والكفر بقوله تعالى ام هل تستوي الظلمات اي الكفر والنور اي الايمان الجواب
لا وقرا شعبة وحمزة والكسائي يستوي بالياء على التذكير والباقون بالتاء
على التانيث واما اللام من هل هنا فلا تدغم على القرائتين ام جعلوا لله شركاء
والهمزة للانكار وقوله تعالى خلقوا كخلقه صفة شركاء اي خلقوا سموات
وارضين وشمسا وقمرا وجبالا وبحارا وجنا وانسا فتشابه الخلق اي
خلق الشركاء بخلق الله عليهم من هذا الوجه فلا يدرون ما خلق الله
ولا ما خلق الهتهم فاعتقدوا استحقاق عبادتهم بخلقهم وهذا استفهام

بيان سجود الظلال

ن

انكار اي ليس الامر كذلك ولا يستحق العبادة الا الخالق ولما كان من المعلوم قطعا ان
جوابهم ان الخالق كله لله لزمتهم الحجة فقال تعالى قل لهولاء المشركين الله خالق
كل شيء اي مما يصح ان يكون مخلوقا فهو من العموم الذي يراد به الخصوص ولا يدخل في
ذلك صفات الله تعالى واذا كان لا خالق غيره فلا يشاركه في العبادة احد فوجب
ان ينفرد بالالهية كما قال تعالى وهو الواحد اي الذي لا يجانسه شيء وكل ما سواه
لا يخلو عن مماثل يماثله وابن رتبة من يماثل من رتبة من لا مثل له القهار الذي كل
شيء تحت قهره فيدخل تحت قضائه ومشيئته وارادته ثم ضرب تعالى مثلا للحق
والباطل بقوله تعالى انزل من السماء اي السحاب او السما نفسها ماء اي مطرا
فسالت اودية اودية اي انها جمع نهر واد وهو الموضع الذي يسيل الماء فيه
بكثرة فاتسع فيه واستعمل للماء الجاري فيه وتنكيرها لان المطر ياتي على تناوب بين
البقاع بقدرها اي بمقدارها الذي علم الله تعالى انه نافع غير ضار او بمقداره في الصغر
والكبر فاحتمل السيل زبدا رابيا اي عاليا عليه هو ما على وجهه من قذر ونحوه
ومما يوقدون عليه في النار اي من جواهر الارض والذهب والفضة والنحاس والحديد
ابتغا اي طلب حلية اي زينة او متاع اي ينتفع به كالاواني اذا اذيب
والات الحرب والحرث والمقصود من ذلك بيان منافعها زبد مثله اي مثل
زبد السيل وهو خبثه الذي ينفيه الكير ومن للابتدا او للتبعيض وقرأ
حفص وحمزة والكسائي باليا على الغيبة على ان الضمير للناس واضماره للعلم به
والباقون بالتاء على الخطاب كذلك اي مثل هذا الضرب العلي الرتب المبين
الشبه يضرب الله اي الذي له الامر كله الحق والباطل اي مثلهما فانه
تعالى مثل الحق في افادته وثباته بالماء الذي ينزل من السما فتسيل به
الاودية على قدر الحاجة والمصلحة فينتفع به انواع المنافع ويمكث في الارض
بان يثبت بعضه في منافعه ويسلك بعضه في عروق الارض الى العيون
والقني والابار ومثل الباطل في قلة نفعه وسرعة زواله بزبدهما وهو
قوله تعالى فاما الزبد اي من السيل وما اوقد عليه من الجواهر فيذهب
جفاء قال ابو حيان مضمحلا اي متلاشيا لا منفعة فيه ولا بقاء له
وقال ابن الانباري متفرقا وانتصابه على الحال واما ما ينفع الناس من الماء
ومن الجواهر الذي هو مثل الحق فيمكث في الارض اي يثبت ويبقى لينتفع به
اهلها كذلك اي مثل ذلك الضرب يضرب اي يبين الله الذي له
الاحاطة الكاملة علما وقدرة الامثال فيجعلها في غاية الوضوح وان كانت في
غاية الغموض قال اهل المعاني هذا مثل ضربه الله تعالى للحق والباطل
فالباطل وان علا على الحق في بعض الاوقات والاحوال فان الله يمحقه ويبطله
ويجعل العاقبة للحق واهله كالزبد الذي يعلو على الماء فيذهب الزبد
ويبقى الماء الصافي الذي ينفع وكذلك الصفو من هذه الجواهر يبقى

ويذهب

ويذهب الغلو الذي هو الكدر وهو ما ينفيه الكير مما يذاب من جواهر الارض كذلك
الحق والباطل وقيل هذا مثل للمؤمن واعتقاده وانتفاعه بالايمان كمثل الماء
الصافي الذي ينتفع به الناس ومثل الكافر وخبث اعتقاده كمثل الزبد الذي
لا ينتفع به البتة ثم انه تعالى لما ذكر الحق والباطل ذكر ما لاهلهما من الثواب والعقاب
فقال تعالى للذين استجابوا لربهم اي اجابوه الى ما دعاهم اليه من التوحيد والعدل
والنبوة وبعث الاموات والتزام الشرايع الواردة على لسان رسوله صلى الله عليه
وسلم الحسنى قال ابن عباس وقال اهل المعاني الحسنى هي المنفعة
العظمى في الحسن وهي المنفعة الخالصة عن شوايب المضرة الدايمة
الخالصة عن الانقطاع المقرونة بالتعظيم والاجلال ولم يذكر تعالى الزيادة
ههنا لانه تعالى ذكرها في سورة اخرى وهي قوله تعالى للذين احسنوا
الحسنى وزيادة هذا ما لاهل الحق واما ما لاهل الباطل فهو ما ذكره بقوله له
تعالى والذين لم يستجيبوا له وهم الكفرة فلهم انواع ثلاثة من العذاب
والعقوبة فالنوع الاول قوله تعالى لو ان لهم ما في الارض جميعا ومثله
معه لافتدوا به اي جعلوه فكاك انفسهم بغاية جهدهم لان المحبوب
بالذات لكل انسان هو ذاته وكل ما سواه فهو انما يحبه لكونه وسيلة
الى مصالح ذاته فاذا كانت النفس في الضرر والالم والتعب وكان مالكا لما
يساوي عالم الاجسام والارواح فانه يرضى بان يجعله فداء نفسه لان
المحبوب بالعرض لا بد وان يكون فدا لما كان محبوبا بالذات والكناية في به
عايدة الى ما في قوله في الارض والنوع الثاني من انواع العذاب الذي
اعده الله تعالى لهم ما ذكره بقوله تعالى اولئك لهم سوء الحساب وهو المنا قشة
فيه وعن النخعي بان يحاسب بذنبه كله لا يغفر منه شيء وانما نوقشوا لانهم
احبوا الدنيا واعرضوا عن المولى فلما ماتوا بقوا محرومين عن معشوقهم
الذي هو الدنيا وبقوا محرومين عن الفوز بسعادة خدمة المولى والنوع
الثالث من عقوباتهم ما ذكره بقوله تعالى ومأواهم اي مرجعهم
جهنم وذلك لانهم كانوا غافلين عن الاشتغال بخدمة المولى
عاشقين للذات الدنيا فاذا ماتوا فارقوا معشوقهم فيحترقون على
مفارقتها وليس عندهم شيء اخر يجبرهم بهذه المصيبة فلذلك كان ماواهم
جهنم ثم انه تعالى وصف هذا الماوي بقوله تعالى وبئس المهاد اي الفراش
والمخصوص بالذم محذوف اي جهنم ونزل في حمزة وابي جهل وقيل
في عمار وابي جهل افمن يعلم انما انزل اليك من ربك الحق اي يؤمن به ويعمل بما فيه
وهو حمزة او عمار كمن هو اعمى اي اعمى البصيرة ولا يؤمن به ولا يعمل بما فيه وهو
ابو جهل قال ابن في تفسيره وحمل الاية على العموم اولى وان كان
السبب مخصوصا والمعنى لا يستوي من يبصر الحق ويتبعه ومن

هو لا يبصر الحق ولا يتبعه وانما شبه الكافر والجاهل بالاعمى لان الاعمى لا يهتدي لرشد
انما يتذكر اي يتعظ اولوا الالباب اي اصحاب العقول الذين يطلبون من
كل صورة معناها وياخذون من كل قشرة لبابها ويعبرون من ظاهر كل حديث
الى سره ولبابه الذين يوفون بعهد الله اي ما عقدوه على انفسهم من الاعتراف
بربوبيته حين قالوا بلى وما عهد الله تعالى عليهم في كتبه ولا ينقضون الميثاق
اي ما وثقوه من المواثيق بينهم وبين الله تعالى وبينهم وبين العباد وهو تعميم بعد تخصيص
والذين يصلون ما امر الله به ان يوصل اي من الايمان والرحم وغير ذلك والاكثرون
على انه اراد به صلة الرحم عن ابي موسى ان عبد الرحمن بن عوف عاد ابا الدرداء فقال
عبد الرحمن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيما يحكي عن ربه تعالى
انا الرحمن وهي الرحم شققت لها اسما من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها
قطعته او قال بتته وعن عائشة رضي الله تعالى عنها ان النبي صلى الله
عليه وسلم قال من سره ان يبسط له في رزقه وان ينسأ له في اثره فليصل
رحمه ومعنى ينسأ يؤخر والمراد به تاخير الاجل وفيه قولان احدهما وهو
المشهور انه يزاد في عمره زيادة حقيقة والثاني يبارك له في عمره فكانه قد
زيد فيه وعن ابن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول ليس الواصل بالمكافي ولكن الواصل الذي اذا انقطعت رحمه وصلها
وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال تاتي يوم القيامة لها السنة
ذلقة الرحم فتقول اي رب قطعت والامانة اي رب تركت والنعمة تقول اي
رب كفرت وعن الفضيل بن عياض ان جماعة دخلوا عليه بمكة فقال من
اين انتم قالوا من خراسان قال اتقوا الله وكونوا من حيث شئتم واعلموا
ان العبد لو احسن كل الاحسان وكان له دجاجة فاساء اليها لم يكن من
المحسنين ويخشون ربهم اي عنده عموما والخشية خوف يشوبه تعظيم
ويخافون سوء الحساب خصوصا فيحاسبون انفسهم قبل ان يحاسبوا
والذين صبروا اي على طاعة الله وعن معاصيه وفي كل ما ينبغي الصبر فيه
وقال ابن عباس صبروا على امر الله وقال عطاء على المصائب والنوائب
وقيل صبروا عن الشهوات وعن المعاصي ومرجع الكل واحد فان الصبر
الحبس وهو تجرع مرارة منع النفس عما تحب مما لا يجوز فعله ابتغاء اي
طلب وجه ربهم اي رضاه لا لطلب غيره من جود او سمعة او رياء او لغرض
من اغراض الدنيا او نحو ذلك واقاموا الصلاة اي المفروضة وقيل مطلق
الصلاة فيدخل فيها الفرض والنفل وانفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية قال الحسن
المراد به الزكاة فان لم يتهم بترك الزكاة فالاولى ان يؤديها سرا وان كان يتهم
بترك ادائها فالاولى ان يؤديها علانية وقيل المراد بالسر صدقة التطوع
وبالعلانية الزكاة وقيل المراد بالزكاة بالسر ما يؤديه من الزكاة بنفسه

عاقدوه

وبالعلانية

وبالعلانية ما يدفعه الى الامام ويدرؤن اي يدفعون بالحسنة السيئة كالجهل
بالحلم والاذى بالصبر روي عن ابن عباس قال يدفعون بالصالح من العمل السيئ من
العمل وهو معنى قوله تعالى ان الحسنات يذهبن السيئات وقوله صلى الله عليه وسلم
اذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة تمحها السر بالسر والعلانية بالعلانية وعن
عقبة بن عامر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان مثل الذي يعمل السيئات
ثم يعمل الحسنات كمثل رجل عليه درع ضيق قد خنقه ثم عمل حسنة فانفكت
حلقة ثم عمل حسنة اخرى فانفكت اخرى حتى يخرج الى الارض وقال ابن عباس
يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سوء غيرهم وعن الحسن اذا حرموا
اعطوا واذا ظلموا عفوا واذا قطعوا وصلوا وعن ابن عمر ليس الواصل من وصل
ثم وصل تلك مجازاة لكن من قطع ثم وصل وعطف من لم يصله وليس الحليم
من ظلم ثم حلم حتى اذا هيجه قوم اهتاج لكن الحليم من قدر ثم عفا وعن ابن كيسان
اذا اذنبوا تابوا وقيل اذا رأوا منكرا امروا بتغييره ويروى ان شقيق البلخي دخل
على ابن المبارك متنكرا فقال له من اين انت قال من بلخ فقال وهل تعرف شقيقا
قال نعم فقال وكيف طريقة اصحابه قال اذا منعوا صبروا وان اعطوا شكروا
قال ابن المبارك طريقة كلابنا هكذا فقال شقيق فكيف ينبغي ان يكون الامر
فقال الكاملون هم الذين اذا منعوا شكروا وان اعطوا اثروا اولئك لهم اي العالو
الرتبة لهم عقبى الدار وبينها تعالى بقوله جنات عدن اي اقامة لا انفكاك
لها يقال عدن بالمكان اذا اقام به ثم استانف بيان تمكنهم بها بقوله تعالى يدخلونها
ولما كانت الدار لا تطيب بدون الاحبة قال تعالى عاطفا على الضمير المرفوع ومن صلح
من ابائهم اي الذين كانوا سببا في ايجادهم فيشمل ذلك الاباء والامهات
وان علوا وازواجهم وذرياتهم اي الذين تسببوا عنهم والمعنى انه يلحق بهم من
صلح من اهلهم وان لم يبلغ مبلغ فضلهم تبعا لهم وتعظيما لشانهم ويقال ان من
اعظم موجبات سرورهم ان يجتمعوا فيتذكروا احوالهم في الدنيا ثم
يشكرون الله تعالى على الخلاص منها والفوز بالجنة ولذلك قال الله تعالى
في صفة اهل الجنة انهم يقولون يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني
من المكرمين وفي ذلك دليل على ان الدرجة تعلو بالشفاعة وان الموصوفين بتلك
الصفات يقترن بعضهم ببعض لما بينهم من القرابة والوصلة في دخول الجنة
زيادة في انسهم وفي التقييد بالصلاح دلالة على ان مجرد الانساب لا تنفع وقد
ابن عباس الصلاح بالتصديق فقال يريد من صدق بما صدقوا وان لم يعمل مثل
اعمالهم قال الرازي وازواجهم ليس فيه ما يدل على التمييز بين زوجة وزوجة ولعل
الاولى من مات عنها او ماتت عنه وما روي عن سودة انه لما هم الرسول صلى الله عليه
وسلم بطلاقها قالت دعني يا رسول الله احشر في جملة نسائك كالدليل على ما
ذكرنا او وعلى هذا من تزوجت بغيره قيل انها تخير بينهما ثم زاد تعالى في ترغيبهم

بقوله تعالى والملائكة يدخلون عليهم لان الاكثار من ترداد رسل الملك اعظم في الفخر واكثر في السرور والعز ولما كان اتيانهم من الاماكن المعتادة مع القدرة على غيرها ادل على الادب واكرم قال تعالى من كل باب قال ابن عباس لهم خيمة من درة مجوفة طولها فرسخ وعرضها فرسخ لها الف باب مصاريعها من ذهب يدخلون عليهم من كل باب يقولون لهم سلام عليكم اي فاضمر القول هنا لدلالة الكلام عليه بما صبرتم على امر الله والباء للسببية اي بسبب صبركم او البدلية اي بدل ما احتملتم من مشاق الصبر ومتاعبه فان قيل بما يتعلق قوله بما صبرتم قال الزمخشري بمحذوف تقديره هذا بما صبرتم وقال البيضاوي متعلق بعليكم لا بسلام فان الخبر فاصل مع ان الزمخشري قال ويجوز ان يتعلق بسلام اي نسلم عليكم ونكرمكم بصبركم وهذا اظهر ورد الاول بان الممنوع منه انما هو المصدر المؤول بحرف مصدري وفعل والمصدر هنا ليس كذلك ولما تم ذلك تسبب عنه قوله تعالى فنعم عقبى الدار وهي المسكن في قرارها بالابنية التي يحتاج اليها والمرافق التي ينتفع بها والعقبى الانتها الذي يؤدي اليه الابتدا من خير او شر والمخصوص بالمدح محذوف اي عقباكم ولما ذكر تعالى صفات السعدا وذكر ما يترتب عليها من الاحوال الشريفة العالية اتبعها بذكر احوال الاشقيا وذكر ما يترتب عليها من الاحوال المخزية المكربة واتبع الوعد بالوعيد والثواب بالعقاب ليكون البيان كاملا فقال تعالى والذين ينقضون عهد الله اي يعملون بخلاف موجبه والنقض التفريق الذي ينفي التاليف لنا من بعد ميثاقه اي الذي اوثقه عليهم من الاقرار والقبول ويقطعون ما اي الذي امر الله به ان يوصل وذلك في مقابلة من قبل والذين يصلون ما امر الله به ان يوصل فجعل من صفاتهم الا تقطع بالضد من ذلك الوصل والمراد به قطع ما يوجب الله تعالى وصله اي لماله من المحاسن الجليلة والحكمة التي هي عين الصلاح ويدخل في ذلك وصل الرسول صلى الله عليه وسلم بالموالاة والمعاونة ووصل المومنين ووصل الارحام ووصل سائر من له حق ويفسدون اي يوقعون الفساد في الارض اي في اي جز كان منها بالظلم وتهييج الفتن والدعوة الى غير دين الله تعالى اولئك اي البعدا البغضا لهم اللعنة اي الطرد والبعد ولهم سوء الدار والدار لهم هي نار جهنم وليس فيها الا ما يسوء الصائر اليها ولما حكم تعالى على من نقض عهده في قبول التوحيد ذا النبوة بانهم ملعونون في الدنيا ومعذبون في الاخرة فكانه قيل لو كانوا اعدا الله لما فتح الله عليهم ابواب النعم واللذات في الدنيا فاجاب الله تعالى بقوله تعالى الله يبسط الرزق اي يوسعه لمن يشا ويقدر اي يضيقه لمن يشا سوا في ذلك الطايع والعاصي ولا تعلق لذلك بالكفر والايمان فقد يوجد الكافر موسعا عليه دون المومن ويوجد المومن موسعا عليه دون الكافر فالدنيا دار امتحان ولما كانت السعة مظنة الفرح الا من عصمه الله تعالى قال الله تعالى وفرحوا اي كفار مكة فرح بطر بالحياة الدنيا اي بما نالوه فيها لا فرح سرور

بفضل

بفضل الله والعافية عليهم ولم يقابلوه بالشكر حتى يستوجبوا نعيم الاخرة وما الحياة الدنيا اي بكمالها في الاخرة اي في جنبها الا متاع اي حقير متلاش تتمتع به ويذهب كعجالة الراكب وهي ما يتعجله من تميرات او شربة ماء سويق او نحو ذلك ويقول الذين كفروا من اهل مكة لولا اي هلا انزل عليه على هذا الرسول اية اي علامة بينة من ربه اي المحسن اليه كالعصى واليد لموسى والناقة لصالح لنهتدي بها ونؤمن به وامره الله تعالى ان يجيبهم بقوله قل اي لهولاء المعاندين ان الله يضل من يشا اضلاله فلا تغني عنه الايات شيا وان انزلت كل اية ويهدي اي يرشد اليه اي الى دينه من اناب اي رجع اليه كابي بكر الصديق وغيره ممن تبعه من العشرة المشهود لهم بالجنة وغيره ولو حصلت اية واحدة فلا تشتغلوا بطلب الايات ولكن تضرعوا الى الله تعالى في طلب الهدايات وقوله تعالى الذين امنوا بدل من من اناب او خبر مبتدا محذوف وتطمئن اي تسكن قلوبهم بذكر الله اي انسا به واعتمادا عليه ورجاء له او بذكر رحمته ومغفرته بعد القلق والاضطراب من خشيته او بذكر دلايله الدالة على وجوده او بالقران الذي هو اقوى المعجزات وقال ابن عباس يريد اذا سمعوا القران خشعت قلوبهم واطمانت فان قيل قد قال الله تعالى في سورة الانفال انما المومنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم والوجل ضد الاطمينان فكيف الجمع بين هاتين الايتين اجيب بانهم اذا ذكروا العقاب ولم يامنوا ان يقدموا على المعاصي فهناك يحصل الوجل واذا ذكروا وعده بالثواب والرحمة سكنت قلوبهم الى ذلك وحينئذ حصل الجمع بينهما الا بذكر الله اي الذي له الجلال والاكرام لا بذكر غيره تطمئن القلوب اي تسكن القلوب ويثبت اليقين فيها وقوله تعالى الذين امنوا وعملوا الصالحات مبتدا خبره طوبى لهم واختلف العلما في تفسير طوبى فقال ابن عباس فرح لهم وقرة عين وقال عكرمة نعمى لهم وقال قتادة حسنى لهم وقال النخعي خير لهم وكرامة وقال سعيد بن جبير طوبى اسم الجنة بالحبشة قال الرازي وهذا القول ضعيف لانه ليس في القران الا العربي لا سيما والاشتقاق هذا اللفظ من اللغة العربية ظاهر وعن ابي هريرة وابي الدردا ان طوبى شجرة في الجنة تظل الجنان كلها وقال عبيد بن عمير هي شجرة في جنة عدن اصلها في دار النبي صلى الله عليه وسلم وفي كل دار وغرفة غصن منها لم يخلق الله لونا ولا زهرة الا وفيها منها الا السواد ولم يخلق الله تعالى فاكهة ولا ثمرة الا وفيها ينبع من اصلها عينان الكافور والسلسبيل وقال مقاتل كل ورقة منها تظل امة عليها ملك يسبح الله تعالى بانواع التسبيح وعن ابي سعيد الخدري ان رجلا سال النبي صلى الله عليه وسلم ما طوبى قال شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة ثياب اهل الجنة تخرج من اكمامها وعن معاوية بن قرة عن ابيه يرفعه طوبى شجرة غرسها الله بيده ونفخ فيها من روحه تنبت الحلي والحلل وان اغصانها لترى من وراء سور الجنة وفي رواية عن ابي هريرة

انه قال ان في الجنة شجرة يقال لها طوبى يقول الله تعالى لها تفتقي لعبدي عما شاء فتنفتق له عن فرس مسرجة بلجامها وهيئتها كما شاء وتنفتق له عن راحلة برحلها وزمامها وهيئتها كما يشاء وقيل طوبى فعلى من الطيب قلبت ياؤه واوا لضمة ما قبلها مصدر لطاب كبشرى وزلفى ومعنى طوبى لك اصبت خيرا وطيبا كذلك
اي مثل ارسال الرسل الذي قدمنا الاشارة اليهم في اخر يوسف وفي غيرها ۞
ارسلناك في امة اي جماعة كثيرة قد خلت من قبلها امم اي تقدمتها ليتلو
طال اذاهم لانبيايهم ومن امن بهم واستهزاوهم به في عدم الاجابة حتى كانهم تواصوا بهذا القول فليس ببدع ارسالك اليها عليهم اي لتقرا وحينا اي على امتك
وهم يكفرون بالرحمن من القران وشرايع الدين وهم اي والحال انهم يكفرون بالرحمن اي بالبليغ الرحمة الذي وسعت رحمته كل شي وقال قتادة هذه الاية مدنية نزلت في صلح الحديبية وذلك ان سهل بن عمرو لما جا للصلح واتفقوا على ان يكتبوا الكتاب لصلح فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقال لا نعرف الرحمن الا صاحب اليمامة يعني مسيلمة الكذاب اكتب كما كنت تكتب باسمك اللهم فهذا معنى قوله وهم يكفرون بالرحمن اي انهم يكفرون ويجحدونه قال البغوي والمعروف ان الاية مكية وسبب نزولها ان ابا جهل سمع النبي صلى الله عليه وسلم وهو في الحجر يدعو يا الله يا رحمن فرجع الى المشركين فقال ان محمدا يدعو الله ويدعو الها اخر يسمى الرحمن ولا نعرف الرحمن الا رحمن اليمامة فنزلت هذه الاية ونزل قوله تعالى قل ادعوا الله او ادعوا الرحمن ايا ما تدعوا فله الاسما الحسنى وروى الضحاك عن ابن عباس انها نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن قال الله تعالى قل لهم يا محمد ان الرحمن الذي انكرتم معرفته ربي لا اله الا هو عليه توكلت اي اعتمدت عليه في اموري كلها واليه متاب اي رجعي ومرجعكم وروي ان اهل مكة قعدوا في فنا الكعبة فاتاهم النبي صلى الله عليه وسلم وعرض عليهم الاسلام فقال له عبد الله ابن امية المخزومي سير لنا جبال مكة حتى ينفسح المكان علينا واجعل لنا فيها انهارا نزرع فيها واحيي لنا بعض موتانا لنسالهم احق ما تقول ام باطل فقد كان عيسى يحيي الموتى وسخر لنا الريح حتى نركبها الى البلاد فقد كانت الريح مسخرة لسليمان فلست باهون على ربك من سليمان فنزل قوله تعالى ولو ان قرانا سيرت به الجبال اي نقلت عن اماكنها او قطعت اي شققت به الارض من خشية الله تعالى عند قراءته فجعلت انهارا وعيونا او كلم به الموتى اي بان يحيوا وجواب لو محذوف اي لكان هذا القران لانه في غاية ما يكون من الصحة واكتفى بمعرفة السامعين مراده وهذا معنى قول قتادة قال لو فعل هذا بقران قبل قرانكم لفعل بقرانكم وقيل تقديره لما امنوا ونقل عن الفرا ان جواب لو هي الجملة من قوله وهم يكفرون في الكلام تقديم وتاخير وما بينهما اعتراض وتقدير الكلام

وهم يكفرون بالرحمن لو ان قرانا سيرت به الجبال او قطعت به الارض او كلم به الموتى لكفروا بالرحمن ولم يؤمنوا لما سبق من علمنا فيهم فان قيل لم حذفت التاء في قوله تعالى وكلم به الموتى وثبتت في الفعلين قبله اجيب بانه من باب التغليب لان الموتى يشمل المذكر والمونث بل لله الامر اي القدرة على كل شي جميعا وهذا اضراب عما تضمنته لو من معنى النفي اي بل الله قادر على الاتيان بما اقترحوه من الايات لكن الارادة لم تتعلق بذلك لعلمه تعالى لا يلين قلوبهم ويويد ذلك قوله تعالى افلم ييأس الذين امنوا عن ايمانهم مع ما راوا من احوالهم وذهب اكثرهم الى ان معناه افلم يعلم الذين امنوا ان اي بانه لو يشاء الله اي الذي له صفات الكمال لهدى الناس جميعا الى الايمان من غير اية ولكنه تعالى لم يشاء هداية جميع الخلايق ولا يزال الذين كفروا اي جميع الكفار تصيبهم بما اي بسبب ما صنعوا قارعة اي نازلة وداهية تقرعهم بانواع البلا
تارة بالجدب وتارة بالسلب وتارة بالقتل وتارة بالاسر وغير ذلك واختلف في الكفار على قولين قيل اراد به جميع الكفار لان الوقايع الشديدة التي وقعت لبعض الكفار من ذلك اوجبت حصول الغم في قلب الكل وقيل المراد الكفار من اهل مكة ۞
والالف واللام للمعهود السابق ويدل لهذا قول ابن عباس اراد بالقارعة السرايا التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعثها اليهم او تحل اي تنزل نزولا ثابتا تلك القارعة قريبا من دارهم اي قوم من امرهم وقيل معناه او تحل انت يا محمد بجيشك قريبا من دارهم بمكة كما حل بالحديبية حتى ياتي وعد الله اي بالنصر وظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم ودينه بفتح مكة او بالنصر على جميع الكفرة في زمن عيسى عليه السلام فينقطع ذلك لانه لا يبقى على الارض كافر وقيل اراد بوعد الله يوم القيمة لان الله يجمعهم فيه فيجازيهم باعمالهم ان الله لا يخلف الميعاد لامتناع الكذب في كلامه تعالى ولما كان الكفار يسالون هذه الايات منه صلى الله عليه وسلم على سبيل الاستهزا والسخرية وكان ذلك يشق عليه ويتاذى من تلك الكلمات انزل الله تعالى تسلية له وتصبيرا على سفاهة قومه ولقد استهزئ برسل من قبلك كما استهزي بك فامليت للذين كفروا اي اطلت المدة بتاخير العقوبة ثم اخذتهم بالعقوبة فكيف كان عقاب اي هو واقع موقعه فكذلك افعل بمن استهزا بك والاملا الامهال بان يترك ملاوة من الزمان في راحة وامن كالبهيمة يملى لها في المرعى وهذا استفهام معناه التعجب وفي ضمنه وعيد شديد لهم وجواب عن اقتراحهم الايات على رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل الاستهزا ثم انه تعالى اورد على المشركين مجرى الحجاج وما يكون توبيخا لهم وتعجيبا من عقولهم فقال تعالى افمن هو قايم اي رقيب على كل نفس بما كسبت اي عملت من خير وشر وهو الله تعالى القادر على كل الممكنات العالم بجميع المعلومات من الجزئيات والكليات ولا بد لهذا الكلام من جواب فان قيل من موصولة صلتها هو قايم والموصول مرفوع بالابتدا وخبره محذوف تقديره كمن ليس بهذه الصفة

وهي الاصنام التي لا تنفع ولا تضر ودل على هذا المحذوف قوله تعالى وجعلوا لله شركاء
ونظيره قوله افمن شرح الله صدره للاسلام الاية تقديره كمن قسي قلبه يدل عليه قوله فويل
للقاسية قلوبهم من ذكر الله وانما حسن حذف الخبر كونه مقابلا للمبتدا وقد جاء مبينا كما
كقوله تعالى افمن يخلق كمن لا يخلق وقوله تعالى قل سموهم فيه تنبيه على ان هولاء الشر[كاء]
لا يستحقونها والمعنى سموهم باسمائهم الحقيقية فانهم اذا عرفت حقايقهم انها حجارة
او غير ذلك مما هو مركز العجز ومحل الفقر عرف ما هم عليه من سخافة العقول وركاكة الآرا
ثم قل رجعتم عن ذلك الاقرار بانهم من جملة عبيده ام تنبئونه اي تخبرونه بما
لا يعلم وعلمه محيط بكل شيء في الارض من كونها آلهة ببرهان قاطع ام تسمونهم
شركاء بظاهر من القول اي بحجة اقناعية تقال بالفم وكل ما لا يعلم فليس بشيء وهذا
احتجاج بليغ على اسلوب عجيب ينادي على نفسه بالاعجاز ولما كان التقدير ليس لهم
على شيء من هذا برهان قاطع ولا قول ظاهر بني عليه قوله تعالى بل زين اي وقع
التزيين بامر من لا يرد امره على يد من كان من شياطين الانس وشياطين الجن للذين
كفروا مكرهم اي امرهم اي الذي ارادوا به ما يراد بالمكر من اظهار شيء وابطان غيره
وذلك انهم اظهروا ان شركاءهم آلهة حقا وهم يعلمون بطلان ذلك وليس لهم في الباطن
الا تقليد الآباء واظهروا انهم يعبدونها لتقربهم الى الله زلفى ولتشفع لهم وهم لا
يعتقدون بعثا ولا نشورا فصار كل ذلك من فعلهم فعل الماكر وصدوا غيرهم عن
السبيل اي طريق الهدى الذي لا يقال لغيره سبيل فان غيره عدم بل العدم خير منه
فهم لم يسلكوا السبيل ولا تركوا غيرهم يسلكه فضلوا واضلوا وليس ذلك بعجب
فان الله اضلهم ومن يضلل الله الذي له الامر كله بارادة اضلاله فما له من هاد وقرا
ابن كثير باثبات الياء بعد الدال في الوقف دون الوصل والباقون بغير ياء وقفا ووصلا
وكذلك من واق وكذا ولا واق ولما اخبر الله تعالى بتلك الامور المذكورة بين انه جمع لهم
بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة بقوله تعالى لهم عذاب في الحياة الدنيا بالقتل والاسر
والذم والاهانة واغتنام الاموال واللعن ونحو ذلك مما فيه غيظهم ولعذاب الآخرة
اشق اي اشد في المشقة بسبب القوة والشدة وكثرة الانواع والدوام وعدم
الانقطاع ثم بين تعالى ان احدا لا يقيهم من عذابه بقوله تعالى وما لهم من الله من واق اي
مانع يمنعهم اذا اراد بهم سوءا في الدنيا ولا في الآخرة والواقي فاعل من الوقاية وهي
الحجز بما يدفع الاذية ولما ذكر تعالى عذاب الكفار في الدنيا والآخرة اتبعه بذكر ثواب
المتقين بقوله تعالى مثل اي صفة الجنة اي هي مقرهم التي وعد المتقون
واختلف في اعراب ذلك على اقوال الاول قال سيبويه مثل الجنة مبتدا
وخبره محذوف والتقدير فيما قصصنا عليكم مثل الجنة والثاني قال الزجاج
مثل الجنة جنة من صفتها كذا وكذا والثالث مثل الجنة مبتدا وخبره تجري من
تحتها الانهار كما تقول صفة زيد اسمر والرابع الخبر اكلها اي ماكولها
دائم لانه الخارج عن العادة فقد وصف الله تعالى الجنة بثلاثة اوصاف

الاول تجري من تحتها اي تحت قصورها واشجارها الانهار الثاني ان اكلها دائم لا ينقطع ابدا
بخلاف جنة الدنيا والثالث قوله تعالى وظلها اي دائم ليس كظل الدنيا لا تنسخه الشمس
ولا غيرها اذ ليس فيها شمس ولا قمر ولا ظلمة بل ظل ممدود لا ينقطع ولا يزول ثم انه تعالى
لما وصف الجنة بهذه الصفات الثلاثة بين تعالى انها للمتقين بقوله تعالى تلك اي
الجنة العالية الاوصاف عقبى اي آخر امر الذين اتقوا اي الشرك ثم كرر الوعيد للكافرين
بقوله تعالى وعقبى اي منتهى امر الكافرين النار لا غير وفي ترتيب لتطميع المتقين
واقناط للكافرين واختلف في قوله تعالى والذين آتيناهم الكتاب على قولين الاول انهم
اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم والمراد بالكتاب القرآن يفرحون بما انزل اليك من
انواع التوحيد والعدل والنبوة والبعث والاحكام والقصص ومن الاحزاب اي
الجماعات من اليهود والنصارى وسائر الكفار من ينكر بعضه وهذا قول الحسن وقتادة
فان قيل الاحزاب منكرون كل القرآن اجيب بانهم لا ينكرون كل ما في القرآن لانه ورد فيه
اثبات الله تعالى واثبات علمه وقدرته وحكمته واقاصيص الانبياء والاحزاب لا ينكرون
كل هذه الاشياء والقول الثاني ان المراد بالكتاب التوراة وباهل الذين اسلموا من اليهود
والنصارى كعبد الله بن سلام واصحابه ومن اسلم من النصارى وهم ثمانون رجلا اربعون
بنجران وثمانية من اليمن واثنان وثلاثون من ارض الحبشة وفرحوا بالقرآن لانهم آمنوا به
وصدقوه والاحزاب بقية اهل الكتاب وسائر المشركين وقيل كان ذكر الرحمن قليلا في القرآن
في الابتداء فلما اسلم عبد الله بن سلام ومن تبعه من اهل الكتاب ساءهم قلة ذكر الرحمن
مع كثرة ذكره في التوراة فلما كرر الله تعالى ذكره في القرآن فرحوا به فانزل الله تعالى والذين
آتيناهم الكتاب يفرحون بما انزل اليك ومن الاحزاب من ينكر بعضه يعني مشركي مكة حين
كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتاب الصلح بسم الله الرحمن الرحيم
قالوا ما نعرف الرحمن الا رحمن اليمامة يعني مسيلمة فانزل الله تعالى وهم بذكر الرحمن هم
كافرون ثم انه تعالى لما بين هذا جمع كل ما يحتاج المرء اليه في معرفة المبدا والمعاد وبينه
بالفاظ قليلة فقال قل اي يا اكرم الخلق على الله تعالى انما امرت اي وقع علي
الامر الجازم الذي لا شك فيه ولا تغير ممن له الامر كله ان اعبد الله ولذلك
قال ولا اشرك به شيئا اليه وحده ادعو واليه مآب اي مرجعي للجزاء
لا الى غيره وكذلك اي كما انزلنا الكتب على الانبياء بلسانهم كذلك انزلناه اي القرآن
حكما والحكم فصل الامر على الحق عربيا بلسانك ولسان قومك وانما سمي القرآن حكما
لان فيه جميع التكاليف والحلال والحرام والنقض والابرام فلما كان سببا للحكم جعل نفس الحكم
على سبيل المبالغة وروي ان المشركين كانوا يدعون النبي صلى الله عليه وسلم الى ملة آبائه
فوعده الله تعالى على متابعتهم في تلك المذاهب بان يصلي الى قبلتهم بعد ما حوله
الله تعالى عنها بقوله تعالى ولئن اتبعت اهواءهم اي الكفار فيما يدعونك اليه من ملتهم
بعد ما جاءك من العلم اي بانك على الحق وان قبلتك هي الكعبة ما لك من
الله من ولي اي ناصر ولا واق اي مانع من عذابه قال ابن عباس الخطاب مع

النبي صلى الله عليه وسلم والمراد امته ونزل لما عير النبي صلى الله عليه وسلم الكفار
بكثرة النسا **ولقد ارسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم ازواجا** اي نسا نكحوهن فكان لسليمان
ثلثمائة امراة وسبعمائة سرية وكان لداوود عليه السلام مائة امراة **وذرية** اي
اولادا فانت مثلهم فكانوا يقولون ايضا لو كان رسولا من عند الله لكان اي شي
طلبناه منه من المعجزات اتى به فرد الله تعالى عليهم بقوله تعالى **وما كان لرسول**
ان ياتي باية الا باذن الله اي بارادته لان المعجزة الواحدة كافية في ازالة العذر
والعلة وفي اظهار الحجة والبينة واما الزايد عليها فهو مفوض الى مشية الله
تعالى ان شا اظهرها وان لم يشا لم يظهرها فلا اعتراض لاحد عليه في ذلك ولما
توعدهم صلى الله عليه وسلم نزول العذاب وظهور النصرة له ولقومه وتاخر
ذلك عنهم قالوا لو كان نبيا صادقا لما ظهر كذبه فرد الله عليهم بقوله تعالى
لكل اجل اي مدة **كتاب** اي مكتوب قد اثبت فيه ان امر كذا يكون في وقت
كذا من الثواب والعقاب والاحكام والاتيان بالايات وغيرها اثباتا ونسخا على
ما تقتضيه الحكمة وما اعترضوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا ان محمدا
يامر اصحابه بامر اليوم ثم يامر بخلافه غدا وما سبب ذلك الا انه يقوله من تلقا نفسه
فرد الله تعالى عليهم بقوله تعالى **يمحو الله ما يشا** اي يمحوه من الشرايع والاحكام
وغيرها بالنسخ فيرفعه **ويثبت** ما يشا اثباته من ذلك بان يقره ويمضي
حكمه كقوله تعالى ما ننسخ من اية الى قوله الم تعلم ان الله على كل شي قدير
وقرا ابن كثير وابن عامر وعاصم بسكون الثا وتخفيف البا الموحدة والباقون بفتح
الثا وتشديد البا الموحدة تنبيه في هذه الاية قولان احدهما انها عامة
في كل شي كما يقتضيه ظاهر اللفظ وهذا مذهب عمر وابن مسعود وغيرهما
قالوا ان الله يمحو من الرزق ويزيد فيه وكذا القول في الاجل والسعادة والشقاوة
والايمان والكفر وروي عن عمر رضي الله عنه انه كان يطوف بالبيت وهو يبكي
ويقول اللهم ان كنت كتبتني في اهل السعادة فاثبتني فيها وان كنت كتبت علي
الشقاوة فامحني واثبتني في اهل السعادة والمغفرة فانك تمحو ما تشا وتثبت
وعندك ام الكتاب ومثله عن ابن مسعود وهذا التاويل رواه جابر عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم وفي بعض الاثار ان الله يكون قد بقي من عمره ثلاثة ايام
فيصل رحمه فيرد الى ثلاثين سنة وروي ان الله ينزل اي امره في اخر ثلاث ساعات
تبقى من الليل فينظر في الساعة منهن في ام الكتاب الذي لا ينظر فيه احد غيره فيمحو
ما يشا ويثبت والقول الثاني ان هذه الاية خاصة في بعض الاشيا دون بعض
واختلفوا على هذا القول فقال سعيد بن جبير وقتادة يمحو الله ما يشا من الشرايع والفرايض
فينسخه ويبدله ويثبت ما يشا منها فلا ينسخه وقال ابن عباس يمحو الله ما يشا
ويثبت الا الرزق والاجل والسعادة والشقاوة واستدل لهذا بما رواه حذيفة
ابن اسيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا مر بالنطفة ثنتان

واربعون

واربعون ليلة بعث الله ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظمها
ثم قال يا رب اذكر ام انثى فيقضي ربك ما يشا ويكتب الملك ثم يقول يا رب اشقي
ام سعيد فيكتبان فيكتب عمله واثره واجله ورزقه ثم تطوى الصحف فلا يزاد ولا
ينقص وقال عطية عن ابن عباس هو الرجل يعمل بطاعة الله تعالى ثم يرجع لمعصية
الله تعالى فيموت على ضلاله فهو الذي يمحو والذي يثبت يعمل الرجل بطاعة الله فيموت
وهو في طاعته فهو الذي يثبت وقال الحسن يمحو ما يشا من جا اجله يذهب به
ويثبت من لم يجي اجله الى اجله وعن سعيد بن جبير قال يمحو ما يشا من ذنوب العباد
فيغفرها ويثبت ما يشا فلا يغفرها وقال عكرمة يمحو الله ما يشا من الذنوب بالتوبة بذ
ويثبت بدل الذنوب حسنات كما قال تعالى فاولئك يبدل الله سيئاتهم
حسنات وقال السدي يمحو الله ما يشا يعني القمر ويثبت ما يشا يعني الشمس
بيانه قوله تعالى فمحونا اية الليل وجعلنا اية النهار مبصرة وقال الربيع هذا في
الارواح يقبضها الله تعالى عند النوم فمن اراد موته امسكه ومن اراد بقاه ابقاه
ورده الى صاحبه بيانه قوله تعالى الله يتوفى الانفس حين موتها الاية وقيل ان الله
تعالى يثبت في كل سنة حكمها فاذا مضت السنة محاه واثبت حكما اخر
للسنة المستقبلة وقيل يمحو الله الدنيا ويثبت الاخرة وقيل ان الحفظة
يكتبون جميع اعمال بني ادم واقوالهم فيمحو الله من ديوان الحفظة ما ليس فيه ثواب
ولا عقاب وقيل هذا في المحن والمصايب فهي مثبتة في الكتاب ثم يمحوها بالدعا
والصدقة **وعنده** تعالى **ام الكتاب** اصل الكتب والعرب تسمي كل ما يجري
مجرى الاصل للشي اما ومنه ام الراس للدماغ وام القرى لمكة وكل مدينة فهي ام
لما حولها من القرى فكذلك ام الكتاب هو الذي يكون اصلا لجميع الكتب وفيه
قولان الاول انه اللوح المحفوظ الذي لا يغير ولا يبدل وجميع حوادث العالم
العلوي والسفلي يثبت فيه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال كان الله ولا
شي ثم خلق اللوح واثبت فيه احوال جميع الخلق الى قيام الساعة والقول الثاني ان ام
الكتاب واصله الذي لا يتغير منه شي وهو الذي كتب في الازل وقال ابن عباس
في رواية عكرمة هما كتابان سوى ام الكتاب يمحو ما يشا منه ويثبت وعنده ام
الكتاب لا يتغير منه شي وعلى هذا فالكتاب الذي يمحو منه ويثبت هو الكتاب
الذي تكتبه الملايكة على الخلق وعن ابن عباس قال ان لله لوحا محفوظا مسيرة
خمسمائة عام من درة بيضا له دفتان من ياقوت لله فيه في كل يوم ثلثمائة وستون لحظة
يمحو ما يشا ويثبت وعنده ام الكتاب وسال ابن عباس كعبا عن ام الكتاب
فقال علم الله ما هو خالق وما خلقه ولما كان من مقترحاتهم وطلبهم استعجال
السيئة مما توعدوا به وكانت النفس ربما تمنت وقوع ذلك للبعض
وانه لن يومن غيره تسرعا لفصل النزاع قال تعالى **وان ما نرينك** يا محمد واكده
بتاكيد الاعلام بانه لا حرج عليه في ضلال من ضل بعد ابلاغه **بعض الذي نعدهم**

اي من العذاب وانت حي مما نريد او نريد اصحابك قبل وفاتك فذلك شافيك
من اعدائك والوعد الخبر من خير مضمون والوعيد الخبر عن شر مضمون والمعني
هٰهنا عليه وسماه وعدا لسرورهم اياه في طلبه وله منزلة الوعد او نتوفينك
اي قبل ان نريك ذلك فلا لوم عليك ولا عتب فانما عليك البلاغ اي ليس عليك
الا تبليغ الرسالة اليهم وليس عليك ان تجازيهم ولا ان تاتيهم بالمقترحات
والبلاغ اسم اقيم مقام التبليغ واما فيه ادغام نون ان الشرطية في ما الزائدة
وعلينا الحساب اي علينا لا عليك ان نحاسبهم يوم القيمة فنجازيهم باعمالهم
فلا تحتفل باعراضهم ولا تستعجل بعذابهم تنبيه قال ابو حيان هنا شرطان
لان المعطوف على الشرط شرط فيقدر لكل شرط ما يناسبه ان يكون جزاء مترتبا
عليه والتقدير واما نرينك بعض الذي نعدهم فذلك شافيك من اعدائك
وان نتوفينك قبل حلوله بهم فلا لوم عليك ولا عتب وقد مرت الاشارة الي
ذلك ولما وعد تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بان يريه بعض ما يعدهم او يتوفاه
قبل ذلك بين تعالى ان اثار حصول تلك المواعيد وعلاماتها قد ظهرت وقويت
بقوله تعالى اولم يروا اي كفار مكة انا ناتي الارض اي ارض هولاء الكفرة
ننقصها من اطرافها بما يفتح الله تعالى على المسلمين من ديار الشرك ارضا بعد
ارض حوالي ارضهم هذا قول ابن عباس وقال قتادة وجماعة وقال مجاهد
هو خراب الارض وقبض اهلها وعن عكرمة قال هو قبض الناس وعن الشعبي
مثله وعطا وجماعة نقصانها موت العلما وذهاب الفقها ويويد هذا ما رواه
عمرو بن العاص انه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله
لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلما حتى اذا لم يبق عالما اتخذ
الناس روسا جهالا فسيلوا فافتوا بغير علم فضلوا واضلوا وقال الحسن قال
عبد الله بن مسعود عليكم بالعلم قبل ان يقبض وقبضه ذهاب اهله وقال
علي انما مثل الفقها كمثل الالف اذا قطعت لم تعد وقال سليمان لا يزال الناس
بخير ما بقي الاول حتى يتعلم الاخر واذا هلك الاول قبل ان يتعلم الاخر هلك
الناس وقيل لسعيد بن جبير ما علامة هلاك الناس قال هلاك علمائهم
ثم اثبت تعالى لنفسه امرا كليا فقال والله اي الملك الاعلى يحكم في خلقه
بما يريد لانه لا معقب اي لا راد لان المعقب يرد الشي بعد فصله لحكمه
وقد حكم للاسلام بالاقبال وعلى الكفر بالادبار وذلك كائن لا يمكن تغييره
تنبيه محل جملة لا معقب لحكمه النصب على الحال كانه قيل والله يحكم نافذا حكمه
كما تقول جا زيد لا عمامة على راسه ولا قلنسوة تريد حاسرا وهو عز وجل مع
تمام القدرة سريع الحساب فيحاسبهم عما قليل في الاخرة بعد ما عذبهم
بالقتل والاجلاء في الدنيا وقال ابن عباس يريد سريع الانتقام يعني حسابه
بالمجازاة بالخير والشر مجازاة الكفار بالانتقام منهم ومجازاة المومنين

بايصاله الثواب اليهم وقد تقدم الكلام على معنى سريع الحساب قبل هذا وقوله
تعالى وقد مكر الذين من قبلهم اي من كفار الامم الماضية فقد مكروا بانبيائهم مثل نمرود
مكر بابراهيم وفرعون مكر بموسي واليهود مكروا بعيسى في تسلية للنبي صلى الله عليه
وسلم وقوله تعالى فلله المكر جميعا اي مكر جميع الماكرين حاصل بتخليقه وارادته
لانه تعالى هو الخالق لجميع اعمال العباد فالمكر لا يضر الا باذنه ولا يوثر الا بتقديره
فيه امان له صلى الله عليه وسلم من مكرهم فكانه قيل اذا كان حدوث المكر من الله
وتاثيره في الممكور به من الله وجب ان لا يكون الخوف الا من الله تعالى لا من احد
من المخلوقين وذهب بعض المفسرين الى ان المعنى فلله جزا المكر وذلك انهم لما
مكروا بالمومنين بين الله تعالى انه يجازيهم على مكرهم قال الواحدي والاول اظهر
القولين بدليل قوله تعالى يعلم ما تكسب كل نفس اي ان اكساب العباد معلومة
لله تعالى وخلاف المعلوم ممتنع الوقوع واذا كان كذلك فلا قدرة للعبد على الفعل
والترك فكان الكل من الله فيجازيهم على اعمالهم وفي ذلك وعيد وتهديد للكفار الماكرين
ثم انه تعالى اكد ذلك التهديد بقوله تعالى وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار اي العاقبة
المحمودة في الدار الاخرة الهم ام للنبي صلى الله عليه وسلم واصحابه وقرا نافع
وابن كثير وابو عمرو بالالف بعد الكاف على الافراد والكاف مفتوحة والفا مكسورة
مخففة والباقون بالالف بعد الفا على الجمع فالكاف مضمومة والفا
مفتوحة مشددة فمن قرا بالافراد اراد الجنس كقوله تعالى ان الانسان لفي خسر
ليوافق قراة الجمع وقال عطا المستهزئين وهم خمسة والمقتسمين وهم ثمانية
وعشرون وقال ابن عباس يريد ابا جهل قال الرازي والاول هو الصواب
اي ليوافق قراة الجمع كما مر ولما تقدم قوله تعالى ويقول الذين كفروا لولا انزل عليه
اية عطف عليه بعد شرح ما استتبعه قوله تعالى ويقول الذين كفروا لست مرسلا اي
لكونك لا تاتي بمقترحاتهم مع انه صلى الله عليه وسلم لم يقل يوما انه قادر عليها فكانه
قيل فما اقول لهم فقال تعالى قل لهم كفى بالله الذي له الاحاطة الكاملة شهيدا
اي بليغ العلم في شهادته بالاطلاع على ما ظهر وما بطن بيني وبينكم يشهد بتاييد
رسالتي وتصحيح مقالتي بما ظهر لي من الاية واوضح من الدلالة بهذا الكتاب ويشهد
بتكذيبهم بادعايكم القدرة على المعارضة وترككم لها عجزا وهذا اعلى مراتب الشهادة
لان الشهادة قول يفيد غلبة الظن بان الامر كما شهد به والمعجزة فعل مخصوص يوجب
القطع بكونه رسولا من عند الله واختلف في قوله تعالى ومن عنده علم الكتاب فروى
العوفي عن ابن عباس انهم علما اليهود والنصارى اي ان كل من كان عالما من اليهود
بالتوراة ومن النصارى بالانجيل علم ان محمدا نبي مرسل من عند الله لما يجد من
الدلايل الدالة على نبوته فيها شهد بذلك من شهد به وانكره من انكره منهم والثاني
ان المراد شهادة اهل الكتاب من الذين امنوا وهم عبد الله بن سلام وسلمان الفارسي
وتميم الداري وقال الحسن ومجاهد والزجاج وسعيد بن جبير ومن عنده علم الكتاب

هو الله تعالى قال الحسن لا واله لا ينبغي الا الله والمعنى كفى بالله الذي يستحق العبادة
وبالذي لا يعلم علم ما في اللوح الا هو شهيدا بيني وبينكم وهذا اظهر كما استظهره البقاعي
وان كان عطف الصفة على الموصوف خلاف الاصل اذ يقال شهد بهذا زيد الفقيه
لا زيد والفقيه لانه جائز في الجملة وقيل معناه ان علم ان القرآن الذي جئتكم به
معجز ظاهر وبرهان باهر لما فيه من الفصاحة والبلاغة والاخبار عن الغيوب وعن
الامم الماضية فمن علمه بهذه الصفة كان شهيدا بيني وبينكم والله اعلم بمراده هو
وما رواه البيضاوي تبعا للزمخشري وتبعهما ابن عادل من انه صلى الله عليه
وسلم قال من قرا سورة الرعد اعطي من الاجر عشر حسنات بوزن كل سحاب
مضى وكل سحاب يكون الى يوم القيمة وبعث يوم القيمة من الموفين بعهد الله
حديث موضوع **سورة ابرهيم عليه السلام مكية** الا قوله
تعالى الم تر الى الذين بدلوا الايتين وهي اثنتان وخمسون اية وعدد كلماتها ثمانماية
واحدى وثلاثون كلمة وعدد حروفها ثلاثة الاف واربعماية واربعة وثلاثون
حرفا **بسم الله الرحمن الرحيم** قوله تعالى **الر** تقدم الكلام اول يوسف
وهود وقوله تعالى **كتاب** خبر لمبتدا محذوف اي هذا القرآن كتاب او الر
ان قلنا انها مبتدا والجملة بعده صفة وجاز الابتدا بالنكرة لانها موصوفة تقديرا
تقديره كتاب اي كتاب يعني عظيما من بين الكتب السماوية **انزلناه اليك** يا اشرف
الخلق عند الله **لتخرج الناس** اي عامة قومك وغيرهم بدعائك اليهم **من الظلمات**
اي الكفر وانواع الضلالة **الى النور** اي الايمان والهدى قال الرازي والاية
دالة على ان طرق الكفر والبدع كثيرة وان طريق الحق ليس الا واحدا لانه تعالى
قال لتخرج الناس من الظلمات وهي صيغة جمع وعبر عن الايمان والهدى بالنور
وهو لفظ مفرد وذلك يدل على ان طرق الجهل والكفر كثيرة وان طريق العلم والايمان
ليس الا واحدا تنبيه القائلون بان معرفة الله تعالى لا يمكن تحصيلها الا من
تعليم الرسول احتجوا بهذه وذلك يدل على ان معرفة الله تعالى لا تحصل الا من
طريق التعليم واجيب بان الرسول صلى الله عليه وسلم كالمنبه واما المعرفة
فهي انما تحصل من الدليل وقوله تعالى **باذن ربهم** متعلق بالاخراج اي بتوفيقه
وتسهيله وبدل من الى النور **الى صراط** اي طريق **العزيز** اي الغالب **الحميد**
اي المحمود على كل حال المستحق لجميع المحامد وفي قوله **الله** قراتان فقرا نافع
وابن عامر برفع الها وصلا وابتدا على انه مبتدا خبره **الذي له ما في السموات
وما في الارض** اي ملكا وخلقا وقرا الباقون بالجر على انه بدل او عطف
بيان وما بعده صفة تنبيه ذهب جماعة من المحققين الى ان قولنا الله جار
مجرى الاسم العلم لذات الله سبحانه وتعالى وذهب قوم اخرون الى انه لفظ
مشتق قال الرازي والحق عندنا هو الاول لان الامة لما اجتمعت على ان
قولنا لا اله الا الله توحيد التوحيد المحض علمنا ان قولنا الله جاري مجرى

الاسم



الاسم العلم وقد قال تعالى هل تعلم له سميا اي هل تعلم من اسمه الله غير الله وذلك
يدل على ان قولنا الله اسم لذاته مخصوصة ولذا استشكل قراة الجر اذ الترتيب
الحسن ان يذكر الاسم ثم يذكر بعده الصفات كقوله تعالى هو الله الخالق البارئ
المصور واما الخالق الله فلا يحسن واجيب عن ذلك بانه لا يبعد ان تذكر الصفة
اولا ثم يذكر الاسم ثم تذكر الصفة مرة اخرى كما يقال مررت بالامام الاجل محمد
الفقيه وهو بعينه نظير قوله تعالى صراط العزيز الحميد الله الذي له ما في
السموات وما في الارض والاية تفيد حصر ما في السموات وما في الارض له لا
لغيره وذلك يدل على انه لا مالك الا الله ولا حاكم الا الله وانه تعالى خالق لاعمال
العباد لانها حاصلة في السموات والارض فوجب ان القول بافعال العباد
له بمعنى كونها مملوكة له والملك عبارة عن القدرة فوجب كونها مقدورة لله
واذا ثبت انها مقدورة لله وجب وقوعها بقدرة الله والا لكان العبد قد
منع الله تعالى من ايقاع مقدوره وذلك محال لانه تعالى لما ذكر ذلك عطف
على الكفار بالوعيد فقال تعالى **وويل للكافرين** اي الذين تركوا عبادة من
يستحق العبادة الذي له ما في السموات وما في الارض وعبدوا من لا يملك
شيئا البتة بل هو مملوك لله لانه من جملة ما في السموات وما في الارض وويل مبتدا
وجاز الابتدا به لانه دعا كسلام عليكم وللكافرين خبره وقوله تعالى **من عذاب
شديد** اي يعذبهم في الاخرة متعلق بويل ولا يضر الفصل بالخبر ثم وصفهم
بقوله تعالى **الذين يستحبون** اي يختارون **الحياة الدنيا على الاخرة** اي يؤثرونها
عليها **ويصدون عن سبيل الله** اي يمنعون الناس عن قبول دين الله **ويبغونها**
اي السبيل **عوجا** اي معوجة والاصل ويبغون لها زيغا وصلا لحذف الجار
واوصل الفعل الى الضمير **اولئك** اي الموصوفون بهذه الصفات **في
ضلال بعيد** اي عن الحق واسناد البعيد الى الضلال اسناد مجازي
لان البعيد اهل الضلال لبعدهم عن الباقي الى الفاني ثم ذكر ما يجري مجرى تكميل
النعمة والاحسان في الوجهين بقوله تعالى **وما ارسلنا من رسول** اي في زمن من
الازمان **الا بلسان** اي لغة **قومه** اما بالنسبة الى الرسول فلانه تعالى
بين ان سائر الانبيا كانوا مبعوثين الى قومهم خاصة واما انت يا محمد فمبعوث
الى عامة البشر وكان هذا الانعام في حقك اكمل وافضل واما بالنسبة
الى عامة الخلق فهو انه تعالى ذكر انه ما بعث رسولا الا بلسان اولئك القوم
ليبين لهم ما امروا به فيفهموه عنه بيسر وسرعة لان ذلك اسهل لفهم
اسرار تلك الشريعة والوقوف على حقايقها وابعد عن الغلط والخطا
تنبيه تمسكت طائفة من اليهود يقال لهم العيسوية بهذه الاية على ان محمدا
لم يرسل الا الى العرب من وجهين الاول ان القرآن لما كان نازلا بلغة العرب
لم يعرف كونه معجزة بسبب ما فيه من الفصاحة الا العرب وحينئذ لا يكون

القران بحجة الا علیهم الثاني فی لو ان قوله تعالی وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه
المراد بذلك اللسان لسان العرب وذلك يدل على انه مبعوث الى العرب فقط ورد عليهم
بان المراد بالقوم اهل دعوته والدليل على عموم الدعوة قوله تعالی قل يا ايها الناس اني
رسول الله اليكم جميعا بل الى الثقلين لان التحدي كما وقع مع الانس وقع مع الجن بدليل قوله
تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان ياتوا بمثل هذا القران لا ياتون بمثله ولو كان
بعضهم لبعض ظهيرا ثم بين سبحانه وتعالى ان الاضلال والهداية بمشيئته بقوله
تعالى فيضل الله من يشاء اضلاله ويهدي من يشاء هدايته فانه تعالی هو الهادي المضل
يفعل ما يشاء وهو العزيز في ملكه فلا راد عن مشيئته الحكيم في صنعه فلا يهدي
ولا يضل الا لحكمة ولما بين تعالى انه انما ارسل محمدا عليه الصلاة والسلام الى
الناس ليخرجهم من الظلمات الى النور وذكر كمال انعامه عليه وعلى قومه في ذلك
الارسال وفي تلك البعثة اتبع ذلك بشرح بعثة سائر الانبيا الى اقوامهم وكيفية
معاملة اقوامهم له ليكون ذلك تصبيرا له صلى الله عليه وسلم على اذى قومه وارشادا
له الى كيفية مكالمتهم ومعاملتهم فذكر تعالى على العادة المالوفة قصص بعض
الانبيا عليهم الصلاة والسلام فبدا بذكر قصة موسى عليه السلام فقال
ولقد ارسلنا موسى باياتنا اي العصا والجراد والقمل والضفادع والدم وفلق البحر
وانفجار العيون من الحجر واظلال الجبل والمن والسلوى وسائر معجزاته ان اخرج
قومك اي بني اسرايل من الظلمات اي الكفر والضلال الى النور اي الايمان
والهدى تنبيه يجوز ان تكون ان مصدرية اي بان اخرج والباقي باياتنا للحال
وهذه للتعدية ويجوز ان تكون مفسرة للرسالة بمعنى اي ويكون المعنى اي اخرج
قومك من الظلمات اي قلنا له اخرج قومك كقوله تعالى وانطلق الملا منهم ان امشوا
وذكرهم بايام الله قال ابن عباس وقال مقاتل بوقايع الله في الامم السالفة يقال
فلان عالم بايام العرب اي بوقايعهم وفي المثل من ير يوما يرى به قال الرازي معناه من
راى في يوم سروره بمصرع نفسه وقال تعالى وتلك الايام نداولها بين الناس
والمعنى عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد والترغيب والوعد ان
يذكرهم ما انعم الله عليهم وعلى من قبلهم ممن امنوا بالرسل فيما سلف من الايام
والترغيب والترهيب والوعيد ان يذكرهم بأس الله وعذابه وانتقامه ممن كذب
الرسل مثل ما سلف من الايام مثل ما نزل بعاد وثمود وغيرهم من العذاب ليرغبوا في
الوعد فيصدقوا ويحذروا من الوعيد فيتركوا الكذب وقيل بايام الله في حق موسى
ان يذكر قومه والبلا الذين كانوا تحت ايدي القبط يسومونهم سوء العذاب فخلصهم
من ذلك وجعلهم ملوكا بعد ان كانوا مملوكين ان في ذلك اي التذكير العظيم لايات
على وحدانية الله تعالی وعظمته لكل صبار اي كثير الصبر على الطاعة وعن المعصية
شكور اي كثير الشكر للنعم وانما خص الصبور والشكور بالاعتبار بالايات
وان كان فيها عبرة للكل لانهم المنتفعون بها دون غيرهم فلهذا خصهم بالايات

اي كثير الصبر على الطاعة وعن المعصية م

فكانها ليست لغيرهم فهو كقوله تعالى هدى للمتقين فان الانتفاع لا يمكن حصوله
الا لمن يكون صابرا شاكرا اما من لا يكون كذلك فلا ينتفع بها البتة ولما امره الله تعالى ان
يذكرهم بايام الله حكى عنهم انه ذكرهم بها بقوله تعالى واذ قال موسى لقومه اذكروا
نعمة الله عليكم وقوله اذ انجاكم من ال فرعون ظرف للنعمة بمعنى الانعام اي اذكروا
انعام الله عليكم في ذلك الوقت يسومونكم سوء العذاب بالاستعباد ويذبحون اي
تذبيحا كثيرا ابناءكم اي المولودين ويستحيون اي يستبقون نساءكم احيا
وذلك لقول بعض الكهنة ان مولودا يولد في بني اسرايل يكون سبب زوال ملك فرعون
فان قيل لم ذكر تعالى في سورة البقرة يذبحون بغير واو وذكره هنا مع الواو اجيب
بانها انما حذفت في سورة البقرة لانها تفسير لقوله يسومونكم سوء العذاب وفي
التفسير لا يحسن ذكر الواو وهنا ادخل الواو فيه لانه نوع اخر لانهم كانوا يعذبونهم
بانواع من العذاب غير التذبيح فليس تفسيرا للعذاب وفي ذلكم اي انعام وابتلاء
بلاء من ربكم عظيم لان الابتلا يكون ابتلاء بالنعمة والمحنة جميعا وقوله تعالى ونبلوكم
بالشر والخير فتنة فان قيل تذبيح الابناء فيه بلاء واما استحيا النساء فكيف فيه ابتلاء
اجيب بانهم كانوا يستحيونهن ويتركونهن تحت ايديهم كالاماء فكان ذلك ابتلاء
وقوله تعالى واذ اي واذكروا اذ تاذن ربكم فهو ايضا من كلام موسى عليه السلام
وتاذن بمعنى اذن كتوعد واوعد غير انه ابلغ لما في التفعل من معنى التكلف والمبالغة
لئن شكرتم يا بني اسرايل نعمتي بالتوحيد والطاعة لازيدنكم نعمة الى نعمة
ولاضاعفن لكم ما اتيتكم فان الشكر قيد الموجود وصيد المفقود والشكر عبارة عن
الاعتراف بنعمة المنعم مع تعظيمه وتوطين النفس على هذه الطريقة ثم قد يرتقي العبد
عن تلك الحالة الى ان يصير حبه للمنعم شاغلا له عن الالتفات الى النعمة ولا شك
ان منبع السعادات وعنوان كل الخيرات محبة الله تعالى ومعرفته واما الزيادة في
النعمة فهي على قسمين روحانية وجسمانية فالاولى هي ان الشاكر يكون ابدا في
مطالعة اقسام نعمة الله وانواع فضله وكرمه واما الثانية فلان الاستقرا
ادل على ان كل من كان اشتغاله بشكر نعم الله اكثر كان وصول نعم الله اكثر نسال
الله تعالى القيام بواجب شكر النعمة حتى يزيدنا من فضله وكرمه واحسانه ويفعل
ذلك باهلنا واحبابنا ثم انه تعالى لما ذكر ما يستحقه الشاكر ذكر ما يستحقه
مقابله بقوله تعالى ولئن كفرتم اي جحدتم النعمة بالكفر والمعصية لاعذبنكم دل
عليه ان عذابي لشديد اي لمن كفر نعمتي ولا يشكرها ومن عادة اكرم الاكرمين
ان يصرح بالوعد ويعرض بالوعيد ولما بين موسى ان الاشتغال بالشكر يوجب
تزايد الخيرات في الدنيا والاخرة والاشتغال بكفران النعم يوجب العذاب الشديد
وحصول الافات في الدنيا والاخرة بين بعده ان منافع الشكر ومضار الكفران لا
تعود الا الى صاحب الشكر وصاحب الكفران واما المعبود والمشكور فانه متعال
عن ان ينتفع بالشكر او يستضر بالكفران فلا جرم قال تعالى وقال موسى ان تكفروا

ان تكفروا انتم يا بني اسرايل واكرم بقوله تعالى جميعا اي من الثقلين فانما
ضرر ذلك يعود على انفسكم وحرمتموها الخير كله فان الله لغني عن جميع خلقه فلا
يزداد بشكر الشاكرين ولا ينقص بكفر الكافرين حميد اي محمود في جميع افعاله لانه فيها
متفضل عادل وقوله تعالى الم يأتكم يا بني اسرايل نبأ اي خبر الذين من قبلكم
قوم نوح وكانوا ملأ الارض و اي نبأ عاد قوم هود وكانوا اشد الناس ابدانا و نبأ ثمود
قوم صالح وكانوا اقوى الناس على نحت الصخور وبنا القصور يحتمل ان يكون من كلام
موسى او كلام مبتدا من الله تعالى لقوم محمد صلى الله عليه وسلم وهو استفهام تقرير
وقوله تعالى والذين من بعدهم اي من بعد هولاء الامم الثلاثة لا يعلمهم الا الله فيه قولان
الاول ان يكون المراد لا يعلم كنه مقاديرهم الا الله تعالى لان المذكور في القرآن
جملة فاما ذكر العدد والعمر والكيفية والكمية فغير حاصل والقول الثاني ان المراد
ذكر اقوام ما بلغنا اخبارهم اصلا كذبوا رسلا لم نعرفهم اصلا ولا يعلمهم الا الله
وكذلك كان ابن مسعود اذا قرأ هذه الاية قال كذب النسابون يعني انهم يدعون
علم الانساب الى ادم وقد نفى الله علمها عن العباد وعن ابن عباس انه قال بين عدنان
واسماعيل ثلاثون ابا لا يعرفون ونظير هذه الاية قوله تعالى وقرونا بين ذلك
كثيرا وكلا ضربنا له الامثال وكلا تبرنا تتبيرا وقوله تعالى منهم من قصصنا
عليك ومنهم من لم نقصص عليك وعنه صلى الله عليه وسلم انه كان في انتسابه
لا يجاوز معد بن عدنان بن ادد وقال تعلموا من انسابكم ما تصلون به ارحامكم وتعلموا
من النجوم ما تستدلون به على الطريق قال الرازي والقول الثاني اقرب
ولما جاءتهم اي هولاء الاقوام الذين تقدم ذكرهم رسلهم بالبينات اي الدلايل الواضحة
والمعجزات الباهرات اتوا بامور اولها ما حكاه الله تعالى عنهم بقوله فردوا
اي الامم ايديهم في افواههم وفي ذلك احتمالات ان الكفار ردوا ايديهم في
افواههم فعضوها غيظا مما جات به الرسل كقوله تعالى عضوا عليكم الانامل
من الغيظ والثاني انهم لما سمعوا كلام الانبيا عجبوا منه وضحكوا على سبيل
السخرية فعند ذلك ردوا ايديهم في افواههم كما يفعل ذلك من غلبه الضحك
فيضع يده على فيه والثالث انهم وضعوا ايديهم على افواههم مشيرين لذلك
الى الانبيا ان كفوا عن هذا الكلام واسكتوا عن ذكر هذا الحديث والرابع انهم
اشاروا بايديهم الى السنتهم والى ما تكلموا به من قولهم من الكفر كما حكى الله
تعالى ذلك عنهم بقوله تعالى وقالوا انا كفرنا بما ارسلتم به اي على زعمكم ان هذا جواب
لكم ليس عندنا غيره اقناطا لهم من التصديق هذا هو الامر الثاني الذي اتوا به
وقيل الضمير في ردوا راجع للرسل عليهم الصلاة والسلام وفيه وجهان احدهما
ان الكفار اخذوا ايدي الرسل ووضعوها على افواههم ليسكتوا ويقطعوا الكلام
والثاني ان الرسل لما ايسوا منهم سكتوا ووضعوا ايدي انفسهم على افواه انفسهم
فان من ذكر كلاما عند قوم وانكروه وخافهم فذلك المتكلم ربما وضع يد نفسه على

ما تتقبلونه

فم نفسه وغرضه ان يعرفهم انه لا يعود الى ذلك الكلام البتة والامر الثالث قولهم
وانا لفي شك مما اي شي تدعوننا ايها الرسل اليه اي من الدين مريب اي موجب
الريبة او موقع في الريبة والتهمة والريبة قلق النفس وان لا تطمئن الى الامر
الذي تشك فيه فان قيل انهم قالوا اولا انا كفرنا بما ارسلتم به فكيف يقولون ثانيا
وانا لفي شك والشك دون الكفر اجيب بانهم لما صرحوا بكفرهم بالرسل كانهم
حصل لهم شبه يوجب الشك لهم فقالوا ان لم ندع الجزم واليقين في كفرنا
فلا اقل من ان نكون شاكين مرتابين في صحة نبوتكم وعلى التقديرين فلا سبيل
الى الاعتراف بنبوتكم ولما قال هولاء الكفار للرسل ذلك قالت لهم رسلهم
مجيبين افي الله شك اي تشكون في الله وهو استفهام انكاري اي لا شك
في توحيده للدلايل الظاهرة عليه منها قوله تعالى فاطر اي خالق السموات
والارض اي وما فيهما من الانفس والارواح والارزاق وقرأ ابو عمرو رسلهم
هنا وفيما مر في جاءتهم رسلهم بالسكان السين والباقون بالرفع ولما اقاموا الدليل
على وجود الاله على ذلك وصفوه بكمال الرحمة بقولهم يدعوكم اي الى الايمان
ببعثنا وقولهم ليغفر لكم اللام متعلقة بيدعوا اي لاجل غفران ذنوبكم
كقوله دعوت لما نابني مسورا فلبي فلبي يدي مسور ويجوز ان تكون تعدية
كقوله دعوتك لزيد والتقدير يدعوكم الى غفران ذنوبكم وقولهم من ذنوبكم
قال السيوطي من زايدة فان الاسلام يغفر به ما قبله او تبعيضيه لاخراج حقوق
العباد اه والمغفور لهم ما بينهم وبين الله تعالى قال الرازي والعاقل لا يجوز
له المصير الى كلمة من كلام الله تعالى بانها زايدة من ضرورة انتهى وقال في
الكشاف ما علمته جا هكذا الا في خطاب الكافرين كقوله وانتقوه واطيعون
يغفر لكم من ذنوبكم يا قومنا اجيبوا داعي الله وامنوا به يغفر لكم من ذنوبكم وقال
في خطاب المومنين ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم وغير ذلك مما
يقف عليه الاستقرا وكان ذلك للتفرقة بين الخطابين ولان لا يسوي بين
الفريقين في الميعاد قال الرازي واما قول الكشاف فهو من باب الطامات لان
هذا التبعيض ان حصل فلا حاجة الى ذكر هذا الجواب وان لم يحصل كان هكذا
الكلام فاسدا ويوخركم اي ولا يفعل بكم فعل من تهددون من الملوك في المعاقبة
في الاهلاك لمن خالفهم بل يوخركم الى اجل مسمى اي الى وقت قد سماه وبين
مقداره يبلغكموه ان انتم امنتم به والا عاجلكم بالهلاك قبل هذا الوقت اي
انتم ما انتم فان قيل اليس قال تعالى فاذا جاء اجلهم لا يستاخرون ساعة
ولا يستقدمون فكيف قال هنا ويوخركم الى اجل مسمى اجيب بان الاجل
على قسمين معلق ومبرم قالوا اي الامم مجيبين للرسل ان اي ما انتم
ايها الرسل الا بشر مثلنا اي لا فضل لكم علينا فلم تختصون بالنبوة
دوننا ولو ارسل الله تعالى الى البشر رسلا لجعلهم من جنس اي من البشر

تمه

في زعم القايلين انه فضل وقول الكشاف وهم الملائكة جا على مذهبه تريدون ان تصدونا عما كان يعبد اباؤنا اي ما تريدون بقولكم هذا الا صدنا عن الهتنا التي كان اباؤنا يعبدونها فاتونا بسلطان مبين اي بحجة ظاهرة على صدقكم ولما حكي الله تعالى عن الكفار شبهاتهم في الطعن في النبوة حكى عن الانبيا عليهم الصلاة والسلام جوابهم عنها بقوله تعالى قالت لهم رسلهم مجيبين لهم ان اي ما نحن الا بشر مثلكم كما قلتم فسلموا ان الامر كذلك لكنهم بينوا ان التماثل في البشرية لا يمنع من اختصاص بعض بمنصب النبوة بقولهم ولكن الله يمن اي يتفضل على من يشا من عباده بالنبوة والرسالة فيصطفي من يشا من عباده لهذا المنصب الشريف العظيم كما قال تعالى الله اعلم حيث يجعل رسالته وما كان اي صح واستقام لنا ان ناتيكم بسلطان الا باذن الله الا بامره لانا عبيد مربوبون فليس الينا الاتيان بالايات ولا نستبد به استطاعتنا حتى ناتيكم بما اقترحتموه وانما هو امر متعلق بمشية الله تعالى فله ان يخص كل نبي بنوع من الايات وعلى الله فليتوكل المومنون امر منهم اي يثقوا به فلا نخاف من تخويفكم ولا نلتفت الى تهديدكم فان توكلنا على الله واعتمادنا على فضل الله فان الروح متى كانت مشرقة بالمعارف الالهية مشرقة باضواء علم الغيب فلما تبالي بالاحوال الجسمانية وقلما تغتم لها وترتا في حالتي السرا والضرا فلهذا توكلوا على الله وعولوا على فضله وقطعوا اطماعهم عمن سواه وعمموا الامر للاشعار بما يوجب التوكل وقصدوا به انفسهم قصدا اوليا الا ترى قولهم وما لنا الا نتوكل على الله اي اي عذر لنا في ان لا نتوكل عليه وقد هدانا سبلنا اي وقد عرفنا طريق النجاة وبين لنا الرشد فان من فاز بشرف العبودية ووصل الى مقام الاخلاص والمكاشفة يقبح عليه ان يرجع في امر من الامور الى غير الحق وفي هذه الاية دلالة على انه تعالى يعصم اولياه والمخلصين في عبوديته على كيد اعدايهم ومكرهم وقرا ابو عمرو بسكون البا والباقون بالرفع وكذلك لرسلهم سكن ابو عمرو السين ورفعها الباقون ثم قالوا ولنصبرن على ما اذيتمونا فان الصبر مفتاح الفرج ومطلع الخيرات والحق لابد وان يصير غالبا قاهرا والباطل لابد وان يصير مغلوبا مقهورا ثم قالوا ولنصبرن على ما اذيتمونا فان قيل اي فرق بين التوكلين اجيب بان الاول لحصول التوكل والثاني في طلب دوامه اي فليثبت المتوكلون على ما استحدثوه من توكلهم المسبب عن ايمانهم ولما حكى الله تعالى عن الانبيا عليهم السلام انهم اكتفوا في دفع شرور اعدايهم بالتوكل عليه والاعتماد عليه وعلى حفظه وحياطته حكى عن الكفار انهم بالغوا في السفاهة بقوله تعالى وعلى الله فليتوكل المتوكلون مستهينين لمن نصروا التجاهم عليه وقال الذين كفروا لرسلهم اي الى بنا لان الغلبة علينا لنخرجنكم من ارضنا اي حلفوا ليكونن احد الامرين اما اخراجكم ايها الرسل

واما عودكم الى ملتنا اي ديننا فان قيل قد يفهم هذا بظاهره انهم كانوا على ملتهم قبل ذلك اجيب بان العود هنا بمعنى الصيرورة وهو كثير في كلام العرب كثرة فاشية لا تكاد تسمعهم يستعملون صار ولكن عاد ما عادت اراه عاد لا يكلمني ما عاد لفلان مال وقد اجمعت الرسل الامة على ان الرسل من اول الامر انما نشوا على التوحيد لا يعرفون غيره ويجوز ان يكون الخطاب لكل رسول ولمن امن معه فغلبوا الجماعات على الواحد وقيل او لتعودن في ملتنا الى ما كنتم عليه قبل ادعا الرسالة من السكوت عند ذكر معايبه وعدم التعرض له بالطعن والقدح ولما ذكر الكفار هذا الكلام قال تعالى او لتعودن اي الرسل في ملتنا وقوله تعالى فاوحى اليهم اي الرسل ربهم لنهلكن الظالمين اي الكافرين حكاية تقتضي اضمار القول او اجرا الايحا مجرى القول لانه ضرب منه ولنسكننكم الارض اي ارضهم من بعدهم اي بعد هلاكهم ونظيره قوله تعالى واورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها وقوله تعالى واورثكم ارضهم وديارهم قال الزمخشري وعن النبي صلى الله عليه وسلم من اذى جاره ورثه الله داره قال ولقد عاينت هذا في مدة قريبة كان لي خال يظلمه عظيم القرية التي انا فيها ويوذيني فيه فمات ذلك العظيم وملكني الله ضيعته فنظرت يوما الى ابنا خالي يترددون فيها ويامرون وينهون فذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وحدثتهم به وسجدنا شكرا لله تعالى ذلك اي النصر وايراث الارض لمن خاف مقامي اي موقفي وهو موقف الحساب لان ذلك الموقف موقف الله الذي يقف فيه عباده يوم القيامة ونظيره واما من خاف مقام ربه وقوله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان وقيل ذلك لمن خاف مقامي اي خافني فالمقام مقحم مثل ما يقال سلام على المجلس العالي والمراد السلام على فلان وخاف وعيد قال ابن عباس ما اوعدت من العذاب وهذا يدل على ان الخوف من الله غير الخوف من وعيده ولان العطف يقتضي التغاير في نفسه قوله تعالى واستفتحوا قولا احدهما طلب الفتح اي واستنصروا الله تعالى على اعدايهم وهو كقوله تعالى ان تستفتحوا فقد جاكم الفتح والثاني الفتح الحكم والقضا اي واستحكموا الله وسالوه القضا بينهم وهو ماخوذ من الفتاحة وهي الحكومة كقوله تعالى ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق فعلى القول الاول المستفتح هم الرسل لانهم استنصروا الله ودعوا على قومهم بالعذاب لما ايسوا من ايمانهم قال نوح رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا وقال موسى ربنا اطمس على اموالهم وقال لوط انصرني على القوم المفسدين وعلى القول الثاني قال الرازي فالاولى ان يكون المستفتح هم الامم وذلك انهم قالوا اللهم ان كان هولا الرسل صادقين فعذبنا ومنه قول كفار قريش اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السما وكقول اخرين ايتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين

وخاب اي خسر وهلك كل جبار اي متكبر عن طاعة الله وقيل الذي لا يري فوقه
احدا وقيل هو المتعظم في نفسه المتكبر علي اقرانه واختلفوا في قوله تعالى عنيد
فقال مجاهد معاند للحق ومجانبه وقال ابن عباس هو المعرض عن الحق وقال مقاتل
هو المتكبر وقال قتادة هو الذي يابي ان يقول لا اله الا الله وقيل هو المعجب
بما عنده ولما حكم تعالى علي الكافر بالخيبة ووصفه بكونه جبارا عنيدا وصف
كيفية عذابه باموراولها الاول قوله تعالى من ورائه اي امامه جهنم اي
هو صاير اليها قال ابو عبيدة هو من الاضداد وقال الشاعر
عسي الكرب الذي امسيت فيه يكون وراه فرج قريب ويقال الموت
وراء كل احد وقال تعالى وكان وراءهم ملك ياخذ كل سفينة غصبا
اي امامهم وقال ثعلب هو اسم لما توارى عنك سوا كان خلفك ام قدامك
وقال ابن الانباري وراء بمعني بعد قال الشاعر
وليس وراء الله للمخلوق مهرب ومعني الاية علي هذا ان الكافر بعد الخيبة
يدخل جهنم الامر الثاني ما ذكره تعالى بقوله ويسقى اي في جهنم من ماء صديد
وهو ما يسيل من جوف اهل النار مختلطا بالقيح والدم جعل ذلك شراب اهل
النار وقال محمد بن كعب هو ما يسيل من فروج الزناة يسقاه الكافر فان
قيل علي ما عطف ويسقى اجيب بانه عطف علي محذوف تقديره من ورائه
جهنم يلقي فيها ما يلقي ويسقى من ماء صديد يتجرعه اي يتكلف ان يبتلعه
مرة بعد مرة لمرارته وحرارته ونتنه ولا يكاد يسيغه اي ولا يقدر علي
ابتلاعه قال الزمخشري كاد مبالغة يعني ولا يقارب ان يسيغه
فكيف تكون الاساغة كقوله تعالى لم يكد يراها اي لم يقرب من رويتها فكيف
يراها فان قيل كيف الجمع علي هذا الوجه بين يتجرعه ولا يكاد يسيغه اجيب
بجوابين احدهما ان المعني ولا يسيغ جميعه كانه يتجرع البعض وما اساغ
الجميع والثاني ان الدليل الذي ذكرناه دل علي وصول ذلك الشراب الي
جوف ذلك الكافر لان ذلك ليس باساغة لان الاساغة في اللغة اجراء
الشراب في الحلق واستطابة المشروب والكافر يتجرع ذلك الشراب
علي كراهة ولا يسيغه اي لا يستطيبه ولا يشربه شربا بمرة واحدة وعلي
هذين الوجهين يصح حمل لا يكاد علي نفي المقاربة الامر الثالث ما ذكره تعالى
بقوله تعالى وياتيه الموت اي اسبابه المقتضية له بانواع العذاب
من كل مكان اي من ساير الجهات وقيل من كل مكان من جسده حتى من اصول
شعره وابهام رجله وما هو بميت فيستريح وقال ابن جريج تتعلق نفسه
عند حنجرته فلا تخرج من فيه فيموت ولا ترجع الي مكان من جوفه فتنفعه
الحياة الامر الرابع ما ذكره تعالى بقوله تعالى ومن ورائه اي ومن بين يديه
بعد ذلك العذاب عذاب غليظ اي شديد كل وقت يستقبله اشد مما قبله

وقيل هو الخلود في النار وقيل هو قطع الانفاس وحبسها في الاجساد ولما ذكر
تعالى انواع عذابهم بين بعده ان ساير اعمالهم تصير باطلة ضايعة وذلك هو
الخسران الشديد بقوله تعالى مثل اي صفة الذين كفروا بربهم اي الكافرين
كصدقة وصلة رحم وفك اسير واقرا ضيف وبر والدين عدم الانتفاع بها اعمالهم
كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف اي شديد هبوب الريح فجعلته هباء منثورا
لا يقدر عليه كما قال تعالى لا يقدرون اي الكفار يوم الجزا مما كسبوا اي عملوا
في الدنيا على شيء اي لا يجدون لهم ثوابا لفقد شرطه وهو الايمان وقرا نافع الرياح
بالجمع والباقون بالافراد ذلك اشارة الي ضلالهم مع حسابهم انهم محسنون
هو الضلال البعيد اي الخسران الكبير لان اعمالهم ضلت وهلكت فلا يرجى
عودها تنبيه في ارتفاع قوله تعالى مثل اوجه احدها وهو مذهب سيبويه
انه مبتدا محذوف الخبر تقديره فيما يتلي عليكم مثل الذين كفروا وتكون الجملة
من قوله تعالى اعمالهم كرماد مستانفة علي تقدير سوال سايل يقول كيف
مثلهم فقيل اعمالهم كرماد والثاني وهو مذهب الفرا التقدير مثل اعمال الذين كفروا
بربهم كرماد فحذف المضاف اعتمادا علي ذكره بعد المضاف اليه وهو قوله تعالى
اعمالهم ومثله قوله تعالى ويوم القيمة ترى الذين كذبوا علي الله وجوههم مسودة
المعني ترى وجوه الذين كذبوا علي الله وجوههم مسودة الثالث ان يكون التقدير
صفة الذين كفروا اعمالهم كقوله صفة زيد عرضه مصون وماله مبذول
الرابع ان تكون اعمالهم بدلا من قوله مثل الذين كفروا والتقدير مثل اعمالهم
وقوله تعالى كرماد هو الخبر وقيل غير ذلك وقوله تعالى الم تر اي تنظر خطا
للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به امته وكل واحد من الكفرة على الالتفات
ان الله خلق السموات اي عظمها وارتفاعها والارض على تباعد اقطارها واتساعها
وقوله تعالى بالحق اي بالحكمة والوجه الذي يحق ان تخلق عليه متعلق
بخلق وقرا حمزة والكساي بالف بعد الخا وكسر اللام ورفع القاف وخفض الارض
والباقون بغير الف بعد الخا وفتح اللام والقاف ونصب الارض ان يشا يذهبكم
ايها الناس ويات بدلكم بخلق جديد اطوع منكم رتب ذلك علي كونه خالق
السموات والارض استدلالا به عليه فان من خلق اصولهم وما يتوقف عليه
تخليقهم قدر ان يبدلهم بخلق اخر ولم يمتنع عليه كما قال تعالى وما ذلك علي الله بعزيز اي
بممتنع فانه تعالى قادر بذاته ولا اختصاص له بمقدور دون مقدور ومن هذا شانه
كان حقيقا ان يومن به ويعبد رجا ثوابه وخوفا من عقابه يوم الجزا ولما ذكر تعالى
اصناف عذاب هولا الكفار ذكر عقبه ان اعمالهم تصير محبطة باطلة ذكر كيفية
مجادلتهم عند تمسك اتباعهم بهم وكيفية افتضاحهم عندهم بقوله تعالى وبرزوا
الخلايق من قبورهم لله جميعا والتعبير فيه وفيما ياتي بالماضي وان كان معناه
الاستقبال لتحقق وقوعه لان كل ما اخبر الله تعالى عنه فهو حق وصدق وكاين

بيان
حصل

لامحالة فصار كانه قد حصل ودخل في الوجود ونظيره ونادى اصحاب الجنة اصحاب النار
تنبيه البروز في اللغة الظهور بعد الاستتار وهو في حق الله تعالى محال فلا بد من
تاويله وهو من وجهين الاول كانوا يستترون من العيون عند ارتكاب الفواحش
ويظنون ان ذلك خاف على الله تعالى فاذا كان يوم القيمة انكشفوا عند انفسهم وعلموا
ان الله تعالى لا يخفى عليه خافية الثاني انهم قد خرجوا من قبورهم فبرزوا لحساب
الله تعالى وحكمه ثم حكى الله تعالى عنهم ان الضعفا يقولون للروسا هل تقدرون
على دفع عذاب الله تعالى عنا بقوله تعالى فقال الضعفا اي الاتباع جمع ضعيف
يريدون به ضعفا الراي للذين استكبروا اي المتبوعين الذين طلبوا الكبر وادعوه
فاستتبعوهم به حتى تكبروا على الرسل وقوله تعالى انا كنا لكم تبعا يصح ان يكون
مصدرا نعت به للمبالغة وان يكون جمع تابع اي تابعين لكم في تكذيب الرسل
فكنتم سبب ضلالنا وقد جرت عادة الاكابر بالدفع عن اتباعهم المساعدين لهم
على باطلهم فهل انتم اي في هذا اليوم مغنون اي دافعون عنا من عذاب الله
اي من انتقامه من شي فان قيل ما الفرق بين من في عذاب وبين من في شي اجيب
بان الاولى للتبيين والثانية للتبعيض كانه قيل هل انتم مغنون عنا بعض
شي هو بعض عذاب الله وعند هذا حكى الله تعالى عن الذين استكبروا انهم
قالوا لو هدانا الله اي الذي له صفات الكمال لهديناكم اي لو ارشدنا الله
تعالى لارشدناكم ودعوناكم الى الهدى ولكنه لم يهدنا فضللنا وكنتم لنا
تبعا فاضللناكم ولما كان الموجب لقولهم هذا الجزع قالوا سواء علينا اي نحن
وانتم اجزعنا ام صبرنا اي مستويان علينا الجزع والصبر والجزع ابلغ من
الحزن لانه يصرف الانسان عما هو بصدده ويقطعه عنه ما لنا من محيص اي منجى
ومهرب مما نحن فيه من العقاب تنبيه يحتمل ان يكون هذا من المتبوعين
وان يكون كلام الفريقين ويويد الثاني ماروي انهم يقولون في النار تعالوا نجزع
فيجزعون خمسماية عام فلا ينفعهم الصبر فعند ذلك يقولون ذلك
وقال محمد بن كعب القرظي بلغني ان اهل النار استغاثوا بالخزنة كما قال الله تعالى
وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب فردت
الخزنة عليهم اولم تك تاتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى فردت الخزنة عليهم
ادعوا وما دعا الكافرين الا في ضلال فلما ايسوا مما عند الخزنة نادوا يا مالك
ليقض علينا ربك سالوا الموت فلا يجيبهم ثمانين سنة والسنة ثلثماية
وستون يوما واليوم كالف سنة مما تعدون ثم يجيبهم بقوله انكم
ماكثون فلما ايسوا مما عنده قال بعضهم لبعض ذلك ولما ذكر تعالى
المناظرة التي وقعت بين الروسا والاتباع من كفرة الانس اردفها بالمناظرة
التي وقعت بين الشيطان بقوله تعالى وقال الشيطان الذي هو اول
المتبوعين في الضلال وراس المضلين والمستكبرين لما قضي الامر اي

احكم

احكم وفرغ منه وادخل اهل الجنة الجنة واهل النار النار اخذ اهل النار في لوم ابليس
وتقريعه وتوبيخه فيقوم فيهم خطيبا قال مقاتل يوضع له منبر من نار فيجتمع
اليه اهل النار يلومونه فيقول لهم ما اخبر الله تعالى به ان الله وعدكم وعد الحق اي بالبعث
والجزاء على الاعمال فصدقكم ووعدتكم ان لا جنة ولا نار ولا حشر ولا حساب فاخلفتكم
اي الوعد فلم امل شيا الا كان زيفا فاتبعتموني مع كوني عدوكم وتركتم ربكم وهو وليكم
تنبيه في الاية اضمار من وجهين الاول ان التقدير ان الله وعدكم وعد الحق فصدقكم كما
تقدم تقريره ووعدتكم فاخلفتكم وحذف ذلك لدلالة تلك الحالة على صدق ذلك
الوعد لانهم كانوا شاهدوها وليس وراء العيان بيان ولانه ذكر في وعد الشيطان
الاخلاف فدل ذلك على الصدق في وعد الله تعالى الثاني ان قوله ووعدتكم فاخلفتكم
الوعد يقتضي مفعولا ثانيا وحذف هذا للعلم به والتقدير ووعدتكم ان لا جنة ولا
نار ولا حشر ولا حساب كما تقرر ولما بين غروره بين سهولة اغترارهم زيادة في ندمهم
فقال وما كان لي عليكم من سلطان اي سلطان من مزيدة اي قوة وقدرة اقهركم على الكفر
والمعاصي والجاكم على متابعتي وقوله الا ان دعوتكم استثنا منقطع قال النحويون لان
الدعاء ليس من جنس السلطان فمعناه لكن دعوتكم فاستجبتم لي بحكم الشهوة
لان النفس تدعو الى هذه الاحوال الدنيوية ولا يتصور كيفية السعادات
الاخروية والكمالات النفسانية والله يدعو اليها ويرغب فيها كما قال والاخرة خير وابقى
قال الرازي في عندي انه يمكن ان يقال كلمة الا هاهنا استثنا حقيقي لان قدرة الانسان
على حمل الغير على عمل من الاعمال تارة تكون بالقهر والقسر وتارة تكون بتقوية الداعية
في قلبه بالقا الوساوس اليه فهذا نوع من انواع التسلط اهـ ثم قال لهم فلا تلوموني
اي لان ما كان مني الا الدعا والقا الوسوسة ولوموا انفسكم لانكم سمعتم
دلايل الله تعالى وجاءتكم الرسل فكان من الواجب عليكم ان لا تلتفتوا الي ولا
تسمعوا قولي فلما رجحتم قولي على الدلايل الظاهرة كان اللوم بكم اولى باجابتي ومتابعتي
من غير حجة ولا دليل فان قيل لم قال الشيطان فلا تلوموني وهو ملوم بسبب
اقدامه على تلك الوسوسة الباطلة اجيب بانه اراد لا تلوموني على فعلكم ولوموا
انفسكم عليه لانكم عدلتم عما توجه من هداية الله تعالى لكم ثم قال تعالى حكاية
عن الشيطان انه قال ما انا بمصرخكم اي بمغيثكم فيما يخلصكم من العذاب
فازيل صراخكم منه وما انتم بمصرخي اي بمغيثي فيما يخلصني منه وقرا ماعدا
حمزة بفتح اليا مع التشديد وقرا حمزة بكسر اليا مع التشديد على الاصل
في التقاء الساكنين لان يا الاعراب ساكنة ويا المتكلم اصلها السكون فلما التقيا
كسرت لالتقاء الساكنين قال البيضاوي وهو اصل مرفوض في مثله لما فيه من
اجتماع يائين وثلاث كسرات مع حركة يا الاضافة اهـ فقوله اصل مرفوض اي
متروك عند النحاة والا فهو قراءة متواترة عند القراء فيجب المصير اليها لانها
وردت من رب العالمين على لسان سيد المرسلين وقول القرا ولعلها من وهم القرا

فانه قل من سلم منهم من الوهم ممنوع فقد قال ابو حيان هي قراءة متواترة نقلها السلف
واقتفى اثارهم فيها الخلف فلا يجوز ان يقال فيها انها خطا او قبيحة او رديئة
وقد نقل جماعة من اهل اللغة انها لغة لكن قل استعمالها ونص على انها صواب
ابو عمرو بن العلا لما سئل عنها والقاسم بن معن من رؤسا الكوفيين قال الله تعالى
حكاية عن الشيطان انه قال انى كفرت بما اشركتمون من قبل اي كفرت اليوم باشراككم
اياي من قبل هذا اليوم اي في الدنيا كقوله تعالى ويوم القيمة يكفرون بشرككم
ومعنى كفره باشراكهم اياه تبروه منه واستنكاره له كقوله انا برا منكم
ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم روى البغوي بسنده عن عقبة بن عامر
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة يقول عيسى ذلك
النبي الامي فياتون فياذن الله لي ان اقوم فيثور مجلسي من اطيب ريح شمها
احد حتى اتي ربي فيشفعني ويجعل لي نورا من شعر راسي الى ظفر قدمي
ثم يقول الكفار قد وجد المومنون من يشفع لهم فمن انت فاشفع لنا فانك
اضللتنا فيقوم فيثور مجلسه انتن ريح شمها احد ثم يعظم لجهنم
ويقول عند ذلك ان الله وعدكم وعد الحق الاية قال في الكشاف وقوله
ان الظالمين اي الكاذبين لهم عذاب اليم اي مولم من كلام الله تعالى ويحتمل
ان يكون من جملة قول ابليس وانما حكى الله تعالى ما سيقوله في ذلك الوقت
ليكون لطفا للسامعين في النظر لعاقبتهم والاستعداد لما لا بد لهم من الوصول
اليه وان يتصوروا في انفسهم ذلك المقام الذي يقول فيه الشيطان
ما يقول فيخافوا ويعملوا ما يخلصهم منه وينجيهم ولما بلغ سبحانه وتعالى
في شرح حال الاشقيا من الوجوه الكثيرة شرح احوال السعدا وما اعد لهم من
الثواب العظيم والاجر الجزيل وذلك ان الثواب منفعة خالصة دايمة مقرونة
بالتعظيم فالمنفعة الخالصة اليها الاشارة بقوله تعالى وادخل الذين امنوا وعملوا
الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار وكونها دايمة اشير اليها بقوله تعالى خالدين
فيها وهو حال مقدرة والتعظيم حصل لهم من وجهين احدهما قوله تعالى
باذن ربهم لان تلك المنافع انما كانت تفضلا من الله تعالى وانعاما وثانيهما قوله
تعالى تحيتهم فيها سلام لان بعضهم يحيي بعضا بهذه الكلمة والملايكة يحيونهم
بها كما قال تعالى والملايكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم والرب
يحييهم ايضا بهذه التحية كما قال تعالى سلام قولا من رب رحيم ويحتمل
ان يكون المراد انهم لما دخلوا الجنة سلموا من جميع افات الدنيا وحسراتها
وفنون الامها واسقامها وانواع همومها وغمومها لان السلام مشتق
من السلامة ولما شرح سبحانه وتعالى احوال الاشقيا واحوال السعدا
ذكر مثلا يبين الحال في حكم هذين القسمين بقوله تعالى الم تر اي تنظر والخطاب
يحتمل ان يكون للنبي صلى الله عليه وسلم ويدخل معه غيره وان يكون لكل

تطرب على انها لغة في بني مربوع ونص صح

فرد من الناس اي الم تر ايها الناس كيف ضرب الله اي المحيط بكل شي علما وقدرة
مثلا سيره بحيث يتم نفعه والمثل قول سائر يشبه فيه حال الثاني بالاول
ثم بينه بقوله تعالى كلمة طيبة قال ابن عباس واكثر المفسرين هي لا اله الا الله
كشجرة طيبة قال ابن مسعود وانس هي النخلة وعن ابن عباس هي شجرة
في الجنة وعن ابن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم ان الله تعالى
ضرب مثل المومن شجرة فاخبروني ما هي قال عبد الله فوقع الناس في شجر البوادي
وكنت صبيا فوقع في قلبي انها النخلة فهبت رسول الله صلى الله عليه وسلم
ان اقولها وانا اصغر القوم وروي فمنعني مكان عمر فاستحييت فقال له عمر
يا بني لو كنت قلتها لكانت احب الي من حمر النعم ثم قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم الا انها النخلة قيل الحكمة في تشبيه الانسان بالنخلة من بين ساير
الاشجار ان النخلة اشبه به من حيث انها اذا قطعت راسها يبست وساير
الاشجار تتشعب من جوانبها بعد قطع راسها وانها تشبه الانسان بحيث
انها لا تحمل الا باللقاح لانها خلقت من فضلة طين ادم عليه السلام ولذلك
قال صلى الله عليه وسلم اكرموا عمتكم قيل ومن عمتنا قال النخلة اصلها
ثابت اي في الارض وفرعها اي غصنها في السما اي في جهة العلو والصعود
ولم يرد المظلة كقولك في الجبل طويل في السما تريد ارتفاعه وشموخه
تؤتي اكلها اي تعطي كل حين اي ثمرها باذن ربها اي بارادته والحين
في اللغة الوقت يطلق على القليل والكثير واختلفوا في مقداره هنا فقال مجاهد الحين
هنا سنة كاملة لان النخلة تثمر في كل سنة مرة وقال قتادة ستة اشهر
يعني من حين طلعها الى وقت صرامها وقال الربيع كل حين يعني كل غدوة وعشية
لان ثمر النخل يوكل ليلا ونهارا وصيفا وشتا فيوكل منها الجمار والطلع
والبلح والخلال والبسر والمنصف والرطب وبعد ذلك يوكل التمر اليابس
الى حين الطري الرطب فاكلها دايم في كل وقت قال العلما ووجه الحكمة
في تمثيل كلمة الاخلاص بالشجرة لان الايمان ثابت في قلب المومن كثبوت
اصل هذه الشجرة في الارض وعمله يصعد الى السما كما قال تعالى اليه يصعد
الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه فكذلك فرع هذه عال في السما وتنال
بركته وثوابه كل وقت فالمومن كلما قال لا اله الا الله صعدت الى السما وجاءه
بركتها وخيرها وثوابها ومنفعتها ولان الشجرة لا تكون شجرة الا بثلاثة اشيا
تصديق القلب وقول اللسان وعمل بالابدان ثم نبه تعالى على عظم هذا المثل
ليقبل على تدبره ليعلم المراد منه فيلزم فقال ويضرب الله اي الذي له الاحاطة
الكاملة الامثال للناس لعلهم يتذكرون اي يتعظون فان في ضرب الامثال زيادة
افهام وتذكير وتصوير للمعاني العقلية فيحصل الفهم التام والوصول الى
المطلوب ولما ذكر مثل حال السعدا اتبعه بمثل حال الاعدا فقال

طة

ومثل كلمة خبيثة هي كلمة الكفر كشجرة خبيثة هي الحنظل وقيل الثوم وقيل
الكشوث بمثلثة في آخره قال الجوهري نبت يتعلق بأغصان الشجر
من غير أن يضرب بعرق في الأرض قال الشاعر
هي الكشوث لا أصل ولا ورق ۞ ولا نسيم ولا ظل ولا ثمر ۞
وقيل شجرة الشوك اجتثت أي استؤصلت من فوق الأرض أي من
عروقها قريبة منه ما لها من قرار أي أصل ولا عرق فكذلك الكفر بالله
تعالى ليس له حجة ولا ثبات ولا قوة وعن عبادة أنه قيل لبعض العلماء
ما تقول في كلمة خبيثة فقال ما أعلم لها في الأرض مستقرا ولا في السماء
مصعدا إلا أن تلزم عنق صاحبها حتى يوافي بها يوم القيمة ولما وصف
الله سبحانه وتعالى الكلمة الطيبة في الآية المتقدمة أخبر بقوله تعالى
يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت أنه تعالى يثبتهم بها في الحياة الدنيا
أي في القبر وقيل قبل الموت وفي الآخرة أي يوم القيمة عند البعث والحساب
وقيل في القبر على القول الثاني ولما وصف الكلمة الخبيثة في الآية المتقدمة
أخبر بقوله تعالى ويضل الله الظالمين أي الكفار أنه تعالى لا يهديهم للجواب
الصواب ويفعل الله ما يشاء أي إن شاء هدى وإن شاء أضل لا اعتراض عليه
روي عن البراء بن عازب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال المسلم
إذا سئل في القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فذلك
قوله تعالى يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت وروي عن أنس أن رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال إن العبد إذا وضع في القبر وتولى عنه
أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان ما كنت
تقول في هذا الرجل لمحمد صلى الله عليه وسلم فأما المؤمن فيقول أشهد أنه
عبد الله ورسوله فيقال له انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله
به مقعدا من الجنة قال النبي صلى الله عليه وسلم فيراهما جميعا قال قتادة
ذكر لنا أنه يفسح له في قبره ثم رجع إلى حديث أنس قال وأما المنافق والكافر فيقال
ما كنت تقول في هذا الرجل فيقول لا أدري كنت أقول كما يقول الناس فيه
فيقال لا دريت ولا تليت ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه
فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين وعن أبي هريرة رضي الله عنه
قال شهدنا جنازة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما فرغنا من دفنها
وانصرف الناس قال إنه الآن يسمع خفق نعالكم أتاه منكر ونكير أعينهما
مثل قدور النحاس وأنيابهما مثل صياصي البقر وأصواتهما مثل الرعد
فيجلسانه فيسألانه ما كان يعبد ومن نبيه فإن كان ممن يعبد الله تعالى
قال كنت أعبد الله ونبيي محمد صلى الله عليه وسلم جاءنا بالبينات والهدى
فآمنا به واتبعناه فذلك قوله تعالى يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت

في الحياة

في الحياة الدنيا وفي الآخرة فيقال له على اليقين حييت وعليه مت وعليه تبعث
ثم يفتح له باب إلى الجنة ويوسع له في حفرته وإن كان من أهل الشك قال لا أدري
سمعت الناس يقولون شيئا فقلته فيقال له على الشك حييت وعليه مت وعليه
تبعث ثم يفتح له باب إلى النار ويسلط عليه عقارب وتنانين لو نفخ أحدهم
في الدنيا ما أنبتت شيئا فتنهشه وتؤمر الأرض فتضم عليه حتى تختلف
أضلاعه فنسأل الله الثبات لنا ولوالدينا ولأحبابنا في الدنيا والآخرة
إنه كريم جواد ثم إنه تعالى عاد إلى وصف الكافرين فقال تعالى ألم تر أي
تنظر في المخاطب ما تقدم إلى الذين بدلوا والتبديل جعل الشيء مكان
غيره نعمة الله أي التي أسبغها عليهم من كلمة التوحيد ومن جميع النعم الدنيوية
وتيسير الرزق وغير ذلك بأن جعلوا مكان شكرها كفرا وهم يدعون أنهم
أشكر الناس للإحسان وأعلاها هِمما في الوفا وأبعدهم عن الجفا وأحلوا أي
أنزلوا قومهم أي الذين تابعوهم في الكفر بإضلالهم إياه دار البوار أي
الهلاك لئم ادعائهم أنهم أذب الناس عن الجار فضلا عن الأهل روى البخاري
في التفسير أنهم كفار أهل مكة وقوله تعالى جهنم عطف بيان يصلونها أي يدخلونها
وبئس القرار أي المقر هي وجعلوا لله أي الذين يعلمون أنه لا شريك له
في رزقهم ولا خلقهم لأن له الكمال كله أندادا أي شركاء وقوله تعالى ليضلوا
عن سبيله أي دين الإسلام فيه قراءتان قرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء من ضل يضل والباقون بضم الياء
من أضل يضل وليس الضلال ولا الإضلال غرضهم في اتخاذ الأنداد
لكن لما كان نتيجته حصل كالغرض ولما حكى الله عنهم هذه الأنواع الثلاثة
من الأنواع القبيحة قال لنبيه صلى الله عليه وسلم قل أي تهديدا لهم فإنهم
لا يشكون في قولك وإن عاندوا تمتعوا بدنياكم قليلا فإن مصيركم أي مرجعكم
إلى النار في الآخرة ولما أمر الله تعالى الكافرين على سبيل التهديد والوعيد
بالتمتع بنعيم الدنيا أمر المؤمنين بترك التمتع بالدنيا والمبالغة في
المجاهدة بالنفس والمال بقوله تعالى قل لعبادي فوصفهم بأشرف
أوصافهم وأضافهم إلى ضميره الشريف تحبيبا لهم فيه ثم أتبع هذا الوصف
ما يناسبه من إذعانهم لسيدهم بقوله تعالى الذين آمنوا أي أوجدوا هذا
الوصف يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم فيه وجهان أحدهما يصح أن يكون
جوابا لأمر محذوف تقديره قل لعبادي الذين آمنوا أقيموا الصلاة وأنفقوا
يقيموا الصلاة وينفقوا والثاني يصح أن يكون هو أمرا معمولا لمحذوف فإنه
اللام أي ليقيموا ليصح تعلق القول بهما وإنما حسن ذلك ههنا ولم يحسن
في قوله ۞ محمد تفد نفسك كل نفس ۞ إذا ما خفت من شيء تبالا ۞ أي تبالي
أي تكترث به لدلالة قل عليه سرا وعلانية أي ينفقون أموالهم في حالتي
السر والعلانية وقيل المراد بالسر صدقة التطوع وبالعلانية إخراج

الزكاة الواجبة تنبيه في انتصاب سرا وعلانية وجوه احدها ان يكون على الحال
اي ذوي سر وعلانية بمعنى مسرين ومعلنين والثاني على الظرف اي وقتي سرا
وعلانية وثالثها على المصدر اي انفاق سر وانفاق علانية ولما امرهم
تعالى باقامة الصلاة والانفاق اشار الى عدم الركون بذلك بقوله من
قبل ان ياتي يوم اي عظيم جدا ليس كشي من الايام التي تعرفونها لا بيع
فيه اي فيشتري المقصر ما يتدارك به تقصيره او يفدي به نفسه
ولا خلال اي مخالة اي صداقة تنفع في ذلك اليوم قال مجاهد ومقاتل
انما هو يوم لا بيع فيه ولا شراء ولا مخالة ولا قرابة فكانه تعالى يقول انفقوا اليوم
في الدنيا حتى تجدوا ثواب ذلك الانفاق في مثل هذا اليوم لا يحصل فيه
مبايعة ولا مخالة ونظير هذه الاية قوله تعالى في سورة البقرة لا بيع فيه
ولا خلة ولا شفاعة فان قيل كيف نفى الله تعالى المخالة في هاتين الايتين
مع انه تعالى اثبتها في قوله تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا
المتقين اجيب بان الاية الدالة على نفي المخالة محمولة على نفي المخالة
بسبب ميل الطبع ورغبة النفس والاية الدالة على حصول المخالة محمولة
على حصول المخالة الحاصلة بسبب عبودية الله تعالى ومحبة الله تعالى
ولما طال الكلام في وصف احوال السعداء واحوال الاشقياء وكانت العمدة
العظمى والمنزلة الكبرى في حصول السعادات معرفة الله تعالى بذاته
وبصفاته وفي حصول الشقاوة فقدان ذلك ختم تعالى احوال الفريقين
بقوله تعالى الله اي الملك الاعلى المحيط بكل شي ثم اتبعه بالدلايل الدالة
على وجوده وكمال علمه وقدرته وذكر هنا عشرة انواع من الدلايل اولها
قوله تعالى الذي خلق السموات وثانيها قوله تعالى والارض وهما اكبر خلقا منكم
واعظم شانا وثالثها قوله تعالى وانزل من السما ما فاخرج به من الثمرات رزقا لكم
تعيشون به وهو يشمل المطعوم والملبوس تنبيه الله مبتدا وخبره الذي
خلق ورزقا مفعول لاخرج ومن الثمرات بيان له حال منه ويصح ان يكون المراد بالسما
هنا السحاب اشتقاقا من السمو والارتفاع وان يكون الجرم المعهود فينزل
من السما الى السحاب ومن السحاب الى الارض وقد ذكرت ذلك في سورة البقرة
وفي غيرها ورابعها قوله تعالى وسخر لكم الفلك اي السفن لتجري في البحر اي
بالركوب والحمل بامره اي بمشيئته وارادته وخامسها قوله تعالى وسخر
لكم الانهار اي ذللها لكم تجرونها حيث شئتم لان ما البحر لا ينتفع به
في سقي الزروع والثمرات ولا في الشراب فكان في ذلك نعمة من الله تعالى
وسادسها وسابعها قوله تعالى وسخر لكم الشمس والقمر حال كونهما دائبين
اي جاريين في فلكهما لا يفتران في سيرهما وانارتهما وتاثيرهما في ازالة الظلمة
واصلاح النبات والحيوان الى انقضا الدهر وهو اخر عمر الدنيا وذهابها والشمس

سلطانها النهار وبها تعرف فصول السنة وهي افضل من القمر لكثرة نفعها والقمر
سلطان الليل وبه يعرف انقضا الشهور وكل ذلك بتسخير الله وانعامه ○
وثامنها وتاسعها قوله تعالى وسخر لكم الليل والنهار يتعاقبان فيكم بالضيا والظلمة
والزيادة والنقصان وذلك من نعم الله تعالى على عباده حيث جعل لهم الليل ○
ليسكنوا فيه والنهار ليبتغوا فيه من فضله وعاشرها قوله تعالى وآتاكم من كل
ما سالتموه اي ما انتم محتاجون اليه على حسب مصالحكم فانتم سالتموه
بالقوة ولما ذكر سبحانه وتعالى بعض ما انعم به على عباده بين ان العبد عاجز
عن حصرها وعدها بقوله تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها اي لا تحيطوا بها
ولا تطيقوا عدها وبلوغ اخرها هذا اذا ارادوا ان يعدوها على الاجمال واما
على التفصيل فلا يقدر عليه ولا يعلمه الا الله ان الانسان اي الكافر وقال
ابن عباس يريد ابا جهل لظلوم اي كثير الظلم لنفسه كفار اي كفور لنعم
ربه وقيل ظلوم في الشدة فيشكو ويجزع كفار في النعمة يجمع ويمنع فان قيل
لم قال تعالى هنا ان الانسان لظلوم كفار وفي النحل ان الله لغفور رحيم اجيب
بانه تعالى يقول للعبد اذا حصلت لك النعم الكثيرة فانت الذي اخذتها وانا الذي
اعطيتها فحصل لك عند اخذها وصفان وهما كونك ظلوما كفارا ولي وصفان
عند اعطائها وهما كوني غفورا رحيما والمقصود كانه يقول اذ كنت ظلوما فانا غفور
وان كنت كفارا فانا رحيم اعلم عجزك وتقصيرك فلا اقابل تقصيرك الا بالتو قير
ولا اجازي جفاك الا بالوفا ونسال الله حسن العاقبة والرحمة ولما بين
تعالى بالدلايل المتقدمة ان لا معبود الا الله سبحانه وتعالى وانه لا يجوز عبادة
غير الله البتة حكى عن ابراهيم عليه السلام مبالغة في انكاره عبادة الاوثان
بقوله تعالى واذ اي واذكر لهم مذكرا بايام خبر ابراهيم اذ قال ابراهيم
اي المحسن الى باجابة دعاي رب اجعل هذا البلد اي مكة امنا اي ذا امن وقد
اجاب الله دعاه فجعله حرما لا يسفك فيه دم انسان ولا يظلم فيه احد
ولا يصاد صيده ولا يختلى خلاه فان قيل اي فرق بين قوله اجعل هذا بلدا
امنا وبين قوله اجعل هذا البلد امنا اجيب بان المسوول في الاول ان
يجعله من جملة البلاد التي يامن اهلها ولا يخافون وفي الثاني ان يزيل عنها
الصفة التي كانت حاصلة لها وهي الخوف ويجعل لها تلك الصفة وهي الامن
كانه قال هو بلد مخوف فاجعله امنا فان قيل كيف اجاب الله تعالى دعاه
مع ان جماعة من الجبابرة قد اغاروا عليها واخافوا اهلها اجيب بجوابين احدهما
ان ابراهيم عليه السلام لما فرغ من بنا الكعبة دعا بهذا الدعا والمراد منه جعل
مكة امنة من الخراب وهذا موجود بحمد الله فلم يقدر احد على اخراب مكة
فان قيل يرد على هذا ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم انه قال يخرب الكعبة
ذو السويقتين من الحبشة اجيب بان قوله اجعل هذا البلد يعني الى

قرب القيامة وخراب الدنيا فهو عام مخصوص بتخريب ذي السويقتين فلا تعارض
بين النصين الجواب الثاني ان المراد جعل اهلها آمنين كقوله تعالى واسأل القرية
اي اهلها وهذا الجواب عليه اكثر المفسرين وعلى هذا فقد اختص اهل مكة
بزيادة الامن في بلدهم كما اخبر الله تعالى بقوله ويتخطف الناس من حولهم واهل مكة
آمنون من ذلك حتى من التجأ الى مكة امن على نفسه وماله وحتى ان الوحوش اذا كانت
خارجة الحرم استوحشت واذا كانت داخلة الحرم استأنست لعلمها انه لا يهيجها
احد في الحرم وهذا القدر من الامن حاصل بحمد الله بمكة وحرمها واجنبني اي بعدني
وبني ان اي عن ان نعبد الاصنام اي اجعلني في جانب غير جانب عبادتها فان
قيل الانبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون فما الفائدة في قوله اجنبني
عن عبادة الاصنام اجيب بانه عليه السلام انما سأل ذلك هضما لنفسه واظهارا
للحاجة والفاقة الى فضل الله في كل المطالب وفي ذلك دليل على ان عصمة الانبياء
بتوفيق الله تعالى وحفظه اياهم فان قيل كان كفار قريش من ابنائه مع انهم كانوا
يعبدون الاصنام فكيف اجيب دعاؤه اجيب بان المراد من كان موجودا حال الدعا
ولا شبهة ان دعوته كانت مجابة فيهم او ان هذا الدعا مخصوص بالمومنين
من اولاده والدليل عليه انه قال عليه السلام في اخر الاية فمن تبعني فانه مني
وذلك يفيد ان من لم يتبعه على دينه فانه ليس منه ونظيره قوله تعالى انه ليس
من اهلك انه عمل غير صالح والصنم المنحوت على خلقة البشر وما كان منحوتا على
غير خلقة البشر فهو وثن قاله الطبري ولذا لما سئل ابن عيينة كيف عبدة العرب
الاصنام فقال ما عبد احد من بني اسمعيل صنما واحتج بقوله تعالى واجنبني وبني ان نعبد
الاصنام انما كانت انصاب الحجارة لكل قوم قالوا البيت حجر فحيث نصبنا حجرا فهو
بمنزلة البيت فكانوا يدورون بذلك الحجر اي يطوفون به اسابيع تشبيها بالكعبة
ويسمونه الدوار بضم الدال مشددة وقد تفتح قال الجوهري دوار بالضم
صنم وقد تفتح فاستحسان يقال طاف بالبيت ولا يقال دار بالبيت قال الرازي وهذا
الجواب ليس بقوي لانه عليه السلام لا يجوز ان يريد بهذا الدعا الا عبادة غير الله
والحجر كالصنم في ذلك ثم حكى الله تعالى عن ابراهيم انه قال رب انهن اي
الاصنام اضللن كثيرا من الناس بعبادتهم لها نسبة اتفق كل الفرق على ان قوله
اضللن مجاز لانها جمادات والجماد لا يفعل شيا البتة الا انه لما حصل عند عبادتها
اضيف اليها كما تقول فتنتهم الدنيا وغرتهم اي افتتنوا بها واغتروا بسببها ثم قال فمن
تبعني اي على التوحيد فانه مني اي فانه جار مجرى بعض لفرط اختصاصه بي
وقربه مني ومن عصاني اي في غير الدين فانك غفور رحيم وهذا صريح في طلب
الرحمة والمغفرة لاولئك العصاة واذا ثبت حصول هذه الشفاعة في حق ابراهيم
عليه الصلاة والسلام ثبت حصولها في حق محمد صلى الله عليه وسلم لانه مامور
بالاقتدا به كما قال واتبع ملة ابراهيم وقيل ان هذا الدعا كان وقيل ان هذا الدعا

كان

كان قبل ان يعلم ان الله لا يغفر الشرك وقيل انك قادر ان تغفر له وترحمه بان تنقله عن
الكفر الى الاسلام وقيل المراد من هذه المغفرة ان لا يعاجلهم بالعقاب فلا يمهلهم حتى
يتوبوا قال الرازي واعلم ان هذه الاوجه ضعيفة والمرتضى ما تقرر ولا تنسيه ثم
حكى الله سبحانه وتعالى عن ابراهيم عليه السلام في هذا الموضع انه طلب من الله تعالى
سبعة امور الاول طلب من الله تعالى نعمة الامان وهو رب اجعل هذا البلد آمنا وهو
رب اجعل هذا البلد آمنا المطلوب الثاني ان يرزقه الله تعالى التوحيد ويصونه عن
الشرك وهو قوله واجنبني وبني ان نعبد الاصنام والمطلوب الثالث قوله تعالى
ربنا اني اسكنت من ذريتي اي بعض ذريتي او ذرية من ذريتي فحذف المفعول على
هذا القول وهم اسماعيل ومن ولد منه فان اسكانه متضمن لاسكانهم بواد
اي هو وادي مكة المشرفة لكونه في فضا منخفض بين جبال تجري فيه السيول
غير ذي زرع اي لا يكون فيه من الزرع قط فانه حجري لا ينبت كقوله تعالى قرآنا عربيا
غير ذي عوج بمعنى لا يوجد فيه اعوجاج عند بيتك المحرم اي الذي حرمت التعرض له والتهاون
به وجعلت ما حوله حرما لمكانه او لانه لم يزل ممتنعا عزيزا يهابه كل جبار كالشي المحرم
الذي حقه ان يجتنب او لانه محترم عظيم الحرمة لا يحل انتهاكها او لانه حرم
على الطوفان اي منع منه كما سمي عتيقا لانه اعتق منه فلم يستول عليه او لانه امر
الصائرين اليه ان يحرموا على انفسهم اشيا كانت تحل لهم من قبل او لانه حرم موضع
البيت حين خلق السموات والارض وحفه بسبعة املاك وهو مثل البيت المعمور
الذي بناه ادم فرفع الى السما السادسة وروي ان هاجر كانت امة لسارة فوهبتها
لابراهيم عليه السلام فولدت منه اسماعيل فقالت سارة كنت اريد ان يهب لي ولدا
من خليله فتعبته ورزقه خادمتي وغارت عليهما وقالت لابراهيم بعدهما مني وناشدته
بالله ان يخرجهما من عندها فنقلهما الى مكة واسماعيل رضيع حتى وضعهما عند البيت
عند دوحة فوق زمزم في اعلى المسجد وليس بمكة يومئذ احد وليس بها ماء فوضعهما
هنالك ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفى ابراهيم منطلقا فتبعته ام
اسمعيل وقالت يا ابراهيم اين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه انس ولا
شي فقالت له ذلك مرارا وهو لا يلتفت اليها فقالت له الله امرك بهذا قال نعم
قالت اذا لا يضيعنا ثم رجعت فانطلق ابراهيم حتى اذا كان عند الثنية حيث لا يرونه
استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهولا الدعوات ورفع يديه وقال ربنا اني اسكنت
من ذريتي حتى بلغ يشكرون وجعلت ام اسماعيل ترضعه وتشرب من ذلك حتى
اذا نفد ما في السقا عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر اليه يتلوى او قال
يتلبط فانطلقت كراهة ان تنظر اليه فوجدت الصفا اقرب جبل في الارض
يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى من احد فلم تر احدا ففعلت ذلك
سبع مرات قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم فلذلك سعى الناس بينهما فلما
اشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت صه تريد نفسها ثم تسمعت ايضا فقالت

فاسمعت اذ كان عند الغوث فاذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه او قال بجناحه
حتى ظهر الما فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا وجعلت تغرف من هذا الما في سقايها وهو
يفور بعد ما تغرف قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم فلذلك سعى الناس
بينهما فلما اشرفت على المروة سمعت صوتا يرحم الله ام اسمعيل لو تركت زمزم او قال لو لم
تغرف من الما لكانت زمزم عينا معينا قال فشربت وارضعت ولدها فقال الملك لا تخافوا
الضيعة فان ههنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وابوه وان الله لا يضيع اهله وكان البيت
مرتفعا من الارض كالرابية ياتيه السيل فياخذ عن يمينه وشماله فكانت كذلك حتى مرت
بهم رفقة من جرهم مقبلين من طريق كدا فنزلوا في اسفل مكة فنظروا طايرا فقالوا ان هذا او اهل بيت من جرهم
الطاير ليدور على الما لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ما فارسلوا جريا او جريين فاذا هم بالما
فرجعوا فاخبروهم فاقبلوا وام اسمعيل عند الما فقالوا اتاذنين لنا ان ننزل عندك
فقالت نعم ولكن لا حق لكم في الما قالوا نعم قال ابن عباس قالت ذلك ام اسمعيل وهي
تحب الانس فنزلوا وارسلوا الى اهليهم فنزلوا معهم حتى اذا كان بها اهل ابيات منهم
نشب الغلام وتعلم العربية منهم وانفسهم واعجبهم حتى شب فلما ادرك زوجوه
امراة منهم وماتت ام اسمعيل فجاء ابراهيم بعد ما تزوج اسمعيل وتقدم تمام هذه
القصة في سورة البقرة ثم قال **ربنا ليقيموا الصلاة** اللام لام كي متعلقة باسكنت
اي ما اسكنتهم بهذا الوادي المقفر الذي لا شي فيه الا لاقامة الصلاة عند
بيتك المحرم وتعمروه بذكرك وعبادتك وما تقرب به مساجدك ومتعبداتك
متبركين بالبقعة التي شرفتها على البقاع مستسعدين بجوارك الكريم متقربين
اليك بالعكوف عند بيتك والطواف والركوع والسجود حوله مستنزلين الرحمة
التي اثرت بها سكان حرمك وتكرير الندا وتوسطه للاشعار بانها المقصود بالذات
من اسكانهم هناك والمقصود من الدعا توفيقهم لها **فاجعل افئدة** اي قلوبا محترقة ه
بالاشواق **من الناس** ومن للتبعيض والمعنى واجعل افئدة بعض الناس **تهوي**
اي تميل **اليهم** ويدل عليه ما روي عن مجاهد لو قال افئدة الناس لزحمتكم عليه فارس
والترك والهند وقال سعيد بن جبير لو قال افئدة الناس لحجت اليهود والنصارى
والمجوس ولكنه قال افئدة من الناس فهم المسلمون وقال ابن عباس لو قال افئدة الناس لحنت
اليه فارس والروم والناس كلهم ولما دعا لهم بالدين دعا لهم بالرزق فقال **وارزقهم**
من الثمرات ولم يقل وارزقهم الثمرات وذلك يدل على ان المطلوب بالدعا ايصال بعض
الثمرات اليهم ويحتمل ان يكون المراد بايصال بعض الثمرات اليهم ايصالها اليهم
على سبيل التجارات كما قال تعالى يجبى اليه ثمرات كل شي حتى توجد فيه الفواكه الصيفية
والربيعية والخريفية في يوم واحد وليس ذلك من اياته ببعيد وان يكون المراد عمارة
القرى بالقرب منها لتحصل تلك الثمار وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما انه قال
كانت الطايف من ارض فلسطين فلما قال ابراهيم ذلك رفعها الله فوضعها حيث وضعها رزقا
للحرم **لعلهم يشكرون** يدل على ان المقصود للعاقل من منافع الدنيا ان يتفرغ لاداء

العبادات

العبادات واقامة الطاعات فان ابراهيم عليه السلام بين انه انما طلب تيسير المنافع
على اولاده لاجل ان يتفرغوا لاقامة الطاعات واداء الواجبات وما طلب عليه السلام
من الله تيسير المنافع لاولاده وتسهيلها عليهم ذكر انه لا يعلم عواقب الاحوال ونهاية الامور
في المستقبل فانه تعالى هو العالم بها والمحيط باسرارها فقال **ربنا انك تعلم ما نخفي** اي
نسر **وما نعلن** وهذا هو المطلوب الرابع والمعنى انك اعلم باحوالنا ومصالحنا ومفا سدنا
منا قيل وما نخفي من الوجد بسبب حصول الفرقة بيني وبين اسماعيل وما نعلن من البكا
وقيل ما نخفي من الحزن المتمكن في القلب وما نعلن يريد ما جرى بينه وبين هاجر حين قالت
له عند الوداع الى من تكلنا قال الى الله اكلكم قالت الله امرك بهذا قال نعم قالت اذا لا
يضيعنا واختلف في قوله تعالى **وما يخفى على الله من شي في الارض** فقيل من تتمة قول
ابراهيم عليه السلام يعني وما يخفى على الله الذي هو عالم الغيب من شي في اي مكان
والاكثرون على انه قول الله تعالى تصديقا لابراهيم فيما قال كقوله تعالى وكذلك
يفعلون ولفظة من تفيد الاستغراق كانه قيل وما يخفى عليه شي ما ولما تم ابراهيم
عليه السلام دعاءه اتبعه الحمد على ما رزقه من النعم بقوله **الحمد لله** اي المستجمع
لصفات الكمال **الذي وهب لي** اي اعطاني **على الكبر** اي وهبنا وانا كبير ايس من
الولد قيد الهبة بحال الكبر استعظاما للنعمة واظهارا لما فيه من المعجزة **اسمعيل**
واسحق ومقدار ذلك السن غير معلوم من القران وانما يرجع فيه الى الروايات فقال
ابن عباس ولد اسمعيل لابراهيم وهو ابن تسع وتسعين سنة وولد له اسحق وهو ابن
مائة واثنتي عشرة سنة فان قيل ان ابراهيم انما ذكر هذا الدعا عند ما اسكن اسمعيل
وامه في ذلك الوادي وفي ذلك الوقت ما ولد اسحق فكيف يمكنه ان يقول ذلك
اجيب بان هذا يقتضي ان ابراهيم انما ذكر هذا الكلام في زمن اخر لا عقب ما تقدم
من الدعا قاله الرازي ويمكن ايضا ان يقال انه عليه السلام انما ذكر هذا الدعا بعد
كبر اسمعيل وظهور اسحق وان كان ظاهر الروايات بخلافه انتهى شبه قوله
على الكبر بمعنى مع كقوله * اني على ما ترين من كبري * اعلم من حيث يوكل الكتف
وهو في موضع الحال ولما ذكر الدعا على سبيل الرمز والتعريض لا على وجه الافصاح
والتصريح قال **ان ربي** اي المحسن الي **لسميع الدعا** اي لمجيبه فان قيل الله تعالى
يسمع كل دعا اجابه او لم يجبه اجيب بان هذا من قولك سمع الملك كلامي اذا اعتد
به وقبله ومنه سمع الله لمن حمده المطلوب الخامس قوله **رب اجعلني مقيم الصلاة**
اي معدلا لها مواظبا عليها تنبيه في الاية دليل على ان افعال العباد مخلوقة لله تعالى
لان قوله تعالى حكاية عن ابراهيم عليه السلام واجنبني وبني ان نعبد الاصنام يدل على
ان ترك المنهيات لا يحصل الا من الله تعالى وقوله رب اجعلني مقيم الصلاة يدل على
ان فعل المامورات لا يحصل الا من الله تعالى وذلك تصريح بان ابراهيم عليه السلام
كان مصرا على ان الكل من الله تعالى وقوله تعالى للتبعيض وانما ذكر هذا التبعيض **ومن**
ذريتي عطف على المنصوب في اجعلني اي واجعل بعض ذريتي كذلك لان كلمة من

في قوله ومن ذريتي للتبعيض واما ذكر هذا التبعيض لانه علم باعلام الله تعالى انه يكون
في ذريته جمع من الكفار وذلك قوله تعالى لا ينال عهدي الظالمين المطلوب
السادس انه عليه السلام لما دعا الله تعالى في المطالب المذكورة دعا الله تعالى
ان يتقبل دعاءه فقال **ربنا وتقبل دعاء** قال ابن عباس يريد عبادتي بدليل
قوله واعتزلكم وما تدعون من دون الله وقيل دعاي المذكور المطلوب السابع
قوله **ربنا** اي ايها المالك لامورنا المدبر لنا **اغفر لي** فان قيل ان طلب المغفرة
انما يكون بعد سابقة ذنب اجيب بان المقصود من ذلك الالتجا الى الله تعالى وقطع
الطمع الا من فضله وكرمه ورحمته ثم اشرك معه اقرب الناس اليه واحقهم بشكره
فقال **ولوالدي** فان قيل كيف جاز ان يستغفر لوالديه وكانا كافرين اجيب
بوجوه الاول ان المنع منه لا يعلم منه الا بتوقيف فلعله لم يجد منه منعا وظن كونه
جائزا الثاني اراد بوالديه آدم وحوا الثالث كان ذلك بشرط الاسلام وقال بعضهم
كانت امه مومنة ولذلك خص اباه بالذكر في قوله فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه
ثم دعا لمن تبعه في الدين من ذريته وغيرهم بقوله **وللمومنين** اي الفريقين في هذا الوصف
يوم يقوم اي يبدو ويظهر **الحساب** وقيل اراد يوم يقوم الناس فيه للحساب
فاكتفي بذكر الحساب لكونه مفهوما عند السامع وهذا دعا للمومنين بالمغفرة والله تعالى
لا يرد دعاء خليله ابراهيم عليه السلام وفيه بشارة عظيمة للمومنين بالمغفرة
فنسال الله تعالى ان يغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا ولاحبابنا ولمن نظر في هذا التفسير
ودعا لمن كان سببا فيه بالمغفرة ولكاتبه ولما بين تعالى دلايل التوحيد ثم حكى عن
ابراهيم عليه السلام انه طلب من الله تعالى ان يصونه عن الشرك وطلب منه ان
يوفقه للاعمال الصالحة وان يخصه بالرحمة والمغفرة في يوم القيامة بقوله تعالى
مخاطبا لنبيه صلى الله عليه وسلم **ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون** لان الغفلة
معنى يمنع الانسان عن الوقوف على حقايق الامور وقيل حقيقة الغفلة سهو يعتري
الانسان من قلة التحفظ والتيقظ وهذا في حق الله تعالى محال والمقصود من
ذلك التنبيه على انه ينتقم للمظلوم من الظالم ففيه وعيد وتهديد للظالم واعلام
له بانه لا يعامله معاملة الغافل عنه بل ينتقم ولا يتركه مغفلا عنه وعن
سفيان بن عيينة فيه تسلية للمظلوم وتهديد للظالم فقيل له من قال هذا فيه
تسلية للمظلوم وتهديد للظالم فقيل له من قال هذا فغضب وقال انما قاله من علمه
فان قيل كيف يليق به صلى الله عليه وسلم ان يحسب الله موصوفا بالغفلة وهو
اعلم الناس به اجيب بوجوه الاول ان المراد به التثبيت على ما كان عليه من انه لا يحسب
الله غافلا كقوله لا تدع مع الله الها اخر والثاني ان المقصود منه بيان انه لو لم ينتقم
لكان عدم الانتقام لاجل غفلته عن ذلك الظلم والثالث ان المراد ولا تحسبن
يعاملهم معاملة الغافل عما يعملون ولكن معاملة الرقيب عليهم المحاسب على النقير
والقطمير والرابع ان يكون هذا الكلام كان خطابا مع النبي صلى الله عليه وسلم في

الظاهر

بيان مع الآية

الظاهر الا انه يكون في الحقيقة خطابا لغيره من امته ثم بين تعالى انه **انما يوخرهم** اي عذابهم
ليوم موصوف بخمس صفات الصفة الاولى قوله تعالى **تشخص فيه الابصار**
اي ابصارهم لا تقر مكانها من هول ما ترى في ذلك اليوم الصفة الثانية قوله **مهطعين**
اي مسرعين الى الداعي او مقبلين بابصارهم لا يطرفون هيبة وخوفا وقيل المهطع
الخاضع الذليل الساكت الصفة الثالثة قوله تعالى **مقنعي روسهم** اي رافعيها
اذ الاقناع رفع الراس الى فوق فاهل الموقف من صفتهم انهم رافعوا روسهم الى السما
وهذا بخلاف المعتاد لان من يتوقع البلا يطرق ببصره الى الارض وقال الحسن
وجوه الناس يوم القيمة الى السما لا ينظر احد الى احد والصفة الرابعة قوله تعالى
لا يرتد اليهم طرفهم اي بل تثبت عيونهم شاخصة لا يطرفون بعيونهم ولكن عيونهم
مفتوحة ممدودة من غير تحريك للاجفان قد شغلهم ما بين ايديهم الصفة
الخامسة قوله تعالى **وافئدتهم** اي قلوبهم **هوا** اي خالية من العقل لفرط الحيرة
والدهشة وقال قتادة خرجت قلوبهم عن صدورهم فصارت في حناجرهم
فلا تخرج من افواههم ولا تعود الى اماكنها تنبيه اختلفوا في وقت حصول
هذه الصفات فقيل انها عند المحاسبة بدليل انه تعالى انما ذكر هذه الصفات
عقب وصف ذلك بانه يوم يقوم الحساب وقيل انها تحصل عند ما يتميز فريق
عن فريق فالسعدا يذهبون الى الجنة والاشقيا الى النار وقيل تحصل عند اجابة الداعي
والقيام من القبور قال الرازي والاول اولى **وانذر الناس** يا محمد اي خوفهم
يوم القيمة وهو قوله تعالى **يوم ياتيهم العذاب** الذي تقدم ذكره وهو شخوص ابصارهم
وكونهم مهطعين مقنعي روسهم **فيقول الذين ظلموا** اي كفروا **ربنا اخرنا** اي بان
تردنا الى الدنيا **الى اجل قريب** اي الى امد واحد من الزمان قريب **نجب دعوتك**
اي بالتوحيد ونتدارك ما فرطنا فيه **ونتبع الرسل** فيما يدعوننا اليه فيقال لهم
توبيخا **اولم تكونوا اقسمتم** اي حلفتم **من قبل** في الدنيا **ما لكم** واكد النفي
بقوله **من زوال** اي ما لكم عنها انتقال ولا بعث ولا نشور كما قال في اية اخرى
واقسموا بالله جهد ايمانهم لا يبعث الله من يموت وكانوا يقولون لا زوال لنا من
هذه الحياة الى حياة اخرى ومن هذه الدار الى دار المجازاة لانهم كانوا ينكرون ان يزولوا
عن حياة الى موت او عن شباب الى هرم او عن غنى الى فقر ثم انه تعالى زادهم توبيخا
اخر بقوله تعالى **وسكنتم** في الدنيا **في مساكن الذين ظلموا انفسهم** بالكفر من الامم
السابقة **وتبين لكم كيف فعلنا بهم** اي ظهر لكم بما تشاهدون في منازلهم من اثار
ما نزل بهم وما تواتر عندكم من اخبارهم **وضربنا** اي وبينا **لكم الامثال** في القران
ان عاقبتهم عادت الى الوبال والخزي والنكال مما يعلم به انه قادر على الاعادة كما قدر
على الابتدا وقادر على التعذيب الموجل كما يفعل الهلاك المعجل وذلك في كتاب الله تعالى
كثير ولما ذكر تعالى صفة عقابهم اتبعه بذكر كيفية مكرهم بقوله تعالى وقد مكروا مكرهم
اي الشديد العظيم الذي استفرغوا فيه جهدهم واختلف في عود الضمير في مكروا على وجوه

بهم

لاول ان يعود الى الذين سكنوا في مساكن الذين ظلموا انفسهم لان الضمير يعود الى
قرب مذكور والثاني الى قوم محمد صلى الله عليه وسلم بدليل قوله وانذر اي يا محمد
الناس وقد مكر قومك مكرهم وذلك المكر هو الذي ذكر الله تعالى في قوله واذ يمكر بك
الذين كفروا ليثبتوك او يقتلوك او يخرجوك وعند الله مكرهم اي ومكتوب عند الله
فعلهم فهو مجازيهم عليه بمكر هو اعظم منه وقيل ان مكرهم لا يزيل امر محمد صلى الله عليه
وسلم الذي هو ثابت كثبوت الجبال وقد حكي عن علي بن ابي طالب رضي الله عنه
في الاية قول اخر وهو انها نزلت في نمرود الجبار الذي حاج ابراهيم في ربه فقال نمرود
ان كان ما يقوله ابراهيم حقا فلا انتهي حتى اصعد الى السما فاعلم ما فيها ثم امر نمرود
صاحبه فاتخذ لنفسه تابوتا وجعل له بابا من اعلاه وبابا من اسفله وربط قوايمه
الاربع باربعة نسور وكان قد جوعها ورفع فوق الجوانب الاربع من التابوت عصيات
اربعة وعلق على كل واحد منها قطعة لحم ثم انه جلس مع صاحبه في ذلك التابوت
فلما ابصرت النسور تلك اللحوم تصاعدت في جو الهوا فطارت يوما حتى بعدت
في الهوا فقال نمرود لصاحبه افتح الباب الاسفل وانظر الى الارض كيف تراها
ففعل فقال ارى الارض مثل اللجة والجبال مثل الدخان قال فطارت النسور
يوما اخر وارتفعت حتى حالت الريح بينها وبين الطيران فقال نمرود لصاحبه افتح الباب
الاعلى ففتح فاذا السما كهيئتها وفتح الباب الاسفل فاذا الارض سودا مظلمة ونودي
ايها الطاغي اين تريد قال عكرمة كان معه في التابوت غلام قد حمل القوس
والنشاب فرمى بسهم فعاد اليه السهم ملطخا بالدم بدم سمكة قذفت نفسها
من بحر في الهوا وقيل طاير اصابه السهم فقال كفيت اله السما فنكس تلك العصي
التي علق عليها اللحوم فتسفلت النسور وهبطت الى الارض فسمعت الجبال
خفيق التابوت والنسور ففزعت وظنت ان قد حدث في السماوات القيامة
قد قامت فكادت تزول عن اماكنها فذلك قوله تعالى وعند الله مكرهم اي من القوة
والضخامة وان كان مكرهم لتزول منه الجبال قال الرازي ولا حاجة في تاويل الاية الى هذا فانه
لم يجي فيه خبر صحيح معتمد انتهى والمراد بالجبال هنا حقيقتها وقيل شرايع الاسلام
المشبهة بها في القرار والثبات وقرا الكسائي بفتح اللام الاولى ورفع الاخيرة والباقون
بكسر الاولى وفتح الثانية والتقدير على القراءة الاولى وان كان بحيث انه تزول منه
الجبال وقيل ان نافية واللام لتاكيد النفي فلا تحسبن الله الخطاب له صلى الله عليه
وسلم والمراد امته مخلف وعده رسله من النصر واعلا الكلمة واظهار الدين كما قال
تعالى انا لننصر رسلنا وقال تعالى لاغلبن انا ورسلي فان قيل هلا قيل مخلف
رسله وعده ولم قدم المفعول الثاني على الاول اجيب بانه تعالى قدم ذلك ليعلم
انه لا يخلف الوعد اصلا كقوله تعالى ان الله لا يخلف الميعاد ثم قال رسله ليدل به
على انه تعالى لما لم يخلف وعده احدا وليس من شانه اخلاف المواعيد فكيف يخلف
رسله الذين هم خيرته وصفوته ان الله اي ذا الجلال والاكرام عزيز اي غالب

منيع

منيع لا يقدر عليه ذو انتقام اي من عصاه وقوله تعالى يوم تبدل الارض غير الارض
بدل من يوم ياتيهم او ظرف للانتقام والمعنى يوم تبدل هذه الارض التي تعرفونها ارضا
اخرى غير هذه المعروفة وقوله تعالى والسموات عطف على الارض وتقديره والسموات
غير السموات والتبديل التغيير وقد يكون في الذات كقولك بدلت الدراهم دنانير ومنه بدلناهم ثم
جلودا غيرها وبدلناهم بجنتيهم جنتين وفي الاوصاف كقولك بدلت الحلقة خاتما اذا
اذبتها وسويتها خاتما فنقلتها من شكل الى شكل ومنه قوله تعالى فاولئك يبدل
الله سيئاتهم حسنات والاية محتملة لكل واحد من هذين المفهومين فعن ابن
عباس رضي الله تعالى عنهما هي تلك الارض وانما تغير وانشد

وما الناس بالناس الذين عهدتهم ولا الدار بالدار التي كنت تعلم

تبدل اوصافها فتسير عن الارض جبالها وتفجر بحارها وتستوي فلا ترى
فيها عوجا ولا امتا وتبدل السما بانتثار كواكبها وكسوف شمسها وخسوف
قمرها وانشقاقها وكونها ابوابا ويدل لذلك قوله صلى الله عليه وسلم يحشر الناس يوم
القيمة على ارض بيضا عفرا كقرصة النقي ليس فيها علم لاحد اخرجاه في الصحيحين
العفرا بالعين المهملة وهي البيضا الى حمرة ولهذا شبهها بالقرصة النقي وهو الخبز
الابيض الجيد الفايق المايل الى الحمرة كان النار ميلت بياض وجهه الى الحمرة وقوله
ليس فيها علم لاحد يعني ليس فيها علامة لاحد لتبديل هيئتها وصفتها وزوال
جبالها وجميع بنايها فلا يبقى فيها اثر يستدل به وعن ابن مسعود انه قال
تبدل الارض بارض كالفضة البيضا نقية لم يسفك فيها دم ولم تعمل عليها خطيئة
وقال علي كرم الله وجهه الارض من فضة والسما من ذهب وقال محمد بن كعب وسعيد
ابن جبير تبدل الارض خبزة بيضا ياكل المومن من تحت قدمه وعن الضحاك ايضا من
فضة كالصحايف وعن عايشة رضي الله تعالى عنها قالت سالت النبي صلى الله عليه
وسلم عن هذه الاية فاين تكون الناس يومئذ يا رسول الله فقال على الصراط اخرجه مسلم
وروى ثوبان ان حبرا من اليهود سال رسول الله صلى الله عليه وسلم اين تكون الناس
يوم تبدل الارض غير الارض فقال هم في الظلمة دون الجسر قال الرازي واعلم انه
لا يبعد ان يقال المراد من تبديل الارض والسموات هو انه تعالى يجعل الارض جهنم والسموات
الجنة والدليل عليه قوله تعالى كلا ان كتاب الابرار لفي عليين وقوله تعالى كلا ان كتاب الفجار
لفي سجين وبرزوا اي خرجوا من قبورهم لله اي لحكمه والوقوف بين يديه للحساب الواحد
اي الذي لا شريك له القهار اي الذي لا يدافعه شي عن مراده كما قال تعالى لمن الملك
اليوم لله الواحد القهار ولما وصف نفسه سبحانه وتعالى بين عجزهم وذلتهم بقوله
وترى يا محمد اي تبصر المجرمين اي الكافرين يومئذ اي يوم القيمة ثم ذكر تعالى
من صفات عجزهم وذلتهم امورا الصفة الاولى قوله تعالى مقرنين اي مشدودين
في الاصفاد جمع صفد وهو القيد قال الكلبي كل كافر مع شيطان في غل وقال
عطا هو معنى قوله تعالى واذا النفوس زوجت اي قرنت فتقرن نفوس المومنين

بنفوس الحور العين ونفوس الكافرين بقرنائهم من الشياطين وقيل هو قرن بعض الكفار
ببعض فتقتصر تلك النفوس الشقية والارواح الكدرة الظلمانية بعضها الى بعض لكونها
متشاكلة متجانسة وتنادي ظلمة كل واحدة منها الى الاخرى قال ابن زيد قرنت ايديهم
وارجلهم الى رقابهم بالاغلال الصفة الثانية قوله تعالى سرابيلهم اي قمصهم جمع
سربال وهو القميص من قطران وهو شيء يتحلب من شجر يسمى الابهل فيطبخ وتطلى به الابل
الجرب فيحرق الجرب بحرارته وحدته وقد تصل حرارته الى داخل الجوف ومن شانه ان
يتسارع فيه اشتعال النار وهو اسود اللون منتن الريح فتطلى به جلود اهل النار
حتى يصير ذلك الطلا كالسرابيل فيحصل بسببها اربعة انواع من العذاب لذع القطران
وحرقته واسراع النار في جلودهم واللون الوحش ونتن الريح وايضا التفاوت
بين قطران القيامة وقطران الدنيا كالتفاوت بين النارين الصفة الثالثة قوله تعالى
وتغشى اي تعلو وجوههم النار ونظيره قوله تعالى افمن يتقي بوجهه سوء العذاب
وقوله تعالى يوم يسحبون في النار على وجوههم ولما كان موضع العلم والجهل هو
القلب وموضع الفكر والوهم هو الراس واثر هذه الاحوال تظهر في الوجه فلهذا
خص الله تعالى هذين الوجهين العضوين بظهور اثار العقاب فيهما فقال في القلب نار
الله الموقدة التي تطلع على الافئدة وقال في الوجه وتغشى وجوههم النار وقوله تعالى
ليجزي الله متعلق ببرزوا كل نفس ما كسبت اي من خير او شر وهذا اولى من قول
الواحدي المراد منه انفس الكفار لان ما سبق ذكره لا يليق ان يكون جزا لاهل الايمان
ولما كان حساب كل نفس جديرا بان يستعظم قال ان الله سريع الحساب اي لا يشغله
حساب نفس عن حساب اخرى ولا شان عن شان وقوله تعالى هذا اشارة الى
القران الذي يخرج الناس من الظلمات الى النور نزل منزلة الحاضر وقيل الى السورة
بلاغ اي كان غاية الكفاية في الايصال للناس والموعظة لهم وقوله تعالى ولينذروا
اي وليخوفوا به عطف على محذوف ذلك المحذوف متعلق ببلاغ وليعلموا اي بما فيه
من الحجج على وحدانية الله تعالى انما هو اي الله اله واحد فيستدلوا بذلك
على ان الله واحد لا شريك له وليذكر بادغام التاء في الاصل في الذال اي يتعظ
اولوا الالباب اي اصحاب العقول الصافية من الاكدار والافهام الصحيحة
فانه موعظة لمن اتعظ تنبيه ذكر سبحانه وتعالى لهذا البلاغ ثلاث فوايد مستفادة
من قوله تعالى لينذروا به وتاليه والحكمة في انزال الكتب تكميل الرسل للناس واستكمال
القوة النظرية التي منتهى كمالها التوحيد واستصلاح القوة العملية التي هي
التدرع بلباس التقوى جعلنا الله من الفايزين بها بمحمد واله وفعل ذلك بوالدينا واحبابنا
وما رواه البيضاوي تبعا للزمخشري من انه صلى الله عليه وسلم قال من قرا سورة ابراهيم
اعطي من الاجر عشر حسنات بعدد كل من عبد الاصنام وعدد من لم يعبد حديث موضوع
قال العلامة الجويني يكفر واضع الحديث اي والمشهور عدم تكفيره

سورة الحجر مكية بالاجماع وهي تسع وتسعون آية

وسبعمائة واربع وخمسون كلمة وعدد حروفها الفان وسبعمائة وستون حرفا
بسم الله الملك الواحد القهار الرحمن الذي اسبغ نعمه على سائر بريته فعجزت عن
وصفه الافكار الرحيم الذي خص اهل ولايته بنجاتهم من النار وقوله تعالى الر
ذكر فيه الفتح والامالة اول يونس وقيل معناه انا الله ارى وقدمنا الكلام على اوايل
السور اول سورة البقرة وقوله تعالى تلك اشارة الى ايات هذه السورة اي
هذه الايات ايات الكتاب اي القران والاضافة بمعنى من وقوله تعالى وقران
مبين اي مظهر للحق من الباطل عطف بزيادة صفة وقيل المراد بالكتاب هو السورة هو
وكذا القران وقيل المراد بالكتاب التوراة والانجيل وبالقران هذا الكتاب ثم بين
سبحانه وتعالى حال الكفار يوم القيمة بقوله تعالى ربما يود اي يتمنى الذين كفروا
اذا عاينوا حالهم وحال المحسنين في ذلك اليوم لو كانوا مسلمين وقيل حين يعاينوا
حال المسلمين عند نزول النصر وحلول الموت ورب للتكثير فانه يكثر منهم تمني ذلك
وقيل للتقليل فان الاهوال تدهشهم فلا يفيقون حتى يتمنوا ذلك الا في احيان
قليلة فان قيل لم دخلت رب على المضارع وقد ابوا دخولها الا على الماضي اجيب بان
المترقب في اخبار الله تعالى بمنزلة الماضي المقطوع به في تحقيقه فكانه قيل ربما ود وقرا
نافع وعاصم بتخفيف باء ربما والباقون بالتشديد قال ابو حاتم اهل الحجاز يخففون
ربما وقيس وبكر يثقلونها ولما تمادوا في طغيانهم قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه
وسلم ذرهم اي دعهم عن النهي عما هم عليه والصد عنه بالتذكرة والنصيحة
خلهم ياكلوا ويتمتعوا بدنياهم وتنفيذ شهواتهم والتمتع التلذذ وهو طلب
التلذذ حالا بعد حال كالتقرب في انه طلب القرب حالا بعد حال ويلههم الامل اي
ويشغلهم توقعهم لطول الاعمار واستقامة الاحوال عن اخذ حظهم من السعادة
وعن الاستعداد للمعاد وقرا ابو عمرو في الوصل بكسر الهاء والميم وحمزة والكسائي
برفع الهاء والميم والباقون بكسر الهاء ورفع الميم واما الوقف فالجميع بكسر الهاء والكلام
على الهاء الثانية واما الهاء الاولى فموصولة للجميع وقفا ووصلا ولما كان هذا امرا لا
يشتغل به الا الاحمق تسبب عنه التهديد بقوله تعالى فسوف يعلمون اي ما يحل
بهم بعد ما فسحنا لهم في زمن التمتع من سوء صنيعهم وهذا قبل الامر بالقتال تنبيه
في الاية دليل على ان ايثار التلذذ والتنعم في الدنيا يؤدي الى طول الامل وليس ذلك
من اخلاق المؤمنين وعن بعضهم التمتع في الدنيا من اخلاق الهالكين والاخبار في ذم
الامل كثيرة منها قوله صلى الله عليه وسلم يهرم ابن ادم ويشب معه اثنتان
الحرص وطول الامل على المال والحرص على العمر وعن علي رضي الله عنه انما اخشى عليكم
اثنتين طول الامل واتباع الهوى فان طول الامل ينسي الاخرة واتباع الهوى
يصد عن الحق ولما هددهم تعالى باية التمتع والهاء الامل اتبعه بما يؤكد الزجر بقوله
تعالى وما اهلكنا من قرية اي من القرى والمراد اهلها ومن مزيدة الا ولها كتاب معلوم
اي اجل مضروب محدود مكتوب في اللوح المحفوظ لهلاكها تنبيه المستثنى جملة

واقعة صفة لقرية والاصل ان لا يدخلها الواو كقوله تعالى الا لها منذرون وانما توسطت
لتاكيد لصوق الصفة بالموصوف كما يقال في الحال جاءني زيد عليه ثوب وجاءني وعليه
ثوب فائدة رسم كتاب هنا باثبات الالف ثم بين تعالى الاية السابقة بقوله تعالى
ما تسبق وقيل من مزيدة كقوله ما جاءني من احد اي احد وبين ان المراد بالكتاب الاجل
بقوله تعالى من امة وأكد الاستغراق بقوله تعالى اجلها اي الذي قدرناه لها
وما يستأخرون اي عنه تنبيه انث الامة اولا ثم ذكرها اخرا حملا على اللفظ في الاول
وعلى المعنى في الثاني قال البقاعي وانما ذكره لئلا يقصر قوة الخطاب به صلى الله عليه
وسلم تعنتا وفي الاية دليل على ان كل من مات او قتل فانما مات باجله وان من قال يجوز
ان يموت قبل اجله مخطئ ولما بالغ تعالى في تهديد الكفار ذكر شبههم في انكار نبوته
صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى وقالوا يا ايها الذي نزل عليه الذكر اي القرآن
في زعمه انك لمجنون انما نسبوه الى الجنون اما لانهم كانوا يستبعدون كونه رسولا
حقا من عند الله لان الرجل اذا سمع كلاما مستبعدا من غيره فربما قال به جنون
واما لانه عليه الصلاة والسلام كان يظهر عليه عند نزول الوحي حالة
شبيهة بالغشي فظنوا انها جنون ويدل عليه قوله تعالى اولم يتفكروا ما بصاحبهم
من جنة ثم انهم قالوا وما زعموا انه دليل على قولهم فقالوا لو ما اي هلا تأتينا بالملائكة
اي يشهدون لك بانك رسول من عند الله حقا ان كنت من الصادقين في ادعائك
بالرسالة وان هذا القرآن من عند الله ولما كان في قولهم امران اجاب الله تعالى
عن قولهم الثاني لانه اقرب بقوله تعالى ما ننزل الملائكة الا بالحق اي الا تنزيلا متلبسا
بالحكمة والمصلحة ولا حكمة في ان نأتيكم بهم عيانا تشاهدونهم ويشهدون
لكم بصدق النبي صلى الله عليه وسلم لانكم حينئذ مصدقون عن اضطرار
ومثله قوله تعالى وما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق وقيل الحق
الوحي او العذاب وقرأ شعبة بضم التاء وفتح الزاي ورفع الملائكة وحفص
وحمزة والكسائي بنونين الاولى مضمومة والثانية مفتوحة وكسر الزاي
ونصب الملائكة والباقون بالتاء مفتوحة مع فتح الزاي ورفع الملائكة وشدد التاء
البزي في الوصل واما الزاي فهي مشددة للجميع من يفتح ومن يكسر وما كانوا اي الكفار
اذا اي اذ تأتيهم الملائكة منظرين اي لم يزل عنهم الامهال وعذبوا في الحال
ان لم يؤمنوا ويصدقوا وكان حينئذ يفوت ما قضينا به من تأخيرهم واخراج
من اردنا ايمانه من اصلابهم ثم اجاب تعالى عن الاول بقوله تعالى مؤكدا لتكذيبهم
انا نحن بما لنا من العظمة والقدرة نزلنا اي بالتدريج على لسان جبريل عليه
السلام الذكر اي القرآن وانا له لحافظون اي من التبديل والتحريف والزيادة
والنقصان ونظيره قوله تعالى ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا
كثيرا فالقرآن العظيم محفوظ من هذه الاشياء كلها لا يقدر احد من جميع الخلق
من الجن والانس ان يزيد فيه او ينقص منه كلمة واحدة او حرفا واحدا وهذا مختص

واكد الاستغراق بقوله

بالقرآن

القرآن العظيم محفوظ من هذه الاشياء كلها لا يقدر احد من جميع الخلق من الجن
والانس ان يزيد فيه او ينقص منه كلمة واحدة او حرفا واحدا وهذا مختص بالقرآن
العظيم بخلاف سائر الكتب المنزلة فانه قد دخل على بعضها التحريف والتبديل
والزيادة والنقصان فان قيل لم اشتغل الصحابة بجمع القرآن في المصحف وقد
وعد الله تعالى بحفظه وما حفظه الله تعالى فلا خوف عليه اجيب بان جمعهم
القرآن في المصحف كان من اسباب حفظ الله تعالى اياه فانه تعالى لما اراد
حفظه قيضهم لذلك قال اصحابنا وفي هذه الاية دلالة قوية على كون البسملة
اية من اول كل سورة لان الله تعالى قد وعد حفظ القرآن والحفظ لا معنى له
الا ان يبقى مصونا من الزيادة والنقصان فلو لم تكن البسملة اية من القرآن
لما كان القرآن مصونا عن التغيير ولما كان محفوظا عن الزيادة ولو جاز ان يظن
بالصحابة انهم زادوا لجاز ايضا ان يظن بهم النقصان وذلك يوجب خروجه كونه القرآن عن
حجة وقيل الضمير في له راجع الى النبي صلى الله عليه وسلم والمعنى وانا لمحمد
لحافظون ممن اراده بسوء فهو كقوله تعالى والله يعصمك من الناس ولما اساء
الكفار عليه صلى الله عليه وسلم في الاول وخاطبوه بالسفاهة وقالوا انك
لمجنون وكان عادة هؤلاء الجهال مع جميع الانبياء كذلك سبحانه وتعالى تسلية له
على وجه زاد عليهم ولقد ارسلنا من قبلك اي رسلا فحذف ذكر الرسل
لدلالة الارسال عليه وقوله تعالى في شيع اي فرق الاولين من باب اضافة
الصفة الى الموصوف كقوله تعالى حق اليقين سموا شيعا لمتابعة بعضهم
بعضا في الاحوال التي يجتمعون عليها في الزمن الواحد والشيع جمع شيعة
وهي الفرقة المجتمعة المتفقة كلمتهم على مذهب وطريقة وقال الفراء
الشيعة هم الاتباع وشيعة الرجل اتباعه وقيل الشيعة من يتقوى بهم
الانسان وما يأتيهم عبر بالمضارع على حكاية الحال الماضية ان ما لا تدخل
على المضارع الا وهو في معنى الحال ولا على ماض الا وهو قريب من الحال
والاصل وما كان يأتيهم من رسول اي على اي وجه كان الا كانوا به جبلة
وطبعا يستهزءون كما استهزأ قومك بك فصبروا فاصبر كما صبروا كذلك اي
مثل ادخالنا التكذيب في قلوب هؤلاء المستهزئين بالرسل نسلكه اي ندخله
في قلوب المجرمين اي كفار مكة المستهزئين لا يؤمنون به اي بالنبي صلى
الله عليه وسلم وقيل بالقرآن وفي الاية دليل على ان الله تعالى يخلق الباطل
في قلوب الكفار والسلك ادخال الشيء في الشيء كالخيط في المخيط والرمح
في المطعون ومنه قوله تعالى ما سلككم في سقر وقيل الضمير في نسلكه يعود
للذكر كما ان الضمير في به يعود اليه وجملة لا يؤمنون به حال من ذلك الضمير
والمعنى على هذا مثل ذلك السلك نسلك الذكر في قلوب المجرمين مكذبا
غير مؤمن به قال البيضاوي وهذا الاسناد لا ضعيف اذ لا يلزم

من تعاقب الضمائر بواقعها في المرجوع اليه اهر وما اعدت الضمير اليه في ذلك هو ما قاله
ابن الخازن وجرى عليه الجلال السيوطي وقوله تعالى **وقد خلت سنة الاولين**
اي سنة الله فيهم من تعذيبهم بتكذيبهم انبيائهم وعيد شديد لكفار مكة
بانه ينزل بهم مثل ما نزل بالامم الماضية المكذبة وقال الزجاج قد مضت
سنة الله في ان يسلك الكفر والضلال في قلوبهم قال الرازي وهذا المعنى
بظاهر اللفظ وقرا ابو عمرو وحمزة والكسائي بادغام التا الثانية في السين
والباقون بالاظهار وقوله تعالى **ولو فتحنا عليهم بابا من السماء** الاية
هو المراد في سورة الانعام في قوله تعالى ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس الاية
اي ان الذين يقولون لو ما تاتينا بالملائكة فلو انزلنا الملائكة **فظلوا فيه**
اي فظلت الملائكة يعرجون اي يصعدون في الباب وهم يرونها عيانا
لقالوا اي من غلوهم في الكفر **انما سكرت ابصارنا** اي سدت عن الابصار
بالسحر او من السكر ويدل عليه قراءة ابن كثير بالتخفيف او حيرت من السكر
ويدل عليه قراءة الباقين بالتشديد **بل نحن قوم مسحورون** اي قد
سحرنا محمد بذلك اي كما قالوا عند ظهور غيره من الايات كانشقاق
القمر وما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من القرءان المعجز الذي لا يستطيع
الجن والانس ان ياتوا بمثله وقيل الضمير في يعرجون للمشركين
اي فظل المشركون يصعدون في هذا الباب فينظرون في ملكوت
السموات وما فيها من العجائب لما امنوا لعنادهم وكفرهم وقالوا انما سحرنا وقرا
الكسائي بادغام بل في النون والباقون بالاظهار ولما اجاب الله تعالى عن شبهة
منكري النبوة والقول بالنبوة مفرع على القول بالتوحيد ودلائل التوحيد
منها سماوية ومنها ارضية بدا منها بذكر الدلائل السماوية فقال مبتدئا
بحرف التوقع **ولقد جعلنا** بما لنا من العظمة والقدرة الباهرة **في السماء**
بروجا قال الليث البروج واحدها برج من بروج الفلك والبروج هي
النجوم الكبار ماخوذة من الظهور يقال تبرجت المراة اذا ظهرت والمراد بها
المنازل التي تنزلها الشمس والقمر والكواكب السيارة وهي اثنا عشر برجا
الحمل والثور والجوزا والسرطان والاسد والسنبلة والاسد
والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت وهي منازل الكواكب
السبعة السيارة المريخ وله الحمل والعقرب والزهرة ولها الثور والميزان
وعطارد وله الجوزا والسنبلة والقمر وله السرطان والشمس ولها الاسد والمشتري
وله القوس والحوت وله زحل وله الجدي والدلو وهذه البروج مقسومة على
ثلثماية وستون درجة لكل برج منها ثلاثون درجة يقطعها الشمس في كل سنة
مرة وبها تتم دورة الفلك ويقطعها القمر في ثمانية وعشرين يوما قال ابن عباس
في هذه الاية يريد بروج الشمس والقمر يعني منازلهما وقال عطية هي قصور في السما

عليها الحرس وقال مجاهد هي النجوم العظام قال ابو اسحق يريد هذه البروج
وقرا نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار دال قد عند الجيم والباقون
بالادغام **وزيناها** اي السما بالشمس والقمر والنجوم **للناظرين** اي
للمعتبرين المستدلين بها على توحيد خالقها ومبدعها وهو الذي اوجد كل شي
وخلقه وصوره **وحفظناها من كل شيطان رجيم** اي مرجوم وقيل ملعون
قال ابن عباس كانت الشياطين لا يحجبون عن السموات وكانوا يدخلونها
ويسمعون اخبار الغيوب من الملائكة فيلقونها على الكهنة فلما ولد عيسى عليه
السلام منعوا من ثلاث سموات ولما ولد محمد صلى الله عليه وسلم منعوا من
السموات كلها فما منهم من احد يريد استراق السمع الا رمي بشهاب فلما منعوا تلك
المقاصد ذكروا ذلك لابليس فقال لقد حدث في الارض حدث فبعثهم ينظرون
فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو القرءان فقالوا والله هذا الحدث
وقوله تعالى **الا من استرق السمع** بدل من كل شيطان رجيم وقيل استثنا منقطع
اي لكن من استرق السمع واستراق السمع اختلاسه قال ابن عباس يريد الخطفة
اليسيرة وذلك ان الشياطين يركب بعضهم بعضا الى السما الدنيا يسترقون
السمع من الملائكة فيرمون بالكواكب كما قال تعالى **فاتبعه شهاب مبين** وهو
شعلة من نار ساطعة وقد يطلق للكواكب لما فيها من البريق يشبه شهاب
النار فلا يخطي ابدا فمنهم من يقتل ومنهم من يحرق وجهه وجنبه ويده حيث
يشا الله ومنهم من يخبله فيصير غولا يضل الناس في البوادي روى ابو هريرة
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قضى الله الامر في السما ضربت الملائكة
باجنحتها خضعانا لقوله كانه سلسلة على صفوان فاذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا
قال ربكم قالوا الذي قال الحق وهو العلي الكبير فيسمعها مسترق السمع ومسترق
السمع هكذا بعضهم فوق بعض ووصف سفيان بكفه فحرفها وبدد بين اصابعه
فيسمع الكلمة فيلقيها الى من تحته ثم يلقيها الاخر الى من تحته حتى يلقيها الى
الساحر او الكاهن وربما ادركه الشهاب قبل ان يلقيها وربما القاها قبل ان
يدركه فيكذب معها مائة كذبة فيقال اليس قد قال لنا يوم كذا وكذا فيصدق
بتلك الكلمة التي سمعها من السما فان قيل اذا جاز ان يسمع الشيطان اخبار الغيوب
من الملائكة خرج الاخبار عن المغيبات عن كونه معجزا دليلا على الصدق لان كل غيب
يخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم قام فيه الاحتمال وحينئذ يخرج عن كونه
معجزا دليلا على الصدق اجيب بانا اثبتنا كون محمد صلى الله عليه وسلم
رسولا بسائر المعجزات ثم بعد العلم بنبوته نقطع بان الله تعالى عجز الشياطين
عن تلقف الغيب بهذا الطريق وعند ذلك يصير الاخبار عن الغيب معجزا ولما
شرح الله الدلائل السماوية في تقرير التوحيد اتبعها بذكر الدلائل الارضية
وهي انواع النوع الاول قوله تعالى **والارض مددناها** قال ابن عباس بسطناها

على وجه الماء فقال البغوي يقال انها مسيرة خمسمائة سنة في مثلها ودحيت من تحت
الكعبة فان قيل فهل يدل ذلك على انها بسيطة او كرة عظيمة على ما يقوله ارباب
الهيئة اجيب بانه ليس في الاية دلالة على شيء من ذلك لان الارض على تقدير كونها
كرة فهي في غاية العظمة والكرة العظيمة ترى كالسطح المستوي وتقدم الكلام
على ذلك في سورة البقرة وسياتي زيادة على ذلك ان شاء الله تعالى في سورة
النازعات النوع الثاني قوله تعالى والقينا فيها رواسي اي جبالا ثوابت واحدها راس
والجمع راسية وجمع الجمع رواسي وهو كقوله تعالى والقى في الارض رواسي
ان تميد بكم قال ابن عباس لما بسط الله تعالى الارض على الماء مالت باهلها
كالسفينة فارساها الله تعالى بالجبال الثقال لكيلا تميل باهلها وقيل
ان الله تعالى خلقها لتكون دلالة للناس على طرق الارض ونواحيها لانها
كالاعلام فلا تميل الناس عن الجادة المستقيمة ولا يقعون في الضلال
النوع الثالث قوله تعالى وانبتنا فيها واختلف في عود الضمير فيها فقيل
يعود الى الارض لان انواع النبات المنتفع به يكون في الارض وقيل الى
الجبال لانها اقرب مذكور ولقوله تعالى من كل شيء موزون وانما يوزن
ما يتولد من الجبال والاولى عوده لهما واختلفوا في المراد بالموزون فقال
ابن عباس اي معلوم وقال مجاهد اي مقدار معين تقتضيه حكمته
وقال الحسن اعني به الشيء الموزون كالذهب والفضة والرصاص
والحديد ونحو ذلك مما يستخرج من المعادن والاولى انه جميع ما ينبت في
الارض والجبال لان ذلك نوعان احدهما يستخرج من المعادن وجميع ذلك
موزون والثاني النبات فبعضه موزون وبعضه بالكيل وهو يرجع الى الوزن
لان الصاع والمد مقدران بالوزن وجعلنا لكم فيها اي انعاما منا وتفضلا
عليكم معايش وهي بياء صريحة من غير مد جمع معيشة وهو ما يعيش
به الانسان مدة حياته في الدنيا من المطاعم والملابس والمعادن وغيرها
وجعلنا لكم من لستم له برازقين من العبيد والانعام والدواب
والطير فانكم تنتفعون بها ولستم لها برازقين لان رزق جميع الخلق على الله
تعالى وبعض الجهال يظنون في اكثر الامر انهم هم الذين يرزقون العيال والخدم
والعبيد وذلك خطا فان الله هو الرزاق يرزق المخدوم والخادم والمملوك والمالك
لانه تعالى خلق الاطعمة والاشربة واعطى القوة الغاذية والهاضمة والا لم يحصل
لاحد رزق فان قيل صيغة من مختصة بمن يعقل اجيب بانه تعالى اثبت لجميع
الدواب رزقا على الله تعالى حيث قال وما من دابة في الارض الا على الله رزقها
ويعلم مستقرها ومستودعها فغلب من يعقل على غيره حكي ان الماء قد قل
في بعض الاودية والجبال واشتد الحر قال بعضهم رايت بعض ذلك الوحش
رفعت رؤوسها الى السماء عند اشتداد عطشها قال فرايت الغيوم قد اقبلت

وامطرت

وامطرت وامتلأت الاودية منه تنبيه قيل لا يجوز ان يكون ومن لستم له برازقين مجرورا
عطفا على الضمير المجرور لا يقال اخذت منك وزيد الا باعادة الخافض كما في قوله
تعالى واذ اخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح والراجح الجواز كما قرئ قوله تعالى
تساءلون به والارحام بالخفض في القراءات السبع وهذا اعظم دليل ولما بين سبحانه
وتعالى انبت لهم كل شيء موزون وجعل لهم معايش اشعر بذكر ما هو السبب لذلك
فقال تعالى وان اي وما من شيء اي مما ذكر وغيره من الاشياء الممكنة وهي
لا نهاية لها الا عندنا خزائنه اي قادرون على ايجاده وتكوينه اضعاف
ما وجد منه فضرب الخزائن مثلا لاقتداره على كل مقدور وروي
جعفر بن محمد عن ابيه عن جده قال في العرش تمثال ما خلق الله في البحر والبر
والخزائن جمع خزانة وهي اسم للمكان الذي يخزن فيه للحفظ وقيل اراد مفاتيح
الخزائن وقيل المطر لانه سبب الارزاق لبني ادم والوحش والطير والدواب
ومعنى عندنا اي في حكمه تعالى وتصرفه وامره وتدبيره وما ننزله من بقاع
القدرة الا بقدر معلوم اي بحسب المصالح وقيل ان لكل ارض حدا ومقدارا
من المطر يقال لا ينزل من السماء قطرة مطر الا ومعها ملك يسوقها
الى حيث يشاء الله ولما ذكر ما اراد من ابنية السماء والارض وختمه بشمول
قدرته لكل شيء اتبعه ما ينشا عنهما مما هو بينهما مودعا في خزائن قدرته
بقوله تعالى وارسلنا الرياح جمع ريح وهو جسم لطيف منبث في الجو سريع
الممر لواقح اي حوامل لانها تحمل الماء الى السحاب فهي لاقحة يقال ناقة لاقحة
اذا حملت الولد وقال ابن مسعود يرسل الله تعالى الريح فتحمل الماء فتمجه
في السحاب ثم تمر به فتدر كما تدر اللقحة ثم تمطر وقال عبيد بن عمير يبعث
الله تعالى الريح المثيرة فتثير السحاب ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف السحاب
بعضه الى بعض فتجعله ركاما ثم يبعث الله اللواقح فتلقح الشجر وعن ابن عباس
قال ما هبت ريح قط الا جثى النبي صلى الله عليه وسلم على ركبتيه وقال
اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها ريحا وعن عائشة رضي الله تعالى عنها ان
رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا عصفت الريح قال اللهم اني اسالك
خيرها وخير ما فيها وخير ما ارسلت به واعوذ بك من شرها وشر ما فيها
وشر ما ارسلت به وقرا حمزة بالافراد والباقون بالجمع فانزلنا اي بعظمتنا
بسبب تلك السحاب التي حملتها الريح من السماء اي الحقيقة او جهتها او السحاب
لان الاسباب المترافقة تسند الشيء تارة الى القريب منها وتارة الى
البعيد ماء وهو جسم مايع سيال به حياة كل حيوان من شانه الاغتذاء
فاسقيناكموه اي جعلناه لكم سقيا يقال سقيته ما يشربه واسقيته
اي مكنته منه ليسقي ماشيته ومن يريد ونفى سبحانه وتعالى عن
غيره ما اثبته اولا لنفسه بقوله وما انتم له اي لذلك الماء بخازنين

اي ليست خزائنه بايديكم والخزن وضع الشي في مكان مهيا للحفظ فثبت ان القادر
عليه واحد مختار ومزيد لابطال التوحيد الاحيا والاماتة كما قال تعالى وانا
لنحن نحيي اي لنا هذه الصفة على وجه العظمة فنحيي بها من نشا من
الحيوان بروح البدن ومن الروح بالمعارف ومن النبات بالنمو وان كان احدهما
حقيقة والاخر مجازا لان الجمع جايز ونميت اي لنا هذه الصفة فنبرز بها
من عظمتنا ما نشا ونحن الوارثون اي الارث التام اذا مات الخلايق
الباقون بعد كل شي كما كان ولا شي فليس لاحد تصرف باماته ولا احيا فثبت
بذلك الوحدانية والفعل بالاختيار فلما ثبت بهذا كمال قدرته وكانت
اثار القدرة لا تكون محكمة الا بالعلم قال تعالى ولقد علمنا المستقدمين
وهو من قضينا بموته ولا من لدن ادم فيكون في موته كانه يسارع الى التقدم
اليه وان كان هو وكل من اهله يجتهد بالعلاج في تاخيره ولقد علمنا
المستاخرين اي الذين تمد في اعمارهم فتؤخر موتهم حتى يكونوا كانهم
يسابقونه الى ذلك وان عالجوا الموت بشرب سم او نحوه او عالجه لهم
غيرهم بضربهم بسيف او غيره نعرف من ذلك قطعا ان الفاعل واحد
مختار وقال ابن عباس اراد بالمستقدمين الاموات وبالمستقدمين
الاحيا وقال عكرمة المستقدمين من خلق الله والمستاخرين من لم
يخلق وقال الحسن المستقدمين في الطاعة والخير والمستاخرين
المتبطئون عنه وقيل المستقدمين من القرون الاول والمستاخرين امة
محمد صلى الله عليه وسلم وقيل المستقدمين في الصفوف والمستاخرين
فيها وذلك ان النساء كن يخرجن الى الجماعة فيقفن خلف الرجال فربما
كان في الرجال من في قلبه ريبة فيتاخر الى اخر صف الرجال ومن النسا
من في قلبها ريبة فتتقدم الى اول صف النسا لتقرب من الرجال فقال
النبي صلى الله عليه وسلم خير صفوف الرجال اولها وشرها اخرها
وخير صفوف النسا اخرها وشرها اولها تنبيه في سبب نزول هذه
الاية قولان احدهما ان امراة حسنا كانت تصلي خلف النبي صلى الله
عليه وسلم فكان بعضهم يستقدم حتى يكون في اول صف حتى
لا يراها ويتاخر بعضهم حتى يكون في اخر صف فاذا ركع نظر من تحت ابطه
فنزلت والثاني ان النبي صلى الله عليه وسلم حرض على الصف الاول
فازدحموا عليه وقال قوم بيوتهم قاصية عن المسجد لنبيعن دورنا
ولنشترين دورا قريبة من المسجد حتى ندرك الصف المقدم فنزلت
وان ربك هو يحشرهم اي المستقدمين والمستاخرين للجزا وتوسط
وتوسط الضمير للدلالة على انه القادر والمتولي لحشرهم لا غيره وتصدير
الجملة بان لتحقيق الوعد والتنبيه على ان ما سبق من الدلالة على

كمال قدرته وعلمه بتفاصيل الاشيا يدل على صحة الحكم كما صرح به بقوله تعالى
انه حكيم باهر الحكمة متقن في افعاله عليم وسع علمه كل شي ولما استدل سبحانه
وتعالى بتخليق الحيوانات على صحة التوحيد في الاية المتقدمة اردفه بالاستدلال
بتخليق الانسان على هذا المطلوب بقوله تعالى ولقد خلقنا الانسان قال
الرازي والمفسرون اجمعوا على ان المراد منه ادم عليه السلام ونقل في كتب الشيعة
عن محمد بن علي الباقر انه قال قد انقضى قبل ادم الذي هو ابونا الف الف ادم او اكثر
سمي انسانا لظهوره وادراك البصر اياه وقيل من النسيان لانه عهد اليه فنسي
من صلصال اي من الطين الشديد اليابس الذي لم تصبه نار اذا نقرته سمعت
له صلصلة اي صوتا وقال ابن عباس هو الطين اذا انصب عنه الما تشقق فاذا
حرك تقعقع وقال مجاهد هو الطين المنتن وقال الكسائي وقال الفرا هو طين
خلط برمل فصار له صوت عند نقره وقال الرازي قال المفسرون خلق الله تعالى
ادم من طين فصوره وتركه في الشمس اربعين سنة فصار صلصالا لا يدري
احد ما يراد به ولم يروا شيا من الصور يشبهه الى ان نفخ فيه الروح من حما اي
طين اسود منتن مسنون اي مصور بصورة الادمي وقال ابن عباس
هو التراب المبتل المنتن وقال مجاهد هو المنتن المتغير قال البغوي وفي
بعض الاثار ان الله تعالى خمر طينة ادم وتركه حتى صار متغيرا اسود ثم خلق منه
ادم عليه السلام قال ابن الخازن والجمع بين هذه الاقوال على ما ذكره
بعضهم ان الله تعالى لما اراد خلق ادم عليه السلام قبض قبضة من تراب
الارض واليه الاشارة بقوله تعالى ان مثل عيسى عند الله كمثل ادم خلقه
من تراب ثم ان ذلك التراب بله بالما وحما حتى اسود وانتن ريحه وتغير
واليه الاشارة بقوله تعالى من حما مسنون ثم ان ذلك الطين الاسود
المتغير صوره صورة انسان اجوف فلما جف ويبس كانت تدخل فيه الريح
فيسمع له صلصلة واليه الاشارة بقوله تعالى من صلصال كالفخار وهو
اليابس بحر الشمس ثم نفخ فيه الروح فكان بشرا سويا ولما ذكر سبحانه
وتعالى خلق الانسان ذكر ما خلق قبل من الجان فقال والجان قال ابن عباس
هو ابو الجن كما ان ادم عليه السلام ابو البشر وابليس ابو الشياطين
وفي الجن مسلمون وكافرون وياكلون ويشربون ويحيون ويموتون كبني ادم
واما الشياطين فليس فيهم مسلمون ولا يموتون الا اذا مات ابليس وقال
وهب ان من الجن من يولد له ويأكلون ويشربون بمنزلة الادميين ومن الجن
من هو بمنزلة الريح لا يتوالدون ولا ياكلون ولا يشربون وهم الشياطين
قال ابن الخازن والاصح ان الشياطين نوع من الجن لاشتراكهم في الاستتار
سموا جنا لتواريهم واستتارهم عن الاعين من قولهم جن الليل اذا استتر
والشيطان هو العاتي المتمرد الكافر والجن منهم المؤمن ومنهم الكافر

وانتصاب الجان بفعل يفسره خلقناه من قبل اي قبل خلق الانسان من نار السموم
اي من ريح حارة تدخل مسام الانسان فتقتله من قوة حرارتها قال الرازي فالريح
الحارة فيها نار ولها لفح كما ورد في الخبر انها من فيح جهنم انتهى ويقال السموم بالليل
والحرور بالنهار وقال الكلبي عن ابي صالح السموم نار لا دخان لها والصواعق
تكون منها وهي نار تكون بين السما وبين الحجاب فاذا احدث الله تعالى امرا
خرقت الحجاب فهوت الى ما امرت به فالهدة التي تسمعون خرق ذلك الحجاب وعن
ابن مسعود هذه السموم جزء من سبعين جزءا من السموم التي خلق منها الجان
وتلا هذه الاية وعن الضحاك عن ابن عباس كان ابليس من حي من الملائكة يقال
لهم الجن خلقوا من نار السموم وخلقت الجن الذي ذكروا في القران من مارج من نار
واما الملائكة فخلقوا من النور ولما ذكر الله تعالى حدوث الانسان الاول
واستدل بذكره على وجود الاله القادر المختار ذكر بعده واقعته بقوله
تعالى واذ اي واذكر يا اشرف الخلق قول ربك عز وجل اذ قال ربك
اي المحسن اليك لتشريف ابيك ادم عليه السلام لتشريفك للملائكة
اني خالق بشرا اي جسما كثيفا يباشر ويلاقي والملائكة والجن لا
يباشرون للطف اجسامهم عن ابصار البشر والبشرة ظاهر الجلد
من كل حيوان وقوله تعالى من صلصال من حما مسنون تقدم تفسيره
فاذا سويته اي عدلته وتممته وهياته لنفخ الروح فيه من الفعل
ونفخت فيه من روحي اي خلقت الحياة فيه وليس ثم نفخ ولا منفوخ وانما
هو تمثيل فاضاف الروح اليه تشريفا كما يقال بيت الله وهو ما يصير
به الروح عالما واشرف منه ما يصير به العالم عالما خاشعا وسياتي
الكلام على الروح ان شاء الله تعالى في سورة سبحان عند قوله تعالى
ويسالونك عن الروح فقعوا اي اسقطوا له تعظيما حال
كونهم ساجدين وتقدم في سورة البقرة الكلام على من المخاطب بالسجود
وهل هو سجود انحنا او غيره فسجد الملائكة وقوله تعالى كلهم اجمعون
قال سيبويه تاكيد بعد تاكيد وسئل المبرد عن ذلك فقال لو قال
فسجد الملائكة احتمل ان يكون سجد بعضهم فلما قال كلهم زال هذا الاحتمال
فظهر انهم باسرهم سجدوا ثم عند هذا بقي احتمال وهو انهم سجدوا دفعة
واحدة او سجد كل واحد في وقت اخر فلما قال اجمعون ظهر ان الكل
سجدوا دفعة واحدة قال الزجاج وقول سيبويه اجود لان اجمعين
معرفة فلا يكون حالا وقوله تعالى الا ابليس بالسجود لادم واختلفوا
في انه هل كان من الملائكة ام لا وقد سبقت هذه المسالة على الاستقصا
في سورة البقرة وقوله تعالى ابى ان يكون مع الساجدين اي لادم
استيناف وتقديره ان قائلا قال هل سجد فقيل ابى ذلك واستكبر

عنه قال الله تعالى له يا ابليس ما لك الا تكون اي ان تكون ولا زائدة اي ما منعك
ان تكون مع الساجدين لادم قال لم اكن لاسجد لبشر جسماني كثيف واللام
لتاكيد النفي اي لا يصح مني وينافي حالي ان اسجد وانا ملك روحاني لبشر
خلقته من صلصال من حما مسنون وهو اخس العناصر وخلقتني من نار
وهي اشرفها استنقص ادم باعتبار النوع والاصل وقد سبق الجواب عنه
في سورة الاعراف تنبيه قال بعض المتكلمين انه تعالى اوصل هذا الخطاب
الى ابليس على لسان بعض رسله وضعف لان ابليس قال في الجواب لم اكن
لاسجد لبشر خلقته من صلصال فقوله خلقته خطاب بالحضور لا خطاب
الغيبة وظاهره يقتضي ان الله تعالى تكلم مع ابليس بغير واسطة وان
ابليس تكلم مع الله بغير واسطة فكيف يعقل هذا مع ان مكالمة الله تعالى
بغير واسطة من اعظم المناصب واشرف المراتب فكيف يعقل حصوله
لراس الكفرة ورئيسهم واجيب بان مكالمة الله تعالى انما تكون منصبا
عاليا اذا كانت على سبيل الاكرام والاعظام فاما اذا كانت على سبيل
الاهانة والاذلال فلا قال الله تعالى فاخرج منها اي من الجنة وقيل
من السموات وقيل من زمرة الملائكة وقد تقدم الكلام على ذلك ايضا في
سورة الاعراف فانك رجيم اي مطرود من الخير والكرامة فان من يطرد
يرجم بالحجر او شيطان يرجم بالشهب وهو وعيد يتضمن الجواب عن
شبهته وان عليك اللعنة اي هذا الطرد والابعاد الى يوم الدين
قال ابن عباس يريد يوم الجزاء حيث يجازي العباد باعمالهم مثل قوله
تعالى مالك يوم الدين فان قيل كلمة الى تفيد حصر انتهاء الغاية فهذا
يفيد بان اللعنة لا تحصل الا الى يوم الدين وعند القيمة يزول اللعن
اجيب بجوابين الاول ان المراد التابيد وذكر القيمة ابعد غاية ذكرها الناس
في كلامهم كقولهم ما دامت السموات والارض في التابيد والثاني انه
مذموم مدعو عليه باللعن في السموات والارض الى يوم القيمة من غير
ان يعذب فاذا جاء ذلك اليوم عذب عذابا يقترن اللعن معه فيصير اللعن
حينئذ كالزائل بسبب ان شدة العذاب تذهل عنه ولما جعله الله تعالى
رجيما ملعونا الى يوم القيمة فكان قائلا يقول فماذا قال فقيل قال رب
فاعترف بالعبودية والاحتياج اليه فانظرني اي اخرني تاخير
المحتاج للنظر في امره والفا متعلقة بمحذوف دل عليه فاخرج منها فانك
رجيم الى يوم يبعثون اي الناس اراد ان يجد فسحة في الاغوا
او النجاة من الموت اذ لا موت بعد وقت البعث قال الله تعالى مجيبا للاول
دون الثاني بقوله تعالى فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم وهو المسمى فيه اجله
عند الله وهو النفخة الاولى وما بينهما لموت كل مخلوق لم يكن في دار الخلد

والانظار

فان قيل كيف اجابة الله تعالى الى ذلك الامهال اجيب بانه انما اجابه الى ذلك زيادة
في بلائه وشقائه وعذابه لا لاكرامه ورفع مرتبته ولما اجيب الى ذلك كانه قيل فماذا
قال فقيل قال رب اي ايها الموجد والمدبر لي وقوله بما اغويتني اي خيبتني
من رحمتك الباء للقسم وما مصدرية وجواب القسم لازينن اي اقسم
باغوائك اياي لازينن لهم في الارض حب الدنيا ومعاصيك كقوله فبعزتك
لاغوينهم اجمعين الا انه في ذلك الموضع اقسم بعزة الله وهي من صفات الله الذات
وهنا اقسم باغواء الله وهي من صفات الافعال والفقهاء قالوا القسم بصفات
الذات صحيح واختلفوا في القسم بصفات الافعال والراجح فيها الصحة ولاغوينهم
اي بالاضلال عن الطريق الحميد بالقاء الوسوسة في قلوبهم ولاحملنهم اجمعين
على الغواية وقوله الا عبادك منهم المخلصين قراءة ابن كثير وابو عمرو وابن عامر بكسر
اللام اي الذين اخلصوا دينك عن الشوائب وقراءة الباقون بفتحها اي الذين اخلصهم
الله تعالى بالهداية وانما استثنى ابليس المخلصين لانه علم ان كيده لا يعمل فيهم ولا
يقبلون منه قال الرازي والذي حمله على هذا الاستثناء ان لا يصير كاذبا في دعواه
فلما احترز ابليس عن الكذب علمنا ان الكذب في غاية الخساسة تنبيه قال رويم
الاخلاص في العمل هو ان لا يريد صاحبه عنه عوضا من الدارين ولا عوضا من
الملكين وقال الجنيد الاخلاص سر بين العبد وبين الله تعالى لا يعلمه ملك
فيكتبه ولا شيطان فيفسده ولا هوى فيميله وذكر القشيري وغيره عن
النبي صلى الله عليه وسلم انه قال سالت جبريل عن الاخلاص ما هو قال
سالت رب العزة عن الاخلاص ما هو قال سر استودعته قلب من احب من عبادي
ولما ذكر ابليس انه يغوي بني ادم الا من عصمه الله بتوفيقه وتضمن هذا الكلام
تفويض الامور الى الله تعالى والى ارادته قال تعالى هذا اي الذي ذكرته
من حال المستثنى والمستثنى منه صراط اي طريق علي مستقيم اي
لا انحراف عنه لانه بي وحكمت به عليك وعليهم ولو لم تقل انت ولما قال
ابليس لازينن لهم في الارض الا عبادك منهم المخلصين اوهم هذا ان له سلطانا على
عباد الله غير المخلصين فبين تعالى انه ليس له سلطان على احد من عبيد الله سواء كانوا
مخلصين ام لم يكونوا مخلصين بل من اتبع منهم ابليس باختياره صار تبعا له ولكن
حصول تلك المتابعة ايضا ليس لاجل ابليس واوهم انه له على بعض عباد الله
سلطانا فبين تعالى كذبه وذكر تعالى انه ليس له على احد منهم سلطان ولا قدرة
اصلا بقوله تعالى ان عبادي اي المؤمنين كلهم ليس لك اي بوجه من الوجوه
عليهم سلطان اي لترديهم كلهم عما يرضيني ونظير هذه الاية قوله تعالى حكاية
عن ابليس وما كان لي عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لي وقال تعالى
في اية اخرى ليس له سلطان على الذين امنوا وعلى ربهم يتوكلون انما سلطانه على الذين
يتولونه والذين هم به مشركون الا من اتبعك اي بتهديه منه ورغبة في اتباعك

من الغاوين اي ومات من غير توبة فاني جعلتك عليهم سلطانا بالتزيين والاغواء سئل
سفيان بن عيينة عن هذه الاية فقال معناه ليس لك عليهم سلطان تلقيهم في
ذنب يضيق عنه عفوي وقيل ان الاضافة للتشريف فلا تشمل الا الخلص فحينئذ
يكون الاستثناء منقطعا وفائدة سوقه بصورة الاستثناء على تقدير الانقطاع
الترغيب في رتبة التشريف بالاضافة اليه والرجوع عن اتباع العدو الى الاقبال
عليه لان ذوي الانفس الابية والهمم العلية يتنافسون في ذلك المقام ويرونه كما
هو الحق اعلى مرام وان جهنم لموعدهم اي الغاوين وهم ابليس ومن تبعه اجمعين
ثم بين تعالى انهم متفاوتون فيها بقوله تعالى لها اي لجهنم سبعة ابواب اي
سبع طبقات قال علي رضي الله تعالى عنه اتدرون كيف ابواب النار هكذا ووضع
احدى يديه على الاخرى اي سبعة ابواب بعضها فوق بعض وان الله تعالى وضع
الجنان على الارض ووضع النيران بعضها على بعض قال ابن جريج النار
سبع طبقات دركات اولها جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر
ثم الجحيم ثم الهاوية تنبيه تخصيص لان اهلها سبع فرق وقيل جعلت
سبعة على وفق الاعضاء السبعة من العين والاذن واللسان والبطن
والفرج واليد والرجل لان مصادر السيئات فكانت مواردها الابواب
السبعة ولما كانت هي بعينها مصادر الحسنات بشرط النية ثمانية قال تعالى
لكل باب اي منها منهم اي الغاوين خاصة لا يشاركهم فيها مخلص جزء
اي نصيب وقرا شعبة بضم الزاي والباقون بالسكون مقسوم اي معلوم
فلكل دركة قوم يسكنونها قال الضحاك في الدركة الاولى اهل التوحيد الذين
ادخلوا النار يعذبون بقدر ذنوبهم ثم يخرجون وفي الثانية النصارى وفي
الثالثة اليهود وفي الرابعة الصابئون وفي الخامسة المجوس وفي السادسة اهل
الشرك وفي السابعة المنافقون وذلك قوله تعالى ان المنافقين في الدرك الاسفل
من النار وروي عن عمر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
لجهنم سبعة ابواب باب منها لمن سل السيف على امتي او قال على امة محمد ولما
شرح الله تعالى احوال اهل العقاب اتبعه بصفة اهل الثواب بقوله تعالى مؤكدا لانكار
المكذبين بالبعث ان المتقين اي الذين اتقوا الشرك بالله تعالى كما قال جمهور الصحابة
والتابعين وهو الصحيح لان المتقي هو الاتي بالتقوى مرة واحدة كما ان الضارب هو
الاتي بالضرب مرة واحدة والقاتل هو الاتي بالقتل مرة واحدة فكما انه ليس من
شرط صدق الوصف بكونه ضاربا وقاتلا كونه اتيا بجميع انواع الضرب والقتل ليس
من شرط صدق الوصف بكونه متقيا كونه اتيا بالتقوى لان كل فرد من افراد الماهية
يجب كونه مشتملا على تلك الماهية في جنات اي بساتين قال الرازي اما الجنان
فاربعة لقوله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان ثم قال ومن دونهما جنتان فيكون
المجموع اربعة وقوله ولمن خاف ربه جنتان يؤكد ما قلناه لان من امن بالله لا ينفك

نليه من الخوف من الله تعالى وقوله ولمن خاف يكفي في قوله صدقه حصول هذا الخوف مرة واحدة
وقوله تعالى وعيون قال الرازي يحتمل ان يكون المراد منهما ما ذكره الله تعالى في قوله مثل الجنة
التي وعد المتقون فيها انهار من ماء غير آسن وانهار من لبن لم يتغير طعمه وانهار من خمر لذة
للشاربين وانهار من عسل مصفى ويحتمل ان يكون المراد من هذه العيون منابع
مغايرة لتلك الانهار فان قيل هل كل واحد من المتقين يختص بعيونه او تكون العيون تجري
بعضها الى بعض اجيب بان لكل واحد من كونه يحتمل فيجوز ان يختص كل واحد
بعين ينتفع هو بها ومن يختص به من الحور والولدان ويكون ذلك على قدر حاجاتهم
وعلى حسب شهواتهم ويحتمل ان يجري من بعضهم الى بعض لانهم يطهرون عن
الحقد والحسد وقرا نافع وابو عمرو وهشام وحفص برفع العين والباقون بالكسر
وقرا بكسر التنوين في الوصل ابو عمرو وابن ذكوان وعاصم وحمزة والباقون بالضم
ولما كان المنزل لا يحصل الا بالسلامة والامن قال تعالى ادخلوها اي يقال
لهم ذلك بسلام اي سالمين من كل آفة آمنين من ذلك دائما ولما كانت
الانس لا يحل الا بالحسن مع كمال المودة وصفاء القلوب عن الكدر قال تعالى ونزعنا
اي بما لنا من العظمة والقدرة ما في صدورهم من غل اي حقد كامن في القلب ويطلق
على الشحنا والعداوة والحسد والبغضا فكل هذه الخصال المذمومة داخلة في الغل
لانها كامنة في القلب يروى ان المومنين يحبسون على باب الجنة فيقتص بعضهم
من بعض ثم يومر بهم الى الجنة وقد نقي قلوبهم من الغل والغش والحقد والحسد
حال كونهم اخوانا اي متصافين حال كونهم على سرر جمع سرير وهو مجلس
رفيع موطا للسرور وهو ماخوذ منه لانه مجلس سرور قال ابن عباس رضي
الله تعالى عنهما يريد على سرر مكللة من ذهب بالزبرجد والدر والياقوت والسرير
ما بين صنعا الى الجابية متقابلين لا يرى بعضهم قفا بعض فان التقابل التواجه
وهو نقيض التدابر ولا شك ان المواجهة اشرف الاحوال وعن مجاهد رضي الله تعالى
عنه تدور بهم الاسرة حيثما داروا فيكونون في جميع احوالهم متقابلين
تنبيه ليس المراد بالاخوة في النسب بل المراد بالاخوة في المودة والمخالطة هو
كما قال تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين وعن الجنيد انه
قال ما احلى الاجتماع مع الاصحاب وما امر الاجتماع مع الاضداد وقوله تعالى
لا يمسهم فيها نصب اي اعيا وتعب وجهد ومشقة استئناف او حال بعد
حال من الضمير في متقابلين وقوله تعالى وما هم منها بمخرجين المراد به كونه خلودا بلا
زوال وبقاء بلا فناء وكمال بلا نقصان وفوز بلا حرمان ولما ذكر تعالى احوال
المتقين واحوال غيرهم اتبع ذلك بقوله تعالى نبئ اي اخبر يا افضل الخلق
عبادي اخبارا جليلا اني انا اي وحدي الغفور اي للمومنين الرحيم بهم
وقرا نافع وابن كثير وابو عمرو بفتح اليا من عبادي واني والباقون بالسكون
واما الهمزة في نبئ لم يبدلها الا حمزة في الوقف فقط وكذا الهمزة من نبئهم

ونقل عن حمزة

ونقل عن حمزة كسر الهاء في الوقف وان عذابي اي وحدي للعصاة هو العذاب الاليم
اي المولم تنبيه في هذه الاية لطايف الاولى انه سبحانه وتعالى اضاف العباد الى
نفسه وهذا تشريف عظيم الا ترى انه قال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم سبحان الذي
اسرى بعبده ليلا الثانية انه تعالى لما ذكر الرحمة والمغفرة بالغ في التاكيدات
بالفاظ ثلاث اولها قوله تعالى اني ثانيها انا وثالثها ادخال حرف الالف واللام
على قوله تعالى الغفور الرحيم ولما ذكر العذاب لم يقل اني انا المعذب وما وصف
نفسه بذلك بل قال وان عذابي هو العذاب الاليم الثالثة انه امر رسول
الله صلى الله عليه وسلم ان يبلغ اليهم هذا المعنى فكان اشهد رسوله على
نفسه في التزام المغفرة والرحمة والرابعة انه لما قال نبئ عبادي
كان معناه نبئ كل من كان معترفا بعبوديتي وهكذا كما يدخل فيه المومن
المطيع كذلك يدخل فيه المومن العاصي وكل ذلك يدل على تغليب جانب
الرحمة من الله تعالى وعن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه قال سمعت رسول
الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة
فامسك عنده تسعة وتسعين وارسل في خلقه رحمة فلو يعلم الكافر
بكل الذي عنده من الرحمة لم ييأس من الجنة ولو يعلم المومن بكل الذي عند
الله من العذاب لم يأمن من النار وعن عبادة رضي الله تعالى عنه قال بلغنا
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لو يعلم العبد قدر عفو الله ما
تورع من حرام ولو يعلم قدر عذابه لجمع نفسه الى قتلها وعنه صلى الله عليه
وسلم انه مر بنفر من اصحابه وهم يضحكون فقال اتضحكون وقد ذكر
الجنة والنار بين ايديكم فنزل نبئ عبادي اني انا الغفور الرحيم ولما بالغ تعالى
في تقرير النبوة ثم اردفه بذكر دلايل التوحيد ثم ذكر تعالى عقبه احوال
القيامة ووصف الاشقيا والسعدا اتبع ذلك بقصص الانبيا عليهم
ليكون سماعها مرغبا في العبادة الموجبة للفوز بدرجات الاوليا ومحذرا
عن المعصية الموجبة لاستحقاق دركات الاشقيا وافتتح من ذلك
بقصة ابراهيم عليه السلام فقال تعالى ونبئهم اي خبر يا سيد المرسلين
عبادي عن ضيف ابراهيم وهم ملايكة اثني عشر او عشرة او ثلاثة
منهم جبريل عليه السلام فان قيل الضيف هو المنضم الى غيره
بسبب القرى اجيب بان هولاء سموا بهذا الاسم لانهم على صورة الضيف
فهو من دلالة التضمن وقيل ايضا ان من يدخل دار انسان ويلتجي اليه
يسمى ضيفا وان لم ياكل اذ دخلوا عليه اي ابراهيم وكان
يكنى ابا الضيفان كان لقصره اربعة ابواب لكيلا يفوته احد
فقالوا سلاما اي نسلم عليك سلاما او سلمت سلاما قال ابراهيم
عليه السلام بلسان انا اي انا ومن عندي منكم وجلون اي

اي خائفون وكان خوفهم لامتناعهم من الاكل ولانهم دخلوا بغير اذن وبغير وقت والوجل اضطراب النفس لتوقع ما تكره **قالوا لا توجل** اي لا تخف **انا** رسل ربك **نبشرك بغلام** اي ولد ذكر في غاية القوة لبس كاولاد الشيوخ ضعيفا وقرأ حمزة بفتح النون وسكون الباء وضم الشين مخففة والباقون بضم النون وفتح الباء وكسر الشين مشددة **عليم** اي ذي علم كثير هو اسحق عليه السلام كما ذكر في هود وتقدم ذكر القصة هناك باسرها **قال** ابراهيم عليه السلام **أبشرتموني** اي بالولد وقوله **على ان مسني الكبر** حال اي مع مسه اياي واي قيل كيف قال **فبم** اي فباي شيء **تبشرون** اي بينوا الي ذلك بيانا شافيا مع انهم قد بينوا ما بشروا به وما فائدة هذا الاستفهام اجيب بانه اراد ان يعرف ان الله تعالى هل يعطيه الولد مع بقائه على صفة الشيوخة او يقلبه شابا ثم يعطيه الولد والسبب في هذا الاستفهام ان العادة جارية بانه لا يحصل في حالة الشيوخة التامة وانما يحصل في حال الشباب او انه استفهام تعجب ويدل لذلك قولهم **قالوا بشرناك بالحق** قال ابن عباس يريدون بما قضاه الله تعالى والمعنى ان الله تعالى قضى ان يخرج من صلب ابراهيم اسحق ذرية مثل ما اخرج من صلب ادم وقولهم **فلا تكن** اي بسبب تبشيرنا **من القانطين** اي الايسين نهي لابراهيم عليه السلام من القنوط ونهي الانسان عن الشيء لا يدل على كونه فاعلا للمنهي عنه كما في قوله تعالى ولا تطع الكافرين والمنافقين ثم حكى الله تعالى عن ابراهيم عليه السلام انه **قال ومن يقنط** اي ييأس من هذا الياس **من رحمة ربه** اي الذي لم يزل احسانه عليه **الا الضالون** اي المخطئون طريق الاعتقاد الصحيح في ربهم من تمام القدرة وانه لا تضره معصية ولا تنفعه طاعة وقرأ ابو عمرو والكسائي بكسر النون والباقون بفتحها ولما تحقق عليه السلام البشرى ورأى انهم مجتمعين على غير الصفة التي ياتي عليها الملك بالوحي وكان هو وغيره من العارفين بالله عالمين انه ما نزل الملك الا بالحق كان ذلك سببا لان يسالهم عن امرهم لنزول وجل كله ولذلك **قال** عليه السلام **فما** بسبب **خطبكم** اي شانكم قال ابو حيان والخطب لا يكاد يقال الا في الامر الشديد بداهة وقال الرماني انه الامر الجليل **ايها المرسلون** فانكم ما جئتم الا لامر عظيم يكون فصلا بين هالك وناج **قالوا انا ارسلنا** اي ارسلنا العزيز الحكيم الذي انت اعرف الناس في هذا الزمان به **الى** اهلاك **قوم** اي ذوي منعة **مجرمين** اي كافرين وهم قوم لوط وقوله تعالى **الا آل لوط** فيه وجهان احدهما انه استثناء متصل على انه مستثنى من الضمير المستكن في مجرمين بمعنى اجرموا كلهم الا آل لوط فانهم لم يجرموا

ويكون

ويكون معنى قوله تعالى **انا لمنجوهم اجمعين** اي لايمانهم استئناف اخبار بنجاتهم لكونهم لم يجرموا ويكون الارسال حينئذ شاملا للمجرمين ولآل لوط لاهلاك اولا وانجاء هؤلاء والثاني انه استثناء منقطع لان آل لوط لم يندرجوا في المجرمين البتة فيكون قوله تعالى انا لمنجوهم اجمعين جرى مجرى خبر لكن في اتصاله بآل لوط لان المعنى لكن آل لوط منجوهم وقرأ حمزة والكسائي بسكون النون وتخفيف الجيم والباقون بفتح النون وتشديد الجيم وقوله تعالى **الا امرأته** استثناء من آل لوط او من ضميرهم على الاول وعلى الثاني لا يكون الا من ضميرهم لاختلاف الحكمين اللهم الا ان يجعل انا لمنجوهم اعتراضا وقوله تعالى **قدرنا** قرأه شعبة بتخفيف الدال والباقون بالتشديد **انها لمن الغابرين** اي الباقين في العذاب لكفرها تنبيه معنى التقدير في اللغة جعل الشيء على مقدار غيره يقال قدر هذا الشيء بهذا اي اجعله على مقداره وقدر الله تعالى الاقوات اي جعلها على مقدار الكفاية ويفسر التقدير بالقضاء فيقال قضى الله تعالى عليه وقدره عليه اي جعله على مقدار ما يكفي في الخير والشر وقيل معنى قدرنا كتبنا وقال الزجاج دبرنا فان قيل لم اسند الملائكة فعل التقدير الى انفسهم مع ان الله عز وجل اجيب بانهم انما ذكروا هذه العبارة لما لهم من القرب والاختصاص بالله تعالى كما تقول خاصة الملك دبرنا كذا وامرنا بكذا والمدبر والآمر هو الملك وانما يريدون بهذا الكلام اظهار ما لهم من الاختصاص بذلك الملك ولما بشر الملائكة عليهم السلام ابراهيم عليه السلام بالولد واخبروه بانهم مرسلون بعذاب قوم مجرمين ذهبوا بعد ابراهيم عليه السلام الى لوط وآله وهذه هي القصة الثانية المذكورة في هذه السورة قال تعالى **فلما جاء آل لوط المرسلون** فهنا همزتان مفتوحتان من كلمتين فقرأ قالون والبزي وابو عمرو باسقاط واحدة منهما مع المد والقصر وقرأ ورش وقنبل بتسهيل الثانية وابدالها حرف مد والباقون بتحقيق الهمزتين وكذا اوجاء اهل المدينة **قال** لهم **انكم قوم منكرون** لانهم دخلوا عليه هجما فانكرهم وخاف من دخولهم لاجل شر يوصلونه اليه ولاجل انهم كانوا شبانا مردا حسان الوجوه فخاف ان يهجم قومه عليهم بسبب طلبهم فقال هذه الكلمة وقيل ان النكرة ضد المعرفة وقوله عليه السلام انكم قوم منكرون اي لا اعرفكم ولا اعرف من اي الاقوام انتم ولاي غرض دخلتم علي فعند ذلك **قالوا** اي الملائكة **بل جئناك بما** اي بالعذاب الذي **كانوا** قومك **فيه يمترون** اي يشكون في نزوله بهم والجاهل يوصف بالشك وان كان مكذبا من جهة ما يعرض له من حيث انه لا يرجع الى نفسه فيما هو عليه ثم اكدوا ما ذكروه بقولهم **وأتيناك بالحق** اي باليقين الذي لا شك فيه ثم اكدوا هذا التاكيد بقولهم **وانا لصادقون** اي فيما اخبرناك به **فاسر باهلك** اي فاذهب بهم في الليل

بقطع من الليل اي في طايفة من الليل وقيل هي اخره قال الشاعر •
افتحي الباب وانظري في النجوم • كم علينا من قطع ليل بهيم كانه طالع الليل هو
اخاطب ضجيعته بذلك وكان يحب طول الليل للوصال وقرا نافع وابن كثير بوصل
همزة فاسر بعد الفا من السرا والباقون بالقطع وهما بمعنى واتبع ادبارهم اي
وكن على اثار اهلك وسر خلفهم و تطلع على احوالهم ولا يلتفت منكم احد اي
لئلا يري اليهم ما نزل بهم من البلا وقيل يحمل ترك الالتفات علامة لمن ينجو
من ال لوط وامضوا حيث تؤمرون اي الي المكان الذي امركم الله بالمضي اليه
قال ابن عباس هو الشام وقال الفضيل حيث يقول لكم جبريل وذلك ان جبريل
امرهم ان يمضوا الي قرية معينة ما عمل اهلها عمل قوم لوط وقيل الي الاردن
وقيل الي مصر تنبيه حيث ههنا على بابها من كونها ظرف مكان مبهم ولابهامها
تعدي اليها الفعل من غير واسطة وقضينا اي اوحينا اليه ولما ضمنت
قضينا معني الايحا تعدي بالي ومثله وقضينا الي بني اسرايل وقوله تعالى
ذلك الامر مبهم تفسيره ان دابر هولا مقطوع اي مستاصلون عن اخرهم
حتى لا يبقى منهم احد وقوله تعالى مصبحين حال من هولاء او من الضمير
في مقطوع وجمعه للحمل على المعنى فان دابر هولاء في معنى مدبري هولاء
اي يتم استيصالهم في الصباح وجا اهل المدينة اي مدينة من
مداين قوم لوط وهي سدوم بسين مهملة وذال معجمة وغلطي من قال
مهملة يستبشرون اي باضياف لوط طمعا فيهم وليس في الاية دليل
على المكان الذي جاوه الا ان القصة تدل على انهم جاوا دار لوط وقيل
ان الملايكة لما كانوا في غاية الحسن اشتهر خبرهم حتى وصل الي قوم لوط
وقيل امراة لوط اخبرتهم بذلك قال الرازي وبالجملة فالقوم قالوا
نزل بلوط ثلاثة من المرد ما راينا قط اصبح وجها ولا احسن شكلا منهم
فذهبوا الي دار لوط طلبا منهم لاوليك المرد والاستبشار اظهار السرور
ولما وصلوا اليه قال لهم لوط ان هولا ضيفي اي وحق على الرجل
اكرام الضيف فلا تفضحون فيهم يقال فضحه يفضحه اذا اظهر من امره
ما يلزمه به العار واذا قصد الضيف بسو كان ذلك اهانة لصاحب المحل
ثم اكد ذلك بقوله واتقوا الله اي خافوا الله في امرهم ولا تخزون اي
ولا تخجلوني فيهم بقصدكم اياهم بفعل الفاحشة من الخزاية
وهي الحيا او لا تذلون بسببهم من الخزي وهو الهوان قالوا اي قومه
في جواب قوله لهم اولم ننهك عن العالمين اي عن ان تضيف احدا
من العالمين وقيل اولم ننهك ان تدخل الغربا المدينة فانا نطلب منهم
الفاحشة وقيل اولم ننهك ان تمنع بيننا وبينهم فانهم كانوا يتعرضون
لكل احد وكان لوط عليه السلام يمنعهم عنهم بقدر وسعه ثم قال لهم

هولاء

هولاء بناتي اي بنات القوم لان كل امة اولاد نبيها رجالهم بنوه ونساوهم بناته
فكانه قال لهم هولاء بناتي فانكحوهن وخلوا بني فلا تتعرضوا لهم ان كنتم فاعلين
اي ما اقول لكم او قضا الشهوة والكلام في ذلك قدم بالاستقصا في سورة هود
وقرا نافع بفتح يا بناتي والباقون بسكونها قال الله تعالى لنبيه محمد صلى
الله عليه وسلم على لسان مليكة لعمرك اي وحياتك وما اقسم بحياة احد
غيره وذلك يدل على انه اكرم الخلق على الله تعالى انهم لفي سكرتهم اي شدة
غفلتهم التي ازالت عقولهم يعمهون اي يتحيرون الخطاب للوط عليه السلام
قالت له الملايكة ذلك اي فكيف يعقلون قولك ويلتفتون الي نصيحتك تنبيه
لعمرك مبتدا محذوف الخبر وجوبا وانهم وما في حيزه جواب القسم وتقديره لعمرك
قسمي او يميني انهم والعمر والعمر بالفتح والضم واحد وهو البقا الا انهم خصوا
القسم بالمفتوح لايثار الاخف فيه وذلك لان الحلف كثير الدور على السنتهم
بلعمري ولعمرك فاخذتهم الصيحة اي صيحة هايلة مهلكة وقيل هي صيحة
جبريل عليه السلام قال الرازي ليس في الاية دلالة على ذلك فان ثبت
بدليل قوي قيل به والا فليس في الاية دليل الا انهم جاتهم صيحة عظيمة
مهلكة وقوله تعالى مشرقين اي داخلين في وقت الشروق وهو بزوغ
الشمس حال من مفعول اخذتهم ثم بين سبحانه وتعالى ما تسبب عن الصيحة
معقبا لها بقوله تعالى فجعلنا اي بما لنا من العظمة والقدرة عاليها اي
مداينهم سافلها بان رفعها جبريل عليه السلام الي السما واسقطها مقلوبة
الي الارض وامطرنا عليهم اي اهل المداين التي قلبت المداين لاجلهم
حجارة من سجيل اي طين طبخ بالنار تنبيه دلت الاية الكريمة على ان الله
تعالى عذبهم بثلاثة انواع من العذاب احدها الصيحة الهايلة المنكرة وثانيها
انه جعل عاليها سافلها وثالثها انه امطر عليهم حجارة من سجيل وتقدمت
الاشارة الي ذلك في سورة هود ان في ذلك اي المذكور من هذه الانواع لايات
اي دلالات على وحدانية الله تعالى للمتوسمين اي الناظرين المعتبرين جمع متوسم
وهو الناظر في السمة حتى يعرف حقيقة الشي بسمته وانها اي هذه المداين
لبسبيل اي طريق قريش الي الشام مقيم اي لم يندرس بل يشاهدون
ذلك ويرون اثره افلا يعتبرون ثم قال سبحانه وتعالى مشيرا الي زيادة الحث
على الاعتبار بالتاكيد ان في ذلك اي هذا الامر العظيم لاية اي علامة عظيمة
في الدلالة على وحدانيته تعالى للمومنين اي كل من امن بالله وصدق الانبيا
والرسل عرف ان ذلك انما كان لاجل ان الله تعالى انتقم لانبيايه من اوليك الجهال
اما الذين يومنون بالله فانهم يحملونه على حوادث العالم ووقايعه ثم ذكر تعالى
القصة الثالثة وهي قصة شعيب عليه السلام بقوله تعالى وان مخففة
من الثقيلة اي وانه كان اي جبلة وطبعا اصحاب الايكة وهم قوم شعيب

عليه السلام وقد ذكر الله تعالى قصتهم في سورة الشعراء والايكة الشجر المكاثف
وقيل الشجر الملتف وقال ابن عباس هي شجر المقل وقال الكلبي الايكة الغيضة
اي غيضة شجر بقرب مدين لظالمين اي عريقين في الظلم بتكذيبهم شعيبا
عليه السلام فانتقمنا منهم اي بسبب ذلك قال المفسرون اشتد الحر
فيهم اياما ثم اضطرم عليهم المكان نارا فهلكوا عن اخرهم وقوله تعالى وانهما
فيه قولان الاول المراد قرى قوم لوط والايكة والقول الثاني ان الضمير للايكة
ومدين لان شعيبا كان مبعوثا اليهما فلما ذكر الايكة دل بذكرها على مدين فجاء ضميرها لبامام اي
طريق مبين اي واضح والامام اسم لما يؤتم به قال الفرا انما جعل الطريق اماما
لانه يؤم ويتبع وقال ابن قتيبة لان المسافر يأتم به حتى يصل الى الموضع الذي
يريده ثم ذكر تعالى القصة الرابعة وهي قصة صالح عليه السلام بقوله تعالى
ولقد كذب اصحاب الحجر وهم ثمود قوم صالح عليه السلام وديارهم بين المدينة
الشريفة والشام المرسلين اي كلهم بتكذيب رسولهم كما كذب هؤلاء المرسلين
بتكذيبك لان الرسل يشهد بعضهم لبعض بالصدق فمن كذب واحدا منهم
فقد كذب الجميع وهم في اثبات الرسل والمعجزة على حد سواء ثم اتبع ذلك قوله تعالى
واتيناهم بما لنا من العظمة والقدرة على يد رسولهم صالح عليه السلام اياتنا
اي ايات الكتاب المنزل على نبيهم او معجزات كالناقة وكان فيها ايات كثيرة كخروجها
من الصخرة وعظيم خلقها وقرب ولادها وغزارة لبنها وانما اضاف الايات اليهم
وان كانت لنبيهم صالح عليه السلام لانه مرسل من ربهم اليهم بهذه الايات
فكانوا عنها اي الايات معرضين اي تاركينها غير ملتفتين اليها لا
يتفكرون فيها ثم اخبر تعالى عنهم انهم كانوا مثل هؤلاء في الامن من العذاب
والغفلة عما يراد بهم مع انهم كانوا اشد منهم فقال تعالى وكانوا ينحتون والنحت
قلع جزء بعد جزء من الجسم على سبيل المسح من الجبال اي التي تقدم انا جعلناها
رواسي بيوتا امنين عليها من الانهدام ونقب اللصوص وتخريب الاعداء
لوثاقتها لا لبيوتكم التي لا بقاء لها على ادنى رجة وقرا ورش وابو عمرو وحفص
برفع الباء والباقون بكسرها فاخذتهم الصيحة اي صيحة العذاب مصبحين
اي وقت الصبح فما اغنى اي دفع عنهم الضر والبلاء ما كانوا يكسبون اي
يعملون من بناء البيوت الوثيقة واستكثار الاموال والعدد وعن جابر رضي
الله عنه مررنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر فقال لنا لا تدخلوا مساكن
الذين ظلموا انفسهم الا ان تكونوا باكين حذرا ان يصيبكم مثل ما اصاب هؤلاء
ثم زجر رسول الله صلى الله عليه وسلم راحلته فاسرع حتى خلفها ولما ذكر تعالى
هذه القصص تسلية لنبيه صلى الله عليه وسلم فانه اذا سمع ان الامم السالفة
كانوا يعاملون انبياء الله بمثل هذه المعاملات سهل تحمل تلك السفاهة قال
تعالى وما خلقنا السموات والارض
على ما لها من العلو والسعة والارض على

ما لها من المنافع والغرائب وما بينهما من هوا حر المشركين المكذبين وعذابهم
ومن المياه والرياح والسحاب لسبب هذه النبات وغير ذلك الا بالحق اي الا
خلقا ملتبسا بالحق فيتفكر فيه من وفقه الله تعالى ليعلم النشاة الاخرة بالنشاة
الاولى وان الساعة اي القيامة لآتية لا محالة فيجازي الله تعالى لكل احد
بعمله ثم انه تعالى لما صبره على اذى قومه رغبه بعد ذلك في الصفح عن سيئاتهم
بقوله تعالى فاصفح الصفح الجميل اي اعرض عنهم اعراضا لا جزع فيه ولا
تعجل بالانتقام منهم وهذا منسوخ باية السيف قال الرازي وهو بعيد
لان المقصود من ذلك ان يظهر الخلق الحسن والعفو والصفح فكيف يصير
منسوخا اه والاول جرى عليه البغوي وجماعة من المفسرين ثم علل تعالى
هذا الامر بقوله ان ربك اي المحسن اليك الآمر لك بهذا هو اي وحده
الخلاق اي المتكرر منه هذا الفعل العليم اي البالغ العلم بكل المعلومات
فلديه اقوالهم وافعالهم الا منه سبحانه وتعالى لانه خالقها وقد علمت انه
لا يضيع مثقال ذرة فاعتمد عليه فاخذ حقك فانه نعم المولى ونعم النصير
ولما صبره الله تعالى على اذى قومه وامره ان يصفح الصفح الجميل اتبع ذلك
بذكر النعم العظيمة التي خص الله تعالى افضل خلقه بها بقوله تعالى ولقد
اتيناك يا افضل الخلق بما لنا من العظمة والقدرة كما اتينا صالحا ما
تقدم سبعا يكون كل سبع منها كفيلا باغلاق باب من ابواب النيران
السبعة وهي ام القران الجامعة لجميع معاني القران التي امرنا باعادتها في
كل ركعة زيادة في حفظها وتبركا بلفظها وتذكرا لمعانيها تخصيصا لها
عن بقية الذكر الذي تكلفنا بحفظه والسبب في وقوع هذا الاسم
على الفاتحة لانها سبع ايات وهذا ما عليه اكثر المفسرين روي انه صلى
الله عليه وسلم قرأ الفاتحة وقال هي السبع المثاني رواه ابو هريرة
وقيل المراد سبع سور وهي الطوال واختلف في السابعة فقيل الانفال
وبراءة لانهما في حكم سورة ولذلك لم يفصل بينهما باية البسملة
وقيل الحواميم السبع وقيل سبع صحائف وهي الاسباع وقوله تعالى
من المثاني صفة للسبع وهو جمع واحده مثناة والمثناة كل شيء يثنى
اي يجعل اثنين من قولك ثنيت الشيء تثنيا اي عطفته وضممت اليه
آخر ومنه يقال لركبتي الدابة ومرفقيها مثاني لانه يثني بالفخذ
والعضد ومثاني الوادي معاطفه اما تسمية الفاتحة بالمثاني
فلوجوه الاول انها تثنى في كل صلاة بمعنى انها تقرأ في كل ركعة الثاني
ان تثنى بما بعدها فيما يقرأ معها الثالث انها قسمت قسمين اثنين روي
انه صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تعالى قسمت الصلاة بيني وبين
عبدي نصفين والحديث مشهور وقد ذكرته في وجه تسميتها صلاة

عند ذكرها الرابع انها قسمان اثنان ثنا واثنان دعا وايضا النصف الاول
منها حق الربوبية وهو الثنا والنصف الثاني حق العبودية وهو الدعا الخامس
ان كلماتها مثناة مثل الرحمن الرحيم اياك نعبد واياك نستعين اهدنا
الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم واما السور والاسباع
فلما وقع فيهما من تكرير القصص والمواعظ والوعد والوعيد وغير ذلك ولما
فيهما من الثنا كانها تثني على الله تعالى بافعاله العظمى وصفاته الحسنى تنبيه
من في المثاني اما للبيان او للتبعيض اذا اردت بالسبع الفاتحة او الطوال
او للبيان ان اردت الاسباع قال الزمخشري ويجوز ان تكون كتب الله
كلها مثاني لانها تثني عليه لما فيها من المواعظ المكررة ويكون القرآن
بعضها وقوله تعالى والقرآن العظيم اي الجامع لجميع معاني الكتب السماوية
المتكفل بخيري الدارين مع زيادات لا تحصى فيه اوجه احدها انه من
عطف العام على الخاص اذ المراد بالسبع اما المثاني الفاتحة واما الطوال
فكانه ذكر مرتين بجهة الخصوص ثم باندراجه في العموم الثالث ان الواو
مقحمة ولما عرف سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم عظيم نعمه
عليه فيما يتعلق بالدين وهو اتيانه سبعا من المثاني والقرآن العظيم
نهاه عن الرغبة في الدنيا بقوله تعالى لا تمدن عينيك اي لا تشغل
سرك وخاطرك بالالتفات الى ما متعنا به ازواجا منهم اي اصنافا من
الكفار والزوج في اللغة الصنف وقد اوتيت القرآن العظيم الذي فيه
غنى عن كل شيء قال ابو بكر رضي الله عنه من اوتي القرآن فرأى ان احدا
اوتي من الدنيا افضل مما اوتي فقد صغر عظيما وعظم صغيرا وتاول
سفيان بن عيينة هذه الآية بقول النبي صلى الله عليه وسلم ليس
منا من لم يتغن بالقرآن اي لم يستغن وقال ابن عباس رضي الله
تعالى عنهما ولا تمدن عينيك اي لا تتمنى ما فضلنا به احدا من
متاع الدنيا وقيل اتت من بعض البلاد سبع قوافل ليهود قريظة
والنضير فيها انواع البز والطيب والجوهر وسائر الامتعة فقال
المسلمون لو كانت هذه الاموال لنا لتقوينا بها وانفقناها في طاعة الله
تعالى فقال الله تعالى لقد آتيتكم سبع آيات هي خير من هذه القوافل
السبع وقرر الواحدي هذا المعنى فقال انما يكون مادا عينيه الى الشيء
اذا ادام النظر اليه نحوه وادامة النظر الى الشيء تدل على استحسانه
وتمنيه وكان النبي صلى الله عليه وسلم لا ينظر الى ما يستحسن
من متاع الدنيا وروي انه نظر الى نعم بني المصطلق وقد عبست في
ابوالها وابعارها وهو ان يجف ابوالها وابعارها على افخاذها اذا
تركت من العمل ايام الربيع فتكثر شحومها ولحومها وهي احسن ما تكون

وعن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
انظروا الى من هو اسفل منكم ولا تنظروا الى من هو فوقكم فهو اجدر ان لا
تزدروا نعمة الله عليكم وقوله تعالى ولا تحزن عليهم نهي له عن الالتفات
اليهم ان لم يؤمنوا فيتخلصوا انفسهم من النار ولما نهاه سبحانه وتعالى
عن الالتفات الى اولئك الاغنياء من الكفار امره بالتواضع لفقراء المسلمين
بقوله تعالى واخفض جناحك اي الن جانبك للمؤمنين اي الفريقين
في هذا الوصف واصبر نفسك معهم وارفق بهم ولما امر الله رسوله صلى
الله عليه وسلم بالزهد في الدنيا والتواضع للمؤمنين امره بتبليغ ما ارسل
اليهم بقوله تعالى وقل اني انا النذير من عذاب الله ان ينزل عليكم
ان لم تؤمنوا وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو بفتح اليا والباقون بالسكون
المبين اي البين الانذار وقوله تعالى كما انزلنا اي العذاب على
المقتسمين قال ابن عباس هم اليهود والنصارى سموا بذلك لانهم
آمنوا ببعض القرآن وكفروا ببعضه فما وافق كتبهم آمنوا به وما خالف
كتبهم كفروا به وقال عكرمة انهم اقتسموا سور القرآن فقال واحد
هذه السورة لي وقال آخر هذه السورة لي وانما فعلوا ذلك استهزاء
به وقال مجاهد انهم اقتسموا كتبهم فآمن بعضهم ببعضها وكفر بعضهم
ببعضها وقال قتادة اراد بالمقتسمين كفار قريش قال سموا بذلك
لان اقوالهم تقسمت في القرآن فقال بعضهم انه اساطير الاولين وقال
ابن السائب سموا بالمقتسمين لانهم اقتسموا طرق مكة وذلك ان الوليد
ابن المغيرة بعث رهطا من اهل مكة قيل ستة عشر وقيل اربعين وقيل
انطلقوا فتفرقوا على طرق مكة حيث يمر بكم اهل الموسم فاذا سألوكم عن
محمد فليقل بعضكم انه مجنون وليقل بعضكم انه كاهن وليقل بعضكم
انه شاعر وليقل بعضكم انه ساحر فذهبوا وقعدوا على طرق مكة يقولون
ذلك لمن يمر بهم من حجاج العرب وقعد الوليد بن المغيرة على باب المسجد الحرام
نصبوه حكما فاذا جاؤوا وسألوا عما قال اولئك فيقول صدقوا فاهلكهم الله تعالى
يوم بدر وقوله تعالى الذين جعلوا القرآن عضين نعت للمقتسمين وقال
ابن عباس هم اليهود والنصارى جزؤوا القرآن اجزاء فآمنوا بما وافق التوراة
وكفروا بالباقي وقال مجاهد قسموا كتاب الله ففرقوه وبددوه وقيل كانوا
يستهزؤون به فيقول بعضهم سورة البقرة لي ويقول بعضهم سحر ويقول
بعضهم شعر وقال بعضهم كذب وقال بعضهم اساطير الاولين
وقيل هم اهل الكتاب آمنوا ببعض كتبهم وكفروا ببعض على ان القرآن ما
يقرؤونه من كتبهم فيكون ذلك تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم عن صنيع
قومه بالقرآن وتكذيبهم وقولهم سحر وشعر واساطير الاولين

بان عذبهم من الكفرة فعلوا بغيره من الكتب نحو فعلهم بنبيه عضين جمع عضة
وهي الفرقة والعضين الفرق وتقدم معنى جعلهم القرآن كذلك وقيل العضة
السحر بلغة قريش يقولون هو عضة وهي عاضة وفي الحديث لعن صلى الله
عليه وسلم العاضهة والمستعضهة اي الساحرة والمستسحرة وقيل
هو من العضة وهو من الكذب والبهتان يقال عضه عضها وعضهه اي رماه
بالسحر وقيل جمع عضو ماخوذ من قولهم عضيت الشيء اعضه اذا فرقته
وجعلته اجزاء وذلك انهم جعلوا القرآن اعضاء مفرقة فقال بعضهم سحر
وقال بعضهم اساطير الاولين ثم اقسم سبحانه وتعالى بنفسه على انه
يسئل هولاء المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين بقوله تعالى
فوربك لنسئلنهم اجمعين عما كانوا يعملون فيكون الضمير عايداً على المقتسمين
لانه الاقرب ويحتمل ان يعود على جميع المكلفين لان ذكرهم في قوله تعالى
وقل اني انا النذير المبين اي جميع الخلق قال جماعة من المفسرين يسألون
عن لا اله الا الله وقال ابو العالية يسألون عما كانوا يعبدون وما اجابوا
المرسلين فان قيل كيف الجمع بين قوله تعالى فوربك لنسئلنهم اجمعين
وبين قوله تعالى فيومئذ لا يسئل عن ذنبه انس ولا جان اجيب بان النفي مصروف
الى بعض الاوقات والاثبات الى وقت آخر لان يوم القيمة يوم طويل وفيه مواقف
يسئلون في بعضها ولا يسئلون في بعض آخر ونظيره قوله تعالى هذا يوم لا
ينطقون ولا يؤذن قال في آية اخرى ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون
ثم قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم **فاصدع** اي اجهر به وشده فارقاً
بين الحق والباطل وقرأ حمزة والكسائي باشمام الصاد الساكنة قبل الدال
والباقون بالصاد الخالصة **بما** اي بسبب ما **تؤمر** به امر النبي صلى الله عليه
وسلم في هذه الآية باظهار الدعوة روي عن عبد الله بن عبيدة قال كان مستخفياً
حتى نزلت هذه الآية فخرج هو واصحابه **واعرض** اي اعراض من لا يبالي **عن
المشركين** بالصفح الجميل عن الاذى والاجتهاد في الدعاء ولا تلتفت الى
لومهم اياك على اظهار الدعوة قال بعض المفسرين كالبغوي وهذا منسوخ
باية القتال قال الرازي وهو ضعيف لان معنى هذا الاعراض ترك المبالاة
بهم فلا يكون منسوخاً ولما كان هذا الصدع في غاية الشدة صلى الله عليه وسلم
لكثرة ما يلقى عليه من الاذى خفف عليه سبحانه وتعالى بقوله معللاً **انا** اي
بما لنا من العظمة والقدرة **انا كفيناك المستهزئين** اي شر الذين هم عريقون
في الاستهزاء وهم خمسة نفر من رؤساء قريش الوليد بن المغيرة والعاص بن
وائل وعدي بن قيس والاسود بن عبد المطلب والاسود بن عبد يغوث
وصف سبحانه وتعالى هولاء بقوله تعالى **الذين يجعلون مع الله الها آخر**
وقيل ليس بصفة بل مبتدأ ولتضمنه معنى الشرط دخلت الفاء في حيزه

وهو

وهو **فسوف يعلمون** اي عاقبة امرهم في الدارين ولما ذكر سبحانه وتعالى
ان قومه يستهزؤن عليه ولا سيما اولئك المقتسمون قال له تعالى
ولقد نعلم اي تحقق وقوع علمنا **انك** اي على ما لك من الحلم وسعة
البطان **يضيق صدرك** اي يوجد ضيقه ويتجدد **بما يقولون** اي من
الاستهزاء والتكذيب بك وبالقرآن لان الجبلة البشرية والمزاج الانساني
يقتضي ذلك فعند هذا قال تعالى **فسبح** متلبساً **بحمد ربك** اي
نزهه عن صفات النقص وقال الضحاك قل سبحان الله وبحمده وقال
ابن عباس فصل بامر ربك **وكن من الساجدين** اي من المصلين روي انه صلى
الله عليه وسلم كان اذا حزبه امر فزع الى الصلاة وقدمت معناه في سورة
البقرة تنبيه اختلف الناس كيف صار الاقبال على الطاعات سبباً
لزوال ضيق القلب والحزن فقال العارفون المحققون اذا اشتغل الانسان
بهذه الانواع من العبادات يتنور باطنه ويشرق عليه وينفسح ويتشرح
صدره فعند ذلك يعرف قدر الدنيا وحقارتها فلا يلتفت اليها وقال
بعض الحكماء اذا نزل بالانسان بعض المكاره ففزع الى الطاعات فكانه يقول
يا رب يجب علي عبادتك سواء اعطيتني الخيرات او القيتني في المكروهات
فانا عبدك بين يديك فافعل بي ما تشاء **واعبد ربك حتى يأتيك اليقين**
قال ابن عباس يريد الموت وسمي الموت يقيناً لانه امر متيقن وهذا مثل
قوله تعالى في سورة مريم واوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً وروى
البغوي بسنده عن جبير قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
ما اوحي الله الي ان اجمع المال واكون من التاجرين ولكن اوحي الي ان اسبح
بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين فان
قيل اي فائدة لهذا التوقيت مع ان كل احد يعلم انه اذا مات سقطت
عنه العبادات اجيب بان المراد منه واعبد ربك في جميع زمان حياتك فلا تخل
لحظة من لحظات الدنيا بهذه العبادات وعن عمر رضي الله تعالى عنه قال نظر
رسول الله صلى الله عليه وسلم الى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه اهاب كبش
قد تنطق به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انظروا الى هذا نور الله
قلبه لقد رأيته بين ابويه يغذوانه باطيب الطعام والشراب ولقد رأيت
عليه حلة شراها او قال شريت له بمائتي درهم فدعاه حب الله وحب
رسوله الى ما ترون وما رواه البيضاوي تبعاً للزمخشري من انه صلى الله
عليه وسلم قال من قرأ سورة الحجر كان له من الاجر عشر حسنات بعدد المهاجرين
والانصار والمستهزئين بمحمد صلى الله عليه وسلم حديث موضوع

سورة النحل مكية

الى قوله تعالى وان عاقبتم الى آخر السورة وحكى الاصم عن بعضهم انها كلها مدنية

تفسير سورة النحل

وقال اخرون من اولها الى قوله كن فيكون مدني وما سواه مكي وعن قتادة بالعكس
وتسمى سورة النعم والمقصود من هذه السورة الدلالة على انه تعالى تام القدرة
والعلم فاعل بالاختيار منزه عن شوايب النقص وادل ما فيها على هذا المعنى
امر النحل لما ذكر من شانها في دقة الفهم في ترتيب بيوتها ورعيها وساير امرها من
اختلاف الوان ما يخرج منها من اعسالها وجعله شفاء مع اكلها من الثمار النافعة
والضارة وغير ذلك من الامور ووسمها بالنعم واضح وهي ماية وثمانية عشر اية
والفان وثمانماية واربعون كلمة وعدد حروفها سبعة الاف وسبعماية وسبعة
احرف بسم الله اي المحيط بدايرة الكمال فما شا فعل الرحمن اي الذي
عمت نعمه جليل خلقه وحقيره صغيره وكبيره الرحيم اي الذي خص من شاء
بنعمة النجاة من ما يسخطه بما يراه وقوله تعالى اتى امر الله فيه وجهان احدهما
انه ماض لفظا مستقبل معنى اذ المراد به يوم القيمة وانما ابرز في صورة ما وقع
وانقضى تحقيقا له ولصدق المخبر به والثاني انه على بابه والمراد مقدماته واوايله
وهو نصر رسول الله صلى الله عليه وسلم اي جا امر الله ودنا وقرب فانه يقال
في الكلام المعتاد انه قد اتى ووقع اجرا لما يجب وقوعه مجرى الواقع يقال لمن طلب
الاعانة وقرب حصولها جاك الغوث اي اتى امر الله وعدا فلا تستعجلوه وقوعا
قبل مجيئه فانه واقع لا محالة روي انه صلى الله عليه قال بعثت انا والساعة
كهاتين واشار باصبعيه السبابة والوسطى قال ابن عباس كان مبعث رسول
الله صلى الله عليه وسلم من اشراط الساعة ولما مر جبريل باهل السموات
مبعوثا الى النبي صلى الله عليه وسلم قالوا الله اكبر قامت الساعة وروي
انه لما نزلت اقتربت الساعة قال الكفار بعضهم لبعض ان هذا اي محمدا
صلى الله عليه وسلم يزعم ان القيامة قد اقتربت فامسكوا عن بعض ما تعملون
حتى ننظر ما هو كاين فلما تاخرت قالوا ما نرى شيا فنزل اقترب للناس
حسابهم فاشفقوا وانتظروا فلما امتدت الايام قالوا يا محمد ما نرى شيا
مما تخوفنا به فنزل اتى امر الله فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفع الناس رؤسهم
وظنوا انها قد اتت حقيقة فنزل فلا تستعجلوه فاطمانوا فكان الكفار
قالوا اسلمنا لك يا محمد الا انا نعبد هذه الاصنام لتشفع لنا عند الله تعالى
فتخلصنا من هذا العذاب المحكوم به فاجابهم الله تعالى بقوله تعالى سبحانه
تنزيها وتعالى عما يشركون اي تبرا سبحانه وتعالى بالاوصاف الحميدة
عن ان يكون له شريك في ملكه وقرا حمزة والكساي بالامالة وقرا ورش بين
اللفظين والباقون بالفتح وقرا حمزة والكساي عما تشركون في الموضعين
بالتاء على وفق قوله فلا تستعجلوه والباقون بالياء على الغيبة على تلوين الخطاب
او على ان الخطاب للمومنين او لهم ولغيرهم ولما اجاب سبحانه وتعالى عن الكفار
عن شبهتهم بقوله تنزيها لنفسه عما يشركون وكان الكفار قالوا

هب

هب ان الله تعالى قضى على بعض عبيده بالشر وعلى اخرين بالخير ولكن كيف يمكنك ان تعرف
هذه الامور التي لا يعلمها الا الله سبحانه وتعالى وكيف صرت بحيث تعرف هذه الامور
التي لا يعرفها الا الله تعالى وكيف صرت بحيث تعرف تلك الامور التي لا يعرفها الا الله
تعالى وكيف صرت بحيث تعرف اسرار الله تعالى واحكامه في ملكه وملكوته فاجابهم
الله سبحانه وتعالى بقوله ينزل الملائكة قال ابن عباس يريد بالملائكة جبريل وحده
قال الواحدي يسمى الواحد بالجمع اذا كان ذلك الواحد رئيسا وقرا ابن كثير وابو
عمرو بتخفيف الزاي والباقون بتشديدها والمراد بالروح الوحي او القران
فان القلوب تحيى به من موت الجهالات وقوله تعالى من امره على من يشاء من عباده
وهم الانبيا ان انذروا اي خوفوا الكافرين بالعذاب واعلموهم انه اي الشان هو
لا اله الا انا اي لا اله غيري وقوله تعالى فاتقون اي خافوني رجوع الى
مخاطبتهم بما هو المقصود تنبيه في قوله تعالى ان في انذروا ثلاثة اوجه احدها
انها المفسرة لان الوحي فيه ضرب من القول والانزال بالروح عبارة عن الوحي
قال تعالى وكذلك اوحينا اليك روحا من امرنا الثاني انها المخففة من الثقيلة
واسمها ضمير الشان محذوف الثالث انها المصدرية التي من شانها نصب
المضارع ووصلت بالامر كقولهم كتبت اليه بان قم والاية تدل بان نزول الوحي
بواسطة الملائكة وان النبوة عطاية ولما وحد سبحانه وتعالى نفسه ذكر الايات
الدالة على وحدانيته من حيث انها تدل على انه تعالى هو الموجد لاصول العالم
وفروعه على وفق الحكمة والمصلحة بقوله تعالى خلق السموات التي هي السقف
المظل والارض التي هي البساط المقل بالحق اي وجدهما على مقدار
وشكل واوضاع وصفات مختلفة قدرها وخصصها بحكمته تعالى
اي تعاليا فات الوصف تعالى عما يشركون به من الاصنام ولما كان خلق السموات
والارض غيبا لتقدمه وكان خلق الانسان على هذه الصفة شهادة فكونه
اقوى في الدلالة على وحدانيته تعالى قال تعالى خلق الانسان اي هذا النوع
من نطفة اي ادم عليه السلام من مطلق الما ومن تفرع منه بعد من زوجه
حوا من ما مقيد بالدفق الى ان صيره قويا شديدا فاذا هو خصيم اي شديد
الخصومة مبين اي بين روي ان ابي بن خلف الجمحي وكان ينكر البعث
جا الى النبي صلى الله عليه وسلم بعظم رميم فقال تزعم يا محمد ان الله تعالى
يحيي هذا العظم بعد ما قد رم فنزلت هذه الاية ونزل فيه ايضا قوله تعالى
قال من يحيي العظام وهي رميم قال ابن عباس في تفسيره والصحيح ان
الاية عامة في كل ما يقع فيه الخصومة في الدنيا ويوم القيامة وحملها على العموم
اولى ولما كان اشرف الاجسام الموجودة في العالم السفلي بعد الانسان
ساير الحيوانات واشرفها الانعام ذكرها بقوله تعالى والانعام اي
الازواج الثمانية الضان والمعز والابل والبقر ونصبه بفعل تفسيره

خلقها قال الواحدي تم الكلام على قوله خلقها ثم ابتدأ وقال لكم فيها
دفء اي ما يدفأ به من اللباس والاكسية ونحوها المتخذة من الاصواف
والاوبار والاشعار قال ويجوز ايضا ان يكون تمام الكلام عند قوله والانعام
خلقها لكم ثم ابتدأ فقال تعالى فيها دفء قال الرازي قال صاحب النظم احسن
الوجهين ان يكون الوقف عند قوله خلقها والدليل عليه انه عطف عليه ولكم
فيها جمال ولما ذكر تعالى الانعام ذكر لها انواعا من المنافع الاول قوله تعالى
لكم فيها دفء النوع الثاني قوله تعالى ومنافع اي ولكم فيها منافع من نسلها ودرها
وركوبها والحمل عليها وسائر ما ينتفع به من الانعام وانما عبر تعالى عن ذلك
بلفظ المنفعة وهو اللفظ الدال على الوصف الاعم لان الدر والنسل قد
ينتفع به في البيع بالنقود وقد ينتفع به بان يبدل بالثياب وسائر الضروريات
فعبر عن جملة هذه الاقسام بلفظ المنافع ليتناول الكل النوع الثالث قوله
تعالى [illegible] اي تردونها من مراعيها
الى مراحها بالعشي ومنها تأكلون اي تخرجونها فان قيل تقديم الظرف
يفيد الحصر لان تقديم الظرف مؤذن بالاختصاص وقد يوكل من
غيرها اجيب بان الاكل من هذه الانواع الانعام هو الذي يعتمده
الناس في معايشهم واما الاكل من غيرها كالدجاج والبط والاوز وصيد
البر والبحر فليس بمعتد به في الاغلب واكله يجري مجرى التفكه به
فخرج ومنها تأكلون مجرى الغالب في الاكل من هذه الانعام
فان قيل منفعة اللباس اكثر من منفعة الاكل مقدمة على منفعة اللباس
فلم قدمت منفعة اللباس عليه اجيب بان منفعة اللباس اكثر من منفعة
الاكل فلهذا قدمت على الاكل ولكم فيها جمال اي زينة حين تريحون
اي تردونها من مراحها الى مراحها بالعشي وحين تسرحون اي تخرجونها
بالغداة الى المرعى فان الافنية تتزين بها في الوقتين ويجل اهلها في
اعين الناظرين اليها فان قيل لم قدمت الاراحة على التسريح اجيب
بان الجمال في الاراحة اظهر اذ اقبلت ملأى البطون حافلة الضروع ثم اوت الى
الحظائر حاضرة لاهلها فيفرح اهلها بخلاف تسريحها الى المرعى فانها
تخرج جائعة البطون ضامرة الضروع ثم تاخذ في التفرق والانتشار للمرعى
في البرية فليس في التسريح تجمل كما في الاراحة النوع الرابع قوله تعالى وتحمل
اثقالكم جمع ثقل وهو متاع المسافر الى بلد اي غير بلدكم اردتم السفر
اليها لم تكونوا بالغيه اي واصلين اليه على غير الابل الا بشق الانفس
اي بكلفة ومشقة والشق بكسر الشين نصف الشيء اي لم تكونوا بالغيه
الا بنقصان قوة النفس وذهاب نصفها وقال ابن عباس يريد من مكة الى
اليمن والى الشام والى مصر قال الواحدي والمراد كل بلد لو تكلفتم بلوغه

على

على غير الابل شق عليكم وخص ابن عباس هذه البلاد لان متاجر اهل مكة كانت الى
هذه البلاد فان قيل المراد من قوله تعالى والانعام خلقها الابل فقط بدليل انه
وصفها الى آخر الآية بقوله وتحمل اثقالكم الى بلد وهذا الوصف لا يليق الا بالابل
اجيب بان المقصود من هذه الآيات تعديد منافع الانعام فبعض تلك المنافع
حاصلة في الكل وبعضها مختص بالبعض والدليل عليه ان قوله ولكم فيها جمال
حاصلة في البقر والغنم مثل حصوله في الابل تنبيه احتج منكر كرامات الاولياء
بهذه الآية فانها تدل على الانسان لا يمكنه الانتقال من بلد الى بلد الا بشق
الانفس وحمل الاثقال على الابل ومثبتوا الكرامات يقولون ان الاولياء
ينتقلون من بلد الى بلد آخر بعيد في ليلة واحدة من غير تعب وتحمل مشقة
فكان ذلك على خلاف هذه الآية فيكون باطلا واذا بطل القول بالكرامات
في هذه الصورة بطل القول بها في سائر الصور اذ لا قائل بالفرق واجاب
المثبتون بان تخصيص عموم هذه الآية بالادلة الدالة على وقوع الكرامات
ان ربكم اي الموجد لكم والمحسن اليكم لرؤوف اي بليغ الرحمة لمن يتوسل
اليه بما يرضيه وقرأ ابو عمرو وشعبة وحمزة والكسائي بقصر الهمزة
والباقون بالمد رحيم اي بليغ الرحمة بسبب وبغير سبب وقوله تعالى والخيل
اي الصاهلة وهو اسم جنس لا واحد له من لفظه كالابل والرهط
والبغال اي المتولدة بينهما والحمير لتركبوها اي لاجل ان تركبوها
وفي نصب قوله تعالى وزينة اوجه احدها انه مفعول من اجله وانما
وصل الفعل الى الاول باللام في قوله تعالى لتركبوها والى هذا بنفسه لاختلال
شرط في الاول وهو عدم اتحاد الفاعل فان الخالق هو الله والراكب المخاطبون
بخلاف الثاني الثاني انها منصوبة على الحال وصاحب الحال اما مفعول خلقها واما
مفعول لتركبوها فهو مصدر اقيم مقام الحال الثالث ان ينتصب بتقدير فعل
قدره الزمخشري بقوله وخلقها زينة وقدره ابن عطية وغيره بقولهم وجعلها
زينة الرابع انها مصدر لفعل محذوف اي وتتزينون بها زينة تنبيه احتج
القائلون وهم ابن عباس والحكم وابو حنيفة ومالك بتحريم لحوم الخيل
بهذه الآية قالوا منفعة الاكل اعظم من منفعة الركوب فلو كان اكل لحم
الخيل جائزا لكان هذا المعنى اولى بالذكر وحيث لم يذكره تعالى علمنا انه يحرم
اكله لان الله تعالى خص الانعام بالاكل حيث قال تعالى ومنها تأكلون وخص
هذه بالركوب فقال لتركبوها فعلمنا انها مخلوقة للركوب لا للاكل واحتج
القائلون باباحة اكل اللحم من الخيل وهم سعيد بن جبير وعطاء وشريح والحسن
والشافعي بما روي عن اسماء بنت ابي بكر الصديق رضي الله تعالى عنهما
قالت نحرنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسا ونحن بالمدينة
وبما روي عن جابر رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن لحوم

الحمر الاهلية واذن في الخيل وفي رواية كلنا في زمن خيبر الخيل وحمر الوحش
ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الحمار الاهلي هذه رواية البخاري ومسلم
وفي رواية ابي داود قال ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير ولم ينهنا
عن الخيل واجابوا عن هذه الاية بان ذكر الركوب والزينة لا يدل على ان منفعتها
مختصة بذلك وانما خص هذان المنفعتان بالذكر لانهما معظم المقصود
ولهذا سكت عن حمل الاثقال على الخيل مع قوله تعالى في الانعام وتحمل اثقالكم
ولم يلزم من ذلك تحريم الاثقال على الخيل وقال الواحدي لو دلت هذه
الاية على تحريم اكل هذا الحيوان لكان تحريم اكلها معلوما في مكة لاجل
ان هذه السورة مكية ولو كان الامر كذلك لكان قول عامة المفسرين
والمحدثين ان لحوم الحمر الاهلية حرمت عام خيبر اي وذلك في المدينة باطلا
لان التحريم لما كان حاصلا قبل هذا اليوم لم يكن لتخصيص هذا التحريم
بهذه السنة فائدة قال الرازي وهذا جواب حسن متين وقال ابن الخازن
والدليل الصحيح المعتمد عليه في اباحة لحوم الخيل ان السنة مبينة للكتاب
ولما كان نص الاية يقتضي ان الخيل والبغال والحمير مخلوقة للركوب
والزينة كان الاكل مسكوتا عنه دار الامر فيه على الاباحة والتحريم فوردت
السنة باباحة لحوم الخيل وتحريم لحوم البغال والحمير اخذنا به جمعا
بين النصين ولما ذكر سبحانه وتعالى هذه الانعام من الحيوان ذكر ما فيها
على سبيل الاجمال بقوله تعالى **ويخلق ما لا تعلمون** وذلك لان انواعها
واصنافها واقسامها كثيرة خارجة عن الحد والاحصاء ولو خاض الانسان في شرح
احوالها لكان المذكور بعد كتب المجلدات الكثيرة كالقطرة في البحر فكان
احسن الاحوال ذكرها على سبيل الاجمال كما ذكر الله تعالى في هذه الاية
وروى عطاء ومقاتل والضحاك عن ابن عباس انه قال ان عن يمين العرش
نهرا من نور مثل السموات السبع والارضين السبع والبحار السبعة
يدخل فيه جبريل كل سحر ويغتسل فيزداد نورا الى نوره وجمالا الى جماله
ثم ينتفض فيخلق الله تعالى من كل نفضة تقع من ريشه كذا وكذا الف ملك
يدخل كل يوم منهم سبعون الفا البيت المعمور وفي الكعبة ايضا سبعون الفا
لا يعودون اليه الى ان تقوم الساعة سبحان من له هذا الملك العظيم قال تعالى
وما يعلم جنود ربك الا هو وفسر الاية قتادة الاية بالسوس في الثياب والدود
في الفواكه وفسرها بعضهم بما اعد الله تعالى لاهل الجنة في الجنة مما لا عين
رات ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ولما شرح الله دلائل التوحيد
قال تعالى **وعلى الله** اي الذي له الاحاطة بكل شيء **قصد السبيل** اي بيان
الطريق المستقيم انما ذكرت هذه الدلائل وشرحها ازاحة للعذر وازالة
للعلة ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة والمراد بالسبيل



الجنس ولذلك اضاف اليها القصد وقال **ومنها** اي السبيل **جائر** اي حائد عن
الاستقامة فان قيل هذه الاية تدل على ان الله تعالى يجب عليه الارشاد
والهداية الى الدين وازاحة العلل والاعذار كما قال به المعتزلة لانه تعالى
قال وعلى الله قصد السبيل وكلمة على للوجوب قال تعالى ولله على الناس
حج البيت اجيب بان المراد على الله تعالى بحسب الفضل والكرم ان يبين الدين
الحق والمذهب الصحيح فان قيل لم غير اسلوب الكلام حيث قال في الاول
وعلى الله قصد السبيل وفي الثاني ومنها جائر دون وعليه جائر اجيب
بان المقصود بيان سبيله وتقسيم السبيل الى القصد والجائر انما جا
بالعرض ثم قال تعالى **ولو شاء** هدايتكم **لهداكم** الى قصد السبيل
اجمعين فتهتدون اليه باختياركم قال الرازي وهذا يدل على
ان الله تعالى ما شاء هداية الكفار وما اراد منهم الايمان لان كلمة
لو تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره ولما ذكر تعالى نعمه على عباده
بخلق الحيوانات لاجل الانتفاع والزينة عقبه بذكر انزال المطر الذي هو
من اعظم النعم على عباده فقال **هو** اي لا غيره مما يدعي اليه الالهية
الذي انزل اي بقدرته الباهرة **من السماء** اي من نفسها او من
غيرها او من جهتها اي من السحاب كما هو مشاهد **ماء** اي واحد الجنس
بالذوق والبصر **لكم** اي من ذلك الماء **شراب** اي تشربونه وقد
بين تعالى في اية اخرى لمن هذه النعمة جليلة فقال تعالى وجعلنا من الماء
كل شيء حي فان قيل ظاهر هذا ان شرابنا ليس الا من المطر اجيب بانه
تعالى لا ينفي ان نشرب من غيره وبتقدير الحصر لا يمتنع ان يكون المياه
العذبة تحت الارض من جملة ماء المطر سكن هناك بدليل قوله في سورة
المؤمنين وانزلنا من السماء ماء بقدر فاسكناه في الارض **ومنه** اي من الماء
شجر اي ينبت بسببه والشجر هنا كل نبات في الارض حتى الكلا
وفي الحديث لا تاكلوا ثمن الشجر فان سحت يعني الكلا فان قيل قال
المفسرون في قوله تعالى والنجم والشجر يسجدان والمراد من النجم ما نجم من
الارض مما ليس له ساق ومن الشجر ما له ساق اجيب بانه عطف الجنس
على النوع وبانه مشهور وايضا فلفظ الشجر يشعر بالاختلاط يقال
تشاجر القوم اذا اختلط اصوات بعضهم ببعض وتشاجرت الرياح
اذا اختلفت وقال تعالى حتى يحكموك فيما شجر بينهم ومعنى الاختلاط
حاصل في العشب والكلا فوجب اطلاق لفظ الشجر عليه ويصح ان يكون المراد
بالشجر هنا ما له ساق لان الابل تقدر على رعي ورق الاشجار الكبار وتخرج ط
فاطلاق الشجر على الكلا مجاز **فيه** اي في الشجر **تسيمون** اي ترعون
مواشيكم يقال اسمت الماشية اذا خليتها ترعى وسامت اذا رعت

جنت نباتت قال الزجاج اخذ ذلك من السومة وهي العلامة لانها تؤثر
في الارض برعيها علامات وقال غيره لانها تعلم الارسال في المرعى ولما
ذكر تعالى الحيوانات تفصيلا واجمالا ذكر الثمار تفصيلا واجمالا فقال
تعالى ينبت اي الله لكم به اي بذلك الماء الزرع والزيتون والنخيل والاعناب
ومن كل الثمرات فبدأ بذكر الزرع وهو الحب الذي يقتات به كالحنطة والشعير
والارز لان به قوام البدن وثنى بذكر الزيتون لما فيه من الادم والدهن
والبركة وثلث بالنخل لان ثمرها غذاء وفاكهة وختم بذكر الاعناب
لانها شبه النخل في المنفعة من التفكه والاغذية ثم ذكر تعالى سائر الثمار
اجمالا لينبه بذلك على عظيم قدرته وجزيل نعمته على عباده لان الحبة
الواحدة تقع في الطين فاذا امضى عليها مقدار معين من الوقت نفذ في
داخل تلك الحبة اجزاء من رطوبة الارض ونداوتها فتنفتح الحبة
فتنشق اعلاها واسفلها فيخرج من اعلا تلك الحبة شجرة صاعدة
من داخل الارض الى الهوى ومن اسفلها شجرة اخرى غائصة في قعر الارض
وهذه الغائصة هي المسماة بعروق الشجرة ثم ان تلك الشجرة لا تزال
تزداد وتنمو وتقوى ثم يخرج منها الاوراق والازهار والاكمام والثمار
ثم ان الثمرة تشتمل على اجسام مختلفة الطبائع مثل العنب فان قشره
وعجمه باردان يابسان كثيفان ولحمه وماؤه حار رطب لطيف ولما
ذكرت الاشارة بقوله تعالى ان في ذلك لآية بينة على ان فاعل ذلك تام
القدرة يقدر على الاعادة وانه مختار يفعل ذلك في الوقت الذي يريده وانما
تحصل معرفة ذلك لقوم يتفكرون فيما ذكر من دلائل قدرته ووحدانيته
فيؤمنون ثم ذكر سبحانه وتعالى اشياء تدل على انه الفاعل المختار
بقوله تعالى وسخر لكم اي ايها الناس لاصلاح احوالكم الليل للسكون
والنهار للمعاش ثم ذكر آية النهار فقال والشمس اي لمنافع اختصاصها
ثم آية الليل والنهار والقمر لامور علقها به والنجوم اي الآيات بعضها
لما ترتب على تقديرها بقوله تعالى مسخرات اي بانواع المقادير
لما خلقها الله على اوضاع دبرها بامره اي بارادته تعالى لصلاح حكمكم
وصلاح ما تكم به قوامكم دلالة على وحدانيته تعالى وفعله بالاختيار
ولو شاء تعالى لاقام شيئا عنها او اعتق عن الاسباب وقرأ ابن
عامر برفع الاربع وهي الشمس والقمر والنجوم ومسخرات على الابتدا
والخبر ووافقه حفص في الاثنين الاخرين والنجوم مسخرات على
الابتدا والخبر والباقون بالخفض اي بنصبين بالخفض عطفا على ما قبله
في الثلاثة الاول وفي الرابع وهو مسخرات على الحال ولما ذكر سبحانه وتعالى
هذه الاشيا وجعلها مسخرات لمنافع عباده ختم ذلك بقوله

ان في ذلك اي التسخير العظيم لآيات اي دلالات كثيرة متعددة كثيرة
عظيمة لقوم يعقلون اي يتدبرون فيعلمون ان جميع الخلق تحت قدرته وقدرته
وتسخيره لما اراده منهم وقوله تعالى وما ذرأ اي خلق لكم في الارض
عطف على الليل اي وسخر لكم ما خلق لكم فيها من حيوان ونبات وقيل انه في
موضع نصب بفعل محذوف اي وخلق هكذا قدره ابو البقا وكانه استبعد
تسليط سخر على ذلك فقدر فعلا لائقا وقوله تعالى مختلفا حال منه
وقوله تعالى الوانه اي في الخلقة والهيئة والكيفية فاعل به ان في ذلك
لآية لقوم يذكرون اي يتعظون تنبيه ختم تعالى الآية الاولى بالتفكر
لان ما فيها يحتاج الى تامل ونظر وختم الثانية بالعقل لان مدار ما تقدم
عليه وختم الثالثة بالتذكر لانه نتيجة ما تقدم وجمع الآيات في الثانية
دون الاولى والثالثة لان ما نيط بها اكثر ولذلك ذكر معها العقل ولما
استدل سبحانه وتعالى على اثبات الاله اولا باجرام السموات والارض
وثانيا ببدن الانسان وثالثا بعجائب خلقة الحيوان ورابعا بعجائب
النبات ذكر خامسا عجائب العناصر وبدأ بالاستدلال بعنصر الما بقوله تعالى
وهو اي لا غيره وقرأ قالون وابو عمرو والكسائي بسكون الها والباقون بضمها
الذي سخر البحر اي ذلله وهياه لعيش ما فيه من الحيوان وتكون الجواهر
وغير ذلك قال علما الهيئة ثلاثة ارباع كرة الارض غائصة في الما وذلك
هو البحر المحيط وحصل في هذا الربع المسكون سبعة ابحر قال تعالى والبحر يمده
من بعده سبعة ابحر والبحر الذي سخره الله تعالى للناس هو هذه البحار ومعنى
تسخيرها للخلق ما مر منه جعلها بحيث يتمكن الناس من الانتفاع بها بالركوب
وبالغوص وبغير ذلك فمنافع البحار كثيرة وذكر سبحانه وتعالى منها هنا
ثلاثة منافع الاولى قوله تعالى لتأكلوا منه اي بالاصطياد وغيره من لحوم
الاسماك لحما طريا لا يتخذ انتم منه ولا البن وهو رطب اللحم فيسرع اليه
الفساد فيبادر الى اكله عذبا ففي ذلك دلالة على كمال قدرته تعالى وذلك
ان السمك لو كان كله مالحا عرف به من قدرة الله تعالى ما يعرف بالطري لانه
لما خرج من البحر الملح اللحم الطري في غاية العذوبة علم انه بخلق الله وقدرته
لا بحسب الطبع وعلم بذلك ان الله تعالى قادر على اخراج الضد من الضد
المنفعة الثانية قوله تعالى وتستخرجوا منه اي تجتهدكم في الغوص ومما
نفسه حلية اي حلية اي اللولو والمرجان كما قال تعالى يخرج منهما اللولو والمرجان
تلبسونها اي نساؤكم وهن بعضكم وكان اللابس انتم ولان زينة النسا
بالحلي انما هو لاجل الرجال فكان زينة لهم المنفعة الثالثة قوله تعالى وترى
الفلك اي السفن مواخر اي تمخر الماء تشقه بجريها فيه اي مقبلة
ومدبرة وذلك انك ترى سفينتين احدهما تقبل والاخرى تدبر بريح واحد

وقال مجاهد تمخر الريح السفن يعني انها اذا جرت يسمع لها صوت وقال الحسن
مواخر يعني مملوة متاعا وقوله تعالى ولتبتغوا اي لتطلبوا عطف على لتأكلوا
وما بينهما اعتراض وقيل عطف على محذوف تقديره لتنتفعوا بذلك ولتبتغوا
من فضله اي من سعة رزقه بركوبها للتجارة والوصول الى البلدان الشاسعة
ولعلكم تشكرون الله على هذه النعم التي انتم عاجزون عنها لولا تسخيره
ثم انه تعالى ذكر بعض النعم التي خلقها الله تعالى في الارض بقوله تعالى والقى في
الارض رواسي اي جبالا ثوابت ان تميد اي كراهة ان تميل وتضطرب
بكم وقيل لئلا تميل بكم والاول قدره البصريون والثاني قدره الكوفيون وقد
تقدم مثل ذلك في قوله تعالى يبين الله لكم ان تضلوا وروي ان الله تعالى خلق الارض
فجعلت تمور فقالت الملائكة ما هي بمقر احد على ظهرها فاصبحت وقد ارسيت
بالجبال لم تدر الملائكة مم خلقت وقوله تعالى عطف على رواسي لان الالقا بمعنى
الخلق والجعل الا ترى انه تعالى قال في اية اخرى وجعل فيها رواسي من
فوقها وقال تعالى والقيت عليك محبة مني وذكر تعالى الانهار بعد الجبال
لان معظم عيون الانهار واصولها تكون من الجبال وجعل لكم فيها انهارا
اي طرقا مختلفة تسلكونها في اسفاركم والتردد في حوائجكم من بلد الى
بلد ومن مكان الى مكان ولعلكم تهتدون اي تسلك السبل الى مقاصدكم
والى معرفة الله تعالى فلا تضلون وجعل لكم فيها علامات اي من
الجبال وغيرها جمع علامة تهتدون بها في اسفاركم ليلا ولما كانت الدلالة
بالنجم انفع الدلالات واوضحها برا وبحرا ليلا ونهارا نبه على عظمها بالالتفات
الى مقام الغيبة لايهام العموم لئلا يظن ان المخاطب مخصوص والامر لا
يتعداه فقال وبالنجم اي الجنس هم اي اهل الارض كلهم واولى الناس بذلك
المخاطبون وهم قريش ثم العرب كلها لفرط معرفتهم بالنجوم يهتدون
وقدم المجاز تنبيها على ان الدلالة بمجرد النسبة اليه سافلة وقيل المراد
بالنجم الثريا وقيل الفرقدان وبنات نعش والجدي وقيل الضمير لقريش
لانهم كانوا كثيري الاسفار للتجارة مشهورين بالاهتدا في مسايرهم بالنجوم
ولما ذكر سبحانه وتعالى من عجايب قدرته وبديع خلقه ما ذكر على الترتيب
الاحسن والنظم الاكمل وكانت هذه الاشيا المخلوقة المذكورة في
الايات المتقدمة كلها دالة على كمال قدرة الله ووحدانيته وانه تعالى
المنفرد بخلقها جميعها قال على سبيل الانكار على من ترك عبادته واشتغل
بعبادة هذه الاصنام العاجزة التي لا تضر ولا تنفع ولا تقدر على شي
افمن يخلق اي هذه الاشيا الموجودة وغيرها كمن لا يخلق شيا
من ذلك بل هي عاجزة عن ايجاد شي فكيف يليق بالعاقل ان يشتغل بعبادة من لا
يستحق العبادة وترك عبادة من يستحقها وهو الله تعالى

فان قيل ذلك الزام للذين عبدوا الاوثان وسموها آلهة تشبيها بالله فقد جعلوا
غير الخالق مثل الخالق فكان حق الالزام ان يقال افمن لا يخلق كمن يخلق اجيب بانهم
لما جعلوا غير الله مثل الله تعالى في تسميته باسمه والعبادة له وسووا بينه وبينه
فقد جعلوا الله من جنس المخلوقات وشبيها بها فانكر عليهم ذلك بقوله تعالى
افمن يخلق كمن لا يخلق فان اريد من لا يخلق انا اريد به جميع ما عبد من دون الله كان
ورود من واضحا لان العاقل يغلب على غيره فيعبر عن الجميع بمن ولو جي به ايضا بما
لجاز وان اريد به الاصنام فلم جي بمن الذي هو للعلم اجيب بانهم سموها آلهة
وعبدوها فاجروها مجرى اولي العلم الا ترى الى قوله تعالى والذين تدعون من
دون الله لا يخلقون شيا وهم يخلقون والى قول الشاعر

بكيت الى سرب القطا اذ مررن بي ... فقلت ومثلي بالبكا جدير
اسرب القطا هل من يعير جناحه ... لعلي الى من قد هويت اطير

فاوقع من على السرب لما عاملها معاملة العقلا وقيل للمشاكلة بينه وبين من يخلق
وقيل المعنى ان من يخلق ليس كمن لا يخلق من اولي العلم فكيف بما لا علم عنده
كقوله تعالى الهم ارجل يمشون بها يعني ان الالهة حالهم منحطة عن حال من لهم
ارجل وايد واذان وقلوب لان هولا احيا وهم اموات فكيف تصح لهم العبادة
لا انها لو صحت لهم هذه الاعضا لصح ان يعبدوا ولما كان هذا القدر ظاهرا غير
خاف على احد فلا يحتاج فيه الى تدقيق والنظر بل مجرد التذكر فيه كفاية لمن فهم
وعقل ختم تعالى ذلك بقوله تعالى افلا تذكرون فتعرفوا فساد ما تعبدونه من ذلك
ولو من بعض الوجوه فتؤمنون تنبيه احتج اهل السنة بهذه الاية
على ان العبد غير خالق لافعال نفسه لانه تعالى ميز نفسه عن الاشيا التي
يعبدونها بصفة الخالقية لان الغرض من قوله تعالى افمن يخلق كمن لا يخلق
بيان تميزه عن هذه الاشيا بصفة الخالقية وانما استحق العبودية والالهية
لكونه تعالى خالقا وهذا يقتضي ان العبد لو كان خالقا لشي لوجب كونه الها
معبودا ولما كان ذلك باطلا علمنا ان العبد لا يقدر على الخلق والايجاد ولما
كانت المقدورات لا تحصر واكثرها نعم على العباد منة كثيرة لهم بخالقهم
قال ممتنا عليهم باحسانه من غير سبب منهم وان تعدوا اي اكلكم
نعمة الله اي انعام الملك الاعظم الذي لا رب غيره عليكم من صحة البدن
وعافية الاجسام واعطا النظر الصحيح والعقل السليم وبطش اليدين
ومشي الرجلين الى غير ذلك مما انعم به عليكم وما خلق لكم مما تحتاجون
اليه من امر الدنيا حتى لو رام احدكم معرفة ادنى نعمة من هذه النعم لعجز
عنها وعن معرفتها وحصرها فان شعبها يفوت الحصر لا تحصوها اي
لا تضبطوا عددها ولا تبلغه طاقتكم مع كثرها واعراضكم جملة عن شكرها
والعبد وان اتعب نفسه في القيام بالطاعات والعبادات وبالغ في شكر

نعم الله تعالى فانه يكون مقصرا الا ان نعم الله كثيرة واقسامها عظيمة وعقل الخلق
قاصر عن الاحاطة بمباديها فضلا عن غاياتها لكن الطريق الى ذلك ان شكر الله
تعالى على جميع نعمه مفصلها ومجملها ان الله لغفور اي لتقصيركم في القيام
بشكر ما يبقي النعمة كما يجب عليكم رحيم بكم فوسع عليكم النعم ولم يقطعها
عنكم بسبب التقصير والمعاصي وقوله تعالى والله يعلم ما تسرون وما تعلنون
فيه وجهان الاول ان الكفار مع كفرهم كانوا يسرون اشيا وهو ما كانوا
يمكرون بالنبي صلى الله عليه وسلم وما يعلنون اي وما يظهرون من اذاه
صلى الله عليه وسلم فاخبر الله تعالى بانه عالم بكل احوالهم سرها وعلانيتها
لا يخفى عليه خافية وان دقت وخفيت والوجه الثاني انه تعالى لما ذكر
الاصنام وذكر عجزها في الاية المتقدمة ذكر في هذه الاية ان الاله الذي
يستحق العبادة يجب ان يكون عالما بكل المعلومات سرها وجهرها
وهذه الاصنام ليست كذلك فلا تستحق العبادة ثم وصف تعالى
هذه الاصنام بصفات الاولى مذكورة في قوله تعالى والذين يدعون اي
تعبدون من دون الله اي الاصنام وتعتقدون انها الهة وقرا عاصم
بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب لا يخلقون شيئا وهم يخلقون
اي تصورون من الحجارة وغيرها فان قيل قوله تعالى في الاية المتقدمة
افمن يخلق كمن لا يخلق يدل على ان هذه الاصنام لا تخلق شيئا وهم
يخلقون وهذا هو المعنى المذكور في تلك الاية المذكورة فما فايدة هذا
التكرار اجيب بان فايدته انه ان المعنى المذكور في الاية المتقدمة
انهم لا يخلقون شيئا فقط والمذكور في هذه الاية انهم لا يخلقون
شيئا وهم يخلقون كغيرهم فكان هذا زيادة في المعنى وهو فايدة التكرار
فكانه تعالى بدا بشرح نقصهم في ذواتهم وصفاتهم فبين اولا انها
لا تخلق شيئا ثم بين ثانيا انها كما لا تخلق غيرها فهي مخلوقة كغيرها
الصفة الثانية قوله تعالى اموات اي جمادات لا روح لها غير احيا
اذ الاله الذي يستحق ان يعبد هو الحي الذي لا يموت فان قيل علم من
قوله اموات انها غير احيا فما الفايدة في ذكره اجيب بان من الاموات
ما يعقب موته حياة كالنطف التي ينشيها الله تعالى حيوانا واجسادا
الحيوانات التي تبعث بعد موتها واما الاحجار فاموات لا يعقب موتها
حياة وذلك اعرق في موتها وقيل ذكر للتاكيد لان الكلام مع الكفار الذين
يعبدون الاوثان وهم في نهاية الجهالة والضلالة ومن تكلم مع الجاهل
الغبي فقد يعبر عن المعنى الواحد بالعبارات الكثيرة وغرضه الاعلام
لكون ان ذلك المخاطب في غاية الغباوة في انه لا يفهم المعنى المقصود
بالعبارة الواحدة الصفة الثالثة قوله تعالى وما يشعرون اي الاصنام

ايان اي وقت يبعثون اي وتعلم هولا الالهة حين تبعث الاحياء
تهكما بحالها لان شعور الجماد محال فكيف بشعور من لا يعلمه حي الا الحي القيوم
سبحانه وتعالى وقيل الضمير راجع للاصنام قال ابن عباس ان الله يبعث
الاصنام لها ارواح ومعها شياطينها فيومر بالكل الى النار وقيل المراد بقوله
تعالى والذين تدعون من دون الله الملايكة وكان ناس من الكفار يعبدونهم
فقال الله تعالى انهم اموات اي لابد لهم من الموت غير احيا اي باقية حياتهم وما يشعرون
اي لا علم لهم بوقت بعثهم ولما زيف سبحانه وتعالى طريقة عبدة الاوثان وبين
فساد مذهبهم قال تعالى الهكم اي ايها الخلق جميعا المعبود بحق
اله اي متصف بالالهية على الاطلاق بالنسبة الى كل احد وكل زمان
وكل مكان واحد لا يقبل التعدد الذي هو شان النقص بوجه من الوجوه
لان التعدد يستلزم امكان التمانع المستلزم للعجز المستلزم للبعد
عن رتبة الالهية فالذين اي فتسبب عن هذا ان الذين لا يومنون
بالاخرة اي دار الجزا ومحل اظهار الحكم الذي هو ثمرة الملك والعدل الذي
هو مدار العظمة قلوبهم منكرة اي جاحدة للوحدانية وهم اي والحال
انهم بسبب انكار ذلك مستكبرون اي متكبرون عن الايمان بها لا جرم
اي حقا ان الله يعلم علما غيبيا وشاهديا ما يسرون اي ما يخفون
مطلقا او بالنسبة الى بعض الناس وما يعلنون اي يظهرون فيجازيهم
بذلك ولما كان في ذلك معنى التهديد علل ذلك بقوله تعالى انه
اي العالم بالسر والعلن لا يحب المستكبرين اي على خلقه فما بالك
بالمستكبر على التوحيد واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ومعنى
عدم محبتهم انه يعاقبهم وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه ان
النبي صلى الله عليه وسلم قال لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال
ذرة من كبر فقال رجل يا رسول الله ان الرجل يحب ان يكون ثوبه
حسنا قال ان الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمض الناس
ومعنى بطر الحق انه يتكبر عند سماع الحق فلا يقبله ومعنى غمض الناس
استنقاصهم وازدراوهم ولما بالغ سبحانه وتعالى في دلايل التوحيد
واورد الدلايل القاهرة في ابطال مذاهب عبدة الاوثان صنام
قال تعالى عاطفا على قلوبهم منكرة واذا قيل لهم اي لهولا الذين
لا يومنون بالاخرة وقوله تعالى ما استفهامية وذا موصولة اي
ما الذي انزل ربكم على محمد صلى الله عليه وسلم واختلف في قايل هذا
القول فقيل كلام بعضهم لبعض وقيل قول المسلمين لهم وقيل قول
المقتسمين الذين اقتسموا مداخل مكة ينفرون عن رسول الله صلى
الله عليه وسلم اذا سالهم وفود الحاج عما انزل الله تعالى على رسوله

صلى الله عليه وسلم قالوا مكابرين في انزال القران هو اساطير اي اكاذيب
الاولين مع تعجيزهم بعد تحديهم عن معارضة اقصر سورة منه مع علمهم
بانهم افصح الناس وانه لا يكون من احد من الناس متقدم او متاخر قول الا
قالوا ابلغ منه فان قيل هذا الكلام متناقض لانه لا يكون منزل من ربهم
واساطير اجيب بانهم قالوه على سبيل السخرية كقوله ان رسولكم الذي
ارسل اليكم لمجنون واللام في قوله تعالى ليحملوا لام العاقبة كما في قوله
تعالى فالتقطه ال فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا وذلك لما وصفوا القران
بكونه اساطير الاولين كان عاقبتهم بذلك ان يحملوا اوزارهم اي ذنوب
انفسهم وانما قال تعالى كاملة لئلا يتوهم ان يكفر عنهم بسبب
البلايا التي اصابتهم في الدنيا واعمال البر التي عملوها في الدنيا بل يعاقبون
بكل اوزارهم يوم القيامة الذي لا شك فيه ولا محيص عن اتيانه
قال الرازي وهذا يدل على انه تعالى قد يسقط بعض العقاب عن
المومنين اذ لو كان هذا المعنى حاصلا في حق الكل لم يكن لتخصيص هولا
الكفار بهذا التكميل فائدة وليحملوا ايضا من جنس اوزار الجهلة
الضعفا الذين يضلونهم في قوله تعالى بغير علم حال من مفعول
يضلونهم اي يضلون من يعلم انهم ضلال او من الفاعل وانما وصف
بالضلال واحتمال الوزر من اضلوه وان لم يعلم لانه كان عليه ان يبحث وينظر
بعقله حتى يميز بين المحق والمبطل وانما حصل للروسا الذين اضلوا
غيرهم وصدوهم عن الايمان مثل اوزار الاتباع لانهم دعوهم الى الضلال
فاتبعوهم فاشتركوا في الاثم وعن ابي هريرة رضي الله عنه ان رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال من دعى الى هدى كان له من الاجر
مثل اجور من تبعه لا ينقص ذلك من اجورهم شيا ومن دعى الى ضلالة
كان عليه من الاثم مثل اثام من تبعه لا ينقص ذلك من اثامهم شيا
اخرجه مسلم ومعنى الاية والحديث ان الرئيس والكبير اذا سن سنة
حسنة او سيئة قبيحة فتبعه عليها جماعة فعملوا بها فان الله تعالى
يعطيهم ثوابه وعقابه حتى يكون ذلك الثواب والعقاب مساويا
لكل ما يستحقه كل واحد من الاتباع الذين عملوا بسنته
الحسنة او القبيحة وليس المراد بان الله يوصل جميع الثواب او
العقاب الذي استحقه الاتباع الى الروسا ويدل لذلك قوله تعالى
ولا تزر وازرة وزر اخرى وقوله تعالى وان ليس للانسان الا ما
سعى تنبيه قال الواحدي لفظة من في قوله تعالى ومن اوزارهم
وقد قال صلى الله عليه وسلم لا ينقص ذلك من اثامهم شيا
لكنها للجنس كما قدرت ذلك في الاية الكريمة اي ليحملوا من

جنس اوزار الاتباع وقيل انها للتبعيض وجرى عليه البيضاوي نقلا للزمخشري
الا ساء ما يزرون اي يحملون حملهم هذا وفي هذا وعيد وتهديد
لهم فان قيل ان الله تعالى حكى هذه الشبهة عن القوم ولم يجب عنها بل
اقتصر على محض الوعيد فما السبب في ذلك اجيب بان السبب فيه انه تعالى
بين كون القران معجزا بطريقين الاول انه صلى الله عليه وسلم تحداهم
تارة بكل القران وثانيا بعشر سور وثالثا بسورة ورابعا بحديث واحد
فعجزوا عن المعارضة وذلك يدل على كونه معجزا الثاني انه تعالى حكى هذه
الشبهة بعينها في اية اخرى وهي قوله تعالى اكتتبها فهي تملى عليه بكرة واصيلا
وابطلها بقوله تعالى قل انزله الذي يعلم السر في السموات والارض ولما
ثبت كون القران معجزا بهذين الطريقين وتكرر شرح هذين الطريقين
مرارا كثيرة لا جرم اقتصر في هذه الاية على مجرد الوعيد ولم يذكر ما يجري
مجرى الجواب عن هذه الشبهة ثم انه سبحانه وتعالى بالغ في وصف وعيد
هولا الكفار بقوله تعالى قد مكر الذين من قبلهم اي كمن رووا اثارهم
ودخلوا في ديارهم فاتى الله اي امره بنيانهم من القواعد اي من
جهة العمد التي بنوا عليها مكرهم فخر اي سقط عليهم السقف
من فوقهم وصار سبب هلاكهم وقرا ابو عمرو في الوصل بكسر
الها والميم وحمزة والكسائي بضم الها والميم والباقون بكسر الها وضم
الميم واما الوقف فحمزة بضم الها على اصله والباقون بالكسر
واتاهم العذاب من حيث لا يشعرون اي من جهة لا تخطر ببالهم وهذا
على سبيل التمثيل اي التشبيه والتخييل لافساد ما ابرموه من
المكر بالرسل فجعل الله هلاكهم فيما ابرموه كحال قوم بنوا بنيانا
وعمدوه بالاساطين فاتى البنيان من الاساطين بان تضعضعت
فسقط عليهم السقف فهلكوا ونحوه من حفر لاخيه جبا وقع فيه
منكبا وقيل هو نمرود بن كنعان حين بنى الصرح ببابل ليصعد
الى السما قال ابن عباس كان طول الصرح في السما خمسة الاف
ذراع وقال كعب كان طوله فرسخين فاهب الله تعالى الريح فالقت
راسه في البحر وخر عليهم الباقي وهم تحته قال البغوي ولما سقط
الصرح تبلبلت السن الناس يوميذ من الفزع فتكلموا بثلاثة وسبعين
لسانا فلذلك سميت بابل وكان لسان الناس قبل ذلك بالسريانية
فذلك قوله تعالى فاتى الله بنيانهم من القواعد اي اتى امره بخرابها
من اصلها واسولها فخر عليه وعلى قومه السقف اي اعلى البيوت
من فوقهم فهلكوا تنبيه قال ابن الخازن في قول البغوي وكان
لسان الناس قبل ذلك بالسريانية نظر لان صالحا عليه السلام

كان قبلهم وكان يتكلم بالعربية وكان اهل اليمن عرب منهم جرهم الذين نشا
اسمعيل بينهم وتعلم منهم العربية وكان ببابل من العرب طايفة قد ثمة
قبل ابراهيم اهـ وقد يقال انه كان لسان اكثر الناس بالسريانية فلا ينافي
ذلك فان قيل ما فايدة في قوله تعالى من فوقهم والسقف من فوقهم اجيب بانهم
قد لا يكونون تحته فلما قال فخر عليهم السقف من فوقهم دل على انهم كانوا
تحته وح يفيد هذا الكلام لان الابنية قد تهدم وهم ما تواتحتها ولما
ذكر تعالى هذا المكر في الدنيا ذكر حالهم في الاخرة بقوله ثم يوم القيمة يخزيهم اي
يذلهم ويهينهم بعذاب النار ويقول لهم الله تعالى على لسان الملايكة توبيخا
اين شركاي اي في زعمكم واعتقادكم الذين كنتم تشاقون اي تخالفون
المومنين فيهم اي في شانهم وقرا نافع بكسر النون والباقون بفتحها قال
اي يقول الذين اوتوا العلم اي من الانبياء والمومنين وقال ابن عباس
يريد الملايكة ان الخزي اي البلا المذل اليوم اي يوم الفصل الذي
يكون للفايز فيه العاقبة المامونة والسوء اي كلما يسوء في يوم القيمة
على الكافرين اي الفريقين في الكفر الذين تكبروا في غير موضع التكبر وفايدة
قولهم اظهارا لشماتة وزيادة الاهانة وحكاية لا يكون لطفا لمن سمعه
تنبيه في الاية دليل على ان ماهية الخزي وماهية السوء يوم القيامة
مختصة بالكافرين وهذا ينفي هذه الماهية في حق غيرهم ويوكد
هذا قول موسى عليه السلام انا قد اوحي الينا ان العذاب على من كذب وتولى
ثم انه تعالى وصف هولا الكافرين من وجه آخر فقال سبحانه وتعالى
الذين تتوفاهم الملايكة اي يقبض ارواحهم ملك الموت واعوانه وقرا حمزة
في هذه الاية وفي الاية الاتية بالياء في الموضعين على التذكير لان
الملايكة ذكور والباقون بالتاء على التانيث للفظ لان لفظ الجمع مونث
ظالمي انفسهم اي بان عرضوها للعذاب المخلد بكفرهم فالقوا
السلم اي استسلموا وانقادوا حين عاينوا الموت قايلين
ما كنا نعمل من سوء اي شرك وعدوان فتقول لهم الملايكة بلى
اي بل كنتم تعملون اعظم السوء على تكذيبهم بقوله تعالى ان الله
عليم بما كنتم تعملون اي فلا فايدة لكم في انكاركم فيجازيكم به ولما كان
هذا الفعل مع العلم سببا لدخول جهنم قال تعالى فادخلوا اي ايها
الكفرة ابواب جهنم اي ابواب طبقاتها ودركاتها خالدين
اي مقدرين الخلود فيها اي جهنم لا يخرجون منها وانما قال تعالى ذلك
لهم ليكون اعظم في الخزي والغم وفي ذلك دليل على ان الكفار بعضهم اشد
عذابا من بعض ثم قال تعالى فلبئس مثوى اي ماوى المتكبرين عن
قبول التوحيد وساير ما اتت به الرسل ولما بين تعالى احوال المكذبين ذكر

احوال الصديقين بقوله تعالى وقيل للذين اتقوا اي خافوا عقاب الله ماذا اي
اي شيء انزل ربكم قالوا خيرا اي انزل خيرا وذلك ان احيا العرب كانوا يبعثون
ايام الموسم من ياتيهم بخبر النبي صلى الله عليه وسلم فاذا جا سال الذين
قعدوا على الطرق عنه فيقولون ساحر كاهن كذاب مجنون ولو لم تلقه خير
لك فيقول السايل انا شر وافد ان رجعت الى قومي دون ان ادخل مكة والقاه
فيدخل مكة فيرى اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيخبرونه بصدقه وانه نبي مبعوث
من الله تعالى فذلك قوله تعالى وقيل للذين اتقوا ماذا انزل ربكم قالوا خيرا الاية
فان قيل لم رفع الاول وهو قولهم اساطير الاولين ونصب الثاني وهو قولهم
خيرا اجيب بانه ذكر ذلك للفصل بين جواب المقر وجواب الجاحد وذلك
انهم لما سالوا الكفار عن المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم عدلوا بالجواب عن
السوال فقالوا اساطير الاولين وليس هو من الانزال في شي لانهم لم يعتقدوا
كونه منزلا ولما سالوا المومنين عن المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم لم
يتلعثموا وطابقوا الجواب عن السوال بينا مكشوفا مفعولا للانزال فقالوا خيرا
اي انزل خيرا وتم الكلام عند قوله خيرا وهو وقف تام ثم ابتدا بقوله تعالى
للذين احسنوا في هذه الدنيا حسنة اي حياة طيبة او ان للذين
اتوا بالاعمال الصالحات الحسنة لهم ثوابها حسنة مضاعفة من الواحدة
الى العشرة الى السبعماية الى اضعاف كثيرة او انه تعالى بين ان اعزازهم
بذلك احسان في هذه الدنيا حسنة اي جزاؤهم على احسانهم هل جزا
الاحسان الا الاحسان ولما كانت هذه الدار سريعة الزوال اخبر عن حالهم
في الاخرة فقال ولدار الاخرة اي الجنة خير اي ما اعد الله لهم في الجنة خير
مما حصل لهم في الدنيا ثم مدحها ومدحهم بقوله تعالى ولنعم دار المتقين
اي دار الاخرة فحذف لتقدم ذكرها وقال الحسن هي الدنيا لان النفوس
يتزودون فيها للاخرة وقوله جنات اي بساتين عدن اي اقامة
خبر مبتدا محذوف ويصح ان يكون المخصوص بالمدح يدخلونها اي تلك
الجنات حالة كونها تجري من تحتها اي من تحت غرفها الانهار ثم كان
سايلا عما فيها من الثمار وغيرها فاجيب بان لهم فيها ما يشاؤن
اي ما تشتهي الانفس وتلذ الاعين مع زيادة غير ذلك فهذه الاية تدل
على حصول كل الخيرات والسعادات فهي ابلغ من قوله تعالى فيها ما تشتهي
الانفس وتلذ الاعين لان هذين القسمين داخلان في قوله تعالى
لهم فيها ما يشاؤن مع اقسام اخرى وعلى ان الانسان لا يجد كل ما يريده
في الدنيا لان قوله لهم فيها ما يشاؤن يفيد الحصر كذلك اي مثل هذا
الجزا العظيم يجزي الله اي الذي له الكمال كله المتقين اي الراسخين
في صفة التقوى حث تعالى على ملازمة التقوى بالتنبيه على ان

العبرة بحال الموت فقال الذين تتوفاهم الملئكة اي تقبض ارواحهم وقوله
تعالى طيبين كلمة مختصرة جامعة للمعاني الكثيرة وذلك لانه يدخل فيه اتيانهم
بكل ما امروا به واجتنابهم عن كل ما نهوا عنه ويدخل فيه كونهم موصوفين
بالاخلاق الفاضلة مبرئين عن الاخلاق المذمومة ويدخل فيه كونهم مبرئين
عن العلايق الجسمانية متوجهين الى حضرة القدس ويدخل فيه انه طاب
لهم قبض الارواح وانها لم تقبض الامع البشارة بالجنة حتى صاروا كانهم
كانهم مشاهدون لها ومن هذا حاله لا يتالم بالموت واكثر المفسرين على ان
هذا التوفي هو قبض الارواح كما مر واذا كان الحسن يقول انه وفاة الحشر
واستشهد بقوله تعالى ادخلوا الجنة واجاب الاكثرون بما سياتي وادغم
ابو عمرو التاء في الطاء بخلاف عنه ثم بين تعالى ان الملئكة يقولون لهم عند الموت
سلام عليكم فسلم عليهم او تبلغهم السلام من الله تعالى كما روي
ان العبد المومن اذا اشرف على الموت جاءه ملك فقال السلام عليك يا ولي
الله يقول عليك السلام ويبشره بالجنة ويقال لهم في الاخرة هذا
جواب الاكثرين ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون او انهم لما
بشروهم بالجنة صارت الجنة كانها دارهم وكانهم فيها فيكون المراد
بقولهم ادخلوا الجنة اي خاصة لكم كانكم فيها ولما طعن الكفار في القران
بقولهم اساطير الاولين وذكر انواع التهديد والوعيد ثم اتبعه بذكر
الوعد لمن وصف القران بكونه خيرا عاد الى بيان ان اولئك الكفار لا ينزجرون
عن كفرهم واقوالهم الباطلة الا اذا جاءتهم الملئكة او اتاهم امر ربك فقال
تعالى هل ينظرون الا ان تاتيهم الملئكة لقبض ارواحهم وقرا
حمزة والكسائي بالياء على التذكير والباقون بالتاء على الخطاب
والتانيث وتقدم توجيه ذلك او ياتي امر ربك اي يوم القيمة
وقيل العذاب وقيل انهم طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم ان ينزل
الله تعالى ملكا من السماء يشهد على صدقه في ادعاء النبوة فقال تعالى
هل ينظرون في التصديق بنبوتك الا ان تاتيهم الملئكة شاهدين
بذلك وعلى كلا التقديرين فقد قال تعالى كذلك اي مثل ما فعل هؤلاء
هذا الفعل البعيد الشنيع فعل الذين من قبلهم من الامم السالفة كذبوا
رسلهم فاهلكوا وما ظلمهم الله باهلاكهم بغير ذنب ولكن كانوا انفسهم يظلمون
بكفرهم وتكذيبهم للرسل فاستوجبوا ما نزل بهم فاصابهم اي فتسبب
عن ظلمهم لانفسهم اذا اصابهم سيئات اي عقوبات او جزاءات
ما عملوا وحاق اي نزل بهم ما كانوا به يستهزءون تكبرا عن قبول
الحق فحاط بهم جزاؤه والحيق لا يستعمل الا في الشر وقرا حاق حمزة بالامالة
والباقون بالفتح وقال الذين اشركوا للنبي صلى الله عليه وسلم

استهزآء ونفيا للبعثة والتكليف لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن
ولا اباؤنا لانهم اعتقدوا ان يكون الامر كذلك يمنع من جواز بعثة الرسل
وهو اعتقاد باطل فلذلك استحقوا عليه الذم والوعيد ثم قالوا لهم ولا
حرمنا من دونه من شيء اي من السوائب والبحاير والحامي فهو راض بهم به
وبمشيئته وحينئذ فلا فائدة في مجيئك وفي ارسالك وهذا عين ما حكاه
الله تعالى عنهم في سورة الانعام في قوله تعالى سيقول الذين اشركوا
لو شاء الله الاية قال الله تعالى كذلك فعل الذين من قبلهم
اي من تقدم هؤلاء من الكفار من الامم الماضية كانوا على هذه الطريقة
وهذا الفعل الخبيث فانكار بعثة الرسل كان قد جاء في الامم الخالية ففي
ذلك تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وكذا في قوله تعالى فهل على الرسل
الا البلاغ اي الا الابلاغ المبين اي البين فليس عليهم هداية احد انما
عليهم تبليغ ما ارسلوا به الى من ارسلوا اليه ثم بين تعالى ان البعثة امر جرت
به السنة الالهية في الامم كلها سببا لهدي من اراد اهتداءه وزيادة اضلال
لمن اراد ضلاله كالغذاء الصالح فانه ينفع المزاج السوي ويقويه ويضر المزاج
المنحرف ويفنيه بقوله تعالى ولقد اي والله لقد بعثنا اي على
ما لنا من العظمة التي من اعترض عليها قصم في كل امة من الامم الذين
من قبلكم رسولا اي كما بعثنا فيكم محمدا صلى الله عليه وسلم ان اعبدوا الله
اي الملك الاعلى وحده وقرا ابو عمرو وعاصم وحمزة بكسر النون في الوصل
والباقون بالضم واجتنبوا الطاغوت اي الاوثان ان تعبدوها
فمنهم من هدى الله اي وفقهم للايمان بارشاده ومنهم من حقت اي
وجبت عليه الضلالة اي في علم الله تعالى فلم ينفعهم ولم يرد هداهم
تنبيه في هذه الاية ابين دليل على ان الهادي والمضل هو الله تعالى
لانه المتصرف في عباده يهدي من يشاء ويضل من يشاء لا اعتراض عليه
فيما حكم به لسابق علمه ثم التفت سبحانه وتعالى الى مخاطبتهم اشارة الى
انه لم يبق بعد هذا الدليل القطعي في قطع نظر البصيرة الا الدليل المحسوس
للبصر فقال تعالى فسيروا اي فان كنتم ايها المخاطبون في شك
من اخبار الرسل فسيروا في الارض اي جنسها فانظروا اي اذا
سرتم ومررتم بديار المكذبين واثارهم ثم اشار تعالى بالاستفهام الى ان الحال
مما يجب ان يسال عنه للاتعاظ به فقال كيف كان عاقبة اي اخر امر
المكذبين اي من عاد ومن بعدهم من الذين تلقيتم اخبارهم
عمن قلدتموهم في الكفر من اسلافكم لعلكم تعتبرون ولما كان
من المحقق انه لم يبق بعد الايصال في الاستدلال الى الامر المحسوس
الا العناد اعرض عنهم ملتفتا الى الرؤوف بهم الشفيق عليهم محمد صلى الله عليه

فقال مسليا له ان تحرص على هداهم تتطلبه بغاية جدك واجتهادك وقد اضلهم الله تعالى لا تقدر على ذلك ثم قال تعالى فان الله لا يهدي من يضل اي يهدي من يريد ضلاله وهو معنى بمن حقت عليه الضلالة وقرا عاصم وحمزة والكسائي بفتح اليا وكسر الدال والباقون بضم اليا وفتح الدال على البنا للمفعول قال البيضاوي وهو ابلغ ثم قال تعالى وما لهم اي هولا الذين اضلهم الله وحتم من يضله من ناصرين اي وليس لهم احد ينصرهم في الدنيا والاخرة عند مجازاتهم على الضلالة لينقذوهم مما يلحقهم عليه من الوبال كما فعل بالمكذبين من قبلهم ثم حكى الله عن هولا القوم انهم ينكرون الحشر والنشر بقوله واقسموا بالله جهد ايمانهم اي غاية اجتهادهم فيها لا يبعث الله من يموت وذلك لانهم قالوا ان الانسان ليس هو الا هذه البنية المخصوصة فاذا مات وتفرقت اجزاؤه وبلي امتنع عوده بعينه لان الشي اذا عدم فقد فني ولم يبق له ذات ولا حقيقة بعد فنائه وعدمه فكذبهم الله تعالى في قولهم بقوله تعالى بلى اي ليبعثهم بعد الموت فان لفظة بلى اثبات لما بعد النفي والجواب عن شبهتهم ان الله تعالى خلق الانسان واوجده من العدم ولم يكن شيا فالذي اوجده ولم يكن شيا قادر على ايجاده بعد اعدامه لان النشاة الثانية اهون من الاولى وقوله تعالى وعدا عليه حقا مصدران موكدان منصوبان بفعلهما المقدر اي وعد ذلك وحقه حقا ولكن اكثر الناس لا يعلمون اي لا علم لهم يوصلهم ذلك لانه من عالم الغيب لا يمكن عقولهم الوصول اليه بغير ارشاد من الله تعالى ولا هم يقبلون اقوال الدعاة اليه الذين ايدهم الله بروح منه لتقيدهم بما يوصلهم الى عقولهم انها قاصرة على عالم الشهادة لا يمكنها الترقي منه الى عالم الغيب بغير وساطة منه سبحانه وتعالى فكذلك ترى الانسان منهم يابى ذلك استبعادا او هو خصيم مبين وقوله تعالى ليبين لهم الذي يختلفون فيه يتعلق بما دل عليه بلى اي يبعثهم ليبين لهم والضمير لمن يموت وهو عام للمومنين والكافرين والذين اختلفوا فيه هو الحق وليعلم الذين كفروا انهم كانوا كاذبين في قولهم لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شي وقولهم لا يبعث الله من يموت وقيل يجوز ان يتعلق بقوله ولقد بعثنا في كل امة رسولا اي بعثناهم ليبين لهم ما اختلفوا فيه وانهم كانوا على الضلالة قبله مفترين على الله الكذب ثم بين سبحانه وتعالى تيسر الاعادة بقوله تعالى انما قولنا اي بما لنا من العظمة والقدرة لشي ابدا واعادة اذا اردناه ان نقول له كن فيكون اي مسبب عن ذلك القول انه يكون تنبيه قوله تعالى قولنا مبتدا وان نقول خبره فيكون من كان التامة التي بمعنى الحدوث والوجود اي اذا اردنا حدوث شي فليس الا ان نقول له احدث فيحدث عقب ذلك من غير

تقول

توقف

توقف فان قيل قوله تعالى كن ان كان خطابا مع المعدوم فهو محال وان كان خطابا مع الموجود فكان امرا بتحصيل الحاصل وهو محال اجيب بان هذا تمثيل لنفي الكلام والغايات وخطاب مع الخلق بما يعقلون ليس هو خطاب المعدوم لان ما اراد فهو كاين على كل حال وعلى ما اراده من الاسراع ولو اراد تعالى خلق الدنيا والاخرة بما فيهما من السموات والارض في قدر لمح البصر لقدر على ذلك ولكن خاطب تعالى العباد بما يعقلون وعن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تبارك وتعالى يشتمني ابن ادم وما ينبغي له ان يشتمني ويكذبني وما ينبغي له اما شتمه اياي فيقول ان لي ولدا واما تكذيبه فيقول ليس يعيدني كما بداني وفي رواية كذبني ابن ادم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك فاما تكذيبه اياي فقوله لن يعيدني كما بداني وليس اول الخلق باهون علي من اعادته واما شتمه اياي فقوله اتخذ الله ولدا وانا الاحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد وقرا ابن عامر والكسائي بفتح النون من يكون عطفا على يقول او جوابا للامر والباقون بالرفع ولما حكى الله تعالى عن الكفار انهم اقسموا بالله جهد ايمانهم على انكار البعث والقيامة دل ذلك على انهم تمادوا في الغي والجهالة والجهل والضلال وفي مثل هذه الحالة لا يبعد اقدامهم على ايذا المسلمين وانزال العقوبة بهم وح يلزم على المومنين ان يهاجروا من تلك الديار والمساكن فبين تعالى حكم تلك الهجرة وما لهولا المهاجرين من الحسنة في الدنيا والاخرة بقوله تعالى والذين هاجروا في الله اي في حقه ولوجهه لاقامة دينه من بعد ما ظلموا وهم رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه رضي الله عنهم ظلمهم اهل مكة ففروا بدينهم الى الله منهم من هاجر الى الحبشة ثم الى المدينة فجمع الله تعالى بين الهجرتين ومنهم من هاجر الى المدينة او المحبوسون المعذبون بمكة بعد هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم بلال وصهيب وخباب وعمار وعابس وابو جندب بن سهيل اخذهم المشركون بمكة فاخذوهم يعذبونهم ليرجعوا عن الاسلام الى الكفر فاما بلال فكانوا اصحابه يخرجونه الى بطحاء مكة في شدة الحر ويشدونه ويجعلوا على صدره الحجارة وهو يقول احد احد فاشتراه منهم ابو بكر رضي الله عنه واعتقه واشترى معه ستة نفر اخر واما صهيب فقال انا رجل كبير ان كنت معكم لم انفعكم وان كنت عليكم لم اضركم فافتدى منهم بماله وهاجر فلما راه ابو بكر قال له ربح البيع يا صهيب وقال له نعم الرجل صهيب لو لم يخف الله لم يعصه وهو ثنا عظيم يريد لو لم يخلق الله نارا لا اطاعه لنبوئنهم اي لننزلنهم في الدنيا حسنة دارا حسنة وهي المدينة وقيل لنحسنن اليهم في الدنيا بان نفتح لهم مكة ونمكنهم من اهلها الذين ظلموهم واخرجوهم منها وقيل اراد بالحسنة في الدنيا التوفيق والهداية الى الدين ولاجر الاخرة وهي الجنة والنظر الى وجهه الكريم

اكبر اي اعظم لو كانوا يعلمون اي الكفار والمتخلفون عن الهجرة ما للمهاجرين من
الكرامة لوافقوهم وقيل انه راجع الى المهاجرين اي لو كانوا يعلمون ذلك لزادوا في
اجتهادهم وصبروا وروي ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان اذا اعطى الرجل من
المهاجرين عطاء يقول له خذ بارك الله لك فيه هذا ما وعدك الله به في الدنيا وما
ادخرلك في الاخرة افضل ثم يقرا هذه الاية وقوله تعالى الذين صبروا اي على
الشدايد وعلى مفارقة الوطن الذي هو حرم الله وعلى المجاهدة وبذل الاموال
والانفس في سبيل الله محله رفع على هم او نصب على المدح ويجوز ان يكون تابعا
للموصول قبله نعتا او بدلا او بيانا فمحله محله وعلى ربهم يتوكلون اي
منقطعين اليه مفوضين الامر كله اليه تنبيه ذكر الله تعالى في هذه الاية
الصبر والتوكل وهما مبدا السلوك الى الله تعالى ومنتهاه اما الصبر
فهو قهر النفس وحبسها على اعمال البر وساير الطاعات واحتمال الاذى
من الخلق واما التوكل فهو الانقطاع عن الخلق بالكلية والتوجه الى الله
كما من الاشارة اليه فالاول هو مبدا السلوك والثاني هو اخر الطريق
ومنتهاه ونزل لما انكر واستنكروا اهل مكة نبوة محمد صلى الله عليه
وسلم وقالوا الله اعظم واجل ان يكون رسوله بشرا فهلا بعث الينا
ملكا وما ارسلنا من قبلك يا محمد الى الامم من طوايف البشر الا
رجالا لا ملايكة بل ادميين هم في غاية الاقتدار على الصبر والتوكل
الذي هما محط الرجال نوحي اليهم بواسطة الملايكة عادة الله جارية
مستمرة من اول مبدا الخلق الى الان لم يبعث رسولا الا من البشر
فاسئلوا اهل الذكر اي اهل الكتاب وهم اليهود والنصارى وانما
امرهم الله تعالى بسوالهم لان كفار مكة كانوا يعتقدون ان اهل الكتاب
اهل علم وقد ارسل اليهم رسلا مثل موسى وعيسى عليهما السلام
من البشر وكانوا بشرا مثلهم فاذا سالوهم فلابد ان يخبروهم ان الرسل
الذين ارسلوا اليهم كانوا بشرا فاذا اخبروهم بذلك فربما تركت هذه
الشبهة وقال ابن عباس يريد اهل التوراة والدليل عليه قوله تعالى
ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر يعني التوراة والذكر هو التوراة وقال
الزجاج معناه اسئلوا كل من يذكر بعلم وتحقيق ولما كان عندهم احسن
من ذلك سماع اخبار الامم نبههم اشار اليه بقوله ان كنتم اي جبلة وطبعا
لا تعلمون ذلك فانهم يعلمونه وانتم الى التصديق بهم اقرب من تصديق
المومنين بمحمد صلى الله عليه وسلم بالبينات متعلق بمحذوف اي ارسلناهم
بالحجج الواضحة وقيل التقدير ان كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر اي الكتب
فاسئلوا اهل الذكر وقيل انه متعلق بمحذوف وجوبا لسوال مقدر
كانه قيل بم ارسلوا قيل ارسلوا بالبينات والزبر وقوله تعالى وانزلنا

اليك الذكر خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والذكر هو القران وانما سمي
ذكرا لانه موعظة وتذكير لتبين للناس كافة اي اعطاك الله تعالى من
الفهم الذي فقت فيه جميع الخلق واللسان الذي هو اعظم الالسنة وافصحها
وقدا وصلك الله تعالى فيه الى رتبة لم يصل اليها احد ما نزل اي ما وقع
بتنزيله اليهم من هذا الشرع المودي الى سعادة الدارين بتبيين المجمل
وشرح ما اشكل من علم اصول الدين الذي راسه التوحيد ومن البعث وغيره
فان القران فيه محكم وفيه متشابه فالمحكم يجب ان يكون مبينا والمتشابه
هو المجمل فيطلب بيانه من السنة ولعلهم يتفكرون فيما انزل اليهم اذا نظروا
اساليبه في الفايقة ومعانيه العالية الرايقة فيعتبرون فان قيل
ان هذه الاية تدل على ان المبين لكل التكاليف والاحكام هو النبي صلى الله
عليه وسلم فالقياس ليس بحجة اجيب بانه صلى الله عليه وسلم لما بين
ان القياس حجة فمن رجع الى تبيين الاحكام والتكاليف الى القياس كان ذلك
في الحقيقة رجوعا الى بيان النبي صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى افامن
الذين مكروا السيئات فيه اضمار تقديره المكرات السيئات وهم كفار
قريش مكروا بالنبي صلى الله عليه وسلم واصحابه وبالقران في اذيتهم والمكر
عبارة عن السعي بالفساد على سبيل الاخفاء انه تعالى ذكر في تهديدهم
اربعة امور الاول قوله تعالى ان يخسف الله بهم الارض كما خسف بقارون
واصحابه فاذا هم في بطنها لا يقدرون على نوع تقلب بمتابعة ولا غيرها
الثاني قوله تعالى او ياتيهم العذاب على غير تلك الحال من حيث لا يشعرون
به فياتيهم بغتة فيهلكهم كما فعل بقوم لوط عليه السلام الثالث قوله
تعالى او ياخذهم اي الله بعذابه في حالة تقلبهم ومتاجرهم
حاضرة وقواهم مستجمعة وفي تفسير هذا التقلب وجوه اولها انه تعالى
ياخذهم بالعقوبة في اسفارهم وانه تعالى قادر على اهلاكهم في السفر كما
انه قادر على اهلاكهم في الحضر فما هم بمعجزين اي بفايتين العذاب
بسبب ضربهم في البلاد البعيدة بل يدركهم الله تعالى حيث كانوا ثانيها
انه تعالى ياخذهم بالليل والنهار وفي حال اقبالهم وادبارهم وذهابهم
ومجيئهم وثالثها ان الله تعالى ياخذهم في حال ما يتقلبون في قضايا افكارهم
فيحول الله بينهم وبين اتمام تلك الحيل وحمل لفظ التقلب على هذا المعنى
ماخوذ من قوله تعالى وقلبوا لك الامور فانهم اذا قلبوها فقد تقلبوا فيها
الامر الرابع قوله تعالى او ياخذهم على تخوف وفي تفسير التخوف قولان
الاول التخوف تفعل من الخوف يقال خفت الشي وتخوفته والمعنى انه
تعالى لا ياخذهم بالعذاب اولا بل يخوفهم اولا ثم يعذبهم بعد ذلك وتلك
الاضافة هو انه تعالى يهلك قرية فتخاف التي تليها فياتيهم العذاب

والثاني التخوف بمعنى التنقص اي انه تعالى ينقص شيئا بعد شيء في انفسهم واموالهم حتى يهلكوا من تخوفته اذا تنقصته روي ان عمر رضي الله تعالى عنه قال على المنبر ما تقولون في هذه الاية فسكتوا فقال شيخ من هذيل هذه لغتنا التخوف التنقص فقال عمر هل تعرف العرب ذلك في اشعارها قال نعم قال شاعرنا ابو كبير تخوف اي تنقص الرحل اي رحل ناقته منها تامكا اي سناما قردا اي متراكما او مرتفعا وهو يكون الراكما تخوف عود النبعة السفن والنبعة بالضم واحدة النبع وهي شجر يتخذ منه السفن والسفن بفتح السين والفاء ما ينحت به الشيء وهو فاعل تخوف ومفعوله عود فقال عمر عليكم بديوانكم قالوا وما ديواننا قال شعر الجاهلية فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم ومعنى البيت ان رحل ناقته ينقص تمكها المتراكم والمرتفع كما ينقص السفن عود النبعة **فان ربكم** اي المحسن اليكم باهلاك من يريد وابقاء من يريد وقوله تعالى **لرؤف** قرا ابو عمرو وشعبة وحمزة والكسائي بقصر الهمزة والباقون بالمد ومعناه بليغ الرحمة لمن يتوسل اليه بنوع وسيلة وكذا من قاطعه اتم مقاطعة واليه اشار تعالى بقوله تعالى **رحيم** اي حيث لم يعاجلهم بالعذاب ولما خوف سبحانه وتعالى المشركين بالانواع الاربعة المذكورة من العذاب اراد ان يذكر ما يدل على كمال قدرته في تدبير احوال العالم العلوي والسفلي وتدبير ارواح احوال الارواح والاجسام ليظهر لهم ان مع كمال هذه القدرة القاهرة والقوة الغير المتناهية لا يعجز عن ايصال العذاب لاليم اليهم على احد تلك الاجسام الاربعة بقوله تعالى **اولم يروا الى ما خلق الله من شيء** اي من الاجرام التي لها ظل كشجر وجبل **يتفيؤ** تتميل **ظلاله عن اليمين والشمايل** جمع شمال اي عن جانبي كل واحد منهما وشقيه استعارة من يمين الانسان وشماله بجانبي الشيء اي ترجع الظلال من جانب الى جانب منقادة لله غير ممتنعة عليه فيما سخرها له وقال قتادة والضحاك اما اليمين فاول النهار واما الشمايل فاخره لان الشمس وقت طلوعها الى وقت انتهائها الى وسط الفلك تقع الاظلال الى الجانب الغربي فاذا انحدرت الشمس من وسط الفلك الى الجانب الغربي وقع الظلال في الجانب الشرقي والاظلال في اول النهار يبتدي من يمين الفلك على الربع الغربي من الارض ومن وقت انحدار الشمس من وسط الفلك يبتدي من شمال الفلك واقعة على الربع الشرقي من الارض فان قيل ما السبب في ذكر اليمين بلفظ الواحد والشمايل بصيغة الجمع اجيب باشيا انه وحد اليمين والمراد الجمع ولكنه اقتصر في اللفظ

سامها

على الواحد كقوله تعالى ويولون الدبر الثاني قال الفراء كانه اذا وحد ذهب الى واحد من ذوات الاظلال واذا جمع ذهب الى كلها وذلك لان قوله الى ما خلق الله من شيء لفظه واحد ومعناه الجمع على ما مر فيحتمل كلا الامرين الثالث ان العرب اذا ذكرت صيغتي الجمع عبرت عن احدهما بلفظ الواحد كقوله تعالى وجعل الظلمات والنور وقوله تعالى ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم تنبيه الهمزة للاستفهام والواو استفهام انكاري قدروا امثال هذه الصنايع فما بالهم ان يتفكروا فيه ليظهر لهم كمال قدرته وقهره فيخافوا منه وما موصولة مبهمة بمعنى الذي ومن شيء بيان لها فان قيل كيف الموصول وهو مبهم بشيء وهو مبهم بل ابهم بما قبله اجيب بان شيئا قد اتضح وظهر بوصفه بالجملة بعده وهو يتفيؤ ظلاله وقيل الجملة بيان لها وقوله تعالى **سجدا لله** حال من الظلال جمع ساجد كشاهد وشهد وراكع وركع واختلف في المراد من السجود على قولين احدهما ان المراد منه الاستسلام والانقياد يقال سجد البعير اذا طاطا راسه ليركب وسجدت النخلة اذا مالت لكثرة الحمل ويقال اسجد للقرد في زمانه اي اخضع له وقال الشاعر ترى الاكم فيها سجدا للحوافر اي متواضعة والثاني ان هذه الاظلال واقعة على الارض ملتصقة بها على هيئة الساجد فلما كانت الاظلال يشبه شكلها شكل الساجدين اطلق الله تعالى عليها هذا اللفظ وكان الحسن يقول اما ظلك فيسجد لربك واما انت فلا تسجد لربك بئس ما صنعت وعن مجاهد ظل الكافر يصلي وهو لا يصلي وقيل ظل كل شيء يسجد لله سواء كان ذلك ساجدا ام لا قال الرازي والاول اقرب الى الحقايق العقلية والاول اقرب الى الحقايق والثاني اقرب الى الشبهات الظاهرة وقوله تعالى **وهم داخرون** اي صاغرون حال ايضا من الظلال فينتصب عنه حالان وقيل من الضمير المستتر في سجدا فهي حال متداخلة فان قيل الظلال ليست من العقلاء فكيف جاز جمعها بالواو والنون اجيب بانه تعالى لما وصفها بالطاعة والدخول اشبهت العقلاء او ان في جملة ذلك من يعقل فغلب ولما حكم على الظلال بما يعم اصحابها من جماد وحيوان وكان الحيوان اشرف من الجماد رقي الحكم اليه بخصوصه فقال **ولله يسجد ما في السموات وما في الارض** وقوله تعالى **من دابة** يجوز ان يكون بيانا لما في السموات وما في الارض جميعا على ان في السموات خلقا لله يدبون فيها كما يدب الاناسي في الارض وان يكون بيانا لما في الارض ويراد بما في السموات الملائكة وكرر ذكرهم بقوله تعالى **والملائكة** خصوصا من بين الساجدين لانهم اطوع الخلق واعبدهم ويجوز ان يراد بما في السموات ملائكتهن وبقوله تعالى والملائكة ملائكة الارض من الحفظة وغيرهم فان قيل سجود المكلفين مما تضمنه هذا الكلام خلاف سجود غيرهم فكيف عبر عن النوعين بلفظ واحد اجيب بان المراد بسجود المكلفين طاعتهم وعبادتهم وبسجود غيرهم

لارادة
انقياده لله تعالى وانها غير ممتنعة عليها وكلا السجودين يجمعهما معنى الانقياد
فلم يختلفا فلذلك جاز ان يعبر عنهما بلفظ واحد فان قيل هلا جيء بمن دون
ما تغليبا للعقلاء من الدواب على غيرهم اجيب بانه لو جيء بمن لم يكن فيه دليل
على التغليب فكان متناولا للعقلاء خاصة فجيء بما هو صالح للعقلاء وغيرهم
ارادة للعموم وهم اي الملائكة لا يستكبرون على عبادته ثم علل تخصيصهم
بقوله تعالى دلالة على انهم كغيرهم في الوقوف بين الخوف والرجا يخافون ربهم
اي الموجد لهم المدبر لامورهم المحسن اليهم خوفا مبتدا من فوقهم اي علو
الخوف عليهم وغلبته لهم او ان يرسل عليهم عذابا من فوقهم ويخافون
وهو فوقهم بالقهر كقوله تعالى وهو القاهر فوق عباده وقوله تعالى وانا
فوقهم قاهرون والجملة حال من الضمير في لا يستكبرون وبيان له او تقرير
لان من خاف الله لا يستكبر عن عبادته ويفعلون ما يؤمرون اي من
الطاعة والتدبير وفي ذلك دليل على ان الملائكة مكلفون مدارون على
الامر والنهي والوعد والوعيد كسائر المكلفين وانهم بين الخوف
والرجا كما مرت الاشارة اليه وانهم معصومون من الذنوب لان قوله
تعالى وهم لا يستكبرون يدل على انهم منقادون لخالقهم وانهم ما خالفوا
في امر من الامور كما قال تعالى لا يسبقونه بالقول وهم بامره يعملون ولما
بين تعالى ان كل ما سوى الله تعالى سوا كان من عالم الارواح ام من عالم الاجسام
فهو منقاد خاضع لجلال الله تعالى وكبريائه اتبعه بالنهي عن الشرك وبالامر
بان كل ما سواه فهو ملكه وملكه وانه غني عن الكل بقوله تعالى وقال الله
فعبر لاجل تعظيم المقام بالاسم الاعظم الخاص لا تتخذوا اي لا تكلفوا
فطركم الاولى السليمة المجبولة على معرفة ان الاله واحد الى ان تاخذ
في اعتقادها الهين اثنين فان قيل انما جمعوا بين العدد والمعدود
فيما ورا الواحد والاثنين فقالوا عندي رجال ثلاثة وافراس اربعة
لان المعدود عار عن الدلالة على العدد الخاص فاما رجل ورجلان وفرس
وفرسان فمعدودان فيهما دلالة على العدد فلا حاجة الى ان يقال
رجل واحد ورجلان اثنان فما وجه قوله تعالى الهين اثنين اجيب
باجوبة اولها قال الرازي وهو الاقرب عندي ان الشي اذا كان
مستنكرا مستقبحا فمن اراد المبالغة في التنفير عنه عبر عنه بعبارات
كثيرة ليصير توالي تلك العبارات سببا لوقوف العقل على ما فيه من القبح
القبح والقول بوجود الهين مستقبح في العقول فان احدا من العقلا
لم يقل بوجود الهين اثنين متساويين في الوجود والقدم وصفات
الكمال فالمقصود من تكرير اثنين تاكيدا للتنفير عنه وتوقيفا للعقل
العقل على ما فيه من القبح الثاني ان قوله الهين لفظ واحد يدل على امرين

ثبوت الاله وثبوت التعدد فقط الثالث في الاية تقديم وتاخير والتقدير لا تتخذوا
اثنين الهين الرابع ان الاسم الحامل لمعنى الافراد والتثنية دال على شيئين على
الجنسية والعدد المذكور المخصوص فاذا اريدت الدلالة على ان المعني به
منهما والذي يساق اليه الحديث هو العدد شفع بما يؤكده فدل به على القصد اليه
والعناية به الا ترى انك لو قلت انما هو اله ولم تؤكده بواحد لم يحسن وخيل
انك تثبت الالوهية لا الوحدانية ثم علل تعالى ذلك النهي بما اقتضاه السياق
من الوحدانية فقال انما هو اي الاله المفهوم من لفظ الهين الذي لا يستحق
غيره ان يطلق عليه هذا الضمير الا مجازا لانه لا يطلق اطلاقا حقيقيا الا
على وجوده من ذاته اله اي مستحق هذا الوصف على الاطلاق واحد
لا يمكن ان يثنى بوجه ولا ان يجبر لغنائه المطلق عن كل شي واحتياج
كل شي اليه ولما دلت الدلايل على انه قد ثبت لابد للعالم من اله وثبت ان القول
بوجود الهين محال وثبت انه لا اله الا الواحد الاحد الفرد الصمد قال
بعده فاياي فارهبون اي خافوني دون غيري والرهبة مخافة مع حزن
واضطراب وانما نقل الكلام من الغيبة الى خطاب الحضور وهو من
طريقة الالتفات لانه ابلغ في الترهيب من قوله فاياه فارهبون ومن ان يجي
ما قبله على لفظ المتكلم ولما ثبت بالدليل الصحيح والبرهان الواضح ان اله
العالم لا شريك له في الالهية يوجب ان يكون جميع المخلوقات عبيده وفي
ملكه وتصرفه وتحت قهره وذلك قوله تعالى وله اي لله واعاد الضمير
في قوله ان الله الاسم العلم الجامع لجميع الاسما الحسنى ما في السموات
والارض اي ما نعبده ونه وغيره فكيف يتصور ان يكون شي من ذلك الها وهو
ملكه مع كونه محتاجا الى الزمان والمكان وغيرهما وله الدين اي الطاعة وقوله
تعالى واصبا اي دائما حال من الدين والعامل فيه ما في الظرف من معنى
الفعل قال ابن قتيبة ليس من احد يدان له ويطاع الا انقطع ذلك
السبب في حال الحياة او بالموت الا الحق سبحانه وتعالى فاطاعته واجبة
ابدا وقوله تعالى افغير الله اي الذي له العظمة كلها تتقون استفهام
انكاري والمعنى انكم بعد ما عرفتم ان اله العالم واحد وعرفتم ان كل ما سواه
محتاج اليه في وقت دوامه وبقائه فبعد العلم بذلك كيف يعقل ان يكون
للانسان رغبة في غير الله او رهبة من غير الله ولما بين تعالى ان الواجب
على العاقل ان لا يتقي غير الله بين انه يجب عليه ان لا يشكر احدا الا الله تعالى
بقوله تعالى وما بكم من نعمة اي من نعمة الاسلام وصحة الابدان وسعة في الارزاق
وكل ما اعطاكم من مال وولد او جاه فمن الله هو المتفضل على عباده فيجب
عليكم شكره على جميع انعامه لان الشكر انما يجب على النعمة فثبت بهذا ان العاقل
يجب عليه ان لا يخاف وان لا يشكر الا الله تنبيه احتج اصحابنا بهذه

قل

فان قيل لا تتخذوا الهين ما فائدة لفظ اثنين ... (marginal note, partly illegible)

الاية على ان الايمان حصل بخلق الله فقالوا الايمان نعمة وكل نعمة فمن الله ينتج ان الايمان من الله وايضا النعمة عبارة عن كل ما يكون منتفعا به واعظم الاشياء في النفع هو الايمان فثبت ان الايمان نعمة والمسلمون مطبقون على قولهم الحمد لله على نعمة الايمان والنعم اما دينية واما دنيوية اما النعم الدينية فهي اما معرفة الحق لذاته واما معرفة الخير لاجل العمل به والنعمة الدنيوية اما نفسانية واما بدنية واما خارجية وكل واحد من هذه الثلاثة جنس تحته انواع خارجة عن الحصر كما قال تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها وقد مرت الاشارة الى ذلك عند ذكر هذه الاية ولما كان اخلاصهم له مع ادعائهم الوهية غيره امرا مستبعدا عبر باداة التراخي والبعد في قوله تعالى ثم اذا مسكم اي اصابكم ادنى مس الضر بزوال نعمة مما انعمت عليكم وقال ابن عباس يريد الاسقام والامراض والحاجة فاليه لا الى غيره تجأرون اي ترفعون اصواتكم بالاستغاثة لما ذكر في فطرتكم الاولية السليمة بانه لا ملجأ ولا منجا منه الا اليه ثم اذا كشف سبحانه وتعالى الضر اي الذي مسكم عنكم ونبه على مسارعة الانسان في الكفران فقال اذا فريق اي جماعة هم اهل فرقة وضلال منكم اي ايها العباد بربهم الذي تفرد بالانعام عليهم يشركون اي يوقعون الاشراك بعبادة غيره ليكفروا بما آتيناهم اي من النعم تنبيه في هذه الاية وجهان الاول انها لام كي فيكون المعنى على هذه انهم انما اشركوا بالله ليجحدوا نعمه عليهم في كشف الضر الثاني انها لام العاقبة كما في قوله تعالى فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا والمعنى عاقبة امرهم هو كفرهم بما آتيناهم من النعماء وكشفنا عنهم الضر والبلاء ثم انه تعالى وعدهم بعد ذلك بقوله تعالى فتمتعوا اي باجتماعكم على عبادة الاصنام وهذا لفظ امر والمراد منه التهديد كقوله تعالى قل آمنوا به او لا تؤمنوا وقوله تعالى فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر فسوف تعلمون عاقبة امركم وما ينزل بكم من العذاب ولما بين تعالى بالدلائل القاهرة فساد قول اهل الشرك والتشبيه شرح تفاصيل اقوالهم وبين فسادها بانواع الاول قوله تعالى ويجعلون اي المشركون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم من الحرث والانعام بقولهم هذا لله وهذا لشركائنا تنبيه الضمير في قوله تعالى لما لا يعلمون عائد على الاصنام لا تعلم شيئا البتة لانها جماد والجماد لا علم له وقيل عائد الى المشركين ومعنى لا يعلمونها انهم لا يعلمون انها آلهة فيعتقدون فيها جهالات مثل انها تنفعهم وتشفع لهم وليس الامر كذلك ثم اقسم سبحانه وتعالى بنفسه على نفسه انه يسألهم يوم القيمة بقوله تعالى

تالله

تالله لتسئلن سؤال توبيخ وفيه التفات من الغيبة الى الحضور وهو من بديع الكلام وبليغه عما كنتم تفترون على الله من انه امركم بذلك تنبيه في وقت السؤال احتمالان الاول انه يقع عند القرب من الموت الثاني انه يقع في الآخرة قال الرازي وهذا اولى النوع الثاني قوله تعالى ويجعلون لله البنات ونظيره قوله تعالى وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا كانت خزاعة وكنانة يقولون الملائكة بنات الله قال الرازي اظن ان العرب انما اطلقوا لفظ البنات على الملائكة لاستتارهم عن العيون فاشبهوا النساء في الاستتار فاطلقوا عليهم البنات قال ابن عادل وهذا الذي ظنه ليس بشيء فان الجن ايضا مستترون عن العيون ولم يطلقوا عليهم لفظ البنات ولما حكى الله تعالى عنهم هذا القول قال تعالى سبحانه وفيه وجهان الاول ان يكون المراد تنزيه ذاته عن نسبة الولد اليه الثاني تعجب الخلق من هذا الامر والجهل الصريح وهو وصف الملائكة بالانوثة ثم نسبتها بالولدية الى الله تعالى وقيل في التفسير معناه معاذ الله وذلك مقارب للوجه الاول ولما ذكر الله تعالى ما جعلوا له مع الغنا المطلق بين ما نسبوا لانفسهم مع لزوم الحاجة والضعف بقوله تعالى ولهم ما يشتهون من البنين وقد يكونون اعدا اعدائهم ثم انه تعالى ذكر ان الواحد من هؤلاء المشركين لا يرضى بالولد البنت لنفسه كيف يثبته لله تعالى فقال واذا بشر احدهم بالانثى اي اخبر بولادتها ظل وجهه اي صار ودام النهار كله مسودا من الكآبة والحياء من الناس واسوداد الوجه كناية عن الاغتمام والتخجيل كما ان بياض الوجه واشراقه كناية عن الفرح والسرور وهو كظيم اي مملوء غيظا على المراة ولا ذنب لها بوجه والبشارة في اصل اللغة الخبر الذي يغير البشرة من حزن او سرور ثم خص في عرف اللغة بالسرور ولا يكون بالخبر الاول فالمراد بالبشارة هنا الاخبار كما مر وقول الرازي ان اطلاقه على الخير والشر داخل في التحقيق خلاف المشهور يتوارى اي يختفي من القوم اي من الرجال الذي هو فيهم من سوء ما بشر به خوفا من التعيير وذلك ان العرب كانوا في الجاهلية اذا قرب ولادة زوجة احدهم توارى عن القوم الى ان يعلم ما ولد له فان ولد له ولد ابتهج وبشر بذلك وظهر وان كانت انثى حزن ولم يظهر اياما مترددا ماذا يفعل بذلك الولد ايمسكه اي يتركه بغير قتل على هون هوان وذل ام يدسه في التراب وذكر الضمير في يمسكه ويدسه نظرا للفظ الولد او لكون الانثى ولدا كما علم مما مر قال ابن ميلق قال المفسرون كانت المراة اذا ادركها المخاض احتفرت حفرة وجلست فيها على شفيرها فان وضعت ذكرا اظهرته وظهر السرور على الوالد وان وضعت انثى استاذنت مستولدها فان شاء امسكها على هون وان شاء امرها بالقائها في الحفرة وردت التراب عليها وهي حية لتموت اهـ وعن قيس بن عاصم انه قال

يارسول الله اني وادت ثمان بنات في الجاهلية فقال له صلى الله عليه وسلم اعتق عن
كل واحدة منهن رقبة فقال يا نبي الله اني ذو ابل قال اهد عن كل واحدة
منهن هديا وروي ان رجلا قال يارسول الله والذي بعثك بالحق ما اجد حلاوة
الاسلام مذ قد اسلمت فقد كانت لي في الجاهلية ابنة فامرت امرأتي ان تزينها
فاخرجتها فلما انتهيت الى واد فيه بئر بعيد القعر القيتها فيها فقالت يا ابت قتلتني
فكلما ذكرت قولها لم ينفعني شيء فقال صلى الله عليه وسلم ما كان في الجاهلية فقد
هدمه الاسلام وما في الاسلام يهدمه الاستغفار وكانوا في الجاهلية مختلفين
في قتل البنات فمنهم من يحفر الحفرة ويدفنها فيها الى ان تموت ومنهم من يرميها
من شاهق جبل ومنهم من يغرقها ومنهم من يذبحها وكانوا يفعلون ذلك
تارة للغيرة والحمية خوفا من ان يطمع فيهن غير الاكفاء وتارة خوفا من الفقر وكثرة
العيال ولزوم النفقة وكان الذي منهم يريد ان يحيي ابنته تركها حتى تكبر
ثم يلبسها جبة من صوف او شعر ويجعلها ترعى الابل والغنم في البادية قال الله
تعالى الا ساء اي بئس ما يحكمون حكمهم هذا وذلك لانهم بلغوا في الاستنكاف
من البنت الى اعظم الغايات فاولها انه يسود وجهه وثانيها انه يختفي من القوم
من شدة نفرته عن البنت وثالثها ان الولد محبوب بحسب الطبيعة ثم انه
بسبب نفرته عنها يقدم على قتلها وذلك يدل على ان النفرة عن البنت والاستنكاف
عنها قد بلغ مبلغا لا يزاد عليه فكيف يليق بالعاقل ان يثبت ذلك لاله
عالم المقدس العالي عن مشابهة جميع المخلوقات ونظير هذه الاية قوله
تعالى الكم الذكر وله الانثى تلك اذا قسمة ضيزى ثم قال تعالى للذين
لا يؤمنون بالاخرة وهم الكفار مثل السوء اي الصفة بمعنى القبيحة
وهي قتلهم البنات مع احتياجهم اليهن للنكاح ولله المثل الاعلى اي الصفة
العليا وهو انه لا اله الا هو وانه له جميع صفات الجلال والكمال من العلم
والقدرة والبقاء السرمدي وغير ذلك من الصفات التي وصف الله بها نفسه
وقال ابن عباس مثل السوء النار والمثل الاعلى شهادة ان لا اله الا الله فان
قيل كيف جاء المثل الاعلى مع قوله فلا تضربوا لله الامثال
اجيب بان المثل الذي يضرب به الله تعالى حق وصدق والذي يذكر بغيره باطل
وهو العزيز الذي لا يمتنع عليه شيء فلا نظير له الحكيم الذي لا يوقع
شيئا الا في محله ولما حكى الله تعالى عن القوم عظيم كفرهم وقبيح قولهم بين
انه يمهل هؤلاء الكفار ولا يعاجلهم بالعقوبة اظهارا للفضل والرحمة والكرم
بقوله تعالى ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم اي بسبب كفرهم ومعاصيهم
ما ترك عليها اي على الارض وانما اضمر ذكرها من غير ذكر لدلالة الناس اذ في
الدابة عليها من دابة اي ان الله تعالى لو اخذ الناس بظلمهم لاهلك جميع الدواب
التي على وجه الارض فان قيل اسم الناس جنس يشمل الكل فيدخل في ذلك الانبياء

بيان اصنهم ج

فيدل

فيدل على عدم عصمتهم اجيب بان ذلك عام مخصوص بقوله تعالى ثم اورثنا الكتاب
الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق
بالخيرات باذن الله فالمذكور في هذه الاية اما كل العصاة المستحقين للعقاب
او الذين تقدم ذكرهم من المشركين من الذين اثبتوا لله البنات او جميع الكفار
بدليل قوله تعالى ان شر الدواب عند الله الذين كفروا وقال قتادة قد فعل الله
تعالى ذلك في زمن نوح عليه السلام فاهلك جميع الدواب التي على وجه الارض الا
من كان في السفينة مع نوح عليه السلام روي ان ابا هريرة رضي الله عنه سمع رجلا
يقول ان الظالم لا يضر الا نفسه فقال بئس ما قلت ان الحبارى تموت هزلا من
ظلم الظالم وقال ابن مسعود ان الجعل يعذب في جحرها بذنب ابن ادم والجعل
بضم الجيم وفتح العين دويبة قاله الجوهري وقيل في معنى الاية ولو يؤاخذ
الله الاباء الظالمين بسبب ظلمهم لانقطع النسل ولو يؤاخذ الابناء ولم
يبق في الارض احدا ولكن يؤخرهم اي يمهلهم بفضله وكرمه وحلمه
الى اجل مسمى اي الى انتهاء اجالهم وانقضاء اعمارهم فاذا جاء اجلهم
لا يستأخرون ساعة عنه ولا يستقدمون اي لا يتأخرون
ساعة من الاجل الذي جعله الله تعالى لهم ولا ينقصون منه تنبيه هاهنا
همزتان مفتوحتان من كلمتين فقرأ قالون والبزي وابو عمرو باسقاط احدى
الهمزتين مع المد والقصر وقرأ ورش وقنبل بتسهيل الثانية وابدالها حرف مد
والباقون بتحقيق الهمزتين النوع الثالث من الاقاويل الفاسدة الذي كان يذكرها
الكفار وحكاها الله تعالى عنهم بقوله ويجعلون لله ما يكرهون لانفسهم
من البنات واراذل الاموال والشركاء في الرياسة ثم وصف الله جراءتهم مع ذلك
بقوله تعالى وتصف اي تقول السنتهم اي مع ذلك مع انه قول لا ينبغي
ان يتخيله عاقل ثم بينه بقوله تعالى الكذب ان لهم الحسنى اي عند الله اي
الجنة كقوله تعالى ولئن رجعت الى ربي ان لي عنده للحسنى ولا جهل اعظم ولا
حكم اسوأ من ان يقطع بان يجعل له ما يكره ان يجعل لك ما تحب فكانه قيل
ما لهم عنده حسنى فقيل لا جرم اي لا ظن ولا تردد في ان لهم النار
اي هي جزاء الظالمين وقيل لا جرم بمعنى حقا وانهم مفرطون اي متروكون
فيها او مقدمون اليها وقرأ نافع بكسر الراء اي متجاوزون الحد والباقون
بالفتح فان قيل انهم لم يقروا بالبعث فكيف يقولون ان لنا الحسنى عند الله
اجيب بانهم قالوا ان كان محمد صادقا في البعث بعد الموت وان لنا الجنة وانه قيل
كان في العرب جمع يقرون بالبعث والقيامة وانهم كانوا يربطون البعير النفيس
على قبر الميت ويتركونه الى ان يموت ويقولون ان ذلك الميت اذا حشر فانه
يحشر معه مركوبه ثم بين تعالى مثل هذا الصنيع الذي يصدر من مشركي
قريش قد صدر من الامم السابقين في حق الانبياء المتقدمين بقوله تعالى

تالله اي الملك الاعلى لقد ارسلنا اي بمالنا من القدرة رسلا من الماضين
الى امم من قبلك كما ارسلناك الى هولاء فزين لهم الشيطان اي المحترق
بالغضب المطرود باللعنة اعمالهم الخبيثة من الكفر والتكذيب كما زين
لهولاء فقتلوا الاصلوا اعمالكم ولهذا يجري مجرى التسلية للنبي صلى الله
عليه وسلم فيما كان ينا له من الغم بسبب جهالات القوم والمزين في
الحقيقة هو الله تعالى هذا مذهب اهل السنة وانما جعل الشيطان اله
بالالقا للوسوسة في قلوبهم وليس له قدرة على ان يضل احدا ويهدي
احدا وانما له الوسوسة فقط فمن اراد الله شقاوته سلطه الله عليه حتى
يقبل وسوسته فهو وليهم اليوم اي في الدنيا وعبر في اليوم عن زمانها
اي فهو وليهم حين كان يزين لهم او يوم القيمة على انه حكاية حال ماضية
او آتية اي لا ولي لهم غيره وهو عاجز عن نصر نفسه فكيف ينصرهم
وقيل الضمير لقريش اي زين الشيطان للكفرة المتقدمين اعمالهم وهو ولي
هولاء القوم يغريهم ويغويهم وقيل يجوز ان يقدر مضاف اي فهو ولي
امثالهم والولي القرين والناصر فيكون نفيا للناصر لهم على ابلغ الوجوه ولهم
عذاب اليم اي مولم في الاخرة ثم ذكر تعالى انه مع هذا الوعيد الشديد
قد اقام الحجة وازاح العلة بقوله تعالى وما انزلنا اي بما لنا من العظمة
من جهة العلو عليك يا اشرف المرسلين الكتاب اي القران الا لتبين
لهم اي للناس الذي اختلفوا فيه من امر الدين مثل التوحيد والشرك
واثبات المعاد ونفيه فانه كان فيهم من ينكر البعث ومنهم من يومن
به ومنهم عبد المطلب ومثل تحريم الحلال كالبحيرة والسائبة
وتحليلهم اشيا محرمة كالميتة فان قيل اللام في لتبين لهم تدل على
افعال الله تعالى معللة بالاغراض كقوله تعالى كتاب انزلناه
اليك لتخرج الناس وقوله وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون
اجيب بانه لما ثبت بالعقل امتناع التعليل وجب صرفه الى التاويل
وقوله تعالى وهدى ورحمة اي واكراما بمجيئه معطوفان على محل
لتبين الا انهما انتصبا على انهما مفعول لهما فعلا الذي انزل الكتاب
ودخلت اللام على لتبين لانه فعل المخاطب لا فعل المنزل وانما ينتصب
مفعولا له ما كان فعل فاعل الفعل المعلل ولما كان ذلك دعا شملهم
وهو على ضلالهم نفاه بقوله تعالى لقوم يومنون ونظيره قوله تعالى
في اول البقرة هدى للمتقين وانما خص المومنين بالذكر من حيث انهم
قبلوه وانتفعوا به كما في قوله تعالى انما انت منذر من يخشاها
لانه انما انتفع بانذاره هذا القوم فقط ولما انقضى الدليل على ان قلوبهم
منكرة استكبارا وما يتعلق به وختمه بما احيا به القلوب في الايمان

والعلم

والعلم بعد موتها بالكفر والجهل وكان المقصود الاعظم من القران تقدم اصول
اربعة الالهيات والنبوات والمعاد واثبات القضا والقدرة والفعل بالاختيار
وكان اجل هذه المقاصد الالهيات شرع في ذكر الوحدانية والقدرة والفعل
بالاختيار المستلزم للقدرة على البعث على وجه غير المتقدم ليعلم ان ادلة
ذلك اكثر من اوراق الاشجار واجلى من ضيا الانهار فعطف على قوله والله
يعلم ما تسرون وما تعلنون قوله جامعا في الدليل بين العالم العلوي
والعالم السفلي والله اي الذي له الامر كله انزل من السماء في الوقت الذي
يريده ماء بالمطر والثلج والبرد فاحيا به اي بذلك الماء الارض بانواع
النبات بعد موتها اي يبسها ان في ذلك المذكور لاية اي دلالة
واضحة على كمال قدرته تعالى لقوم يسمعون اي اسماع تدبر وانصاف
ونظر لان سماع القلوب هو النافع لا سماع الاذان فمن سمع ايات القران
بقلبه وتدبرها وتفكر فيها انتفع ومن لم يسمع بقلبه فكانه اصم لم يسمع
فلم ينتفع بالايات ومن الدلايل المذكورة في هذه الاية الاستدلال بعجايب
احوال الحيوانات وهو قوله وان لكم في الانعام لعبرة اي اعتبار اذا تفكرتم
فيها وعرفتم كمال قدرتنا وقوله تعالى نسقيكم مما في بطونه استيناف
بيان العبرة وانما ذكر الضمير لان لفظ الانعام مفرد وضع لافادة الجمع كالرهط
والقوم ولا من اللبس والدلالة على قوة المعنى لكونها سورة النعم وانثه
في سورة المومنون للمعنى فان الانعام اسم جمع ولذلك عده سيبويه
في باب ما لا ينصرف في الاسما المفردة الواردة على افعال كقولهم ثوب اكياش
بياء تحتية وشين معجمة ضرب من الثياب يغزل مرتين ومن قال انه جمع نعم
جعل الضمير للبعض فان اللبن لبعضها دون جميعها وقرا نافع وابن عامر
وشعبة بفتح النون تقول سقيته حتى روي قال تعالى وسقاهم ربهم
شرابا طهورا والباقون بضمها من قولك اسقاه اذا جعل له شرابا كقوله
تعالى واسقيناكم ماء فراتا ولما كان في موضع العبرة تخلص اللبن من عكره
قدم قوله تعالى من بين فرث وهو الثفل الذي ينزل الى الكرش فاذا خرج
منها لم يسم فرثا ودم لبنا خالصا اي صافيا خلقه الله وسطا بين
الفرث والدم يكتنفانه وبينه وبينهما برزخ من قدرة لا يبغي عليه احدهما
بلون او رايحة او طعم روي عن ابن عباس رضي الله عنهما اذا اكلت البهيمة
العلف واستقر في كرشها طبخته فكان اسفله فرثا واوسطه لبنا
واعلاه دما والكبد مسلطة على هذه الاصناف الثلاثة تقسمها
فيجري الدم في العروق واللبن في الضرع ويبقى الفرث في الكرش فسبحان
الله ما اعظم قدرته والطف حكمته لمن تفكر وتامل وسيل شقيق عن
الاخلاص فقال تمييز العمل من العيوب كتمييز اللبن من بين فرث ودم

سايغا للشاربين اي سهل المرور في الحلق وقيل لم يغص احد باللبن قط
تنبيه قال اهل التحقيق اعتبار حدوث اللبن كما يدل على وجود الصانع
المختار فكذلك يدل على امكان الحشر والنشر وذلك لان هذا العشب
الذي ياكله الحيوان انما يتولد من الماء والارض فخالق العالم دبر تدبيرا آخر تنقلب
ذلك الدم لبنا ثم دبر تدبيرا اخر تنقلب ذلك الدم لبنا ثم دبر تدبيرا اخر حدث من ذلك
اللبن السمن والجبن فهذا الاستقراء يدل على انه تعالى قادر على ان يقلب هذه
الاجسام من صفة الى صفة ومن حالة الى حالة فاذا كان كذلك لم يمتنع ايضا
ان يكون قادرا على ان يقلب اجزاء ابدان الاموات الى صفة الحياة والعقل كما
كانت قبل ذلك فهذا الاعتبار يدل من هذا الوجه على ان البعث والقيامة امر
ممكن غير ممتنع وفي حدوث اللبن في الثدي واتصافه بالصفات التي باعتبارها
يكون موافقا لتغذية الطفل مشتملة على حكم عجيبة يشهد صريح العقل
بانها لا تحصل الا بتدبير الفاعل الحكيم المدبر وبيانه من وجوه الاول
انه تعالى خلق في اسفل المعدة منفذا يخرج ثقل الغذاء فاذا تناول الانسان غذاء
او شربا انطبق ذلك المنفذ انطباقا كليا لا يخرج منه شيء من ذلك الماكول
والمشروب الى ان يكمل انهضامه في المعدة ويجذب ما صفي منه الى الكبد
ويبقى الثفل هناك فحينئذ ينفتح المنفذ وينزل منه ذلك الثفل وهذا
من العجائب الذي لا يمكن حصولها الا بتدبير الفاعل الحكيم لانه متى كانت
الحاجة الى خروج ذلك الجسم عن المعدة انفتح فحصول الانطباق تارة
والانفتاح تارة اخرى بحسب الحاجة وبقدر المنفعة مما ينافي الا بتقدير
الفاعل الحكيم الثاني عند تولد اللبن في الضرع يحدث الله تعالى في حلمته ثقبا
صغيرا ومساما ضيقة وجعلها بحيث اذا اتصل المص والحلب بتلك الحلمة
انفصل اللبن عنها ولما كانت تلك المسام ضيقة جدا كان لا يخرج منها الا
ما كان في غاية الصفا واللطافة واما الاجزاء الكثيفة فانه لا يمكنها الخروج
من تلك المنافذ الضيقة فيبقى في الداخل فالحكمة في احداث تلك الثقب الصغيرة
والمنافذ الضيقة في الداخل في راس حلمة الثدي انها تكون كالمصفاة
فكل ما كان لطيفا خرج وكلما كان كثيفا احتبس في الداخل ولم يخرج فبهذا
الطريق يصير اللبن خالصا موافقا لبدن الطفل سايغا للشاربين
الثالث انه تعالى الهم ذلك الطفل الى المص فان الام كلما القت حلمة الثدي في
فم الطفل فذلك الطفل ~~ياخذ في الحال~~ في ذلك الحال ياخذ في المص ولولا
ان الفاعل المختار الرحيم الهم ذلك الطفل الصغير ذلك العمل المخصوص والا لم
يحصل الانتفاع بتخليق ذلك اللبن في الثدي وقوله تعالى ومن ثمرات النخيل والاعناب
متعلق بمحذوف تقديره ونسقيكم من ثمرات النخيل والاعناب اي من عصيرهما
وحذف لدلالة نسقيكم عليه وقوله تعالى تتخذون منه سكرا بيان وكشف

عن كنه

عن كنه الاسكار قال الواحدي الاعناب عطف على الثمرات لا على النخيل لانه يصير التقدير
ومن ثمرات الاعناب والعنب نفسه وليس له ثمرة اخرى ورزقا حسنا كالتمر
والزبيب والدبس والخل تنبيه في تفسير السكر وجوه الاول هو الخمر سميت
بالمصدر سكر سكرا وسكرا نحو رشد رشدا ورشدا فان قيل الخمر محرمة فكيف
ذكرها الله في معرض الانعام اجيب عن ذلك بوجهين احدهما ان هذه السورة
مكية وتحريم الخمر نزل في سورة المائدة فكان نزول هذه الاية كانت في الوقت
الذي كانت الخمرة غير محرمة وممن قال بنسخها النخعي والشعبي الثاني ان الاية
جامعة بين العتاب والمنة فالعتاب بالنسبة الى السكر والمنة بالنسبة
الى الرزق الحسن الوجه الثاني ان السكر هو النبيذ وهو عصير العنب
والزبيب والتمر فاذا طبخ حتى يذهب ثلثاه ثم يترك حتى يشتد وهو حلال
عند ابي حنيفة رحمه الله تعالى الى حد السكر ويحتج بهذه الاية وبقوله صلى
الله عليه وسلم الخمر حرام لعينها وهذا يقتضي ان يكون السكر شيئا غير
الخمر وكل من اثبت هذه المغايرة قال انه النبيذ المطبوخ والوجه الثالث
ان السكر هو الطعام قاله ابو عبيدة واحتج عليه بقول الشاعر
جعلت اعراض الكرام سكرا اي تنقلت باعراضهم بان جعلتها نقلا
وتناولتها والنقل ما يتنقل على الشراب قال البغوي والاقوى الاقاويل
ان قوله تعالى تتخذون منه سكرا منسوخ اه ويدل قول الحسن ذكر الله
نعمته عليهم في الخمر قبل ان يحرمها عليهم وروي عن ابن عباس قال السكر
ما حرم من ثمرها والرزق الحسن ما احل من ثمرها وروي عنه ايضا السكر
حرام منه والرزق زبيبه وعنبه ومنافعه ثم قال تعالى ان في ذلك
المذكور لآية اي دلالة على قدرته تعالى لقوم يعقلون اي يستعملون
عقولهم بالنظر والتامل في الآيات فيعلمون ان هذه الاحوال لا يقدر
عليها الا الله تعالى فيحتج بوصولها الى وجود الاله القادر الحكيم ولما
بين تعالى ان اخراج الالبان واخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات
النخيل والاعناب دليل قاطع وبرهان ساطع على ان لهذا العالم الها
قادرا مختارا حكيما ذكر ان اخراج العسل الذي جعله الله شفاء للناس
من دابة ضعيفة وهي النحل دليل قاطع وبرهان ساطع على اثبات هذا
المقصود بقوله تعالى واوحى ربك الى النحل وحي الهام قال
الضحاك الهمها ولم يرسل اليها رسولا والمراد من الالهام انه تعالى
قدر في انفسها هذه الاعمال العجيبة التي يعجز عنها العقلاء من
البشر وبيانه من وجوه الاول ما ذكر الله تعالى بقوله تعالى ان اتخذي
اي بان اتخذي ويجوز ان تكون مفسرة لان في الايحاء معنى القول
من الجبال بيوتا تاوين اليها وانما سمي بيت العسل فيه بيتا

٣ راوي م

تشبها بيت الانسان فتبني البيوت المسدسة من اضلاع متساوية
لا يزيد بعضها على بعض بمجرد طباعها والعقلا من البشر لا يمكنهم مثل تلك
البيوت الا بالالات وانظار دقيقة الثاني انه ثبت في الهندسة ان تلك
البيوت لو كانت مشكلة باشكال سوي المسدسات كان كانت مدورة
ومثلثة او مربعة او غير ذلك من الاشكال فانه يبقى بالضرورة فيما بين تلك
البيوت فرج خالية ضايعة فاهتدي تلك الحيوان الضعيف الى هذه الحكمة
الخفية والدقيقة اللطيفة من الاعاجيب الثالث ان النحل يحصل
بينها واحد كالرئيس للبقية وذلك الواحد يكون اعظم جثة من الباقي
ويكون نافذ الحكم على تلك البقية وهم يخدمونه ويحملونه عند تعبه وذلك
ايضا من الاعاجيب الرابع انها اذا انفردت عن وكرها ذهبت مع الجمعية
الى موضع اخر فاذا ارادوا عودها الى وكرها ضربوا الطبول والات الموسيقى
وبواسطة تلك الالحان يقدرون على ردها الى اوكارها وهذا ايضا حالة
عجيبة فلما امتاز هذا الحيوان بهذه الخواص العجيبة الدالة على مزيد الذكا
والكياسة ليس الا سبيل الالهام وهو حالة شبيهة بالوحي والوحي قد
ورد في حق الانبيا كقوله تعالى وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا او
من وراء حجاب وفي حق الاوليا قال تعالى واذ اوحيت الى الحواريين وبمعنى
الالهام في حق البشر قال تعالى واوحينا الى ام موسى وفي حق سائر الحيوانات
خاص قال الزجاج يجوز ان يقال سمي هذا الحيوان نحلا لان الله تعالى
نحل الناس العسل الذي يخرج من بطونها وقال غيره النحل يذكر ويؤنث
وهي مؤنثة في لغة الحجاز ولذلك انثها الله تعالى وكذلك كل جمع ليس بينه
وبين واحده الا الهاء **و اتخذي من الشجر** اي الصالحة بيوتا **و اتخذي
مما يعرشون** اي الناس فيبنون تلك الاماكن وذلك ان النحل
منه وحشي وهو الذي يسكن الجبال والشجر والكهوف ومنه اهلي
وهو الذي ياوي الى البيوت وتربيه الناس عندهم وقد جرت العادة
ان الناس يبنون للنحل الاماكن حتى ياوي اليها وذكر ذلك بحرف
التبعيض لانها لا تبني في كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش من الكرم او
سقف ولا في كل مكان منها وقرا ابن عامر وشعبة بضم الراء والباقون
بكسرها متبعه ظاهر قوله تعالى اتخذي امر وقد اختلفوا فيه
فمن الناس من يقول لا بعد ان يكون لهذه الحيوانات عقول ولا يبدع
ان يتوجه عليها امر الله امر ونهي قال اخرون المراد منه انه تعالى خلق
فيها غرايز وطبايع توجب هذه الاحوال وسياتي الكلام على ذلك
ان شا الله تعالى في سورة النمل عند قوله تعالى يا ايها النمل ادخلوا مساكنكم
ولما كان اهم شي للحيوانات بعد الراحة من هم المقيل الاكل شي ثنى به

فقال **ثم كلي من كل الثمرات** اي من كل ثمرة تشتهيها مرها وحلوها وذكر ذلك
بحرف التراخي اشارة الى عجيب الصنع في ذلك وتيسيره لها تنبيه لفظ
من هذا للتبعيض او لابتدا الغاية ولما اذن لها في ذلك كله وكان من المعلوم
عادة ان تعاطيه لا يكون الا بمشقة عظيمة في معاناة السير اليه نبه على
خرقه العادة في تيسيره لها بقوله تعالى **فاسلكي سبل ربك** اي الطرق
التي الهمك الله تعالى ان تسلكيها وتدخلي فيها لاجل طلب الثمار وقوله
تعالى **ذللا** جمع ذلول حال من السبل اي مسخرة لك فلا تعسر عليك
وان توعرت ولا تضلي عن العود فيها وان بعدت وقيل من الضمير في اسلكي
منقادة لاربابها حتى انهم ينقلونها من مكان الى مكان اخر حيث شاؤوا واراد
لا تستعصي عليهم وقوله تعالى **يخرج من بطونها** فيه عدول عن خطاب
النحل الى خطاب الناس لانه محل الانعام عليهم والمقصود من خلق النحل
والمقصود من خلق والهامه لاجلهم **شراب** اي عسل **مختلف الوانه**
ما بين ابيض واحمر واصفر وغير ذلك من الوان العسل وذلك على قدر ما تاكل
من الثمار والازهار ويستحيل في بطونها عسلا بقدرة الله تعالى ثم يخرج
من افواهها سيل كاللعاب وقال الرازي انه راي في بعض الكتب ان
العسل طل من السما ينزل كالترنجبين فيقع على الازهار واوراق الشجر
فيجمعه النحل فياكل بعضه ويدخر بعضه في بيوتها لانفسها لتتغذى به
فاذا اجتمع في بيوتها من تلك الاجزا التي اللطيفة شي كثير فذلك هو العسل
وقال هذا القول اقرب الى العقل لان طبيعة الترنجبين تقرب من
طبيعة العسل وايضا انا نشاهد ان النحل يتغذى بالعسل واجاب
عن قوله تعالى يخرج من بطونها شراب لان كل تجويف داخل البدن يسمى
بطنا فقوله يخرج من بطونها اي من افواهها اهـ والاول كما قال ابن الخازن
وغيره اظهر لانا نشاهد ان العسل يوجد فيه طعم تلك الازهار التي ياكلها
النحل وكذا نوجد لذتها وريحها وطعم ما جنته ايضا ويعضد هذا قول بعض
ازواج النبي صلى الله عليه وسلم له اكلت مغافير قال لا قالت شاهدت
الريح التي اجد منك قال سقتني حفصة شربة عسل قالت جرست
نحله العرفط والعرفط شجر الطلح له صمغ يقال له المغافير كريه الرائحة
فمتى جرست نحلة العرفط اكلت ورعت من العرفط الذي له الرائحة
الكريهة فثبت بهذا ان يوجد في طعم العسل ولونه وريحه طعم ما ياكل
النحل ولونه وريحه لا ما قاله الاطبا من انه طل لانه لو كان طلا لكان على
لون واحد وقوله كل تجويف في داخل البدن يسمى بطنا خلاف الظاهر
لان لفظ البطن اذا اطلق لم يرد به الا العضو المعروف مثل بطن الانسان
وغيره **فيه** اي الشراب الذي يخرج من بطون النحل **شفا للناس**

من الاوجاع كما قال ابن عباس وابن مسعود اما البعض كما دل عليها عليه تنكير
شفا واما الكل بضميمة الي غيره اذ قل معجون من المعاجين لم يذكر الاطبا فيه
العسل او بدونها جنسه وبهذا اسقط ما قيل انه يضر باصحاب الصفرا
ويهيج الحرارة ويضر بالشباب المحرورين ويعطش قال ابن مسعود
العسل شفا من كل دا والقران شفا لما في الصدور وفي رواية عنه عليكم
بالشفاين القران والعسل وروي نافع ان ابن عمر ما كانت قرحة ولا شي
الا لطخ الموضع بالعسل ويقرا يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه
فيه شفا للناس وعن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه قال جا رجل الي
النبي صلى الله عليه وسلم فقال ان اخي يشتكي بطنه فقال صلى الله عليه
وسلم اسقه العسل فذهب ثم رجع فقال قد سقيته فما نفع فقال
اذهب فاسقه العسل فقد صدق الله وكذب بطن اخيك فسقاه
فشفاه الله فبري فكانما انشط من عقال فقوله صلى الله عليه وسلم
صدق الله وكذب بطن اخيك يحتمل انه صلى الله عليه وسلم علم بنور الوحي
الالهي ان العسل الذي امر بشربه سيظهر نفعه بعد ذلك فلما لم
يظهر نفعه في الحال قال صدق الله يعني فيما وعد من ان فيه شفا للناس
وكذب بطن اخيك يعني باستعجالكم للشفا في اول مرة وقال مجاهد
الضمير في فيه شفا للناس راجع للقران لان فيه الشفا من امراض
الشرك والجهالة والضلالة وهو هدي ورحمة للناس وعلي هذا تمت قصة
تولد العسل من النحل عند قوله تعالي يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه
ثم ابتدا وقال فيه شفا للناس اي في هذا القران قال الرازي وهذا قول ضعيف
ويدل عليه وجهان الاول ان الضمير في قوله تعالي فيه شفا للناس يجب عوده
الي اقرب المذكورات وما ذاك الا قوله تعالي شراب مختلف الوانه واما الحكم
بعود هذا الضمير الي القران مع انه غير مذكور فيما سبق فهو غير مناسب
والثاني حديث ابي سعيد الخدري المتقدم ثم انه تعالي ختم الاية بقوله تعالي
ان في ذلك اي المذكور لاية لقوم يتفكرون اي في اختصاص النحل بتلك
العلوم الدقيقة واللطايف الخفية مثل بنا البيوت المسدسة وغير
ذلك فيعتبرون ويستدلون بما ذكرنا علي وحدانيتنا وقدرتنا وقد
كثر في هذه اضافة الايات الي المخاطبين تارة بالافراد وتارة بالجمع
ونوعها تارة بالعقل وتارة بالفكر وتارة بالذكر وتارة بغيرها ثم انه
تعالي لما ايقظهم من رقدتهم ونبههم علي عظيم غفلتهم ثنى ببعض ما في
انفسهم من الادلة علي ذلك فقال والله اي المحيط بكل شي قدرة
وعلما خلقكم اي اوجدكم من العدم واخرجكم الي الوجود ولم تكونوا شيئا
ثم يتوفاكم اي عند انقضا اجالكم علي اختلاف الانسان فلا يقدر

الصغير

الصغير ان يوخر ولا الكبير علي ان يقدم فمنكم من يموت علي حال قوته ومنكم من يرد
الي ارذل العمر اي اخسه من الهرم والخرف قال بعض العلماء عمر الانسان
له اربع مراتب سن الطفولية والنمو وهو من اول العمر الي بلوغ ثلاث وثلاثين سنة
وهو غاية سن الشبوبية وبلوغ الاشد ثم المرتبة الثانية سن الوقوف وهو
من سن ثلاثة وثلاثين سنة الي اربعين سنة وهو غاية القوة وكمال العقل
والمرتبة الثالثة سن الكهولة وهو من الاربعين الي الستين وهذه المرتبة
يشرع الانسان في النقص لكنه يكون نقصا خفيا لا يظهر ثم المرتبة الرابعة
سن الشيخوخة والانحطاط من الستين الي اخر العمر خمسة وستون سنة
يتبين النقص ويكون النقص والخرف قال علي بن ابي طالب رضي الله عنه ارذل
العمر خمسة وسبعون سنة وقيل ثمانون سنة وقال قتادة تسعون
وعن انس رضي الله تعالي عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول
اللهم اني اعوذ بك من العجز والهرم والبخل واعوذ بك من عذاب القبر وفتنة
المحيا والممات وفي رواية عنه كان يقول اللهم اني اعوذ بك من البخل والكسل
وارذل العمر وعذاب القبر وفتنة المحيا والممات لكيلا يعلم بعد علم شيئا
اي ليصير الي حالة شبيهة بحال الطفولية في نقصان القوة والعقل وسو
الفهم تنبيه هل ذلك عام في المسلم والكافر او مختص بالكافر فيه قولان
احدهما انه عام والقول الثاني انه مختص اذ المسلم لا يزداد بطول العمر الا
كرامة علي الله تعالي ولا يقال في حقه انه رد الي ارذل العمر قال الرازي
والدليل عليه قوله تعالي ثم رددناه اسفل سافلين الا الذين امنوا وعملوا الصا لحات
فبين ان الذين امنوا وعملوا الصالحات ما ردوا الي اسفل السافلين وقال
عكرمة من قرا القران لم يصر الي هذه الحالة وقال في قوله الا الذين امنوا
وعملوا الصالحات هم الذين قروا القران وقال ابن عباس ثم رددناه اسفل
سافلين يريد الكافرين ثم استثنى المومنين فقال الا الذين امنوا وعملوا
الصالحات ولهذا ابو يزيد امام ان الله عليم بمقادير اعمارهم قدير يميت
الشاب النشيط ويبقي الهرم الفاني وفي ذلك تنبيه علي تفاوت اجال
الناس لا بتقدير قادر حكيم ركب بنيتهم وعدل امزجتهم علي قدر
معلوم ولو كان مقتضى الطباع كما يقول الطبايعيون لم يبلغ التفاوت
هذا المبلغ كما ولما ذكر تعالي التفاوت في الاعمار المتادية بابطال الطبايع
الموجبة الي المسابقة الي الاعتبار لاولي الابصار للخوف كل لحظة من
مصيبة الموت بالمفاوتة في الارزاق فقال والله اي الذي له الامر كله
فضل بعضكم ايها الناس علي بعض في الرزق فمنكم غني ومنكم فقير
ومنكم مالك ومنكم مملوك كل ذلك بتقدير العزيز الحكيم فيجعل الضعيف
العاجز الجاهل اغنى من القوي المحتال العالم فيري اكيس الناس واكثرهم

عقلا يعني عمره في طلب القليل من الدنيا ولا يتيسر له ذلك ونرى اجلف الخلق
واقلهم عقلا وفهما فيفتح له ابواب الدنيا فكل شي خطر بباله اودار في
خياله فانه يحصل له بسهولة ولو كان السبب في ذلك هو جهل الانسان وعقله
لوجب ان يكون الاعقل الاعقل افضل في هذه الاحوال فلما راينا ان الاعقل
اقل نصيبا وان الاجهل الاخس اوفر نصيبا علمنا ان ذلك بقسمة القسام كما
قال تعالى اهم يقسمون رحمت ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة
الدنيا فاتقوا الله واجملوا في طلب الرزق واقبلوا في جميع قلوبكم على ما ينفعكم
من الاستبصار وانشد سفيان بن عيينة يقول

كم من قوي قوي في تقلبه • مهذب الراي عنه الرزق منحرف
ومن ضعيف ضعيف العقل مختلط • كانه من خليج البحر يغترف

وحكي ان سليمان المهلبي ارسل الى الخليل بن احمد بمائة الف درهم
فردها الخليل وكتب اليه هذه الابيات

ابلغ سليمان اني عنه في سعة • وفي غنى غير اني لست ذا مال
سخى بنفسي اني لا ارى احدا • يموت جوعا ولا يبقى على حال
فالعجز عن قدرها العجز ينقصه • ولا يزيدك فيه حول محتال
والفقر في النفس لا في المال نعرفه • ومثل ذاك الغنى في النفس لا المال

وقال الشافعي رحمه الله تعالى

ومن الدليل على القضا وكونه • بوس اللبيب وطيب عيش الاحمق

تنبيه هذا التفاوت ليس مختصا بالمال بل هو حاصل في الذكا والبلادة
والحسن والقبح والعقل والحمق والصحة والسقم والاسم الحسن
والاسم القبيح وهذا بحر لا ساحل له قال الرازي وقد كنت مصاحبا
لبعض الملوك في بعض الاسفار وكان ذلك الملك كثير المال والجاه فكانت
الجنايب الكثيرة تقاد بين يديه وما كان يمكنه ركوب واحد منها وربما
احضرت الاطعمة الشهية والفواكه الكثيرة العطرة عنده وما كان يمكنه
ان يتناول شيا منها وكان من الفقرا من هو صحيح المزاج وقوي البنية
كامل القوة وما كان يجد ملا بطنه طعاما فذلك الملك وان كان هذا الفقير
في المال الا ان هذا الفقير كان يفضل ذلك على الملك والصحة والقوة
وهذا باب واسع اذا اعتبره الانسان عظم تعجبه فيه فنسال الله تعالى
ان يغنينا من فضله وان يرضينا بما قسم لنا انه كريم جواد ثم ضرب
الله تعالى مثلا للذين جعلوا لله شركا بقوله تعالى فما الذين فضلوا اي
في الرزق وهم الموالي برادي رزقهم على ما ملكت ايمانهم اي بجاعل ما
رزقناهم من الاموال وغيرها بينهم وبين مماليكهم من عند انفسهم فهم
اي المماليك والموالي فيه سواء اي شركا يقول الله تعالى لا يرضون

بسبب قسمة

ان يكونوا

ان يكونوا هم ومماليكهم فيما رزقناهم سوا فكيف يجعلون بعض عبيدي شركاي
في ملكي وسلطاني وقيل معنى الاية ان الموالي والمماليك الله رازقهم جميعا في
رزقه سوا فلا تحسبن الموالي انهم يردون ارزاقهم على مماليكهم من عند انفسهم
بل ذلك رزق الله اجراه على ايدي الموالي للمماليك والمقصود منه بيان ان الله الرزاق
هو الله تعالى لجميع خلقه وان الموالي والمماليك في ذلك الرزق سواء وان المالك
لا يرزق المملوك وانما ذلك رزق اجراه اليهم على ايديهم فالرازق للمالك
والمملوك هو الله تعالى ولما قرر سبحانه وتعالى هذه الدلايل وبينها واظهرها
بحيث يفهمها كل عاقل كان ذلك انعاما عظيما منه على الخلق فعند هذا قال
ابنعمة الله في تقدير هذه البيانات وايضاح هذه البينات يجحدون
اي يكفرون وفي ذلك انكار على المشركين حيث يجحد وانعمته وعبدوا غيره
وجعلوا له شركا يضيفون اليهم بعض ما انعم به عليهم فيسوون بينهم
وبينه في ذلك وقرا شعبة بالتا على الخطاب والباقون باليا على الغيب ثم انه
تعالى ذكر نوعا اخر من احوال الناس ليستدل به على وجود الاله المختار
الحكيم وتنبيها على انعام الله تعالى على عبيده بمثل هذه النعم بقوله تعالى
والله اي الذي له تمام القدرة وكمال العلم جعل لكم من انفسكم اي
من جنسكم لتانسوا بها ولتكون اولادكم مثلكم فخلق حوا من ضلع ادم
وساير النسا من نطف الرجال والنسا فهو خطاب عام فتخصيصه بادم
وحوا فقط خلاف الدليل والمعنى انه تعالى خلق النسا ليتزوج بهن الذكور
ومعنى من انفسكم كقوله تعالى فاقتلوا انفسكم فسلموا على انفسكم
اي بعضكم بعضا وقوله تعالى ومن اياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا
وجعل لكم من ازواجكم بنين وحفدة والحفدة جمع حافد وهو المسرع
بالخدمة المسارع الى الطاعة ومنه قول القانت واليك نسعى ونحفد
اي نسرع الى طاعتك هذا اصله في اللغة واختلف فيه اقوال المفسرين
فقال ابن مسعود والنخعي الحفدة اختان الرجل على بناته وعن ابن مسعود انهم
اصهاره فهو بمعنى الاول وعلى هذا يكون معنى الاية وجعل لكم من انفسكم
ازواجكم بنين وبنات تزوجوهن فيجعل لكم بسببهن الاختان والاصهار
وقال الحسن وعكرمة والضحاك هم الخدم وقال مجاهد هم الاعوان وكل من
اعانك فهو حفدك وقال عطاهم ولد الرجل الذين يعينونه ويخدمونه وقال
الكلبي ومقاتل البنين هم الصغار والحفدة كبار الاولاد الذين يعينون الرجل
الذين ليسوا منه اي اولاد المراة من الزوج الاول قال الرازي والاولى دخول
الكل فيه لان اللفظ محتمل للكل بحسب المعنى المشترك قال الزمخشري
ويجوز ان يراد بالحفدة البنون انفسهم كانه قيل جعل لكم منهن اولادا
هم بنون وهم حافدون اي جامعون بين الامرين اهـ ومع هذا فالمشهور

لك

ع

ان الحاذق ولد الولد من الذكور والاناث فائدة قال الاطبا واهل الطبيعة
المني اذا انصب الى الخصية اليمنى من الذكر ثم انصب منه الى الجانب الايمن
من الرحم كان الولد ذكرا تاما في الذكورة واذا انصب الى الخصية اليسرى
ثم انصب الى الجانب الايسر من الرحم كان الولد انثى تاما في الانوثة واذا انصب
من الجانب منه الى الخصية اليسرى ثم انصب الى الجانب الايسر من الرحم
كان ذكرا في طبيعة الاناث واذا انصب من الخصية اليسرى ثم انصب منها
الى الجانب الايمن من الرحم كان هذا الولد انثى في طبيعة الذكور وحاصل
كلامهم ان الذكور الغالب عليها الحرارة واليبوسة والغالب على الاناث
البرودة والرطوبة وهذه العلة ضعيفة وان في النسا من مزاجها في غاية
السخونة وفي الرجال من مزاجه في البرودة فخالق الذكر والانثى هو
الاله القادر الحكيم ولما ذكر تعالى انعامه على عبيده بالمنكوح وما به
فيه من المنافع والمصالح ذكر انعامه عليهم بالمطعومات الطيبة فقال
ورزقكم من الطيبات سواكانت من النبات وهي الثمار والحبوب والاشربة
اوكانت من الحيوان والمراد بالطيب المستلذ او الحلال ومن في الطيبات للتبعيض
لان كل الطيبات في الجنة وما طيبات الدنيا الا انموذج منها واختلف في
تفسير قوله تعالى افبالباطل يؤمنون فقال ابن عباس يعني بالاصنام
وقال مقاتل يعني بالشيطان وقال عطا يصدقون ان لي شريكا وصاحبة
وولدا وبنعمت الله هم يكفرون اي بان يضيفوها الى غير الله تعالى ويتركون
اضافتها الى الله تعالى وقيل الباطل ما سول لهم الشيطان من تحريم
البحيرة والسائبة وغيرهما ونعمة الله ما احل لهم من الطيبات وتحريم
الخبائث فائدة رسمت نعمت هنا بالتا ووقف عليها ابن كثير وابو عمرو والكسائي
بالها والباقون بالتا والكسائي يقرا بالامالة ولما شرح الله تعالى الدلائل
على صحة التوحيد واتبعها بذكر اقسام النعم العظيمة اتبعها بالرد على عبدة
الاصنام فقال ويعبدون من دون الله اي غيره ما لا يملك لهم
اي تاركين عبادة من بيده جميع الارزاق وهو ذو العلو المطلق الذي
رزقهم من الطيبات ويعبدون غيره ثم بين تعالى جهة الرزق بقوله تعالى
رزقا من السموات والارض اما الرزق الذي ياتي من جانب السما فالمطر
واما الذي من جانب الارض فالنبات والثمار التي تخرج منها وقوله تعالى ط
شيئا فيه ثلاثة اوجه احدها انه منصوب على المصدر اي لا يملك
لهم ملكا اي شيئا من الملك الثاني انه بدل من رزقا اي لا يملك لهم
شيئا قال ابن عادل وهذا غير مفيد اذ من المعلوم ان الرزق شيء من
الاشيا ويؤيد ذلك ان البدل لا ياتي الا لاحد معنيين البيان
او التاكيد وهذا ليس فيه بيان لانه اعم ولا تاكيد الثالث انه منصوب

برزقا

برزقا على انه اسم مصدر واسم المصدر يعمل عمل المصدر على خلاف في ذلك ولما كان
من لا يملك شيئا قد يكون موصوفا باستطاعة ان يتملك بطريق من الطرق
نفى الله تعالى عنهم ذلك بقوله تعالى ولا يستطيعون اي وليس لهم
نوع استطاعة اصلا فان قيل انه قال ويعبدون من دون الله ما لا يملك
فعبر عن الاصنام بصيغة ما وهي لغير العاقل ثم جمع بالواو والنون فقال
ولا يستطيعون وهو مختص بمن يعقل اجيب بانه عبر عنها ثانيا اعتبارا
باعتقادهم انها الهة وفي تفسير قوله تعالى فلا تضربوا لله الامثال وجهان
الاول قال اكثر المفسرين لا تشبهوا الله بخلقه فانه واحد لا مثل
له ولا شبيه ولا شريك من خلقه لان الخلق كلهم عبيده وفي ملكه فكيف
يشبه الخالق بالمخلوق والرازق بالمرزوق والقادر بالعاجز الثاني ان عبدة
الاوثان كانوا يقولون ان اله العالم اجل واعظم من ان يعبده الواحد منا بل نحن
نعبد الكواكب او نعبد الاصنام ثم ان الكواكب والاصنام عبيد للاله الاكبر
الاعظم كما ان اصاغر الناس يخدمون حفدة الملك واوليك الاكابر كانوا يخدمون
الملك فكذا ههنا ان الله اي الذي له الامر كله ولا امر لغيره يعلم اي خطا
ما انتم عليه من ضرب الامثال له يعلم وانتم لا تعلمون ذلك وقيل معناه وانتم
لا تعلمون ما عليكم من العقاب العظيم بسبب عبادة الاصنام ولو علمتموه
لتركتم عبادتها ولما ختم الله تعالى ابطال مذهب عبدة الاوثان الاصنام
بسبب العلم الذي هو مناط السداد عنهم اكد ذلك بضرب مثل بقوله تعالى
ضرب الله اي الذي له كمال العلم وتمام القدرة مثلا بالاحرار والعبيد
ثم ابدل من مثلا عبدا وقيد بقوله تعالى مملوكا ليخرج الحر لان العبد يطلق
على الحر بالنسبة الى الله تعالى وقيده بقوله تعالى لا يقدر على شيء ليخرج
المكاتب ومن فيه شائبة حرية وهذا مثل لشركائهم ثم عطف على عبدا
قوله ومن اي وحرا فهي نكرة موصوفة ليطابق عبدا رزقناه منا رزقا
اي واسعا طيبا فهو ينفق منه دايما وهو معنى قوله سرا وجهرا اي
يتصرف فيه كيف يشا وهذا مثل الاله وله المثل الاعلى ثم بكتهم انكارا عليهم
بقوله تعالى هل يستوون اي هذان الفريقان الممثل بهما لان المراد
الجنس فاذا كان لا يسوغ في عقل ان يسوي بين مخلوقين احدهما حر مقتدر
والاخر مملوك عاجز فكيف يسوي بين حجر من صوان او غيره وبين الله تعالى
الذي له القدرة التامة على كل شيء وقيل ذلك تمثيل للكافر المخذول
والمؤمن الموفق تنبيه جواب هل يستوون وهو لا يستوون وقوله
تعالى الحمد لله قال ابن عباس الحمد لله على ما فعل باوليائه وانعم عليهم
بالتوحيد وقيل المعنى ان كل الحمد لله وليس شيء من الحمد للاصنام لانه
لا نعمة لها على احد لانها جماد عاجز انما الحمد لله لا لغيره فيجب على جميع العباد

حمد الله لانه تعالى اهل الحامد وان الحمد فكانهم قالوا نحن نعلم ذلك فقيل
بل اكثرهم اي الكفار لا يعلمون نحوهم بسوء غيره ومن نفى عنه العلم
الذي هو اعلى صفات الكمال كان في عداد الانعام فهم لذلك يشبهون
بهم ما ذكر ويضربون له الامثال الباطلة ويضيفون نعمه الى غيره ثم انه
تعالى ضرب لنفسه وللاوثان مثلا اخر بقوله تعالى وضرب الله مثلا ثم ابدل
منه رجلين ثم استانف البيان لما اجمل فقال احدهما ابكم وهو
الذي ولد اخرس فكل ابكم اخرس وليس كل اخرس ابكم وروى ثعلب عن
ابن الاعرابي الابكم الذي لا يسمع ولا يبصر ووصف الله تعالى هذا الرجل
بصفة ثانية بقوله تعالى لا يقدر على شيء لانه لا يفهم ولا يفهم وفي اشارة
الى العجز التام والنقصان الكامل ثم وصفه الله تعالى بصفة ثالثة
بقوله تعالى وهو اي ذلك الابكم العاجز كل على مولاه اي ثقيل
على من ولي امره وبقوله قال اهل المعاني اصله من الغلظ الذي هو
نقيض الحدة يقال كل السكين اذا غلظت شفرته فلم يقطع وكل اللسان
اذا غلظ فلم يقدر على الكلام وكل فلان عن الامر اذا ثقل عليه فلم
ينهض فيه ثم وصفه تعالى بصفة رابعة بقوله تعالى اينما يوجهه اي يرسله
ويصرفه ذلك المولى لا يات بخير لانه عاجز لا يحسن ولا يفهم قيل هذا مثل
شركائهم الذين هم عيال ووبال على عبدتهم ووبخهم الله تعالى بقوله هل
يستوي اي هذا الموصوف بهذه الصفات الاربع هو اي ورجل
اخر على ضد صفته فهو ناطق قادر عالم فطن قوي خبير مبارك ميمون ومن
اي ورجل اخر يامر بما له من العلم والقدرة بالعدل اي يبذل النصيحة
لغيره وهو في نفسه ظاهرا وباطنا على صراط اي طريق واضح مستقيم
اي عامل فيه بما يامر به قيل هذا مثال المعبود بحق الذي يكفي عابديه جميع
المؤن وهو دال على كمال علمه وتمام قدرته وقيل المراد من هذا الابكم عبد
لعثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه كان ذلك العبد يكره الاسلام وما كان
فيه خير ومولاه وهو عثمان يامر بالعدل وكان على الدين القويم والصراط
المستقيم وقيل المراد كل عبد موصوف بهذه الصفات المذمومة وكل
حر موصوف بتلك الصفات الحميدة وهذا القول كما قال الرازي اولى من الاول
لان وصفه تعالى اياهما بكونهما رجلين يمنع من حمل ذلك على العرش وكذلك
بالبكم وبالكل وبالتوجه في جهات المنافع وكذلك وصف الاخر بانه على
صراط مستقيم يمنع من حمله على الله تعالى وايضا المقصود تشبيه صورة
بصورة في امر من الامور وذلك التشبيه لا يتم الا كون احدى الصورتين
مغايرة للاخرى واما القول الثاني فضعيف ايضا لان المقصود اثبات التفرقة
بين رجلين موصوفين بالصفات المذكورة وذلك غير مختص بشخص

معين بل انما حصل التفاوت في الصفات المذكورة فانه يحصل المقصود ثم وصف
سبحانه وتعالى نفسه بكمال العلم بقوله تعالى ولله اي لا لغيره غيب
السموات والارض وهو ما غاب فيهما عن العباد بان لم يكن محسوسا ولم يدل
عليه محسوس وقيل الغيب هنا هو قيام الساعة فان علمه غائب عن اهل
السموات والارض ثم وصف سبحانه وتعالى كمال قدرته بقوله تعالى وما امر
الساعة وهو الوقت الذي يكون فيه البعث الا كلمح البصر اي الا كرجع
الطرف من اعلى الحدقة الى اسفلها والمعنى وما امر قيام الساعة في السرعة
والسهولة الا كطرف العين والمراد منه تقدير كمال القدرة ومعنى قوله تعالى
او هو اقرب اي ان لمح البصر عبارة عن انتقال الجسم المسمى بالطرف من
اعلى الحدقة الى اسفلها ولا شك ان الحدقة مؤلفة من اجزاء فلمح البصر عبارة
عن المرور على جملة تلك الاجزاء التي منها تالفت الحدقة ولا شك ان تلك الاجزاء
كثيرة والازمان التي يحصل فيها لمح البصر مركب من انات متعاقبة والله تعالى
قادر على اقامة القيامة في آن واحد من تلك الانات ولذلك قال او هو اقرب
الا انه لما كان اسرع الاحوال والحوادث في عقولنا وافكارنا هو لمح البصر
لاجرم ذكره ثم قال او هو اقرب تنبيها على ما مر ولا شبهة في انه ليس المراد
طريقة الشك والمراد اذ هو اقرب وقال الزجاج المراد به الابهام على
المخاطبين انه تعالى ياتي بالساعة اما بقدر لمح البصر او بما هو اسرع وقيل
معناه ان قيام الساعة وان تراخى فهو عند الله كالشيء الذي تقولون فيه
هو كلمح البصر او هو اقرب مبالغة كقوله تعالى وان يوما عند ربك كالف
سنة مما تعدون ان الله اي الملك الاعظم على كل شيء قدير فيقدر على
ان يحيي الخلائق دفعة واحدة كما قدر على احيائهم فانه تعالى مهما اراده
كان في اسرع ما يكون ثم انه تعالى عاد الى الدلائل الدالة على وجود الصانع المختار
فعطف على قوله تعالى والله جعل لكم من انفسكم ازواجا قوله تعالى والله
اي الذي له العظمة كلها اخرجكم بقدرته وعلمه من بطون امهاتكم حال
اي كونكم عند الاخراج لا تعلمون شيئا من الاشياء قل ولا جل فالذي اخرجكم
منها قادر على اخراجكم من بطون الارض بلا فرق بل بطريق الاولى وقرا
حمزة والكسائي بكسر الهمزة والباقون بضمها وقرا حمزة بكسر الميم والباقون
بفتحها ثم عطف على اخرجكم قوله تعالى وجعل لكم السمع والابصار والافئدة
الات لازالة هذا الجهل الذي وقعت الولادة عليه وفتق مواضعها
وسواها وعدلها وانتم في البطون حيث لا تصل اليه يد ولا يتمكن من
شق شيء منه بالة فالذي قدر على ذلك في البطن ابداعا قادر على اعادته
في بطن الارض بل بطريق الاولى قال البقاعي ولعله تعالى جمعهما اي
الابصار والافئدة دون السمع لان التفاوت فيهما اكثر من التفاوت

فيه بما لا يعلم علمه الا الله تعالى والافئدة هي القلوب التي هيأها تعالى للفهم واصلا
للبدن بما اودعها من الحرارة اللطيفة للمعاني الدقيقة لعلكم تشكرون لتصبروا
بمعارف القلوب التي وهبكموها اذا اسمعتم المواعظ وابصرتم الايات
في حال يرجى فيه شكركم لما افاض عليكم من لطايف صنعه بان تعرفوا ما الذي من
العلم والقدرة فانه انما انعم عليكم بهذه الحواس لتستعملوها في شكر من
انعم بها عليكم فان قيل عطف وجعل لكم السمع على اخراجكم يقتضي ان يكون
جعل السمع والبصر متاخرا عن الاخراج من البطون مع ان الامر ليس كذلك
اجيب بان حرف الواو لا يوجب الترتيب وايضا اذا احملنا السمع على
الاستماع والابصار على الروية زال السوال ثم انه تعالى ذكر دليلا
اخر على كمال قدرته وحكمته بقوله تعالى الم يروا الى الطير مسخرات اي مذللات
للطيران في جو السماء اي في الهواء بين الخافقين عما لا يقدرون عليه بوجه من
الوجوه مع مشاركتكم لها في السمع والبصر وزيادتكم عليها بالعقول فعلم قطعا
انه تعالى خلق الطير خلقة معها يمكن الطيران فيها والا لما امكن ذلك لانه
تعالى اعطى الطيران جناحا يبسطه مرة ويكسره مرة اخرى مثل ما يعمله
السابح في الماء وخلق الجو خلقة لطيفة رقيقة يسهل خرقه والنفاذ
فيه ولولا ذلك لما كان الطيران ممكنا ومع ذلك ما يمسكهن في الجو عن
الوقوع الا الله اي الملك الاعظم فان جسد الطير جسم ثقيل ○
والجسم الثقيل يمتنع بقاوه في الجو معلقا من غير دعامة تحته ولا علاقة
فوقه فوجب ان يكون الممسك له في ذلك الجو هو الله تعالى وقرا ابن
عامر وحمزة بالتاء على انه خطاب العامة والباقون بالياء على الغيبة ان في
ذلك المذكور لايات اي دلالات لقوم يومنون وخصهم
بذلك لانهم هم المنتفعون بها وان كانت هذه الايات ايات لكل العقلاء
ثم ذكر تعالى نوعا اخر من دلايل التوحيد بقوله تعالى والله اي الذي له
الحكمة البالغة جعل لكم من بيوتكم واصل البيت الماوي ليلا ثم اتسع
فيه سكنا اي موضعا تسكنون فيه تنبيه البيوت التي يسكن
الانسان فيها على قسمين احدها البيوت المتخذة من الخشب والطين
والالات التي يمكن تسقيف البيوت واليها الاشارة بقوله تعالى
والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وهذا القسم من البيوت لا يمكن نقلها
بل الانسان ينتقل اليها والقسم الثاني القباب والخيام والفساطيط
واليها الاشارة بقوله تعالى وجعل لكم من جلود الانعام المتخذة
من الادم بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم
ويجوز ان يتناول المتخذة من الوبر والصوف والشعر فانها من حيث
انها ثابتة على جلودها يصدق عليها انها من جلودها يوم ظعنكم اي

اي تتخذونها خفيفة يخف عليكم حملها ونقلها يوم ظعنكم اي وقت ترحالكم وعبر
باليوم لان الترحال بالنهار ويوم اقامتكم اي وقت الحضر ووقت النزول وهذا
القسم من البيوت يمكن نقلها وتحويلها من مكان الى مكان وقرا نافع وابن كثير وابو عمرو
بفتح العين والباقون بالسكون واضاف قوله تعالى ومن اصوافها واوبارها
واشعارها الى ضمير الانعام لانها من جملتها قال المفسرون واهل اللغة
الاصواف للضان والاوبار للابل والاشعار للمعز اثاثا اي ما يلبس ويفرش
ومتاعا اي ما يتجر به وقيل الاثاث ما يكتسي به المرء ويستعمله في الغطا
والوطا ومتاعا ما يفرش في المنازل واختلف في معنى قوله تعالى الى حين
فقيل الى حين يبلى وقيل الى حين الموت وقيل الى حين بعد حين وقيل الى يوم
القيامة تنبيه في نصب اثاثا وجهان احدهما انه منصوب عطفا
على بيوتا اي وجعل لكم بيوتا من اصوافها اثاثا والثاني انه منصوب
على الحال واعلم ان الانسان اما ان يكون مقيما او مسافرا والمسافر اما
ان يكون غنيا يستصحب الخيام او لا فالقسم الاول اشار اليه تعالى
بقوله تعالى وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا واشار الى القسم الثالث
بقوله تعالى والله اي الذي له الجلال والاكرام جعل لكم اي من غير حاجة
منه تعالى مما خلق من شجر وجبال وابنية وغيرها وقوله تعالى ظلالا
جمع ظل تتقون به شدة الحر وقوله تعالى وجعل لكم مع غناه المطلق
من الجبال اكنانا جمع كن موضع يسكنون فيه من الكهوف والبيوت
المنحوتة فيها وجعل لكم اي منا منه عليكم سرابيل جمع سربال
قال الزجاج كل ما لبسته فهو سربال من قميص او درع او جوشن
او غيره اي وسواء كان من صوف او كتان او قطن او غير ذلك تقيكم الحر ولم
يقل تعالى والبرد لتقدمها في قوله تعالى لكم فيها دفء وقيل انه اكتفى باحد
المتقابلين وقيل كان المخاطبون بهذا الكلام العرب وبلادهم حارة فكان حاجتهم
الى ما يدفع الحر فوق حاجتهم الى ما يدفع البرد كما قال تعالى ومن اصوافها واوبارها ها
واشعارها وسائر انواع الثياب اشرف الا انه تعالى ذكر ذلك النوع لانه كان
الفهم بها اشد واعتيادهم للبسها اكثر ولما كانت السرابيل نوعا واحدا لم
يكرر ذلك جعل فقال وسرابيل اي دروعا من حديد وغيرها تقيكم باسكم
اي حربكم اي في الطعن والضرب فيها ولما عدد الله تعالى انواع نعمه قال
كذلك اي كاتمام هذه النعمة المتقدمة يتم نعمته عليكم في الدنيا
والدين بالبيان والهداية لطريق النجاة والمنافع والتنبيه على دقايق ذلك
لعلكم يا اهل مكة تسلمون اي تخلصون له الربوبية وتعلمون
انه لا يقدر على هذه الانعامات احد سواه وقيل تسلمون من الجراح
بلبس الدروع فان تولوا فلم يقبلوا منك واثروا لذات الدنيا ومتابعة

الاباء والمعادات في الكفر فاعا عليك {وَإِن تَوَلَّوْا} يا افضل الخلق {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} هذا
جوابا لشرط وفي الحقيقة جواب الشرط محذوف اي فقد تمهد عذرك
بعد ما اديت ما وجب عليك من التبليغ فذكر سبب العذر وهو البلاغ ليدل
على المسبب وذلك لان تبليغه سبب في عذره فاقيم السبب مقام المسبب
وهذا قبل الامر بالقتال ثم انه تعالى ذمهم بانهم {يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ} اي
الملك الاعظم التي تقدم عد بعضها في هذه السورة وغيرها {ثُمَّ يُنكِرُونَهَا} بعبادتهم
غير المنعم بها وقال السدي نعمة الله يعني محمدا صلى الله عليه وسلم انكروه وكذبوه
وقيل نعمة الله هي الاسلام وهو من اعظم النعم التي انعم الله بها على عباده ثم ان
كفار مكة انكروه وجحدوه واختلف في معنى قوله تعالى {وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ} مع
انهم كلهم كانوا كافرين على وجوه الاول انما قال تعالى واكثرهم لانه كان فيهم
من لم تقم عليه الحجة ممن لم يبلغ حد التكليف او كان ناقص العقل فاراد به
بالاكثر البالغين الاصحا الثاني ان يكون المراد بالكافر الجاحد المعاند وكان فيهم
من لم يكن معاندا بل كان جاهلا بصدق الرسول وما ظهر له كونه نبيا حقا من
عند الله الثالث انه ذكر الاكثر والمراد الجميع لان اكثر الشي يقوم مقام الكل
فذكر الاكثر كذكر الجميع كقوله تعالى الحمد لله بل اكثرهم لا يعلمون
ولما بين تعالى من حال القوم انهم عرفوا نعمة الله ثم انكروها وذكر ايضا من حالهم
ان اكثرهم كافرون اتبعه بالوعيد فذكر حال يوم القيامة بقوله تعالى {وَيَوْمَ}
اي وخوفهم يوم او واذكر لهم يوم {نَبْعَثُ} بعد البعث {مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا}
هو نبيها كما قال تعالى فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد وجئنا بك على هولاء
شهيدا اي يشهد نبيها لها وعليها يوم القيامة ليحكم تعالى بقوله اجرا للامر على
ما يتعارفون وان كان تعالى غنيا عن شهيد وقوله تعالى {ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ
كَفَرُوا} فيه وجوه احدها لا يوذن لهم في الاعتذار كقوله تعالى ولا يوذن
لهم فيعتذرون ثانيها لا يوذن لهم في كثرة الكلام ثالثها لا يوذن لهم في الرجوع
الى دار الدنيا والى التكليف رابعها لا يوذن لهم في حال شهادة الشهود بل
يسكت اهل الجمع كلهم ليشهد الشهود فان قيل ما معنى ثم هنا اجيب
بان معناها انهم يمتحنون ويبتلون بغير شهادة الانبيا عليهم السلام
بما هو اطم منها وانهم يمنعون الكلام فلا يوذن لهم في القا معذرة ولا ادلا بحجة
{وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ} اي لا تزال عتباهم وهي ما يعتبون عليها ويلامون
يقال استعتبت فلانا اي بمعنى اعتبته اي ازلت عتباه {وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا
[الْعَذَابَ]} اي ظلموا انفسهم بالكفر والمعاصي {فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ} اي عذاب جهنم
بعد الموقف وشهادة الشهدا {ذَلِكَ الْعَذَابُ} {وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ}
اي يمهلون ولما بين تعالى حاصل امرهم في البعث وما بعده
وكان من اهم المهم امرهم في الموقف مع شركايهم الذين كانوا يرجون نفعهم

عطف

عطف على ذلك بقوله تعالى {وَإِذَا رَأَى} اي بالعين يوم القيامة {الَّذِينَ أَشْرَكُوا}
اي الالهة التي كانوا يدعونها شركا من الشياطين وغيرها {شُرَكَاءَهُمْ} اي
يا من احسن الينا وربانا {قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ} اضافوهم الى انفسهم لانه لا حقيقة
لشركتهم سوى تسميتهم لها الموجب لضرهم ثم بينوا المراد بقولهم {شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ
كُنَّا نَدْعُو} اي نعبدهم {مِن دُونِكَ} ليقربونا اليك فاكرمنا لاجلهم جريا على
مناهجهم في الدنيا في الجهل والغباوة تخاف شركاوهم من عواقب هذا القول
والاقرار عليه سطوات الغضب {فَأَلْقَوْا} اي الشركا {إِلَيْهِمُ} اي المشركين
{الْقَوْلَ} اي بادروا به حتى كانه كان اسراعه اليهم اسراع شي ثقيل يلقى
من علو واكدوا قولهم فقالوا {إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ} في جعلنا شركا وانكم
عبدتمونا حقيقة وانما عبدتم اهواكم كقوله تعالى كلا سيكفرون بعبادتهم
ولا يبعد ان تنطق الاصنام بذلك يومئذ في انهم حملوهم على الكفر والزموا
اياه كقوله وما كان لي عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لي
{وَأَلْقَوْا} اي الشركا {إِلَى اللَّهِ} الى الملك الاعلى {يَوْمَئِذٍ} اي يوم القيمة {السَّلَمَ}
اي الاستسلام لحكمه بعد الاستكبار في الدنيا {وَضَلَّ}
اي غاب {عَنْهُم} اي الكفار {مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ} اي من ان الهتهم تشفع
لهم ولما ذكر تعالى وعيد الذين كفروا اتبعه بوعيد
من ضم الى كفره صد الغير عن سبيل الله بقوله تعالى {الَّذِينَ كَفَرُوا
وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ} اي ضموا مع كفرهم انهم منعوا الناس عن الدخول
في الايمان بالله وبرسوله {زِدْنَاهُمْ عَذَابًا} لصدهم {فَوْقَ الْعَذَابِ} المستحق
بكفرهم {بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ} اي بكونهم مفسدين بصدهم وقيل زدناهم
حيات وعقارب كامثال البخت يستغيثون بالهرب منها الى النار ومنهم
من ذكر لكل عقرب ثلثماية نقرة في كل نقرة ثلثماية قلة من سم وقيل عقارب
لها انياب كالنخل الطوال ثم كرر سبحانه وتعالى التحذير من ذلك اليوم على وجه
يزيد على ما افهمته الاية السابقة وهو ان الشهادة تقع على الامم لا لهم
وتكون بحضرتهم فقال {وَيَوْمَ} اي وخوفهم او واذكر لهم يوم {نَبْعَثُ} اي
بما لنا من القدرة {فِي كُلِّ أُمَّةٍ} من الامم والامة عبارة عن القرن والجماعة
{شَهِيدًا عَلَيْهِم} قال ابن عباس يريد الانبيا قال المفسرون كل نبي شاهد
على امته وهو اعدل شاهد عليها {مِّنْ أَنفُسِهِمْ} اي منهم لان كل نبي انما بعث من
قومه الذين بعث اليهم ليشهد واعليهم بما فعلوا من كفر وايمان وطاعة
وعصيان {وَجِئْنَا} بما لنا من العظمة {بِكَ} يا خير المرسلين {شَهِيدًا عَلَى
هَؤُلَاءِ} اي الذي بعثناك اليهم وهم اهل الارض واكثرهم ليس من
قومه صلى الله عليه وسلم وكذلك لم تقيد بعثته بشي وقال ابو بكر الاصم
المراد بذلك الشهيد هو انه تعالى ينطق عشرة من اعضا الانسان حتى انها

يا من احسن الينا وربانا

هم

تشهد عليه وهو الاذنان والعينان والرجلان واليدان والجلد واللسان قالت
والدليل عليه قال في صفة الشهيد انه من انفسهم وهذه الاعضا لا تكون
انها من انفسهم ورد بانه تعالى قال تشهد عليهم فيجب ان يكون غيرهم وايضا
بدل من كلامه فيجب ان يكون ذلك الشهيد من الامة واحاد هذه الاعضا
لا يصح وصفها بانها من الامة ثم بين تعالى انه ازاح علتهم فيما كلفوا به فلا حجة
لهم ولا معذرة بقوله تعالى ونزلنا اي بعظمتنا بحسب التدريج والتنجيم
عليك يا اشرف خلق الله الكتاب اي القرآن الجامع لهدي تبيانا اي
بيانا بليغا لكل شيء فان قيل كيف كان القرآن تبيانا لكل شيء اجيب بان
المعنى من كل شيء من امور الدين حيث كان نصا على بعضها واحاله على السنة
حيث امر فيه باتباع النبي صلى الله عليه وسلم وطاعته وقد قال تعالى
وما ينطق عن الهوى وحثا على الاجماع في قوله تعالى ويتبع غير سبيل
المومنين وقد رضي رسول الله صلى الله عليه وسلم لامته اتباع اصحابه
والاقتدا باثارهم وقد اجتهدوا وتاسوا ووطوا طرق القياس والاجتهاد
فكانت السنة والاجماع والقياس والاجتهاد مستندة الى تبيان الكتاب
فمن ثم كان تبيانا لكل شيء وهدى من الضلالة ورحمة لمن امن به وصدقه
وبشرى بالجنة للمسلمين اي الموحدين خاصة ولما استقصى سبحانه
وتعالى في شرح الوعد والوعيد والرغبة والترهيب اتبعه بقوله ان الله
اي الملك المستجمع لصفات الكمال يامر بالعدل قال ابن عباس في بعض
الروايات العدل شهادة ان لا اله الا الله والاحسان ادا الفرايض
وقال في رواية اخرى العدل خلع الانداد والاحسان ان تعبد الله كانك
تراه وان تحب للناس ما تحب لنفسك فان كان مومنا احببت له ان يزداد
ايمانا وان كان كافرا احببت ان يكون اخاك في الاسلام وقال في رواية ثالثة
العدل هو التوحيد والاحسان هو الاخلاص فيه وقال اخرون يعني بالعدل
في الافعال والاحسان في الاقوال فلا تفعل الا ما هو عدل ولا تقل الا
ما هو احسان هو واصل العدل المساواة في المكافاة ان خيرا فخير وان
شرا فشر والاحسان ان تقابل الخير باكثر منه والشر بان تعفو عنه وعن
الشعبي قال عيسى بن مريم انما الاحسان ان تحسن الى من اساء
اليك ليس الاحسان ان تحسن لمن احسن اليك وقيل العدل الانصاف
والانصاف اعدل من الاعتراف للمنعم بانعامه والاحسان ان تحسن الى من اسا
اليك وقال محمد بن كعب القرظي قال دعاني عمر بن عبد العزيز فقال صف لي
العدل فقلت بخ سالت عن امر جسيم كن لصغير الناس ابا ولكبيرهم ابنا وللمثل
منهم اخا وللنسا كذلك وايتا اي ومن الاحسان ايتا ذي القربى اي
القرابة القربى والبعدى فينبغي ان تصلهم من فضل ما رزقك الله

فانلم

فان لم يكن لك فضل فدعا حسن وتودد وروى ابو سلمة عن ابيه ان رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال ان اعجل الطاعة ثوابا صلة الرحم ان اهل هذا البيت
ليكونون فجارا فتنمى اموالهم ويكثر عددهم اذا وصلوا ارحامهم ولما امر الله
تعالى بالمكارم نهى عن المساوي بقوله تعالى وينهى عن الفحشا قال ابن عباس
اي الزنا فانه اقبح احوال الانسان واشنعها وقال غيره الفحشا ما قبح من
القول والفعل فيدخل فيه الزنا وغيره من جميع الاقوال والافعال المذمومة
والمنكر قال ابن عباس يعني الشرك والكفر وقال غيره المنكر ما لا يعرف
في شريعة ولا سنة والبغي هو الاستيلا على الناس والتجبر عليهم قيل
ان اعجل الناس عقابا الباغي ولو ان جبلين بغى احدهما على الاخر لدك الباغي
ونص تعالى على الباغي مع دخوله في المنكر اهتماما به كما بدا بالفحشا لذلك وقال
ابن قتيبة في هذه الاية العدل استوا السر والعلانية والاحسان ان تكون
سريرته خير من علانيته والفحشا والمنكر والبغي ان تكون علانيته احسن من
سريرته وقال بعض العلما ان الله تعالى ذكر من المامورات ثلاثة اشيا ومن
المنهيات ثلاثة اشيا فذكر العدل وهو الانصاف والمساواة في الاقوال
والافعال وذكر في مقابلته الفحشا وهو ما قبح من الاقوال والافعال وذكر
الاحسان وهو ان يعفو عمن ظلمه ويحسن الى من اسا عليه وذكر في مقابلته
المنكر وهو ان ينكر احسان من احسن اليه وذكر ايتا ذي القربى والمراد به
صلة القرابة والتودد اليهم والشفقة عليهم وذكر في مقابلته البغي وهو
ان يتكبر عليهم او يظلمهم حقوقهم ولما كان هذا المذكور من ابلغ المواعظ نبه عليه
بقوله تعالى يعظكم اي يامركم بما يرقق قلوبكم من مصاحبة الثلاثة الاول
وهي العدل والاحسان وايتاء ذي القربى ومجانبة الثلاثة الاخيرة وهي
الفحشا والمنكر والبغي لعلكم تذكرون اي لكي تتعظوا فتعملوا بما فيه رضى
الله تعالى وقرا حفص وحمزة والكسائي بتخفيف الذال والباقون بالتشديد
وفيه ادغام التا في الاصل في الذال وروى البيهقي في شعب الايمان عن ابن
مسعود انه قال اعظم اية في كتاب الله تعالى الله لا اله الا هو الحي القيوم
واجمع اية في كتاب الله للخير والشر الاية التي في النحل ان الله يامر بالعدل
والاحسان واكثر اية في كتاب الله تفويضا ومن يتق الله يجعل له مخرجا
ويرزقه من حيث لا يحتسب واشد اية في كتاب الله تعالى رجا قل يا عبادي
الذين اسرفوا على انفسهم الاية وقال اهل المعاني لما قال الله
تعالى في الاية الاولى ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء بين في هذه الاية المامور
والمنهي عنه على سبيل الاجمال فما من شيء يحتاج اليه الانسان في امر دينهم مما
يجب ان يوتى به او يترك الا وقد اشتملت عليه هذه الاية وعن قتادة ليس
من خلق حسن كان من اهل الجاهلية يعملون به ويعظمونه ويخشونه الا امر الله به

وليس من خلق شيء كانوا يتعايرونه بينهم الا نهى الله عنه وعن عكرمة ان النبي صلى
الله عليه وسلم قرأ على الوليد بن المغيرة ان الله يامر بالعدل والاحسان الى اخر الاية
فقال له يا ابن اخي اعد علي فاعادها عليه فقال الوليد والله ان له لحلاوة وان عليه
لطلاوة وان عليه لمثمر وان اسفله لمغدق وما هو بقول البشر ولما انتظمت
هذه الجمل التي جمعت بجمعها المامورات والمنهيات ما تضيق عنه الدفاتر
والصدور وشهد لها المعاندون من بلغاء العرب انها بلغت من البلاغة مبلغا
يحصل بها غاية السرور ذكر بعض تلك الاقسام وبدا بما هو مع جمعه اهم
وهو الوفا بالعهد ويقوله تعالى واوفوا اي اوقعوا الوفا الذي لا وفا في الحقيقة
غيره بعهد الله اي الملك الاعلى الذي عاهدكم عليه بادلة العقل من التوحيد
والبيع والايمان وغيرهما من اصول الدين وفروعه اذا عاهدتم بتقبلكم
لدباذعانكم لامتثاله ولا تنقضوا الايمان واحترز عن لغو اليمين بقوله
تعالى بعد توكيدها اي تشديدها فتحنثوا فيها وفي ذلك دليل على ان
المراد بالعهد غير اليمين لانه اعم منه وقرأ ابو عمرو بادغام الدال في التاء بخلاف
عنه الحال انكم وقد جعلتم الله الذي له العظمة كلها عليكم كفيلا اي شاهدا
ورقيبا وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار قد عند الجيم
والباقون بالادغام وعن جابر قال نزلت هذه الاية في مبايعة النبي صلى
الله عليه وسلم كان من اسلم بايع على الاسلام فقال تعالى واوفوا بعهد الله
اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها فلا تحملنكم قلة محمد
واصحابه وكثرة المشركين ان تنقضوا البيعة التي بايعتم على الاسلام
ان الله اي الذي له الاحاطة الكاملة يعلم ما تفعلون من وفا العهد
العهد ونقضه ثم ضرب الله لنقض العهد مثلا فقال ولا تكونوا اي في نقض
العهد كالتي نقضت غزلها اي ما غزلته فهو مصدر بمعنى المفعول من بعد قوة
اي ابرام وقوله تعالى انكاثا جمع نكث وهو ما ينقض من الغزل والحبل قال
مقاتل هذه امراة من قريش يقال لها رايطة وقيل ريطة وتلقب بجعوا
وكانت خرقا حمقا لها وسوسة اتخذت مغزلا قدر ذراع وصنارة مثل
اصبع وفلكة عظيمة على قدرها فكانت تغزل من الصوف والشعر والوبر
هي وجواريها من الغداة الى الظهر ثم تامرهن فينقضن ما غزلن وكان هذا
دابها وقال السدي كانت امراة بمكة تسمى خرقا مكة تغزل فاذا ابرمت
غزلها نقضته وقال مجاهد نقضت حبلها بعد ابرامها اياه وقال قتادة هو
لو سمعتم بامراة نقضت غزلها من بعد ابرامه لقلتم ما احمق هذه وهذا
مثل ضربه الله لمن نكث عهده وقال في قوله تعالى تتخذون ايمانكم دخلا بينكم
خيانة وغدرا اي والدخل ما يدخل في الشيء على سبيل الفساد وقيل
الدخل والدغل ان يدخل الرجل الوفا بالعهد ويبطن نقضه وانما كانوا

يفعلون

يفعلون ذلك ان اي بسبب ان تكون او مخافة ان تكون ويكون ويجوز ان
يكون تامة فيكون امة اي جماعة فاعلها وان تكون ناقصة فيكون امة اسمها
هي مبتدا وارْبى اي اكثر من امة خبره والجملة في محل نصب على الحال
على الوجه الاول في موضع الخبر على الثاني واربى ماخوذ من ربى الشيء يربو اذا
زاد وهذه الزيادة قد تكون في العدد وفي القوة وفي الشرف قال مجاهد
كانوا يحالفون الحلفاء ثم يجدون من كان اعز منهم واشرف فينقضون حلف
الاولين ويحالفون هولا الذين هم اعز فنهاهم الله تعالى عن ذلك انما يبلوكم
الله الذي له الملك كله اي يختبركم به اي يعاملكم معاملة المختبر ليظهر
للناس تمسككم بالوفا وانخلاعكم منه اعتمادا على كثرة انصاركم وقلة
انصار من نقضتم عهده من المومنين او غيرهم مع قدرته سبحانه وتعالى على ما
يريد فيوشك ان يعاقب بالمخالفة فيضعف القوي ويكثر القليل وليبينن
لكم اي اذا تجلى لفصل القضا يوم القيمة ما كنتم فيه تختلفون اي
اذا جازاكم على اعمالكم بالثواب والعقاب فاحذروا يوم العرض على مالك
السموات والارض وان نوقش الحساب هلك ولو شاء الله اي الملك الاعظم
الذي لا امر لاحد معه ان يجعلكم امة واحدة لا اختلاف بينكم في اصول الدين
ولا فروعه لجعلكم امة واحدة اي متفقة على امر واحد وهو دين الاسلام
ولكن لم يشا ذلك بل شاء اختلافكم فهو تعالى يضل من يشا عدلا منه تعالى
لانه تام الملك ولو كان الذي اضله على احسن الحالات ويهدي بفضله من
يشاء ولو كان على اخس الحالات والاحوال فلذلك تكونوا مختلفين لا يسئل
عما يفعل سبحانه وتعالى ولتسئلن عما كنتم تعملون في الدنيا فيجازي المحسن
باحسانه ويعاقب المسيء بعدله تعالى ولما حذر تعالى عن نقض العهد والايمان
مطلقا قال تعالى ولا تتخذوا ايمانكم دخلا اي فسادا ومكرا وخديعة
بينكم وليس المراد منه التحذير عن نقض مطلق الايمان والا لزم التكرار
الخالي عن الفائدة في موضع الواحد بل المراد اولئك الاقوام المخاطبون بهذا
الخطاب عن بعض ايمان مخصوصة اقدموا عليها فلهذا المعنى قال المفسرون
المراد بها الذين تابعوا النبي صلى الله عليه وسلم عن نقض عهده لان قوله تعالى
فتزل اي فيكون ذلك سببا لان تزل قدم هي في غاية العظمة
بعد ثبوتها اي عند مركزها التي كانت به من دين او دنيا ولا يصير
لها قرار فتسقط عن مرتبتها لا يليق بنقض عهد قبله وانما يليق بنقض
عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على الايمان به وشرائعه تنبيه
فتزل منصوب باضمار ان على جواب النهي وزلل القدم مثل يذكر
لكل من وقع في بلا بعد عافية او سقط في ورطة بعد سلامة او محنة
بعد نعمة وتذوقوا السوء اي العذاب في الدنيا بما اي بسبب ما

صددتم انفسكم وسفهتم غيركم بايمانكم الفاجرة ثم نبهها الافساد لاخفا الحق
عن سبيل الله اي دينه وذلك ان من نقض العهد سهل على غيره طرق نقض
العهد فيستن به ولكم مع ذلك عذاب عظيم اي ثابت غير منفك اذا متم على ذلك
ثم اكد سبحانه وتعالى هذا التحذير بقوله تعالى ولا تشتروا اي ولا تكلفوا
انفسكم لجاجا وتركا للنظر ان تاخذوا وتستبدلوا بعهد الله الذي له الكمال
كله ثمنا قليلا اي حطام الدنيا وان كثر من ونه كثيرا ثم علل قلته بقوله تعالى
انما عند الله اي الذي له الجلال والاكرام من ثواب الدارين هو خير لكم
ولا يعدل عن الخير الى غيره الا احوج ناقص العقل ثم شرط علم خيريته بكونهم
من ذوي العلم بقوله تعالى ان كنتم تعلمون اي ان كنتم من اهل العلم
والتمييز فيعلمون افضل ما بين العوضين ثم بين ذلك بقوله ما عندكم اي من
متاع الدنيا ولذاتها ينفد اي يفنى فصاحبه منغص العيش اشد ما يكون
به اغتباطا بانقطاعه وما عند الله اي الذي له الامر كله من ثواب الاخرة
ونعيم الجنة باق اي دايم روي عن ابي موسى الاشعري ان رسول الله صلى
الله عليه وسلم قال من احب دنياه ضر باخرته ومن احب اخرته ضر بدنياه
فاثروا ما يبقى على ما يفنى وقرا ابن كثير باق في الوقف باليا والباقون
بغير يا واما في الوصل فالجميع بالتنوين ولنجزين الذين صبروا على الوفا
بما يرضيه من الاوامر والنواهي في السرا والضرا اجرهم اي ثواب
اجرهم صبرهم باحسن ما كانوا يعملون اي بجزا احسن من اعمالهم
او بجزيهم على احسن اعمالهم وذلك لان المومن قد ياتي بالمباحات وبالمندوبات
وبالواجبات ولا شك ان الواجبات والمندوبات مما يثاب على فعلها
لا فعل المباحات وقرا ابن كثير وعاصم بالنون قبل الجيم اي ولنجزين عن
والباقون باليا اي وليجزين الله ثم انه تعالى رغب المومنين في الايمان بكل
ما كان من شرايع الاسلام بقوله تعالى من عمل صالحا من ذكر او انثى وهو مومن
اذ لا اعتداد باعمال الكفار في استحقاق الثواب وانما المتوقع عليها
باستحقاق العذاب فان قيل من عمل صالحا يفيد العموم فما فايدة ذكر وانثى تخفيف
اجيب بانه ذكره دفعا للتخصيص باحد الفريقين واختلف في قوله
تعالى فلنحيينه حياة طيبة فقال سعيد بن جبير وعطا هي الرزق
الحلال وقال مقاتل هي العيش في الطاعة وقال الحسن هي القناعة
لان عيش المومن في الدنيا وان كان فقيرا اطيب من عيش الكافر وان كان
غنيا لان المومن لما علم ان رزقه من عند الله وذلك بتقديره وتدبيره تعالى
وعرف ان الله محسن كريم حكيم يضع الاشيا في محلها فكان المومن
راضيا بقضا الله وبما قدره له وعرفه اياه وعلم ان مصلحته في ذلك
القدر الذي رزقه فاستراحت نفسه من الكدر والحرص واما الكافر والجاهل

بهذه

بهذه الاصول الحرص على طلب الرزق فيكون ابدا في حزن وتعب وعنا وحرص
وكد في الدنيا ولا ينال من الرزق الا ما قدر له فظهر بهذا ان عيش المومن القنوع
اطيب من غيره وقال السدي الحياة الطيبة انما تحصل في القبر لان المومن
يستريح بالموت من كدر الدنيا وتعبها وقال مجاهد وقتادة هي الجنة لانها
حياة بلا موت وغنا بلا فقر وصحة بلا سقم وملك بلا هلك وسعادة بلا شقا
فاثبت بهذا ان الحياة الطيبة لا تكون الا في الجنة ولا مانع من ان المومن الكامل
يحصل جميع ذلك ثم ان الله تعالى ختم الاية بقوله تعالى ولنجزينهم اجرهم
اي في الدنيا والاخرة باحسن ما كانوا يعملون اي من الطاعة وقد سبق تفسيره
ولما قال تعالى ولنجزينهم اجرهم باحسن ما كانوا يعملون ارشد به الى العمل
الذي به يخلص اعماله من الوسواس بقوله تعالى فاذا قرات القران اي اردت
قراءته فاستعذ بالله اي ان شئت جهرا وان شئت سرا قال الشافعي رضي
الله تعالى عنه والاسرار اولى في الصلاة وفي قول يجهر كما يفعل خارج الصلاة
اي سل الله الذي له الكمال كله ان يعيذك من الشيطان اي المحترق باللعنة
الرجيم اي المطرود عن الرحمة من ان يصدك بوساوسه عن اتباعه
ويدخل في ذلك جميع المردة من الشياطين لان لهم قدرة على القا الوسوسة
في قلوب بني ادم باقدار الله تعالى على ذلك وقيل المراد ابليس خاصة والامر ذة
بالاستعاذة هي الاعتصام به والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ويدخل فيه غيره من
امته وظاهر الاية وجوب الاستعاذة واليه ذهب عطا سوا كانت في الصلاة القراة م
ام في غيرها واتفق ساير الفقها على انها في الصلاة سنة وغيرها والصارف
لهذا الامر عن الوجوب احاديث كثيرة منها القراة بدون ذكر تعوذ كحديث البخاري
وغيره عن ابي سعيد بن المعلى رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم
قال ما منعك ان تجيبني قال كنت اصلي قال الم يقل الله استجيبوا لله
وللرسول اذا دعاكم ثم قال لاعلمنك سورة هي اعظم سورة في القران الحمد لله
رب العالمين وفي رواية الموطا تدل على ان الاستعاذة بعد القراة واليه ذهب
جماعة من الصحابة والتابعين وهو قول ابي هريرة واليه ذهب مالك وداود
الظاهري قالوا لان قاري القران يستحق ثوابا عظيما وربما حصل الوسواس
في قلب القاري هل حصل له ذلك الثواب اولا فاذا استعاذ بعد القراءة
اندفعت تلك الوساوس وبقي الثواب مخلصا والذي ذهب اليه الاكثرون
من الصحابة والتابعين وما بعدهم من الايمة وفقها الامصار ان الاستعاذة
مقدمة على القراءة قالوا ومعنى الاية اذا اردت ان تقرا القران فاستعذ
بالله ونبههم على ذلك فلهذا قدرت ذلك في الاية الكريمة ومثل ذلك اذا قمتم
الي الصلاة فاغسلوا وجوهكم ومثله من الكلام اذا اكلت فسم
اي اذا اردت ان تاكل فقل بسم الله الرحمن الرحيم واذا سافرت

فناسب وأيضاً الوسوسة إنما تحصل في أثناء القراءة وتقديم الاستعاذة على
القراءة لتذهب الوسوسة عنه أولى من تأخيرها عن وقت الحاجة إليها ولما أمر
الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالاستعاذة من الشيطان وكان ذلك
يوهم أن للشيطان قدرة على التصرف في أبدان الإنسان أزال الله تعالى ذلك
الوهم وبين أنه لا قدرة له البتة إلا على الوسوسة بقوله تعالى إنه ليس له
سلطان أي بحيث لا يقدر المسلط عليه على الانفكاك عنه على الذين
آمنوا أي بتوفيق ربهم لهم وعلى ربهم وحده يتوكلون أي على أولياء المؤمنين
به والمتوكلين عليه فإنهم لا يقبلون منه ولا يطيعونه فيما يريد منهم من اتباع
خطواته وعن سفيان الثوري قال ليس له سلطان على أن يحملهم على ذنب
لا يغفر لهم ثم وصل تعالى بذلك ما أفهمه من أن له سلطاناً على غيرهم بقوله
إنما سلطانه أي الذي يتمكن به غاية التمكن بإمكان الله تعالى له على الذين
يتولونه أي يحبونه ويطيعونه والذين هم به أي بالله مشركون
وقيل الضمير راجع إلى الشيطان والمعنى هم بسببه مشركون بالله ولما كان
المشركون إذا نزلت آية فيها شدة ثم نزلت آية ناسخة لها يقولون إن محمداً يسخر
بأصحابه يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غداً ما هو إلا مفتر يقوله من تلقاء
نفسه نزل وإذا بدلنا أي بقدرتنا بالنسخ آية سهلة كالعدة بأربعة
أشهر وعشر وقتال الواحد من المسلمين لاثنين من الكفار وشاقة كتحريم
الخمر وإيجاب الصلوات الخمس فجعلناها مكان آية شاقة كالعدة بحول
ومصابرة عشرة من الكفار أو سهلة كالآيات المتضمنة لإباحة الخمر
والتبديل رفع الشيء ووضع غيره مكانه والله أي الذي له الإحاطة الشاملة
أعلم بما ينزل من المصالح بحسب الأوقات والأحوال بنسخ أو غيره
قالوا أي الكفار إنما أنت يا محمد مفتر أي متقول على الله تعالى تأمر بشيء
ثم يبدو لك فتنهى عنه وهو جواب إذا والله أعلم بما ينزل اعتراض والمعنى
والله أعلم بما ينزل من الناسخ والمنسوخ والتغليظ والتخفيف أي هو أعلم
بجميع ذلك ومصالح العباد وهذا توبيخ للكفار على قولهم إنما أنت مفتر أي
إذا كان هو أعلم بما ينزل فما لهم ينسبون محمداً إلى الافتراء لأجل التبديل
والنسخ بل أكثرهم وهم الذين يستمرون على الكفر لا يعلمون حكمة
فائدة النسخ والتبديل ولا يميزون الخطأ من الصواب فإن الله هو
تعالى أعلم بمصالح العباد كما أن الطبيب يأمر المريض بشربة ثم بعد مدة
ينهاه عنها ويأمره بغيرها بضد تلك الشربة ثم أمر الله تعالى نبيه صلى
الله عليه وسلم بالرد عليهم بقوله تعالى قل لمن واجهك بذلك منهم
نزله أي القرآن بحسب التدريج لأجل اتباع المصالح بإحاطة علم
المتكلم به نزله روح القدس أي جبريل عليه السلام وإضافة الروح

الى القدس

إلى القدس وهو الطهر كما يقال حاتم الجود وزيد الخير والمراد الروح المقدس وحاتم
الجود وزيد الخير والمقدس المطهر من المآثم من ربك بالحق أي متلبساً بالحكمة
ليثبت الذين آمنوا أي ليثبت بالقرآن قلوب أصحابه ليزدادوا إيماناً
ويقيناً وهدى أي بياناً واضحاً وبشرى للمسلمين أي المنقادين فإن قيل
ظاهر الآية أن القرآن لا ينسخ بالسنة لقوله تعالى وإذا بدلنا آية مكان
آية مقتضاه أن الآية لا تنسخ إلا بآية أخرى أجيب بأن هذه الآية دلت على
أنه تعالى يبدل آية بآية ولا دلالة فيها على أنه لا يبدل آية إلا بآية وأيضاً
فجبريل عليه السلام ينزل بالسنة كما ينزل بالآية ولما كان المشركون يقولون
إن محمداً إنما يتعلم هذه القصص وهذه الأخبار من إنسان آخر وهو آدمي
مثله وليس هو من عند الله كما يزعم نزل قوله تعالى ولقد نعلم أي علماً
مستمراً أنهم يقولون إنما يعلمه بشر واختلف في البشر الذي قال المشركون
إن النبي صلى الله عليه وسلم يتعلم منه فقيل هو عبد لبني عامر بن لؤي
يقال له يعيش كان يقرأ الكتب وقيل عداس غلام عتبة بن ربيعة وقيل
عبد لبني الحضرمي صاحب كتب وكان اسمه جبر وكانت قريش تقول عبد لبني
الحضرمي يعلم خديجة وخديجة تعلم محمداً وقيل كان بمكة نصراني أعجمي اللسان
اسمه بلعام ويقال ابن ميسرة يتكلم بالرومية وقيل سلمان الفارسي وبالجملة
فلا فائدة في تعداد هذه الأسماء والحاصل أن القوم اتهموه بأنه يتعلم هذه
الكلمات من غيره ثم إنه يظهرها من نفسه ويزعم أنه إنما عرفها بالوحي وهو
كاذب فيه فأجاب الله تعالى عنه تكذيباً لهم فيما رموا به رسول الله صلى الله عليه وسلم
من الكذب بقوله تعالى لسان الذي يلحدون أي يميلون إليه أو يشيرون
أعجمي أنه يعلمه وهذا أي لغة العرب وهو مع ذلك لكن في الغاية عربي
مبين لسان أي القرآن عربي مبين أي ذو بيان وفصاحة فكيف
يعلمه أعجمي وروي أن الرجل الذي كانوا يشيرون إليه أسلم وحسن إسلامه
إن الذين لا يؤمنون أي لا يصدقون كل تصديق بل مفترقين بآيات الله
أي الذي له العظمة كلها لا يهديهم الله أي لا يرشدهم ولا يوفقهم للإيمان
ولهم عذاب أليم أي مؤلم في الآخرة ثم أخبر الله تعالى أن الكفار هم المفترون
بقوله تعالى إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله أي القرآن بقولهم هذا
من قول البشر وأولئك أي البعداء البغضاء هم الكاذبون أي الكاملون
في الكذب لأن تكذيب آيات الله أعظم من الكذب أولئك هم الذين عادتهم
الكذب لا يبالون به في كل شيء لا يحجبهم عنه مروءة ولا دين ولما ذكر تعالى الذين
لا يؤمنون مطلقاً أتبعهم صنفاً منهم هم أشد كفراً بقوله تعالى من أي أي
مخلوق وقع له أنه كفر بالله أي الذي له صفات الكمال بأن قال أو عمل ما
يدل على الكفر من بعد إيمانه بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم

ومن اكره على التلفظ بالكفر فتلفظ به وقلبه مطمئن بالايمان فلا شي
عليه لان محل الايمان هو القلب روي ان قريشا اكرهوا عمارا وابويه ياسرا
وامه سمية على الارتداد فربطوا سمية بين بعيرين وقالوا انك اسلمت من اجل
الرجال فقتلت وقتل ياسر وهما اول قتيل في الاسلام واعطاهم عمار بلسانه
ما اراد وامكرها وهو كاره بقلبه فاخبر النبي صلى الله عليه وسلم بانه كفر
فقال صلى الله عليه وسلم كلا ان عمارا امتلا ايمانا من قرنه الى قدمه واختلط
الايمان بلحمه ودمه فجاء الى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يبكي فجعل رسول الله
صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه ويقول ما لك ان عادوا لك فقل لهم مثل
ما قلت تنبيه في الاية دليل على اباحة التلفظ بالكفر وان كان الافضل
ان يجتنب عنه اعزازا للدين كما فعله ابواه ولما روي ان مسيلمة اخذ
رجلين فقال لاحدهما ما تقول في محمد فقال رسول الله فقال فما تقول في
قال انت ايضا فخلاه وقال للاخر ما تقول في محمد فقال رسول الله
قال فما تقول في قال انا اصم فاعاد عليه ثلاثا فاعاد جوابه فقتله
فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اما الاول فقد اخذ برخصة
الله واما الثاني فقد صدع بالحق فهنيا له واختلف الايمة في وقوع
الطلاق بالاكراه فقال الشافعي واحمد رحمهما الله تعالى
لا يقع طلاق المكره وقال ابو حنيفة رحمه الله تعالى يقع واستدل
الشافعي رحمه الله تعالى بقوله تعالى لا اكراه في الدين ولا يمكن
ان يكون المراد نفي ذاته لان ذاته موجودة فوجب حمله على نفي
اثاره اي لا اثر له ولا عبرة به وقال عليه الصلاة والسلام
رفع عن امتي الخطا والنسيان وما استكرهوا عليه وقال ايضا
لا طلاق في اغلاق اي اكراه وتمسك ابو حنيفة بقوله تعالى
فان طلقها فلا تحل له وهذا قد طلقها واجيب بان الاية مخصوصة
بغير ذلك جمعا بين الادلة ولكن من شرح بالكفر صدرا اي فتحه ووسعه
لقبول الكفر واختاره ورضي به فعليهم غضب اي غضب لم يبق
جهة عظيمة لكونه من الله اي الملك الاعظم ولهم اي بظواهرهم
وبواطنهم عذاب عظيم في الاخرة لارتدادهم على اعقابهم ذلك
اي الوعيد العظيم بانهم اي بسبب انهم استحبوا اي احبوا
حبا عظيما الحياة الدنيا الكاينة الحاضرة الفانية فاثروها على
الاخرة الباقية الفاخرة لانهم راوا ما فيه المومنين من الضيق
والكافرين من السعة وان الله اي الذي له الغنا المطلق لا يهدي
القوم الكافرين اي لا يرشدهم الى الايمان ولا يوفقهم للعمل اولئك
اي البعدا والبعدا الذين طبع الله اي الملك الذي لا امر لاحد معه

على قلوبهم اي ختم عليها واستوثق ولما كان التفاوت في السمع نادرا وحد
بقوله تعالى وسمعهم او بمعنى اسماعهم ليناسب قوله تعالى وابصارهم
فصاروا بعدم انتفاعهم لهذه المشاعر كانهم لا يفهمون ولا يسمعون
ولا يبصرون واولئك اي الابعاد من كل خير هم الغافلون عما يراد بهم من
العذاب في الاخرة لا جرم اي لا شك انهم في الاخرة هم الخاسرون اي اكمل
الناس خسارة لان الله تعالى وصفهم بست صفات الاولى انهم استوجبوا
غضب الله تعالى الثانية انهم استوجبوا العذاب الاليم الثالثة انهم استحبوا
الحياة الدنيا على الاخرة الرابعة ان الله تعالى حرمهم من الهداية الخامسة انه
تعالى طبع على قلوبهم وسمعهم وابصارهم السادسة انه جعلهم من الغافلين
عن العذاب الشديد يوم القيمة اذ كل واحدة من هذه الصفات من اعظم الاحوال
المانعة من الفوز بالخيرات والسعادات ومعلوم انه تعالى انما ادخل الانسان
في الدنيا ليكون كالتاجر الذي يشتري بطاعته سعادات الاخرة فاذا حصل
هذه الموانع العظيمة عظم خسرانه فلهذا السبب حكم تعالى عليهم بالخسران
ولما ذكر تعالى حال من كفر بالله من بعد ايمانه وحال من اكره على الكفر
ذكر بعده حال من هاجر من بعد ما فتن بقوله تعالى ثم ان ربك اي المحسن
اليك للذين هاجروا الى المدينة الشريفة بالولاية والنصر وقوله تعالى
من بعد ما فتنوا قرا ابن عامر بفتح الفا والتاء على اسناد الفعل الى الفاعل
والباقون بضم الفا وكسر التاء على فعل ما لم يسم فاعله وجه القراءة الاولى
انه عاد الضمير على المومنين فالمعنى فتنوا انفسهم لان اولئك المفتونين
هم المستضعفون الذين حملهم اقويا المشركين على الردة والرجوع عن
الايمان فبين تعالى انهم هاجروا ثم جاهدوا وصبروا على الطاعة ان ربك من بعدها
اي الفتنة لغفور اي بليغ الاكرام رحيم فهو يغفر لهم ويرحمهم
تنبيه حذف خبر ان الاولى لدلالة خبر الثانية عليه او مفيدا
عامل يوم اي اذكر يوم تاتي كل نفس اي وان عظم جرمها تجادل اي
تحاجج عن نفسها لا يهمها غيرها وهو يوم القيمة فان قيل ما معنى
النفس المضافة الى النفس اجيب بانه يقال لعين الشي وذاته نفسه
وفي نقيضه غيره والنفس الجملة كما هي فالنفس الاولى هي الجملة والثانية
عينها وذاتها فكانه قيل يوم ياتي كل انسان يجادل عن ذاته لا يهمه
شان غيره كل يقول نفسي نفسي ومعنى المجادلة عنها الاعتذار
عنها كقولهم هولاء الذين اضلونا ونحو ذلك وما كنا مشركين وتوفى كل
نفس صالحة او غير صالحة ما عملت اي جزا من جنسه وهم لا يظلمون
شيا ولما هدد تعالى الكفار بالوعيد الشديد في الاخرة هددهم ايضا بافات
الدنيا وهي الوقوع في الجوع والخوف بقوله تعالى وضرب الله اي المحيط بكل شي

مثلاً ويبدل منه قرية هي مكة والمراد اهلها كانت آمنة اي ذات امن
ويامن به اهلها في زمن الخوف قال تعالى اولم يروا انا جعلنا حرما امنا ويتخطف
الناس من حولهم والامن في مكة كان كذلك لان العرب كان يغير بعضهم على بعض
دون اهل مكة فانهم كانوا اهل حرم الله والعرب كانوا يحترمونه ويخصونهم بالتعظيم
والتكريم مطمئنة اي قارة باهلها لا يحتاجون فيها الى النجعة والانتقال بسبب
زيادة الامن بكثرة العدد وقوة المدد وكف الله الناس عنها ووجود ما يحتاج
اليه اهلها فان قيل الاطمئنان هو الامن فيلزم التكرار اجيب بان قوله تعالى
آمنة اشارة الى الامن وقوله تعالى مطمئنة لا يحتاجون فيها الى النجعة كما
وقيل اشار تعالى بذلك الى الصحة لان هواء ذلك البلد كان ملائما لامزجتهم
فلذلك اطمأنوا اليه واستقروا قالت العقلاء ثلاثة ليس لها نهاية الامن
والصحة والكفاية يأتيها اي على سبيل التجدد والاستمرار رزقها رغدا
اي واسعا طيبا من كل مكان بر وبحر بتيسير الله تعالى ولما كانت السعة
تجر الى البطر غالبا نبه تعالى على ذلك بقوله تعالى فكفرت بانعم الله
اي الذي له الكمال كله وانعم جمع نعمة قاله الزمخشري على ترك الاعتداد
بالتاء كدرع وادرع وقال قطرب هي جمع نعم والنعم والنعمة
يقال هذه ايام نعم وطعم فلا تصوموا وقيل جمع نعمة مثل بأساء وابؤس
فان قيل الانعم جمع قلة فكانت تلك القرية كفرت بانواع قليلة و
من نعم الله فعذبها الله تعالى فلم لم يقل تعالى كفروا بنعم عظيمة
فاستوجبوا العذاب اجيب بان المقصود التنبيه بالادنى على الاعلى
فان كفران النعم القليلة لما اوجب العذاب فبكفران النعم الكثيرة اولى
وبان الله تعالى انعم عليهم بالنعمة العظيمة وهو محمد صلى الله عليه وسلم
فكفروا به وبالغوا في ايذائه فاذاقها الله اي المحيط بكل شيء لباس
الجوع بعد رغد العيش سبع سنين وقطعت العرب عنهم الميرة
بامر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جهدوا واكلوا العظام المحرقة
والجيف والكلاب الميتة وقيل ان القرية غير مكة لانها ضربت مثلا
لمكة ومثل مكة يكون غير مكة والخوف بسرايا النبي صلى الله عليه وسلم
تنبيه استعير الذوق لادراك اثر الضرر واللباس لما غشيهم
واشتمل عليهم من الجوع والخوف واوقع الاذاقة عليه بالنظر الى المستعار
له كقول كثير

● غمر الرداء اذا تبسم ضاحكا ● غلقت لضحكته رقاب المال ●

فانه استعار الرداء للمعروف لانه يصون عرض صاحبه صون الرداء لما
يلقى عليه واضاف اليه الغمر الذي هو وصف المعروف والنوال لا وصف
الرداء نظرا الى المستعار له ولو نظر الى المستعار لقال ضافي الرداء اي

سابغة ومعنى البيت اذا ضحك المسؤول ضحكة ايقن السائل بذلك استغلق
رقاب ماله ويعطي بلا خلاف وقد ينظر الى المستعار له كقوله

● ينازعني ردائي عبد عمرو ● رويدك يا اخا عمرو بن بكر ●
● لي الشطر الذي ملكت يميني ● ودونك فاعتجر منه بشطر ●

استعار الرداء للسيف ثم قال فاعتجر نظرا الى المستعار ولو نظر الى
المستعار منه لقال تعالى في الآية فكساهم لباس الجوع والخوف
ولقال كثير صافي الرداء اذا تبسم ضاحكا وهذا نهاية ما يقال في الاستعا ره
وقال ابن عطية لما باشرهم ذلك صار كاللباس وهذا كقول الاعشى

● اذا ما الضجيع ثنى جيدها ● تثنت عليه فكانت لباسا ●

ومثله قوله تعالى هن لباس لكم وانتم لباس لهن ومثله قول الشاعر

● وقد لبست بعد الزبير مجاشع ● لباس التي حاضت ولم تغسل الدما

كان العار لما باشرهم ولصق بهم كانهم لبسوه وقوله تعالى فاذاقهم
نظير قوله تعالى ذق انك انت العزيز الكريم ونظير قول الشاعر
دونك ما جنيته فاحس وذق ● وقوله تعالى بما كانوا يصنعون يجوز
ان تكون ما مصدرية اي بسبب صنعهم او بمعنى الذي والعائد محذوف
اي بسبب الذي كانوا يصنعونه والواو في يصنعون عائد على اهل البلد
وقيل قرية نظيره قوله تعالى او هم قائلون بعد قوله تعالى وكم من قرية اهلكنا ها
ولما ذكر الله تعالى المثل ذكر الممثل له فقال تعالى ولقد جاءهم اهل هذه القرية
رسول منهم من نسبهم يعرفونه باصله ونسبه وهو محمد صلى الله
عليه وسلم فكذبوه فاخذهم العذاب قال ابن عباس يعني الجوع الذي
كان بمكة وقيل القتل يوم بدر وهم ظالمون اي في حال التباسهم بالظلم
كقوله تعالى الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي انفسهم نعوذ بالله من مفاجأة
النقمة والموت على الغفلة وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم
باظهار قد عند الجيم والباقون بالادغام ثم قال تعالى فكلوا اي
ايها المؤمنون مما رزقكم الله قال ابن عباس يريد من الغنائم وقال الكلبي ان رؤساء
مكة كلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جهدوا وقالوا عاديت الرجال
فما بال النساء والصبيان وكانت الميرة قد قطعت عنهم فاذن في الحمل اليهم
فحمل الطعام اليهم فقال الله تعالى كلوا مما رزقكم الله قال الرازي والقول
ما قال ابن عباس يدل عليه قوله تعالى بعد هذه الآية انما حرم عليكم
الميتة يعني انكم لما آمنتم وتركتم الكفر فكلوا مما رزقكم الله حلالا
طيبا وهو الغنيمة واتركوا الخبائث وهي الميتة والدم ولما امرهم تعالى
باكل الحلال امرهم بشكر النعمة بقوله تعالى واشكروا نعمة الله ان
كنتم اياه تعبدون اي تطيعون تنبيه رسمت نعمة بالتاء ووقف ابن كثير

وابو عمرو بالهاء والباقون بالتاء والكسائي يقف بالامالة وتقدم تفسير قوله تعالى
انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما اهل لغير الله به فمن
اضطر غير باغ ولا عاد فان الله غفور رحيم في سورة البقرة فلا فايدة
في اعادة ذلك وقرا ابو عمرو وعاصم وحمزة فمن اضطر في الوصل بكسر النون
والباقون بالضم تنبيه حصر المحرمات في هذه الاشيا الاربعة مذكور ايضا
في سورة الانعام عند قوله تعالى قل لا اجد فيما اوحي الي محرما على طاعم يطعمه
الاية وفي سورة المايدة في قوله تعالى احلت لكم بهيمة الانعام الا ما يتلى
عليكم واجمعوا على انه المراد بقوله تعالى الا ما يتلى عليكم هو قوله تعالى في
سورة البقرة انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما اهل به لغير الله
وقوله تعالى في المايدة والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما
اكل السبع الا ما ذكيتم فهذه الاشيا داخلة في الميتة ثم قال تعالى وما
ذبح على النصب وهو احد الاشيا الداخلة تحت قوله تعالى وما اهل
به لغير الله فثبت ان هذه السور الاربعة سورتان مكيتان وسورتان مدنيتان
فان سورة البقرة مدنية وسورة المايدة من اخر ما انزل الله بالمدينة
فمن انكر حصر التحريم في هذه الاربعة الا ما خصه الاجماع والدلايل
العقلية القاطعة كان في محل ان يخشى عليه لان هذه السورة دلت على ان
حصر المحرمات في هذه الاربعة كان شروعا ثابتا في اول زمان مكة واخره
واول زمان المدينة وفوقه تعالى اعاد هذا البيان في هذه السور الاربعة
قطعا للاعذار وازالة الشبهة ولما حصر تعالى المحرمات في هذه الاربع
بالغ في تاكيد ذلك الحصر وزيف طريقة الكفار في الزيادة على هذه الاربعة
تارة وفي النقصان عنها اخرى بقوله تعالى ولا تقولوا لما تصف السنتكم
الكذب هذا حلال وهذا حرام لما لم يحله الله ولم يحرمه فانهم
كانوا يحرمون البحيرة والسايبة والوصيلة والحام وكانوا يقولون ما في
بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على ازواجنا فقد زادوا
في المحرمات وزادوا ايضا في المحللات لانهم حللوا الميتة والدم ولحم
الخنزير وما اهل به لغير الله فبين تعالى ان المحرمات هي هذه الاربعة
وبين ان الاشيا التي يقولون هذا حلال وهذا حرام كذب وافترا
على الله تنبيه في انتصاب الكذب وجهان احدهما قال الكسائي
ما مصدرية والتقدير ولا تقولوا لاجل وصف السنتكم الكذب
هذا حلال وهذا حرام نظيره ان يقال لا تقولوا لكذا وكذا
كذا وكذا فان قيل حمل الاية على ان هذا يودي الى التكرار لان قوله تعالى
لتفتروا على الله الكذب عين ذلك اجيب بان قوله لما تصف السنتكم
الكذب ليس فيه بيان انه كذب على الله فاعاده ليحصل فيه هذا البيان

الزايد

الزايد ونظيره في القران كثير وهو انه تعالى يذكر كلاما يفيد بعينه مع فايدة زايدة
الثاني ان تكون ما موصولة والتقدير ولا تقولوا للذي تصف السنتكم
الكذب فيه هذا حلال وهذا حرام وحذف لفظ فيه لكونه معلوما وقيل
اللام في لتفتروا لام العاقبة كما في قوله ليكون لهم عدوا وحزنا فان قيل ما معنى
وصف السنتهم الكذب اجيب بان ذلك من فصيح الكلام وبليغه جعل
قولهم كانه عين الكذب ومحضه واذا نطقت به السنتهم فقد حلت الكذب
بحليته وصورته بصورته كقولهم وجهها تصف الجمال اي هي جميلة وعينها
تصف السحر اي هي ساحرة فلما ارادوا المبالغة في وصف الوجه بالجمال
ووصف العين بالسحر عبر وا بذلك ثم انه تعالى اوعد المفترين بقوله تعالى
ان الذين يفترون على الله اي الذي له الملك كله الكذب منكم ومن غيركم
لا يفلحون اي لا يفوزون بخير لان المفتري يفتري ليحصل مطلوب
فنفى الله عنه الفلاح لان الفوز بالخير والنجاح ثم بين تعالى ان ما هم فيه من
نعيم الدنيا يزول عنهم عن قرب بقوله تعالى متاع قليل اي منفعة
قليلة تنقطع عن قريب لفنايه وان امتد الف عام ولهم بعد ذلك عذاب
اليم اي مولم في الاخرة ولما بين تعالى ما يحل ويحرم لاهل الاسلام
اتبعه ببيان ما يختص اليهودية من المحرمات بقوله تعالى وعلى الذين
هادوا اي اليهود حرمنا عليهم عقوبة لهم بعدوانهم وكذبهم على
ربهم حرمنا ما قصصنا عليك يا اجل المرسلين من قبل اي في سورة
الانعام وهو قوله تعالى وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر الاية وما
ظلمناهم اي بتحريم ذلك عليهم ولكن كانوا اي دايما طبعا لهم وخلقا
مستمرا انفسهم بالبغي خاصة يظلمون بالبغي والكفر فضيقنا
عليهم معاملة بالعدل وعاملناكم انتم حيث ظلمتم بالفضل فاشكروا
النعمة واحذروا غوايل النقمة ولما بين تعالى هذه النعمة الدنيوية
عطف عليها نعمة هي اكبر منها جدا استجلابا لكل ظالم وبين
عظمتها بحرف التراخي فقال تعالى ثم ان ربك اي المحسن اليك
للذين عملوا السوء وهو تبنا ولكل ما لا ينبغي فعله فيشمل الكفر
وساير المعاصي بجهالة اي بسببها او متلبسين بها لانهم الجهل بالله
وبعقابه وعدم التدبر في العواقب فكل من عمل سوءا انما يفعله
بالجهالة اما الكفر فلان احدا لا يرضى به مع العلم بكونه كفرا لانه
لو لم يعتقد كونه حقا فانه لا يختاره ولا يرتضيه واما المعصية
فلان العالم لم يصدر عنه المعصية ما لم تصر الشهوة غالبة للعقل
فثبت ان كل من عمل السوء فانما يقدم عليه بسبب الجهالة ثم تابوا
من بعد ذلك اي الذنب ولو كان عظيما واقتصروا على ما اذن

فيه حالهم واصلحوا بالاستمرار على ذلك ان ربك اي المحسن اليك لتسهيل
ذنبك وتيسيره من بعدها اي التوبة لغفور اي بليغ الستر لما عملوا
من السوء رحيم اي بليغ الرحمة يحسن بالاكرام فضلا منه ونعمة ولما ان
دعاهم الله تعالى الى مكارم الاخلاق ونهاهم عن مساويها بقبوله لمن اقبل
اليه وكان ابراهيم عليه السلام رئيس الموحدين لاجرم ذكره الله تعالى
في اخر هذه السورة ووصفه بتسع صفات قوله تعالى ان ابراهيم
كان امة اي لكماله واستجماعه فضايل لا تكاد توجد الا متفرقة في اشخاص
كثيرة كقول القايل وليس لله اي من الله بمستنكر ان يجمع العالم في واحد
اي يجمع صفاتهم في شخص واحد وقال مجاهد كان مومنا وحده والناس
كلهم كانوا كفارا فلهذا المعنى كان وحده امة واحدة وكان النبي صلى
الله عليه وسلم يقول في زيد بن عمرو بن نفيل يبعثه الله امة وعن
شهر بن حوشب لم تبق الارض الا وفيها اربعة عشر يدفع الله تعالى
بهم عن اهل الارض الا زمن ابراهيم فانه كان وحده وقيل امة فعلة بمعنى
مفعول كالدخلة والنخبة من امه اذا قصده واقتدى به فان الناس
كانوا يومونه للاستفادة ويقتدون بسيرته كقوله تعالى اني
جاعلك للناس اماما وقرا هشام ان ابراهيم وملة ابراهيم بالالف
بعد الهاء فيهما وقرا الباقون بالياء فيهما الصفة الثانية قوله تعالى
قانتا لله اي مطيعا له قايما باوامره الصفة الثالثة قوله تعالى
حنيفا اي مايلا عن الباطل قال ابن عباس انه اول من اختتن
واقام مناسك الحج وضحى وهذه السنة الحنيفية الصفة الرابعة قوله
تعالى ولم يك من المشركين اي انه عليه السلام كان من الموحدين
في الصغر والكبر وقد ابطل عبادة الاصنام والكواكب بقوله لا احب
الافلين ثم كسر تلك الاصنام حتى ال الامر الى ان القوه
في النار وذلك دليل اثبات الصانع مع ملك زمانه وهو قوله
ربي الذي يحيي ويميت ثم طلب من الله تعالى ان يريه كيف يحيي
الموتى ليحصل له زيادة الطمانينة قال الرازي ومن وقف على
علم القران علم ان ابراهيم عليه السلام كان غريقا في بحر علم التوحيد
الصفة الخامسة قوله تعالى شاكرا لانعمه فان قيل لفظ الانعم
جمع قلة ونعمة الله تعالى على ابراهيم كانت كثيرة فلم قال شاكرا لانعمه
اجيب بانه ذكر بلفظ القلة للتنبيه على انه كان لا يخل بشكر
القليلة فكيف بالكثيرة وروي انه عليه السلام كان لا يتغذى
الا مع ضيف فلم يجد ذات يوم ضيفا فاخر غداه فاذا هو بفوج
من الملايكة في صورة البشر فدعاهم الى الطعام فخيلوا له ان بهم

جذاما فقال لهم الان وجبت مواكلتكم شكرا لله على ان عافاني وابتلاكم بهذا البلا
الصفة السادسة قوله تعالى اجتباه اي اصطفاه للنبوة واختاره
لخلته الصفة السابعة قوله تعالى وهداه الى صراط مستقيم اي وهداه
الى دين الاسلام لانه الصراط المستقيم والدين القويم ونظيره قوله تعالى
وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه الصفة الثامنة قوله تعالى
واتيناه في الدنيا حسنة قال قتادة حببه للناس حتى ان ارباب الملل
يتولونه ويثنون عليه اما المسلمون واليهود والنصارى فظاهر
واما كفار قريش وساير العرب فلا فخر لهم الا به وتحقيق القول
ان الله تعالى اجاب دعاءه في قوله واجعل لي لسان صدق في الاخرين
وقال اخرون هو قول المصلي منا كما صليت على ابراهيم وعلى ال
ابراهيم وقيل اولادا ابرارا على الكبر الصفة قوله تعالى وانه في
الاخرة لمن الصالحين في الجنة فان قيل لم يقل تعالى في اعلى مقامات
الصالحين اجيب بانه تعالى حكى عنه انه قال رب هب لي حكما والحقني
بالصالحين فقال تعالى هنا وانه في الاخرة لمن الصالحين تنبيها على
انه تعالى اجاب دعاءه ثم ان كونه من الصالحين لا ينفي ان يكون في اعلى
مقامات الصالحين فان الله تعالى بين ذلك في اية اخرى وهي قوله
تعالى وتلك حجتنا اتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشا
ولما وصف الله تعالى ابراهيم بهذه الصفات العالية الشريفة
امر نبيه صلى الله عليه وسلم في اتباعه مشيرا الى علو مرتبته
بحرف بقوله تعالى ثم اوحينا اليك يا اشرف الرسل وقيل ان في
ثم للتراخي اي تراخي ايامه عن ايام ابراهيم عليهما الصلاة والسلام
ان اتبع ملة ابراهيم في التوحيد والدعوة اليه بالرفق وايراد
الدلايل مرة بعد اخرى والمجادلة مع كل احد على حسب فهمه ولا بعد
في ان يفهم من ذلك الهجرة ايضا وقيل كان النبي صلى الله عليه وسلم مامورا
بشريعة ابراهيم عليه الصلاة والسلام الا ما نسخ منها وما لم ينسخ
كان شرعا له وقوله تعالى حنيفا حال من النبي صلى الله عليه وسلم
ويصح ان يكون من ابراهيم عليه الصلاة والسلام وقوله تعالى
وما كان من المشركين كرره ردا على من زعم من اليهود والنصارى
انهم على دينه وقوله تعالى انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه فيه قولان
الاول روى الكلبي عن ابي صالح عن ابن عباس انه قال امرهم موسى
بالجمعة وقالوا نتفرغ لله في كل سبعة ايام يوما واحدا وهو
يوم الجمعة ولا نعمل فيه شيئا من اعمالكم فابوا ان يقبلوا ذلك وقالوا
لا نريد الا اليوم الذي فرغ الله تعالى فيه من الخلق وهو يوم السبت

فجعل عليهم السبت وشدد عليهم فيه ثم جاء عيسى عليه السلام ايضا بالجمعة
فقالت النصارى لا نريد ان يكون عيدهم اي اليهود بعد عيدنا فاتخذوا
الاحد وروى ابو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ان الله كتب يوم
الجمعة على من كان قبلكم فاختلفوا فيه وهدانا الله له فهم لنا فيه تبع اليهود
غدا والنصارى بعد غد فان قيل هل في العقل وجه يدل على ان الجمعة افضل
من السبت والاحد وان اهل الملل اتفقوا على انه تعالى خلق العالم في
ستة ايام وبدا تعالى بالخلق والتكوين في يوم الاحد وتمم في يوم الجمعة
وكان يوم السبت يوم الفراغ فقالت اليهود نحن نوافق ربنا في ترك
الاعمال فعينوا يوم السبت لهذا المعنى وقالت النصارى مبدا الخلق
والتكوين يوم الاحد فنجعل هذا اليوم عيدنا فهذان الوجهان معقولات
لنا فما وجه جعل يوم الجمعة عيدا اجيب بان يوم الجمعة يوم التمام
والكمال وحصول التمام والكمال يوجب الفرح الكامل والسرور فجعل
يوم الجمعة يوم العيد اولى من هذا الوجه القول الثاني اختلافهم
في السبت هو انهم احلوا الصيد فيه تارة وحرموه تارة وكان الواجب
عليهم ان يتفقوا في تحريمه على كلمة واحدة **ان ربك** اي المحسن
اليك بطواعية اصحابك لك **ليحكم بينهم** اي هولا المختلفين **يوم
القيامة** وهو يوم اجتماع جميع الخلايق **فيما كانوا فيه يختلفون** فيحكم
للمحقين بالثواب وللمبطلين بالعقاب ولما امر الله تعالى محمدا صلى
الله عليه وسلم باتباع ابراهيم عليه السلام بين الشي الذي امر باتباعه
بما بعثه فيه بقوله تعالى **ادع** اي كل من تمكن دعوته ممن بعثت اليه
الى سبيل ربك اي المحسن اليك بتسهيل السبيل الذي تدعوا
اليه واتباعه هو الاسلام الذي هو الملة الحنيفية **بالحكمة** اي المقالة
المحكمة وهو الدليل الواضح المزيل للشبهة **والموعظة الحسنة** اي
بالدعا الى الله تعالى بالترغيب والترهيب بالخطابات المقنعة والعبارات
النافعة والاولى لدعوى خواص الامة الطالبين للحقايق والثانية
لدعوى عوامهم **وجادلهم** اي وجادل معانديهم **بالتي** اي بالمجادلة
التي **هي احسن** كالدعا الى الله تعالى باياته والدعاء الى حججه
بالطريقة التي هي احسن طرق المجادلة من الرفق واللين من غير غلظة
ولا تعسف فان ذلك انفع في تسكين لهبهم وتليين شغبهم
وقيل المراد بالحكمة القران اي ادعهم بالقران والموعظة الحسنة
الرفق واللين في الدعوة وفي بالمجادلة التي هي احسن الاعراض عن
اذاهم وعدم التقصير في تبليغ الرسالة والدعا الى الحق وعلى هذا
القول قال بعض علماء التفسير هذا منسوخ باية السيف

وقيل

وقيل ان الناس خلقوا وجبلوا على ثلاثة اقسام القسم الاول العلما الكاملون
وهم اصحاب العلوم الصحيحة والبصاير الثاقبة الذين يطلبون معرفة الاشيا
على حقايقها فهم المشار اليهم بقوله تعالى ادع الى سبيل ربك بالحكمة
اي ادعهم بالحكمة بالدلايل القطعية واليقينية حتى يعلموا الاشيا بحقايقها
وينفعوا الناس وهم خواص العلما من الصحابة وغيرهم القسم الثاني اصحاب
الفطرة السليمة والخلقة الاصلية وهم غالب الناس الذين هم لم يبلغوا حد
الكمال ولم ينزلوا الى حضيض النقصان فهم اوسط الاقسام وهم المشار اليهم
بقوله تعالى والموعظة الحسنة اي ادع هولا بالموعظة الحسنة القسم
الثالث اصحاب جدال وخصام ومعاندة وهم هولاء هم المشارون اليهم
بقوله تعالى وجادلهم بالتي هي احسن حتى ينقادوا الى الحق ويرجعون
اليه **ان ربك** المحسن اليك بالتخفيف عنك **هو اعلم** اي من كل
من يتوهم فيه علم **بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين** اي فهو اعلم
بالفريقين فمن كان فيه خير كفاه الوعظ والنصيحة اليسيرة ومن لا خير
فيه عجزت عنه الحيل وكانك تضرب في حديد بارد فما عليك الا البلاغ
واما حصول الهداية والضلال والمجازاة عليهما فليس ذلك اليه وهذا
قبل الامر بالقتال وذكر في قوله تعالى **وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به**
اقوال احدها وهو قول ابن عباس في رواية عطا وابي بن كعب والشعبي
ان النبي صلى الله عليه وسلم لما راى عمه حمزة بن عبد المطلب وقد جذعوا
انفه واذنه وقطعوا مذاكيره وبقروا بطنه واخذت هند بنت عتبة
قطعة من كبده فمضغتها ثم استرطبتها لتاكلها فلم تلبث في بطنها حتى
رمت بها فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال اما انها لو اكلتها اكلته
لم تدخل النار ابدا حمزة اكرم على الله من ان يدخل شيئا من جسده النار
فلما نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم اليه نظر الى شي لم ينظر الى شي قط
اوجع لقلبه منه فقال النبي صلى الله عليه وسلم رحمة الله عليك فاني ما
علمتك الا فعالا للخيرات وصولا للرحم ولولا حزن من بعدك عليك لسرني
ان ادعك حتى تحشر من افواج شتى اما والله لين ظفرني الله بهم لامثلن
بسبعين منهم مكانك فنزلت فامسك رسول الله صلى الله عليه
وسلم عما اراد وكفر عن يمينه فنزلت وقال المسلمون ايضا لما راوا ما
فعل المشركون بقتلاهم يوم احد من تبقير البطون والمثلة السيئة
حتى لم يبق احد من قتلى المسلمين الا مثل به الا حنظلة بن الراهب
فان اباه ابا عامر الراهب كان مع ابي سفيان فتركوا حنظلة لذلك فقال
المسلمون حين راوا ذلك لين ظفرنا عليهم لنزيدن عليهم بغي
على صنيعهم ولنمثلن بهم مثلة لم يفعلها احد من العرب باحد

القول الثاني ان هذا كله قبل الامر بالسيف والجهاد حين كان المسلمون قد
امروا بالقتال مع من يقاتلهم ولا يبتدؤا بالقتال وهو قوله تعالى فقاتلوا
في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا وفي هذه الاية امر الله تعالى
ان يعاقبوا بمثل ما يصيبهم من العقوبة ولا يزيدوا والقول الثالث
ان القول ان المقصود من هذه الاية نهي المظلوم عن استيفاء الزيادة من
الظالم وهذا قول مجاهد والنخعي وابن سيرين قال الرازي وحمل هذه
الاية على قصة لا تعلق لها بما قبلها توجب حصول سوء الترتيب في كلام
الله وهو في غاية البعد بل الاصوب عندي ان يقال انه تعالى امر محمدا
صلى الله عليه وسلم بدعوة الخلق الى الدين الحق باحدى الطرق
الثلاثة وهي الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالطريق الاحسن
ثم ان تلك الدعوة تتضمن امرهم بالرجوع عن دين ابائهم واسلافهم والحكم
عليهم بالكفر والضلالة وذلك مما يشوش قلوبهم ويوحش صدورهم
ويحمل اكثرهم على قصد ذلك الداعي بالقتل تارة وبالضرب ثانيا
وبالشتم ثالثا ثم ان ذلك الداعي المحق اذا سمع تلك السفاهات
لا بد وان يحمله طبعه على تاديب اولئك السفهاء تارة بالقتل وتارة
بالضرب فعند هذا امر المحقين في هذا المقام برعاية العدل والانصاف
وترك الزيادة فهذا هو الوجه الصحيح الذي يجب حمل الاية عليه
فان قيل فهل يقدحون فيما روي انه عليه الصلاة والسلام
ترك العزم على ترك المثلة وكفر عن يمينه بسبب هذه الاية اجيب
بانه لا حاجة الى القدح في تلك الرواية لان تلك الواقعة داخلة في عموم
هذه الاية فيمكن التمسك في تلك الواقعة بعموم هذه الاية
وذلك لا يوجب سوء الترتيب وفي كلام الله تعالى تنبيه امر الله تعالى
برعاية العدل والانصاف في هذه الاية ورتب ذلك على اربع مراتب
المرتبة الاولى قوله تعالى وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم
به اي ان رغبتم في استيفاء القصاص فاقنعوا بالمثل ولا
تزيدوا عليه فان استيفاء الزيادة ظلم والظلم ممنوع منه في
عدل الله تعالى ورحمته وفي قوله تعالى وان عاقبتم فعاقبوا
بمثل ما عوقبتم به دليل على ان الاولى له ان لا يفعل كما انك اذا قلت
للمريض ان كنت تاكل الفاكهة فكل التفاح كان معناه كان الاولى
بك كان الاولى بك ان لا تاكله فذكر تعالى بطريق الرمز
والتعريض ان الاولى تركه المرتبة الثانية الانتقال من التعريض
الى التصريح وهو قوله تعالى **ولئن صبرتم لهو خير للصابرين** وهذا
تصريح بان الاولى ترك ذلك الانتقام لان الرحمة افضل

من القسوة

من القسوة والانتفاع افضل من الانتقام وقرأ العموم قالون وابو عمرو والكسائي
بسكون الهاء والباقون برفعها المرتبة الثالثة وهو الامر بالجزم بالترك
وهو قوله تعالى **واصبر** لانه في المرتبة الثانية ذكر ان الترك خير واولى
وفي هذه المرتبة الثالثة صرح بالامر بالصبر في هذا المقام ولما كان الصبر
في هذا المقام شديدا شاقا ذكره بعده ما يفيد سهولته بقوله تعالى
وما صبرك الا بالله اي الملك الاعظم الذي شرع لك هذا الشرع
الاقوم فذلك بتوفيقه ومعونته وهذا هو السبب الكلي الاصلي ذكر
ما بعده ما هو السبب الجزئي القريب بقوله تعالى **ولا تحزن عليهم**
اي في شدة كفرهم فتبالغ في الحرص الباخع للنفس **ولا تك في ضيق** ولو
قل كما لوح اليه بتنوين التحقير **مما يمكرون** اي من استمرار مكرهم
بك واعبد ربك حتى ياتيك اليقين ولا تك بهم وقد اتى فاصبر فان
الله معزك ومظهر دينك وقرأ ابن كثير بكسر الضاد والباقون
بنصبها تنبيه هذا من الكلام المقلوب لان الضيق صفة
والصفة تكون حاصلة في الموصوف ولا يكون الموصوف حاصلة
في الصفة والصفة تكون فكان المعنى ولا يكن الضيق فيك الا ان
الفائدة في قوله تعالى ولا تك في ضيق هو ان الضيق اذا عظم وقوي
صار كالشيء المحيط بالانسان من كل الجوانب وصار كالقميص المحيط
به فكانت الفائدة في ذكر هذا اللفظ هذا المعنى المرتبة الرابعة
قوله تعالى **ان الله** اي الجامع لصفات الكمال بلطفه وعونه
اي وجد منهم الخوف من الله تعالى واجتنبوا المعاصي **مع الذين اتقوا**
والذين هم محسنون في اعمالهم والشفقة على خلقه وهذا يجري مجرى التهديد
لانه في المرتبة الاولى رغبنا في ترك الانتقام على سبيل الرمز وفي الثانية عدل عن
عدل الى الرمز الى التصريح وهو قوله تعالى ولئن صبرتم لهو خير للصابرين
وفي المرتبة الثالثة امر بالصبر على سبيل الجزم وفي هذه المرتبة
الرابعة كانه ذكر الوعيد على فعل الانتقام فقال ان الله مع الذين اتقوا
عن استيفاء الزيادة والذين هم محسنون في ترك اصل الانتقام فكانه
تعالى قال ان اردت ان اكون معك فكن من المتقين ومن المحسنين
وهذه المعية بالرحمة والفضل والتربية وفي قوله تعالى اتقوا
اشارة الى التعظيم لامر الله تعالى وفي قوله تعالى والذين هم محسنون
اشارة الى الشفقة على خلق الله تعالى قيل لهرم بن حيان عند قرب
وفاته اوص فقال ان الوصية في المال ولا مال لي ولكن اوصيكم
بخواتيم سورة النحل تنبيه قال بعضهم ان قوله تعالى وان عاقبتم
الى لهو خير للصابرين منسوخ باية السيف وما رواه البيضاوي

تبعًا للزمخشري من انه صلى الله عليه وسلم قال من قرا سورة النحل لم يحاسبه
الله تعالى بما انعم عليه في دار الدنيا وان مات في يوم تلاها او ليلة كان له من
الاجر كالذي مات واحسن الوصية حديث موضوع قال الرازي في اخر
هذه السورة يقول مصنف الكتاب • الخلق عزيز • والطريق بعيد •
والمركب ضعيف • والقرب بعد • والوصل هجر • والحقايق مصونه
والمعاني في غيب الغيب مصونه • والاسرار في ما ورا اقفال العزة
مخزونة • وبيد الخلق القيل والقال • والكمال ليس الا لله ذي الاكرام
والجلال والله اعلم **سورة الاسرا مكية** الا الايات
كادوا الايات الثمان مائة وعشر ايات او احدى عشرة والف وخمسمائة
وثلاث وثلاثون كلمة وعدد حروفها ستة الاف واربعمائة وستون حرفا
بسم الله الملك المالك لجميع الامر **الرحمن** لكل ما اوجده بما رباه
الرحيم لمن خصه بالتزام العمل بما يرضاه وقوله تعالى **سبحان** اسم
بمعنى التسبيح الذي هو التنزيه وقد يستعمل علما له فيقطع عن الاضافة
ويمنع الصرف للعلمية وزيادة الالف والنون قال الاعشى في مدح
عامر بن الطفيل • قد قلت لما جاني فخره • سبحان من علقمة الفاخر
اي العجب منه او بفخره والعرب تقول سبحان من كذا اذا تعجبت
منه انشا المدني سبحان الله حيث جعله علما على التنزيه وعلقمة
المذكور صحابي قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو شيخ فاسلم
وبايع واستعمله عمر بن الخطاب رضي الله عنه على حوران فمات بها
الذي اسرى بعبده هو محمد صلى الله عليه وسلم الذي هو اشرف
عباده على الاطلاق واختصهم بالاضافة اليه وقرا ابو عمرو وحمزة
والكسائي اسرى بالامالة محضة وورش بين بين والباقون بالفتح وقوله
تعالى **ليلا** نصب على الظرف والاسرى سير الليل وفايدة ذكره الاشارة
بتنكيره الى قلة مدته فكان هذا الامر الجليل في جزء يسير من الليل والى انه
عليه الصلاة والسلام لم يحتج في الاسرى والعروج الى سدرة المنتهى
وسماع الكلام من العلي الاعلى الى رياضة بصيام ولا غيره بل كان مهيا
لذلك متاهلا له فاقامه الله تعالى من الفرش الى العرش **من المسجد الحرام**
اي بعينه وهو الذي يدل عليه لفظ ظاهر القران وروي انه صلى الله عليه
وسلم قال بينا انا في المسجد الحرام في الحجر عند البيت بين النايم واليقظان
اذ اتاني جبريل بالبراق وقيل كان نايما في الحطيم وقيل في بيت
ام هاني بنت ابي طالب قال البقاعي وهو قول الجمهور والمراد
بالمسجد حينئذ الحرم لانه فنا المسجد **الى المسجد الاقصى** اي بيت
المقدس الذي هو ابعد المسافة حينئذ وابعد المسجد في الاعظام بالنسبة

مطلقا

مطلقا من مكة المشرفة بينهما اربعون ليلة فصلى بالانبيا كلهم ابراهيم وموسى
ومن سواهما على جميعهم افضل الصلاة والسلام وراى من اياتنا الكبرى
ما قدرناه له كما سياتي في حديث المعراج ورجع الى بين اظهركم الى المسجد
الاقرب منكم في ذلك الجزء اليسير من الليل وانتم تضربون اكباد الابل في
هذه المسافة شهرا ذهابا وشهرا ايابا ثم وصفه تعالى بما يقتضي تعظيمه
وانه اهل للقصد بقوله تعالى **الذي باركنا حوله** اي بما لنا من العظمة
من المياه والاشجار وقال مجاهد سماه مباركا لانه مقر الانبيا ومهبط الملائكة
والوحي ومنه يحشر الناس يوم القيمة وموطن العبادات ومعدن
الفواكه والارزاق والبركات وبارك تعالى حوله لاجله فما ظنك
به فهو ابلغ من باركنا فيه ثم منه الى السموات العلى الى سدرة المنتهى
الى ما لم ينله بشر غيره صلى الله عليه وسلم قال البقاعي ولعل
حذف ذكر المعراج من القران هنا لقصور فهومهم عن ادراك ادلته
لو انكروه بخلاف الاسرى فانه اقام دليله عليهم بما شاهدوه من
الامارات التي وصفها لهم وهم قاطعون بانه صلى الله عليه وسلم لم يرها
قبل ذلك فلما بان صدقه بما ذكر من الامارات اخبر بعد ذلك من اراد
الله تعالى بالمعراج ثم ذكر سبحانه وتعالى الغرض من الاسرا بقوله تعالى
لنريه بعينه وقلبه **من اياتنا** اي عجايب قدرتنا السماوية
والارضية كما ارينا اباه الخليل عليه السلام ملكوت السموات
والارض **انه** اي الله **هو السميع** لجميع الاصوات **البصير** اي
العالم باحوال عباده فيكرم ويقرب من يشاء منهم وقيل انه اي هذا
العبد الذي اختصصناه بالاسرى هو اي خاصة السميع اي اذنا
وقلبا بالاجابة لنا والاذعان لاوامرنا البصير بصيرا وبصيرة
بدليل ما اخبر به من الايات وصدقه من الدلالات حتى حين ما بينه
ما سالوه منه من بيت المقدس ومن امر عيرهم وغيرهما مما هو مشهور
في قصة الاسرى واختلف هل اسرى بروحه او بجسده صلى
الله عليه وسلم فعن عايشة رضي الله تعالى عنها انها كانت تقول ما فقد
جسد النبي صلى الله عليه وسلم ولكن اسرى بروحه والاكثرون على انه
اسرى بجسده في اليقظة وتواترت الاخبار الصحيحة على ذلك منها
قوله صلى الله عليه وسلم اوتيت بالبراق وهو دابة ابيض فوق الحمار
ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه فركبته فسار بي حتى
اتيت بيت المقدس فربطت الدابة بالحلقة التي تربط فيها الانبياء
ثم دخلت فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فجاءني جبريل باناء من خمر واناء
من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل عليه السلام اصبت الفطرة

قال صلى الله عليه وسلم ثم عرج بي الى سما الدنيا فاستفتح جبريل فقيل ومن معك
قال محمد قيل وقد ارسل اليه قال قد ارسل اليه ففتح لنا فاذا انا بآدم فرحب
بي ودعا لي بخير ثم عرج بنا الى السما الثانية فاستفتح جبريل فقيل من انت
فقال جبريل فقيل ومن معك قال محمد قيل قد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح
لنا فاذا انا بابني الخالة يحيى وعيسى فرحبا بي ودعوا لي بخير ثم عرج بي الى
السما الثالثة فاستفتح جبريل فقيل من انت قال جبريل فقيل ومن معك
قال محمد فقيل وقد ارسل اليه قال قد ارسل اليه ففتح لنا فاذا انا بيوسف
واذا هو اعطي شطر الحسن فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بنا الى السما الرابعة
فاستفتح جبريل فقيل من انت فقال جبريل فقيل ومن معك قال
محمد فقيل وقد ارسل اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا انا بادريس
فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بنا الى السما الخامسة فاستفتح جبريل
فقيل من انت فقال جبريل فقيل ومن معك قال محمد فقيل وقد
ارسل اليه قال بعث اليه ففتح لنا فاذا انا بهارون فرحب بي ودعا لي
ثم عرج بنا الى السما السادسة فاستفتح جبريل فقيل من انت
فقال جبريل فقيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال
قد بعث اليه ففتح لنا فاذا انا بموسى فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج
بنا الى السما السابعة فاستفتح جبريل فقيل من انت فقال جبريل فقيل
ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا
فاذا انا بابراهيم فاذا هو مسند الى البيت المعمور واذا هو يدخله
كل يوم سبعون الف ملك ثم لا يعودون اليه ثم ذهب بي الى سدرة
المنتهى فاذا اوراقها كاذان الفيلة واذا ثمرها كالقلال فلما غشيها من
امر الله ما غشيها تغيرت فما احد من خلق الله يستطيع ان يصفها من
حسنها قال صلى الله عليه وسلم فاوحى الى عبده ما اوحى وفرض علي
في كل يوم وليلة خمسين صلاة فنزلت حتى انتهيت الى موسى
فقال ما فرض ربك على امتك قلت خمسين صلاة في كل يوم وليلة قال
ارجع الى ربك فاسأله التخفيف فان امتك لا تطيق ذلك واني قد
بلوت بني اسرائيل وخبرتهم قال فرجعت الى ربي فقلت له اي
ربي خفف عن امتي فحط عني خمسا فرجعت الى موسى فقال ما فعلت
فقلت حط عني خمسا قال ان امتك لا تطيق ذلك فارجع الى ربك
فاسأله التخفيف لان امتك لا تطيق ذلك قال فلم ازل اراجع بين
ربي وبين موسى ويحط عني خمسا خمسا حتى قال يا محمد هي خمس
صلوات في كل يوم وليلة بكل صلاة عشر فتلك خمسون صلاة
ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فان عملها كتبت له عشرا

ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب فان عملها كتبت سيئة واحدة فنزلت حتى
انتهيت الى موسى فاخبرته فقال ارجع الى ربك فاسأله التخفيف لامتك
فان امتك لا تطيق فقلت قد رجعت الى ربي حتى استحييت رواه الشيخان
وروي انه قال بعد ذلك ولكن ارضى واسلم فلما جاوزت نادى مناد
امضيت فريضتي وخففت عن عبادي ثم ادخلت الجنة فاذا فيها جنابذ
اللؤلؤ واذا ترابها المسك وروي انه لما وصل الى سدرة المنتهى فاذا
اربعة انهار نهران ظاهران ونهران باطنان فقلت ما هذان يا جبريل
قال اما الباطنان فنهران في الجنة واما الظاهران فالنيل والفرات
ثم رفع الى البيت المعمور ثم اوتيت باناء من خمر واناء من لبن واناء من عسل
فاخذت اللبن فقال هي الفطرة التي عليها انت وامتك قال ثم فرضت
علي الصلاة خمسين صلاة يوم فرضت فمررت على موسى وساق الحديث
ومنها ما رواه الحاكم في المستدرك عن ابن عباس قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم رايت ربي عز وجل قال هي رؤيا عين اريها رسول
الله صلى الله عليه وسلم ليلة اسري به الى بيت المقدس قال
والشجرة الملعونة في القرآن هي شجرة الزقوم ومنها ما رواه قتادة
عن انس بن مالك رضي الله عنه عن مالك بن صعصعة ان نبي الله
صلى الله عليه وسلم حدثهم عن ليلة الاسرا به قال بينا انا في الحطيم
فربما قال في الحجر مضطجع ومنهم من قال بين النائم واليقظان وذكر
بين رجلين واتيت بطست من ذهب مملوة حكمة وايمانا فشق من النحر
الى مراق البطن واستخرج قلبي فغسل ثم حشي ثم اعيد وقال سعيد
وهشام ثم غسل البطن بماء زمزم ثم ملئ ايمانا وحكمة ثم اتيت بالبراق
وهو دابة ابيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى
طرفه فركبته وساق بقية الحديث ومنها ما روي انه صلى الله عليه
وسلم كان نائما في بيت ام هاني بعد صلاة العشا فاسري به ورجع من
ليلته وقص القصة على ام هاني وقال مثل لي النبيون فصليت بهم
وقام ليخرج الى المسجد فتشبثت ام هاني بثوبه فقال ما لك قالت
اخشى ان يكذبك الناس وقومك ان اخبرتهم قال وان كذبوني فخرج
اليهم وروي انه لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة اسري
به فكان بذي طوى قال يا جبريل ان قومي لا يصدقوني قال يصدقك
ابو بكر وهو الصديق قال ابن عباس وعائشة عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم لما كانت ليلة اسري بي فاصبحت بمكة فظعت بامري وعرفت
ان الناس يكذبوني فروي انه عليه الصلاة والسلام قعد معتزلا حزينا
فمر به ابو جهل فجلس اليه فقال كالمستهزئ هل استفدت من شي

قال نعم اسري بي الليلة قال الي اين قال الي بيت المقدس ثم اصبحت بين
ظهرانينا قال نعم فقال ابو جهل يا معشر بني كعب بن لوي هلم فانتفضت
اليه المجالس فجاوا حتى جلسوا اليهما فقال حدث قومك بما حدثتني قال
نعم اني قد اسري بي الليلة قالوا الي اين قال الي بيت المقدس قالوا ثم اصبحت
بين اظهرنا قال نعم فمن بين مصفق وواضع يده على راسه تعجبا وانكارا
وارتد ناس ممن كان امن به وسعى رجال الى ابي بكر فقالوا هل لك
في صاحبك يزعم انه اسري به الليلة الي بيت المقدس قال او قد قال
قالوا نعم قال ان كان قال ذلك لقد صدق قالوا تصدقه على ذلك قال اني
لاصدقه على ابعد من ذلك اصدقه على خبر السما في غدوة او روحة
فسمي الصديق قال وفي القوم من كان ياتي المسجد الاقصى فقالوا فهل
تستطيع ان تنعت لنا المسجد الاقصى قال نعم قال فذهبت انعت
وانعت فما زلت انعت حتى التبس علي قال فجي بالمسجد وانا انظر
اليه حتى وضع دون دار عقيل فنعت المسجد وانا انظر اليه فقال
القوم اما النعت فوالله لقد اصاب ثم قالوا يا محمد اخبرنا عن عيرنا فهي
اهم الينا هل لقيت منها شيا قال نعم مررت على عير بني فلان وهي بالروحا
وقد اضلوا بعيرا لهم وهم في طلبه وفي رحالهم قدح من ما فعطشت
فاخذته فشربته ثم وضعته كما كان فسالوه هل وجدوا الما في القدح
حين رجعوا اليه قالوا هذه اية قال ومررت بعير بني فلان وفلان
وفلان راكبان قعودا لهما فنفر بعيرهما مني فرمى بفلان فانكسرت يده فاسالوهما
عن ذلك قالوا وهذه اية قالوا فاخبرنا عن عيرنا مني تجي قال مررت بها بالتنعيم
قالوا فاعدتها وما حملها وما احمالها ومن فيها قال هيئتها كذا وكذا وفيها
فلان وفلان يقدمها جمل اورق عليه غرارتان مخيطتان تطلع عليكم عند طلوع
الشمس قالوا وهذه اية ثم خرجوا يشتدون نحو الثنية وهم يقولون والله
لقد قص محمد شيا وبينه حتى اتوا كدا فجلسوا عليه فجعلوا ينظرون
متى تطلع الشمس فيكذبونه اذ قال قايل منهم هذه الشمس والله قد
اشرقت فقال اخر والله وهذه العير قد اقبلت يقدمها جمل اورق كما قال
محمد ثم لم يومنوا وقالوا ما هذا الا سحر مبين والاورق من الابل في لونه
بياض الي سواد وهو اطيب الابل لحما قاله الجوهري ومنها ما روي عن
انس بن مالك قال كان ابو ذر يحدث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال فرج سقف بيتي وانا بمكة فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله
من ما زمزم وجا بطست من ذهب ممتلي حكمة وايمانا وافرغها في
صدري ثم اطبقه ثم اخذ بيدي وعرج بي الي السما فلما جينا الى
السما الدنيا قال جبريل لخازن السما افتح قال ومن هذا قال جبريل

لخازن

لخازن السما افتح قال ومن معك هذا قال جبريل قال هل معك احد قال نعم
معي محمد قال فارسل اليه قال نعم ففتح قال فلما علونا السما الدنيا فاذا رجل
عن يمينه اسودة وعن يساره اسودة فاذا نظر قبل يمينه ضحك واذا
نظر قبل شماله بكى فقال مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح قال قلت يا جبريل
من هذا قال هذا ادم وهذه الاسودة عن يمينه وعن شماله نسم بنيه
فاهل اليمين منهم اهل الجنة والاسودة التي عن شماله اهل النار واذا نظر
عن يمينه ضحك واذا نظر قبل شماله بكى ثم عرج بي جبريل حتى اتى السما الثانية
فقال لخازنها افتح فقال له خازنها مثل ما قال خازن السما الدنيا فقال
انس بن مالك فذكر انه وجد في السموات ادم وادريس وموسى وعيسى
وابراهيم ولم يبين كيف منازلهم غير انه ذكر انه وجد ادم في الدنيا وابراهيم
في السما السادسة قال فلما مر جبريل ورسول الله صلى الله عليه وسلم
بادريس فقال مرحبا بالاخ الصالح والنبي الصالح قال فقلت من هذا
قال انه ادريس قال ثم مررت بموسى فقال مرحبا بالنبي الصالح
والاخ الصالح قال قلت من هذا قال هذا موسى فقال ثم مررت بعيسى
فقال مرحبا بالنبي الصالح والاخ الصالح قال فقلت من هذا قال عيسى
ثم مررت بابراهيم قال مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح قال فقلت
من هذا قال هذا ابراهيم قال ابن شهاب اخبرني ابن حزم
ان ابن عباس كان يقول كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول ثم عرج
بي حتى ظهرت بمستوى اسمع فيه صريف الاقلام وروى معمر عن قتادة
عن انس عن النبي صلى الله عليه وسلم اتي بالبراق ليلة اسري به ملجما
مسرجا فاستصعب عليه فقال جبريل امحمد تفعل هذا فما ركبك
احد اكرم على الله منك فارفض عرقا وقال ابن بريدة عن ابيه قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم لما انتهيت الي بيت المقدس قال جبريل باصبعه
فخرق بها حجرا وشد به البراق وفي رواية انه جا جبريل بالبراق الى
النبي صلى الله عليه وسلم وقال له يا محمد اركب فركبه صلى الله عليه وسلم
ومعه جبريل فطار البراق في الهوى فاخترق به الجو فعطش صلى الله عليه
وسلم واحتاج الي الشرب فاتاه جبريل باناين انا لبن وانا خمر وذلك
قبل تحريم الخمر فعرضهما عليه فتناول اللبن فقال له جبريل عليه
السلام اصبت الفطرة اصاب الله تعالى بك امتك ولذلك كان صلى
الله عليه وسلم يتاول اللبن بالعلم فلما وصل الي السما الدنيا استفتح الى
ان قال ثم عرج بي الى سدرة المنتهى واخبره جبريل ان اعمال بني
ادم تنتهي الي تلك السدرة وانها مقر الارواح فهي نهاية لما ينزل مما هو
فوقها ونهاية لما يخرج اليها فما دونها وبها مقام جبريل عليه السلام

بكى

السماء

فنزل صلى الله عليه وسلم عن البراق وجيء اليه بالرفرف وهو نظير المحفة
عندنا فقعد عليه وسلمه جبريل الى الملك النازل بالرفرف فسأله الصحبة
ليانس به فقال له لا اقدر لو خطوت خطوة لاحترقت فما منا الا له مقام
معلوم وما اسرى الله بك يا محمد الا ليريك من اياته فلا تغفل فودعه
وانصرف مع تلك الملك والرفرف والملك يمشي به الى ان ظهر لمستوى
سمع صرير القلم والاقلام في الالواح وهي تكتب ما يجري به الله في خلقه
وما تستنسخه الملائكة من اعمال عباده قال تعالى انا كنا نستنسخ
ما كنتم تعملون ثم زج بي في النور زجة فافرده الملك الذي كان معه
وتاخر عنه فلم يره معه فعلم ان الرفرف ما تدلى الا لكون البراق
مكان لا يتعداه جبريل لما بلغ الى المكان الذي لا يتعداه وقف وكذلك
الرفرف لما وصل الى مقام لا يتعداه زج به في النور فغمره النور من
جميع نواحيه واعطي علما لم يكن يعلمه قبل ذلك عن وحي من حيث
لا يدري وجهته وعن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم لقد رايتني وانا في الحجر وقريش تسالني عن مسراي
فسالتني عن اشيا من بيت المقدس لم اثبتها فكربت كربة
ما كربت مثلها قط فرفعه الله تعالى لي انظر اليه فما سالوني عن
شيء الا انباتهم به وقد رايتني في جماعة من الانبيا فاذا موسى
قايم يصلي فاذا رجل جعد كانه من رجال شنوة واذا عيسى
ابن مريم قايم يصلي اقرب الناس به شبها عروة بن مسعود الثقفي
واذا ابراهيم قايم يصلي اشبه الناس به صاحبكم يعني به نفسه
صلى الله عليه وسلم فحانت الصلاة فاممتهم فلما فرغت قال قايل
يا محمد هذا مالك خازن النار فسلم عليه فالتفت اليه فبداني بالسلام
وعن جابر انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لما كذبتني
قريش قمت الى الحجر فجلى الله لي بيت المقدس وذكر الحديث وعن
انس رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اتيت
موسى ليلة اسري بي عند الكثيب الاحمر وهو قايم يصلي في قبره
عند الكثيب الاحمر فان قيل راى رسول الله صلى الله عليه وسلم موسى
يصلي في قبره وكيف تصلي الانبيا بعد الموت وهم في دار الاخرة اجيب
بان صلاته صلى الله عليه وسلم بالانبيا عليهم السلام ببيت
المقدس يحتمل ان الله تعالى جمعهم له ليصلي بهم ويعرفون فضله
وتقدمه عليهم ثم انه تعالى اراه اياهم في السموات على مراتبهم
ليعرف منازلهم وفضلهم واما مروره بموسى وهو قايم يصلي في
قبره عند الكثيب الاحمر فيحتمل انها الذكر والدعا وذلك من

اعمال الاخرة قال تعالى دعواهم فيها سبحانك اللهم وورد في الحديث انهم
يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس ويحتمل ان الله تعالى خصهم بخصايص
لم يخص بها غيرهم منها انه صلى الله عليه وسلم اخبر انه راهم يلبون ويحجون
فكذلك الصلاة والله اعلم بحقايق الامور وروي عن شريك بن
عبد الله قال سمعت انس بن مالك يقول ليلة اسري برسول الله
صلى الله عليه وسلم من مسجد الكعبة الحرام انه جا ثلاثة نفر قبل ان يوحى
اليه وهو نايم في المسجد فقال اولهم ايهم هو قال اوسطهم هو خيرهم
فقال اخرهم خذوا خيرهم وساق حديث المعراج بقصته قال فاذا
هو في السما الدنيا بنهرين يطردان قال هذا النيل والفرات
عنصرهما ثم مضى به في السما فاذا هو بنهر اخر عليه قصر من لولو وزبرجد
فضرب يده فاذا هو مسك اذفر قال ما هذا يا جبريل قال هو الكوثر
الذي خبا لك ربك وذكر في اخر حديثه انه صلى الله عليه وسلم
قال في اخر الحديث ثم علا بي حتى جا سدرة المنتهى ودنى الجبار رب العزة
فتدلى فكان منه كقاب قوسين او ادنى فاوحى اليه وذكرت عايشة ان الذي
دنى فتدلى جبريل عليه السلام وسياتي الكلام على ذلك ان شاء الله تعالى
في سورة النجم فان قيل قوله تعالى لنريه من اياتنا يدل على انه ما اراه الا بعض
الايات لان كلمة من تفيد التبعيض وقال في حق ابراهيم وكذلك نري ابراهيم
ملكوت السموات والارض اي ملكها فيلزم ان يكون معراج ابراهيم افضل
من معراج محمد صلى الله عليه وسلم اجيب بانه لما اضيفت تلك
الايات الى الله تعالى دل على انها افضل مما راه ابراهيم تنبيهان قال النووي
في شرح مسلم قد جا في رواية شريك في حديثه اوهام انكروا عليه العلما
بها منها قوله وذلك قبل ان يوحى اليه وهو غلط لم يوافق عليه وان الاسرا
قل ما قيل فيه انه كان بعد مبعثه صلى الله عليه وسلم بخمسة عشر شهرا
وقال الحربي كان ليلة سبع وعشرين من ربيع الاخر قبل الهجرة بسنة
وقال الزهري كان بعد مبعثه صلى الله عليه وسلم بخمس سنين
قال ابن اسحق اسري به صلى الله عليه وسلم وقد فشا الاسلام
بمكة والقبايل وقيل كان الاسرا في رجب وقيل في رمضان قال
النووي واشبه الاقوال قول الزهري وابن اسحاق ومما يدل على انه
اسري بجسده صلى الله عليه وسلم قوله تعالى اسري بعبده ولفظ العبد
عبارة عن مجموع الروح والجسد وقوله صلى الله عليه وسلم اوتيت
بالبراق وهو اسم للدابة التي ركبها رسول الله صلى الله عليه وسلم
ليلة اسري به واشتقاقه من البرق لسرعته او لشدة صفايه
وبياضه ولمعانه وتلالي نوره والحلقة باسكان اللام ويجوز فتحها

والمراد بربط البراق بالحلقة الاخذ بالاحتياط في الامور وتعاطي الاسباب
وان ذلك لا يقدح في التوكل اذا كان الاعتماد على الله وقوله جاءني جبريل
باناء من خمر واناء من لبن فاخترت اللبن فيه اختصار والتقدير قال لي
اختر فاخترت اللبن وقول جبريل اخترت الفطرة يعني فطرة الاسلام
وجعل اللبن علامة للفطرة الصحيحة السليمة لكونه سهلا طيبا سائغا
للشاربين وانه سليم العاقبة بخلاف الخمر فانها ام الخبائث وجالبة
لانواع الشر وقوله ثم عرج بي الى السما الدنيا فاستفتح جبريل فقيل
من انت قال جبريل فيه بيان الادب لمن استاذن ان يقول انا فلان
ولا يقول انا فقط فانه مكروه وفيه ان للسما ابواب وبوابون عليها
حرسا وقوله بوابو السما وقد ارسل اليه وفي الرواية الاخرى وقد
بعث اليه معناه للاسترا وصعود السما وليس مراده الاستفهام عن
اصل البعثة والرسالة فان ذلك لا يخفى عليه الى هذه المدة وقوله
فاذا انا بادم وذكر جماعة من الانبيا فيه استحباب لقا اهل الفضل
والصلاح بالبشر والترحيب والكلام الحسن وان كان الزاير افضل
من المزار وفيه جواز مدح الانسان في وجهه اذا امن عليه من الاعجاب
وغيره من اسباب الفتنة وقوله فاذا انا بابراهيم مسند ظهره الى
البيت المعمور فيه دليل على جواز الاسناد الى القبلة وتحويل ظهره اليها
وقوله ذهب بي الى السدرة المنتهى هكذا وقع في هذه الرواية بالالف
واللام وفي باقي الروايات الى سدرة المنتهى قال ابن عباس وغيره من
المفسرين سميت بذلك لان علم الملائكة ينتهي اليها ولم يجاوزها
احد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ابن مسعود سميت
بذلك لكونه ينتهي اليها ما يهبط من فوقها وما يصعد من تحتها من امر الله
عز وجل وقوله واذا ثمرها مثل القلال هو بكسر القاف جمع قلة بضمها
وهي الجرة الكبيرة التي تسع قربتين او اكثر وقوله فرجعت الى ربي قال
النووي معناه رجعت الى الموضع الذي ناجيته منه اولا فناجيته
فيه ثانيا وقوله فلم ازل ارجع بين موسى وبين ربي معناه بين موضع
مناجاة ربي وقوله ففرض على امتي خمسين صلاة الى قوله فوضع عني
خمسا وفي رواية شطرها وفي رواية عشرا ليس بين هذه الروايات
منافات لان المراد بالشطر الجزء وهو الخمس وليس المراد منه التنصيف
واما رواية العشر فهو رواية شريك ورواية الخمس رواية قتادة
وهو اثبت من شريك والمراد حط عني خمسا الى اخره ثم قال هي خمس
وهن خمسون يعني خمسين في الاجر والثواب لان الحسنة بعشر
امثالها واحتج العلماء بهذا الحديث على جواز نسخ الشي قبل فعله

وفي الحديث

وفي الحديث انه شق صدره ليلة المعراج ايضا وصغره وهو عند حليمة التي
كانت ترضعه فالمراد بالشق الثاني زيادة التطهير لما يراد به من الكرامة ليلة
المعراج وقوله اتيت بطست من ذهب قد يتوهم انه يجوز استعمال الذهب
لنا وليس الامر كذلك لان هذا الفعل من فعل الملائكة وهو مباح لهم استعمال
الذهب او يكون هذا قبل تحريمه وقوله ممتلى حكمة وايمانا فافرغها في صدري
قد يقال الحكمة والايمان من المعاني والافراغ صفة الاجسام فما معنى
ذلك اجيب بانه يحتمل انه جعل في الطست شي يحصل به كمال الايمان
والحكمة وزيادتهما فسمي ايمانا وحكمة لكونه سببا لهما وهذا من احسن
المجاز وقوله في صفة ادم فاذا رجل عن يمينه اسوده وعن يساره
اسوده جمع سواد وقد فسره في الحديث بانه نسم بنيه يعني
ارواح بنيه فان قيل ارواح المومنين في السما واما ارواح الكفار فتحت
الارض السفلى فكيف تكون في السما اجيب بانه يحتمل ان ارواحهم
الكفار تعرض على ادم عليه السلام وهو في السما فوافق وقت عرضها
على ادم مرور النبي صلى الله عليه وسلم فاخبر بما راى وقوله اذا نظر
عن يمينه ضحك واذا نظر عن يساره بكى فيه شفقة الوالد على
اولاده وفرحه وسروره بحسن حال المومن منهم وحزنه على حال
الكافر منهم وقوله في ادريس مرحبا بالاخ الصالح والنبي الصالح
وقد اتفقت المورخون انه هو اخنوخ جد نوح فيكون جد النبي
صلى الله عليه وسلم كما ان ابراهيم جده فكان ينبغي ان يقول بالنبي
الصالح والابن الصالح كما قال ادم وابراهيم واجيب بانه قيل
ان ادريس المذكور هنا هو الياس وهو من ذرية ابراهيم فليس هو
جدا لنوح قاله القاضي عياض وقال النووي ليس في هذا الحديث
ما يمنع كون ادريس ابا لنبينا صلى الله عليه وسلم وان قوله الاخ الصالح
يحتمل ان يكون قاله تلطفا وتادبا وهو اخ وان كان ابنا لان الانبياء
اخوة والمومنون اخوة اهـ وانما اطلت في بيان ذلك لان الكلام مع الاحبة يحلو
لولا خوف الملل ما اختصرت على ذلك فقد قال بعض المفسرين لا اعلم في
الكتاب العزيز سورة تضمنت من خصايصه التي فضل بها كافة الانبيا
ما تضمنت هذه ولكن في هذا القدر كفاية لاولي الالباب ولما ثبت بهذه
الخارقة ما اخبر به صلى الله عليه وسلم عن نفسه المقدسة من عظيم القدر
وما جاء به صلى الله عليه وسلم من الايات البينات في هذا الوقت اليسير
اتبعه ما منح في السير من مصر الى الارض المقدسة من الايات في مدد طوال
جدا موسى عليه السلام الذي كان اعظم الانبيا بركة على هذه الامة ليلة الاسرا
لما ارشد النبي صلى الله عليه وسلم اليه من مراجعة الله تعالى في تخفيف الصلاة

حتى رجعت من خمسين الى خمس مع اجر خمسين فقال وآتينا اي بعظمتنا موسى
الكتاب اي التوراة وجعلناه اي الكتاب بما لنا من العظمة هدى لبني
اسرائيل بالحمل على العدل في التوحيد والاحكام واسرينا بموسى عليه
السلام وبقومه من مصر الى المسجد الاقصى فاقاموا سائرين اليها اربعين
سنة ولم يصلوا ومات كل من خرج الا المتقين الموفين بالعهد فقد بان
الفضل بين اسرائين كما بان الفضل بين الكتابين فذكر الاسرا اولا دليل
على حذف مثله اولا فالاية من الاحتباك ثم نبه على ان المراد من ذلك كلمة
التوحيد اعتقادا وعبادة بقوله تعالى ان لا اي لئلا تتخذوا على
قراءة ابي عمرو بالياء على الغيبة وقراءة بالتاء على ان لا تتخذوا وكقولك
كتبت اليه ان افعل كذا من دوني وكيلا اي ربا تكلون اليه اموركم
وذلك هو التوحيد فلا معراج اعلى ولا درجة اشرف ولا نعمة اعظم
من ان يصير المرء غريقا في بحر التوحيد وان لا تعول في امر من الامور
الا على الله تعالى فان نطق نطق بذكر الله وان تفكر تفكر في دلائل تنزيه
الله وان طلب طلب من الله فيكون كله لله وبالله والى الله وقوله تعالى
ذرية نصب على الاختصاص في قراءة ابي عمرو وعلى النداء عند الباقين
اي يا ذرية من حملنا اي في السفينة بعظمتنا على ظهر ذلك الماء
الذي طبق ما تحت اديم السماء ونبه تعالى على شرفهم وتمام نعمتهم
بقوله تعالى مع نوح ففي ذلك تذكير بانعام الله تعالى عليهم وانجاء
ابائهم من الغرق بحملهم مع نوح في السفينة قال قتادة الناس كلهم
من ذرية نوح لانه كان معه في السفينة ثلاث بنين سام وحام
ويافث فالناس كلهم من ذرية اولئك قال البقاعي لان الصحيح
ان من كان معه من غير ذريته ماتوا ولم يعقبوا ولم يقل ذرية نوح ليعلم
انهم عقب اولاده المومنين لتكون تلك منة اخرى ثم انه تعالى اثنى
على نوح حثا على الاقتداء به في التوحيد كما اقتدى به اباؤهم في ذلك
بقوله تعالى انه كان عبدا شكورا اي مبالغا في الشكر الذي هو صرف العبد
جميع ما انعم الله تعالى به عليه لما خلق له روي عنه عليه الصلاة والسلام
كان اذا اكل قال الحمد لله الذي اطعمني ولو شاء اجاعني وفي رواية
انه يسمي اذا اكل ويحمد اذا فرغ واذا شرب قال الحمد لله الذي سقاني
ولو شاء اظماني واذا اكتسى قال الحمد لله الذي كساني ولو شاء
اعراني واذا احتذى قال الحمد لله الذي حذاني ولو شاء احفاني واذا قضى
حاجته قال الحمد لله الذي اخرج عني اذاه في عافية ولو شاء حبسه
وفي رواية انه كان يقول الحمد لله الذي اذاقني لذته وابقى في منفعته
في جسدي واخرج عني اذاه وفي رواية انه كان اذا اراد الافطار عرض

طعامه

طعامه على من مر به فان وجد محتاجا اثره به ولما ذكر تعالى انعامه على بني اسرائيل
بانزال التوراة عليهم وبانه جعل التوراة هدى لهم بين انهم ما اهتدوا بهداه
بل وقعوا في الفساد بقوله تعالى وقضينا الى بني اسرائيل اي الى عبدنا
يعقوب عليه السلام الذي كان اطوع اهل زمانه وحيا مقطوعا مثبوتا
في الكتاب اي التوراة التي اوصلناها اليهم على لسان موسى عليه
السلام وقيل المراد بالكتاب اللوح المحفوظ لتفسدن جواب قسم
محذوف ويجوز ان يجري القضاء المثبوت مجرى القسم فيكون لتفسدن
جوابا له كانه قال واقسمنا لتفسدن في الارض اي ارض الشام
قاله السيوطي وقال الرازي ارض مصر وموافق الاول قول البقاعي
اي المقدسة التي كانها لشرفها هي الارض اي افسادتين قال في الكشاف
اولاهما قتل زكريا عليه السلام وحبس ارميا حين انذرهم بسخط الله
تعالى والاخرى قتل يحيى بن زكريا وقصد قتل عيسى بن مريم
وقال البيضاوي الاولى مخالفة احكام التوراة وقتل شعيا
وقيل ارميا وثانيتهما قتل زكريا ويحيى وقصد قتل عيسى عليهم السلام
مرتين اي بما صرتم اليه من البطر لنسيان النعم ولتعلن بالظلم
والتمرد لانه يقال لكل متجبر قد علا وتعظم علوا كبيرا فاذا جاء وعد اي
اولى مرتي الفساد وهو الوقت الذي حددنا لهم الانتقام فيه بعثنا عليكم
عبادا لنا اولي باس اي لا يدان لكم بما قال تعالى شديد اي
اصحاب قوة في الحرب واختلف فيهم فقال في الكشاف سنحاريب
وجنوده وقيل بخت نصر وعن ابن عباس جالوت قتلوا علماءهم واحرقوا
التوراة وخربوا المسجد وسبوا منهم سبعين الفا وقال
البيضاوي عبادا لنا بخت نصر عامل لهراسف على بابل وجنوده وقيل
جالوت الجزري وهو بجيم فزاي مفتوحتين الجرم فراء نسبة الى
الجزر وهو ضيق العين وصغرها وهو الذي قتله داود اوجيل
من الناس وذكر الرازي في ذلك قولين الاول ان الله تعالى سلط
عليهم بخت نصر فقتل منهم اربعين الفا ممن يقرا التوراة وذهب
بالبقية الى ارض نفسه فبقوا هناك في الذل الثاني ان الله تعالى
القى الرعب من بني اسرائيل في قلوب المجوس فقصدوهم وبالغوا في
قتلهم وافنائهم واهلاكهم واخرج ابن ابي حاتم عن عطية قال
افسدوا المرة الاولى فارسل الله عليهم جالوت فقتلهم وافسدوا
المرة الثانية فقتلوا يحيى بن زكريا فبعث الله عليهم بخت نصر
وعن ابن مسعود قال كان اول الفساد من قتل زكريا فبعث الله
عليهم ملك القبط وعن علي بن ابي طالب رضي الله عنه قال الاولى

قتل زكريا والاخرى قتل يحيى قاله الرازي واعلم انه لا يتعلق كثير غرض في معرفة
اولئك الاقوام باعيانهم بل المقصود انهم لما اكثروا في المعاصي سلط الله
عليهم اقواما قتلوهم وافنوهم ثم قال الله تعالى فجاسوا اي ترددوا
لطلبكم خلال الديار اي وسطها للقتل والغارة قال البيضاوي فقتلوا
كبارهم وسبوا صغارهم وحرقوا التوراة وخربوا المسجد والمعتزلة لما منعوا
تسليط الكافر على ذلك اولوا البعث بالتخلية انتهى وفي ذلك تعريض بالزمخشري
فانه قال في كشافه فان قلت كيف جاز ان يبعث الله الكفرة على ذلك
ويسلطهم عليهم قلت معناه خلينا بينهم وبين ما فعلوا ولم نمنعهم
على ان الله عز وعلا اسند بعث الكفرة عليهم الى نفسه فهو كقوله وكذلك
نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون وكان اي ذلك البعث ووعد
العقاب به وعدا مفعولا اي قضاء كائنا لازما لا شك في وقوعه ولا بد
ان يفعل ثم رددنا لكم الكرة اي الدولة والغلبة عليهم حين تبتم
عن ذنوبكم ورجعتم عن الفساد في زمن داود بقتله جالوت وذلك بعد
مائة سنة وامددناكم باموال تستعينون بها على قتال عدوكم وبنين
تتقوون بهم وجعلناكم اكثر من عدوكم نفيرا اي عشيرة تنفر معكم
عند ارادة القتال وغيره من المهمات والنفير من ينفر مع الرجل من قومه وقيل
مع نفر وهم المجتمعون للذهاب الى العدو ولما حكى الله تعالى عنهم انهم لما عصوا
سلط الله عليهم اقواما قصدوهم بالقتل والنهب والسبي ولما تابوا ازال
الله عنهم تلك المحنة واعاد عليهم الدولة فعند ذلك ظهر انهم
ان اطاعوا الله فقد احسنوا الى انفسهم وقد تقرر في العقول ان الاحسان
الى النفس حسن مطلوب وان الاساءة اليها قبيحة فلهذا المعنى قال
تعالى ان احسنتم اي بفعل الطاعة على حسب الامر في الكتاب
الداعي الى العدل والاحسان احسنتم لانفسكم اي لان ثوابها لها
وان اساتم بارتكاب المحرمات والافساد فلها اي الاساءة
فان وبالها عليها قال النحويون وانما قال وان اساتم فلها للتقابل
والمعنى فاليها او فعليها كما مر مع ان حروف الاضافة يقوم بعضها
مقام بعض كقوله تعالى يومئذ تحدث اخبارها بان ربك اوحى لها
اي اليها تنبيه قال اهل الاشارات هذه الاية تدل على ان رحمة
الله غالبة على غضبه بدليل انه تعالى حكى عنهم الاحسان ذكره مرتين
فقال تعالى ان احسنتم احسنتم لانفسكم ولما حكى عنهم الاساءة
اقتصر على ذكرها مرة واحدة فقال تعالى وان اساتم فلها ولولا ان جانب
الرحمة غالب والا لما كان كذلك ثم قال فاذا جاء وعد الاخرة اي ثاني
مرة في الفساد وهو الوقت الذي حددناه للانتقام فيه ليسوءوا

اي بعثنا عليكم عبادا لنا ليسوءوا وجوهكم اي يجعلوا اثار الاساءة باطنة
فيها وحذف متعلق اللام لدلالة الاول عليه وقراءة الكسائي بعد اللام
بنون مفتوحة على التوحيد والضمير فيه لله والباقون بالياء مفتوحة واما
الهمزة التي بعد الواو والتي بعد السين فقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو وحفص
بضم الهمزة والباقون بفتح الهمزة ولا مد وقوله تعالى وليدخلوا المسجد عطف
على ليسوءوا والمراد بالمسجد الاقصى الذي سقناكم اليه من مصر في تلك
المدد الطوال واعطيناكم بلاده بالتدريج وجعلناه محل عزكم وامنكم ثم
جعلناه محلا لاكرام اشرف خلقنا باسرائه اليه وجمع ارواح النبيين
كلهم فيه وصلاته بهم وهذا تعريض تهديد بقريش بانهم ان لم يرجعوا
بدل امنهم في الحرم خوفا وعزهم ذلا وادخل عليهم جنود الافيال لم يهابوا وقد
فعل ذلك عام الفتح لكن فتح اكرام لا اهانة ببركة هذا النبي الكريم صلى الله
عليه وسلم كما دخلوه اي الاعداء اول مرة بالسيف والقهر واجمع
وجنودكم دفعة واحدة اول مرة اي يهلكوا ويدمروا مع التقطيع
والتفريق وليتبروا اي عليه من ذلك وقيل ما مصدرية اي مدة علوهم
ما علوا تتبيرا اي اهلاكا قال الزجاج وكل شيء جعلته مكسرا مفتتا
فقد تبرته ومنه قيل تبر الزجاج وتبر الذهب لمكسره ومنه قوله
تعالى ان هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون قال الرازي وهذه المرة
الاخيرة هي اقدام على قتل زكريا ويحيى عليهما السلام قال البيضاوي
وذلك بان سلط عليهم الفرس مرة اخرى فغزاهم ملك بابل من ملوك
الطوائف اسمه جردون وقيل خردوس قيل دخل صاحب الجيش مذبح
قرابينهم اي مجمع قربان فوجد دما يغلي فسالهم عنه فقالوا دم قربان
لم يقبل منا فقال ما صدقوني فقتل عليه الوفا منهم فلم يهدأ الدم
ثم قال ان لم تصدقوني ما تركت منكم احدا فقالوا دم يحيى فقال
لمثل هذا ينتقم ربكم ثم قال يا يحيى اي خطابا للدم قد علم ربي وربك ما اصاب
قومك من اجلك فاهدأ باذن الله قبل ان لا يبقى احد منهم فهدأ اي سكن
وقال الواحدي فبعث الله عليهم بخت نصر البابلي المجوسي ابغض خلقه
اليه فسبى بني اسرائيل وخرب بيت المقدس قال الرازي اقوال التواريخ
تشهد ان بخت نصر كان قبل وقت عيسى ويحيى وزكريا بسنين متطاولة
ومعلوم ان الملك الذي انتقم من اليهود ملك الروم يقال له قسطنطين
والله اعلم باحوالهم ولا يتعلق غرض من اغراض تفسير القرآن بمعرفة هؤلاء
الاقوام انتهى ولما انقضى ذلك كانه قيل هل بقي لهم نصرة على عدو
فقال تعالى عسى ربكم ان يرحمكم يا بني اسرائيل بعد انتقامه منكم فرد
الدولة اليكم بعد ان اطمعهم فزعهم بقوله تعالى وان عدتم اي

اعيان

الي المعصية عدنا الي صب البلا عليكم في الدنيا مرة اخرى قال القفال وانما
حملنا هذه الاية على عذاب الدنيا لقوله تعالى في سورة الاعراف خبرا عن بني
اسرايل واذ تاذن ربك ليبعثن عليهم الي يوم القيمة من يسومهم سوء العذاب
ثم قال وانهم قد عادوا الي فعل ما لا ينبغي وهو التكذيب لمحمد صلى الله عليه وسلم
وكتمان ما ورد في التوراة والانجيل فعاد الله تعالى عليهم بالتعذيب
على ايدي العرب فجرى على بني النضير وقريظة وبني قينقاع ويهود خيبر
ما حل من القتل والجلاء ثم الباقي منهم مقهورون بالجزية لا ملك لهم
ولا سلطان ثم قال تعالى وجعلنا اي بعد ذلك بعظمتنا جهنم اي
التي تلقى داخلها بالتجهم والكراهة للكافرين وذكر الوصف الظاهر
موضع الضمير لبيان تعلق الحكم به على سبيل الرسوخ سواء في ذلك هم وغيرهم
وقوله تعالى حصيرا يحتمل ان يكون فعيلا اي جعلناها موضعا محصورا
لهم والمعنى ان عذاب الدنيا وان كان شديدا قويا الا انه قد ينقلب بعض
الناس عنه والذي يقع في ذلك العذاب يتخلص منه اما بالموت واما بطريق
اخر واما عذاب الاخرة فانه يكون حاصرا للانسان محيطا به لا رجاء في الخلاص عنه
فهولاء الاقوام لهم من عذاب الدنيا ما وصفناه ويكون لهم بعد ذلك من
عذاب الاخرة ما يكون محيطا بهم من جميع الجهات ولا يتخلصون منه ابدا ولما بين
سبحانه وتعالى كتاب موسى عليه السلام الذي عليه فيما بين مصر وبيت
المقدس في تلك المدة المتطاولة وجعله هدى لبني اسرايل صادق الوعد
والوعيد بين تعالى كتاب محمد صلى الله عليه وسلم الذي انزل عليه منه في
سبب مسيره اليه في ذلك ووصفه ثلاثة انواع من الصفات الاولى
قوله تعالى ان هذا القران اي الجامع لكل حق والفارق بين كل متلبس يهدي
للتي اي الي الطريق التي هي اقوم اي هي اصوب من كل طريق فقوله
تعالى للتي هي اقوم نعت لموصوف محذوف كما تقرر ويصح ان يقدر الملة
والشريعة اي يهدي الي الملة والشريعة التي هي اقوم الملل والشرايع
ومثل هذه الكناية كثيرة الاستعمال في القران كقوله تعالى ادفع بالتي هي احسن
وقيل الي الكلمة التي هي اعدل وهي شهادة ان لا اله الا الله تنبيه لفظ
افعل قد جا بمعنى الفاعل كقولنا الله اكبر اي الله الكبير وكقولنا الاشج
والناقص اعدلا بني مروان فاقوم يحتمل ان يكون كذلك وان يبقى على
ظاهره والصفة الثانية قوله تعالى ويبشر المومنين اي الراسخين
ولهذا قدم بيانا لهم بقوله الذين اي يصدقون ايمانهم بانهم
يعملون اي على سبيل التجديد والاستمرار والبناء على العلم
الصالحات من التقوى والاحسان ان لهم اجرا كبيرا لهم الجنة
هو الجنة والنظر الى وجه الله تعالى وقرا حمزة والكسايي بفتح اليا

اي الله اكبر كبيرا

وسكون

وسكون البا الموحدة وضم الشين مخففة والباقون بضم اليا وفتح البا الموحدة
وكسر الشين مشددة فان قيل قال ههنا اجرا كبيرا وفي الكهف اجرا حسنا
اجيب بوقوع ذلك لموافقة الفواصل قبل وبعد في كل منهما الصفة الثالثة
قوله تعالى وان الذين لا يومنون بالاخرة اعتدنا اي احضرنا وهيانا
لهم عذابا اليما وهو النار في الاخرة وهو عطف على ان لهم اجرا كبيرا والمعنى انه
تعالى بشر المومنين بنوعين من البشارة بثوابهم وبعقاب اعدائهم نظيره
قولك بشرت زيدا بانه سيعطى وبان عدوه سيمنع فان قيل كيف يليق
لفظ البشارة بالعذاب اجيب بان هذا مذكور على سبيل التهكم
او انه من باب اطلاق احد الضدين على الاخر كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة
مثلها او على يبشر باضمار يخبر فان قيل هذه الاية واردة في شرح احوال
اليهود وهم ما كانوا ينكرون الثواب والعقاب الجسمانية وبان بعضهم
قال لن تمسنا النار الا اياما معدودات فهم بذلك صاروا كالمنكرين
ولما بين سبحانه وتعالى ان هذا القران يهدي للتي هي اقوم والانسان قد
يقدم على ما لا فايدة فيه بينه تعالى بقوله تعالى ويدع الانسان بالشر
عند ضجره على نفسه واهله وماله دعاءه اي مثل دعايه بالخير ولو
استجيب له في الشر كما يستجاب له في الخير لهلك روي انه صلى الله
عليه وسلم دفع الى سودة بنت زمعة اسيرا فاقبل يان في الليل فقالت
له ما لك تشتكي وبكى فرحمته فارخت كتافه وهرب فلما اصبح النبي
صلى الله عليه وسلم دعي به فاعلم بشانه فقال صلى الله عليه وسلم
اللهم اقطع يدها فرفعت سودة يدها تتوقع ان يقطع الله يدها فندم
النبي صلى الله عليه وسلم وقال اللهم انما انا بشر اغضب كما يغضبون
فمن دعوت عليه فاجعل دعاي عليه رحمة له وقيل المراد النضر بن الحارث
حيث قال اللهم انصر خير الحزبين اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك
الي اخره فاجاب الله دعاءه وضربت رقبته يوم بدر صبرا وكان بعضهم
يقول ايتنا بعذاب الله واخرون يقولون متى هذا الوعد ان كنتم
صادقين وانما فعلوا ذلك للجهل ولاعتقاد ان محمدا كاذبا فيما يقول
وقيل ان المراد ان الانسان قد يبالغ في الدعا طالبا لشي قد يعتقد
ان خيره فيه مع ان ذلك الشي منبع لشره وضرره وهو يبالغ في طلبه
لجهله بحال ذلك الشي وانما يقدم على مثل هذا العمل لكونه عجولا
مغترا بظواهر الامور غير متفحص عن حقايقها واسرارها كما قال تعالى
وكان الانسان اي الجنس عجولا اي يسارع الي كل ما يخطر بباله
ولا ينظر الي عاقبته وقيل المراد ادم عليه السلام لما انتهى الروح الي
سرته ذهب لينهض فسقط تنبيه حذفت واو ويدع اي التي

ولام التعليل خطا في جميع المصاحف ولا موجب لحذفها لفظا في العربية لكنها
لما كانت لا تظهر في اللفظ حذفت في الخط ونظيره قوله تعالى سندع الزبانية
وسوف يؤت الله المؤمنين ويوم يناد المنادي فما تغن النذر في القمر ا
ولو كان ذلك بالواو والياء لكان صوابا وقال الرازي اقول هذا على انه سبحانه
وتعالى قد عظم هذا القرآن المجيد عن التحريف والتغيير فان اثبات الواو والياء
في اكثر الفاظ القرآن وعدم اثباتها في هذه المواضع المعدودة يدل على ان
هذا القرآن نقل كما سمع وان احدا لم يتصرف فيه بمقدار فهمه وقوة عقله ولما
بين تعالى ما اوصل من نعم الدين وهو القرآن اتبعه بما اوصل اليهم من نعم الدنيا فقال
وجعلنا الليل والنهار آيتين دالتين على تمام العلم وشمول القدرة آية الليل
كالآيات المتشابهة وآية النهار كالمحكمة فكما ان المقصود من التكليف لا يتم
الا بذكر المحكم والمتشابه تذكر الزمان لا يتيسر الانتفاع به الا بهاتين الآيتين
فمحونا اي بعظمتنا الباهرة آية الليل اي طمسنا نورها بالظلام
لتسكنوا فيه فجعلناها لا يبصر فيها المرئيات كما لا يبصر الكتاب اذا محي ما
وجعلنا بما لنا من القدرة آية النهار مبصرة اي مبصرا فيها بالضوء فلا
تزال هذه الدار ناقصة تنتقل من نور الى ظلمة ومن ظلمة الى النور كما ان الانسان
بجملته التي يدعو اليها طبعه وثانيه الداعي اليه عقله من انتقال من نقصان
الى كمال ومن كمال الى نقصان كما ان القمر الذي هو انقص من الشمس كذلك قال
ابن عباس جعل الله نور الشمس سبعين جزءا ونور القمر كذلك فمحى من نور القمر
تسعة وستين جزءا فجعلها مع نور الشمس وحكي ان الله تعالى امر جبريل فامر
بجناحه على وجه القمر ثلاث مرات فطمس عنه الضوء وبقي فيه النور وسأل
ابن الكوا عليا رضي الله عنه عن السواد الذي في القمر قال هو اثر المحو ثم بين
المراد من الآيتين بعض الليل والنهار فالاضافة للبيان اي انه تعالى جعلهما
دليلين للخلق على مصالح الدين والدنيا اما الدين فلان كل واحد منهما
مضاد للآخر مغاير له مع كونهما متعاقبين على الدوام من اقوى الدليل ،،
والدليل على انهما غير موجودين بذاتهما بل لا بد من فاعل يدبرهما ويقدرهما
بالمقادير المخصوصة واما في الدنيا فلان مصالح الدنيا لا تتم الا بالليل
والنهار فلولا الليل ما حصل السكون والراحة ولولا النهار لما حصل
الكسب والتصرف وقيل الليل والنهار ظرفان والتقدير وجعلنا آيتين
في الليل والنهار والمراد بالآيتين على هذا اما الشمس والقمر واما تكوير
هذا على هذا وهذا على هذا ثم ذكر تعالى بعض المنافع المرتب على ذلك بقوله
تعالى لتبتغوا اي تطلبوا طلبا شديدا فضلا من ربكم اي المحسن
اليكم فيهما بضياء هذا تارة ونور هذا اخرى ولتعلموا بفصل هذا
من هذا عدد السنين والحساب لان الحساب يبتني على اربع مراتب

الساعات

الساعات والايام والشهور والسنين والعدد والسنين والحساب لما دون
السنين وهي السنين والشهور والايام والساعات وبعد هذه المراتب الاربعة
لا يحصل الا بالتكرار كما انهم رتبوا العدد على اربع مراتب الآحاد والعشرات والمئات
والالوف وليس بعدها الا التكرار ولما ذكر الله تعالى احوال آيتي الليل والنهار
وهما من وجه دليلان قاطعان على التوحيد ومن وجه آخر نعمتان عظيمتان من الله
تعالى على اهل الدنيا وقد ذكر تعالى في آيات كثيرة منافعهما كقوله تعالى وجعلنا
الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا وكقوله تعالى جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا
فيه ولتبتغوا من فضله وشرح تعالى حالهما وفصل ما فيهما من وجوه الدلالة
على الخلائق ومن وجوه النعم العظيمة على الخلق كان ذلك تفصيلا نافعا وبيانا
كاملا فلا جرم قال تعالى وكل شيء اي لكم فيه حاجة في مصالح دينكم
ودنياكم فصلناه تفصيلا اي بيناه تبيينا وهو كقوله تعالى ما فرطنا في
الكتاب من شيء وكقوله تعالى ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وقوله تدمر
كل شيء بامر ربها وانما ذكر تعالى تفصيلا لاجل تأكيد الكلام وتقريره فكأنه
قال فصلناه حقا ولما بين تعالى تفصيلا انه اوصل الى الخلق هذه
اصناف الاشياء النافعة لهم في الدنيا والدين مثل آيتي الليل والنهار
وغيرهما كان منعما عليهم بوجود النعم وذلك يقتضي وجوب اشتغالهم
بخدمته وطاعته فلا جرم بين ان كل من ورد عرصة القيامة فانه يكون
مسؤولا عن اعماله واقواله كما قال تعالى وكل انسان ألزمناه اي بعظمتنا
طائره اي عمله الذي قدرناه عليه من خير وشر لان العرب كانوا
اذا ارادوا الاقدام على عمل من الاعمال وارادوا ان يعرفوا ان ذلك العمل
يسوقهم الى خير او الى عمل شر اعتبروا احوال الطير وهو انه يطير بنفسه
او يحتاج الى ازعاجه واذا طار فهو يطير متيامنا او متياسرا او صاعدا الى
الجو او غير ذلك من الاحوال التي كانوا يعتبرونها ويستدلون بكل واحد
منها على احوال الخير والشر والسعادة والنحوسة فلما كثر ذلك منهم
سموا نفس الخير والشر بالطائر تسمية للشيء باسم لازمه بقوله تعالى وكل
انسان ألزمناه طائره في عنقه اي وكل انسان ألزمناه عمله في عنقه الذي
هو محل التزين بالقلادة ونحوها ومحل الشين بالغل ونحوه فان كان عمله
خيرا كان كالقلادة والحلي في العنق وهذا مما يزينه وان كان عمله شرا كان
كالغل في عنقه وهو مما يشينه وقال مجاهد ما من مولود يولد الا وفي عنقه
ورقة مكتوب فيها شقي او سعيد قال الرازي والتحقيق في هذا الباب
انه تعالى خلق الخلق وخص كل واحد منهم بمقدار مخصوص من العقل
والفهم والعلم والعمر والرزق والسعادة والشقاوة والانسان لا يمكنه
ان يتجاوز ذلك المقدار وان ينحرف عنه بل لا بد وان يصل ذلك القدر

بحسب الكمية والكيفية فتلك الاشياء المقدورة كانها تطير اليه وتصير
اليه فلهذا المعنى لا يبعد ان يعبر عن تلك الاحوال المقدرة بلفظ الطاير
فقوله تعالى الزمناه طايره في عنقه كناية عن كل ما قدره الله ومعنى في عنقه
حصوله له فهو لازم له واصل اليه غير منحرف عنه واليه الاشارة بقوله صلى الله
عليه وسلم جف القلم بما هو كاين الى يوم القيمة انتهى ملخصا ثم قال تعالى
ونخرج له يوم القيمة كتابا اي مكتوبا فيه عمله لا يغادر صغيرة ولا كبيرة
الا احصاها قال الحسن بسطت لك صحيفة ووكل بك ملكان فهما عن
يمينك وعن شمالك فاما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك واما الذي عن
شمالك فيحفظ عليك سياتك حتى اذا مت طويت صحيفتك وجعلت
معك في قبرك حتى تخرج معك يوم القيمة وقوله تعالى يلقاه منشورا
صفتان لكتابا وقرا ابن عامر بضم اليا وفتح اللام وتشديد القاف
واما الالف بعد القاف حمزة والكسائي محضة وورش بالفتح وبين
اللفظين والباقون بالفتح ثم انه اذا القى كتابه يوم القيمة يوم العرض
قيل له اقرا كتابك اي نفسك كفى بنفسك اليوم الذي انكشف
به الستور وتظهر فيه جميع الامور عليك حسيبا اي حاسبا
بليغا فانك تعطى القدرة على قراءته اميا كنت او قاريا ولا ترى فيه
زيادة ولا نقصانا ولا تقدر ان تنكر منه حرفا وان انكره لسانك تشهد
عليك اركانك فيا لها من قدرة باهرة وقوة قاهرة ونصفة ظاهرة قال
الحسن عدل والله في حقك من جعلك حسيب نفسك وقال السدي
يقول الكافر يومئذ انك قضيت انك لست بظلام للعبيد فاجعلني
احاسب نفسي فيقال له اقرا كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا
فان قيل قد قال تعالى وكفى بنا حاسبين فكيف الجمع في ذلك اجيب
بان المراد هنا بالحسيب هنا الشهيد اي كفى نفسك اليوم
شاهدا عليك او ان القيامة مواقف مختلفة ففي موقف يكل الله تعالى
حسابهم الى انفسهم وعلمه محيط بهم وفي اخر يحاسبهم هو وقوله تعالى
من اهتدى فانما يهتدي لنفسه اي لان ثواب اهتدائه لا يتجاوز غيره
لان ثواب اهتدائه لا يتجاوز غيره ومن ضل فانما يضل عليها اي لان اثمه عليها فلا
يتعدى في ضلاله سواه كما قال الكعبي ولا دلالة على ان العبد متمكن من الخير
والشر وانه غير مجبور على عمل بعينه اصلا لان قوله تعالى من اهتدى
الى اخره انما يليق بالقادر على الفعل المتمكن منه كيف شا واراد اما
اما المجبور على احد الطرفين الممنوع على الطرف الثاني فهذا لا يليق به
هذا مذهب اهل السنة والجماعة فاتبعه ترشد ثم انه تعالى اعاد
تقرير ان كل احد مختص باثر عمل نفسه بقوله تعالى ولا تزر اي نفس

قوله بتسببه فهو كفعله فان قيل
ورد ان الميت يعذب
ببكاء اهله اجيب بان ذلك
محمول الخ

وازرة اي اثمة اي لا تحمل وزر نفس اخرى بل انما تحمل وزرها
فقط فان قيل ورد ان المظلوم ياخذ من حسنات الظالم فان لم يوف
يوخذ من سيات المظلوم وتطرح على الظالم اجيب بان ذلك محمول
على ما اذا اوصى بذلك وكان ذلك الفعل كقول طرفة بن العبد
اذا مت فانعيني بما انا اهله • وشقي على الجيب يا ابنة معبد •
وعليه حمل الجمهور الاخبار الواردة بتعذيب الميت على ذلك فان قيل وثب
الميت فيما اذا اوصى الامر بذلك فلا يختلف عذابه بامتثالهم وعدمه اجيب
بان الذنب على السبب يعظم بوجود المسبب وشاهده من سن سنة سيئة
وقال الشيخ ابو حامد انما ذكر محمول على الكافر وغيره من اصحاب الذنوب
ثم قال تعالى وما كنا اي على ما لنا من العظمة معذبين احدا حتى
نبعث رسولا تبين له ما يجب عليه ممن بلغته دعوته فخالف امره
واستكبر عن اتباعه فقد ثناه بما يستحقه وهذا امر قد تحقق بارسال
ادم عليه السلام ومن بعده من الانبيا الكرام عليهم السلام في جميع الامم
قال تعالى ولقد ارسلنا في كل امة رسولا وقال تعالى وان من امة الا خلا
فيها نذير فان دعوتهم الى الله تعالى قد انتشرت وعمت الاقطار واشتهرت
فان قيل الحجة لازمة لهم قبل بعثة الرسول لان معهم ادلة العقل التي
بها يعرف الله تعالى اغفلوا النظر وهم متمكنون منه واستحقاقهم العذاب
لاغفالهم النظر فيما معهم وكفرهم لذلك لا اغفال الشرايع التي لا سبيل
اليها الا بالتوفيق والعمل بها لا يصح الا بعد الايمان اجيب بان بعثة
الرسول من جملة التنبيه والنظر والايقاظ من رقدة الغفلة لئلا
يقولوا انا كنا غافلين فهلا بعث الينا رسولا ينبهنا على النظر في
ادلة العقل وفي الاية دليل على ان لا وجوب قبل الشرع فان قيل
في حكم اهل الفترتين بين نوح وادريس وبين عيسى ومحمد صلى الله
عليه وسلم وهم ثلاثة عشر قسما ستة سعدا واربعة اشقيا وثلاثة
تحت المشية فاما السعدا فقسم وحد الله تعالى بنور وجده في قلبه
كقس بن ساعدة فانه كان يقول اذا سئل اهل لهذا العالم اله البعرة
تدل على البعير واثر الاقدام تدل على المسير وقسم وحد الله تعالى
بما تجلى لقلبه من النور الذي لا يقدر على دفعه وقسم القي في نفسه
واطلع من كشفه على منزلة محمد صلى الله عليه وسلم فامن به وقسم
امن بنبيه الذي ارسل اليه وادرك رسالة نبينا محمد صلى الله عليه
وسلم وامن به فله اجران واما الاشقيا فقسم عطل لا عن نظر بل عن
تقليد وقسم عطل بعد ما اثبت لا عن استقصا بنظر وقسم اشرك
عن تقليد محض وقسم علم الحق وعانده واما الذي تحت المشية

ثم عطل فلم يقر بوجود ومن نظر قاصر لضعف في مزاجه وقسم اشرك عن نظر
اخطافيه وقسم عطل بعد ما اثبت لا عن نظر بلغ به اقصى القوة هكذا قسم محيي
الدين بن عربي في الباب العاشر من الفتوحات نقل ذلك عنه شيخ وقته
الشيخ عبد الوهاب الشعراني ونقل عن السيوطي ان ابوي النبي صلى الله
عليه وسلم لم تبلغهما الدعوة والله تعالى يقول وما كنا معذبين حتى نبعث
رسولا وحكم من لم تبلغه الدعوة انه يموت ناجيا ولا يعذب ويدخل الجنة
وقال هذا مذهبنا لا خلاف فيه بين المحققين من ائمتنا الشافعية
في الفقه والاشاعرة في الاصول ونص على ذلك الامام الشافعي رضي الله
عنه وتبعه على ذلك الاصحاب قال السيوطي وقد ورد في الحديث ان الله
تعالى احيا ابويه حتى آمنا وعلى ذلك جماعة من الحفاظ منهم الخطيب البغدادي
وابو القاسم بن عساكر وابو حفص بن شاهين والسهيلي والقرطبي وابن
المنير وابن سيد الناس وابن ناصر الدمشقي والصفدي وغيرهم والاولى
لك الامساك عن ذلك فان الله تعالى لم يكلفنا بذلك ونكل الامر في ذلك الى
الله تعالى ونقول كما قال النووي لما سئل عن طائفة ابن عربي تلك امة
قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تنوذ عما كانوا يعملون
ولما اشار تعالى الى عذاب المخالفين قرر اسبابه وعرف انها بقدره وان قدره
لا يمنع حقوق العذاب بقوله تعالى **واذا اردنا** ان نحيي قرية الحياة الطيبة
في الدنيا والاخرة القينا في قلوب اهلها امتثال اوامرنا والتقيد
باتباع رسلنا واذا اردنا **ان نهلك قرية** في الزمن المستقبل **امرنا**
اي بما لنا من القدرة التامة الشاملة **مترفيها** اي منعميها الذين لهم الامر
والنهي قال الاكثرون امرهم الله تعالى بالطاعة والخير على لسان رسلهم
ففسقوا فيها اي خرجوا عن طاعة الله ورسوله وقال صاحب الكشاف
ظاهر اللفظ يدل على انه تعالى يامرهم بالفسق فيفسقون الا ان هذا
مجاز ومعناه انه يفتح عليهم ابواب الخيرات والراحات فعند ذلك
تمردوا وطغوا وبغوا قال والدليل على ان ظاهر اللفظ يقتضي ما ذكرنا
ان المامور به انما حذف لان قوله ففسقوا يدل عليه يقال امرته
فقام وامرته فقرا لا يفهم الا ان المامور به قياما وقراءة فكذا هنا لما
قال امرنا مترفيها ففسقوا فيها وجب ان يكون المعنى امرناهم بالفسق
ففسقوا لا يقال يشكل هذا بامرهم بقولهم امرته فعصاني او خالفني
فان هذا كلام لا يفهم منه اني امرته بالمعصية والمخالفة لانا نقول
ان المعصية منافية للامر ومناقضة له فيكون كونها مامورا بها
فلهذه الضرورة تركنا هذا الظاهر اهـ قال الرازي ولقائل ان يقول
كما ان قوله امرته فعصاني يدل على ان المامور به غير الفسق لان الفسق

عبارة عن الاتيان بضده فكونه فسقا ينافي كونه مامورا به كما ان قوله معصية ينافي
كونها مامورا بها فوجب ان يدل هذا اللفظ على ان المامور به ليس بفسق
وهذا الكلام في غاية الظهور ولا ادري لم اصر صاحب الكشاف على قوله مع
ظهور فساده فثبت ان الحق ما ذكره الكل وهو ان المعنى امرناهم بالاعمال
الصالحة وهو الايمان والطاعة والقوم خالفوا ذلك الامر عنادا واقدموا على
الفسق **فحق عليها القول** اي الذي توعدناهم به على لسان رسولنا
فدمرناها تدميرا اي اهلكناهم باهلاك اهلها وتخريب ديارها
وخص المترفين بالذكر لان غيرهم يتبعهم ولانهم اسرع الى الجماعة واقدر على الفجور
وقيل معناه كثرنا وروى الطبراني وغيره حديث خير المال سكة مامورة ومهرة
مامورة اي كثيرة النتاج والسكة بكسر السين وتشديد الكاف الطريقة
المصطفة من النخل والمال والمامورة الملقحة قال ذلك الجوهري
ويروى ان رجلا من المشركين قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم
اني ارى امرك هذا حقيرا فقال صلى الله عليه وسلم انه سيامر اي
يكثر ويكبر وعن ام المومنين زينب بنت جحش رضي الله عنها ان
النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها فزعا يقول لا اله الا الله ويل للعرب
من شر ما اقترب فتح اليوم من ردم ياجوج وماجوج مثل هذه وحلق بين
اصبعيه الابهام والتي تليها قالت زينب قلت يا رسول الله انهلك وفينا
الصالحون قال نعم اذا كثر الخبث اي الشر وويل يقال لمن وقع في مهلكة او اشرف
يقع فيها وقوله تعالى **وكم اهلكنا** اي بما لنا من العظمة وبين مدلول كم
بقوله تعالى **من القرون** اي المكذبين **من بعد نوح** كعاد وثمود من الامم التي
يخوف بها الكفار اي كفار مكة قال عبد الله بن ابي اوفى القرن عشرون ومائة
سنة وقيل مائة سنة روي عن محمد بن القاسم عن عبد الله بن بشر المازني ان
النبي صلى الله عليه وسلم وضع يده على راسه وقال سيعيش هذا الغلام قرنا
قال محمد بن القاسم ما زلنا نعد له حتى تمت له مائة سنة ثم مات وقال
الكلبي القرن ثمانون سنة وقيل اربعون ثم قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه
وسلم **وكفى بربك** اي المحسن اليك **بذنوب عباده خبيرا بصيرا** اي
عالما ببواطنها وظواهرها فكم من انسان كنتم ترونه من اكابر الصالحين ثم
استقرت عاقبته على خلاف ذلك وكم من شخص ترونه مجتهدا في العبادة
فاذا اخل بارز ربه بالعظائم وتقديم الخبر لتقدم متعلقه ولما تقرر انه سبحانه
وتعالى عالم ببواطن عباده وظواهرها قسمهم الى قسمين الاول قوله تعالى
من كان يريد العاجلة اي الدنيا مقصورا عليها همه **عجلنا له فيها** اي
المعاجلة بان نفضل عليه من منافعها **ما نشاء** اي من البسط
والتقتير **لمن نريد** اي ان نفعل به ذلك فقيد تعالى الامر بتقييدين

احدهما تقييد المعجل بارادته ومشيئته والثاني تقييد المعجل له بارادته وهكذا
الحال ترى كثيرا من هولاء يتمنون ما يتمنون ولا يعطون الا بعضا منه وكثير منهم
يتمنون ذلك البعض وقد حرموه فاجتمع عليهم فقر الدنيا وفقر الاخرة بتبيه
لمن نريد بدل بعض من كل من الضمير في له باعادة العامل تقديره لمن نريد تعجيله
له ويقال ان الاية في المنافقين كانوا يراوون المسلمين ويغزون معهم ولم
يكن غرضهم الا مساهمتهم في الغنائم ونحوها وهذا هو المناسب لقوله تعالى
ثم جعلنا له جهنم يصلاها اي في الاخرة مذموما اي مفعولا بالذم مدحورا
اي مدفوعا الى مطرودا مبعدا وان ذكر البيضاوي بصيغة قيل ثم ذكر
تعالى القسم الثاني وشرط فيه ثلاثة شروط الاول قوله تعالى ومن اراد
الاخرة اي اراد بعمله ثواب الاخرة فانه ان لم ينو ذلك لم ينتفع بذلك العمل
لقوله تعالى وان ليس للانسان الا ما سعى وقوله صلى الله عليه وسلم انما
الاعمال بالنيات الثاني قوله تعالى وسعى لها سعيها وذلك يقتضي ان
يكون العمل من باب القرب والطاعات وكثير من الضلال يتقربون
بعبادة الاوثان ولهم فيها تاويلات احدها انهم يقولون اله العالم اجل
واعظم بان يقدر العالم الواحد منا على اظهار عبوديته وخدمته ولكن
غاية قدرتنا ان نشتغل بعبادة بعض المقربين من عباد الله من ان
نشتغل بعبادة كوكب او ملك من الملئكة ثم ان الملك او الكوكب يشتغل
بعبادة الله تعالى فهولاء يتقربون الى الله تعالى بهذا الطريق وهذه طريقة
فاسدة فلاجرم انه ينتفع بها فلاجرم انه لم ينتفع بها ثانيها انهم قالوا اتخذنا
هذه التماثيل على صورة الانبيا والاوليا والمراد من عبادتها ان تصير تلك
الانبيا والاوليا شفعا لنا عند الله وهذا الطريق ايضا فاسد فلاجرم لم
ينتفع بها ثالثها انه نقل عن الهند انهم يتقربون الى الله بقتل انفسهم تارة
وباحراق انفسهم اخرى وهذه الطريقة ايضا فاسدة فلاجرم لم ينتفع بها
وكذا القول في جميع الفرق المبطلين الذين يتقربون الى الله تعالى بمذاهبهم
الباطلة الثالث قوله تعالى وهو مومن لان الشرط في كون اعمال البر مقتضية
للثواب هو الايمان وان لم يوجد لم يحصل المشروط وعن بعض المتقدمين من لم يكن
معه ثلاثة لم ينفعه عمله ايمان ثابت ونية صادقة وعمل مصيب وتلى هذه
الاية ثم تعالى اخبر عند وجود هذه الشروط بقوله تعالى فاولئك العالوا
الرتبة الجامعين الشرايط الثلاثة كان سعيهم مشكورا اي مقبولا مثابا
عليه مثابا عليه بالتضعيف وبعضهم يفتح له ابواب الدنيا مع ذلك كداود
وسليمان عليهما السلام ويستعمله فيها بما فيه مرضات الله تعالى وبعضهم
يزويها عنه كرامة له لا هوانا به اذ ربما كان الفقر خيرا له واعون على مراده
فالحاصل انها ان وجدت هذا الولي لم تشرفه وان عدمت عنه لم تحقره لا

وانما التشريف وغيره عند الله تعالى بالاعمال تنبيه كل من اتى بفعل اما ان يقصد
به تحصيل خيرات الدنيا واما ان يقصد به خيرات الاخرة واما ان يقصد به مجموعهما
واما ان لا يقصد واحدا منهما فان قصد تحصيل الدنيا فقط او تحصيل الاخرة
فقط فالله ذكر حكم هذين القسمين في هذه الاية واما القسم الثالث فينقسم ثلاثة
اقسام اما ان يكون طلب الاخرة راجحا او مرجوحا او يكون الطلبان متعادلين فان كان
طلب الاخرة راجحا فهل يكون هذا العمل مقبولا عند الله تعالى فيه رايان احدهما انه غير
مقبول لقوله صلى الله عليه وسلم حاكيا عن الله تعالى انه قال انا اغنى الاغنيا
عن الشرك من عمل عملا اشرك فيه غيري تركته وشركه وايضا طلب رضوان
الله اما ان يكون سببا مستقلا بكونه باعثا على ذلك الفعل وداعيا اليه واما
ان لا يكون فان كان الاول امتنع ان يكون لغيره مدخلا فيه وان كان الثاني فيكون
الداعي الى ذلك الفعل هو المجموع وذلك المجموع ليس هو طلب رضوان الله
فوجب ان لا يكون مقبولا الراي الثاني انه مقبول لان طلب الاخرة لما كان
راجحا على طلب الدنيا تعارض المثل بالمثل فبقي القدر الزايد داعية خالصة
لطلب الاخرة فوجب كونه مقبولا واما اذا كان طلب الدنيا وطلب الاخرة
متعادلين او كان طلب الدنيا راجحا فقد اتفقوا على انه غير مقبول الا انه على
كل حال خير مما اذا كان طلب الدنيا خاليا بالكلية عن طلب الاخرة واما القسم
الرابع وهو الاقدام على الفعل غير داعي فهذا ينبني على ان صدور الفعل من
القادر هل يتوقف على حصول الداعي ام لا فالذين يقولون انه متوقف على
حصول الداعي قالوا هذا القسم ممتنع الحصول والذين قالوا لا يتوقف قالوا
هذا الفعل لا يتوقف اثر له في الباطن وهو محرم في الظاهر لانه عبث
ثم انه تعالى قال كلا اي من الفريقين مريد الدنيا ومريد الاخرة نمد اي
بالعطا ثم ابدل من كلا قوله تعالى هولاء اي الذين طلبوا الدنيا نمد
وهولاء اي الذين طلبوا الاخرة نمد من عطاء ربك اي المحسن اليك
ان ضيق على مومن فالحماية من الدنيا الفانية التي انما هي لعب ولهو وان
وسع فبالاستعمال فيها على حسب ما يرضيه وما كان عطاء ربك اي الموجد
لك المدبر لامرك محظورا اي ممنوعا عن الدنيا عن مومن ولا كافر
بل هو ملا السهل والجبل من الذهب والفضة والحديد والنحاس
والجواهر والثمار واقوات الناس والبهايم وغير ذلك مما لا يحصيه
الا الله تعالى حتى لو اجتمع كل الناس على جمعه ليلا ونهارا ولم يكن لهم
شغل سوى ذلك لاعياهم ولم يقدروا عليه فسبحان الجواد والمعطي
المانع ثم انه تعالى امر بالنظر باعطائه هذا على وجه مرغب في الاخرة
مزهد في الدنيا بقوله تعالى انظر اي ايها الانسان او يا محمد
كيف فضلنا بعضهم على بعض فاوسعنا على مومن وقترنا على مومن اخر

واوسعنا على كافر وفترنا على كافر اخر وبين سبحنه وتعالى وجه الحكمة في التفاوت في سورة الزخرف بقوله تعالى نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات الاية وقال تعالى في سورة الانعام ورفع بعضكم فوق بعض درجات تنبيه كيف نصب اما على التشبيه بالظرف واما على الحال وهي متعلقة لا انظر بمعنى فكر وابصر ولما نبه تعالى على ان ما نراه من التفضيل انما هو محض قدرته اخبر على ان ما بعد الموت كذلك بقوله تعالى **وللاخرة اكبر** اي اعظم **درجات واكبر تفضيلا** من درجات الدنيا ومن تفضيلها فان نسبة التفاضل في درجات الاخرة الى التفاضل في درجات الدنيا فاذا كان الانسان تشتد رغبته في طلب الاخرة فضيلة الدنيا فبان تقوى رغبته في طلب الاخرة اقوى لانها دار المقامة روي ان قوما من الاشراف فمن دونهم اجتمعوا باب عمر رضي الله تعالى عنه فخرج الاذن لبلال وصهيب فشق على ابي سفيان فقال سهيل بن عمرو انما اوتينا من قبلنا انهم دعوا ودعينا يعني الى الاسلام فاسرعوا وابطانا وهذا باب عمر فكيف التفاوت في الاخرة ولما بين تعالى ان الناس فريقان منهم من يريد بعمله الدنيا فقط وهم اهل العذاب ومنهم من يريد طاعة الله وهم اهل الثواب ثم اشرط في ذلك ثلاث شروط فصل تلك المجملات وبدا اولا بشرح حقيقة الايمان واشرف اجزاء الايمان هو التوحيد ونفي الشرك والاضداد بقوله تعالى **لا تجعل مع الله** اي الذي له جميع صفات الكمال **الها اخر** قيل الخطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم والمراد غيره والاولى انه للانسان فيكون خطابا عاما لكل من يصح ان يخاطب به **فتقعد** اي فتسبب عن ذلك ان تقعد اي تصير في الدنيا قبل الاخرة **مذموما مخذولا** لان المشرك كاذب والكاذب يستوجب الذم والخذلان ولانه قد ثبت بالدليل ان لا اله ولا مدبر الا الله تعالى فحينئذ تكون جميع النعم حاصلة من الله تعالى فمن اشرك بالله فقد اضاف بعض تلك النعم الى غير الله فاستحق الذم والخذلان تنبيه قال الواحدي قوله تعالى فتقعد انتصب لانه وقع بعد الفاء جوابا للنهي وانتصاب باضمار ان كقولك لا تنقطع عنا فنجفوك والتقدير لا يكن منك انقطاع فيحصل ان نجفوك فما بعد الفاء متعلق بالجملة المتقدمة بحرف الفاء وانما سماه النحويون جوابا لكونه مشابها للجزاء وان الثاني مسبب عن الاول كما تقرر ولما ذكر تعالى ما هو الركن الاعظم في الايمان اتبعه بذكر ما هو من شعائر الايمان وشرائعه وذلك انواع الاول ان يشتغل الانسان بعبادة الله ويحترز عن عبادة غيره وهذا هو المراد بقوله تعالى **وقضى** اي امر **ربك** اي المحسن اليك وقوله تعالى **ان لا تعبدوا** اي انت وجميع اهل دعوتك وهم جميع

الناس **الا اياه** فيه وجوب عبادة الله تعالى والمنع من عبادة غيره لان العبادة عبارة عن الفعل المشتمل على نهاية التعظيم ونهاية التعظيم لا تليق الا بمن له الانعام والافضال على عباده ولا منعم الا الله تعالى فكان هو المستحق للعبادة لا غيره تنبيه روي ميمون بن مهران عن ابن عباس انه قال في هذه الاية كان الاصل ووصى ربك فالتصقت احدى الواوين بالصاد فقرئ وقضى ربك ثم قال ولو كان على القضاء ما عصى الله احد قط لان خلاف قضاء الله ممتنع وهذا القول كما قاله الرازي بعيد جدا اذ لو فتح هذا الباب لارتفع الامان عن القران وذلك يخرجه عن كونه حجة ولا شك انه طعن عظيم في الدين ويندفع بما فسر فقضى به ولما امر تعالى بعبادة نفسه اتبعه بالامر ببر الوالدين بقوله تعالى **وبالوالدين** اي واحسنوا اي اوقعوا الاحسان بهما **احسانا** اي بان تبروهما لكون الله معكم فانه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون تنبيهان احدهما المناسبة بين الامر بعبادة الله تعالى والامر ببر الوالدين من وجوه الاول ان السبب الحقيقي لوجود الانسان هو تخليق الله تعالى وايجاده والسبب الظاهر هو الابوان فامر الله تعالى بتعظيم السبب الحقيقي ثم اتبعه بالامر بتعظيم السبب الظاهر الثاني ان الموجود اما قديم واما حادث ويجب ان يكون معاملة الانسان مع الموجود القديم بالتعظيم والعبودية ومع الحادث باظهار الشفقة وهو المراد من قوله صلى الله عليه وسلم التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله واحق الخلق بالشفقة الابوان لكثرة انعامهما على الانسان فقوله تعالى وقضى ربك ان لا تعبدوا الا اياه اشارة الى التعظيم لامر الله وقوله تعالى وبالوالدين احسانا الى الشفقة على خلق الله الثالث ان الاشتغال بشكر المنعم واجب ثم المنعم الحقيقي هو الخالق سبحنه وتعالى وقد يكون بعض المخلوقين منعما عليك وشكره ايضا واجب لقوله صلى الله عليه وسلم من لم يشكر الناس لم يشكر الله وليس لاحد من الخلائق نعمة على الانسان مثل الابوين لان الولد قطعة من الوالدين قال صلى الله عليه وسلم فاطمة بضعة مني وايضا شفقة الوالدين على الولد عظيمة وايصال الخير الى الولد منهما امر طبيعي واحترازهما عن ايصال الضرر اليه امر طبيعي ايضا فوجب ان تكون نعم الوالدين على الولد كثيرة بل هي اكثر من كل نعمة تصل من الانسان الى الانسان وايضا حال ما يكون الانسان في غاية الضعف ونهاية العجز يكون انعام الابوين في ذلك الوقت واصلة الى الولد واذا وقع الانعام على هذا الوجه كان موقعه عظيما وايضا فايصال الخير الى الغير قد يكون لداعية ايصال الخير اليه وايصال الخير الى الولد ليس لهذا الغرض فكان فيه الانعام اتم واكمل فثبت بهذه الوجوه

انه ليس لاحد من المخلوقين نعمة على غيره مثل ما للوالدين على الولد فلهذا بدا الله بشكر
نعمة الخالق وهو قوله تعالى وقضى ربك ان لا تعبدوا الا اياه ثم اردفه بشكر
نعمة الوالدين وهو قوله تعالى وبالوالدين احسانا فان قيل الوالدين انما طلبا
تحصيل اللذة لانفسهما فلزم منه دخول الولد في الوجود ودخوله في عالم الافات
والمخافات فاي انعام للابوين على الولد وحكي ان بعض المنتسبين بالحكمة كان
يضرب اباه ويقول هو الذي ادخلني في عالم الكون والفساد وعرضني للموت
والفقر والعمى والزمانة وقيل لابي العلا المعري ماذا نكتب على قبرك فقال
اكتبوا على قبري هذا جناية ابي علي وما جنيت على احد وقال في ترك التزويج
والولد ۰ وتركت فيهم نعمة العدم التي ۰ فيهم لقد سبقت نعيم العاجل ۰
۰ ولو انهم ولدوا لعانوا شدة ۰ ترمي بهم في موبقات الاجل ۰
وقيل لاسكندر استاذك اعظم منة عليك ام والدك فقال الاستاذ اعظم
منة لانه تحمل انواع الشدايد عند تعليمي فاوقعني في نور العلم واما
الوالد فانه طلب تحصيل لذة الوقاع لنفسه فاخرجني الى افات عالم
الكون والفساد ومن الكلمات الماثورة المشهورة خير الاباء من علمك
اجيب بانه وان كان في اول الامر طلب لذة الوقاع الا ان الاهتمام
بايصال الخيرات اليه ودفع الافات عنه من اول دخوله في الوجود الى
وقت بلوغه الكبر اليس انه اعظم من جميع ما يصل اليه من جهات الخيرات
والمبرات فسقطت هذه الشبهات النكتة الثاني ان لفظ الاية
يدل على معان كثيرة كل واحد منها يوجب المبالغة في الاحسان الى الوالدين
منها انه تعالى قال في الاية المتقدمة ومن اراد الاخرة وسعى لها سعيها وهو
مومن فاولئك كان سعيهم مشكورا ثم اردفه بهذه الاية المشتملة
على الاعمال التي بواسطتها يحصل الفوز بسعادة الاخرة وجعل من
جملتها البر بالوالدين وذلك يدل على ان هذه الطاعة من اصول الطاعات
التي تفيد سعادة الاخرة ومنها انه تعالى بدا بذكر الامر بالتوحيد وثنى
بطاعة الله وثلث ببر الوالدين وهذه درجة عالية ومبالغة عظيمة
في تعظيم هذه الطاعات ومنه انه تعالى لم يقل واحسانا بالوالدين بل
قال وبالوالدين احسانا فتقديم ذكرهما يدل على شدة الاهتمام بهما ومنها
انه تعالى قال احسانا بلفظ التنكير والتنكير يدل على التعظيم اي احسانا
عظيما كاملا لان احسانهما اليك قد بلغ الغاية العظيمة فوجب ان
يكون احسانك اليهما كذلك ثم على جميع التقديرات لا تحصل المكافاة
لان انعامهما عليك على سبيل الابتداء وفي الامثال المشهورة ان البادي
بالبر لا يكافا ولما كان سبحانه وتعالى عليما بما في الطباع من ملال الولد لهما
لما عند اخذهما في السن قال تعالى اما موكد بادخال ما على ادخال ان

ان الشرطية لزيادة التقرير للمعنى اهتماما بشان الوالدين يبلغن عندك اي
كان يضطرا اليك في حالة الضعف والعجز فلا يكون لهما كافل غيرك فيصيرا عندك في
اخر العمر كما كنت عندهما في اوله احدهما او كلاهما وقرا حمزة والكسائي بالف
بعد الغين وكسر النون فالالف ضمير الوالدين لتقدم ذكرهما واحدهما بدل منه
او كلاهما عطف عليه فاعلا او بدلا فان قيل هل لا كان كلاهما توكيدا لا بدلا له
اجيب بانه معطوف على ما لا يصح ان يكون توكيدا للاثنين فوجب ان يكون
مثله فان قيل لم لا يجوز ان يكون احدهما بدلا وكلاهما توكيدا خلاف الاصل
وقرا الباقون بفتح النون والاعراب على هذا ظاهر وجميع القراء بتشديد النون
ثم انه تعالى امر الانسان في حق والديه بخمسة اشياء الاول منها قوله تعالى
فلا تقل لهما اف اي لا تتضجر منهما قال الزجاج معناه النتن وهذا
قول مجاهد لانه قال معنى قوله فلا تقل لهما اف اي لا تتقذرهما كما انهما
كانا لا يتقذران حين كنت تخري وتبول وفي رواية اخرى عن مجاهد
اذا وجدت منهما رايحة تؤذيك فلا تقل لهما اف فلقد بالغ سبحانه
وتعالى بالوصية بهما حيث شفع الاحسان بتوحيده ونظمهما في سلك القضا
بهما معا ثم ضيق الامر في مراعاتهما حتى لم يرخص في ادنى كلمة تنفلت من
من التضجر مع موجبات الضجر ومقتضياته ومع احوال لا يكاد يدخل
صبر الانسان معها في الاستطاعة وقد قال صلى الله عليه وسلم
اياكم وعقوق الوالدين فان الجنة يوجد ريحها من مسيرة الف عام ولا يجد
ريحها عاق ولا قاطع ولا شيخ زان ولا جار ازاره خيلا ان الكبريا لله رب
العالمين وسئل الفضيل بن عياض عن بر الوالدين فقال لا يقوم لخدمتهما
عن كسل وقرا نافع وحفص بالتنوين في الفا مع الكسر وابن كثير وابن عامر
بفتح الفا من غير تنوين الثاني قوله تعالى ولا تنهرهما اي لا تزجرهما
عما يتعاطيانه مما لا يعجبك يقال نهره وانتهره اذا استقبله بكلام
يزجره قال تعالى واما السايل فلا تنهر فان قيل المنع من التافيف
يدل على المنع من الانتهار بالاولى فما فايدة ذكره اجيب بان المراد بالمنع
من التافيف المنع من اظهار الضجر بالقليل والكثير والمراد من منع الانتهار
المنع من اظهار المخالفة في القول على سبيل الرد عليهما والتكذيب لهما
الثالث قوله تعالى وقل لهما قولا كريما اي حسنا جميلا طيبا كما
يقتضيه حسن الادب معهما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو
ان يقول يا ابتاه يا اماه وسيل سعيد بن المسيب رضي الله عنه
عن القول الكريم فقال هو قول العبد المذنب للسيد الفظ الغليظ
وعن عطا انه قال هو ان يتكلم معهما بشرط ان لا يرفع اليهما بصره
ولا يشد اليهما نظره وذلك ان هذين الفعلين ينافيان القول

بيان
بتوحيده ونظمهما
لم يرخص

د

الكريم فاذ قيل ابراهيم الخليل عليه السلام قال لابيه اني اراك وقومك في ضلال
مبين مع انه عليه السلام من اعظم الناس ادبا وحلما وكرما اجيب بان حق
الله تعالى مقدم على حق الابوين فاقدام ابراهيم على ذلك الايذا انما كان تقديما
لحق الله تعالى الرابع قوله تعالى واخفض لهما جناح الذل من الرحمة اي
لا من اجل الامتثال للامر وخوف العار فقط بل من اجل الرحمة لهما
بان لا تزال تذكر نفسك بالاوامر والنواهي وبما تقدم لهما من الاحسان
اليك والمقصود المبالغة في التواضع وهذه استعارة بليغة قال
القفال وفي تقديره وجهان الاول ان الطائر اذا اراد ضم فرخه اليه
للتربية خفض له جناحه فلهذا صار خفض الجناح كناية عن حسن
التربية فكانه قال للولد اكفل والديك بان تضمهما الى نفسك
كما فعلا ذلك بك حال صغرك والثاني ان الطائر اذا اراد نشر جناحيه
ورفعهما ليرتفع واذا اراد ترك الطيران خفض جناحيه فجعل خفض الجناح
كناية عن التواضع واللين فان قيل كيف اضاف الجناح الى الذل والذل لا جناح
له اجيب بوجهين الاول انه اضيف الجناح الى الذل كما يقال حاتم الجود فكان
المراد حاتم الجواد فكذلك هنا المراد اخفض لهما جناحك الذليل الثاني
ان مدار الاستعارة على الخيالات فهنا تخيل للذل جناحا خفيضا كما جعل
كما جعل لبيد للشمال يدا وللقرة زماما في قوله وغداة ريح قد كشفت وقرة
اذا اصبحت بيد الشمال زمامها • فاثبت للشمال يدا وللقرة زماما
ووضع زمامها في يد الشمال فكذا هنا ومن طريف ما حكي ان ابا تمام لما نظم قوله
• لا تسقني ماء الملام فانني • صب قد استعذبت ماء بكائي •
جاءه رجل بقصعة وقال له اعطني شيئا من ماء الملام فقال له حتى
تاتيني بريشة من جناح الذل يريد ان هذا مجاز استعارة لذلك
وقال بعضهم راشوا جناحي ثم بلوه بالندى • فلم استطع من حبهم طيرانا •
الخامس قوله تعالى وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا اي لا تكتف برحمتك
عليهما التي لا بقاء لها وادع الله ان يرحمهما رحمته الباقية واجعل ذلك
جزاء لرحمتهما عليك في صغرك وتربيتهما لك هذا اذا كانا مسلمين فان
كانا كافرين فان الدعاء لهما بالرحمة منسوخ في قوله تعالى ما كان للنبي
والذين امنوا ان يستغفروا للمشركين ولو كانوا اولي قربى بل يدعو
الله لهما بالهداية والارشاد فاذا هداهما فقد رحمهما وسئل
بعضهم عن بر الوالدين فقال لا ترفع صوتك عليهما ولا تنظر اليهما شزرا
ولا يريا منك مخالفة في ظاهر ولا باطن وان يترحم عليهما ما عاشا
ويدعو لهما ان ماتا ويقوم بخدمة اوداهما من بعدهما لما ورد عنه
صلى الله عليه وسلم انه قال من ابر البر ان يصل الرجل اهل ود ابيه

كشفت

لما ورد

لما ورد عنه صلى الله عليه وسلم تنبيه قد ورد في بر الوالدين احاديث كثيرة منها
ما روي عن ابي هريرة انه قال جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول
الله من احسن الناس بصحابتي فقال امك ثم امك ثم اباك ثم
ادناك فادناك ومنها عنه ايضا انه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه
وسلم يقول رغم الله انفه رغم الله انفه رغم الله انفه قيل من يا رسول الله
قال من ادرك والديه او احدهما ثم لم يدخل الجنة ومنها ما روي عنه
ايضا انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لن يجزي ولد عن
والده الا ان يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه ومنها ما روي عن عبد الله
ابن عمرو بن العاص انه قال جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم
يستاذنه في الجهاد فقال احي والداك قال نعم قال ففيهما فجاهد ومنها
ما رواه الترمذي انه قال صلى الله عليه وسلم قال رضى الرب في رضى الوالد بن
وسخط الرب في سخط الوالدين ومنها ما روي عن ابي الدرداء انه قال
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الوالد اوسط ابواب الجنة
فحافظ ان شئت او ضيع ومنها ما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه
انه قال سالت رسول الله صلى الله عليه وسلم اي العمل احب الى الله
تعالى قال الصلاة في وقتها قلت ثم اي قال بر الوالدين قلت ثم اي قال
الجهاد في سبيل الله وسئل بن عيينة عن الصدقة عن الميت فقال
ذلك واصل اليه ولا شيء انفع لهم من الاستغفار ولو كان شيء افضل منه
لامركم به في الوالدين ولقد كرر الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز الوصية
بالوالدين ومنها ما روي انه صلى الله عليه وسلم قال رضى الله في
رضى الوالدين وسخطه في سخطهما ومنها ما روي عن سعيد بن المسيب
ان البار بوالديه لا يموت ميتة سوء ومنها ما روي ان رجلا قال لرسول
الله صلى الله عليه وسلم ان ابواي بلغا من الكبر اني الي منهما ما وليا مني
في الصغر فهل قضيتهما قال لا فانهما كانا يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك
وانت تفعل ذلك وانت تريد موتهما ومنها ما رواه ابو هريرة ان رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال رغم انف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي ورغم انف
رجل اتى عليه شهر رمضان فلم يغفر له ورغم انف رجل ادرك ابويه الكبر
فلم يدخلاه الجنة ومنها ان رجلا شكى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم اباه وانه
ياخذ ماله فدعاه فاذا هو شيخ يتوكا على عصى فساله فقال انه كان ضعيفا
وانا قوي وفقيرا وانا غني فكنت لا امنعه شيئا من مالي واليوم انا ضعيف
وهو قوي وانا فقير وهو غني ويبخل علي بماله فبكى رسول الله صلى الله عليه
وسلم وقال ما من حجر ولا مدر يسمع بهذا الا بكى ثم قال للولد انت ومالك
لابيك وشكى اليه اخر سوء خلق امه فقال لم تكن سيئة الخلق حين

ارضعتك حولين حملتك تسعة اشهر قال انها سيئة الخلق قال لم تكن كذلك
حين ارضعتك حولين اسهرت لك ليلها واظمات لك نهارها قال لقد جازيتها
قال ما فعلت قال حججت بها على عنقي قال ما جزيتها وعن ابن عمر انه راي رجلا في
الطواف يحمل امه ويقول اني لها مطية لا تذعر اذا الركاب نفرت لا تنفر
ما حملت وارضعتني اكثر الله ربي ذو الجلال الاكبر تظنني جزيتها يا ابن
عمر قال لا والله ولا زفرة واحدة ولما كان ما ذكر في حق الوالدين عسيرا جدا
يحذر من التهاون فيه اشار بقوله تعالى ربكم اي المحسن اليكم في الحقيقة
فانه هو الذي عطف عليكم من ربيكم وهو الذي اعانهم على ذلك اعلم اي من كل احد
بما في نفوسكم من قصد البر لهما وغيره فلا يظهر احدكم غير ما يبطن فان ذلك
لا ينفعه ولا ينجيه الي ان يحمل نفسه على ما يكون سببا لرحمتهما ان تكونوا صالحين
اي متقين محسنين في نفس الامر والصلاح استقامة الفعل على ما يدعو الدليل
عليه واشار تعالى الي انه لا يكون ذلك الا بمعالجة النفس وتزجيتها كرها بعد كره
بقوله تعالى فانه كان للاوابين اي الرجاعين الي الخير مرة اثر مرة بعد جماح
انفسهم عنه غفورا اي بالغ الستر من وقع منه تقصير فرجع عنه فانه
مغفور له ولما حث تعالى على الاحسان للوالدين بالخصوص عم بالامر بالاحسان
لكل ذي قرابة ورحم وغيره بقوله تعالى وات ذا القربى من جهة الاب والام
وان بعد حقه والخطاب لكل احد ان يوفي اقاربه حقوقهم من صلة
الرحم والمودة والزيارة وحسن المعاشرة والمعاضدة ونحو ذلك وفيه ان
كانوا محتاجين ومحاويج وهو موسر لزمه الانفاق عليهم عند ابي حنيفة
وقال الشافعي لا يلزم الا نفقة الوالد على ولده والولد على والده فقط
وقيل القرابة المراد بالقرابة قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم
وات المسكين حقه وان لم يكن قريبا وات ابن السبيل
وهو المسافر المنقطع عن ماله ليكون منفقا محسنا ولما رغب تعالى
في البذل وكانت النفس قل ما يكون فعلها قواما بين الافراط والتفريط
اتبع ذلك بقوله تعالى ولا تبذر بتفريق المال سرفا وهو بذله في ما لا ينبغي
وقد كانت الجاهلية تبذر اموالها في الفخر والسمعة وتذكر ذلك في اشعارها
فامر الله تعالى بالنفقة في وجوهها مما يقرب منه ويزلف اليه وفي قوله تعالى
تبذيرا تنبيه على ان الارتفاع نحو ساحة التبذير اولى من الهبوط الي
مضيق الشح والتقتير والتبذير بسط اليد في المال على حب الهوى
وقد سئل ابن مسعود عن التبذير فقال انفاق المال في غير حقه
واما الجود فهو اتباع امر الله تعالى في حقوق المال وعن مجاهد لو انفق الانسان
ماله كله في الحق ما كان تبذيرا ولو انفق مدا في باطل كان تبذيرا وقد انفق
بعضهم نفقة في خير فاكثر فقال له صاحبه لا خير في السرف فقال

لا سرف في الخير وعن عبد الله بن عمر قال مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بسعد وهو يتوضأ
فقال ما هذا السرف يا سعد قال او في الوضوء سرف قال نعم وان كنت على نهر
جار ثم نبه تعالى على قبح التبذير باضافته اياه الى افعال الشياطين بقوله تعالى
ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين اي على طريقتهم او هم اخوانهم واصدقاؤهم
لانهم يطيعونهم فيما يامرونهم به من الاسراف او هم قرناؤهم وهم في النار على سبيل
الوعيد ثم انه تعالى بين صفة الشيطان بقوله وكان الشيطان اي هذا
الجنس البعيد من كل خير المحترق بكل شر لربه اي الذي احسن اليه بايجاده
وتربيته كفورا اي ستورا لما يقدر على ستره من اياته الظاهرة ونعمه
الباهرة مع الحجة فلا ينبغي ان يطاع لانه لا يدعو الا الى مثل فعله قال بعض
العلماء خرجت هذه الاية على وفق عادة العرب وذلك لانهم كانوا يجمعون الاموال
بالنهب والغارة ثم كانوا ينفقونها في الخيلاء والتفاخر وكان المشركون من قريش
وغيرهم ينفقون اموالهم ليصدوا الناس عن الاسلام ويوهنوا اهله واعانة
اعدائه فنزلت هذه الاية تنبيها على قبح افعالهم في هذا الباب وقوله تعالى
واما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك نزل في مهجع وبلال وصهيب وسالم وخباب
وكانوا يسالون النبي صلى الله عليه وسلم في الاحايين ما يحتاجون اليه ولا
يجد فيعرض عنهم حياء منهم ويمسك لانتظار رزق من الله يرجوه ان يفتح
بابه فيعطيه ترجوها اي حالة الاعراض فقل لهم قولا ميسورا اي ذا يسر يشرح
صدورهم ويبسط رجاءهم لان ذلك اقرب الى طريق المتقين المحسنين قال ابو
حيان روي انه عليه الصلاة والسلام كان بعد نزول هذه الاية اذا لم يكن عنده
ما يعطي وسئل قال يرزقنا الله واياكم من فضله انتهى وقد وقع هذا الابتغاء
موضع الفقر لان فاقد الرزق يبتغيه فكان الفقر سبب الابتغاء والابتغاء
مسببا عنه فوضع المسبب موضع السبب ثم امر تعالى نبيه بما وصف به
عباده المومنين في الانفاق في سورة الفرقان بقوله تعالى والذين اذا انفقوا
لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما فقال تعالى ولا تجعل يدك
اي بالبخل مغلولة اي كانها بالمنع مشدودة بالغل الى عنقك اي
لا تستطيع مدها اي لا تمسك عن الانفاق بحيث تضيق على نفسك
واهلك في وجوه صلة الرحم وسبيل الخيرات والمعنى لا تجعل يدك
في انقباضها كالمغلولة الممنوعة من الانبساط ولا تبسطها بالبذل
كل البسط فتبذر بحيث لا يبقى في يدك شيء ذكر الحكماء في كتب الاخلاق
ان لكل خلق طرفي افراط وتفريط وهما مذمومان والعدل هو الوسط وعن
جابر اتى رسول الله صلى الله عليه وسلم صبي فقال يا رسول الله ان امي تستكسيك
درعا اي قميصا ولم يكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم الا قميصه فقال
للصبي من ساعة الى ساعة هذا متعلق بمحذوف اي اخر سوالك من ساعة

ليس لنا فيها درع الى الساعة يظهرون فيها درع فقد الباقى فذهب الى امه فقالت
له قل له ان امي تستكسيك الذي عليك فدخل رسول الله صلى الله عليه
وسلم ونزع قميصه واعطاه وقعد عريانا اي في ازار ونحوه فاذن بلال بالصلاة
فانتظره فلم يخرج فشغل قلوب اصحابه فدخل عليه بعضهم فراه عريانا
فانزل الله تعالى ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط
فتعطي جميع ما عندك تنبيه ما ذكرته عن جابر تبعا للكشاف والبيضاوي
والرازي وغيرهم قال الولي العراقي لم اقف عليه وكذا قال الحافظ بن حجر
وقد يقال من حفظ حجة على من لم يحفظ **فتقعد** اي فتوجد كالمقعد
ملوما اي بليغ الرسوخ فيما يلام بسببه لان ذلك مما نهى الله عنه عند
نفسك وعند الناس لانه يلوم نفسه واصحابه وايضا يلومونه على تضييع
المال بالكلية **محسورا** اي منقطعا بك لذهاب ما تتقوى به قال القفال
شبه حال من انفق كل ماله بمن انقطع في سفره بسبب انقطاع مطيته
لان ذلك المقدار من المال كانه مطية تحمل الانسان الى اخر الشهر والسنة
كما ان البعير يحمله ويبلغه الى اخر المنزل فاذا انقطع ذلك البعير بقي وسط
الطريق عاجزا متحيرا فكذلك الانسان اذا انفق مقدار ما يحتاج اليه
في مدة شهر بقي في وسط ذلك الشهر عاجزا متحيرا ومن فعل ذلك لحقه
اللوم من اهله والمحتاجين الى انفاقه عليهم بسبب سوء تدبيره وترك
الحزم في مهمات معاشه ثم قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم **ان ربك**
اي المحسن اليك **يبسط الرزق** اي يوسعه **لمن يشاء** له البسط دون
غيره **ويقدر** اي يضيقه سواء قبض بده ام بسطها لان الرب هو الذي
يربي المربوب ويقوم باصلاح مهماته ورفع درجات على مقدار الصلاح
في الصواب فيوسع الرزق على البعض ويضيقه على البعض لان ذلك هو
الصلاح قال الله تعالى ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الارض
ولكن ينزل بقدر ما يشاء **انه كان بعباده خبيرا** اي بالغ الخبر **بصيرا** اي
بالغ البصر بما يكون من كل من القبض والبسط لهم مصلحة ومفسدة
فالتفاوت في ارزاق العباد ليس لاجل بخل بل لاجل رعاية مصلحة لا
يعلم بها العبد فسبحان المتصرف في عباده كيف يشاء ولما اتم سبحانه
وتعالى الوصية بالاصول اتبع ذلك الوصي بالفروع بقوله تعالى **ولا تقتلوا
اولادكم** فذكرهم بلفظ الولد الذي هو داعية الى الحنو والعطف
خشية املاق اي فقر متوقع لم يقع بعد ثم وصل بذلك استينافا
بقوله تعالى **نحن نرزقهم واياكم** فقدم ضمير الاولاد لكون الاملاق مترقبا
من الانفاق عليهم ثم علل ذلك بما هو اعم منه فقال تعالى **ان قتلهم** اي
مطلقا لمنه او لغيره **كان خطئا** اي اثما **كبيرا** اي عظيما وقرا ابن كثير

٣ عند الله ؟

بفتح الطاء ومد بعدها مدا متصلا وقرا ابن ذكوان بفتح الخاء والطاء ولا مد بعد الطاء
والباقون بكسر الخاء وسكون الطاء قال الرماني الخطء بكسر ثم سكون لا يكون
الا متعمدا الى خلاف الصواب والخطا اي محركا قد يكون من غير تعمد وانما
وجب بر الاولاد لامور احدها انهم في غاية الضعف ولا كافل لهم غير الوالدين
وانما وجب بر الوالدين مكافاة لما صدر منهما من انواع البر الى الولد الثاني
ان امتناع الاباء من البر بالاولاد يقتضي خراب العالم الثالث ان قرابة الولادة
قرابة الجزئية والبعضية وهي من اعظم الموجبات للمحبة فلو لم تحصل المحبة
دل ذلك على غلظ شديد في الروح وقوة في القلب وذلك من اعظم الاخلاق
الذميمة فرغب الله تعالى في الاحسان الى الاولاد ازالة لهذه الخصلة الذميمة
وعبر تعالى بالاولاد ليشمل الاناث فان العرب كانوا يقتلون البنات لعجز
البنات عن الكسب وقدرة البنين عليه بسبب اقدامهم على النهب والغارة
وايضا كانوا يخافون انهن بعد كبرهن تفقد اكفاؤهن فيحتاجون الى نكاحهن
من غير اكفاء وفي ذلك عار شديد فنهاهم الله عن ذلك فان الموجب للرحمة
والشفقة هو كونه ولدا وهذا المعنى وصف مشترك بين الذكور والاناث
واما ما يخاف من الفقر في البنات فقد يخاف مثله في الذكور في حال الصغر
وقد يخاف ايضا في العاجزين من البنين وكما انه سبحانه وتعالى يفتح ابواب
الرزق على الذكور فكذلك على الاناث ولما كان في قتل الاولاد حظ من البخل
وفي فعل الزنا داع من الاسراف اتبعه به فقال تعالى **ولا تقربوا الزنا** ادنى
قرب ولو بفعل شيء من مقدماته وانما نهى تعالى بالقربان تعظيما له لما فيه من
المفاسد الجارة الى الفتن بالقتل وتضييع النسب والسبب في ايجاد
نفس بالباطل وغير ذلك ثم علل تعالى النهي عن ذلك بقوله تعالى موكدا
ابلاغا في التنفير عنه لما في النفس من شدة الداعية اليه **انه كان فاحشة**
اي فعلة ظاهرة القبح زائدته وقد نهاكم الله تعالى عن الفحشاء قوله
تعالى ان الله يامر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء
وساء اي وبئس الزنا **سبيلا** اي طريقا طريقه ثم نهى سبحانه وتعالى
عن القتل مطلقا عن التقييد بالاولاد بغير حق بقوله تعالى **ولا تقتلوا
النفس التي حرم الله الا بالحق** بالاسلام والعهد **ومن قتل** وهو المبيح للقتل
من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لا يحل دم امرئ مسلم الا باحدى ثلاث
رجل كفر بالله من بعد ايمانه وزنا بعد احصانه او قتل نفسا بغير حق ومثل
انتقال المسلم من دين الاسلام الى دين الكفر انتقال كافر من دين الى دين
اخر سواء كان ذلك الدين يقر عليه ام لا ومن ذلك قوله تعالى قاتلوا الذين
لا يؤمنون بالله ولا باليوم الاخر وقوله تعالى انما جزاء الذين يحاربون الله
ورسوله ويسعون في الارض فسادا ان يقتلوا او يصلبوا واختلف الفقهاء

في اشياء غير ذلك منها ان تارك الصلاة كسلا هل يقتل فعند الشافعي يقتل
بشرايط معلومة وعند ابي حنيفة لا يقتل التارك كالزاني ومنها ان عمل
اللواط هل يوجب القتل فعند الشافعي يوجب قتل الفاعل كالزاني وعند
ابي حنيفة لا يوجب ومنها ان الساحر اذا قال قتلت بالسحر فلانا بسحري
عمدا هل يوجب القتل فعند الشافعي يوجب وعند ابي حنيفة لا يوجب
ومنها ان القتل بالمثقل هل يوجب القصاص فعند الشافعي يوجب وعند
ابي حنيفة لا يوجب ومنها ان الامتناع من اداء الزكاة هل يوجب القتل
اختلفوا فيه في زمان ابي بكر ومنها ان اتيان البهيمة هل يوجب القتل
فعند اكثر الفقهاء لا يوجب وعند قوم يوجبه ولكل ممن ذكرناه له يستدل بها
رضي الله تعالى عنهم اجمعين ثم قال تعالى ومن قتل مظلوما فقد جعلنا اي باي ظلم
كان من غير ان يرتكب ما يبيح قتله لوليه سلطانا اي سوا كان قريبا ام بعيد
فلا يسرف اي امرا متسلطا وقوله تعالى في القتل انه كان منصورا قرا حمزة
والكسائي بالتاء على الخطاب اي ايها الولي وفسر الاسراف بوجوه الاول
ان يقتل القاتل وغير القاتل وذلك ان اوليا المقتول كانوا اذا قتل واحد
من قبيلة شريفة قتلوا خلقا من القبيلة الدنية فنهى الله تعالى عنه وحكم بقتل
القاتل وحده فان الجاهلية كانوا يقصدون اشرف قبيلة ثم يقتلون منهم
قوما معينين ويتركون القاتل الثالث الاسراف هو ان لا يكتفي بقتل القاتل
بل يقتله ثم يمثل به ويقطع اعضاه قال القفال ولا يبعد حمله على الكل
لان حمله على هذه المعاني مشتركة في كونها اسرافا واختلف في رجوع الها
الى ماذا في قوله تعالى ولا تقربوا مال فقال مجاهد راجعة الى المقتول
في قوله تعالى ومن قتل مظلوما اي ان المقتول منصور في الدنيا بايجاب
القود على قاتله وفي الاخرة بتكفير خطاياه وايجاب النار لقاتله وقال قتادة
راجعة لولي المقتول اي انه منصور على القاتل باستيفا القصاص والدية
فليكتف بهذا القدر ولا يطمع في الزيادة وقيل راجعة الى القاتل الظالم اي
ان القاتل يكتفي منه باستيفا القصاص ولا يطلب منه زيادة لانه منصور
من عند الله تعالى في تحريم طلب الزيادة منه وانه اذا عوقب في الدنيا بازيد
مما فعل نصر في الاخرة وقيل راجعة الى الدم وقيل الى الحق ولما ذكر تعالى النهي
عن اتلاف النفوس اتبعه بالنهي عن اتلاف الاموال لان اعز الاشيا بعد النفوس
الاموال واحق الناس بالنهي عن اتلاف اموالهم هو اليتيم لانه لصغره وضعفه
وكمال عجزه يعظم ضرره باتلاف ماله فلهذا السبب خصهم الله تعالى بالنهي عن
اتلاف اموالهم بقوله تعالى اليتيم الا بالتي عبر بالقربان الذي هو قبل
الاخذ تعظيما للمقام فهو ابلغ من قوله تعالى ولا تاكلوها اسرافا وبدارا وفي
تفسير قوله تعالى هي احسن حتى يبلغ اشده وجهان الاول الا التصرف الذي ينميه

والباقون بالياء على الغيبة اي الولي ٢ م

ويكره

ويكثره الثاني روي عن مجاهد عن ابن عباس انه قال اذا احتاج اكل بالمعروف
واذا ايسر قضاه فان لم يوسر فلا شي عليه والولي تبقى ولايته على اليتيم
حتى يبلغ اشده وهو ايناس الرشد منه بعد بلوغه كما بين تعالى ذلك في اية
اخرى وهو قوله تعالى وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان انستم منهم رشدا
فادفعوا اليهم اموالهم ولما نهى سبحانه وتعالى عن ثلاثة اشيا وهو الزنا والقتل
واكل مال اليتيم اتبعها بثلاثة اوامر الاول قوله تعالى واوفوا بالعهد اي اذا عاهد
الله تعالى على فعل المامورات وترك المنهيات او الناس على فعل او قول جايز وفي
تفسير قوله تعالى ان العهد كان مسؤلا وجوه الاول ان يراد ان صاحب العهد
كان مسؤلا فحذف المضاف واقيم المضاف اليه مقامه كقوله تعالى واسئل
القرية ثانيها ان العهد كان مسؤلا اي مطلوبا يطلب من المعاهد ان لا يضيعه ويفي
ثالثها ان يكون هذا تخييلا كان يقال للعهد لم نكثت وهلا وفي به تبكيتا
للناكث كما يقال للموؤدة باي ذنب قتلت وكقوله تعالى لعيسى عليه السلام
والانكار على غيره انت قلت للناس اتخذوني وامي الاية والمخاطبة لعيسى عليه
السلام والانكار على غيره الامر الثاني قوله تعالى واوفوا الكيل اذا كلتم اي
لغيركم فان كلتم لانفسكم فلا جناح عليكم ان نقصتم عن حقكم ولم توفوا الكيل الامر
الثالث قوله تعالى وزنوا اي وزنا ملتبسا بالقسطاس اي ميزان العدل
الذي هو اقوم الموازين وزاد في تاكيد معناه فقال المستقيم دون شي
من الحيف تنبيه القسطاس رومي عرب ولا يقدح ذلك في عربية القران
لان الاعجمي اذا استعملته العرب واجرته مجرى كلامهم في الاعراب والتعريف
والتنكير ونحوها صار عربيا وقرا حفص وحمزة والكسائي بكسر القاف
والباقون بضمها ذلك اي الامر العالي الرتبة الذي اخبرناكم به من الايفاء
بالتمام والكمال خير لكم في الدارين الدنيا والاخرة من التطفيف بالكيل والوزن
بحيث ان الانسان يتخلص بواسطة عن الذكر القبيح في الدنيا والعذاب
الشديد في الاخرة وان تراءى لكم ان التطفيف واحسن تاويلا اي عاقبة
في الدنيا ارين اما في الدنيا فلانه اذا اشتهر بالاحتراز عن التطفيف
عول الناس عليه ومالت اليه القلوب وحصل له الاستغنا في الزمن القليل
وكم راينا من الفقرا اشتهر واعند الناس بالامانة والاحتراز عن الخيانة
انقلبت القلوب عليهم وحصلت الاموال الكثيرة لهم واما في الاخرة فالفوز
بالثواب العظيم والفوز الخلاص من العقاب الاليم والتاويل وهو تفعيل
من الاول وهو الرجوع وافعل التفضيل هنا لاستعمال الصفة بار جالها
اي على تقدير ان يكون في كل منهما خير فهذا المعنى الذي ذكرناه ازيد خير والعاقل
لا يرضى لنفسه بالدون ولما شرح الله تعالى الاوامر الثلاثة عاد الى ذكر النواهي
فنهى عن ثلاثة اشيا اولها قوله تعالى ولا تقف اي لا تتبع ايها الانسان

م

ما ليس لك به علم من قول وفعل وحاصله يرجع الي النهي عن الحكم بما لا يكون معلوما وهو قضية كلية يندرج تحتها انواع كثيرة واختلف المفسرون فيها فقال ابن عباس لا تشهد الا بما رأته عيناك وسمعته اذناك ووعاه قلبك وقال قتادة لا تقل سمعت ولم تسمع ورأيت ولم تر وعلمت ولم تعلم وقيل المراد النهي عن القذف وقيل المراد النهي عن الكذب وقيل المراد نهي المشركين عن اعتقاداتهم وتقليدا اسلافهم لان الله تعالى نسبهم في تلك العقايد الى اتباع الهوى فقال تعالى ان هي الا اسما سميتموها انتم واباؤكم ما انزل الله بها من سلطان ان يتبعون الا الظن وما تهوي الانفس وقيل القفو هو البهت واصله من القفا كانه يقال خلفه وهو في معنى الغيبة قال صلى الله عليه وسلم من قفا مومنا بما ليس فيه حبسه الله تعالى في ردغة الخبال رواه الطبراني وغيره وردغة بسكون الدال وفتحها عصارة اهل النار وقال الكميت

ولا ارمي البرايا بغير ذنب ✿ ولا اقفو الحواصن ان قفينا

بنا قفينا المفعول والحواصن النسا العفايف والقطعام يتناول الكل فلا معنى للتقييد تنبيه يقال قفوت اثر فلان اقفوا اذا اتبعت اثره وسميت قافية الشعر قافية لان البيت يقفو البيت وسميت القبيلة المشهورة بالقافة لانهم يتبعون اثار اقدامهم او اثار اقدام الناس ويستدلون بها على احوال الناس وقال تعالى ثم قفينا على اثارهم برسلنا وسمي القفا قفا لانه موخر بدن الانسان فان مشي يتبعه ويقفوه فان قيل ان هذه الاية تدل على منع القياس فانه لا يفيد الا الظن والظن مغاير للعلم اجيب بان ذلك عام دخله التخصيص فان الحكم في الدين بمجرد الظن جايز باجماع الامة وبان المراد بالعلم هو الاعتقاد الراجح المستفاد من سند سواء كان قطعيا ام ظنيا واستعماله بهذا المعنى شايع ذايع وقد استعمل في مسايل كثيرة منها ان العمل بالشهادة عمل بالظن ومنها الاجتهاد في طلب القبلة ولا يفيد الا الظن ومنها قيم المتلفات وارش الجنايات لا سبيل بهما الا بالظن ومنها بعث الحكمين في الشقاق قال تعالى وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من اهله وحكما من اهلها وحصول ذلك الشقاق مظنون لا معلوم ومنها الحكم على الشخص المعين بكونه مومنا مظنون ويبنى على هذا الظن احكام كثيرة مثل حصول التوارث ومنها الدفن في مقابر المسلمين ومنها الاعتماد على صدق الاصدقا وعداوة الاعدا كلها مظنونة وبنا الامر على تلك الظنون وقال صلى الله عليه وسلم نحكم بالظاهر والله يتولى السراير وذلك تصريح بان الظن معتبر فبطل قول من يقول لا يجوز بنا الامر على الظن ثم علل تعالى النهي محوفا بقوله تعالى ان السمع والبصر وهما طريقا الادراك والفؤاد الذي هو آلة الادراك ثم عول الامر بقوله تعالى كل اولئك هذه الاشيا العظيمة

العالية

العالية المنافع البديعة التكوين تنبيه اولا وجميع اسما الاشارة يشار بها للعاقل وغيره كقول الشاعر

ذم المنازل بعد منزلة اللوى ✿ والعيش بعد اولئك الايام

يجوز في ذم فتح الميم وكسرها وضمها وقوله بعد منزلة اللوى اي بعد مفارقتها والاضافة في منزلة اللوى للبيان وهو محمود ولكن نصبه هنا الضرورة والعيش عطف على المنازل والايام صفة لاسم الاشارة فعطف بيان له كان عنه اي بوعد لا خلف فيه مسؤلا بسوال يخصه تنبيه ظاهر الاية يدل على ان الجوارح مسؤلة وفيه وجوه الاول معناه ان صاحب السمع والبصر والفؤاد وهو المسؤل لان السوال لا يصح الا ممن كان عاقلا وهذه الجوارح ليست كذلك بل العاقل الفاهم هو الانسان كقوله تعالى واسأل القرية اي اهلها والمعنى انه يقال للانسان لم سمعت ما لم يحل سماعه ولم نظرت لما لم يحل نظره ولم عزمت على ما لم يحل لك العزم عليه الثاني ان تقدير الاية ان اولئك الاقوام كلهم مسؤلون عن السمع والبصر والفؤاد فيقال لهم استعملتم السمع في ماذا أفي الطاعة ام في المعصية وكذا القول في بقية الاعضا وذلك لان الحواس آلات النفس والنفس كالامير لها والمستعمل لها في مصالحها فان استعملها في الخيرات استوجب الثواب وان استعملها في المعاصي استحق العقاب الثالث ان الله تعالى يخلق الحياة في الاعضا ثم انها تسال لقوله تعالى يوم تشهد عليهم السنتهم وايديهم وارجلهم بما كانوا يعملون فكذلك لا يبعد ان يخلق العقل والحياة والنطق في هذه الاعضا ثم انها تسال روي عن شكل ابن حميد قال اتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يا نبي الله علمني تعويذا اتعوذ به فاخذ بيدي ثم قال قل اعوذ بك من شر سمعي وشر بصري وشر لساني وشر قلبي وشر منيي قال فحفظتها قال سعد المني ماوه النهي الثالث قوله تعالى ولا تمش في الارض مرحا اي ذا مرح وهو شدة الفرح والمراد من الاية النهي عن ان يمشي الانسان مشيا يدل على الكبريا والعظمة قال الزجاج ولا تمش في الارض مختالا فخورا ونظيره قوله تعالى في سورة الفرقان وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا وقال تعالى في سورة لقمان واقصد في مشيك واغضض من صوتك وقال تعالى فيها ولا تمش في الارض مرحا ان الله لا يحب كل مختال فخور ثم علل تعالى النهي عن ذلك بقوله تعالى انك لن تخرق الارض اي تثقبها حتى تبلغ آخرها بكبرك ولن تبلغ الجبال طولا اي تتطاول وهو تهكم بالمختال لان الاختيال حماقة مجردة لا يفيد شيا ليس في التذلل وفي ذلك اشارة الى ان العبد ضعيف لا يقدر على خرق ارض ولا وصول الى جبال فهو محاط به من فوقه وتحته بنوعين من الجمادات وهو اضعف منهما بكثير والضعيف المحصور لا يليق به التكبر

كانه قيل تواضع ولا تتكبر فانك خلق ضعيف من خلق الله محصور بين حجارة وتراب
فلا تفعل فعل المقتدر القوي وقيل ذكر ذلك لان من يمشي خيلا يمشي مرة على عقبيه
ومرة على صدور قدميه فقيل له انك لن تنقب الارض ان مشيت على
عقبيك ولن تبلغ الجبال طولا ان مشيت على صدور قدميك قال علي رضي الله
تعالى عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا مشى تكفا تكفيا كانما ينحط
من صبب وروى ابو هريرة رضي الله عنه قال ما رايت احسن من رسول الله
صلى الله عليه وسلم كان الشمس تجري من وجهه وما رايت احدا اسرع في مشيه
من رسول الله صلى الله عليه وسلم كانما الارض تطوى له انا لنجهد انفسنا
وانه لغير مكترث وقوله تعالى **كل ذلك** اشارة الى ما نهي عنه مما تقدم فان الذي
تقدم منهيات ومامورات وجملة ذلك من قوله تعالى ولا تجعل مع الله الها
اخر الى هنا خمسة وعشرون وها انا اسردها لك تسهيلا عليك فاولها
لا تجعل مع الله الها اخر وثانيها وثالثها وقضى ربك ان لا تعبدوا الا اياه
لاشتماله على تكليفين الامر بعبادة الله تعالى والنهي عن عبادة غيره رابعها
وبالوالدين احسانا خامسها فلا تقل لهما اف سادسها ولا تنهرهما سابعها
وقل لهما قولا كريما ثامنها واخفض لهما جناح الذل من الرحمة تاسعها
وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا عاشرها وات ذا القربى حقه حادي
عشرها والمسكين ثاني عشرها وابن السبيل ثالث عشرها ولا تبذر
تبذيرا رابع عشرها فقل لهم قولا ميسورا خامس عشرها ولا تجعل يدك
مغلولة الى عنقك سادس عشرها ولا تبسطها كل البسط سابع
عشرها ولا تقتلوا اولادكم ثامن عشرها ولا تقتلوا النفس تاسع
عشرها ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا عشروها فلا
يسرف في القتل حادي عشريها واوفوا بالعهد ثاني عشريها واوفوا الكيل ثالث عشريها وزنوا
بالقسطاس المستقيم رابع عشريها ولا تقف ما ليس لك به علم خامس
عشريها ولا تمش في الارض مرحا فكل هذه تكليفات بعضها اوامر وبعضها
نواهي فالمنهي عنه هو الذي قال تعالى فيه **كان سيئة عند ربك مكروها** اي
مبغضه والعاقل لا يفعل ما يكرهه المحسن اليه وقرا نافع وابن كثير وابو عمرو
بفتح الهمزة وبالتاء منونة منصوبة وقرا الباقون بضم الهاء والهمزة مضمومة
من غير تنوين والمعنى على هذا ظاهر اي ان سيئ تلك الاقسام يكون مكروها
واما على القراءة الاولى فسيئة خبر كان وانث حملا على معنى كل ثم قال
مكروها حملا على لفظها وقال الزمخشري ان السيئة في حكم الاسماء
بمنزلة الذنب والاسم زال عنه حكم الصفات فلا اعتبار بتانيثه ولا
فرق بين سيئة وسيئات الا ترى انك تقول الزنا سيئة كما تقول
السرقة سيئة فلا تفرق بين اسنادها الى مذكر ومونث وفي نصب مكروها

اوجه

اوجه احدها انه خبر ثان لكان الثاني انه بدل من سيئة وضعف بان البدل بالمشتق
قليل الثالث انه حال من الضمير المستتر في عند ربك لوقوعه صفة لسيئة الرابع
انه نعت لسيئة وانما ذكر لان تانيثه تانيث موصوفه مجازي ورد بان ذلك انما
يجوز حيث اسند الى المونث المجازي اما اذا اسند الى ضميره فلا نحو الشمس
طالعة فلا يجوز طالع وقوله تعالى **ذلك** اشارة الى الاحكام المتقدمة في
الاوامر والنواهي **مما اوحى اليك** يا اشرف الخلق **ربك** اي المحسن اليك
من الحكمة التي هي معرفة الحق لذاته والخير للعمل به وانما سميت هذه
الامور حكمة لوجوه الاول ان حاصلها يرجع الى الامر بالتوحيد وانواع الطاعات
والخيرات والاعراض عن الدنيا والاقبال على الاخرة والعقل يدل على ان مثل هذه الشريعة
لا يكون داعيا الى دين الشيطان بل الفطرة الاصلية تشهد بانه يكون داعيا الى
دين الرحمن الثاني ان هذه الاحكام المذكورة في هذه الايات شرائع واجبة
الرعاية في جميع الملل والاديان ولا تقبل النسخ والابطال فكانت محكمة وحكمة
من هذا الاعتبار الثالث ان الحكمة عبارة عن معرفة الحق لذاته والخير للعمل
به كما مرت الاشارة اليه فالامر بالتوحيد عبارة عن القسم الاول وسائر
التكاليف عبارة عن تعليم الخيرات حتى يواظب عليها ولا يتخرق فيها فثبت ان
الاشياء المذكورة من هذه الايات عين الحكمة وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما
ان هذه الايات كانت في الواح موسى عليه السلام وجعل سبحانه وتعالى
ما فتحها قوله تعالى ولا تجعل مع الله الها اخر وختمها قوله تعالى **ولا تجعل
مع الله الها اخر** تنبيها على ان التوحيد مبدا الامور ومنتهاه وان من
قصد بفعله او تركه غيره ضاع سعيه وانه راس الحكمة وملاكها ورتب عليه
ما هو عائدة الشرك في قوله تعالى اولا لا تجعل مع الله الها اي في الدنيا وثانيا
ما هو نتيجته في العقبى فقال **فتلقى** اي الاسراع فيه وعدم القدرة
على التدارك فعل من التقي من عال حال كونك **ملوما** اي تلوم نفسك
مدحورا اي مبعدا من رحمة الله تنبيه ذكر سبحانه وتعالى في الاية الاولى
بقوله تعالى مذموما مخذولا وفي هذه ملوما مدحورا والفرق بين الذم والملوم
هو انه يذكر له ان الفعل الذي اقدم عليه قبيح ومنكر فهذا معنى كونه مذموما ثم
يقال له فعلت هذا الفعل القبيح وما الذي حملك عليه فهذا هو اللوم فاول
الامر يصير مذموما واخره يصير ملوما والفرق بين المخذول والمدحور هو ان
المخذول عبارة عن الضعيف يقال تخاذلت اعضاؤه اي ضعفت والمدحور
هو المطرود والطرد عبارة عن الاستخفاف والاهانة فكونه مخذولا عبارة
عبارة عن ترك اعانته وتفويضه الى نفسه وكونه مدحورا عبارة عن اهانته
فيصير اول الامر مخذولا واخره مدحورا وقوله تعالى **افاصفاكم ربكم
بالبنين** خطاب للذين قالوا الملائكة بنات الله والهمزة للانكار

بالعهد ثاني عشريها واوفوا الكيل

فيجعل بين الافراط والتفريط مع ... تبعد

اي أفخصكم ربكم على وجه الخلوص والصفا بافضل الاولاد وهم البنون ولم يجعل فيهم نصيبا لنفسه واتخذ من الملئكة اناثا اي بنات لنفسه وهذا خلاف ما عليه معقولكم وعادتكم فان العبيد لا يستاثرون باجود الاشيا واصفاها من الشوب ويكون اردأها وادونها للسادات انكم لتقولون قولا عظيما باضافة الاولاد اليه لان اثبات الولد يقتضي كونه تعالى مركبا من الاجزا والابعاض وذلك يقدح في كونه قديما واجب الوجود لذاته وايضا فبتقدير ثبوت الولد فقد جعلوا اشرف القسمين لانفسهم واخس القسمين لله تعالى وهذا جهل عظيم وايضا جعلوا الملئكة التي من اشرف خلق الله الذين منهم من يقدر على حمل الارض وقلب اسفلها على اعلاها اناثا في غاية الرخاوة ولما كان في هذا من البيان ما لا يخفى على انسان ولم يرجعوا اشارة الى انه لم ينل بلد الاعراض عن امثال هذا البيان فقال تعالى ولقد صرفنا اي بينا بيانا عظيما بانواع طرق البيان من العبر والحكم والامثال والاحكام والاعلام في قوالب الوعد والوعيد والامر والنهي والمحكم والمتشابه الى غير ذلك في هذا القران اي في مواضع منه من الامثال كما قال تعالى ولقد صرفنا للناس في هذا القران قيل لفظة في زائدة كما في قوله تعالى واصلح لي في ذريتي ورد بان في لا تزاد وما ذكرنا اولى كما ياتي ان شاء الله تعالى في الاحقاف والتصريف لغة صرف الشي من جهة الى اخرى ثم صار كناية عن التبيين قاله ابو حيان وقوله تعالى ليذكروا متعلق بصرفنا وقرا حمزة والكسائي بسكون الذال ورفع الكاف من غير تشديد من الذكر الذي هو بمعنى التذكر والباقون بفتح الذال والكاف مع تشديدهما وما يزيدهم اي التصريف الا نفورا اي تباعدا عن الحق وقلة طمانينة اليه وعن سفيان كان اذا قراها قال زادني لك خضوعا ما زاد اعداءك نفورا ثم قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم قل اي لهؤلاء المشركين ولا ياس من رجوع بعضهم لو كان معه الهة كما تقولون من هذه الاقوال التي تقولونها اعظم في حق اوثانكم ومن يريد بها حقيقتها الصارفة لكم للعباد اذا لابتغوا اي طلبوا طلبا عظيما الى ذي العرش اي صاحب العرش الاعظم المحيط الذي من ناله كان منفردا بالتدبير سبيلا اي طريقا سالكا يتوصلون به اليه ليقهروه ويزيلوا ملكه كما يفعل ملوك الدنيا بعضهم مع بعض او ليتخذوا عنده يدا تقربهم اليه وقرا ابن كثير وحفص بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب وادغم ابو عمرو الشين من العرش في السين بخلاف عنه ثم نزه سبحانه وتعالى نفسه فقال عز من قائل سبحانه اي تنزه التنزه الاعظم عن كل شائبة نقص وتعالى اي علا اعلا العلو بصفات الكمال عما يقولون اي من هذه النقايص التي لا يرضاها لنفسه احد من عقلا خلقه علوا اي تعاليا كبيرا اي متباعدا غاية البعد عما يقولون فانه تعالى في اعلا مراتب الوجود وهو كونه واجب الوجود والبقا لذاته تنبيه جعل العلو مصدر التعالي ومصدر

تنزيه بالوصف بالكمال تعالى
او بنوع

تعاليا كما قدرته فهو المراد ونظيره قوله تعالى والله انبتكم من الارض نباتا فان قيل ما الفايدة في وصف ذلك العلو بالكبير اجيب بان المنافاة بين ذاته وصفاته سبحانه وبين ثبوت الصاحبة والولد والشركا والاضداد والانداد منافاة بلغت في القوة والكمال الى حيث لا تقبل الزيادة عليها لان المنافاة بين الواجب لذاته والممكن لذاته وبين القديم والمحدث وبين الغني والمحتاج منافاة لا تقبل الزيادة عليها فلهذا السبب وصف الله تعالى ذلك العلو بالكبير وقرا حمزة والكسائي بالتا على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة ثم استانف تعالى بيان عظمة هذا التنزيه الاعظم له اي الاله الاعظم الذي تقدم وصفه بالجلال والاكرام خاصة السموات السبع اي السبع والارض ومن فيهن من ذوي العقول وان اي وما واعرق في النفي فقال من شي اي ذي عقل او غيره الا يسبح بحمده اي يقول سبحان الله العظيم وبحمده او يقول سبحان الله وبحمده وقال ابن عباس وان من شي الا يسبح بحمده وقال قتادة يعني الحيوانات والناميات وقال عكرمة الشجرة تسبح والاسطوانة تسبح وعن المقداد بن عدي التراب يسبح ما لم يبتل فاذا ابتل ترك التسبيح والورقة تسبح ما دامت على الشجرة فاذا سقطت تركت التسبيح والماء يسبح ما دام جاريا فاذا ركد ترك التسبيح والثوب يسبح ما دام جديدا فاذا وسخ ترك التسبيح وقال السيوطي في جواب سوال عن ذلك

قد خصصت اية الاسرا بمتصف ۞ وصف الحياة كرطب الزرع والشجر
فيابس مات لا تسبيح منه كذا ۞ ما زال عن موضع كالقطع للحجر

وقال ابراهيم النخعي وان من شي جماد وحي الا يسبح بحمده حتى صرير الباب ونقيض السقف وقال مجاهد كل الاشيا تسبح لله حيوانا كان او جمادا وتسبيحها سبحان الله وبحمده يدل على ذلك ما روي عن ابن مسعود كنا نعد الايات بركة وانتم تعدونها تخويفا كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فقل الما فقال صلى الله عليه وسلم اطلبوا فضلة من ما فجاوا باناء فيه ما قليل فادخل يده صلى الله عليه وسلم في الاناء ثم قال حي على الطهور المبارك والبركة من الله فلقد رايت الما ينبع من بين اصابعه صلى الله عليه وسلم ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يوكل وعن جابر بن سمرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ان بمكة حجرا كان يسلم على ليالي بعثت اني لاعرفه الان وعن ابن عمر انه صلى الله عليه وسلم كان يخطب الى جذع فلما اتخذ له المنبر تحول اليه فحن الجذع فاتاه فمسح يده عليه وفي رواية فنزل فاحتضنه وسارّه بشي ففي هذه الاحاديث دليل على ان الجماد يتكلم وانه يسبح وقال بعض اهل المعاني تسبيح السموات والارض والجماد والحيوانات سوى العقلا بلسان الحال حيث تدل على الصانع وقدرته

ولطيف حكمة فكانها نطق بذلك ويصير لها بمنزلة التسبيح قال البغوي
والاول هو المنقول عن السلف وقال ابن الخازن القول الاول اصح لما دلت
عليه الاحاديث وانه منقول عن السلف قال البغوي واعلم ان لله تعالى
علما في الجمادات لا يقف عليها غيره فينبغي ان يوكل علمه اليه ولكن لا تفقهون
اي تفهمون تسبيحهم اي لانه ليس بلغتكم انه كان حليما غفورا ولما ذكر
سبحانه وتعالى اثبات الالوهية اتبعه بذكر تقرير النبوة بقوله تعالى
واذا قرات القران اي الذي لا يدانيه واعظ ولا يساويه معهم وهو تبيان
لكل شي جعلنا اي بما لنا من العظمة بينك وبين الذين لا يؤمنون بالاخرة
حجابا مستورا اي يحجب قلوبهم عن فهم ما تقراه عليهم والانتفاع به قال
قتادة هو الاكنة والمستور بمعنى الساتر كقوله تعالى كان وعده ماتيا
مفعولا بمعنى فاعل وقيل مستورا عن اعين الناس فلا يرونه وفسره بعضهم
بالحجاب عن الاعين الظاهرة كما روي عن سعيد بن جبير انه لما نزلت تبت
يدا ابي لهب جاءت امراة ابي لهب ومعها حجر والنبي مع ابي بكر فلم تره فقالت
لابي بكر اين صاحبك لقد بلغني انه هجاني فقال والله لا ينطق بالشعر
ولا يقوله فرجعت وهي تقول قد كنت جئت بهذا الحجر لارضخ به راسه
فقال ابو بكر ما راتك يا رسول الله قال لا لم يزل ملك بيني وبينها
يسترني وجعلنا اي بما لنا من العظمة على قلوبهم اكنة اي اغطية
كراهة ان يفقهوه اي يفهموا القران حق فهمه وفي اذانهم وقرا اي شيئا
ثقيلا يمنع سماعهم وعن اسماء كان رسول الله صلى الله عليه وسلم
جالسا ومعه ابو بكر اذ اقبلت امراة ابي لهب ومعها فهر تريد رسول الله
صلى الله عليه وسلم وهي تقول مذمما ابينا قلينا وامره عصينا
فقال ابو بكر يا رسول الله معها فهر اخشاها عليك فتلا رسول الله صلى
الله عليه وسلم هذه الاية فجاءت وما رات رسول الله صلى الله عليه
وسلم وقالت اني رايت قريشا قد علمت اني ابنة سيدها وان صاحبك
هجاني فقال ابو بكر لا ورب الكعبة ورب هذا البيت ما هجاك وروي
ابن عباس ان ابا سفيان والنضر بن الحارث وابا جهل وغيرهم كانوا يجالسون
النبي صلى الله عليه وسلم ويستمعون حديثه فقال النضر يوما ما ادري
ما يقول محمد غير اني ارى شفتيه تتحرك بشي وقال ابو سفيان اني لارى
بعض ما يقوله الحقا وقال ابو جهل هو مجنون وقال ابو لهب هو كاهن
وقال حويطب بن عبد العزى هو شاعر فنزلت هذه الاية وكان رسول الله
صلى الله عليه وسلم اذا اراد قراءة تلاوة القران قرا قبلها ثلاث ايات
وهي في سورة الكهف وجعلنا على قلوبهم اكنة ان يفقهوه وفي اذانهم وقرا
وفي النحل اولئك الذين طبع الله على قلوبهم وفي حم الجاثية افرايت من اتخذ

الالهية

الهه

الهه هواه الى اخر الاية فكان الله يحجبه ببركة هذه الايات عن عيون المشركين
واذا ذكرت ربك اي المحسن اليك والهم في القران وحده اي مع الاعراض
عن الهتهم كان قلت وانت تتلو القران لا اله الا الله تنبيه في نصب وحده
وجهان احدهما انه منصوب على الحال وان كان معرفة لفظا لانه في قوة النكرة
اذ هو في معنى منفردا والثاني انه منصوب على الظرف ولوا على ادبارهم نفورا
اي هربا من استماع التوحيد تنبيه في نفورا وجهان احدهما مصدر من غير اللفظ
موكد لان التولي والنفور بمعنى والثاني انه حال من فاعل ولوا وهو حينئذ
جمع نافر كقاعد وقعود وشاهد وشهود والضمير في ولوا يعود على الكفار
وقيل يعود الى الشياطين وان لم يجر لهم ذكر قال المفسرون ان القوم كانوا
عند استماع القران على اقسام منهم من كان يلهو عند استماعه روي انه عليه
الصلاة والسلام كان كلما قرا القران قام عن يمينه وعن يساره اخوان
من ولد قصي يصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالاشعار ومنهم من
كان اذا سمع من القران ما ليس فيه ذكر الله تعالى بقوا مبهوتين لا يفهمون
منه شيئا ومنهم من اذا سمع ايات فيها ذكر الله وذم المشركين ولوا نفورا
وتركوا ذلك المجلس ولما كانوا ربما ادعوا السمع والفهم فشككوا بعض من
لم يرسخ ايمانه اتبعه تعالى بقوله تعالى نحن اعلم اي من كل عالم بما يستمعون
اي بالغون في الاصغا والميل كقصد السمع به من الاذان والقلوب اي
بسببه ولاجله من الهزء بك وبالقران اذ يستمعون اي يصغون بجهدهم
اليك اي الى قراءتك واذ اي حين هم ذو نجوى اي يتناجون اي يرفع كل
منهم سره الى صاحبه بعد اعراضهم عن الاستماع ثم ذكر تعالى ظرف
النجوى بقوله تعالى اذ وهو بدل من اذ يقول الظالمون ويقولهم ان اي ما
تتبعون الا رجلا مسحورا اي مخدوعا مغلوبا على عقله روي ان رسول الله
صلى الله عليه وسلم امر عليا ان يتخذ طعاما ويدعو اليه اشراف قريش من
المشركين ففعل ذلك ودخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرا
عليهم القران ودعاهم الى التوحيد وقال قولوا لا اله الا الله حتى تطيعكم
العرب وتدين لكم العجم فابوا عليه ذلك وكانوا عند استماعهم من النبي صلى
الله عليه وسلم القران والدعوة الى الله تعالى يقولون ان تتبعون الا رجلا مسحورا
فان قيل انهم لم يتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يصح ان يقولوا
ان تتبعون الا رجلا مسحورا اجيب بان معناه ان اتبعتموه فقد اتبعتم
رجلا مسحورا وقرا ابو عمرو وابن ذكوان وعاصم وحمزة بكسر التنوين في الوصل
والباقون بالضم ثم قال تعالى انظر كيف ضربوا اي هؤلاء الضلال لك الامثال
التي هي ابعد شي من صفتك بقولهم كاهن وساحر وشاعر ومعلم ومجنون
فضلوا عن الحق في جميع ذلك فلا اي فتسبب عن ذلك انهم لا يستطيعون

سبيلا اي وصولا الي طريق الحق ولما جرت عادة القران باثبات التوحيد والنبوة
والمعاد اتبع ذلك امرا جليا في ضلالهم عن السبيل في امر المعاد وقرره غاية التقرير
وحرره اتم تحرير فقال تعالى حكاية عنهم وقالوا اي المشركون المنكرون التوحيد
والنبوة والبعث مع اعترافهم بانا ابتداءنا خلقهم ومشاهدتهم في كل وقت انا نحيي
الارض بعد موتها وقولهم أإذا استفهام انكاري كانهم على ثقة من عدم ما ينكرونه
والعامل في اذا فعل من لفظ مبعوثون لا هو فان ما بعد ان لا يعمل فيما قبلها فالمعنى
انبعث اذا كنا اي بجملة اجسامنا كونا لازما عظاما ورفاتا اي حطاما
مكسرا مفتتا وغبارا وقال الفرا هو التراب وهو قول مجاهد ويؤيده انه قد
تكرر في القران ترابا وعظاما ويقال للتبن الرفت لانه دقاق الزرع أإنا لمبعوثون
حال كوننا مخلوقين خلقا جديدا تنبيه تقرير شبهة هولاء الضلال ان
الانسان اذا جفت اعضاؤه وتناثرت وتفرقت في جوانب العالم واختلطت تلك
الاجزاء بسائر اجزاء العالم فالاجزاء المائية مختلطة بمياه العالم والاجزاء الترابية
مختلطة بالتراب والاجزاء الهوائية مختلطة بالهوي فكيف يعقل اجتماعها
باعيانها مرة اخرى وكيف يعقل عود الحياة اليها باعيانها مرة اخرى هذا تقرير
شبهتهم اجيب عنها بانها لا تتم الا بالقدح في كمال علم الله تعالى وفي كمال قدرته
فانه تعالى قادر على كل الممكنات وهو قادر على اعادة التاليف والتركيب والحياة
والعقل الي تلك الاجزاء باعيانها فمن سلم كمال علم الله تعالى وكمال قدرته زالت
عنه هذه الشبهة بالكلية ولما كان كانه قيل فماذا يقال لهم في الجواب فقيل
قل لهم يا اشرف الخلق لا تكونوا رفاتا بل كونوا اصلب التراب حجارة اي هي
في غاية اليبس او حديدا اي زائدا على جنس الحجارة لشدة اتصال الاجزاء تنبيه
ليس المراد به امر الزام بل المراد انكم لو كنتم كذلك لما اعجزتم الله تعالى عن
الاعادة وذلك كقول القائل اتطمع في وانا فلان فيقول كن من شئت كن ابن
الخليفة فسأطلب منك حقي او خلقا غير ذلك مما يكبر اي يعظم عظمة كبيرة
في صدوركم اي مما يكبر عندكم عن قبول الحياة لكونه ابعد شيء منها فان
الله تعالى قادر على اعادة الحياة اليها وقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة
واكثر المفسرين انه الموت فانه ليس في نفس ابن ادم شيء اكبر من الموت اي لو
كنتم الموت بعينه لاميتنكم ولابعثنكم وقيل السموات والارض والجبال
لانها من اعظم المخلوقات فسيقولون تماديا في الاستهزاء من يعيدنا اي
كما كنا قل الذي فطركم اي ابتدا خلقكم اول مرة ولم تكونوا شيئا
يعيدكم بالقدرة التي ابتداكم بها فكما لم تعجز تلك القدرة عن البداءة فهي
لا تعجز عن الاعادة فسينغضون اي يحركون اليك رؤوسهم تعجبا
واستهزاء كانهم في شدة جهلهم على غاية البصيرة من العلم بما يقولون والنغض
والانغاض تحريك بارتفاع وانخفاض ويقولون استهزاء متى هو اي

البعث والقيامة قال الرازي واعلم ان هذا السؤال فاسد لانهم حكموا بامتناع
الحشر والنشر بناء على الشبهة التي تقدمت ثم ان الله تعالى بين بالبرهان الباهر
كونه ممكنا في نفسه فقولهم متى هو كلام لا تعلق له بالبحث فانه لما ثبت بالدليل العقلي
كونه ممكن الوجود في نفسه وجب الاعتراف بامكانه فاما انه متى يوجد فذاك لا
يمكن اثباته من طريق العقل بل انما يمكن اثباته بالدليل السمعي فان اخبر الله
تعالى عن ذلك الوقت المعين عرف والا فلا سبيل الي معرفته لانه تعالى بين
في القران انه لا يطلع احدا من الخلق على وقته المعين فقال تعالى ان الله عنده
علم الساعة وقال انما علمها عند ربي وقال تعالى ان الساعة اتية اكاد اخفيها
فلا جرم ان الله تعالى قل عسى ان يكون قريبا قال المفسرون عسى من الله
واجب ومعناه انه قريب اذ كل ات قريب واما ل متى وعسى حمزة والكسائي
امالة محضة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح وقوله تعالى يوم
يدعوكم بدل من قريبا والمعنى عسى ان يكون البعث يوم يدعوكم اي بالندا
الذي يسمعكم وهو النفخة الاخرة كما قال تعالى يوم ينادي المنادي من مكان
قريب روي ان اسرافيل ينادي ايها الاجسام البالية والعظام النخرة والا جزا
المتفرقة والاجزاء المتفرقة عودي كما كنتي فتستجيبون اي تجيبون له
والاستجابة موافقة الداعي فيما دعى اليه وهي الاجابة الا ان الاستجابة
تقتضي طلب الموافقة فهي اكثر من الاجابة واختلف في معنى قوله تعالى
بحمده فقال ابن عباس بامره وقال سعيد بن جبير يخرجون من
قبورهم وينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون سبحانك اللهم وبحمد لك
فيحمدونه حين لا ينفعهم الحمد وقال قتادة بمعرفته وطاعته وقال
اهل المعاني تستجيبون بحمده اي تستجيبون حامدين كما تقول جاء
بغضبه اي جاء غضبان وركب الامير بسيفه اي وسيفه
معه وقال الزمخشري بحمده حال منهم اي حامدين وهي مبالغة
في انقيادهم للبعث كقولك لمن تامره بركوب ما يشق عليه فيابى
ويمتنع ستركبه وانت حامد وشاكر يعني انك تحمل عليه وتقسر
عليه قسرا حتى انك تلين لين المسمح الراغب فيه الحامد عليه وتظنون
ان لبثتم الا قليلا اي مع استجابتكم وطول لبثكم في الدنيا وتحسبونه
يوما او بعض يوم وعن قتادة تحاقرت الدنيا في انفسهم حين عاينوا الاخرة
وقال الحسن معناه تقريب وقت البعث فكانك بالدنيا ولم تكن وبالا خرة
ولم تزل فهذا يرجع الي استقلال مدة اللبث في الدنيا وقيل المراد استقلال
مدة لبثهم في عرصة القيامة لانه لما كان عاقبة امرهم الدخول في النار
استقصروا لبثهم في برزخ القيامة وقرا نافع وابن كثير وعاصم باظهار الثاء
المثلثة عند التاء المثناة والباقون بالادغام ولما ذكر تعالى الحجة

البعث وصحة المعاد وهو قوله تعالى وهو قوله تعالى قل الذي فطركم اول
مرة قال تعالى وقل يا محمد لعبادي اي المومنين اي المومنين لان لفظ
العباد في اكثر روايات القرآن مخصص بالمومنين قال تعالى فبشر عبادي
الذين يستمعون القول وقال تعالى فادخلي في عبادي وقال تعالى عينا يشرب
بها عباد الله يقولوا للكفار الذين كانوا يوذونهم الكلمة التي هي احسن
ولا يكافوهم على سفههم بل يقولون لهم يهديكم الله ولهذا كان قبل الاذن
بالقتال وقيل نزلت في عمر بن الخطاب شتمه بعض الكفار فامره الله تعالى
بالعفو وقيل امر المومنين بان يقولوا ويفعلوا الخلة التي هي احسن
وقيل الاحسن قول لا اله الا الله ثم علل تعالى بقوله تعالى ان الشيطان اي
البعيد عن الرحمة المحترق باللعنة ينزغ بينهم اي يفسد ويغري بعضهم
على بعض ويوسوس لهم ليقع بينهم المساوة والمشاقة واصل النزغ
الطعن وهم غير معصومين فيوشك ان يأتوا بما لا يناسب الحال ثم علل
تعالى هذه العلة بقوله تعالى ان الشيطان كان اي كان في قديم الزمان
واصل الطبع كونا هو مجبول عليه للانسان عدوا اي بليغ العداوة
مبينا اي بين العداوة ثم فسر تعالى التي هي احسن مما علمهم ربهم
من النصفة بقوله تعالى ربكم اعلم بكم فعلم ان قوله تعالى ان الشيطان
الى اخره جملة اعتراضية بين المفسر والمفسر وسكن ابو عمرو الميم واخفاها
عند الباء بخلاف عنه وكذا اعلم بمن ثم استانف تعالى ان يشأ اي رحمتكم
يرحمكم اي يهدايتكم او ان يشأ تعذيبكم يعذبكم اي باضلالكم
فلا تحتقروا ايها المومنون المشركين فتقطعوا بانهم من اهل النار فتعيروهم
بذلك فانه يجر الى غيظ القلوب فلا فائدة لان الخاتمة مجهولة ولا
تتجاوزوا انتهم مما امركم الله به من قول وفعل ثم رقى الله الخطاب
الى اعلا الخلق وراس الشرع ليكون من دونه اولى بالمعنى منه فقوله تعالى
وما ارسلناك اي مع ما لنا من العظمة الغنية عن كل شيء عليهم
وكيلا اي حفيظا وكفيلا تقسرهم على ما يرضي الله وانما ارسلناك
على حسب ما نامرك به بشيرا ونذيرا فدارهم وامر اصحابك بمداراتهم
وقد مر ان هذا قبل الاذن بالقتال ولما امرهم بان ينسبوا الاعلمية
بهم اليه تعالى اخبر بما هو اعم من ذلك قاصر الخطاب على اعلى خلقه بقوله
تعالى وربك اي المحسن اليك بان جعلك اكمل الخلق اعلم بمن في
السموات والارض فعلمه غير مقصور عليكم متعلق بجميع الموجودات
والمعدومات ومتعلق بجميع ذات الارضين والسموات فيعلم تعالى حال
كل احد ويعلم ما يليق به من المفاسد والمصالح ويعلم اختلاف صورهم
وادیانهم واخلاقهم واموالهم وجميع ما هم عليه سبحانه وتعالى

لايخفى

لا يخفى عليه خافية فيفضل بعض الناس على بعض على حسب احاطة علمه
وشمول قدرته وبعض النبيين على بعض كما قال تعالى ولقد فضلنا بما لنا من
العظمة بعض النبيين سواء كانوا رسلا ام لا على بعض بعد ان جعلنا الكل
فضلا لتقوى كل منهم واحسانه فخصصنا كل منهم بفضيلة كموسى بالكلام
وابراهيم بالخلة ومحمد صلى الله عليه وسلم بالاسرا فلا ينكر احد من العرب
او بني اسرائيل او غيرهم تفضيلنا هذا النبي الكريم الذي صدرنا السورة
بتفضيله على جميع الخلائق فاذا نفعل ما نشاء بما لنا من القدرة التامة
والعلم الشامل وقرأ نافع بالهمزة والباقون بالياء وورش على اصله يمد على
الهمزة ويوسط ويقصر واتينا موسى التوراة وداوود زبورا وعيسى
الانجيل فلم يبعد ايضا ان نوتي محمدا صلى الله عليه وسلم القرآن ولم يبعد
ان نفضله على جميع الخلق فان قيل ما السبب في تخصيص داوود عليه
السلام بالذكر هنا اجيب باوجه الاول انه تعالى ذكر انه فضل بعض
النبيين على بعض ثم قال واتينا داوود زبورا يعني ان داوود اوتي
ملكا عظيما ثم انه تعالى لم يذكر ما اتاه من الملك وذكر ما اتاه من الكتاب
تنبيها على ان الفضل الذي ذكره قبل ذلك المراد منه التفضيل بالعلم والدين
لا بالمال الثاني انه تعالى كتب في الزبور ان محمدا خاتم الانبياء وان امته محمد
خير الامم قال تعالى ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها
عبادي الصالحون وهم محمد صلى الله عليه وسلم وامته فان قيل هلا
عرفه كقوله ولقد كتبنا في الزبور اجيب بان التنكير هنا يدل على تعظيم حاله
لان الزبور عبارة عن المزبور فكان معناه الكتاب وكان معنى التنكير انه كامل
في كونه كتابا ويكون يجوز ان يكون زبورا علما فاذا دخلت عليه ال كان
كقوله تعالى ولقد كتبنا في الزبور كانت للمح الاصل كعباس والعباس وفضل
والفضل الثالث ان كفار قريش ما كانوا اهل نظر وجدل بل كانوا يرجعون
الى اليهود في استخراج الشبهات واليهود كانوا يقولون انه لا نبي بعد موسى
ولا كتاب بعد التوراة فنقض الله عليهم كلامهم بانزال الزبور على داوود
وروى البخاري في التفسير عن ابي هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم
قال خفف على داوود القرآن فكان يامر بدوابه لتسرج فكان يقرأ
قبل ان يفرغ اي القرآن قال البقاعي ومن اعظم المناسبات لتخصيص
داوود عليه السلام وزبوره بالذكر هنا ذكر البعث الذي هو هنا مقامه
مقامه فيه صريحا وكذا ذكر النار مع خلو التوراة عن ذلك اما البعث فلا
ذكر له فيها اصلا واما النار فلم يذكر شيء مما يدل عليها الا الجحيم في موضع
واحد واما الزبور فذكر فيه النار والهاوية والجحيم في غير موضع اهـ
وقرأ حمزة بضم الزاي والباقون بالفتح واختلف في سبب نزول قوله

قل ادعوا الذين زعمتم انهم الهة من دونه اي من سواه كالملائكة وعزير والمسيح
وقرا نافع وابن كثير وابو عمرو وابن عامر وعاصم والكسائي بضم اللام من قل وكسرها
عاصم وحمزة كل هذا في حال الوصل واما الابتدا فالجميع ابتدوا بالهمزة مضمومة
فلا يملكون كشف الضر اي البوس الذي من شانه ان يمرض الجسم كله عنكم
حتى لا يدعو شيا منه ولا تحويلا له الى غيركم فقال ابن عباس انها نزلت
في الذين عبدوا المسيح وعزيرا والملائكة والشمس والقمر والنجوم وقيل ان
قوما عبدوا نفرا من الجن فاسلم النفر من الجن وبقي اوليك القوم متمسكين
بعبادتهم فنزلت فيهم هذه الاية وقيل ان المشركين اصابهم قحط شديد
حتى اكلوا الكلاب والجيف فاستغاثوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ليدعو لهم
فنزل قل للمشركين ادعوا الذين زعمتم انهم الهة من دونه وليس المراد
الاصنام لانه تعالى في وصفهم اولئك الذين يدعون اي يدعوهم الكفار
ويتالهونهم يبتغون اي يطلبون طلبا عظيما الى ربهم اي المحسن
اليهم الوسيلة اي المنزلة والدرجة والقربة لاعمالهم الصالحة
وابتغا الوسيلة الى الله تعالى لا يليق بالاصنام البتة وقرا ابو عمرو في
الوصل بكسر الها والميم وقرا الباقون بكسر الها والميم تنبيه اوليك
مبتدا وخبره يبتغون ويكون الموصول نعتا او بيانا او بدلا والمراد
باسم الاشارة الانبيا والملايكة الذين عبدوا من دون الله والمراد بالواو
العباد لهم ويكون العايد على الذين محذوفا والمعنى اوليك الذين
الانبيا الذين يدعوهم المشركون لكشف ضرهم يبتغون الى ربهم الوسيلة
ايهم اقرب اي يتسابقون بالاعمال مسابقة من يطلب كل منهم
ان يكون اليه اقرب ولديه افضل ويرجون رحمته رغبة فيما عنده
ويخافون عذابه فهم كغيرهم موصوفون بالعجز والحاجة فكيف يدعونهم
الهة وقيل معناه ان الكفار ينظرون ايهم اقرب الى الله فيتوسلون
به ثم علل خوفهم بامر عام بقوله تعالى ان عذاب ربك اي المحسن اليك
برفع انتقام الاستيصال منه عن امتك كان اي كونا لازما
محذورا جديرا بان يحذر لكل احد من ملك مقرب ونبي مرسل
فضلا عن غيرهم لما شوهد من اهلاكه للقرون الماضية ولما قال
تعالى ان عذاب ربك كان محذورا بين بقوله تعالى وان اي وما
من قرية الا نحن مهلكوها قبل يوم القيمة او معذبوها عذابا شديدا
ان كل قرية اي اهلها لا بد وان يرجع حالهم الى احد امرين اما الاهلاك
بالموت والاستيصال واما العذاب بالقتل وانواع البلا وقال
مقاتل اما الصالحة فالموت واما الطالحة فالعذاب وقال
عبد الله بن مسعود اذا ظهر الزنا والربا في قرية اذن الله تعالى

في هلاكها كان ذلك اي الامر العظيم في الكتاب اي اللوح المحفوظ مسطورا
اي مكتوبا قال عبادة بن الصامت سمعت رسول الله صلى الله عليه
وسلم يقول ان اول ما خلق الله القلم فقال اكتب فقال ما اكتب قال
القدر ما كان وما هو كاين الى ابد الابد اخرجه الترمذي ولما كفار قريش
قد كثر اقتراحهم للايات وكان صلى الله عليه وسلم لشدة حرصه على ايمان
كل احد يحب ان الله تعالى يجيبهم الى مقترحهم طمعا في ايمانهم فاجاب
الله تعالى بقوله وما منعنا اي على ما لنا من العظمة التي لا يعجزها
شي ولا يمنعها مانع ان نرسل بالايات اي التي اقترحوها كما حكى الله تعالى
عنهم ذلك في قولهم فلياتنا باية كما ارسل الاولون وقال اخرون لن
نومن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا الايات وقال سعيد بن جبير
انهم قالوا انك تزعم انه كان قبلك انبيا منهم من سخرت له الريح
ومنهم من احيى الموتى فاتنا بشي من هذه المعجزات فكان كانه لا ايات
عندهم سوى ذلك الا علمنا في علم الشهادة بما وقع من ان كذب
اي المقترحات بها الاولون وعلمنا في عالم الغيب ان هولا مثل الاولين
ان الشقي منهم لا يومن بالمقترحات كما لم يومن بغيرها وانه يقول فيها ما قال
في غيرها من انها سحر ونحو ذلك والسعيد لا يحتاج في ايمانه اليها فكم
اجبنا امة الى مقترحها فما زاد ذلك اهل الضلالة منهم الا كفرا به
فاخذناهم لان سنتنا جرت انا لا نمهل بعد الاجابة الى المقترحات من كذب
بها قال ابن عباس سال اهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم ان يجعل لهم
الصفا ذهبا وان ينحي الجبال عنهم ليزرعوا تلك الاراضي فطلب صلى الله
عليه وسلم ذلك من الله فاوحى الله تعالى اليه ان شيت فعلت ذلك
لكن بشرط ان لم يومنوا اهلكتهم فقال صلى الله عليه وسلم لا اريد
ذلك فبفضل الله برحمته هذه الامة ونشر بقيتها على الامم السالفة
لعدم استيصالها لما يخرج من اصلابها كفرتها من خلص عباده فلهذا
السبب ما اجابهم الله تعالى الى مطلوبهم فقال جل ذكره بل الساعة
موعدهم والساعة ادهى وامر ثم ذكر تعالى من تلك الايات التي
اقترحها الاولون ثم كذبوا بها لما ارسلت اليهم فاهلكوا ما ذكره تعالى
بقوله تعالى واتينا ثمود الناقة حال كونها مبصرة اي مضية بينة جديدة
بان يبصر بها كل من شاهدها فيستدل بها على صدق قول ذلك النبي
صلى الله عليه وسلم فظلموا بها اي ظلموا انفسهم بتكذيبها وقال ابن
قتيبة جحدوا بانها من الله تعالى فاهلكناهم فكيف يتمنى هولاء على
سبيل الاقتراح والتحكم على الله تعالى وخص تعالى هذه الاية بالذكر
لان اثارهم اهلاكهم في بلاد العرب قريبة من حدودهم يبصرها

صاد ربهم وواردهم ثم قال تعالى وما نرسل بالآيات اي المقترحات وغيرها
الا تخويفا للمرسل اليهم بها فان خافوا نجوا والا اهلكت بعذاب الاستيصال
من كذب بالآيات المقترحة وبعذاب الآخرة من كذب بغيرها كالمعجزات
وآيات القرآن فان امر من بعث اليهم موخر الى يوم القيمة فان قيل المقصود
الاعظم من اظهار الآيات ان يستدل بها على صدق المدعي فكيف حصل
المقصود من اظهارها في التخويف اجيب بانه لما كان هو الحامل والغالب
على التصديق فكانه هو المقصود ولما طلب القوم من النبي صلى الله عليه
وسلم تلك الآيات المقترحات واجاب الله تعالى بان اظهارها ليس بمصلحة
صار ذلك سببا لاجراء اوليك الكفار بالطعن فيه وان يقولوا له
لو كنت رسولا حقا من عند الله لاتيت بهذه المعجزات التي اقترحناها
كما اتى به موسى وغيره من الانبيا فعند هذا قوى الله تعالى قلبه وبين له ان
ينصره ويويده فقال تعالى واذكر يا اشرف الخلق اذ قلنا لك ان ربك
اي المتفضل بالاحسان اليك بالرفق لامتك احاط بالناس علما وقدرة
فهم في قبضته وقدرته لا يقدرون على الخروج من مشيئته فلا
يقدرون على امر من الامور الا بقضائه وقدره وهو حافظك
ومانعك منهم فلا تهتم باقتراحهم وامض فيما امرك به من تبليغ الرسالة فهو
ينصرك ويقويك على ذلك كما وعدك بقوله تعالى والله يعصمك من الناس
وقيل ان المراد بالناس اهل مكة بمعنى انه يغلبهم ويقهرهم روي انه لما تزاحف
الفريقان يوم بدر ورسول الله صلى الله عليه وسلم في العريش مع ابي بكر كان يدعو
ويقول اللهم اني اسالك عهدك ووعدك ثم خرج وعليه الدرع يحرض
الناس ويقول سيهزم الجمع ويولون الدبر وكان صلى الله عليه وسلم يقول
حين ورد بدرا والله كاني انظر الى مصارع القوم وهو يومي الى الارض
ويقول هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان فتسامعت قريش بما
اوحي الى النبي صلى الله عليه وسلم ثم عطف تعالى على وما نرسل بالآيات
قوله تعالى وما جعلنا الرؤيا التي اريناك اي التي شاهدتها ليلة الاسراء عيانا
الا فتنة اي امتحانا واختبارا للناس لانه صلى الله عليه وسلم قصة
لما ذكر لهم ليلة الاسرا كذبوه وكفر به كثير ممن كان قد امن به فازداد
المخلصون ايمانا فلهذا السبب كانت امتحانا وروى البخاري في التفسير
عن ابن عباس انه قال هي رؤيا عين اريها رسول الله صلى الله عليه وسلم
ليلة اسري به وتقدم انه قول الاكثر منهم سعيد بن جبير والحسن ومسروق
وقتادة ومجاهد وعكرمة وابن جريج وما قاله بعضهم من ان الرؤيا تدل
على انها منام ضعيف اذ لا فرق بين الرؤية والرؤيا في اللغة يقال رايت
بعيني رؤية ورؤيا فائدة قال بعض العلماء كانت اسراءاته صلى الله

عليه وسلم



عليه وسلم اربعا وثلاثين مرة واحدة بجسده والباقي بروحه رؤيا راها قال ومما يدل
على ان الاسرا ليلة فرض الصلاة كانت بالجسم ما ورد في بعض طرق الحديث انه صلى
الله عليه وسلم استوحش لما زج به النور ولم ير معه احدا اذ الارواح لا توصف
بالوحشة ولا بالاستيحاش قال ومما يدل على ان الاسرا كان بجسمه ما وقع
له من العطش فان الارواح المجردة لا تعطش ولما كان قد اخبر صلى الله عليه قع
وسلم ان شجرة الزقوم تنبت في اصل الجحيم وكان ذلك في غاية الغرابة ضمها
الى الاسرا في ذلك بقوله تعالى والشجرة الملعونة في القرآن لان فيها امتحان
ايضا بل قال بعض المفسرين هي على التقديم والتاخير والتقدير وما جعلنا
الرؤيا التي اريناك والشجرة الملعونة في القرآن الا فتنة للناس واختلف
في هذه الشجرة فالاكثرون قالوا انها شجرة الزقوم المذكورة في قوله تعالى
ان شجرة الزقوم طعام الاثيم وكانت الفتنة في ذكر هذه الشجرة من وجهين
الاول ان ابا جهل قال زعم صاحبكم ان نار جهنم تحرق الحجارة حيث قال
وقودها الناس والحجارة ثم يقول في النار شجرة والنار تاكل الشجر فكيف يولد
فيها الشجر والثاني قال ابن الزبعرى ما نعلم الزقوم الا التمر والزبد فتزقموا
منه فانزل الله تعالى حين عجبوا ان يكون في النار شجر انا جعلناها فتنة للظالمين
الآيات وما قدروا الله حق قدره من قال ذلك فان الله تعالى قادر على ان
يجعل الشجرة من جنس لا تاكله النار فهذا وبر السمندل وهو دويبة
ببلاد الترك يتخذ منه مناديل اذا اتسخت طرحت في النار فذهب الوسخ
وبقي سالما لا تعمل فيه النار وترى النعامة تبلع الجمر وتبلع الحديد المحمى
بالنار فلا تضرها ثم اقرب من ذلك انه تعالى جعل في الشجرة نارا فلا تحرقها
قال تعالى الذي جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فان قيل ليس في القرآن
لعن هذه الشجرة اجيب عن ذلك بوجوه الاول المراد لعن الكفار الذين
ياكلونها لان الشجرة لا ذنب لها حتى تلعن على الحقيقة وانما وصف
بلعن اصحابها على المجاز الثاني ان العرب تقول لكل طعام ضار انه ملعون
الثالث ان اللعن في اللغة الابعاد ولما كانت هذه الشجرة مبعدة عن
صفات الخير سميت ملعونة وقيل ان الشجرة الملعونة في القرآن هي اليهود
لقوله تعالى لعن الذين كفروا وقيل هي الشيطان وقيل ابو جهل وعن ابن
عباس هي الكشوث التي تلتوي بالشجر تجعل في الشراب ولما ذكر سبحانه
وتعالى انه يرسل بالآيات تخويفا قال هنا ايضا ونخوفهم فما يزيدهم اي
التخويف الكافرين بالقرآن الا طغيانا كبيرا اي متجاوزا للحد هو في غاية العظم
فتقدير ان يظهر الله تعالى لهم المعجزات التي اقترحوها لم يزدادوا ايها الا
تماديا في الجهل والعناد فاقتضت الحكمة ان لا يظهر الله لهم ما اقترحوه
من الآيات والمعجزات فانهم قد خوفوا بعذاب الدنيا وهو القتل يوم بدر

وخوفوا بعذاب الاخرة وشجرة الزقوم فما اثر فيهم خاف قوم هذه حالهم بارسال
ما يقترحون من الايات ولما نازع القوم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاندوه
واقترحوا عليه الاقتراحات الباطلة لامرين الكبر والحسد اما الكبر فلان
تكبرهم كان يمنعهم من الانقياد واما الحسد فلانهم كانوا يحسدونه على
ما اتاه الله من النبوة فبين تعالى ان هذا الكبر والحسد هما اللذان حملا
ابليس على الخروج عن الايمان والدخول في الكفر وقوله تعالى واذ اي
واذكر اذ قلنا بما لنا من العظمة التي لا ينقص مرادها للملئكة حين خلقنا
اباك ادم وفضلناه اسجدوا لادم اي امتثالا لامري فسجدوا الا ابليس
ابى ان يسجد لكونه ممن حقت عليه الكلمة ولم ينفعه ما يعلمه من قدرة
الله تعالى وعظمته وذلك معنى قوله تعالى قال اي منكرا متكبرا ءاسجد
اي خضوعا لمن خلقت حال كونه اصله طينا فكفر بنسبته لنا
الى الجور متخيلا انه افضل من ادم عليه السلام من حيث ان الفروع ترجع
الى الاصول وان النار التي هي اصله اكرم من الطين الذي هو اصل ادم
وذهب عنه ان الطين انفع من النار وعلى تقدير التنزل فالجواهر
كلها من جنس واحد والله تعالى هو الذي اوجدها من العدم بفضل
بعضها على بعض بما يحدث فيها من الاعراض وقد ذكر الله تعالى هذه القصة
في سبع سور وهي البقرة والاعراف والحجر وهذه السورة والكهف
وطه وص والكلام المستقصى فيها قد تقدم في البقرة ولعل هذه
القصة انما كررت تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم فانه كان في محنة
عظيمة في قومه واهل زمانه فكانه تعالى يقول الا ترى ان اول الانبيا
هو ادم عليه السلام ثم انه كان في محنة شديدة عظيمة في قومه
واهل زمانه فكانه تعالى يقول الا ترى ان اول الانبيا هو ادم عليه السلام
ثم انه كان في محنة شديدة من ابليس وان الكبر والحسد كل منهما بلية
عظيمة ومحنة عظيمة للخلق وقرا نافع وابن كثير وابو عمرو بتخفيف
الاولى وتسهيل الثانية وادخل قالون وابو عمرو بينهما الفا ولم يدخل
ورش وابن كثير بينهما الفا ولورش ايضا ابدال الثانية الفا واذا وقف
حمزة سهل الثانية كقراءة ابن كثير وقرا هشام بالتحقيق في الثانية
والتسهيل في الثانية وادخال الف بينهما وقرا الباقون بتحقيقهما بلا ادخال
ولما اخبر تعالى بتكبره كان قيل ان هذه الوقاحة عظيمة واجترا على
الجناب الاعلى فما الحال بعد ذلك قيل قال ارايتك اي اخبرني
وقرا نافع بتسهيل الهمزة بعد الرا ولورش وجه ثان وهو ابدالها
الفا واسقطها الكسائي والباقون بالتحقيق هذا الذي كرمت على
لم كرمته على مع ضعفه وقوتي فكانه قيل لقد اتى بالغاية في اساءة الادب

فما كان

فما كان بعد هذا فقيل قال مقسما لاجل استبعاد ان يجترئ احد هذه الجراة
على الملك الاعلى لئن اخرتني اي ايها الملك الاعلى تأخيرا ممتدا الى يوم القيمة
حيا متمكنا وجواب القسم الموطأة باللام لاحتنكن اي بالاغوا ذريته
اي لاستولين عليهن استيلا من جعل في حنك الدابة الاسفل حبلا
يقودها به فلا تأبى عليه وقرا نافع وابو عمرو بزيادة يا بعد النون في اخرتني
عند الوصل وحذفها في الوقف واثبتها ابن كثير وقفا ووصلا وحذفها
الباقون وقفا ووصلا اتباعا للرسم ولما علم انه لا يقدر على الجميع قال
الا قليلا وهم اولياؤك الذين حفظتهم لنبي كما قال تعالى ان عبادي
ليس لك عليهم سلطان فان قيل كيف ظن ابليس هذا الظن الصادق
بذرية ادم اجيب باوجه الاول انه سمع الملئكة يقولون اتجعل فيها
من يفسد فيها ويسفك الدما فعرف هذه الاحوال الثاني انه وسوس الى
ادم ولم يجد له عزما فقال الظاهر ان اولاده يكونون مثله في ضعف العزم
الثالث انه عرف انه مركب من قوة بهيمية شهوانية وقوة شيطانية وقوة
عقلية ملكية وقوة سبعية غضبية وعرف ان بعض تلك القوى
تكون هي المستولية في بعض في اول الخلقة ثم ان القوة العقلية انما تكمل في
اخر الامر ومن كان كذلك كان ما ذكره ابليس لازما ثم كانه قيل لقد طال
عدو الله في الاجترا فما قال له ربه بعد ذلك فقيل قال ممدا له اذهب
اي امض لما قصدته وهو طرد وتخلية لما بينه وبين ما سولت له نفسه
وتقدم في الحجر انه انما يؤخر الى يوم الوقت المعلوم وهو يوم ينفخ في الصور
لا انه يؤخر الى يوم القيمة كما طلب وقرا ابو عمرو وخلاد والكسائي بادغام البا
الموحدة في الفا واظهرها الباقون ولما حكم تعالى بشقاوته وشقاوة من اراد
طاعته له تسبب عنه قوله تعالى فمن تبعك منهم اي اولاد ادم عليه السلام
فان جهنم اي الطبقة النار التي يتجهم داخلها جزاؤكم اي جزاؤك
وجزاؤهم على ما تجزون ذلك جزاء موفورا اي مكملا وافيا بما تستحقون
على اعمالكم الخبيثة ولما طلب ابليس اللعين من الله تعالى الامهال الى يوم
القيمة لاجل ان يحتنك ذرية ادم ذكر الله تعالى له اشيا الاول اذهب
اي امض كما مر واني امهلتك هذه المدة وليس من الذهاب الذي هو
ضد المجي الثاني قوله تعالى واستفزز اي استخف من استطعت
ان تستفزه وهم الذين سلطانك منهم بصوتك قال ابن عباس معناه
بدعائك الى معصية الله وكل داع الى معصية الله فهو من جند ابليس
وقيل اراد بصوته الغنا واللهو واللعب الثالث قوله تعالى واجلب
اي صح عليهم من الجلبة وهي الصياح بخيلك ورجلك واختلفوا في الخيل
والرجل على اقوال الاول روى ابو الضحى عن ابن عباس انه قال كل راكب

اوراجل في معصية الله وعلى هذا فخيله ورجله كل من شارك في الدعا الي المعصية
الثاني يحتمل ان يكون لابليس جيش من الشياطين بعضهم راكب وبعضهم
راجل الثالث ان المراد منه ضرب المثل كما يقال للرجل المجد في الامر جيد
بالخيل والرجل قال الرازي وهذا اقرب وقال الزمخشري هذا كلام ورد
مورد التمثيل مثل في تسلطه على من يغويه بمغوار وقع على قوم فصوت بهم
صوتا يستفزهم من اماكنهم ويقلقهم عن مراكزهم واجلب عليهم بجنده
من خيالة ورجالة حتى استاصلهم والخيل تقع على الفرسان قال صلى
الله عليه وسلم يا خيل الله اركبي وقد تقع على الافراس خاصة وقرا حفص
عن عاصم بكسر الجيم وسكنها الباقون جمع راجل كصاحب وصحب وراكب
وركب ورجل بالكسر والضم لغتان مثل حذر وحذر وهو مفرد اريد به
الجمع الرابع قوله تعالى **وشاركهم في الاموال والاولاد** اما المشاركة في الاموال فقال
مجاهد هو كل ما اصيب من حرام او انفق في حرام وقال قتادة هو جعلهم
البحيرة والسائبة والحام والوصيلة وقال الضحاك هو ما يذبحونه
لالهتهم وقال عكرمة هو تبكيتهم اذان الانعام وقيل هو جعلهم من
اموالهم شيا لغير الله كقولهم هذا لله وهذا لشركائنا ولا منافاة بين
جميع هذه الاقوال واما المشاركة في الاولاد كعبد شمس وعبد العزى
فقال عطا عن ابن عباس هو تسمية الاولاد بعبد شمس وعبد العزى
وعبد الحارث وعبد الدار ونحوها وقال الحسن هو انهم هودوا اولادهم
ونصروهم ومجسوهم وروي عن جعفر بن محمد ان الشيطان يقعد على ذكر
الرجل فاذا لم يقل بسم الله اصاب معه امراته وانزل في فرجها كما
ينزل الرجل ويقال في جميع هذه الاقوال بعض ما تقدم وروي ان
رجلا قال لابن عباس ان امراتي استيقظت وفي فرجها شعلة نار قال
ذلك من وطي الجن وفي الاثار ان ابليس لما خرج الي الارض قال يا رب اخرجتني
لاجل ادم فسلطني عليه وعلى ذريته قال انت مسلط قال لا استطيعه
الا بك فزدني قال استفزز من استطعت منهم بصوتك الاية
قال ادم يا رب سلطت ابليس علي وعلى ذريتي واني لا استطيعه
الا بك قال لا يولد لك ولد الا وكلت به من يحفظه قال زدني قال
الحسنة بعشر امثالها والسيئة بمثلها قال زدني قال التوبة مفروضة
ما دام الروح في الجسد فقال زدني فقال يا عبادي الذين اسرفوا على
الاية وفي الخبر ان ابليس قال يا رب بعثت انبيا وانزلت كتبا فما قراءتي
قال الشعر قال فما كتابي قال الوشم قال ومن رسولي قال الكهنة قال فما طعامي
وماشرابي قال ما لم يذكر عليه اسمي قال فما شرابي قال كل مسكر قال واين
مسكني قال الحمامات قال واين مجلسي قال الاسواق قال وما حبالي قال

الناس وما اذاني قال المزمار الخامس قوله تعالى **وعدهم** اي من المواعيد الباطلة
ما يستحقهم ويغيرهم من ذلك وعدهم بان لا جنة ولا نار ومن ذلك شفاعة الالهة
والكرامة على الله بالانساب الشريفة وتسويف التوبة وايثار العاجل على الاجل
ونحو ذلك وقوله تعالى **وما يعدهم الشيطان** من الالتفات واقامة الظاهر مقام المضمر
ولو جرى على سنن الكلام الاول لقال وما تعدهم بالتاء من فوق وقوله تعالى
الا غرورا فيه اوجه احدها انه نعت مصدر محذوف وهو نفسه مصدر والاصل
الا وعدا غرورا الثاني انه مفعول من اجله اي ما يعدهم مما يعدهم من الاماني
الكاذبة الا لاجل الغرور الثالث انه مفعول به على الاتساع اي ما يعدهم
الا الغرور نفسه والغرور تزيين ما يظن انه حق فان قيل كيف ذكر الله تعالى
هذه الاشيا لابليس وهو يقول ان الله لا يامر بالفحشا اجيب بان هذا على
طريق التهديد كقوله تعالى اعملوا ما شئتم وكقول القائل اعمل ما شئت
فسوف ترى وكما يقال اجهد جهدك فسوف ترى ما ينزل بك ولما قال
الله تعالى افعل ما تقدر عليه قال تعالى **ان عبادي** اي الذين اهلهم
للاضافة الي فقاموا بحق عبوديتي بالتقوى والاحسان **ليس لك**
عليهم سلطان اي فلا تقدر ان تغويهم وتحملهم على ذنب لا يغفر فاني
وفقتهم للتوكل علي فكفيتهم امرك **وكفى بربك** اي الموجد لك **وكيلا**
اي حافظا لهم منك ولما ذكر تعالى انه الوكيل الذي لا كافي له غيره اتبعه
بعض افعاله الدالة على ذلك بقوله تعالى **ربكم** اي المتصرف فيكم هو
الذي يزجي اي يجري **لكم الفلك** ومنها التي حملكم فيها مع ابيكم نوح عليه
السلام **في البحر لتبتغوا** اي تطلبوا **من فضله** الربح وانواع الامتعة
التي لا تكون عندكم ثم علل ذلك بقوله تعالى **انه** اي فعل ذلك لانه **كان** ازلا
وابدا **بكم رحيما** حيث هيا لكم ما تحتاجون اليه وسهل عليكم ما يعسر من اسبابه
تنبيه الخطاب في قوله ربكم وفي قوله تعالى انه كان بكم عام في حق الكل والمراد
من الرحمة منافع الدنيا ومصالحها واما قوله تعالى **واذا مسكم الضر** اي الشدة
في البحر خطاب للكفار بدليل قوله تعالى **ضل** اي غاب عن ذكركم وخواطركم
من تدعون اي تعبدون من الالهة **الا اياه** وحده فاخلصتم له الدعا
علما منكم اي لا ينجيكم سواه **فلما نجاكم** من الغرق واوصلكم بالتدريج **الى البر**
اعرضتم عن الاخلاص له ورجعتم الى الاشراك **وكان الانسان** اي هذا النوع
كفورا اي جحودا للنعم بسبب انه عند الشدة يتمسك بفضله ورحمته
وعند الرخا والراحة يعرض عنه ويتمسك بغيره وقوله تعالى **افامنتم** الهمزة
فيه للانكار والفا للعطف على محذوف تقديره انجوتم من البحر فامنتم بعد
خروجكم منه **ان يخسف بكم جانب البر** فيصيبكم في اي جانب كان منه لان
قدرتنا على التسبيب في الما على السوا فعلى العاقل ان يستوي خوفه من الله

من جهة الغرق شيا من امرنا في جميع الجوانب **او** امنتم لان **يرسل عليكم** حاصبا اي نمطر عليكم حجارة من السما كما امطرناها على قوم لوط قال الله تعالى **انا** ارسلنا عليهم حاصبا وقيل الحاصب الريح **ثم لا تجدوا** ايها الناس **لكم وكيلا** اي ينجيكم من ذلك ولا من غيره كما لم تجدوا في البحر وكيلا غيره **ام امنتم** اي جاوزت بحر الغباوة جدها فلم تجوزوا ذلك **ان يعيدكم** اي الذي يضطركم الي ركوبه **فيه تارة اخرى** باسباب تضطركم الي ان ترجعوا ذلك فتنصركم عليه وان كرهتم **فيرسل عليكم قاصفا من الريح** اي ريحا شديدة لا تمر بشي الا قصفته فتكسر فلككم **فيغرقكم** في البحر الذي اعدناكم فيه بعد ربنا **بما كفرتم** اي بسبب اشراككم وكفرانكم نعمة الانجا **ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا** اي مطالبا يطالبنا بما فعلنا بكم تنبيه تارة بمعني مرة وكرة فهي مصدر ويجمع علي تير وتارات قال الشاعر

وانسان عيني يحسر الماء تارة ٭ فيبدو وتارات يجم فيغرق

وقرا ابن كثير وابو عمرو ان نخسف او نرسل اي نعيدكم فنرسل فنغرقكم جميع هذه الخمسة بنون العظمة والباقون بيا الغيبة والقراءة الاولي علي سبيل الالتفات من الغايب في قوله تعالى ربكم الي اخره والقراءة الثانية علي سنن ما تقدم من الغيبة ثم ان الله تعالى ذكر نعمة اخري رفيعة جليلة على الانسان وذكر فيها اربعة انواع النوع الاول قوله تعالى **ولقد كرمنا** اي بعظمتنا تكريما عظيما **بني ادم** وحذف متعلق التكريم لذا اختلف المفسرون فيه فقال ابن عباس كل شي ياكل بفيه الا ابن ادم فانه ياكل بيده وعن الرشيد انه احضر طعاما عنده فدعا بالملاعق وعنده ابو يوسف فقال له جا في تفسير جدك ابن عباس ولقد كرمنا بني ادم جعلنا لهم اصابع ياكلون بها فاحضرت الملاعق فردها واكل باصابعه وروي عن ابن عباس انه قال بالعقل وقال الضحاك بالنطق والتمييز وقيل علي سائر الطين بالنمو وعلي النامي بالحياة وعلي سائر الحيوان بالنطق وقال عطا بتعديل القامة وامتدادها والدواب منكبة علي وجوهها قال بعضهم وينبغي ان يشترط مع هذا شرط وهو طول القامة مع استكمال القوة العقلية والحسية والحركية والا فالاشجار اطول قامة من الانسان وقيل الرجال باللحا والنسا بالذوايب وقيل بان سخر لهم سائر الاشيا وقيل بان منهم خير امة اخرجت للناس وقيل بحسن الصورة قال تعالى وصوركم فاحسن صوركم ولما ذكر الله تعالى الانسان قال فتبارك الله احسن الخالقين قال الرازي فان شيت فتامل عضوا واحدا من اعضا الانسان وهي العين فخلق الحدقة سودا ثم احاط بذلك السواد بياض الاجفان ثم خلق فوق بياض الجفن سواد الحاجبين ثم خلق فوق ذلك السواد بياض الجبهة سواد الشعر وبقي خلقة

هذا المثال

هذا المثال الواحد انموذجا لك في هذا الباب انتهي واستدل ايضا لشرف الانسان بان الموجود اما ان يكون ازليا وابديا وهو الله تعالى واما ان يكون لا ازليا ولا ابديا وهو عالم الدنيا مع كل ما فيه من المعادن والنبات والحيوان وهذا اخس الاقسام واما ان يكون ازليا ولا يكون ابديا وهذا ممتنع الوجود لان ما ثبت قدمه امتنع عدمه واما ان لا يكون ازليا ولكنه يكون ابديا وهو الانسان والملك ولا شك ان هذا القسم اشرف من الثاني والثالث وذلك يقتضي كون الانسان اشرف من اكثر المخلوقات النوع الثاني قوله تعالى **وحملناهم في البر** اي على الدواب وغيرها **وفي البحر** على السفن وغيرها من حملته حملا اذا جعلت له ما يركبه او حملناهم فيهما حتي لم تخسف بهم الارض ولم يغرقهم الما النوع الثالث قوله تعالى **ورزقناهم من الطيبات** اي المستلذات من الثمرات والاقوات وذلك لان الاغذية اما حيوانية واما نباتية وكلا القسمين فان الانسان انما يتغذي بالطف انواعها واشرف اقسامها بعد التنقية التامة والطبخ الكامل والنضج البالغ وذلك مما لا يحصل الا للانسان النوع الرابع قوله تعالى **وفضلناهم** في انفسهم باحسان الشكل وفي صفاتهم بالعلم المستتبع لسعادة الدارين **على كثير ممن خلقنا** اي بعظمتنا التي خلقناهم بها وانه الفعل بالمصدر اشارة الي اغراقهم في الفضيلة فقال تعالى **تفضيلا** تنبيه ظاهر الاية يدل على فضلهم على كثير من خلقه لا على الكل وقال قوم فضلوا على جميع الخلق الا على الملايكة وهو قول ابن عباس واختيار الزجاج على ما رواه الواحدي في بسيطه وقال الكلبي فضلوا على جميع الخلايق كلهم الا على طايفة من الملايكة جبرايل وميكايل واسرافيل وعزرايل ملك الموت واشباههم وقال قوم فضلوا على جميع الخلق وقد يوضع الاكثر موضع الكل كقوله تعالى هل انبيكم على من تنزل الشياطين الي قوله تعالى واكثرهم كاذبون اي كلهم وروي جابر يرفعه قال لما خلق الله تعالى ادم وذريته قالت الملايكة يا رب خلقتهم ياكلون ويشربون وينكحون فاجعل لهم الدنيا ولنا الاخرة فقال تعالى لا اجعل من خلقته بيدي ونفخت فيه من روحي كمن قلت له كن فكان والاولي كما قاله بعض المفسرين كالبغوي وابن عادل ان يقال عوام الملايكة افضل من عوام المومنين وخواص المومنين افضل من خواص الملايكة قال الله تعالى ان الذين امنوا وعملوا الصالحات اوليك هم خير البرية وروي عن ابي هريرة قال المومن اكرم على الله من الملايكة عنده رواه البغوي ورواه الواحدي في البسيط فان قيل قال تعالى في اول الاية ولقد كرمنا بني ادم وقال في اخرها وفضلناهم فلا بد من الفرق بين التكريم والتفضيل والا لزم التكرار اجيب بانه تعالى فضل الانسان على سائر الحيوانات بامور خلقية طبيعية ذاتية كالعقل والنطق والخط والصورة الحسنة

والعامة المديح ثم انه سبحانه وتعالى عرضه بواسطة العقل والفهم لاكتساب العقايد
الحقة والاخلاق الفاضلة ولما ذكر تعالى انواع كرامات الانسان في الدنيا شرح احوال درجاته
في الاخرة بقوله تعالى **يوم** اي اذكر يوم ندعوا اي بتلك العظمة **ندعوا كل اناس** اي منكم
بامامهم الامام في اللغة كل من ايتم به قوم كانوا على هدى او ضلالة فالنبي امام امته
والخليفة امام رعيته والقرآن امام المسلمين وامام القوم هو الذي يقتدي به
في الصلاة وذكروا في تفسير الامام هنا اقوالا احدها امامهم نبيهم روي ذلك مرفوعا
عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم فينادي يوم القيمة يا امة ابراهيم
يا امة موسى يا امة عيسى يا امة محمد صلى الله عليه وسلم فيقوم اهل الحق الذين
اتبعوا الانبياء فياخذون كتبهم بايمانهم ثم ينادي الاتباع يا اتباع نمرود يا اتباع
فرعون يا اتباع فلان وفلان من روسا الضلال واكابر الكفر الثاني امامهم كتابهم
الذي انزل عليهم فينادي في القيامة يا اهل القران يا اهل التوراة يا اهل الانجيل
الثالث امامهم كتاب اعمالهم قال تعالى وكل شي احصيناه في امام مبين
سمى الله تعالى هذا الكتاب اماما قال الزمخشري ومن بدع التفاسير ان الامام
جمع ام وان الناس يدعون يوم القيمة بامهاتهم دون ابائهم وان الحكمة فيه رعاية
حق عيسى واظهار شرف الحسن والحسين وان لا تفضح اولاد الزنا قال وليت شعري
ايهما ابدع اصحة لفظه ام بهاء حكمته قال ابن عادل وهو معذور لان اما لا يجمع
على امام هو قول من لا يعرف الصناعة ولا لغة العرب **فمن اوتي** اي من المدعوين
كتابه اي كتاب عمله **بيمينه** وهم السعدا اولوا البصاير في الدنيا **فاولئك
يقرءون كتابهم** ابتهاجا وتبجحا بما يرون فيه من الحسنات **ولا يظلمون
فتيلا** بنقص حسنة ما من ظالم ما **فتيلا** اي شيئا في غاية القلة والحقارة
بل يزادون بحسب اخلاص النيات وطهارة الاخلاق وزكا الاعمال
تنبيه الفتيل القشرة التي في شق النواة سمي بذلك لانه اذا رام الانسان
اخراجه انفتل وهذا مثل يضرب للشي الحقير التافه ومثله القطمير
وهو القلافة التي في ظهر النواة وروى مجاهد عن ابن عباس قال الفتيل
هو الوسخ الذي يفتله الانسان بين سبابته وابهامه فان قيل لم خص
اصحاب اليمين بقراءة كتابهم مع ان اهل الشمال يقرؤونه اجيب بان اصحاب
الشمال اذا اطلعوا كتابهم وجدوه مشتملا على المهلكات العظيمة
والقبايح الكاملة فيستولي الخوف على قلوبهم ويثقل لسانهم فيعجزوا
عن القراءة الكاملة واما اصحاب اليمين فامرهم على عكس ذلك لا جرم
انهم يقرؤون كتابهم على احسن الوجوه ثم لا يقنعون بقراءتهم وحدهم بل
يقول القايل اي لاهل المحشر هاؤم اقرؤا كتابيه جعلنا الله وجميع
احبابنا منهم ثم قال الله تعالى **ومن كان** منهم **في هذه** اي الدار
اعمى اي ضالا يعمل في الاعمال فعل الاعمى في اخذ الاعيان لا يهتدي

الى اخذ

الى اخذ ما ينفعه دون ما يضره ولا يميز بين حسن وقبيح **فهو في الاخرة اعمى** اي اشد
عمى مما كان عليه في هذه الدار لا يهتدي له قصد ولا يهتدي لصواب ولم يقل تعالى اشد عمى
كما يقال في الخلق اللازمة لحاله واصح ولا يهتدي لصفات مثل العور والحمرة والسواد
ونحوها لان هذا مراد به عمى القلب الذي من شانه التزايد والحدوث في كل لحظة شيئا
بعد شي **واضل سبيلا** لان هذه الدار دار الاكتساب والترقي بالاسباب واما
ثمة فليس فيها شي من ذلك وقال عكرمة جا نفر من اهل اليمن الى ابن عباس فساله رجل عن هذه
الاية فقال اقرا ما قبلها فقرا ربكم الذي يزجي لكم الفلك الى قوله تفضيلا فقال ابن
عباس من كان اعمى في هذه النعم التي قد راى وعاين فهو في الاخرة التي لم ير ولم يعاين
اعمى واضل سبيلا وعلى هذا فالاشارة في قوله هذه الى النعم المذكورة في الايات المتقدمة
وحمل بعضهم العمى الثاني على عمى العين والبصر كما قال تعالى قال رب لم حشرتني
اعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك اتتك اياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى
وقال تعالى ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما وهذا العمى زيادة
في عقوبتهم ولما عدد تعالى في الايات المتقدمة اقسام نعمه على خلقه واتبعها بذكر
درجات الخلق في الاخرة وشرح احوال السعدا اردفه بما يجري مجرى تحذير
السعدا عن الاغترار بوسواس ارباب الضلال والانخداع بكلماتهم المشتملة
على المكر والتلبيس فقال تعالى **وان كادوا** اي قاربوا في هذه الحياة الدنيا لعماهم
في انفسهم عن عصمة الله تعالى لك ولما كانت ان هي المخففة من الثقيلة
اتى باللام الفارقة بينها وبين النافية بقوله تعالى **ليفتنونك** اي ليخالطونك
مخالطة تميلك الى جهة قصدهم لكثرة خداعهم واختلف في سبب نزول هذه
الاية فروى عطا عن ابن عباس قال نزلت هذه الاية في وفد ثقيف اتوا رسول
الله صلى الله عليه وسلم وقالوا نبايعك على ان تعطينا ثلاث خصال
قال وما هن قالوا ان لا نجبي في الصلاة بفتح الجيم والبا الموحدة المشددة
اي لا ننحني فيها ولا نكسر اصنامنا الا بايدينا وان لا تمنعنا من اللات
والعزى سنة من غير ان نعبدها فقال النبي صلى الله عليه وسلم
لا خير في دين لا ركوع فيه ولا سجود واما ان تكسروا اصنامكم بايديكم فذلك لكم
واما الطاغية يعني اللات والعزى فاني غير ممتعكم بها وفي رواية وحرم
واديا كما حرمت مكة شجرها وطيرها ووحشها فابى ذلك رسول الله صلى
الله عليه وسلم ولم يجبهم فقالوا يا رسول الله انا نحب ان تسمع العرب
انك اعطيتنا ما لم تعط غيرنا فان خشيت ان تقول العرب اعطيتهم
ما لم تعطنا فقل الله امرني بذلك فسكت النبي صلى الله عليه وسلم فطمع
القوم في سكوته ان يعطيهم ذلك فصاح عمر وقال اما ترون رسول الله
صلى الله عليه وسلم قد امسك عن الكلام كراهة لما تذكرونه فانزل الله
تعالى هذه الاية وقال سعيد بن جبير كان النبي صلى الله عليه وسلم

كر

يستلم الحجر الاسود فمنعه قريش وقالوا لا ندعك حتى تلم بالهتنا وتمسها فحدث
صلى الله عليه وسلم نفسه ما علي ان افعل ذلك والله يعلم اني لها لكاره بعد ان
يدعوني حتى استلم الحجر فانزل الله تعالى هذه الاية وروي ان قريشا قالوا
له اجعل اية رحمة اية عذاب واية عذاب اية رحمة حتى نؤمن بك فنزل وان كادوا
ليفتنونك عن الذي اوحينا اليك من امرنا ونهينا ووعدنا ووعيدنا لتفتري
اي لتقول علينا غيره اي ما لم نقله واذا اي لو فعلت ما دعوك اليه
لاتخذوك اي بغاية الرغبة خليلا اي لو الوك وصافوك واظهروا للناس انك
موافق لهم على كفرهم راض بشركهم ومن يكن خليل الكفار لم يكن خليل الله تعالى
ولكنك ابصرت رشدك فلزمت امر الله واستمروا على ذلك عالم اتماما للفضل لنا
لك على كل مخلوق ولولا ان ثبتناك اي على الحق بعصمتنا اياك لقد كدت
اي قاربت تركن اي تميل اليهم اي الاعداء شيئا اي ركونا قليلا
لمحبتك في هدايتهم وحرصك على منفعتهم ولكنا عصمناك فمنعناك ان تقرب
من الركون فضلا من ان تركن اليهم لان كلمة لولا تفيد انتفاء الشيء لثبوت غيره
تقول لولا زيد لهلك عمرو ومعناه ان وجود زيد منع من حصول الهلاك لعمرو
فكذلك ههنا قوله تعالى لولا ان ثبتناك لقد كدت تركن اليهم معناه لولا حصل
تثبيت الله لمحمد صلى الله عليه وسلم فكان تثبيت الله مانعا من حصول قرب
الركون وهذا صريح في انه عليه الصلاة والسلام ما هم باجابتهم مع قوة
الداعي اليها ودليل على ان العصمة بتوفيق الله وحفظه اذا اي لو قاربت الركو
الموصوف اليهم لاذقناك ضعف عذاب الحيوة وضعف عذاب
الممات اي مثل ما يعذب غيرك في الدنيا والاخرة وكان اصل الكلام
عذابا ضعفا في الحياة وعذابا ضعفا في الممات ثم حذف الموصوف واقيم
الصفة مقامه ثم اضيفت كما يضاف موصوفها وقيل المراد بضعف الحياة
عذاب الاخرة وضعف الممات عذاب القبر والسبب في تضعيف هذا العذاب
ان اقسام نعمة الله تعالى في حق الانبيا عليهم الصلاة والسلام كثيرة
فكانت ذنوبهم اعظم فكانت العقوبة المستحق عليها اعظم اكثر ونظيره قوله تعالى
يا نساء النبي من يات منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين
وقيل الضعف من اسما العذاب ثم لا تجد لك اي وان كنت اعظم الخلق واعلاهم
مرتبة وهمة علينا نصيرا اي مانعا يمنعك من عذابنا واختلفوا في سبب
نزول قوله وان اي وانهم كادوا اي الاعدا ليستفزونك اي ليزعجونك
بمعاداتهم من الارض ليخرجوك منها فقال ابن عباس ان رسول الله صلى
الله عليه وسلم لما هاجر الى المدينة حسدته اليهود وكرهوا قربه منهم وقالوا يا ابا
القاسم ان الانبيا انما بعثوا بالشام وهي بلاد مقدسة وكانت مسكن ابراهيم
فلو خرجت الى الشام امنا بك واتبعناك وعلمنا انه لا يمنعك من الخروج

الاخوف

تشهد واباني قد غفرت لهم وقال ابو هريرة رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى
الله عليه وسلم يقول تفضل صلاة الجمع صلاة احدكم وحده بخمس وعشرين درجة
ويجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر ثم يقول ابو هريرة اقرؤا
ان شئتم ان قران الفجر كان مشهودا وهذا يدل على ان التغليس اولى من التنوير
لان الانسان اذا شرع فيها من اول الوقت ففي ذلك الوقت ظلمة باقية فتكون
ملائكة الليل حاضرة ثم اذا امتدت الصلاة بسبب ترتيل القراءة وتكثيرها
زالت الظلمة وظهر الضوء وحضرت ملائكة النهار واما اذا ابتدا بهذه
الصلاة في وقت التنوير فهناك لم يبق احد من ملائكة الليل فلا يحصل المعنى
المذكور فقوله كان مشهودا يدل على ان التغليس افضل وايضا الانسان
اذا شرع في صلاة الصبح من اول هذا الوقت فكانت الظلمة القوية في
العالم فاذا امتدت القراءة ففي اثناء هذا الوقت ينقلب العالم من الظلمة الى
الضوء والظلمة مناسبة للموت والعدم والضوء مناسبة للحياة والوجود
والانسان لما قام من منامه فكانه انتقل من الموت الى الحياة ومن العدم الى الوجود
ومن السكون الى الحركة وهذه الحالة العجيبة تشهد العقول بانه لا يقدر
على هذا التقليب الا الخالق المدبر بالحكمة البالغة فحينئذ يستنير العقل
بنور هذه المعرفة ويتخلص من مرض قلبه فان اكثر الخلق وقعوا في امراض
القلوب وهي حب الدنيا والحرص والحسد والتفاخر والتكاثر وهذه الدنيا
مثل دار المرضى اذا كانت مملوة من المرضى والانبيا كالاطبا الحاذقين والمريض
ربما كان قد يقوى فلا يعود الى الصحة الا بمعالجة قوية وربما كان المريض جاهلا
فلا ينقاد للطبيب في بخالفه في اكثر الامر لان الطبيب اذا كان مشفقا حاذقا
فانه يسعى في ازالة ذلك المرض بكل طريق يقدر عليه وان لم يقدر على ازالته
فانه يسعى في تقليله وفي تخفيفه فلما كان مرض الدنيا مستوليا على الخلق
ولا علاج له الا بالدعوى الى معرفة الله تعالى وخدمته وطاعته وهذا علاج
شاق على النفوس وقل من يقبله وينقاد له لا جرم ان الانبيا اجتهدوا
في تقليل هذا المرض فحملوا الخلق على الشروع في الطاعة والعبودية من اول
وقت القيام من النوم لانه مما ينفع في ازالة هذا المرض ثم حث سبحانه وتعالى
على التهجد لافضليته وارشد نبيه لقوله تعالى ومن الليل اي وعليك اي
وقم بعض الليل فتهجد اي اترك الهجود للصلاة يقال هجد وتهجد اذا سهر
فهو من الاضداد ومنه قيل لصلاة الليل التهجد قاله في الصحاح والضمير في
به لمطلق القران والمراد من الاية قيام الليل لصلاة النافلة فلا يحصل التهجد
الا بصلاة نفل وكانت فريضة على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى امته في الابتدا
بقوله تعالى يا ايها المزمل قم الليل الا قليلا ثم نسخ بما في اخرها ثم نسخ بالصلوات
الخمس وبقي قيام الليل على الاستحباب بقوله تعالى فاقرؤا ما تيسر منه

ج

وبنفي الوجوب في حقه صلى الله عليه وسلم بدليل قوله تعالى نافلة لك اي زيادة
لك مختصة بك وروي عن عائشة رضي الله عنها ان النبي صلى الله عليه وسلم
قال ثلاث هن علي فريضة وهي سنة لكم الوتر والسواك وقيام الليل والصحيح
انه نسخ في حقه ايضا ودليل النسخ رواه مسلم وقد وردت احاديث كثيرة في قيام
الليل منها ما روي عن المغيرة بن شعبة انه قال صلى الله عليه وسلم حتى انتفخت
قدماه فقيل له اتتكلف هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تاخر
قال افلا اكون عبدا شكورا ومنها ما روي عن زيد بن خالد الجهني انه
قال لارمقن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلة فتوسدت
عتبته او فسطاطه فقام فصلى ركعتين خفيفتين ثم صلى ركعتين طويلتين
ثم ركعتين طويلتين ثم ركعتين طويلتين ثم ركعتين دون اللتين قبلهما
ثم اوتر فذلك ثلاثة عشر ركعة فلهذا قيل انه اكثر الوتر وهو قول الشافعي
والمرجح عنده ان اكثره احدى عشر ركعة لما رواه ابو سلمة انه سال عائشة
رضي الله تعالى عنها عن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت ما كان
يزيد في رمضان ولا في غيره على احدى عشر ركعة اي وترا يصلي اربعا
فلا تسال عن حسنهن وطولهن ثم يصلي اربعا فلا تسال عن حسنهن
وطولهن ثم يصلي ثلاثا قالت عائشة رضي الله عنها فقلت يا رسول الله
اتنام قبل ان توتر فقال يا عائشة ان عيني تنام ولا ينام قلبي ومنها ما
روي عن انس بن مالك قال ما كنا نشاء ان نرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الليل
مصليا الا رايناه وما نشاء ان نراه نائما الا رايناه وفي رواية غيره قال
وكان يقوم من الشهر حتى نقول لا يفطر منه شيئا ويفطر حتى نقول لا يصوم
منه شيئا قال تعالى عسى ان يبعثك ربك اي المحسن اليك مقاما محمودا
اتفق المفسرون على ان كلمة عسى من الله واجب قال اهل المعاني ان لفظة
عسى تفيد الاطماع ومن اطمع انسانا في شيء ثم حرمه كان عارا والله اكرم
من ان يطمع احدا في شيء ثم لا يعطيه ذلك واما المقام المحمود فقال الواحدي
اجمع المفسرون على انه مقام الشفاعة كما قال صلى الله عليه وسلم في هذه الاية
هو المقام الذي اشفع فيه لامتي وقال حذيفة يجمع الناس في صعيد واحد
فلا تتكلم نفس فاول مدعو محمد صلى الله عليه وسلم فيقول لبيك وسعديك
والشر ليس اليك والمهدي من هديت وعبدك بين يديك وبك واليك
لا ملجا ولا منجا منك الا اليك تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت
فقال هذا هو المراد من قوله تعالى عسى ان يبعثك ربك مقاما محمودا
ويدل للاول احاديث منها ما روي عن ابي هريرة انه قال قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم لكل نبي دعوة مستجابة واني اختبات دعوتي
شفاعة لامتي وهذه نائلة منكم ان شاء الله تعالى من مات لا يشرك بالله شيئا

ثم ركعتين طويلتين صح

ومنها ما روي عن جابر قال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قال حين
يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة ات محمدا الوسيلة
والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته حلت له شفاعتي يوم القيمة
ومنها ما روي عن انس ان النبي صلى الله عليه وسلم قال يحبس المؤمنون يوم
القيمة حتى يهموا بذلك فيقولون لو استشفعنا الى ربنا فيريحنا من مكاننا
فياتون ادم فيقولون انت ادم ابو البشر خلقك الله بيده واسكنك جنته
واسجد لك ملائكته وعلمك اسماء كل شيء اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من
مكاننا هذا فيقول لست هناكم ويذكر خطيئته التي اصاب اكله من الشجرة
وقد نهي عنها وقوله لكن ائتوا نوحا اول نبي بعثه الله الى اهل الارض
فياتون نوحا فيقول لست هناكم ويذكر خطيئته التي اصاب بسواله ربه
بغير علم ولكن ائتوا ابراهيم خليل الرحمن فياتون ابراهيم فيقول لست هناكم
ويذكر ثلاث كذبات التي كذبهن ولكن ائتوا موسى عبدا اتاه الله التوراة و
كلمه وقربه نجيا قال فياتون موسى فيقول لست هناكم ويذكر خطيئته التي
اصاب قتله النفس ولكن ائتوا عيسى عبد الله وكلمته قال فياتون عيسى
فيقول لست هناكم ائتوا محمدا عبدا غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تاخر
قال فياتوني فاستاذن على ربي فيوذن لي فاذا رايته وقعت ساجدا فيدعني
ما شاء الله ان يدعني فيقول ارفع راسك يا محمد وقل تسمع واشفع تشفع
وسل تعطه قال فارفع راسي فاثني على ربي بثناء وتحميد يعلمنيه ثم قال ثم
اشفع فيحد لي حدا فاخرجهم من النار وادخلهم الجنة قال فلا ادري في الثالثة
او الرابعة فاقول يا رب ما بقي الا من حبسه القران اي وجب عليه الخلود
وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما مقاما محمودا يحمدك فيه الاولون والاخرون
وتشرف فيه على جميع الخلائق تسل فتعطى واشفع فتشفع ليس احد الا تحت
لوائك والاخبار في الشفاعة كثيرة وفي هذا القدر كفاية لاولي الابصار جعلنا
الله وجميع احبابنا من اهلها الداخلين تحت شفاعة سيد الانبياء والمرسلين
امين واختلف اهل التفسير في قوله تعالى وقل رب ادخلني مدخل صدق
فقال ابن عباس والحسن ادخلني مدخل صدق المدينة واخرجني مخرج صدق مكة
نزل حين امر النبي صلى الله عليه وسلم بالهجرة وقال الضحاك اخرجني مخرج صدق
من مكة امنا من المشركين وادخلني مدخل صدق ظاهرا عليها بالفتح
وقال مجاهد ادخلني في امرك الذي ارسلتني به من النبوة مدخل صدق
واخرجني من الدنيا وقد قمت بما وجب علي من حقها مخرج صدق من مكة وقيل
ادخاله الغار واخراجه منه سالما وقيل ادخلني مدخل صدق الجنة
واخرجني مخرج صدق من مكة وقيل ادخلني في القبر مدخل صدق ادخالا
مرضيا واخرجني منه عند البعث مخرج صدق اخراجا ملقا مكفا بالكرامة

والجامع لهذه الاقوال ما جري عليه البقاعي في تفسيره بقوله في كل مقام تريد دخالي
فيه حسي ومعنوي دينا واخري مدخل صدق يستحق الداخل فيه ان يقال له
انت صادق في قولك وفعلك فان ذي الوجهين لا يكون عند الله وجيها واخرجني
من كل ما تخرجني منه مخرج صدق اهو المراد من المدخل والمخرج الادخال والاخراج
ومعني اضافة المدخل والمخرج الي الصدق مدحهما كانه يسال الله تعالي ادخالا
حسنا واخراجا حسنا لا يري فيه ما يكره ثم سال الله تعالي ان يرزقه التقوية
بالحجة وبالقهر والقدرة فقال واجعل لي من لدنك اي عندك سلطانا نصيرا اي
حجة ظاهرة تنصرني بها علي جميع من خالفني وقد اجابه الله تعالي دعاه واعلمه انه
يعصمه من الناس بقوله تعالي والله يعصمك من الناس وقال تعالي ان حزب الله
هم الغالبون وقال تعالي ليظهره علي الدين كله وقال تعالي ليستخلفنهم في
الارض ووعده تعالي ليظهره علي الدين ووعده تعالي لينزعن ملك فارس والروم
فيجعله له وعنه صلى الله عليه وسلم انه استعمل عتاب بن اسيد علي اهل
مكة وقال انطلق فقد استعملتك علي اهل الله فكان شديدا علي المريبين
المنافقين لينا علي المومنين وقال والله لا اعلم متخلفا يتخلف عن الصلاة
الا منافقا فقال اهل مكة يا رسول الله لقد استعملت علي اهل الله عتاب بن
اسيد اعرابيا جافيا فقال صلى الله عليه وسلم اني رايت فيما يري النائم كان
عتاب بن اسيد اتي باب الجنة فاخذ بحلقة الباب فقلقلها قلقالا شديدا
حتي فتح له فدخلها فاعز الله الاسلام لنصرته المسلمين علي من يريد ظلمهم فذلك
السلطان النصير ثم امره الله تعالي ان يخبر بالاجابة بقوله تعالي وقل اي
اي لاوليايك واعدايك جا الحق وهو كل ما امر به من ربي وانزله الي وزهق
اي اضمحل وبطل وهلك الباطل وهو كل ما يخالف الحق ثم علل زهوقه بقوله تعالي
ان الباطل وان ارتفعت له دولة وصولة كان في نفسه بجبلته وطبعه
زهوقا اي لا يبقي بل يزول علي اسرع الوجوه وقتا واسرع رجوع قضا
قضاه الله تعالي من الازل روي البخاري في التفسير عن ابن مسعود قال
دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح وحول الكعبة ثلثماية وستون صنما
صنم كل قوم بحيالهم فجعل يطعنها بعود في يده ويقول جا الحق وزهق الباطل
فجعل الصنم ينكب لوجهه وعن ابن عباس كانت لقبايل العرب اصنام يحجون
اليها ويخرون لها فشكي البيت الي الله تعالي فقال اي رب الي متي تعبد هذه
الاصنام حولي دونك فاوحي الله الي البيت اني ساحدث لك توبة جديدة فاملا
خدودا سجدا يدفون اليك دفيف النسور ويحنون اليك حنين الطيور الي
بيضها لهم عجيج حولك بالتلبية ولما نزلت هذه الاية يوم الفتح قال جبريل
عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم خذ مخصرتك ثم القها فجعل
ياتي صنما صنما وهو ينكت بالمخصرة في عينه ويقول جا الحق وزهق الباطل

ينكب لصنم لوجهه حتي القاها جميعها وبقي صنم خزاعة فوق الكعبة وكان
من قوارير صفر فقال يا علي ارم به فحمله رسول الله صلى الله عليه وسلم حتي صعد ورمي
به فكسر فجعل اهل مكة يتعجبون ويقولون ما راينا رجلا اسحر من محمد قال
الزمخشري وشكاية البيت والوحي اليه تخييل وتمثيل ولما بين سبحانه وتعالي
الالهيات والنبوات والحشر والنشر والبعث واثبات القضا والقدر ثم اتبع
بالامر بالصلاة ونبه علي ما فيها من الاسرار وكان القران هو الجامع لجميع ذلك
اتبعه بكونه شفا ورحمة بقوله تعالي وننزل من القران ما هو شفا ورحمة للمومنين
اي ما هو شفا في تقويم دينهم واستصلاح نفوسهم كالدوا الشافي للمريض
تنبيه في من هذه ثلاثة اوجه احدها انه لبيان الجنس قاله الزمخشري
والبيضاوي وابن عطية وابو البقا ورد عليهم ابو حيان بان من البيانية لا بد ان
يتقدمها ما يبينه الا ان يتقدم عليه وهنا قد وجد تقدمها عليه الثاني انها
للتبعيض وانكره الحوفي لانه يلزم ان لا يكون بعضه شفا واجاب ابو البقا
بان منه ما يشفي من المرض وهذا قد وجد بدليل رقية بعض الصحابة سيد الحي
الذي لدغ بالفاتحة فيشفي من المرض فكون التبعيض بالنسبة للامراض الجسمانية
والا فهو كله شفا للابدان وللقلوب من الاعتقادات وغيرها الثالث انها
لابتدا الغاية وهو كما قال ابن عادل واضح ومن العجب ان هذا الشفا
ولا يزيد الظالمين وهم الذين يضعون الشي في غير موضعه باعراضهم عما
يجب قبوله الا خسارا اي نقصانا لانه اذا جاءهم وقامت به الحجة عليهم
اعرضوا عنه فكان اعراضهم ذلك زيادة في كفرهم كما ان قبول المومنين له
واقبالهم علي تدبره زيادة في ايمانهم وفي الدارمي عن قتادة قال ما جالس احد
القران فقام عنه الا بزيادة او نقصان ثم قرا هذه الاية ثم انه تعالي ذكر
السبب الاصلي في وقوع هولا الكافرين الجاهلين الضالين في اودية الضلال
ومقامات الخزي والنكال وهو حب الدنيا والرغبة في المال والجاه
واعتقادهم ان ذلك ما يحصل بسبب جدهم واجتهادهم ثم قال تعالي واذا
انعمنا اي بما لنا من العظمة علي الانسان اي هذا النوع هولا وغيرهم
وقال ابن عباس ان الانسان ههنا هو الوليد بن المغيرة قال الرازي وهذا
بعيد بل المراد اي نوع الانسان اذا انعمنا عليه اعرض اي عن ذكرنا
ودعاينا اذ شان نوع الانسان انه اذا فاز بمقصوده ووصل الي مطلوبه
اغتر وصار غافلا عن عبودية الله متمردا عن طاعة الله كما قال تعالي ان
الانسان ليطغي ان راه استغني وناي عن ذكر الله بجانبه اي لوي عطفه
وبعد نفسه كانه مستغن بامره ويجوز ان يكون كناية عن الاستكبار
لانه من عادة المستكبرين ومعني الثاني في اللغة البعد والاعراض عن
الشي ان يوليه عرض وجهه وقرا ابن ذكوان بالف ممدودة بعد النون

وبتأخير الهمزة مثل جاء وفي هذه القراءة تخريجان احدهما من ناي ينواي نهض
والثاني انه مقلوب من ناي فيكونان بمعنى قال ابن عادل ولكن متى امكن
عدم القلب كان اولى وقرا الباقون بالهمزة بعد النون والف بعد همزة وامال
الالف بعد الهمزة السوسي وشعبة وخلاد بخلاف عن السوسي واماله
وكل بين بين واما الهمزة والنون فحضة خلف والكسائي وفتح الباقون واذا
مسه الشر اي هذا النوع وان قل كان يؤسا اي شديد الياس
مما عنده من رحمة ربه والحاصل انه ان فاز بالنعمة والدولة اغتر بها ونسي ذكر
الله وان بقي في الحرمان عن الدنيا استولى عليه الاسف والحزن ولم يتفرغ لذكر
الله فهذا المسكين محروم ابدا عن ذكر الله ونظيره قوله تعالى فاما الانسان
اذا ما ابتلاه ربه فاكرمه ونعمه فيقول ربي اكرمني واما اذا ما ابتلاه فقدر
عليه رزقه فيقول ربي اهانن وكذلك ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه
الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا الا من حفظه الله وشرفه بالاضافة
اليه فليس للشيطان عليه سلطان ثم قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم
قل كل من الشاكر والكافر يعمل على شاكلته اي طريقته التي تشاكل روحه
وتشاكل ما طبعناه عليه من خير او شر فربكم اي فتسبب عن ذلك
ان الذي خلقكم وصوركم اعلم من كل احد بمن هو منكم اهدى سبيلا
اي اوضح طريقا واتباعا للحق فيشكره ويصيره احسن ما يعطيه الثواب
ومن هو منكم اضل سبيلا فيجعل له العقاب لانه يعلم ما طبعهم عليه في اصل
الخلقة وغيره تعالى انما يعلم امور الناس في طرائقهم بالتجربة وقد روى الامام
احمد لكن بسند منقطع عن ابي الدرداء رضي الله تعالى عنه ان النبي صلى
الله عليه وسلم قال اذا سمعتم بجبل زال عن مكانه فصدقوا واذا سمعتم
برجل تغير عن طبعه فلا تصدقوا فانه يصير الى ما جبل عليه واختلف
في سبب نزول قوله تعالى ويسألونك اي تعنتا وامتحانا عن الروح
فعن عبد الله بن مسعود قال بينما انا امشي مع رسول الله صلى الله عليه
وسلم وهو متوكئ على عسيب معه فمر بنفر من اليهود فقال بعضهم
لبعض اسألوه عن الروح وقال بعضهم لا تسألوه لا يجيء بشيء تكرهونه
فقال بعضهم لنسألنه فقام رجل منهم فقال يا ابا القاسم ما الروح فسكت
فقلت انه يوحى اليه فقمت فلما انجلى عنه قال ويسألونك عن الروح
قل الروح من امر ربي وما اوتيتم من العلم الا قليلا قال بعضهم لبعض قد قلنا
لكم لا تسألوه وقال ابن عباس ان قريشا اجتمعوا فقالوا ان محمدا نشأ فينا
بالصدق والامانة وما اتهمناه بكذب وقد ادعى ما ادعى فابعثوا نفرا الى اليهود
بالمدينة واسألوهم عنه فانهم اهل كتاب فبعثوا جماعة اليهم فقالت اليهود
سلوه عن ثلاثة اشياء فان اجاب عن كلها اولم يجب عن شيء منها فليس بنبي

وان اجاب عن اثنين ولم يجب عن واحد فهو نبي فسألوه عن فتية فقدوا في الزمن
الاول ما كان امرهم فانه كان لهم حديث عجيب وعن رجل بلغ مغرب مشرق
الارض ومغربها وعن الروح فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم فقال اخبركم
بما سألتم غدا ولم يقل ان شاء الله فلبث الوحي قال مجاهد اثنا عشر ليلة
وقيل خمسة عشر يوما وقيل اربعين يوما واهل مكة يقولون وعدنا محمد
غدا وقد اصبحنا لا يخبرنا بشيء حتى حزن صلى الله عليه وسلم من مكث الوحي
وشق عليه ما يقوله اهل مكة ثم نزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى ولا تقولن
لشيء اني فاعل ذلك غدا الا ان يشاء الله ونزل في الفتية ام حسبت ان اصحاب
الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا ونزل فيمن بلغ المشرق والمغرب
ويسألونك عن ذي القرنين ونزل في الروح ويسألونك عن الروح قل
الروح من امر ربي وقول الرازي ومن الناس من طعن في هذه الرواية من وجوه
وذكر من جملة ذلك كيف يليق به ان يقول انا لا اعرف هذه المسألة مع انها
من المسائل المشهورة المذكورة مع جمهور الخلق غير لائق لان ذلك كان
علامة على نبوته قال الزمخشري فبين لهم القصتين وابهم امر الروح
وهو مبهم في التوراة فندموا على سؤالهم انتهى واختلفوا في الروح الذي وقع
السؤال عنه فروي عن ابن عباس انه جبريل عليه السلام وهو قول
الحسن وقتادة وروي عن علي انه قال ملك له سبعون الف وجه
لكل وجه سبعون الف لسان يسبح الله تعالى بكلها وقال مجاهد خلق
على صورة بني آدم لهم ايدي وارجل ورؤس وليسوا بملائكة ولا ناس
يأكلون الطعام وقال سعيد بن جبير لم يخلق الله خلقا اعظم من الروح
غير العرش لو شاء ان يبتلع السموات السبع والارضين السبع ومن
فيهن بلقمة واحدة لفعل صورة خلقه على صورة الملائكة وصورة
وجهه على صورة الآدميين يقوم يوم القيامة على يمين العرش وهو اقرب
الخلق الى الله تعالى عند الحجب السبعين واقرب الى الله تعالى وهو ممن
يشفع لاهل التوحيد ولولا ان بينه وبين الملائكة سترا من نور لاحترق
اهل السموات من نوره وقيل الروح هو القرآن وقيل المراد منه عيسى فانه روح
الله تعالى وكلمته ومعناه انه ليس كما تقوله اليهود ولا كما تقوله النصارى
وقال بعضهم هو الروح المركب في الخلق الذي يحيى به الانسان قال البغوي
وهو الاصح وتكلم فيه قوم فقال بعضهم هو الدم الا ترى ان الحيوان اذا مات
لا يفوت منه الا الدم وقال قوم هو نفس الحيوان بدليل انه يموت باحتباس
النفس وقال قوم عرض وقال قوم هو جسم لطيف وقال بعضهم الروح
معنى اجتمع فيه النور والطيب والعلم والعلو والبقاء الا ترى انه اذا كان موجودا
يكون الانسان موصوفا بجميع هذه الصفات واذا خرج ذهب الكل

قال البغوي والاولى الاقاويل ان يوكل علمه الى الله تعالى عز وجل وهو قول اهل
السنة قال عبد الله بن بريدة ان الله لم يطلع على الروح ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا
بدليل قوله تعالى قل الروح من امر ربي وما اوتيتم من العلم الا قليلا اي في جنب
علم الله تعالى تنبيه اختلف في المخاطب بقوله تعالى وما اوتيتم من العلم
الا قليلا فقيل هو النبي صلى الله عليه وسلم وقيل اليهود فانهم يقولون
اوتينا التوراة وفيها العلم الكثير وقيل عام روي ان رسول الله صلى الله
عليه وسلم لما قال لهم ذلك قالوا نحن مختصون بهذا الخطاب ام انت
معنا فيه فقال نحن وانتم لم تؤتوا من العلم الا قليلا فقالوا ما اعجب شانك
ساعة تقول ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيرا كثيرا وساعة تقول هذا
فنزلت ولو ان ما في الارض من شجرة اقلام والبحر يمده الاية قال الزمخشري
وليس ما قالوه بلازم لان القلة والكثرة تدوران مع الاضافة فيوصف
الشيء بالقلة مضافا الى ما فوقه وبالكثرة مضافا الى ما تحته فالحكمة
التي اوتيها العبد خير كثير في نفسها الا انها اذا اضيفت الى علم الله فهي
قليلة وقيل كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم معنى الروح ولكن لم يخبر
به لان ترك اخباره كان علما لنبوته قال البغوي والاول اصح ان الله
استاثر بعلمه انتهى وعن ابي يزيد لقد مضى النبي صلى الله عليه وسلم
وما يعلم الروح وقال الرازي قوله تعالى قل الروح من امر ربي من فعل ربي
وهذا الجواب يدل على انهم سالوه ان الروح قديمة او حادثة فقال بل هي حادثة
وانما حدثت بفعل الله وتكوينه وايجاده ثم احتج على حدوث الروح بقوله وما
اوتيتم من العلم الا قليلا بمعنى ان الروح في مبدا الفطرة تكون خالية عن
العلوم والمعارف ثم تحصل المعارف والعلوم فهي لا تزال تكون في التغير
من حال الى حال وفي التبدل من نقصان الى كمال والتغير والتبدل من
امارات الحدوث فقوله قل الروح من امر ربي يدل على انهم سالوه ان الروح هل
هي حادثة او قديمة فاجاب بانها حادثة واقعة بتخليق الله تعالى وتكوينه
وهو المراد من قوله قل الروح من امر ربي ثم استدل على حدوث الارواح
بتغيرها من حال الى حال وهو المراد بقوله وما اوتيتم من العلم الا قليلا فهذا
ما نقوله في هذا الباب انتهى وهو نص لطيف ولما بين سبحانه وتعالى
انهم ما اتاهم من العلم الا قليلا بين انه لو شاء ان ياخذ منهم ذلك القليل
ايضا لقدر عليه بقوله تعالى ولئن شئنا اي ومشيئتنا لا يعاظمها
شيء واللام موطئة للقسم واجاب عن القسم بما اغنى عن الجواب
الشرط فقال لنذهبن اي بما لنا من العظمة ذهابا محققا بالذي
اوحينا اليك بان نمحو حفظه من القلوب وكتابته من الكتب
وهذا وان كان امرا مخالفا للعادة الا انه تعالى قادر عليه ثم اي بعد

الذهاب به لا تجد لك به علينا وكيلا اي لا تجد من تتوكل عليه في رد شيء منه
واعادته مسطورا محفوظا وقوله تعالى الا رحمة من ربك استثناء متصل لانه
مندرج في قوله وكيلا والمعنى الا ان يرحمك ربك فيرده عليك او منقطع فيقدر
لكن عند البصريين او بل رحمة من ربك عند الكوفيين والمعنى ولكن رحمة
من ربك او بل رحمة من ربك بتركه غير مذهوب به وهذا امتنان من الله
تعالى ببقاء القران قال الرازي وهذا تنبيه على ان لله تعالى على جميع العلماء
نوعين من المنة احدهما تسهيل ذلك العلم عليهم والثاني ابقاء حفظه عليهم
فعلى كل ذي علم ان لا يغفل عن هاتين النعمتين والقيام بشكرهما وهما منة الله
تعالى عليه بحفظ العلم ورسوخه في صدره ومنته عليه في بقاء المحفوظ فان
قيل كيف يذهب القران وهو كلام الله تعالى اجيب بان المراد محو ما في
المصاحف واذهاب ما في الصدور قال عبد الله بن مسعود اقرؤا القران
قبل ان يرفع فانه لا تقوم الساعة حتى يرفع قيل هذه المصاحف ترفع
فكيف ما في الصدور قال يسرى عليه ليلا فيرفع ما في صدورهم فيصبحون
لا يحفظون شيئا ولا يجدون في المصاحف شيئا ثم يفيضون في الشعر
وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال لا تقوم الساعة حتى يرجع القران
من حيث نزل له دوي حول العرش كدوي النحل فيقول الرب ما لك
فيقول يا رب اتلى ولا يعمل بي وفي رواية لابن مسعود اول ما تفقدون
من دينكم الامانة واخر ما تفقدون الصلاة وليصلين قوم ولا دين لهم
وان هذا القران تصبحون يوما وما فيكم منه شيء فقال كيف ذلك وقد
اثبتناه في قلوبنا واثبتناه في مصاحفنا ونعلمه ابناءنا ويعلمه ابناؤهم
فقال يسرى عليه ليلا فيصبح الناس منه فقراء ترفع المصاحف وينزع
ما في القلوب وقوله تعالى ان فضله كان اي ولم يزل عليك
كبيرا فيه قولان احدهما المراد منه ان فضله كان عليك كبيرا
بسبب ابقاء العلم والقران عليك ثانيهما المراد انه فضله كان عليك
كبيرا بسبب انه جعلك سيد ولد ادم وختم بك النبيين واعطاك
المقام المحمود وقد تم عليك ايضا بابقاء العلم والقران عليك ونزل حين
قال الكفار للنبي صلى الله عليه وسلم لو نشاء لقلنا مثل القران قل
اي لهؤلاء البعداء لئن اجتمعت الانس الذين تعرفونهم وتعرفون ما اوتوا
من البلاغة والحكمة والذين لا تعرفونهم والجن الذين يأتون كهانهم
ويعلمونهم ببعض المغيبات عنهم وغيرهم وترك الملائكة لانه لم يبق
من التفضيل ولانهم كانوا وسائط على ان ياتوا بمثل هذا القران في البلاغة
وحسن النظم وكمال المعنى لا ياتون بمثله اي لا يقدرون على ذلك فالقران
معجز في النظم والتاليف والاخبار عن الغيوب وهو كلام في اعلا طبقات

البلاغة لا يشبه كلام الخلق ولو كان مخلوقا لاتوا بمثله تنبيه في قوله تعالى
لا ياتون بمثله قولان اظهرهما انه جواب لقسم الموطاة باللام والثاني انه
جواب للشرط واعتذروا عن رفعه بان الشرط ماض فهو كقوله
وان اتاه خليل اي فقير يوم مسغبة * يقول لا غايب مالي ولا حرم *
لان الشرط وقع ماضيا ونافشه ابو حيان بان هذا ليس مذهب سيبويه
ولا الكوفيين والمبرد لان هذا مذهب سيبويه في مثله ان النية به التقديم
ومذهب الكوفيين والمبرد انه على حذف الفا وهذا مذهب ثالث قال به
بعض الناس ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا اي معينا بضم اقوى ما فيه الى اقوى
ما في صاحبه تنبيه قد تقدم في سورة البقرة ان الله تعالى قال فاتوا بسورة
من مثله وقدمنا الكلام على ذلك وفي وجه كون القرآن معجزا قولان احدهما
انه معجز في نفسه والثاني انه ليس في نفسه معجزا الا انه تعالى صرف
دواعيهم عن الاتيان بمعارضته وكان الدواعي عن الاتيان به بهذه المعار
مع التقديرات المذكورة تكون نقضا للعادة فيكون معجزا والقول الاول اظهر
ولقد صرفنا اي بينا بوجوه مختلفة زيادة في التقرير والبيان
للناس في هذا القرآن من كل مثل اي من كل معنى هو كالمثل في غرابته ووقوعه
موقعا في الانفس وقيل معناه من كل وجه من العبر والاحكام والوعد
والوعيد والقصص وغيرها وقيل صفة لمحذوف اي مثلا من جنس كل مثل
ليتعظوا فابى اكثر الناس وهم من هم في صورة الناس ككفار قريش وقد
سلبوا معانيهم الا كفورا اي جحودا فان قيل كيف جاز فابى اكثر الناس
الا كفورا ولم يجز ضربت الا زيدا ولما بين بالدليل اعجاز القرآن على وفق
دعوى محمد صلى الله عليه وسلم ولزمتهم الحجة وغلبوا اخذوا يتعللون
باقتراح الايات فعل المبهوت المحجوج المتعثر في اذيال الحيرة وذكروا من
ذلك ستة انواع من المعجزات اولها وقالوا اي كفار قريش ومن
والاهم لن نؤمن لك حتى تفجر اي تفجيرا عظيما من الارض ينبوعا اي عينا
غزيرة الما من شانها ان تنبع بالماء ولا ينضب ماؤها وقرا حمزة وعاصم
والكسائي بفتح التا وسكون الفا وضم الجيم مخففة والباقون
بضم التا وفتح الفا وكسر الجيم المشددة ثانيها قولهم او تكون لك
انت وحدك جنة من نخيل وعنب اي واشجار عنب عبر عنه بالثمرة
لان الانتفاع منه بغيرها قليل فتفجر الانهار الجارية خلالها اي
وسطها تفجيرا اي تشقيقا والفجر شق الظلام عن عمود الصبح
والفجور شق جلباب الحيا بما يخرج الى الفساد قولهم او تسقط السما ثالثها
اي سقفها كما زعمت فيما تتوعدنا به علينا كسفا اي قطعا جمع
كسفة وهي القطعة وقرا نافع وابن عامر وعاصم بنصب السين

مثل

مثل قطعة وقطع وسدرة وسدر والباقون بسكونها مثل دمنة ودمن وسدرة
وسدر وهو نصب على الحال في القراءتين جميعا كما نقيل او تسقط السما
علينا مقطعة رابعها قولهم او تاتي معك بالله اي الملك الاعظم
والملائكة قبيلا اي عيانا وقابله ننظر اليه لا يخفى علينا شي منه وقال
الضحاك هو جمع قبيلة اي اصناف الملائكة قبيلة قبيلة قال ابن عباس كفيلا
اي يكفلون بما تقول خامسها قولهم او يكون لك اي خاصا بك بيت
من زخرف اي ذهب كامل الحسن والزينة سادسها قولهم او ترقى
اي تصعد في السما درجة درجة ونحن ننظر اليك صاعدا ولن نؤمن
اي نصدق قد عنين لرقيك اي اصلا حتى تنزل وحققوا معنى كونه
من السما بقولهم علينا كتابا ومعنى كونه في رق او نحوه بقولهم نقروه
باشرنا فيه باتباعك روى عكرمة عن ابن عباس ان عتبة وشيبة بني
ربيعة وابا البختري بن هشام وعبد الله بن امية وامية بن خلف والوليد
ابن المغيرة وابا جهل بن هشام والعاصي بن وايل ونبيها ومنبها ابني الحجاج
اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة فقال بعضهم لبعض ابعثوا
الى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه فبعثوا اليه ان اشراف قومك
قد اجتمعوا لك يكلمونك فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يظن
انهم بدا لهم في امره بدا وكان عليهم حريصا يحب رشدهم حتى جلس اليهم
فقالوا يا محمد انا بعثنا اليك لنعذر فيك وانا والله لا نعلم ان رجلا من العرب
ادخل على قومه ما ادخلت على قومك لقد شتمت الابا وعبت الدين
وسفهت الاحلام وشتمت الالهة وفرقت الجماعة فما بقي امر قبيح الا وقد
جيته فيما بيننا وبينك فان كنت جيت بهذا الحديث تطلب به مالا
جعلنا لك من اموالنا حتى تكون اكثرنا مالا وان كنت تريد الشرف سودناك
علينا وان كنت تريد ملكا ملكناك علينا وان كان هذا الذي بك رايا تراه قد
غلب عليك لا تستطيع رده بذلنا لك اموالنا في طلب الطب لك حتى نبريك
منه او نعذر فيك فكانوا يسمون التابع من الجن الرئي فقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم ما بي مما تقولون ما جيتكم بما جيتكم به لطلب اموالكم ولا للشرف
عليكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني اليكم رسولا وانزل علي كتابا وامرني ان اكون
لكم بشيرا ونذيرا فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم فان تقبلوا مني فهو حظكم
في الدنيا والاخرة وان تردوه الي اصبر لامر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم
فقالوا يا محمد فان كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك فقد علمت انه ليس احد
اضيق بلادا واشد عيشا منا فسل لنا ربك الذي بعثك فليسير عنا
هذه الجبال التي قد ضيقت وليبسط لنا بلادنا وليفجر فيها انهارا كانهار الشام
والعراق وليبعث لنا من مضى من ابائنا وليكن منهم قصي بن كلاب فانه كان

يجاحده وقافنا لم عما نتقول احق هو ام باطل فان صح قولك صدقناك
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بهذا بعثت فقد بلغتكم ما ارسلت
به وان تقبلوه فهذا حظكم وان تردوه اصبر لامر الله قالوا فان لم تفعل فسل ربك
ان يبعث ملكا يصدقك وسله ان يجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب
وفضة يغنيك بها عن ما نراك فانك تقوم بالاسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه
فقال صلى الله عليه وسلم ما بعثت بهذا ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا قالوا فاسقط
السما كما زعمت ان ربك ان شا فعل فقال ذلك الى الله ان شا فعل ذلك بكم
فقال قايل منهم لن نؤمن لك حتى تاتينا بالله والمليكة قبيلا فلما قالوا ذلك
قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقام معهم معه عبد الله بن امية وهو
ابن عاتكة بنت عبد المطلب فقال له اعرض عليك قومك ما عرضوا فلم
تقبله منهم ثم سالوك ان تجعل ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل فوالله
لا اومن لك ابدا حتى تتخذ الى السما سلما ترقى فيه وانا انظر حتى تاتيها
وتاتي بنسخة منشورة معك ونفر من الملايكة يشهدون لك بما تقول
وايم الله لو فعلت ذلك لظننت ان لا اصدقك فانصرف رسول الله صلى
الله عليه وسلم الى اهله حزينا لما راى من مباعدتهم فانزل الله هذه الاية وفيها
اشارة الى انه ليس من شرط كونه نبيا صادقا تواتر المعجزات الكثيرة وتواليها اذ
لو فتح هذا الباب لزم ان لا ينتهي الامر فيه الى مقطع وكلما اتى النبي بمعجزة
اقترحوا عليه معجزا اخر ولا ينتهي الامر فيه الى حد ينقطع عنه عناد المعاندين
وتعنت الجاهلين مع انه صلى الله عليه وسلم اعطي من الايات والمعجزات
ما اغنى عن هذا كله مثل القران وانشقاق القمر وتفجير العيون من بين الاصابع
وما اشبه ذلك ولما تم تعنتهم وكان لسان الحال طالبا من الله تعالى الجواب
الجواب عنه امر الله تعالى بجوابهم بقوله تعالى قل اي لهولا البعدا الاشقيا
سبحان ربي تعجبا من اقتراحاتهم وتنزيها لله من ان ياتي او يتحكم عليه او يشاركه
احد في القدرة وقرا ابن كثير وابن عامر بصيغة الماضي والباقون قل بصيغة الامر
وهل كنت الا بشرا لا يقدر على غير ما يقدر عليه البشر رسولا كما كان من
قبلي من الرسل وكانوا لا ياتون قومهم الا بما يظهره الله تعالى على ايديهم بما يلايم
حال قومهم ولم يكن امر الايات اليهم ولا لهم ان يتحكموا على الله حتى يتخيروها
هذا هو الجواب المجمل واما التفصيل فقد ذكر في ايات اخر كقوله تعالى ولو نزلنا
عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بايديهم ولو فتحنا عليهم بابا ونحو ذلك ولما
كان ربما تضمن انه كاخوانه من الرسل في كونه بشرا اتبعه قوله عطفا على قالوا
او وقالوا وما منع الناس اي قريشا ومن قال بقولهم لما لهم من الاضطراب
ان يومنوا اي لم يبق لهم مانع من الايمان والجملة مفعول منع اذ جاءهم
الهدى اي الدليل القاطع على الايمان وهو القران وغيره من الادلة وقراة

ابو عمرو وهشام بادغام دال اذ عند الجيم والباقون بالاظهار وامال الالف بعد الجيم
حمزة وابن ذكوان بخلف عنه واذا وقف حمزة على جاءهم سهل الهمزة مع المد والقصر
الا ان قالوا وفاعل منع ان قالوا اي منكرين عليه غاية الانكار متعجبين منه كيف
ابعث الله بشرا رسولا لان الكفار كانوا يقولون لن نؤمن لك لانك بشر ولو
بعث الله رسولا الى الخلق لوجب ان يكون ذلك الرسول من الملايكة فاجابهم الله
تعالى بقوله تعالى قل اي لهولا المطرودين عن الرحمة لو كان في الارض ملايكة
يمشون عليها كالادميين مطمئنين اي مستوطنين فيها كالبشر
لنزلنا عليهم مرة بعد مرة كما فعلنا في تنزيل جبريل عليه السلام على الانبيا
من البشر وحقق الامر بقوله تعالى من السما ملكا رسولا يعلمهم الخير ويهديهم لتمهد
لتمكنهم من التلقي منه لمشاكلتهم له بخلاف البشر كما هو مقتضى الحكمة لان
رسول كل جنس ينبغي ان يكون منهم اذ الشي عن شكله افهم وبه انس واليه
احن ولذلك الف الا من فضله تعالى بتغليب روحه على نفسه وبتغليب عقله
على شهوته فاقدره بذلك على التلقي من الملك كالمرسلين ثم اجابهم الله تعالى
جوابا اخر بقوله تعالى قل كفى بالله اي المحيط بكل شي قدرة وعلما وامال
الالف حمزة والكسائي محضة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح
شهيدا بيني وبينكم على اني رسوله اليكم ليظهر المعجزات على وفق دعواي
واني بلغت ما ارسلت به اليكم وانكم عاندتم ومن شهد الله على صدقه فهو صادق
فعند ذلك قول القايل بان الرسول يجب ان يكون ملكا لا انسانا تحكم
فاسد لا يلتفت اليه تنبيه شهيدا نصب على الحال او التمييز ثم انه تعالى
ذكر ما هو كالتهديد والوعيد بقوله تعالى انه كان بعباده خبيرا بصيرا يعلم
ظواهرهم وبواطنهم ويعلم من قلوبهم انهم لا يذكرون هذه الا لمحض الحسد
وحب الرياسة والاستنكاف من الانقياد للحق ولما تقدم انه تعالى اعلم
بالمهتدي والضلال عطف عليه قوله تعالى ومن يهد الله بان يخلق الهدا بة
في قلبه فهو المهتدي لا يمكن احد غيره ان يضله تنبيه اثبت نافع وابو
عمرو اليا بعد الدال مع الوصل دون الوقف وحذفها الباقون وقفا
ووصلا ومن يضلل فلن تجد لهم اي الضالين اوليا يهدونهم من دونه
ولا ينفعونهم بشي اراد الله تعالى غيره ولما كان يوم القيمة يظهر فيه
لكل احد ما كان يعمله نبه على ذلك بقوله تعالى ونحشرهم بنون
العظمة اي نجمعهم بكره يوم القيامة الذي هو محط الحكمة على وجوههم
مسحوبين عليها اهانة لهم فيها كما لم يذلوها بالسجود لنا قال تعالى
يوم يسحبون في النار على وجوههم ويمشون عليها روى ابو هريرة
قيل يا رسول الله كيف يمشون على وجوههم قال ان الذي يمشيهم
على اقدامهم قادر على ان يمشيهم على وجوههم قال حكما الاسلام ان الكفار

ارواحهم شديدة التعلق بالدنيا ولذاتها وليس لها تعلق بعالم الانوار وحضرة الاله
سبحانه فلما كان وجوه قلوبهم وارواحهم متوجهة الى الدنيا لاجرم كان حشرهم على وجوههم
واما قوله تعالى عميا وبكما وصما فقد استشكله شخص على ابن عباس فقال اليس قد
قال الله ورأى المجرمون النار وقال تعالى سمعوا لها تغيظا وقال تعالى دعوا هنالك
ثبورا وقال تعالى يوم تاتي كل نفس تجادل عن نفسها وقال تعالى حكاية عن الكفار
والله ربنا ما كنا مشركين فثبت بهذه الآيات انهم يرون ويسمعون ويتكلمون فكيف
قال تعالى ههنا عميا وبكما وصما اجاب ابن عباس وتلامذته عنه من وجوه الاول
قال ابن عباس عميا لا يرون شيئا يسرهم صما لا يسمعون شيئا يسرهم بكما
لا ينطقون بحجة الثاني في رواية عطا عميا عن النظر عما جعله الله لاوليائه
وبكما عن مخاطبة الله تعالى ومخاطبة الملائكة المقربين صما عن ثناء الله تعالى
عليهم الثالث قال مقاتل انه حين يقال لهم اخسؤا فيها ولا تكلمون يصيرون
عميا بكما صما اما قبل ذلك فهم يرون ويسمعون وينطقون الرابع انهم يكونون
رائين سامعين ناطقين في الموقف ولولا ذلك لما قدروا ان يطالعوا كتبهم
ولا ان يسمعوا الزام حجة الله تعالى عليهم الا انهم اذا اخذوا يذهبون من
الموقف الى النار جعلهم الله تعالى عميا وبكما وصما قال الرازي والجواب الاول
اولى لان الآيات السابقة تدل على انهم في النار يبصرون ويسمعون ويصيحون
ثم بين تعالى مكانهم بقوله تعالى مأواهم جهنم تسعر عليهم كلما خبت اي
اخذ لهبها في السكون عند اكلها لحومهم وجلودهم زدناهم سعيرا توقدا
باعادة اللحوم والجلود ملتهبة مسعرة كانهم لما كذبوا بالاعادة بعد
الافناء جزاهم الله تعالى بان لا يزالوا على الاعادة والافناء وقرا نافع وابن كثير
وعاصم وابن عامر باظهار التاء الثانية عند الزاي وادغمها الباقون ثم بين علة
تعذيبهم ليرجع منهم من قضى بسعادته بقوله تعالى ذلك اي العذاب العظيم
جزاؤهم بانهم اي اهل الضلالة كفروا باياتنا القرآنية وغيرها وكانوا
كل يوم يزدادون كفرا وهم عازمون على الدوام على ذلك ما بقوا وقالوا انكارا
لقدرتنا ائذا كنا عظاما ورفاتا ممزقين في الارض ثم كرروا الانكار كانهم على ثقة
من امرهم هذا الذي بطلانه اوضح من الشمس بقولهم ائنا لمبعوثون خلقا
جديدا فنحن نجزيهم جزاء على هذا الانكار المكرر الخلق الجديد في جلودهم ولحومهم
مكررا كل لحظة قال تعالى كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا
العذاب ثم اتبعه بقاطع في بيان جهلهم بقوله تعالى اولم يروا اي يعلموا بعيون
ابصارهم على ما هو كالرؤية بعيون ابصارهم لما قام عليه من الدلائل بصحة
من الشواهد الجلائل ان الله الذي خلق جمعها لما دل على ذلك من الحسن السموات
ولما تحقق الارض مثل ذلك افردها مريدا الجنس الصالح للجميع بقوله تعالى
والارض على كبر اجرامها وعظم احكامها وقوله تعالى قادر على ان يخلق مثلهم

فيه قولان الاول المعنى على ان يخلقهم ثانيا فعبر عن خلقهم ثانيا بلفظة المثل
كما يقول المتكلمون ان الاعادة مثل الابتداء الثاني المراد قادر على ان يخلق عبيدا
آخرين يوحدونه ويقرون بكمال حكمته وقدرته ويتركون ذكر هذه الشبهات
الفاسدة وعلى هذا فهو كقوله تعالى ويأت بخلق جديد وقوله تعالى ويستبدل
ل قوما غيركم قال الواحدي والقول هو الاول لانه اشبه بما قبله ولما بين
الله تعالى بالدليل المذكور ان البعث والقيام امر ممكن الوجود في نفسه
اردفه ببيان ان لوقوعه في الوجود وقتا معلوما عند الله وهو قوله تعالى
وجعل لهم اجلا لا ريب اي لا شك فيه وهو الموت او القيامة فابى الظالمون
الا كفورا اي بعد هذه الدلائل الظاهرة ابوا الا الكفر والجحود ولما قال الكفار
لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا فطلبوا اجراء الانهار والعيون في
بلدتهم لتكثر اموالهم ويتسع عليهم عيشهم بين تعالى انهم لو ملكوا خزائن رحمة الله
لبقوا على بخلهم وشحهم بقوله تعالى قل اي لهؤلاء المتعنتين لو انتم تملكون
اي دون غيركم خزائن عبر بصيغة منتهى الجموع لان المقام جدير
بالمبالغة رحمة ربي اي خزائن رزقه وسائر نعمه وذلك غير متناه اذا
لامسكتم اي لوقع منكم الامساك عن الانفاق في بعض الوجوه التي
تحتاجونها خشية اي مخافة عاقبة الانفاق اي الوصول الى
الفقر فكان المعنى انكم لو ملكتم من الخير والنعم خزائن لا نهاية لها لبقيتم على
الشح والدناءة وهذا مبالغة عظيمة في وصفهم بهذا الشح وقال البيضاوي
تبعا للزمخشري انتم مرفوع بفعل يفسره ما بعده قال الزمخشري تقديره
لو تملكون جرى فيه على مذهب الكوفيين من ان لو يليها الفعل مضمرا كما يليها
ظاهرا والبصريون يمنعون ايلاءه لها مضمرا الا في شذوذ كقولك حاتم
لو ذات سوار لطمتني واصل هذا المثل ان امرأة عطلا من الحلي والهيئة
لطمت حاتما على نحره الناقة وقالت له بقسوة انما امرناك بفصدها
والفصد عندهم ان يقطع عرق من عروقه ثم يجمع دمها فيشوى وقيل ان المرأة
المذكورة لطمت رجلا فقال لو ذات سوار لطمتني لاحتملتها فصار
بلد مثلا يضرب لكريم يسلطه الدني ثم استدل على صحة هذا المفروض بالثنا
من مضمون قولهم وكان اي جبلة وطبعا الانسان اي الذي من شانه
الانس بنفسه فهو لذلك لا يعقل الامور حق عقلها قتورا اي بخيلا
شحيحا فتح الياء ربي نافع وابو عمرو وسكنها الباقون وهم على مراتبهم في المد
فان قيل قد يوجد في جنس الانسان من هو جواد كريم اجيب من وجوه الاول
ان الاصل في الانسان البخل لانه خلق محتاجا والمحتاج لا بد وان يحب ما به
يدفع الحاجة وان يمسكه لنفسه الا انه قد يجود به لاسباب من خارج فثبت
ان الاصل في الانسان البخل الثاني ان الانسان انما يبذل لطلب الثناء

والجحود ولم يخرج عن عهدة الواجب فهو في الحقيقة بخيل الثالث ان المراد بهذا الانسان
اليهود السابق وهم الذين قالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا ولما قدم
سبحانه وتعالى ان اكثر الناس جحد الايات لكونه تعالى حكم بضلالهم ومن حكم بضلاله
لا يمكن هداه شرع يسلي نبيه صلى الله عليه وسلم بما اتفق لمن قبله من الانبياء بقوله
تعالى **ولقد اتينا موسى تسع ايات بينات** اي واضحات واختلف في هذه الايات
فقال ابن عباس والضحاك هي العصا واليد البيضاء والعقدة التي كانت بلسانه فحلها
وفلق البحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع وقال مجاهد وعطاء هي الطوفان
والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد والسنون ونقص من الثمرات
قال البقاعي وهي كما في التوراة العصا ثم الدم ثم الضفادع ثم القمل ثم موت البهائم
ثم البرد الكبار التي انزلها الله تعالى مع النار المضطرمة فكانت تهلك كلما مرت
عليه من نبات وحيوان ثم الجراد ثم الظلمة ثم موت الابكار من الادميين وجميع الحيوان
ثم قال وقد نظمتها ليهون حفظها فقلت شعرا

عصي قمل موت البهائم ظلمة • جراد دم ثم الضفادع والبرد
وموت ذكور الادمي وعكره • من الحي اتاها الذي عز وانفرد

قال وكانه عد اليد مع العصا اية ولم تفرد اليد لانه ليس فيها ضرر عليهم
انتهى وقال البيضاوي هي العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم وانفجار
الماء من الحجر وانفلاق البحر ونتق الطور على بني اسرائيل وذكر محمد بن كعب القرظي
الطمس والبحر بدل السنين ونقص من الثمرات قال كان الرجل منهم مع اهله في
فراشه وقد صارا حجرين والمراة منهم قائمة تخبز وقد صارت حجرا وقال
بعضهم هي ايات الكتاب وهي احكام يدل عليه ما روي عن صفوان ان
يهوديا قال لصاحبه تعال نسال هذا النبي فقال الاخر لا تقل فانه لو سمع
صارت له اربعة اعين فاتياه فسالاه عن هذه الاية ولقد اتينا موسى تسع ايات
بينات فقال لا تشركوا بالله شيا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق
ولا تزنوا ولا تاكلوا الربا ولا تسحروا ولا تمشوا بالبري الى سلطان
ليقتله ولا تسرفوا ولا تقذفوا المحصنة ولا تفروا من الزحف وعليكم
خاصة اليهود ان لا تعدوا في السبت فقبلوا يديه وقالوا نشهد انك نبي قال
فما يمنعكم ان تتبعوني قالوا ان داود دعا ربه ان لا يزال في ذريته نبي
وانا نخاف ان اتبعناك ان تقتلنا اليهود وقال الرازي اعلم انه تعالى ذكر
في القران اشياء كثيرة من معجزات موسى عليه السلام احدها ان الله تعالى ازال
العقدة من لسانه قيل في التفسير ذهب العجمة وجاء فصيحا ثانيها انقلاب
العصا حية ثالثها تلقف الحية حبالهم وعصيهم مع كثرتها رابعها اليد البيضاء
وخمسة اخرى وهي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعاشر
شق البحر وهو قوله تعالى واذ فرقنا بكم البحر والحادي عشر وهو قوله تعالى

واذ قلنا اضرب بعصاك الحجر والثاني عشر اظلال الجبل وهو قوله تعالى واذ نتقنا الجبل
فوقهم كانه ظلة الثالث عشر انزال المن والسلوى عليه وعلى قومه والرابع عشر والخامس
عشر قوله تعالى ولقد اخذنا ال فرعون بالسنين ونقص من الثمرات والسادس عشر
الطمسة على اموالهم حجارة من النخل والدقيق والاطعمة والدراهم والدنانير روي ان
عمر بن عبد العزيز سال محمد بن كعب عن قوله تعالى تسع ايات بينات فذكر محمد بن
كعب في جملة التسع حل عقدة اللسان والطمسة فقال عمر بن عبد العزيز
هكذا يجب ان يكون الفقيه ثم قال يا غلام اخرج ذلك الجراب فاخرجه فنفضه
فاذا بيض مكسور نصفين وجوز مكسور وفوم وعدس وحمص كلها حجارة
وقوله تعالى **فاسال** اي باعظم خلقنا **بني اسرائيل** يجوز ان يكون الخطاب
للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد غيره وقرا ابن كثير والكسائي بفتح السين ولا همزة بعدها
والباقون بسكون السين وهمزة مفتوحة بعدها ويجوز ان يكون الخطاب
له خاصة وامره بالسؤال لهم ليتبين له كذبهم مع قومهم اي فاسال بني اسرائيل
عامة الذين شبهوا قريشا عن سؤال الروح كما تقدم في بعض الروايات وعن
اهل الكهف وذي القرنين عن حديث موسى عليه السلام والمؤمنين منهم
كعبد الله بن سلام واصحابه **اذ** اي عن ذلك حين **جاءهم** اي جاء اباءهم فوقع
لهم من التكذيب بعد اظهار المعجزات الظاهرات ما وقع لك **فقال له** اي فذهب
الى فرعون فامره بارسالهم معه فابى فاظهر له الايات واحدة بعد اخرى فتبين
عن ذلك صدق ما يقتضيه الحال وهو ان قال **فرعون** عتوا واستكبارا
اني لاظنك يا موسى مسحورا اي مخدوعا مغلوبا على عقلك فكلما يبتدا عنك
فهو من اثار السحر وهذا كما قالت قريش للنبي صلى الله عليه وسلم ان تتبعون
الا رجلا مسحورا وقال في موضع اخر ساحرا وانهم ربما اطلقوا اسم المفعول
مريدين اسم الفاعل مبالغة لانه كالخبر عن الفعل وفي الامر بسؤال اليهود
تنبيه عن ضلالهم ولما لم يؤمن فرعون على تواتر تلك الايات وعظمها
فكانه قيل فما قال موسى عليه السلام فقيل **قال** لفرعون **لقد علمت** بفتح التاء قراءة
غير الكسائي وقراءة الكسائي بضمها على اخباره عن نفسه **ما انزل هؤلاء** اي الايات
الا رب السموات والارض اي خالقهما ومدبرهما حال كون هذه الايات **بصائر**
اي بينات يبصر بها صدقي واما السحر فانه لا يخفى انه خيال لا حقيقة له ولكنك
تعاند تنبيه قوله تعالى هؤلاء الكلام عليه من جهة الهمزتين كالكلام على
هؤلاء ان كنتم في البقرة وقد تقدم الكلام على ذلك ثم حكى الله تعالى ان موسى قال
لفرعون **واني** اي وان ظننتني يا فرعون مسحورا **لاظنك يا فرعون مثبورا**
اي ملعونا مطرودا ممنوعا من الخير فاسد العقل فعارضه موسى بذلك وشتان
بين الظنين فان ظن فرعون كذب صرف لعناده لرب العالمين لوضوح تلك الايات
للبصائر التي كشف عنها وبها الغطا في اوضح من الشمس وظن موسى عليه السلام

الاخوف الروم فان كنت رسول الله فالله يمنعك منهم فعسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم
على اميال من المدينة وقيل لذي الحليفة حتى يجتمع اليه اصحابه ويراه الناس عازما على
الخروج الى الشام فيدخلون في دين الله فنزلت هذه الاية فرجع وهذا قول الكلبي وعلى
هذا فالاية مدنية والمراد بالارض ارض المدينة وقال قتادة ومجاهد الارض ارض مكة
والاية مكية همّ المشركون ان يخرجوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة فكفهم الله
تعالى عنه حتى امره بالهجرة فخرج بنفسه قال ابن عادل تبعا للرازي وهذا اليق بالاية
لان ما قبلها خبر عن اهل مكة والسورة مكية وهذا اختيار الزجاج وكثر في التنزيل
ذكر الارض والمراد منها مكان مخصوص كقوله تعالى او ينفوا من الارض اي من مواضعهم
وقوله تعالى حكاية عن اخي يوسف فلن ابرح الارض يعني الارض التي كان قصدها لطلب
الميرة فان قيل قال تعالى وكاين من قرية هي اشد قوة من قريتك التي اخرجتك يعني
اهل مكة والمراد اهلها فذكر تعالى انهم اخرجوه وقال تعالى وان كادوا ليستفزونك   نك
من الارض ليخرجوك منها فكيف الجمع بينهما على القول الثاني اجيب بانهم هموا
باخراجه وهو صلى الله عليه وسلم ما خرج بسبب اخراجهم وانما خرج بامر الله
تعالى وحينئذ فلا تناقض **واذا** اي واذا اخرجوك **لا يلبثون** اي بعد   خلافك
اخراجك **الا** زمنا قليلا وقد كان كذلك على القول الثاني احيث فانهم
اهلكوا ببدر بعد هجرته وعلى القول الاول قتل منهم بني قريظة واجلي بني
النضير بقليل وقرا نافع وابن كثير وابو عمرو وشعبة بفتح الخاء وسكون اللام ولا الف   ن
بكسر الخاء وفتح اللام وبعدها الف قال الشاعر عفت الديار اي اندرست
بسبب خلافهم اي خلفهم . فكانها بسط الشواطب بينهن حصير الشواطب
النساء اللاتي يشققن الجريد ليعمل منه الحصير والشطب والشواطب
سعف النخل الاخضر يصف رسوم ديار الاحبة بعدهم وانها غير مكنوسة كما
بسط فيها سعف النخل ولما اخبره بذلك اعلمه انه سنة في جميع الرسل
بقوله تعالى **سنة** اي كسنة او سنناك سنة **من قد ارسلنا**
من قبلك اي في الازمان الماضية كلها **من رسلنا** انا نهلك كل امة
اخرجوا رسولهم من بين اظهرهم والسنة لله واضافها الى الرسل
لانها من اجلهم ويدل عليه قوله تعالى **ولا تجد لسنتنا تحويلا** اي تغييرا
ولما قرر تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم الالهيات والمعاد والنبوات
اردفها بذكر الامر بالطاعة واشرف الطاعة بعد الايمان الصلاة فلذلك
قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم **اقم الصلاة** بفعل جميع اركانها
وشرائطها بحيث تصير كانها قائمة بنفسها فانها لب العبادة لما فيها
من المناجاة والاعراض عن كل غير وفنا عن كل سوى بما اشرق من انوار
الحضرة التي اضمحل اليها كل فان وفي ذلك اشارة عظيمة الى ان الصلاة
اعظم ناصر على الاعداء الذين يريدون بمكرهم استفزاز اوليائه ولذلك

قريب الى الصحة واليقين من نظائر اماراته لان هذه الايات ظاهرة وهذه المعجزات
قاهرة ولا يرتاب العاقل انها من عند الله وفي انه تعالى اظهرها لاجل تصديقي
وانت منكرها فلا يحملك على هذا الانكار الا الحسد والعناد والغي والجهل
وحب الدنيا ومن كان كذلك كانت عاقبته الدمار والثبور **فاراد** اي فتسبب
عن هذا الذي هو موجب للايمان في العادة الا ان فرعون اراد **ان يستفزهم**
اي يستخف بموسى ومن آمن معه فيخرجهم فيكونوا كالماء اذا سال من فوقهم
فاخرج اذا سال **من الارض** بالنفي والقتل للتمكن منهم كما اراد هؤلاء ان
يستفزوك منها للتمكن مما هم عليه من الكفر والعناد ثم اخذ تعالى يحذرهم
سطواته بما فعل بمن كانوا اكثر منهم واشد بقوله تعالى **فاغرقناه** اي
فتسبب عن ذلك انا رددنا كيده في نحره كما قال تعالى ولا يحيق المكر السيئ
الا باهله اراد فرعون ان يخرج موسى من ارض مصر لتخلص له تلك البلاد
والله تعالى اهلك فرعون وجعل تلك الارض خالصة لموسى ولقومه فادخل
البحر حين ادخل بني اسرائيل فانجاهم واغرق فرعون **ومن معه جميعا** كما جرت
سنة الله تعالى فيمن عاند بعد ان راى الخوارق وكفر النعمة وافرط في
البغي بعد ظهور الحق فليحذر هؤلاء مثل ذلك ولا سيما ان اخرج رسولنا من
بين اظهرهم فني هذه الاية واما انها بشارة له صلى الله عليه وسلم فان
الله تعالى يسلك به في النصرة والتمكن سبيل اخوانه من الرسل عليهم
السلام **وقلنا من بعده** اي الاغراق **لبني اسرائيل** الذين كانوا تحت
يده اذل من العبيد لاقوامهم واحسانهم **اسكنوا الارض** اي التي اراد
ان يستفزكم منها **فاذا جاء** اي مجيئا محققا **وعد الاخرة** اي القيامة
بعد ان سكنتم الارض احياء ودفنتم فيها امواتا **جئنا** اي بما لنا من العظمة
والقدرة **بكم منها لفيفا** اي بعثناكم واياهم مختلطين لا حكم لاحد
على اخر ولو لا دفع لاحد عن اخر على غير الحالة التي كانت في الدنيا ثم ميزنا
بعضكم عن بعض ثم عطف سبحانه وتعالى على قوله تعالى ولقد صرفنا قوله
تعالى **وبالحق** اي من المعاني الثابتة التي لا مرية فيها لا بغيره **انزلناه** نحن
اي القران فهو ثابت لا يزول كما ان الباطل هو الزايل الذاهب وهذا القران
الكريم مشتمل على اشيا لا تزول وذلك لانه مشتمل على دلايل التوحيد
وصفات الجلال والاكرام وعلى تعظيم الملائكة وتقرير نبوة الانبياء
واثبات الحشر والنشر والقيامة وكل ذلك مما لا يقبل الزوال
ويشتمل ايضا على شريعة باقية لا يتطرق اليها النقض والتغيير والتحريف
وايضا هذا القران تكفل الله تعالى بحفظه عن تحريف الزايغين وتبديل
الجاهلين كما قال تعالى انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون **وبالحق** لا
بغيره **نزل** ووصل اليهم على لسانك بعد انزاله عليك كما انزلناه

حقا

كان صلى الله عليه وسلم اذا حزبه امر فزع الى الصلاة ثم عين له الاوقات بقوله
تعالى لدلوك الشمس وفي هذه اللام قولان احدهما انها بمعنى بعد اي بعد
دلوك الشمس ومثله قوله منهم • فلما تفرقنا كاني ومالكا • لطول اجتماع لم
نبت ليلة معا • والثاني انها على بابها لانها انما تجب بدلوك بزوال الشمس
والدلوك مصدر دلكت الشمس وفيه اقوال احدها انه الزوال وهو قول
ابن عباس وابن عمر وجابر واكثر التابعين ويدل لذلك قوله صلى الله عليه وسلم
اتاني جبريل لدلوك الشمس حين زالت فصلى بي الظهر وقول اهل اللغة معنى
الدلوك في كلام العرب الزوال ولذلك قيل للشمس اذا زالت نصف النهار
دالكة والثاني انه الغروب وهو قول ابن مسعود ونقله الواحدي في البسيط
عن علي رضي الله تعالى عنه وبه قال ابراهيم النخعي والضحاك والسدي
وهو اختيار الفراء وكما يقال للشمس اذا زالت نصف النهار دالكة يقال لها
ايضا اذا غربت دالكة لانها في الحالين زائلة قال الازهري والثالث انه
من الزوال الى الغروب وقال في القاموس دلكت الشمس غربت او اصفرت
او مالت او زالت عن كبد السماء فحينئذ في هذه اللفظة دلالة على الظهر
والعصر والمغرب من استعمال المشترك في معانيه اما في الظهر والمغرب
فواضح لما مر واما العصر فلان اول وقتها اول اخذ الشمس في الاصفرار
واذ دليل على ذلك انه تعالى غيا الاقامة لوقت العشا بقوله تعالى
الى غسق الليل اي ظلمته وهو وقت صلاة العشا الاخرة والغاية
ايضا هنا داخلة لما سيأتي وقد اجمعوا على ان المراد من قوله تعالى وقرآن
الفجر اي صلاة الصبح وهو منصوب قيل على الاغرا وعليك بقران
الفجر ورد بان اسما الافعال لا تعمل مضمرة وقال الفرا انه منصوب
بالعطف على الصلاة في قوله تعالى اقم الصلاة واقم قرآن الفجر وحينئذ
تدخل الصلوات الخمس في هذه الاية قال ابن عادل كالرازي وحمل
كلام الله على ما يكون اكثر فائدة اولى انتهى وسميت صلاة الصبح قرآنا لاشتمالها
عليه وان كانت بقية الصلوات ايضا مشتملة عليه لانه يطول فيها
في القراءة ما لا يطول في غيرها فالمقصود من قوله تعالى وقرآن الفجر
الحث على طول القراءة فيها اكثر من غيرها لان التخصيص بالذكر
يدل على كونه اكمل من غيره ولما كان القيام من المنام يشق على الناس اظهر
مظهرا غير مضمر لان المقام مقام تعظيم فقال ان قرآن الفجر كان مشهودا
اي تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار ينزل هولا ويصعد هولا فهو
في اخر ديوان الليل واول ديوان النهار قال الرازي ثم ان ملائكة الليل
اذا صعدت قالت يا رب انا تركنا عبادك يصلون لك وتقول ملائكة
النهار ربنا اتينا عبادك وهم يصلون فيقول الله تعالى لملائكته

تعاطيا محفوظا لم يطرا عليه طارئ فلبس فيه من تحريف ولا تبديل كما وقع
في كتاب اليهود الذين سالهم قومك ثم قال تعالى وما ارسلناك يا افضل الخلق
بما لنا من العظمة الا مبشرا للطيع ونذيرا للعاصي من العقاب فلا عليك الا
التبشير والانذار لا ما يقترحونه عليك من المعجزات فان قبلوا الدين الحق نفعوا
فيه والا فليس عليك من كفرهم بشي ثم ان الله تعالى اخبر ان الحكمة في انزال القران
مفرقا بقوله وقرآنا اي وفصلناه او وانزلناه قرانا فرقناه اي انزلناه
منجما في اوقات متطاولة قال سعيد بن جبير نزل القران كله ليلة القدر
من السما العليا الى السما السفلى ثم فصل في السنين التي نزل فيها قال قتادة
كان بين اوله واخره عشرون سنة وقيل ثلاث وعشرون سنة والمعنى
قطعناه اية اية وسورة سورة ولم ينزل جملة لتقراه على الناس اي عامة
على مكث اي على مهل وتؤدة ليفهموه ونزلناه من عندنا بما لنا من
العظمة تنزيلا بعضه اثر بعض مفرقا بحسب الوقائع لانه انفع في
نفعها واعون على الفهم لطول التامل لما نزل من نجومه في مدة ما بين النجمين
لغرابة ما فيه من المعاني ثم ان الله تعالى امد وهم على نبيه صلى الله عليه وسلم
بقوله تعالى قل لهولا المضلين امنوا به اي القران او لا تؤمنوا
فالايمان به غير محتاج اليكم ولا موقوف عليكم لانكم ان امنتم به كان الحظ
لكم والا لم يضر والا انفسكم فاختاروا ما تريدون فان ايمانكم بالقران
لا يزيده كمالا وامتناعكم منه لا يورثه نقصانا وقوله تعالى ان الذين اوتوا العلم
من قبله اي من قبل انزاله ممن امن به من بني اسرائيل تعليل له اي ان لم
تؤمنوا به وانتم اهل جاهلية وشرك فان خيرا منكم وافضل وهم العلما
الذين قروا الكتب وعلموا ما اوحي وما الشرايع قد امنوا به وصدقوه وثبت
عندهم انه النبي العربي الموعود في كتبهم اذا يتلى عليهم اي القران يخرون
للاذقان سجدا منهم زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وعبد الله بن
سلام قال الزجاج الذقن مجمع اللحيين ولا يبتدي الانسان بالخرور
الى السجود فاقرب الاشيا من وجهه الى الارض الذقن وقيل ان الاذقان كناية
عن اللحا والانسان اذا بالغ عند السجود في الخضوع والخشوع ربما
مسح لحيته على التراب فان اللحية يبالغ في تنظيفها فاذا عفرها الانسان
بالتراب في حوض المبالغة فقد اتى بغاية التعظيم وقيل ان الانسان اذا
استولى عليه خوف الله تعالى فربما سقط على الارض في معرض السجود
كالمغشي عليه فيكون حينئذ خروره على الذقن فقوله يخرون للاذقان
كناية عن غاية وله وخوفه وخشيته فان قيل لم قال يخرون للاذقان سجدا
ولم يقل على الاذقان يسجدون اجيب بان المقصود من هذا اللفظ
مسارعتهم الى ذلك حتى كانهم يسقطون فان قيل لم قال يخرون

للاذقان ولم يقل على الاذقان اجيب بان العرب تقول اذا خر الرجل فوقع على
لوجهه خر للذقن ثم بين ان ذلك ليس سقوطا اضطراريا من كل جهة بقوله تعالى
سجدا اي يفعلون ذلك لما يعلمون من حقيته بما اوتوا من العلم السالف وما في
قلوبهم من الاذعان والخشية للرحمن ويقولون اي على وجه التحديد للمستمر
سبحان ربنا تنزيها له على خلف الوعد ان اي انه كان اي كونا لا ينفك
وعد ربنا اي المحسن الينا بالايمان وما يتبعه من وجوه العرفان لمفعولا اي
دون خلف ولا ابطاء بان جميع ما وعد به في الكتب المنزلة وبشر به من بعثة من
بعثة محمد صلى الله عليه وسلم وانزل الفرقان عليه من الثواب والعقاب ولو
بقريش حيث كانوا يستهزءون بالوعيد في قولهم او تسقط السماء كما زعمت
علينا كسفا ونحوه مما معناه الطعن في قدرة الله القادر على كل شيء وقوله
تعالى ويخرون للاذقان كرره لاختلاف الحال والسبب فان الاول للشكر
عند انجاز الوعد والثاني لما اثر فيهم من مواعظ القران حال كونهم باكين من
خشية الله يبكون اي سماع القران ويزيدهم خشوعا اي خضوعا وتواضعا
ولين قلب ورطوبة عين ولما طالت المكالمات في المناظرة مع المشركين
ومنكري النبوات والجواب عن شبهاتهم اتبعها ببيان كيف يدعون الله ويثنون
وكيف يذكرونه في وقت الاشتغال باداء العبودية فقال تعالى لنبيه صلى الله
عليه وسلم قل لهم ادعوا الله او ادعوا الرحمن واختلف في سبب نزول هذه الاية
فقال ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات ليلة وهو ساجد
يا الله يا رحمن فسمعها ابو جهل وهم لا يعرفون الرحمن فقال ان محمدا ينهانا ان نعبد
الهين وهو يعبد الها اخر يقال له الرحمن فانزل الله تعالى هذه الاية اي ان
شئتم فقولوا يا الله وان شئتم فقولوا يا رحمن وعن عائشة رضي الله عنها قالت
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجهر بالدعاء يقول يا الله يا رحمن فسمعه اهل مكة
فاقبلوا عليه فانزل الله تعالى قل ادعوا الله او ادعوا الرحمن الاية وعن ابن
عباس ان ذكر الرحمن كان في القران قليلا في اول ما انزل وكان الذين قد اسلموا من
اليهود يسوءهم قلة ذلك لكثرته في التوراة كابن سلام وابن يامين وابن صوريا
وغيرهم فسالوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك فنزل قوله تعالى قل ادعوا
الله او ادعوا الرحمن فقال قريش ما بال محمد كان يدعو الها واحدا والان يدعو
الهين ما نعرف الرحمن الا صاحب اليمامة فنزل وهم بذكر الرحمن هم كافرون
ونزل ايضا قوله تعالى قالوا وما الرحمن وفرح مؤمنوا اهل الكتاب وهو قوله تعالى
والذين اتيناهم الكتاب يفرحون بما انزل اليك ومن الاحزاب اي مشركي
قريش من ينكر بعضه وعن ابن عباس سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم
عن قول الله تعالى قل ادعوا الله او ادعوا الرحمن الى اخر الاية فقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم هو امان من السرقة فان رجلا من المهاجرين تلاها

حين

حين اخذ مضجعه فدخل عليه سارق فجمع ما في البيت وحمله والرجل ليس بنائم حتى
انتهى الى الباب فوجد الباب مردودا فوضع الكاره ففعل ذلك ثلاث مرات
فضحك صاحب الدار فقال اني احصنت بيتي فان قيل اذا كان الرجل ادع زيدا او
عمروا توهم منه كون زيد مغايرا لعمرو فيوهم كون الله تعالى غير الرحمن وحينئذ
تتقوى شبهة ابي جهل لعنه الله اجيب بان الدعا ههنا بمعنى التسمية
لا بمعنى النداء والتسمية تتعدى الى مفعولين يقال دعوت زيدا ثم يترك
احدهما استغناء عنه فيقال دعوت زيدا والله والرحمن فالمراد بهما الاسم
لا المسمى واو للتخيير فمعنى الاية ادعوا باسم الله او ادعوا باسم الرحمن
اي اذكروه بهذا الاسم او اذكروه بذلك الاسم فقوله ادعوا الله يثنيه
على ما الزم في كرمه بحكم الوعد من اضافة الرحمة والكرم وايضا تخصيص
هذين الاسمين بالذكر يدل على انهما اشرف من سائر الاسماء وتقديم اسم الله
على اسم الرحمن يدل على قولنا الله اعظم الاسماء وتقدم الكلام على ذلك في
تفسير بسم الله الرحمن الرحيم والتنوين في قوله تعالى ايا ما تدعوا عوضا
من المضاف اليه وما صلة للابهام المؤكد والمعنى ايا ما تدعوا فهو حسن
فوضع موضعه قوله تعالى فله الاسماء الحسنى لانه اذا حسنت اسماؤه حسن
هذان الاسمان لانهما منها ومعنى كونها احسن الاسماء انها مستقلة بمعاني
التمجيد والتقديس والتعظيم وقد قدمنا ذكر الاسماء الحسنى في الاعراف عند
قوله تعالى ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها وفي بعض الاحاديث الواردة في
فضلها فليراجع ووقف حمزة والكسائي على الالف بعد الياء ووقف الباقون
على الالف بعد الميم واختلف في تفسير ونزول قوله تعالى ولا تجهر
بصلاتك فروى ابن عباس انه صلى الله عليه وسلم كان يرفع صوته بالقراءة
فاذا سمعه المشركون سبوه وسبوا من جاء به فاوحى الله تعالى اليه ولا تجهر
بصلاتك فيسمعه المشركون فيسبون الله عدوا بغير علم ولا تخافت بها
فلا تسمع اصحابك ولا تخافت بها وروي انه صلى الله عليه وسلم طاف
بالليل على دور الصحابة فكان ابو بكر يخفي صوته بالقراءة في صلاته وكان عمر يرفع
صوته فلما جاء النهار وجاء ابو بكر وعمر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
لم تخفي صوتك فقال اناجي ربي وقد علم حاجتي وقال لعمر لم ترفع صوتك
فقال ازجر الشيطان واوقظ الوسنان فامر النبي صلى الله عليه وسلم ابا بكر
ان يرفع صوته قليلا وعمر ان يخفض صوته قليلا وقيل معناه ولا تجهر بصلاتك
كلها ولا تخافت بها كلها وابتغ بين ذلك سبيلا بان تجهر بصلاة الليل ولا
تخافت بصلاة النهار وقيل ان المراد بالصلاة الدعاء وهذا قول عائشة
رضي الله عنها وابي هريرة ومجاهد قالت عائشة هي الدعاء وروي هذا مرفوعا
ان النبي صلى الله عليه وسلم قال في هذه الاية انما ذلك في الدعاء والمسئلة

ولا تخافت بها ع

وابتغ بين ذلك سبيلا

بك

عا

قال عبد الله بن شداد كان اعراب من بني تميم اذا سلم النبي صلى الله عليه وسلم قالوا
اللهم ارزقنا مالا وولدا يجهرون فانزل الله هذه الاية والمخافتة خفض الصوت
والسكون يقال صوت خفت اي خفيض ويقال للرجل اذا مات قد خفت اي
انقطع كلامه وخفت الزرع اذا ذبل والمستحب من ذلك التوسط وهو ان يسمع
نفسه كما روي عن ابن مسعود انه قال لم يخافت من لم يسمع اذنيه والمخافت لم يسمع
اذنيه وقد مدح الله تعالى المومنين بقوله تعالى والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم
يقتروا وكان بين ذلك قواما وامر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال
عز من قايل ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط وبعضهم
قال الاية منسوخة بقوله تعالى ادعوا ربكم تضرعا وخفية قال الرازي
وهو بعيد ولما امر الله تعالى ان لا يذكر ولا ينادي الا باسمائه الحسنى علم كيفية
التحميد بقوله تعالى **وقل الحمد لله** اي الملك الاعظم ثم ذكر سبحانه وتعالى
من صفات التنزيه والجلال وهي السلوب ثلاثة انواع الاول قوله **الذي
لم يتخذ ولدا** اي لكونه محيطا بالصفات الحسنى **ولله** والسبب فيه وجوه
الاول ان الولد هو الشي المتولد من جزء من اجزاء ذلك الشي فكل من له ولد
فهو مركب من الاجزاء والمركب محدث والمحدث محتاج والمحتاج لا يقدر على كمال
الانعام فلا يستحق كمال الحمد الثاني اذ كل من له ولد فانه يمسك جميع النعم
لولده فاذا لم يكن له ولد افاض تلك النعم على عبيده الثالث ان الولد هو الذي
يقوم مقام الوالد بعد انقضائه وفنايه فلو كان له ولد لكان منقضيا
ومن كان كذلك لا يقدر كمال الانعام في كل الاوقات فوجب ان لا يستحق الحمد
على الاطلاق النوع الثاني من الصفات السلبية قوله تعالى **ولم يكن له** بوجه
من الوجوه **شريك في الملك** والسبب في اعتبار هذه الصفة انه لو كان له
شريك يعرف ح ان هذه النعم والمنافع حصلت منه او من شريكه فلا يعرف
كونه مستحقا للحمد والشكر النوع الثالث قوله تعالى **ولم يكن له ولي من الذل** اي
ولم يواليه من اجل مذلة به يدفعها بمده لانه والسبب في اعتباره انه لو جاز عليه ولي
يلي امره كان مستوجبا لاعظم انواع الحمد والشكر ومستحقا لاقسام الشكر
فنفى عنه ان يكون له ما يشاركه من جنسه ومن غير جنسه اختيارا واضطرارا
وما يعاونه وما يقويه ورتب الحمد لله للدلالة على انه الذي يستحق جنس
الحمد لانه كامل الذات المنفرد بالايجاد المنعم على الاطلاق وما عداه ناقص مملوك
نعمة او منعم عليه ولذلك عطف عليه قوله تعالى **وكبره تكبيرا** اي وعظمه
تعظيما على نفي ايجاد الولد والشريك والذل وكل ما لا يليق به ورتب الحمد
على ذلك للدلالة على انه المستحق لجميع المحامد لكمال ذاته وتفرده في صفاته روى
الامام احمد في مسنده عن معاذ الجهني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
انه كان يقول اية العز الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك

الى اخر السورة

الى اخر السورة وعن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اول من
يدعى الى الجنة يوم القيمة الذين يحمدونه في السرا والضرا وعن عبد الله بن عمر قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحمد راس الشكر ما شكر الله عبد لا يحمده
وعن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان افضل الدعا
الحمد لله وافضل الذكر لا اله الا الله وعن سمرة بن جندب قال قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم احب الكلام الى الله اربع لا اله الا الله والله اكبر وسبحان الله والحمد لله
لا يضرك بايهن بدات اخرجه مسلم روي ان قول العبد الله اكبر خير له من الدنيا
وما فيها وعن عمرو بن شعيب قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا افصح الغلام
من بني عبد المطلب علمه وقل الحمد لله الاية يقال افصح الصبي في منطقه فهم ما
يقوله وعن عبد الله بن كعب قال افتتحت التورية بفاتحة الانعام وختمت
بخاتمة هذه السورة واما ما رواه البيضاوي تبعا للزمخشري وتبعهما ابن عادل
ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قرا سورة بني اسرايل فرق قلبه عند ذكر
الوالدين كان له قنطار في الجنة والقنطار الف اوقية ومايتا اوقية فحديث موضوع

سورة الكهف مكية

الا واصبر نفسك الاية وهي ماية وعشر ايات والف وخمسماية وسبع وسبعون كلمة
وعدد حروفها ستة الاف وثلثماية وستون حرفا **بسم الله** الذي لا كفو له
ولا شريك **الرحمن** الذي اقام عباده على واضح الطرق بانزال هذا الكتاب ثم
الرحيم بتفصيل من اختصه بالصواب وهو قوله تعالى **الحمد لله** تقدم الكلام
عليه مستقصى في اول الفاتحة **الذي انزل على عبده** اي القران رتب تعالى استحقاق
الحمد على انزاله تنبيها على انه اعظم نعمايه وخص رسوله صلى الله عليه وسلم بالذكر لان
انزال القران نعمة عليه على الخصوص وعلى ساير الناس على العموم اما كونه نعمة عليه فلان
الله تعالى اطلعه بواسطة هذا الكتاب الكريم على اسرار علوم التوحيد والتنزيه وصفات ت
الجلال والاكرام واسرار احوال الملايكة والانبياء واحوال القضاء والقدر وتعلق
احوال العالم السفلي باحوال العالم العلوي وتعلق احوال عالم الاخرة بعالم الدنيا
وكيفية نزول القضا من عالم الغيب وكيفية ارتباط عالم الجسمانيات بعالم الروحا نيات
ولا شك ان ذلك من اعظم النعم واما كون هذا الكتاب نعمة علينا فانه مشتمل
على التكاليف والاحكام والوعد والوعيد والعقاب وبالجملة فهو كتاب كامل
في اقصى الدرجات فكل احد ينتفع به بمقدار طاقته وفهمه فوجب عليه صلى الله
عليه وسلم وعلى امته ان يحمدوه على هذه النعم الجزيلة وقال تعالى على عبده لما في
كل من الوصف بالعبودية والاضافة اليه سبحانه وتعالى من الاعلام بتشريفه
واشارة الى انه الذي اسري به الى حضرات مجده لربه من اياته ثم انه تعالى
وصف الكتاب بوصفين الاول بقوله تعالى **ولم يجعل له** اي فيه **عوجا** اي
اختلافا وتناقضا كما قال تعالى ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا

والجملة حال من الكتاب لوصف الثاني قوله تعالى قيما قال ابن عباس يريد مستقيما
اي معتدلا لا افراط فيه ولا تفريط قال الرازي وهذا عندي مشكل لانه لا معنى
لنفي الاعوجاج الا حصول الاستقامة فتفسير القيم بالمستقيم يوجب التكرار
بل الحق ان المراد من كونه قيما كونه سببا لهداية الخلق وانه يجري مجرى من يكون
قيما للاطفال فالارواح البشرية كالاطفال والقرآن كالقيم المشفق القيم
بمصالحهم وقال قبل ذلك ان الشيء يجب ان يكون كاملا في ذاته
ثم يكون مكملا لغيره ويجب ان يكون تاما في ذاته ثم يكون فوق التمام بان يفيض
عنه كماله لغيره فقوله تعالى ولم يجعل له عوجا اشارة الى كونه كاملا في
ذاته وقوله قيما اشارة الى كونه مكملا لغيره ونظيره قوله تعالى في سورة البقرة
في صفة الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين فقوله لا ريب فيه اشارة الى
كونه في نفسه بالغا في الصحة وعدم الاخلال الى حيث يجب على العاقل
ان لا يرتاب فيه وقوله هدى اشارة الى كونه سببا لهداية الخلق ولكمال
حالهم فقوله تعالى ولم يجعل له عوجا قائم مقام قوله تعالى لا ريب فيه
وقوله تعالى قيما قائم مقام قوله هدى للمتقين واختلف النحويون
في نصب قوله تعالى قيما على اوجه الاول قال في الكشاف لا يجوز جعل قيما حالا
من الكتاب لان قوله تعالى ولم يجعل له عوجا معطوف على قوله تعالى انزل
فهو داخل في حيز الصلة وانه لا يجوز قال ولما ابطل هذا وجب ان ينتصب
بمضمر والتقدير ولم يجعل له عوجا جعله قيما لانه تعالى اذا نفى عنه
العوج فقد اثبت له الاستقامة وفي احدهما غنى عن الآخر قلت فائدته
التاكيد فرب مستقيم مشهود له بالاستقامة فلا يخلو من ادنى عوج
عند السبر والتصفح الوجه الثاني انه حال ثانية والجملة المنفية
قبله حال ايضا كما مر وتعدد الحال الذي هو حال واحد جائز والتقدير انزله
غير جاعل له عوجا قيما الوجه الثالث انه حال ايضا ولكنه بدل من الجملة
قبله لانها حال وابدال المفرد من الجملة اذا كانت بتقدير مفرد جائز ولما ذكر
تعالى انه انزل على عبده هذا الكتاب الموصوف بما ذكر اردفه ببيان ما لاجله
انزله بقوله تعالى لينذر اي يخوف الكتاب الكافرين باسا اي عذابا
شديدا من لدنه اي صادرا من عنده وقرا شعبة باسكان الدال وكسر
النون والهاء وصلة الهاء بياء والباقون بضم الدال وسكون النون وضم
الهاء وابن كثير على اصله بصلة الهاء في الوصل بواو ويبشر المؤمنين اي
الراسخين في هذا الوصف وقرا حمزة والكسائي بفتح الياء التحتية وسكون
الباء الموحدة وضم الشين مخففة والباقون بضم الياء التحتية وفتح الباء الموحدة
وكسر الشين مشددة الذين يعملون الصالحات وهي ما امر به خالصا له وذلك
الشان مفتاح الايمان ان لهم اي بسبب اعمالهم اجرا حسنا هو

الجنة حال كونهم ماكثين فيه ابدا بلا انقطاع اصلا فان الابد زمان لا آخر له وقوله
تعالى وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا معطوف على قوله تعالى لينذر باسا شديدا من
لدنه والمعطوف يجب كونه مغايرا للمعطوف عليه فالاول عام في حق كل كافر والثاني
خاص بمن اثبت لله ولدا وعادة القرآن جارية بانه اذا ذكر قضية كلية عطف عليها
بعض جزئياتها تنبيها على اعظم جزئيات ذلك الكلي كقوله تعالى وملائكته وكتبه
ورسله وجبريل وميكائيل وكذا هاهنا هذا العطف يدل على ان اقبح انواع الكفر
اثبات الولد لله تعالى تنبيه الذين اثبتوا لله ولدا ثلاث طوائف الاولى
طوائف العرب الذين قالوا الملائكة بنات الله الثانية النصارى الذين قالوا المسيح
ابن الله الثالثة اليهود الذين قالوا عزير ابن الله ثم انه تعالى انكر على القائلين
ذلك من وجهين الاول قوله تعالى ما لهم به من علم اي القول ولا لآبائهم اي اصلا
لانه مما لا يمكن ان يتعلق العلم به لانه لا وجود له ولا يمكن وجوده ثم قرر تعالى
هذا المعنى واكده بقوله كبرت كلمة الذين يفرطون بقولهم في الدين حتى
في هذا الذي لا يتخيله عاقل ولو اخطأ في تصرف دنيوي لم يتبعوهم فيه
فان قيل اتخاذ الله ولدا محال في نفسه فكيف قيل ما لهم به من علم اجيب
بان انتفاء العلم بالشيء قد يكون للجهل بالطريق الموصل اليه وقد لا يكون لانه
في نفسه محال لا يمكن تعلق العلم به ونظيره قوله تعالى ومن يدع مع الله الها آخر
لا برهان له به الوجه الثاني تخرج من اي مقالتهم افواههم اي ما اكبرها
من كلمة وصور فظاظة اجترائهم على النطق بها بقوله تعالى
اي لم يكفهم حضورها في انفسهم وترددها في صدورهم حتى تلفظوا بها وكان
صدورهم بها على وجه التكرير بما يشير اليه التعبير بالمضارع تنبيه
سميت هذه كلمة كما يسمون القصيدة كلمة ثم بين تعالى ما افهمه الكلام من
انه كما انهم لا علم لهم بذلك لا علم لاحد به اصلا لانه لا وجود له فقال تعالى
ان اي ما يقولون الا كذبا اي قولا لا حقيقة له بوجه من الوجوه ولما كان
صلى الله عليه وسلم شديد الحرص على ايمان قومه شفقة عليهم وغيرة
على المقام الالهي الذي ملأ قلبه تعظيما خفض عليه سبحانه وتعالى
بقوله سبحانه وتعالى فلعلك باخع اي قاتل نفسك من شدة الغم
والوجد واشار تعالى الى شدة نفرتهم وسرعة مفارقتهم وعظيم
مباعدتهم بقوله تعالى على آثارهم اي حين تولوا عن التوحيد وعن
اجابتك ان لم يؤمنوا بهذا الحديث اي القرآن المتجدد تنزيله على حسب
التدريج اسفا منك على ذلك والاسف شدة الحزن والغضب فان
قيل ذلك يدل على حدوث القرآن اجيب بانه محمول على الالفاظ وهي
حادثة ثم بين سبحانه وتعالى علة ارشاده الى الاعراض عنهم بغير ما يقدر
عليه من التبليغ للبشارة والنذارة بانهم لم يخرجوا عن مراده تعالى

وان الايمان لا يقدر على ادخاله قلوبهم غيره بقوله تعالى **انا** اي انا لا نفعل ذلك
لانا **جعلنا ما على الارض** من الحيوان والنبات والشجر والانهار والمعادن وغير
ذلك وقال بعضهم بل المراد الناس فهم زينة الارض وبالجملة فليس
في الارض الا المواليد الثلاثة وهي المعادن والنبات والحيوان الشامل للشجر
والحيوان واشرف انواع الحيوان الانسان **زينة لها** اي للارض المراد
لها اي زينة لاهلها قاله الرازي ولا يمتنع ان يكون ما يحسن به الارض
زينة لها كما جعل الله السماء مزينة بالكواكب ولما اخبر تعالى بزينتها اخبر
تعالى بعلته بقوله تعالى **لنبلوهم** اي نعاملهم معاملة المختبر **ايهم احسن**
عملا باخلاص الخدمة لربه فيصير ما كنا نعلمه منهم ظاهرا فان الله تعالى
يعلم السر واخفى ليقام به عليهم الحجة على ما يتعارفونه بينهم فان من
اظهر موافقة الامر بما اتاه منها استحق العقوبة فكانه تعالى يقول يا محمد
اني خلقت الارض وزينتها واخرجت منها انواع المصالح والمقصود منها
من خلقها بما فيها من المنافع ابتلاء الخلق بهذه التكاليف ثم انهم يكفرون
ويتمردون ومع ذلك فلا اقطع عنهم موارد هذه النعم فانت ايضا يا محمد لا ينبغي
ان تنتهي في الحزن بسبب كفرهم الى ان تترك الاشتغال بدعوتهم الى
الدين الحق ثم انه تعالى لما بين انه انما زين الارض لاجل الامتحان والابتلاء
لا لاجل ان يبقى الانسان فيها متنعما بها ابدا الزهد فيها بقوله تعالى
وانا لجاعلون ما عليها من جميع تلك الزينة لا يصعب علينا شيء منه **صعيدا**
اي فتاتا **جرزا** اي يابسا لا ينبت ونظيره قوله تعالى كل من عليها فان
وقوله تعالى فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا امتا وتخصيص
الاهلاك بما على الارض يوهم بقاء الارض الا ان سائر الايات على ان الارض
لا تبقى كما قال تعالى يوم تبدل الارض غير الارض ولما ان القوم تعجبوا
في قصة اصحاب الكهف وسالوها النبي صلى الله عليه وسلم على سبيل الامتحان
قال تعالى **ام حسبت** اي ظننت ان اصحاب الكهف على ما لك من العقل
الرزين والراي الرصين **ان اصحاب الكهف والرقيم كانوا من اياتنا عجبا** على ما زعم من
تهويل السائلين من الكفرة من اليهود والعرب والواقع انهم كانوا من
العجايب ليس بعجب بالنسبة الى كثرة اياتنا فان من كان قادرا على
تخليق السموات والارض كيف يستبعد من قدرته وحفظه ورحمته
حفظ طايفة مدة ثلثماية سنة واكثر في النوم والكهف الغار الواسع
في الجبل واختلف في الرقيم فقيل لواسمهم كلهم قال امية بن
ابي الصلت وليس بها الا الرقيم مجاورا وصيدهم وهو كبير الصاد منعو
اي فناوهم والقوم في الكهف همدا اي نوم وقيل لوح من رصاص رقمت
فيه اسماوهم وقصصهم جعل على باب الكهف وهذا اظهر الاقاويل قال البغوي

وقيل

وقيل ان الناس رقموا حديثهم نقرا في الجبل وقيل هو الوادي الذي فيه الكهف
وقيل الجبل وقيل قريتهم وقيل اصحاب الرقيم قوم اخرون غير اصحاب الكهف كانوا
ثلاثة يطلبون الكلا او نحوه لاهلهم فاخذهم المطر فاووا الى الكهف فانحطت صخرة
وسدت عليهم بابه فقال احدهم اذكروا ايكم عمل حسنة لعل الله يرحمنا
ببركته فقال احدهم استعملت اجراء ذات يوم فجاء رجل منهم وسط النهار وعمل
في بقيته مثل عملهم فاعطيته مثل اجرهم فغضب احدهم وترك اجره فوضعته
في جانب البيت ثم مر بي بقر فاشتريت فصيلة والفصيلة ولد الناقة اذا
انفصل عن امه فبلغت ما شاء الله فرجع الي بعد حين شيخا ضعيفا لا اعرفه
وقال لي ان لي عندك حقا وذكره حتى عرفته فدفعتها اليه جميعا اللهم ان
كنت فعلت ذلك لوجهك فافرج عنا فانصدع عنا الجبل حتى روا الضوء
والصدع الشق والصداع وجع الراس وقال اخر كان في فضل واصاب
الناس شدة فجاءتني امراة تطلب مني معروفا فقلت والله ما هو دون
نفسك فابت وعادت ثم رجعت ثلاثا ثم ذكرت لزوجها فقال اجيبي
له واغيثي عيالك فاتت وسلمت الي نفسها فلما كشفتها وهممت بها ارتعدت ت
فقلت لها ما لك فقالت اخاف الله تعالى فقلت لها خفتيه في الشدة ولم
اخفه في الرخاء فتركتها واعطيتها ملتمسها اللهم ان كنت فعلته لوجهك
فافرج عنا فانصدع حتى تعارفوا وقال الثالث كان لي ابوان هرمان
وكان لي غنم وكنت اطعمهما واسقيهما ثم ارجع الى غنمي فحبسني ذات يوم
غيم فلم ارجع حتى امسيت فاتيت اهلي واخذت محلبي فحلبت فيه
ومضيت اليهما فوجدتهما نايمين فشق علي ان اوقظهما فوقفت جالسا
محلبي على يدي حتى ايقظهما الصبح فسقيتهما اللهم ان كنت فعلت ذلك
لوجهك الكريم فافرج عنا ففرج الله عنهم فخرجوا وقد رفع ذلك النعمان
ابن بشير وقد قدمنا سبب نزول قصة اصحاب الكهف عند قوله تعالى
ويسالونك عن الروح وذكر محمد بن اسحاق سبب نزول هذه القصة
مشروحا فقال كان النضر بن الحارث من شياطين قريش وكان يوذي
رسول الله صلى الله عليه وسلم وينصب له العداوة وكان قدم الحيرة
وتعلم بها احاديث رستم واسفنديار وكان رسول الله صلى الله عليه
وسلم اذا جلس مجلسا ذكر فيه الله تعالى وحذر قومه ما اصاب من كان
قبلهم من الامم وكان النضر يخلفه في مجلسه اذا قام وقال انا والله
يا معشر قريش احسن حديثا منه فهلموا فانا احدثكم باحسن من
حديثه ثم يحدثهم عن ملوك فارس ثم قال ان قريشا بعثوه وبعثوا معه
عقبة بن معيط الى احبار اليهود بالمدينة وقالوا لهما سلاهم عن محمد
وصفته فانهم اهل الكتاب الاول وعندهم من العلم ما ليس عندنا

من علم الانبيا لخبر جاحتى قدما المدينة فسالا احبار اليهود عن احوال محمد فقال
اليهود سلوه عن ثلاثة عن فتية ذهبوا في الدهر الاول فانه حديثهم عجيب وعن
رجل طواف قد بلغ مشارق الارض ومغاربها وسلوه عن الروح وما هي فان
اخبركم فهو نبي والا فهو متقول فلما قدم النضر وصاحبه مكة قالا قد جيناكم بفصل
ما بيننا وبين محمد واخبراهم بما قالت اليهود فجاوا رسول الله صلى الله عليه
وسلم وسالوه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اخبركم بما سالتم عنه
غدا ولم يستثن فانصرفوا عنه فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم
فيما يذكرون خمسة عشر ليلة لم ينزل عليه وحي وشق عليه ذلك ثم
جاء جبريل عليه السلام من عند الله بسورة اهل الكهف وفيها
معاتبة الله اياه على جزنه عليهم وفيها خبر اوليك الفتية وخبر
الرجل الطواف ثم بدا بالفتية فقال اذ اي واذكر اذ اوى الفتية
وهم اصحاب الكهف المسول عنهم جمع فتى وهو الشاب الكامل والشباب
اقبل الى الحق واهدى للسبيل من الشيوخ الى الكهف خايفين على
ايمانهم من قومهم الكفار واختلفوا في سبب مصيرهم الى الكهف فقال محمد
ابن اسحاق بن يسار مرج اهل الانجيل وكثرت فيهم الخطايا وطغت
فيهم الملوك حتى عبدوا الاصنام وذبحوا للطواغيت وفيهم بقايا
على دين المسيح متمسكين بعبادة الله وتوحيده وكان ممن فعل ذلك من
ملوكهم ملك من الروم يقال له دقيانوس عبد الاصنام وذبح للطواغيت
وقتل من خالفه وكان ينزل قرى الروم فلا يترك في قرية نزلها احد
الا فتنه عن دينه حتى يعبد الاصنام او يقتله ثم نزل مدينة اهل
الكهف وهي افسوس فلما نزل بها كبر على اهل الايمان فاستخفوا منه وهربوا
في كل وجه واتخذ شرطا من الكفار وامرهم ان يتبعوهم في اماكنهم ويخرجوهم
اليه فيخيرهم بين القتل وبين عبادة الاوثان والذبح للطواغيت فمنهم
من يرغب في الحياة ومنهم من يابى ان يعبد غير الله تعالى فيقتل فلما راى
ذلك اهل الشدة في الايمان جعلوا يسلمون انفسهم للعذاب والقتل
فيقتلون ويقطعون ثم جعل ما قطع من اجسامهم على سور المدينة من
نواحيها وعلى كل باب من ابوابها حتى عظمت الفتنة فلما راى ذلك
الفتية حزنوا حزنا شديدا واشتغلوا بالصلاة والصيام والدعاء
والتسبيح وكانوا من اشراف المدينة ومن اشراف الروم وكانوا ثمانية نفر
بكوا وتضرعوا الى الله تعالى وجعلوا يقولون ربنا اكشف عن عبادك المومنين
هذه الفتنة وارفع عنهم هذا البلا حتى يعلنوا عبادتك فبينما هم على ذلك
وقد دخلوا مصلى لهم ادركهم الشرط فوجدوهم سجودا على وجوههم يبكون
ويتضرعون الى الله تعالى فقالوا لهم ما خلفكم عن امر الملك انطلقوا اليه

ثم خرجوا فرفعوا امرهم الى دقيانوس فقالوا تجمع الناس للذبح لالهتك وهولا فتية
من اهل بيتك يستهزون بك ويعصون امرك فلما سمع ذلك بعث اليهم
فاتي بهم تفيض اعينهم من الدمع معفرة وجوههم في التراب فقال لهم ما منعكم
ان تشهدوا الذبح لالهتنا التي نعبد في الارض وتجعلوا انفسكم اسوة بسو
اهل المدينة مدينتكم اختاروا اما ان تذبحوا لالهتنا واما ان اقتلكم فقال
له كبيرهم واسمه مكسلمينا ان لنا الها ملا السموات والارض عظمته
لن ندعو من دونه الها ابدا له الحمد والتكبير والتسبيح من انفسنا خالصا ابدا
اياه نعبد واياه نسال النجاة والخير واما الطواغيت فلن نعبدها ابدا
اصنع ما بدا لك وقال اصحابه مثل ما قال فلما قالوا ذلك امر الملك بنزع لبا بهم
وحلية كانت عليهم من الذهب والفضة وقال ساافرغ لكم وانجز لكم ما
وعدتكم من العقوبة وما يمنعني ان اعجل لكم ذلك الا اني اراكم شبابا حديثة
اسنانكم ولا احب ان اهلككم حتى اجعل لكم اجلا تذكرون فيه وترجعون
الى عقولكم ثم امر بهم فاخرجوا من عنده وانطلق الى مدينة اخرى قريبة
منهم لبعض اموره فلما راى الفتية خروجه بادروا قدومه وخافوا اذا قدم
مدينتهم ان يذكرهم فايتمروا بينهم ان ياخذ كل واحد نفقة من بيت ابيه
فيتصدقوا منها ويتزودوا بما بقي ثم ينطلقوا الى كهف قريب من المدينة
فيمكثون فيه ويعبدون الله حتى اذا جاء دقيانوس اتوه فقاموا بين يديه
فيصنع بهم ما يشاء فلما قال ذلك بعضهم لبعض عمد كل فتى منهم الى بيت
ابيه فاخذ نفقة فتصدق منها وانطلقوا بما بقي معهم واتبعهم كلب
كان لهم حتى اتوا ذلك الكهف فلبثوا فيه وقال كعب الاحبار مروا بكلب فتبعهم
فطردوه فعاد ففعلوا ذلك مرارا فقال لهم الكلب ما تريدون مني لا تخشوا
جانبي انا احب احباب الله عز وجل فناموا حتى احرسكم وقال ابن عباس
هربوا ليلا من دقيانوس وكانوا سبعة فمروا براع معه كلب فتبعهم على
دينهم وتبعه كلبه فخرجوا من البلد الى الكهف وهو قريب من البلد قال
ابن اسحاق فلبثوا فيه ليس لهم عمل غير الصلاة والصيام والتسبيح والتحميد
ابتغاء وجه الله تعالى وجعلوا نفقتهم الى فتى منهم يقال له تمليخا فكان يبتاع
لهم ارزاقهم من المدينة سرا وكان افضلهم من اجملهم واجلدهم وكان اذا دخل
المدينة يضع ثيابا كانت عليه حسانا وياخذ ثيابا كثياب المساكين الذين
يستطعمون فيها ثم ياخذ ورقه وينطلق الى المدينة فيشتري لهم طعاما
وشرابا ويتجسس لهم الخبر هل ذكر هو واصحابه بشي ثم يرجع الى اصحابه
فلبثوا في ذلك ما شاء الله ان يلبثوا ثم قدم دقيانوس المدينة وامر عظماء
اهلها ان يذبحوا للطواغيت ففزع من ذلك اهل الايمان وكان تمليخا يشتري
لاصحابه طعامهم فرجع الى اصحابه وهو يبكي ومعه طعام قليل واخبرهم

ان الجبار قد دخل المدينة وانهم قد ذكروا والتمسوا من عظماء المدينة ففزعوا ووقعوا سجودا يتضرعون ويدعون ويتعوذون من الفتنة ثم ان تمليخا قال لهم يا اخوتاه ارفعوا رؤوسكم واطعموا وتوكلوا على ربكم فرفعوا رؤوسهم وايديهم واعينهم تفيض من الدمع فطعموا وذلك مع غروب الشمس ثم جعلوا يتحدثون ويتدارسون ويذكر بعضهم بعضا فبيناهم كذلك اذ ضرب الله على اذانهم في الكهف وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف فاصابهم ما اصابهم وهم مؤمنون موقنون ونفقتهم عند رؤوسهم فلما كان من الغد تفقدهم دقيانوس فالتمسهم فلم يجدهم فقال لبعض عظمائهم وعظماء المدينة لقد ساءني شان هؤلاء الفتية الذين ذهبوا الغد كانوا ظنوا ان بي غضبا عليهم لجهلهم ما جهلوا من امري ما كنت لاجهل عليهم اذ هم تابوا وعبدوا الهتي فقال عظماء المدينة ما انت بحقيق ان ترحم قوما فجرة مردة عصاة فقد كنت اجلت لهم اجلا ولو شاؤوا لرجعوا في ذلك الاجل ولكنهم لم يتوبوا فلما قالوا ذلك غضب غضبا شديدا ثم ارسل الى ابائهم فاتي بهم فسالهم عنهم وقال اخبروني عن ابنائكم المردة الذين عصوني فقالوا له اما نحن فلم نعصك فلم تقتلنا بقوم مردة قد ذهبوا باموالنا واهلكوها في اسواق المدينة ثم انطلقوا الى جبل يدعى بنجلوس فلما قالوا ذلك خلى سبيلهم وجعل ما يدري ما يصنع بهم بالفتية فالقى الله في قلبه ان يسد باب الكهف عليهم واراد الله تعالى ان يكرمهم بذلك ويجعلهم اية لامة تستخلف من بعدهم وان يبين لهم ان الساعة اتية لا ريب فيها وان الله يبعث من في القبور فامر دقيانوس بالكهف ان يسد عليهم وقال دعوهم كما هم في الكهف يموتون جوعا وعطشا ويكون كهفهم الذي اختاروه قبرا لهم وهو يظن انهم ايقاظ يعلمون ما يصنع بهم وقد توفى الله ارواحهم وفاة النوم وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف قد غشيه ما غشيهم يتقلبون ذات اليمين وذات الشمال ثم ان رجلين مؤمنين في بيت الملك دقيانوس يكتمان ايمانهما ائتمرا ان يكتبا شانهما شان الفتية وخبرهم في لوحين من رصاص ويجعلاهما في تابوت من نحاس ويجعلا التابوت في البنيان وقالا لعل الله يظهر على هؤلاء الفتية قوما مؤمنين قبل يوم القيامة فيعلم من يفتح عليهم خبرهم حين يقرا الكتاب ففعلوا ذلك وبنيا عليه وبقي دقيانوس ما بقي ثم مات وقومه وقرون بعده كثيرة وقد حكى الله تعالى عنهم انهم لما اووا الى الكهف **فقالوا** اي عقب استقرارهم فيه **ربنا اتنا من لدنك** اي من عندك **رحمة** توجب لنا المغفرة والرزق والامن من عدوك **وهيئ لنا من امرنا** اي من الامر الذي نحن عليه من مفارقة الكفار **رشدا** الرشد والرشد والرشاد نقيض الضلال وفي تفسير اللفظ وجهان الاول التقدير هيئ لنا

امرنا

امرنا رشدا اي نصير بسببه راشدين مهتدين الثاني اجعل امرنا رشدا كله كقولك رايت رشدا ولما اجابهم سبحانه وتعالى عبر عن ذلك بقوله تعالى **فضربنا** اي عقب هذا القول وبسببه حجابا **على اذانهم** يمنع السماع اي انمناهم نومة لا تنبههم الاصوات الموقظة فحذف المحذوف المفعول الذي هو الحجاب كما يقال بنى على امراته يريدون بنى عليها القبة ثم بين تعالى انه انما ضرب على اذانهم **في الكهف** اي المعهود وهو ظرف مكان وقوله تعالى **سنين** ظرف زمان وقوله تعالى **عددا** اي ذوات عدد ويحتمل التكثير والتقليل فان مدة لبثهم كبعض يوم عنده كقوله تعالى لم يلبثوا الا ساعة من نهار وقال الزجاج اذا قل الشيء فهم مقدار عدده فلم يحتج الى ان يعد واذا كثر احتيج الى ان يعد **ثم بعثناهم** اي ايقظناهم من ذلك النوم **لنعلم** اي علم مشاهدة وقد سبق نظير هذه الاية في القران كثيرا منها ما سبق في سورة البقرة الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وفي ال عمران ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم وقد نبهنا على ذلك في محله **اي الحزبين** اي الفريقين المختلفين في مدة لبثهم **احصى لما لبثوا امدا** واختلفوا في الحزبين المختلفين فقال عطاء عن ابن عباس المراد بالحزبين الملوك الذين تداولوا المدينة ملكا بعد ملك واصحاب الكهف والملوك حزب واصحاب الكهف حزب وقال مجاهد الحزبان من الفتية ان اصحاب الكهف لما انتبهوا اختلفوا في انهم كم لبثوا ويدل له قوله تعالى قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما او بعض يوم قالوا ربكم اعلم بما لبثتم فالحزبان هما هذان وكان الذين قالوا ربكم اعلم بما لبثتم هم الذين علموا ان لبثهم قد تطاول وقال الفراء طائفتان من المسلمين في زمان اصحاب الكهف اختلفوا في مدة لبثهم تنبيه احصى فعل ماض اي انهم ضبط امد الاوقات لبثهم واما من جعله افعل تفضيل فقال في الكشاف ليس بالوجه السديد وذلك ان بناءه من غير الثلاثي المجرد ليس بقياس ونحو اعدى من الجرب وافلس من ابن المذلق شاذ والقياس على الشاذ في غير القران ممتنع فكيف به ثم قال الله تعالى **نحن** اي بما لنا من العظمة والقدرة الباهرة **نقص عليك** يا اشرف الخلق **نباهم** اي خبرهم العظيم قصا ملتبسا **بالحق** اي الصدق **انهم فتية** اي شبان **امنوا بربهم** اي المحسن اليهم الذي تفرد بخلقهم ورزقهم ثم وصفهم الله تعالى بقوله **وزدناهم** بعد ان امنوا **هدى** بما قذفناه في قلوبهم من المعارف **وربطنا على قلوبهم** اي قويناها فصار ما فيها من القوى يجمعها غير مبدد فكانت حالهم في الجلوة حالهم في الخلوة **اذ قاموا** اي وقت قيامهم بين يدي الجبار دقيانوس من غير مبالاة به حين عاتبهم على ترك عبادة الاصنام **فقالوا ربنا رب السموات والارض** وذلك لانه كان يدعو الناس الى عبادة الطواغيت فثبت الله تعالى هؤلاء الفتية حتى عصوا ذلك الجبار وافروا لله

بربوبية الله تعالى وصرحوا بالبراءة من الشرك والانداد بقولهم لن ندعو من دونه إلها
لأن ما سواه عاجز وانه لقد قلنا إذا أي إذا دعونا من دونه غيره شططا
أي قولا ذا بعد عن الحق جدا وقال مجاهد كان أبناء عظماء بهم فخرجوا فاجتمعوا
وراء المدينة من غير ميعاد فقال رجل منهم هو أكبر القوم إني لأجد في نفسي شيئا ما أظن
أن أحدا يجده قالوا ما تجد قال أجد في نفسي أن ربي رب السموات والأرض قالوا
نحن كذلك في أنفسنا فقاموا جميعا فقالوا ربنا رب السموات والأرض وقال
عطاء قالوا ذلك عند قيامهم من النوم قال الرازي وهو بعيد لأن الله تعالى
استأنف قصتهم بقوله تعالى نحن نقص عليك وقال عبيد بن عمير كانت
أصحاب الكهف فتيانا مطوقين مسورين ذوي ذوائب وكان معهم كلب صيدهم
فخرجوا في عيد لهم في زي وموكب وأخرجوا معهم آلهتهم التي يعبدونها وقد قذف
الله تعالى في قلوب الفتية الإيمان وكان أحدهم وزير الملك فآمنوا وأخفى كل
واحد إيمانه فقالوا في أنفسهم نخرج من بين هؤلاء القوم لا يصيبنا عقاب بجرمهم
فخرج شاب منهم حتى انتهى إلى ظل شجرة فجلس فيه ثم خرج آخر فرآه جالسا
وحده فرجى أن يكون على مثل أمره من غير أن يظهر ذلك ثم خرج آخر فخرجوا كلهم
جميعا فاجتمعوا فقال بعضهم لبعض ما جمعكم وكل واحد منكم يكتم
صاحبه مخافة على نفسه ثم قالوا ليخرج كل فتيين فيخلوا ثم يفشي كل واحد
سره إلى صاحبه ففعلوا فإذا هم جميعا على الإيمان وإذا الكهف قريب في الجبل
منهم فقال بعضهم لبعض هؤلاء قومنا وإن كانوا أسن منا وأثرى
وأجل في الدنيا اتخذوا من دونه آلهة أشركوهم معه لشبهة واهية لولا
أي هلا يأتون عليهم بسلطان أي دليل بين أي ظاهر مثل ما يأتي على تقرير
معبودنا بالأدلة الظاهرة فتسبب من عجزهم عن دليل أنهم أظلم الظالمين
فلذلك قالوا فمن أظلم أي لا أحد أظلم ممن افترى أي تعمد على الله
أي الملك الأعظم كذبا بنسبة الشريك إليه تعالى ثم قال بعض الفتية
لبعض وإذ أي وحين اعتزلتموهم أي قومكم وما يعبدون أي وغير
معبودهم وقولهم إلا الله يجوز أن يكون استثناء متصلا على ما روي
أنهم كانوا يقرون بالخالق ويشركون معه كما كان أهل مكة وأن يكون منقطعا
وقيل هو كلام معترض إخبار من الله تعالى عن الفتية أنهم لم يعبدوا غير
الله تعالى فأووا إلى الكهف أي الغار الذي في الجبل ينشر أي يبسط
لكم ويوسع عليكم ربكم أي المحسن إليكم من رحمته ما يكفيكم به المهم
من أمركم في الدين ويهيئ لكم من أمركم أي الذي من شأنه أن يهمكم مرفقا
ما ترتفقون به أي تنتفعون وجزمهم بذلك لخلوص يقينهم وقوة
وثوقهم بفضل الله وقرأ نافع وابن عامر بفتح الميم وكسر الفاء والباقون بكسر الميم
وفتح الفاء قال الفراء وهما لغتان واشتقاقهما من الارتفاق وكان الكسائي

لا يذكر في مرفق الإنسان الذي في اليد إلا كسر الميم وفتح الفاء والفراء يجيزه في الأمر
وفي اليد وقيل هما لغتان إلا أن الفتح أقيس والكسر أكثر والخطاب في قوله
تعالى وترى الشمس للنبي صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد وليس المراد أن من
خوطب بهذا يرى هذا المعنى ولكن العادة في المخاطبة تكون على هذا النحو ومعناه
أنك لو رأيته على هذه الصورة إذا طلعت تزاور أي تميل عن كهفهم ذات
اليمين أي ناحيته وإذا غربت تقرضهم أي تعدل في سيرها عنهم ذات الشمال فلا يقع
شعاعها عليهم فيؤذيهم لأن الله تعالى زواها عنهم وقيل إن باب ذلك
الكهف كان مفتوحا إلى جانب الشمال وإذا طلعت الشمس كانت على يمين الكهف
وإذا غربت كانت على شماله وقرأ السوسي بإمالة الألف المنقلبة بعد الراء
في الوصل بخلاف عنه والباقون بالفتح في الوصل وهم على أصولهم في الوقف
أبو عمرو وحمزة والكسائي بالإمالة محضة وورش بين اللفظين والباقون
بالفتح وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو تزاور بتشديد الزاي وتخفيف الراء
مضمومة وابن عامر بسكون الزاي ولا ألف بعدها وتشديد الراء على وزن تحمر
والباقون وهم عاصم وحمزة والكسائي بتخفيف الزاي والواو ولا خلاف في
ضم الراء ولما أنه تعالى حفظهم من حر الشمس بين أنه أنعشهم بروح الهوى
والطفهم بسعة الموضع في فضاء الغار فقال تعالى وهم في فجوة منه أي
في وسط الكهف ومتسعه ينالهم برد الريح ونسيمها ثم بين تعالى نتيجة
هذا الأمر الغريب في البناء العجيب بقوله تعالى ذلك أي المذكور العظيم
من آيات الله أي دلائل قدرته من يهد الله أي الذي له الملك كله
بخلق هذه الهداية في قلبه كأصحاب الكهف فهو المهتد أي زمان
كان فلن تجد له مضلا مغويا ففي ذلك إشارة إلى أن أهل الكهف جاهدوا
في الله وأسلموا له وجوههم فلطف بهم وأعانهم وأرشدهم إلى نيل تلك الكرامة
السنية والاختصاص بالآية العظيمة وأن كل من سلك طريق المهتدين
الراشدين فهو الذي أصاب الفلاح واهتدى إلى السعادة وقرأ نافع وأبو
عمرو بزيادة ياء بعد الدال في الوصل دون الوقف والباقون بحذفها وقفا
ووصلا ومن يضلل أي يضله الله ولم يرشده كدقيانوس وأصحابه
فلن تجد له وليا أي معينا مرشدا أي يرشده للحق ثم إنه تعالى عطف على ما مضى
بقية أمرهم بقوله تعالى وتحسبهم أي لو رأيتهم أيها المخاطب
أيقاظا أي منتبهين لأن أعينهم منفتحة للهواء لأنه يكون أبقى لها
جمع يقظ بضم القاف وهم رقود أي نيام جمع راقد قال الزجاج لكثرة
تقلبهم يظن أنهم أيقاظ والدليل عليه قوله تعالى ونقلبهم أي
في ذلك الحال بنومهم تقليبا كثيرا بحيث ما ينفعهم كما يكون النائم
ذات اليمين أي الجهة التي هي صاحبة اليمين منهم وذات الشمال

لينال روح النسيم جميع ابدانهم ولا يتاثر ما يلي الارض منها بطول المكث تنبيه
اختلف في مقدار مدة التقليب فعن ابي هريرة ان لهم في كل عام تقليبتين
وعن مجاهد يمكثون رقودا تسع سنين وقيل لهم تقليبة واحدة في يوم
عاشورا قال الرازي وهذه التقديرات لا سبيل للعقل اليها ولفظ
القران لا يدل عليها وما جا فيه خبر صحيح فكيف يعرف هو ولهذا قلت
نحب ما ينفعهم وقال ابن عباس فايدة تقليبهم لئلا تاكل الارض
لحومهم ولا ثيابهم قال الرازي وهذا عجيب من ذلك لانه تعالى لما قدر
على ان يمسك حياتهم ثلثمائة سنة واكثر فلم لا يقدر على حفظ اجسامهم
ايضا من غير تقليب انتهى وهذا ليس بعجيب لان القدرة صالحة لذلك
واكثر يجب العادة واما امساك ارواحهم فهو خرق للعادة فلا يقاس
عليه وكلبهم باسط ذراعيه اي يديه اي يلقيهما على الارض مبسوطتين
غير مقبوضتين ومنه قوله صلى الله عليه وسلم اعتدلوا في السجود
ولا يبسط احدكم ذراعيه انبساط الكلب قال المفسرون كان
الكلب قد بسط ذراعيه وجعل وجهه عليهما تنبيه باسط اسم
فاعل ماض وانما عمل على حكاية الحال والكسائي يعمله ويستشهد
بالاية واكثر المفسرين على ان الكلب من جنس الكلاب وروي عن ابن
جريج انه كان اسدا وسمي الاسد كلبا فان النبي صلى الله عليه وسلم
دعا على عتبة بن ابي لهب فقال اللهم سلط عليه كلبا من كلابك فافترسه
الاسد وقال ابن عباس كان كلبا انمر واسمه قطمير وعن علي اسمه ريان
واختلف في قوله تعالى بالوصيد فقال ابن عباس هو باب الكهف وقيل
العتبة قال السدي والكهف لا يكون له باب ولا عتبة وانما كان
اراد موضع الباب والعتبة وقال الزجاج الوصيد فنا البيت
وفنا الدار قال الشاعر
بارض فنا لا يسد وصيدها علي ومعروفي بها غير منكر وقال
مجاهد والضحاك الوصيد الكهف لو اطلعت عليهم بكسر الواو على اصل
التقا الساكنين اي وهم على تلك الحالة لوليت منهم حال وقوع بصرك
عليهم فرارا لما البسهم الله تعالى من الهيبة وجعل لهم من الجلال له تدبيرا منه
لما اراد منهم حتى لا يصل اليهم احد حتى يبلغ الكتاب اجله فرارا ولملئت منهم
رعبا اي فزعا واختلف في ذلك الرعب كان لماذا فقال الكلبي
لان اعينهم مفتحة كالمستيقظ الذي يريد ان يتكلم وهم نيام وقيل من
وحشة المكان وقيل لكثرة شعورهم وطول اظفارهم وتقلبهم من غير
حس كالمستيقظ وقيل ان الله تعالى منعهم بالرعب حتى لا يراهم احد
وروي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال غزونا مع معاوية نحو الروم

فمررنا

فمررنا بالكهف الذي فيه اصحاب الكهف فقال معاوية لو كشف لنا عن هؤلا
فنظرنا اليهم فقال ابن عباس قد منع ذلك من هو خير منك لو اطلعت
عليهم لوليت منهم فرارا فبعث معاوية اناسا فقال اذهبوا فانظروا
فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحا فاخرجتهم وقرا نافع وابن كثير
بتشديد اللام بعد الميم والباقون بتخفيفها والسوسي بابدال الهمزة
يا على اصله وقفا ووصلا وحمزة في الوقف فقط وقرا ابن عامر والكسائي
رعبا بضم العين والباقون بسكونها وكذلك اي كما فعلنا بهم ما ذكرنا
اية بعثناهم اي ايقظناهم اية ليتساءلوا بينهم اي ليسال بعضهم
بعضا عن احوالهم في نومهم ويقظتهم فيتعرفوا حالهم وما صنع الله تعالى بهم
فيزدادوا يقينا على كمال قدرة الله تعالى وليستبصروا به امر البعث
ويشكروا ما انعم الله به عليهم قال قائل منهم مستفهما من اخوانه
كم لبثتم نائمين في هذا الكهف من ليلة او يوم وهذا يدل على ان هذا
القائل استشعر طول لبثهم مما راى من هيئتهم او بغير ذلك من الامارات
قالوا لبثنا يوما او بعض يوم لانهم لما دخلوا الكهف طلوع الشمس وبعثوا اخر
النهار فلما راوا الشمس باقية قالوا او بعض يوم فلما نظروا الى طول
اظفارهم وشعورهم قالوا ربكم اعلم بما لبثتم فاحالوا العلم الى الله تعالى
قال ابن عباس القائل ذلك هو رئيسهم تمليخا رد علم ذلك الى الله
تعالى وعلمه مثل هذا التغير لا يحصل الا في الايام الطويلة وقرا نافع
وابن كثير وعاصم باظهار الثا المثلثة عند المثناة والباقون بالادغام
ثم لما علموا ان الامر ملتبس عليهم لا طريق لهم الى علمه اخذوا فيما يهمهم
وقالوا فابعثوا احدكم بورقكم اي بفضتكم وقرا ابو عمرو وشعبة
وحمزة بسكون الرا والباقون بكسرها والورق اسم للفضة سوا كانت
مضروبة او لا ويدل عليه ما روي ان عرفجة اتخذ انفا من ورق ويقال
له الرقة وفي الحديث وفي الرقة ربع العشر الى المدينة اي التي خرجتم
منها وهي مدينة طرسوس وهذه الاية تدل على ان السعي في امساك الزاد
امر مهم مشروع وانه لا يبطل التوكل على الله تعالى تهيئة الاسباب
واعتقاد انه لا مسبب للاسباب الا الله تعالى لحمل النفقة وما يصلح
للنفقة للمسافر هو راي المتوكلين على الله دون المتوكلين على الانفاقات
عليهم في اوعية القوم من النفقات ومنه قول عائشة رضي الله عنها لمن
سالها عن محرم يشد عليه هميانه اوثق عليك نفقتك وما حكي عن
بعض صعاليك العلما انه كان شديد الحنين الى ان يرزق حج بيت الله
وعلم منه ذلك فكان مياسير اهل بلده كلما عزم قوم على الحج اتوه
ان يحجوا به والحوا عليه فيعتذر اليهم بذلك فاذا انفضوا عنه تم

قد لمن عنده ما لهذا السفر الا شأن شد الهميان والتوكل على الرحمن
فلينظر ايها ازكى طعاما قال ابن عباس يريد ما احل من الذبائح لان عامة اهل
بلدهم كانوا مجوسا وفيهم قوم يخفون ايمانهم وقال مجاهد كان ملكهم
ظالما فقوله ايها ازكى طعاما اي ايها ابعد عن الغصب وكل سبب حرام
وقيل ايها اطيب والذ وقيل ايها ارخص قال الزجاج قوله ايها رفع بالابتدا
وازكى خبر وطعاما تمييز ولا بد هنا من حذف اي اي اهلها ازكى اي اجل
وقيل لا حذف والضمير عائد على الاطعمة المدلول عليها من السياق
ذلك الاحد فليأتكم برزق لنأكل منه وليتلطف اي وليكن في ستر وكتمان
في دخول المدينة وشرا الاطعمة حتى لا يعرف ولا يشعرن اي ولا يخبرن
بكم احدا من اهل المدينة انهم اي اهل المدينة ان يظهروا اي
يطلعوا عليكم يرجموكم اي يقتلوكم والرجم بمعنى القتل كثير في
القران كقوله تعالى ولولا رهطك لرجمناك وقوله تعالى لارجمنك
وقوله تعالى ان ترجمون وقال الزجاج اي يقتلوكم بالرجم والرجم
اخبث انواع القتل او يعيدوكم في ملتهم ان لستم لها ولن تفلحوا اي
ان رجعتم الى ملتهم اذا ابدا بل تكونوا خاسرين قال بعض العلما ولا خوف
على المومن الفار بدينه اعظم من هذين الامرين احدهما فيه هلاك
النفس وهو الرجم الذي هو اخبث انواع القتل والاخر هلاك الدين
فان قيل اليس انهم لو اكرهوا على الكفر حتى اظهروا الكفر لم يكن عليهم
مضرة فكيف قالوا ولن تفلحوا اذا ابدا اجيب بانهم خافوا انهم
لو بقوا على الكفر مظهرين له فقد يميل بهم ذلك الى الكفر الحقيقي فكان
خوفهم بسبب هذا الاحتمال فان قيل ما النكتة في العدول عن واحدكم
الى احدكم وكل ذلك دال على الوحدة اجيب بان النكتة في ذلك ان العرب
اذا قالوا احد القوم ارادوا به فردا منهم واذا قالوا واحد
القوم ارادوا رئيسهم والمراد في القصة اي واحد كان والقران الكريم
نزل بلغتهم فرعى ما راعوا وكذلك اي ومثل ما فعلنا ذلك بهم الامر العظيم
من الربط على قلوبهم والستر والحماية من الطالبين لهم والحفظ لاجسادهم
على ممر الزمان وتعاقب الحدثان وغير ذلك اعثرنا اي اطلعنا غيرهم
عليهم يقال عثرت على كذا اعلمته واصله ان من كان غافلا عن
شي فعثر به نظر اليه فكان العثر سببا لحصول العلم فاطلق السبب
على المسبب بقوله تعالى ليعلموا متعلق باعثرنا والضمير قيل يعود
على مفعول اعثرنا المحذوف تقديره اعثرنا الناس وقيل يعود الى
اهل الكهف وهذا هو الظاهر ان وعد الله الذي له صفات الكمال
بالبعث للروح والجثة معا حق لان قيامهم بعد نومهم سنين طويلة

وثلثمائة

وثلاثمائة سنة مثل من مات ثم بعث قال بعض العارفين علامة اليقظة
بعد النوم علامة البعث بعد الموت ولما كان من الحق ما كان قد يداخله
شك قال تعالى وان اي وليعلموا ان الساعة اي القيامة لا ريب اي
لا شك فيها تنبيه اختلف في السبب الذي عرف الناس واقعة اصحاب
الكهف فقال محمد بن اسحاق انه ملك تلك البلاد رجل صالح يقال له
تندوسيس فلما ملك بقي في ملكه ثمانية وستين سنة فتحزب
الناس في مملكته فكانوا احزابا فمنهم من يومن بالله ويعلم ان الساعة حق
ومنهم من يكذب بها فكبر ذلك على الملك الصالح فبكى وتضرع الى الله
تعالى وحزن حزنا شديدا لما راى اهل الباطل يزيدون ويظهرون على اهل
الحق ويقولون لا حياة الا الدنيا وانما تبعث الارواح ولا تبعث الاجساد
وجعل الملك يرسل الى من يظن فيهم خيرا وانهم ائمة في الخلق فلم يقبلوا
منه وجعلوا يكذبون بالساعة حتى كادوا يحولون الناس عن الحق
وملة الحواريين فلما راى ذلك الملك دخل بيته واغلق بابه عليه ولبس
مسحا وجعل تحته رمادا فجلس عليه ودأب ليله ونهاره زمانا يتضرع
الى الله ويبكي اي رب قد ترى اختلاف هولا فابعث لهم اية تبين لهم
ثم ان الله تعالى الذي يكره هلكة خلقه عباده اراد ان يظهر على الفتية
اصحاب الكهف ويبين للناس شانهم ويجعلهم اية وحجة عليهم ليعلموا
ان الساعة اتية لا ريب فيها ويستجيب لعبده تندوسيس ويتم
نعمته عليه وان يجمع من كان تبدد من المومنين والقى الله في نفس رجل
من تلك البلد الذي فيه الكهف ان يهدم ذلك البنيان الذي على فم
الكهف فيبني عليه حظيرة لغنمه فاستاجر غلامين فجعلا ينزعان
تلك الحجارة ويبنيان تلك الحظيرة حتى نزعا ما على فم الكهف وفتحا باب
الكهف اذن الله تعالى ذو القدرة والسلطان محيي الموتى للفتية
ان يجلسوا بين ظهري الكهف فجلسوا فرحين مسفرة وجوههم طيبة
انفسهم فسلم بعضهم على بعض كانما استيقظوا من ساعتهم التي
كانوا يستيقظون لها اذا اصبحوا من ليلتهم ثم قاموا الى الصلاة
فصلوا كالذي كانوا يفعلون ما يرى في وجوههم ولا في الوانهم شيا يكرهونه
كهيئتهم حين رقدوا وهم يرون ان ملكهم دقيانوس في طلبهم فلما قضوا
صلاتهم قالوا لتمليخا صاحب نفقتهم انبئنا ما قال الناس في شاننا
عشية امس عند الجبار وهم يظنون انهم كبعض ما كانوا يرقدون وقد
تخيل اليهم انهم قد ناموا اطول ما كانوا ينامون حتى تساءلوا بينهم فقال بعضهم
لبعض كم لبثتم نياما قالوا لبثنا يوما او بعض يوم ثم قالوا ربكم اعلم بما لبثتم
وكل ذلك في انفسهم يسير فقال لهم تمليخا التمستم بالمدينة وهو يريد

تندوسيس

ع

الملك دقيانوس كبريحو تمليخا صاحب نفقتهم

مكسلمينا

لن يؤتى بكم اليوم فتذبحون للطواغيت او يقتلكم فما شاء الله بعد ذلك فعل
فقال لهم مكسلمينا يا اخوتاه اعلموا انكم ملاقوا الله فلا تكفروا بعد ايمانكم
اذا دعاكم عدو الله ثم قالوا لتمليخا انطلق الى المدينة فتسمع ما يقال لنا بها
وما الذي يذكر عند دقيانوس وتلطف ولا يشعرن بك احدا وابتع لنا طعاما
وائتنا به وزدنا على الطعام الذي جئتنا به فقد اصبحنا جياعا ففعل تمليخا
كما كان يفعل ووضع ثيابه واخذ الثياب التي كان يتنكر فيها واخذ ورقا من نفقتهم
التي كانت معهم التي ضربت بطابع دقيانوس وكانت كخفاف الربع فانطلق تمليخا
خارجا فلما مر بباب الكهف راى الحجارة منزوعة عن باب الكهف فعجب منها ثم مر لم
يبال بها حتى اتى باب المدينة مستخفيا يصد عن الطريق تخوفا ان يراه احد من
اهلها فيعرفه ولا يشعر ان دقيانوس واهله قد هلكوا قبل ذلك بثلثمائة سنة
فلما اتى تمليخا باب المدينة رفع بصره فراى فوق ظهر الباب علامة تكون لاهل
الايمان اذا كان امر الايمان ظاهرا فلما راى عجب وجعل ينظر اليها مستخفيا وينظر
يمينا وشمالا ثم ترك الباب وتحول لباب اخر من ابوابها فراى مثل ذلك فجعل
يخيل اليه ان المدينة ليست بالتي كان يعرفها وراى ناسا كثيرا محدثين لم يكن
راهم قبل ذلك فجعل يمشي ويتعجب ويخيل اليه انه حيران ثم رجع الى الباب
الذي اتى منه فجعل يتعجب بينه وبين نفسه ويقول يا ليت شعري ما هذا
اما عشية امس وكان المسلمون يخفون هذه العلامة ويستخفون
بها واما اليوم فانها ظاهرة لعلي حالم ثم انه يرى انه ليس بنائم فاخذ كساه
فجعله على راسه ثم دخل المدينة فجعل يمشي بين ظهري سوقها فيسمع
ناسا يحلفون باسم عيسى بن مريم فزاده فرقا وراى انه حيران فقام
مسندا ظهره الى جدار من جدار المدينة ويقول في نفسه والله ما ادري ما هذا
اما عشية امس فليس على وجه الارض انسان يذكر عيسى بن مريم الا قتل
واما اليوم فاسمع كل انسان يذكر عيسى ولا يخاف ثم قال في نفسه لعل هذه
ليست المدينة التي اعرف والله ما اعلم مدينة بقرب مدينتنا فقام كالحيران
ثم لقي فتى فقال له ما اسم هذه المدينة يا فتى قال اسمها افسوس فقال
في نفسه لعل بي مسا او امرا اذهب عقلي والله يحق لي ان اسرع الخروج
قبل ان اخزى فيها او يصيبني شر فاهلك ثم انه افاق فقال والله
لو عجلت الخروج من المدينة قبل ان يفطن لي لكان اكيس فدنا من الذين يبيعون
الطعام فاخرج التي كانت معه فاعطاها رجل منهم فقال بعني بهذا الورق
طعاما واخرج الورق التي كانت معه فاعطاها رجل منهم فقال بعني بهذا الورق
طعاما فاخذها الرجل فنظر الى ضرب الورق ونقشها فعجب منها ثم طرحها
الى رجل من اصحابه فنظر اليها ثم الى اخر ثم جعلوا يتطارحونها بينهم من
رجل الى رجل ويتعجبون منها ثم جعلوا يتشاورون بينهم ويقولون

بعضهم

بعضهم لبعض ان هذا اصاب كنزا خبيا في الارض منذ زمان ودهر طويل فلما راهم
تمليخا يتشاورون من اجله فرق فرقا شديدا وجعل يرتعد ويظن انهم فطنوا
به وعرفوه وانهم انما يريدون ان يذهبوا به الى ملكهم دقيانوس وجعل اناس اخرون
ياتونه فيتعرفونه فقال لهم وهو شديد الفرق افضلوا علي قد اخذتم ورقي فامسكوا ها
واما طعامكم فليس لي حاجة به ولا حاجة لي به فقالوا من انت يا فتى وما شانك
والله لقد وجدت كنزا من كنوز الاولين وانت تريد ان تخفيه انطلق معنا وارنا
وشاركنا فيه نخفف عليك ما وجدت وانك ان لم تفعل ناتي بك السلطان
فنسلمك اليه فيقتلك فلما سمع قولهم قال ما وجدت شيئا وقال قد وقعت
في كل شي احذر منه قالوا يا فتى انك والله لا تستطيع ان تكتم ما وجدت
فجعل تمليخا ما يدري ما يقول لهم وخاف حتى انه لم يرد اليهم جوابا فلما
رأوه لا يتكلم اخذوا كساه وطرحوه في عنقه وجعلوا يقودونه في سكك المدينة
حتى سمع من فيها فقيل اخذ رجل عنده كنز واجتمع عليه اصحاب المدينة صغيرهم
وكبيرهم فجعلوا ينظرون اليه ويقولون والله ما هذا الفتى من اهل هذه المد بينة
وما رايناه قط وما نعرفه فجعل تمليخا لا يدري ما يقول لهم فلما اجتمع عليه
اهل المدينة وكان متيقنا ان اباه واخوته في المدينة وانه من عظماء اهلها
وانهم سياتونه اذا سمعوا به فبينما هو قائم كالحيران ينظر متى ياتيه بعض
اهله فيخلصه من بين ايديهم اذ اختطفوه وانطلقوا به الى رئيسي المدينة
ومدبريها الذين يدبرون امرها وهما رجلان صالحان اسم احدهما اريوس واسم
الاخر اسطيوس فلما انطلقوا به اليهما ظن تمليخا انه ينطلق به الى دقيانوس
الجبار فجعل يلتفت يمينا وشمالا وجعل الناس يسخرون منه كما يسخرون من
من المجنون وجعل تمليخا يبكي ويرفع راسه الى السما وقال اللهم اله السماوات و
الارض افرغ علي اليوم صبرا واولج معي روحا منك تؤيدني به عند هذا الجبار وجعل
يقول في نفسه فرق بيني وبين اخوتي يا ليتهم يعلمون ما لقيت وياليتهم
ياتوني فنقوم جميعا بين يدي هذا الجبار وجعل يقول في نفسه فانا كنا
تواثقنا على الايمان بالله سبحانه وتعالى ولا نشرك به شيئا ولا نفترق في
حياة ولا موت فلما انتهي به الى الرجلين الصالحين وراى انه لم يذهب به الى
دقيانوس افاق وسكن عنه البكاء فاخذ اريوس واسطيوس الورق فنظرا اليها وعجبا
منها ثم قال احدهما اين الكنز الذي وجدت يا فتى فقال تمليخا ما وجدت كنزا
ولكن هذا ورق ابائي ونقش هذه المدينة وضربها ولكن والله ما ادري ما
شاني وما اقول لكم فقال احدهما ممن انت فقال تمليخا اما انا فكنت ارى اني من
اهل هذه المدينة قالوا فمن ابوك ومن يعرفك بها فانباهم باسم ابيه
فلم يجدوا احدا يعرفه ولا اباه فقال له احدهما انت رجل كذاب لا تنبئنا بالحق
فلم يدر تمليخا ما يقول لهم غير انه نكس بصره الى الارض فقال بعض من حوله

مدبر المدينة
اريوس والاخر اسطيوس

هذا رجل مجنون وقال بعضهم ليس بمجنون ولكنه يحمق نفسه عمدًا حتى ينفلت
منكم فقال له احدهما ونظر اليه نظرا شديدا انظن انا نرسلك ونصدقك
بان هذا مال ابيك ونقش هذا الورق وضربها اكثر من ثلثماية سنة وانت غلام
شاب وانت تأفكنا وتسخر بنا ونحن شيوخ وشمط كما ترى وحولك سراة هذه
المدينة وولاة امرها وخزائن هذه البلد بايدينا وليس عندنا من هذا الدرهم
مضروب لا دينار واني لاظنني الا سآمر بك فتعذب عذابا شديدا ثم اوثقك
حتى تعرفنا بهذا الكنز الذي وجدته فلما قال ذلك قال لهم تمليخا انبئوني عن
شيء اسألكم عنه فان فعلتم صدقتكم عما عندي قالوا سل لا نكتمك شيئا قال
ما فعل الملك دقيانوس قالوا لا نعرف على وجه الارض ملكا يسمى دقيانوس
ولم يكن الا ملك منذ زمان ودهر طويل وهلكت بعده قرون كثيرة فقال تمليخا
اني اذا لحيران وما هو يصدق احد من الناس بما اقول لقد كنا فتية وان الملك
اكرهنا على عبادة الاوثان والذبح للطواغيت فهربنا منه عشية امس فنمنا
ثم لما انتبهنا خرجت لاشتري طعاما واتجسس الاخبار فاذا انا كما ترون فانطلقوا
معي الى الكهف الذي في جبل ينجلوس اريكم اصحابي فلما سمع اريوس ما يقول
تمليخا قال يا قوم لعل هذه اية من ايات الله تعالى جعلها الله تعالى لكم على
يدي هذا الغلام فانطلقوا بنا معه ليرينا اصحابه فانطلق معه اريوس
واسطيوس ومعهما جميع اهل المدينة كبيرهم وصغيرهم نحو اصحاب الكهف
لينظروا اليهم فلما راى الفتية اصحاب الكهف تمليخا احتبس عنهم بطعامهم
وشرابهم عن القدر الذي كان ياتي فيه فظنوا انه قد اخذ وذهب به الى ملكهم
دقيانوس فبينما هم يظنون ذلك ويتخوفونه اذ سمعوا الاصوات وجلبة
الخيل مصعدة عندهم فظنوا انهم رسل الجبار دقيانوس بعث اليهم ليأتوا
بهم فقاموا الى الصلاة وسلم بعضهم الى بعض واوصى بعضهم بعضا
وقال انطلقوا بنا نأتي اخانا تمليخا فانه الان بين يدي الجبار وهو ينتظرنا
حتى ناتيه فبينما هم يقولون ذلك وهم جلوس على هذه الحالة اذا هم باريوس
واصحابه وقوف على باب الكهف فسبقهم تمليخا ودخل وهو يبكي فلما راوه يبكي بكوا
معه ثم سالوه عن خبره فقص عليهم الخبر كله فعرفوا انهم كانوا نياما بامر الله
ذلك الزمن الطويل وانما اوقظوا ليكونوا اية للناس وتصديقا للبعث وليعلموا
الناس ان الساعة لا ريب فيها ثم دخل على اثر تمليخا اريوس فراى تابوتا من
نحاس مختوما بخاتم من فضة فقام بباب الكهف ثم دعا رجالا من عظماء اهل
المدينة ففتح التابوت عندهم فوجد فيه لوحين من رصاص مكتوب فيهما
مكسلمينا ومحسلمينا وتمليخا ومرطونس وكشطونس
وبيرونس وبيدرونس كانوا فتية هربوا من ملكهم دقيانوس الجبار
مخافة ان يفتنهم عن دينهم فدخلوا هذا الكهف فلما اخبر بمكانهم امر بالكهف

فسد عليهم

فسد عليهم بالحجارة وانا كتبنا اسماءهم واخبارهم ليعلم من بعدهم ان عثر عليهم
فلما راوه عجبوا وحمدوا الله الذي اراهم اية البعث فيهم ثم رفعوا اصواتهم
بحمد الله وتسبيحهم ثم دخلوا على الفتية الكهف فوجدوهم وهم جلوس مشرقة
وجوههم لم تبل ثيابهم فخر اريوس واصحابه سجودا وحمدوا الله الذي اراهم
اية من اياته ثم كلم بعضهم بعضا وانباهم الفتية عن الذي لقوه من ملكهم دقيانوس
ثم ان اريوس واصحابه بعثوا بريدا الى ملكهم الصالح تندوسيس ان عجل لعلك
تنظر الى اية من ايات الله جعلها تعالى على ملكك وجعلها اية للعالمين ليكون
لهم نورا وضياء وتصديقا للبعث واعجل على فتية بعثهم الله تعالى وكان توفاهم
منذ اكثر من ثلثماية سنة فلما اتى الملك الخبر قام ورجع اليه عقله وذهب
همه فقال احمدك الله رب السموات والارض واعبدك واسبح لك تطولت
علي ورحمتني فلم يطفئ النور الذي كنت جعلته لابائي والعبد الصالح قسطنطينوس
الملك فلما نبئ به اهل المدينة ركبوا اليه وساروا معه حتى اتوا مدينة افسوس
فتلقاهم اهل المدينة وساروا معه نحو الكهف فلما صعد الجبل وراى
الفتية تندوسيس فرحوا به وخروا سجدا على وجوههم وقام تندوسيس
قدامهم ثم اعتنقهم وبكى وهم جلوس بين يديه على الارض يسبحون الله تعالى
ويحمدونه ثم قالوا لتندوسيس نستودعك الله السلام عليك ورحمة الله وبركاته
وحفظك وحفظ ملكك ونعيذك بالله من شر الانس والجن فبينما الملك
قائم اذ رجعوا الى مضاجعهم فناموا وتوفى الله انفسهم وقام الملك اليهم
فجعل ثيابه عليهم وامر ان يجعل كل رجل منهم في تابوت من ذهب فلما امسى
ونام اتوه في المنام وقالوا له انا لم نخلق من ذهب ولا فضة ولكن خلقنا من
تراب والى التراب نصير فاتركنا كما كنا في الكهف على التراب حتى يبعثنا الله تعالى
منه فامر الملك حينئذ بتابوت من ساج فجعلوا فيه وحجبهم الله تعالى
حين خرجوا من عندهم بالرعب فلم يقدر احد على ان يدخل عليهم وقيل ان
تمليخا لما حمل الى الملك الصالح قال له الملك من انت قال انا رجل من اهل
هذه المدينة وذكر انه خرج امس او منذ ايام وذكر منزله واقواما لم
يعرفهم احد وكان الملك قد سمع ان فتية فقدوا في الزمان الاول وان
اسماءهم مكتوبة على لوح في خزانته فدعا باللوح فنظر في اسمائهم فاذا
اسمه مكتوب في اسماء الاخرين فقال تمليخا هم اصحابي فلما سمع الملك ذلك
ركب هو ومن معه من القوم فلما اتوا باب الكهف قال تمليخا دعوني حتى
ادخل على اصحابي وابشرهم فانهم ان راوكم معي ارعبتموهم فدخل فبشرهم
فقبض الله روحه وارواحهم واعمي على الملك واصحابه اثرهم فلم يهتدوا
عليهم ثم وقع التنازع في امرهم بين اهل المدينة كما قال الله تعالى اذ يتنازعون
اي اهل المدينة بينهم امرهم اي امر الفتية في البناء حولهم فقالوا

اي الكفار **ابنوا عليهم** اي حولهم **بنيانا** يسترهم فانهم كانوا على ديننا وقوله
ربهم اعلم بهم يجوز ان يكون من كلام الله تعالى وان يكون من كلام المتنازعين
فيهم **قال الذين غلبوا على امرهم** اي امر الفتية وهم المؤمنون **لنتخذن**
عليهم اي حولهم **مسجدا** اي نصلي فيه وفعل ذلك على باب الكهف
وقيل ان بعضهم قال الاولى ان نسد باب الكهف عليهم لئلا يدخل
احد عليهم ولا يقف على احوالهم انسان وقال الاخرون بل الاولى على ان نبني
على باب الكهف مسجدا وهذا القول يدل على ان اولئك الاقوام كانوا عارفين
بالله ومعترفين بالعبادة والصلاة وقيل تنازعوا في مقدار مكثهم وقيل
في عددهم واسمائهم نصب بنيانا يجوز ان يكون مفعولا به جمع بنيانة
وان يكون مصدرا ولما ذكر اصحاب الكهف عند النبي صلى الله عليه وسلم
وقع الاختلاف في عددهم كما قال تعالى **سيقولون** اي الخائضين في قصتهم
من اهل الكتاب والمؤمنين فقال بعض اهل الكتاب **ثلاثة رابعهم كلبهم**
اي هم ثلاثة رجال يربعهم كلبهم بانضمامه اليهم **ويقولون** اي بعضهم
خمسة سادسهم كلبهم فهذان القولان لنصارى نجران وقيل الاول
قول اليهود والثاني قول النصارى فان قيل لم جاء سين الاستقبال في
الاول دون الاخرين اجيب بان في ذلك وجهين ان تدخل الاخريين
في حكم السين كما تقول قد اكرم وانعم تريد معنى التوقع في الفعلين جميعا
وان يريد بيفعل معنى الاستقبال الذي هو صالح له ولما كان قولهم ذلك
بغير علم كان **رجما بالغيب** اي ظنا في الغيبة عنهم فهو راجع الى القولين
معا ونصب على المفعول له اي لظنهم ذلك **ويقولون** اي المؤمنون
سبعة وثامنهم كلبهم قال اكثر المفسرين هذا الاخير هو الحق ويدل
عليه وجوه الاول انه تعالى لما حكى قوله ويقولون سبعة وثامنهم
كلبهم قال بعده **قل ربي اعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل** واتبع القولين الاولين
بقوله تعالى رجما بالغيب وتخصيص الشيء بالوصف يدل على ان الحال
في الباقي بخلافه فوجب ان يكون المخصوص بالظن الباطل هما القولان الاولان
وان يكون القول الثالث مخالفا لهما في كونه رجما بالغيب الوجه الثاني
ان الواو في قوله تعالى وثامنهم هي الواو التي تدخل على الجملة الواقعة صفة
للنكرة كما تدخل على الواقعة حالا عن المعرفة في نحو قولك جاءني رجل ومعه
اخر لتوكيد لصوق الصفة بالموصوف والدلالة على ان اتصافه بها امر ثابت
مستقر فكانت هذه الواو دالة على ان الذين كانوا في الكهف كانوا سبعة
وثامنهم كلبهم وقول محمد بن اسحاق انهم كانوا ثمانية مردود فكان الله
تعالى حكى اختلافهم وتم الكلام عند قوله ويقولون سبعة ثم حقق هذا
القول بقوله تعالى وثامنهم كلبهم والثامن لا يكون الا بعد السابع

ويدع

ويدع الواو ويسمونها واو الثمانية لان العرب تعد فتقول واحد اثنين ثلاثة
اربعة خمسة ستة سبعة وثمانية لان العقد كان عندهم سبعة كما هو
اليوم عندنا عشرة ونظيره من الاية في ثلاث ايات وهو قوله تعالى والناهون
عن المنكر وقوله تعالى حتى اذا جاؤها وفتحت ابوابها لان ابواب الجنة ثمانية
وابواب النار سبعة وقوله تعالى ثيبات وابكارا قال القفال وقوله واو الثمانية
ليس بشيء بدليل قوله هو الله الذي لا اله الا هو السلام المؤمن المهيمن
العزيز الجبار المتكبر ولم يذكر الواو في النعت الثامن اهـ وقد يجاب بان ذلك
جرى على الغالب الوجه الثالث انه تعالى قال ما يعلمهم الا قليل وهذا يقتضي
انه حصل العلم بعدتهم لذلك القليل وكان ابن عباس يقول انا من ذلك
العدد القليل وكان يقول انهم سبعة وثامنهم كلبهم وكان علي رضي الله
عنه يقول كانوا قال الرازي واسماؤهم يمليخا مكشلمينا مشلينيا
وهؤلاء الثلاثة كانوا اصحاب يمين الملك وعن يساره مرنوش
ودبرنوش وشاذنوش وكان الملك يستشير هؤلاء الستة في
مهماته والسابع هو الراعي الذي وافقهم لما هربوا من ملكهم وروي عن ابن
عباس انه قال هم مكشلمينا وتمليخا ومرطونس وبينونس
ونوانس وكفشططيونس وهو الراعي واسم كلبهم قطمير واسم
مدينتهم افسوس تنبيه في الاية حذف والتقدير سيقولون هم ثلاثة
كما تقدم تقديره فحذف المبتدا لدلالة الكلام عليه وقيل الاقوال الثلاثة
لاهل الكتاب والقليل منهم اهـ ولا علم بذلك الا في قليل منهم واكثرهم على
الظن ثم انه تعالى لما ذكر هذه القصة اتبعها بان نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم
عن شيئين عن المراء وعن الاستفتاء اما النهي عن المراء فقوله تعالى **فلا تمار** اي
تجادل **فيهم** اي في شان الفتية **الا مراء** اي جدالا **ظاهرا** اي غير
متعمق فيه وهو ان تقص عليهم ما في القران من غير ان يكذبهم في تعيين ذلك
العدد ونظيره قوله تعالى ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن
واما النهي عن الاستفتاء فقوله تعالى **ولا تستفت فيهم** اي ولا تسال
منهم اي من اهل الكتاب اليهود **احدا** عن قصتهم سؤال مسترشد
لانه لما ثبت انه ليس عندهم علم في هذا الباب وجب المنع من استفتائهم
وفيما اوحي اليك مندوحة عن غيره ولا سؤال متعنت يريد تفضيح المسؤول
عنه وتزييف ما عنده فانه يخل بمكارم الاخلاق ولما سال اهل مكة عن
خبر اهل الكهف فقال النبي صلى الله عليه وسلم اخبركم به غدا ولم يقل ان شاء
الله فاحتبس الوحي عنه خمسة عشر يوما وفي رواية اخرى اربعين يوما
نزل **ولا تقولن لشيء** اي لاجل شيء تعزم عليه **اني فاعل ذلك** اي الشيء
غدا اي فيما يستقبل من الزمان ولم يرد الغد خاصة **الا ان يشاء الله**

اي الا ملتبسا بمشيته بان تقول ان شاء الله والسبب في ذلك ان الانسان
اذا قال سافعل الفعل الفلاني غدا لم يبعد ان يموت قبل مجي الغد ولم يبعد ايضا
ان بقي حيا ان يعيقه عن ذلك الفعل سائر العوايق فاذا لم يقل ان شاء الله
صار كاذبا في ذلك الوعد والكذب منفر لا يليق بالانبيا عليهم الصلاة والسلام
فلهذا السبب وجب عليه ان يقول ان شاء الله حتى اذا تعذر عليه الوفا بذلك
الموعد لم يصر كاذبا ولم يحصل التنفير تنبيه قال كثير من الفقها اذا قال
الرجل لامراته انت طالق ان شاء الله لم يقع عليه الطلاق لانه لما علق وقوع الطلاق
على مشيته تعالى لم يقع عليه الطلاق الا اذا علمنا حصول المشية ومشية
الله تعالى لا سبيل لنا الى العلم بحصولها الا اذا علمنا ان تعلق المشية
وقع وهو الطلاق وعلى هذا لا نعرف حصول المشية الا اذا وقع الطلاق
ولا نعرف وقوع الطلاق الا عرفت المشية فيتوقف العلم بكل واحد منهما
على الاخر وهو دور فلهذا لم يقع الطلاق وقيل المراد الا ان ياذن الله في
ياذن لك الله تعالى في ذلك القول والمعنى انه ليس لك ان تخبر عن نفسك بانك
تفعل الفعل الفلاني الا ان ياذن لك الله تعالى في ذلك الاخبار وقد احتج
القايلون بان المعدوم شي بهذه الاية لان الشي الذي سيفعله غدا
معدوم في الحال فوجب تسمية المعدوم بانه شي واجيب بان هذا
الاستدلال لا يفيد الا ان المعدوم يسمى بكونه شيا وعندنا ان السبب
فيه سيصير شيا يجوز تسميته بكونه شيا في الحال كما قال تعالى اتى امر الله
فلا تستعجلوه والمراد سياتي امر الله واختلف في معنى قوله تعالى **واذكر
ربك اذا نسيت** فقال ابن عباس ومجاهد والحسن معناه اذا نسيت
الاستثناء ثم ذكرت فاستثن وعند هذا اختلفوا فقال ابن عباس
لو لم يحصل التذكر الا بعد مدة طويلة ثم ذكر ان شاء الله كفى في رفع الحنث
وعن سعيد بن جبير بعد سنة او شهرا او اسبوع او يوم وعن طاووس
لا يقدر على الاستثناء الا في مجلسه وعن عطا يستثني على مقدار حلب
ناقة غزيرة وعند عامة الفقها انه لا اثر له في الكلام ما لم يكن موصولا
واحتج ابن عباس بان قوله اذا نسيت غير مختص بوقت غير معين بل هو
متناول لكل الاوقات وظاهره ان الاستثناء لا يجب ان يكون متصلا
اما عامة الفقها فقالوا لو جوزنا ذلك للزم ان لا يستقر شي من العهود
والايمان يحكى ان المنصور بلغه ان ابا حنيفة خالف ابن عباس في
الاستثناء المنفصل فاستحضره لينكر عليه فقال له ابو حنيفة هذا
يرجع عليك لانك تاخذ البيعة بالايمان اما ترضى ان يخرجوا من عندك
فيستثنوا فيخرجوا عليك فاستحسن المنصور كلامه ورضي عنه
واستدل لهم بان الايات الكثيرة دلت على وجوب الوفا بالعقد والعهد

قال

قال تعالى اوفوا بالعقود وقال تعالى واوفوا بالعهد فاذا اتى بالعقد والعهد
وجب عليه الوفا بمقتضاه لاجل هذه الايات خالفنا الدليل فيما اذا كان
الاستثناء متصلا لان الاستثناء مع المستثنى منه كالكلام الواحد بدليل
ان الاستثناء وحده لا يفيد شيا فهو جار مجرى بعض الكلمة الواحدة فجملة الكلام
كالكلمة الواحدة المفيدة فاذا لم يكن متصلا افاد الالتزام التام فوجب الوفا
بذلك الملتزم وقيل ان قوله تعالى واذكر ربك اذا نسيت كلام مستانف
لا تعلق له بما قبله قال عكرمة واذكر ربك اذا غضبت وقال وهب مكتوب
في الانجيل ابن ادم اذكرني حين تغضب اذكرك حين اغضب وقال الضحاك
والسدي هذا في الصلاة المنسية قال الرازي وتعلق هذا الكلام بما
قبله يفيد تمام الكلام في هذه القصة مستانفا يصير الكلام مبتدا منقطعا
وذلك لا يجوز وفي قوله تعالى **وقل عسى ان يهدين ربي لاقرب من هذا رشدا**
وجوه الاول يكون قوله ان شاء الله ليس بحسن تركه وذكره اولى من تركه
وهو قوله لاقرب من هذا رشدا والمراد منه ذكر هذه الجملة الثاني انه لما
وعدهم بشي وقال معه ان شاء الله فيقول وعسى ان يهدين ربي لاقرب
من هذا اشارة الى قصة اصحاب الكهف اي لعل الله يوتيني من البينات
والدلايل على صحة نبوتي وصدقي في ادعا النبوة ما هو اعظم في الدلالة
واقرب رشدا من قصة اصحاب الكهف وقد فعل الله ذلك حين اتاه
من قصص الانبيا والاخبار بالغيوب ما هو اعظم من ذلك ثم شرع تعالى
في اية هي اخر الايات المذكورة في قصة اصحاب الكهف بقوله تعالى **ولبثوا
في كهفهم** اي ناما **ثلثماية** اي مدة ثلثماية **سنين** قال بعضهم
وهذه السنون الثلثماية عند اهل الكتاب شمسية وتزيد القمرية عليها تسع
سنين وقد ذكره في قوله **وازدادوا تسعا** اي تسع سنين لان التفاوت
بين الشمسية تزيد على السنة القمرية بعشرة ايام واحدى وعشرين
ساعة وخمس ساعة فالثلثماية الشمسية ثلثماية وتسع قمرية
قال الرازي وهذا مشكل لانه لا يصح بالحساب هذا القول ويمكن ان
يقال لعلهم لما استكملوا ثلثماية سنة قرب امرهم من الانتباه ثم
اتفق ما اوجب بقاهم في النوم بعد ذلك تسع سنين وقرا حمزة والكسائي
بغير تنوين في الوصل والباقون بالتنوين فسنين عطف بيان لثلثماية
لانه لما قال ولبثوا في كهفهم ثلثماية لم يعرف انها ايام او شهور او سنون
فلما قال سنين صار هذا بيانا لقوله ثلثماية فكان ذلك عطف بيان
له وقيل هو على التقديم والتاخير اي لبثوا سنين ثلثماية واما وجه القراءة
الاولى هو ان الواجب في الاضافة ان يقال ثلثماية سنة الا انه
يجوز وضع الجمع موضع الواحد في التمييز كقوله تعالى بالاخسرين اعمالا

وحذف مميز تسع لدلالة ما تقدم عليه اذ لا يقال عندي ثلثمائة درهم وتسعة
لاوات تعني تسعة دراهم ولو اردت ثيابا ونحوها لم يجز لان العازم ان
الله تعالى امر نبيه صلى الله عليه وسلم اذا نازعوه في مدة لبثهم في الكهف بقوله
تعالى قل الله اعلم بما لبثوا اي اعلم منكم وقد اخبر عن مدة لبثهم وقيل ان اهل
الكتاب قالوا ان المدة حين دخلوا الكهف الى يومنا هذا وهو اجتماعهم بالنبي
صلى الله عليه وسلم ثلثمائة سنين وازدادوا تسع سنين فرد الله تعالى
عليهم ذلك وقال الله اعلم بما لبثوا يعني بعد قبض ارواحهم الى يومنا
هذا لا يعلمه الا الله له غيب السموات والارض اي ما غاب فيهما وخفي من احوال
اهلهما فالغيب ما يغيب عن ادراك والله عز ذكره لا يغيب عن ادراكه شيء
فيكون عالما بهذه الواقعة لا محالة وقوله تعالى ابصر به واسمع كلمة تذكر
في التعجب اي ما ابصر الله تعالى لكل موجود وما اسمعه لكل مسموع
ما لهم اي اهل السموات والارض من دونه اي الله من ولي اي
ناصر ولا يشرك في حكمه اي قضائه احدا منهم ولم يجعل لهم فيه مدخلا
لانه غني بذاته عن كل احد وقيل الحكم علم الغيب اي لا يشرك في علم غيبه
احدا وقرا ابن عامر بالمثناة فوق قبل الشين وسكون الكاف على نهي
كل احد عن الاشراك والباقون بالتحتية وضم الكاف تنبيه احتج
اصحابنا رحمهم الله تعالى بهذه القصة على صحة القول بالكرامة للاولياء
وتقدمنا معرفة الولي في سورة يونس عند قوله تعالى الا ان اولياء الله لا
خوف عليهم ولا هم يحزنون فمن ما يدل على جواز كرامات الاولياء القرآن
والاخبار والآثار والمعقول اما القرآن فالمعتمد فيه عندنا آيات
الحجة الاولى قصة مريم عليها السلام وقد شرحنا في سورة آل عمران
فلا نعيدها الحجة الثانية قصة اصحاب الكهف وبقائهم في النوم سالمين
من الآفات مدة ثلثمائة سنة وتسع سنين وان الله تعالى كان يحفظهم
من حر الشمس ومن الناس من تمسك ايضا في هذه المسألة بقوله تعالى قال
الذي عنده علم من الكتاب انا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك على انه غير
سليمان والسيد جبريل واما الاخبار فكثيرة منها ما اخرج في الصحيح
حديث ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لم يتكلم في المهد الا ثلاثة
عيسى بن مريم وصبي في زمن جريج وصبي آخر اما عيسى فقد
عرفتموه واما جريج فكان رجلا عابدا في بني اسرائيل وكانت له ام فكان
يوما يصلي اذ اشتاقت له امه فقالت يا جريج فقال يا رب امي والصلاة
خير ام رؤيتها ثم يصلي فدعته ثانيا فقال مثل ذلك حتى تم ثلاث مرات
وكان يصلي ويدعها فاشتد ذلك على امه فقالت اللهم لا تمته حتى يريه
الموسسات وكانت زانية في بني اسرائيل فقالت لهم انا افتن جريجا

حتى

حتى زنى بي فاتته فلم تقدر على شيء وكان هناك راع يأوي بالليل الى صومعته
فلما اعياها جريج راودت الراعي على نفسها فاتاها فولدت ثم قالت ولدي
هذا من جريج فاتوه بنو اسرائيل وكسروا صومعته وشتموه ثم نخس
الغلام قال ابو هريرة كان انظر الى النبي صلى الله عليه وسلم حين قال بيده
يا غلام من ابوك فقال الراعي فندم القوم على ما كان منهم واعتذروا اليه
وقالوا نبني لك صومعتك من ذهب او فضة فابى عليهم وبنوها كما كانت
واما الصبي الآخر فان امرأة كان معها صبي لها ترضعه اذ مر بها شاب جميل
ذو بشارة فقالت اللهم اجعل ابني مثل هذا فقال الصبي اللهم لا تجعلني
مثله ثم مر بها امرأة ذكروا انها سرقت وزنت وعوقبت فقالت اللهم
لا تجعل ابني مثل هذه فقال الصبي اللهم اجعلني مثلها فقالت له امه
في ذلك فقال ان الراكب جبار من الجبابرة فكرهت ان اكون مثله وان هذه
قيل لها زنت ولم تزن وقيل لها سرقت ولم تسرق وهي تقول حسبي الله
فاحببت ان اكون مثلها ومنها خبر الغار وهو مشهور في الصحاح عن
الزهري عن سالم عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم فاواهم المبيت الى غار فدخلوه فانحدرت مرت
عليهم صخرة من الجبل فسدت باب الغار وقد ذكرت ذلك عند قوله
تعالى كانوا من آياتنا عجبا ومنها قوله صلى الله عليه وسلم رب اشعث اغبر
ذي طمرين لا يؤبه له لو اقسم على الله لابره ولم يعرف من شيء من الدنيا
يقسم به على الله تعالى ومنها ما روي عن سعيد بن المسيب عن ابي هريرة
عن النبي صلى الله عليه وسلم بينا رجل يسوق بقرة قد حمل عليها التفتت
البقرة وقالت اني لم اخلق لهذا وانما خلقت للحرث فقال الناس سبحان
الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم آمنت بهذا وابو بكر وعمر ومنها
ما روي عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال بينا رجل سمع رعدا
او صوتا في السحاب ان اسق حديقة فلان قال فعدت الى تلك الحديقة
فاذا رجل قائم فيها فقلت له ما اسمك قال فلان ابن فلان قلت فما تصنع
بحديقتك هذه اذا صرمتها قال ولم تسأل عن ذلك قلت لاني سمعت
صوتا في السحاب ان اسق حديقة فلان قال اما اذا قلت فاني اجعلها
اثلاثا فاجعل لنفسي ولاهلي ثلثا واجعل للمساكين وابن السبيل
ثلثا وانفق عليها ثلثا واما الآثار فكثيرة ايضا ولنبدأ منها ببعض
ما نقل انه ظهر على الخلفاء الراشدين من الكرامات ثم ببعض ما ظهر على بعض
الصحابة اما ابو بكر رضي الله تعالى عنه فمن كراماته انه لما حملت جنازته
الى باب قبر النبي صلى الله عليه وسلم ونودي السلام عليك يا رسول الله هذا
ابو بكر بالباب فاذا بالباب قد فتح واذا بهاتف يهتف من القبر ادخلوا

الحبيب إلى الحبيب واما عمر رضي الله تعالى عنه فقد ظهرت انواع كثيرة من كراماته
النوع الاول انه لما بعث جيشا وامر عليهم رجلا يدعى سارية بن الحصين فبينا عمر يوم
الجمعة جعل يصيح في خطبته وهو على المنبر يا سارية الجبل الجبل قال
علي بن ابي طالب كتبت تاريخ هذه الكلمة فلما قدم رسول ذلك الجيش
فقال يا امير المومنين غدونا يوم الجمعة في وقت الخطبة فهزمونا فاذا بانسان
يصيح يا سارية الجبل الجبل فاسندنا ظهرنا الى الجبل فهزم الله تعالى
الكفار وظفرنا بالغنايم العظيمة ببركة ذلك الصوت قال الرازي
قلت سمعت بعض المذكرين قال كان ذلك معجزة لمحمد صلى الله عليه وسلم
لانه قال لابي بكر وعمر انتما مني بمنزلة السمع والبصر فلما كان عمر بمنزلة البصر
لمحمد صلى الله عليه وسلم لاجرم قدر على ان يرى من ذلك البعد العظيم النوع
الثاني ما روي ان نيل مصر كان في الجاهلية يقف في كل سنة مرة واحدة فكان
لا يجري حتى تلقى فيه جارية حسناء فلما جاء الاسلام كتب عمرو بن العاص
الى عمر فكتب عمر على خرقة ايها النيل ان كنت تجري بامر الله فاجر وان كنت انما تجري
بامرك فلا حاجة بنا اليك فالقيت تلك الخرقة في النيل فجرى ولم يقف بعد ذلك
النوع الثالث لما وقعت الزلزلة في المدينة فضرب عمر الدرة على الارض وقال
اسكني باذن الله فسكنت وما حدثت الزلزلة بالمدينة بعد ذلك الوقت
النوع الرابع وقعت النار في بعض دور المدينة فكتب عمر على خرقة يا نار
اسكني باذن الله فالقوها في النار فانطفت في الحال النوع الخامس ما
روي ان رسول ملك الروم جاء الى دار عمر وطلب داره فظن ان داره مثل
قصور الملوك فقالوا ليس له ذلك وانما هو في الصحرا يضرب اللبن فلما ذهب
الى الصحرا راى عمر وضع درته تحت راسه ونام على التراب فتعجب الرسول من
ذلك وقال اهل المشرق والمغرب يخافون هذا الانسان وهو على هذه
الصفة ثم قال في نفسه ان وجدته خاليا فاقتله واخلص الناس منه فلما
رفع السيف اخرج الله من الارض اسدين فقصداه فخاف والقى السيف
من يده وانتبه عمر ولم ير شيئا فساله عن الحال فذكر له الواقعة واسلم
قال الرازي واقول هذه الوقائع رويت بالاحاد وههنا ما هو معلوم
بالتواتر وهو انه مع بعده عن زينة الدنيا واحترازه عن التكلفات
والتهويلات ساس الشرق والغرب وغلب الممالك والدول ولو نظرت
في كتب التواريخ علمت انه لم يتفق لاحد من اول عهد عمر الى الان ما تيسر له
فانه مع غاية بعده عن التكلفات كيف قدر على تلك السياسات ولا شك
ان هذا من اعظم الكرامات واما عثمان رضي الله تعالى عنه فاشيا كثيرة
منها ما روي عن انس قال سرت في الطريق فوقعت عيني على امراة
ثم دخلت على عثمان فقال ما لي اراكم تدخلون علي واثار الزنا ظاهرة عليكم

فقلت

فقلت اجاء وحي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لا ولكن فراسة صادقة
ومنها انه لما طعن بالسيف فاول قطرة من دمه سقطت وقعت على المصحف
على قوله فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ومنها ان جهجاه الغفاري
انتزع العصا من يد عثمان فكسرها على ركبته فوقعت الاكلة في ركبته
واما علي رضي الله تعالى عنه فاشيا كثيرة ايضا منها ما روي ان واحدا من محبيه
سرق وكان عبدا اسود فاتي به الى علي فقال اسرقت فقال بلى فقطع يده
فانصرف من عند علي فلقيه سلمان الفارسي وابن الكوا فقال ابن الكوا من قطع
يدك فقال امير المومنين ويعسوب المسلمين وختن الرسول وزوج
البتول فقال له سلمان قطع يدك وتمدحه فقال لم لا امدحه وقد قطع يدي
بحق وخلصني من النار فسمع سلمان ذلك فاخبر به عليا فدعا الاسود ووضع
يده على ساعده وغطاه بمنديل ودعا بدعوات فسمعنا صوتا من السما
ارفع الردا عن اليد فرفعناه فاذا اليد قد برئت واما ما روي عن بعض
الصحابة فشي كثير ونذكر منها شيا قليلا منها ما روي محمد بن المنكدر عن
سفينة قال ركبت البحر فانكسرت سفينتي التي كنت فيها وركبت لوحا
من الواحها فطرحني اللوح في اخيسة فيها اسد فخرج الاسد الي يريدني في
فقلت يا ابا الحارث انا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فتقدم
الاسد الي ودلني على الطريق ثم همهم فظننت انه يودعني ورجع ومنها
ما روي ثابت عن انس ان اسيد بن حصين ورجلا اخر من الانصار
تحدثا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في حاجة لهما حتى ذهب من
الليل زمان ثم خرجا من عنده وكانت الليلة شديدة الظلمة وكان في يد كل
واحد عصية فاضاءت عصا احدهما لهما حتى مشيا في ضوئها فلما
افترق بهما الطريق اضاءت للاخر عصاه فمشى حتى بلغ منزله ومنها
ما روي انه قيل لخالد بن الوليد ان في عسكرك من يشرب الخمر فركب
فرسه ليلة فطاف بالعسكر فلقي رجلا على فرس ومعه خمر فقال ما هذا
قال خل فقال خالد اللهم اجعله خلا فذهب الرجل الى اصحابه فقال اتيتكم
بخمر ما شربت العرب مثلها فلما فتحوا فاذا هو خل فقالوا والله ما جئتنا الا
بخل فقال والله هذا دعا خالد ومنها الواقعة المشهورة وهو ان خالد بن
الوليد اكل كفا من السم على اسم الله وما ضره ومنها ما روي ان ابن عمر كان في بعض
اسفاره فلقي جماعة وقفوا على الطريق من خوف السبع فطرد السبع
من طريقهم ثم قال انما يسلط على ابن ادم ما يخافه ولو انه لم يخف غير الله
لما سلط عليه شي ومنها ما روي ان النبي صلى الله عليه وسلم بعث
العلا الحضرمي في غزاة فحال بينهم وبين المطلوب قطعة من البحر فدعا
باسم الله الاعظم ومشوا على الما وفي كتب الصوفية روايات متجاوزة عن الحد

والحصر من ارادهما طالبهما واما الدلايل العقلية على جواز الكرامات فمن وجوه الاول انه صلى الله عليه وسلم قال حاكيا عن رب العزة من اذى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة فجعل ايذا الولي قايم مقام ايذايه وتاكد هذا بالخبر المشهور انه تعالى يقول يوم القيمة يا ابن ادم مرضت فلم تعدني استسقيتك فما اسقيتني استطعمتك فما اطعمتني فيقول يا رب كيف افعل هذا وانت رب العالمين فيقول ان فلانا مرض فلم تعده اما علمت انك لو عدته لوجدت ذلك عندي وكذا في السقي والاطعام فدلت هذه الاخبار على ان اولياء الله يبلغون هذه الدرجات العالية والمراتب الشريفة فاذا جاز ايصال العبد الى هذه الدرجات فاي بعد ان يعطيه الله تعالى كسرة خبز او جرعة ماء او يسخر له كلبا او دودا الوجه الثاني انه صلى الله عليه وسلم انه قال ما تقرب الي عبد بمثل اداء ما افترض عليه ولا يزال يتقرب الي بالنوافل حتى احبه فاذا احببته كنت له سمعا وبصرا وقلبا ولسانا ويدا ورجلا فبي يسمع وبي يبصر وبي ينطق وبي يمشي وهذا الخبر يدل على انه لم يبق في سمعهم نصيب لغير الله تعالى لما قال انا سمعه وبصره ولهذا المقام اشرف من تسخير الحية والسبع واعطا عنقود من العنب او شربة من الماء فلما اوصل برحمته عبده الى هذه الدرجات العالية فاي بعد ان يعطيه رغيفا واحدا او شربة من الماء في مفازة الوجه الثالث لو امتنع اظهار الكرامة لكان ذلك اما لاجل ان الله تعالى ليس اهلا لان يفعل مثل هذا الفعل او لاجل ان المومن ليس اهلا لان يعطيه هذه العطية والاول قدح في قدرة الله تعالى وهو كفر والثاني باطل فان معرفة اسما الله تعالى ومحبته وطاعته والمواظبة على ذكر تقديسه وتمجيده وتهليله اشرف من اعطاء رغيف واحد في مفازة او تسخير حية او اسد فان اعطاه المحبة والشكر والذكر من غير سوال يعطيه شربة ما في تلك المفازة اولى فاي بعد فيه واحتج المنكر للكرامات بوجوه الاول ان ظهور الفعل الخارق للعادة جعله الله تعالى على النبوة فلو حصلت لغير النبي لبطلت هذه الدلالة الوجه الثاني ان الله تعالى قال وتحمل اثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس والقول بان الولي ينتقل من بلد الى بلد بعيد لا على هذا الوجه طعن في هذه الاية وايضا ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يصل من مكة الى المدينة الا في ايام كثيرة مع التعب الشديد فكيف يعقل ان الولي ينتقل من بلد نفسه الى الحج في اليوم الواحد الوجه الثالث ان هذا الولي الذي يظهر عليه الكرامات اذا ادعى على انسان دينارا واحدا فهل يطالب بالبينة ام لا فان طالبناه بها كان عبثا لان ظهور الكرامة عليه يدل على انه لا يكذب ومع قيام الدليل القاطع كيف يطلب الدليل الظني وان لم يطالبه بها فقد ترك

قوله

قوله صلى الله عليه وسلم البينة على المدعي فهذا يدل على ان القول بالكرامة باطل واجيب عن الاول بان الناس اختلفوا هل يجوز للولي دعوى الولاية فقال قوم من المحققين انه لا يجوز فعلى هذا فرق بين المعجزة والكرامة ان المعجزة تكون مسبوقة بدعوى النبوة والكرامة لا تكون مسبوقة بدعوى الولاية وعلى القول بالجواز الفرق بينهما ان النبي يدعي المعجزة ويقطع بها والولي اذا ادعى الكرامة لا يقطع بها لان المعجز يجب ظهوره والكرامة لا يجب ظهورها واجيب عن الثاني بان قوله تعالى وتحمل اثقالكم الى بلد الخ محمول على المعهود المتعارف وكرامات الاوليا احوال نادرة فتصير كالمستثنى من ذلك العموم المتعارف واجيب عن الثالث بان التمسك بالامور النادرة لا يعول عليه في الشرع فلا ينافي ذلك قوله صلى الله عليه وسلم البينة على المدعي ومع هذا صاحب الكرامة يجب عليه ان يكون خايفا وجلا ولهذا قال المحققون اكثر ما حصل الانقطاع عن حضرة الله انما وقع في مقامات الكرامات فلا جرم ترى المحققين يخافون من الكرامات كما يخافون من اشد انواع البلا والذي يدل على ان الاشتغال بالكرامة قاطع عن الطريق وجوه الاول ان الكرامات اشيا مغايرة للحق سبحانه وتعالى فالفرح بالكرامة فرح بالحق والفرح بغير الحق حجاب والمحجوب عن الحق كيف يليق به الفرح والسرور الوجه الثاني ان من اعتقد في نفسه انه صار مستحقا للكرامة بسبب عمله حصل لعمله وقع عظيم في قلبه ومن كان لعمله وقع عظيم في قلبه كان جاهلا اذ لو عرف ربه لعلم ان كل طاعات الخلق في جنب جلاله تقصير وكل شكر في جنب الائه ونعمايه قصور وكل معارفهم وعلومهم فهي في مقابلة عزه حيرة وجهل وجدت في بعض الكتب انه قرئ في مجلس الاستاذ ابي علي الدقاق قوله تعالى اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه فقال علامة ان الحق رفع عملك ان لا يبقى عندك منه شي فان بقي عملك في نظرك فهو مرفوع مقبول الوجه الثالث ان صاحب الكرامة انما وجد الكرامة لاظهار الذل والتضرع في حضرة الله تعالى فاذا ترفع وتجبر وتكبر بسبب الكرامات فقد بطل ما به وصل الى الكرامات فهذا طريق يودي ثبوته الى عدمه فكان مردودا ولهذا المعنى لما ذكر صلى الله عليه وسلم مناقب نفسه وفضايلها كان يقول في اخر كل واحد منها ولا فخر حتى لا فخر هذه الكرامات وانما الفخر بالمكرم المعطي الوجه الرابع انه تعالى وصف عباده المخلصين بقوله تعالى ويدعوننا رغبا في ثوابنا ورهبا من عقابنا وقيل رغبا في وصالنا ورهبا من عقابنا قال بعض المحققين والاحسن ان يقال رغبا فينا ورهبا عنا وفي هذا القدر كفاية لاولي الالباب

جعلنا الله واحبابنا من اهل ولاية محمد واله وصحابته ثم لما دل اشتمال القران
على قصة اصحاب الكهف من حيث انها من المغيبات بالاضافة الى النبي صلى
الله عليه وسلم انه وحي معجز امره ان يداوم درسه ويلازم اصحابه بقوله
تعالى واتل ما اوحي اليك من كتاب ربك اي القران العظيم واتبع ما فيه واعمل
بما فيه لا مبدل لكلماته اي لا احد يقدر على تبديلها وتغييرها غيره
وبعضهم قال مقتضى هذا ان لا يتطرق النسخ اليه واجاب بان النسخ
في الحقيقة ليس بتبديل لان المنسوخ ثابت في وقته
الى وقت طريان الناسخ فالناسخ كالمغاير فكيف يكون تبديلا وهذا الاحتياج
اليه مع التفسير المذكور ولن تجد من دونه اي الله ملتحدا اي ملجا في
البيان والارشاد وقيل ان لم تتبع القران ونزل في عيينة بن حصين الفزاري
لما اتى النبي صلى الله عليه وسلم قبل ان يسلم وعنده جماعة من الفقرا فيهم سلمان
الفارسي وعليه شملة قد عرق فيها وبيده خوص يشقه ثم ينسجه فقال اما
يؤذيك ريح هؤلاء ونحن سادات مضر واشرافها فان اسلمنا اسلم الناس
وما يمنعنا من اتباعك الا هؤلاء كما قال قوم نوح انؤمن لك واتبعك
الارذلون فنحهم حتى نتبعك واجعل لنا مجلسا واجعل لهم مجلسا واصبر
نفسك اي احبسها وثبتها مع الذين يدعون ربهم ونظير هذه الاية
قد سبق في سورة الانعام وهو قوله تعالى ولا تطرد الذين يدعون ربهم
بالغداة والعشي يريدون وجهه ففي هذه الاية نهي الرسول عن طردهم
وفي هذه الاية امره بمجالستهم والمصابرة معهم وفي قوله تعالى بالغداة
والعشي وجوه الاول انهم مواظبون على هذا العمل في كل الاوقات كقول
القائل ليس لفلان عمل الا الغداة والعشي الا شتم الناس الثاني صلاة الفجر
والعصر الثالث ان المراد ان الغداة هو الوقت الذي ينتقل فيه الانسان
من النوم الى اليقظة وهذا الانتقال شبيه بالانتقال من الموت الى الحياة
والعشي هو الوقت الذي ينتقل الانسان فيه من الحياة الى الموت ومن
اليقظة الى النوم والانسان العاقل يكون في هذين الوقتين كثير الذكر
لله تعالى عظيم الشكر لالاء الله ونعمائه وقرا ابن عامر بضم الغين المعجمة
وسكون الدال وبعدها واو مفتوحة والباقون بفتح الغين والدال والف
بعدها واو والرسم في المصحف بالواو هنا وفي سورة الانعام يريدون
بعبادتهم وجهه تعالى اي رضاه وطاعته لا سببا من اغراض الدنيا
ولا تعد اي تصرف عيناك عنهم الى غيرهم وعبر بالعين عن صاحبها
فنهى النبي صلى الله عليه وسلم ان يصرف نفسه عنهم لاجل رغبته في مجالسة
الاغنيا لعلهم يؤمنون وقوله تعالى تريد زينة الحياة الدنيا في موضع الحال
اي انك فعلت ذلك لم يكن اقدامك عليه الا لرغبتك في زينة الحياة الدنيا

ولما بالغ

ولما بالغ تعالى ان امره في مجالسة الفقرا من المسلمين بالغ في النهي عن الالتفات
الى اقوال الاغنيا والمتكبرين بقوله تعالى ولا تطع من اغفلنا قلبه اي
جعلنا قلبه غافلا عن ذكرنا اي عيينة ابن حصين وقيل امية ابن خلف واتبع
هواه اي في طلب الشهوات وكان امره فرطا اي اسرافا وباطلا وهذا
يدل على ان اشر احوال الانسان ان يكون قلبه خاليا عن ذكر الحق ويكون
مملوا من الهوى الداعي الى الاشتغال بالخلق لان ذكر الله تعالى نور وذكر
غيره ظلمة لان الوجود طبيعة النور والعدم منبع الظلمة والحق تعالى
واجب الوجود لذاته وكان النور الحق هو الله تعالى وما سواه فهو ممكن
الوجود لذاته والامكان طبيعة عدمه وكان منبع الظلمة فالقلب اذا اشرق
فيه ذكر الله فقد حصل فيه النور والضوء والاشراق واذا توجه القلب
الى الخلق فقد حصل فيه الظلم والظلمة بل الظلمات فلهذا السبب اذا اعرض
القلب عن الحق واقبل على الخلق فهو الظلمة الخالصة التامة والاعراض
عن الحق هو المراد بقوله تعالى اغفلنا قلبه عن ذكرنا والاقبال على الخلق
هو المراد بقوله تعالى واتبع هواه روى ابو سعيد الخدري قال كنت
جالسا في عصابة من فقرا المهاجرين وان بعضهم ليستتر ببعض من العري
وقارئ يقرا من القران فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال
ما الذي كنتم تصنعون قلنا يا رسول الله كان واحد يقرا القران ونحن نستمع
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحمد لله الذي جعل من امتي من امرت
ان اصبر نفسي معهم ثم جلس وسطنا وقال ابشروا يا صعاليك
المهاجرين بالنور التام يوم القيامة فتدخلون الجنة قبل الاغنيا
بمقدار خمسماية سنة ولما امر تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بان لا
يلتفت الى اولئك الاغنيا الذين قالوا ان طردت الفقرا امنا بك قال
تعالى بعده وقل الحق اي وقل لهؤلاء ولغيرهم هذا الذي جئتكم به في امر
اهل الكهف وغيرهم من هذا الوحي العربي المعري عن العوج الظاهر
الاعجاز الباهر الحجج الحق كائنا من ربكم المحسن اليكم في امر اهل الكهف
وغيرهم من صبر نفسي معي على المؤمنين والاعراض عمن سواهم وغير ذلك لا
ما قلتموه في امرهم ويجوز ان يكون الحق مبتدا وخبره الجار بعده فمن شاء
منكم او من غيركم فليؤمن بهذا الذي قصصناه فهو وفق غيرهم فهو مقبول
مرغوب فيه وان كان فقيرا ازري الهيئة ولم ينفع الا نفسه ومن شاء منكم
ومن غيركم فليكفر فهو اهل لان يعرض عنه ولا يلتفت اليه وان كان
اغنا الناس واحسنهم هيئة وان تناقضت هيئته وهذا لا يقتضي استقلال
العبد بفعله كما تقول المعتزلة فعن ابن عباس في معنى الاية من شاء الله له
الايمان امن ومن شاء له الكفر كفر ونقل عن علي انه قال هذه الصيغة

تهديد ووعيد اي فهي كقوله تعالى اعملوا ما شئتم فان الله تعالى لا ينتفع بايمان
المومنين ولا يتضرر بكفر الكافرين بل نفع الايمان يعود على المومن وضرر الكفر
يعود على الكافر كما قال تعالى ان احسنتم احسنتم لانفسكم وان اساتم فلها
ولما هدد السامعين بما حاصله ليختر كل امرئ لنفسه ما يجده غدا عند الله
اتبعه بذكر الوعيد والافعال الباطلة وبذكر الوعد على الايمان والاعمال
الصالحة اما الوعيد فقوله تعالى انا اعتدنا اي هيئنا بما لنا من العظمة
والقدرة للظالمين اي لمن انف عن قبول الحق لاجل ان الذين قبلوه فقرا
ومساكين وبدا بكل من لم يومن نارا وهي الجحيم ثم وصف الله تعالى تلك النار
بصفتين الاولى قوله تعالى احاط بهم كلهم سرادقها اي فسطاطها شبه
به ما يحيط بهم من النار وقيل هو الحجرة التي تكون حول الفسطاط وقيل حائط
من نار والمراد انه لا مخلص لهم منها ولا فرجة يتفرجون بالنظر الى ما وراءها
من غير النار بل هي محيطة من كل الجوانب وقيل هو دخان يغشاهم قبل دخولهم
النار يحيط بهم كالسرادق حول الفسطاط الصفة الثانية قوله تعالى
وان يستغيثوا اي يطلبوا الغوث يغاثوا ووصف هذا الما بصفتين
الاولى قوله تعالى كالمهل وهو كما في حديث مرفوع كدردي الزيت وعن ابن
مسعود انه دخل بيت المال واخرج نفاية كانت فيه واوقد عليها النار حتى
تلالات ثم قال هذا هو المهل وقال ابو عبيدة والاخفش كل شي اذيب
من نحاس او ذهب او فضة فهو المهل وقيل انه الصديد والقيح وقيل انه
ضرب من القطران ثم يحتمل ان تكون هذه الاستغاثة لانهم طلبوا ما الشرب
فيعطون هذا المهل قال تعالى تصلى نارا حامية تسقى من عين انية ويحتمل
ان يستغيثوا من حر جهنم فطلبوا ما يصبونه على انفسهم للتبريد فيعطون
هذا الما قال تعالى حكاية عنهم افيضوا علينا من الما وقال تعالى في اية
اخرى سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار فاذا استغاثوا من
حر جهنم صب عليهم القطران الذي يعم كل ابدانهم كالقميص والصفة
الثانية للما قوله تعالى يشوي الوجوه اي اذا قرب اليهم للشرب فكيف بالفم
والجوف ثم وصل تعالى بذلك ذمه فقال تعالى بئس الشراب اي ذلك الما
الذي هو كالمهل لان المقصود من شرب الشراب تسكين الحرارة وهذا
في احراق الانسان مبلغا عظيما ثم عطف عليه ذم النار المعدة لهم
بقوله تعالى وساءت اي النار وقوله تعالى مرتفقا تمييز منقول عن
الفاعل اي قبح مرتفقها وهو مقابل لقوله تعالى الاتي في الجنة وحسنت
مرتفقا والا فاي ارتفاق في النار ولما ذكر تعالى وعيد المبطلين اردفه
بوعد المحقين فقال تعالى ان الذين امنوا ولما كان الايمان هو الاذعان
للاوامر عطف عليه ما يحقق ذلك بقوله وعملوا الصالحات ثم عظم جزاءهم

بقوله

بقوله تعالى انا لا نضيع اي بوجه من الوجوه اجر من احسن عملا وهذه الجملة
خبر ان الذين وفيها اقامة الظاهر مقام المضمر والمعنى اجرهم اي بشيء
مما تضمنه اولئك لهم جنات عدن اي اقامة فكانه قيل فما لهم فيها فقيل تجري
من تحتهم اي من تحت منازلهم الانهار وذلك لان افضل المساكن ما كانت
تجري فيه الانهار والمتفكهات قيل ثم ماذا فقيل يحلون فيها وبني الفعل
للمجهول لان المقصود وجود التحلية وهي لعزتها انما يؤتون من الغيب فضلا
من الله تعالى ولما كانت نعم الله لا تحصى نوع منها قال تعالى منها من اساور
جمع اسورة كاحمرة جمع سوار كما يلبس ذلك ملوك الدنيا من جبابرة الكفرة
في بعض الاقاليم كاهل فارس وقيل من زائدة وقيل للابتدا ومن في قوله
تعالى من ذهب للبيان صفة لاساور وتنكير لتعظيم حسنها من
الاحاطة به وقيل للتبعيض ولما كان اللبس جزاء العمل فكان موجودا منهم
اسند الفعل اليهم فقال ويلبسون ثيابا خضرا لان الخضرة احسن
الالوان واكثرها طراوة ثم وصفها بقوله تعالى من سندس وهو ما رق
من الديباج واستبرق وهو ما غلظ منه جمع بين النوعين للدلالة على ان
فيها ما تشتهي الانفس وتلذ الاعين وفي اية اخرى بطائنها من استبرق
فيكون الغليظ بطانة للرقيق ثم استانف الوصف عن حال جلوسهم فيها
بانه جلوس الملوك المتمكنين من النعيم فقال تعالى متكئين فيها اي لانهم
في غاية الراحة على الارائك جمع اريكة وهي السرير في الحجلة وهي بيت
يزين بالثياب والستور للعروس ثم مدح هذا بقوله تعالى نعم الثواب
اي الجزاء الجنة لو لم يكن لها وصف غير ما سمعتم فكيف ولها من الاوصاف
ما لا يعلم حق علمه الا الله تعالى والى ذلك اشار بقوله تعالى وحسنت
اي الجنة كلها وبين ذلك بقوله تعالى مرتفقا اي مقرا ومرتفقا
ومجلسا ولما افتخر الكفار باموالهم وانصارهم على فقرا المسلمين بين الله
تعالى ان ذلك مما لا يوجب الافتخار لاحتمال ان يصير الفقير غنيا والغني
فقيرا واما الذي يجب الافتخار به فطاعة الله تعالى وعبادته وهي
حاصلة لفقرا المومنين وبين ذلك بضرب هذا المثل المذكور بقوله
تعالى واضرب لهم اي لهولا الاغنيا المتجبرين الذين يستكبرون
على الفقرا المومنين ويطلبون طردهم لضعفهم وفقرهم مثلا لما اتاهم
الله من زينة الحياة الدنيا ثم اعتمدوا عليه وركنوا اليه ولم يشكروا من اتاهم اياه
عليه بل اداهم الى الافتخار والتكبر على من زوي ذلك عنه اكراما له وصيانة
عنه رجلين الى اخر الاية واختلف في سبب نزولها فقيل نزلت في رجلين
من اهل مكة من بني مخزوم احدهما مومن وهو ابو سلمة وكان زوج ام سلمة
قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم والاخر كافر وهو الاسود وهما ابنا

عبد الاشد بن عبد يا ليل وقيل مثال لعيينة بن حصين واصحابه مع سلمان واضرابه
شبههما برجلين من بني اسرائيل اخوين احدهما مومن واسمه يهودا في قول ابن
عباس وقال مقاتل تمليخا والاخر كافر واسمه فطروس وقال وهب قطفير وهما اللذان
وصفهما الله تعالى في سورة الصافات وكانت قصتهما على ما حكى عبد الله بن المبارك
عن معمر عن عطا الخراساني قال كان رجلين مشتركين لهما ثمانية الاف دينار وقيل كان اخوين
فاقتسماها فاشترى احدهما ارضا بالف دينار وقال الاخر اني مشتر منك ارضا
في الجنة بالف دينار فتصدق بها ثم ان صاحبه بنا دارا بالف دينار فقال صاحبه
اللهم ان فلانا بنى دارا بالف دينار واني اشتريت منك دارا في الجنة بالف دينار
فتصدق بها ثم تزوج صاحبه بامراة فانفق عليها الف دينار فقال هذا اللهم
اني اخطب اليك من نسا الجنة بالف دينار فتصدق بها ثم اصابته حاجة شديدة
فقال لو اتيت صاحبي لعل ينالني بمعروف فجلس على طريقه حتى مر به في حشمه
فقام اليه فنظر اليه الاخر فعرفه فقال له فلان قال نعم قال ما شانك قال
اصابتني حاجة بعدك فاتيت لتغيثني بخير قال ما فعل مالك وقد اقتسمنا
مالا واخذت شطره فقص عليه قصته فقال وانك لمن المصدقين بهذا
اذهب فلا اعطيك شيا فطرده وروي انه لما اتاه اخذ بيده فجعل يطوف
به ويريه اموال نفسه فنزل فيهما واضرب لهم مثلا رجلين اي اذكر لهم خبر
رجلين **جعلنا لاحدهما جنتين** اي بستانين يسر ما فيهما من الاشجار
من يدخلهما **من اعناب** لانها من اشجار البلاد الباردة وتصبر على الحر وهي
فاكهة وقوت بالعنب والزبيب والخل وغيرهما ثم انه تعالى وصف الجنتان
بصفات الصفة الاولى قوله تعالى **وحففناهما** اي اطفناهما من جوانبهما
بنخل لانها من اشجار البلاد الحارة وتصبر على الحر بما منعت عن الاعناب
بعض اسباب لعاهات وثمرها فاكهة بالبسر والرطب وقوتا بالتمر والخل
فكان النخل كالاكليل من ورا العنب تنبيه الحفاف الجانب وجمعه احفة
يقال احف به القوم اي اطافوا بجوانبه الصفة الثانية قوله تعالى **وجعلنا
بينهما** اي اراضي الجنتين **زرعا** لبعد شمول الافة للكل لان زمان
الزرع ومكانه غير زمان ثمار الشجر ومكانه وذلك هو العمدة في القوت فكانت
الجنتان ارضا جامعة لخير الفاكهة وافضل الاقوات وعمارتها متشابكة
لم يتوسطها ما يقطعها ويفصل بينهما مع سعة الاطراف وتباعد الاكناف
وحسن الهيات والاوصاف الصفة الثالثة قوله تعالى **كلتا** اي كل
واحدة من **الجنتين** المذكورتين **اتت اكلها** اي ما يطلب منها وهو كل من
ثمر وحب كاملا غير منسوب شي منهما الى نقص ولا رداة وهو معنى
ولم تظلم اي ولم تنقص **منه شيا** يعهد في سائر البساتين فانه
تثمر في عام وتنقص في عام غالبا والظلم النقصان يقول الرجل ظلمني حقي

اي نقص

اي نقصني تنبيه كلتا اسم مفرد معرفة يوكد به مذكران معرفان وكلتا
اسم مفرد ومعرفة يوكد به مونثان معرفتان وانما اذا اضيف الى المظهر
كانا بالالف في الاحوال الثلاثة كقولك جاني كلا اخويك ورايت اخويك
ومررت باخويك وجاني كلتا اختيك ورايت كلتا اختيك ومررت
بكلتا اختيك واذا اضيفا الى المضمر كانا في الرفع بالالف وفي الجر
والنصب بالياء وبعضهم مع المضمر بالالف في الاحوال الثلاثة
ايضا فقوله تعالى اتت اكلها حمل على اللفظ لان كلتا لفظه مفرد ولو
قيل اتيا على المعنى لجاز الصفة الرابعة قوله تعالى وفجرنا وخلالهما
ومنه يقال خللت القوم اي دخلت القوم وذلك ليدوم شربهما
ويستغنيان عن المطر عند القحط ويزيد بهما وهما الصفة الخامسة
قوله تعالى **وكان له** اي صاحب الجنتين **ثمر** اي انواع من المال سوى
الجنتين قال ابن عباس من ذهب وفضة وغير ذلك من ثمر ماله اذا
كثر وعن مجاهد الذهب والفضة خاصة اي كان مع الجنتين
اشيا من الاموال ليكون متمكنا من العمارة بالاعوان والالات وجميع ما
يريد وقرا ابو عمرو بثمرها وثمره الاتي بسكون الميم فيهما بعد ضم المثلثة
وقرا عاصم بفتح المثلثة والميم فيهما والباقون فيهما بضم المثلثة والميم
فيهما ذكر اهل اللغة ان الضم انواع المال من الذهب والفضة وغيرهما
وبالفتح حمل الشجر قال قطرب وكان ابو عمرو بن العلا يقول الثمر المال والولد
وانشد للحارث بن حلزة ولقد رايت معاشرا قد ثمروا مالا وولدا
فقال اي هذا الكافر **لصاحبه** اي المسلم المجعول مثلا للفقرا المومنين
وهو اي صاحب الجنتين **يحاوره** اي يراجعه الكلام من حار يحور اذا رجع
افتخارا عليه وتقبيحا لحاله بالنسبة اليه والمسلم يحاوره بالوعظ وتقبيح
الركون الى الدنيا **انا اكثر منك مالا** لما ترى من جناتي وثماري وقرا نافع بمد
الالف بعد النون والباقون بالقصر هذا في الوصل واما في الوقف فبالالف
للجميع وسكن قالون وابو عمرو والكسائي ها وهو وضمها الباقون ورقق
ورش را يحاوره **واعز نفرا** اي ناسا يقومون معي في المهمات
وينفرون عند الضرورات لان ذلك لازم لكثرة المال غالبا وترى اكثر
الاغنيا من المسلمين وان لم يطلقوا بمثل هذا السنتهم فان السنة
احوالهم ناطقة به منادية عليه **ودخل جنته** بصاحبه يطوف به فيها
ويفاخره بها وافرد الجنة لارادة الجنس ودلالة ما افاده الكلام
من انهما لاتصالهما كالجنة الواحدة او اشارة انه لا جنة له غيرها
لانه لا حظ له في الاخرة **وهو** اي والحال انه **ظالم لنفسه** لاعتماده على
ماله والاعراض عن ربه ثم استانف بيان ظلمه بقوله تعالى

قال ما اظن ان تبيد اي تفنى هذه الجنة ابدا لطول امله وتمادي غفلته
واغتراره بمهلته ثم زاد في الطغيان والبطر بقصر النظر على الحاضر فانكر البعث
بقوله وما اظن الساعة قائمة اي كائنة استلذاذا بما هو فيه واخلادا اليه
واعتمادا عليه وقوله ولئن رددت الى ربي المحسن الي في هذه الدار في الساعة
اقسام منه على انه ان رد الى ربه على سبيل الفرض والتقدير وهو ما زعم صاحبه
ان الساعة قائمة لاجدن خيرا منها اي من هذه الجنة منقلبا اي مرجعا
لانه لم يعطني الجنة في الدنيا الا ليعطيني في الاخرة افضل منها قال ذلك
طمعا وتمنيا على الله وادعاء لكرامته عليه ومكانته عنده وانه ما اولاه الجنتين
الا باستحقاقه واستيهاله وانه معه هذا الاستحقاق اين توجه كقوله
ان لي عنده للحسنى لاوتين مالا وولدا قال له صاحبه اي المومن
وهو اي والحال ان ذلك الصاحب يحاوره اي يراجعه منكرا عليه
اكفرت بالذي خلقك من تراب اي خلق اصلك من تراب لان خلق اصلك
ادم لان خلق اصله سبب في خلقه وكان خلقه خلقا له ثم من نطفة
متولدة من اغذية اصلها تراب هي مادتك القريبة ثم سواك اي عدلك
بعد ان ولدك وطورك في اطوار النشاة رجلا اي كملك انسانا ذكرا
بالغا مبلغ الرجال جعل كفره بالبعث كفرا بالله تعالى لانه منشا الشك
في كمال قدرة الله تعالى ولذلك رتب الانكار على خلقه اياه من التراب فان من
قدر على بدء خلقه مرة قدر على ان يعيده منه ولما انكر على صاحبه اخبر
عن اعتقاده بما يضاد اعتقاد صاحبه فقال موكدا لاجل الانكار
صاحبه مستدركا لاجل كفره انه لكنا اصله لكن انا فنقلت حركة الهمزة
الى النون وحذفت الهمزة ثم ادغمت النون في مثلها كما قال القائل
وترمينني بالطرف اي انت مذنب وتقلينني لكن اياك لا اقلي
اي لكن انا لا اقليك ولما كان سبحانه وتعالى هو الذي اظهره ولا شي
ابطن منه اشار الى ان ذلك جميعا باضماره قبل الذكر فقال هو اي
الظاهر اتم ظهور فلا يخفى اصلا ويجوز ان يكون الضمير للذي خلقك
الله اي المحيط بصفات الكمال ربي وحده لم يحسن الي خلقا ورزقا
احد غيره وهذا اعتقادي في الماضي والحال وقرا ابن عامر باثبات
الالف بعد النون وقفا ووصلا باتباع المرسوم والباقون باثبات
الالف وقفا وحذفها وصلا فان قيل قوله لكنا استدراك لماذا
اجيب بانه لقوله اكفرت فكانه قال لاخيه انت كافر بالله لكني
مومن موحد كما تقول زيد غائب لكن عمرو حاضر وذكر القفال في قول
المومن ولا اشرك بربي اي المحسن الي في عبادتي احدا وجوها
احدها اني لا ارى الفقر والغنى الا منه فاحمده اذا اعطى واصبر

اذا

اذا ابتلي ولا افتخر عند ما انعم علي ولا ارى كثرة الاعوان والاموال من نفسي
وذلك لان الكافر لما اغتر بكثرة المال والجاه فكانه قد اثبت لله شريكا في
اعطاء العز والغنى وثانيها لعل ذلك الكافر مع كونه منكرا للبعث كان عابد صنم
فبين هذا المومن فساد قوله باثبات الشركاء وثالثها ان هذا الكافر لما عجز
الله عن البعث والحشر فقد جعله مساويا للخلق في هذا العجز واذا اثبت
المساواة فقد اثبت الشريك ثم قال المومن للكافر ولولا اذ اي وهلا
حين دخلت جنتك قلت عند اعجابك بها ما يدل على تفويضك الامر فيها
وفي غيرها الى الله تعالى وهو ما شاء الله اي الامر ما شاء الله او ما شاء الله
كائن على ان ما موصولة اي واي شيء شاء الله كان على انها شرطية والجواب
محذوف اي الامر ابقاؤها وما فيها بمشيئة الله تعالى ان شاء ابقاها وان
شاء اهلكها وقرا ابن ذكوان وحمزة بالامالة والباقون بالفتح واذا وقف
حمزة وهشام على شاء ابدل الهمزة الفا مع المد والتوسط والقصر واظهر
اذ عند الدال نافع وابن كثير وعاصم والباقون بالادغام وقلت لا قوة
الا بالله اعترافا بالعجز على نفسك والقدرة لله وانما تيسر لك من
عمارتها وتدبير امرها بمعونة الله تعالى واقداره لا يقوى احد في بدنه
ولا في ذلك الا بالله وفي الحديث من اعطي خيرا من اهل او مال فيقول
عند ذلك ما شاء الله لا قوة الا بالله لم ير فيه مكروها فانه ثم ان المومن لما علم
الكافر الايمان اجابه عن افتخاره بالمال والنفس فقال ان ترن انا
اقل منك مالا وولدا اي من جهة المال والولد ويحتمل ان يكون انا
فصلا وان يكون تاكيدا للمفعول الاول مفيدا وقرا قالون وابو عمرو
باثبات الياء وصلا وحذفها وقفا وابن كثير باثباتها وصلا ووقفا
والباقون بالحذف وصلا ووقفا وقوله تعالى فعسى ربي اي
المحسن الي ان يوتين من خزائن رزقه خيرا من جنتك اما في الدنيا
واما في الاخرة لايماني في جواب الشرط ويرسل عليها اي جنتك
حسبانا جمع حسبانة اي صواعق من السماء فتصبح بعد كونها
قرة للعين بما تنبت من الاشجار والزروع صعيدا زلقا اي ارضا
ملساء باستئصال نباتها واشجارها فلا ينبت فيها نبات ولا يثبت
عليها قدم وقوله او يصبح ماؤها غورا اي غائرا في الارض لا تناله
الايدي والدلاء مصدر وصف به كالزلق فلن تستطيع له اي
للماء الغائر طلبا للعجز بحيث لا يقدر على رده الى موضعه ثم اخبر الله
تعالى انه حقق ما قدره هذا المومن فقال واحيط بثمره اي وقعت الاحاطة
بالهلاك ونفى المفعول لان المقصود حاصل باحاطة الهلاك من غير
نظر الى فاعل مخصوص والدلالة على سهولته فاصبح اي الرجل المشرك

كله واستوصلها الكافي السهل منه وما في الجبل وما يصير منه على البر والبحر وما لا يصير قال بعض المفسرين ان الله تعالى ارسل عليها نارا فاحرقتها وغار ماؤها فاصبح يقلب كفيه ندما ويضرب احديهما على الاخرى تحسرا فتقليب الكفين كناية عن الندم والتحسر لان النادم يقلب كفيه ظهرا لبطن كما يكنى عن ذلك بعض الكف والسقوط في اليد لانه في معنى الندم عدي تعديته كانه قيل فاصبح يندم على ما انفق فيها اي في عمارتها ونمائها وهي خاوية اي ساقطة على عروشها اي دعائمها التي كانت تحتها سقطت على الارض وسقطت هي فوقها وقوله تعالى ويقول عطف على يقلب او حال من ضميره يا للتنبيه ليتني تمنى لرد ما فاته لحيرته وذهول عقله ودهشته وعدم اعتماده على الله تعالى من غير اشراك بالاعتماد على الفاني لم اشرك بربي احدا كما قال له صاحبه فندم حيث لا ينفعه الندم على ما فرط في الماضي لاجل ما فاته على الدنيا لا حرصا على الايمان لحصول اليبوس في العقبى لقصور عقله مع المحسوسات المشاهدة فان قيل ان هذا الكلام يوهم انه انما اتت جنته انما هلكت بشوم شركه وليس مراد الان انواع البلا اكثرها انما يقع للمومنين قال تعالى ولولا ان يكون الناس امة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون وقال صلى الله عليه وسلم خص البلا بالانبيا ثم الاوليا ثم الامثل فالامثل وايضا لما قال يا ليتني لم اشرك بربي احدا فقد ندم على الشرك ورغب في التوحيد فوجب ان يصير مومنا فلم قال تعالى بعده ولم تكن له فئة اي جماعة من نفره الذين اعتز بهم ولا من غيرهم ينصرونه اما وقع فيه من دون الله بعد هلاكها وما كان هو منتصرا بنفسه بل ليس الامر في ذلك الا لله وحده اجيب عن الاول بانه لما عظمت حسرته لاجل انه انفق عمره كله عن طلب الدين فلما ضاعت الدنيا بالكلية بقي محروما عن الدنيا والدين وعن الثاني فانه انما ندم عن الشرك لاعتقاده على انه لو كان موحدا عن شركه لبقيت عليه جنته فهو انما رغب في ذلك لاجل طلب الدنيا فلذلك لم يقبل الله توحيده وقرا حمزة والكسائي يكن بالتحتية على التذكير والباقون بالفوقية على التانيث ولما انتج هذا المثل قطعا انه لا امر لغير الله تعالى المرجو لنصر اولياه ولبائه بعد ذلهم ولاغنائهم بعد فقرهم ولاذلال اعدائهم بعد عزهم وكبرهم وافقارهم بعد اغنائهم وجدهم وان غيره انما كان كالخيال لا حقيقة له صرح بذلك في قوله تعالى هنالك اي في مثل هذه الشدايد العظيمة الولاية لله اي الذي له الكمال كله

وقرا حمزة والكسائي بكسر الواو اي الملك والباقون بفتحها اي النصرة وقوله تعالى الحق قرا ابو عمرو والكسائي برفع القاف على الاستيناف والقطع تعليلا تنبيها على ان فزعهم في مثل هذه الازمان اليه دون غيره برهان قاطع على انه الحق وما سواه باطل وان الفخر بالعرض الزايل من اجل الجهل وان المومنين لا يصيبهم فقر ولا يسوغ طردهم لاجله وانه يوشك ان يعود فقرهم غنى وضعفهم قوة وقرا الباقون وقرا الباقون بخفضها على الوصف اي الثابت الذي لا يحول يوما ولا يزول ولا يغفل ساعة ولا ينام ولا ولاية لغيره بوجه هو خير ثوابا من ثواب غيره لو كان يثيب وخير عقبا اي عاقبة للمومنين وقرا عاصم وحمزة بسكون القاف وبضمها ونصب على التمييز ولما تم المثل لدنياهم الخاصة بهم التي نظرتهم فكانت سببا لاشقائهم وهم يحسبون انها عين اسعادهم ضرب لدار الدنيا العامة لجميع الناس في قلة ثوابها وسرعة فنائها وان من تكبر كان اخس منها فقال واضرب اي صير لهم اي لهولا الكفار المغترين بالعرض الفاني المفتخرين بكثرة ذكر الاموال والاولاد وعزة النفر وقوله تعالى مثل الحياة الدنيا مفعول اول ثم ذكر المثل بقوله تعالى كما وهو المفعول الثاني انزلناه بعظمتنا وقدرتنا وقال تعالى من السما تنبيها على القدرة في امساكه في العلو وانزاله في وقت الحاجة فاختلط اي فنعقد وتشبث عن انزاله فاختلط به نبات الارض اي التف به حتى خالط بعضه بعضا من كثرته وتكاثفه كما قال تعالى فاذا انزلنا عليها الما اهتزت وربت وقيل اختلط ذلك الما بالنبات حتى روي واهتز ونمي وكان حق اللفظ على هذا التفسير فاختلط به نبات الارض لكن لما كان كل من المختلطين موصوفا بصفة صاحبه عكس للمبالغة في كثرته ثم اذا انقطع ذلك بالمطر منه جف ذلك النبات فاصبح هشيما اي يابسا متفرقة اجزاوه تذروه اي تنثره وتفرقه الرياح فتذهب به والمعنى انه تعالى شبه الدنيا بنبات حبس فيبس وتكسر ففرقته الرياح حتى تصير عما قليل كانه بقدرة الله تعالى لم يكن وقرا حمزة والكسائي بالتوحيد والباقون بالجمع وكان الله اي المختص بصفات الكمال على كل شي من دون ذلك وغيره انشا وافنا واعادة مقتدرا ازلا وابدا بتكوينه اولا وتنميته وسطا وابطاله اخرا فاحوال الدنيا ايضا كذلك تظهر اولا في غاية الحسن والنضارة ثم تتزايد قليلا قليلا ثم باخذ

في الانحطاط الى ان ينتهي الى الهلاك والفنا ومثل هذا الشي ليس للعاقل ان يبتهج به تنبيه قوله تعالى فاصبح يجوز ان يكون على بابه فان اكثر ما يطرق من الافات صباحا وكقوله تعالى فاصبح يقلب كفيه ويجوز ان يكون بمعنى صار من غير تقييد بصباح من غير تقييد بصباح كقول القايل اصبحت لا احمل السلاح ولا املك راس البعير ان نفرا ولما بين سبحانه وتعالى ان الدنيا سريعة الانقراض والانقضا مشرفة على الزوال والبوار والفنا بين بقوله تعالى **المال والبنون زينة الحياة الدنيا** او خال هذا الجزا تحت هذا الكلي فينعقد به قياس من الانتاج وهو ان المال والبنون زينة الحياة الدنيا ولما كانت زينة الحياة الدنيا سريعة الانقضا والانقراض وما كان كذلك فانه يقبح بالعقل ان يفتخر به او يفرح بسببه او يقيم له في نظره وزنا وهذا برهان ظاهر باهر على فساد قول اولئك المشركين الذين افتخروا على فقرا المومنين بكثرة الاموال ثم ذكر تعالى ما يدل على رجحان اولئك الفقرا على اولئك الكفار من الاغنيا فقال **والباقيات الصالحات خير** اي من الزينة الفانية لان خيرات الدنيا منقرضة منقضية وخيرات الاخرة دايمة باقية والدايم الباقي خير من المنقرض المنقضي وهذا معلوم بالضرورة لاسيما وقد ثبت ان خيرات الدنيا خسيسة وان خيرات الاخرة رفيعة شريفة والمفسرون ذكروا في الباقيات الصالحات اقوالا احدها انها سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر زاد بعضهم ولا حول ولا قوة الا بالله وللغزالي في تفسير هذه الزيادة وجه لطيف فقال روي انه من قال سبحان الله حصل له من الثواب عشر حسنات فاذا قال الحمد لله صارت عشرين فاذا قال ولا اله الا الله صارت ثلاثين فاذا قال والله اكبر صارت اربعين وتحقيق القول فيه ان مراتب الثواب اعظمها هو الاستغراق في معرفة الله تعالى وفي محبته فاذا قال سبحان الله فقد عرف كونه تعالى منزها عن كل ما لا يليق به وكل ما لا ينبغي فحصول هذا العرفان سعادة عظيمة وبهجة كاملة فاذا قال مع ذلك الحمد لله فقد اقر بان الحق سبحانه وتعالى مع كونه منزها عن كل ما لا ينبغي فهو المبدا لكل ما ينبغي ولافاضة كل خير وكمال فقد تضاعفت درجات المعرفة فلا جرم قلنا بمضاعفة الثواب فاذا قال مع ذلك لا اله الا الله فقد اقر بان الذي تنزه عن كل ما لا ينبغي وهو المبدا لكل ما ينبغي ليس في الوجود موجود هكذا الا هو الواحد فقد صارت مراتب المعرفة ثلاثة فلا جرم صارت درجات الثواب ثلاثة فاذا قال العبد والله اكبر فمعناه انه اكبر واعظم من ان يصل العقل الى كنه كبريايه وجلاله فقد صارت مراتب المعرفة

اربعة فلا جرم صارت درجات الثواب اربعة وعن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لان اقول سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر احب الي مما طلعت عليه الشمس وعن ابي سعيد الخدري انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم استكثروا من الباقيات الصالحات قيل وما هي يا رسول الله قال التهليل والتكبير والتسبيح والحمد لله ولا حول ولا قوة الا بالله ثانيها انها الصلوات الخمس ثالثها انها الطيب من القول رابعها وهو اعمها واولاها انها اعمال الخيرات التي تبقى ثمراتها ابد الاباد فيندرج في ذلك الصلاة واعمال الحج وصيام رمضان وسبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر ولا حول ولا قوة الا بالله والكلام الطيب وغير ذلك من كل عمل وقول دعا الى محبة الله ومعرفته وخدمته واما ما دعا من قول وعمل الى الاعمال باشتغال الخلق فهو خارج عن ذلك لان كل ما سوى الخالق فهو فان لذاته فكان الاشتغال به والانفاق عليه باطلا وسعيا ضايعا واما الحق لذاته فهو الباقي الذي لا يقبل الزوال لا جرم كان الاشتغال بمحبته ومعرفته وطاعته وخدمته هو الذي يبقى بقا لا يزول ولما كان اهم ما الى من حصل البقا ليس كفايته من يحفظها له لوقت حاجته قال تعالى **عند ربك** اي الجليل المواهب العالم بالعواقب وخير من المال والبنين في العاجل والاجل **ثوابا وخير** من ذلك كله **املا** اي من جملة ما يرجوه فيها من الثواب ويرجوه فيها من الامل لان ثوابها الى بقا وامالها كل ساعة في تحقق وعلو وارتقا واهل المال والبنين كان احوج ما يكون اليهما وعن قتادة كلما اريد به وجه الله تعالى خير ثوابا اي ما يتعلق بها من الثواب وما يتعلق بها من الامل لان صاحبها يامل في الدنيا ثواب الله ونصيبه في الاخرة ولما بين سبحانه وتعالى خساسة الدنيا وشرف الاخرة اردفه باحوال يوم القيمة وذكر منها انواعا النوع الاول قوله تعالى **ويوم نسير** اي واذكر لهم يوم **نسير** باسكان **الجبال** عن وجه الارض بعواصف القدرة كما تسير نبات الارض بعد ان صار هشيما بالرياح كما قال تعالى وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب تنبيه ليس في الاية ما يدل الى اين تسير قال الرازي ويحتمل ان يقال ان الله يسيرها الى الموضع الذي يريد ولم يبين ذلك لخلقه والحق ان المراد ان الله تعالى يسيرها الى العدم لقوله تعالى ويسالونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا امتا ولقوله وبست الجبال بسا فكانت هبا منبثا وقرا ابن كثير وابو عمرو وابن عامر بضم التا الفوقية وفتح اليا

لم باحوال

التحتية بعد السين على فعل ما لم يسم فاعله ورفع الجبال باسناد نسيرالها
كما في قوله تعالى واذا الجبال سيرت والباقون بالنون المضمومة وكسر اليا التحتية
بعد السين باسناد فعل التسيير الى نفسه ونصب الجبال لكونه مفعول
نسير والمعنى نحن نفعل بها ذلك اعتبارا بقوله تعالى وحشرناهم والمعنى واحد
لانها اذا سيرت فمسيرها ليس الا الله تعالى النوع الثاني قوله تعالى **وترى**
اي الخلايق **الارض** .. بكمالها **بارزة** لا غبار فيها ولا صدع ولا جبل
ولا نبت ولا شجرة ولا ظل فبقيت بارزة ظاهرة ليس عليها ما يسترها وهو
المراد من قوله تعالى لا ترى فيها عوجا ولا امتا وقيل انها برزت ما في بطنها
وقذفت الموتى المقبورين فيها فاذا هي بارزة الجوف والبطن فحذف ذكر الجوف
كما في قوله تعالى والقت ما فيها وتخلت وقال تعالى واخرجت الارض اثقالها
النوع الثالث قوله تعالى **وحشرناهم** اي الخلايق فهذا الوقت الذي تنكشف
الحجاب وتظهر القبائح والمغيبات ويقع الحساب فيه على النقير والقطمير
والناقد فيه بصير **فلم نغادر** اي نترك **منهم** اي الاولين والاخرين
لانه لا ذهول ولا عجز ونظيره قوله تعالى قل ان الاولين والاخرين لمجموعون
الى ميقات يوم معلوم فان قيل لم جاء نحشرناهم ماضيا بعد نسير
وترى اجيب بان ذلك يقال للدلالة على ان حشرهم قبل التسيير
وقبل البروز ليعاينوا تلك الاهوال العظايم كانه قيل وحشرناهم
قبل ذلك ولما ذكر تعالى حشرهم وكان من المعلوم انه للعرض ذكر
كيفية ذلك العرض فقال بانيا الفعل للمفعول على طريقة كلام
القادرين ولان المخوف العرض لا لكونه من معين **وعرضوا على ربك** اي
المحسن اليك برفع اوليائك وخفض اعدائك وقوله تعالى **صفا** اي
مصطفين واختلف في تفسيره على وجوه الاول ان تعرض الخلق كلهم
صفا واحدا لا تساع الارض ظاهرين لا يحجب بعضهم بعضا لانها
لا يبعد ان يكونوا صفا يقف بعضهم وراء بعض مثل الصفوف المحيطة
بالكعبة التي تكون بعضها خلف بعض وعلى هذا فالمراد بقوله تعالى صفا
صفوفا كقوله تعالى يخرجكم طفلا اي اطفالا الثاني ان المراد بالصف
القيام كقوله تعالى فاذكروا اسم الله عليها صواف اي قياما وقيل كل
امة صفة يقال لهم **لقد جئتمونا كما خلقناكم اول مرة** اي فرادى حفاة عراة
غرلا وليس المراد حصول المساواة من كل وجه لانهم خلقوا صغارا ولا
عقل لهم ولا تكليف عليهم بل المراد ما مر ويقال لمنكري البعث
بل زعمتم ان اي انا **لن نجعل لكم موعدا** اي مكانا ووقتا نجمعكم فيه
هذا الجمع فنجز لكم ما وعدناكم به على السنة رسلنا فكنتم مع
التعزز على المومنين بالاموال والانصار منكرين البعث والقيامة

فالان قد تركتم الاموال والانصار في الدنيا وشاهدتم ان القيامة والبعث حق
وعن ابن عباس قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال
ايها الناس انكم تحشرون الى الله حفاة عراة غرلا كما بدانا اول خلق
نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين الا وان اول خلق يكسى يوم القيمة ابرهيم
عليه السلام الا وانه سيجاء برجال من امتي فيوخذ بهم ذات الشمال
فاقول يا رب اصحابي فيقول انك لا تدري ما احدثوا بعدك فاقول
كما قال العبد الصالح وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم الى قوله العزيز
الحكيم قال فيقال لي انهم لم يزالوا مرتدين على اعقابهم منذ فارقتهم
وفي رواية فاقول سحقا سحقا وقوله غرلا اي قلفا الغرلة القلفة
التي تقطع من جلد الذكر وهو موضع الختان وقوله سحقا اي بعدا قال
بعض العلماء المراد بهولاء الذين ارتدوا من العرب بعده وعن
عايشة رضي الله تعالى عنها قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه
وسلم يقول يحشر الناس حفاة عراة غرلا فقلت الرجال والنسا
جميعا ينظر بعضهم الى بعض فقال الامر اشد من ان يهمهم ذلك
زاد النسائي في رواية لكل امرئ منهم يوميذ شان يغنيه وعن
ابي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
ثنه يحشر الناس على ثلاث طوايف راغبين راهبين واثنان على بعير وثلاثة
على بعير واربعة على بعير وعشرة على بعير ويحشر بقيتهم النار
تقيل معهم حيث قالوا وتبيت معهم حيث باتوا وتصبح معهم
حيث اصبحوا وتمسي معهم حيث امسوا **ووضع** بعد العرض او
بعد العرض المستعقب للجمع بادنى اشارة **الكتاب** المضبوط فيه
دقايق الاعمال وجلايلها على وجه بين لا يخفى على قارئ ولا غيره شي منه
فيوضع كل انسان في يده اما في اليمين واما في الشمال والمراد الجنس وهو
صحف الاعمال **فترى المجرمين مشفقين** اي خايفين خوف العقاب من
الحق وخوف الفضيحة من الخلق **مما فيه** من قبايح اعمالهم وسيء
افعالهم واقوالهم **ويقولون** عند معاينتهم ما فيه من السيات وقولهم
يا للتنبيه **ويلتنا** اي الهلكتنا وهو مصدر لا فعل له من لفظه
كانه على انه لا نديم لهم اذ ذاك الا الهلاك **ما لهذا الكتاب** اي اي شي له
حال كونه على غير حال الكتب في الدنيا **لا يغادر** اي يترك **صغيرة**
ولا كبيرة من ذنوبنا وقال ابن عباس الصغيرة التبسم والكبيرة
القهقهة وقال سعيد بن جبير الصغيرة اللمم والمسيس والقبل
والكبيرة الزنا **الا احصاها** اي عدها واثبتها في هذا الكتاب ونظيره
قوله تعالى وان عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون وقوله تعالى

انا كالسنخ ما كنتم تعملون تنبيه ادخال التاء في الصغيرة والكبيرة
على تقدير المراد الفعلة الصغيرة والكبيرة قال بعض العلما اجتنبوا
من الصغاير بل الكباير لان الصغاير هي التي جرتهم الى الكباير واحترزوا
من الصغاير حذرا من ان تقعوا في الكباير وعن سهل بن سعد قال قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم اياكم ومحقرات الذنوب فانما مثل
محقرات الذنوب مثل قوم نزلوا ببطن واد فجاء هذا بعود وهذا بعود
فانضجوا خبزهم وان محقرات الذنوب لموبقات **ووجدوا ما عملوا حاضرا**
اي مثبتا في كتابهم **ولا يظلم ربك** اي الذي رباك بخلق القران **احدا**
منهم ولا من غيرهم في كتاب ولا عقاب ولا ثواب بل يجازي
الاعدا بما يستحقونه تعذيبا لهم روى الامام احمد في المسند عن
جابر بن عبد الله انه سافر الى عبد الله بن انس مسيرة شهر فاستاذن
فاستاذن عليه قال فخرج يطا ثوبه فاعتنقني واعتنقته
قلت حديث بلغني عنك انك سمعته من رسول الله صلى الله
عليه وسلم في القصاص فخشيت ان تموت قبل ان اسمعه
فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يحشر الله
عز وجل الناس او قال العباد حفاة عراة بهما قلت وما بهما
قال ليس معهم شي ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد ومن
قرب انا الملك انا الديان لا ينبغي لاحد من اهل النار ان يدخل
النار وله عند احد من اهل الجنة حق ولا ينبغي لاحد من اهل
الجنة ان يدخل الجنة ولاحد من اهل النار حق حتى اقتص منه حتى
اللطمة قال قلنا كيف وانا نانى حفاة عراة بهما قال بالحسنات
والسيئات وروى الرازي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال
يجاء الله الناس في القيامة على ملة يوسف وايوب وسليمان
فيدعو المملوك فيقال ما شغلك عني فيقول جعلتني عبدا لادمي
فلم يفرغني فيدعو يوسف فيقول كان هذا عبدا مثلك فلم يمنعه ذلك
ان عبدني فيومر به الى النار ثم يدعو المبتلى فاذا قال شغلتني بالبلا
دعا ايوب فيقول قد ابتليت هذا باشد من بلايك فلم يمنعه ذلك
من عبادتي ثم يوتى بالملك في الدنيا مع ما اتاه الله تعالى من الغنا والسعة
فيقول ما عملت فيما اتيتك فيقول شغلني الملك عن ذلك فيدعى
سليمان فيقول هذا عبدي اتيته اكثر مما اتيتك فلم يشغله
ذلك عن عبادتي اذهب فلا عذر لك ويومر به الى النار وعن معاذ
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لن يزول قدم العبد
يوم القيامة حتى يسال عن اربع عن جسده فيما ابلاه وعن عمره فيما افناه

وعن ماله من اين اكتسبه وفيما انفقه وعن علمه كيف عمل فيه ولما كان المقصود
من ذكر الايات المتقدمة الرد على القوم الذين افتخروا باموالهم واعوانهم
على فقرا المسلمين وهذه الاية المذكورة في قوله تعالى **واذ** اي واذكر
قلنا للملائكة الذين هم اطوع شي لاوامرنا المقصود من ذكرها عين هذا
المعنى وذلك لان ابليس انما تكبر على ادم لانه افتخر باهله ونسبه وقال
خلقتني من نار وخلقته من طين وانا اشرف منه في الاصل والنسب
فكيف اسجد له وكيف اتواضع له وهولا المشركين عاملوا فقرا
المسلمين بمعنى هذه المعاملة فقالوا كيف نجالس هولا الفقرا مع انا
اناس من انساب شريفة وهم من انساب ماذلة ونحن اغنيا وهم
فقرا ذكر الله تعالى هذه القصة تنبيها على ان هذه القصة هي نفسها
طريقة ابليس حين امره الله تعالى في جملة الملائكة بقوله تعالى
اسجدوا لادم سجود انحنا لا وضع جبهة تحية له **فسجدوا الا ابليس
كان من الجن** قيل هم نوع من الملائكة فالاستثنا متصل وقيل هو
منقطع وابليس ابو الجن فله ذرية ذكرت معه بعد والملائكة لا ذرية
لهم وكررت هذه القصة لهذا المذكور قال البيضاوي وهذا
مذهب كل تكرير في القران اي انما يكرر لمناسبة ذلك المحل الذي
يذكر فيه **ففسق** اي خرج بتركه السجود **عن امر ربه** اي سيده
ومالكه المحسن اليه والفا للسببية وفيه دليل على ان الملك لا يعصي البتة
وانما عصى ابليس لانه كان جنيا في اصله والكلام المستقصى فيه تقدم
في سورة البقرة ثم انه تعالى حذر عن اتباعه بقوله تعالى **افتتخذونه** الخطاب
لادم وذريته والهاء فيما سياتي لابليس والهمزة للانكار والتعجب
اي يفسق باستحقاركم فنطرده لاجلكم فيكون ذلك سببا لان تتخذوه
وذريته شركائي **اولياء** **من دوني** تطيعونهم بدل طاعتي وقوله تعالى
وهم لكم عدو اي اعدا حال ولما كان هذا الفعل اجدر شي بالذم وصل
به قوله تعالى **بئس للظالمين بدلا** من الله ابليس وذريته وكان الاصل
لكم ولكنه ابرز الضمير ليعلق الفعل بالوصف لافادة التعميم روى مجاهد
عن الشعبي قال اني لقاعد يوما اذ اقبل جمال فقال اخبروني هل لابليس
زوجة قلت ان ذلك لعرس ما شهدته ثم ذكرت قوله تعالى افتتخذونه
وذريته اوليا من دوني فعلمت انه لا تكون ذرية الا من زوجة فقلت نعم
وقال قتادة يتوالدون كما يتوالد بنو ادم وقيل انه يدخل ذنبه
في دبره فيبيض البيضة فتنفلق عن جماعة من الشياطين قال
مجاهد من ذرية ابليس لاقيس وولهان وهو صاحب الطهارة والصلاة
والهفاف ومرة وبه يكنى وزلنبور وهو صاحب الاسواق يزين اللغو

المقصود ؟

والايمان الكاذبة ومدح السلع ونبز وهو صاحب المصايب زبن خمش الوجوه ولطم الخدود وشق الجيوب والاعور وهو صاحب الزنا ينفخ في احليل الرجل وعجز المراة ومطوس وهو صاحب الاخبار الكاذبة يلقيها في افواه الناس لا يجدون لها اصلا وواسم وهو الذي اذا دخل الرجل بيته ولم يسلم ولم يذكر الله دخل معه واذا اكل ولم يسم الله اكل معه قال الاعمش ربما دخلت البيت ولم اذكر الله ولم اسلم فرايت مطهرة فقلت ارفعوا وخاصمتهم ثم اذكر فاقول داسم داسم وعن عثمان بن ابي العاص قال قلت يا رسول الله ان الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراتي يلبسها علي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فذلك شيطان يقال له خنزب فاذا احسسته فتعوذ بالله واتفل عن يسارك ثلاثا قال ففعلت ذلك فاذهبه الله عني وعن ابي بن كعب ان النبي صلى الله عليه وسلم قال للوضوء شيطان يقال له الولهان فاتقوا وسواس الماء وعن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ابليس يضع فرشه على الماء ثم يبعث سراياه فادناهم منه منزلة اعظمهم فتنة يجي احدهم فيقول فعلت كذا وكذا فيقول ما صنعت شيا قال ثم يجي احدهم فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين امراته قال فيدنيه منه ويقول نعم انت قال الاعمش اراه قال فيلتزمه واختلفوا في عود الضمير في قوله تعالى ما اشهدتهم على وجوه احدها وهو الذي ذهب اليه الاكثرون ان المعنى ما اشهدت الذين اتخذوهم اولياء خلق السموات والارض ولا خلق انفسهم اي ولا اشهدت بعضهم خلق بعض كقوله تعالى اقتلوا انفسكم ففي احضار ابليس وذريته خلق السموات والارض واحضار بعضهم خلق بعض ليدل على نفي الاعتضاد بهم في ذلك كما صرح به بقوله تعالى وما كنت متخذ المضلين اي الذين يضلون الناس ووضع الظاهر موضع المضمر اظهارا لاضلالهم وذما لهم عضدا اي اعوانا وثانيها قال الرازي وهو الاقوى عندي ان الضمير عايد الى الكفار الذين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ان لم تطرد عن مجلسك هولاء الفقراء من عندك فلا نومن بك فكانه تعالى قال ان هولاء الذين اتوا بهذا الاقتراح الفاسد والتعنت الباطل ما كانوا شركائي في تدبير العالم بدليل اني ما اشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق انفسهم ولا اعتضدت بهم في تدبير الدنيا والاخرة بل هم قوم كسائر الخلق فلم اقدموا على الاقتراح الفاسد قال والذي يوكد هذا ان الضمير يجب عوده الى اقرب المذكورات في هذه الاية المذكورة والاقرب هو اوليك الكفار وهو قوله تعالى بئس للظالمين بدلا والمراد بالظالمين اوليك الكفار وثالثها ان يكون المراد من قوله ما اشهدتهم

الى الاخره دون هولاء الكفار جاهلين بما جرى به القلم في الازل من احوال السعادة والشقاوة فكانه قيل لهم السعيد من حكم الله بسعادته والشقي من حكم الله بشقاوته في الازل وانتم غافلون عن احوال الازل فانه تعالى قال ما اشهدتهم الى الاخره واذا جهلتم هذه الحالة فكيف يمكنكم ان تحكموا لانفسكم بالرفعة والعلو والكمال ولغيركم بالذل والدناءة بل ربما صار الامر في الدنيا والاخرة على العكس ما حكمتم به ولما قرر تعالى ان القول الذي قالوه في الافتخار على الفقراء اقتداء فيه بابليس عاد بعده الى التهويل باحوال القيامة فقال ويوم اي واذكر القدير واذكر لهم يا محمد عطفا على قوله واذ قلنا للملائكة يقول اي الله يوم القيمة لهولاء الكفار تهكما بهم وقرا حمزة بالنون والباقون بالياء نادوا شركائي اي ما عبد من دوني وقيل ابليس وذريته ثم بين تعالى ان الاضافة ليست على حقيقتها بل توبيخ لهم فقال تعالى الذين زعمتم انهم شركائي او شفعاوكم ليمنعوكم من عذابي فدعوهم تماديا في الجهل والضلال فلم يستجيبوا لهم اي فلم يغيثوهم استهانة بهم واشتغالا بانفسهم فضلا عن ان يغيثوهم وجعلنا بينهم اي المشركين والشركاء موبقا اي واديا من اودية جهنم يهلكون فيه جميعا وهو من وبق بالفتح هلك نقل ابن كثير عن عبد الله بن عمر انه قال هو واد عميق فرق به يوم القيمة بين اهل الهدى واهل الضلال وقال الحسن البصري عداوة اي يوول بهم الى الهلاك والتلف كقول عمر رضي الله عنه لا يكن حبك كلفا ولا بغضك تلفا اي لا يكن حبك يجر الى الكلف ولا بغضك يجر الى التلف وقيل الموبق هو البرزخ البعيد اي وجعلنا بين هولاء الكفار وبين الملائكة وعيسى برزخا بعيدا يهلك فيه الساري لفرط بعده لانهم في قعر جهنم وهم في اعلى الجنان ولما قرر سبحانه وتعالى ما لهم مع شركائهم ذكر حالهم في استمرار جهلهم فقال تعالى وراى المجرمون اي المعرقون في الاجرام النار من مكان بعيد فظنوا ظنا انهم مواقعوها اي مخالطوها في تلك الساعة من غير تاخير ومهلة لشدة ما يسمعون من تغيظها وزفيرها كما قال تعالى اذا راتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا فالمخالطة الشي لغيره اذا كانت قوية تامة يقال لها مواقعة ولم اي والحال انهم لم يجدوا عنها مصرفا اي مكانا ينصرفون اليه لان الملائكة تسوقهم اليها فالموضع موضع التحقق ولكن ظنهم جريا على عادتهم في الجهل كما قالوا اتخذ الله ولدا بغير علم وما اظن ان تبيد هذه ابدا وما اظن الساعة قائمة ان نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين مع قيام الادلة التي لا شك فيها وقيل الظن هنا بمعنى العلم واليقين ولما افتخروا

هو لاء الكفار على فقرآ المسلمين بكثرة اموالهم وَابناعهم وَبين الله تعالى الوجوه
الكثيرة ان قولهم باطل وشبههم باطلة ذكر في المثلين المتقدمين ثم قال
تعالى بعده ولقد صرفنا واظهر نافع وَابن كثير وَابن ذكوان وَعاصم الدال وادغمها
الباقون في هذا القرآن اي القيم الذي لاعوج فيه مع جمعه للمعاني للناس اي
المنزلين وَالثابتين وقوله من كل مثل صفة محذوف اي مثلا من كل جنس
كل مثل ليتعظوا اوانا حولنا الكلام وَصرفناه في كل وَجه من وجوه المعاني
والبناه من العبارات الرايقة والاساليب المتناسقة ماصار بها في غرابته
كالمثل يقبله كل من سمعه وتضرب به اباط الابل في سائر البلاد وبين العباد
فتشربه قلوبهم وتلج به السنتهم فلم يقبلوه ولم يتركوا المجادلة الباطلة
وكان الانسان اكثر شيء يتاتى منه الجدال ومميز الاكثرية بقوله تعالى جدلا اي
خصومة قال بعض المحققين والاية دالة على ان الانبيا عليهم الصلاة
وَالسلام جادلوهم في الدين لان المجادلة لا تحصل الا من الطرفين ولهذا قيل
اراد بالانسان الكافر وقيل الاية على العموم قال ابن الخازن وهو الاصح
وكذا قال البغوي فعن علي رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
طرقه عليا وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله تعالى
عنها ليلة فقال الا تصليان فقلت يا رسول الله انفسنا بيد الله فاذا شاء
ان يبعثنا بعثنا فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قلت ذلك
ولم يرجع الي شيئا ثم سمعته وهو مولي يضرب فخذه وَهو يقول وكان الانسان
اكثر شيء جدلا وقال ابن عباس اراد بالنضر بن الحارث وجداله في القرآن
وقال الكلبي اراد به خلف الجمحي ولما بين سبحانه وتعالى اعراضهم
بين موجبه عندهم فقال تعالى وما منع الناس اي الذين جادلوا بالباطل
الايمان هكذا كان الاصل ولكنه عبر هذا المفعول الثاني بقوله ان يؤمنوا
ليفيد التجديد وذمهم على الترك اذ اي حين جاءهم الهدى اي القرآن
على رسوله صلى الله عليه وسلم وعطف على المفعول الثاني معبرا بما يفهم
المامضي قوله تعالى ويستغفروا ربهم اي لا مانع لهم من الايمان ولا من
الاستغفار والتوبة ولما كان الاستثنا مفرغا اتى بالفاعل فقال
الا ان اي طلب ان تاتيهم سنة الاولين اي سنتنا فيهم وهي الاهلاك
المقدر عليهم او طلب ان ياتيهم العذاب قبلا اي مقابلة وعيانا
وَهو القتل يوم بدر وقيل عذاب الاخرة وقرا الكوفيون برفع القاف
والبا الموحدة والباقون بكسر القاف وفتح البا الموحدة ولما كان ذلك
ليس الي الرسول وانما هو الى الله تعالى نبه بقوله تعالى وما نرسل المرسلين
الا مبشرين بالثواب على افعال الطاعة ومنذرين بالعقاب على
افعال المعصية فيطلب منهم الظالمون من اممهم ما ليس اليهم

ويجادل

ويجادل الذين كفروا اي بجد دون الجدال كلما اتاهم امر من قبلنا بالباطل
من قولهم ما انتم الا بشر مثلنا ولو كنتم صادقين لاتيتم بما يطلب منكم
مع ان ذلك ليس كذلك اذ ليس لاحد غير الله من الامر شي ليدحضوا اي
ليبطلوا بجدالهم به الحق اي القرآن وَالمعجزات المثبتة لصدقهم ٠
واتخذوا اياتي اي القرآن وما انذروا اي وانذارهم او الذي انذروا
به من العقاب هزوا اي استهزوا وقرا حفص بالواو وقفا ووصلا
وسكن الزاي حمزة والباقون برفعها وحمزة في الوقف ابدل النقل ولما
حكى الله تعالى عن الكفار احوالهم الخبيثة وصفهم بما يوجب الجزا بقوله
تعالى ومن اظلم اي لا احد اظلم وهو استفهام على سبيل التقرير ٠
ممن ذكر بايات ربه اي المحسن اليه لما وهي القرآن فاعرض عنها
تاركا لما يعرف من تلك العلامات العجيبة وما يوجب ذلك الاحسان
من الشاكرة ونسي ما قدمت يداه من الكفر وَالمعاصي فلم يتفكر في عاقبتها
ثم علل تعالى ذلك الاعراض بقوله تعالى انا جعلنا على قلوبهم نجمع رجوعا
الي اسلوب واتخذوا اياتي لانه انص على ذم كل واحد اكنة اي اغطية
مستقلة عليها استعلا يدل سياق العظمة على انه لا يدع شيئا
من الخير يصل اليها فهي لا تبقي شيئا من اياتنا ودل تذكير الضمير وافراده
على ان المراد بالايات القرآن فقال ان اي كراهة ان يفقهوه اي
يفهموه وفي اذانهم وقرا اي ثقلا فهم لا يسمعون حق السمع ولا يعون
حق الوعي وان تدعهم اي تكرر دعاءهم كل وقت الى الهدى لتنجيهم
مع ما عندك من الحرص والجد على ذلك فلن يهتدوا اي بسبب دعائك
اذا اي اذا دعوتهم ابدا لان الله تعالى حكم عليهم بالضلال فلا يقع
منهم ايمان ثم قال تعالى وربك مشيرا بهذا الاسم الى ما اقتضاه
الوصف من الاحسان الغفور اي البليغ المغفرة الذي يستر الذنوب
اما بمحوها واما بالعفو عنها الي وقت اخر ذو الرحمة اي الموصوف
بالرحمة الذي يعامل وَهو قادر مع موجبات الغضب معاملة الراحم
بالاكرام ثم استشهد تعالى على ذلك بقوله تعالى لو يؤاخذهم اي هولا
الذين عادوك وَهو عالم انهم لا يومنون او يعاملهم معاملة المواخذ
بما كسبوا من الذنوب لعجل لهم العذاب اي في الدنيا بل لهم موعد
وهو اما يوم القيمة واما في الدنيا وهو يوم بدر وسائر ايام الفتح
لن يجدوا من دونه اي الوعد موئلا اي ملجا ينجيهم فاذا جا موعد ثم
اهلكناهم فيه باول ظلمهم واخره وقوله تعالى وتلك مبتدا وقوله تعالى
القرى اي الماضية من عاد وثمود ومدين وقوم لوط واشكالهم
صفته لان اسما الاشارة توصف باوصاف الاجناس والخبر اهلكناهم

والمعنى وتلك اصحاب القرى اهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا اي وقتا معلوما لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون وقرا شعبة بفتح الميم واللام اي لاهلاكهم وقرا حفص بفتح الميم وكسر اللام والباقون بضم الميم وفتح اللام اي لاهلاكهم ثم عطف سبحانه وتعالى على قوله تعالى واذ قلنا للملائكة واذ اي واذكر لهم حين قال موسى لفتاه يوشع بن نون ابن افرائيم بن يوسف عليه السلام وانما قال لفتاه لانه كان يخدمه ويتبعه وقيل كان ياخذ منه العلم وقيل فتاه عبده وفي الحديث ليقل احدكم فتاي وفتاتي ولا يقل عبدي وامتي تنبيه اكثر العلماء على ان موسى المذكور في هذه الآية هو موسى بن عمران صاحب المعجزات الظاهرة وصاحب التوراة وعن كعب الاحبار انه موسى بن ميشا بن يوسف ابن يعقوب وهو قد كان نبيا قبل موسى بن عمران قال البغوي والاول اصح واحتج له القفال بان الله تعالى لم يذكر في كتابه موسى الا اراد به صاحب التوراة فاطلاق هذا الاسم يوجب الانصراف اليه ولو كان المراد شخصا اخر يسمى موسى غيره لوجب تعريفه بصفة توجب الامتياز وازالة الشبهة كما انه لما كان المشهور في العرف عن ابي حنيفة هذا الرجل المبين فلو ذكرنا هذا الاسم واردنا به رجلا سواه لقيدناه مثل ان نقول قال ابو حنيفة الدينوري وعن سعيد بن جبير قال قلت لابن عباس ان نوفا البكالي يزعم ان موسى صاحب الخضر ليس هو موسى بني اسرائيل فقال ابن عباس كذب عدو الله ونوف البكالي هو نوف بن فضالة الحميري الشامي البكالي ويقال انه دمشقي وكانت امه زوجة كعب الاحبار ونقل ابن كثير وحجة الدين قال موسى هذا غير صاحب التوراة فانه يقال بعد ان انزل عليه التوراة وكلمه بلا واسطة وخصه بالمعجزات الظاهرة العظيمة التي لم يتفق مثلها لاكثر اكابر الانبيا يبعد ان يبعثه بعد ذلك الى التعلم والاستفادة واجيب بانه لا يبعد ان يكون العالم الكامل في كثرة العلوم يجهل بعض الاشيا فيحتاج الى تعلمها ممن هو دونه وهو امر متعارف روى البخاري حديثا ان موسى قام خطيبا في بني اسرائيل فسئل اي الناس اعلم قال انا فعتب الله تعالى عليه اذ لم يرد العلم اليه فاوحى الله تعالى اليه ان لي عبدا بمجمع البحرين هو اعلم منك قال يا رب فكيف لي به قال تاخذ حوتا فتجعله في مكتل فحيث ما فقدت الحوت فهو ثم فاخذ حوتا فجعله في مكتل ثم قال لا ابرح اي لا ازال اسير في طلب العبد الذي اعلمني ربي بفضله حتى ابلغ مجمع البحرين اي ملتقى بحر الروم وبحر فارس مما يلي المشرق قاله قتادة اي المكان الجامع لذلك فالقاه هنالك او امضي حقبا اي

دهرا طويلا في بلوغه ان لم اظفر بمجمع البحرين الذي جعله ربي موعدا لي في لقائه والحقب قال في القاموس ثمانون سنة او اكثر والدهر والسنة والسنون انتهى فسارا وتزودا حوتا مشويا في مكتل كما امر به فكانا ياكلان منه الى ان بلغ المجمع كما قال تعالى فلما بلغا مجمع بينهما اي بين البحرين قال لفتاه اذا فقدت الحوت فاخبرني وناما واضطرب الحوت في المكتل وخرج فسقط في البحر فلما استيقظ نسيا حوتهما اي نسي يوشع حمله عند الرحيل ونسي موسى عليه السلام تذكيره وقيل الناسي يوشع فقط وهو على حذف مضاف اي نسي احدهما كقوله تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان فاتخذ الحوت سبيله في البحر اي جعله بجعل الله سربا اي مثل السرب وهو الشق الطويل لا نفاذ له وذلك ان الله تعالى امسك عن الحوت جري الماء فانجاب عنه فبقي كالكوة لم يلتئم وجمد ما تحته وقد ورد في حديث في الصحيح ان الله تعالى احياه وامسك عن موضع جريه في الماء فصار طاقا لا يلتئم وكان المجمع كان ممتدا فظن عليه السلام ان المطلوب امامه او ظن المراد مجمع البحرين اخر فسارا فلما جاوزا ذلك المكان بالسير بقية يومهما وليلتهما واستمرا الى وقت الغداء من ثاني يوم قال موسى عليه السلام لفتاه آتنا اي احضر لنا غداءنا وهو ما يؤكل اول النهار لنقوى به على ما حصل لنا من الاعيا ولذلك وصل به قوله لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا اي تعبا ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي امره الله تعالى به فقوله هذا اشارة الى السفر الذي وقع بعد مجاوزتهما الموعد او مجمع البحرين ونصبا مفعول بلقينا قال له فتاه ارايت اي ما دهاني وقرا نافع بتسهيل الهمزة التي هي عين الكلمة ولورش وجه اخر وهو ابدالها حرف مد واسقطها الكسائي والباقون بالتحقيق اذ اوينا الى الصخرة التي بمجمع البحرين فاني اي انني نسيت الحوت اي نسيت ان اذكر لك امره ثم علل عدم ذكره بقوله وما انسانيه الا الشيطان بوسوسته وقرا حفص بضم الها وامال الالف الكسائي محضة وورش بين بين وبالفتح والباقون بالفتح وقوله ان اذكره لك في محل نصب على البدل من ها انسانيه بدل اشتمال اي انساني ذكره واتخذ سبيله اي طريقه الذي ذهب فيه في البحر عجبا وهو كونه كالسرب معجزة لموسى او الخضر وذكره له الآن مانع من ان يكون للشيطان عليه سلطان على ان هذا الانسان ليس منوطا بالطاعة بل فيه رقية لهما في معراج المقامات العالية لوجدان النصب بعد المكان الذي هو البغية وحفظ الماء مهيا ما على طول الزمان وغير ذلك من الآيات الظاهرة وقوله تعالى انما سلطانه على الذين يتولونه الى المبين ان السلطان الحمل على المعاصي وقوله وما

انابه الا الشيطان ان اذكره اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه وقد كان في هذه القصة خوارق منها حياة الحوت ومنها ايجاد ما كان اكل منه وتهيا امساك الماء عن مدخله وقد اتفق لنبينا صلى الله عليه وسلم نفسه او اتباعه او ببركته مثل ذلك اما اعادة ما اكل من الحوت المشوي وهو جنبه فقد روى البيهقي في اواخر دلايل النبوة عن اسامة بن زيد رضي الله عنه انه اتي بشاة مشوية فقال لبعض اصحابه ناولني ذراعها وكان احب الشاة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقدمها ثم قال ناولني ذراعها فناوله ثم قال ناولني ذراعا فقال يا رسول الله انما هما ذراعان وقد ناولتك فقال صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده لو سكت ما زلت تناولني ذراعا ما قلت لك ناولني ذراعا فقد اخبر صلى الله عليه وسلم انه لو سكت اوجد الله تعالى ذراعا ثم ذراعا وهكذا واما حياة الحوت المشوي ففي قصة الشاة المشوية المسمومة اذ ذراعها اخبر النبي صلى الله عليه وسلم انه مسموم فهذا اعظم من عود الحياة من غير نطق وكذا خبر الجذع وتسليم الحجر وتسبيح الحصا ونحو ذلك اعظم من عود الحياة الى ما كان حيا وروى البيهقي في الدلايل عن عمرو بن سواد قال قال الشافعي ما اعطى الله تعالى نبيا ما اعطى محمدا صلى الله عليه وسلم فقلت اعطى عيسى عليه السلام احيا الموتى فقال اعطى محمدا صلى الله عليه وسلم الجذع الذي كان يخطب الى جنبه حتى هيئ له المنبر وحن الجذع حتى سمع صوته فهذا اكبر من ذلك انتهى وقد ورد اشيا كثيرة من احيا الموتى له صلى الله عليه وسلم ولبعض امته وروى عن انس رضي الله تعالى عنه انه قال كنا في الصفة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتت امراة ومعها ابن لها فاضاف المراة الى النسا واضاف ابنها الينا فلم يلبث ان اصابه وبا المدينة فمرض اياما ثم قبض فغمضه النبي صلى الله عليه وسلم وامر بجهازه فلما اردنا ان نغسله قال انس ائت امه فاعلمها فجاءت حتى جلست عند قدميه فاخذت بهما ثم قالت اللهم اني اسلمت لك تطوعا وخلعت الاوثان زاهدا وهاجرت اليك رغبة اللهم لا تشمت بي عبدة الاوثان ولا تحملني من هذه المصيبة ما لا طاقة لي بحملها قال فوالله ما انقضى كلام المراة حتى حرك قدميه والقى الثوب عن وجهه وعاش حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وحتى هلكت امه واما اباية الماء عن جريها الى صلابته ولا فرق بين جموده لعدم الالتئام بعد الانخراق وبين جموده وصلابته بالامتناع من الانخراق وقد جهز عمر ابن الخطاب رضي الله عنه جيشا واستعمل عليه العلا بن الحضرمي فحصل لهم حر شديد وجهد من العطش قال بعض الجيش فلما

مالت

مالت الشمس لغروبها صلى بنا ركعتين ثم مد يديه وما نرى في السماء شيئا فوالله ما حط يده حتى بعث الله تعالى ريحا وانشا سحابا فافرغ حتى ملات الغدر والشعاب فشربنا وسقينا واستقينا ثم اتينا عدونا وقد جاوزنا خليجا في البحر الى جزيرة فوقف على الخليج وقال يا علي يا عظيم يا حليم يا كريم ثم قال اجيزوا بسم الله فاجزنا ما يبل الماء حوافر دوابنا فاصبنا العدو عليه فقتلنا واسرنا وسبينا ثم اتينا الخليج فقال مثل مقالته فاجزنا وما يبل الماء حوافر دوابنا والاخبار في ذلك كثيرة ولما قال فتاه ذلك كانه قيل فما قال موسى عليه السلام حينئذ قال له ذلك اي الامر العظيم من فقد الحوت ما كنا نبغ اي نريد من هذا الامر المغيب عنا فان الله تعالى جعله موعدا في لقا الخضر وقرا نافع وابو عمرو والكسائي باثبات اليا وصلا لا وقفا وابن كثير يثبتها وصلا ووقفا والباقون بالحذف فارتدا على اثارهما اي فرجعا في الطريق الذي جاءا فيه يقصانه قصصا اي يتبعان اثرهما اتباعا ويقصان حتى ياتيا الصخرة قال البقاعي يدل على ان الارض كانت رملا لا علم فيها فالظاهر والله اعلم ان مجمع النيل والملح عند دمياط او رشيد من بلاد مصر ويؤيده نقر العصفور في البحر الذي ركبا في سفينته للتعدية كما في الحديث فان الطير لا يشرب من الملح ومن المشهور في بلاد رشيد بان الامر كان عندهم سمكا ذاهب الشق يقولون انه من نسل السمكة والله اعلم انتهى وتقدم عن قتادة انه ملتقى بحر فارس والروم وقال محمد ابن كعب طنجة وقال ابن كعب افريقية وقيل البحران موسى والخضر لانهما كانا بحري علم قال ابن عادل وليس في اللفظ ما يدل على تعيين هذين البحرين فان صح في الخبر الصحيح شيء فذاك والا فالاولى السكوت انتهى ثم استمرا يقصان حتى انتهيا الى موضع فقد الحوت فوجدا عبدا من عبادنا مضافا الى حضرة عظمتنا قيل كان ملكا من الملايكة والصحيح الذي جاء في التواريخ وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم انه الخضر واسمه ايليا بن ملكان وكنيته ابو العباس قيل كان من بني اسرائيل وقيل من ابنا الملوك الذين تزهدوا وتركوا الدنيا والخضر لقب سمي بذلك لانه جلس على فروة بيضا فاذا هي تهتز تحته خضراء الفروة قطعة نبات مجتمعة يابسة وقيل سمي خضرا لانه كان اذا صلى اخضر ما حوله روي ان موسى عليه السلام راى الخضر مسجى ثوبا فسلم عليه فقال الخضر واني بارضك السلام قال انا موسى اتيتك لتعلمني مما علمت رشدا وفي رواية لقيه مسجى بثوب مستلقيا على قفاه بعض الثوب تحت راسه وبعضه تحت رجليه

وفي رواية لقيه وهو يصلي وروي لقيه وهو يصلي على طنفسة خضرا
على كبد البحر وروي ان موسى عليه السلام لما وصل اليه قال السلام
عليك فقال وعليك السلام يا نبي بني اسرائيل فقال له موسى ما عرفك
هذا فقال الذي بعثك الي وكان الخضر في ايام افريدون وكان على مقدم
ذي القرنين الاكبر وبقي الى ايام موسى وقيل ان موسى سال ربه اي عبادك
احب اليك قال الذي يذكرني ولا ينساني قال فاي عبادك اقضى
قال الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى فقال فاي عبادك اعلم قال الذي
يبتغي علم الناس الى علمه عسى ان يصيب كلمة تدله على هدى او ترده عن
ردى فقال ان كان في عبادك افضل مني فادللني عليه قال اعلم منك الخضر
قال اين اطلبه قال على الساحل عند الصخرة قال كيف لي به قال تاخذ حوتا
في مكتل فحيث فقدته فهو هناك **آتيناه** بعظمتنا **رحمة من عندنا**
اي وحيا ونبوة وكونه نبيا هو قول الجمهور وقيل انه ليس بنبي قال البغوي
فعند اكثر اهل العلم اي فعندهم انه ولي **وعلمناه من لدنا** اي عالم يجري
على قوانين العادات على انه ليس بمستغرب عند اهل الاصطفا **علما**
قذفناه في قلبه بغير واسطة واهل التصوف سموا العلم بطريق المكاشفة
العلم اللدني فاذا سعى العبد في الرياضات بتزيين الظاهر بالعبادات وتخلية
النفس عن العلائق وعن الاخلاق الرذيلة بتحليها بالاخلاق الجميلة
صارت القوى الحسية والخيالية ضعيفة فاذا ضعفت قويت القوى
العقلية واشرقت الانوار الالهية في جوهر العقل وحصلت المعارف
وكملت العلوم بغير واسطة سعي وطلب في التفكر والتامل وهذا هو المسمى
بالعلوم اللدنية ثم اورد سبحانه ونقل القصد على طريق الاستئناف
على تقدير سوال سائل عن كل كلام يرشد اليه ما قبله وذلك انه من العلوم
ان الطالب للشخص اذا لقيه كلمه لكن لا يعرف عين ذلك الكلام فقال لمن
كانه سال عن ذلك **قال له موسى** طالبا منه على سبيل التادب
والتلطف باظهار ذلك في قالب الاستئذان **هل اتبعك** اي اتبعك
اتباعا بليغا حيث توجهت والاتباع الاتيان بمثل فعل الغير لمجرد
كونه اتيا به وبين انه لا يطلب منه غير العلم بقوله **على ان تعلمن** اثبت
اليا نافع وابو عمرو وصلا لا وقفا وابن كثير وصلا ووقفا والباقون
بالحذف وزاد في التلطف بالاشارة الى انه لا يطلب جميع ما عنده ليطول
عليه الزمان بل جوامع يسترشد بها الى باقيه فقال **مما علمت**
وبناه للمفعول لعلم المتخاطبين لكونهما من المخلصين بان الفاعل هو
الله تعالى والاشارة الى سهولة كل امر الى الله تعالى **رشدا** اي علما
يرشدني الى الصواب فيما اقصده وقرا ابو عمرو بفتح الراء والشين

والباقون

والباقون بضم الراء وسكون الشين ولما تم موسى عليه السلام العبارة
عن السوال **قال** له الخضر عليه السلام **انك** يا موسى **لن تستطيع**
معي صبرا نفى عنه الاستطاعة للصبر معه على وجوه من التاكيد
كانها لا تصح ولا تستقيم وفتح اليا من معي صبرا في المواضع الثلاثة
حفص وسكنها الباقون ثم علل عدم الصبر معه واعتذر عنه بقوله
وكيف تصبر يا موسى **على ما لم تحط به خبرا** اي وكيف تصبر على امور
وانت نبي ظاهرها مناكير والرجل الصالح لا يتمالك ان يصبر اذا راى
ذلك بل يبادر وياخذ في الانكار وخبرا مصدر لمعنى لم تحط به اي
لم تخبره حقيقته **قال** له موسى عليه السلام اتيا بنهاية التواضع
لمن هو اعلم منه استرشادا لما ينبغي في طلب العلم راجيا تسهيل الله له والنفع
به **ستجدني** واكد الوعد بالسين ثم اخبر تعالى انه قوى تاكيده بالتبرك
بذكر الله تعالى لعلمه بصعوبة الامر على الوجه الذي تقدم الحث عليه
في هذه السورة في قوله تعالى ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غدا الا ان
يشاء الله ليعلم انها منهاج الانبيا فقال **ان شاء الله** الذي له صفات
الكمال **صابرا** على ما يجوز الصبر عليه ثم زاد التاكيد بقوله عطف
بالواو على صابرا ليان المتمكن في كل من الوصفين **ولا اعصي** اي
وغير عاص **لك امرا** تامرني به غير مخالف لظاهر امر الله تعالى
دلت هذه الاية الكريمة على ان موسى عليه السلام راعى امورا كثيرة
من الادب واللطف عندما اراد ان يتعلم من الخضر منها انه جعل نفسه
تبعا له بقوله هل اتبعك ومنها انه استاذنه في اثبات هذه
التبعية كانه قال هل تاذن لي ان اجعل نفسي تابعا لك وهذه مبالغة لغة
عظيمة في التواضع ومنها قوله صلى الله عليه وسلم على ان تعلمني وهذا
اقرار منه على نفسه بالجهل وعلى استاذه بالعلم ومنها قوله مما علمت
وصيغة من للتبعيض وطلب منه تعليم بعض ما علم وهذا ايضا اقرار
بالتواضع كانه يقول لا اطلب منك ان تجعلني مساويا لك في العلم
بل اطلب منك ان تعطيني جزا من اجزا ما علمت ومنها قوله مما علمت
اعتراف منه بان الله علمه ذلك العلم ومنها قوله رشدا طلب منه الارشاد
والهداية ومنها قوله ستجدني ان شاء الله صابرا ولا اعصي لك امرا
ومنها انه ثبت بالاخبار ان الخضر عرف اولا انه موسى صاحب التوراة
وهو الرجل الذي كلمه الله من غير واسطة وخصه بالمعجزات الظاهرة
الباهرة ثم انه عليه السلام مع هذه المناصب الرفيعة والدرجات
العالية الشريفة اتى بهذه الانواع الكثيرة من التواضع وذلك يدل
على كونه عليه السلام اتيا في طلب العلم باعظم ابواب المبالغة في التواضع

وذلك يدل على ان اللايق به لان كل من كانت احاطته بالعلوم التي علم فيها
من البهجة والسعادة اكثر كان طلبه لها اشد وكان تعظيمه لارباب العلم اكمل
واسرشد وكل ذلك يدل على ان الواجب على المتعلم اظهار التواضع بكل الغايات
واما المعلم فان راى ان في التغليظ على المتعلم ما يفيد نفعا وارشادا الى الخير
فالواجب عليه ذكره فان السكوت عليه يوقع المتعلم في الغرور وذلك يمنعه
من التعلم وروي ان موسى لما قال هل اتبعك على ان تعلمن مما علمت رشدا
قال له الخضر كفى بالتوراة علما وببني اسرائيل شغلا فقال له موسى
الله امرني بهذا قال له الخضر فان اتبعتني اي صحبتني ولم يقل
ابتعني ولكن جعل الاختيار اليه الا انه شرط عليه شرطا فقال
فلا تسألني عن شيء اقوله او افعله حتى احدث لك منه
ذكرا اي حتى ابداك بوجه صوابه فاني لا اقدم على شيء الا وهو
صواب جائز في نفس الامر وان كان ظاهره غير ذلك فقبل موسى شرطه
رعاية لادب المتعلم من العالم ولما تشارطا وتراضيا على الشرط تسبب
عن ذلك قوله تعالى فانطلقا اي موسى والخضر عليهما السلام
على الساحل فانتهيا الى موضع احتاجا فيه الى ركوب السفينة فما زالا
يطلبان سفينة يركبان فيها واستمرا حتى اذا ركبا في السفينة
المقربة بهما واجاب الشرط بقوله خرقها اي اخذ الخضر فاسا
يخرق السفينة بان قلع لوحا او لوحين من الواحها من جهة البحر لما بلغت
اللجة ولم يتغير ان خرق بالفعل لانه لم يكن مسببا عن الركوب ثم
استانف قوله قال اي موسى عليه السلام منكرا لذلك لما في ظاهره
من الفساد باتلاف المال المفضي الى فساد اكبر منه باهلاك النفوس
ناسيا لما عقد على نفسه انفعل ولم يخش لم يترك الانكار كما فعل عند
قتل الغلام لان قتل ذلك غير داخل في الوعد لان المستثنى شرعا
كالمستثنى وضعا اخرقتها وهو متعذر في الانكار لما في غاية
الخوف من الفظاعة فقال لتغرق اهلها فان خرقها سبب لدخول
الماء فيها المفضي الى غرق اهلها وقرأ حمزة والكسائي بالياء
التحتية وفتح الراء ورفع اللام من اهلها والباقون بالتاء الفوقية مضمومة
وكسر الراء ونصب اللام من اهلها ثم قال له موسى والله لقد جئت
شيئا امرا اي عظيما منكرا قال الخضر الم اقل انك يا موسى
لن تستطيع معي صبرا فذكره بما قال له عند الشرط قال
موسى لا تؤاخذني يا خضر بما نسيت اي غفلت عن التسليم
لك وترك الانكار عليك قال ابن عباس انه لم ينس ولكنه
من معاريض الكلام ونحو المواراة بالشيء عن الشيء وفي المثل

ان في
المعاريض لمندوحة عن الكذب اي سعة فكانه نسي شيئا اخر وقيل معناه
بما تركت من عهدك والنسيان الترك وروي انه صلى الله عليه وسلم قال
كانت الاولى من موسى نسيانا والوسطى شرطا والثالثة عمدا ولا ترهقني من
امري عسرا اي لا تكلفني مشقة يقال ارهقه عسرا وارهقته عسرا
اي كلفته ذلك تقول لا تضيق علي امري ولا تعسر متابعتك علي ويسرها
علي بالاغضاء وترك المناقشة وعاملني باليسر ولا تعاملني بالعسر وعسرا
مفعول ثان لترهقني من ارهق كذا اذا حمله اياه وغشاه به وما في بما نسيت
مصدرية او بمعنى الذي والعائد محذوف وروي ان الخضر اخذ قدحا
من زجاج ورقع به خرق السفينة فان قيل قول موسى عليه السلام اخرقتها لتغرق
اهلها ان كان صادقا فان ذلك دل على صدور ذنب عظيم من الخضر ان كان
نبيا وان كان كاذبا دل على صدور الذنب من موسى وقد التزم موسى ايضا ان لا يعترض
عليه وجرت العهود المذكورة بذلك ثم انه خالف تلك العهود وذلك
ذنب اجيب بان كلا منهما صادق فيما قال موف بحسب ما عنده اما
موسى عليه السلام فانه ما خطر له قط ان يعاهد على ان لا ينهى بما يعتقد
منكرا واما الخضر فانه عقد على ما في نفس الامر انه لا يقدم على منكر
فانطلقا بعد نزولهما من السفينة وسلامتهما من الغرق والعطب حتى
اذا لقيا غلاما قال ابن عباس لم يبلغ الحنث فقتله حين لقيه كما
دلت عليه الفاء العاطفة على الشرط قال البغوي في القصة انهما خرجا
من البحر يمشيان فمرا بغلمان يلعبون فاخذ غلاما ظريفا وضيء الوجه
فاضجعه ثم ذبحه بالسكين قال السدي كان احسنهم وجها كان
وجهه يتوقد حسنا قال البغوي وروينا انه اخذ راسه فاقتلعه
بيده وروى عبد الرزاق هذا الخبر واشار بيده باصابعه الثلاثة الابهام
والسبابة والوسطى وقطع راسه وروي انه رضخ راسه بالحجارة وقيل ضرب
راسه بالجدار فقتله وكونه لم يبلغ الحنث هو قول الاكثرين وقال الحسن كان
رجلا قال شعيب الجبائي وكان اسمه جيسور وقال الكلبي كان فتى يقطع
الطريق وياخذ المتاع ويلجئ الى ابويه وقال الضحاك كان غلاما يعمل بالفساد
وتاذى منه ابواه وقال ابي بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم ان الغلام الذي قتل الخضر طبع كافرا ولو عاش لارهق ابويه طغيانا
وكفرا قال الرازي وليس في القران كيف لقياه هل كان يلعب مع جمع
من الغلمان او كان منفردا او هل كان مسلما او كافرا وهل كان صغيرا او كبيرا
وكان اسم الغلام بالصغير اليق وان احتمل الكبير الا انه قوله بغير نفس اليق
بالبالغ من الصبي لان الصبي لا يقتل وان قتل قال البقاعي الا ان يكون
شرعهم لا يشترط البلوغ وقال ابن عباس ولم يكن نبي الله يقول اقتلت

بالغا او صغيرا ح

نفسا بغير نفس الا وهو صبي قال الرازي ايضا وكيفية قتله هل قتله بحز رأسه او بان ضرب رأسه بالجدار او بطريق آخر فليس في القرآن ما يدل على شيء من هذه الاقسام انتهى ثم اجاب الشرط بقوله مشعرا بان شروعه في الانكار في هذه اسرع قال موسى اقتلت يا خضر نفسا زكية بغير نفس قتلتها ليكون قتلها لها قودا وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو بالف بعد الزاي وتخفيف الياء التحتية والباقون بغير الف بعد الزاي وتشديد الياء التحتية قال الكسائي الزاكية والزكية لغتان ومعنى هذه الطهارة وقال ابو عمرو والزاكية التي لم تذنب والزكية التي اذنبت ثم تابت ثم استأنف قوله لقد اظهر الدال نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم وادغمها الباقون جئت في قتلك اياها شيئا وصرح بالانكار في قوله نكرا لانه مباشرة الخرق سبب ولهذا قال بعضهم النكر اعظم من الامر في القبح لان قتل الغلام اعظم من خرق السفينة لانه يمكن ان لا يحصل الغرق واما هنا فقد حصل الاتلاف قطعا والنكر ما انكرته العقول ونفرت منه النفوس فهو ابلغ في القبح من الامر وقيل الامر اعظم لان خرق السفينة يؤدي الى اتلاف نفوس كثيرة وهذا القتل ليس الا اتلاف شخص واحد وقرأ نافع وابن ذكوان وشعبة برفع الكاف والباقون بسكونها ولما كانت هذه ثانية قال له الخضر الم اقل وزاد قوله لك انك يا موسى لن تستطيع معي صبرا وهذا عين ما ذكره في المسألة الاولى الا انه هنا زاد لفظة لك فان قيل لم زادها هنا اجيب بانه زادها للمكافحة بالعتاب على رفض الوصية ووسمه بقلة الصبر والثبات لما تكرر منه الاشمئزاز والاستنكار ولم يرعوا بالتذكير اول مرة قال ابن الاثير المكافحة المدافعة والمضاربة والاشمئزاز من اشمأز الرجل اذا انقبض قلبه قال البغوي وفي القصة ان يوشع كان يقول لموسى يا نبي الله اذكر العهد الذي انت عليه قال موسى حياء منه لما افاق من تذكيره ما حصل من فرط الوجد بامر الله تعالى فذكر انه ما تبعه الا بامر الله ان سألتك عن شيء بعدها اي بعد هذه المرة واعلم بشدة ندمه على الانكار بقوله فلا تصاحبني اي لا تتركني اتبعك بل فارقني ثم علل ذلك بقوله قد بلغت واشار الى ما وقع منه من الاخلال بالشرط من اعظم الخوارق التي اضطر اليها فقال من لدني اي من قبلي عذرا لاعتراضي مرتين واحتمالك لي مرتين وقد اخبر الله تعالى بحسن حالك في غزارة علمك فمدحه بهذه الطريقة من حيث احتمله مرتين اولا وثانيا مع قرب المدة روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال رحم الله اخي موسى استحيى فقال ذلك ولو لبث مع صاحبه لابصر اعجب الاعاجيب وعن ابي بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة الله علينا

وعلى

وعلى موسى وكان اذا ذكر احدا من الانبياء بدأ بنفسه لولا انه عجل لرأى العجب ولكنه اخذه من صاحبه ذمامة اي حياء واشفاقا فقال ان سألتك الى آخره وقرأ نافع بضم الدال وتخفيف النون وقرأ شعبة كذلك الا انه يشم الدال فيصير ساكنة قريبة من الضم والباقون بضم الدال وتشديد النون فانطلقا اي موسى والخضر يمشيان لينظر الخضر امرا ينفذ فيه ما عنده من علمه وورش يغلظ اللام في لفظ انطلقا على اصله بعد قتل الغلام حتى اذا اتيا اهل قرية قال ابن عباس هي انطاكية وقال ابن سيرين هي الابلة وهي ابعد ارض الله من السماء وعبر عنها بالقرية دون المدينة لانه ادل على الذم وقيل برقة وعن ابي هريرة بلدة بالاندلس استطعما اهلها اي طلبا من اهل القرية ان يطعموهما وفي الحديث انهما كانا يمشيان على مجالس اولئك القوم يستطعمانهم فابوا ان يضيفوهما اي ان ينزلوهما ويطعموهما يقال ضافه اذا كان له ضيفا وحقيقته مال اليه من ضاف السهم عن الغرض وضيفه اضافه اذا انزله وجعله ضيفا فان قيل الاستطعام ليس من عادة الكرام وكيف قدم عليه موسى والخضر وقد حكى الله عن موسى انه قال عند ورود ماء مدين رب اني لما انزلت الي من خير فقير اجيب بان اقدام الجائع على الاستطعام امر مباح في كل الشرائع بل ربما وجب ذلك عند الخوف من الضرر الشديد فان قيل لم قال حتى اذا اتيا اهل قرية استطعما اهلها ولم يقل استطعماهم اجيب بان التكرير قد يكون للتأكيد كقول الشاعر

ليت الغراب غداة ينعب دائبا ... كان الغراب مقطع الاوداج

وعن قتادة شر القرى التي لا تضيف الضيف فائدة قال الرازي وفي كتب الحكايات ان اهل تلك القرية لما سمعوا نزول هذه الآية استحيوا وجاؤوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحمل من ذهب وقالوا يا رسول الله جئناك بهذا الذهب لتغير الباء تاء حتى تصير القراءة هكذا فاتوا ان يضيفوهم اي اتيناهم لاجل الضيافة حتى يندفع عنا هذا اللوم فامتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال تغيير هذه النقطة يوجب دخول الكذب في كلام الله تعالى وذلك يوجب القدح في الالهية فعلمنا ان تغيير النقطة الواحدة من القرآن يوجب بطلان الربوبية والعبودية ولما ابوا ان يضيفوهما انصرفا فوجدا فيها اي القرية ولم يقل فوجدا ابتداء بان المراد وصف القرية بسوء الطبع جدارا اي حائطا مائلا مشرفا على السقوط ولذا قال مستعيرا لما لا يعقل صفة من يعقل يريد ان ينقض اي يسقط وهذا من مجاز كلام العرب لان الجدار لا ارادة له وانما معناه قرب ودنا من السقوط كما تقول العرب داري تنظر الى دار فلان اذا كانت تقابلها فاستعير الارادة للمشارفة

كما استعير لها الهم والعزم في قوله
يريد الرمح صدر ابي براء ° ويعدل عن دما بني عقيل
وقوله ان دهرا يلف صدري بجمل لزمان يهم بالاحسان فبنى البيت
الاول دليل على استعارة الارادة للمشارفة وفي الثاني دليل استعارة الهم
لها وجمل اسم محبوبته يقول ان دهرا يجمع بيني وبينها زمان قصد الاحسان
لا الاساءة ونظير ذلك في القران قوله تعالى ولما سكت عن موسى الغضب
وقوله تعالى ان يقول له كن فيكون وقوله تعالى قالتا اتينا طائعين قاله
الزمخشري ولقد بلغني ان بعض المحرفين لكلام الله ممن لا يعلم كان يجعل
الضمير للخضر وقيل ان الله تعالى خلق للجدار حياة وارادة كالحيوانات
فاقامه اي سواه وفي حديث ابي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم
بيده فاقامه وقال ابن عباس هدمه وقعد يبنيه وقال سعيد بن جبير
مسح الجدار بيده فاستقام وذلك من معجزاته وقال السدي بل طين
وجعل يبني الحائط فشق ذلك على موسى عليه السلام فان قيل الضيافة من
المندوبات فتركها ترك مندوب وذلك غير منكر فكيف يجوز من موسى عليه
السلام مع علو منصبه ان غضب عليهم الغضب الشديد الذي لاجله ترك العهد
الذي التزمه في قوله ان سالتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني وايضا مثل الغضب
لاجل ترك الاكل في ليلة واحدة فلا يليق بادون الناس فضلا عن كليم
الله اجيب بان تلك الحالة كانت حالة افتقار واضطرار الى الطعام فلاجل
تلك الضرورة نسي موسى عليه السلام ما قاله فلا جرم قال موسى لو
شئت لاتخذت عليه اجرا اي لطلبت على عملك اجرة تصرفها في تحصيل
المطعوم وتحصيل سائر المهمات وقرا ابن كثير وابو عمرو بتخفيف
التا بعد اللام وكسر الخا واظهر ابن كثير الذال عند التا على اصلها وادغمها
ابو عمرو والباقون بتشديد التا وفتح الخا واظهر حفص الذال على اصله
وادغمها الباقون ولما كان كلام موسى هنا متضمنا للسؤال قال
له الخضر هذا فراق بيني وبينك وقيل ان موسى عليه السلام لما
شرط انه ان ساله بعد ذلك سؤالا اخر حصل به الفراق حيث قال
ان سالتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني فلما ذكر هذا السؤال فارقه
وهذا فراق بيني وبينك اي هذا الفراق المعهود الموعود فان قيل
كيف ساغ اضافة بين الى غير متعدد اجيب بان سوغ تكريره بالعطف
بالواو الا ترى انك لو اقتصرت على المال بيني لم يكن كلاما حتى تقول
بيننا او بيني وبين فلان ثم قال له الخضر سانبئك اي ساخبرك
يا موسى قبل فراقي لك بتاويل اي بترجيع ما لم تستطع عليه صبرا
لان هذه المسائل الثلاثة مشتركة في شيء واحد وهو ان كلام الانبياء

لزمن مات بهم

عليهم

عليهم الصلاة والسلام مبنية على الظواهر كما قال صلى الله عليه وسلم نحن نحكم
بالظواهر والله يتولى السرائر والخضر ما كانت اموره واحكامه مبنية على ظواهر
الامور بل كانت مبنية على الاسباب الخفية الواقعة في نفس الامر وذلك لان
الظاهر في اموال الناس وفي ارواحهم في المسئلة الاولى وفي الثانية من غير سبب
ظاهر يبيح ذلك التصرف لان الاقدام على خرق السفينة وقتل الانسان من غير سبب
ظاهر يبيح ذلك التصرف محرم والاقدام على اقامة ذلك الجدار المايل في المسالة
الثالثة تحمل للتعب والمشقة من غير سبب ظاهر ثم اخذ الخضر في تاويل ذلك
مبتديا بالمسئلة الاولى بقوله اما السفينة اي التي احسن الينا اهلها
بخرقها فكانت لمساكين عشرة اخوة خمسة زمنى وخمسة يعملون
في البحر اي يواجرون ويكتسبون واحتج الشافعي رضي الله عنه بهذه الاية
على ان حال الفقير اشد في الحاجة في الضرر من حال المسكين لان الله تعالى
سماهم مساكين مع انهم كانوا يملكون تلك السفينة فاردت ان اعيبها
اي ان اجعلها ذات عيب بان تفوت منفعتها بذلك ساعة من نهار وتكلف
اهلها لوحا او لوحين يسدونها بذلك اخف عليهم من تفويتهم منفعتها
بالكلية كما يعلم من قوله وكان وراءهم اي امامهم كقوله تعالى ومن ورائهم
برزخ وقيل خلفهم وكان طريقهم في رجوعهم عليه ملك كان كافرا وكان
اسمه الجلندي قال محمد بن اسحاق كان اسمه سولة بن جليد الازدي
وقيل اسمه هدد بن بدد ياخذ كل سفينة اي صالحة وحذف التقييد
بذلك للعلم به غصبا من اصحابها ولم يكن عند اصحابها علم به فاذا مرت به
تركها لعيبها فاذا جاوزته اصلحوها فانتفعوا بها قيل سدوها بقارورة
وقيل بالقار فان قيل قوله فاردت ان اعيبها مسبب عن خوف الغصب
عليها فكان حقه ان يتاخر عن السبب فلم قدم عليه اجيب بان النية
به التاخير وانما قدم للعناية ولان الغصب ليس هو السبب وحده ولكن
كونها للمساكين فلما كان كل من الغصب والمسكنة سببا للفعل قدمها
على الغصب اشارة الى ان اقوى السببين الحاملين على فعل الرافة بالمساكين
ثم شرع في المسالة الثانية بقوله واما الغلام الذي قتله فكان
ابواه مؤمنين التثنية للتغليب يريد اباه وامه تغليب المذكر
وهو شايع ومثله العمران قيل ان ذلك الغلام كان بالغا وكان يقطع الطريق
ويقدم على الافعال المنكرة وكان ابواه يحتاجان الى دفع شر الناس
عنه والتعصب عنه وكان يرميه له وتكذيب من يرميه بشي
من المنكرات وكان يصير سببا لوقوعهما في الفسق وربما قاد ذلك
الفسق الى الكفر وقيل انه كان صبيا الا انه علم منه انه لو صار بالغا
لحصلت فيه هذه المفاسد وفي الحديث انه طبع كافرا ولو عاش

لا رهقهما ذلك كما قال فخشينا اي خفنا والخشية خوف بشوبه
تعظيم اي يغشيهما ويلحقهما ان يرهقهما طغيانا اي لمحبتهما له يتبعانه
في ذلك فإن قيل هل يجوز الاقدام على قتل الانسان قبل ذلك اجيب
بانه اذا تاكد ذلك بوحي من الله جاز وعن ابن عباس ان نجدة الحروري
كتب اليه كيف قتله اي كيف قتل الخضر الغلام وقد نهى النبي صلى
الله عليه وسلم عن قتل الولدان فكتب اليه ان علمت من حال الولدان
ما علمه عالم موسى فلك ان تقتل رواه بمعناه مسلم ولما ذكر ما يلزم
على تقدير بقايه من الفساد سبب عنه قوله فاردنا ان يبدلهما اي بقتله
واراحتهما من شره ربهما خيرا منه اي المحسن اليهما باعطايه
واخذه قال مطرف فرح به ابواه حين ولد وحزنا عليه حين
قتل ولو بقي كان فيه هلاكهما فليرض كل امرئ بقضاء الله تعالى
فان قضاء الله تعالى فيما يكره خير له من قضايه فيما يحب ولهذا
ابدلهما الله تعالى خيرا منه زكاة اي طهارة وبركة من الذنوب
والاخلاق الردية وصلاحا وتقوى واقرب رحما اي رحمة وعطفا
عليهما وقيل هو من الرحم والقرابة قال قتادة اي اوصل للرحم
وابر للوالدين قال الكلبي ابدلهما الله تعالى جارية فتزوجها نبي
من الانبيا فولدت له نبيا فهدى الله تعالى على يديه امة من الامم وعن
جعفر بن محمد عن ابيه قال ابدلهما جارية ولدت سبعين نبيا وقال ابن
جريج ابدلهما بغلام مسلم وقرا نافع وابو عمرو ان يبدلهما بفتح البا الموحدة
وتشديد الدال والباقون بالسكون ثم شرع بسكون الموحدة وتخفيف
الدال وقرا ابن عامر رحما برفع الحا والباقون بالسكون ثم شرع في تاويل
المسالة الثالثة واما الجدار اي الذي اشرت باخذ الاجر عليه و
فكان لغلامين ودل على كونهما دون البلوغ بقوله يتيمين وكان
اسم احدهما اصرم والاخر صريم ولما كانت القرية لا تنافي التسمية
بالمدينة وكان التعبير بالقرية اولا اليق للاشارة بها عبر بها لانها
مشتقة من معنى الجمع فكان اليق بالذم في ترك الضيافة ولما كانت
المدينة بمعنى الاقامة عبر بها فقال في المدينة وكان التعبير بها
اليق للاشارة به الى ان الناس يقيمون فيها فينهدم الجدار وهم مقيمون
فياخذون الكنز كما قال وكان تحته كنز لهما فلذلك اقتضى الحسابا
واختلف في ذلك الكنز فعن ابي الدرداء ان النبي صلى الله عليه وسلم قال
كان ذهبا وفضة رواه البخاري في تاريخه والترمذي والحاكم وصححه
والذم على كنزهما في قوله تعالى والذين يكنزون الذهب والفضة لمن لا يودي
زكاتهما وما يتعلق بهما من الحقوق وعن سعيد بن جبير قال كان صحفا

فيهما

فيها علم رواه الحاكم وصححه وعن ابن عباس كان لوحا من ذهب مكتوبا فيه عجبا
لمن ايقن بالموت كيف يفرح عجبا لمن ايقن بالقدر كيف يغضب عجبا لمن ايقن
بالرزق كيف يتعب عجبا لمن يومن بالحساب كيف يغفل عجبا لمن ايقن
بزوال الدنيا وتقلبها باهلها كيف يطمين اليها لا اله الا الله محمد رسول الله
وفي الجانب الاخر مكتوب انا الله لا اله الا انا وحدي لا شريك لي خلقت الخير والشر
فطوبى لمن خلقته للخير واجريته على يديه والويل كل الويل لمن خلقته للشر
واجريته على يديه قال البغوي وهذا قول اكثر اهل التفسير وروي ايضا
ذلك مرفوعا قال الزجاج الكنز اذا اطلق ينصرف الى كنز المال ويجوز عند التقييد
ان يقال عنده كنز علم وهذا اللوح كان جامعا لهما وقوله وكان ابوهما صالحا
فيه تنبيه على ان سعيه في ذلك كان لصلاحه فيراعي ويراعى ذريته وكان سياحا
واسمه كاشح قال ابن عباس حفظا باصلاح ابيهما وكان بينهما وبين الاب
الصالح سبعة ابا قال محمد بن المنكدر ان الله يحفظ بصلاح العبد ولده وولد
ولده وعشيرته واهل دويرات حوله فما يزالون في حفظ الله ما دام فيهم
قال سعيد بن المسيب اني اصلي فاذكر ولدي فازيد في صلاتي وعن
الحسن انه قال لبعض الخوارج في كلام جرى بينهما بم حفظ الله الغلامين
قال بصلاح ابيهما قال فابي وجدي خير منه قال قد انبانا الله انكم
قوم خصمون وذكروا ايضا ان ذلك الاب الصالح كان من الذين تضع الناس
الودايع عنده فيردها اليهم فاراد ربك ان يبلغا اي الغلامان اشدهما
اي الحلم وكمال الراي ويستخرجا كنزهما لينتفعا به وينفعا الصالحين تنبيه
اسند الارادة في قوله فاردت ان اعيبها الى نفسه لانه المباشر للتعييب
وثانيا في قوله فاردنا الى الله والى نفسه لان التبديل باهلاك الغلام
وايجاد الله تعالى بدله وثالثا في قوله فاراد ربك الى الله وحده لانه لا مدخل
له في بلوغ الغلامين او لان الاول في نفسه شر والثالث خير والثاني
ممتزج او انه لما ذكر العيب اضافه الى ارادة نفسه ولما ذكر القتل عبر
عن نفسه بلفظ الجمع تنبيها على انه من العظماء في علوم الحكمة فلم يقدم
على هذا القتل الا لحكمة عالية ولما ذكر رعاية مصالح اليتيمين لاجل
صلاح ابيهما اضافه الى الله تعالى لان التكفل بصلاح الابنا لرعاية حق
الابا ليس الا لله تعالى واختلاف حال المعارف في الالتفات الى الوسايط
فان قيل اليتيمان هل احد منهم عرف حصول ذلك الكنز تحت ذلك
الجدار ام لا فان كان الاول امتنع ان يتركوا السقوط ذلك الجدار وان كان
الثاني فكيف يمكنهم بعد البلوغ استخراج ذلك الكنز ومعرفته والانتفاع
به واجيب لعلهما كانا جاهلين به الا ان وصيهما كان عالما به ثم ان ذلك
الوصي غاب واشرف ذلك الجدار في غيبته على السقوط ولما قرر الخضر

هذه الجوابات قال رحمة من ربك اي انما فعلت هذه الافعال لغرض ان تظهر
رحمة الله لانها باسرها ترجع الى حرف واحد وهو تحمل الضرر الادنى لدفع
الضرر الاعلى كما تقرر وما فعلته اي شيا من ذلك عن امري اي
عن اجتهادي ورايي بل امرني به من له الامر وهو الله تعالى تنبيه احتج من ادعى
نبوة الخضر بامور احدها قوله تعالى اتيناه رحمة من عندنا والرحمة هي
النبوة قال تعالى وما كنت ترجوا ان يلقى اليك الكتاب الا رحمة من ربك
والمراد من هذه الرحمة النبوة قال الرازي ولقائل ان يقول مسلم ان النبوة
رحمة ولكن لا يلزم ان كل رحمة نبوة الثاني قوله تعالى وعلمناه من لدنا علما
وهذا يقتضي ان الله علمه بلا واسطة تعليم ولا ارشاد مرشد وكل من
علمه الله تعالى بلا واسطة البشر وجب ان يكون نبيا يعلم الامور بالوحي
من الله تعالى قال الرازي وهذا الاستدلال ضعيف لان العلوم الضرورية
تحصل ابتداء من الله وذلك لا يدل على النبوة الثالث ان موسى عليه السلام
قال هل اتبعك على ان تعلمني مما علمت والنبي لا يتبع غير نبي في التعلم قال
الرازي وهذا ايضا ضعيف لان النبي لا يتبع غير نبي في العلوم التي باعتبارها
صار نبيا اما غير تلك العلوم فلا الرابع انه اظهر على موسى الترفع حيث
قال وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا واما موسى فانه اظهر له التواضع
حيث قال ولا اعصي لك امرا وهذا يدل على انه كان فوق موسى ومن لا يكون
نبيا لا يكون فوق نبي قال الرازي وهذا ايضا ضعيف لانه لا يجوز ان يكون
غير النبي فوق النبي في علوم لا يتوقف نبوته عليها الخامس قوله وما فعلته
عن امري والمعنى اني فعلت بوحي من الله وهذا يدل على النبوة قال
الرازي وهذا ايضا ضعيف ظاهر الحجة السادس ما روي ان موسى
عليه السلام لما وصل اليه قال السلام عليك قال وعليك السلام يا نبي بني اسرائيل فقال
موسى من عرفك هذا قال الذي بعثك الي وهذا يدل على انما عرف ذلك
بالوحي والوحي لا يكون الا مع النبوة قال الرازي ولقائل ان يقول لم لا يجوز ان
يكون من باب الكرامات والالهامات اه وبالجملة فالجمهور على انه نبي كما مر
واختلفوا هل هو حي او ميت فقيل ان الخضر والياس حيان يلتقيان
كل سنة بالموسم قال البغوي وكان سبب حياته فيما يحكى انه شرب
من عين الحياة وذلك ان ذا القرنين دخل الظلمة ليطلب عين الحياة وكان
الخضر على مقدمته فوقع الخضر على العين فنزل واغتسل وشرب وشكر
الله تعالى واخطا ذو القرنين الطريق وذهب اخرون الى انه ميت لقوله تعالى
وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد وقال النبي صلى الله عليه وسلم بعد ما صلى
العشاء ليلة ارايتكم ليلتكم هذه فان راس مائة سنة ممن هو اليوم على ظهر
الارض احد ولو كان الخضر حيا لكان لا يعيش بعده وما بين موسى سـ

تلك القصة قال له ذلك اي هذا التاويل العظيم تاويل ما لم تسطع
يا موسى عليه صبرا يا موسى • • وحذف تا الاستطاعة
هنا تخفيفا فان استطاع واسطاع بمعنى واحد تنبيه من فوايد هذه القصة
ان لا يعجب المرء بعلمه ولا يبادر الى انكار ما لا يستحسنه فلعل فيه سرا لا يعرفه
وان يداوم على التعلم ويتذلل للمعلم ويراعي الادب في المقال وان ينبه المجرم على
جرمه ويعفو عنه حتى يتحقق اصراره ثم يهاجره روي ان موسى لما اراد ان
يفارق الخضر قال له اوصني قال لا تطلب العلم لتحدث به واطلبه لتعمل به
ولما فرغ من هذه القصة التي حاصلها انها طواف في الارض لطلب العلم عقبها
بقصة من طاف الارض لطلب الجهاد وقدم الاولى اشارة الى علو درجة العلم
لانه اساس كل سعادة وقوام كل امر فقال عاطفا على ويجادل الذين
كفروا بالباطل ويسالونك اي اليهود وقيل مشركو مكة يا اشرف
الخلق عن ذي القرنين وذكروا في سبب تسميته بذلك وجوها الاول
قال ابو الطفيل سئل علي رضي الله عنه عن ذي القرنين اكان نبيا
ام ملكا قال لم يكن نبيا ولا ملكا ولكن كان عبدا صالحا امر قومه بتقوى
الله تعالى فضربوه على قرنه الايمن فمات ثم بعثه الله تعالى ثم امرهم بتقوى الله
تعالى فضربوه على قرنه الايسر فمات ثم بعثه الله تعالى فسمي ذا القرنين
وفيكم مثله يعني نفسه الثاني انه انقرض في وقته قرنان من الناس
الثالث انه كان صفحتا راسه بالنحاس الرابع كان على راسه ما يشبه
القرنين الخامس كان لتاجه قرنان السادس انه طاف قرني الدنيا شرقها وغر بها
السابع كان له قرنان اي ظفيرتان الثامن ان الله تعالى سخر له النور والظلمة
فاذا سرى يهديه النور من امامه وتمده الظلمة من ورائه التاسع انه
لقب بذلك لشجاعته كما يسمى الشجاع كبشا لانه ينطح اقرانه العاشر
انه راى في المنام كانه صعد الفلك وتعلق بطرفي الشمس وقرنيها اي
جانبيها فسمي بذلك لهذا السبب الحادي عشر انه كان له قرنان
تواريهما العمامة الثاني عشر انه دخل النور والظلمة وذكروا في اسمه
ايضا وجوها الاول اسمه مرزبان بن مرزبة اليوناني من ولد يونان
ابن يافث بن نوح الثاني انه اسكندر بن فيلفوس الرومي اشتهر
في كتب التواريخ انه بلغ ملكه اقصى المشرق والمغرب وامعن حتى انتهى
الى البحر الاخضر ثم عاد الى مصر وبنى الاسكندرية وسماها باسم نفسه الثالث
شمر بن عمير بن افريقيس الحميري وهو الذي بلغ ملكه مشارق الارض ومغار بها
وافتخر به احد الشعراء من حمير حيث قال • • • • •
• قد كان ذو القرنين قبلي مسلما • ملكا علا في الارض غير مفند •
• بلغ المشارق والمغارب يبتغي • اسباب ملك من كريم سيد •

واختلفوا في نبوته مع الاتفاق على إيمانه فقال بعضهم كان نبيا واحتجوا على ذلك بوجوه الأول قوله تعالى إنا مكنا له في الأرض وحمله على التمكين في الدنيا والتمكين الكامل في الدين هو النبوة الثاني قوله تعالى وآتيناه من كل شيء سببا وهذا يدل على أنه تعالى آتاه من النبوة سببا الثالث قوله تعالى يا ذا القرنين إما أن تعذب والذي يتكلم الله معه لا بد أن يكون نبيا ومنهم من قال إنه كان عبدا صالحا ملكه الله تعالى الأرض وأعطاه الله سبحانه وتعالى الملك والحكمة وألبسه الهيبة وقد قالوا ملك الأرض مؤمنان ذو القرنين وسليمان وكافران نمرود وبخت نصر ومنهم من قال إنه كان ملكا من الملائكة عن عمر رضي الله عنه أنه سمع رجلا يقول يا ذا القرنين فقال اللهم غفرا أما رضيتم أن تتسموا بأسماء الأنبياء حتى تسميتم بأسماء الملائكة والأكثر على القول الثاني ويدل عليه قول علي رضي الله تعالى عنه المتقدم تنبيه قد قدمنا أن اليهود أمروا المشركين أن يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة أصحاب الكهف وعن قصة ذي القرنين وعن الروح والمراد من قوله تعالى ويسألونك عن ذي القرنين هو ذلك السؤال ثم قال الله تعالى قل أي لهؤلاء المتعنتين سأتلوا أي أقص قصصا متتابعا في مستقبل الزمان إن أعلمني الله به عليكم أي أيها البعداء والضمير في قوله منه لذي القرنين وقيل لله ذكرا أي خبرا كافيا لكم في تعرف أمره جامعا لمجامع ذكره إنا مكنا له في الأرض أي مكنا له أمره من التصرف فيها مكنة يصل بها إلى جميع مسالكها ويظهر بها على سائر ملوكها وآتيناه بعظمتنا من كل شيء يحتاج إليه سببا أي وصلة توصله إليه من العلم والقدرة والآلة فأتبع سببا أي سلك طريقا نحو المغرب قال البقاعي ولعله بدأ به لأن باب التوبة فيه وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو اتبع في المواضع الثلاثة بتشديد التاء الفوقية ووصل الهمزة قبل الفوقية والباقون بقطع الهمزة وسكون التاء الفوقية واستمر سبحانه حتى إذا بلغ في ذلك السير مغرب الشمس أي موضع غروبها وجدها تغرب في عين حمئة أي ذات حمأة وهي الطين الأسود أي بلغ موضعا في المغرب لم يبق بعده شيء من العمران وجد الشمس كأنها تغرب في وهدة مظلمة وغروبها في العين كما أن راكب البحر يرى الشمس كأنها تغرب في البحر إذا لم ير الشط وهي في الحقيقة تغيب وراء البحر وإلا فهي أكبر من الأرض مرات كثيرة فكيف يعقل دخولها في عين من عيون الأرض قال البيضاوي ولعله بلغ ساحل المحيط فرآها كذلك إذ لم يكن في مطمح بصره غير الماء ولذلك قال وجدها تغرب

وإن قيل

وإن قيل كانت تغرب وقرأ شعبة وحمزة والكسائي وابن عامر بألف بعد الحاء مفتوحة بعد الميم عن أبي ذر قال كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم على جمل فرأى الشمس حين غابت فقال أتدري يا أبا ذر أين تغرب هذه قلت الله ورسوله أعلم قال فإنها تغرب في عين حامية وقرأ الباقون بغير ألف بعد الحاء وبعد الميم همزة مفتوحة واتفق أن ابن عباس كان عند معاوية فقرأ معاوية حامية فقال ابن عباس حمئة فقال معاوية لعبد الله بن عمر كيف تقرأ كما يقرأ أمير المؤمنين ثم وجه إلى كعب الأحبار وسأله كيف تجد الشمس تغرب قال في ماء وطين كذلك نجده في التوراة ووجد عندها أي عند تلك العين على الساحل المتصل بها قوما أي أمة قال ابن جريج مدينة لها اثنا عشر ألف باب لولا ضجيج أهلها لسمعت وجبة الشمس حين تجب أي تغرب قيل كان لباسهم جلود الوحش وطعامهم ما يلفظه البحر وكانوا كفارا فخيره الله بين أن يعذبهم أو يدعوهم إلى الإيمان كما حكى ذلك بقوله تعالى قلنا يا ذا القرنين إما بواسطة الملك إن كان نبيا أو بواسطة نبي زمانه إن لم يكن أو باجتهاد في شريعته إما أن تعذب بالقتل على كفرهم وإما أن تتخذ أي بغاية جهدك فيهم حسنا بالإرشاد وتعليم الشرائع وقيل خيره بين القتل والأسر وسماه إحسانا في مقابلة القتل ويؤيد الأول قوله قال أما من ظلم باستمراره على الكفر فإنا نرفق به حتى نيأس منه ثم نقتله وإلى ذلك أشار بقوله فسوف نعذبه بوعد لا خلف فيه بعد طول الترفق والدعاء وقال قتادة كان يطبخ من كفر في القدور وهو العذاب المنكر ثم يرد إلى ربه في الآخرة فيعذبه عذابا نكرا أي شديدا جدا في النار وتقدم في نكرا سكون الكاف وتشديد ضمها وأما من آمن وعمل صالحا تصديقا لما أخبر به من تصديقه فله في الدارين جزاء الحسنى أي الجنة وقرأ حفص وحمزة والكسائي بفتح الهمزة بعد الزاي منونة وبكسر في الوصل لالتقاء الساكنين قال الفراء نصبه على التفسير أي لجهة النسبة وقيل منصوب على الحال أي فله المثوبة الحسنى مجزيا بها والباقون بضم الهمزة من غير تنوين والإضافة للبيان قال المفسرون والمعنى على قراءة النصب فله الحسنى جزاء كما يقول له هذا الثواب هبة وعلى قراءة الرفع وجهان الأول فله جزاء الفعلة الحسنى والفعلة الحسنى هي الإيمان والعمل الصالح والثاني فله جزاء المثوبة الحسنى وإضافة الموصوف إلى الصفة مشهور كقوله ولدار الآخرة وأمال ألف الحسنى حمزة والكسائي محضة وأبو عمرو بين بين وورش بالفتح والإمالة بين بين وسنقول بوعد لا خلف فيه بعد اختياره بالأعمال الصالحة له أي لأجله من أمرنا أي مما نأمره به يسرا

اي قولا غير شاق من الصلوة والزكاة والخراج والجهاد وغيرها وهو ما يطيقه
ولا يشق عليه مشقة كثيرة **ثم اتبع** لارادة طلوع مشرق الشمس
سببا من جهة الجنوب يوصله الى الشرق واستمر فيه لا يمل ولا يقلده
امة مر عليها **حتى اذا بلغ** في مسيره ذلك **مطلع الشمس** اي الموضع الذي
تطلع عليه اولا من المعمور من الارض **وجدها تطلع على قوم** قال المحلي هم الزنج
وقوله تعالى **لم نجعل لهم من دونها** اي الشمس **سترا** فيه قولان الاول
انه لا شي لهم من سقف ولا جبل يمنع من شعاع ووقوع الشمس عليهم لان
ارضهم لا تحمل بناء قال الرازي ولهم سروب يغيبون فيها عند طلوع
الشمس ويظهرون عند غروبها فيكونون عند طلوع الشمس يتعذر
عليهم التصرف في المعاش وعند غروبها يشتغلون بتحصيل مهمات المعاش واحوالهم
بالضد من سائر احوال الخلق وقال قتادة يكونون في اسراب لهم حتى
اذا زالت الشمس عنهم خرجوا فرعوا كالبهائم والثاني ان معناه لا ثياب
لهم ويكونون كسائر الحيوانات عراة ابدا وفي كتب الهيئة ان اكثر حال
الزنج كذلك وحال كل من سكن البلاد القريبة من خط الاستوي كذلك
قال الكلبي هم عراة يفرش احدهم احدى اذنيه ويلتحف بالاخرى
وقال الزمخشري وعن بعضهم قال خرجت حتى جاوزت الصين
فسألت عن هولاء القوم فقيل بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة فبلغتهم
واذا احدهم يفرش احدى اذنيه ويلبس الاخرى فلما قرب طلوع الشمس
سمعت صوتا كهيئة الصلصلة فغشي علي ثم افقت فلما طلعت الشمس
فاذا هي فوق الماء كهيئة الزيت فادخلوني سربا لهم فلما ارتفع النهار جعلوا
جعلوا يصطادون السمك ويطرحونه في الشمس فينضج لهم وعن مجاهد
من لا يلبس الثياب من السودان عند مطلع الشمس اكثر من جميع
اهل الارض وقوله تعالى **كذلك** فيه وجوه الاول ان معناه كما بلغ غروب
الشمس كذلك بلغ مطلعها الثاني ان امره كما وصفناه في رفعة المكان
وبسطة الملك قال البغوي والصحيح ان معناه كما حكم في القوم الذين
هم عند غروب الشمس كذلك في القوم الذين عند مطلعها **وقد احطنا
بما لديه** اي عند ذي القرنين من الالات والجند وغيرهما **خبرا** اي علما
تعلق بظواهره وخفاياه والمعنى ان كثرة ذلك بلغت مبلغا لا يحيط به الا
علم اللطيف الخبير **ثم** ان ذي القرنين لما بلغ المغرب والمشرق **اتبع
سببا** اخر من جهة الشمال في ارادة ناحية السد مخرج ياجوج
وماجوج قال الرازي والاظهر ان موضع السد في ناحية الشمال
سد الاسكندر ما بينهما كما سياتي وقرا ابن كثير وابو عمرو وحفص بفتح السين
والباقون بضمها وهما لغتان ومعناهما واحد وقال عكرمة ما كان موضع

بني ادم

التصرف

بيان فادخلوني سربا لهم

بني آدم فهو السد بالفتح وما كان من صنع الله فهو بالضم وقاله ابو عمرو وقيل
بالعكس **وجد من دونهما** اي بقربهما من الجانب الذي هو ادنى منهما الى الجهة
التي اتى منها ذا القرنين **قوما** اي امة من الناس لغتهم في غاية البعد من
لغات بقية الناس لبعد بلادهم من بقية البلاد فهم كذلك **لا يكادون** اي
لا يقربون **يفقهون** اي يفهمون **قولا** ممن مع ذي القرنين فهما جيدا كما نفهم
غيرهم لغرابة لغتهم وقلة فطنتهم وقرا حمزة والكسائي بضم الياء وكسر القاف
والباقون بفتحها وقال ابن عباس لا يفقهون كلام احد ولا يفهم الناس
كلامهم واستشكل بقولهم **قالوا يا ذا القرنين** واجيب بانه تكلم عنهم مترجم
ممن هو يجاورهم ويفهم كلامهم **ان ياجوج وماجوج** وهما اسمان اعجميان لـه
لقبيلتين فلم ينصرفا وقرا عاصم بهمزة ساكنة بعد الياء والميم والباقون بالالف
فيهما وهما لغتان اصلهما من اجيج النار وهو ضوؤها وشررها شبهوا به
لكثرتهم وشدتهم وهم من اولاد يافث ابن نوح عليه السلام قال الضحاك
هم جيل من الترك قال السدي الترك سرية من ياجوج وماجوج خرجت فضرب
ذو القرنين السد فبقيت خارجة فجميع الترك منهم وعن قتادة انهم اثنان
وعشرون قبيلة بنى ذو القرنين السد على احدى وعشرين قبيلة وبقيت
بج قبيلة واحدة فهم الترك سموا الترك لانهم تركوا خارجين قال اهل التواريخ
اولاد نوح عليه السلام ثلاثة سام وحام ويافث فسام ابو العرب والعجم
والروم وحام ابو الحبشة والزنج والنوبة ويافث ابو الترك والخزر
والصقالبة وياجوج وماجوج وقال ابن عباس في رواية عطا هم عشرة
ج اجزا وولد ادم كلهم جزء وروي عن حذيفة مرفوعا ان ياجوج امة وماجوج
امة وكل امة اربعمائة الف امة لا يموت الرجل منهم حتى ينظر الى الف ذكر
من صلبه كلهم قد حمل السلاح وهم من ولد ادم يسيرون في خراب الارض
وقال هم ثلاثة اصناف صنف منهم امثال الارز شجر بالشام طوله
عشرون ومائة ذراع في السما وصنف منهم طوله وعرضه سوا عشرون
ومائة وهولاء لا تقوم لهم الجبال ولا الحديد وصنف منهم وصنف منهم
يفرش احدا اذنيه ويلتحف بالاخرى لا يمرون بفيل ولا وحش ولا خنزير
الا اكلوه ومن مات منهم اكلوه مقدمتهم بالشام وساقتهم بخراسان
يشربون انهار المشرق وبحيرة طبرية ومنهم ان نبت لهم مخالب في الاظفار
واضراس كاضراس السباع وعن علي رضي الله تعالى عنه انه قال منهم من طوله
شبر ومنهم من هو مفرط في الطول وقال كعب هم نادرة من بني ادم وذلك
ان ادم احتلم ذات يوم وامتزجت نطفته في التراب فخلق الله من ذلك الما
ياجوج وماجوج فهم يتصلون بنا من جهة الاب دون الام وذكر وهب بن منبه
ان ذي القرنين كان رجلا من جهة الروم ابن عجوز فلما بلغ كان عبدا صالحا

قال الله اني باعثك الى امم مختلفة السنتهم منهم امتان بينهما طول الارض
احدهما عند مغرب الشمس يقال لها ناسك والاخرى مطلعها يقال لها منسك
وامتان بينهما عرض الارض احدهما في القطر الايمن يقال لها هاويل والاخرى في
قطر الارض الايسر يقال لها تاويل وامم في وسط الارض منهم الجن والانس وياجوج
وماجوج فقال ذو القرنين باي قوة اكاثرهم وباي لسان اناطقهم قال الله تعالى
اني ساطوقك وابسط لك لسانك واشد عضدك فلا يهولك شي والبسك
الهيبة فلا يروعك شي واسخر لك النور والظلمة واجعلهما من جنودك يهديك
النور من امامك وتحفظك الظلمة من ورائك فانطلق حتى اتى مغرب الشمس
فوجد جمعا وعددا لا يحصيه الا الله تعالى فكاثرهم بالظلمة حتى جمعهم
في مكان واحد فدعاهم الى الله تعالى والى عبادته فمنهم من امن ومنهم من كفر
ومنهم من صد عنه فعمد الى الذين تولوا عنه وادخل عليهم الظلمة
فدخلت اجوافهم وبيوتهم فدخلوا في دعوته فجند من اهل المغرب جندا عظيما
فانطلق يقودهم والظلمة تسوقهم حتى اتى هاويل فعمل فيهم كعمله في
ناسك ثم مضى حتى انتهى الى منسك عند مطلع الشمس فعمل فيها وجند
منها جنودا كعمله في الامتين ثم اخذ بناحية الارض اليسرى
فاتى تاويل فعمل فيها كعمله فيها قبلها ثم عمد الى الامم التي وسط الارض
فلما كان مما يلي منقطع الترك نحو المشرق قالت له امة صالحة من الانس
يا ذا القرنين ان بين هذين الجبلين خلقا اشباه البهائم اي وهم ياجوج
وماجوج مفسدون في الارض يفترسون الدواب والوحوش والسباع
وياكلون الحيات والعقارب وكل ذي روح خلق الله في الارض وليس يزداد
خلق كزيادتهم فلا يوشك انهم سيملكون الارض ويظهرون عليها ويفسدون
فيها وقال الكلبي فسادهم انهم كانوا يخرجون ايام الربيع الى ارضهم
فلا يدعون شيا اخضر الا اكلوه ولا يابسا الا احتملوه وادخلوه ارضهم
وقد لقوا منهم اذى شديدا وقتلا وقيل فسادهم انهم كانوا ياكلون
الناس وقيل معناه انهم سيفسدون في الارض بعد خروجهم فهل نجعل لك
خرجا اي جعلا من المال وقرا حمزة والكسائي بفتح الراء والف بعدها والباقون
بسكون الراء ولا الف بعدها فقيل هما بمعنى وقيل الخرج ما تبرعت به والخراج
ما لزمك على ان تجعل في جميع ما بيننا وبينهم من الارض التي يمكن توصلهم
الينا منها بما اتاك الله من المكنة سدا اي حاجزا بين هذين الجبلين فلا
يصلون الينا وقرا نافع وابن عامر وشعبة برفع السين والباقون بالنصب
قال لهم ذو القرنين ما مكني فيه ربي اي المحسن الي بالتمكين من
الاموال والرجال والتوصل الى جميع الممكن للمخلوق خير من خرجكم الذي
تريدون بذله كما قال سليمان عليه السلام فما اتاني الله خير مما اتاكم

وقرا ابن كثير

وقرا ابن كثير بنون مفتوحة بعد الكاف وبعدها نون مكسورة والباقون بنون واحدة
مكسورة مشددة فاعينوني بقوة اي انا لا اريد المال بل اعينوني
بايديكم وقوتكم وبالالات التي اتقوى بها في فعل ذلك فاما ما معي انما هو القتال
وما يكون من اسبابه لا لمثل هذا اجعل بينكم اي وبين ما تخصون به
وبينهم ردما اي حاجزا حصينا موثقا فوق بعضه فوق بعض من التلاصق والتلاحم
وهو اعظم من السد من قولهم ثوب ردم اذا كان رقاع فوق رقاع قالوا وما تلك
القوة قال فعلة وصناع يحسنون البنا قالوا وما تلك الالات قال اتوني
اي اعطوني زبر الحديد اي قطعه وهو زبره كغرفة وغرف قال الخليل الزبرة
من الحديد القطعة الضخمة فاتوه به وبالحطب فحفر له الاساس حتى بلغ الماء
وجعل الاساس من الصخر والنحاس المذاب والبنيان من زبر الحديد بينهما
على الحطب والفحم حتى اذا ساوى اي بذلك البنا بين الصدفين اي بين جانبي
الجبلين اي سوى بين طرفي الجبلين سميا بذلك لانهما يتصادفان اي يتقابلان
من قولهم صادفت الرجل لاقيته وقابلته وقرا ابن كثير وابو عمرو وابن عامر
برفع الصاد والدال وشعبة برفع الصاد وسكون الدال والباقون بنصب
الصاد والدال ثم وضع المنافخ واطلق النار في الحطب والفحم وقال اي
للعملة انفخوا فنفخوا حتى اذا جعله اي الحديد نارا اي كالنار بلهيبها
قال اتوني اي اعطوني افرغ عليه قطرا اي اصب النحاس على الحديد
المحمي فصب عليه فدخل في خلال الحديد مكان الحطب لان النار
اكلت الحطب حتى لزم الحديد النحاس واختلط والتصق بعضه ببعض
وصار جبلا صلدا قال الزمخشري قيل ما بين السدين مائة فرسخ
ويروى ان عرضه كان خمسين ذراعا وارتفاعه مائتي ذراع وعن قتادة
قال ذكر لنا ان رجلا وفي رواية عن رجل من اهل المدينة قال يا رسول
الله قد رايت سد ياجوج وماجوج قال انعته لي قال كالبرد المحبر طريقة
سوداء وطريقة حمراء وهذه معجزة عظيمة ان كان نبيا وكرامة ان لم يكن
لان هذه الزبرة الكبيرة اذا نفخ عليها حتى صارت بالنار لم يقدر الحيوان
على القرب منها والنفخ عليها لا يكون الا بالقرب منها فكانه تعالى صرف تلك
الحرارة العظيمة عن ابدان اولئك النافخين عليها حتى تمكنوا من العمل فيها
تنبيه قطرا هو المتنازع فيه وهذه الاية اشهر امثلة النحاة في باب
التنازع وبها تمسك البصريون على ان اعمال الثاني من العاملين المتوجهين
نحو معمول واحد اولى اذ لو كان قطرا مفعولا اتوني به لاضمر مفعول افرغ
حذرا من الالباس ثم قال تعالى فما اي فتسبب عن ذلك انه لما اكمل عمل
الردم واحكمه ما اسطاعوا اي ياجوج وماجوج وغيرهم ان يظهروه
اي يعلوا ظهره لعلوه وملاسته وقرا حمزة بتشديد الطاء والباقون

بالخفيف وما اسطاعوا له نقبا اي خرقا لصلابته وسمكه وزيادة الناظمنا
يدل علي ان الدلو عليه اصعب من نقبه لارتفاعه وصلابته والتحام بعضه
ببعض سبيكة واحدة من حديد ونحاس فانهم في علو الجبل فانهم ولو اخذوا
يتادرج من جانبهم او وضع تراب حتى ظهروا عليه لم ينفعهم ذلك لانهم لا
حيلة لهم علي النزول من الجانب الاخر ويؤيده انهم انما يخرجون في اخر الزمان
بنقبه لا بظهوره ولا ينافي نفي الاستطاعة لنقبه ما رواه الامام احمد
والترمذي في التفسير وابن ماجه في الفتن عن ابي رافع عن ابي هريرة عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال ان ياجوج وماجوج ليحفرون السد كل يوم
حتى اذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فستحفرونه
غدا فيعودون اليه كاشد ما كان حتى اذا بلغت مدتهم واراد الله تعالى ان
يبعثهم على الناس حفروا حتى اذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي
عليهم ارجعوا فستحفرونه غدا ان شاء الله تعالى فيستثني فيعودون
اليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس الحديث وفي
حديث الصحيحين عن زينب بنت جحش عن النبي صلى الله عليه وسلم
فتح اليوم من ردم ياجوج وماجوج مثل هذا وحلق رسول الله صلى الله
عليه وسلم ورواه عن ابي هريرة وفيه مثل هذا وعقد تسعين لان هذا في
اخر الزمان ثم انه قيل فما قال حين فراغه قيل قال هذا اي السد اي
الاقدار عليه رحمة اي نعمة من ربي اي المحسن الي فاذا جاء وعد ربي
بقرب قيام الساعة او بوقت خروجهم جعله دكا اي مدكوكا مبسوطا
روي انهم يخرجون على الناس فيتبعون المياه ويتحصن الناس في حصونهم
منهم فيرمون بسهامهم الى السما فترجع مخضبة بالدم فيقولون قهرنا من
في الارض وعلونا من في السما قسوة وعلوا فيبعث الله تعالى عليهم
نغفا في رقابهم وفي رواية اذانهم فيهلكون قال صلى الله عليه وسلم
فوالذي نفسي بيده ان دواب الارض لتسمن وتشكر من لحومهم
شكرا اخرجه الترمذي قوله قسوة وعلوا اي غلظة وفظاظة وتكبرا
والنغف دود يخرج في انوف الابل والغنم وقوله وتشكر من لحومهم
شكرا يقال تشكر الشاة شكرا حين امتلا ضرعها لبنا والمعنى انها تملا
اجسادها لحما وتسمن وعن النواس بن سمعان قال ذكر رسول الله صلى
الله عليه وسلم الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظنناه في
طائفة من النخل فلما رحنا اليه عرف ذلك فينا فقال ما شانكم قلنا
يا رسول الله ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه في
طائفة النخل فقال غير الدجال اخوفني عليكم ان يخرج وانا فيكم فانا
حجيجه دونكم وان يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه والله خليفتي

علي كل

علي كل مسلم انه شاب قطط اي شديد الجعودة وقيل حسن الجعودة عينه
طافية اي بارزة وقيل كاني اشبهه بعبد العزى بن قطن فمن ادركه منكم فليقرا
عليه فواتح سورة الكهف انه خارج خلة بين الشام والعراق فعاث اي افسد
يمينا وعاث شمالا يا عباد الله فاثبتوا قلنا يا رسول الله وما لبثه في الارض
قال اربعون يوما يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر ايامه كايامكم
قلنا يا رسول الله فذلك اليوم الذي كسنة ايكفينا فيه صلاة يوم قال لا
اقدروا له قدره واليوم الثاني والثالث كذلك وسكت عن ذلك للعلم به من
الاول قلنا يا رسول الله وما اسراعه في الارض قال كالغيث استدبرته
الريح فياتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له فيامر السما
فتمطر والارض فتنبت وتروح عليهم سارحتهم اطول ما كانت ذرا
واسبغه ضروعا وامده خواصر ثم ياتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله
فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بايديهم شيء من اموالهم ويمر بالخربة
فيقول لها اخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل ثم يدعو رجلا
ممتلئا شبابا فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ثم يدعوه
فيقبل ويتهلل وجهه يضحك فبينما هو كذلك اذ بعث الله المسيح بن مريم
فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين اي حلتين واضعا
كفيه على اجنحة ملكين اذا طاطا راسه قطر واذا رفعه تحدر منه مثل جمان
كاللؤلؤ فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه الا مات ونفسه ينتهي حيث ينتهي
طرفه حتى يدركه بباب لد قرية بالشام قريبة من الرملة فيقتله ثم ياتي
عيسى بن مريم قوم قد عصمهم الله منه فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجا تهم
في الجنة فبينما هو كذلك اذ اوحى الله تعالى الى عيسى اني قد اخرجت عبادا لي
لا يدان لاحد بقتالهم فحرز عبادي الى الطور ويبعث ياجوج وماجوج وهم
من كل حدب ينسلون فيمر اوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها ويمر
اخرهم فيقول لقد كان بهذه مرة ماء ويحصر نبي الله واصحابه حتى يكون
راس الثور لاحدهم خيرا من مائة دينار لاحدكم اليوم فيرغب نبي الله واصحا به
الى الله تعالى فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم وهو بالتحريك دود يكون
في انوف الابل والغنم كما مر واحدتها نغفة فيصبحون فرسى اي قتلى الوا
ويمرهم ثم يهبط نبي الله عيسى واصحابه الى الارض فلا يجدون في الارض
موضع شبر الا ملاه زهمهم ونتنهم فيرغب نبي الله عيسى واصحابه
الى الله فيرسل الله تعالى طيرا كاعناق البخت فتحملهم حيث شاء الله تعالى
ثم يرسل الله تعالى مطرا لا يكن منه بيت مدر ولا وبر فيغسل الارض
حتى يتركها كالزلفة وهي بالتحريك جمعها زلف مصانع الماء ويجمع على
المزالف ايضا فتصير الارض كانها مصنعة من مصانع الماء وقيل كالمراة

وقيل الزلفة الروضة وقيل بالقاف بضم ثم يقال للارض انبتي ثمرتك وردي
بركتك فيومئذ تاكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها والعصابة من
عشرة الى الخمسة وعشرين ويبارك في الرسل اي اللبن من الابل والغنم من
عشرة الى الخمسة وعشرين حتى ان اللقحة من الابل لتكفي الفئام من الناس
وهو يهمز للجماعة الكثيرة واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس
واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس فبينما هم كذلك اذ بعث الله عليهم
ريحا طيبة فاخذتهم تحت اباطهم فتقبض روح كل مومن وكل مسلم ويبقى
شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة **وكان وعد
ربي** الذي وعد به في خروج ياجوج وماجوج واحتراقهم الارض وافسادهم
لها وقرب قيام الساعة **حقا** كائنا لا محالة فلذلك اعان الله تعالى على هدمه
هذا اخر حكاية ذي القرنين وفي القصة ان ذا القرنين دخل الظلمة فلما
رجع توفي بشهرزور وذكر بعضهم ان عمره كان نيفا وثلاثين سنة سبحان
من يدوم عزه وبقاؤه ثم انه تعالى قال عاطفا على ما تقديره فقد بان
امر ذي القرنين اي بيان وصدق في قوله فاذا جاء وعد ربي فانه اذا جاء
وعد الذي جعلناه بقدرتنا التي نوتيها ياجوج وماجوج دكا فاخرجناهم
على الناس بعد خروج الدجال **وتركنا بعضهم** اي ياجوج وماجوج
يومئذ اي حين يخرجون **يموج** اي يضطرب **في بعض** كموج البحر
او يموج بعض الخلق في بعض فيضطربون ويختلطون انسهم وجنهم حيارى
ويوبد **ونفخ في الصور** اي القرن النفخة الثانية لقوله تعالى **فجمعناهم**
اي الخلائق في مكان واحد يوم القيمة قال البقاعي ويجوز ان يكون
هذه النفخة فيكون المراد النفخة الاولى اي ونفخ فمات الخلائق كلهم
فبليت اجسامهم وتفتتت عظامهم كما كان من تقدمهم ثم نفخ الثانية
فجمعناهم من التراب بعد تمزقهم فيه وتفرقهم في اقطار الارض بالسيول
والرياح وغير ذلك **جمعا** فاحييناهم دفعة واحدة كلمح البصر وحشرناهم
الى الموقف للحساب ثم الثواب والعقاب **وعرضنا** اي اظهرنا
جهنم يومئذ اي اذ جمعناهم لذلك **للكافرين عرضا** ظاهرا لهم
كل ما فيها من الاهوال وهم لا يجدون عنها مصرفا ثم وصفهم بما اوجب
لهم ذلك بقوله تعالى **الذين كانت** كونا كانه جبلة لهم **اعينهم** وهو
بدل من الكافرين **في غطاء عن ذكري** اي عن القران فهم لا يهتدون به ومما
جعلنا على الارض زينة دليلا على الساعة بافنائه ثم احيائه واعادته
بعد ابدائه **وكانوا** مما جعلناهم عليه **لا يستطيعون سمعا** اي لا يقدرون
ان يسمعوا من النبي صلى الله عليه وسلم ما يتلوا عليهم بغضا له فلا هم
يومنون به ولما بين تعالى امر الكافرين انهم اعرضوا عن الذكر وعن

استماع ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم اتبعه بقوله تعالى **افحسب الذين كفروا
ان يتخذوا عبادي** من الاحياء كالملائكة وعزير والمسيح والاموات كالاصنام
من دوني وقوله تعالى **اولياء** اي اربابا مفعول ثان المفعول الثاني لحسب
محذوف والمعنى اظنوا ان الاتخاذ المذكور ينفعهم ولا يغضبني ولا اعاقبهم
عليه كلا وقرا نافع وابو عمرو بفتح الياء والباقون بسكونها وهم على مراتبهم
في المد ولما كان معنى الاستفهام الانكاري ليس الامر كذلك حسن جدا
قوله تعالى مؤكدا لاجل انكارهم **انا اعتدنا جهنم** التي تقدم انا عرضناها لهم
للكافرين هؤلاء وغيرهم **نزلا** اي معدا لهم كالمنزل المعد للضيف او
على سبيل التهكم ونظيره قوله تعالى فبشرهم بعذاب اليم ثم ذكر تعالى ما فيه
تنبيه على جهل القوم فقال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم **قل** لهم
هل ننبئكم اي اخبركم وادغم الكسائي لام هل في النون والباقون بالاظهار
بالاخسرين اعمالا اي الذين اتعبوا انفسهم في عمل يرجون به فضلا
ونوالا فنالوا هلاكا وبوارا واختلفوا اي الذين اتعبوا انفسهم واختلفوا
فيهم فقال ابن عباس وسعد بن ابي وقاص هم اليهود والنصارى وهو
قول مجاهد قال سعد بن ابي وقاص اما اليهود فكذبوا محمدا صلى
الله عليه وسلم واما النصارى فكفروا بالجنة فقالوا لا طعام فيها ولا
شراب انتهى قال البقاعي وكذا قال اليهود لان الفريقين انكروا
الحشر الجسماني وخصوه بالروحاني وقيل هم الرهبان الذين حبسوا
انفسهم في الصوامع تنبيه اعمالا تمييز للاخسرين جمع عمل وان
كان مصدرا لتنوع اعمالهم ثم وصفهم تعالى بضد ما يدعونه لانفسهم
من نجاح السعي واحسان الصنع فقال تعالى **الذين ضل** اي ضاع وبطل
سعيهم في الحياة الدنيا لكفرهم تنبيه محل الجر نعتا او بدلا او بيانا
او النصب على الذم او الرفع على الخبر المحذوف فانه جواب السؤال ومعنى
خسرانهم انهم مثلهم كمن يشتري سلعة يرجو فيها ربحا فخسر وخاب
سعيه كذلك اعمال هؤلاء الذين اتعبوا انفسهم مع ضلالهم فبطل جدهم
واجتهادهم في الحياة الدنيا **وهم يحسبون** اي يظنون وقرا ابن عامر
وعاصم وحمزة بفتح السين والباقون بالكسر **انهم يحسنون صنعا** اي عملا
يجازون لاعتقادهم انهم على الحق ثم بين تعالى السبب في بطلان سعيهم
بقوله تعالى **اولئك** اي البعداء البغضاء **الذين كفروا بايات ربهم** اي بدلائل
توحيده من القران وغيره **ولقائه** اي رؤيته لانه يقال لقيت فلانا
اي رايته فان قيل اللقاء عبارة عن الوصول قال تعالى فالتقى الماء على امر
قد قدر وذلك في حق الله تعالى محال فوجب حمله على لقاء ثواب الله
كما قال بعض المفسرين اجيب بان لفظ اللقاء وان كان عبارة عن الوصول

الا ان استعماله له في الرؤية مجاز ظاهر مشهور والذي نقول ان المراد لقاء ثواب
الله قال لانتم الا بالاضمار وحمل اللفظ على المجاز المتعارف المشهور اولى من
حمله على ما يحتاج الى الاضمار ثم قال تعالى **فحبطت** اي فبسبب
جحدهم الدلايل بطلت **اعمالهم** فصارت هباء منثورا فلا يثابون عليها وفي قوله
تعالى **فلا نقيم لهم يوم القيمة وزنا** قولان احدهما انا نزدري بهم وليس لهم عندنا
وزن ومقدار تقول العرب ما لفلان عندي وزن اي قدر لخسته وروي ابو
هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ليأتي الرجل العظيم
السمين يوم القيمة فلا يزن عند الله جناح بعوضة وقال اقرؤوا فلا نقيم
له يوم القيمة وزنا الثاني لا نقيم لهم ميزانا لان الميزان انما يوضع لاهل الحسنات
والسيئات من الموحدين ليتميز مقدار الطاعات ومقدار السيئات وقال ابو سعيد
الخدري يأتي ناس باعمالهم يوم القيمة من عندهم في التعظيم كجبال تهامة
فاذا وزنوها لم تزن شيئا فذلك قوله تعالى فلا نقيم لهم يوم القيامة
وزنا ولما كان هذا السياق في الدلالة على ان لهم جهنم اوضح من الشمس
قال تعالى **ذلك** اي الامر العظيم الذي بيناه من وعيدهم **جزاؤهم**
ثم بين ذلك الجزاء بقوله تعالى **جهنم** وصرح بالسببية بقوله تعالى **بما كفروا**
اي بما اوقعوا التغطية للدلايل **واتخذوا اياتي** الدالة على وحدانيتي
ورسلي المؤيدين بالمعجزات الظاهرات **هزوا** اي مهزوا بهما
فلم يكتفوا بالكفر الذي هو طعن في الالهية حتى ضموا اليه الهزء الذي هو
اعظم احتقار ولما بين سبحانه وتعالى ما لاحد فريقي اهل الجمع تنفيرا
عنه بين ما للاخرين على تقدير الجواب لسؤال يقتضيه الحال ترغيبا في
اتباعهم والاقتداء بهم بقوله **ان الذين امنوا** اي باشروا الايمان **وعملوا** تصديقا
لايمانهم **الصالحات** من الخصال **كانت لهم** اي في علم الله قبل ان يخلقوا
لبناء اعمالهم على الاساس **جنات** اي بساتين **الفردوس** اي اعلى
الجنة واوسطها والاضافة اليه للبيان روي عن ابي هريرة رضي الله عنه
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذا سألتم الله فاسألوه الفردوس
فانه اوسط الجنة واعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر انهار الجنة
وقال كعب ليس في الجنان جنة اعلى من الفردوس ويكون فيها الامرون بالمعروف
والناهون عن المنكر وقال قتادة الفردوس ربوة الجنة واوسطها
وافضلها وارفعها وقال كعب الفردوس هو بستان الجنة الذي فيه
الاعناب وقال مجاهد هو البستان بالرومية وقال الزجاج هو
بالرومية منقول الى لفظ العربية وقال عكرمة هي الجنة بلسان الحبش
وقال الضحاك هي الجنة الملتفة الاشجار **نزلا** اي منزلا كما كان السعير
والاغلال لاوليك نزلا وقوله تعالى **خالدين فيها** حال مقدرة **لا يبغون**

ان شيتم

اي لا يريدون ادنى ارادة **عنها حولا** اي تحولا الى غيرها قال ابن عباس لا يريدون
ان يتحولوا عنها كما ينتقل الرجل من دار اذا لم توافقه الى دار اخرى ولما ذكر
تعالى في هذه السورة انواع الدلايل والبينات وشرح فيها اقاصيص الاولين
نبه على حال كمال القران بقوله لنبيه صلى الله عليه وسلم **قل** يا اشرف الخلق
للخلق **لو كان البحر** اي ماؤه على عظمته عندكم **مدادا** وهو اسم
لما يمد به الشيء كالحبر للدواة والسليط للسراج **لكلمات** اي لكتب كلمات
ربي اي المحسن الي **لنفد** اي فني مع الضعف فلا تدارك له **البحر**
لانه جسم متناه **قبل ان تنفد** اي تفنى وتفرغ **كلمات ربي** لانها معلوماته
تعالى غير متناهية والمتناهي لا يفي البتة بغير المتناهي وقرا حمزة والكسائي
بالياء التحتية على التذكير والباقون بالفوقية على التانيث ولما لم يكن احد غيره
يقدر على امداد البحر قال تعالى **ولو جئنا بمثله** اي بمثل البحر الموجود **مددا**
اي زيادة ومعونة ونظيره قوله تعالى ولو ان ما في الارض من شجرة اقلام
والبحر يمده من بعده سبعة ابحر ما نفدت كلمات الله واختلف في سبب
نزول هذه الاية فقال البغوي قال ابن عباس قالت اليهود تزعم يا محمد
انا قد اوتينا الحكمة وفي كتابك ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيرا كثيرا
ثم تقول وما اوتيتم من العلم الا قليلا فانزل الله تعالى هذه الاية
وقال البيضاوي وسبب نزولها ان اليهود قالوا في كتابكم ومن يؤت
الحكمة فقد اوتي خيرا كثيرا وتقرؤون وما اوتيتم من العلم الا قليلا انتهى
وقال في الكشاف يعني ان ذلك خير كثير ولكنه قطرة من بحر كلمات
الله وقيل لما نزل وما اوتيتم من العلم الا قليلا قالت اليهود اوتينا
التوراة وفيها علم كل شيء فانزل الله تعالى هذه الاية ولما كانوا ربما قالوا ما لك
لا تخبرنا عن هذه الكلمات بكل ما سالناك عنه قال الله تعالى **قل** يا خير
الخلق لهم **انما انا** في استبداد القدرة على ايجاد المعدوم والاخبار بالغيب
بشر مثلكم اي لا امر لي ولا قدرة الا ما اقدرني ربي عليه ولكن **يوحى
الي** اي من الله تعالى الذي خصني بالرسالة كالوحي الى الرسل قبلي **انما
الهكم** الذي يجب ان يعبد **اله واحد** لا ينقسم بمجانسة ولا غيرها قادر
على ما يريد لا منازع له لم يوح الي بجواب ما سالتموني عنه من عجز ولا من جهل
هذا الذي يعني كل احد علمه ولما ما سالتم عنه في امر الروح والقصص
تعالى فامر لو جهلتموه ما ضركم جهله **فمن** اي فتسبب عن وحدته
المستلزمة لقدرته انه من **كان يرجو لقاء ربه** اي يخاف المصير اليه
وقيل يامل رؤية ربه والرجاء يكون بمعنى الخوف والامل جميعا قال الشاعر
فلا كل ما ترجو من الخير كاين ... ولا كل ما ترجو من الشر واقع
يجمع بين المعنيين **فليعمل عملا** ولو قليلا **صالحا** يرتضيه الله

ولا يشرك اي وليكن ذلك العمل مبنيا على الاساس وهو ان لا يشرك ولو
بالريا بعبادة ربه احدا فاذا عمل ذلك حاز فخار علوم الدنيا والاخرة
روي ان جندب بن زهير قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال
اني لاعمل العمل لله فاذا اطلع عليه سرني فقال ان الله لا يقبل ما شورك
فيه فنزلت تصديقا له وروي انه قال له لك اجران اجر السر واجر العلانية
وذلك اذا قصد ان يقتدي به وروي انه صلى الله عليه وسلم قال اتقوا
اتقوا الشرك الاصغر قالوا وما الشرك الاصغر قال الريا وعن ابي هريرة
قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عن الله تعالى انا اغنى
الشركا عن الشرك فمن عمل عملا اشرك فيه غيري فانا بريء منه وهو للذي
عمله وعن سعيد بن فضالة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول اذا جمع الله تبارك الناس ليوم لا ريب فيه نادى مناد من كان يشرك
في عمل عمله لله فليطلب ثوابه منه فان الله تعالى اغنى الشركا عن الشرك
والاية جامعة لخلاصتي العلم والعمل وهما التوحيد والاخلاص في
الطاعة خاتمة روي في فضايل سورة الكهف احاديث
كثيرة منها ما رواه الترمذي وغيره من قراها عند مضجعه كان له
نورا يتلالا في مضجعه الى مكة حشو ذلك النور ملايكة يصلون
عليه حتى يقوم وان كان مضجعه بمكة كان له نورا يتلالا من
مضجعه الى البيت المعمور حشو ذلك النور ملايكة يصلون عليه
حتى يستيقظ وروى ابو الدردا عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال
من حفظ عشر ايات من اول سورة الكهف حفظ من فتنة الدجال
وقال البيضاوي وعنه عليه السلام من قرا سورة الكهف من
اخرها كانت له نورا من قرنه الى قدمه ولكن الذي رواه الامام
احمد من قرا اول سورة الكهف كانت له نورا من فوقه الى قدمه ومن
قراها كلها كانت له نورا من الارض الى السما وروى البغوي عن النبي
صلى الله عليه وسلم انه قال من قرا سورة الكهف واخرها كانت
له نورا من قدمه الى راسه ومن قراها كلها كانت له نورا من الارض الى
السما فنسال الله تعالى ان ينور قلوبنا وابصارنا وان يغفر زلاتنا
ولا يواخذنا بسو افعالنا وان يفعل ذلك بوالدينا واولادنا واقاربنا
واصحابنا ومشايخنا وجميع اخواننا المسلمين واحبابنا امين
ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم فصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم

سورة مريم مكية

وهي ثمان وتسعون اية وسبعماية واثنان وستون كلمة وثلاثة الاف وثمانماية
حرف وحرفان بسم الله المنزه عن كل شايبة نقص القادر على كل ما يريد

الرحمن الذي عم نواله ساير مخلوقاته الرحيم بساير خلقه واختلف في
تفسير قوله تعالى كهيعص قال ابن عباس هو اسم من اسما الله تعالى
وقال قتادة هو اسم من اسما القران وقيل هو اسم الله الاعظم وقيل هو اسم
السورة وقيل قسم اقسم الله تعالى به وعن الكلبي هو ثنا اثنى تعالى به على
نفسه وعنه معناه كاف لعباده لخلقه هاد لعباده يده فوق ايديهم عالم
ببريته صادق في وعده وعن ابن عباس قال الكاف من كريم وكبير والها
من هاد واليا من رحيم والعين من عليم وعظيم والصاد من صادق
وقيل انه من المتشابه الذي استاثر الله تعالى بعلمه وقد تم الكلام على
ذلك في اول سورة البقرة وقرا نافع باماله الها واليا بين بين واما لهما
محضة شعبة والكساي وامال الها محضة ابو عمرو وابن عامر وحمزة
وللسوسي في اليا خلاف بالامالة محضة والفتح والباقون وهم ابن كثير
وحفص بفتحهما بلا خلاف وجميع القرا في العين المد والتوسط
وقوله تعالى ذكر مبتدا محذوف الخبر تقديره مما يتلى عليكم ذكر او خبر
محذوف المبتدا تقديره المتلو ذكر او هذا ذكر رحمت ربك وقوله
تعالى عبده مفعول رحمت لانها مصدر بني على التا لا انها دالة على
الوحدة ورسمت بالمجرورة ووقف عليها بالها ابن كثير وابو عمرو
والكساي ووقف بالتا على الرسم الباقون وقوله تعالى زكريا بيان
له تنبيه اعلم انه تعالى ذكر في هذه السورة قصص جملة من الانبيا
الاولى هذه القصة وهي قصة زكريا عم في كونه رحمة وجهان يحتمل ان
المراد من قوله تعالى رحمت ربك انه عين عبده زكريا عم في كونه رحمة وجهان
احدهما ان يكون رحمة على امته لانه هداهم الى الايمان والطاعة والثاني ان يكون
رحمة على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لان الله تعالى احيا له صلى الله عليه وسلم
طريقه في الاخلاص والابتهال في جميع الامور الى الله تعالى صار ذلك لطفا
داعيا له ولامته الى تلك الطريقة وكان زكريا رحمة ويحتمل ان يكون المراد
دال على هذه السورة فيها ذكر الرحمة التي رحم بها عبده زكريا اذ نادى
ربه مشتملا على دعا خفيا اي سرا جوف الليل لانه اسرع الى
الاجابة وان كان الجهر والاخفا عند الله سيان وقيل اخفاه ليلا يلام
على طلب الولد في زمن الشيخوخة وقيل اسره من مواليه الذين خافهم وقيل
خفت صوته لضعفه وهرمه كما في صفة الشيخ صوته خفات وسمعه
تارات فان قيل من شرط الندا الجهر فكيف الجمع بين كونه ندا وخفيا
اجيب بوجهين الاول انه اتى باقصى ما قدر عليه من رفع الصوت الا ان
صوته كان ضعيفا لنهاية ضعفه بسبب الكبر وكان ندا نظرا الى
القصد خفيا نظرا الى الواقع الثاني انه دعا في الصلاة لان الله تعالى

اجابه في الصلاة لقوله تعالى فنادته الملائكة وهو قايم يصلي في المحراب ان الله يبشرك وفي كون الاجابة في الصلاة تدل على كون الدعا فيها فيكون النداء فيها خفيا ننبيه في ناصب اذ ثلاثة اوجه احدها انه اذكر ولم يذكر الحوفي غيره والثاني رحمة ولم يذكر الجلال المحلي غيره وذكر الوجهين ابو البقا والثالث انه بدل من زكريا بدل الاشتمال لان الوقت مشتمل عليه ثم كانه قيل ما ذات النداء فقيل قال رب حذف الاداة للدلالة على غاية القرب اني وهن اي ضعف جدا العظم مني اي هذا الجنس الذي هو اقوى ما في بدني ولو جمع لاوهم انه وهن مجموع عظامه لا جميعها وقوله واشتعل الراس اي مني شيبا تمييز محول عن الفاعل اي انتشر الشيب في شعره كما ينتشر شعاع الحطب واني اريد ان ادعوك ولم اكن بدعائك اي بدعائي اياك رب شقيا اي خايبا فيما مضى فلا تخيبني فيما ياتي وان كان في غاية البعد في العادة لكنك فعلت مع ابي ابراهيم مثله فهو دعا وشكر واستعطاف ثم عطف على قوله اني وهن قوله واني خفت الموالي الذي يلون في النسب كبني العم ان يحسنوا الخلافة من وراي اي في بعض الزمان الذي بعدي وكانت امراتي عاقرا لا تلد اصلا بما دل عليه فعل الكون فهب لي اي تسبب عن شيخوختي وضعفي وتعويدك لي بالاجابة وخوفي من سوء خلافة اقاربي ويأسي عن الولد عادة بعقم امراتي وبلوغي من الكبر حدا لا اني اقول لك يا قادر على كل شي هب لي من لدنك اي من الامور المستنبطة المستغربة التي عندك لم تجرها على مناهج العادات والاسباب المستطردات وليا اي ابنا من صلبي يرثني في جميع ما انا فيه من العلم والنبوة والعمل ويرث زيادة على ذلك من ال يعقوب جزا مما خصصتهم به من المنح وفضلتهم به من النعم من محاسن الاخلاق ومعالي الشيم فان الانبيا لا يورثون المال وقيل يرثني الحبورة اي العلم بتحبير الكلام وتحسينه فانه كان حبرا ويرث من يعقوب هو بالفتح والكسر ومواضع يقال للعالم بتحبير الكلام وتحسينه فانه كان حبرا ويعقوب ابن اسحاق عليهما السلام وقيل يرثني العلم ويرث من ال يعقوب النبوة ولفظ الارث يستعمل في المال وفي العلم والنبوة اما في المال فلقوله تعالى واورثكم ارضهم وديارهم واموالهم واما النبوة فلقوله تعالى واورثنا بني اسرايل الكتاب الاية وقال صلى الله عليه وسلم العلماء ورثة الانبيا وان الانبيا لم يورثوا دينارا ولا درهما وانما يورثوا العلم وخص اسم يعقوب اقتدا بنفسه اذ قال ليوسف عليه السلام ويتم نعمته عليك وعلى ال يعقوب ولان اسرايل قد صار علما على الاسباط كلهم وكانت قد غلبت

عليهم

عليهم الاحداث وقرا ابو عمرو والكسائي بجزم الثا المثلثة فيهما على انهما جواب الامر اذ تقديرها ان تهب يرث والباقون بالضم فيهما على انهما صفة واعترض بان زكريا دعا الله تعالى ان يهب ولدا يرثه مع ان يحيى قتل قبله فلم يجبه الى ارثه منه واجيب بان دعا الانبيا غالبة لا لازمة فقد يتخلف لقضا الله تعالى بخلافه كما في دعا ابراهيم عليه السلام في حق ابيه وكما في دعا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في قوله وسالته ان لا يذيق بعضهم باس بعض فمنعنيها ولما كان من قضا الله تعالى وقدره ان يوجد يحيى نبيا صالحا ثم قيل استجيب دعا زكريا في ايجاده دون ارثه ولما ختم دعاه بقوله واجعله رب اي المحسن الي رضيا اي مرضيا عندك اجابه الله تعالى بقوله تعالى يا زكريا انا نبشرك بغلام يرث كما سالت اسمه يحيى وقرا حمزة بفتح النون وسكون البا الموحدة وضم الشين مخففة والباقون بضم النون وفتح الموحدة وكسر الشين مشددة وكذلك في اخر السورة تنبيه يحيى اسم اعجمي ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة بقيا وقيل منقول من الفعل المضارع كما سموا بيعمر وانما تولى تعالى تسميته تشريفا له قال تعالى لم نجعل له من قبل سميا اي مسمى بيحيى قال قتادة والكلبي لم يسم احد قبله بيحيى تنبيه سميا ماخوذ من السمو وفيه دلالة كقول البصريين ان الاسم من السمو وفيه دلالة كقول البصريين ان الاسم من السمو ولو كان من الوسم لقيل وسيما وقال سعيد بن جبير وعطا لم نجعل له شبها ومثلا كما قال تعالى هل تعلم له سميا اي مثلا والمعنى انه لم يكن له مثل لانه لم يعص ولم يهم بمعصية قط ورد هذا لان هذا يقتضي تفضيله على الانبيا قبله كابراهيم وموسى وليس كذلك وقيل لم يكن له ميل الى امر النسا لانه كان سيدا وحصورا وعن ابن عباس لم تلد العواقر مثله ولدا كانه قيل فما قال في جواب هذه الاشارة والبشارة العظمى فقيل قال عالما بصدقها طالبا لتاكيدها للتلذذ بترديدها وهل ذلك من امراته او من غيرها اذا كان منها يكونان على حالتهما من الكبر او غيرها غير طايش ولا عجل رب اي المحسن الي باجابة الدعا انى اي من اين وكيف وعلى اي حال يكون لي غلام يولد لي على غاية القوة والنشاط والكمال في الذكورة وكانت اي والحال انه كانت امراتي اذ كانت شابة عاقرا غير قابلة للولد وانا وهي شابان فلم ياتنا ولد لاختلال احد الشيئين فكيف بها وقد ابيت قال الجلال المحلي بلغت ثمان وتسعين سنة وقد بلغت انا من الكبر عتيا من عتا يعتو اي نهاية السن قال الجلال المحلي ماية وعشرين سنة ومما يقرر سقط ما قيل لم يجب زكريا بقوله

اني يكون لي غلام مع انه هو الذي طلب لغلام وقرا حفص وحمزة والكسائي
وضمها الباقون واصل عتي عتوو كسرت التا تخفيفا وقلبت الواو الاولى
بالمناسبة الكسرة والثانية بالتدغم فيها وانما استعجب للولد من
شيخ فان وعجوز عاقر اعترافا بان المؤثر فيه كمال قدرته وان الوسايط عند
المحققين ملغاة ولذلك قال اي الله تعالى كما قال الاكثرون
لان زكريا انما كان يخاطب الله ربه بقوله رب اني وهن العظم مني او الملك
المبلغ للبشارة تصديقا له بقوله فنادته الملئكة وهو قايم يصلي في
المحراب ان الله يبشرك بيحيى وايضا فانه لما قال وقد بلغت من الكبر
عتيا قال كذلك اي الامر كذلك فهو خبر مبتدا محذوف ثم علله بقوله
قال ربك اي الذي عودك بالاحسان فدل ذلك على انه كلام الملك
قال ابن عادل ويمكن انه يجاب بانه يحتمل ان يحصل الندا اي ندا الله تعالى
وندا الملك ثم ذكر مقول القول فقال هو اي خلق يحيى منكما على هذه
الحالة علي خاصة هين اي بان ارد عليك قوة الجماع وافتق رحم
امراتك للعلوق وقد خلقتك اي قدرتك وصورتك واوجدتك
من قبل ولم اي والحال انك لم تك شيئا بل كنت معدوما
صرفا وفيه دليل على ان المعدوم ليس بشيء ولا ظهر الله تعالى هذه القدرة
العظيمة الهمه السوال ليجاب بما يدل عليها وقرا حمزة والكسائي بعد كفا
بنون بعدها الف والباقون بعد كاف بتاء مضمومة ولما تاقت نفسه
الى سرعة المبشر به قال رب اجعل لي على ذلك اية اي علامة تدلني على
وقوعه قال ايتك على وقوع ذلك ان لا تكلم الناس اي لا تقدر على
كلامهم بخلاف ذكر الله تعالى ثلث ليال اي بايامها كما في ال عمران ثلاثة
ايام حال كونك سويا من غير خرس ولا مرض وجعلت الاية الدالة
عليه سكوتا ثلاثة ايام ولياليهن عن غير ذكر الله دلالة على اخلاصه
وانقطاعه بكليته الى الله تعالى دون غيره فخرج عقب اعلام الله تعالى
له بهذا على قومه من المحراب اي من المسجد وهم ينظرون ان يفتح لهم الباب
متغيرا لونه فانكروه وهو منطلق اللسان تعالى سخبه عن كلام الناس
فقالوا ما لك يا نبي الله فاوحى اليهم اي اشار بشفتيه من غير نطق
وقال مجاهد كتب لهم في الارض ان سبحوا اي اوجدوا التنزيه
والتقديس لله تعالى بالصلاة وغيرها بكرة وعشيا اي اوايل النهار
واواخره على العادة فعلم بمنعه من كلامهم حمل امراته بيحيى قال الجلال
المحلي وبعد ولادته بسنين قال الله تعالى له يا يحيى خذ الكتاب
اي التوراة بقوة اي جد ثم ان الله تعالى وصفه بصفات الاولى
قوله تعالى واتيناه الحكم قال ابن عباس النبوة صبيا قال

عتيا وصليا وجثيا بكسر عينها الاول وضم الثاني وهما الحكايات للثالث والباقون بضمها

الجلال المحلي تبعا للبغوي ابن ثلاث سنين اي احكم الله تعالى عقله في صباه
واستنباه وقيل المراد بالحكم الحكمة وفهم التوراة فقرا التوراة وهو صغير
قال البغوي وعن بعض السلف من قرا القران قبل ان يبلغ فهو ممن اوتي
الحكم صبيا الصفة الثانية قوله تعالى وحنانا اي واتيناه
رحمة وهيبة ووقارا وزكاة بركة من لدنا اي من عندنا بلا واسطة
تعليم ولا تجربة الصفة الثالثة قوله تعالى وزكاة اي واتيناه
طهارة في دينه قال ابن عباس يعني بالزكاة الطاعة والاخلاص وقال
قتادة هي العمل الصالح وقال الكلبي يعني صدقة تصدق الله بها على
ابويه الصفة الرابعة قوله تعالى وكان اي جبلة وطبعا
تقيا اي مخلصا مطيعا روي انه لم يعمل خطيئة ولم يهم بها
الصفة الخامسة قوله تعالى وبرا بوالديه اي بارا لطيفا بهما
محسنا اليهما لانه لا عبادة بعد تعظيم الله اعظم من بر الوالدين يدل عليه
قوله تعالى وقضى ربك ان لا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا
الصفة السادسة قوله تعالى ولم يكن جبارا اي متكبرا والمراد
وصفه بالتواضع ولين الجانب وذلك من صفات المؤمنين قال تعالى
لنبيه صلى الله عليه وسلم واخفض جناحك للمؤمنين وقال تعالى ولو
كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ولان راس العبادة معرفة
الانسان نفسه بالذل ومعرفة ربه بالعظمة والكمال ومن عرف نفسه
بالذل وعرف ربه بالكمال كيف يليق به التجبر والترفع ولذلك لما تجبر
ابليس وتمرد صار مبعدا عن رحمة الله تعالى وعن المؤمنين وقيل الجبار
الذي لا يرى لاحد على نفسه حقا وهو من التعظيم والذهاب بنفسه من
ان لا يلزمه قضا حق لاحد وقيل هو كل من عاقب على غضب نفسه
الصفة السابعة قوله تعالى عصيا اي عاقا او عاصي ربه
وهو ابلغ المعاصي كما ان العليم ابلغ من العالم الصفة الثامنة
قوله تعالى وسلام عليه منا يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا
فان قيل لم خص هذه الاوقات الثلاثة اجيب بوجوه الاول
قال محمد بن جرير الطبري وسلام عليه يوم ولد اي امان من الله تعالى
عليه يوم ولد من ان يناله الشيطان كما ينال سائر بني ادم ويوم يموت
اي امان من الله من عذاب القبر ويوم يبعث اي من عذاب الله يوم القيامة
الثاني قاله عيينة اوحش ما يكون الخلق في ثلاثة مواطن يوم ولد فيرى
نفسه خارجا مما كان فيه ويوم يموت فيرى قوما ما شاهدهم قط ويوم
يبعث فيرى في محشر عظيم فاكرم الله يحيى عليه السلام فخصه بالسلام
في هذه المواطن الثالث قال عبد الله بن نفطويه والسلام عليه يوم و



اي اول ما يري في الدنيا ويوم يموت اي اول يوم فيه امر الاخرة ويوم
يبعث حيا اول يوم يري فيه الجنة والنار وهو يوم القيمة وانما قال حيا
تنبيها على كونه من الشهدا لانه قتل وقد قال تعالى احيا عند ربهم
يرزقون **فروع** الاول هذا السلام يمكن ان يكون من الله وان
يكون من الملئكة وعلى التقديرين فيه دلالة على تشريفه لان الملئكة
لا يسلمون الا عن امر الله تعالى الثاني ليحيي مزية في هذا السلام على
ما لسائر الانبيا لقوله تعالى سلام على نوح سلام على ابراهيم لانه تعالى قال
يوم ولد وليس كذلك سائر الانبيا الثالث روي ان عيسي عليه السلام
قال ليحيي عليه السلام انت افضل مني لان الله تعالى قال سلام عليك
وانا سلمت على نفسي قال الرازي وهذا ليس بقوي لان سلام
عيسي على نفسه يجري مجري سلام الله على يحيي لان عيسي
معصوم لا يفعل الا ما امر الله تعالى اهـ ولكن بين السلامين مزية،
تنبيه هذه القصة قد ذكرت في ال عمران بقوله تعالى كلما دخل عليها
زكريا المحراب وجد عندها رزقا الى ان قال هنالك دعا زكريا ربه
قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة انك سميع الدعا لان زكريا
عليه السلام لما راي خرق العادة في حق مريم طمع في حق نفسه
فدعا وقد وقعت المخالفة في ذكرها هنا وهنالك والالفاظ من وجوه
الاول منها ان الله تعالى صرح في ال عمران بان المنادي هو الملئكة بقوله
تعالى فنادته الملئكة وهو قائم يصلي في المحراب وفي هذه السورة قال
اني يكون لي غلام الاكثر على ان المنادي بقوله يا زكريا انا نبشرك
بغلام اسمه يحيي هو الله تعالى واجيب بان الله تعالى هو المبشر سوا
كان بواسطة ام لا الثاني انه قال تعالى في ال عمران اني يكون لي غلام وامراتي
عاقر وقد بلغني الكبر فذكر اولا كبر سنه ثم عقر امراته وفي هذه السورة
قال اني يكون لي غلام وكانت امراتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا
واجيب بان الواو لا تقتضي الترتيب الثالث قال في ال عمران وقد
بلغني الكبر وقال هنا وقد بلغت من الكبر عتيا واجيب
بان ما بلغك فقد بلغته **الرابع** قال في ال عمران ايتك ان لا تكلم الناس
ثلاثة ايام الا رمزا وقال هنا ثلاث ليال سويا واجيب
بان الايتين دلتا على ان المراد ثلاثة ايام بلياليهن كما مر **القصة الثانية**
قصة مريم وابنها عيسي عليه السلام اغرب من قصة يحيي لان خلق
الولد من شخصين فانيين اقرب الى مناهج العادات من خلق الولد
لا من اب البتة واحسن طرق التعليم والتفهيم الاخذ من الاقرب فالاقرب
مرتقيا الى الاصعب فالاصعب اشار الى ذلك بتغيير السياق فقال

عاطفا

عاطفا على ما تقديره اذكر هذا لهم **واذكر** بلفظ الامر **في الكتاب** اي القران
مريم اي قصتها وهي ابنة عمران خالة يحيي كما في الصحيح من حديث انس
ابن مالك بن صعصعة الانصاري في حديث الاسرا فلما خلصت فاذا يحيي
وعيسي وهما ابنا خالة ثم ابدل من مريم بدل اشتمال فقال **اذ** اي اذكر
ما اتفق لها حين **انتبذت** اي كلفت نفسها ان اعتزلت وانفردت
من اهلها حالة **مكانا شرقيا** اي شرقي بيت المقدس قال الرازي او شرقي
دارها وعن ابن عباس اني لاعلم خلق الله تعالى لاي شي اتخذ النصارى
الشرق قبلة لقوله تعالى مكانا شرقيا فاتخذ ميلاد عيسي قبلة واقتصر
الجلال المحلي على الشرق من الدار وزاد البيضاوي بينهما فقال الشرقي
بيت او شرقي في دارها انتهي ويحتمل ان يكون شرقي بيت المقدس
هو شرقي دارها فلا مخالفة **فاتخذت** اي اتخذت بقصد وتكلف
ودل على قرب المكان بالاتيان بالجار فقال **من دونهم** اي ادني مكان من
مكانهم **حجابا** اي ارسلت سترا تستتر به لغرض صحيح وليس بمذكور
واختلف المفسرون فيه على وجوه احدها انها طلبت الخلوة كيلا
تشتغل عن العبادة ثانيها انها عطشت فخرجت الى المفازة لتستقي
ثالثها انها كانت في منزل زوج اختها زكريا وفيه محراب على حدة تسكنه
وكان زكريا اذا خرج غلق عليها الباب فتمنت ان تجد خلوة في الجبل
لتفلي راسها او ثوبها فانفجرت الشمس فخرجت وجلست في المشرقة
ورا الجبل واتاها الملك كما قال تعالى **فارسلنا** لامر يدل على
عظمتنا **اليها روحنا** اي جبريل عليه السلام ليعلمها بما يريد بها
من الكرامة بولادة عيسي عليه السلام من غير اب لئلا يشتبه عليها
الامر فتقتل نفسها غما **فتمثل لها** اي تشبح بشين معجمة ثم با موحدة ثم
حا مهملة وهو روحاني بصورة الجسماني **بشرا سويا** في خلقه حسن
الشكل رابعها انها قعدت في مشرفة للاغتسال من الحيض محتجبة
بشي يسترها وكانت تتحول من المسجد الى بيت خالتها اذا حاضت وتعود
اليه اذا طهرت فبينما هي في مغتسلها اتاها جبريل بعد لبسها
ثيابها متمثلا بصورة شاب امرد سوي الخلق لتستانس بكلامه
اذ لو اتاها في الصورة الملكية لنفرت منه ولم تقدر على استماع كلامه
قال البيضاوي ولعله ليهيج شهوتها فتنحدر نطفتها الى رحمها
اي مع امنها الفتنة لعفتها قال الرازي وكل هذه الوجوه محتملة
وليس في اللفظ ما يدل على ترجيح واحد منها ولما رات مريم جبريل نحوها
قالت اني اعوذ اي اعتصم **بالرحمن** ربي الذي رحمته عامة
لجميع خلقه **منك** اي لا تقربني وافتح يا اني نافع وابن كثير وابو عمرو

وسكنها الباقون وهم على اصولهم في المد ولما تفرست فيه بما اراه الله تعالى
من بصيرتها واصفى من سريرتها التقوى قالت ان كنت تقيا اي مطيعا
مؤمنا وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله اي فاني عائذة منك
او فتعوذ بتعوذي منك دل تعوذها من تلك الصورة الحسنة على عفتها وورعها
فان قيل انما يستعاذ من الفاجر فكيف قالت ان كنت تقيا اجيب
بان هذا كقول القائل ان كنت مؤمنا فلا تظلمني اي لكونك مؤمنا ينبغي ان
يكون تقواك مانعة من الفجور وهذا في نهاية الحسن لانها علمت انه
لا تؤثر الاستعاذة الا في التقي وهو كقوله تعالى وذروا ما بقي من الربا
ان كنتم مؤمنين اي ان شرط الايمان يوجب هذا لا ان الله تعالى يخشى
في حال دون حال وقيل كان في ذلك الزمان انسان فاجر يتبع النساء
اسمه تقي فظنت مريم ان ذلك الشخص المشاهد هو ذلك فاستعاذت
منه قال الرازي والاول هو الوجه ولما علم جبريل عليه السلام خوفها
قال مجيبا لها بما معناه اني لست ممن تخشين ان يكون منهما موكدا
لاجل استعاذتها قال انما انا رسول ربك اي الذي عذت به فانا لست
منهما بل متصف بما ذكرت وزيادة الرسلية وعبر باسم الرب المقتضي
للاحسان لطفا بها ولان هذه السورة مصدرة بالرحمة ومن اعظم
مقاصدها تعداد النعمة على خلص عباده وقوله ليهب لك قرا ورش
وابو عمرو وقالون بخلاف عنه بالياء ليهب الله لك وقرا الباقون
بالهمز اي لاهب انا لك وفي مجازه وجهان الاول ان الهبة لما جرت
على يديه بان كان الذي هو نفخ في جيبها بامر الله تعالى جعل نفسه
كانه هو الذي وهب لها واضافة الفعل الى من هو سبب مستعمل
قال الله تعالى في الاصنام رب انهن اضللن كثيرا من الناس الثاني ان
جبريل عليه السلام لما بشرها بذلك كانت البشارة الصادقة
جارية مجرى الهبة ثم بين الموهوب بقوله غلاما اي ولدا ذكرا
في غاية القوة والرجولية ثم وصفه بقوله زكيا اي نقيا طاهرا
من كل ما يدنس البشر ناميا على الخير والبركة قالت مريم انى اي من
اين وكيف يكون لي غلام ولد ولم يمسسني بشر بنكاح ولم اك بغيا
اي زانية تعجبت مما بشرها به جبريل عليه السلام لانها قد عرفت بالعادة
ان الولادة لا تكون الا من رجل والعادة عند اهل المعرفة معتبرة في الامور
وان جوزوا خلاف ذلك في القدرة فليس في قولها هذا دلالة على انها
لم تعلم انه تعالى قادر على خلق الولد ابتداء وكيف وقد عرفت انه تعالى
خلق ابا البشر على هذا الحد ولانها كانت منفردة بالعبادة ومن يكون
كذلك لا بد ان يعرف قدرة الله تعالى على ذلك وبما تقرر سقط ما قيل

قولها

قولها ولم يمسسني بشر يدخل تحته قولها ولم اك بغيا ولهذا اقتصر عليه في آل
عمران بقولها قالت رب انى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر فلم تذكر البغي
ويجوز ان يقال افردت ذكر البغي مع دخوله في الكلام الاول لانه اعظم ما في بابه
فهو نظيره قوله تعالى حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوله
تعالى وملائكته وكتبه ورسله وجبريل وميكائيل قال لها جبريل عليه
السلام الامر كذلك من خلق غلام منك من غير اب ولما كان لسان
الحال قائلا كيف يكون بغير سبب اجاب جبريل بقوله قال ربك هو
اي المذكور وهو ايجاد الولد على هذه الهيئة علي وحدي لا يقدر عليه
غيري هين اي بان ينفخ فيه بامري جبريل فيك فتحملي به ولكون ما ذكر في
معنى العلة عطف عليه ولنجعله بما لنا من العظمة اية للناس اي علامة
على كمال قدرتنا على البعث ادل من الاية في يحيى عليه السلام وبه تمام
القسمة الرباعية في خلق البشر فانه اوجد من انثى بلا ذكر وحواء من
ذكر بلا انثى وادم عليه السلام لا من ذكر ولا انثى وبقية اولاده من
ذكر وانثى معا ورحمة منا على العباد يهتدون به وكان ذلك كله
امرا مقضيا به في علمي قوله تعالى فحملته فيه حذف تقديره فنفخنا
فيها فحملته دل ذلك على قوله تعالى في سورة التحريم ومريم ابنت عمران التي
احصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا واختلف في النافخ فقال بعضهم
كان النفخ من الله لهذه الاية ولانه تعالى قال ان مثل عيسى عند
الله كمثل ادم ومقتضى التشبيه حصول المشابهة الا فيما اخرجه
الدليل وفي حق ادم النافخ هو الله تعالى قال الله تعالى ونفخت فيه من روحي
فكذا هاهنا وقال بعضهم النافخ جبريل لان الظاهر من قول جبريل
عليه السلام لاهب لك على احد القراءتين انه النافخ واختلف في كيفية
نفخه فقيل ان جبريل عليه السلام رفع درعها فنفخ في جيبها حين
لبست وقيل مد جيب درعها باصابعه ونفخ في الجيب وقيل نفخ
في كم قميصها وقيل في فيها وقيل نفخ جبريل نفخا من بعيد فوصل النفخ
اليها فحملت بعيسى في الحال وقيل نفخ في ذيلها فدخلت النفخة في صدرها
فحملت فجاءت اختها امرأة زكريا تزورها فلما التزمتها عرفت انها حبلى
وذكرت مريم حالها فقالت امرأة زكريا اني وجدت ما في بطني يسجد
لما في بطنك فذلك قوله تعالى مصدقا بكلمة الله وقيل حملت وهي
بنت ثلاث عشرة سنة وقيل بنت عشرين وقد كانت حاضت
حيضتين قبل ان تحمل قال الرازي وليس في القرآن ما يدل على شيء
من هذه الاقوال المذكورة ثم عقب بالحمل قوله فانتبذت اي
فاعتزلت به وهو في بطنها حالة مكانا قصيا اي بعيدا من اهلها

او من المكان الشرقي واشار الي قرب الولادة من الحمل بفا التعقيب بقوله
فاجاءها اي فاتي بها والجاها المخاض وهو تحريك الولد في بطنها للولادة
الي جذع النخلة وهو ما برز منها من الارض ولم يبلغ الاغصان وكانت
تعريفها لانه لم يكن في تلك البلاد البارده غيرها فكانت كالعلم لما فيها
من العجب لان النخل من اقل الاشجار صبرا على البرد ولعلها الجات اليها
دون غيرها من الاشجار على كثرتها لمناسبة حال النخلة لها لانها لا تحمل الا
باللقاح من ذكور النخل فحملها بمجرد هزها انسب لاتيانها بولد من
والد فكيف اذا كان ذلك في غير وقته وكانت يابسة مع ما لها فيها من المنافع
بالاتكاء اليها والاعتماد عليها وكون رطبها خرسة للنفسا وغاية في نفعها
وغير ذلك والخرسة بخا معجمة مضمومة طعام النفسا وهو مراد الجوهري بقوله
طعام الولادة قال ابن عباس الحمل والولادة في ساعة واحدة وقيل
ثلاث ساعات حملته في ساعة وصور في ساعة ووضعته في ساعة حين
زالت الشمس من يومها وقيل كانت مدته تسعة اشهر كحمل سائر النسا
وقيل كانت مدة حملها ثمانية اشهر وذلك الا يعيش من ولد لثمانية اشهر
ولما كان ذلك امرا صعبا عليها جدا كان كانه قيل يا ليت شعري ما كان حالها
فقيل قالت لما حصل عندها من خوف العار يا ليتني مت واشارت
الي استغراق الزمان بالموت بمعنى عدم الوجود فقالت من غير جار قبل
هذا اي الامر العظيم وقرا نافع وحفص وحمزة مت بكسر الميم
والباقون بالضم وكنت نسيا اي شيئا من شانه ان يطرح وينسي منسيا
اي متروكا بالفعل لا يخطر على بال فان قيل لم قالت ذلك مع انها كانت
تعلم ان الله تعالى بعث جبريل عليه السلام اليها ووعدها بان يجعلها وولدها
اية للعالمين اجيب عن ذلك باجوبة الاول انها تمنت ذلك استحياء
من الناس فانساها الاستحيا بشارة الملايكة بعيسى الثاني ان عادة
الصالحين اذا وقعوا في بلاء ان يقولوا ذلك كما روي عن ابي بكر انه
نظر الي طاير على شجرة فقال طوبى لك يا طاير تقع على الشجر وتاكل من الثمر
وددت اني ثمرة ياكلها الطاير وعن عمر انه اخذ تبنة من الارض فقال
يا ليتني هذه التبنة ولم اك شيا وعن علي يوم الجمل ليتني مت قبل
هذا اليوم بعشرين سنة وعن بلال ليت بلالا لم تلده امه فثبت ان
هذا الكلام يذكره الصالحون عند اشتداد الامر عليهم الثالث لعلها قالت
ذلك ليلا يقع في المعصية من يتكلم فيها والا فهي راضية بما بشرت به
وقرا حفص وحمزة نسيا بفتح النون والباقون بالكسر وقوله تعالى
فناداها من تحتها قراه نافع وحفص وحمزة بكسر من وجر التا من
تحتها والباقون بفتح الميم من ونصب تحتها واما ل الف ناداها

رواية اخرى لانه م

بنفرها

حمزة

حمزة والكسائي امالة محضة وقرا ورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح وفي
المنادي اوجه احدها انه عيسى عليه السلام وهو قول الحسن وسعيد
ابن جبير ثانيها انه جبريل عليه السلام وانه كالقابلة للولد ثالثها ان المنادي
على القراءة بالفتح هو عيسى وعلى القراءة بالكسر هو جبريل وهو يروى
عن ابن عيينة وعاصم قال الرازي والاول اقرب وصدر به البيضاوي
واقتصر الجلال المحلي على الثاني والمعنى على الاول ان الله تعالى انطقه لها
حين ولدت تطييبا لقلبها وازالة للوحشة عنها حتى تشاهد
في اول الامر ما بشرها به جبريل من علو شان ذلك الولد وعلى الثاني ان
ان الله تعالى ارسله اليها ليناديها بهذه الكلمات كما ارسل اليها في اول الامر
تذكيرا للبشارات المتقدمة والضمير في تحتها للسيدة مريم وعلى تقدير
ان يكون المنادي هو عيسى فهو ظاهر وان كان جبريل فقيل انه كان تحتها
يقبل الولد كالقابلة وقيل تحتها اسفل من مكانها وقيل الضمير فيه للنخلة
اي ناداها من تحتها ان لا تحزني يجوز في ان تكون مفسرة لتقدمها ما هو
بمعنى القول ولا على هذا ناهية وحذف النون للجزم وان تكون الناصبة
ولا حينئذ نافية وحذف النون للنصب ومحل ان اما نصب او جر لانها
على حذف جار اي فناداها بكذا قد جعل ربك اي المحسن اليك تحتك في
هذه الارض التي ما جاورتها سريا اي جدولا من الما تطيب به نفسك
قال الرازي اتفق المفسرون الا الحسن وعبد الرحمن بن زيد ان
السري هو النهر والجدول سمي بذلك لان الما يسري فيه واما الحسن
وابن زيد فانهما جعلا السري هو عيسى والسري هو النبيل الجليل
يقال فلان من سروات قومه اي اشرافهم واحتج من قال النهر بان
النبي صلى الله عليه وسلم سيل عن السري فقال هو الجدول وبقوله
تعالى فكلي واشربي على انه النهر حتى يضاف الما الي الرطب فتاكل وتشرب
واحتج من قال انه عيسى بان النهر لا يكون تحتها بل يكون الي جنبها ولا
يجوز ان يجاب عنه بان المراد انه جعل النهر تحت امرها يجري بامرها
ويقف بامرها كقول فرعون وهذه الانهار تجري من تحتي
لان هذا حمل اللفظ على مجازه ولو حملناه على عيسى لم يحتج الى هذا المجاز
وايضا فانه موافق لقوله وجعلنا ابن مريم وامه اية واجيب
بان المكان المستوي اذا كان فيه مبدا معين فكل من كان اقرب منه كان
فوق وكل من كان ابعد منه كان تحت تنبيه اذا قيل بان السري
هو النهر ففيه وجهان الاول قال ابن عباس ان جبريل ضرب برجله الارض
وقيل عيسى فظهر عين ما عذب وجري وقيل كان هناك ما جار قال
ابن عادل والاول اقرب لان قوله قد جعل ربك تحتك سريا يدل

على حدوثه في ذلك الوقت ولان الله تعالى ذكره تعظيما لشانها وقيل كان هناك نهر
يابس اجرى الله فيه الما وحييت النخلة اليابسة واورقت واثمرت وارطبت قال
ابو عبيدة والفرا السري هو النهر مطلقا وقال الاخفش هو النهر الصغير
وهزي اليك اي ادني الهز وهو جذب بتحريك **بجذع النخلة** اي التي
انت تحتها مع يبسها وكون الوقت ليس وقت حملها **تساقط عليك** من اعلاها
رطبا جنيا طريا اية اخرى عظيمة روي انها كانت نخلة يابسة لا راس لها
ولا راس وكان الوقت شتاء فهزتها فجعل الله تعالى لها راسا وخوصا ورطبا
وقرا حمزة بفتح التاء والسين مخففة وفتح القاف وحفص بضم التاء
وفتح السين مخففة وكسر القاف والباقون بفتح التاء وتشديد السين
وفتح القاف تنبيه الباء في بجذع زايدة والمعنى هزي اليك اي هزي
بجذع النخلة كما في قوله تعالى ولا تلقوا بايديكم قال الفرا تقول العرب
هزه وهز به وخذ الخطام وخذ بالخطام وزوجتك فلانة وزوجتك
بفلانة وقال الاخفش يجوز ان يكون على معنى هزي اليك رطبا ملزمه
بجذع النخلة على جذعها ورطبا تمييز وجنيا صفته والرطب اسم جنس
لرطبة بخلاف تخم فانه جمع لتخمة والفرق انهم لزموا تذكيره فقالوا هو الرطب
وتانيث ذلك فقالوا هي التخم فذكروا الرطب باعتبار الجنس وانثوا التخم
باعتبار الجمعية قاله ابن عادل وهو فرق لطيف والرطب ما يقع قبل اليبس
والجفاف وخص الرطب بالرطب قال الربيع بن خثيم ما للنفسا عندي
خير من الرطب ولا للمريض خير من العسل وهذه الافعال الخارقة
للعادة كرامات لمريم وارهاص لعيسى وفي ذلك تنبيه على ان من قدر ان يثمر
النخلة اليابسة في الشتا قدر ان يحبلها من غير فحل وتطيب لنفسها
فلذلك قال **فكلي** اي من الرطب **واشربي** من السري او كلي من
الرطب واشربي من عصيره **وقري عينا** اي وطيبي نفسك وارفضي
عنها ما احزنك وقدم الاكل على الشرب لان النفسا الى الرطب اشد
من احتياجها الى الشرب لما كثرة ما سال منها من الدم فان قيل ان مضرة
الخوف اشد من مضرة الجوع والعطش لان الخوف الم الروح والجوع الم البدن
والم الروح اقوى من الم البدن روي انه اجيعت شاة فقدم اليها علف
وعندها ذيب فبقيت الشاة مدة مديدة لا تتناول العلف مع جوعها خوفا
من الذيب ثم كسر رجلها وقدم لها العلف فتناولت العلف مع الم البدن فدل ذلك على ان
الم الخوف اشد من الم البدن واذا كان كذلك فلم قدم ضرر الجوع والعطش
على ضرر الخوف اجيب بان هذا الخوف كان قليلا لان بشارة جبريل
عليه السلام كانت قد تقدمت فما كانت تحتاج الا الى التذكير مرة اخرى
وقيل قري عينا بولدك عيسى وقيل بالنوم فان المهموم لا ينام

وقوله

وقوله **فاما** فيه ادغام نون ان الشرطية في ما الزايدة **ترين** حذفت منه لام
الفعل وعينه والقيت حركتها على الرا وكسرت يا الضمير لالتقا الساكنين
من البشر احدا ينكر عليك **فقولي** يا مريم لذلك المنكر جوابا له مع التاكيد
تنبيها على البراة لان البري يكون ساكنا لاطمانينة والمرتاب يكثر كلامه
وحلفه **اني نذرت للرحمن** اي الذي عمت رحمته **صوما** اي امساكا عن
الكلام في شانه وغيره مع الاناس بدليل **فلن اكلم اليوم انسيا** فان كلامي
يقبل الرد والجدال له ولكن يتكلم عني المولود الذي كلامه لا يقبل الدفع
واما انا فانزه نفسي عن مجادلة السفها ومن اذل الناس سفيه لم يجد
مسافها فلا اكلم الا الملايكة او الخالق بالتسبيح والتقديس وساير
انواع الذكر وقيل صياما لانهم كانوا لا يتكلمون في صيامهم فعلى هذا
كان ذكر الصوم دالا على الصمت وهذا النوع من النذر كان جايزا في
شرعهم وهل يجوز مثل هذا النذر في شرعنا قال القفال لعله يجوز
لان الاحتراز عن كلام الادميين وتجريد الفكر بذكر الله تعالى قربة
ولعله لا يجوز لما فيه من التضييق وتعذيب النفس كنذر القيام
في الشمس وروي انه دخل ابو بكر على امراة قد نذرت انها لا تتكلم
فقال ابو بكر ان الاسلام قد هدم هذا فتكلمي تنبيه اختلفوا في انها هل قالت
لهم اني نذرت للرحمن صوما فقال قوم انها ما تكلمت معهم بذلك لانها كانت
مامورة بان تاتي بهذا النذر فلو تكلمت معهم بعد ذلك لوقعت في المناقضة
ولكنها سكتت واشارت براسها وقال اخرون انها ما نذرت في الحال
بل صبرت حتى اتاها القوم فذكرت لهم انها نذرت للرحمن صوما فلن اكلم اليوم
انسيا بعد هذا الكلام **فاتت** اي فلما سمعت هذا الكلام اشتد قلبها
وزال حزنها واتت **به** اي عيسى **قومها** وان كان فيهم قوة المجادلة
لكل ما يريد وذا اتيانها البري الموقن بان الله معه حالة كونها تحمله غير
مبالية باحد لا مستخفية واختلفوا كيف ما اتت به فقيل ولدته
ثم حملته في الحال الى قومها وقيل احتمل يوسف النجار مريم وابنها الى
غار ومكث اربعين يوما حتى طهرت من نفاسها ثم حملته الى قومها فكلمها
في الطريق فقال يا اماه ابشري فاني عبد الله ومسيحه فلما دخلت على اهلها
ومعها الصبي بكوا وحزنوا وكانوا اهل بيت صالحين قال الرازي وليس في
القران ما يدل على التعيين ثم كانه قيل فلما اتت به قومها ماذا قالوا لها فقيل
قالوا يا مريم لقد جيت شيا فريا اي عظيما منكرا في كونه ذلك منهم على
وجه الذم من فري الجلد يقال افريت الاديم قطعته على جهة الافساد لانه
فريته يقال فريته قطعته على جهة الاصلاح ويدل على ان مرادهم الاول قولهم بعد
يا اخت هارون ما كان ابوك امرا سو اي زانيا **وما كانت امك بغيا**

اي ما صار الولد لانها لم
قالت انا امة علي

وبزانية فمن اين لك هذا الولد لان هذا القول ظاهره التوبيخ وفي هرون هذا اربعة
اقوال احدها انه رجل صالح من بني اسرائيل ينسب اليه كل من عرف بالصلاح
والمراد انك كنت في الزهد كهارون فكيف صرت هكذا وروي ان هرون هذا
لما مات تبع جنازته اربعون الفا كلهم يسمى هرون من بني اسرائيل تبركا باسمه
سوى سائر الناس شبهوها به على معنى انا ظننا انك مثله في الصلاح وليس
المراد منه الاخوة في النسب كقوله تعالى ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين
وروى المغيرة بن شعبة قال لما قدمت نجران سألوني فقالوا انكم تقرؤن
يا اخت هرون وموسى قبل عيسى بكذا وكذا فلما قدمت على رسول الله صلى
الله عليه وسلم سألته عن ذلك فقال انهم كانوا يسمون بانبيائهم
والصالحين قبلهم قال ابن كثير واخطأ محمد بن كعب القرظي في زعمه انها اخت
موسى وهرون نسبا فان بينهما من الدهور الطويلة ما لا يخفى على من عنده
ادنى علم وكان غره في اول التوراة ان مريم اخت موسى وهرون ضربت
بالدف يوم نجى الله تعالى موسى وقومه واغرق فرعون وقومه وجنوده
فاعتقد ان هذه هي تلك وهذا في غاية البطلان والمخالفة للحديث
الصحيح المتقدم الثاني انه هرون اخو موسى لانها كانت من نسله
كما يقال للتميمي يا اخا تميم وللهمداني يا اخا همدان اي يا واحدا منهم
الثالث انه كان فاسقا في بني اسرائيل فنسبت اليه اي شبهوها به
الرابع انه كان لها اخ يسمى هرون من صلحاء بني اسرائيل فعيرت به قال
الرازي وهذا هو الاقرب لوجهين الاول ان الاصل في الكلام الحقيقة
فيحمل الكلام على اخيها المسمى بهرون الثاني انها اضيفت اليه ووصف
ابوها بالصلاح فحينئذ يكون التوبيخ اشد لان من كان حال ابويه واخيه بهذه
الحال يكون صدور الذنب منه افحش فاشارت اليه اي لما بالغوا في توبيخها
سكتت واشارت الى عيسى عليه السلام انه هو الذي يجيبكم قال ابن مسعود
لما لم يكن لها حجة اشارت اليه ليكون كلامه حجة لها وعن السدي لما
اشارت اليه غضبوا وقالوا لسخريتها بنا اشد من زناها اشد من
زناها ثم قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا لم يبلغ سن هذا الكلام
الذي لا يقوله الا الاكابر العقلاء بل الكبراء الانبياء والتعبير بكان يدل على
انه عند الاشارة اليه لم يحوجهم الى ان يتكلموا بل حين يسمع المحاورة
ورأى الاشارة بدا منه بقول خارق لعادة الرضعاء بل الصبيان روي
انه كان يرضع فلما سمع ذلك ترك الرضاعة واقبل عليهم بوجهه واتكأ
على يساره واشار بسبابته بيمينه وقيل كلمهم ثم لم يتكلم حتى بلغ
مبلغا يتكلم فيه الصبيان تنبيه في كان هذه اقوال احدها
انها زائدة وهو قول ابي عبيدة اي كيف نكلم من كان في المهد صبيا

علي هذا

على هذا نصب على الحال من الضمير المستتر في الجار والمجرور الواقع صفة ثانيها
انها تامة بمعنى حدث ووجد والتقدير كيف نكلم من كان صبيا وصبيا
حال من الضمير في كان قال الرازي وهذا هو الاقرب الثالث انها بمعنى صار اي كيف
نكلم من صار في المهد صبيا وصبيا على هذا خبرها فان قيل كيف عرفت مريم
من حال عيسى انه يتكلم اجيب بان جبريل او عيسى عليه السلام لما
ناداها من تحتها ان لا تحزني وامرها عند رؤية الناس بالسكوت صار
ذلك كالتنبيه لها على ان المجيب هو عيسى عليه السلام او لعلها عرفت
ذلك بالوحي الى زكريا او اليها على سبيل الكرامة واختلفوا في المهد فقيل
هو حجرها لما روي انها اخذته عليه السلام في خرقة فاتت به قومها فلما راوها
قالوا لها ما قالوا فاشارت اليه وهو في حجرها ولم يكن لها منزل بعد حتى يعد
لها المهد وقيل هو المهد بعينه والمعنى كيف نكلم صبيا سبيله ان ينام في
المهد وقال وهب اتى زكريا مريم عند مناظرتها اليهود فقال لعيسى انطق
بحجتك ان كنت امرت بها فوصف نفسه بثمان صفات الصفة الاولى
قال اني عبد الله اي الملك الاعظم الذي له صفات الكمال لا اتعبد لغيره
وفي ذلك اشارة الى ان عبد الله لا يتخذ الها من دونه ولا يستعبده شيطان
ولا هوى الصفة الثانية قوله تعالى آتاني الكتاب واختلف في ذلك
الكتاب فقال بعضهم هو التوراة لان الالف واللام في الكتاب ينصرف للمعهود
والكتاب المعهود لهم هو التوراة وقال ابو مسلم هو الانجيل لان الالف واللام
ههنا للجنس وقال قوم التوراة والانجيل لان الالف واللام تفيد الاستغراق
واقتصر البيضاوي على الاول والبقاعي وزاد عليه والزبور وغيرها من الصحف
الصفة الثالثة قوله وجعلني نبيا واختلف في معنى ذلك فقيل
معناه سيؤتيني الكتاب ويجعلني نبيا واتى بلفظ الماضي لجعل المحقق وقوعه
كالواقع كما في قوله تعالى اتى امر الله فلا تستعجلوه وقيل هو اخبار عما كتب في اللوح
المحفوظ كما قيل للنبي صلى الله عليه وسلم متى كنت نبيا قال كنت نبيا وآدم
بين الروح والجسد وقال الاكثرون اوتي الانجيل وهو صغير طفل وكان
يعقل عقل الكلام الرجال وقال الحسن الهم التوراة وهو في بطن امه
الصفة الرابعة قوله وجعلني مباركا بانواع البركات اينما اي
في اي مكان كنت وذكروا في تفسير المبارك وجوها ان البركة في اللغة
هي الثبات واصله من بروك البعير ومعناه وجعلني ثابتا على دين الحق فانت
ضلوا من قبل انفسهم لا من قبله روى الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال سلمت ام عيسى عيسى الى الكتاب وقالت للمعلم ادفعه اليك على ان لا
تضربه فقال له المعلم اكتب فقال اي شيء اكتب فقال اكتب ابجد فقال
لا اكتب شيئا لا ادري فقال اي عيسى للمعلم ان لم تفعل تعقل ما هو

فانني اعلمك الالف من الاء الله والبها من بهايه والجيم من جماله والدال من ادا الحق
الى الله تعالى ثالثها البركة الزيادة والعلو فكانه قال جعلني في جميع الاحوال
منجحا مفلحا لاني مادمت نبي الله في الدنيا اكون مستعليا على الغير بالحجة
فاذا جا الوقت المعلوم اكرمني الله بالرفع الى السما الرابعة مباركا على الناس
من حيث يحصل بسبب دعايه احيا الموتى وابرا الاكمه والابرص وعن
قتادة ان امراة رأته وهو يحيي الموتى ويبري الاكمه والابرص فقالت
طوبى لبطن حملتك وثدي ارضعت به فقال عيسى مجيبا لها طوبى
طوبى لمن تلى كتاب الله واتبع ما فيه ولم يكن جبارا شقيا شبيه قوله اينما
كنت يدل على ان حاله لم يتغير كما قيل انه عاد الى حال الصغر وزال التكليف
الصفة الخامسة قوله واوصاني بالصلاة له طهرة للنفس والزكاة
طهرة للمال فعلا في نفسي وامرا للغير مادمت حيا فيكون ذلك حجة على
من ادعى انه اله لانه لا شبهة في ان من يصلي الى اله ليس باله فان قيل كيف يومر
بالصلاة والزكاة مع انه كان طفلا والقلم مرفوع عن الصغير لقوله صلى
الله عليه وسلم رفع القلم عن ثلاث الحديث اجيب بوجهين الاول
ان ذلك لا يدل على انه تعالى اوصاه باداهما في الحال بل بعد البلوغ فيكون
المعنى اوصاني باداهما في وقت وجوبهما علي وهو وقت البلوغ الثاني ان عيسى
لما انفصل صيره الله بالغا عاقلا تام الخلقة ويدل عليه قوله تعالى ان مثل
عيسى عند الله كمثل ادم وكما انه تعالى خلق ادم تاما كاملا دفعة فكذا القول
القول في عيسى عليه السلام قال الرازي وهذا اقرب الى ظاهر اللفظ
لقوله مادمت حيا فانه يفيد ان هذا التكليف متوجه عليه في جميع
زمان حياته فان قيل لو كان الامر كذلك لكان القوم حين راوه راوا
شخصا كامل الاعضا تام الخلقة وصدور الكلام عن مثل هذا الشخص
لا يكون عجبا فكان ينبغي ان لا يتعجبوا اجيب بانه تعالى جعله مع صغر جسمه
قوي التركيب كامل العقل بحيث كان يمكنه ادا الصلاة والزكاة والاية دالة
على ان تكليفه لم يتغير اجيب حين كان في الارض وحين رفع الى السما
وحين ينزل الصفة السادسة قوله وبرا اي وجعلني بارا
ولما كان السياق لبراءة والدته قال بوالدتي التي اكرمها الله تعالى
باحصان الفرج والحمل من غير ذكر وفي ذلك اشارة الى تنزيه امه
عن الزنا اذ لو كانت زانية لما كان الرسول المعصوم مامورا بتعظيمها
الصفة السابعة قوله ولم يجعلني جبارا اي متعاظما شقيا
اي عاصيا بان افعل فعل الجبارين بغير استحقاق انما افعل ذلك بمن يستحق
وروي عن عيسى عليه السلام انه قال قلبي لين وانا ضعيف
في نفسي وعن بعض العلماء لا تجد العاق الا جبارا شقيا ولا تجد سيئ الملكة

الا مختالا

الا مختالا فخورا الصفة الثامنة قوله والسلام من الله علي فلا يقدر
احد على ضرري يوم ولدت فلا يضرني شيطان ويوم اموت فلا يضرني
ايضا ومن يولد ويموت فليس باله ويوم ابعث حيا يوم القيامة كما تقدم
في يحيى عليه السلام وفي ذلك اشارة الى انه في البشرية مثله سواهم لا تفاوت
اصلا الا في كونه من غير ذكر واذا كان جنس السلام عليه كان اتباعه كذلك
ولم يبق لاعدائه الا اللعن ونظيره قول موسى عليه السلام والسلام على
من اتبع الهدى بمعنى ان العذاب على من كذب وتولى ذلك اي الذي تقدم
نعته بقوله اني عبد الله الى اخره هو عيسى ابن مريم لا ما يصف النصارى
من قولهم انه الله او ابنه او اله ثالث فهو تكذيب لهم فيما يصفونه على الوجه
الابلغ والطريق البرهاني حيث جعل الموصوف باضداد ما يصفونه
وفي ذلك تنصيص على انه ابن هذه المراة وقوله قول الحق قراه عاصم
وابن عامر بنصب اللام على انه مصدر موكد والباقون بالرفع على انه خبر
محذوف اي هو قول الحق الذي لا ريب فيه والاضافة للبيان والضمير
للكلام السابق او لتمام القصة ثم عجب تعالى من ضلالهم فيه بقوله تعالى
الذي فيه يمترون اي يشكون شكا يتكلفونه ويجادلون به فيقول اليهود
ساحر ويقول النصارى ابن الله مع ان امره امر في غاية الوضوح
ليس موضعا للشك اصلا ثم دل على كونه حقا في كونه ابنا لامه مريم لا لغيرها
بقوله ردا لقول من ضل ما كان اي ما صح ولا يتأتى ولا يتصور في العقول
ولا يصح ولا ينبغي لانه من المحال لكونه يلزم منه الحاجة لله الغني
عن كل شي ان يتخذ من ولد واكده بمن لان المقام يقتضي النفي العام
ولما كان اتخاذ الولد من النقايص اشار الى ذلك بالتنزيه العام بقوله
تعالى سبحانه اي تنزه عن كل نقص اذا قضى امرا اي اراد ان يحدثه فانما
يقول له كن اي يريده ويعلق قدرته به وقوله تعالى فيكون قراه
ابن عامر بنصب النون بتقدير ان وعلى الجواب والباقون بالرفع بتقدير
هو وقوله وان الله ربي وربكم اخبار عن عيسى عليه السلام انه
قال ذلك وقرا ابن عامر والكوفيون بكسر الهمزة على الاستيناف
والباقون بفتحها بتقدير حذف الجر متعلق بما بعده ولان الله ربي وربكم
فاعبدوه وحده لتفرده بالاحسان كما اعبده كقوله تعالى وان المساجد
لله فلا تدعوا مع الله احدا والمعنى لوحدانيته اطيعوه وقيل انه عطف
على الصلاة والتقدير واوصاني بالصلاة وبان الله واليه ذهب
الفرا هذا اي الذي امرتكم به صراط اي طريق مستقيم اي
مود الى الجنة وقرا قنبل بالسين وخلف باشمام الصاد والباقون
بالصاد واختلف في قوله تعالى فاختلف الاحزاب من بينهم فقيل

من النصارى واختلافهم في عيسى اهو ابن الله او اله معه او ثالث ثلاثة وسموا
احزابا لانهم تحزبوا ثلاث فرق في امر عيسى النسطورية والملكانية
واليعقوبية وقيل هم اليهود والنصارى فجعله بعضهم ولدا وبعضهم
كذابا وقيل هم الكفار الشامل لليهود والنصارى وغيرهم من الذين كانوا
في عهد النبي صلى الله عليه وسلم قال ابن عادل وهذا هو الظاهر
لانه لا تخصيص فيه ويؤيده قوله تعالى فويل للذين كفروا اي شدة
عذاب لهم من مشهد يوم عظيم اي حضور يوم القيامة واهوال
وقوله تعالى اسمع بهم وابصر اي بهم صيغتا تعجب بمعنى ما اسمعهم
وما ابصرهم يوم يأتوننا في الاخرة لان حالهم في شدة السمع والبصر
جديرة بان يتعجب منها فقد مون حيث لا ينفعهم الندم ويتمنون
المحال من الرجوع الى الدنيا ليتداركوا فلا يجابون لذلك بل يسلك بهم في
كل ما يؤذيهم ويهلكهم ويرديهم وقوله تعالى لكن الظالمون من اقامة
الظاهر مقام المضمر اشعارا بانهم ظلموا انفسهم حيث اغفلوا الاستماع
والنظر والاصل ولكنهم اليوم اي في الدنيا في ضلال مبين اي بين
بذلك الضلال صموا عن سماع الحق وعموا عن ابصاره اي اعجب منهم
يا مخاطب في سمعهم وابصارهم في الاخرة بعد ان كانوا في الدنيا صما عميا
وقيل معناه التهديد بما سيسمعونه وسيبصرون ما يسوؤهم
ويصدع قلوبهم ثم ان الله تعالى امر نبيه صلى الله عليه وسلم ان
ينذر قومه بقوله وانذرهم اي خوفهم يوم الحسرة هو يوم القيامة
يتحسر فيه المسيء على ترك الاحسان والمحسن على عدم الازدياد
من الاحسان لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من احد يموت
الا ندم قالوا وما ندمه يا رسول الله قال ان كان محسنا ندم ان لا
يكون ازداد وان كان مسيئا ندم ان لا يكون نزع وفي قوله تعالى
اذ قضي الامر وجوه احدها ان قضي الامر بيان الدلائل وشرح
امر الثواب والعقاب ثانيها اذ قضي الامر يوم الحشر بفناء الدنيا
وزوال التكليف ثالثها اذ قضي الامر فرغ من الحساب وادخل اهل
الجنة الجنة واهل النار النار وذبح الموت كما روي ان النبي صلى الله
عليه وسلم سئل عن قوله اذ قضي الامر فقال حين يجاء بالموت
على صورة كبش املح فيذبح والفريقان ينظران فيزداد اهل الجنة
فرحا الى فرح واهل النار غما الى غم وقوله تعالى وهم في غفلة وهم
لا يؤمنون جملتان حاليتان وفيهما قولان احدهما انهما حالان
من الضمير المستتر في قوله في ضلال مبين اي استقروا في ضلال
مبين على هاتين الحالتين السيئتين والثاني انهما حالان من مفعول

انذرهم

انذرهم اي انذرهم على هذه الحالة وما بعدها وعلى الاول يكون قوله وانذرهم
اعتراضا والمعنى وهم في غفلة عما يفعل بهم في الاخرة وهم لا يصدقون بذلك
اليوم ولما كان الارث هو حوز الشيء بعد موت اهله وكان سبحانه وتعالى قد
قضى بموت الخلائق اجمعين وانه تعالى يبقى وحده عبر عن ذلك بالارث مقررا
به مضمون الكلام السابق فقال مؤكدا تكذيبا لقولهم ان الدهر لا يزال
هكذا حياة لناس وموت لاخرين انا نحن بعظمتنا التي اقتضت ذلك
نرث الارض فلا ندع بها شيئا من عاقل ولا غيره ولما كان العاقل اقوى من
غيره صرح به بعد دخوله بقوله ومن عليها اي من العقلاء بان نسلبهم
جميع ما في ايديهم والينا لا الى غيرنا يرجعون فنجازيهم باعمالهم

القصة الثالثة قصة ابراهيم عليه السلام

المذكورة في قوله تعالى واذكر في الكتاب ابراهيم اي خبره وقرا هشام ابراهام
بالالف بعد الهاء والباقون بالياء وانما امر الله تعالى نبيه بالذكر لانه صلى الله
عليه وسلم ما كان هو ولا قومه ولا اهل بلده مشتغلين بالتعليم ومطالعة
الكتب فاذا اخبر عن هذه القصة كما كانت من غير زيادة ولا نقصان
كان ذلك اخبارا عن الغيب ومعجزا باهرا دالا على نبوته وانما ذكر الاخبار
بقصة ابراهيم عليه السلام لوجوه الاول ان منكري التوحيد والذين
[illegible] اثبتوا توحيدا ومعبودا سوى الله تعالى فريقان منهم من اثبت
معبودا غير الله تعالى جمادا ليس بحي ولا عاقل وهم عبدة الاوثان والفريقان
وان اشتركا في الضلال الا ان ضلال عبدة الاوثان اعظم فلما بين
الله تعالى ضلال الفريق الاول تكلم في ضلال الفريق الثاني وهم عبدة
الاوثان الثاني ان ابراهيم عليه السلام كان ابا العرب وكانوا معترفين
بعلو شانه وطهارة دينه على ما قال تعالى ملة ابيكم ابراهيم وقال
تعالى ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه فكانه قال تعالى قال
للعرب ان كنتم مقلدين لابائكم على قولكم انا وجدنا اباءنا على امة
فاشرف ابائكم واعلاهم قدرا هو ابراهيم عليه السلام فقلدوه في
ترك عبادة الاصنام والاوثان وان كنتم مستدلين فانظروا في
هذه الدلائل التي ذكرها ابراهيم عليه السلام لتعرفوا فساد عبادة
الاوثان وبالجملة فاتبعوا ابراهيم اما تقليدا واما استدلالا الثالث
ان كثيرا من الكفار في زمان النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يقولون نترك دين
ابائنا واجدادنا فذكر الله تعالى قصة ابراهيم عليه السلام وهو انه ترك
دين ابيه وابطل قوله بالدليل ورجح متابعة الدليل على متابعة ابيه
ثم قال تعالى في صفة ابراهيم انه كان جبلة وطبعا صديقا اي بليغ
الصدق في نفسه في اقواله وافعاله اي كان من اول وجوده الى انتهائه

موصوفا بالصدق والصيانة وسيأتي الكلام على قوله بل فعله كبيرهم هذا وإني سقيم في محله ولما كان مرتبة النبوة ارفع من مرتبة الصديقية قال تعالى نبيا أي استنباه اهد تعالى اي رفعه اعلى من رفعة من جعل الله واسطة بينه وبين عباده وقوله تعالى إذ قال بدل من ابراهيم وما بينهما اعتراض او متعلق بكان او بصديقا نبيا اي كان جامعا لخصائص الصديقين والانبياء حين قال لأبيه آزر هاديا له من تيه الضلال بعبادة الاصنام مستعطفا له في كل جملة بقوله يا أبت والتاء عوض عن يا الاضافة ولا يجمع بينهما وقرأ ابن عامر بفتح التاء في الوصل والباقون بكسرها واما الوقف فوقف ابن كثير وابن عامر بالهاء والباقون بالتاء ثم ان الله تعالى حكى عنه ابراهيم انه تكلم مع ابيه باربعة انواع من الكلام النوع الاول قوله لم تعبد مرتبا بالاستفهام المجاهلة واللطف والرفق واللين والادب الجميل في نصيحته له كاشفا الامر غاية الكشف بقوله ما لا يسمع ولا يبصر اي ليس عنده قابلية لشيء من هذين الوصفين ليرى ما انت فيه من خدمته او يجيبك اذا ناديته حالا او مالا ولا يغني عنك شيئا في جلب نفع ودفع ضر فوصف الاوثان بصفات ثلاث كل واحدة منها قادحة في الالوهية وبيان ذلك من وجوه احدها ان العبادة غاية التعظيم فلا يستحق الا من له غاية الانعام وهو الاله الذي منه اصول النعم وفروعها على ما تقرر في تفسير قوله وان الله ربي وربكم وكما انه لا يجوز الاشتغال بشكر ما لم تكن منعمة وجب ان لا يجوز الاشتغال بعبادتها وثانيها اذا لم تسمع ولا تبصر لا تميز من يطيعها عمن يعصيها فاي فائدة في عبادتها وهذا تنبيه على ان الاله يكون عالما بكل المعلومات وثالثها ان الداعي للعبادة فاذا لم يسمع الوثن دعا الداعي فاي منفعة في عبادته وان لم يبصر تقرب من يتقرب اليه فاي منفعة في ذلك التقرب ورابعها ان السامع المبصر الضار النافع افضل ممن كان عاريا عن كل ذلك والانسان موصوف بهذه الصفات فيكون افضل واكمل من الوثن فكيف يليق بالافضل عبودية الاخس وخامسها ان كانت لا تنفع ولا تضر فلا يرجى لها منفعة ولا يخاف من ضررها فاي فائدة في عبادتها وسادسها اذا كانت لا تحفظ نفسها عن الكسر والافساد حين جعلها ابراهيم عليه السلام جذاذا اي رجا فيها للغير فكانه عليه السلام قال ليت الالهية الا لرب يسمع ويبصر ويجيب دعوة الداعي اذا دعا النوع الثاني قوله يا أبت إني قد جاءني من المعبود الحق من العلم ما لم يأتك منه فاتبعني اي فتسبب عن ذلك اني اقول لك وجوبا علي للنهي عن المنكر ونصيحة لما لك علي من الحق اجتهد في تبعي

أهدك صراطا اي طريقا سويا اي مستقيما كما اني لو كنت معك في طريق محسوس واخبرتك امامنا مهلكا لا ينجو منه احد وامرتك ان تسلك مكانا غيره لاطعتني ولو عصيتني فيه عدك كل احد غاويا النوع الثالث قوله يا أبت لا تعبد الشيطان فان الاصنام ليس لها دعوة اصلا والله تعالى قد حرم عبادة غيره مطلقا على لسان كل ولي له فتعين ان يكون الامر بذلك الشيطان فكان هو المعبود بعبادتها في الحقيقة ثم علل هذا النهي بقوله إن الشيطان البعيد من كل خير المحترق باللعنة كان للرحمن عصيا بالقوة من حين خلق وبالفعل من حين امره بالسجود لابيك آدم عليه السلام فابى فهو عدو لابيه وله والمطيع للعاصي عاص لذلك الشيء لان صديق العدو عدو فان قيل هذا القول يتوقف على اثبات امور احدها اثبات الصانع وثانيها اثبات الشيطان وثالثها ان الشيطان عاص ورابعها انه لما كان عاصيا لم يجز طاعته وخامسها ان الذي كان عليه آزر مستفاد من طاعة الشيطان ومن شان الدلالة التي تورد على الشخص ان تكون مركبة من مقدمات معلومة يسلمها الخصم ولعل آزر كان منازعا في هذه المقدمات وكيف والمحكي عنه انه ما كان يثبت الها دون نمروذ فكيف يسلم وجود الرحمن واذا لم يسلم وجوده فكيف يسلم ان الشيطان عاص للرحمن وبتقدير تسليم ذلك يسلم الخصم بمجرد هذا الكلام ان مذهبه مقتبس من الشيطان بل لعله يقلب ذلك على خصمه واجيب بان الحجة المعول عليها في ابطال مذهب آزر وهو قوله لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا وهذا الكلام يجري مجرى التخويف والتحذير الذي يحمله على النظر في تلك الدلالة فيسقط السؤال النوع الرابع قوله يا أبت إني أخاف لمحبتي لك وغيرتي عليك أن يمسك عذاب اي كائن من الرحمن الذي هو مولي كل من تولى لعصيانك اياه فتكون اي فتسبب عن ذلك ان تكون للشيطان وليا اي ناصرا وقرينا في النار ولما دعا ابراهيم عليه السلام اباه الى التوحيد وذكر الدلائل على فساد عبادة الاوثان واردف تلك الدلائل بالوعظ البليغ واورد كل ذلك بالرفق واللطف قابله ابوه بجواب يضاد ذلك فقابل حجته بالتقليد فانه لم يذكر في مقابلة حجته الا ان قال أراغب أنت عن آلهتي باضافتها الى نفسه فقط اشارة الى مبالغته في تعظيمها والرغبة عن الشيء تركه عمدا فاصر على ادعاء الهيتها جهلا وتقليدا وقابل قوله بالرفق يا أبت بالعنف حيث لم يقل يا بني قال يا إبراهيم وقابل وعظه بالسفاهة حيث هدده بالضرب والشتم بقوله مضمنا

لئن لم تنته عما انت عليه لارجمنك اي لاقتلنك او لارجمنك بالحجارة حتى
تموت او تبعد عني او بالكلام القبيح فاحذرني واهجرني اي ابعد عني بالمفارقة
من الدار والبلد وهي كهجرة النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين اي تباعد عني
مليا اي دهرا طويلا لكيلا اراك وقيل اهجرني بالقول ولا تخاطبني دهرا طويلا
لاجل ما صدر منك من هذا الكلام وفي ذلك تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم
وتاسية فيما كان يلقى من الاذى ويقاسي من قومه من العنا ومن عمه ابي لهب من
الشدايد في اعظم اباية واقربهم نسبا فلما سمع ابراهيم عليه السلام كلام ابيه
اجاب بامرين احدهما قال له مقابلا لما كان منه من طيش الجهل بما يجعل مثله
من رزانة الحكم العقل والعلم سلام عليك توديع ومتاركة اي سلمت مني
لا اصيبك بمكروه ما او من فيك بشي فانه لم يومر بقتاله على كفره كقوله لنا
اعمالنا ولكم اعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين واذا خاطبهم الجاهلون
قالوا سلاما ولهذا يجوز على متاركة المنصوح اذا ظهر منه اللجاج
وعلى انه يحسن مقابلة الاساة بالاحسان ويجوز ان يكون دعاله بالسلامة
استمالة الا ترى انه وعده بالاستغفار فيكون سلام بر ولطف وهو جواب
الحليم للسفيه كقوله تعالى واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ثم
استانف قوله ساستغفر لك ربي اي المحسن الي بان اطلب لك منه
غفران ذنوبك بان يوفقك للاسلام انه كان بي حفيا اي في اكرامي
مرة بعد مرة وكرة في اثر كرة وقد وفى بوعده بقوله المذكور في الشعرا
واغفر لابي وهذا قبل ان يتبين له انه عدو لله كما ذكره في براءة وثانيهما
قال لهم انقياد الامر ابيه واعتزلكم اي جميعا بترك بلادكم واشار
الى ان من شرط المعبود ان يكون اهلا للمناداة في الشدايد بقوله
وما تدعون اي تعبدون من دون الله الذي له الكمال كله فمن
اقبل عليه وحده اصاب ومن اقبل على غيره ولو طرفة عين فقد خاب وخسر
وادعو اي اعبد ربي وحده لاستحقاقه لذلك مني ولم يقيد
الاعتزال بزمن بل اشار الى انهم ما داموا على هذا الدين فهو معتزل لهم
ثم دعا لنفسه بما يجنبهم به على خيبة مسعاهم فقال عن جازم
باجابة دعوته وقبول عبادته اجلالا لربه وهضما لنفسه عسى
ان لا اكون بدعاء ربي المتفرد بالاحسان الي شقيا اي كما شقيتم
بعبادة الاصنام فانها لا تجيب دعاكم ولا تنفعكم ولا تضركم ولما راى
من ابيه ومعاشرته ما راى عزم على غربة مشقة النوى مختارا
للغربة في البلاد على غربة الاضداد فكان كما قال ابو سليمان الخطابي
وما غربة الانسان في شقة النوى • ولكنها والله في عدم الشكل
واني غريب بين بست واهلها • وان كان بها اسرتي وبها اهلي

وحتى

وحتى ما عزم عليه فبين سبحانه وتعالى تحقيق رجائه واجابة دعائه فقال
فلما اعتزلهم اي بالهجرة الى الارض المقدسة وما يعبدون من دون الله لم يضره
ذلك دينا ودنيا بل نفعه وعوضه الله اولادا كما قال تعالى وهبنا له كما هو
الشان في كل من ترك شيئا لله اسحاق ولدا له لصلبه من زوجته العاقر
العقيم بعد تجاوزها سن الياس واخذه هو في السن الى حد لا يولد لمثله
ويعقوب ولدا لاسحاق وخصهما بالذكر للزومهما محل اقامته وقيامهما
بعد موته بخلافته فيه واما اسماعيل عليه السلام فكان الله سبحانه وتعالى
هو المتولي لتربيته بعد نقله رضيعا الى المسجد الحرام واحيايه تلك
المشاعر العظام فافرده بالذكر جاعلا له اصلا براسه بقوله بعد واذكر
في الكتاب اسماعيل فترك ذكره مع اسحق الذي هو اخوه لذلك ثم صرح
بما وهب لاولاده جزاء على هجرته بقوله تعالى وكلا اي منهما جعلنا نبيا
عالي المقدار ويخبر بالاخبار العظيمة كما جعلنا ابراهيم عليه السلام نبيا
ووهبنا لهم كلهم من رحمتنا اي شيئا منها عظيما من النسل الطاهر
والذرية الطيبة واجابة الدعا واللطف في القضا والبركة في المال والاولاد
وغير ذلك من خيري الدنيا والاخرة وجعلنا لهم لسان صدق عليا اي
وهو الثنا الحسن وعبر باللسان عن ما يوجد باللسان كما عبر باليد
وهو العطية واستجاب الله دعوته في قوله تعالى واجعل لي لسان صدق
في الاخرين فصيره قدوة حتى ادعاه اهل الاديان كلهم فقال تعالى
ملة ابيكم ابراهيم وقد اجتمعت فيه خصال لم تجتمع في غيره اولها
انه اعتزل عن الخلق على ما قال واعتزلكم وما تدعون من دون
الله لا جرم بارك الله في اولاده فقال ووهبنا له اسحاق ويعقوب وكلا
جعلنا نبيا ثانيها انه تبرا من ابيه كما قال عز وجل فلما تبين له انه
عدو لله تبرا منه لا جرم سماه الله ابا المسلمين فقال ملة ابيكم
ابراهيم ثالثها تل ولده للجبين ليذبحه في الله على ما قال
تعالى وفديناه بذبح عظيم رابعها اسلم نفسه فقال اسلمت لرب العالمين فجعل
الله تعالى النار بردا وسلاما عليه فقال يا نار كوني بردا وسلاما على ابراهيم
خامسها اشفق على هذه الامة فقال ربنا وابعث فيهم رسولا منهم
لا جرم اشركه الله تعالى في الصلوات في قوله كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم
سادسها في حق سارة في قوله تعالى وابراهيم الذي وفى لا جرم جعل موضع
قدميه مباركا واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى سابعها عادى كل الخلق
في الله فقال انهم عدو لي الا رب العالمين فاتخذه الله خليلا كما قال واتخذ
الله ابراهيم خليلا ليعلم صحة قولنا ما خسر على الله احد القصة الرابعة
المذكورة في قوله تعالى واذكر في الكتاب اي الذي لا كتاب مثله في الكمال

موطئه

موسى اي الذي انقذ الله به بنو اسرائيل من العبودية ثم ان الله تعالى وصفه بامور احدها قوله تعالى انه كان مخلصا قرا عاصم وحمزة والكسائي بفتح اللام اي مختارا اختاره الله واصطفاه وقيل اخلصه الله تعالى من الدنس والباقون بالكسر اي اخلص التوحيد لله والعبادة ومتى ورد القرآن بقراءتين فكل منهما ثابت مقطوع به فجعل الله تعالى من صفة موسى عليه السلام كلا الامرين ثانيهما قوله تعالى وكان رسولا الى بني اسرائيل والقبط نبيا ينبئه الله بما يريد من وحيه لينبي به المرسل اليهم فرفع بذلك قدره فلذلك صرح بها بعد دخولها في الرسالة ضمنا اذ كل رسول نبي وليس كل نبي رسولا وتقدم الكلام على ذلك ان شاء الله تعالى في سورة الحج عند قوله وما ارسلنا من قبلك من قبلك من رسول ولا نبي ثالثها قوله تعالى وناديناه اي بما لنا من العظمة من جانب الطور وهو اسم جبل الايمن اي الذي يلي يمين موسى حين اقبل من مدين فانبأناه هناك حين كان متوجها الى مصر بانه رسولنا ثم اوعدناه اليه بعد اغراق ال فرعون فكان لبني اسرائيل به من العجائب في رحمتهم بانزال الكتاب والالذاذ بالخطاب من جوف السحاب وفي اماتتهم لما طلبوا الرؤية ثم احيائهم وغير ذلك مما يجل عن الوصف رابعها قوله تعالى وقربناه بما لنا من العظمة تقريب تشريف حال كونه نجيا نخبره من امرنا بلا واسطة من النجوى وهي السر والكلام بينكما بالسر وقيل قرب مكان اي مكانا عاليا عن ابي العالية قرب حتى سمع صرير القلم حيث يكتب التوراة في الالواح وقيل انجيناه من اعدائه خامسها قوله تعالى ووهبنا له اي هبة تليق بعظمتنا من رحمتنا اي من اجل رحمتنا اخاه اي معاضدة اخيه وموازرته لا شخصه واخوته وذلك اجابة لدعوته واجعل لي وزيرا من اهلي فانه كان اسن من موسى تنبيه اخاه مفعول او بدل على تقدير ان يكون للتبعيض وقوله هارون عطف بيان وقوله نبيا حال منه وهي المقصودة بالهبة القصة الخامسة قصة اسماعيل عليه السلام المذكورة في قوله تعالى واذكر في الكتاب اسماعيل ابن ابراهيم عليهما السلام الذين هم معترفون ببنوته ومفتخرون برسالته وابوته فلزم من ذلك قطعا لتعليلهم انكار نبوتك لك بانك من البشر ثم ان الله تعالى وصف اسماعيل بامور اولها قوله تعالى انه كان اي جبلة وطبعا صادق الوعد فحق الله وعزه لمعونة الله له على ذلك بسبب انه لا يعد وعدا الا مقرونا بالاستثناء كما قال لابيه حين اخبره بامر ذبحه ستجدني ان شاء الله من الصابرين وخصه بالمدح به وان كان الانبياء كلهم كذلك لقصة الذبح فلا يلزم منه تفضيله مطلقا وروي عن ابن عباس انه وعد صاحبا له ان ينتظره

خلافا للمعتزلة فانهم زعموا كونهما متلازمين فكل نبي رسول وكل نبي رسول ع

اثنين

في مكان

في مكان فانتظره سنة وروي ان عيسى عليه السلام قال له رجل انتظرني حتى اتيك فقال عليه السلام نعم وانطلق الرجل ونسي الميعاد فجاء الى حاجته الى ذلك المكان وعيسى عليه السلام هنالك للميعاد وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه واعد رجلا ونسي ذلك الرجل فانتظره من الضحى الى غروب الشمس وسئل الشعبي عن الرجل يعد ميعادا الى اي وقت ينتظره قال فان واعده نهارا فكل النهار وان واعده ليلا فكل الليل وسئل ابراهيم بن يزيد عن ذلك فقال اذا واعدته في وقت الصلاة فانتظره الى وقت صلاة اخرى ثانيها قوله تعالى وكان رسولا نبيا قدم تفسيره وثالثها قوله تعالى وكان يامر اهله بالصلاة اي هي طهرة البدن وقرة العين وخير العون على جميع المآرب والزكاة التي هي طهرة المال كما اوصى الله بذلك جميع الانبياء عليهم الصلاة والسلام والمراد بالاهل قومه وقيل اهله جميع امته كان رسولا الى جرهم قاله الاصبهاني والى اهل تلك البراري بدين ابراهيم ابيه والمراد بالصلاة قال ابن عباس يريد التي افترضها الله عليهم قال البغوي وهي الحنيفية التي افترضت علينا قيل كان يبدأ باهله في الامر بالعبادة ليجعلهم قدوة لمن سواهم كما قال تعالى وانذر عشيرتك الاقربين وامر اهلك بالصلاة قوا انفسكم واهليكم نارا وبالزكاة قال ابن عباس انها طاعة الله والاخلاص فكانه تاوله على ما يزكو به الفاعل عند ربه والظاهر كما قال ابن عادل ان الزكاة اذا قرنت بالصلاة ان يراد بها الصدقات الواجبة رابعها قوله تعالى وكان عند ربه بعبادته على حسب ما امره به مرضيا وهذا في نهاية المدح لان المرضي عند الله هو الفائز في كل طاعة باعلى الدرجات فاقتد انت به فانه من اجل ابائك لتجمع بين طهارة القول والبدن والمال فتنال رتبة الرضى القصة السادسة قصة ادريس عليه السلام المذكورة في قوله تعالى واذكر في الكتاب اي الجامع لكل ما يحتاج اليه حتى ما يحتاج اليه من قصص المتقدمين والمتاخرين ادريس وهو جد ابي نوح عليه السلام قيل سمي ادريس لكثرة درسه الكتب واسمه اخنوخ بمهملة ساكنة ونون معجمة واخره خاء معجمة ووصفه الله تعالى بامور احدها وثانيها قوله تعالى انه كان صديقا نبيا اي صادقا في اقواله وافعاله ومصدقا بما اتاه الله من اياته وعلى السنة الملائكة ثالثها قوله تعالى ورفعناه مكانا عليا وفيه قولان احدهما من رفع المنزلة كقوله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم ورفعنا لك ذكرك فان الله تعالى شرفه بالنبوة وانزل عليه ثلاثين صحيفة وهو اول من خط بالقلم ونظر في علم النجوم والحساب واول من خاط الثياب ولبسها

في

وكانوا من قبله يلبسون الجلود وأول من اتخذ السلاح وقاتل الكفار إنه لبالدين
رفعة المكان ثم اختلفوا فقال بعضهم رفعه الله تعالى إلى السماء الرابعة
وهي التي رآه بها النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء وقيل إلى الجنة وهو حي
لا يموت وقالوا أربعة من الأنبياء في الأحياء اثنان في الأرض الخضر وإلياس
واثنان في السماء عيسى وإدريس وقال وهب كان يرفع لإدريس كل يوم من
العبادة مثل جميع أهل الأرض في زمانه فعجبت منه الملائكة واشتاق له ملك الموت
فاستأذن ربه في زيارته فأذن له فأتاه في صورة بني آدم وكان إدريس يصوم
الدهر فلما كان وقت إفطاره دعاه إلى طعامه فأبى أن يأكل معه ففعل ذلك ثلاث
ليال فأنكره إدريس وقال له الليلة الثالثة إني أريد أن أعلم من أنت قال أنا
ملك الموت استأذنت ربي أن أصحبك فقال لي إليك حاجة قال وما هي
قال تقبض روحي فأوحى الله إليه أن اقبض روحه فقبض روحه وردها إليه
بعد ساعة قال له ملك الموت ما الفائدة في سؤالك قبض الروح قال لأذوق
كرب الموت وغمته فأكون أشد استعدادا إليه ثم قال له إدريس إن لي
إليك حاجة أخرى قال وما هي قال ترفعني إلى السماء أنظر إليها وإلى
الجنة والنار فأذن الله تعالى له في ذلك فرفعه فلما قرب من النار قال إن لي إليك
حاجة قال وما تريد قال تسأل مالكا أن يفتح أبوابها فأردها ففعل ثم قال
كما أريتني النار فأرني الجنة فذهب به إلى الجنة فاستفتح ففتح أبوابها
فأدخل الجنة ثم قال له ملك الموت اخرج لتعود إلى مكانك فتعلق بشجرة
وقال ما أخرج منها فبعث الله تعالى ملكا حكما بينهما فقال له ملك الموت ما لك
لا تخرج قال إن الله تعالى قال كل نفس ذائقة الموت وقد ذقته وقال وإن منكم
إلا واردها وقد وردتها وقال وما هم منها بمخرجين فلست أخرج فأوحى الله
تعالى إلى ملك الموت بإذني دخل الجنة وبإذني لا يخرج فهو حي هنالك وقال
آخرون بل رفع إلى السماء وقبض روحه وقال كعب الأحبار إن إدريس سار
ذات يوم في حاجة فأصابه وهج الشمس فقال يا رب إني مشيت يوما
فكيف بمن يحملها مسيرة خمسمائة عام في يوم واحد اللهم خفف
عنه من ثقلها وحرها فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس وحرها ما لا يعرف
فقال يا رب خلقتني لحمل الشمس فما الذي قضيت فيه فقال تعالى إن عبدي
إدريس سألني أن أخفف عنك حملها وحرها فأجبته قال يا رب اجعل
بيني وبينه خلة فأذن له حتى أتى إدريس فكان إدريس يسأله فكان مما
أن قال إني أخبرت أنك أكرم الملائكة وأمكنهم عند ملك الموت فاشفع لي
ليؤخر أجلي فأزداد شكرا وعبادة فقال الملك لا يؤخر الله نفسا إذا جاء
أجلها وأنا مكلمه فرفعه إلى السماء ووضعه عند مطلع الشمس ثم أتى ملك
الموت فقال لي حاجة إليك لصديق من بني آدم يستشفع بي إليك لتؤخر أجله

فقال ليس ذلك إلي ولكن إن أحببت أعلمته أجله فيقدم لنفسه قال نعم فنظر
في ديوانه فقال إنك كلمتني في إنسان ما أراه يموت أبدا قال وكيف ذلك
قال لا أجده يموت إلا عند مطلع الشمس قال إني أتيتك وتركته هناك
فانطلق فلا أراك تجده إلا وقد مات فوالله ما بقي من أجل إدريس شيء
فرجع الملك فوجده ميتا ولما انقضى كشف هذه الأخبار العلية المقدار
الجليلة الأسرار شرع سبحانه وتعالى ينسب إليها بأشرف نسبهم
ويذكر منن نسبهم فقال عز من قائل أولئك أي العالو الرتبة الشرفا
النسب المذكورون في هذه السورة من لدن زكريا إلى إدريس وهو
مبتدأ وقوله الذين أنعم الله عليهم بما خصهم به من مزيد القرب إليه وعظيم
المنزلة لديه صفة له وقوله تعالى من النبيين أي المصطفين
من النبوة الذين أنبأهم الله تعالى بدقائق الحكم ورفع مجالسهم بين الأمم بيان
لهم وهو في معنى الصفة وما بعده إلى جملة الشرط صفة للنبيين فقوله
من ذرية آدم أي إدريس لقربه منه لأنه جد أبي نوح وممن حملنا مع
في السفينة أي إبراهيم بن ابنه سام ومن ذرية إبراهيم أي إبراهيم وإسحاق
ويعقوب ومن ذرية إسرائيل وهو يعقوب أي موسى وهرون وزكريا
ويحيى وكذا عيسى لأن مريم من ذريته وممن هدينا إلى أقوم الطريق
واجتبينا للنبوة والكرامة أي من جملتهم وخبر أولئك إذا تتلى عليهم
أي من قال كان آيات الرحمن خروا سجدا أي للمنعم عليهم تقربا إليه
لما لهم من البصائر المنيرة في ذكر نعمه عليهم وإحسانه إليهم وبكيا
خوفا منه أو شوقا إليه تكونوا مثلهم تنبيه سجدا حال مقدرة قال
الزجاج لأنهم وقت الخرور ليسوا سجدا وهو جمع ساجد وبكيا جمع باك
وليس بقياس جمعه على فعلة كقاض وقضاة ولم يسمع فيه هذا الأصل
وأصل بكيا بكوي قلبت الواو والضمة كسرة واختلف في هذا
السجود فقال بعضهم إنه الصلاة وقال بعضهم سجود التلاوة على
حسب ما تعبدوا به قال الرازي ثم يحتمل أن يكون المراد بسجود القرآن
ويحتمل أنهم عند الخوف كانوا قد تعبدوا به قال الرازي ثم يحتمل
أن يكون المراد بسجود القرآن فيفعلوا ذلك لأجل ذلك السجود
في الآية انتهى وروى ابن ماجه وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم
أنه قال اتلوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا وعن صالح المري
قرأت القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقال لي
يا صالح هذه القراءة فأين البكاء وعن ابن عباس إذا قرأتم سجدة
سبحان الله فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا فإن لم تبك عين أحدكم
فليبك قلبه وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال ما غرغرت عين بمائها

الا رحم الله تعالى على النار جسدا روي انه صلى الله عليه وسلم قال ان القرآن
نزل بحزن فاذا قرأتموه فتحازنوا وعن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم لا يلج
النار من بكى من خشية الله وقال العلماء يدعو في سجدة التلاوة بما يليق بآياتها
فان قرأ آية تنزيل السجدة قال اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك المسبحين
بحمدك واعوذ بك ان اكون من المتكبرين عن امرك واذا قرأ سجدة سبحان الله
قال اللهم اجعلني من الباكين اليك الخاشعين لك فان قرأ هذه
قال اللهم اجعلني من عبادك المنعم عليهم المهتدين الباكين عند تلاوة
آيات كتابك وقرأ حمزة والكسائي بكيا بكسر الباء والباقون بضمها ولما
وصف سبحانه وتعالى هؤلاء الانبياء بصفة المدح ترغيبا لنا في التأسي بهم
ذكر بعدهم من هو بالضد منهم فقال **فخلف من بعدهم** اي في بعض الزمان
الذي بعد هؤلاء الاصفياء **خلف** في غاية الرداءة من اولادهم يقال خلف
اذا اعقبه خلف سوء باسكان اللام والصالح كما قالوا وعد في ضمان الخير
ووعيد في ضمان الشر وفي الحديث خلف من كل هالك وفي الشعر
ذهب الذين يعاش في اكنافهم * وبقيت في خلف كجلد الاجرب
وقال السدي اراد بهم اليهود ومن لحق بهم وقال قتادة في **اضاعوا**
الصلاة تركوا الصلاة المفروضة وقال ابن مسعود وابراهيم اخروها
عن وقتها وقال سعيد بن المسيب هو ان لا يصلي الظهر حتى يأتي العصر
ولا يصلي العصر حتى تغرب الشمس **واتبعوا الشهوات** قال ابن عباس هم
اليهود تركوا الصلاة المفروضة وشربوا الخمور واستحلوا نكاح الاخت من الاب
وقال مجاهد هؤلاء قوم يظهرون في آخر الزمان ينزو بعضهم على بعض في
الاسواق والازقة **فسوف يلقون غيا** وهو كما قال وهب وعن ابن عباس
واد في جهنم بعيد قعره تستعيذ منه جهنم او دينها كما رواه الحاكم وصححه
وقيل هو الخسران وقيل هو الشر كقول القائل
فمن يلق خيرا يحمد الناس امره * ومن يغو لا يعدم على الغي لائما *
على الغي متعلق بلائما وقيل يلق جزاء الغي كقوله يلق اثاما اي مجازاة الآثام
تنبيه قوله تعالى يلقون ليس معناه يرون فقط بل معناه الاجتماع
والملابسة مع الرؤية ولما اخبر تعالى عن هؤلاء بالخيبة فتح لهم باب التوبة
وحداهم الى غسل هذه الحوبة بقوله **الا من تاب** اي كما هو عليه
من الضلال وبادر بالاعمال وحافظ على الصلوات وكف نفسه عن
الشهوات **وآمن** بما اخذ عليه به العهد **وعمل** بعد ايمانه تصديقا له
صالحا من الصلوات والزكوات وغيرها **فاولئك** العالو الهمم الطاهر
والشيم **يدخلون الجنة** التي وعد المتقون **ولا يظلمون شيئا** من ظالم
من اعمالهم فان قيل الاستثناء دل على انه من التوبة والايمان والعمل الصالح

وليس

وليس الامر كذلك لان من تاب عن كفره ولم يدخل وقت الصلاة او كانت المرأة
حائضا فانه لا يجب عليهم الصلاة والزكاة ايضا غير واجبة وكذلك الصوم
فكذلك فههنا لو مات في ذلك الوقت كان من اهل النجاة مع انه لم يصدر عنه
عمل فلم يجز توقف الاجر على العمل الصالح اجيب بان هذه الصورة نادرة
فالاحكام انما تناط بالاعم الاغلب تنبيه في هذا الاستثناء وجهان قال
ابن عادل اظهرهما انه متصل وقال الزجاج هو منقطع وهذا بناء منه
على ان المضيع للصلاة من الكفار ووافق الزجاج الجلال المحلي ولما
ذكر تعالى في التائب انه يدخل الجنة وصفها بامور احدها قوله تعالى
جنات عدن اي اقامة لا يظعن عنها بوجه من الوجوه وصفها
بالدوام على خلاف وصف جنان في الدنيا التي لا تدوم ثم بين تعالى انها
التي وعد الرحمن عباده الذين هو ارحم بهم وقوله **بالغيب** فيه وجهان
احدهما ان الباء حالية وفي صاحب الحال احتمالان احدهما ضمير الجنة وهو
عائد الموصول اي وعدها وهي غائبة عنهم لا يشاهدونها والثاني
عباده وهم غائبون عنها لا يرونها انما آمنوا بها بمجرد الاخبار منه والوجه
الثاني ان الباء سببية اي بسبب تصديق الغيب وسبب الايمان به ولما كان
من شأن الموعود على ما يتعارفه الناس بينهم احتمال عدم الوقوع بين ان وعده
ليس كذلك بقوله تعالى **انه كان** اي كونا هو سنة ماضية **وعده مأتيا**
اي مقصودا بالفعل فلا بد من وقوعه فهو كقوله ان كان وعد ربنا لمفعولا
ثانيها قوله تعالى **لا يسمعون فيها لغوا** وهو فضول الكلام وما لا طائل تحته
وفيه تنبيه ظاهر على تجنب اللغو واتقائه حيث نزه الله تعالى عنه
الدار التي لا تكليف فيها وقد مدح الله تعالى قوما بقوله واذا مروا باللغو
مروا كراما واذا سمعوا اللغو اعرضوا عنه وقالوا لنا اعمالنا ولكم
اعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين نعوذ بالله من اللغو والجهل
والخوض فيما لا يعنينا وقوله تعالى **الا سلاما** استثناء منقطع اي
ولكن يسمعون قولا يسلمون فيه من العيب والنقيصة او سلاما من
الله او من الملائكة او من بعضهم على بعض ويجوز ان يراد باللغو مطلق
الكلام قال في القاموس لغا لغوا تكلم فيكون الاستثناء متصلا اي لا يسمعون
فيها كلاما الا كلاما يدل على السلامة او سلاما من الله او من الملائكة
او من بعضهم على بعض ثالثها قوله تعالى **ولهم رزقهم فيها** اي على ما يتمنونه
ويشتهونه على وجه لا بد من اتيانه ولا كلفة عليهم فيه ولا منة عليهم به
بكرة وعشيا اي على قدرهما في الدنيا وليس في الجنة نهار ولا ليل
بل ضوء ونور ابدا وقيل انهم يعرفون النهار برفع الحجب والليل بارخائها
فان قيل المقصود بهذه الآيات وصف الجنة باحوال مستعظمة

ووصول الرزق اليهم بكرة وعشيا اليس من الامور المستقبحة اجيب بوجهين
الاول قال الحسن اراد الله تعالى ان يرغب كل قوم بما احبوه في الدنيا
فلذلك ذكر اساور الذهب والفضة ولبس الحرير التي كانت عادة العجم والارائك
التي هي الحجال المضروبة على الاسرة وكانت عادة اشراف اليمن ولا شي كان
احب الى العرب من الغدا والعشا فوعدهم بذلك الثاني ان المراد دوام الرزق
تقول انا عند فلان صباحا ومسا وبكرة وعشيا تريد الدوام ولا تقصد
الوقتين المعلومين وقيل المراد رفاهة العيش وسعة الرزق اي لهم
رزقهم متى شاؤا ولما ثبتت بهذه الاوصاف دار الباطل اشار الى
علو رتبتها وما هو سببها بقوله تعالى **تلك الجنة** باداة البعد لعلو
قدرها وعظم امرها **التي نورث من عبادنا** اي نعطي عطا الارث الذي
لا كد فيه ولا استرجاع وتبقى له الجنة كما تبقى للوارث مال الموروث
وقيل تنقل تلك المنازل ممن اطاع لكانت له الى عبادنا الذين اتقوا
ربهم فجعل النقل ميراثا قاله الحسن **من كان تقيا** اي المتقين من عباده
فان قيل الفاسق المرتكب للكبائر لم يوصف بذلك الوصف فلا يدخلها
اجيب بان الاية تدل على ان الجنة يدخلها المتقي وليس فيها دلالة
على ان غير المتقي لا يدخلها وايضا صاحب الكبيرة متق عن الكفر فقد صدق
عليه انه متق وجب ان يدخل الجنة فدلالة الاية على ان صاحب الكبيرة
يدخلها اولى من ان تدل على ان لا يدخلها واختلف في سبب نزول قول
جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم **وما نتنزل الا بامر ربك** فقال ابن
عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يمنعك يا جبريل ان تزورنا
اكثر مما تزورنا فنزلت الاية وقال مجاهد ابطا الملك على رسول
الله صلى الله عليه وسلم ليلة فقال لعلي ابطات قال قد فعلت قال ولم
لا افعل وانتم لا تتسوكون ولا تقصون اظفاركم ولا تنقون
براجمكم وقال وما نتنزل الا بامر ربك فنزلت وقال قتادة والكلبي
احتبس جبريل عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وسلم حين ساله
قومه عن قصة اصحاب الكهف وذي القرنين والروح وسبب سؤالهم
عن ذلك ما روي ان قريشا بعثت خمسة رهط الى يهود المدينة يسالونهم
عن صفة النبي صلى الله عليه وسلم وهل يجدونه في كتابهم وسالوا
النصارى فزعموا انهم لا يعرفونه وقالت اليهود نجده في كتابنا وهذا
زمانه وقد سالنا رحمان اليمامة عن ثلاث فلم يعرف فسالوه عنهن
فان اخبركم عن خصلتين فاتبعوه فاسالوه عن قصة اصحاب الكهف
وعن ذي القرنين وعن الروح فلم يدر كيف يجيب فوعدهم ان يجيبهم
غدا ولم يقل ان شاء الله فاحتبس عنه اربعون يوما وقيل خمسة عشر

يوما فشق ذلك عليه مشقة عظيمة وقال المشركون ودعه ربه وقلاه
فلما نزل جبريل عليه السلام قال له النبي صلى الله عليه وسلم ابطات حتى ساء
ظني واشتقت اليك قال اني اليك اشوق ولكني عبد مامور اذا بعثت
نزلت واذا حبست احتبست فنزلت هذه الاية وانزل قوله تعالى
ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غدا الا ان يشاء الله وسورة الضحى فان قيل
قوله تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا كلام الله وما نتنزل الا بامر ربك
كلام غير الله فكيف جاز عطف هذا على ما قبله من غير فصل اجيب بانه اذا كانت
القرينة ظاهرة لم يقبح كقوله تعالى اذا قضى امرا فانما يقول له كن فيكون وهذا
كلام الله ثم عطف عليه قوله وان الله ربي وربكم فاعبدوه ثم علل جبريل
قوله ذلك بقوله **له ما بين ايدينا** اي امامنا من امور الاخرة **وما خلفنا** اي
من امور الدنيا **وما بين ذلك** اي ما يكون من هذا الوقت الى قيام الساعة
اي له علم ذلك جميعه وقيل ما بين ذلك ما بين النفختين وما بينهما اربعون
سنة وقيل ما بين ايدينا بعد ان نموت وما خلفنا ما مضى منها وما
بين ذلك مدة حياتنا وقيل ما بين ايدينا بعد ان نموت وما خلفنا قبل ان
نخلق وما بين ذلك مدة الحياة وقيل ما بين ايدينا الارض اذا اردنا النزول
اليها وما خلفنا السماء وما نزل منها وما بين ذلك الهوا يريد ان ذلك كله لله
فلا نقدر على شيء الا بامره **وما كان ربك** المحسن اليك **نسيا** بمعنى ناسيا اي
تاركا لك بتاخير الوحي عنك بقوله تعالى ما ودعك ربك وما قلى اي وما كان امتناع ع
النزول الا لامتناع الامر به وما ذلك عن ترك الله لك وتوديعه اياك ثم استدل
على ذلك بقوله **رب السموات والارض وما بينهما** فلا يجوز عليه النسيان
اذ لا بد ان يمسكهما حالا بعد حال والا لبطل الامر فيهما وفيمن يتصرف
فالاية دالة على ان الله تعالى رب لكل شيء حصل بينهما ففعل العبد مخلوق له تعالى
لان فعل العبد حاصل بين السماء والارض تنبيه يجوز في رب ان يكون بدلا
من ربك وان يكون خبرا مضمرا اي هو رب وقوله تعالى **فاعبده واصطبر
لعبادته** خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم مرتب على ما تقدم اي لما عرفت
ان ربك لا ينساك فاعبده بالمراقبة الدائمة على ما ينبغي من مثلك واصطبر عليها
ولا تتشوش بابطال الوحي وهزء الكفار بك فان قيل لم لم يقل واصطبر على
عبادته لانها صلة فكان حقه تعديه بعلى اجيب بانه ضمن معنى الثبات
لان العبادة ذات تكاليف قل من يثبت لها فكانه قيل اثبت لها مصطبرا
كقولك للمحارب اصطبر لقرنك ثم علل ذلك بقوله **هل تعلم له سميا** قال
ابن عباس هل تعلم له مثلا اي نظيرا فيما يقتضي العبادة والذي يقتضيها كونه منعما باصول
النعم وفروعها وهي خلق الاجسام والحياة والعقل وغيرها فانه لا يقدر على ذلك
احد سواه سبحانه وتعالى واذا كان قد انعم عليك بغاية الانعام وجب ان تعظمه بغاية التعظيم

وهي العبادة وقال الكلبي هل تعلم احدا يسمى الله غيره فانهم وان كانوا يطلقون لفظ الاله على الوثن فما اطلقوا لفظ الله على شيء ولما امر الله بالعبادة والمصابرة عليها فكان سائلا يسأل وقال هذه العبادة لا منفعة فيها في الدنيا واما في الآخرة فقد انكرها بعضهم فلا بد من ذكر الدلالة على القول بالحشر حتى يظهر ان الاشتغال بالعبادة مفيد فلهذا حكى الله سبحانه وتعالى منكري الحشر فقال تعالى ويقول الانسان أإذا ما مت لسوف اخرج حيا قال الكلبي نزلت في ابي بن خلف حين اخذ عظاما بالية يتفتت بها ويقول زعم لكم محمد انا نبعث بعد ما نموت وقيل نزلت في ابي جهل وقيل المراد جنس الكفار القائلين بعدم البعث ثم ان الله تعالى اقام الدليل على صحة البعث بقوله أولا يذكر الانسان اي المجترئ بهذا الانكار على ربه انا خلقناه من قبل اي من قبل جدله ولم يك شيئا اصلا وانا بمقتضى ذلك قادرون على اعادته فلا ينكر ذلك قال بعض العلماء لو اجتمع كل الخلائق على ايراد حجة في البعث على هذا الاختصار ما قدروا عليه اذ لا شك ان الاعادة ثانيا اهون من الايجاد اولا ونظيره قوله تعالى قل يحييها الذي انشاها اول مرة وقوله تعالى وهو الذي يبدؤ الخلق ثم يعيده وهو اهون عليه وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بسكون الذال وضم الكاف مخففة والباقون بفتح الذال مشددة وكذا الكاف فان قيل كيف امر الله الانسان بالتذكر بان التذكر هو العلم بما علمه من قبل ثم تخللهما سهو اجيب بان المراد اولا يتفكر فيعلم خصوصا اذا قرئ او لا يذكر مشددا اما اذا قرئ مخففا فالمراد اولا يعلم ذلك من حال نفسه لان كل احد يعلم انه لم يكن حيا في الدنيا ثم صار حيا ثم انه تعالى لما قرر المطلوب بالدليل اردفه بالتهديد من وجوه اولها قوله تعالى فوربك اي المحسن اليك بالانتقام منهم لنحشرنهم بعد البعث والشياطين الذين يضلونهم بان يحشر كل شيطان كافر مع شيطان في سلسلة وفائدة القسم امران احدهما ان العادة جارية بتأكيد الخبر باليمين والثاني في اقسام الله باسمه مضافا الى رسوله صلى الله عليه وسلم تفخيم لشانه ورفع منه كما رفع من شأن السماء والارض في قوله تعالى فورب السماء والارض انه لحق والواو في والشياطين يجوز ان تكون للعطف وبمعنى مع وهو اولى ثانيها قوله تعالى ثم لنحضرنهم بعد طول الوقوف حول جهنم من خارجها ليشاهد السعداء الاحوال التي نجاهم الله تعالى منها وخلصهم فيزدادوا لذلك غبطة الى غبطتهم وسرورا الى سرورهم ويشمتوا باعداء الله واعدائهم فتزداد مساءتهم وحسرتهم وما يغيظهم من سعادة اولياء الله وشماتتهم بهم وقوله تعالى جثيا حال مقدرة من مفعول لنحضرنهم وهو جمع جاث جمع على فعول نحو قاعد وقعود وجالس وجلوس واصله جثوو بواوين وجثوي من جثى ويجثي لغتان فان قيل هذا المعنى حاصل للكل بدليل قوله تعالى

وترى كل امة جاثية ولان العادة جارية بان الناس في مواقف مطالبات الملوك يتجاثون على ركبهم لما في ذلك من القلق او لما يدهمهم من شدة الامر التي لا يطيقون معه القيام على ارجلهم واذا كان هذا حاصلا للكل فكيف يدل على مزيد ذل الكفار اجيب بانهم يجثون من وقت الحشر الى وقت الحضور على هذه الحالة وذلك يوجب مزيد ذلهم وقرأ حفص والكسائي جثيا وعتيا وصليا بكسر اولها والباقون بضمه ثالثها قوله تعالى ثم لننزعن اي لنأخذن اخذا بشدة وعنف من كل شيعة اي فرقة مرتبطة بمذهب واحد ايهم اشد على الرحمن الذي عمهم بالاحسان عتيا اي تكبرا مجاوزا للحد والمعنى ان الله تعالى يحضرهم اولا حول جهنم ثم يميز البعض من البعض فمن كان اشد تمردا في كفره خص بعذاب عظيم لان عذاب الضال المضل يجب ان يكون فوق عذاب من يضل تبعا لغيره وليس عذاب من يتمرد ويتجبر كعذاب المقلد ففائدة هذا التمييز التخصيص بشدة العذاب لا التخصيص باصل العذاب ولذلك قال تعالى في جميعهم ثم لنحن اعلم من كل عالم بالذين هم بظواهرهم وبواطنهم اولى بها اي بجهنم صليا اي دخولا واحتراقا فنبدأ بهم ولا يقال اولى الا مع اشتراكهم واصله صلوي من صلي بكسر اللام وفتحها تنبيه في اعراب ايهم اشد اقوال كثيرة اظهرها عند جمهور المعربين وهو مذهب سيبويه ان ايهم موصولة بمعنى الذي وان حركتها حركة بناء بنيت عند سيبويه لخروجها عن النظائر واشد خبر مبتدا مضمر والجملة صلة لايهم وايهم وصلتها في محل نصب مفعولا بها ولاي احوال اربعة ذكرتها في شرح القطر ولما كانوا بهذا الاعلام المؤكد بالاقسام من ذي الجلال والاكرام جديرين باصغاء الافهام الى ما توجه اليهم من الكلام التفت الى مقام الخطاب تعميما للعموم فقال تعالى وان منكم اي وما منكم ايها الناس احد الا واردها كان ذلك الورود على ربك الموجد لك المحسن اليك حتما مقضيا اي حتمه وقضى به لا يتركه والورود موافاة المكان واختلفوا في معنى الورود هنا فقال ابن عباس والاكثرون الورود ههنا هو الدخول والكناية راجعة الى النار وقالوا يدخلها البر والفاجر ثم ينجي الله المتقين فيخرجهم منها ويدل على ان الورود هو الدخول قوله تعالى يقدم قومه يوم القيمة فاوردهم النار وروى ابن عيينة عن عمرو بن دينار ان نافع بن الازرق مارى ابن عباس في الورود فقال ابن عباس هو الدخول وقال نافع ليس الورود الدخول فتلى ابن عباس انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم انتم لها واردون ادخلها هؤلاء ام لا ثم قال يا نافع اما والله انا وانت سنردها وانا ارجو ان يخرجني الله منها وما ارى الله

يخرجك منها بتكذيبك ويدل عليه قوله تعالى **ثم ننجي الذين اتقوا** اي الكفر منها
ولا يجوز ان يقول ثم ننجي الذين اتقوا **ونذر الظالمين** بالكفر **فيها جثيا** على
الركب الا والكل واردون والاخبار المروية دالة على هذا القول روي ان عبد
الله بن رواحة قال اخبر الله تعالى عن الورود ولم يخبر بالصدر فقال صلى
الله عليه وسلم لابن رواحة اقرا ما بعدها ثم ننجي الذين اتقوا فدل على ان ابن
رواحة فهم من الورود الدخول ولم ينكر عليه النبي صلى الله عليه وسلم ذلك
وعن جابر انه سئل عن هذه الاية فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه
وسلم يقول الورود الدخول ولا يبقى بر ولا فاجر الا دخلها فتكون على
المومنين بردا وسلاما حتى ان للناس ضجيجا من بردها ولان حرارة النار
ليست بطبعها فالاجزا الملاصقة لابدان الكفار يجعلها الله تعالى
محرقة موذية والاجزا الملاصقة لابدان المومنين يجعلها الله بردا وسلاما
كما في حق ابراهيم عليه السلام وكما ان الموكلين بها لا يجدون المها وكما في
الكوز الواحد من الماء كان يشربه القبطي فيكون دما وما يشربه الاسرائيلي
فيكون ماء عذبا وعن جابر بن عبد الله انه سال رسول الله صلى الله عليه وسلم
فقال اذا دخل اهل الجنة الجنة وقال بعضهم لبعض اليس وعدنا ربنا
ان نرد النار فيقال لهم قد وردتموها وهي خامدة وخامدة بالخاء المعجمة اي
ساكنة وروي بالجيم اي باردة ولا بد من ذلك في الملئكة الموكلين بالعذاب
حتى يكونوا في النار مع المعاقبين فان قيل فاذا لم يكن على المومنين عذاب
في دخولهم فما الفايدة في ذلك الدخول اجيب بوجوه احدها
ان ذلك مما يزيدهم سرورا اذا علموا الخلاص منه ثانيها ان فيه مزيد
غم على اهل النار حيث يرون المومنين الذين هم اعداوهم يتخلصون
منها وهم يبقون فيها ثالثها ان فيها مزيد غم على اهل النار حيث يرون تظهر
فضيحتهم عند المومنين رابعها انهم اذا شاهدوا ذلك العذاب صار
سببا لمزيد تلذذهم بنعيم الجنة وقيل المراد بالذين يردونها من تقدم ذكرهم
من الكفار فكنى عنهم اولا كناية الغيبة ثم خاطب خطاب المشافهة
وعلى هذا القول فلا يدخل النار مومن واستدل له بقوله تعالى ان الذين
سبقت لهم منا الحسنى اولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها والمبعد
عنها لا يوصف بانه واردها ولو وردوا جهنم لسمعوا حسيسها وبقوله تعالى
وهم من فزع يومئذ امنون وروي عن مجاهد من حم من المومنين فقد وردها
وفي الخبر الحمى كير من جهنم وهي حظ المومن من النار وفي رواية الحمى من فيح
جهنم فابردوها بالماء فقوله من فيح جهنم اي وهجها وحرها وقال ابن
مسعود وان منكم الا واردها يعني القيامة والكناية راجعة اليها
قال البغوي والاول اصح وعليه اهل السنة وروي انه يخرج من النار

من قال لا اله الا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير ويخرج من النار من قال لا اله
الا الله وفي قلبه وزن برة من خير ويخرج من النار من قال لا اله الا الله وفي قلبه
وزن ذرة من خير وفي رواية من ايمان وعن ابن مسعود قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم انه قال اني لاعلم اخر اهل النار خروجا منها واخر اهل الجنة
دخولا الجنة رجل يخرج من النار حبوا فيقول الله له اذهب فادخل الجنة
قال فياتيها فيخيل اليه انها ملاى فيرجع فيقول وجدتها ملاى فيقول الله
اذهب فادخل الجنة فان لك مثل الدنيا وعشر امثالها فيقول اتسخر بي
وانت الملك فلقد رايت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت
نواجذه فكان يقال ذلك ادنى اهل الجنة منزلة قوله نواجذه اي انيابه
واضراسه وقيل هي اعلا الاسنان وعن جابر قال قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم تعذب ناس من اهل التوحيد في النار حتى يكونوا حمما ثم
تدركهم الرحمة قال فيخرجون فيطرحون على باب الجنة قال فيرش عليهم
اهل الجنة الماء فينبتون كما تنبت الغثاء في حمالة السيل الحمم الفحم والغثاء كلما
جاء به السيل وقرا الكسائي ننجي بسكون النون الثانية وتخفيف الجيم
والباقون بفتح النون الثانية وتشديد الجيم ولما اقام تعالى الحجة على مشركي
قريش المنكرين للبعث قال تعالى عطفا على قوله ويقول الانسان
واذا تتلى عليهم اي الناس من المومنين والكفار من اي تال كان **اياتنا**
اي القران حال كونها **بينات** اي واضحات وقيل مرتبات الالفاظ
ملخصات المعاني وقيل ظاهرات الاعجاز **قال الذين كفروا** بايات ربهم
البينة جهلا منهم وانظر الى ظاهر الحياة الدنيا الذي هو مبلغهم من العلم
للذين امنوا اي لاجلهم او مواجهة لهم اعراضا عن الاستدلال بالايات
بالاقبال على هذه الشبهة الواهية وهي المفاخرة بالمكاثرة في الدنيا من قولهم
اي الفريقين نحن بما لنا من الاتباع ام انتم بما لكم من خشونة العيش ورثاثة
الحال ولو كنتم انتم على الحق ونحن على الباطل لكان حالكم في الدنيا احسن من حالنا لان الحكيم
لا يليق ان يوقع اولياءه المخلصين في الذل واعداءه المعرضين عن خدمته في
العز والراحة وان كان الامر بالعكس فان الكفار كانوا في النعمة والراحة
والاستعلاء والمومنين كانوا في ذلك الوقت في الخوف والقلة هذا حاصل
شبهتهم والقايل ذلك هو النضر بن الحارث ونحوه من قريش للذين امنوا
من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وكان فيهم قشافة وفي عيشهم خشونة
وفي ثيابهم رثاثة وكان المشركون يرجلون شعورهم ويلبسون حرير
ثيابهم فقالوا للمومنين اي الفريقين **خير مقاما** اي موضع قيام او اقامة
على قراءة ابن كثير بضم الميم والباقون بفتحها ففي كلتا القراءتين يحتمل
ان يكون اسم مصدر او اسم مكان من قام ثلاثيا او من اقام تحتبه

تي لو ازيد خير من عمرو وشر من بكر ولم يتو لواخيرا منه ولا اشرا منه لان هاتين اللفظتين
كثر استعمالهما فحذفت همزتاهما ولم يثبت الا في فعل التعجب فقالوا ما اخير
زيدا واشر بعمرو وما اخير زيدا وما اشر عمرا وان العلة في اثباتها في فعل التعجب
ان استعمال هاتين اللفظتين اسما اكثر من استعمالها فعلا فحذفت الهمزة في
موضع الكثرة وبقيت على اصلها في موضع القلة **واحسن نديا** اي مجمعا
ومتحدثا والندي المجلس يقال ندا وناد والجمع الاندية ومنه وتاتون
في ناديكم المنكر وقال تعالى فليدع نادية ويقال ندوت القوم اندوهم اذا
جمعتهم في مجلس ومنه دار الندوة وكانت تجمع القوم فجعلوا ذلك الامتحان
بالانعام والاحسان دليلا على رضي الرحمن مع التكذيب والكفران وغفلوا
عن ان ذلك مع التكذيب بالبعث تكذيبا بما ياتيهم دون منا من الغدرة وسلب
النعم ولو شينا لاهلكناهم وسلبناهم جميع ما يفتخرون به **وكم اهلكنا قبلهم**
ثم بين ابهام كم بقوله **من قرن** شاهدوا بواديهم ورؤا اثارهم **هم**
اي اهل تلك القرون **احسن** من هولا **اثاثا** اي امتعة **ورئيا** اي
ومنظرا فلو دل لحصول نعم الدنيا للانسان على كونه حبيب الله لوجب ان
لا يوصل لهم نعمه في الدنيا وقرا قالون وابن ذكوان بابدال الهمزة ياء وادغامها
في اليا وقفا ووصلا واذا وقف حمزة ابدل الهمزة ياوله فيها الادغام والاظهار
ونصبه كم مفعول اهلكنا تقدم واجب التقديم لان له صدر الكلام لانها
اما استفهامية او خبرية وهي محمولة على الاستفهامية اي كثيرا من القرون
اهلكنا ومن قرن تمييز لكم مبين لها وانما سمي اهل كل عصر قرنا لانهم يتقدمون
من بعدهم وقول البيضاوي وهم احسن صفة لكم تبع فيه الزمخشري وغيره
ورد بان كم الاستفهامية والخبرية لا توصف ولا يوصف بها وهم احسن في محل
جر صفة لقرن وجمعه نظرا للمعنى لان القرن مشتمل على افراد كثيرة ثم قال
تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم **قل** لهولاء المبعدين ردا عليهم وقطعا لمعاذيرهم
وهتكا لشبهتهم هذا الذي افتخرتم به لا يدل على حسن الحال في الاخرة
بل على عكس ذلك فقد جرت عادته تعالى انه **من كان في الضلالة** مثلكم كونا
راسخا بسط له في الدنيا وطيب عيشه في ظاهر الحال فيها ونعم بانواع
وقوله **فليمدد له الرحمن مدا** امر بمعنى الخبر معناه يدعه في طغيانه
ويمهله في كفره بالبسط في الاثار والسعة في الديار والطول في الاعمار
وانفاقها فيما يستلذ به من الاوزار ولا يزال يمد له استدراجا **حتى اذا راوا**
اي كل من كفر باعينهم **ما يوعدون** من قبل الله **اما العذاب** في الدنيا بايدي المومنين
وغيرهم او في البرزخ **واما الساعة** اي القيامة التي هم بها يكذبون وعن الاستعداد
معرضون ولا شي يشبه اهوالها وخزيها ونكالها **فسيعلمون** اذا راوا
ذلك **من هو شر مكانا** اي من جهة المكان الذي قوبل به المقام في قولهم

خير مقاما واضعف جندا اي اقل ناصرا اهم ام المومنون اي اضعف من جهة الجند
الذي اشير به الى الندي في قولهم واحسن نديا لانهم في النار والمومنون في الجنة
فهذا رد عليهم في قولهم اي الفريقين خير مقاما واحسن نديا **ويزيد الله**
الذين اهتدوا الى الايمان **هدى** بما ينزل عليهم من الايات عوض ما زوي عنهم
في الدنيا لكرامتهم عنده مما بسط للضلال لهوانهم عليه واشار الى ان مثل
ما جرى لاوليك بالنوال وفوق هولا لمحاسن الاعمال باقلال الاموال فقال
عز من قايل **والباقيات الصالحات** اي من الطاعات والمعارف التي شرحت لها
الصدور وانارت بها القلوب واوصلت الى علام الغيوب **خير عند ربك**
مما متع به الكفرة والخيرية هنا في مقابلة قولهم اي الفريقين خير مقاما وقيل
الباقيات الصالحات هي الصلوات وقيل التسبيح روي ابو الدردا قال
جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم واخذ عودا يابسا وازال
الورق عنه ثم قال ان قول لا اله الا الله والله اكبر وسبحان الله تحط الخطايا
كما تحط ورق هذه الشجرة الريح خذهن يا ابا الدردا قبل ان يحال بينك
وبينهن الباقيات الصالحات وهي من كنوز الجنة فكان ابو الدردا يقول
لاعلمن ذلك ولاكثرن عمله حتى اذا رآني الجهال حسبوا اني مجنون
قال الرازي والقول الاول اولى لانه تعالى انما وصفها بالباقيات الصالحات
من حيث يدوم ثوابها فلا تختص ببعض العبادات وهي باسرها باقية صالحة
نظرا الى اثرها الذي هو الهداية ثم بين تعالى خيرها بقوله تعالى **ثوابا** اي من
جهة الثواب **وخير مردا** اي من جهة العاقبة يوم الحسرة فان قيل
لا يجوز ان يقال هذا خير والمراد انه خير من غيره والذي عليه الكفار لا خير
فيه اصلا اجيب بان المراد خير مما ظنه الكفار بقولهم خير مقاما
واحسن نديا وقيل هو كقولهم الصيف احر من الشتا بمعنى ان حره ابلغ
من برده فالكفار يردون الى فنا وخسارة والمومنون الى ربح وبقا
ولما ذكر تعالى الدلايل اولا على صحة البعث اورد شبهة المنكرين
واجاب عنها اورد عليهم الان ما ذكره على سبيل الاستهزاء اطغاء القول
بالحشر فقال تعالى **افرايت الذي** اي الذي يعرض لك هذا اليوم ويدل
على ذلك بان **كفر باياتنا** الدالات على عظمتنا بالدلالات البينات
وقال جراة منه وجهلا **لاوتين** اي والله في الساعة على تقدير قيامها
مالا وولدا اي عظيمين فلم يكفه في جهله تعجيز القادر حتى ضم اليه اقدار
العاجز وقرا حمزة والكسائي وولدا وكذا ولدا في جميع ما في هذه السورة بضم
الواو وسكون اللام والباقون بفتح الواو واللام في الجميع يقال ولد وولد
كما يقال عرب وعرب وعدم وعدم اما القراة بالفتحتين فواضحة وهو اسم
مفرد قايم مقام الجمع واما قراة الضم والاسكان فقيل هي كالتي قبلها في المعنى

وقيل بل هي جمع لولد كأسد وأسد وأنشد واعلى ذلك •
ولقد رأيت معاشرًا قد ثمّروا مالًا وولدًا • وأنشد واستشهد على أن الوُلد
والوَلد مترادفان قول الآخر •
فليت فلانًا كان في بطن أمه • وليت فلانًا كان ولد حماره •
ولما كان ما ادعاه لا علم به الا بأحد أمرين لا علم له بواحد منهما أنكر قوله
ذلك بقوله تعالى **أطّلع الغيب** الذي هو غائب عن كل مخلوق فهو كل
بعض الخلق كالمعالي الذي لا يمكن أحدًا منهم الاطلاع إليه وتفرد به الواحد
القهار **أم اتخذ** أي بغاية جهده **عند الرحمن عهدًا** عاهده عليه بأن
يؤتيه ما ذكر بطاعة فعلها على وجهها اللائق سبحانه وتعالى فيه عند
قوله وقيل في العهد كلمة الشهادة وعن قتادة هل له عمل صالح قدمه
فهو يرجو بذلك ما يقول وعن الكلبي هل عهد الله إليه أن يؤتيه ذلك
وعن الحسن رحمه الله تعالى نزلت في الوليد بن المغيرة والمشهور أنها في العاص
ابن وائل قال خباب بن الأرت كان لي عليه دين فاقتضيته فقال
لا والله حتى تكفر بمحمد فقلت لا والله لا أكفر بمحمد حيًا ولا ميتًا ولا حين
تبعث قال لي إذا مت بعثت قلت نعم قال إذا بعثت جئتني وسيكون لي
ثم مال وولد فأعطيك وقيل صاغ له خباب حليًا فاقتضاه الأجر فقال إنكم
تزعمون أنكم تبعثون وأن في الجنة ذهبًا وفضة وحريرًا فأنا أقضيك
ثم فإني أوتى مالًا وولدًا فأعطيك حينئذ ثم إنه سبحانه وتعالى
بين من حاله ضد ما ادعاه فقال تعالى **كلا** وهي كلمة ردع وتنبيه
على الخطأ أي هو مخطئ فيما يقوله ويتمناه **سنكتب** أي نحفظ
عليه **ما يقول** فنجازيه به في الآخرة وقيل نأمر الملائكة حتى يكتبوا
عليه ما يقول **ونمد له من العذاب مدًا** أي نزيده بذلك عذابًا فوق
عذاب كفره وقيل نطيل مدة عذابه **ونرثه** بموته **ما يقول** أي
ما عنده من المال والولد **ويأتينا** يوم القيامة **فردًا** لا يصحبه
مال ولا ولد كان له في الدنيا فضلًا أن يؤتى ثم زائدًا قال تعالى
ولقد جئتمونا فرادى وقيل فردًا رافضًا لهذا القول منفردًا عنه
ولما تكلم سبحانه وتعالى في مسألة الحشر والنشر تكلم الآن في الرد
على عباد الأصنام فقال **واتخذوا** أي كفار قريش من دون الله أي
الأوثان **آلهة** يعبدونها **ليكونوا لهم عزًا** أي منفعة بحيث يكونون
لهم شفعاء وأنصارًا ينقذونهم من الهلاك ثم أجاب بقوله تعالى **كلا**
ردع وإنكار لتعززهم بها **سيكفرون بعبادتهم** أي ستجحد الآلهة عبادتهم
ويقولون ما عبدتمونا كقوله تعالى إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا
وفي آية أخرى ما كانوا إيانا يعبدون وقيل المراد بذلك الملائكة لأنهم كانوا



يكفرون بعبادتهم ويتبرؤون منهم ويخاصمونهم وهو المراد بقوله تعالى أهؤلاء
إياكم كانوا يعبدون وقيل إن الله تعالى يحيي الأصنام يوم القيامة حتى يوبخوا عابديهم
ويتبرؤوا منهم فيكون ذلك أعظم لحسرتهم ويجوز أن يراد الملائكة والأصنام
ويكونون عليهم ضدًا أي أعوانًا وأعداء فإن قيل لم وحّد وهو خبر عن
جمع أجيب بأنه إما مصدر في الأصل والمصادر موحدة مذكرة وإما لأنه
مفرد في معنى الجمع قال الزمخشري والضد العون وجه توحيد قوله عليه
الصلاة والسلام وهم يد على من سواهم لاتفاق وأنهم كشيء واحد لفرط تضامهم
وتوافقهم انتهى والحديث رواه أبو داود وغيره والشاهد فيه قوله يد حيث
لم يقل أيد ولما ذكر تعالى ما لهؤلاء الكفار مع آلهتهم في الآخرة ذكر بعده ما لهم
مع الشياطين في الدنيا وأنهم يتولونهم وينقادون إليهم فقال تعالى مخاطبًا
لنبيه صلى الله عليه وسلم **ألم تر** أي تنظر **أنا أرسلنا** أي سلطنا
الشياطين على الكافرين تؤزهم أزًا الأز والهز والاستفزاز أخوات ومعناها
التهييج وشدة الإزعاج أي تغريهم على المعاصي وتهيجهم لها بالوساوس
والتسويلات **فلا تعجل عليهم** أي تطلب عقوبتهم بأن يهلكوا
ويبيدوا حتى تستريح أنت والمسلمون من شرورهم **إنما نعد لهم عدًا**
أي ليس بينك وبين ما تطلب من هلاكهم إلا أيام محصورة وأنفاس
معدودة ونظيره قوله تعالى كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا
إلا ساعة من نهار بلاغ وكان ابن عباس إذا قرأها بكى وقال آخر العدد
خروج نفسك آخر العدد دخول قبرك آخر العدد فراق أهلك وعن
ابن السماك أنه كان عند المأمون فقرأها فقال إذا كانت الأنفاس
لم يكن لها مدد فما أسرع ما تنفد وقيل أنفاسهم وأعمالهم فنجازيهم
على قليلها وكثيرها وقيل نعد الأوقات أي وقت الأجل المعين لكل
أحد الذي لا يتطرق إليه الزيادة والنقصان ثم بين تعالى ما سيظهر ذلك
اليوم من الفضل بين المتقين والمجرمين في كيفية الحشر فقال تعالى **يوم** أي
واذكر يوم **نحشر المتقين** بإيمانهم **إلى الرحمن** أي إلى محل كرامته
وقوله تعالى **وفدًا** حال أي وافدين عليه كما يفد الوفاد على الملوك منتظرين
لكرامتهم وإنعامهم والوفد الجماعة الوافدون يقال وفد يفد وفدًا
ووفودًا ووفادة أي قدم على سبيل التكرمة وهو في الأصل مصدر ثم
أطلق على الأشخاص كالصف وقال أبو البقاء وفد جمع وافد مثل ركب
وراكب وصحب وصاحب وهذا الذي قاله ليس بمذهب سيبويه
لأن فاعلًا لا يجمع على فعل عند سيبويه وأجازه الأخفش وجرى عليه
الجلال المحلي وقال جمع وافد بمعنى راكب انتهى وقال ابن عباس وفدًا ركبانًا
وقال أبو هريرة على الإبل وقال علي رضي الله عنه والله ما يحشرون

علي رحلهم ولكن فوق رحالها الذهب ونجائب سروجها يواقيت ان هموا بها
سارت وان هموا طارت ونسوق المجرمين بكفرهم الى جهنم وقوله تع
وردا حال اي مشاة باهانة واستخفاف كانهم نعم عطاش تساق الى
الماء وقيل عطاشا قد تقطعت اعناقهم من العطش لا من يرد الماء لا يرده الا
بعطش وحقيقة الورود المسير الى الماء وقوله تع لا يملكون الشفاعة الضمير
فيه للعباد المدلول عليهم بذكر المتقين والمجرمين وقيل للمتقين وقيل
للمجرمين وقوله تع الا من اتخذ عند الرحمن عهدا استثناء متصل على القولين
الاولين منقطع على الثالث والمعنى ان الشافعين لا يشفعون الا لمن اتخذ
عند الرحمن عهدا اوجب دخوله فيه وصاحب الكبيرة اتخذ عند الرحمن
وهو التوحيد فوجب دخوله تحته ويؤكده قوله ما روي ابن مسعود
انه صلى الله عليه وسلم قال لاصحابه ذات يوم ايعجز احدكم ان يتخذ
عند كل صباح ومسا عند الله عهدا قالوا وكيف ذلك قال يقول كل
صباح ومسا اللهم فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة اني
اعهد اليك باني اشهد ان لا اله الا انت وحدك لا شريك لك وان محمدا عبدك
ورسولك فلا تكلني فانك ان تكلني الى نفسي تقربني من الشر وتباعدني
من الخير واني لا اثق الا برحمتك فاجعل لي عندك عهدا توفينيه يوم القيمة
انك لا تخلف الميعاد فاذا قال ذلك طبع الله عليه بطابع ووضع تحت
العرش فاذا كان يوم القيمة نادى مناد اين الذين لهم عند الرحمن عهد
فيدخلون الجنة فظهر ان المراد من العهد كلمة الشهادة وظهر وجه
الدلالة على ثبوت الشفاعة لاهل الكباير ولما رد سبحانه وتعالى
على عبدة الاوثان عاد الى الرد على من اثبت له ولدا بقوله تع وقالوا اتخذ
الرحمن ولدا اي قالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح
ابن الله وقالت العرب الملئكة بنات الله لقد جئتم شيئا ادا قال
ابن عباس اي منكرا وقال قتادة اي عظيما وقال ابن خالويه الاد
والاد العجب وقيل العظيم المنكر والادة الشدة وادني الامر وادني اثقلني
وقرا تكاد السموات نافع والكسائي بالياء على التذكير والباقون بالتاء
على التانيث وقرا ينفطرن منه ابو عمرو وابن عامر وشعبة وحمزة
بعد الياء بنون ساكنة وكسر الطاء مخففة والباقون بعد الياء
بتاء وفتح الطاء المشددة يقال انفطر الشيء وتفطر اي تشقق
وقراءة التشديد ابلغ لان التفعل مطاوع فعّل والانفعال مطاوع
فعل ولان اصل التفعل التكلف وتنشق الارض اي تنخسف
بهم وتخر الجبال هدا اي تسقط وتنطبق عليهم ان دعوا اي من
اجل ان دعوا للرحمن ولدا قال ابن عباس وكعب فزعت السموات

والارض

والارض والجبال وجميع الخلايق الا الثقلين وكادت ان تزول وغضبت
الملئكة واستعرت جهنم حين قالوا لله ولدا فان قيل كيف يؤثر القول في
انفطار السموات وانشقاق الارض وخرور الجبال اجيب بوجوه الاول
ان الله تعالى يقول كدت افعل هذا بالسموات والارض والجبال عند وجود
هذه الكلمة غضبا مني على من تفوه بها لولا حلمي واني لا اعجل بالعقوبة
الثاني ان يكون استعظاما للكلمة وتهويلا وتصويرا لاثرها في الدين
وهدمها لقواعده واركانه الثالث ان السموات والارض والجبال تكاد تفعل
ذلك لو كانت تعقل هذا القول ثم نفى الله تعالى عن نفسه الولد بقوله
تع وما ينبغي للرحمن ان يتخذ ولدا اي ما يليق به اتخاذ الولد لان ذلك
اما الولادة المعروفة فلا مقالة في استحالتها واما التبني فان الولد لا بد وان يكون
شبيها بالوالد ولا شبيه لله تعالى لان اتخاذ الولد انما يكون لاغراض اما من سرور
او استعانة او ذكر جميل وكل ذلك لا يصح في حق الله تعالى ان اي ما كل من في
السموات والارض اي ان كل معبود من الملئكة في السموات والارض من الناس
منهم العزير وعيسى الا اتي الرحمن اي ملتجي الى ربوبيته عبدا منقادا
مطيعا ذليلا خاضعا كما تفعل العبيد ومن المفسرين كالجلال المحلي من حمله
على يوم القيمة خاصة والاول اولى لانه لا تخصيص في الاية لقد احصاهم
اي حصرهم واحاط بهم بحيث لا يخرجون عن حوزه وعلمه وقبضته وقدرته
وكلهم تحت تدبيره وقهره وعدهم عدا اي عد اشخاصهم وايامهم وانفاسهم
وافعالهم فان كل شي عنده بمقدار لا يخفى عليه شي من امورهم وكلهم اتيه
اي كل واحد منهم ياتيه يوم القيمة فردا اي وحيدا ليس معه من الدنيا
شي من مال او نصير يمنعه ولما ورد سبحانه وتعالى على اصناف الكفرة
وبالغ في شرح احوالهم في الدنيا والاخرة ختم السورة بذكر احوال المومنين
فقال ان الذين امنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا اي سيحدث
لهم في القلوب مودة من غير تعرض منهم لاسبابها من قرابة او صداقة
او اصطناع معروف او غير ذلك روى الشيخان انه صلى الله عليه وسلم قال
اذا احب الله عبدا يقول لجبريل احببت فلانا فاحبه فيحبه جبريل ثم ينادي
في اهل السما ان الله احب فلانا فاحبوه فيحبه اهل السما ثم توضع له المحبة
في الارض واذا ابغض الله العبد قال مالك لا اراه حسبه الا قال في البغض
مثل ذلك والسين في سيجعل اما لان السورة مكية وكان المومنون حينئذ
ممقوتين بين الكفرة فوعدهم الله ذلك اذا قوي الاسلام والمعنى سيحدث
لهم في القلوب مودة واما ان يكون ذلك يوم القيمة يحببهم الله الى خلقه بما يظهر
من حسناتهم وروي عن كعب قال مكتوب في التوراة لا محبة لاحد في الارض
حتى يكون ابتداؤها من السما من الله عز وجل ينزلها على اهل السما ثم على

مِن الارض وتصديق ذلك في القران قوله سيجعل لهم الرحمن ودا وقال ابو مسلم
معناه يهب لهم ما يحبون والود والمحبة سوا ولماذكر بحثه وتعلى في هذه
السورة التوحيد والنبوة والحشر والرد على فرق المبطلين بين تعلى انه يسر
ذلك بلسان نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله **فانما يسرناه** اي القران
بلسانك اي العربي اي لولا انه تعلى نقل قصصهم الى اللغة العربية
لما تيسر ذلك لك **لتبشر به المتقين** اي المومنين **وتنذر** اي تخوف
به قوما لدا جمع الد اي جدل بالباطل وهم كفار مكة ثم انه تعالى ختم السورة
بموعظة عظيمة بليغة فقال تعالى **وكم** اي كثيرا **اهلكنا قبلهم من قرن**
اي امة من الامم الماضية بتكذيب الرسل لانهم اذا تاملوا وعلموا انه
لابد من زوال الدنيا وانه لابد فيها من الموت وخافوا سوء العاقبة في الاخرة
كانوا الى الحذر من المعاصي اقرب ثم اكد ذلك بقوله تعالى **هل تحس** اي
ترى وقيل تجد **منهم من احد او تسمع لهم ركزا** اي صوتا خفيا قال الحسن
بادوا جميعا فلم يبق عين ولا اثر اي فكما اهلكنا اولئك نهلك هولا ايضا
الركز الصوت الخفي دون نطق بحروف ولا فم ومنه ركز الرمح اي غيبه في الارض
واخفاه وفيه الركاز وهو المال المدفون لخفايه واستتاره والحديث الذي
ذكره البيضاوي تبعا للزمخشري وهو من قرا سورة مريم اعطاه الله عشر
حسنات بعدد من كذب زكريا وصدق به ويحيى ومريم وعيسى وسائر الانبيا
المذكورين فيها وبعدد من دعا الله في الدنيا ومن لم يدع الله حديث موضوع

سورة طه مكية وهي مائة وخمس وثلاثون اية

وعدد كلماتها الف وثلثمائة واحدى واربعون كلمة وعدد حروفها خمسة الاف
ومائتان واثنان واربعون حرفا وعن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال اعطيت السورة التي ذكرت فيها البقرة من الذكر الاول
واعطيت طه والطواسين من الواح موسى واعطيت فواتح القران وخواتيم
السورة التي ذكرت فيها البقرة من تحت العرش واعطيت المفصل نافلة
بسم الله الملك الحق المبين **الرحمن** الذي عم نعمه على خلقه اجمعين
الرحيم الذي خص بجنته عباده المومنين وقرا **طه** وشعبة وحمزة
والكسائي بامالة الطا والها وفتحهما ورش وابو عمرو على امالة الها محضة
ولم يمل ورش محضة الا هذه الها وقد تقدم الكلام في الحروف المقطعة
في اول سورة البقرة وفي هذه ملهمنا فوكان اصحها انها من ذلك وقيل انها
كلمة مفيدة اما على القول الاول فقد تقدم الكلام فيه في اول سورة البقرة
والذي زادوه هنا امور احدها قال الثعالبي الطا شجرة طوبى والها
الهاوية فكانه اقسم بالجنة والنار ثانيها يحكى عن جعفر الصادق الطا

طهارة

طهارة اهل البيت والها هدايتهم ثالثها قال سعيد بن جبير هذا افتتاح اسمه
الطيب الطاهر الهادي رابعها مطمع الشفاعة للامة وهادي الخلق الى الملة
خامسها الطا تسعة من الطهارة والها خمسة من الهداية فكانه قيل يا طاهرا من الذنوب
يا هاديا الى علام الغيوب سادسها الطا طول القراء والها هيبتهم في قلوب
الكفار قال تعالى سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب سابعها الطا تسعة
في الحساب والها خمسة تكون اربعة عشر ومعناها يا ايها البدر واما على
القول الثاني فقيل معنى طه يا رجل وهو يروى عن ابن عباس والحسن
ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعكرمة والكلبي ثم قال سعيد بن جبير
بالقبطية وقال قتادة بالسريانية وقال عكرمة بالحبشية وقال الكلبي
بلغة عك وهو بتشديد الكاف بن عدنان اخو معد وحكي الكلبي
انك لو قلت في عك يا رجل لم يجب حتى تقول طه وقال السدي معناه
يا فلان وقيل انه صلى الله عليه وسلم كان يقوم في تهجده على احدى رجليه
فامر ان يطا الارض بقدميه معا وقال الكلبي لما نزل على رسول الله صلى
الله عليه وسلم الوحي بمكة اجتهد في العبادة حتى كان يراوح بين قدميه
في الصلاة لطول قيامه وكان يصلي الليل كله فانزل الله عليه هذه الاية
وامره ان يخفف على نفسه فقال تعالى **ما انزلنا عليك القران لتشقى** اي
لتتعب بما فعلت بعد نزوله من طول قيامك بصلاة الليل اي خفف
عن نفسك فقد ورد انه صلى الله عليه وسلم صلى الليل حتى تورمت
قدماه فقال له جبريل عليه السلام ابق على نفسك فان لها عليك حقا
ما انزلنا لتهلك نفسك بالصلاة وتذيقها المشقة وما بعثت الا بالحنفية
السمحاء وروي انه كان اذا قام من الليل ربط صدره بحبل حتى لا ينام وقيل
لما راى المشركون اجتهاده في العبادة قالوا انك لتشقى حيث تركت
دين ابائك اي لتشقى وتتعب وما انزل عليك القران يا محمد لتشقى بالقران
واصل الشقا في اللغة العنا وقيل المعنى انك لا تلام على كفر قومك
كقوله تعالى لست عليهم بمسيطر وقوله تعالى وما انت عليهم بوكيل
اي انك لا تواخذ بذنبهم وقيل ان هذه السورة من اوايل ما نزل بمكة
وكان صلى الله عليه وسلم في ذلك الوقت مقهورا تحت ذل الاعداء
فكانه تعالى قال لا تظن انك تبقى ابدا على هذه الحالة بل يعلو امرك
ويظهر قدرك فانا ما انزلنا عليك القران لتبقى شقيا فيما بينهم
بل لتصير مكرما معظما وقرا حمزة والكسائي بالامالة وابو عمرو بين بين
وورش بين اللفظين والفتح عنه ضعيف جدا وكذلك جميع روس اي هذه
السورة من ذوات اليا وقوله تعالى **الا تذكرة** استثنا منقطع اي لكن
انزلناه تذكرة قال الزمخشري فان قلت هل يجوز ان يكون تذكرة بدلا

سورة طه

وتبيين

الحنفية

٢
لتبقى

من محل لتشقى قلت لا لاختلاف الجنسين ولكنها نصب على الاستثنا المنقطع
الذي فيه الا بمعنى لكن **لمن يخشى** اي لمن في قلبه خشية ورقة يتاثر
بالانذار ولمن علم الله تعالى منه ان يخشى بالتخويف منه فانه المنتفع به وقوله
تعالى **تنزيلا** بدل من اللفظ بفعله الناصب له **ممن خلق الارض** اي من
الله الذي خلق الارض **والسموات العلى** اي العالية الرفيعة التي لا يقدر
على خلقها في عظمها غير الله تعالى والعلى جمع عليا كقولهم كبرى وكبر وصغرى
وصغر وقدم الارض على السموات لانها اقرب الى الحس واظهر عنده من
السموات ثم اشار الى وجه احداث الكاينات وتدبير امرها بان قصد العرش
واجري منه الاحكام والتقادير وانزل منه الاسباب على ترتيب ومقادير
حسبما اقتضته حكمته وتعلقت به مشيته فقال **الرحمن على العرش**
وهو سرير الملك **استوى** استوا يليق به فانه سبحانه وتعالى كان
ولا عرش ولا مكان واذا خلق الخلق لا يحتاج الى مكان فهو بالصفة التي
كان لم يزل عليها وتقدم الكلام على ذلك في سورة الاعراف مستوفي
فراجعه ثم استدل سبحنه وتعالى على كمال قدرته بقوله تعالى **له
ما في السموات وما في الارض وما بينهما وما تحت الثرى** فهو مالك لما في السموات
من ملك ونجم وغيرهما ومالك لما في الارض من المعادن والفلوات ومالك
لما بينهما من الهوا ومالك لما تحت الثرى وهو التراب والمراد الارضون
السبع لانها تحته وقال ابن عباس ان الارضين على ظهر النون والنون
على بحر وراسه وذنبه يلتقيان تحت العرش والبحر على صخرة خضرا
خضرة السموات منها وهي الصخرة التي ذكرها الله في قصة لقمان
فتكن في صخرة والصخرة على قرن ثور والثور على الثرى وما تحت الثرى
لا يعلمه الا الله عز وجل وذلك الثور فاتح فاه واذا جعل الله البحار
بحرا واحدا سالت في جوف ذلك الثور فاذا وقعت في جوفه يبست
وقرا ابو عمرو وحمزة والكسائي بالامالة وورش بين اللفظين وكذا جميع
اي السورة من ذوات الرا ولما كانت القدرة تابعة للارادة وهي
لا تنفك عن العلم عقب ذلك باحاطة علمه تعالى بجليات الامور
وخفياتها على سوا فقال تعالى **وان تجهر بالقول** اي تعلن بالقول
في ذكر او دعاء فالله غني عن الجهر **فانه يعلم السر واخفى** قال الحسن
السر ما اسر الرجل الى غيره واخفى من ذلك ما اسر في نفسه وعن ابن
عباس السر ما تسر في نفسك واخفى من السر ما يلقيه الله في قلبك
من بعد ولا تعلم انك ستحدث به نفسك لانك تعلم ما تسر اليوم
ولا تعلم ما تسر غدا والله يعلم ما اسررت اليوم وما تسر غدا وقال
علي بن ابي طالب عن ابن عباس السر ما اسر ابن ادم في نفسه

واخفى

واخفى ما اخفى عليه مما هو فاعله قبل ان يعمله وقال مجاهد السر الذي
يسر من الناس واخفى من الوسوسة وقيل السر هو العزيمة واخفى ما يخطر على
القلب ولم يعزم عليه وقال زيد بن اسلم يعلم اسرار العباد واخفى سره من عباده
فلا يعلمه احد ولما ذكر صفاته وحد نفسه فقال تعالى **الله لا اله الا هو
له الاسما الحسنى** التسعة والتسعون الوارد بها الحديث والحسنى تانيث
الاحسن وفضل اسما الله تعالى على سائر الاسما في الحسن لدلالتها على معان
اشرف المعاني وافضلها وروي ان لله تعالى اربعة الاف اسم الف لا يعلمها الا
هو والف لا يعلمها الا الله والملايكة والف لا يعلمها الا الله والملايكة والانبيا
واما الالف الرابعة فالمومنون يعلمونها فثلاثماية في التوراة وثلاثماية
في الانجيل وثلاثماية في الزبور وماية في القران تسعون منها ظاهرة
وواحد مكنون من احصاها دخل الجنة وذكر في لا اله الا الله فضايل
كثيرة اذكر بعضها واسال الله ان يجعلنا ومحبينا من اهلها روي انه
صلى الله عليه وسلم قال افضل الذكر لا اله الا الله وافضل الدعا
استغفر الله ثم تلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلم انه لا اله الا الله
واستغفر لذنبك وللمومنين والمومنات وروي انه صلى الله عليه وسلم
قال ان الله تعالى خلق ملكا من الملايكة قبل ان يخلق السموات والارض
وهو يقول اشهد ان لا اله الا الله مادا بها صوته لا يقطعها ولا يتنفس
فيها ولا يتمها فاذا اتمها امر اسرافيل بالنفخ في الصور وقامت القيامة تعظيما
لله وعن انس قال صلى الله عليه وسلم ما زلت اشفع الى ربي ويشفعني واشفع
اليه ويشفعني حتى قلت يا رب شفعني فيمن قال لا اله الا الله فقال يا محمد
ليست لك ولا لاحد وعزتي وجلالي لا ادع احدا في النار قال لا اله الا الله
وقال سفيان الثوري سالت جعفر بن محمد عن حم عسق فقال الحا حلمه
والميم ملكه والعين عظمته والسين سناوه والقاف قدرته يقول
الله عز وجل بحلمي وملكي وعظمتي وسناي وقدرتي لا اعذب
بالنار من قال لا اله الا الله محمد رسول الله وروي عن موسى عليه الصلاة
والسلام انه قال يا رب علمني شيا اذكرك به قل لا اله الا الله قال انما
اردت شيا تخصني به قال يا موسى ان السموات السبع ومن فوقهن فيهن
في كفة ولا اله الا الله في كفة لمالت بهن لا اله الا الله وقال بعض المفسرين
في قوله تعالى الم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة انه لا اله
الا الله اليه يصعد الكلم الطيب لا اله الا الله وتواصوا بالحق لا اله الا الله
قل انما اعظكم بواحدة لا اله الا الله وقفوهم انهم مسؤولون عن قول
لا اله الا الله بل جا بالحق وصدق المرسلين لا اله الا الله يثبت الله الذين
امنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الاخرة هو لا اله الا الله

فوقهن ح

ويضل الله الظالمين عن قول لا اله الا الله وعن ابن عمر قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم من قال في السوق لا اله الا الله وحده لا شريك له له
الملك وله الحمد يحيي ويميت بيده الخير وهو على كل شي قدير كتب له الف الف
حسنة ومحي عنه الف الف سيئة وبني له بيتا في الجنة قال الرازي
وفي النكت ينبغي لاهل لا اله الا الله ان يخلصوا اربعة اشيا حتى يكونوا
من اهل لا اله الا الله التصديق والتعظيم والجلالة والحرمة فمن ليس له
التصديق فهو منافق ومن ليس له التعظيم فهو مبتدع ومن ليس له
الجلالة فهو مرائي ومن ليس له الحرمة فهو فاجر كذاب ذكر ان بشر
الحافي راي كاغدا فيه بسم الله الرحمن الرحيم فرفعه وطيبه بالمسك
فراي في النوم كانه نودي يا بشر طيبت اسمنا فنحن نطيب اسمك في
الدنيا والاخرة وذكر ان صبيا كان يصيد السمك وكان ابنته تطرحها
في الما وقالت انما وقعت في الشبكة لغفلتها الهنا ذنت الصبية
كانت ترحم غفلتها وكانت تلقيها في الما مرة اخري في البحر ونحن قد اصطادتنا
وسوسة الشيطان واخرجتنا من بحر رحمتك فارحمنا بفضلك وخلصنا
منه والقنا في بحار رحمتك مرة اخري وعن محمد بن كعب القرظي قال قال
موسى الهي اي خلقك اكرم عليك قال الذي لا يزال لسانه رطبا من ذكري
قال فاي خلقك اعظم قال الذي يلتمس الي علمه علم غيره قال فاي خلقك
اعدل قال الذي يقضي على نفسه كما يقضي على الناس قال فاي
خلقك اعظم جرما قال الذي يتهمني وهو الذي يسالني ثم لا يرضى بما قضيت
له الهنا انا لا نتهمك فانا نعلم ان كلما احسنت به فهو فضل وكلما لا تفعله
فهو عدل فلا تواخذنا بسو افعالنا واعمالنا وعن الحسن اذا كان يوم
القيمة نادي مناد سيعلم الجمع من اولي بالكرم اين الذين كانت
تتجافي جنوبهم عن المضاجع فيقومون فيتخطون رقاب الناس ثم يقال
اين الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ثم ينادي مناد اين الحامدون
الله كثيرا على كل حال ثم يكون الحساب على من بقي الهنا نحن حمدناك
واثنينا عليك بمقدار طاقتنا ومنتهي قدرتنا فاعف عنا بفضلك
ورحمتك يا ارحم الراحمين ولما عظم الله تعالى حال القران وحال رسوله
صلى الله عليه وسلم بما كلفه اتبع ذلك بما يقوي قلب رسول الله صلى
الله عليه وسلم من ذكر احوال الانبيا تقوية لقلبه في الابلاغ كقوله تعالى
وكلا نقص عليك من انبا الرسل ما نثبت به فوادك وبدا بموسي عليه السلام
لان فتنته كانت اعظم الفتن ليتسلى قلب الرسول صلى الله عليه وسلم
ويصبر على تحمل المكاره فقال تعالى **وهل اتاك حديث موسى** وهذا يحتمل لان
يكون اول ما اخبر به من امر موسى فقال وهل اتاك اي لم ياتك الي الان

فتنته

٢٥٤

فتنة وهذا قول الكلبي ويحتمل انه قد اتاه ذلك في الزمن المتقدم فكانه قال اليس قد اتاك
وهذا قول مقاتل والضحاك عن ابن عباس وهذا وان كان على لفظ الاستفهام الذي لا يجوز
على الله تعالى لكن المقصود منه تقرير الخبر في قلبه وهذه الصورة ابلغ في ذلك
كقولك لصاحبك هل بلغك عني كذا فيتطلع السامع الي معرفة ما يومي اليه
ولو كان المقصود هو الاستفهام لكان الجواب يصدر من قبل موسى لا من
قبل الله تعالى وقيل ان هل بمعنى قد وجري على ذلك المحلي تبعا للبغوي وقوله
تعالى **اذ راي** يجوز ان يكون منصوبا بالحديث وهو الظاهر ويجوز ان ينصب
باذكر مقدرا اي واذكر اذ راي **نارا** وذلك ان موسى عليه السلام استاذن
شعيبا في الرجوع من مدين الي مصر لزيارة والدته واخته فاذن له فخرج
باهله وماله وكانت ايام الشتا واخذ على غير الطريق مخافة ملوك الشام
وامراته حامل في شهرها لا تدري ليلا تضع او نهارا فسار في البرية غير عارف
بطريقها فالجاه المسير الي جانب الطور الغربي الايمن في ليلة مظلمة شديدة
البرد وقيل كانت ليلة جمعة واخذت امراته في الطلق وتفرقت ماشيته
ولا ما عنده وجعل يقدح زنده فلا يوري فابصر نارا من بعيد على يسار الطريق
من جانب الطور **فقال لاهله امكثوا** اي اقيموا في مكانكم والخطاب لامراته وولدها
والخادم ويجوز ان يكون للمراة وحدها خرج على ظاهر الاهل لان الاهل يقع
على الجمع وايضا قد يخاطب الواحد بلفظ الجمع تفخيما وقرا حمزة بضم الهاء في الوصل
والباقون بالكسر **اني انست** اي ابصرت **نارا** والايناس الابصار
البين الذي لا شبهة فيه ومنه انسان العين لانه يتبين به الشي والانس
لظهورهم كما قيل الجن لاستتارهم وقيل ابصار ما يونس به ولما وجد منه
الايناس وكان متيقنا حققه لهم بانّ ليوطن انفسهم ولما كان
الاتيان بالقبس ووجود الهدي مترقبين بني الامر فيهما على الرجا
والطمع فقال **لعلي اتيكم منها بقبس** اي شعلة في راس فتيلة او عود
او نحو ذلك وقرا نافع وابن كثير وابو عمرو بفتح اليا في ولعلي الاتية
والباقون بالسكون وهم على اصولهم في المد **او اجد على النار هدي** اي
هاديا يدلني على الطريق ومعني الاستعلا على النار ان اهل النار يستعلون
المكان القريب منها كما قال سيبويه في مررت بزيد انه لصوق بمكان
يقرب من زيد او لان المصطلين بها اذا احاطوا بها كانوا مشرفين
عليها وقال بعضهم النار اربعة اقسام نار تاكل ولا تشرب وهي نار
الدنيا ونار تشرب ولا تاكل وهي التي في الشجر الاخضر كما قال تعالى
جعل لكم من الشجر الاخضر نارا ونار تاكل وتشرب وهي نار المعدة ونار
لا تاكل ولا تشرب وهي نار موسى عليه السلام وقيل ايضا النار
اربعة نار لها نور بلا حرقة وهي نار موسى عليه السلام ثانيها لها حرقة

بق

بلا نور وهي نار جهنم اعاذنا الله تعالى منها فان لها الحرقة والنور وهي نار الدنيا فان لها الاحرقة ولا نور وهي نار الاشجار تنبيه ان وصلت هدى بنطلها فليس فيها الا التنوين للجميع وان وقف عليها فهو على اصولهم في الفتح والامالة وبين اللفظين **فلما اتاها** اي النار قال ابن عباس اي شجرة خضرا من اسفلها الى اعلاها اطافت بها نار بيضا تتقد كاضوا ما يكون فوقف متعجبا من شدة ضوء تلك النار وشدة خضرة تلك الشجرة فلا النار تغير خضرتها ولا كثرة ماء الشجر يغير ضوء النار قال ابن مسعود كانت الشجرة سمرة خضرا وقال قتادة ومقاتل والكلبي كانت من العوسج وقال وهب كانت من العليق وقيل من العناب قال اكثر المفسرين ان الذي راه موسى لم يكن نارا بل كان نور الرب تعالى وهو قول ابن عباس وعكرمة وغيرهما ذكر بلفظ النار لان موسى عليه السلام حسبه نارا فلما دنا منها سمع تسبيح الملائكة وراى نورا عظيما قال وهب ظن موسى انها نارا اوقدت فاخذ من دقاق الحطب وهو الحشيش اليابس يقتبس من لهبها فمالت اليه كانها تريده فتاخر عنها وهابها ثم لم تزل تطمعه ويطمع فيها ثم لم يكن باسرع من خمودها كانها لم تكن ثم رمى موسى ببصره الى فروعها فاذا خضرتها ساطعة في السما واذا نور بين السما والارض له شعاع تكل عنه الابصار فلما راى عليه السلام ذلك وضع يديه على عينيه والقت عليه السكينة **نودي يا موسى اني ربك** فقال وهب نودي من الشجرة فقيل يا موسى فاجاب سريعا ولم يدر من دعاه فقال اني اسمع صوتك ولا ارى مكانك فاين انت فقال انا فوقك ومعك وامامك وخلفك واقرب اليك منك فعلم ان ذلك لا ينبغي الا لله تعالى فايقن به وقيل انه سمع بكل اجزائه حتى ان كل جارحة منه كانت اذنا وقرا ابن كثير وابو عمرو بفتح الهمزة من اني على تقدير البا اي باني لان النداء يوصل بها تقول ناديته بكذا وانشد الفارسي قول الشاعر

ناديت باسم ربيعة بن مكدم ۞ ان المنوه باسمه الموثوق

وجوز ابن عطية ان يكون بمعنى لاجل وليس بظاهر والباقون بالكسر اما على اضمار القول كما هو راي البصريين اي فقيل واما لان النداء في معنى القول عند الكوفيين وقوله تعالى اني يجوز ان يكون مبتدا وما بعده خبره والجملة خبر ان ويجوز ان يكون توكيد الضمير المنصوب ويجوز ان يكون فصلا وروى ابن مسعود مرفوعا في قوله تعالى **فاخلع نعليك** انهما كانا من جلد حمار ميت ويروى غير مدبوغ فامر بخلعهما صيانة للوادي المقدس وقال عكرمة ومجاهد انما امر بذلك ليباشر بقدميه تراب الارض المقدسة فيناله بركتها ويدل لذلك انه قال تعالى عقبه **انك بالوادي المقدس** اي المطهر او المبارك فخلعهما والقاهما من وراء الوادي هذا ما قاله اهل التفسير وذكر

اهل الاشارة في ذلك وجوها احدها ان النعل في النوم يفسر بالزوجة وقوله اخلع نعليك اشارة الى انه لا يلتفت بخاطره الى الزوجة والولد وان لا يبقى مشغول القلب بامرهما ثانيها المراد بخلع النعلين ترك الالتفات الى الدنيا والاخرة كانه امره ان يصير مستغرق القلب بالكلية في معرفة الله تعالى فلا يلتفت الى المخلوقات ثالثها ان الانسان حالة الاستدلال على وجود الصانع لا يمكنه ان يتوصل اليه الا بمقدمتين مثل ان يقول العالم محسوس محدث وكلما كان كذلك فله مؤثر ومدبر وصانع فهاتان المقدمتان تشبيها بالنعلين لان بهما يتوصل العقل الى المقصود وينتقل من النظر في الخلق الى معرفة الخالق وجب ان لا يبقى ملتفتا الى تلك المقدمتين فلا يكن مشتغل الخاطر بتلك المقدمتين فانك وصلت الى الوادي المقدس الذي هو بحر معرفة الله وقوله تعالى **طوى** بدل او عطف بيان وقرا هنا وفي النازعات نافع وابن كثير وابو عمرو بغير تنوين فهو ممنوع من الصرف باعتبار البقعة مع العلمية وقيل انه معدول عن طاو فهو مثل عمر المعدول عن عامر وقيل انه اعجمي ففيه العلمية والعجمة والباقون بالتنوين فهو مصروف باعتبار المكان ففيه العلمية فقط وعند هؤلاء ليس باعجمي وقوله تعالى **وانا اخترتك** اي اصطفيتك للرسالة من قومك وقرا حمزة بتشديد النون من انا وقرا اخترناك بنون والف بلفظ الجمع والباقون بتا مضمومة وقوله تعالى **فاستمع لما يوحى** اي اليك مني فيه نهاية الهيبة والجلالة كانه تعالى قال لقد جاءك امر عظيم فتاهب له واجعل كل عقلك وخاطرك مصروفا اليه وفي قوله تعالى وانا اخترتك نهاية اللطف والرحمة فيحصل له من الاول نهاية الرجاء ومن الثاني نهاية الخوف تنبيه يجوز في لام لما ان تتعلق باستمع وهو اولى وان تكون مزيدة في المفعول على حد قوله تعالى ردف لكم وجوز الزمخشري ان يكون ذلك من باب التنازع ونازعه ابو حيان بانه لو كان كذلك لاعاد الضمير مع الثاني فكان يقول فاستمع له لما يوحى واجيب عنه بان مراده التعلق المعنوي من حيث الصلاحية واما تقدير الصناعة فلم يعنه وقوله تعالى **انني انا الله لا اله الا انا فاعبدني** بدل مما يوحى دال على انه مقصور على تقرير التوحيد الذي هو منتهى العلم والامر بالعبادة التي هي كمال العمل وفي هذه الاية دلالة على ان علم اصول الدين مقدم على علم الفروع لان التوحيد من علم الاصول والعبادة من علم الفروع وايضا فالفاء في قوله فاعبدني تدل على ان عبادته انما لزمت لالهيته وخص الصلاة بالذكر وافردها في قوله تعالى **واقم الصلاة لذكري** للعلة التي انيط بها اغاضتها وهو تذكر المعبود وشغل القلب واللسان بذكره وقيل لذكري لاني ذكرتها في الكتب وامرت بها وقيل لاوقات ذكري وهي مواقيت الصلاة او لذكر صلاتي لما روى مسلم انه صلى الله عليه وسلم قال من نام عن

صلاة او نسيها فليقضها اذا ذكرها ان الله يقول واقم الصلاة لذكري وقيل
لاني اذكرك بالثنا والمدح واجعل لك عليها لسان صدق عليا وقيل لذكري
خاصة لا تشوبه بذكر غيري ولما خاطب تعالى موسى عليه السلام بقوله تعالى
فاعبدني واقم الصلاة لذكري اتبعه بقوله ان الساعة اتية اي كائنة اكاد
اخفيها قال اكثر المفسرين معناه اكاد اخفيها من نفسي فكيف يعلمها
غيري من الخلق وكيف اظهرها لكم ذكر تعالى على عادة العرب اذا بالغوا في كتمان الشي
يقول كتمت سرك من نفسي اي اخفيته غاية الاخفا والله تعالى لا يخفى عليه
شي والمعنى في اخفايها التهويل والتخويف لانهم اذا لم يعلموا متى تقوم الساعة
كانوا على حذر منها كل وقت وكذلك المعنى في اخفا وقت الموت لان الله تعالى
وعد قبول التوبة فاذا عرف وقت موته وانقضا اجله اشتغل بالمعاصي
الى ان يقرب ذلك الوقت فيتوب ويصلح العمل فيتخلص من عقاب المعاصي
بتعريف وقت موته لا يزال على قدم الخوف والوجل فيترك المعاصي او يتوب
منها في كل وقت خوف معاجلة الاجل وقال ابو مسلم اكاد بمعنى اريد وهي
كقوله تعالى كذلك كدنا ليوسف ومن امثالهم المتداولة لا افعل ذلك ولا
اكاد اي لا اريد ان افعله وقال الحسن ان اكاد من الله واجب بمعنى قوله تعالى
اكاد اخفيها اي انا اخفيها عن الخلق كقوله تعالى عسى ان يكون قريبا اي هو
قريب وقيل اكاد صلة في الكلام والمعنى ان الساعة اتية اخفيها قال زيد الخيل
سريع الى الهيجا شاك سلاحه • فما كاد قرنه انا يتنفس • اي فما ان
يتنفس قرنه وقوله تعالى لتجزى كل نفس بما تسعى اي تعمل من خير او شر متعلق
باتية واختلف في المخاطب بقوله تعالى فلا يصدنك اي يصرفنك عنها
من لا يؤمن بها فقيل وهو الاقرب كما قاله الرازي انه موسى عليه السلام
لان الكلام اجمع له وقيل هو محمد صلى الله عليه وسلم واختلف ايضا في عود
هذين الضميرين على وجهين احدهما قال ابو مسلم لا يصدنك عنها اي عن
الصلاة التي امرتك بها من لا يؤمن بها اي بالساعة فالضمير الاول عائد الى
الصلاة والثاني الى الساعة ومثل هذا جائز في اللغة فالعرب تلقي الخبرين
ثم ترمي بجوابهما جملة ليرد السامع الى كل خبر حقه ثانيهما قال ابن عباس فلا
يصدنك عن الساعة اي عن الايمان بها من لا يؤمن بها والضميران عائدان
الى يوم القيمة وهذا اولى لان الضمير يعود الى اقرب المذكورات وههنا الاقرب
هو الساعة وما قاله ابو مسلم انما يصار اليه عند الضرورة ولا ضرورة ههنا
تنبيه المقصود من ذلك نهي موسى عليه السلام عن التكذيب بالبعث ولكن
ظاهر اللفظ يقتضي نهي من لا يؤمن عن صد موسى وفيه وجهان احدهما
ان صد الكافر عن التصديق بها سبب للتكذيب فذكر السبب ليدل به
على المسبب الثاني ان صد الكافر عن رخاوة الرجل في الدين فذكر المسبب

ليدل على السبب كقولهم لا ارينك ههنا المراد نهي المخاطب عن حضوره لا
لان يراه هو فالروية مسببة عن الحضور كما ان صد الكافر سبب عن
الرخاوة والضعف في الدين فقيل لا تكن رخوا بل كن شديدا صلبا
حتى لا يلوح منك لمن يكفر بالبعث انه يطمع في صدك عما انت عليه
واتبع هواه اي ميل نفسه عن اللذات المحسوسة المخرجة لقصر
نظره عن غيرها وخالف امر الله فتردى اي فتهلك ان انصددت عنها
وما في قوله تعالى وما تلك بيمينك مبتدا استفهامية وتلك خبره
وبيمينك حال من معنى الاشارة وقوله تعالى يا موسى تكرير لانه
ذكره قبل في قوله تعالى نودي يا موسى وبعد في موضع كالفها يا موسى
لزيادة الاستيناس والتنبيه فان قيل السوال انما يكون لطلب العلم
وهو على الله تعالى محال فما الفايدة في ذلك اجيب بان في ذلك فوايد
الاولى توقيفه على انها عصى حتى اذا قلبها حية علم انها معجزة عظيمة
وهذا على عادة العرب يقول الرجل لغيره هل تعرف هذا وهو لا يشك
انه يعرفه ويريد ان يضم اقراره بلسانه الى معرفته بقلبه الثانية
ان يقرر عنده انها خشبة حتى اذا قلبها ثعبانا لا يخافها الثالثة انه
تعالى لما اراه تلك الانوار المتصاعدة من الشجرة الى السما واسمعه كلام
نفسه ثم اورد عليه التكليف الشاق وذكر له المعاد وختم ذلك بالتهديد
العظيم فتحير موسى عليه السلام ودهش فقيل له وما تلك بيمينك
يا موسى وتكلم معه بكلام البشر ازالة لتلك الدهشة والحيرة
فان قيل هذا خطاب لموسى بلا واسطة ولم يحصل ذلك لمحمد صلى
الله عليه وسلم اجيب بالمنع فقد خاطبه بقوله تعالى فاوحى الى
عبده ما اوحى الا ان الذي ذكره مع موسى افشاه الى الخلق والذي
ذكره مع محمد صلى الله عليه وسلم كان سرا لم ياهل له احد من الخلق
وايضا ان كان معه موسى تكلم معه فامة محمد صلى الله عليه وسلم
يخاطبون الله في كل يوم مرات على ما قال صلى الله عليه وسلم المصلي
يناجي ربه والرب يتكلم مع احاد امة محمد صلى الله عليه وسلم
يوم القيمة بالتسليم والتكريم لقوله تعالى سلام قولا من رب رحيم
تنبيه قوله تعالى وما تلك بيمينك يا موسى اشارة الى العصى
وقوله تعالى بيمينك اشارة الى اليد وفي هذا نكت ذكرها
الرازي رحمه الله تعالى الاولى انه تعالى لما اشار اليهما جعل كل واحد
منهما معجزة قاهرة وبرهانا ساطعا ونقله من حد الجمادية الى مقام
الكرامة فاذا صار الجماد بالنظر الواحد حيوانا وصار الجسم الكثيف
نورانيا لطيفا ثم انه تعالى ينظر كل يوم ثلثمائة وستين مرة الى القلب

العبد فاي عجب لو انقلب قلبه من موت العصيان الى السعادة بالطاعة ونور
المعرفة ثانيها ان بالنظر الاول لو احد صار الجماد ثعبانا فلقف سحر السحرة
فاي عجب لو صار القلب ثعبانا فلقف سحر النفس الامارة بالسوء ثالثها ان
العصا كانت في يمين موسى عليه السلام فبسبب بركته انقلبت ثعبانا
وبرهانا وقلب المومن بين اصبعين من اصابع الرحمن فاذا حصلت ليد موسى
عليه السلام هذه المنزلة فاي عجب لو انقلب قلب المومن بسبب اصبعي
الرحمن من ظلمة المعصية الى نور العبودية ولما سال موسى عليه السلام
عن ذلك اجاب باربعة اشياء ثلاثة على التفصيل وواحدة على الاجمال اولاها
قال هي عصاي وقدم الجواب بذلك الا انه عليه السلام ذكر الوجوه الاخر
لانه كان يحب المكالمة مع ربه فجعل ذلك كالوسيلة الى تحصيل هذا الغرض
ثانيها قوله اتوكا عليها اذا مشيت واذا اعييت واذا وقفت على راس
القطيع وعند الطفرة ثالثها قوله واهش اي اخبط بها ورق الشجر
بها ليسقط على غنمي لتاكله فبدا عليه السلام اولا بمصالح نفسه
في قوله اتوكا عليها ثم بمصالح رعيته في قوله واهش بها على غنمي وكذلك
في القيامة يقول نفسي نفسي ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يشتغل
في الدنيا الا باصلاح امر الامة وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم اللهم اهد
قومي فانهم لا يعلمون فلا جرم يوم القيمة يبدا ايضا بامته فيقول امتي
امتي رابعها قوله ولي فيها مارب جمع مأربة بتثليث الراء حوائج ومنافع
اخرى كحمل الزاد والسقي وطرد الهوام وانما اجمل في المارب رجاء ان يساله ربه
عن تلك المارب فيسمع كلام الله تعالى مرة اخرى ويطول امر المكالمة بسبب ذلك
وقيل انقطع لسانه بالهيبة فاجمل وقيل اسم العصا نبعة وقيل في
المارب ذات شعبتين ومحجن فاذا طال الغصن جناه بالمحجن واذا طلب
كسره لواه بالشعبتين واذا سار القاها على عاتقه فعلق بها ادواته
من القوس والكنانة والحلاب واذا كان في البرية ركزها وعرض الزندين
على شعبتيها والقى عليها الكسا واستظل والزندين بفتح الزاي تثنية
زند وزندة والزند العود الاعلى الذي يقدح به النار والزندة السفلى
فيها ثقب فاذا اجتمعا قيل زندان ولم يقل زندتان واذا قصر رشاه
وصله بها وكان يقاتل بها السباع عن غنمه وقيل كان فيها من المعجزات
انه كان يستقي بها فتطول بطول البير وتصير شعبتاها دلوا ويكونان
شمعتان بالليل واذا ظهر عدو حاربت عنه واذا اشتهى ثمرة ركزها
فاورقت واثمرت وكان يحمل عليها زاده وسقاه فجعلت تماشيه ويركزها
فينبع الماء واذا رفعها نضب وكانت تقيه الهوام وروي عن ابن عباس
انها كانت تماشيه وتحدثه ولما ذكر موسى هذه الجوابات لربه

قال له الهنا اي ابذها يا موسى فالقاها فاذا هي حية تسعى اي ثعبان عظيم
تسعى اي تمشي على بطنها سريعا وهنا نكت لطيفة احدها انه عليه خفية
الصلاة والسلام لما قال ولي فيها مارب اخرى اراد الله ان يعرفه ان فيها مارب
لا يفطن لها ولا يعرفها وانها اعظم من سايرها وا ثانيها كان في رجله شيء
وهو النعل وفي يده شيء وهو العصا فالرجل آلة الهرب واليد آلة الطلب فقال
ولا اخلع نعليك اشارة الى ترك الهرب ثم قال القها وهو اشارة الى ترك ل
الطلب كانه تعالى قال انك ما دمت في مقام الهرب والطلب كنت مشتغلا
بنفسك وطالبا لحظك فلا تكن خالصا لمعرفتي فكن تاركا للهرب والطلب
لتكن خالصا لي ثالثها ان موسى عليه السلام مع علو درجته وكمال صفته
لما وصل الى الحضرة ولم يكن له الا النعلان والعصا امره بالقايهما حتى امكنه
الوصول الى الحضرة فانت في الف وقر من المعاصي فكيف يمكنك الوصول
الى جنابه فان قيل كيف قال ههنا حية وفي موضع اخر جان وهي الحية
الخفيفة الصغيرة وقال في موضع اخر ثعبان وهي اكبر ما يكون من
الحيات اجيب بان الحية اسم جنس يقع على الذكر والانثى والصغير الحية
والكبير واما الثعبان والجان فبينهما تناف لان الثعبان العظيم من الحيات
كامر والجان الرقيق وفي ذلك وجهان احدهما انها كانت وقت انقلابها
حية صغيرة دقيقة ثم تورمت وتزايد جلدها حتى صارت ثعبانا فاريد
بالجان اول حالها وبالثعبان مآلها الثاني انها كانت في شخص الثعبان
وسرعة حركة الجان فقوله تعالى فلما راها تهتز كانها جان قال وهب لما
القى العصا على وجه الارض نظر اليها فاذا هي حية تسعى صفراء اعظم
ما يكون من الحيات تمشي بسرعة لها عرف كعرف الفرس وكان بين
لحييها اربعون ذراعا صارت شعبتاها شدقين لها والمحجن عنقا
وعرفا تهتز وعيناها تتقد كالنار تمر بالصخرة العظيمة مثل الخلفة
من الابل فتلتقمها وتقصف الشجرة العظيمة بانيابها ويسمع
لانيابها صريفا عظيما فلما عاين ذلك موسى ولى مدبرا وهرب ثم نودي
يا موسى ارجع حيث كنت فرجع وهو شديد الخوف قال تعالى له
خذها اي بيمينك ولا تخف وكان على موسى مدرعة من صوف
قد خلها بعيدان فلما قال تعالى له خذها لف طرف المدرعة على يده
قال له الملك ارايت ان اذن الله بما تحاذر اكانت المدرعة تغني
عنك شيا قال لا ولكني ضعيف ومن ضعف خلقت وكشف عن يده
ثم وضعها في فم الحية فاذا هي عصا كما كانت ويده في شعبتيها في الموضع
الذي كان يضعها اذا توكا عليها كما قال تعالى سنعيدها سيرتها الاولى
وقد اظهر الله تعالى في هذه العصا معجزات لموسى عليه السلام

لما استحيا من الله تعالى ان يكشف يده وذكر بعضهم انه لما لف المدرعة على يده قال له الملك

منها انقلابه لعصا حية ومنها وضع يده في فيها من غير ضرر ومنها انقلابها
خشبة مع الامارات التي تقدمت تنبيه في نصب سيرتها اوجه
احدها ان تكون منصوبة على الظرف اي في سيرتها اي طريقتها ثانيها
على البدل من ها سنعيدها بدل اشتمال لان السيرة الصفة اي سنعيد
صفتها وشكلها ثالثها على اسقاط الخافض اي الى سيرتها وقيل غير ذلك
فان قيل لما نودي يا موسى وخص بتلك الكرامات العظيمة وعلم انه مبعوث
من عند الله تعالى الى الخلق فلماذا خاف اجيب عن ذلك باوجه احدها
ان ذلك الخوف كان من نفرة الطبع لانه عليه السلام ما شاهد مثل ذلك
قط وهذا معلوم بدلايل العقول ثانيها انما خافها لانه عليه السلام
عرف ما لقي آدم عليه السلام منها ثالثها ان مجرد قوله ولا تخف لا يدل
على حصول الخوف كقوله تعالى ولا تطع الكافرين لا يدل على وجود تلك
الطاعة لكن قوله فلما راها تهتز كانها جان ولى مدبرا يدل عليه وانما ذكر
الخوف انما ظهر ليظهر الفرق بينه وبين افضل الخلق محمد صلى الله عليه وسلم
فما اظهر الرغبة في الجنة ولا النفرة من النار وقوله تعالى واضمم يدك اي
اليمين الى جناحك اي جنبك الايسر تحت العضد في الابط تخرج
بيضاء اي نيرة مشرقة تضيء كشعاع الشمس تغشي البصر لا بد فيه
من حذف والتقدير واضمم يدك تنضم واخرجها تخرج فحذف من الاول
والثاني وابقي مقابليهما ليدل ان على ذلك ايجازا واختصارا وانما احتيج
الى هذا لانه لا يترتب على مجرد الضم الخروج وبيضاء حال من فاعل تخرج
وقوله تعالى من غير سوء متعلق بتخرج وروي عن ابن عباس الى جناحك
الى صدرك والاول كما قال الرازي اولى لانه يقال لكل ناحيتين جناحان
كناحي العسكر لطرفيه وجناحا الانسان جانباه والاصل المستعار
منه جناحا الطاير سميا بذلك لانه يجنحهما اي يميلهما عند الطيران
وجناحا الانسان عضداه فعضداه يشبهان جناحي الطاير ولانه
قال تخرج بيضاء ولو كان المراد بالجناح الصدر لم يكن لقوله تخرج
معنى والسوء الرداءة والقبح في كل شيء فكني به عن البرص كما كني
عن العورة بالسوءة والبرص ابغض شيء الى العرب ولهم عنه نفرة عظيمة
واسماعهم لاسمه مجاجة فكان جديرا بان يكنى ولا ترى احسن ولا الطف
ولا احف للمفاصل من كنايات القران وادابه روي ان موسى عليه السلام كان
شديد الادمة فكان اذا ادخل يده اليمنى في جيبه فادخلها في ابطه الايسر
واخرجها كانت تبرق مثل البرق وقيل مثل الشمس من غير مرض ثم اذا
ردها عادت الى لونها الاول من غير نور وقوله تعالى آية اخرى اي معجزة
ثانية حال من ضمير تخرج بيضاء وقوله تعالى لنريك متعلق بما دل عليه

ابن

آية اي دللنا بها لنريك وقوله تعالى من آياتنا الكبرى اي العظمى على رسالتك
متعلق بمحذوف على انه حال من الكبرى والكبرى مفعول ثان لنريك والتقدير لنريك
الكبرى حال كونها من آياتنا اي بعض آياتنا واختلف اي الآيتين اعظم في الاعجاز
فقال الحسن اليد لانه قال تعالى لنريك من آياتنا الكبرى والذي عليه الاكثر
ان العصا اعظم اذ ليس في اليد الا تغير اللون واما العصا ففيها تغير اللون
وخلق الزيادة في الجسم وخلق الحياة والقدرة والاعضاء المختلفة وابتلاع
الحجر والشجر ثم اعادتها عصا بعد ذلك فقد وقع التغير في كل هذه الامور
فكانت العصا اعظم واما قوله تعالى لنريك من آياتنا الكبرى فقد ثبت انه عايد
الى الكلام وانه غير مختص باليد فان قيل لم لم يقل تعالى من الكبرى آياتنا اجيب
بان ذلك لرؤس الاي وقيل فيه اضمار معناه لنريك من آياتنا الآية الكبرى وهذا
التقدير يقوي قول القايل بان اليد اعظم آية ولما اظهر سبحانه وتعالى لموسى هذه
الآيات عقبها بان امره بالذهاب الى فرعون بقوله تعالى اذهب اي رسولا
الى فرعون وبين تعالى العلة في ذلك بقوله تعالى انه طغى اي جاوز
الحد في كفره الى ان ادعى الالهية ولهذا خصه الله تعالى بالذكر مع انه عليه
السلام مبعوث الى الكل قال وهب قال الله لموسى عليه السلام اسمع
كلامي واحفظ وصيتي وانطلق برسالتي فانك بعيني وسمعي وان معك
يدي ونصري واني البسك جنة من سلطاني تستكمل بها القوة في
امري ابعثك الى خلق ضعيف من خلقي بطر نعمتي وامن مكري وغرته الدنيا
حتى جحد حقي وانكر ربوبيتي اقسم بعزتي لولا الحجة التي بيني وبين خلقي
لبطشت به بطشة جبار ولكن هان علي وسقط من عيني فبلغه رسالتي
وادعه الى عبادتي وحذره نقمتي وقل له قولا لينا لا يغتر بلباس الدنيا
فان ناصيته بيدي لا يطرف ولا يتنفس الا بعلمي في كلام طويل قال
فسكت موسى عليه السلام سبعة ايام لا يتكلم ثم جاءه ملك فقال اجب ربك
فيما امرك فعند ذلك قال رب اشرح لي صدري اي وسعه لتحمل الرسالة
قال ابن عباس يريد حتى لا اخاف غيرك والسبب في هذا السؤال
ما حكى الله عنه في موضع آخر ويضيق صدري ولا ينطلق لساني وذلك
ان موسى عليه السلام كان يخاف فرعون اللعين خوفا شديدا لشدة
شوكته وكثرة جنوده وكان يضيق صدرا بما كلف من مقاومة
فرعون وحده فسال الله تعالى ان يوسع قلبه حتى يعلم ان احدا لا يقدر
على مضرته الا باذن الله واذا علم ذلك لم يخف فرعون وشدة شوكته
وكثرة جنوده وقيل اشرح لي صدري بالفهم عنك ما انزلت علي
من الوحي ويسر اي سهل لي امري اي ما امرتني به من تبليغ
الرسالة الى فرعون وذلك لانهما كلما يصدر من العبد من الافعال

والاقوال والحركات والسكنات فالله تعالى هو الميسر له فان قيل قوله في اشرح لي
صدري ويسر لي امري ما جدواه والامر مستقيم بدونه اجيب بانه قد ابهم
الكلام اولا فقال اشرح لي ويسر لي فعلم ان ثم مشروحا وميسرا ثم بين ورفع
الابهام بذكرهما فكان اكد لطلب الشرح صدره والتيسير لامره من ان يقول
اشرح صدري ويسر لي فعلى الايضاح الساذج لانه تكرير للمعنى الواحد
من طريقي الاجمال والتفصيل **واحلل عقدة من لساني** قال ابن عباس كان في
لسانه عليه السلام رتة وذلك ان موسى كان في حجر فرعون ذات يوم في
صغره فلطم فرعون لطمة واخذ بلحيته فقال فرعون لاسية امراته هذا عدو
واراد ان يقتله فقالت اسية انه صبي لا يعقل ولا يميز وفي رواية ان ام موسى
لما فطمته ردته الى فرعون فنشا موسى في حجر فرعون وامراته يربيانه واتخذاه
ولدا فبينما هو ذات يوم يلعب بين يدي فرعون وبيده قضيب يلعب به
اذ رفع القضيب فضرب به راس فرعون فغضب فرعون وتطير بضربه
وهم بقتله فقالت اسية ايها الملك انه صغير لا يعقل جربه ان شئت
فجاءت بطشتين في احدهما جمر وفي الاخر جوهر فاراد ان ياخذ الجوهر
فاخذ جبريل يد موسى عليه السلام فوضعها على النار فاخذ جمرة فوضعها
في فيه فاحترق لسانه وصارت عليه عقدة وقيل قربا اليه تمرة وجمرة فاخذ
الجمرة فجعلها في فيه فاحترق لسانه ويروى ان يده احترقت وان فرعون
اجتهد في علاجها فلم تبرا ولما دعاه قال الى اي رب تدعوني قال الى الذي ابرا
يدي وقد عجزت عنها وعن بعضهم انها لم تبرا يده لئلا يدخلها مع فرعون في
قصعة واحدة فتنعقد بينهما حرمة المواكلة وقيل كانت تلك العقدة
خلقة فسال الله تعالى ازالته واختلفوا في انه لم طلب حل تلك العقدة
فقيل لئلا يقع خلل في اداء الوحي وقيل لئلا يستخف بكلامه فينفروا عنه ولا
يلتفتوا اليه وقيل لاظهار المعجزة كما ان حبس لسان زكريا عن الكلام
كان معجزا في حقه فكذا اطلاق لسان موسى معجز في حقه واختلفوا
في زوال العقدة بكمالها فقيل بقي بعضها لقوله واخي هرون هو افصح مني
لسانا وقول فرعون ولا يكاد يبين وكان في لسان الحسين بن علي رضي الله
عنهما رتة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ورثها من عمه موسى
وقال الحسن زالت بالكلية لقوله تعالى قد اوتيت سؤلك يا موسى
وضعف هذا الرازي بانه عليه السلام لم يقل واحلل العقدة من لساني
بل قال واحلل عقدة من لساني فاذا حل عقدة واحدة فقد اتاه الله سؤله
قال والحق انه انحل اكثر العقد وبقي منها شيء وقال الزمخشري وفي تنكير
العقدة وان لم يقل واحلل عقدة من لساني انه طلب حل بعضها ارادة
ان يفهم عنه فهما جيدا اي ولذا قال **يفقهوا** اي يفهموا **قولي** عنده

تبليغ الرسالة ولم يطلب الفصاحة الكاملة ومن لساني صفة للعقدة كانه قيل عقدة
من عقد لساني تنبيه استدل على ان في النطق فضيلة عظيمة بوجوه اولها
قوله تعالى خلق الانسان علمه البيان فماهية الانسان هي الحيوان الناطق ثانيها
ان اتفاق العقلاء على تعظيم امر اللسان قال زهير
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده ❊ فلم يبق الا صورة اللحم والدم ❊
وقالوا ما الانسان لولا اللسان الا بهيمة مرسلة اي لو ذهب النطق اللساني
لم يبق من الانسان الا القدر الحاصل في البهائم وقالوا المرء باصغريه قلبه
ولسانه وقالوا المرء مخبوء تحت لسانه ثالثها انه في مناظرة ادم عليه السلام
مع الملائكة ما ظهرت الفضيلة الا بالنطق حيث قال يا ادم انبئهم باسمائهم
فلما انباهم باسمائهم قال الم اقل لكم اني اعلم غيب السموات والارض
ولما راى موسى عليه السلام ان التعاون على الدين والتظاهر عليه مع مخالصة
الود وزوال التهمة قربة عظيمة في الدعاء الى الله تعالى طلب المعاونة على
ذلك بقوله **واجعل لي وزيرا** اي معينا على الرسالة ولذلك قال عيسى
ابن مريم من انصاري الى الله قال الحواريون نحن انصار الله وقال محمد
صلى الله عليه وسلم ان لي في السماء وزيرين وفي الارض وزيرين فاللذان
في السماء جبريل وميكائيل واللذان في الارض ابو بكر وعمر وقال
صلى الله عليه وسلم اذا اراد الله بملك خيرا قيض له وزيرا صالحا ان نسي
ذكره وان نوى خيرا اعانه واذا اراد شرا كفه وقال انوشروان لا يستغني
اجود السيوف عن الصقل ولا اكرم الدواب عن السوط ولا اعلم
الملوك عن الوزير ولما كان التعاون على الدين منقبة عظيمة اراد ان لا
تحصل هذه الدرجة الا لاهله فقال **من اهلي** اي اقاربي وقوله **هرون** قال الجلال المحلي مفعول ثان وقوله **اخي** عطف
بيان وهو كرغبوا اعاريب غير ذلك لا حاجة لنا بذكرها تنبيه الوزير
مشتق من الوزر لانه يحمل عن الملك اوزاره ومؤنته او من الوزر
لان الملك يعتصم برايه ويلجئ اليه اموره او من الموازرة وهي المعاونة
قال الرازي وكان هرون مخصوصا بامور منها الفصاحة لقوله موسى
هو افصح مني لسانا ومنها الرفق لقوله يا ابن ام لا تاخذ بلحيتي ولا
براسي ومنها انه كان اكبر سنا منه وقال ابن عادل كان اكبر سنا
من موسى باربع سنين وكان افصح لسانا منه واجمل واوسم ابيض اللون
وكان موسى ادم اقنى جعدا ولما طلب موسى عليه السلام من الله ان
يجعل هرون وزيرا له طلب منه ان يشد ازره بقوله **اشدد به ازري**
اي اقوي به ظهري **واشركه في امري** اي في النبوة والرسالة وقرا ابن
عامر بسكون الياء من اخي وهمزة مفتوحة من اشدد وهو على مرتبته

من المد وهمزة مضمومة من اشركه وابن كثير وابو عمرو بفتح اليا من اخي وهمزة وصل
من اشدد وفتح الهمزة واشركه بهمزة مفتوحة والباقون بسكون اليا
من اخي وهمزة وصل من اشدد وفتح الهمزة من اشركه ثم انه تعالى حكى عنه ما
لاجله دعا بهذا الدعا فقال كي نسبحك تسبيحا كثيرا قال الكلبي
نصلي لك كثيرا ونحمدك ونثني عليك والتسبيح تنزيه الله تعالى في ذاته
وصفاته عما لا يليق به ونذكرك ذكرا كثيرا اي نصفك بصفات
الكمال والجلال والكبريا وجوز ابو البقا ان يكون كثيرا نعتا لزمان محذوف
اي زمانا كثيرا انك كنت بنا بصيرا اي عالما بانا لا نريد بهذه الطاعات
الا وجهك ورضاك او بصيرا الان الاستعانة بهذين الاثنين لاجل حاجتي
في النبوة اليها او بصيرا بوجوه مصالحنا فاعطنا ما هو الاصلح لنا ولما
سال موسى عليه السلام ربه تلك الامور المتقدمة وكان من المعلوم
ان قيامه بما كلفه لا يتم الا باجابته اليها لا جرم قال الله تعالى قد اوتيت
سؤلك يا موسى اي اعطيت جميع ما سالته منا عليك لما فيه من وجوه
المصالح ولقد مننا عليك مرة اخرى اي انعمنا عليك في وقت اخر وفي
ذلك تنبيه على امور احدها كانه تعالى قال اني راعيت مصلحتك
قبل سؤالك فكيف لا اعطيك مرادك بعد السؤال ثانيها اني كنت ربيتك
فلو منعتك الان كان ذلك ردا بعد القبول واساءة بعد الاحسان فكيف
يليق بكرمي ثالثها انا اعطيناك في الازمنة السالفة كلما احتجت
اليه ورقيناك الدرجة العالية وهي منصب النبوة فكيف يليق
بمثل هذه التربية المنع عن المطلوب فان قيل لم ذكر تلك النعم بلفظ المنة
مع ان هذه اللفظة مؤذية والمقام مقام اللطف اجيب بانه انما
ذكر ذلك ليعرف موسى عليه السلام ان هذه النعم التي وصل اليها ما كان
مستحقا لشيء منها بل انما خصه الله تعالى بها لمحض الفضل والاحسان
فان قيل لم قال مرة اخرى مع انه تعالى ذكر مننا كثيرة اجيب
بانه لم يعن مرة اخرى واحدة من المنن لان ذلك قد يقال في القليل والكثير
ثم بين تلك المنة وهي ثمانية اولها قوله تعالى اذ اوحينا الى امك
وحيا لا على وجه النبوة اذ المراة لا تصلح للقضا والامامة ولا تمكن عند
اكثر العلماء من تزويج نفسها فكيف تصلح للنبوة ويدل على ذلك قوله تعالى
وما ارسلنا قبلك الا رجالا نوحي اليهم والوحي جا لا بمعنى النبوة في القران
كثيرا في قوله تعالى واوحى ربك الى النحل واذ اوحيت الى الحواريين
ثم اختلفوا بالمراد في هذا الوحي على وجوه احدها انه رؤيا راتها ام موسى
وكان تاويلها وضع موسى في التابوت وقذفه في البحر وان الله تعالى
يرده عليها ثانيها انه عزيمة جازمة وقعت في قلبها دفعة واحدة ثالثها

المراد

المراد خطور البال وغلبته على القلب فان قيل هذه الوجوه الثلاثة يعترض
عليها بان الالقا في البحر قريب من الاهلاك وهو مساو للخوف الحاصل
من القتل المعتاد من فرعون فكيف يجوز الاقدام على احدهما لاجل الصيانة
عن الثاني اجيب بانها لعلها عرفت بالاستقرا صدق رؤياها فكان الالقا
في البحر الى السلامة اغلب على ظنها من وقوع الولد في يد فرعون رابعها لعله
وحي الى بعض الانبيا في ذلك الزمان كشعيب عليه السلام او غيره ثم ان ذلك
النبي عرفها اما مشافهة او مراسلة واعترض على هذا لو ان الامر كان كذلك
لما لحقها الخوف واجيب بان ذلك الخوف كان من لوازم البشرية كما ان موسى
عليه السلام كان يخاف فرعون مع ان الله تعالى كان امره بالذهاب اليه مرارا
خامسها لعل بعض الانبيا المتقدمين كابراهيم واسمعيل واسحاق عليهم
السلام اخبروا بذلك الخبر وانتهى ذلك الخبر الى امه سادسها لعل الله
تعالى بعث اليها ملكا لا على وجه النبوة كما بعث الى مريم في قوله فتمثل لها
بشرا سويا واما قوله تعالى ما يوحى فمعناه ما لا يعلم الا بالوحي او مما
ينبغي ان يوحى ولا يخل به لعظم شانه وفرط الاهتمام ويبدل منه ان
اقذفيه اي القيه في التابوت اي الهمناها ان اجعليه في التابوت
فاقذفيه اي موسى بالتابوت في اليم اي نهر النيل فليلقه
اليم بالساحل اي شاطئه والامر بمعنى الخبر والضماير كلها لموسى فالمقذوف
في البحر والملقى الى الساحل هو موسى في جوف التابوت حتى لا تفرق
الضماير فيتنافر النظم الذي هو ام اعجاز القران والتابوت الذي وقع عليه
التحدي ومراعاته اهم ما يجب عليه اليم البحر والمراد به هنا نيل مصر
في قول الجميع واليم اسم يقع على النهر والبحر العظيم قال الكسائي والساحل
فاعل بمعنى مفعول سمي بذلك لان الما يسحله اي يقشره وقوله تعالى
ياخذه عدو لي وعدو له اي فرعون جواب فليلقه وتكرير عدو للمبالغة
او لان الاول باعتبار الواقع المتوقع اي سيصير عدوا له بعد ذلك فانه
لم يكن في ذلك الوقت بحيث يعادي روي انها اتخذت تابوتا قال مقاتل
ان الذي صنع التابوت حزقيل مؤمن ال فرعون وجعلت في التابوت قطنا
محلوجا فوضعته فيه وجصصته وقيرته ثم القته في اليم وكان يشرع
منه الى بستان فرعون نهر كبير فبينما هو جالس على راس بركة مع اسية
بنت مزاحم اذا بتابوت يجي به الما فامر فرعون الغلمان والجواري باخراجه
فاخرجوه وفتحوا راسه فاذا صبي اصبح الناس وجها فاحبه عدو الله حبا
شديدا لا يتمالك ان يصبر عنه كما قال تعالى والقيت عليك محبة مني وهذه
هي المنة الثانية قال الزمخشري مني لا يخلو اما ان تتعلق بالقيت
فيكون المعنى على اني احببتك ومن احبه الله احبته القلوب واما ان

لقا



يتعلق بمحذوف صفة لمحبة اي محبة خالصة او واقعة مني فقد ركزتها في
القلوب وزرعتها فيها فلذلك احبك فرعون واسية حتى قالت قرة عين لي
ولك لا تقتلوه روي انه كان على وجهه مسحة جمال وفي عينه ملاحة لا يكاد
يصبر عنه من يراه وهو كقوله تعالى سيجعل لهم الرحمن ودا المنة الثالثة قوله
تعالى ولتصنع على عيني اي تربى على رعايتي وحفظي لك فانا مراعيك
ومراقبك كما يراعي الرجل الشيء بعينه اذا اعتنى به ويقول الصانع اصنع
هذا على عيني انظر اليك لئلا تخالف عن مرادي وبغيتي سببه هو
ولتصنع معطوف على علة مضمرة مثل ليتلطف بك ولتصنع او على
الجملة السابقة باضمار فعل معلل مثل فعلت ذلك وقرا بفتح الياء
نافع وابن كثير وابو عمرو وسكنها الباقون المنة الرابعة قوله تعالى اذ تمشي
اختك والعامل في اذ القيت او لتصنع ويجوز ان يكون بدلا من اذ
اوحينا واستشكل بان الوقتين مختلفان متباعدان واجيب بانه
يصح مع اتساع الوقت كما يصح ان يقول لك الرجل لقيت فلانا سنة
كذا فتقول وانا لقيته اذ ذاك وربما لقيته هو في اولها وانت في
اخرها فتقول هل ادلكم على من يكفله يروى انه اخته واسمها مريم
جاءت متعرفة خبره فصادفتهم يطلبون له مرضعة يقبل ثديها وذلك
انه كان لا يقبل ثدي امراة فقالت لهم ذلك فقالوا نعم فجاءت بالام
فقبل ثديها فذلك قوله تعالى فرجعناك الى امك كي تقر عينها بلقائك
ورويتك ولا تحزن اي هي لفراقك او انت بفراقها وفقد اشفاقها
ويروى ان اسية استوهبته من فرعون وتبنته وهي التي اشفقت
عليه وطلبت له المراضع المنة الخامسة قوله تعالى وقتلت نفسا
قال ابن عباس هو الرجل القبطي الذي قتله خطا بان وكزه حيث
استغاثه الاسرائيلي اليه قال الكسائي كان عمره اذ ذاك اثني عشر
سنة فنجيناك من الغم اي من غم قتله خوفا من اقتصاص فرعون
كما قال تعالى فاصبح في المدينة خائفا يترقب بالمهاجرة الى مدين
المنة السادسة قوله تعالى وفتناك فتونا قال ابن عباس خبرناك
اختبارا وقيل ابتليناك ابتلاء قال ابن عباس الفتون وقوعه
في محنة بعد محنة وخلصه الله تعالى اولها ان امه حملته في السنة
التي كان فرعون يذبح فيها الاطفال ثم القاؤه في البحر في التابوت
ثم منعه الرضاع الا من ثدي امه ثم اخذه بلحية فرعون حتى هم بقتله
ثم تناوله الجمرة بدل الجوهرة ثم قتله القبطي وخروجه الى مدين
خائفا فان قيل انه تعالى عدد انواع منته على موسى في هذا المقام
فكيف يليق بهذا الموضع وفتناك فتونا اجيب بجوابين الاول

فتناك

فتناك اي خلصناك تخليصا من قولك فتنت الذهب اذا اردت تخليصه من
الفضة او نحوها الثاني ان الفتنة تشديد المحنة يقال فتن فلان عن دينه اذا
اشتدت عليه المحنة حتى رجع عن دينه قال تعالى فاذا اوذي في الله جعل
فتنة الناس كعذاب الله وقال تعالى الم احسب الناس ان يتركوا ان يقولوا امنا
وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا
وليعلمن الكاذبين ولما كان التشديد في المحنة يوجب كثرة الثواب عده
الله تعالى من جملة النعم وتقدم تفسير ابن عباس وهو قريب من ذلك فان
قيل هل يصح اطلاق الفتان على الله تعالى اشتقاقا من قوله تعالى وفتناك
فتونا اجيب بانه لا يصح لانه صفة ذم في العرف واسماء الله توقيفية
لا سيما وقد يوهم المنة قوله تعالى فلبثت سنين في اهل مدين والتقدير وفتناك
فخرجت خائفا الى اهل مدين فلبثت سنين فيهم عند شعيب عليه
السلام وتزوجت بابنته وهي اما عشر او ثمان لقوله تعالى على ان تاجرني
ثماني حجج فان اتممت عشرا فمن عندك وقال وهب لبث موسى عند
شعيب عليه السلام ثمانية وعشرين سنة منها عشر سنين مهر
امراته فانه قضى اوفى الاجلين والاية دالة على انه لبث عشر سنين
وليس فيها ما ينفي الزيادة على العشر كما قاله الرازي وان قال ابن عادل
يرده قوله تعالى فلما قضى موسى الاجل اي الاجل المشروط عليه في تزويجه
وسار باهله ومدين بلدة شعيب على ثمان مراحل من مصر ثم جئت على قدر
اي على القدر الذي قدرت انك تجيء فيه لان اكلمك واستنبئك غير مستقدم
وقته المعين ولا مستاخر وقال عبد الرحمن بن كيسان على راس اربعين
سنة وهو القدر الذي يوحى فيه للانبياء وهذا قول اكثر المفسرين اي
على الموعد الذي وعده الله وقدر انه يوحي اليه بالرسالة وهو اربعون سنة
وكرر قوله تعالى يا موسى عقب ما هو غاية الحكاية للتنبيه على ذلك المنة
الثامنة قوله تعالى واصطنعتك اي اخترتك لنفسي لاصرفك في اوامري
لئلا تشتغل الا بما امرتك به وهو اقامة حجتي وتبليغ رسالتي وان تكون
في حركاتك وسكناتك لي لا لنفسك ولا لغيرك ثم بين تعالى ما لاجله اصطنعه
معه وهو الابلاغ والاداء بقوله تعالى اذهب انت واخوك باياتي اي
بمعجزاتي وقال ابن عباس الايات التسع التي بعث بها موسى وقيل انها
العصا واليد لانهما اللتان جرى ذكرهما في هذا الموضع ولم يذكر انه عليه السلام
اوتي قبل مجيئه الى فرعون ولا بعد مجيئه حتى لقي فرعون فالتمس منه اية
غير هاتين الايتين قال تعالى حكاية عن فرعون قال ان كنت جئت باية
فات بها ان كنت من الصادقين فالقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين ونزع
يده فاذا هي بيضاء للناظرين وقال تعالى فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملئه

فان قيل كيف اطلق لفظ الجمع على الاثنين اجيب بان العصى كانت ايات انقلاب
حيوانا ثم انها في اول الامر كانت صغيرة لقوله تعالى تهتز كانها جان ثم كانت تعظم
وهذه اية اخرى ثم كانت تصير ثعبانا وهذه اية اخرى ثم كان عليه السلام يدخل
يده في فمها فما كانت تضره وهذه اية اخرى ثم كانت تنقلب خشبا اية اخرى
وكذلك اليد فان بياضها اية وشعاعها اية اخرى ثم زوالها بعد ذلك اية اخرى
فدل ذلك على انها كانت ايات كثيرة وقيل الايات العصى واليد وحل عقدة
لسانه وقيل معناه امدكما باياتي واظهر على ايديكما من الايات
ما تنزاح به العلل من فرعون وقومه **ولا تنيا** لا تفترا ولا تقصرا **في ذكري**
اي بتسبيح وغيره فان من ذكر جلال الله استحقر غيره فلا يخاف احدا وتقوى
روحه بذلك الذكر فلا تضعف في مقصوده ومن ذكر الله لا بد وان يكون
ذاكرا احسانه وذاكر احسانه لا يفتر في اداء اوامره وقيل لا تنيا في ذكري
عند فرعون بان تذكرا لفرعون وقومه ان الله لا يرضى منهم الكفر وتذكرا لهم
من الثواب والعقاب والترغيب والترهيب وقيل المراد بالذكر تبليغ الرسالة
اذهبا الى فرعون انه طغى اي بادعاء الربوبية تنبيه ذكر الله تعالى
المذهوب اليه هنا وهو فرعون وحذفه في قوله اذهب انت واخوك باياتي يحتمل
ان كل واحد منهما مامورا بالذهاب على الانفراد فقيل مرة اخرى اذهبا ليعرفا
ان المراد منه ان يشتغلا بذلك جميعا لا ان ينفرد به احدهما دون الاخر والثاني
ان قوله اذهب انت واخوك باياتي امر بالذهاب الى كل الناس من بني اسرائيل
وقوم فرعون ثم قوله تعالى اذهبا الى فرعون امر بالذهاب الى فرعون وحده واستبعد
هذا بل الذهابان متوجهان لشيء واحد وقد حذف من كل من الذهابين
ما اثبته في الاخر وقيل انه حذف المذهوب اليه من الاول واثبته في الثاني
وحذف المذهوب وهو باياتي من الثاني واثبته في الاول **فقولا له قولا لينا**
اي مثل هل لك الى ان تزكى واهديك الى ربك فتخشى فانه دعوة في صورة
عرض ومشورة فان قيل لم امر الله تعالى باللين مع الكافر الجاحد اجيب
بان من دعاء الجبار اذا غلظ عليه في الوعظ يزداد عتوا وتكبرا فامر باللين
حذرا من ان تحمله الحماقة فيسطوا عليهما واحتراما لما له من حق التربية وقيل
كنياه وكان له ثلاث كنى ابو العباس وابو الوليد وابو مرة وقيل وعداه شبابا
لا هرم بعده وملكا لا يزول الا بالموت وان تبقى لذة المطعم والمشرب والمنكح
الى حين موته واذا مات دخل الجنة فاعجبه ذلك وكان لا يقطع امرا دون
هامان وكان غائبا فلما قدم اخبره بالذي دعاه موسى وقال اردت ان
اقبل منه فقال له هامان كنت ارى ان لك عقلا ورايا انت رب تريد ان
تكون مربوبا وانت تعبد تريد ان تعبد فقلبه عن رايه وقوله تعالى
لعله يتذكر او يخشى متعلق باذهبا وقولا اي باشرا الامر

على رجاكما

على رجاكما وطمعكما مباشرة من يرجو ويطمع ان يثمر عمله ولا يخيب سعيه فهو يجتهد
بطوقه ويسعى باقصى وسعه قال الزمخشري ولا يستقيم ان يرد ذلك في حق
الله تعالى اذ هو عالم بعواقب الامور وعن سيبويه كلما ورد في القران من لعل وعسى
فهو من الله واجب بمعنى انه يستحيل بقاء معناه في حق الله تعالى وقال الفراء
ان لعل بمعنى كي فتفيد العلية كما تقول اعمل لعلك تاخذ اجرتك
فائدة قرا رجل عند يحيى بن معاذ فقولا له قولا لينا فبكى يحيى وقال
الهي هذا برك بمن يقول انا الاله فكيف برك بمن يقول انت الله فان قيل (الاله)
ما الفائدة في ارسالهما والمبالغة عليهما في الاجتهاد مع علمه تعالى بانه لا يؤمن
اجيب بان ذلك لالزام الحجة وقطع المعذرة واظهار ما حدث في تضاعيف
ذلك من الايات والتذكر للمتحقق والخشية للمتوهم ولذلك قدم الاول
وروي عن كعب انه قال والذي يحلف به كعب انه لمكتوب في التوراة فقولا له
قولا لينا وساقسي قلبه فلا يؤمن ولقد تذكر فرعون وخشي حين لم تنفعه
الذكرى والخشية وذلك حين الجمه الغرق قال امنت انه لا اله الا الذي
امنت به بنو اسرائيل وانا من المسلمين ثم ان موسى وهرون **قالا ربنا
اننا نخاف ان يفرط** اي يعجل **علينا** بالعقوبة **او ان يطغى** اي يجاوز
الحد في الاساءة علينا فان قيل لم تكرر الامر من الله تعالى بالذهاب فعدم الذهاب (ب)
والتعليل بالخوف فهل يدل على معصية اجيب بان الامر ليس على الفور
فسقط السوال وهذا من اقوى الدلائل على ان الامر لا يقتضي الفور فان
قيل قوله تعالى قالا ربنا يدل على ان المتكلم موسى وهارون ولم يكن هارون
هناك حاضرا اجيب بان الكلام كان مع موسى الا انه كان متبوع هارون
فجعل الخطاب معه خطابا مع هرون وكلام هرون على سبيل التقدير
في تلك الحالة وان كان موسى وحده الا انه تعالى اضافه اليهما كما في قوله تعالى
واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها وقوله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز
منها الاذل روي ان القائل عبد الله بن ابي وحده فان قيل ان موسى عليه
السلام قال رب اشرح لي صدري فاجابه الله تعالى بقوله قد اوتيت
سولك يا موسى وهذا يدل على انه قد شرح صدره ويسر له ذلك الامر
اجيب بان شرح الصدر عبارة عن تقويته على ضبط تلك الاوامر
والنواهي وحفظ تلك الشرائع على وجه لا يتطرق اليها السهو والتحريف
وذلك شيء اخر غير الخوف **قال** الله تعالى لهما **لا تخافا انني معكما** حافظكما
وناصركما **اسمع وارى** اي ما يجري بينكما وبينه من قول وفعل فافعل
ما يوجبه حفظي ونصرتي قال ابن عباس اسمع دعاكما فاجيبه وارى ما يراد
بكما فامنع فلست بغافل عنكما فلا تهتما وقال القفال قوله تعالى
اسمع وارى يحتمل ان يكون مقابلا لقوله تعالى يفرط علينا او ان يطغى يفرط

علينا بان لا يسمع منا او ان يطغى بان يقتلنا قال تعالى اني معكما اسمع كلامكما فاتحفر
للاستماع منكما واري افعاله فلا اتركه حتى يفعل بكما ما تكرهانه ثم انه سبحانه
وتعالى اعاد ذلك التكليف فقال **فاتياه** لانه سبحانه وتعالى قال في المرة
الاولى اذهبا الى فرعون وفي الثانية قال اذهب انت واخوك وفي الثالثة
قال اذهب الى فرعون وفي الرابعة قال ههنا فاتياه فان قيل ان الله تعالى
امرهما في الثانية بان يقولا له قولا لينا وههنا امرهما بقوله تعالى **فقولا انا رسولا
ربك فارسل معنا بني اسرائيل** اي الى الشام **ولا تعذبهم** اي خل عنهم
من استعمالك اياهم في اشغالك الشاقة كالحفر والبنا وحمل الثقل وقطع
الصخور وكان فرعون يستعظم في ذلك مع قتل الاولاد وفي هذا تغليظ من وجوه
الاول قوله انا رسولا ربك وهذا يقتضي انقياده لهما والتزامه لطاعتهما
وذلك يعظم على الملك المتبوع الثاني قولهما فارسل معنا بني اسرائيل فيه ادخال
النقص على ملكه لانه كان محتاجا اليهم فيما يريده من الاعمال ايضا الثالث
قولهما ولا تعذبهم الرابع قولهما **قد جئناك باية من ربك** فما الفائدة
في التليين اولا وفي التغليظ ثانيا اجيب بان الانسان اذا ظهر لجاجه
فلا بد من التغليظ حيث لم ينفع التليين فان قيل اليس الاولى ان
يقول انا رسولا ربك قد جئناك باية فارسل معنا بني اسرائيل ولا تعذبهم
لان ذكر المعجز مقرونا بادعا الرسالة اولى من تاخيره عنه اجيب بان هذا
اولى لانهما ذكرا مجموع الدعاوي ثم استدلا على ذلك المجموع بالمعجز وقولهما
قد جئناك باية من ربك قال الزمخشري هذه الجملة جارية من الجملة
الاولى وهي انا رسولا ربك مجرى البيان والتفسير لان دعوى الرسالة لا تثبت
الا ببينتها التي هي مجي الاية فان قيل ان الله تعالى قد اعطاهما ايتين هما العصا
واليد ثم قال تعالى اذهب انت واخوك باياتي وذلك يدل على الثلاث ايات
وقال هنا جئناك باية وذلك يدل على انها كانت واحدة اجيب بانها كثيرة وتقدم
الجواب عن التثنية والجمع وان في العصا واليد ايات وقوله تعالى **والسلام
على من اتبع الهدى** يحتمل ان يكون من كلام الله تعالى كانه تعالى قال فقولا
انا رسولا ربك وقولا والسلام على من اتبع الهدى ويحتمل ان يكون كلام الله
قد تم عند قوله قد جئناك باية من ربك وقوله تعالى بعد ذلك والسلام على
من اتبع الهدى وعد من قبلهما من امن وصدق بالسلامة له من عقوبات الله في
الدنيا والاخرة وان سلام الملائكة وخزنة الجنة على المهتدين وقال بعضهم
ان على بمعنى اللام اي السلام لمن اتبع الهدى كقوله تعالى من عمل صالحا فلنفسه ومن
اسا فعليها وقال تعالى في موضع اخر ان احسنتم احسنتم لانفسكم وان
اساتم فلها **انا قد اوحي الينا ان العذاب على من كذب** ما جئنا به **وتولى** اعرض عنه
قال البيضاوي ولعل تغيير النظم والتصريح بالوعيد والتوكيد فيه

لان

لان التهديد في اول الامر اهم وانجع وبالواقع اليق ولما اتياه وقالا انا رسولا ربك
وبلغاه ما امرا به **قال فمن ربكما يا موسى** انما نادى موسى وحده بعد مخاطبته
لهما معا اما لان موسى هو الاصل في الرسالة وهرون تبع له وردء ووزير واما لان
فرعون كان لخبثه يعلم الرتة التي كانت في لسان موسى ويعلم فصاحة اخيه
بدليل قوله هو افصح مني لسانا فاراد ان يفحمه ويدل عليه قول فرعون ولا يكاد
يبين واما لانه حذف المعطوف للعلم اي يا موسى وهرون قاله ابو البقاء ان فرعون
لم يشتغل مع موسى بالبطش والايذا لما دعاه الى الله تعالى مع انه كان شديد
القوة عظيم الغلبة كثير العسكر بل خرج معه في المناظرة لانه لو اذاه لنسب
الى الجهل والسفاهة فاستنكف من ذلك وشرع في المناظرة وذلك يدل
على ان السفاهة من غير حجة لم يرضه فرعون مع كمال جهله وكفره فكيف يليق
ذلك بمن يدعي الاسلام والعلم خيبه قال ههنا فمن ربكما يا موسى وقال
في سورة الشعرا وما رب العالمين وهو سؤال عن الماهية فهما سؤالان مختلفان
والواقعة واحدة قال ابن عادل والاقرب ان يقال سؤال من كان مقدما
على سؤال ما لانه كان يقول اني انا الله والرب فقال فمن ربكما فلما اقام موسى الدلالة
على الوجود وعرف انه لا يمكنه ان يقاومه في هذا المقام لظهوره وجلاله عدل
الى طلب الماهية لان العلم بماهية الله تعالى غير حاصل للبشر فان قيل لم
قال فمن ربكما ولم يقل فمن الهكما اجيب بانه اثبت نفسه ربا في قوله
الم نربك فينا وليدا فذكر ذلك على سبيل التعجب كانه قال انا ربك فلم تدعي ربا
اخر وهذا يشبه كلام نمروذ حيث قال له ابراهيم ربي الذي يحيي ويميت
قال له نمروذ انا احيي واميت ولم يكن الاماتة التي ذكرها ابراهيم هي
الاماتة مع الاحيا التي عارضه نمروذ بها في اللفظ فكذا ههنا لما ادعى موسى
ربوبية الله تعالى ذكر فرعون هذا الكلام انا الرب الذي ربيتك ومعلوم
ان الربوبية التي ادعاها موسى عليه السلام غير الربوبية في المعنى وانه
لا مشاركة بينهما كانه قيل فما اجاب به موسى فقال **قال** مستدلا
على اثبات الصانع باحوال المخلوقات **ربنا الذي اعطى كل شيء** اي من الانواع
خلقه اي صورته وشكله الذي يطابق المنفعة المنوطة به كما اعطى العين
الهيئة التي تطابق الابصار والاذن الشكل الذي يوافق الاستماع وكذلك
الات اليد والرجل واللسان كل واحد منها مطابق لما علق به من المنفعة
غير ناب اي غير متقيد عنه واعطى كل حيوان نظيره في الخلق والصورة حيث جعل
الحصان والحجرة زوجين والبعير والناقة كذلك والرجل والمراة كذلك فلم يزاوج
منهما شي غير جنسه وما هو على خلاف في خلقه **ثم هدى** اي عرف الله تعالى
الخلق الحيوان الكاين من المخلوق كيف يرتفق بما اعطى وكيف يتوصل
اليه قال الزمخشري ولله در هذا الجواب ما اخصره وما اجمعه

وتامله بعينه لمن القى الذهن ونظر بعين الانصاف وكان طالبا للحق ولما خاف فرعون ان يزيد موسى في اظهار تلك الحجة فيظهر للناس صدقه قال لموسى فما بال اي حال القرون الامم الاولى كقوم نوح وهود ولوط وصالح في عبادتهم الاوثان وانها كانت تعبد الاوثان وتنكر البعث فمن شقي منهم ومن سعد اراد ان يصرفه عن ذلك الكلام ويشغله بهذه الحكايات فلم يلتفت اليه فلذلك قال علمها عند ربي استاثر به لا يعلمه الا هو وما انا الا عبد مثلكم لا اعلم منه الا ما اخبرني به علام الغيوب وعلم احوال هذه القرون مثبت عند ربي في كتاب هو اللوح المحفوظ ويجوز ذلك ان يكون تمثيلا لتمكنه في علمه تعالى بما استحفظه العالم وقيده بالكتبة ويؤيده قوله لا يضل ربي ولا ينسى والضلال ان يخطئ الشيء في مكانه فلم يهتد اليه والنسيان ان يذهب عنه بحيث لا يخطر بباله وهما محالان على علام الغيوب ولا ينبغي لهما بخلاف العبد الذليل والبشر الضئيل اي لا يضل تعالى ولا ينسى كما تضل انت وتنسى يا مدعي الربوبية بالجهل والوقاحة ثم عاد الى تتميم كلامه الاول وابراز الدلائل الظاهرة على الوحدانية فقال الذي جعل لكم في جملة الخلق الارض مهدا اي فراشا تنبيه هذا الموصول في محل رفع صفة لربي وخبره محذوف تقديره هو او منصوب على المدح وقرا عاصم وحمزة هنا وفي سورة الزخرف مهدا بفتح الميم مهد الصبي وقرا الباقون بكسر الميم وفتح الهاء والف بعدها وهو اسم ما يمهد كالفراش او جمع مهد وسلك لكم اي سهل لكم فيها سبلا اي طرقا بين البراري والجبال والاودية تسلكونها من ارض الى ارض لتبلغوا منافعها وانزل من السماء ماء اي مطرا وعدل بقوله فاخرجنا به عن لفظ الغيبة الى صيغة التكلم على الحكاية لكلام الله تعالى تنبيها على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال قدرته وحكمته وايذانا بانه مطاع تنقاد الاشياء المختلفة لمشيئته وعلى هذا نظائره كقوله تعالى الم تر ان الله انزل من السماء ماء فاخرجنا به ثمرات مختلفا الوانها امن خلق السموات والارض وانزل لكم من السماء ماء فانبتنا به حدائق فاخرجنا به اي اصنافا سميت بذلك لانها مزدوجة مقترنة بعضها مع بعض وقوله تعالى ازواجا بيان وصفة لازواجا وكذلك شتى وهو جمع شتيت من شت الامر تفرق نحو مرضى جمع مريض وجرحى جمع جريح والفه للتانيث اي ازواجا متفرقة ويجوز ان يكون صفة للنبات فانه من حيث انه مصدر في الاصل يستوي فيه الواحد والجمع اي انها مختلفة النفع والطعم واللون والرائحة والشكل بعضها يصلح للناس وبعضها للبهائم فلذلك قال تعالى كلوا وارعوا انعامكم والانعام جمع نعم وهي الابل والبقر والغنم يقال رعت الانعام ورعيتها والامر للاباحة وتذكير النعمة حال من ضمير اخرجنا اي مبيحين لكم الاكل ورعي

اي اصنافا فاسميت بذلك لانها مزدوجة مقترنة بعضها مع بعض وقوله من نبات



الانعام اي وبقية الحيوان ان في ذلك اي فيما ذكرت من هذه النعم لآيات اي لعبر لاولي النهى اي اصحاب العقول جمع نهية كغرفة وغرف سمي به العقل لانه ينهى صاحبه عن ارتكاب القبائح ولما ذكر سبحانه وتعالى منافع الارض والسماء بين انها غير مطلوبة لكونها وسائل الى المنافع الاخروية فقال منها اي الارض خلقناكم فان قيل انما خلقنا من النطفة على ما بين في سائر الايات اجيب باوجه احدها انه لما خلق اصلنا ادم عليه السلام من تراب كما قال تعالى كمثل ادم خلقه من تراب حسن اطلاق ذلك علينا ثانيها ان تولد الانسان انما هو من النطفة ودم الطمث وهما متولدان من الاغذية والغذا اما حيواني او نباتي والحيواني ينتهي الى النبات والنبات انما يحدث من امتزاج الماء والتراب فصح انه تعالى خلقنا منها وذلك لانا في كوننا تخلقنا من النطفة ثالثها ما روى ابن مسعود ان ملك الارحام ياتي الى الرحم حين يكتب اجل المولود ورزقه والارض التي يدفن فيها فانه ياخذ من تراب تلك البقعة ويذره على النطفة ثم يدخلها في الرحم واخرج ابن المنذر عن عطاء الخراساني قال ان الملك ينطلق فياخذ من تراب المكان الذي يدفن فيه فيذره على النطفة فيخلق من التراب ومن النطفة وفيها نعيدكم اي مقبورين بعد الموت ومنها نخرجكم اي عند البعث تارة اي مرة اخرى اي بتاليف اجزائكم المفتتة المختلطة بالتراب ونردكم كما كانوا احياء ونخرجهم الى المحشر يوم يخرجون من الاجداث سراعا ولما كان المقام لتعظيم القدرة عطف عليه قوله تعالى ولقد اريناه اي ابصرناه اياتنا كلها اي التسع المختصة عليه السلام وهي العصا واليد وفلق البحر والحجر والجراد والقمل والضفادع والدم ونتق الجبل فكذب بها وزعم انها سحر وابى ان يسلم فان قيل قوله تعالى كلها تفيد العموم والله تعالى ما اراه جميع الايات وان من جملة الايات ما اظهرها على ايدي الانبياء قبل موسى عليه السلام وبعده اجيب بان لفظ الكل وان كان للعموم قد يستعمل في الخصوص مع القرينة كما يقال دخلت السوق فاشتريت كل شيء او يقال ان موسى عليه السلام اراه اياته وعدد عليه ايات غيره من الانبياء فكذب فرعون بالكل او يقال تكذيب بعض المعجزات يقتضي تكذيب الكل فحكى الله سبحانه وتعالى ذلك على الوجه الذي يلزم ثم كانه قيل كيف صنع في تكذيبه وابائه فقيل قال حين علم حقيقة ما جاء به موسى وظهوره وخاف ان يتبعه الناس ويتركوه في نفسه وهما عظيما اجئتنا لتخرجنا من ارضنا اي الارض التي نحن مالكوها وتكون لك الملك فيها فصارت فرائصه ترعد خوفا مما جاء به موسى لعلمه وايقانه انه على الحق وان المحق لو اراد قود الجبال لانقادت له وان مثله لا يخذل ولا يذل ناصره وانه غالبه على ملكه لا محالة ثم خيل لاتباعه ان ذلك سحر بقوله بسحرك يا موسى فكان ذلك من البيان مع ما اتقوه من عادتهم

في الضلال صارفا لهم عن اتباع ما رأوه ثم اظهر لهم انه يعارضه بمثل ما اتى به بقوله
فلنأتينك بسحر مثله اي مثل سحرك يعارضه فاجعل بيننا وبينك موعدا اي
من الزمان والمكان لا نخلفه اي لا نجعله خلفنا نحن ولا انت اي لا نجاوزه ولما كان
كل من الزمان والمكان لا ينفك عن الاخر قال مكانا واثر ذلك المكان لاجل وصفه
بقوله سوى اي عدلا وقال ابن عباس نصفا تستوي مسافة الفريقين
اليه فانظر الى هذا الكلام الذي زوقه ونمقه وصنعه بما وقف قومه به
عن السعادة واستمر يقودهم بعناده حتى اوردهم البحر فاغرقهم ثم في غمرات الموت
احرقهم وقيل معنى سوى اي يستوي هذا المكان وقرأ شعبة وابن عامر وحمزة
والكسائي بضم السين والباقون بكسرها وامال شعبة وحمزة والكسائي في الوقف
محضة والباقون بالفتح وقيل المراد بالموعد الوعد لان الاخلاف لا يلائم
الزمان والمكان اي بل الوعد الذي يصح وصفه بالخلف وعدمه والى هذا
نحا جماعة مختارين له ورد عليهم قال موعدكم يوم الزينة فانه لا يطابقه
تنبيه يحتمل ان قوله قال موعدكم يوم الزينة ان يكون من قول فرعون
فبين الوقت وان يكون من قول موسى عليه السلام وهذا اظهر كما قال الرازي
لوجوه الاول انه جواب لقول فرعون فاجعل بيننا وبينك موعدا الثاني
وهو ان تعيين يوم الزينة يقتضي اطلاع الكل على ما سيقع فتعيينه بالمحق
الذي يعرف ان اليد له لا المبطل الذي يعرف انه ليس معه الا التلبيس ثالثها
ان قوله موعدكم خطاب للجمع فلو جعلناه من فرعون لموسى وهرون لزم ان
نحمله على التعظيم او ان اقل الجمع اثنان فالاول لا يليق بحال فرعون معهما
والثاني غير جائز فاذا جعلناه من موسى عليه السلام استقام الكلام واختلف
في يوم الزينة فقال مجاهد وقتادة النيروز وقال ابن عباس وسعيد بن جبير
هو يوم عاشوراء وقيل كان يوم عيد لهم يتزينون فيه ويجتمعون في كل سنة
وقيل يوم كانوا يتخذون فيه سوقا ويتزينون ذلك اليوم وبني قوله
وان يحشر للمفعول لان القصد الجمع لا كونه من معين الناس ضحى اي يجمعوا
اي وقت الضحوة فيكون اظهر لما يعمل واجلى لا يأتي الليل الا وقد قضي
الامر وعرف المحق من المبطل ويكثر التحدث بذلك في كل بدو وحضر ويشيع
في اهل الوبر والمدر فتولى اي اعرض فرعون عن موسى الى تهيئة ما يريد
من الكيد بعد توليه عن الانقياد لامر الله تعالى فجمع كيده اي مكره
وحيله وخداعه الذي دبره على موسى عليه السلام بجمع من يحصل بهم الكيد
وهم السحرة حشرهم من كل فج وكان اهل مصر اسحر اهل الارض واكثرهم سحرا
وكانوا في ذلك الزمان اشد اعتناء بالسحر واماهر ما كانوا واكثر ثم اتى للميعاد
الذي وقع القرار عليه بمن حشره من السحرة والجنود ومن تبعهم من الناس
مع توفر الدواعي على الاتيان للعيد والنظر الى تلك المغالبة التي لم يكن مثلها

ولما

ولما تشوف السامع الى ما كان من موسى عليه السلام عند ذلك استأنف تعالى
الخبر عنه بقوله تعالى قال لهم موسى اي لاهل الكيد والعناد وهم السحرة وغيرهم
موسى حين راى اجتماعهم ناصحا لهم ويلكم يا ايها الناس الذي خلقكم هم
الله تعالى لعبادته لا تفتروا اي لا تتعمدوا على الله كذبا باشراك احد معه ●
فيسحتكم قال مقاتل يهلككم وقال قتادة يستأصلكم بعذاب
من عنده وقرأ حفص وحمزة والكسائي بضم الياء وكسر الحاء من الاسحات وهو
لغة نجد وتميم والباقون بفتحهما والسحت لغة الحجاز وقد خاب من افترى كما خاب
فرعون وانه افترى واحتال ليبقى عليه الملك فيقع فلم ينفعه فتنازعوا
اي تجاذب السحرة امرهم بينهم لما سمعوا هذا الكلام علما منهم انه لا يقدر
ان يواجه فرعون بمثله في جمع جنوده واتباعه ثم يسلم منه الا من الله مع
واسروا النجوى قال الكلبي قالوا سرا ان غلبنا موسى اتبعناه وقال محمد
ابن اسحاق لما قال لهم موسى لا تفتروا على الله كذبا قال بعضهم لبعض
ما هذا بقول ساحر وبالغوا في اخفاء ذلك فان النجوى الاسرار لئلا يظهر
فرعون واتباعه على ذلك فكانه قيل ما قالوا حين انتهى تنازعهم فقيل
قالوا اي السحرة ان هذان لساحران اي موسى وهرون وقرأ ابن كثير
وحفص بسكون النون من ان وشددها الباقون وقرأ ابو عمرو بالياء بعد
الذال والباقون بالالف على من يقول لغة من يجعل الف المثنى لازما في
كل حال قال ابو حيان وهي لغة لطوائف من العرب بني الحارث بن كعب
وبعض كنانة وخثعم وزبيد وبني النضر وبني الهجيم ومراد وعذرة
وقال شاعرهم ● تزود منا بين اذناه ضربة ● يريد اذنيه وقال الآخر
● ان اباها واباها ● قد بلغا في المجد غايتاها ● وقيل تقدير
الاية ان هذان لهما فحذف لها وذهب جماعة الى ان حرف ان ههنا بمعنى نعم
اي نعم هذان روي ان اعرابيا سأل ابن الزبير شيئا فحرمه فقال لعن الله ناقة
حملتني اليك قال ابن الزبير ان وصاحبها اي نعم وشدد ابن كثير النون
فكانت نجواهم في تلفيق هذا الكلام وتزويره خوفا من غلبتهما وتثبيطا
للناس عن اتباع موسى وهرون يريدان اي انما يقولان من دعوى
الرسالة وغيرها ان يخرجاكم ايها الناس من ارضكم هذه التي الفتموها
وهي وطنكم خلفا عن سلف بسحرهما الذي اظهراه لكم وغيره ولما كان كل حزب
بما لديهم فرحون قالوا ويذهبا بطريقتكم المثلى مؤنث الامثل وهو الافضل
اي بمذهبكم الذي هو افضل المذاهب باظهار مذهبه واعلاء دينه لقوله
اني اخاف ان يبدل دينكم وقيل اراد اهل طريقتكم وهم بنوا اسرائيل فانهم
كانوا ارباب علم فيما بينهم لقول موسى فارسل معنا بني اسرائيل وقيل
الطريقة اسم لوجوه القوم واشرافهم من حيث انهم قدموه لغيرهم فاجمعوا

كيدكم اي من السحر وغيره فلا تدعوا منه شيئا الا جئتم به وقرا ابو عمرو بهمزة الوصل
بين الفاء والجيم وفتح الجيم والباقون بهمزة مقطوعة وكسر الميم ثم ائتوا اي للقاء
موسى وهرون صفا اي مصطفين لانه اهيب في صدور الرائين قيل
اختلفوا في عدد السحرة فقال الكلبي كانوا اثنين وسبعين ساحرا اثنان من
القبط وسبعون من بني اسرائيل وقال عكرمة كانوا تسعمائة ثلثمائة من الفرس
وثلثمائة من الروم وثلثمائة من الاسكندرية وقال وهب خمسة عشر الفا
وقال السدي بضعة وثلاثون الفا وقال القاسم بن سلام كانوا
سبعين الفا وقيل اثنا عشر الفا مع كل منهم على قول حبلا وعصى واقبلوا
عليه اقبالة واحدة وظاهر القرآن لا يدل على شيء من هذه الاقوال ولما كان
التقدير فمن اتى كذلك فقد استعلى عطف عليه بقوله وقد افلح اليوم في هذا
الجمع الذي ما اجتمع مثله قط من استعلى اي فاز بالمطلوب من غلب
فلما اتى السحرة موسى قالوا له متادبين لان لين القول مع الخصم ان لم ينفع
لم يضر بل نفعهم قال بعضهم ذلك ان رزقهم الله تعالى الايمان ببركته
يا موسى اما ان تلقي اي جميع ما معك مما تناظرنا به اولا واما ان نكون نحن اول
من القى ما معه قال لهم موسى عليه السلام مقابلا لادبهم باحسن منه
ولانه فهم ان مرادهم الابتداء ليكون هو الاخر فيكون له العاقبة بتسليط
معجزته على سحرهم فلا يكون بعدها شك لا القي انا اولا بل القوا انتم اولا
فانتهزت الفرصة لان ذلك كان مرادهم بما فهموه من تعبير التساوي والتفريج
بالاول فكان قالوا القوا ما معهم من الحبال والعصي فاذا حبالهم وعصيهم التي
القوها قد فاجات انه يخيل اليه تخيلا مبتدا من سحرهم اي الذي فاقوا
به اهل الارض انها لشدة اضطرابها تسعى فان قيل كيف يجوز ان
يقول موسى القوا فامرهم بما هو سحر اجيب بان ذلك الامر كان مشروطا
والتقدير القوا ما انتم ملقون ان كنتم محقين كما في قوله تعالى فاتوا بسورة
من مثله اي ان كنتم صادقين قيل في القصة انهم القوا الحبال والعصي واخذوا
اعين الناس فراى موسى والقوم كان الارض امتلات حيات وكانت قد
اخذت ميلا من كل جانب وراوا انها تسعى وقيل لطخوها بالزيبق فلما
وقعت عليها الشمس اضطربت فخيل اليهم انها تتحرك وقرا ابن ذكوان
تخيل بالتاء الفوقية على التانيث والباقون بالياء على اسناده الى ضمير
الحبال فاوجس اي احس في نفسه خيفة موسى فان قيل كيف
استشعر الخوف وقد عرض عليه المعجزات الباهرات كالعصى واليد
ثم ان الله تعالى قال له بعد ذلك انني معكما اسمع وارى فكيف وقع الخوف
في قلبه اجيب باوجه احدها انه خاف من جهة ان سحرهم من جنس
معجزته ان يلتبس امرهم على الناس فلا يؤمنوا الثاني ان طبع البشر جبلة

مثل ما خاف

مثل ما خاف من عصاه اول ما رآها كذلك الثالث لعله كان مامورا ان لا
يفعل شيئا الا بالوحي فلما تاخر نزول الوحي في ذلك الوقت خاف ان لا ينزل
عليه الوحي في ذلك الجمع فيبقى في الخجل ثم انه ازال ذلك الخوف بقوله قلنا
لا تخف من شيء من امرهم ولا غيره ثم علل ذلك بقوله تعالى واكده انواعا من
التاكيد لاقتضاء الحال انكار ان يغلب احد ما اظهروا من سحرهم لعظمه انك
انت خاصة الاعلى اي الغالب غلبة ظاهرة لا شبهة فيها والق ما في يمينك
ابهمه ولم يقل عصاك تحقيرا لها اي لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم والق
العويد الذي في يدك او تعظيما لها اي لا تحتفل بهذه بكثرة هذه الاجرام
وعظمها فان في يمينك ما هو اعظم منها اي العصى وهي التي قلنا لك اول
ما شرفناك بالمناجاة وما تلك بيمينك يا موسى ثم اريناك منها ما اريناك
تلقف اي تبتلع بقوة واجتهاد مع سرعة لا تكاد تدرك ما صنعوا اي
فعلوه بعد تدرب كثير وممارسة طويلة فلما القاها صارت اعظم من جانهم
ثم اخذت تزداد عظما حتى ملات الوادي ثم صعدت حتى علقت ذنبها بطرف
الثنية ثم هبطت واكلت كلما عملوه في الميلين والناس ينظرون اليها لا
يحسبون الا انه سحر ثم اقبلت نحو فرعون لتبتلعه فاتحة فاها ثمانين
ذراعا فصاح بموسى فاخذها فاذا هي عصا كما كانت ونظرت السحرة
فاذا هي لم تدع من حبالهم شيئا الا اكلته وعرفوا انه ليس بسحر واصل
تلقف تتلقف حذفت احدى التائين وتاء المضارعة تحتمل التانيث
على اسناد الفعل الى العصا والخطاب على اسناد الفعل الى السبب وقرا
ابن ذكوان برفع الفاء على الحال او الاستئناف والباقون بسكونها وحفص
بسكون اللام وتخفيف القاف على انه من لقفته بمعنى تلقفته انما
اي الذي صنعوا اي زوروا وافتعلوا وهالك امره كيد ساحر اي
كيد سحر لا حقيقة له ولا ثبات وقرا حمزة والكسائي بكسر السين وسكون
الحاء بمعنى ذي سحر او تسمية الساحر سحرا على المبالغة وباضافة الكيد
الى السحر للبيان كقولهم علم فقه والباقون بفتح السين وكسر الحاء
والف بينهما فان قيل لم وحد الساحر ولم يجمع اجيب بان القصد في
هذا الكلام معنى الجنسية لا معنى العدد فلو جمع خيل ان المقصود هو
العدد الا ترى الى قوله ولا يفلح الساحر اي هذا الجنس حيث اتى اي
كيف ما سار وقال ابن عباس لا يسعد حيث كان وقيل معناه حيث احتال
فانه انما يفعل ما لا حقيقة له فان قيل لم نكر اولا ثم عرف ثانيا
اجيب بانه قال هذا الذي اتوا به قسم من اقسام السحر لا فائدة فيه
ولا شك ان هذا الكلام على هذا الوجه ابلغ ثم انه امتثل ما امره
به ربه من القاء عصاه فكان ما وعده به سبحانه من تلقفها لما صنعوا

من غير ان يظهر عليها زيادة في حجم ولا في غيره مع ان حبالهم وعصيهم كانت شيئا
كثيرا فعلم كل من رأى ذلك حقيقته وبطلان ما فعل السحرة فبادر السحرة منهم
الى الخضوع لامر الله ساجدين مبادرة من كأنه ألقاه على وجهه ولذلك قال
تعالى بعد ان ذكر مكرهم واجتهادهم في معارضة موسى عليه السلام وحذف
ذلك الالقاء وما سببه من التلقف لان مقصود السورة القدرة على تليين
القلوب القاسية **فألقي السحرة** اي فالقاهم ما رأوا من امر الله تعالى
بغاية السرعة وبابتدار **سجدا** على وجوههم لله تعالى توبة عما صنعوا
واعتابا لفرعون بسجودهم وتعظيما لما رأوا وذلك لانهم كانوا في الطبقة العليا
من علم السحر فلما رأوا علموا فعل موسى عليه السلام خارجا عن صناعتهم
عرفوا انه ليس من السحر البتة ويقال قال رئيسهم كنا نغلب الناس
بالسحر وكانت الالات تبقى علينا فلو كان هذا سحرا فاين الذي ألقيناه
استدلوا بتغير احوال الاجسام على الصانع القادر وبظهورها على يد موسى
على كونه رسولا صادقا من عند الله لا جرم تابوا وامنوا واتوا بما هو النهاية
في الخضوع وهو السجود قال الاصبهاني سبحان الله ما اعظم شأنهم
القوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ثم القوا رؤسهم بعد ساعة للشكر
والسجود فما اعظم الفرق بين الالقائين فكان قائلا قال هذا فعلهم فماذا
قالوا فقيل **قالوا آمنا برب هارون وموسى** ولم يقولوا آمنا برب العالمين
لان فرعون ادعى الربوبية في قوله انا ربكم الاعلى والالهية في قوله ما علمت
لكم من اله غيري فلو انهم قالوا ذلك لكان فرعون يقول انهم امنوا بي لا بغيري
فلقطع هذه التهمة اختاروا هذه العبارة والدليل على ذلك انهم لم يقتصروا
على موسى بل قدموا هرون لان فرعون ربى موسى في صغره فلو اقتصروا
على موسى او قدموا ذكره فربما توهم ان المراد فرعون وذكر هارون على الاتباع
وقيل قدموه لكبر سنه او لتروي الاية فسبحان الله ما اعظم امرهم كانوا
اول النهار سحرة يقرون لفرعون بالربوبية واخره شهداء بررة روي انهم
لم يرفعوا رؤسهم حتى رأوا الجنة ورأوا ثواب اهلها وعن عكرمة لما خروا سجدا
اراهم الله تعالى منازلهم التي يصيرون اليها في الجنة فكأنه قيل ما قال لهم
فرعون حينئذ فقيل **قال** لهم **آمنتم** اي بالله **له** اي مصدقين او
متبعين لموسى **قبل ان آذن لكم** في ذلك قالوا ذلك ايهاما بانه سيأذن
فيه ليقف بجهل الناس عن المبادرة الى الاتباع بين خوف العقوبة ورجاء
الاذن ثم استانف قوله معلما بحال الاتباعة صدا لهم عن الاقتداء بالسحرة
انه اي موسى **لكبيركم** اي معلمكم **الذي علمكم السحر** اي فلم يتبعوه
لظهور الحق بل لارادتكم شيئا من المكر واتفقتم عليه قبل حضوركم هذا الموطن
وهذا على عادته في تخييل اتباعه بما يصرفهم عن اتباع الحق ولما اخيلهم شرع

يريد

يزيد حيرة بتهديد السحرة فقال مقسما **لأقطعن**
أيديكم على سبيل التوزيع **وأرجلكم** اي من كل يدا ورجلا وقوله **من خلاف**
حال يعني مختلفة اي الايدي اليمنى والارجل اليسرى **ولأصلبنكم** وعبر
عن الاستعلاء بالظرف اشارة الى تمكينهم في المطلوب فيه تمكين المظروف
في ظرفه فقال **في جذوع النخل** تشنيعا لقتلكم وردعا لامثالكم **ولتعلمن**
أينا يريد نفسه لعنه الله وموسى عليه السلام بدليل قوله آمنتم
له واللام مع الايمان في كتاب الله كقوله يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين وفيه تبجح
باقتداره وقهره وما الفه وجرى به من تعذيب الناس بانواع العذاب
وتوضيع لموسى عليه السلام واستضعاف له مع الهزء به لان موسى لم يكن قط
من التعذيب في شيء وقيل يريد رب موسى الذي آمنوا به **اشد عذابا وابقى**
اي ادوم على مخالفته فان قيل ان فرعون مع قرب عهده بمشاهدة العصا
حية وقصدها له وآل الامر الى استغاثته بموسى من شرها وعجزه عن دفعها
كيف يعقل تهديده السحرة ويبالغ في وعيدهم الى هذا الحد ويستهزئ
بموسى في قوله اينا اشد عذابا وابقى اجيب بانه كان في اشد
الخوف في قلبه الا انه يظهر الجلادة والوقاحة تمشية لناموسه
وترويجا لامره قال الرازي ومن استقرأ احوال العالم علم ان العاجز قد يفعل
امثال هذه الاشياء ومما يدل على معاندته قوله انه لكبيركم الذي علمكم
السحر لانه كان يعلم ان موسى ما خالطهم البتة وما لقيهم وكان يعلم من
سحرته استاذ كل واحد من هو وكيف حصل ذلك العلم ثم انه كان يقول
مع ذلك هذه الاشياء كأنه قيل فما قالوا له فقيل **قالوا** له **لن نؤثرك**
نختارك **على ما جاءنا** على لسان موسى **من البينات** التي عايناها
وعلمنا انه لا يقدر احد على مضاهاتها ثم لما بدؤوا بما يدل على الخارق من
الفعل رقوا الى ذكره بعد معرفته بفعله اشارة الى علو قدره فقالوا
والذي اي ولا نؤثرك بالاتباع على الذي **فطرنا** اي ابتدأ خلقنا اشارة
الى شمول الربوبية لله تعالى لهم وله وجميع الناس وتنبيها على عجزه عن
ضد ما استخفه وفي جميع اقوالهم هذه من تعظيم الله تعالى عبادة
وايثاره وتحقير فرعون امر عظيم تنبيه قد علم مما تقرر ان والذي
معطوف على ما وانما اخروا ذكر الباري تعالى لانه من باب الترقي من الادنى
الى الاعلى وقيل الواو قسم والموصول مقسم به وجواب القسم محذوف
اي وحق الذي فطرنا لا نؤثرك على الحق ولما تسبب عن ذلك انهم لا يبالون
به وعلموا انما يفعله بهم باذن الله تعالى قالوا له **فاقض** اي فاصنع
في حكمك الذي تمضيه **ما انت قاض** اي فاقض الذي انت قاضيه
ثم عللوا ذلك بقولهم **انما تقضي** اي تصنع بنا ما تريد ان قدرك الله

عليه هذه الحياة الدنيا النصب على الانباء اي انما حملك فيها على الحسد
خاصة فهي ساعة نقضيها راحة ونحن لانخاف الا من يحكم على الروح وان فني
الجسد فذلك هو العذاب الشديد الدائم ثم عللوا تعظيم الله تعالى واستهانتهم
بفرعون بقولهم انا آمنا بربنا اي المحسن الينا طول اعمارنا مع اساءتنا
بالكفر وغيره ليغفر لنا من غير منفع يلحقه بالفعل او ضرر يدركه بالترك
خطايانا التي قابلناها احسانه ثم خصوا بعد العموم فقالوا وما
اكرهتنا عليه وبينوا ذلك بقولهم من السحر لتعارض المعجزة فانه كان
الاكمل لنا عصيانك فيه لان الله تعالى احق بان يتقى فان قيل كيف قالوا ذلك
وقد جاوا مختارين يحلفون بعزة فرعون ان لهم الغلبة اجيب بانه قد
روي ان رؤسا السحرة كانوا اثنين وسبعين اثنان من القبط والباقون
من بني اسرائيل اكرههم فرعون على تعلم السحر وروي انهم راوا موسى
عليه السلام نايما وعصاه تحرسه فقالوا لفرعون ان الساحر اذا نام
بطل سحره وهذا لا يقدر على معارضته فابى عليهم واكرههم على المعارضة
وقيل ان الملوك في ذلك الزمان كانوا البعض من رعيتهم ويحلقونه
من تعلم السحر فاذا شاخ بعثوا اليه احداثا ليعلمهم في كل وقت من يحسنه
ولما كان التقدير فربنا اهل التقوى واهل المغفرة عطفوا عليه مستحضرين
لكماله والله اي الجامع لصفات الكمال خير جزاء منك فيما وعدتنا
به وابقى ثوابا وعقابا قال ابو حيان والظاهر ان الله تعالى سلمهم
من فرعون ويؤيده قوله تعالى انتما ومن اتبعكما الغالبون وقال الرازي ليس
في القران ان فرعون فعل باولئك القوم المؤمنين ما اوعدهم ولم يثبت
في الاخبار وقال البقاعي سياتي في اخر الحديد ما هو صريح في نجاتهم
ثم عللوا هذا الحكم بقولهم انه اي الامر والشان من يات ربه اي
الذي رباه واحسن اليه بان اوجده وجعل له جميع ما يصلحه مجرما
اي يموت على كفره فان له جهنم دار الاهانة لا يموت فيها فيستريح
من عذابها بخلاف عذابك فان اخره الموت وان طال ولا يحيى فيها
حياة مهناه وبها يندفع ما قيل ان الجسم الحي لابد ان يبقى اما حيا او ميتا
فخلوه عن الوصفين محال وقال بعضهم ان لنا حالة ثالثة وهو كحالة
المذبوح قبل ان يهدي فلا هو حي لانه قد ذبح ذبحا لا يبقى الحياة معه
ولا ميت لان الروح لم تفارقه بعد فهي حالة ثالثة ومن ياته اي ربه
الذي اوجده ورباه مؤمنا اي مصدقا به قد ضم الى التصديق الايمان
انه عمل اي في الدنيا عمل الصالحات اي التي امر بها وكان تصادق الايمان
مستلزما لصالح الاعمال فاولئك اي العالو الرتبة لهم الدرجات
العلى جمع عليا مؤنث اعلا التي لانسبة بدرجاتك التي وعدتناها

اليها

البهائم بيوتها بقولهم جنات عدن اي اعدت للاقامة وهيئت فيها اسبابها
تجري من تحتها الانهار اي من تحت غرفها واسرتها وارضها فلا يراد موضع
نهر الان يجري فيه نهر الاجري وقولهم خالدين فيها حال والعامل فيها
معنى الاشارة او الاستقرار وذلك جزاء من تزكى اي تطهر من ادناس
الكفر تنبيه هذه الايات الثلاث وهي من قوله انه من يات ربه مجرما الى
هنا يحتمل ان يكون من كلام السحرة كما تقرر وان يكون ابتدا كلام من الله
تعالى وقوله تعالى ولقد اوحينا الى موسى ان اسر عطف على قوله ولقد اريناه
اياتنا وفيه دليل على ان موسى عليه السلام كثر مستجيبوه فاراد تعالى
تمييزهم من طبقة فرعون وخلاصهم فاوحى اليه ان يسري بهم ليلا
والسرى اسم لسير الليل والاسرا مثله والحكمة في السرى بهم ليلا لان السرى
اسم لسير الليل ليشاهدهم احتيفهم من مرادهم او ليكون ذلك عائقا لفرعون
عن طلبه وتتبعه او ليكون اذا تقارب العسكران لا يرى عسكر موسى عسكر
فرعون فلا يهابونهم وقرا نافع وابن كثير بكسر النون وهمزة وصل بعدها من سرى
والباقون بسكون النون وهمزة قطع بعدها من اسرى لغتان اي اسر ببني
اسرائيل من ارض مصر الذي لبث فيها فرعون لهم حتى اذن لهم في مسيرهم
بعد ان كان قد ابى في تحللهم ان يطلقهم او يكف عنهم العذاب فاقصد بهم ناحية
بحر القلزم فاضرب اي اجعل لهم بالضرب بعصاك طريقا في البحر
والمراد بالطريق الجنس فانه لكل سبط طريق وقوله يبسا صفة لطر
يبقًا
وصف به لما يؤول اليه لانه لم يكن يبسا بعد انما مرت عليه الصبا فجففته
كما روي وقيل في الاصل مصدر وصف به مبالغة وقيل جمع يابس كخادم وخدم
وصف به الواحد مبالغة فلما امتثل ما امر به وايبس الله تعالى له الارض
واراد المرور بها قال الله تعالى له لا تخاف دركا اي بدركك فرعون
ولا تخشى غرقا وقرا حمزة بجزم الفا ولا الف بينها وبين الخا على ان يكون
نهيا مستانفا والباقون برفع الفا والف بينها وبين الخا على انه مستانف
فلا محل له من الاعراب او انه في محل نصب على الحال من فاعل اضرب اي اضرب
غير خايف فاتبعهم فرعون بجنوده اي وهو معهم على كثرتهم وعلومهم وقوتهم
وعزتهم فكانوا كالتابع الذي لا معنى له بدون متبوعه والمتبوع بنوا اسرائيل
وذلك ان موسى خرج بهم اول الليل فاخبر فرعون بذلك فقص اثرهم
والمعنى فاتبعهم فرعون نفسه ومعه جنوده فحذف المفعول الثاني وقيل
ان الباء زائدة فغشيهم اي فرعون وقومه من اليم اي البحر ما غشيهم
ابهام لا يحتمل المعقول وصفه فاهلكهم وقطع دابرهم ولم يبق منهم احد
وما شاك احدا من عبادنا المستضعفين شوكة واضل فرعون قومه
اي بدعايهم الى عبادته وما هدى اي ما ارشدهم وهذا تكذيب لفرعون

وتهم به في قوله وما اهديكم الا سبيل الرشاد تنبيه لا باس بذكر شي من هذه
القصة فنقول قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لما امر الله تعالى موسى
عليه السلام ان يقطع بقومه البحر وكانوا بني اسرايل استعاروا من قوم
فرعون الحلي والدواب لعيد يخرجون اليه فخرج بهم ليلا وكان يوسف عليه
السلام عهد اليهم عند موته ان يخرجوا بعظامه معهم من مصر فلم يعرفوا
مكانها حتى دلتهم عجوز على موضع العظم فاخذوه وقال موسى عليه السلام
للعجوز احتكمي اي انظري لك شيا اطلبه فقالت اكون معك في الجنة
فلما خرجوا تبعهم فرعون وعلى مقدمته الف الف وخمسماية الف سوى
الجنبين والقلب فلما انتهى موسى الى البحر قال هنا امرت فاوحى الله
اليه ان اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق فقال لهم موسى ادخلوا فيه
فقالوا كيف وهي رطبة فدعا ربه فهبت عليها الصبا فجفت فقال نخاف
الغرق في بعضنا فجعل بينهم كوى يرى بعضهم بعضا ثم دخلوا حتى جاوزوا
البحر واقبل فرعون الى تلك الطرق فقال له قومه ان موسى قد سحر البحر
كما ترى وكان على فرس حصان فاقبل جبريل عليه السلام على فرس انثى
في ثلاثة وثلاثين من الملايكة فسار جبريل بين يدي فرعون فابصر الحصان
الفرس فاقتحم بفرعون على اثرها فصاحت الملايكة في الناس الحقوا حتى
اذا لحق اخرهم وكاد اولهم ان يخرج التقى البحر عليهم فغرقوا فرجع بنو
اسرايل حتى نظروا اليهم وقالوا يا موسى ادع الله يخرجهم لنا حتى ننظر
اليهم فلفظهم البحر الى الساحل واصابوا من سلاحهم وذكر ابن عباس
ان جبريل قال يا محمد لو رايتني وانا ادس فرعون في الماء والطين مخافة
ان يتوب فهذا معنى قوله تعالى فغشيهم من اليم ما غشيهم ولما انعم
الله تعالى على قوم موسى عليه السلام بانواع النعم ذكرا ولادهم تلك النعم
فناداهم بقوله تعالى يا بني اسرايل والمنادى من وجد من اليهود
في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وخوطبوا بما انعم به على اجدادهم زمن
موسى عليه السلام ولانك ان ازالة الضرر يجب تقديمه على ايصال المنفعة
الدينية اعظم من ايصال المنفعة الدنيوية فلهذا ابدا تعالى بازالة الضرر
بقوله قد انجيناكم من عدوكم فان فرعون كان ينزل بهم من انواع الظلم
كثيرا من القتل والاذلال والخراج والاعمال الشاقة ثم ثنى بذكر المنفعة
الدينية بقوله تعالى وواعدناكم جانب الطور الايمن اي الذي على ايمانكم
في توجهكم هذا الذي وجوهكم فيه الى بيت ابيكم ابراهيم عليه السلام
وهو جانبه الذي يلي البحر وناحية مكة واليمن ووجه المنفعة فيه انه
انزل في ذلك القرب عليهم كتابا فيه بيان دينهم وشرع شريعتهم ثم
ثلث بذكر المنفعة الدنيوية بقوله تعالى ونزلنا عليكم بعد انزال

هذا الكتاب

هذا الكتاب من هذه المواعدة لانعاش ارواحكم المن اي الترنجبين والسلوى اي
الطير السماني بتخفيف الميم والقصر وقوله تعالى كلوا من طيبات ما رزقناكم امر
اباحة ان فسر الطيب باللذيذ لان المن والسلوى من لذايذ الاطعمة وان
فسر بالحلال لان الله تعالى انزله اليهم ولم تمسه يد الادميين فهو ايجاب
وقرا حمزة والكساي قد انجيتكم وواعدتكم ما رزقتكم بتاء مضمومة بعد
الجيم من انجينا وبعد الدال من وعدنا وبعد القاف من رزقنا والالف في
الثلاثة واسقط ابو عمرو الالف قبل العين من وعدنا واثبتها الباقون ثم
زجرهم عن العصيان بقوله ولا تطغوا فيه اي فيما رزقناكم بالاخلال بشكره والتعدي
لما حده الله لكم فيه من السرف والبطر والمنع عن المستحقين وقرا الكساي
فيحل بضم الحاء اي ينزل والباقون بكسرها اي يجب عليكم غضبي اي
عقوبتي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى اي هلك وقيل قد وقع في الهاوية
وقرا الكساي بضم اللام الاولى وكسرها الباقون ولما كان الانسان محل
الزلل وان اجتهد رجاه واستعطفه بقوله سبحانه واني لغفار اي ستار
باسبال ذيل العفو لمن تاب اي رجع عن ذنبه من الشرك وما يقاربه
وامن بكل ما يجب الايمان به وعمل صالحا تصديقا لايمانه ثم اهتدى
باستمراره على ذلك الى موته فايده اعلم انه تعالى وصف نفسه بكونه
غافرا وغفورا وغفارا وبان له غفرانا ومغفرة وعبر عنه بلفظ الماضي
والمستقبل والامر اما وصف كونه غافرا فقوله تعالى غافر الذنب واما كونه
غفورا فقوله تعالى وربك الغفور واما كونه غفارا فقوله تعالى لغفار
لمن تاب وامن واما الغفران فقوله تعالى غفرانك ربنا واما المغفرة فقوله
تعالى وان ربك لذو مغفرة للناس واما صيغة الماضي فقوله تعالى ويغفر
ما دون ذلك لمن يشاء وقوله تعالى ان الله يغفر الذنوب جميعا وقوله تعالى
في حقه صلى الله عليه وسلم ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تاخر واما
لفظ الاستغفار فقوله تعالى استغفروا ربكم ويستغفرون لمن في
الارض ويستغفرون للذين امنوا وههنا نكتة لطيفة وهو ان العبد
له اسما ثلاثة الظالم والمظلوم والظلام اذا كثر منه الظلم ولله تعالى
في مقابلة كل واحد من هذه الاسما اسم فكانه تعالى قال ان كنت ظالما
فانا غافر وان كنت ظلوما فانا غفور وان كنت ظلاما فانا غفار فيجب
على كل من ارتكب معصية كبيرة او صغيرة ان يتوب منها لهذه الاية ودلت
على ان العمل الصالح غير داخل في الايمان لانه تعالى عطف العمل الصالح على
الايمان والمعطوف يغاير المعطوف عليه ولما امر الله تعالى موسى عليه السلام
بحضور الميقات مع قوم مخصوصين قال المفسرون هم السبعون
اختارهم الله تعالى من جملة بني اسرايل يذهبون معه الى الطور لياخذوا

التوراة فسار بهم موسى ثم عجل موسى من بينهم شوقا الى ربه وخلف السبعين
وامرهم ان يتبعوه الى الجبل فقال تعالى له وما اعجلك عن قومك
اي لمجيء ميعاد اخذ التوراة يا موسى قال مجيبا لربه تعالى هم اولاء
اي بالقرب مني يأتون على اثري اي ماشين على اثار مشيتي قبل ان يطمس
ما تقدمتهم الا بخطى يسيرة لا تعتد بها عادة وليس بيني وبينهم الا
مسافة قريبة يتقدم بها الرفقة بعضهم على بعض وعجلت اليك رب
لترضى اي لتزداد عني رضى فان المسارعة الى امتثال امرك والوفاء
بعهدك توجب مرضاتك تنبيه في الاية سؤالات الاول قوله تعالى
وما اعجلك استفهام وهو على الله تعالى محال واجيب عنه انه كان في
صيغة الاستفهام ولا مانع منه الثاني ان موسى عليه السلام لا يخلو
اما ان يكون ممنوعا من ذلك التقدم او لم يكن فان كان الاول كان التقدم
معصية وان لم يكن فلا انكار اجيب عنه بانه عليه السلام لعله ما وجد
نصا في ذلك فاجتهد فاخطأ في اجتهاده فاستوجب العتاب الثالث
قوله وعجلت والعجلة مذمومة اجيب عنه بانها ممدوحة في الدين
قال تعالى وسارعوا الى مغفرة من ربكم الرابع قوله لترضى يدل على انه
انما فعل ذلك ليحصل الرضى واذا لم يكن راضيا عنه وجب ان يكون
ساخطا عليه وذلك لا يليق بحال الانبياء اجيب عنه بان المراد تحصيل
دوام الرضى او زيادته كما مر الخامس قوله اليك يقتضي كون الله تعالى في
جهة لان الى لانتهاء الغاية واجيب عنه بانا اتفقنا على ان الله تعالى
لم يكن في الجبل فالمراد مكان وعدك السادس قوله تعالى ما اعجلك عن
قومك سؤال عن سبب العجلة فكان جوابه اللائق به ان يقول طلبت
زيادة رضاك والشوق الى كلامك واما قوله اولاء على اثري فغير منطبق
عليه كما ترى اجيب عنه بان سؤال الله تعالى له يتضمن شيئين احدهما
انكار نفس العجلة والثاني السؤال عن سبب التقدم فاجاب عن السؤال
عن العجلة لانها اهم فقال وعجلت اليك رب لترضى قال تعالى فانا
اي تسبب عن عجلتك عنهم انا قد فتنا قد ابتلينا قومك من بعدك
اي بعد فراقك لهم بعبادة العجل وهم الذين خلفهم مع هرون وكانوا ستمائة
الف وما نجا من عبادة العجل منهم الا اثنا عشر الفا واضلهم
السامري باتخاذ العجل والدعاء الى عبادته فاطاعه بعضهم وامتنع
بعضهم والسامري منسوب الى قبيلة من بني اسرائيل يقال لهم السامرة
وقيل كان علجا من اهل كرمان وقع الى مصر وقيل كان من قوم يعبدون البقر
جيران لبني اسرائيل ولم يكن منهم واسمه موسى بن ظفر وكان منافقا
فرجع موسى لما اخبره ربه بذلك الى قومه بعد ما استوفى الاربعين

ذا القعدة وعشر ليال من ذي الحجة واخذ التوراة غضبان عليهم اسفا اي
حزينا بما فعلوا قال اي لقومه لما رجع اليهم مستعطفا لهم يا قوم وانكر
عليهم بقوله الم يعدكم ربكم اي الذي احسن اليكم وعدا حسنا اي
بانه ينزل عليكم كتابا حافظا ويكفر عنكم خطاياكم وينصركم على اعدائكم الى غير ذلك
من اكرامه ولما جرت العادة بان طول الزمان ناقض للعزائم مغير للعهود كما قال
ابو العلاء احمد بن سليمان المعري
لا ينسينك ان طال الزمان ٭ وكم حبيب تمادى عهده فنسي
قال لهم افطال عليكم العهد اي زمن لطف الله بكم فتغيرتم عما
فارقتكم عليه كما تغير مثل الرذائل والاخلاء في القرائب لضعف العقول
وقلة التدبر ام اردتم اي بالنقض مع قرب العهد وذكر الميثاق ان يحل
اي يجب عليكم بسبب عبادة العجل غضب من ربكم اي المحسن اليكم
وكلا الامرين لم يكن اما الاول فواضح واما الثاني فلا يظن باحد ارادته ولهذا
انه يقول فعلتم ما لا يفعله عاقل فاخلفتم اي فتسبب عن فعلكم ذلك
ان اخلفتم موعدي اي وعدكم اياي بالثبات على الايمان بالله والقيام على
ما امرتكم به ولما تشوف السامع الى جوابهم استأنف ذكره فقال قالوا ما
اخلفنا موعدك بملكنا اي بان ملكنا امرنا اذ لو خلينا وامرنا ولم يسول
السامري لما اخلفناه واختلف في هذا المجيب على وجهين الاول
هم الذين لم يعبدوا العجل فكانهم قالوا ما اخلفنا موعدك بملكنا اي بامر كنا نملكه
وقد يضيف الرجل فعل قريبه الى نفسه كقوله تعالى واذ فرقنا بكم البحر
واذ قتلتم نفسا والفاعل لذلك اباؤهم لانهم فكانوا قالوا الشبهة قويت على عبدة العجل
والمراد انا عزنا وقع الشبهة فلم نقدر على منعهم عنه ولم نقدر ايضا على
مفارقتهم لانا خفنا ان يصير ذلك سببا لوقوع النفرة وزيادة الفتنة
الثاني ان هذا قول عبدة العجل والمراد ان غيرنا اوقع الشبهة في قلوبنا وفاعل
السبب فاعل المسبب فمخلف الوعد هو الذي اوقع الشبهة فانه كان
كالمالك لنا فان قيل كيف كان رجوع قريب من ستمائة الف انسان من
العقلاء المكلفين عن الدين الحق دفعة واحدة الى عبادة عجل يعرف فساده
بالضرورة اجيب بان هذا غير ممتنع في حق البله من الناس وقرأ
عاصم ونافع بفتح الميم وحمزة والكسائي بضمها والباقون بكسرها وثلاثتها
في الاصل لغات في مصدر ملكت الشيء ثم ان القوم فسروا الضرر الحاصل
لهم على ذلك الفعل فقالوا ولكنا حملنا قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص
بضم الحاء وكسر الميم مشددة وابو عمرو وشعبة وحمزة والكسائي بفتح الحاء
والميم مخففة اوزارا اي اثقالا من زينة القوم اي حلي قوم فرعون استعارها
منهم بنو اسرائيل بسبب عرس وقيل استعاروها لعيد كان لهم ثم لم

صل

يردوها عند الخروج مخافة ان يعلموا به وقيل هي ما القاه البحر على الساحل
بعد اغراقهم فاخذوها قال البيضاوي ولعلهم سموها اوزارا لانها اثام
فان الغنائم لم تكن تحل بعد ولانهم كانوا مستامنين وليس للمستامن ان ياخذ
من مال الحربي فقذفناها اي في النار فكذلك القى السامري اي ما كان معه ايضا
من المال او من اثر الرسول روي ان موسى لما وعده ربه ان يكلمه استخلف على
قومه اخاه هرون واجلهم ثلاثين يوما وذهب فصامها ليلها ونهارها
ثم كره ان يكلم ربه وريح فمه متغير فمضغ شيئا من نبات الارض فقال ربه او
ما علمت ان ريح الصائم اطيب ارجع فصم عشرا وقيل انهم قاموا بعد مفارقته
عشرين ليلة وحسبوها اربعين بايامها وقالوا قد كملت العدة فلما راى قوم
انه لم يرجع اليهم ساءهم ذلك وكان هرون قد خطبهم وقال انكم خرجتم
من مصر ولقوم فرعون عندكم عواري فاحفروا حفرة والقوه فيها ثم اوقدوا
عليها نارا فلا يكون لنا ولا لهم وكان السامري قد راى اثرا فقبض منه قبضة
فمر بهارون فقال له يا سامري الا تلقي ما في يدك فقال هذه قبضة من اثر الرسول
الذي جاوز بكم البحر لا القيها على شيء الا ان تدعو الله اذا القيتها ان يكون ما اريد
فالقاها ودعا له هرون فقال اريد ان يكون عجلا فاجتمع ما في الحفرة وصار عجلا
فهذا معنى قوله تعالى فاخرج لهم عجلا جسدا من تلك الحلي المذاب له جوف
فيه روح له خوار اي صوت يسمع قال ابن عباس لا والله ما كان له
صوت قط وانما كان الريح يدخل في دبره فيخرج من فيه فقالوا اي السامري
ومن افتتن به اول ما رآه مشيرين الى العجل هذا الهكم واله موسى فنسي
اي فنسيه موسى وذهب يطلبه عند الطور او فنسي السامري اي ترك
ما كان عليه من الايمان افلا يرون اي فالوا ذلك فتسبب عن قولهم
علمهم عن رويته ان اي انه لا يرجع اليهم قولا والاله لا يكون ابكم
ولا يملك لهم ضرا فيخافوه كما كانوا يخافون فرعون فيقولون ذلك خوفا من
ضرره ولا نفعا فيقولوا ذلك رجاء له ولقد قال لهم هارون من قبل اي قبل
رجوع موسى مستعطفا لهم يا قوم انما فتنتم اي وقع اختباركم فاختبرتم
وصحة ايمانكم وصدقكم فيه وثباتكم عليه به اي بهذا العجل في
اخراجه لكم على هذه الهيئة الخارقة للعادة واكد لاجل انكارهم فقال
وان ربكم اي الذي اخرجكم من العدم ورباكم بالاحسان الرحمن وحده
الذي فضله عام وفضله نعمته شاملة فليس على بر ولا فاجر نعمة الا وهي
منه قبل ان يوجد العجل وهو كذلك بعده ومن رحمته قبول التوبة فخافوا
نزع نعمه بمعصيته فارجوا سبوغها بطاعته فاتبعوني بغاية جهدكم
في الرجوع اليه واطيعوا امري اي في الثبات على الدين قالوا لن نبرح
عليه اي العجل عاكفين اي مقيمين حتى يرجع الينا موسى فلما قعهم فهموا به

وكان معظمهم قد ضل فلم يكن معه من يقوى بهم فخاف ان يجاهد بهم الكافرين فلا
يفيد ذلك شيئا مع ان موسى لم يامره بجهاد من ضل وانما قال له واصلح ولا تتبع
سبيل المفسدين فراى من الاصلاح اعتزالهم الى ان ياتي تنبيه انما قال
هرون ذلك شفقة على نفسه وعلى الخلق اما شفقته على نفسه فلانه لو
كان مامورا من عند الله بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر لكان مخالفا لامر الله
تعالى ولامر موسى وذلك لا يجوز واوحى الله تعالى الى يوشع بن نون اني مهلك من قومك
اربعين الفا من خيارهم وما بين الفا من شرارهم فقال يا رب هولاء الاشرار
فما بال الاخيار قال انهم لم يغضبوا لغضبي وقال انس قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم من اصبح وهمه غير الله فليس من الله في شيء ومن اصبح لا يهتم
بالمسلمين فليس منهم وعن النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل
المومنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد اذا اشتكى منه عضو
تداعى له سائر الجسد وعن عبد الله بن ابي اوفى قال خرجت اريد
النبي صلى الله عليه وسلم فاذا ابو بكر وعمر عنده فجاء صغير يبكي فقال لعمر ضم الصبي
اليك فانه ضال فاخذه عمر واذا ام الصبي تولول كاشفة عن راسها جزعا على
ابنها فقال النبي صلى الله عليه وسلم ادرك المراة فناداها فجاءت واخذت ولدها ها
وجعلت تبكي والصبي في حجرها فالتفتت فرات النبي صلى الله عليه وسلم فاستحيت
فقال النبي صلى الله عليه وسلم عند ذلك اترون هذه رحيمة بولدها قالوا يا رسول
الله كفى بهذه رحمة فقال والذي نفسي بيده ان الله ارحم بالمومنين من هذه
بولدها ولقد سلك هرون في موعظته احسن الوجوه لانه زجرهم عن الباطل
اولا بقوله انما فتنتم به ثم دعاهم الى معرفة الله ثانيا بقوله وان ربكم الرحمن
ثم دعاهم ثالثا الى النبوة بقوله فاتبعوني واطيعوا امري وهذا هو الترتيب
الجيد لانه لابد قبل كل شيء من اماطة الاذى عن الطريق وهو ازالة الشبهة
ثم معرفة الله فانها هي الاصل ثم النبوة ثم الشريعة فبان ان هذا الترتيب
احسن الوجوه ولما ذكر ما قاله هرون تشوفت النفس الى علم ما قاله موسى
فقيل قال يا هرون انت نبي الله واخي روي وخليفتي فانت اولى الناس
بامر القوم واحقهم بان اعاتبه ما منعك اذ اي حين رايتهم ضلوا عن
الطريق الهدى واتبعوا سبيل الردى الا تتبعني في سيرتي من الاخذ على
يد الظالم طوعا او كرها تنبيه لا مزيدة للتاكيد لان النافي اذا زيد في
كلام كان نافيا لضد مضمونه فيفيد اثباتا للمضمون ونفيا لضده ويكون
ذلك غاية التاكيد واثبت الياء بعد النون ابن كثير وقفا ووصلا واثبتها نافع
وابو عمرو وقفا ووصلا وحذفها الباقون وقفا ووصلا افعصيت اي
تكبرت عن اتباعي فتسبب عن ذلك انك عصيت امري واخذ بلحيته
وراسه يجره اليه غضبا لله تعالى وكانه قيل ما قال له فقيل قال مجيبا

ثم دعاهم ربها ثم دعاهم

له مستعطفا بذكر الام وطن ضمهما بعد نفخ الروح مع ماله من الرقة والشفقة
يا ابن ام فذكرها خاصة وان كان شقيقه لانها بسوءها ما يسوءه وهي ارق
من الاب وقرا نافع وابن كثير وابو عمرو وحفص بفتح الميم وكسرها ابن عامر وشعبة
وحمزة والكسائي لا تاخذ بلحيتي ولا براسي اي بشعرهما ثم علل ذلك بقوله اني
خشيت ان تقول اذا اشتددت عليهم حتى يصل الامر الى القتال فرقت بين
بني اسرائيل بفعلك هذا الذي لم يجد شيئا لعله من كان معك وردهم
وضعفكم عن ردهم ولم ترقب قولي اخلفني في قومي واصلح ولا تتبع سبيل المفسدين
ولم يقل واردد هم ولو ادى الامر الى السيف ولما فرغ من نصيحة اقرب الناس
اليه واحقهم بنصيحته وحفظه على الهدى اذ كان راس الهداة تشوف السامع
لما كان من غيره فاستانف تعالى ذكره بقوله قال اي موسى عليه السلام
لراس اهل الضلال معرضا عن اخيه بعد قبول عذره جاعلا ما نسب اليه سببا
لسؤاله عن الحامل له عليه فما خطبك اي امرك هذا العجب العظيم الذي
حملك على ما صنعت واخبرني ربي انك اضللتهم به يا سامري قال السامري
مجيبا له بصرت من البصر والبصيرة بما لم يبصروا به اي رايت ما لم يره
بنو اسرائيل وعرفت ما لم يعرفوا وقال ابن عباس علمت ما لم يعلموا ومنه قولهم
رجل بصير اي عالم قاله ابو عبيدة واراد انه راى جبريل عليه السلام فاخذ من موضع
حافر دابته قبضة من تراب كما قال فقبضت اي فكان سببا لان قبضت
قبضة اي مرة من القبض اطلقها على المقبوض تسمية للمفعول بالمصدر
من فرس ذلك اثر الرسول اي المعهود فنبذتها في الحلي الملقى في النار
او في العجل وكذلك اي وكما سولت لي نفسي اخذ اثره سولت اي
حسنت وزينت لي نفسي نبذها في الحلي فنبذتها وكان منها ما كان
ولم يدعني الى ذلك داع ولا حملني عليه حامل غير التسويل تنبيه كون المراد
بالرسول جبريل عليه السلام هو ما عليه عامة واراد باثره التراب الذي
اتخذه من موضع حافر دابته لما راه يوم فلق البحر وعن علي رضي الله عنه ان
جبريل عليه السلام لما نزل ليذهب به الى الطور ابصره السامري من بين
الناس واختلفوا في انه كيف اختص السامري برؤية جبريل عليه السلام
ومعرفته من بين الناس فقال ابن عباس في رواية الكلبي انما عرفه لانه رباه
في صغره وحفظه من القتل حين امر فرعون بذبح اولاد بني اسرائيل فكانت اذا ولدت
طرحت ولدها حيث لا يشعر به ال فرعون فتاخذ الملائكة الولدان فيربونهم حتى
يترعرعوا ويختلطوا بالناس فكان السامري ممن اخذه جبريل عليه السلام وجعل
كف نفسه في فيه وارتضع منه العسل واللبن فلم يزل يختلف اليه حتى عرفه
فلما راه عرفه قال ابن جريج فعلى هذا قوله بصرت بما لم يبصروا به يعني رايت ما لم
يروه ومن فسر الابصار بالعلم فهو صحيح ويكون المعنى علمت ان تراب فرس جبريل

عليه السلام

عليه السلام له خاصية الاحياء قال ابو مسلم ليس في القرآن تصريح بهذا الذي
ذكره المفسرون فههنا وجه اخر وهو ان يكون المراد بالرسول موسى عليه السلام
وباثره سنته ورسمه الذي امر به فقد يقول الرجل فلان يقفو اثر فلان ويقتص
اثره اذا كان يمتثل رسمه والتقدير ان موسى عليه السلام لما اقبل على السامري
باللوم والمسألة عن الامر الذي دعاه الى اضلال القوم في العجل قال بصرت بما
لم يبصروا به اي عرفت ان الذي انتم عليه ليس بحق وقد كنت قبضت قبضة من
اثرك ايها الرسول اي شيئا من دينك فقذفته اي فطرحته فعند ذلك اعلمه
موسى عليه السلام بما له في العذاب في الدنيا والاخرة وانما اورد لفظ الاخبار
عن غائب كما يقول الرجل لرئيسه وهو مواجه له ما يقول الامير في كذا او بماذا
يامر الامير واما دعاؤه ان موسى رسولا مع جحده وكفره فعلى مذهب من حكى
الله عنه قوله يا ايها الذي نزل عليه الذكر انك لمجنون وانما لم يؤمنوا بالانزال
قال الرازي وهذا القول الذي ذكره ابو مسلم ليس فيه الا انه يخالف المفسرين
ولكنه اقرب الى التحقيق لوجوه احدها ان جبريل عليه السلام ليس معهودا باسم
الرسول ولم يجر له فيما تقدم ذكر حتى يجعل لام التعريف اشارة اليه فاطلاق
لفظ الرسول لارادة جبريل كانه تكليف بعلم الغيب وثانيها انه لا بد فيه من الاضمار
وهو قبضة من اثر حافر دابة الرسول والاضمار خلاف الاصل وثالثها انه
لا بد من التعسف في بيان ان السامري كيف اختص من بين جميع الناس برؤيته
ومعرفته وكيف انه عرف ان حافر فرسه له هذا الاثر والذي ذكروه من ان
جبريل هو الذي رباه فبعيد لان السامري ان عرف انه جبريل حال كمال عقله
عرف قطعا ان موسى نبي صادق فكيف يحاول الاضلال وان كان ما عرفه
حال البلوغ فاي منفعة ان جبريل مربيه حال الطفولية في حصول تلك المعرفة
ثم ان موسى عليه السلام لما سمع من السامري ما ذكر قال له فاذهب اي
تسبب عن فعلك اني اقول لك اذهب من بيننا وحيث ذهبت فان لك
في الحياة اي ما دمت حيا ان تقول لكل من رايته لا مساس اي لا تمسني
ولا امسك فلا تقدر ان تنفك عن ذلك فكان يهيم في البرية مع الوحوش
والسباع واذا مس احدا او مسه احد حما جميعا عاقبه الله تعالى
بذلك وكان اذا لقي احدا يقول لا تقربني ولا تمسني وقال ابن عباس
لا مساس لك ولولدك حتى ان بقاياهم اليوم يقولون ذلك واذا مس احد
من غيرهم احدا منهم حما جميعا في ذلك الوقت وان لك بعد الممات
موعدا للثواب ان تبت والعقاب ان ابيت لن تخلفه قرا ابن كثير وابو عمرو
بكسر اللام اي لن تغيب عنه والباقون بفتحها اي بل يبعث اليه فلا انفكاك
لك عنه فما انك في الحياة لا تقدر ان تنفك عن النفرة من الناس
فاختر لنفسك ما يحلو ولما ذكر ما دلاله الحق من القدرة التامة في الدارين

ن

ابنه عجز العجل فقال وانظر الى الهك اي بزعمك الذي ظلت اي دمت
في مدة يسيرة جدا بما اشار اليه تخفيف التضعيف فانه اصله ظللت
بلامين اولاهما مكسورة حذفت تخفيفا عليه عاكفا اي مقيما تعبده
لنحرقنه اي بالنار وبالبرد قال البقاعي كما سلف عن نقل وعن
نص التوراة وكان معنى ذلك انه احماه حتى لان وهان على المبارد انتهى
ثم لننسفنه اي لنذرينه اذا صار سحالة في اليم اي في البحر
الذي اغرق فيه آل فرعون ثم جمع الله تعالى سحالته التي هي من حليهم
يحميها في نار جهنم ويكوي بها ويجعلهم من اشد العذاب عليهم
واكد الفعل اظهارا لعظمة الله تعالى الذي امره بذلك وتحقيقا للصدق
في الوعد فقال نسفا قال الجلال المحلي وفعل موسى بعد ذبحه ما ذكره
انتهى وعلى هذا لا يصح ان يبرد بالمبرد قال الرازي ويمكن ان يقال
صار لحما ودما وذبح ثم بردت عظامه بالمبرد حتى صارت بحيث يمكن نسفها
ولما اراهم بطلان ما هم عليه بالعيان اخبرهم بالحق على وجه الحصر
فقال انما الهكم الله اي الجامع لصفات الكمال ثم كشف المراد في ذلك
وحققه بقوله فقال الذي لا اله الا هو اي لا يصلح لهذا المنصب احد
غيره لانه وسع كل شيء وقوله علما تمييز محول عن الفاعل اي احاط علمه
بكل شيء فكل شيء اليه مفتقر وهو غني عن كل شيء واما العجل الذي عبدوه
فلا يصلح للالهية بوجه ولا في عبادته شيء من حق ولما شرح الله تعالى قصة
موسى عليه السلام مع فرعون اولا ثم مع السامري ثانيا على هذا الاسلوب
الاعظم والسبيل الاقوم كان كانه قيل هل يعاد شيء من القصص على
هذا الاسلوب البديع والمثال الرفيع فقيل نعم كذلك نقص اي مثل هذا القص
العالي في هذا النظم العزيز الغالي كقصة موسى ومن معه عليك
من انباء اي اخبار ما قد سبق من الامم زيادة في علمك واجلالا
لمقدارك وتسلية لقلبك واذهابا لحزنك بما اتفق للرسل من قبلك
وتكثيرا لبيناتك وزيادة في معجزاتك وليعتبر السامع ويزداد
المستبصر في دينه بصيرة وتتاكد الحجة على من عاند وكابد وقد اتيناك
اي اعطيناك تشريفا لك وتعظيما لقدرك من لدنا اي من عندنا ذكرا
اي كتابا هو القران وفي تسمية القران بالذكر وجوه احدها انه كتاب
فيه ذكر ما يحتاج اليه الناس من امر دينهم ودنياهم وثانيها انه يذكر فيه
انواع آلاء الله ونعمائه وفيه التذكرة والموعظة وثالثها فيه الذكر والشرف
لك ولقومك كما قال تعالى وانه لذكر لك ولقومك وسمى الله تعالى كل كتاب
انزله ذكرا فقال فاسئلوا اهل الذكر والتنكير فيه للتعظيم فانه مشتمل
على اسرار كتب الله المنزلة من اعرض عنه فلم يؤمن به فانه يحمل يوم القيمة وزرا

حملا ثقلا من الاثم خالدين فيه اي في عذاب الوزر وساء اي وبئس هو
اي ذلك الحمل يوم القيمة وقوله حملا تمييز مفسر للضمير في ساء والمخصوص
بالذم محذوف تقديره وزرهم واللام للبيان ومن اقبل عليه كان مذكرا له بكل
ما يريد من العلوم النافعة ويبدل من يوم القيمة يوم ينفخ في الصور اي
القرن النفخة الثانية وقرأ ابو عمرو بنون الاولى مفتوحة وضم الفاء اسناد
الفعل الى الامر تعظيما له او الى النافخ والباقون بياء مضمومة وفتح الفاء
ونحشر المجرمين اي الكافرين يومئذ زرقا اي عيونهم مع سواد
وجوههم لان زرقة العيون ابغض شيء من الوان العيون الى العرب لان الروم
اعداؤهم وهم زرق العيون ولذلك قالوا في صفة العدو واسود الكبد
اصهب السبال ازرق العين وقيل المراد العمى لان حدقته من يذهب نور
بصره تزراق وقيل عطاشا لكونهم يتخافتون اي يخفضون اصواتهم
لما علا صدورهم من الرعب والهول والخفت خفض الصوت واخفاؤه بينهم
اي يقول بعضهم لبعض ما ان لبثتم اي مكثتم الا عشرا اي من الليالي
بايامها في الدنيا وقيل في القبور وقيل بين النفختين وهو مقدار اربعين
سنة قالوا ذلك اما استقصارا لمدة الراحة في جنب ما بدا لهم من المخاوف
لان ايام السرور قصار واما لانها ذهبت عنهم وتقضت والذاهب وان
طالت مدته قصيرة بالانتهاء ومنه توقيع عبد الله بن المعتز تحت اطال الله بقاك
كفى بالانتهاء قصرا واما لاستطالتهم الآخرة فانه يستقصر اليها عمر الدنيا
ويتقال لبث اهلها فيها بالقياس الى لبثهم في الآخرة كما قال تعالى كم لبثتم
في الارض عدد سنين قالوا لبثنا يوما او بعض يوم فسئل العادين
واما غلطا ودهشة قال الله تعالى نحن اعلم من كل احد بما يقولون
في ذلك اليوم اي ليس كما قالوا اذ يقول امثلهم اي اعدلهم طريقة اي
رايا وعملا في الدنيا فيما يحسبون ان اي ما لبثتم الا يوما اي مبدا الآحاد
ولا مبدا العقود كما قال تعالى في اية اخرى ويوم تقوم الساعة يقسم
المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون فلا يزالون في افك وصرف
عن الحق في الدارين لان الانسان يموت على ما عاش عليه ويبعث على ما مات
عليه ولما وصف سبحانه وتعالى امر يوم القيمة حكى بسؤال من لا يؤمن
بالحشر فقال تعالى ويسالونك يا اشرف الخلق عن الجبال كيف تكون
يوم القيمة فقال الضحاك نزلت في مشركي مكة قالوا يا محمد كيف تكون
الجبال يوم القيمة وكان سؤالهم على سبيل الاستهزاء ولما كان مقصودهم
من هذا السؤال الطعن في الحشر والنشر فلا جرم امره الله تعالى بالجواب
مقرونا بحرف التعقيب والنسف التذرية وقيل القطع الذي يقطعها من
اصلها ويجعلها هباء منثورا قال الخليل ينسفها يذهبها ويطيرها وفي

ضمير فيذرها قولان احدهما انه ضمير الارض اضمرت للدلالة عليها كقوله
تعالى ما ترك على ظهرها من دابة والثاني ضمير الجبال وذلك على حذف مضاف
اي فيذر مراكزها ومقارها ويذر يجوز ان يكون بمعنى يخليها فتكون قاعا
حال وان يكون بمعنى يترك التصيير فيتعدى لاثنين فقاعا ثانيهما والقاع
هو المكان المستوي وقيل هو الارض التي لا بناء فيها ولا نبات وفي قوله
صفصفا قولان احدهما الارض الملساء والثاني المستوية والقاع
والصفصف قريبان من الترادف وجمع القاع اقوع واقواع وقيعان لا ترى
فيها اي الارض او مواضع الجبال عوجا اي انخفاضا ولا امتا
اي ارتفاعا بوجه من الوجوه وعبر هنا في العوج بالكسر وهو للمعاني ولم
يعبر بالفتح التي توصف بها الاعيان والارض او مواضع الجبال اعيان
لا معان نفيا للاعوجاج على ابلغ وجه بمعنى انك لو جمعت اهل الخبرة
بتسوية الارض لاتفقوا على الحكم باستوائها ثم لو جمعت اهل الهندسة
لحكموا بقياسهم العلمية فيها لحكموا بمثل ذلك يومئذ اي يوم اذ
نسفت اي الجبال يتبعون اي الناس بعد القيام من القبور بغاية
جهدهم الداعي اي الى المحشر وهو اسرافيل يضع الصور على فيه ويقف
على صخرة بيت المقدس ويقول ايتها العظام البالية والجلود المتمزقة
واللحوم المتفرقة هلموا الى عرض الرحمن لا عوج له اي الداعي في شيء من
قصدهم اليه لانه ليس في الارض ما يحرجهم الى التفويج ولا يمنع
الصوت من النفوذ على السواء وقيل لا عوج لدعائه وهو من المقلوب
اي لا عوج لهم عن دعاء الداعي لا يزيغون عنه يمينا ولا شمالا ولا يقدرون
عليه بل يتبعونه سراعا وخشعت الاصوات اي سكنت وذلت وتطامنت
لخشوع اهلها للرحمن الذي عمت نعمه فيرجى كرمه ويخشى نقمه فلا
اي فتسبب عن خشوعها انك لا تسمع الا همسا اخفى ما يكون
من الاصوات وقيل اخفى شيء من الاصوات في نقلها الى المحشر كصوت
اخفاف الابل في مشيها يومئذ اي اذ كان ما تقدم لا تنفع الشفاعة احدا
الا من اذن له الرحمن اي يشفع له ورضي له قولا ولو الايمان المجرد
قال ابن عباس يعني قال لا اله الا الله فهذا يدل على انه لا يشفع
لغير المؤمن ولما نفى ان تنفع شفاعة بغير اذنه علل ذلك كما سلف في اية
الكرسي بقوله يعلم ما بين ايديهم اي الخلائق من امور الاخرة
وما خلفهم من امور الدنيا وقيل ما بين ايديهم ما قدموا وما خلفهم
ما خلفوا من الاعمال ولا يحيطون به علما اي لا يحيط علمهم بمعلوماته
وقيل الضمير الى ما بين ايديهم وما خلفهم وهم لا يعلمونه وقيل راجع
الى الله تعالى لا يحيطون بالله علما ولما ذكر خشوع الاصوات اتبعه

خضوع

خضوع رؤوسها فقال وعنت الوجوه اي ذلت وخضعت في ذلك اليوم
ويصير الملك والقهر لله تعالى دون غيره وخص الوجوه بالذكر مع ان المراد
الاشخاص لشرف الوجوه ولانها اول ما يظهر فيها الذل للحي الذي
هو مطلع على الدقائق والجلائل القيوم الذي لا يغفل عن التدبير
ومجازاة كل نفس بما كسبت روى ابن امامة الباهلي عن
النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اطلبوا اسم الله الاعظم في هذه
السور الثلاث البقرة وال عمران وطه قال الرازي فوجدت المشترك
ك في السور الثلاث الله لا اله الا هو الحي القيوم وقد خاب اي
خسر خسارة ظاهرة من حمل ظلما قال ابن عباس خسر من اشرك
بالله والظلم الشرك ولما شرح الله تعالى احوال القيامة ختم الكلام فيها
بشرح احوال المؤمنين فقال تعالى ومن يعمل من الصالحات اي التي
امره الله تعالى بها بحسب طاقته لانه لن يقدر الله احد حق قدره
ولن يشاد الدين احد الا غلبه وهو مؤمن ليكون بناؤها على الاساس
س كما في قوله تعالى ومن ياته مؤمنا قد عمل الصالحات فلا يخاف ظلما اي
زيادة في سيئاته ولا هضما اي نقصا من حسناته قاله ابن
عباس وقيل لا يؤخذ بذنب لم يعمله ولا تبطل حسنة عملها وعبر
بالفاء اشارة الى قبول الاعمال وجعلها سببا لذلك الحال واما غير
المؤمن فلو عمل امثال الجبال لم يكن لها وزن وقوله تعالى وكذلك
معطوف على قوله تعالى وكذلك نقص اي ومثل انزال ما ذكر انزلناه
اي القرآن قرآنا جامعا لجميع المعاني المقصودة ثم وصفه تعالى
بامرين احدهما قوله تعالى عربيا وصرفنا فيه من الوعيد اي كررناه وفصلناه
ويدخل تحت الوعيد بيان الفرائض والمحارم لان الوعيد بهما يتعلق
بتكريره وتصريفه يقتضي بيان الاحكام فلذلك قال تعالى لعلهم يتقون
اي يجتنبون الشرك والمحارم وترك الواجبات فيصير التقوى لهم
ملكة او يحدث لهم ذكرا اي عظة واعتبارا حين يسمعونها فيثبطهم
عنها ولهذه النكتة اسند التقوى اليهم والاحداث الى القرآن
فتعالى الله في ذاته وصفاته عن مماثلة المخلوقين لا يماثل كلامه
كلامهم كما لا يماثل ذاته وصفاته ذواتهم وصفاتهم الملك الذي
لا يعجزه شيء ولا ملك في الحقيقة غيره الحق اي الثابت الملك فلا زوال
لكونه ملكا في زمن ما ولعظمة ملكه وحقية ذاته وصفاته صرف
خلقه على ما هم عليه من الامور المتباينة ولما شرح الله تعالى كيفية
نفع القرآن للمكلفين وبين انه سبحانه متعال عن كل ما لا ينبغي موصوف
بالاحسان والرحمة ومن كان كذلك صان رسوله عن السهو والنسيان

في امر الوحي فلذلك قال تعالى ولا تعجل بالقرآن اي بقراءته من قبل ان
يقضى اليك وحيه من الملك النازل اليك من حضرتنا به كما انا لم نعجل
بانزاله عليك جملة بل رتلناه لك ترتيلا ونزلناه اليك تنزيلا منفصلا
منفصلا وموصلا توصيلا فاستمع له ملقيا جميع تاملك اليه
ولا تسابقه بالقراءة فاذا فرغ فاقراه وانما نجمعه في قلبك ولا تكلفك
لمسابقته بتلاوته وقل رب اي المحسن الي بافاضة العلوم علي
زدني علما اي سل الله زيادة العلم بدل الاستعجال فان ما
اوحي اليك تناله لا محالة روى الترمذي عن ابي هريرة قال كان
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اللهم انفعني بما علمتني وعلمني
ما ينفعني وزدني علما والحمد لله على كل حال واعوذ بالله من
حال اهل النار وكان ابن مسعود اذا قرا هذه الاية قال اللهم زدني
علما ويقينا ولما قال تعالى وكذلك نقص عليك من انباء ما قد سبق ذكر
هذه القصة انجازا للوعد فقال ولقد عهدنا بما لنا من العظمة
الى ادم ابي البشر اي وصيناه ان لا ياكل من الشجرة وانما عطفها
على قوله تعالى وصرفنا فيه من الوعيد للدلالة على ان اساس بني ادم
على العصيان وعرقهم راسخ بالنسيان من قبل اي في زمن من الازمان
الماضية قبل هؤلاء الذين تقدم في هذه السورة ذكر نسيانهم
واعراضهم فنسي عهدها واكل منها ولم نجد له عزما اي تصميم
راي وثبات على الامر اذ لو كان ذا عزيمة وتصلب لم يزله الشيطان
ولم يستطع تغريره قال البيضاوي ولعل ذلك كان في بدء امره قبل
ان يجرب الامور ويذوق اريها وشريها انتهى والاري العسل والشري
الحنظل قال البغوي قال ابو امامة الباهلي لو وزن حلم ادم بحلم
ولده لرجح حلمه وقد قال الله تعالى ولم نجد له عزما قال البيضاوي
وعن النبي صلى الله عليه وسلم لو وزنت احلام بني ادم بحلم ادم لرجح حلمه
وقد قال تعالى ولم نجد له عزما قال ابن الاثير والحلم بالكسر الاناة
والتثبت في الامور فان قيل ما المراد بالنسيان اجيب بانه يجوز
ان يراد بالنسيان الذي هو نقيض الذكر وانه لم يعن بالوصية العناية
الصادقة ولم يستوثق منها بعقد القلب عليها وضبط النفس حتى
تولد من ذلك النسيان ولم يكن النسيان في ذلك الوقت مرفوعا
عن الانسان بل كان يؤاخذ به وانما رفع عنا وكان الحسن يقول ما عصى
احد قط الا بنسيان وان يراد الترك وانه ترك ما وصي به من الاحتراز
عن الشجرة واكل ثمرتها وقيل نسي عقوبة الله تعالى وظن انه نهي تنزيه

تنبيه

تنبيه هذا هو المرة الخامسة من قصة ادم في القران اولها في البقرة ثم في الاعراف
ثم في الحجر ثم في الكهف ثم هنا وقوله تعالى واذ قلنا للملائكة اسجدوا لادم فسجدوا الا ابليس
تقدم الكلام على ذلك مفصلا في سورة البقرة وقوله تعالى ابى جملة مستانفة
لانها جواب سؤال مقدر اي ما منعه من السجود واجيب بانه ابى ومفعول
الاباء يجوز ان يكون مرادا وقد صرح به في الاية الاخرى وقوله تعالى ان
يكون من الساجدين وحسن حذفه هنا كون العامل راس فاصلة ويجوز
ان لا يراد اصلا وان المعنى انه من اهل الاباء والعصيان من غير نظر الى متعلق
الاباء ما هو فقلنا بسبب امتناعه بعد ان حلمنا عنه ولم نعاجله
بالعقوبة يا ادم ان هذا الشيطان الذي تكبر عليك عدو لك ولزوجك
حواء بالمد لانها منك وسبب تلك العداوة من وجوه الاول ان ابليس
كان حسودا فلما راى اثار نعم الله في حق ادم حسده فصار عدوا له
الثاني ان ادم عليه السلام كان شابا عالما لقوله تعالى وعلم ادم الاسماء كلها
وابليس كان شيخا جاهلا لانه اثبت فضيلته بفضيلة اصله وذلك
جهل والشيخ الجاهل ابدا يكون عدوا للشاب العالم الثالث ان ابليس
مخلوق من النار وادم مخلوق من الماء والتراب فبين اصليهما عداوة
فبقيت تلك العداوة فان قيل لم قال تعالى فلا يخرجنكما من الجنة مع ان
المخرج لهما منها هو الله تعالى اجيب بان لما كان بوسوسته هو الذي
فعل ما ترتب عليه الخروج صح ذلك فان قيل لم قال تعالى فتشقى
اي فتتعب وتنصب في الدنيا ولم يقل فتشقيا اجيب بوجهين
احدهما ان في ضمن شقاء الرجل وهو قيم اهله واميرهم شقاوتهم كما ان في
ضمن سعادته سعادتهم فاختص الكلام باسناده اليه دونها مع
المحافظة على كونه راس فاصلة وعن سفيان بن عيينة قال لم يقل
فتشقيان لانها دخلت في المعنى عليهما جميعا وعلى اولادهما بقوله
تعالى يا ايها النبي اذا طلقتم النساء يا ايها النبي لم تحرم ما احل الله لك قد
فرض لكم تحلة ايمانكم فدخلوا في المعنى معه وانما كلم النبي وحده الثاني
اريد بالشقاء التعب في طلب القوت وذلك على الرجل وحده دون
المراة لان الرجل هو الساعي على زوجته روي انه اهبط الى ادم ثور
احمر فكان يحرث عليه ويمسح العرق من جبينه ويحتاج بعد الحرث
الى الحصد والطحن والخبز وغير ذلك مما يحتاج اليه وعن الحسن
قال عنى به شقاء الدنيا لا تلقى ابن ادم الا شقيا ناصبا ولو اراد
شقاء الاخرة ما دخل الجنة بعد ذلك ولما كان الشبع والري
والكسوة والكن هي الامور التي تدور عليها كفاف الناس ذكر
الله تعالى حصول هذه الاشياء في الجنة من غير حاجة الى المكسب والطلب

وذكرها بلفظ النفي لاضدادها بقوله تعالى ان لك الا تجوع فيها ولا تعرى وانك
لا تظمؤا فيها ولا تضحى اي لا يحصل لك حر شمس الضحى لانتفا الشمس
في الجنة بل اهلها في ظل ممدود وهذه الاشياء كانها تفسير الشقا المذكور
في قوله تعالى فتشقى فوسوس اليه اي فتعقب تحذيرنا هذا من غير
بعد زمان ان وسوس الشيطان المحترق المطرود وهو ابليس
اي انهى اليه الوسوسة واما وسوس له فمعناه لاجله لذلك عدي تارة هو
باللام في قوله تعالى فوسوس لهما وتارة بالى ثم بين تعالى تلك الوسوسة
ما هي بقوله تعالى قال يا ادم هل ادلك على شجرة الخلد اي على الشجرة التي ان
اكلت منها بقيت مخلدا وملك لا يبلى اي لا يبيد ولا يفنى قال
الرازي واقعة ادم عجيبة وذلك ان الله تعالى رغبه في دوام الراحة
وانتظام المعيشة بقوله تعالى فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ان لك
الا تجوع فيها ولا تعرى وانك لا تظمؤا فيها ولا تضحى ورغبه ابليس ايضا
في دوام الراحة بقوله هل ادلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى وفي انتظام
المعيشة وملك لا يبلى فكان الشي الذي رغب الله تعالى ادم فيه هو الذي
رغبه ابليس فيه الا ان الله تعالى وقف ذلك على الاحتراس من تلك الشجرة
وابليس وقفه على الاقدام عليها ثم ان ادم عليه السلام مع كمال عقله
وعلمه بان الله تعالى مولاه وناصره ومربيه وعلمه ان ابليس عدوه حيث
امتنع من السجود له وعرض نفسه للعنة بسبب عداوته كيف قبل
في الواقعة الواحدة والمقصود الواحد قول ابليس مع علمه بعداوته
له واعرض عن قول الله تعالى له مع علمه بانه الناصر له والمولى ومن تامل
هذا الباب طال تعجبه وعلم اخر الامر ان هذه القصة كالتنبيه على انه
لا دافع لقضا الله ولا مانع منه وان الدليل وان كان في غاية الظهور ونهاية
القوة فانه لا يحصل النفع به الا اذا قضى الله ذلك وقدره انتهى
ويدل على ذلك ما ثبت في الحديث الصحيح روى البخاري ومسلم ان
النبي صلى الله عليه وسلم قال احتج ادم وموسى عند ربهما فحج ادم موسى
قال موسى انت ادم الذي خلقك بيده ونفخ فيك من روحه واسجد لك
ملايكته واسكنك جنته ثم اهبطت الناس بخطيتك الى الارض
فقال ادم انت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه واعطاك
الالواح فيها بيان كل شي وقربك نجيا فكم وجدت الله كتب التوراة
قبل ان اخلق قال موسى باربعين عاما قال ادم فهل وجدت فيها وعصى
ادم ربه فغوى قال نعم قال افتلومني على ان عملت عملا كتبه الله علي ان
اعمله قبل ان يخلقني باربعين سنة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
فحج ادم موسى وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال

رسول



رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب الله مقادير الخلايق قبل ان يخلق
السموات والارض بخمسين الف عام سنة قال وعرشه على الما وقال
كل شي بقدر حتى العجز والكيس ثم كان ابليس قال لادم بلسان الحال
او المقال مشيرا الى الشجرة التي نهي عنها ما بينك وبين الملك الدايم
الا ان تاكل منها فاكلا اي فتسبب عن قوله وتعقب ان اكل منها
هو وزوجته متبعين لقوله ناسيين لما عهد اليهما الا ما قدره الله في الازل
فبدت لهما سواتهما قال ابن عباس عريا من النور كان الله البسهما حتى
بدت فروجهما وانما جمع سواتهما كما قال فقد صغت قلوبكما اي فظهر لكل منهما
قبله وقبل الاخر ودبره وسمي كل منهما سوءة لان انكشافه يسوء صاحبه
وطفقا يخصفان اي اخذا يلزقان عليهما من ورق الجنة ليستترا به قال
ابن عادل وهو ورق التين وعصى ادم بالاكل من الشجرة وان كان
انما فعل المنهي نسيانا لان عظم مقامه وعلو رتبته يقتضيان له دوام
المراقبة ومزيدا لاعتنا به ربه اي المحسن اليه بما لم ينله احد من بنيه
من تصويره له بيده واسجاد ملايكته له ومعاداة من عاداه فغوى اي ضل
عما لم يكن له فعله وقيل اخطا طريق الحق وقيل حيث طلب الخلد باكل ما نهي
عنه فخاب ولم ينل مراده وصار من العز الى الذل ومن الراحة الى التعب قال
ابن قتيبة يجوز ان يقال عصى ادم ولا يجوز ان يقال ادم عاص لانه
انما يقال عاص لمن اعتاد فعل المعصية كالرجل يخيط ثوبه فيقال خاط
ثوبه ولا يقال هو خياط حتى يعاوده ويعتاده تنبيه تمسك بعضهم
بقوله تعالى وعصى ادم ربه فغوى في صدور الكبيرة عنه من وجهين الاول ان
العاصي اسم للذم فلا ينطلق الا على صاحب الكبيرة ولقوله تعالى ومن يعص الله ورسوله
فان له نار جهنم خالدا فيها ولا معنى لصاحب الكبيرة الا من فعل فعلا يعاقب
عليه الثاني ان الغواية والضلالة اسمان مترادفان والغي ضد الرشد
ومثل هذا لا يتناول الا الفاسق المنهمك في فسقه واجيب بان المعصية
مخالفة الامر والامر قد يكون بالواجب وقد يكون بالمندوب فانك تقول
امرته فعصاني وامرته بشرب الدوا فعصاني واذا كان كذلك لم يمتنع اطلاق
اسم العصيان على ادم لكونه تاركا للمندوب وان كان وصف تارك المندوب بانه عاص مجازا
واجاب ابو مسلم الاصبهاني بانه عصى في مصالح الدنيا لا فيما يتصل بالتكاليف
وكذا القول في غوى قال الرازي والاولى عندي في هذا الباب ان يقال في هذه الواقعة
كانت قبل النبوة وقد تقدم شرح ذلك في البقرة وقيل بل اكل من الشجرة متناولا
لاعلام ان الشجرة التي نهاه الله عنها شجرة مخصوصة لا على الجنس وهذا قيل انما كانت التوبة
من ترك التحفظ لا من المخالفة وهو كما قيل حسنات الابرار سيات المقربين ايدرؤها بالاضافة
الى علو حالهم كالانبيا ثم اجتباه ربه اي اختاره واصطفاه فتاب عليه اي

قبل توبته واعاد عليه بالعفو والمغفرة **وهدى** اي هداه لرشده حتى رجع الى الندم والاستغفار ولما كانت دار الملوك لا تحتمل مثل ذلك وان كان قد هيأه بالاجتبا لها قال على سبيل الاستيناف **قال** الرب سبحانه وتعالى انتهاكه حرمة داره **اهبطا** اي ادم وحوا بما اشتملتما عليه من ذريتكما **منها** اي الجنة **جميعا** وقيل الخطاب لادم ومعه ذريته ولابليس فقوله تعالى **بعضكم لبعض عدو** يكون على التقدير الاول بعض الذرية لبعض عدو ومن ظلم بعضهم لبعض او على الثاني في ادم وذريته وقوله تعالى **فاما** فيه ادغام نون ان الشرطية في ما الزايدة **يأتينكم مني هدى** اي كتاب ورسول **فمن اتبع هداي** الذي اسعفته به من اوامر الكتاب والرسول **فلا يضل** اي بعد ذلك عن طريق السعادة في الدنيا **ولا يشقى** في الاخرة قال ابن عباس من قرأ القران واتبع ما فيه هداه الله تعالى من الضلالة ووقاه الله تعالى يوم القيمة سوء الحساب وذلك ان الله تعالى يقول فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ولما وعد تعالى من اتبع الهدى بالوعيد اتبعه بوعيد من اعرض فقال تعالى **ومن اعرض عن ذكري** اي عن القران فلم يؤمن به ولم يتبعه **فان له معيشة ضنكا** والضنك اصله الضيق والشدة وهو مصدر فكانه قال له معيشة ذات ضنك واختلف في ذلك فقال ابو هريرة وابو سعيد الخدري وابن مسعود المراد بالمعيشة الضنكى عذاب القبر وروى ابو هريرة ان عذاب القبر للكافرين قال قال صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده ليسلط عليه في قبره تسعة وتسعون تنينا هل تدرون ما التنين تسعة وتسعون حية لكل حية تسعة رؤس يخدشونه ويلسعونه وينفخون في جسمه الى يوم يبعثون وقال الحسن وقتادة والكلبي هو الضيق في الاخرة في جهنم قال طعامهم الضريع والزقوم وشرابهم الحميم والغسلين لا يموتون فيها ولا يحيون وقال ابن عباس المعيشة الضنك هي ان يضيق ابواب الخير فلا يهتدي لشيء وقال عطا المعيشة الضنك هي معيشة الكافر لانه غير موقن بالثواب والعقاب وروي عن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال عقوبة المعصية ثلاثة ضيق المعيشة والعسر في الشدة وان لا يتوصل الى قوته الا بمعصية الله وذلك ان مع الدين التسليم والقناعة والتوكل على الله تعالى وقسمته فهو ينفق ما رزقه الله تعالى بسماحة وسهولة فيعيش عيشا رافعا كما قال تعالى فلنحيينه حياة طيبة والمعرض عن الدين مستولى عليه الحرص الذي لا يزال يطمح به الى الازدياد من الدنيا مسلط عليه الشح الذي يقبض يده عن الانفاق فعيشته ضنك وحالته مظلمة قال صلى الله عليه وسلم لو كان لابن ادم واد من ذهب لابتغى اليه ثانيا

ولو ان

ولو ان له واديين لابتغى ثالثا ولا يملأ جوف ابن ادم الا التراب ويتوب الله على من تاب متفق عليه قال بعض الصوفية لا يعرض احد عن ذكر ربه الا اظلم عليه وقته وتشوش عليه رزقه وقال تعالى استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا وقال تعالى وان لو استقاموا على الطريقة لاسقيناهم ماء غدقا ثم ذكر حال المعرض في الاخرة بقوله تعالى **ونحشره يوم القيمة اعمى** قال ابن عباس اذا خرج من القبر خرج بصيرا فاذا سيق الى المحشر عمي ولعله جمع بذلك بين هذا وبين قوله تعالى اسمع بهم وابصر يوم يأتوننا وعن عكرمة قال عمي عليه كل شيء الا جهنم وفي لفظ قال لا يبصر الا النار وعن مجاهد المراد بالعمى عدم الحجة ويؤيد الاول **قال رب لم حشرتني اعمى** في هذا اليوم **وقد كنت بصيرا** اي في الدنيا او في اول هذا اليوم فكانه قيل **فما قال** له ربه **قال كذلك** اي مثل ذلك فعلت ثم فسره فقال **اتتك اياتنا** واضحة نيرة **فنسيتها** عميت عنها وتركتها غير منظور اليها **وكذلك** اي ومثل تركك اياها **اليوم تنسى** اي تترك في العمى والعذاب **وكذلك** اي ومثل هذا الجزاء الشديد **نجزي من اسرف** في متابعة هواه فتكبر عن متابعة اوامرنا **ولم يؤمن** بل كذب **بايات ربه** وخالفها **ولعذاب الاخرة اشد** مما يعذبهم به في الدنيا والقبر لعظمه **وابقى** فانه غير منقطع ولما بين تعالى ان من اعرض عن ذكري كيف يحشر يوم القيمة اتبعه بما يعتبر به المكلف من الافعال الواقعة في الدنيا ممن كذب الرسل فقال **افلم يهد** اي يبين بيانا يقود الى المقصود **لهم** اي هؤلاء الذين ارسلت اليهم اعظم رسلي وفاعل يهد مضمون قوله **كم اهلكنا** قال ابو البقا الفاعل ما دل عليه اهلكنا اي اهلاكنا والجملة مفسرة له وقال الزمخشري فاعل اولم يهد الجملة بعده يريد الم يهد لهم هذا بمعناه ومضمونه ونظيره قوله تعالى وتركنا عليه في الاخرين سلام على نوح في العالمين اي تركنا عليه هذا الكلام ويجوز ان يكون فيه ضمير الله او الرسول انتهى وكم خبرية مفعول اهلكنا **قبلهم من القرون** اي بتكذيبهم لرسلنا حال كونهم **يمشون** اي هؤلاء العرب من اهل مكة وغيرهم **في مساكنهم** اي في سفرهم الى الشام ويشاهدون اثار هلاكهم **ان في ذلك** اي الاهلاك العظيم الشان المتوالي في كل امة **لايات** عظيمات البينات **لاولي النهى** اي لذوي العقول الناهية عن التغافل والتعامي ولما هددهم باهلاك الماضين ذكر سبب التاخير عنهم بقوله تعالى **ولولا كلمة** اي عظيمة ماضية نافذة **سبقت** في الازل **من ربك** الذي عودك بالاحسان بتاخير العذاب عنهم الى الاخرة فانه يعامل بالحلم والاناة **لكان** اي العذاب **لزاما** اي لازما اعظم لزوم لهم في الدنيا مثل ما نزل بعاد وثمود ولكن نمد لهم لنرد من شاء منهم ونخرج

من اصلاب بعضهم من يومن وانما فعلنا ذلك اكراما لك ورحمة لامتك فيكثر ابا
يعملون الخيرات فيكون ذلك زيادة في شرفك والى ذلك الاشارة بقوله صلى
الله عليه وسلم وانما كان الذي اوتيته وحيا اوحاه الله الي فارجو ان اكون اكثرهم
تابعا وفي رفع قوله **واجل مسمى** وجهان اظهرهما عطفه على كلمة اي ولولا اجل
مسمى لكان العذاب لازما لهم وهذا ما صدر به البيضاوي والثاني انه معطوف
على الضمير المستتر في كان وقام الفصل بخبرها مقام التاكيد واقتصر الجلال
المحلي على هذا وجوزه الزمخشري والبيضاوي وفي هذا الاجل المسمى قولان
احدهما ولولا اجل مسمى في الدنيا لكان العذاب لذلك وهو يوم بدر والثاني ولولا
اجل مسمى في الاخرة لذلك العذاب وهذا كما قال الرازي اقرب قال اهل السنة
لله تعالى بحكم المالكية ان يخص من شاء بفضله ومن شاء بعذابه من غير علة اذ لو كان
فعله لعلة لكانت تلك العلة اما قديمة فيلزم قدم الفعل واما حادثة فيلزم
افتقارها الى علة اخرى ويلزم التسلسل ثم انه تعالى لما اخبر نبيه صلى الله
عليه وسلم بانه لا يهلك احدا قبل استيفاء اجله امره بالصبر فقال **فاصبر على
ما يقولون** لك من الاستهزاء وغيره وهذا كان في اول الامر ثم نسخ باية القتال
وسبح اي صل وقوله **بحمد ربك** حال اي وانت حامد لربك على انه وفقك
لذلك واعانك عليه **قبل طلوع الشمس** صلاة الصبح **وقبل غروبها** صلاة
العصر **ومن اناء الليل** اي ساعاته **فسبح** اي صل المغرب والعشا وقوله
واطراف النهار معطوف على محل من اناء المنصوب اي صل الظهر لان وقتها يدخل
بزوال الشمس فهو طرف النصف الاول وطرف النصف الثاني قال ابن عباس
دخلت الصلوات الخمس في ذلك وقيل المراد الصلوات الخمس في النوافل
لان الزمان اما ان يكون قبل طلوع الشمس او قبل غروبها فالليل والنهار داخلان
فيهما بين العبارتين واوقات الصلوات الواجبة دخلت فيها بقي قوله ومن اناء
الليل فسبح واطراف النهار للنوافل وقال ابو مسلم لا يبعد حمل التسبيح على
التنزيه والاجلال والمعنى اشتغل بتنزيه الله تعالى في هذه الاوقات فان قيل
النهار له طرفان فكيف قال واطراف ولم يقل طرفي النهار واجيب بوجهين
اظهرهما انه انما جمع لانه يلزم في كل نهار ويعود والثاني ان اقل الجمع اثنان
وقرا قوله تعالى **لعلك ترضى** ابو بكر والكسائي بضم التاء اي ترضى بما تنال من
الثواب كقوله تعالى وكان عند ربه مرضيا وقرا الباقون بفتحها اي ترضى بما تنال من
الشفاعة قال تعالى ولسوف يعطيك ربك فترضى وقال تعالى عسى ان يبعثك
ربك مقاما محمودا والمعنى على القراءتين لا يختلف لان الله تعالى اذا ارضاه فقد رضيه
واذا رضيه فقد ارضاه ولما كانت النفس ميالة الى الدنيا مولعة بالحاضر من
فاني العطايا وكان تخليها عن ذلك هو الموصل الى حزبها المودي بملوهها قال
تعالى موكدا ايذانا بصعوبة ذلك **ولا تمدن** موكدا له بالنون الثقيلة

عينيك

عينيك اي لا تطول نظرهما بعد النظرة الاولى المعفو عنها **الى ما متعنا به**
الحياة الفانية **ازواجا** اي اصنافا **منهم** اي الكفرة استحسانا له وتمنيا ان
يكون لك مثله لا امتاع الالتذاذ بما يدرك من المناظر الحسنة ويسمع من الاصوات
المطربة ويشم من الروائح الطيبة وغير ذلك كتعاطي الملابس والمناكح وقوله تعالى
زهرة الحياة الدنيا اي زينتها وبهجتها منصوب بمحذوف دل عليه متعنا او به
على تضمينه معنى اعطينا فازواجا مفعول اول وزهرة هو الثاني وذكر ابن عادل
غير هذين الوجهين سبعة اوجه لا حاجة لنا بذكرها ثم علل تعالى تمتيعهم بقوله تعالى
لنفتنهم فيه اي لنفعل بهم فعل المختبر فيكون سبب عذابهم في الدنيا
بالعيش الضنك لما مضى وفي الاخرة بالعذاب الاليم فصورته تغر من لم يتامل
معناه حق التامل فما انت فيه خير مما هم فيه **ورزق ربك** في الجنة **خير** مما اوتوه في
الدنيا **وابقى** اي ادوم او ما رزقته من نعمة الاسلام والنبوة او لان اموالهم الغالب
عليها الغصب والسرقة والحرمة من بعض الوجوه والحلال خير وابقى قال الزمخشري
لان الله تعالى لا ينسب الى نفسه الا ما حل وطاب دون ما حرم وخبث والحرام لا يسمى
رزقا انتهى وهذا جار على مذهب المخالف من اهل السنة من ان الحرام يسمى رزقا
وقال ابو مسلم الذي نهى عنه بقوله ولا تمدن عينيك ليس هو النظر بل هو
الاسف اي لا تاسف على ما فاتك مما نالوه من حظ الدنيا وقال ابو رافع نزلت هذه الاية
في ضيف نزل بالنبي صلى الله عليه وسلم فبعثني الى يهودي يبيع او يسلف الى
مدة فقال والله لا افعل الا برهن فاخبرته بقوله فقال صلى الله عليه وسلم اني لامين
في السماء اني لامين في الارض احمل اليه درعي الحديد فنزل قوله ولا تمدن عينيك
وعنه صلى الله عليه وسلم ان الله لا ينظر الى صوركم ولا الى اموالكم ولكن ينظر الى قلوبكم
واعمالكم وقال ابو الدرداء الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا
عقل له وعن الحسن لولا حمق الناس لخربت الدنيا وعن عيسى بن مريم عليه السلام
لا تتخذوا الدنيا دارا فتتخذكم لها عبيدا ولما امر الله تعالى نبيه بتزكية النفس
امره بان يامر اهله بالصلاة بقوله **وامر اهلك بالصلاة** اي امر اهل بيتك والتابعين
لك من امتك بالصلاة كما كان ابوك اسماعيل عليه السلام يدعوهم الى كل خير اذ
الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولسيما وتواعي الاستعانة على خصاصتهم ولا يهتموا
بامر المعيشة ولا يلتفتوا لفت ارباب الثروة وكان صلى الله عليه وسلم بعد نزول
هذه الاية يذهب الى فاطمة وعلي رضي الله عنهما كل صباح ويقول الصلاة **واصطبر**
اي داوم **عليها لا نسالك** اي لا نكلفك **رزقا** لنفسك ولا لغيرك **نحن
نرزقك** وغيرك كما قال تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما اريد منهم
من رزق وما اريد ان يطعمون ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين ففرغ بالك لامر
الاخرة وفي معناه قول الناس من كان في عمل الله كان الله في عمله وروي انه صلى الله
عليه وسلم كان اذا اصاب اهله ضر امرهم بالصلاة وتلا هذه الاية وعن عروة

ابن الزبير انه كان اذا راي ما عند السلطان قرا ولا تمدن عينيك ثم ينادي الصلاة الصلاة
رحمكم الله وعن ابي بكر بن عبد الله المزني كان اذا اصاب اهله خصاصة قال قوموا فصلوا
بهذا امر الله ورسوله ثم يتلو هذه الاية **والعاقبة** اي الجملة المحمودة **للتقوى**
اي لاهل التقوى قال ابن عباس الذين صدقوك واتبعوك واتقوني ويوئيد
قوله تعالى في موضع اخر والعاقبة للمتقين ولا معونة على الرزق وغيره بشي يوازي
الصلاة فقد كان صلى الله عليه وسلم اذا حزبه امر اي بالبا الموحدة اي اذا احزنه
فزع الى الصلاة قال ثابت وكان الانبيا عليهم السلام اذا نزل بهم امر فزعوا الى الصلاة
وعن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى تفرغ لعبادتي
املا صدرك غنى واسد فقرك وان لم تفعل ملات صدرك شغلا ولم اسد فقرك
وعن ابن مسعود قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من جعل الهموم
هما واحدا هم المعاد كفاه الله هم دنياه ومن تشعبت به هموم احوال الدنيا لم يبال
الله في اي اوديتها هلك وعن زيد بن ثابت قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول
من كانت الدنيا همه فرق الله عليه امره وجعل فقره بين عينيه ولم ياته من الدنيا الا
ما كتب له ومن كانت الاخرة همه جمع الله له امره وجعل غناه في قلبه واتته الدنيا
وهي راغمة ثم انه تعالى بعد هذه الوصية حكى عنهم شبهتهم بقوله
تعالى **وقالوا لولا ياتينا باية من ربه** فكانه من لوازم قوله قوله تعالى فاصبر
على ما يقولون وهو قولهم لولا اي هلا ياتينا باية وقال في موضع اخر فلياتنا باية
كما ارسل الاولون ثم اجاب الله تعالى عن رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله **اولم تاتهم
بينة** اي بيان **ما في الصحف الاولى** من التوراة والانجيل وساير الكتب السماوية
وهو المشتمل عليه القران من انبا الامم الماضية واهلاكهم بتكذيب الرسل
فما يومنهم ان يكون حالهم في سوال الايات كحال اوليك وقرا نافع وابو عمرو وحفص
بالفوقية على التانيث والباقون بالتحتية على التذكير **ولو انا اهلكناهم** معاملة
لهم في عصيانهم **بعذاب من قبله** اي هذا القران المذكور في الاية الماضية وما فارقا
وفي قوله تعالى ولا تعجل بالقران وفي مبتدا السورة في ما انزلنا عليك القران
لتشقى او من قبل محمد صلى الله عليه وسلم **لقالوا** اي يوم القيمة **ربنا** باي
هو متصف بالاحسان الينا **لولا** اي هلا ولم لا **ارسلت الينا رسولا** يامرنا
بطاعتك **فنتبع** اي فيتسبب عنه ان نتبع **اياتك** التي تجينا بها **من
قبل** ان نذل بالعذاب هذا الذل **ونخزى** بالمعاصي التي عملناها على جهل
فلاجل ذلك ارسلناك اليهم واقمنا بك الحجة عليهم ولما علم بهذا ان ايمانهم كالممتنع
وجدا لهم لا ينقطع بل ان جاءهم الهدى طعنوا فيه وان عذبوا قبله تظلموا كان كانه
قيل فما الذي افعل معهم فقيل **قل** لهم **كل** مني ومنكم **متربص** اي منتظر
ما يوول اليه امري وامركم **فتربصوا** فانكم كالبهايم ليس لكم تامل **فستعلمون** اي
عما قريب بوعد لا خلف فيه وهو يوم القيمة **من اصحاب الصراط** اي الطريق **السوي**

اي

اي المستقيم **ومن اهتدى** اي من الضلالة فحصل على جميع ما ينفعه واجتنب جميع ما يضره
نحن ام انتم قال ابن عادل عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم ان الله عز وجل قراطه ويس قبل ان يخلق ادم بالفي عام فلما سمعت
الملئكة القران قالوا طوبى لامة ينزل عليها هذا طوبى لالسن تتكلم بهذا وطوبى
لاجواف تحمل هذا وعن الحسن ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لا يقرا اهل الجنة
من القران الا طه ويس انتهى ولم يذكر لذلك سندا واما ما رواه البيضاوي
تبعا للزمخشري من انه صلى الله عليه وسلم قال من قراطه اعطي يوم القيامة
ثواب المهاجرين والانصار فحديث موضوع

سورة الانبيا عليهم الصلاة والسلام مكية

قال الرازي باجماع وهو مايه واحدى او اثنا عشر اية والف وستون كلمة
واربعة الاف وثمان وتسعون حرفا **بسم الله** الحكم العدل الذي تمت قدرته
وعم امره **الرحمن** الذي ساوى بين خلقه في رحمة ايجاده **الرحيم** الذي يخاص
شان عباده في معاده قال ابو جعفر بن الزبير في برهانه لما تقدم قوله تعالى ولا
تمدن عينيك الى قوله فستعلمون من اصحاب الصراط السوي ومن اهتدى
قال تعالى **اقترب** اي قرب **للناس حسابهم** اي في يوم القيامة اي فلا
تمدن عينيك الى ذلك فان جعله فتنة واشار بصيغة الافتعال الى مزيد القرب
لانه لا امة بعد ذلك تنتظر امرها واخر الفاعل تهويلا لتذهب النفس في تعيينه
كل مذهب فان قيل كيف وصف ذلك اليوم بالاقتراب وقد عدت دون هذا القول
اكثر من ثمانمية عام اجيب بانه مقترب عند الله والدليل عليه قوله تعالى ويستعجلونك
بالعذاب وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون ولان كل ات قريب وان طالت
اوقات استقباله وترقبه وانما البعيد هو الذي وجد وانقرض قال الشاعر
فلا زال من نهواه اقرب من غد ۞ ولا زال ما نخشاه ابعد من امس ۞
ولان ما بقي من الدنيا اقصر واقل مما سلف منها بدليل انبعاث خاتم النبيين
صلوات الله وسلامه عليه الموعود بعثه في اخر الزمان وقال بعثت انا والساعة
كهاتين واشار باصبعيه وقال صلى الله عليه وسلم ختمت النبوة كذلك
لاجل ان الباقي من مدة التكليف اقل من الماضي وعن ابن عباس ان المراد بالناس المشركون
وهذا من اطلاق اسم الجنس على بعضه للدليل القايم وهو ما يتلوه من صفات
المشركين وهو قوله تعالى **وهم** اي والحال انهم **في غفلة** اي من
الحساب **معرضون** عن التاهب في هذا اليوم لا يتفكرون في عاقبتهم ولا
يتفطنون لما ترجع اليه خاتمة امرهم مع اقتضا عقولهم انه لا بد من جزا المحسن
والمسي وايضا ان هذه الاية نزلت في كفار مكة ولما اخبر تعالى عن غفلتهم
واعراضهم دل ذلك بقوله **ما ياتيهم** واغرق في النفي بقوله **من ذكر**

اي وحي ينبههم عن سنة الغفلة والجهالة وقوله تعالى من ربهم محدث انزاله اي
ما يحدث الله من تنزيل شيء من القران يذكرهم ويعظهم به وبهذا سقط احتجاج
المعتزلة بان القران حادث بهذه الاية وقيل ان الله تعالى يحدث الامر بعد الامر
والاية بعد الاية والسورة بعد السورة في وقت الحاجة لبيان الاحكام وغيرها من
الامور والوقايع وقيل الذكر المحدث ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم وبينه من
السنن والمواعظ سوى ما في القران واضافه اليه لان الله تعالى قال وما ينطق
عن الهوى ان هو الا وحي يوحى الا استمعوه اي قصدوا استماعه وهو اجد
الاجد واحق الحق وهم اي والحال انهم يلعبون اي يفعلون فعل اللاعبين
بالاستهزاء والسخرية لتناهي غفلتهم وفرط اعراضهم عن النظر في الامور والتفكر
في العواقب لاهية اي غافلة معرضة قلوبهم عن ذكر الله سبحانه قوله تعالى
وهم يلعبون لاهية قلوبهم حالان مترادفان او متداخلان ولما ذكر تعالى ما يظهرونه
في حالة الاستماع من اللهو واللعب ذكر ما يخفونه بقوله تعالى عطفا على استمعوه
واسروا اي الناس المحدث عنهم النجوى اي بالغوا في اسرار كلامهم وبقوله
تعالى الذين ظلموا بدل من واو اسروا للايماء بانهم ظالمون فيما اسروا به او
مبتدا والجملة المتقدمة خبره والمعنى وهؤلاء اسروا النجوى فوضع المظهر
موضع المضمر تسجيلا على فعلهم بانه ظلم وقيل جاء على لغة من قال اكلوني
البراغيث وقيل منصوب المحل على الذم ثم بين تعالى ما تناجوا به بقوله تعالى
هل اي فقالوا في تناجيهم هذا متعجبين من ادعائه النبوة مع مماثلته في
البشرية هل هذا الذي اتاكم بهذا الذكر الا بشر مثلكم اي في خلقه
واخلاقه من الاكل والشرب والحياة والممات فكيف يختص عنكم بالرسالة
ما هذا الذي جاءكم به مما لا تقدرون على مثله الا سحر لا حقيقة له تسبب
عن هذا الانكار قولهم افتاتون السحر وانتم اي والحال انكم تبصرون
باعينكم انه بشر مثلكم فكانهم استدلوا على كذبه بانه بشر بكونه بشرا
على كذبه في ادعائه النبوة والرسالة سحر لاعتقادهم ان الرسول لا يكون الا
ملكا واستلزموا منه ان ما جاء به من الخوارق كالقران فانكروا حضوره فان قيل لم
اسروا هذا الحديث وبالغوا في اخفائه اجيب بان ذلك كان يشبه
التشاور فيما بينهم والتحاور في طلب الطريق الى هدم امره وعادة المتشاورين
في خطب ان لا يشركوا اعداءهم في مشورة ويتجاهدوا في طي سرهم عنهم ما امكن
واستطيع ومنه قول الناس استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان قال البقاعي
فالله العجب من قوم مرَّوا ما اعجزهم فلم يجوزوا ان يكون ذلك عن الرحمن الداعي
الى الفوز بالجنات وجزموا انه من الشيطان الداعي الى الهوان باصطلاء النيران
والعجب ايضا انهم انكروا الاختصاص بالرسالة مع مشاهدتهم بما يخص الله
تعالى به بعض الناس عن بعض من الذكاء والفطنة وحسن الخلائق والخلق

والاخلاق والقوة والصحة وطول العمر وسعة الرزق ونحو ذلك ولا عجب انتهى
فانها عقول اضلها باريها ثم كانه قيل فماذا يقال لهؤلاء فقيل قال لهم ربي المحسن
الي يعلم القول سواء كان سرا ام جهرا كائنا في السماء والارض على حد سواء لانه
لا مسافة بينه وبين شيء من ذلك وهو السميع العليم فلا يخفى عليه ما يسرون
وما يعلنون ولا ما يضمرون فان قيل هلا قيل يعلم السر لقوله تعالى واسروا النجوى
اجيب بان القول عام يشمل السر والجهر فكان في العلم به العلم بالسر وزيادة فكان
اكثر في بيان الاطلاع على نجواهم من ان يقول يعلم سرهم ونجواهم فان قيل لم ترك الاكد
في سورة الفرقان في قوله قل انزله الذي يعلم السر في السموات والارض ولم يقل يعلم
القول كما هنا اجيب انه ليس بواجب ان ياتي بالاكد في كل موضع ولكن
يجيء بالتاكيد تارة وبالاكد اخرى كما يجيء بالحسن في موضع وبالاحسن في غيره
ليفتن الكلام افتنانا وتجمع الغاية وما دونها على ان اسلوب تلك الاية خلاف
اسلوب هذه من قبل انه قدم هنا انهم اسروا النجوى فكانه اراد ان يقول ان
ربي يعلم ما اسروه فوضع القول موضع ذلك للمبالغة وثم قصد وصفه
بانه العالم الذي يعلم السر في السموات والارض فهو كقوله تعالى علام الغيوب
عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة وقرا حفص وحمزة والكسائي بصيغة
الماضي بالاخبار عن الرسول والباقون قل بصيغة الامر ثم انه تعالى بين ان اهل
المشركين اقتسموا القول في النبي صلى الله عليه وسلم وفيما يقوله
بقوله تعالى بل قالوا اضغاث احلام اي اخلاط رءاها في المنام وقال بعضهم
بل افتراه اي اختلقه من عند نفسه ونسبه الى الله وقال بعضهم
بل هو اي النبي صلى الله عليه وسلم شاعر فما جاءكم به شعر والشاعر يخيل
ما لا حقيقة له لانهم كلهم اضربوا عن قولهم هو سحر الى انه تخاليط احلام
ثم الى انه كلام مفترى من عنده ثم الى انه قول شاعر وهكذا المبطل
متحير رجاع غير ثابت على قول واحد قاله الزمخشري ويجوز ان يكون
تنزيلا من الله تعالى لانواع الحدرة في درج الفساد وان قولهم الثاني افسد
من الاول والثالث افسد من الثاني وكذا الرابع افسد من الثالث ثم انهم
لما قدحوا في بعض المعجزات طلبوا اية غيره فقالوا فلياتنا دليلا على
رسالته باية اي مثل ما كما ارسل الاولون بالايات كتسبيح الجبال وتسخير
الريح وتفجير الماء واحياء الموتى وابراء الاكمه والابرص وصحة التشبيه من جهة
ان الارسال يتضمن الاتيان بالاية قال الله تعالى مجيبا لهم ما امنت
قبلهم لمن لم يعتبر يكم محمد من قرية اي من اهل قرية اتتهم الايات
اهلكناها باقتراح الايات لما جاءتهم افهم يؤمنون اي لو جئتهم بها
وهم اعتى منهم وفيه دليل على ان عدم الاتيان بالمقترح للابقاء عليهم اذ لو اتى
به لم يؤمنوا استوجبوا عذاب الاستيصال كمن قبلهم ولما بين بطلان

ما ادرجوا به في الرسول صلى الله عليه وسلم بكونه قال تعالى عاطفا على محدث
مجيبا عن قولهم هل هذا الا بشر مثلكم وما ارسلنا قبلك اي في جميع الزمان
الذي تقدم زمانك من جميع طوائف البشر الا رجالا نوحي اليهم اي لم
نرسل الملائكة الى الاولين انما ارسلنا رجالا نوحي اليهم مثلك ثم انه تعالى
امر المشركين ان يسألوا اهل الكتاب بقوله تعالى فاسألوا اهل الذكر
وانما احالهم عليهم لانهم كانوا لا ينكرون ان الرسل كانوا بشرا وان
انكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقيل المراد باهل الذكر القران اي
فليسألوا المؤمنين العالمين من اهل القران وقرأ ابن كثير والكسائي بفتح
السين ولا همزة بعدها وكذا يفعل حمزة في الوقف والباقون بسكون
السين وهمزة مفتوحة ثم نبه تعالى على انهم غير محتاجين فيه الى السؤال
فيما كان نبلغهم على الاجمال من احوال موسى وعيسى وابراهيم واسماعيل
وغيرهم عليهم السلام بقوله تعالى معرا باداة الشك محركا لهم الى الفعل
ان كنتم بجبلة بكم لا تعلمون ما فيه لا اهلية لكم في التفحص عن علم
بل كنتم اهلا لتقليد محض وتبع صرف ولما بين تعالى انه صلى الله عليه وسلم
على سنة من مضى من الرسل في كونه رجلا من الله على من تقدمه في
جميع الاوصاف التي حكمها على البشر في العيش وفي الموت فنبه على
الاول بقوله وما جعلناهم اي الذين اخترنا بعثهم ليأتوا بما اوحينا
جسدا اي ذوي جسد لحم ودم متصفين بانهم لا ياكلون الطعام
بل جعلناهم اجسادا ياكلونه ويشربون وليس في ذلك مانع من ارسالهم
فائت ثم قال ابن فارس في المجمل وفي كتاب الخليل ان الجسد
لا يقال لغير الانسان وتوحيد الجسد لارادة الجنس كانه
قيل ذوي ضرب من الاجساد او على حذف المضاف اي ذوي
جسد كامرا وتاويل الضمير لكل واحد وهو جسم ذو لون قال
البيضاوي ولذلك لا يطلق على الماء ويكون الجسد جسما الى الملون لا يطلق على
الماء والهواء هو انه في الماهية كل الى لا لون له وانما يتلون بلون
ظرفه او مقابله لانه جسم شفاف ولكن قال الامام الرازي انه لا يوصف
ويرى مع ذلك لا يحجب مع رؤيته ما وراءه ثم نبه على الثاني بقوله
تعالى وما كانوا خالدين اي باجسادهم بل ماتوا كما مات الناس قبلهم
وبعدهم وانما اخبر بذلك واعلم الناس عما يلحقهم عن الله عز وجل ورسوله
صلى الله عليه وسلم ليسوغ المشركين ان يتربصوا كما اشار اليه جل ذكره فانا
متربصون بكم وانتم عاصون الملك الذي لا تقرب حسابه الخلق
وهو مطيع له ثم صدقناهم الوعد اي الذي وعدناهم باهلاكهم وهذا
مثل قوله تعالى واختار موسى قومه في حذف الجار والاصل في الوعد

ومن قومه ومنه صدقوهم القتال وصدقني سن بكره والاصل في هذا المثل
ان اعرابيا اعرض بكرا للبيع فقال له المشتري ما سنه قال بكر فاتفق
انه ند فقال صاحبه هدع هدع وهذه اللفظة مما يسكن بها صغار الابل
لا الكبار فقال المشتري صدقني سن بكره واعرض فصار مثلا ثم نبه
تعالى باداة التراخي الى انهم طال بلاؤهم بهم وصبرهم عليهم ثم احل
بهم سطوته ثم نه واراهم عظمته فانجيناهم اي الرسل ومن نشاء
وهم المؤمنون ومن ابقانا بحكمه كمن يتوهم هو احد من ذريته ولذلك
حميت به العرب من عذاب الاستئصال واهلكنا المسرفين اي المشركين
لان المشرك مسرف على نفسه لقد انزلنا اليكم يا معشر قريش كتابا
اي القران فيه ذكركم اي شرفكم وصيتكم كما قال تعالى وانه لذكر لك
ولقومك او فيه مكارم الاخلاق التي كنتم تطلبون بها الثنا وحسن الذكر
كحسن الجوار والوفا بالعهد وصدق الحديث واداء الامانة والسخاء وما
اشبه ذلك وقيل فيه ذكر ما تحتاجون اليه من امر دينكم او لانه نزل بلغتكم
وقيل فيه تذكرة لكم لتحذروا وقيل الذكر بمعنى الوعد والوعيد افلا تعقلون
تؤمنون به وفي ذلك حث على التدبر لان الخوف من لوازم العقل وكم
قصمنا اي اهلكنا من قرية اي اهلها بغضب شديد لان القصم
قطع الكسر وهو الكسر الذي يبين تلاؤم الاجزاء بخلاف الفصم وقوله تعالى
كانت ظالمة اي كافرة صفة لاهلها وصفت بها لما اقيمت مقامها
ثم بين الغني عنها بقوله تعالى وانشانا بعدها اي بعد هلاك اهلها قوما
اخرين مكانهم ثم بين حالهم عند حلول الباس بها بقوله تعالى فلما
احسوا اي ادرك اهلها بحواسهم باسنا اي عذابنا اذا هم اي
القرية منها يركضون هاربين منها مسرعين راكضين دوابهم لما ادركهم مقدمة
العذاب والركض ضرب الدابة بالرجل ومنه اركض برجلك او مشبهين بهم
من فرط اسراعهم بعد تجبرهم على الرسل وقولهم لنخرجنكم من ارضنا او لتعودن
في ملتنا فنادتهم لسان الحال تقريعا وتشنيعا لحالهم لا تركضوا او المقال
والقايل ملك او من ثم من المؤمنين وارجعوا الى ما اترفتم اي
تنعمتم فيه من التنعم والتلذذ والاتراف ابطال النعمة وهي الترفه
ولما كان اعظم ما يوصف عليه بعد العيش الناعم المسكن قال تعالى
ومساكنكم اي التي كنتم تفتخرون بها على الضعفاء بما وسعتم من فنائها
وعليتم من بنائها وحسنتم من مشاهدها لعلكم تسألون وفي هذا
تهكم بهم وتوبيخ اي ارجعوا الى نعيمكم ومساكنكم لعلكم تسألون غدا عما
يجري عليكم وينزل باموالكم ومساكنكم فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة
او ارجعوا واجلسوا كما كنتم وترتبوا في مراتبكم حتى يسالكم عبيدكم

وحشمكم ومن تملكون امره وينفذ فيه امركم ونهيكم ويقولون لكم بم تامرون وما
ذا تريدون او شيئا من دنياكم على العادة او بلسان الحال او لتسالون عن
الايمان كما كنتم تسالون فتاتوا بما عندكم من الانفة والحمية والعظمة
وفي المهمات كما يكون الرؤساء في مقاعدهم العلية ومراتبهم السنية فتجيبوا
سائليكم بما شئتم ولما كان كانه قيل بما اجابوا هذا القائل قيل **قالوا** حين
لا ينفع في تولهم عند نزول البطش **يا ويلنا** اشارة الى انه حل بهم لانه ينادي
بيا القريب وترققا له كما يقول الشخص لمن يضربه يا سيدي كانه يستعطف
به ليكف عنه وذلك غاية منتهم وعمي عن الذي اوصله بهم لانهم كالبهائم لا ينظرون
الا السبب الاقرب ثم عللوا حلوله بهم تاكيدا لاعترافهم بقولهم **انا كنا** جهلا
وطبعا **ظالمين** حيث كذبنا الرسل وعصينا امر ربنا فاعترفوا حيث
لا ينفعهم الاعتراف لفوات محله وعن ابن عباس ان هذه القرية حضوره بفتح
الحا والضاد المعجمة وهي وسحول قريتان قريبتان من اليمن تنسب اليهما
الثياب وفي الحديث كفن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثوبين سحوليين
وروي حضوريين بعث الله لهم نبيا فقتلوه فسلط الله عليهم بخت نصر
كما سلطه الله على اهل بيت المقدس فاستاصلهم وروي انه لما اخذتهم
السيوف نادى مناد من السما يا لثارات الانبيا وهي بفتح اللام وبمثلثة
وهمزة ساكنة اي يا اهل ثاراتهم اي الطالبة بدمهم فحذف المضاف واقيم
المضاف اليه مقامه فندموا وقالوا ذلك **فما** اي فتسبب عن احلالنا
بهم ذلك البأس انه ما **زالت تلك** الدعوى البعيدة عن الخير والسلامة
وهي قولهم يا ويلنا **دعواهم** يرددونها لا دعوى لهم غيرها لان الويل ملازم
لهم غير منفك عنهم وترققهم له غير نافع **حتى جعلناهم حصيدا** كالزرع
المحصود بالمناجل بان قتلوا بالسيف تنبيه حصيدا على وزن
فعيل بمعنى مفعول ولذلك لم يجمع لانه يستوي فيه الجمع وغيره **خامدين**
اي ميتين كخمود النار اذا طفيت وصارت رمادا فان قيل كيف نصب
جعل ثلاثة مفاعيل اجيب بان حكم الاثنين الاخيرين حكم الواحد لان
معنى قولك جعلته حلوا حامضا المطعمين وكذلك معنى ذلك جعلناهم
جامعين لمماثلة الحصيد والخمود او خامدين صفة لحصيدا او حالا
من ضميره ثم نبههم سبحانه وتعالى على النظر في خلق السموات
والارض وما بينهما ليعتبروا بقوله تعالى **وما خلقنا السما** على علوها **والارض**
على عظمها واتساعها **وما بينهما** مما دبرناه لتمام المنافع من اصناف
البدائع وغرائب الصنائع **لاعبين** اي عابثين كما تسوي الجبابرة
سقوفهم وفرشهم وسائر زخارفهم للهو واللعب وانما خلقناها
مشحونة بضروب البدائع تبصرة للنظار وتذكرا لذوي الاعتبار وتسبيبا

جعلته حامضًا
ليطعمه م

لما ينتظم به امر العباد في المعاش والمعاد ولما نفى عنه اللعب اتبعه دليله فقال
لو اردنا اي بما لنا من العظمة **ان نتخذ لهوا** اي ما يتلهى به ويلعب وقيل
هو الولد بلغة اليمن وقيل الزوجة والمراد الرد على النصارى **لاتخذناه
من لدنا** اي من عندنا مما يليق ان ينسب لحضرتنا من الحور العين
والملائكة ومن تمام القدرة وكمال العظمة **ان كنا فاعلين** ذلك لكنا لم
نفعل لانه لا يليق بجنابنا فلم نرده وقوله تعالى **بل نقذف** اي نرمي **بالحق**
اي الايمان **على الباطل** اي الكفر اضراب عن اتخاذ اللهو وتنزيه لذاته
من اللعب شاننا ان نرمي بالحق الذي من جملته الجد على الباطل الذي
من عداده اللهو **فيدمغه** اي يذهبه واستعار لدحض الباطل بالحق
القذف والدمغ تصويرا لابطاله به والمدارع ومحقه فجعله كانه جرم
صلب كالصخرة ووجه استعارة القذف والدمغ لما ذكر ان اصل
استعمالها في الاجسام ثم استعير القذف لدحض الباطل بالحق
والدمغ لاذهاب الباطل والمستعار منه حسي والمستعار له عقلي
فاذا هو في الحال **زاهق** اي ذاهب والزهوق ذهاب الروح وذكره
لترشيح المجاز من اطلاق القذف على دحض الحق ثم عطف على ما فات ذكره
اذا قوله تعالى **ولكم** اي واذا لكم ايها المبطلون **الويل** اي العذاب
الشديد **مما تصفون** الله تعالى به مما تهوى انفسكم كالزوجة والولد
تنبيه ما اما مصدرية او موصولة او موصوفة ولما حكى تعالى
كلام الطاعنين في النبوات واجاب عنها بين ان اغراضهم من تلك
المطاعن التمرد وعدم الانقياد بين بقوله تعالى **وله من في السموات** اي
الاجرام العالية وهي ما تحت العرش وجمع السما هنا لا هنا تخيم لملك
ذلك ولما كانت عقولهم لا تدرك بعدد الارض وحد فقال **والارض**
اي له ذلك خلقا وملكا انه منزه عن طاعتهم لانه هو المالك لجميع المحدثات
والمخلوقات وعبر بمن تغليبا للعقلا وقوله **ومن عنده** اي وهم الملائكة
باجماع الامة ولان الله تعالى وصفهم بانهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون
وهذا لا يليق بالبشر مبتدا خبره **لا يستكبرون عن عبادته** بنوع كبر طلبا
ولا ايجادا او خصهم بالذكر لكرامتهم عليهم تنزيلا لهم منزلة
المقربين عند الملك تنبيه العندية للشرف والرتبة لا عندية
المكان والجهة لكانه تعالى قال ان الملائكة مع كمال شرفهم ونهاية جلالتهم
لا يستكبرون عن عبادته فكيف يليق بالبشر الضعيف التمرد عن
طاعته مع ذلك ايضا **ولا يستحسرون** اي لا يعيون وانما جيء بالاستحسار
الذي هو ابلغ من الحسور تنبيها على ان عبادتهم بثقلها ودوامها حقيقة
بان يستحسر منها ولا يستحسرون ولا يبطلون ان ينقطعون

عنها فانتج ذلك قوله تعالى يسبحون اي ينزهون المستحق للتنزيه بانواع
التنزيه من الاقوال والافعال الليل والنهار اي جميع اناتهما دايما لا يفترون
اي عن ذلك وقتا من الاوقات فهو منهم كالنفس منا لا يشغلنا عنه شاغل
ولما كانوا عند هذا البيان جديرين بان يبادروا الى التوحيد فلم يفعلوا
كانوا حقيقين بعد الاعراض عنهم بالتوبيخ والتهكم والتعنيف فقال تعالى
ام اتخذوا اي بل اتخذوا وام بمعنى بل للانتقال والهمزة لانكار اتخاذهم
الهة من الارض ومعنى نسبتها الى الارض للايذان بانها الاصنام التي تعبد
في الارض لان الالهة على ضربين ارضية وسماوية ومن ذلك حديث الامة
التي قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم اين ربك فاشارت الى السما
فقال انها مومنة لانه فهم منها ان مرادها نفي الالهة الارضية التي هي
الاصنام لا اثبات ان السما مكان الله تعالى ويجوز انه يراد الهة من جنس
الارض لانها اما ان تنحت من بعض الحجارة او تعمل من بعض جواهر الارض
هم ينشرون اي يحيون بالموتى لا وانهم وان لم يصرحوا بذلك لزم ادعاهم
لها الهية يقدرون على ذلك فان من لوازمها الاقتدار على جميع الممكنات
والمراد انها تجهيلهم والتهكم بهم والمبالغة في ذلك زيد الضمير الموهم لاختصاص
الانشار بهم ثم انه سبحانه وتعالى اقام البرهان القطعي على بطلان غيره
ببرهان التمانع وهو اشد برهان لاهل الكلام فقال لو كان فيهما اي السموات
والارض اي تدبيرهما الهة الا الله اي غير الله لفسدتا اي لخرجتا عن
نظامهما المشاهد لوجود التمانع بينهم على وفق العادة عند تعدد
الحكم وعن عبد الملك بن مروان حين قتل عمرو بن سعيد الاشرف كان عني
والله اعز علي من دم ناظري ولكن لا يجتمع فحلان في شول وهذا ظاهر
واما طريقة التمانع فقال المتكلمون القول بوجود الهين يفضي الى المحال لانا
لو فرضنا وجود الهين فلا بد ان يكون كل واحد منهما قادرا على تحريك زيد
وتسكينه ولو فرضنا ان احدهما اراد تحريكه والاخر اراد تسكينه فاما
ان يقع المراد وهو محال لاستحالة الجمع بين الضدين او لا يقع واحد منهما
وهو محال لان المانع من وجود مراد ذلك وبالعكس ويقع مراد احدهما دون
الاخر وذلك ايضا محال لان الذي وقع مراده يكون قادرا والذي لم يقع مراده
يكون عاجزا والعجز نقص وهو على الاله محال فثبت ان الفساد لازم على كل
التقديرات واذا وقفت على هذه الدلالة عرفت ان جميع ما في العالم العلوي
والسفلي من المخلوقات دليل على وحدانية الله تعالى والدلايل السمعية
على الوحدانية كثيرة في القران ولما افاد هذا الدليل ان لا يجوز ان يكون
المدبر للسموات والارض الا واحدا وان ذلك الواحد لا يكون الا الله تعالى
فسبحان الله اي فتسبب عن ذلك تنزه المتصف بصفات الكمال

حقيقة

رب العرش

رب اي خالق العرش اي الكرسي المحيط بجميع الاجسام الذي هو محل التدبير
ومنشا التقادير عما يصفون اي الكفار الله به من الشريك له وغيره ثم
بين تعالى ذلك بقوله تعالى لا يسئل لا اي من سايل ما عما يفعل لعظمته
وقوة سلطانه واذا كانت عادة الملوك والجبابرة ان لا يسالهم من في مملكتهم
عن افعالهم وعن ما يوردون ويصدرون من تدبير ملكهم تهيبا واجلالا لا
مع ان جواز الخطا والزلل وانواع الفساد عليهم كان ملك الملوك ورب
الارباب خالقهم ورازقهم اولى بان لا يسئل عن افعاله مع ما علم واستقر
في العقول مع ان ما يفعله كل مفعول به واقع الحكمة ولا يجوز عليه الخطا
وهم يسئلون ام اتخذوا من دونه الهة استفظاعا لشانهم واستعظاما
لكفرهم واظهارا لكفرهم لجهلهم ولما كان جوابهم اتخذناه ولا نرجع امر الله تعالى
نبيه بجوابهم فقال قل هاتوا برهانكم على ما ادعيتموه من عقل او نقل
كما اتينا انا ببرهان النقل المؤيد بالعقل ولما كان تعالى لا يؤاخذ بمخالفة
العقل ما لم ينضم اليه دليل النقل اتبعه قوله مشيرا الى ما بعث الله تعالى به
الرسل من الكتب هذا ذكر اي موعظة وشرف من معي ممن امن بي
وهو القران الذي عجزتم عن معارضته وذكر اي وهذا ذكر من قبلي من الامم
الماضية وهو التوراة والانجيل وغيرهما من الكتب السماوية فانظروا هل
تجدوا فيها الا الامر بالتوحيد والنهي عن الاشراك ولما كانوا لا يجدون شبهة
لهم فضلا عن حجة ذمهم الله تعالى على جهلهم بمواضع الحق فقال تعالى بل اكثرهم
اي هولا المدعون لا يعلمون الحق فلا يميزون بينه وبين الباطل بل هم جهلة
والجهل اصل الجهل والفساد فهم اي فتسبب عن جهلهم ما افتتحنا
به السورة من انهم معرضون عن التوحيد واتباع الرسل ولما كان الارسال
بالفعل غير مستغرق للزمان المتقدم كما ان الرسالة لا يقوم بها كل احد
فكذلك الارسال لا يصلح الكهل له كل زمن اثبت الجار في قوله تعالى وما ارسلنا
من قبلك واغرق في النفي فقال من رسول في شيع الاولين الا نوحي اليه من
من عندنا انه لا اله الا انا فاعبدون وهذا مقرر لما سبقه من ان التوحيد
وقال تعالى الا انا ولم يقل نحن لئلا يجعلوا ذلك وسيلة الى ما ادعوه من تعدد
الالهة ولذلك قال فاعبدون بالافراد وقرا حفص وحمزة والكسائي
بالنون وكسر الحا والباقون بالياء وفتح الحا ولما بين سبحانه وتعالى بالدلايل البا
كونه منزها عن الشريك والضد والند ردف ذلك ببراته عن اتخاذ الولد بقوله
وقالوا اتخذ اي وكلف من تكلف من يكون له ولد الرحمن اي الذي كل
موجود من فيض نعمه ولدا نزل في خزاعة حيث قالوا الملايكة بنات الله
وقيل نزل ذلك في اليهود حيث قالوا انه تعالى صاهر الجن فكانت منهم الملايكة
سبحانه اي تنزه عن ان يكون له ولد فان ذلك يقتضي المجانسة بينه وبين

مًا

الولد لا يصح مجانسة النعمة للمنعم الحقيقي كما حكى الله تعالى عنهم قولهم فقالت
وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ثم انه سبحانه وتعالى نزه نفسه عن ذلك بقوله
تعالى بل اي الذين جعلوهم له ولدا وهم الملئكة عباد من عباده انعم عليهم
بالايجاد كما انعم على غيرهم لا اولاد فان العبودية تنافي الولدية مكرمون بالعصمة
من الزلل ولذلك نشر الاكرام بقوله تعالى لا يسبقونه اي لا يسبقون
اذنه بالقول اي لا يقولون شيئا حتى يقوله كما هو شأن العبيد المؤدبين
وهم بامره اذا امرهم يعملون لا بغيره لانهم في غاية المراقبة له فجمعوا في
الطاعة بين القول والفعل وذلك في غاية الطاعة ثم علل اخباره بذلك
لعلمه بما هو المخبر به مندرج فيه بقوله تعالى يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم اي ما
عملوا وما هم عاملون لا يخفى عليه خافية مما قدموا واخروا ثم صرح تعالى بلازم
الجملة الاولى فقال ولا يشفعون اي لا في الدنيا ولا في الاخرة الا لمن
ارتضى فلا يطمعوا في شفاعتهم لكم بغير رضاه قال ابن عباس والضحاك
الا لمن ارتضى اي الا لمن قال لا اله الا الله فسقط بذلك القول قول
المعتزلة ان الشفاعة في الاخرة لا تكون لاهل الكبائر ثم صرح بلازم الجملة
الثانية فقال وهم من خشيته اي لا من غيرها مشفقون اي خائفون
واصل الخشية خوف مع تعظيم ولذلك خص بها العلماء والاشفاق خوف
مع اعتناء فان عدي بمن فمعنى الخوف فيه اظهر وان عدي بعلى فبالعكس
ولما نفى الله تعالى الشريك مطلقا ثم نفى الولد اتبعه التهديد على ادعائه
بتعذيب المتبوع الموجب لتعذيب التابع بقوله تعالى ومن يقل منهم اي من
الخلائق حتى العباد المكرمون الذين وصف كرامتهم وقرب منزلتهم عنده واثنى
عليهم اني اله من دونه اي الله او غيره والذي قال ذلك كما قال الجلال
المحلي هو ابليس دعى الى عبادة نفسه وامر بطاعتها فذلك اي اللعين
الذي لا يصلح للتقريب اصلا نجزيه جهنم لظلمه كذلك اي مثل هذا
الجزاء الفظيع جدا نجزي الظالمين اي المشركين ثم انه سبحانه وتعالى شرع
لذكر من الدلايل الدالة على وجود الصانع فذكر منها ستة انواع النوع
الاول قوله تعالى اولم ير الذين كفروا اي يعلم الذين كفروا علما هو بالمشاهدة
ان السموات والارض كانتا ولم يقل كن لان المراد جماعة السموات
وجماعة الارض رتقا قال ابن عباس والضحاك كانتا شيئا واحدا
ملتزقين ربقة واحدة ففتقناهما اي فصلنا بينهما بالهوى والرتق
في اللغة السد والفتق الشق قال كعب خلق السموات والارض بعضها
على بعض ثم خلق ريحا فوسطها ففتحها بها وقال مجاهد والسدي
كانت السموات مرتتقة طبقة ففتقها فجعلها سبع سموات وكذلك
الارض كانت مرتتقة طبقة ففتقها سبع ارضين وقال عكرمة وعطية

كانت

كانت السماء رتقا لا تمطر والارض رتقا لا تنبت ففتق السماء بالمطر والارض بالنبات
فيكون المراد بالسموات سماء الدنيا وجمعها باعتبار الافاق او السموات
باسرها على ان لها مدخلا في الامطار وانما قال تعالى رتقا في التوحيد وهو
من نعت السموات والارض لانه مصدر والكفرة وان لم يعلموا ذلك فهم متمكنون
بالعلم بالنظر او باستفسار من العلماء والصلحاء او مطالعة الكتب وقرأ ابن
كثير الم بغير واو بين الهمزة ولم والباقون بالواو بين الهمزة والواو اللام
والنوع الثاني من الدلايل قوله تعالى وجعلنا اي خلقنا بما اقتضته عظمتنا
من الماء هو الدافق وغيره كل شيء حي مجازا من النبات وحقيقة من الحيوان
فان قيل قد خلق الله تعالى بعض ما هو حي من غير ماء كآدم وعيسى والملائكة
اجيب بان هذا خرج مخرج الاغلب والاكثر اي ان اكثر ما خلق الله خلق
من الماء وبقاؤه بالماء وقيل المراد بالماء ما نزل من السماء او نبع من الارض
افلا يؤمنون مع ظهور هذه الايات الواضحات بتوحيدي النوع الثالث
من الدلايل قوله تعالى وجعلنا في الارض رواسي اي جبالا ثوابت كراهة
ان تميد بهم قيل ان الارض بسطت على الماء فكانت تتحرك كما تتحرك
السفينة في الماء فارساها الله واثبتها بالجبال النوع الرابع من الدلايل
قوله وجعلنا فيها اي في الرواسي فجاجا اي مسالك واسعة
سهلة ثم ابدل منها سبلا اي مذللة للسلوك ولولا ذلك لتعسر
او تعذر الوصول الى بعض البلاد لعلهم يهتدون الى بعض منافعهم من ديارهم
وغيرها والى ما فيها من الدلايل الوحدانية النوع الخامس من الدلايل قوله
تعالى وجعلنا السماء وافرد عاما ارادة الجنس لان اكثر الناس لا يشاهد
منها الا السماء الدنيا ولان الحفظة للشيء الواحد اتقن سقفا اي
للارض كالسقف للبيت محفوظا اي عن السقوط بالقدرة وعن
الفساد والانحلال الى الوقت المعلوم بالمشيئة وعن الشياطين
بالشهب وهم اي اكثر الناس عن اياتها اي من الكواكب الكبار
والصغار ومن الرياح والامطار وغير ذلك من الدلايل التي تفوت الاحصاء
الدالة على قدرتنا على كل ما نريد من البعث وغيره وعلى عظمتنا بالتفرد بالالهية
وغير ذلك من اوصاف الكمال من الجلال والجمال معرضون لا يتفكرون
فيما فيها من السير والتدبير وغير ذلك فيعلمون ان خالقها لا شريك له
النوع السادس من الدلايل قوله تعالى وهو اي لا غيره الذي خلق الليل والنهار
ثم اتبعهما اعظم اياتهما بقوله تعالى والشمس اي التي هي اعظم اية النهار
والقمر الذي هو اعظم اية الليل كل اي من الشمس والقمر وتابعه وهو النجوم
في فلك اي مستدير كالطاحونة في السماء يسبحون اي يسيرون
بسرعة كالسابح في الماء والتشبيه به اذ ضمير جمع من يعقل والمراد

بانقلاب الجنس كقولهم كساهم الامير حلة وقلدهم سيفا اي كل واحد منهم
او كساهم وقلدهم هذين الجنسين فاكتفى بما يدل على الجنس اختصارا
ولان الغرض الدلالة على الجنس ونزل لما قال الكفار ان محمدا سيموت
وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد اي البقاء في الدنيا افإن مت اي يتمنون موتك فهم
الخالدون فيها لا والله ليسوا بخالدين فالجملة الاخيرة محل الاستفهام
الانكاري وفي معنى ذلك قول فروة بن مسيك الصحابي
فقل للشامتين بنا افيقوا * سيلقى الشامتون كما لقينا * وقرا
نافع وحفص وحمزة والكسائي بكسر الميم والباقون بضمها ثم بين تعالى
ان احدا لا يبقى في هذه الدنيا بقوله تعالى كل نفس ذائقة الموت اي ذائقة
مرارة مفارقتها جسدها فلا يفرح احد ولا يحزن بموت احد بل يشتغل
بما يهمه واليه الاشارة بقوله ونبلوكم اي نعاملكم معاملة المبتلي المختبر
ليظهر في عالم الشهادة الشاكر والصابر والمومن والكافر كما هو عندنا في عالم
الغيب بان نخالطكم بالشر اي وهي المضار الدنيوية من الفقر والالام
وسائر الشدائد النازلة بالمكلفين والخير وهو نعم الدنيا من الصحة واللذة
والسرور والتمكن من المرادات وقوله تعالى فتنة مفعول له اي لننظر
اتصبرون وتشكرون ام لا كما يفتن الذهب اذا اردت تصفيته بالنار
عما يخالطه من الغش فبين تعالى ان العبد مع التكليف يتردد بين هاتين الحالتين
لكي يشكر على المنح ويصبر على المحن فيعظم ثوابه اذا قام بما يلزم والينا بعد
الموت لا الى غيرنا ترجعون فيجازيكم بما فعلتم ثم عطف على قوله واسروا
النجوى قوله تعالى واذا راك اي وانت يا اشرف الخلق الذين كفروا اي
ان يتخذونك اي حال الروية الا هزوا اي مهزوا به يقولون انكارا واستصغارا
اهذا الذي يذكر الهتكم اي بسوء والذكر يكون بالخير والشر واذا دلت القرينة
على احدهما اطلق عليه وذكر العدو لا يكون الا بسوء وهم اي والحال انهم
بذكر الرحمن اي اذا ذكر لهم الرحمن هم كافرون وذلك انهم كانوا يقولون لا نعرف
الا مسيلمة وهم الثانية للتاكيد ونزل في استعجالهم العذاب خلق الانسان
من عجل كانه خلق منه لفرط استعجاله وقلة ثباته والعرب يقولون
للذي يكثر منه الشيء خلقت منه كقولك خلق زيد من الكرم فجعل ما طبع
عليه بمنزلة المطبوع هو منه مبالغة في لزومه له ولذلك قيل انه على القلب
اي خلق العجل من الانسان ومن عجلته مبادرته الى الكفر واستعجال
الوعيد وقال سعيد بن جبير والسدي لما دخل الروح في راس ادم وعينيه
نظر الى ثمار الجنة فلما دخل الروح في جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل
ان تبلغ الروح الى رجليه عجلا الى ثمار الجنة فوقع فقيل خلق الانسان من
عجل والمراد بالانسان ادم واورث اولاده العجلة وقال قوم معناه

خلق

خلق الانسان يعني ادم من تعجيل في خلق الله اياه لانه خلقه بعد خلق كل شيء
في اخر النهار يوم الجمعة فاسرع في خلقه قبل مغيب الشمس قال مجاهد
فلما احيا الروح راسه قال يا رب استعجل بخلقي قبل غروب الشمس وقيل
بسرعة وتعجيل على غير ترتيب خلق سائر الادميين من النطفة ثم العلقة ثم
المضغة وغيرها وقال قوم من عجل اي من طين قال الشاعر
والنبع في الصخرة الصماء منبته * والنخل ينبت بين الماء والعجل *
ثم قال مهددا للمكذبين سأوريكم اياتي اي مواعيدي بالعذاب فلا تستعجلون اي
تطلبون او انه حد العجلة بالعذاب او غيره فاني منزه عن العجلة التي هي من جملة
نقائصكم لانها ارادة الشيء قبل اوانه فان قيل لم نهاهم عن الاستعجال بقوله
خلق الانسان من عجل وقوله تعالى وكان الانسان عجولا اليس هذا من تكليف
ما لا يطاق اجيب بان هذا كما ركب فيه الشهوة وامره ان يغلبها لانه اعطاه القدرة
التي يستطيع بها قمع الشهوة وترك العجلة وقدرتهم بعض اياته وهو القتل
ببدر ويقولون في استعجالهم متى هذا الوعد اي باتيان الايات من الساعة ومقدماتها
وغيرها ان كنتم فيما توعدون به صادقين اي غير مبين في هذا الوصف
يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم واصحابه وهذا هو الاستعجال المذموم
المذكور على سبيل الاستهزاء ثم بين تعالى انهم يقولون ذلك لجهلهم بقوله تعالى
لو يعلم الذين كفروا وذكر المفعول به بقوله تعالى حين اي وقت لا يكفون اي
لا يدفعون عن وجوههم التي هي اشرف اعضائهم النار استسلاما وعجزا
ولا عن ظهورهم التي هي اشد اجسادهم من السياط ولا هم ينصرون اي
لا يمنعون من العذاب في القيامة وجواب لو محذوف والمعنى لو علموا لما اقاموا
على كفرهم ولما استعجلوا العذاب ولا قالوا متى هذا الوعد ان كنتم صادقين
بل تاتيهم اي القيامة بغتة اي فجاة فتبهتهم اي تحيرهم
يقال فلان مبهوت اي متحير فلا يستطيعون ردها لا يطلبون طوع ذلك لهم
في ذلك الوقت لياسهم عنه ولا هم ينظرون اي يمهلون لتوبة او معذرة
ولما كان التقدير حاق بهم عذابا باستهزائهم بك اتبعه ما يدل على ان الرسل في
ذلك شرع واحد تسلية له صلى الله عليه وسلم فقال عاطفا واذا راك
ولقد استهزئ برسل من قبلك اي كثيرين فلك بهم اسوة وقرا ابو عمرو وعاصم
وحمزة في الوصل بكسر الدال والباقون بالضم واذا وقف حمزة ابدل الهمزة
ياء ساكنة فحاق اي نزل بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون وهو
العذاب فكذا يحيق بمن استهزا بك ولما علم الله تعالى ان الكفار في الاخرة لا يكفون
عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم بسائر ما وصفهم به اتبعه بانهم في الدنيا
ايضا لولا ان الله تعالى يحرسهم ويحفظهم لما توافق السلامة فقال تعالى لرسوله
صلى الله عليه وسلم قل يا اشرف المرسلين من يكلؤكم اي يحفظكم بالليل

والنهار من الرحمن اي من عذابه ان نزل بكم اي لا احد يفعل ذلك بل هم عن ذكر ربهم
اي القران معرضون لا يتفكرون فيه ولا يخطرونه ببالهم فضلا ان يخافوا باسه
ام فيها معنى الهمزة كل انكار اي لهم الهة موصوفة بانها تمنعهم مما يسوءهم
من دوننا ليس لهم ذلك ثم وصف الهتهم بالضعف فقال لا يستطيعون اي
الالهة نصر انفسهم فكيف ينصرون عابديهم ولا هم اي الكفار منا اي
من عذابنا يصحبون اي يجاورون يقال صحبك الله اي حفظك واجارك بل
متعنا هؤلاء اي الكفار على حقارتهم واباءهم من قبلهم بالنعم استدراجا
حتى طال عليهم العمر اي امتدت بهم ايام الدنيا بالروح والطمانينة فحسبوا
ان لا يزالوا على ذلك لا يغلبون ولا ينزع عنهم ثوب امنهم واستمتاعهم وغلظ
ورش اللام بخلاف عنه فاغتروا بذلك وذلك طمع فارغ وامل كاذب افلا يرون
اي يعلمون علما موقنا وضوحه كالروية بالبصر انا ناتي الارض اي ارض الكفرة
ننقصها من اطرافها بتسليط المسلمين عليها واظهارهم على اهلها بنقل بعض
ورد بعض عن ربقة دين الاسلام في بعض واولياؤنا في زيادة افهم الغالبون
اي مع مشاهدتهم لذلك ام اولياؤنا ولما كرر سبحانه وتعالى في القران الادلة وبالغ
في التنبيه عليها على ما تقدم اتبعه بقوله تعالى قل يا اشرف الخلق لهؤلاء المشركين
انما انذركم .. اي اخوفكم بالوحي من الله لا من قبل نفسي ولا يسمع الصم الدعاء
اي ممن يدعوهم اذا ما ينذرون اي يخوفون فهم لتركهم العمل بما يسمعوه
كالصم فان قيل الصم لا يسمعون دعاء المبشر كما لا يسمعون دعاء المنذر
فكيف قيل اذا ما ينذرون اجيب بانه وضع الظاهر موضع المضمر للدلالة
على تصامهم وسدهم اسماعهم اذا انذروا اي هم على هذه الصفة من الجراءة
والجسارة على التصام من ايات الانذار وقرا ابن عامر ولا تسمع بالتاء الفوقية
مضمومة وكسر الميم ورفع ميم الصم وفي الدعاء اذا همزتان مختلفتان من
كلمتين الاولى مفتوحة والثانية مكسورة فنافع وابن كثير وابو عمرو بتحقيق
الاولى وتسهيل الثانية بين الهمزة والياء والباقون بتحقيق الهمزتين هذا في
حال الوصل فان وقف على الهمزة الاولى فالجميع يبتدرون الثانية بالتحقيق
ويقف حمزة وهشام بابدال الهمزة الفا مع المد والتوسط والقصر ولئن
مستهم اي اصابتهم نفحة اي وقعة خفيفة وفي ذلك مبالغات
ذكر المس وما في النفحة من معنى القلة فان اصل النفح هبوب رائحة الشيء
والبناء الدال على المرة من عذاب ربك المحسن اليك بنصرك عليهم من الذي ينذرون
به ليقولن وقد اذهلهم امرها يا ويلنا الذي لا نرى بحضرتنا الان
غيرها انا كنا ظالمين دعوا على انفسهم بالويل بعد ما اقروا بالظلم
ثم ذكر تعالى بعض ما يفعل في حساب الساعة من العدل فقال عاطفا على
قوله تعالى بل تاتيهم بغتة ونضع الموازين القسط اي ذوات العدل

ليوم القيامة اي فيه وانما جمع الموازين لكثرة من توزن اعمالهم ويجوز ان يرجع الى الموزونات
وقيل وضع الموازين تمثيل لارصاد الحساب السوي والجزاء على حسب الاعمال بالعدل
والصحيح الذي عليه ائمة السلف ان الله تعالى يضع ميزانا حقيقة يزن بها اعمال
العباد وعن الحسن هو الميزان له كفتان ولسان ويروى ان داوود عليه السلام
سال ربه ان يريه الميزان فاراه كل كفة ما بين المشرق والمغرب فغشي عليه ثم
افاق فقال الهي من ذا الذي يقدر ان يملا كفته حسنات قال يا داوود اني اذا
رضيت عن عبدي ملاتها بتمرة فان قيل كيف توزن الاعمال مع انها اعراض اجيب
بان فيه طريقين احدهما انها توزن صحائف الاعمال فتوضع صحائف الحسنات
في كفة وصحائف السيئات في كفة والثاني انها توضع في كفة الحسنات جواهر
بيض مشرقة وفي كفة السيئات جواهر سود مظلمة فان قيل هذه الاية
يناقضها قوله تعالى في الكفار فلا نقيم لهم يوم القيمة وزنا اجيب بان المراد منه
انا لا نكرمهم ولا نعظمهم فلا تظلم نفس شيئا اي من نقص حسنة او زيادة سيئة
وان كان اي العمل مثقال اي وزن حبة من خردل او اصغر منه وانما مثل
به لانه لا غاية عندنا في القلة وقرا نافع برفع اللام على ما كان التامة والباقون
بالنصب وكذا في لقمان اتينا بها اي بوزنها ولما كان حساب الخلائق
كلهم في كل ما صدر منهم امرا باهرا للعقل حقره عظمته فقال وكفى بنا
اي بما لنا من العظمة حاسبين اي محصين في كل شيء فلا يكون في الحساب
احد مثلنا ففيه توعد من جهة ان معناه انه لا يروج عليه شيء من خداع
ولا يقبل غلطا ولا يغفل ولا ينسى الى غير ذلك من كل ما يلزم منه نوع لبس
وثوب منقص ووعد من جهة انه مطلع على حسن قصد وان دق وخفي
ولما تكلم سبحانه وتعالى في دلائل التوحيد والنبوة والمعاد شرع في قصص
الانبياء عليهم السلام تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم فيما يناله من
قومه وتقوية لقلبه على اداء الرسالة والصبر على كل عارض وذكر منها عشرا
القصة الاولى قصة موسى عليه السلام المذكورة في قوله تعالى
ولقد اتينا موسى وهارون اي اخاه الذي سال ربه ان يشد ازره به
الفرقان اي التوراة الفارقة بين الحق والباطل وبين الحلال والحرام وضياء
بها لا ظلام معه اي يستضاء بها في ظلمات الحيرة والجهل وقرا قنبل بعد
الضاد بهمزة مفتوحة ممدودة والباقون بياء بعدها الف وذكرا اي عظة
للمتقين او ذكر ما يحتاجون اليه من الشرائع وقيل الفرقان النصر
وقيل فلق البحر وزاد بالضياء على هدي التوراة ثم بين المتقين بوصفهم
بقوله تعالى الذين يخشون اي يخافون خوفا عظيما ربهم اي المحسن
اليهم بعد الايجاد بالتربية وانواع الاحسان بالغيب عن الناس
اي في الخلاء عنهم او بالغيب قبل ان يكشف لهم الحجاب في الجنة وهم

من الساعة التي توضع فيها الموازين وقد اعرض عنها الجاهلون مع كونها اعظم
حامل على كل خير ومباعد عن كل ضير **مشفقون** اي خائفون لانهم لقيامها
متحققون ولنصب الموازين فيها عالمون ولما ذكر تعالى فرقان موسى عليه
السلام وكان العرب يشاهدون تمسك اليهود به حثهم على كتابهم الذي هو
اشرف منه بقوله تعالى **وهذا** اي القران **ذكر** اي موعظة **مبارك**
اي كثير خيره **انزلناه** على اشرف الرسل محمد صلى الله عليه وسلم
وقوله تعالى **افانتم له منكرون** اي جاحدون استفهام توبيخ

القصة الثانية قصة ابراهيم عليه السلام

المذكورة في قوله تعالى **ولقد اتينا** بما لنا من العظمة **ابراهيم رشده** اي صلاحه
وهداه **من قبل** اي من قبل موسى وهرون ومحمد صلى الله عليه وسلم وقيل
من قبل استنبائه او بلوغه حيث قال اني وجهت وجهي **وكنا** ظاهرا وباطنا
به عالمين بانه اهل لما اتيناه لانه جبلة خير جامع لمحاسن الاوصاف ومكارم
الخصال بيده وعلى الرشد ويترقى فيه الى اعلا درجاته لما طبعناه عليه وفي
ذلك اشارة الى انه فعل تعالى باختيار وحكمة وانه عالم بالجزئيات
وتعليق **اذ قال** اي ابراهيم **لابيه وقومه** بعالمين اشارة الى ان قوله
لما كان باذن منا ورضى لنا نصرناه وهو وحده على قومه كلهم ولو لم يكن برضينا
لمنعناه منه بنصر قومه عليه وتمكين النار منه ثم ذكر مقول القول منكرا
عليهم محقرا لاصنامهم **ما هذه التماثيل** اي الصور التي صنعتموها مماثلين
بها ما فيه روح الله جاعلين لها ما لا يكون الا لمن لا مثل له وهي الاصنام
التي انتم لها اي لاجلها واحدها مع كثرة ما يشابهها وما هو افضل
منها **عاكفون** اي مقيمون على عبادتها فان قيل هلا قال عليها عاكفون
كقوله تعالى يعكفون على اصنام لهم اجيب بان اللام للاختصاص
لا للتعدية ولو قصد التعدية لعداه بصلته التي هي على ثم انه تعالى ذكر
جوابهم له بما لزم الاستفهام عن السؤال بانهم **قالوا وجدنا اباءنا لها عابدين**
فاقتدينا بهم لا حجة لنا غير ذلك فانظر ما اقبح التقليد وما اعظم كيد
الشيطان للمقلدين حتى استدرجهم الى ان قلدوا اباءهم في عبادة التماثيل
وعفروا لها جباههم وهم معتقدون انهم على شيء وجادون في نصرة مذهبهم
ومجادلون لاهل الحق عن باطلهم وكفى اهل التقليد مسبة ان عبدة الاصنام
منهم والتقليد ان جاز فانما يجوز لمن علم في الجملة انه على حق ولذا **قال** ابراهيم
عليه السلام **لقد كنتم** واكد بقوله **انتم** لاجل صحة العطف لان
الضمير المرفوع المتصل حكمه حكم جزء الفعل والعطف على ضميره هو في حكم
بعض
ضرب الفعل ممتنع ونحوه اسكن انت وزوجك الجنة **واباؤكم** اي
من قبلكم **في ضلال مبين** بين ان المقلدين والمقلدين جميعا منخرطون

بين ضلال لا يخفى على من به ادنى مسكة لاستناد الفريقين الى غير دليل بل الى هوى
متبع والى شيطان مطاع لاستبعادهم ان يكون ما هم عليه ضلالا بقوا متعجبين من
تضليله اياهم فلذا **قالوا** ظنا منهم انه لم يقل لهم ذلك على ظاهره **اجئتنا** في هذا
الكلام **بالحق** الذي يطابقه الواقع **ام انت من اللاعبين** اي تقوله على وجه
المزاح والملاعبة لا على وجه الجد **قال** عليه السلام ثابتا على ما تقديره ليس
كلامي لعب بل هو جد وهذه التماثيل ليست اربابا **بل ربكم** الذي يستحق
منكم اختصاصه بالعبادة **رب السموات والارض** اي مدبرهن القائم بمصالحهن
الذي فطرهن اي خلقهن على غير مثال سبق وانتم وتماثيلكم من مصنوعاته
انتم تشهدون بذلك اذا رجعتم الى عقولكم مجردة عن الهوى وقيل الضمير في
فطرهن للتماثيل قال الزمخشري وكونه للتماثيل ادخل في تضليلهم
واثبت للاحتجاج عليهم **وانا على ذلكم** اي الامر البين من انه ربكم وحده
فلا يجوز عبادة غيره اي الذين يقدرون على اقامة الدليل على ما يشهدون
به لم يشهدوا الا على ما هو عندهم مثل الشمس لا كما فعلتم انتم حين اضطركم
السؤال الى الضلال ولما اقام البرهان على اثبات الاله الحق اتبعه البرهان على
ابطال الباطل بقوله **وتالله** وهو قسم والاصل في القسم البا الموحدة
والواو بدل منها والتا بدل من الواو وفيها مع كونها بدلا زيادة على التاكيد
بالتعجب **لاكيدن اصنامكم** اي لاجتهدن في كسرها ولفظ التاكيد وما في
التا من التعجب من تسهيل الكيد على يده وتاتيه لان ذلك كان امرا مقنوطا منه
لصعوبته وتعذره ولعمري ان مثله صعب متعذر في كل زمان خصوصا في زمن
عتوه واستكباره وقوة سلطانه وتهالكه على نصرته ولكن اذا اراد الله بشيء تيسر
ولما كان عزمه على ايقاع الكيد في جميع الزمان الذي يقع فيه توليهم في اي جزء تيسر
له منه اسقط الجار فقال **بعد ان تولوا مدبرين** اي بعد ان تدبروا منطلقين
الى عيدكم قال مجاهد وقتادة انما قال ابراهيم هذا سرا من قومه ولم يسمع ذلك
الا رجل واحد فافشاه عليه وقال انا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم وقال
السدي كان لهم في كل سنة مجمع عيد فكانوا اذا رجعوا من عيدهم دخلوا على
الاصنام وسجدوا لها ثم عادوا الى منازلهم فلما كان ذلك العيد قال ابو
ابراهيم له يا ابراهيم لو خرجت معنا الى عيدنا اعجبك ديننا فخرج معهم
ابراهيم فلما كان ببعض الطريق القى نفسه وقال اني سقيم اشتكي رجلي فلما
مضوا نادى في اخرهم وقد بقي ضعفا الناس تالله لاكيدن اصنامكم
فسمعوها منه ثم رجع ابراهيم الى بيت الالهة وهن في بهو عظيم مستقبل
باب البهو صنم عظيم الى جنبه اصغر منه الى باب البهو واذا هم قد جعلوا طعاما
فوضعوه بين يدي الالهة وقالوا اذا رجعنا وقد بركت الالهة عليه
اكلنا معه فلما نظر ابراهيم اليهم والى ما بين ايديهم من الطعام قال لهم على طريق

من الشاهدين

فسيجدوا

باب البهو

الا تأكلون فلما لم يجيبوه قال لهم ما لكم لا تنطقون فراغ عليهم ضربا باليمين
وجعل يضربهن بفاس في يده حتى لم يبق الا الصنم الاكبر علق الفاس في عنقه ثم خرج
فذلك قوله عز وجل فجعلهم جذاذا اي فتاتا وقرا الكسائي بكسر الجيم والباقون
بضمها الا كبيرا لهم فانه لم يكسره ووضع الفاس في عنقه وقيل ربطه بيده
وكانت اثنان وسبعون صنما بعضها من ذهب وبعضها من فضة وبعضها
من حديد ورصاص وخشب وحجر وكان الصنم الكبير من الذهب مكلل بالجواهر
في عينيه ياقوتتان تتقدان لعلهم اي هؤلاء الضلال اليه اي ابراهيم
يرجعون عند الزامه بالسؤال فتقوم عليهم الحجة فلما عادوا الى اصنامهم
فوجدوها على تلك الحال قالوا من فعل هذا الفعل الفاحش بآلهتنا انه لمن
الظالمين حيث وضع الاهانة في غير موضعها فان الالهة حقها الاكرام
لا الاهانة والانتقام قالوا اي الذين سمعوا قول ابراهيم وتالله لاكيدن
اصنامكم سمعنا فتى اي شابا من الشباب يذكرهم اي يعيبهم ويسبهم
يقال له ابراهيم اي هو الذي نظن انه فعل هذا فلما بلغ ذلك نمرود الجبار
واشراف قومه قالوا فاتوا به الى بيت الاصنام على اعين الناس اي جهرة
والناس ينظرون اليه نظرا لا خفا معه حتى كانه ماثل على ابصارهم متمكنا
منها تمكن الراكب على المركوب لعلهم يشهدون عليه بانه الذي صنع وفعل
بالالهة هذا الفعل كرهوا ان ياخذوه بغير بينة وقيل معناه لعلهم يحضرون
عذابه وما يصنع به فلما اتوا به قالوا منكرين عليه أانت فعلت هذا الفعل
الفاحش بآلهتنا يا ابراهيم تنبيه هنا همزتان مفتوحتان من كلمة فالقراء الجميع
تحقق الاولى واما الثانية فيسهلها نافع وابن كثير وابو عمرو وهشام بخلاف
عنه وادخل الفا قالون وابو عمرو والباقون بتحقيقهما وعدم الادخال بينهما
ثم قال ابراهيم متهكما بهم وملزما بالحجة بل فعله كبيرهم غيرة ان تعبد
معه من دونه وتقييده بقوله هذا اشارة الى الذي تركه من غير كسر
ولما اخبرهم ولم يكن احد راه حتى يشهد على فعله وكانوا قد جعلوا العبادة لهم
ووضع الطعام لهم محل من يعقل تسبب عنه امرهم بسؤالهم فقال
فاسألوهم اي عن الفاعل ليخبر وكذبه وقوله ان كانوا ينطقون اي على
زعمكم انهم الهة يضرون وينفعون فيه تقديم جواب الشرط فان قدروا على
النطق اسكت عنهم القدرة والا فاراهم عجزهم عن النطق وفي ضمنه
انا فعلت ذلك روي عن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
لم يكذب ابراهيم الا ثلاث كذبات ثنتين منهن في ذات الله قوله اني سقيم
وقوله بل فعله كبيرهم هذا وقوله لسارة هذه اختي وقال في حديث
الشفاعة ويذكر كذباته اي انه لم يتكلم بكلمات صورتها صورة الكذب وان
كان حقا في الباطن الا هذه الكلمات وقيل في قوله اني سقيم اي سأسقم

وقيل سقيم القلب لي مغتم بضلالتكم وقوله لسارة هذه اختي في الدين وقوله
بل فعله كبيرهم هذا روي عن الكسائي انه كان يقف عند قوله بل فعله ويبتدي كبيرهم
هذا ويقول معناه بل فعله من فعله وقوله كبيرهم هذا مبتدا وخبر قال البغوي
وهذه التاويلات قال البغوي وهذه التاويلات لنفي الكذب والاولى هو
الاول للحديث فيه ويجوز ان يكون الله تعالى قد اذن له في ذلك لقصد الصلاح
وتوبيخهم والاحتجاج عليهم كما اذن ليوسف عليه السلام حتى نادى مناديه
فقال ايتها العير انكم لسارقون ولم يكونوا سرقوا وقال الرازي الحديث
محمول على المعاريض فان فيها مندوحة عن الكذب اي تسميته للمعاريض
كذبا لما اشبهت صورتها صورته وقرا ابن كثير والكسائي بفتح السين وترك
الهمزة وكذا يفعل حمزة في الوقف والباقون بسكون السين وبعدها همزة مفتوحة
وقيل الوقف على بل فعله ثم يبتدي بقوله كبيرهم هذا ولما اضطرهم الدليل
ان يحققوا انهم على محض الباطل فرجعوا الى انفسهم بالتفكر فقالوا اي بعضهم
لبعض انكم انتم الظالمون لكونكم وضعتم العبادة في غير مواضعها لا ابراهيم
فانه اصاب باهانتهم ثم نكسوا على رؤوسهم اي انقلبوا غير مستحيين مما يلزمهم
من الاقرار بالسفه الى المجادلة له بعدما استقاموا بالمراجعة من قولهم نكس
المريض اذا عاد الى حاله الاول شبه عودهم الى الباطل بصورة اسفل الشي
مستعليا على اعلاه ثم انهم قالوا في مجادلتهم عن شركائهم والله لقد
علمت يا ابراهيم ما هؤلاء لا فصيحهم ولا جريحهم ينطقون اي فكيف
تامرنا بسؤالهم ولما تسبب عن قولهم هذا اقرارهم بانهم لا فائدة فيه اتجه
لابراهيم عليه السلام الحجة عليهم قال منكرا عليهم موبخا لهم
افتعبدون من دون الله اي بدله ما لا ينفعكم شيئا من رزق وغيره لترجوه
ولا يضركم شيئا اذا لم تعبدوه لتخافوه اف اي نتنا وقبحا لكم ولما تعبدون
من دون الله اي غيره وقرا نافع وحفص بتنوين الفا مكسورة وابن كثير وابن
عامر بفتح الفا من غير تنوين والباقون بكسر الفا من غير تنوين ولما تسبب
عن فعلهم هذا الوضوح انه لا يقربه عاقل انكر عليهم ووبخهم بقوله افلا
تعقلون قبح صنيعكم وانتم شيوخ قد مرت بكم الدهور وحصلت لكم التجارب
ولما دحضت حجتهم وبان عجزهم وظهر الحق واندفع الباطل قالوا عادلين
الى العناد واستعمال القوة الشنيعة حرقوه بالنار لتكونوا قد فعلتم فيه فعلا
اعظم مما فعل بآلهتكم وانصروا آلهتكم التي جعلها جذاذا ان كنتم فاعلين نصرتها
قال ابن عمر ان الذي قال هذا رجل من الاكراد قيل اسمه هيزن فخسف
الله تعالى به الارض فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة وقيل قاله نمرود بن كوش
ابن حام بن نوح عليه السلام وروي ان نمرود وقومه حين هموا باحراقه
حبسوه في بيت ثم بنوا عليه بيتا كالحظيرة بقرية يقال لها كوثى

ثم جمعوا له اصلاب الحطب من اصناف الخشب مدة شهر حتى كان الرجل يمرض
فيقول لئن عوفيت لاجمعن حطبا لابراهيم وكانت المراة تغزل وتشتري
بغزلها الحطب احتسابا في دينها وكان الرجل يوصي بشراء الحطب
والقائه فيه فلما جمعوا ما ارادوا واشعلوا في كل ناحية من الحطب نارا
فاشتعلت النار واشتدت حتى كان الطير ليمر بها فيحترق من شدة
حرها ووهجها واوقدوا عليه سبعة ايام فلما ارادوا ان يلقوا ابراهيم
لم يعلموا كيف يلقوه فجاءهم ابليس عليه اللعنة فعلمهم عمل المنجنيق
فعملوه ثم عمدوا الى ابراهيم فقيدوه ورفعوه الى راس البنيان ووضعوه
في المنجنيق مقيدا مغلولا فصاحت السما والارض ومن فيهما من الملائكة
وجميع الخلق الا الثقلين صيحة واحدة ربنا خليلك يلقى في النار وليس
في الارض من يعبدك غيره فاذن لنا في نصرته فقال عز وجل انه خليلي
ليس لي خليل غيره وانا الهه ليس له اله غيري فان استغاث باحد
منكم او دعاه فلينصره فقد اذنت له في ذلك وان لم يدع غيري فانا اولى
به وانا وليه فخلوا بيني وبينه فلما ارادوا القاه في النار اتاه خازن
المياه فقال ان اردت اخمدت النار واتاه خازن الرياح فقال ان شئت
طيرت النار في الهوى فقال ابراهيم عليه السلام لا حاجة لي اليكم حسبي
الله ونعم الوكيل وروي عن كعب الاحبار قال ابراهيم حين اوثقوه ليلقوه
في النار لا اله الا انت سبحانك رب العالمين لك الحمد ولك الملك لا شريك
لك ثم رموا به في المنجنيق الى النار فاستقبله جبريل فقال يا ابراهيم
الك حاجة قال اما اليك فلا فقال جبريل فسل ربك فقال ابراهيم
حسبي من سوالي علمه بحالي وعن ابن عباس في قوله تعالى وقالوا حسبنا الله
ونعم الوكيل قالها ابراهيم عليه السلام حين القي في النار وقالها اصحاب محمد
حين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم قال كعب الاحبار جعل
كل شي يطفي النار عنه الا الوزغ فانه كان ينفخ في النار على ابراهيم ولما اراد
الله تعالى الذي له القوة جميعا سلامته منها قال تعالى قلنا يا نار كوني
بارادتنا التي لا يتخلف عنها مراد بردا قال ابن عباس لو لم يقل بردا وسلاما
لمات ابراهيم من بردها وفي الاثار انه لم يبق يومئذ نار في الارض الا طفئت
فلم ينتفع في ذلك اليوم بنار في العالم ولو لم يقل تعالى على ابراهيم بقيت ذات
برد ابدا والمعنى كوني بردا وسلاما على ابراهيم فبولغ في ذلك حتى كان ذاتها
برد وسلام والمراد ابردي فيسلم منك ابراهيم او ابردي بردا غير ضار
قال السدي فاخذت الملائكة بضبعي ابراهيم فاقعدوه على الارض فاذا
ماء عذب وورد احمر ونرجس قال كعب ما احرقت النار من ابراهيم الا وثاقه
قالوا وكان ابراهيم في ذلك الموضع سبعة ايام قال المنهال ابن عمرو

كوني ذات برد م

قال

قال ابراهيم ما كنت اياما قط انعم مني في الايام التي كنت في النار وقال ابن يسار
وبعث الله ملك الظل في صورة ابراهيم فقعد فيها الى جنب ابراهيم يونسه
قال وبعث الله تعالى جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة وطنفسة فالبسه
القميص واجلسه على الطنفسة وقعد معه يحدثه وقال جبريل يا ابراهيم
ان ربك يقول اما علمت ان النار لا تضر احبابي ثم نظر نمرود واشرف على
النار من صرح له فراه جالسا في روضة والملك قاعد الى جنبه وما حوله
نار تحرق الحطب فناداه يا ابراهيم ان الهك الذي بلغت قدرته ان حال
بينك وبين ما ارى هل تستطيع ان تخرج منها قال نعم قال هل تخشى ان
قمت فيها ان تضرك قال لا قال فقم فاخرج منها فقام ابراهيم يمشي فيها
حتى خرج منها فلما خرج اليه قال له من الرجل الذي رايته معك في
مثل صورتك قاعدا الى جنبك قال ذلك ملك الظل ارسله الي ربي
يونسني فيها فقال نمرود اني مقرب الى الهك قربانا لما رايت من قدرته
وعزته فيما صنع بك حين ابيت الا عبادته وتوحيده اني ذابح له اربعة
الاف بقرة قال اذا لا يقبل الله منك ما كنت على دينك حتى تفارقه
الى ديني فقال لا استطيع ترك ملكي ولكن سوف اذبحها له فذبحها له
نمرود ثم كف عن ابراهيم ومنعه الله منه وكان اذ ذاك ابراهيم ابن ست
عشرة سنة واختاروا المعاقبة بالنار لانها اهول ما يعاقب به وافظعه
ولذلك جاء في الحديث لا يعذب بالنار الا خالقها وقيل ان الله نزع عنها
الذي طبعها عليه من الحر والاحراق وابقاها على الاضاءة والاشراق
والاشتعال كما كانت والله على كل شي قدير فدفع عن ابراهيم حرها كما يدفع
ذلك عن خزنة جهنم وارادوا به كيدا اي مكرا في اضراره بالنار وبعد اخراجه
منها فجعلناهم اي بما لنا من العظمة الاخسرين اي اخسر من كل خاسر عاد
سعيهم برهانا قاطعا على انهم على الباطل وابراهيم على الحق وموجبا لزيادة
درجته واستحقاقهم لاشد العذاب وقد ارسل الله تعالى على نمرود وعلى قومه
البعوض فاكلت لحومهم وشربت دماءهم ودخلت في دماغه بعوضة فاهلكته
فائدة وقع نحو هذه القصة لبعض اتباع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم
وهو ابو مسلم الخولاني طلبه الاسود العنسي لما ادعى النبوة فقال له
اتشهد اني رسول الله قال ما اسمع قال اتشهد ان محمدا رسول الله قال نعم
فامر بنار فالقي فيها فوجدوه قائما يصلي فيها وقد صارت عليه بردا وسلاما
وقدم المدينة بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم فاجلسه عمر بينه وبين
ابي بكر رضي الله عنهما وقال عمر الحمد لله الذي لم يمتني حتى اراني من امة
محمد صلى الله عليه وسلم من فعل به كما فعل بابراهيم خليل الله ونجيناه
ولوطا اي من نمرود وقومه من ارض العراق الى الارض التي باركنا

فيها للعالمين وهي الشام بارك الله فيها بالخصب وكثرة الاشجار والثمار
والانهار ومنها بعث اكثر الانبياء قال ابي بن كعب بارك الله فيها وسماها
مباركة لانه ما من ماء عذب الا ينبع اصله من تحت الصخرة التي ببيت المقدس
اي يهبط من السماء الى الصخرة ثم يتفرق في الارض قاله ابو العالية وعن قتادة
ان عمر رضي الله عنه قال لكعب الاحبار الا تتحول الى المدينة فيها مهاجر رسول
الله صلى الله عليه وسلم وقبره فقال كعب اني وجدت في كتاب الله المنزل
يا امير المومنين ان الشام كنز الله في ارضه وبها كنزه من عباده وعن عبد
الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول ستكون هجرة بعد هجرة فخيار الناس الى مهاجر ابراهيم قال محمد
ابن اسحق استجاب الله لابراهيم رجال من قومه حين راوا ما صنع الله
به عز وجل من جعل النار عليه بردا وسلاما على خوف من نمرود وملائهم
وامن به لوط وكان ابن اخيه وهو لوط بن هاران بن تارخ وهاران هو
اخو ابراهيم وكان لهما اخ ثالث يقال له ناخور بن تارخ وامنت به سارة
وهي بنت عمه وهي سارة بنت هاران الاكبر عم ابراهيم فخرج من كوثى
وهي بضم الكاف ومثلثة قال ابن الاثير كوثى العراق وهي سرة
السواد وبها ولد ابراهيم الخليل عليه السلام مهاجرا الى ربه ومعه
لوط وسارة كما قال تعالى فامن له لوط وقال اني مهاجر الى ربي فخرج
يلتمس الفرار بدينه والامان على عبادة ربه حتى نزل حران فمكث بها ما
شاء الله ثم خرج منها مهاجرا حتى قدم مصر ثم خرج من مصر الى الشام
فنزل السبع من ارض فلسطين وهو برية الشام ونزل لوط بالموتفكة
وهي على مسيرة يوم وليلة من السبع فبعثه الله نبيا الى اهلها وما قرب
منها فذلك قوله تعالى ونجيناه ولوطا الى الارض التي باركنا فيها للعالمين
اي كما انجيناك انت يا اشرف اولاده وصديقك ابا بكر رضي الله تعالى عنه
الى طيبة التي شرفناها بك وبثثنا من انوارها في ارجاء الارض واقطارها
ما لونث مثله قط وباركنا فيها للعالمين بالخلفاء الراشدين وغيرهم
من العلما والصالحين الذين انبثت خيراتهم العلمية والعملية والمالية
في جميع الاقطار ولما ولد لابراهيم عليه السلام في حال شيخوخته
وعجز امراته مع كونها عقيما وكان ذلك دالا على الاقتدار على البعث الذي
السياق كله له قال تعالى ووهبنا له دالا على ذلك بنون العظمة
اسحاق اي من شبه العدم وترك شرح حاله لتقدمه اي وكان ذلك
دليلا على اقتدارنا على ما نريد لا سيما اعادة الخلق في يوم الحساب
لانه قد يظن انه تتولد بين شيخ فان وعجوز عقيم كان على حالة من الضعف
لا يولد لمثله معها نفى ذلك بقوله تعالى ويعقوب نافلة اي ولد الاسحاق

زيادة على ما دعى به ابراهيم عليهما السلام ثم نبي سبحانه وتعالى اولاد يعقوب
وهو اسرائيل وذرياتهم الى ان ساموا النجوم عدة وباروا الجبال شدة وكلا
من هولاء الاربعة وهم ابراهيم ولوط واسحق ويعقوب وعظم رتبتهم
بقوله تعالى جعلنا صالحين اي مهيئين لطاعتهم لله تعالى لكل ما
يريدونه او يرادون له او يراد منهم ثم لما ذكر انه تعالى اعطاهم رتبة
الصلاح في انفسهم ذكر انه تعالى اعطاهم رتبة الصلاح لغيرهم فقال
تعالى معظما لامانتهم وجعلناهم ائمة اي اعلاما ومقاصد يقتدى بهم في
الدين لما اتيناهم من العلم والنبوة وقرا نافع وابن كثير وابو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية
المكسورة بين الهمزة والياء ويجوز ابدالها عندهم ياء خالصة ولا يدخلون بينهما
الفا وقرا هشام بتحقيق الهمزتين من غير ادخال بلا خلاف يهدون اي يدعون
الينا من وفقناه للهداية بامرنا اي باذننا واوحينا اليهم ايضا فعل
اي ان يفعلوا الخيرات ليحثوهم عليها فيتم كمالهم بانضمام العلم الى العمل
قال البقاعي ولعله تعالى عبر بالفعل دلالة على انهم امتثلوا كلما يوحى اليهم
وقال الزمخشري اصله ان تفعل الخيرات ثم فعلا الخيرات ثم فعل الخيرات
وكذلك اقام الصلاة وايتاء الزكاة انتهى وقوله تعالى واقام الصلاة هو
من عطف الخاص على العام تعظيما لشانهما لان الصلاة تقرب العبد الى الحق
تعالى والزكاة احسان الى الخلق قال الزجاج الاضافة في الصلاة عوض عن
تاء التانيث يعني فيكون من الغالب لا من القليل وايتاء الزكاة دائما جبلا وطبعا
لنا عابدين اي موحدين مخلصين في العبادة ولذلك قدم الصلة القصة
الثالثة قصة لوط عليه السلام المذكورة في قوله تعالى ولوطا اي
واتينا لوطا او واذكر لوطا ثم استانف قوله تعالى اتيناه حكما اي نبوة
وعملا محكما بالعلم وقيل فصلا بين الخصوم وعلما مزينا بالعمل مما ينبغي علمه
للانبيا ونجيناه من القرية اي قرية سدوم التي كانت قبل انجائنا له
منها تعمل اي اهلها الاعمال الخبائث من اللواط والرمي بالبندق
واللعب بالطيور والتضارط في انديتهم وغير ذلك وانما وصف القرية
بصفة اهلها واسندها اليها على حذف المضاف واقامة مقامه ويدل
عليه انهم كانوا تمادوا عليه قوم سوء اي ذوي قدرة على الشر بما تحكم
والاعمال السيئة فاسقين اي خارجين من كل خير وادخلناه دونهم
في رحمتنا اي في الاحوال السنية والاقوال العلية والافعال الزكية
التي هي سبب للرحمة العظمى ومسببة عنها ثم علل ذلك بقوله تعالى
انه من الصالحين اي الذين سبقت لهم منا الحسنى اي لما جبلناه عليه
من الخير القصة الرابعة قصة نوح عليه السلام المذكورة
في قوله تعالى ونوحا اي واذكر نوحا اذ اي حين نادى اي دعا الله على قومه

بالهلاك بقوله رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا ونحوه من الدعاء من قبل
اي من قبل لوط ومن تقدمه فاستجبنا له اي اردنا الاجابة واوجدناها بنفس
له في ذلك الدعاء مسبب عن ذلك قوله تعالى فنجيناه واهله اي الذين دام
ثباتهم على الايمان وهم من كان معه في السفينة من الكرب العظيم اي من اذى قومه
ومن الغرق والكرب الغم الشديد وقال السدي وقال ابو حيان الكرب
اقصى الغم والاخذ بالنفس وهو هنا الغرق عبر عنه باول احوال ماخذ الغرق
ونصرناه اي منعناه من القوم اي المتصفين بالقوة الذين كذبوا باياتنا من
ان يصلوا اليه بسوء وقيل من بمعنى على انهم كانوا قوم سوء اي لا عمل لهم
الا ما يسوء فاغرقناهم اجمعين لاجتماع الامرين تكذيب الحق والانهماك
في الشر لم يجتمعا في قوم الا واهلكهم الله تعالى القصة الخامسة
قصة داود وسليمان عليهما السلام المذكورة
في قوله تعالى وداود وسليمان ابنه اي اذكرهما واذكر شانهما اذ اي حين يحكمان
في الحرث الذي انبت الزرع وهو من اطلاق اسم السبب على المسبب كالسما
على المطر والنبت قال ابن عباس واكثر المفسرين كان ذلك كرما قد
تدلت عناقيده وقال قتادة كان زرعا قال ابن الحارث وهو اشبه بالعرف
اذ نفشت اي انتشرت ليلا بغير راع فيه غنم القوم فرعته قال
قتادة النفش في الليل والهمل في النهار وكنا لحكمهم اي الحكمين والمتحاكمين
اليهما شاهدين اي كان ذلك بعلمنا ومراءينا لا يخفى علينا علمه وقال
الفراء جمع اثنين فقال لحكمهم ويريد داود وسليمان لان الاثنين جمع وهو
مثل قوله تعالى فان كان له اخوة فلامه السدس وهو يريد اخوين قال ابن
عباس وقتادة وذلك ان رجلين دخلا على داود عليه السلام احدهما صاحب
حرث والاخر صاحب غنم فقال صاحب الزرع ان هذه انفلتت غنمه ليلا
فوقعت في حرثي فافسدته فلم يبق منه شيئا فاعطاه داود رقاب الغنم
بالحرث فخرجا فمرا على سليمان وهو ابن احدى عشرة سنة عليه السلام فقال
كيف قضى بينكما فاخبراه فقال سليمان وهو ابن احدى عشرة سنة لو وليت
امرهما لقضيت بغير هذا وروي انه قال غير هذا ارفق بالفريقين فاخبر بذلك
داود فدعاه فقال كيف تقضي ويروى انه قال بحق النبوة والابوة الا ما
اخبرتني بالذي هو ارفق بالفريقين قال ادفع الغنم الى صاحب الحرث ينتفع
بدرها ونسلها وصوفها ويبذر صاحب الغنم لصاحب الحرث مثل حرثه
فاذا صار الحرث كهيئته دفع الى اهله واخذ صاحب الغنم غنمه فقال داود
القضاء ما قضيت كما قال تعالى ففهمناها اي الحكومة سليمان اي علمناه
القضية والهمناها له تنبيه يجوز ان تكون حكومتهما بوحي الا ان حكومة
داود نسخت بحكومة سليمان ويجوز ان تكون باجتهاد الا ان اجتهاد

سليمان

سليمان اشبه بالصواب فان قيل ما وجه كل واحدة من الحكومتين اجيب بان
وجه حكومة داود ان الضرر وقع بالغنم فسلمت بجنايتها الى المجني عليه كما قال
ابو حنيفة في العبد اذا جنى على النفس يدفعه المولى بذلك او يفديه وعند الشافعي
يبيعه في ذلك او يفديه ولعل قيمة الغنم كانت على قدر النقصان في الحرث ووجه
حكومة سليمان انه جعل الانتفاع بالغنم بازاء ما فات من الانتفاع بالحرث من غير
ان يزول ملك المالك عن الغنم واوجب على صاحب الغنم ان يعمل في الحرث حتى
يزول الضرر والنقصان مثاله ما قال اصحاب الشافعي فيمن غصب عبدا
فابق من يده انه يضمن بالقيمة فينتفع بها المغصوب منه بازاء ما فوته الغاصب
من منافع العبد فاذا ظهر ترادا فان قيل لو وقعت هذه الواقعة في شريعتنا
ما حكمها اجيب بان ابا حنيفة واصحابه لا يرون فيها ضمانا بالليل او بالنهار
الا ان يكون مع البهيمة سائق او قائد لقوله صلى الله عليه وسلم جرح العجما
جبار اي هدر رواه الشيخان وغيرهما والشافعي واصحابه يوجبون الضمان
بالليل اذ المعتاد ضبط الدواب ليلا ولذلك قضى النبي صلى الله عليه وسلم
لما دخلت ناقة البراء حائطا وافسدته فقال على اهل الاموال حفظها بالنهار
وعلى اهل الماشية حفظها بالليل ولما كان ذلك ربما اوهم شيئا في امر داود
نفاه بقوله تعالى وكلا منهما اتينا حكما اي نبوة وعملا مؤسسا على حكمة
العلم وعلما مؤيدا بصالح العمل وعن الحسن لولا هذه الاية لرايت القضاة قد
هلكوا ولكنه تعالى اثنى على سليمان عليه السلام لصوابه وعذر داود عليه
السلام باجتهاده انتهى وهذا على الراي الثاني وعليه اكثر المفسرين وعن
عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
اذا حكم الحاكم فاجتهد فاصاب فله اجران واذا حكم فاجتهد فاخطا فله اجر
وهل لكل مجتهد مصيب او المصيب واحد لا بعينه رايان اظهرهما الثاني
وان كان مخالفا لمفهوم الاية اذ لو كان كل مجتهد مصيبا لم يكن للتقسيم
في الحديث معنى وقوله صلى الله عليه وسلم واذا حكم فاجتهد فاخطا فله
اجر لم يرد به على موجر على الخطا بل يوجر على اجتهاده في طلب الحق لان
اجتهاده عبادة والاثم في الخطا عنه موضوع فائدة من احكام داود
وسليمان عليهما السلام ما روي عن ابي هريرة رضي الله عنه انه سمع رسول الله صلى
الله عليه وسلم يقول كانت امراتان معهما ابناهما فجاء الذيب فذهب بابن احداهما
فقالت لصاحبتها انما ذهب بابنك وقالت الاخرى انما ذهب بابنك فتحاكما الى
داود فقضى به للكبرى فخرجتا على سليمان فاخبرتاه فقال ايتوني بالسكين
اشقه بينكما فقالت لا تفعل يرحمك الله هو ابنها فقضى به للصغرى اخرجاه في
الصحيحين ثم انه تعالى ذكر لداود وسليمان بعض معجزات فمن بعض معجزاته الاول
ما ذكره بقوله تعالى وسخرنا مع داود الجبال يسبحن مع صلابتها وعظمها

والطير معه اي يقدسن الله تعالى ولو شئنا لجعلنا الحرث والغنم تكلمه بصوت
الحكم قال ابن عباس كان يفهم تسبيح الحجر والشجر وقوله تعالى والطير عطفا على الجبال
ومفعول معه وقال وهب كانت الجبال تجاوبه بالتسبيح وكذا الطير وقال قتادة
يسبحن اي يصلين معه اذا صلى وقيل كان داوود اذا فتر يسمعه الله تسبيح الجبال
والطير لينشط في التسبيح ويشتاق اليه وقيل يسبحن بلسان الحال وقيل
يسبح من راها تسير معه بتسيير الله تعالى فلما حملت على التسبيح وصفت به
وكنا فاعلين اي من شأننا الفعل لمثل هذه الافاعيل ولكل شيء نريده فلا
يستكثر علينا امر وان كان عندكم عجيبا وقد اتفق نحو هذا لغير واحد من هذه الامة
كان مطرف بن عبد الله بن الشخير اذا دخل بيته سبحت معه آنيته واما النبي صلى
الله عليه وسلم فكان الطعام يسبح بحضرته والحصى وغيره **وعلمناه صنعة
لبوس لكم** اي صنعة الدروع التي تلبس في الحرب قال قتادة اول من صنع هذه الدروع
وسردها واتخذها حلقا داوود وكانت من قبل صفائح وقد الان الله تعالى لداوود
الحديد فكان يعمل منه من غير نار كانه طين قال البغوي وهو اي اللبوس في اللغة
اسم لكل ما يلبس ويستعمل في الاسلحة كلها وهو بمعنى الملبوس كالحلوب والركوب
وقوله تعالى **لكم** متعلق او صفة للبوس وقوله تعالى **لتحصنكم من بأسكم** بدل
منه بدل اشتمال باعادة الجار ومرجع الضمير يختلف باختلاف القراآت
فقراءة شعبة بالنون فالضمير لله تعالى وقرأ ابن عامر وحفص بالتاء على التأنيث
فالضمير للصنعة او اللبوس على تأويل الدرع وقرأ الباقون بالياء التحتية فالضمير
لداوود او اللبوس وقوله تعالى **فهل انتم شاكرون** لنا على ذلك امر اخرجه
في صورة الاستفهام للمبالغة او التقريع ومن بعض معجزات الثاني ما ذكره
بقوله **ولسليمان** وسخرنا لسليمان **الريح** قال البغوي وهو هواء يتحرك
وهو جسم لطيف يمتنع بلطفه عن القبض عليه ويظهر للحس بحركته والريح تذكر
وتؤنث **عاصفة** اي شديدة الهبوب فان قيل قد قال تعالى في موضع آخر
تجري بامره رخاء والرخاء اللين اجيب بانها كانت بامره اذا اراد ان تشتد
اشتدت وان اراد ان تلين لانت وقيل كانت في نفسها لينة رخية طيبة
كالنسيم فاذا مرت بكرسيه ابعدت به في مدة يسيرة على ما قال تعالى غدوها
شهر ورواحها شهر وقوله تعالى **تجري بامره** اي بمشيئته حال ثانية او بدل
من الاول او حال من ضميرها **الى الارض التي باركنا فيها** اي الشام وذلك
كانت تجري لسليمان واصحابه الى حيث شاء سليمان ثم يعود الى منزله بالشام
قال وهب بن منبه كان سليمان عليه السلام اذا خرج الى مجلسه عكفت
عليه الطير وقام له الجن والانس حتى يجلس على سريره وكان امرأ غزاء
قلما يقعد عن الغزو ولا يسمع بناحية من الارض بملك الا اتاه حتى يذله
فكان اذا اراد الغزو امر بمعسكره فضرب له بخشب ثم نصب له على الخشب

ثم حمل



ثم حمل عليها الناس والدواب وآلة الحرب فاذا حمل معه ما يريد امر العاصف من الريح
فدخلت تحت ذلك الخشب فاحتملته حتى اذا استقلت به امر الرخاء فمر به شهرا
في روحته وشهرا في غدوته الى حيث اراد وكانت تمر بعسكره الريح الرخاء بالمزرعة
فما تحركها ولا تثير ترابا ولا تؤذي طائرا وقال مقاتل نسجت الشياطين لسليمان
بساطا فرسخا في فرسخ ذهبا في ابريسم وكان يوضع له منبر من الذهب في وسط
البساط فيقعد عليه وحوله ثلاثة آلاف كرسي من ذهب وفضة تقعد
الانبياء على كراسي الذهب والعلماء على كراسي الفضة وحولهم الناس وحول الناس
الجن والشياطين وتظل الطير باجنحتها حتى لا تقع عليه الشمس وترفع
عليه ريح الصبا البساط مسيرة شهر من الصباح الى الرواح ومن الرواح الى
الصباح وقال سعيد بن جبير كان يوضع لسليمان ستمائة الف كرسي
تجلس الانس فيما يليه ثم يليهم الجن ثم تظلهم الطير ثم تحملهم الريح وقال
الحسن لما شغلت الخيل نبي الله سليمان حتى فاتته صلاة العصر غضب لله
فعقر الخيل فابدله الله مكانها خيرا منها واسرع الريح تجري بامره كيف يشاء
وكان يغدو من ايليا فيقيل باصطخر ثم يروح منها فيكون رواحها ببابل
وقال ابن زيد كان له مركب من خشب وكان فيه الف ركن في كل ركن
الف بيت تركب معه فيها الانس والجن تحت كل ركن الف شيطان يرفعون
ذلك المركب فاذا ارتفع اتت الريح الرخاء فسارت به وبهم تقيل عند قوم بينه
وبينهم شهر ولا يدري القوم الا وقد اظلهم معه الجيوش **وكنا** اي ازلا
وابدا باحاطة العظمة **بكل شيء** اي من هذا وغيره قراره وغيره **عالمين** ومن
علمنا ان ذلك لا يزيدهم الا تواضعا وسخرنا الريح له كما سخرناها للنبي صلى الله
عليه وسلم ليالي الاحزاب قال حذيفة رضي الله عنه حتى كانت تقلبهم بالحجارة
ما تجاوز عسكرهم فهزمهم الله تعالى بها وردوا بغيظهم لم ينالوا خيرا واعطي صلى
الله عليه وسلم اعظم ما اعطي جميع الانبياء عليهم الصلاة والسلام التصرف في
العالم العلوي الذي جعل الله تعالى منه الفيض على العالم السفلي بالاختراق
لطباقه بالاسرا تارة وبامساك المطر تارة وبما يسمع كسبع يوسف عليه
السلام اخرى كما في احاديث كثيرة واتى مع ذلك بمفاتيح خزائن الارض
كلها فردها صلى الله عليه وسلم **ومن الشياطين** الذين هم اكثر شيء تمردا وعتوا
من يغوصون له اي يدخلون في البحر فيخرجون الجواهر وغيرها من المنافع
وذلك بان اكثفنا اجسامهم مع لطافتها لتقبل الغوص في الماء معجزة في
معجزة وقد خنق نبينا صلى الله عليه وسلم الذي جاءه بشهاب من نار واسر جماعة
من اصحابه رضي الله تعالى عنهم عفاريت اتوا الى تمر الصدقة وامكنهم الله
تعالى منهم **ويعملون عملا دون ذلك** اي سوى الغوص كبناء المدن والقصور
واختراع الصنائع الغريبة كقوله تعالى يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل

الاية وكنا لهم حافظين اي حتي لا يخرجوا من امره وقال الزجاج معناه حفظناهم من
ان يفسدوا ما عملوا وكان من عادة الشياطين اذا عملوا عملا بالنهار وفرغوا منه قبل
الليل افسدوه وخربوه وفي القصة ان سليمان كان اذا بعث شيطانا مع انسان
ليعمل له عملا قال له اذا فرغ منه من عمله قبل الليل اشغله بعمل اخر كيلا يفسد
ما عمل ويخربه

القصة السادسة قصة ايوب عليه السلام

المذكورة في قوله تعالي وايوب اي واذكر ايوب ويبدل منه اذ نادى ربه اي
واذكر ايوب قال وهب بن منبه كان ايوب عليه السلام رجلا من الروم وهو
ايوب بن اموص بن رزاح بن روم بن عيص بن اسحق بن ابراهيم وكانت امه من ولد
لوط بن هاران وكان الله تعالي قد اصطفاه ونباه وبسط عليه الدنيا وكانت
له البثنية من ارض البلقا من اعمال حوران من ارض الشام كلها سهلها وجبلها وكان
له فيها من اصناف المال كله من الابل والبقر والغنم والخيل والحمر ما لا يكون لرجل
افضل منه في العدة والكثرة وكان له خمسمائة فدان يتبعها خمسمائة عبد لكل
امراة وعبد وولد ومال ويحمل آلة كل فدان اتان لكل اتان من الولد اثنين او
ثلاث او اربع او خمس وفوق ذلك وكان الله تعالي قد اعطاه اهلا وولدا من
رجال ونسا وكان برا تقيا رحيما بالمساكين يطعمهم ويكفل الايتام والارامل
ويكرم الضيف ويبلغ ابن السبيل وكان شاكرا لانعم الله مؤديا لحق الله تعالي
قد امتنع من عدو الله ابليس ان يصيب منه ما يصيب من اهل الغنا من العزة
والغفلة والتشاغل عن امر الله بما هو فيه من الدنيا وكان معه ثلاثة نفر
قد امنوا به وصدقوه رجل من اليمن يقال له اليفز ورجلان من بلده يقال لاحدهما
بلدد وللاخر صافر وكانوا كهولا وكان ابليس لا يحجب عن شي من السموات
وكان يقف فيهن حيث ما اراد حتي رفع الله عيسي عليه السلام فحجب
من اربع فلما بعث محمد صلي الله عليه وسلم حجب عن السموات كلها الا من
استراق السمع فسمع ابليس تجاوب الملائكة بالصلاة علي ايوب عليه
السلام وذلك حين ذكره الله واثني عليه فادركه البغي والحسد فصعد
سريعا حتي وقف من السما موقفا كان يقفه فقال الهي نظرت في عبدك
ايوب فوجدته عبدا انعمت عليه فشكرك وعافيته فحمدك ولو ابتليته
بنزع ما اعطيته لحال عما هو عليه من شكرك وعبادتك ولخرج من طاعتك
قال الله تعالي انطلق فقد سلطتك علي ماله فانقض عدو الله ابليس حتي وقع
علي الارض ثم جمع عفاريت الجن ومردة الشياطين وقال لهم ماذا عندكم من القوة
فاني قد سلطت علي مال ايوب وهي المصيبة الفادحة والفتنة التي لا تصبر
عليها الرجال فقال عفريت من الشياطين اعطيت من القوة ما لو شئت تحولت
اعصارا من نار واحرقت كل شي اتي عليه قال ابليس فات الابل ورعاتها
فاتي الابل وقد وضعت رؤسها ورعت في مراعيها فلم يشعر الناس حتي

نار

نار من تحت الارض اعصار من نار لا يدنو منها احد الا احترق فاحرق الابل ورعاتها
حتي اتي علي اخرها ثم جاء عدو الله ابليس في صورة قيمها علي قعود الي ايوب
فوجده قائما يصلي فقال يا ايوب اقبلت نار حتي غشيت ابلك فاحرقتها
ومن فيها غيري فقال ايوب الحمد لله هو اعطانيها وهو اخذها وانها مال
الله اعارنيها وهو اولي بها اذا شاء تركها واذا شاء نزعها وقديما كنت وطنت
نفسي ومالي علي الفنا قال ابليس فان ربك ارسل عليها نارا من السما
فاحترقت فترك الناس مبهوتين يتعجبون منها منهم من يقول ما كان ايوب
يعبد شيا وما كان ايوب الا في غرور ومنهم من يقول لو كان اله ايوب يقدر علي
ان يصنع شيا لمنع وليه ومنهم من يقول بل هو الذي فعل ليشمت به عدوه
ويفجع صديقه قال ايوب الحمد لله حين اعطاني وحين نزع مني عريانا خرجت
من بطن امي وعريانا اعود في التراب وعريانا احشر الي الله عز وجل ليس
ينبغي لك ان تفرح حين اعطاك الله وتجزع حين قبض الله عاريته الله اولي
بك وبما اعطاك ولو علم فيك ايها العبد خيرا لنقل روحك مع تلك الارواح
وصرت شهيدا ولكنه علم منك شرا فاخرك فرجع ابليس الي اصحابه خاسيا
ذليلا فقال لهم ماذا عندكم من القوة فاني لم اكلم قلبه قال عفريت عندي من
القوة ما اذا شئت صحت صيحة لا يسمعها ذو روح الا خرجت مهجته قال
ابليس فات الغنم ورعاتها فانطلق حتي توسطها ثم صاح صيحة تجثمت امواتا
من عند اخرها وماتت رعاتها ثم جا ابليس متمثلا بقهرمان الرعاة الي ايوب
وهو يصلي فقال له مثل القول الاول فرد عليه ايوب مثل الرد الاول ثم رجع
ابليس الي اصحابه فقال ماذا عندكم من القوة فاني لم اكلم قلبه فقال عفريت
عندي من القوة ما اذا شئت تحولت ريحا عاصفا تنسف كل شي تاتي عليه
قال فات الفدادين والحرث فانطلق حتي اتي الفدادين في الحرث والزرع
فلم يشعروا حتي هبت ريح عاصف فنسفت كل شي من ذلك حتي كانه لم
يكن ثم جا ابليس متمثلا بقهرمان الحرث الي ايوب وهو قائم يصلي
فقال له مثل قوله الاول فرد عليه ايوب مثل رده الاول وجعل
ابليس يهلك ماله مالا مالا حتي مر علي اخره كلما انتهي اليه هلاك مال
من امواله حمد الله تعالي واثني عليه ورضي عنه بالقضا ووطن نفسه
بالصبر علي البلا حتي لم يبق له مال فلما راي ابليس انه قد افني ماله ولم
ينجح منه شي صعد سريعا حتي وقف في الموقف الذي يقف فيه وقال
الهي ان ايوب يري انك ما متعته بولده فهو يعطيه المال فهل انت مسلطي
علي ولده فانها المصيبة التي لا تقوم لها الرجال قال الله تعالي انطلق
فقد سلطتك علي ولده فانقض عدو الله حتي جا بني ايوب وهم
في قصرهم فلم يزل يزلزل بهم حتي تداعي من قواعده وجعل يضرب بعضه

٣ واحسن الثناء عليه م

بعضا ويرميهم بالخشب والحجارة حتى مثل بهم كل مثلة ورفع القصر فقلبه فصاروا
منكبين وانطلق الى ايوب متمثلا بالمعلم الذي كان يعلمهم الحكمة وهو جريح
مشدوخ الوجه يسيل دماوه فاخبره وقال لو رايت بنيك كيف عذبوا وقلبوا
منكبين على روسهم تسيل دماوهم ولو رايت كيف شقت بطونهم فتناثرت امعاوهم
لقطع قلبك فلم يزل يقول هذا ونحوه حتى رق قلب وبكى وقبض قبضة من
التراب فوضعها على راسه وقال ليت امي لم تلدني فاغتنم ابليس ذلك فصعد
سريعا بالذي كان من جزع ايوب مسرورا به ثم لم يلبث ايوب ان فاء وابصر
واستغفر فصعد قرناوه من الملايكة بتوبته فسبقت توبته الى الله عز وجل
وهو اعلم فوقف ابليس خاسيا ذليلا وقال الهي انما هون على ايوب المال
انه يرى انك ما متعته بنفسه انك تعيد له المال والولد فهل انت مسلطي
على جسده فقال الله عز وجل انطلق فقد سلطتك على جسده ولكن ليس لك
سلطان على لسانه ولا على قلبه ولا على عقله وكان الله عز وجل اعلم به لم يسلطه
عليه الا رحمة لايوب ليعظم له الثواب ويجعله عبرة للصابرين وذكرى
للعالمين في كل بلاء نزل بهم ليتاسوا به في الصبر ورجا الثواب فانقض عدو الله
سريعا فوجد ايوب في مصلاه ساجدا فعجل قبل ان يرفع راسه فاتاه من قبل
وجهه فنفخ في منخره نفخة اشتعل منها ساير جسده فخرج من فرقه الى
قدمه ثاليل مثل اليات الغنم ووقعت فيه حكة فحك باظفاره حتى سقطت
كلها ثم حكها بالمسوح الخشنة حتى قطعها ثم حكها بالفخار والحجارة الخشنة
فلم يزل يحكها حتى نغل لحمه وتقطع وتغير وانتن واخرجه اهل القرية وجعلوه
على كناسة وجعلوا له عريشا فرفضه خلق الله كلهم غير امراته وهي رحمة
بنت افرائيم بن يوسف بن يعقوب بن ابراهيم عليهم السلام فكانت تختلف
اليه بما يصلحه وتلزمه ولما راى الثلاثة من اصحابه وهم اليفن وبلدد
وصافر ما ابتلاه الله تعالى به اتهموه ورفضوه من غير ان يتركوا دينه فلما طال
به البلاء انطلقوا اليه فبكتوه ولاموه وقالوا له تب الى الله من الذنب الذي
عوقبت به عليه قال وحضر معهم فتى حديث السن قد آمن به وصدقه فقال
لهم انكم تكلمتم ايها الكهول وانتم احق بالكلام مني لاسنانكم ولكنكم تركتم
من القول احسن من الذي قلتم ومن الراي اصوب من الذي رايتم ومن الامر
اجمل من الذي اتيتم وقد كان لايوب عليكم من الحق والذمام افضل من الذي
وصفتم فهل تدرون ايها الكهول حق من انتقصتم وحرمة من انتهكتم
الرجل ومن الذي عبتم واتهمتم الم تعلموا انه نبي الله وخيرته وصفوته من اهل
الارض الى يومكم هذا ثم لم تعلموا ولم يطلعكم الله على انه قد سخط شيا من امره
منذ ما اتاه الله ما اتاه الى يومكم هذا ولا انه نزع شيا منه من الكرامة
التي اكرمه بها ولا ان ايوب قال على الله غير الحق في طول ما صحبتموه الى يومكم هذا

فان كان

فان كان البلاء هو الذي ازرى به عندكم ووضعه في انفسكم فقد علمتم ان الله تعالى
يبتلي المومنين والصديقين والشهدا والصالحين وليس بلاوه لاوليك لسخطه
عليهم ولا لهوانه لهم ولكنها كرامة وخيرة لهم ولو كان ايوب ليس من الله
بهذه المنزلة الا انه اخ احببتموه على وجه الصحبة لكان لا يجمل بالحليم ان يعذل
اخاه عند البلاء ولا يعيره بالمصيبة ولا يعيبه بما لا يعلم وهو مكروب حزين
ولكنه يرحمه ويبكي معه ويستغفر له ويحزن لحزنه ويدله على مراشد امره وليس
بحليم ولا رشيد من جهل فالله الله ايها الكهول فقد كان في عظمة الله وجلاله
وذكر الموت ما يقطع السنتكم ويكسر قلوبكم الم تعلموا ان لله عبادا اسكتتهم خشيته
من غير عي ولا بكم وانهم لهم الفصحا البلغا النبلا الالبا العالمون بالله ولكنهم اذا
ذكروا عظمة الله انقطعت السنتهم واقشعرت جلودهم وانكسرت قلوبهم
وطاشت عقولهم اعظاما لله واجلالا له فاذا استفاقوا من ذلك استبقوا الى
الى الله بالاعمال الزاكية يعدون انفسهم مع الظالمين والخاطئين وانهم لابرار
برآء ومع المقصرين المفرطين وانهم لاكياس اقويا فقال ايوب ان الله سبحانه
وتعالى يزرع الحكمة بالرحمة في قلب الصغير والكبير فيظهرها الله تعالى على اللسان
وليست تكون الحكمة من قبل السن والشيبة ولا طول التجربة واذا جعل العبد
حكيما في الصبا لم تسقط منزلته عند الحكما وهم يرون عليه من الله نور الكرامة
ثم اعرض عنهم ايوب عليه السلام على الثلاثة وقال اتيتموني غضابا
رهبتم قبل ان تسترهبوا وبكيتم قبل ان تضربوا كيف بي لو قلت تصدقوا
علي باموالكم لعل الله ان يخلصني او قربوا قربانا لعل الله ان يتقبله ويرضى
عني وانكم قد اعجبتكم انفسكم وظننتم انكم عوفيتم باحسانكم ولو نظرتم
فيما بينكم وبين ربكم ثم صدقتم لوجدتم لكم عيوبا قد سترها الله بالعافية التي
البسكم وقد كنتم فيما خلا توقروني وانا مسموع كلامي معروف حقي منتصف
من خصمي فاصبحت اليوم وليس لي راي ولا كلام وانتم كنتم اشد علي من مصيبتي
ثم اعرض عنهم واقبل على ربه مستغيثا به مستغفرا متضرعا فقال
يا رب لاي شي خلقتني ليتني اذ كرهتني لم تخلقني يا ليتني عرفت الذنب
الذي اذنبت والعمل الذي عملت فصرفت وجهك الكريم عني لو كنت الحقتني
بابائي فالموت كان اجمل بي الم اكن للغريب دارا وللمسكين قرارا ولليتيم
وليا وللارملة قيما الهي انا عبد لك ان احسنت فالمن لك وان اسات فبيدك
عقوبتي جعلتني للبلاء غرضا وللفتنة نصبا وقد وقع بي بلاء لو سلطته على جبل
ضعف عن حمله فكيف يحمله ضعفي فان قضاءك هو الذي اذلني وان سلطا نك
هو الذي اسقمني وانحل جسمي ولو ان ربي نزع الهيبة التي في صدري
واطلق لساني حتى اتكلم بملء فمي فادلي بعذري واتكلم ببراءتي واخاصم
عن نفسي لرجوت ان يعافيني عند ذلك مما بي ولكنه القاني وتعالى عني

فهو بالي ولا اراه واسمعني ولا اسمعه فلما قال ذلك ايوب واصحابه عنده اظل
غمام حتى ظن اصحابه انه عذاب ثم نودي يا ايوب ها انا قد دنوت منك ولم ازل
منك قريبا قم فادل بعذرك وتكلم بحجتك وخاصم عن نفسك واشدد
ازرك وقم مقام جبار يخاصم جبارا ان استطعت فانه لا ينبغي ان يخاصمني
الا جبار مثلي لقد منتك نفسك يا ايوب امرا ما يبلغ مثله قوتك اين
انت مني يوم خلقت الارض فوضعتها على اساسها هل كنت معي تمد
اطرافها هل انت علمت باي مقدار قدرتها ام على اي شي وضعت اكنافها
ابطاعتك حمل الما الارض ام بحكمتك كانت الارض للما غطا اين كنت مني يوم
رفعت السما سقفا في الهوي لا تعلق بسبب من فوقها ولا يقلها دعم من تحتها
هل تبلغ من حكمتك ان تجلي نورها او تسير نجومها او يختلف بامرك ليلها ونهارها
اين انت مني يوم انبعت الانهار وسكرت البحار ابسلطانك حبس امواج
البحار على حدودها ام قدرتك فتحت الارحام حتى بلغت مدتها اين انت
مني يوم صبت الما على التراب ونصبت شوامخ الجبال على اي شي ارسيتها
او باي مثقال وزنتها ام هل لك من ذراع تطيق حملها ام هل تدري اين الما
الذي انزلت من السما ام هل تدري من اي شي انشي السحاب ام هل تدري
خزانة الثلج ام اين جبال البرد ام اين خزانة الليل بالنهار وخزانة النهار بالليل
واين خزانة الريح وباي لغة تتكلم الاشجار من جعل العقول في اجواف الرجال
ومن شق الاسماع والابصار ومن دانت الملائكة لملكه وقهر الجبارين بجبروته
وقسم الارزاق بحكمته في كلام كثير يدل على كمال قدرته ذكرها لايوب فقال
ايوب كل شاني وكل لساني وعقلي ورايي وضعفت قوتي عن هذا الامر الذي
تعرض لي الهي قد علمت ان الذي كل ذكرت صنع يديك وتدبير حكمتك
واعظم من ذلك واعجب لو شئت علمت لا يعجز عنك شي ولا يخفى عنك خافية
اذ لقيني البلا يا الهي فتكلمت فكان البلا هو الذي انطقني فليت الارض انشقت
لي فذهبت فيها ولم اتكلم بشي يسخطك ربي وليتني مت بغمي في اشد بلائي
قبل ذلك انما تكلمت حين تكلمت لتعذرني وسكت حين سكت لترحمني كلمة
زلت مني فلم اعد قد وضعت يدي على فمي وعضضت على لساني والصقت
بالتراب خدي اعوذ بك اليوم منك واستجيرك من جهد البلا فاجرني واستغيث
بك من عقابك فاغثني واستعين بك على امري فاعني واتوكل عليك فاكفني
واعتصم بك فاعصمني واستغفرك فاغفر لي فلن اعود لشي تكرهه مني
قال الله تعالى يا ايوب نفذ فيك علمي وسبقت رحمتي غضبي فقد غفرت لك
فقال ايوب اني قد مسني الضر بتسلط الشيطان علي في بدني واهلي ومالي
وقد طمع الان في ديني وذلك انه زين لامراة ايوب ان تامره ان يذبح لصنم فانه
يبرا ثم يتوب ففطن لذلك وحلف ليضربها ان برئ مائة جلدة وقال وهب

لبث

لبث ايوب في البلا ثلاث سنين وروي عن انس يرفعه ان ايوب لبث ببلائه ثمانية
عشر سنة وقال كعب ثلاث سنين وقال الحسن مكث ايوب مطروحا
على كناسة لبني اسرائيل سبع سنين واشهرا يختلفون في الدوا ولا يقربه احد
غير امراته رحمة صبرت معه تحمد الله معه اذ حمد وايوب مع ذلك لا يفتر عن
ذكر الله والصبر على دعائه وبلائه فلما غلب ايوب ابليس ولم يستطع منه شيا
اعترض امراته في هيئة ليست كهيئة بني ادم في العظم والجسم والجمال على
مركب ليس من مراكب الناس له عظم وبها وكمال فقال لها انت صاحبة ايوب
هذا الرجل المبتلي قالت نعم قال هل تعرفيني قالت لا قال انا اله الارض
وانا الذي صنعت بصاحبك لانه اطاع اله السما وتركني فاغضبني ولو سجد لي
سجدة واحدة رددت عليه وعليك كل ما كان من مال وولد واراها اياهم ببطن الوادي
الذي لقيتها فيه قال وهب وقد سمعت انه انما قال لها لو ان صاحبك اكل طعاما
ولم يسم عليه لعوفي مما به من البلا وفي بعض الكتب ان ابليس قال لها اسجدي
لي سجدة حتى ارد عليك المال والاولاد واعافي زوجك فرجعت الى ايوب
فاخبرته بما قال لها وما اراها قال لها لقد اتاك عدو الله ليفتنك عن دينك
ثم اقسم ان الله عافاه ليضربنها مائة جلدة وعند ذلك قال مسني الضر من
طمع ابليس في سجود حرمتي ودعائه اياها واياي الى الكفر وانت اي والحال
انت ارحم الراحمين فافعل بي ما يفعل الرحيم بالمضرور وهذا تعريض بسوال
الرحمة حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة وذكر ربه بغاية الرحمة ولم يصرح
فكان ذلك الطف في السوال فهو اجدر بالنوال ويحكى ان عجوزا تعرضت
لسليمان بن عبد الملك فقالت يا امير المومنين مشت جرذان بيتي على
العصي فقال لها الطفت في السوال لا جرم لاردنها تثب وثب الفهود
وملا بيتها حبا ان الله تعالى رحم رحمة امراة ايوب بصبرها معه على البلا
وخفف عليها واراد ان يبر يمين ايوب فامره ان ياخذ ضغثا يشتمل على مائة
عود صغار فيضربها به ضربة واحدة كما قال تعالى في اية اخرى وخذ بيدك
ضغثا فاضرب به ولا تحنث وروي ان ابليس اتخذ تابوتا وجعل فيه ادوية
وجلس على طريق امراة ايوب يداوي الناس فمرت به امراة ايوب فقالت
ان لي مريضا افتداويه قال نعم ولا اريد شيا الا ان يقول اذا شفيته انت
شفيتني فذكرت ذلك لايوب فقال هو ابليس قد خدعك وحلف ان شفاه
الله ليضربنها مائة جلدة وقال وهب وغيره كانت امراة ايوب تعمل للناس
وتجيئه بقوته فلما طال عليه البلا سيمها الناس فلا يستعملها احد فالتمست
له يوما من الايام ما تطعمه فما وجدت شيا فجزت قرنا من راسها فباعته
برغيف فاتته به فقال لها اين قرنك فاخبرته فحينئذ قال مسني الضر
وقال قوم انما قال ذلك حين قصد الدود الى قلبه ولسانه فخشي ان يمتنع

عن الذكر والفكر وقال ابن حبيب بن ابي ثابت لم يدع الله تعالى بالكشف حتى ظهرت
ثلاثة اشياء احدها قدم عليه صديقان حين بلغهما خبره فجاءا اليه ولم يبق
الا عيناه ورايا امرا عظيما فقالا لو كان عند الله لك منزلة ما اصابك هذا
والثاني ان امراته طلبت طعاما ولم تجد ما تطعمه فباعت ذوابتها وحملت اليه
طعاما والثالث قول ابليس لها اني اداويه على ان يقول انت شفيتني وقيل ان
ابليس وسوس اليه ان امراته زنت فقطعت ذوابتها فحينئذ عيل صبره وحلف
ليضربنها مائة جلدة وقيل معناه مسني الضر من شماتة الاعداء وقيل قال
ذلك حين وقعت دودة من فخذه فردها الى موضعها وقال كلي جعلني الله
طعامك فعضته عضة زاد المها على جميع ما قاسى من عض الدود فان
قيل ان الله تعالى سماه صابرا وقد اظهر الشكوى والجزع بقوله اني مسني
الضر ومسني الشيطان بنصب اجيب بان هذا ليس بشكاية انما هو
دعاء بدليل قوله فاستجبنا له والجزع انما هو الى الخلق فاما الشكوى
الى الله فلا تكون جزعا ولا تركه صبر كما قال يعقوب عليه السلام انما اشكو
بثي وحزني الى الله وقال سفيان بن عيينة من اظهر الشكوى الى الناس
وهو راض بقضاء الله تعالى لا يكون ذلك جزعا كما روي ان جبريل عليه
السلام دخل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال كيف تجدك قال اجدني مغموما
اجدني مكروبا وقال صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله تعالى عنها
حين قالت وا راساه بل انا وا راساه وروي ان امراة ايوب قالت له يوما لو
دعوت الله فقال لها كم كانت مدة الرخا فقالت ثمانين سنة فقال استحي
من الله ان ادعوه وما بلغت مدة بلائي مدة رخائي ثم نسب عن الاجابة قوله
تعالى فكشفنا اي بما لنا من العظمة ما به من ضر بان امرناه ان يركض برجله
فنبع له عين من ما كما قال تعالى اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب
فركض برجله فانفجرت له عين ما فدخل فيها فاغتسل فاذهب الله تعالى
كلما كان به من البلا بظاهره ثم مشى اربعين خطوة فامر ان يضرب برجله الارض
مرة اخرى ففعل فنبع عين ما بارد فشرب منها فذهب كل داء كان بباطنه
فصار كاصح ما يكون من الرجال واجملهم فاقبلت امراته تلتمسه في مضجعه
فلم تجده فقامت كالوالهة ثم جاءت اليه وهي لا تعرفه فقالت يا عبد الله هل لك
علم بالرجل المبتلى الذي كان هنا قال نعم وما لي لا اعرفه فتبسم وقال انا هو
فعرفته بضحكه فاعتنقته قال ابن عباس فوالذي نفس عبد الله بيده ما فارقته
من عناقه حتى مر بها كلما كان لها كما قال تعالى واتيناه اهله اي اولاده
الذكور والاناث بان احييناه وكل من الصنفين ثلاث او سبع ومثلهم معهم
اي من زوجته رحمة وزيد في شبابها هذا ما دل عليه اكثر المفسرين وقيل اتاه
الله المثل من نسل ماله وولده الذي رده اليه اي تولد له من ولده نوافل

وقال وهب كان له سبع بنات وثلاثة بنين وروي الضحاك عن ابن عباس رد
الى امراته شبابها فولدت له ستة وعشرين ذكرا وقال قوم اتى الله تعالى
ايوب في الدنيا مثل اهله الذين هلكوا فان الذين هلكوا لم يرد واعليه في
الدنيا وقال عكرمة قيل لايوب ان اهلك لك في الاخرة وان شئت عجلناهم
لك في الدنيا وان شئت كانوا لك في الاخرة واتيناك مثلهم في الدنيا فعلى هذا
يكون معنى الاية واتيناه اهله في الاخرة ومثلهم معهم في الدنيا وروي عن انس
يرفعه كان لايوب اندران اندر للقمح واندر للشعير فبعث الله تعالى سحابتين
فافرغت احداهما على اندر القمح وافرغت الاخرى على اندر الشعير الورق حتى
فاض وروي ان الله تعالى بعث اليه ملكا وقال ان ربك يقريك السلام بصبرك
فاخرج الى اندرك فخرج اليه فارسل عليه جرادا من ذهب قيل انه لما اغتسل
وخرج الدود منه جعل الله له اجنحة فطارت فجعلها الله جرادا من ذهب
وامطرت عليه فطارت واحدة فاتبعها وردها الى اندره فقال له الملك اما
يكفيك ما في اندرك فقال هذه بركة من بركات ربي ولا اشبع من بركته وعن
ابي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما ايوب
يغتسل عريانا خر عليه جراد من ذهب فجعل ايوب يحثي في ثوبه فناداه
ربه يا ايوب الم اكن اغنيتك عما ترى قال بلى يا رب ولكن لا غنى لي عن بركتك
وقوله تعالى رحمة مفعول له اي نعمة عظيمة وفخمها بقوله من عندنا
بحيث لا يشك من ينظر ذلك ان ما فعلناه الا رحمة منا وان غيرنا لا يقدر على ذلك
وذكرى اي عظة عظيمة للعابدين كلهم ليتاسوا به فيصبروا اذا ابتلوا ولا
يظن ان ذلك انما نزل بهم لهوانهم ويشكروا ويتابوا كما اتيت وقيل لرحمتنا العا
فانا نذكرهم بالاحسان ولا ننساهم

القصة السابعة قصة اسمعيل وادريس وذا الكفل

في قوله تعالى واسماعيل اي واذكر اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام
الذي سخرنا له من الماء بواسطة الروح الامين ما عاش به صغيرا بعد ما كان
هالكا لا محالة ثم جعلناه طعام طعم وشفاء سقم دائما وصناه وهو كبير
من الذبح حين راى ابوه في المنام انه يذبحه ورؤيا الانبياء وحي واذكر
ادريس اي ابن شيث بن ادم عليهما السلام الذي احييناه بعد موته
ورفعناه مكانا عليا وهو اول نبي بعث من بني ادم عليهم السلام وتقدمت
قصته في مريم واذكر ذا الكفل وسمي بذلك قال عطاء ان نبيا من انبياء
بني اسرائيل اوحى الله تعالى اليه اني اريد ان اقبض روحك واعرض ملكك
على بني اسرائيل فمن تكفل لك ان يصلي بالليل لا يفتر ويصوم بالنهار لا يفطر
ويقضي بين الناس ولا يغضب فادفع ملكك اليه ففعل ذلك فقام شاب
فقال انا اتكفل لك بهذا فتكفل ووفى به فشكر الله له ونبأه

٣ الذهب

بدين

فسمي ذا الكفل وقال مجاهد لما كبر اليسع قال لو اني استخلفت رجلا من
الناس يعمل عليهم في حياتي حتى انظر كيف يعمل قال فجمع الناس فقال من يتقبل
مني ثلاثا استخلفه يصوم النهار ويقوم الليل ولا يغضب فقام رجل فقال
انا فاستخلفه فاتاه ابليس في صورة شيخ ضعيف حين اخذ مضجعه للقايلة
وكان لا ينام بالليل والنهار الا تلك النومة فدق الباب فقال من هذا قال شيخ
كبير مظلوم فقام ففتح الباب فقال ان بيني وبين قومي خصومة وانهم ظلموني
وفعلوا ما فعلوا وجعل يطول حتى ذهبت القايلة فقال اذا رحت فاتني اخذ
حقك فانطلق وراح فكان في مجلسه ينظر هل يرى الشيخ فلم يره فقام يتبعه فلم
يجده فلما كان الغد جعل يقضي بين الناس وينظره فلم يره فلما رجع الى القايلة
واخذ مضجعه اتاه فدق الباب فقال من قال الشيخ المظلوم ففتح له وقال الم اقل
لك اذا قعدت فاتني فقال انهم اخبث قوم اذا عرفوا انك قاعد قالوا نحن
نعطيك حقك واذا قمت جحدوني قال فانطلق فاذا جلست فاتني وفاته
القايلة فلما جلس جعل ينظر فلم يره وشق عليه ذلك النعاس فلما كان
في اليوم الثالث قال لبعض اهله لا تدع هذا الرجل يقرب مني حتى انام
فانه قد شق علي النعاس فلما كان تلك الساعة جا فلم ياذن له الرجل
فلما اعياه نظر فراى كوة في البيت فتسور منها فاذا هو في البيت فدق عليه
الباب من داخل فاستيقظ فقال يا فلان الم امرك قال اما من قبلي فلم تؤت
فانظر من اين اتيت فقام الى الباب فاذا هو مغلق كما غلقه واذا بالرجل
معه في البيت فقال اتنام والخصوم ببابك فقال اعدو الله قال نعم
اعييتني ففعلت ما ترى لاغضبنك فعصمك الله فسمي ذا الكفل لانه
تكفل بامر فوفى به وقيل ان ابليس جاه وقال له ان لي غريما يظلمني فاحب
ان تقوم معي وتستوفي حقي منه فانطلق معه حتى اذا كان في السوق خلاه
وذهب وروي انه اعتذر اليه وقال ان صاحبي هرب وقيل ان ذا الكفل
رجل كفل ان يصلي كل ليلة ماة ركعة الى ان يقبضه الله تعالى فوفى به
واختلفوا في انه كان نبيا فقال الحسن كان نبيا وعن ابن عباس انه الياس وقيل
هو زكريا وقيل هو يوشع بن نون وقال ابو موسى لم يكن نبيا ولكن كان عبدا صالحا
ولما قرن الله تعالى بين هولا الثلاثة استانف مدحهم بقوله تعالى **كل** اي كل واحد
منهم **من الصابرين** على ما ابتليناه به فاتيناهم ثواب الصابرين **وادخلناهم
في رحمتنا** اي فعلنا بهم من الاحسان ما يفعله الراحم بمن يرحمه على وجه عمهم
من جميع جهاتهم فكان ظرفا لهم ثم علل ذلك بقوله تعالى **انهم من الصالحين** اي
لكل ما يرضاه تعالى منهم يعني انهم جبلوا جبلة خير فعملوا على مقتضى ذلك
فكانوا من الكاملين في الصلاح وهم الانبيا لان صلاحهم معصوم عن كدر
الفساد

القصة الثامنة قصة يونس عليه السلام

المذكورة

المذكورة في قوله **وذا النون** اي واذكر صاحب الحوت وهو يونس بن متى ويبدل منه
اذ ذهب مغاضبا واختلفوا في معنى ذلك فقال الضحاك مغاضبا لقومه وهو
رواية العوفي عن ابن عباس قال كان قوم يونس يسكنون فلسطين فغزاهم
ملك فسبى منهم تسعة اسباط ونصفا وبقي سبطان ونصف فاوحى الله
تعالى الى شعيب النبي ان سر الى حزقيل الملك وقل له يوجه نبيا قويا
الى هولا فاني القي في قلوبهم حتى يرسلوا معه بني اسرايل فقال له
الملك فمن ترى وكان في مملكته خمسة انبيا فقال يونس فانه قوي امين
فدعا الملك يونس وامره ان يخرج فقال يونس هل امرك الله باخراجي قال
لا قال فهل سماني لك قال لا قال فهنا انبيا غيري اقويا فالحوا عليه فخرج من
بينهم مغاضبا لقومه للنبي والملك ولقومه فاتى بحر الروم فركبها قال
عروة بن الزبير وسعيد بن جبير وجماعة ذهب مغاضبا لربه اذ كشف
عن قومه العذاب بعد ما وعدهم وكره ان يكون بين قوم قد يكونوا قد جربوا
عليه الخلف فيما وعدهم واستحيى منهم ولم يعلم السبب الذي لم يرفع به العذاب
عنهم وكان غضبه انفة من ظهور خلف من وعده وان يسمى كذابا لا كرا — هية
لحكم الله تعالى وفي بعض الاخبار انه كان من عادة قومه ان يقتلوا من جربوا
عليه الكذب فخشي ان يقتلوه لما لم ياتهم العذاب للميعاد فغضب
والمغاضبة هاهنا من المفاعلة التي تكون من واحد كالمسافرة والمعاقبة
فمعنى قوله مغاضبا اي غضبانا وقال الحسن انما غاضب ربه من اجل انه
امره بالمسير الى قوم لينذرهم باسه ويدعوهم اليه فسال ربه ان ينظره — باسه
ليتاهب فقيل له ان الامر اسرع من ذلك حتى سال ان ينظر الى ان ياخذ
نعلا يلبسها فلم ينظره وكان في خلقه ضيق فذهب مغاضبا وعن ابن عباس
قال اتى جبريل يونس فقال انطلق الى اهل نينوى فانذرهم قال التمس
دابة قال الامر اعجل من ذلك فغضب فانطلق الى السفينة وقال
وهب ان يونس كان عبدا صالحا وكان في خلقه ضيق فلما حمل عليه اثقال
النبوة تفسخ تحتها تفسخ الربع تحت الحمل الثقيل فقذفها بين يديه
وخرج هاربا فلذلك اخرجه الله تعالى من اولي العزم فقال تعالى لنبيه
صلى الله عليه وسلم فاصبر كما صبر اولوا العزم من الرسل وقال تعالى ولا تكن
كصاحب الحوت اذ نادى وهو مكظوم **فظن ان لن نقدر عليه** اي لن نقضي
عليه بالعقوبة قاله مجاهد وقتادة والضحاك وقال عطا وكثير
من العلما معناه فظن ان لن نقضي نضيق عليه الحبس من قوله تعالى
الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر وعن ابن عباس انه دخل
على معاوية فقال لقد ضربتني امواج القران البارحة فغرقت فيها فلم
اجد لنفسي خلاصا الا بك قال وما هي يا معاوية فقرا هذه الاية فقال

ولو استفهام

او يظن نبي الله ان لن يقدر عليه قال هذا من القدر اي الذي معناه الضيق
لا من القدرة وقال ابن زيد هو معناه انه يعجز ربه فلا يقدر عليه **فنادى**
اي فاقتضت حكمتنا ان عاقبناه حتى يستلم فالقى نفسه في البحر فالتقمه
الحوت فمكث فيه اربعين من بين يوم وليلة وقال عطا سبعة ايام
وقيل ان الحوت ذهب به مسيرة ستة الاف سنة وقيل بلغ به تخوم الارض
السابعة ومعناه ان يكون له طعاما فنادى **في الظلمات** ظلمة الليل
وظلمة النهار وظلمة بطن الحوت وقيل في الظلمة الشديدة المتكاثفة في
بطن الحوت كقوله تعالى ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات وقوله يخرجهم
من النور الى الظلمات وقيل ابتلع حوته حوت اكبر منه فحصل في ظلمتي بطني
الحوتين وظلمة البحر **ان لا اله الا انت** ولما نزهه عن الشريك عمم فقال
سبحانك اي تنزهت عن كل نقص فلا يقدر على الانجا مما انا فيه الا انت
ثم افصح بطلب الخلاص بقوله ناسبا الى نفسه من النقص ما نزه الله عن
مثله **اني كنت من الظالمين** اي في خروجي من بين قومي قبل الاذن فاعف
عني كما هو سيرة القادرين روي عن ابي هريرة مرفوعا ان الله تعالى اوحى
الى الحوت ان خذه ولا تخدش له لحما ولا تكسر له عظما فاخذه ثم هوى به
الى مسكنه في البحر فلما انتهى به الى اسفل البحر سمع يونس حسا فقال
في نفسه ما هذا فاوحى الله تعالى اليه ان هذا تسبيح دواب البحر قال
فسبح هو في بطن الحوت فسمع الملائكة فقالوا يا ربنا نسمع صوتا ضعيفا
بارض غريبة وفي رواية صوتا معروفا من مكان مجهول فقال ذلك عبدي
يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت فقالوا العبد الصالح الذي كان
يصعد اليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح قال نعم فشفعوا فيه عند ذلك
فامر الحوت فقذفه في الساحل كما قال تعالى فنبذناه بالعراء وهو سقيم
فذلك قوله تعالى **فاستجبنا له** اي اجبناه **ونجيناه من الغم**
اي من تلك الظلمات بتلك الكلمات **وكذلك** اي وكما انجيناه **ننجي المؤمنين**
من كربهم اذا استغاثوا بنا داعين قال الرازي في اللوامع وشرط كل من يلتجي
الى الله ان يبدا بالتوحيد ثم بالتسبيح والثنا ثم بالاعتراف والاستغفار والاعتذار
وهذا شرط كل دعا انتهى وعن النبي صلى الله عليه وسلم ما من مكروب يدعو
بهذا الدعا الا استجيب له وعن الحسن ما نجاه الله تعالى الا اقراره على
نفسه بالظلم وقرا ابن عامر وابو بكر بنون واحدة مضمومة وتشديد الجيم
على ان اصله ننجي فحذفت النون الثانية كما حذفت التا الثانية في تظاهرون
وهي وان كانت فالحذف فيها اوقع من حذف حرف المضارعة التي لمعنى وقيل
هو لمعنى وقيل هو ماض لمجهول اسند الى ضمير المصدر وقرا الباقون بنونين
الثانية مخفاة عند الجيم تنبيه اختلفوا في متى كانت رسالة يونس

عليه

عليه السلام فروي سعيد بن جبير عن ابن عباس كانت بعد ان اخرجه الله تعالى
من بطن الحوت بدليل قوله تعالى وان يونس لمن المرسلين اذ ابق الى الفلك المشحون
فساهم فكان من المدحضين فالتقمه الحوت وهو مليم فلولا انه كان من
المسبحين للبث في بطنه الى يوم يبعثون **القصة التاسعة**
قصة زكريا عليه السلام المذكورة في قوله تعالى **وزكريا**
اي واذكر زكريا ويبدل منه **اذ نادى ربه** ندا الحبيب القريب فقال
رب باسقاط اداة البعد **لا تذرني فردا** اي وحيدا من غير ولد ذكر
يرث ما اتيتني من الحكمة **وانت** اي والحال انك **خير الوارثين** اي الباقي
بعد فنا خلقك وكثيرا ما تمنح ارث بعض عبيدك عبدا اخرين فانت الحقيق
بان تتفضل في ارثه من العلم والحكمة ما احب فهب لي ولدا تمن علي به **فاستجبنا**
له بعظمتنا وان كان في حد من السن لا حراك به معه وزوجه في حال من العقم
لا يرجى معه حبلها فكيف وقد جاوزت سن الياس ولذلك عبر بما يدل على العظمة
فقال تعالى **ووهبنا له يحيى** ولدا وارثا نبيا حكيما عظيما **واصلحنا له**
خاصة من بين اهل ذلك الزمان **زوجه** اي جعلناها صالحة لكل خير له
فاصلحناها للولادة بعد عقمها واصلحناها لزكريا بعد ان كانت سريعة الغضب
سيئة الخلق فاصلحناها له ورزقناها حسن الخلق **انهم** اي الانبيا الذين
سماهم في هذه السورة وقيل زكريا وزوجه ويحيى **كانوا** اي جبلة وطبعا
يسارعون في الخيرات اي الطاعات يبالغون في الاسراع بها مبالغة من
يسابق اخر ودل على عظيم افعالهم بقوله تعالى **ويدعوننا** مستحضرين
لجلالنا وعظمتنا وكمالنا **رغبا** اي طمعا في رحمتنا **ورهبا** اي خوفا من
عذابنا **وكانوا** اي جبلة وطبعا **لنا** خاصة **خاشعين** اي خائفين
خوفا عظيما يحملهم على الخضوع والانكسار قال مجاهد الخشوع هو الخوف
اللازم للقلب وقيل متواضعين وسئل الاعمش اما ان سالت ابراهيم
قال الا تدري قلت افدني قال بينه وبين الله اذا ارخى ستره واغلق بابه
فلير الله منه خيرا لعلك ترى انه ياكل خشنا ويلبس خشنا ويطاطئ راسه
القصة العاشرة قصة مريم وابنها عليهما السلام
المذكورة في قوله **والتي** اي اذكر مريم **احصنت فرجها** اي حفظته من
الحلال والحرام حفظا يحق له ان يذكر ويتحدث به كما قال تعالى حكاية عنها ولم
يمسسني بشر ولم اك بغيا لان ذلك غاية في العفة والصيانة والتخلي عن
الملاذ الى الانقطاع الى الله تعالى بالعبادة مع ما جمعت مع ذلك من الامانة
والاجتهاد ومتانة الديانة والصحيح انها ليست بنبية **فنفخنا فيها من**
روحنا اي امرنا جبريل حتى نفخ في جيب درعها فاحدثنا بذلك النفخ المسيح
في بطنها واضاف الروح اليه تعالى تشريفا لعيسى عليه السلام كيف الله

وناقة الله ثم بين تعالى ما خص مريم وعيسى من الآيات فقال تعالى وجعلناها
وابنها اي قصتهما او حالهما ولذلك وحد قوله تعالى آية للعالمين من الجن
والانس والملائكة فان من تأمل حالهما تحقق كمال قدرة الله تعالى فانه قيل هلا قال
تعالى آيتين كما قال تعالى وجعلنا الليل والنهار آيتين اجيب بما تقدم وبان الآية
كانت فيهما وهي انها أتت به من غير فحل وههنا آخر القصص ولما دل ما مضى
من قصص هؤلاء الانبياء عليهم السلام انهم كلهم متفقون على التوحيد الذي
هو اصل الدين قال تعالى ان هذه اي ملة الاسلام امتكم اي دينكم
ايها المخاطبون اي يجب ان تكونوا عليها حال كونها امة قال البغوي واصل
الامة الجماعة التي هي على مقصد واحد ثم جعلت الشريعة امة لاجتماع اهلها
على مقصد واحد ثم اكد سبحانه وتعالى هذا المعنى بقوله تعالى واحدة فابطل
ما سوى الاسلام من الاديان وانا ربكم اي المحسن اليكم لا غيري في كل زمان
فاني لا اتغير على طول الدهر ولا يشغلني شان عن شان فاعبدون دون
غيري فانه لا كفو لي ثم ان بعضهم خالف الامر بالاجتماع كما اخبر الله تعالى عنهم
بقوله تعالى وتقطعوا اي بعض المخاطبين امرهم بينهم اي تفرقوا ادينهم
مخالفين فيه وهم طوائف اليهود والنصارى قال الكلبي فرقوا دينهم بينهم
يلعن بعضهم بعضا ويتبرأ بعضهم من بعض تنبيه الاصل وتقطعتم
الا ان الكلام صرف الى الغيبة على طريقة الالتفات كأنه ينعى عليهم ما افسدوه
الى آخرين ويقبح عندهم فعلهم ويقولون الا ترون الى عظيم ما ارتكب هؤلاء في
دين الله والمعنى جعلوا امر دينهم فيما بينهم قطعا كما يتوزع الجماعة الشيء
ويقتسمونه بينهم فيصير لهذا نصيب ولذاك نصيب تمثيلا لاختلافهم
فيه وصيرورتهم فرقا واحزابا شتى ثم توعدهم بقوله تعالى كل اي من هذه الفرق
وان بالغ في التمرد الينا يوم القيامة راجعون فنحكم بينهم فيتسبب عن ذلك
ان نجازيهم اقامة للعدل فنعطي كلا من المحق التابع لاصفيائنا والمبطل المائل الى
الشياطين اعدائنا ما يستحقه وذلك هو معنى قوله تعالى فارقا بين المحسن
والمسيء تحقيقا للعدل وتشوقا بالفضل فمن يعمل اي منهم الآن من الصالحات
وهو اي والحال انه مؤمن اي بان يعمله على الاساس الصحيح فلا كفران
اي لا جحود لسعيه بل يشكر ويثاب عليه تنبيه قوله تعالى فلا كفران
نفي الجنس ليكون ابلغ من ان يقول فلا نكفر سعيه وانا له اي لسعيه كاتبون
اي مثبتون في صحيفة عمله وما اثبتناه فهو غير ضائع فلا نفقد منه شيئا قليلا
ولا جليلا ومن المعلوم ان قسيمه وهو من يعمل من السيئات وهو كافر فلا نقيم له وزنا
ومن يعمل منها وهو مؤمن فهو في مشيئتنا قال البقاعي ولعله حذف هذين القسمين
ترغيبا في الايمان ولما كان هذا غير صريح في ان هذا الرجوع بعد الموت بينه بقوله
تعالى وحرام اي ممنوع على قرية اي اهلها اهلكناها اي بالموت انهم لا يرجعون

الينا

الينا بان يذهبوا تحت التراب باطلا من غير احياء بل الينا بموتهم حتى يحاسبهم
في البرزخ منعمين او معذبين نعيما او عذابا دون النعيم والعذاب الاكبر تنبيه
ما قدرناه في الآية هو ما جرى عليه البقاعي والذي قدره الزمخشري ان معنى
اهلكناها عزمنا على اهلاكها او قدرنا اهلاكها ومعنى الرجوع الرجوع الى الاسلام
والانابة فتكون لا مزيدة والذي قدره الجلال المحلي ان لا زائدة اي ممتنع رجوعهم
الى الدنيا فيكون الاهلاك بالموت وهذا اقرب مما قاله ابن عباس فانه قال وحرام
على قرية اهلكناها ان يرجعوا بعد الهلاك فجعل لا زائدة قال البغوي وقال
آخرون الحرام بمعنى الواجب فعلى هذا تكون لا ثابتة معناه واجب على اهل
قرية اهلكناهم اي حكمنا بهلاكهم ان تتقبل اعمالهم لانهم لا يرجعون اي لا يتوبون
والدليل على هذا المعنى انه تعالى قال في الآية التي قبلها ومن يعمل من الصالحات
وهو مؤمن فلا كفران لسعيه اي يتقبل عمله ثم ذكر هذه الآية عقبه وبين ان الكافر
لا يتقبل عمله انتهى والذي قدره البيضاوي قريب مما قدره الزمخشري وكل هذه
التقادير صحيحة لكن الاول اظهر وقرأ شعبة وحمزة والكسائي بكسر الحاء وسكون
الراء والباقون بفتح الحاء والراء والف بينهما بعد الراء قال البغوي وهما لغتان مثل
حل وحلال وقوله تعالى حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج متعلق كما قال
الزمخشري بحرام وحتى غاية له لان امتناع رجوعهم لا يزول حتى تقوم القيامة
وهي حتى التي يحكى بها بعدها الكلام وهي الابتدائية لا الجارة ولا العاطفة
والمحكي هو الجملة الشرطية وقرأ ابن عامر بتشديد التاء بعد الفاء والباقون
بالتخفيف ويأجوج ومأجوج وهما اسمان اعجميان اسم لقبيلتين يقال
الناس عشرة اجزاء تسعة منها يأجوج ومأجوج وقرأهما عاصم بهمزة ساكنة
والباقون بالالف ثم عبر عن كثرتهم التي لا يعلمها الا هو بقوله سبحانه وتعالى
وهم اي والحال انهم من كل حدب اي نشز عال من الارض ينسلون
اي يسرعون من النسلان وهو تقارب الخطا مع السرعة كمشي الذئب
وفي العبارة ايماء الى ان الارض كورة وقيل الضمير راجع الى الناس المسوقين الى المحشر
روي عن حذيفة بن اسيد الغفاري قال اطلع النبي صلى الله عليه وسلم علينا ونحن
نتذاكر فقال صلى الله عليه وسلم ما تذكرون قالوا نذكر الساعة قال انها لن
تقوم الساعة حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر الدجال والدخان والدابة وطلوع
الشمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم عليه السلام ويأجوج ومأجوج وثلاثة
خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر
ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس الى محشرهم واقترب الوعد الحق اي يوم
القيامة قال حذيفة لو ان رجلا اقتنى فلوا بعد خروج يأجوج ومأجوج لم
يركبه حتى تقوم الساعة الفلو المهر فاذا هي شاخصة ابصار الذين كفروا
قال الكلبي شخصت ابصار الذين كفروا الكفار فلا تكاد تطرف من شدة ذلك

من الكفر

ثلثة

البوم تنبيه فاذا هي اذا للمفاجاة وهي تقع في المجازاة سادة مسد الفا كقوله
تعالى اذا هم يقنطون فاذا جاءت الفاء معها تعاونتا على وصل الجزا بالشرط فيتاكد
ولو قيل اذا هي شاخصة او فهي شاخصة كان سديدا قال سيبويه
والضمير للقصة بمعنى فاذا القصة شاخصة يعني القصة ان ابصار الذين
كفروا تشخص عند ذلك وقال الزمخشري هي ضمير مبهم توضحه الابصار
وتفسره كما فسر الذين ظلموا واسروا النجوى وقولهم يا ويلنا اي هلاكنا
متعلق بمحذوف تقديره يقولون يا ويلنا ويقولون في موضع الحال من
الذين كفروا ويا للتنبيه قد كنا اي في الدنيا في غفلة من هذا
اي اليوم حيث كذبنا وقلنا انه غير كائن ثم ضربوا عن الغفلة فقالوا
بل كنا ظالمين انفسنا بعدم اعتقاده واضعين الشيء في غير موضعه
حيث اعرضنا عن تامل دلائله والنظر في مخايله وكذبنا الرسل وعبدنا
الاوثان وقوله تعالى انكم خطاب لاهل مكة واكد لانكارهم مضمون الخبر
وما تعبدون من دون الله اي غيره من الاوثان حصب جهنم اي وقودها
وهو ما يرمى به اليها ويهيج به من حصبه يحصبه اذا رماه والحصب في
لغة اهل اليمن الحطب وقال عكرمة هو الحطب بالحبشية قال الضحاك
يعني يرمون بهم في النار كما يرمى بالحصبا وقوله تعالى انتم لها واردون
اي داخلون استيناف او بدل من حصب جهنم واللام معوضة من على
للاختصاص والدلالة على ان ورودهم لاجلها لو كان هولاء اي الاوثان
الهة اي كما زعمتم ما وردوها اي ما دخل الاوثان وعابدوها النار
وقرا نافع وابن كثير وابو عمرو بابدال الهمزة الثانية ياء خالصة في الوصل
بعد تحقيق الاولى والباقون بتحقيقهما وكل اي من العابدين والمعبودين
فيها اي في جهنم خالدون لا انفكاك لهم عنها بل يحمى بكل منهم فيها على
الاخر فان قيل لم قرنوا بالهتهم اجيب بانهم لا يزالون لمقارنتهم
في زيادة غم وحسرة حيث اصابهم ما اصابهم بسببهم والنظر الى
وجه العدو باب من العذاب لانهم قدروا ان يستشفعوا بهم في الاخرة
ويستشفعون بشفاعتهم فاذا صادفوا على عكس ما قدروا لم يكن
شيء ابغض اليهم منهم فان قيل اذا عنيت بما تعبدون الاوثان فما معنى
قوله تعالى لهم فيها زفير اي تنفس عظيم على غاية من الشدة والمد تكاد
تخرج معه النفس اجيب بانهم اذا كانوا هم واوثانهم في قرن واحد جاز ان
يقال لهم زفيروا لم يكن الزافرين الا هم دون الاوثان للتغليب ولعدم
الالتباس وهم فيها لا يسمعون شيئا لشدة غليانها وقال ابن مسعود
في هذه الاية اذا بقي في النار من يخلد فيها جعلوا في توابيت من نار
ثم جعلت تلك التوابيت في توابيت اخرى عليها مسامير من نار فلا يسمعون

شيئا



شيئا ولا يرى احد منهم ان في النار احدا يعذب غيره وروي ان رسول الله صلى الله
عليه وسلم دخل المسجد وصناديد قريش في الحطيم وحول الكعبة ثلثمائة
وستون صنما فجلس اليهم فعرض له النضر بن الحارث فكلمه رسول الله
صلى الله عليه وسلم حتى افحمه ثم تلا عليهم انكم وما تعبدون من دون الله
الاية فاقبل عبد الله بن الزبعرى السهمي فرآهم يتهامسون فقال فيم خوضكم
فاخبره الوليد بن المغيرة بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عبد الله
اما والله لو وجدته لخصمته فدعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له
ابن الزبعرى انت قلت ذلك قال نعم قال قد خصمتك ورب الكعبة
اليس اليهود عبدوا عزيرا والنصارى عبدوا المسيح وبنو مليح عبدوا الملائكة
فقال صلى الله عليه وسلم بل هم عبدوا الشياطين التي امرتهم بذلك
فانزل الله تعالى ان الذين سبقت لهم منا الحسنى اي الحكم بالموعد
البالغة في الحسن في الازل ومنهم من ذكر سواء اخل باحد منهم الكفار
فاطروه ام لا اولئك اي العالو الرتبة عنها اي جهنم مبعدون برحمة الله
لانهم احسنوا في العبادة واتقوا وهل جزاء الاحسان الا الاحسان وفي
رواية عن ابن عباس ان ابن الزبعرى لما قال للنبي صلى الله عليه وسلم ذلك
سكت ولم يجب فضحك القوم فنزل قوله ولما ضرب ابن مريم مثلا اذا قومك منه
يصدون وقالوا االهتنا خير ام هو ما ضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون
ونزل في عيسى والملائكة ان الذين سبقت لهم منا الحسنى الاية وقد اسلم
ابن الزبعرى بعد ذلك رضي الله تعالى عنه ومدح النبي صلى الله عليه وسلم
وادعى جماعة ان المراد من الاية الاصنام لان الله تعالى قال وما تعبدون من
دون الله ولو اراد الملائكة والناس لقال ومن تعبدون يروى ان عليا رضي
الله تعالى عنه قرا هذه الاية ثم قال انا منهم وابو بكر وعمر وعثمان وطلحة
والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وابن الجراح ثم اقيمت الصلاة
فقام يجر رداءه وهو يقول لا يسمعون حسيسها اي حركتها البالغة
وصوتها الشديد فكيف بما دونه لان الحس مطلق الصوت او الصوت
الخفي كما قاله البغوي فاذا زاد حروفه زاد معناه فذكر ذلك بدلا من مبعدون
او حال من ضميره للمبالغة في ابعادهم عنها وهم اي الذين سبقت لهم
منا الحسنى فيما اشتهت انفسهم في الجنة كما قال تعالى وفيها ما
تشتهي الانفس وتلذ الاعين والشهوة طلب النفس اللذة خالدون
اي دائما ابدا في غاية التنعم وتقديم الظرف للاختصاص والاهتمام به
فائدة في هنا مقطوعة من ما ولما كان معنى ذلك ان سرورهم ليس له
زوال اكده بقوله تعالى لا يحزنهم الفزع الاكبر قال الحسن
هو حين يؤمر بالعبد الى النار وقال ابن عباس هو النفخة الاخيرة

بقوله تعالى ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الارض و قال ابن جريج يلوحين يذبح الموت وينادي يا اهل النار خلود بلا موت وقال سعيد ابن جبير هو ان تطبق جهنم وذلك بعد ان يخرج الله منها من يريد الله ان يخرجه وتتلقاهم اي تستقبلهم الملائكة قال البغوي على ابواب الجنة يهنونهم وقال الجلال المحلي عند خروجهم من القبور ولا مانع انها تستقبلهم في الحالين ولا مانع ويقولون لهم هذا يومكم الذي كنتم توعدون اي هذا وقت ثوابكم الذي وعدكم ربكم به في الدنيا فابشروا فيه بجميع ما يسركم ولما كانت هذه الافعال على غاية من الاهوال تتشوق بها النفس لمعرفة اليوم الذي يكون فيه قال تعالى يوم اي يكون هذه الاشيا يوم نطوي السما طيا فتكون كانها لم تكن ثم صور طيها بما يعرفونه فقال مشبها للمصدر الذي دل عليه الفعل كطي السجل واختلف في السجل فقال بعضهم هو الكاتب الذي له العلوم والقدرة على مكتوبه للكتب اي الذي يكتبه ويرسله الى احد وقال السدي هو ملك يكتب اعمال العباد وقيل كاتب كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم والكتاب على هذه الاقوال اسم للصحيفة والمعنى كطي الصحيفة على مكتوبها والطي هو الدرج وهو ضد النشر وانما وقع هذا الاختلاف لان السجل يطلق على الكتاب وعلى الكاتب قاله في القاموس وقرا حفص وحمزة والكسائي بضم الكاف والتا على الجمع والباقون بكسر الكاف وفتح التا وبين التا والبا الف على الافراد ووجه قراءة الافراد لمقابلة السما والجمع للدلالة على ان المراد الجنس لجميع السموات تطوى وعن ابن عباس انه قال يطوي الله السموات السبع بما فيها من الخليقة والارضين السبع بما فيهما من الخليقة يطوي ذلك كله بيمينه اي بقدرته حتى يكون ذلك بمنزلة خردلة وروي عن ابن عباس انه قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال ايها الناس انكم محشورون الى الله حفاة عراة غرلا اي غير مختونين كما بدانا اول خلق نعيده اي كما بداناهم في بطون امهاتهم عراة غرلا غير مختونين نعيدهم يوم القيمة نظيره قوله تعالى ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم اول مرة وعدا واكد ذلك بقوله تعالى علينا وزاده بقوله تعالى انا كنا اي ازلا وابدا على حالة لا تحول فاعلين اي شاننا ان نفعل ما نريد لا كلفة علينا في شي من ذلك ثم وصف انه تعالى حقق ذلك بقوله تعالى ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر قال سعيد بن جبير ومجاهد الزبور جميع كتب الله المنزلة والذكر ام الكتاب الذي عنده ومعناه من بعد ما كتب ذكره في اللوح المحفوظ وقال ابن عباس والضحاك الزبور والتوراة وقال الشعبي الزبور كتاب داود والذكر التوراة وقيل

الزبور كتاب داود والذكر القرآن وبعد بمعنى قبل كقوله تعالى وكان وراءهم ملك اي امامهم وقوله تعالى والارض بعد ذلك دحاها اي قبله وقرا بضم الزاي حمزة والباقون

قرئ

بفتحها ان الارض اي ارض الجنة يرثها عبادي وحقق ما افادته اضافتهم اليه بقوله تعالى الصالحون اي المتحققون باخلاق اهل الذكر المقبلين على ربهم الموحدين له المشفقين من الساعة الراهبين من سطوته الراغبين في رحمته الخاشعين له فهذا عام في كل صالح وقال مجاهد يعني امة محمد صلى الله عليه وسلم ودليله قوله تعالى وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده واورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشا وقال ابن عباس اراد ان اراضي الكفار يفتحها المسلمون وهذا حكم من الله تعالى باظهار الدين واعزاز الاسلام والمسلمين وقيل اراد بالارض الارض المقدسة وقيل اراد جنس الارض الشامل لبقاع ارض الدنيا كلها وارض المحشر والجنة وغير ذلك مما يعلمه الله عز وجل وجرى على هذا البقاعي في تفسيره وقرا حمزة بسكون اليا والباقون بفتحها ان في هذا اي القرآن كما قاله البغوي لبلاغا اي وصولا الى البغية فان من اتبع القرآن وعمل به وصل ما يرجو من الثواب وقيل بلاغا اي كفاية يقال في هذا الشي بلاغ وبلاغا وبلغة وكفاية والقرآن زاد الجنة كبلاغ المسافر وقال الرازي هذا اشارة الى المذكور في هذه السورة من الاخبار والوعد والوعيد والمواعظ البالغة لقوم عابدين اي عاملين به وقال ابن عباس عالمين قال الرازي والاولى انهم الجامعون بين امرين لان العلم كالشجرة والعمل كالثمر والشجر بدون الثمر غير مفيد والثمر بدون الشجر غير كائن وقال كعب الاحبار هم امة محمد صلى الله عليه وسلم اهل الصلوات الخمس وشهر رمضان ولما كان هذا مشيرا الى ارشادهم فكان التقدير فما ارسلناك الا لاسعادهم عطف عليه قوله تعالى وما ارسلناك اي حالة من الاحوال الا على حال كونك رحمة للعالمين كلهم اهل السموات والارض من الجن والانس طائعهم بالثواب وعاصيهم بتاخير العقاب الذي كان يستاصل الامم فنحن نمهلهم ونترفق بهم اظهارا لشرفك واعلاء لقدرك ثم نرد كثيرا منهم الى دينك ونجعلهم من اكابر انصارك واعاظم اعوانك بعد طول ارتكابهم الضلال وارتكابهم في اشراك المحال ومن اعظم ما يظهر فيه هذا الشرف في عموم الرحمة وقت الشفاعة العظمى يوم يجمع الله تعالى الاولين والاخرين وتقوم الملائكة صفوفا والثقلين وسطهم ويموج بعضهم في بعض من شدة ما هم فيه يطلبون من يشفع لهم فيطلبون اكابر الانبيا نبيا نبيا عليهم السلام فيحيل بعضهم على بعض وكل منهم يقول لست لها حتى ياتوه صلى الله عليه وسلم فيقول انا لها ويقوم معه لوا الحمد فيشفعه الله وهو المقام المحمود الذي يغبطه به الاولون والاخرون فهو صلى الله

عليه وسلم افضل الخلق اجمعين ولما اورد تعالى على الكفار الحجج في ان لا اله سواه وبين انه ارسل رسوله رحمة للعالمين اتبع ذلك بامره صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى **قل انما يوحى الي انما الهكم اله واحد** اي ما يوحى الي في امر الاله الا هو وحدانيته وما الهكم الا واحد لم يوح الي فيما تدعون من الشركة غير ذلك فالاول من قصر الصفة على الموصوف والثاني من الموصوف على الصفة والمخاطب بهما من يعتقد الشركة فهو قصر قلب وقال الزمخشري انما لقصر الحكم على شيء او لقصر الشيء على حكم كقولك انما زيد قائم وانما يقوم زيد فقط فقد اجتمع المثالان في هذه لان انما يوحى الي مع فاعله بمنزلة انما يقوم زيد وانما الهكم اله واحد بمنزلة انما زيد قائم وفائدة اجتماعهما الدلالة على ان الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم مقصور على استئثار الله تعالى بالوحدانية اهـ ولما كان الوحي الوارد على هذا السنن موجب ان تخلصوا التوحيد لله تعالى قال صلى الله عليه وسلم **فهل انتم مسلمون** اي منقادون لما يوحى الي من وحدانية الاله والاستفهام بمعنى الامر اي اسلموا **فان تولوا** اي لم يقبلوا ما دعوتهم اليه **فقل** اي لهم **آذنتكم** اي اعلمتكم بالحرب كرجل بينه وبين اعدائه هدنة فاحس منهم بغدرة فنبذ اليهم العهد وشهر النبذ واشاعه واذنهم جميعا بذلك وقوله **على سواء** حال من الفاعل والمفعول اي مستويين في الاعلام به لم اطوه عن احد منكم ولا استبد به دونكم لتتاهبوا **وان** اي وما **ادري اقريب** جدا بحيث يكون قربه على ما يتعارفونه **ام بعيد ما توعدون** من غلبة المسلمين عليكم او عذاب الله او القيامة المشتملة عليه وان ذلك كائن لا محالة ولا بد ان يلحقكم بذلك الذلة والصغار وان كنت لا ادري متى يكون ذلك لان الله تعالى لم يعلمني علمه ولم يطلعني عليه وانما يعلمه الله تعالى **انه** تعالى **يعلم الجهر من القول** اي مما تجهرون به من الطعن وغير ذلك ونبه تعالى على ذلك فان من احوال الجهر رفع الاصوات جدا بحيث تختلط ولا يميز بينهما ولا يعرف كثير من حاضريها ما قاله اكثر القائلين فاعلم انه سبحانه وتعالى انه لا يشغله صوت عن اخر ولا يفوته شيء من ذلك وان كثر **ويعلم ما تكتمون** مما تضمرونه في صدوركم من الاحقاد للمسلمين ونظير ذلك قوله تعالى في اول السورة قل ربي يعلم القول في السماء والارض ومن لازم ذلك المجازاة عليه بما يحق لكم من تعجيل وتاجيل فستعلمون كيف تخيب ظنونكم ويتحقق ما اقول فستعلمون حينئذ باني صادق ولست بساحر ولا شاعر ولا كاذب وهو من ابلغ التهديد فانه لا ابلغ من التهديد بالعلم ولما كان الامهال قد يكون نقمة وقد يكون نعمة قال **وان** اي وما **ادري** ان يكون تاخير عذابكم نعمة لكم كما تظنون ام لا **لعله** اي تاخير العذاب **فتنة** اي اختبارا

لكم ليظهر ما يعمله منكم من السر لغيره لان حالكم حال من يتوقع منه ذلك **ومتاع** لكم تتمتعون به **الى حين** اي بلوغ اجالكم التي ضربها لكم في الازل ثم ياخذكم بغتة وانتم لا تشعرون ولما كان لله ان يفعل ما شاء من عدل وفضل وكان من العذاب جواز تعذيب الله الطائع وتنعيم المؤمن العاصي وكان صلى الله عليه وسلم قد بلغ الغاية في البيان لهم وقد بلغوا النهاية في اذيته وتكذيبه امره الله ان يفوض الامر اليه تسلية له بقوله تعالى **قل رب** اي المحسن الي **احكم** اي انجز الحكم بيني وبين قومي **بالحق** اي بالامر الذي يحق لكل منا من نصر وخذلان وقرا حفص بفتح القاف والف بعدها وفتح اللام بصيغة الماضي على حكاية رسول الله صلى الله عليه وسلم والباقون بضم القاف وسكون اللام بصيغة الامر فان قيل كيف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم احكم بالحق والله تعالى لا يحكم الا بالحق اجيب بان الحق هنا بمعنى العذاب كانه استعجل العذاب لقومه فعذبوا يوم بدر نظيره قوله ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وقال اهل المعاني معناه رب احكم بحكمك الحق فحذف الحكم واقيم الحق مكانه مقامه والله تعالى يحكم بالحق طلب او لم يطلب ومعنى الطلب ظهور الرغبة من الطالب في حكمه الحق **وربنا** المحسن الينا **الرحمن** اي العام الرحمة لنا ولكم بادرارها علينا ولولا عموم رحمته لاهلكنا اجمعين وانما نحن اطعناه لانا لا نقدره حق قدره ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة **المستعان** اي المطلوب منه العون **على ما تصفون** من كذبكم على الله تعالى في قولكم اتخذ الله ولدا وعلي في قولكم ساحر وعلى القران في قولكم شعر قال الرازي روي انه صلى الله عليه وسلم كان يقول ذلك في حروبه ولم يذكر له سندا واما ما رواه البيضاوي تبعا للزمخشري من انه صلى الله عليه وسلم قال من قرا اقترب حاسبه حسابا يسيرا وصافحه وسلم عليه كل نبي ذكر اسمه في القران فحديث موضوع

سورة الحج مكية

الا ومن الناس من يعبد الله على حرف الايتين والا هذان خصمان الست ايات فمدنيات وهي ثمان وقيل خمس او ست او سبع وسبعون اية **بسم الله** اي الذي اقتضت عظمته خضوع كل شيء **الرحمن** الذي عم برحمته كل موجود **الرحيم** الذي خص بفضله من يشاء من عباده ولما ختمت السورة التي قبل هذه من الترهيب من الفزع الاكبر وطي السماء واتيان ما يوعدون وكان اعظم ذلك يوم الدين افتتحت هذه السورة بالامر بالتقوى المنجية من هول ذلك اليوم بقوله تعالى **يا ايها الناس** اي الذين تقدم اول ذلك انه اقترب لهم حسابهم انا اريد ان ذلك عام والاهم وغيرهم **اتقوا** اي احذروا عقاب **ربكم** المحسن اليكم بانواع الاحسان بان تجعلوا بينكم وبين عقابه وقاية الطاعات ولما امرهم بالتقوى علل ذلك

مرهبا لهم بقوله تعالى ان زلزلة الساعة اي تحركها الشديد على الاسناد
المجازي فتكون الزلزلة مصدرا مضافا الى فاعله ويصح ان تكون الى المفعول فيه
على طريق الاتساع في الظرف واجرائه مجرى المفعول به كمكر الليل والنهار وهي
الزلزلة المذكورة في قوله تعالى اذا زلزلت الارض زلزالها واختلف في وقتها فعن
الحسن انها تكون يوم القيمة وعن علقمة والشعبي عند طلوع الشمس من مغربها
الذي هو اقرب الساعة شيء عظيم اي امر كبير وخطر جليل وحادث هائل لا تحتمل
العقول وصفه وهذه الزلزلة نفسها فكيف بجميع ما يحدث في ذلك اليوم الذي
لا بد لكم من الحشر به الى الله تعالى ليجازيكم على ما كان منكم لا ينسى منه نقير ولا قطمير
يوم ترونها اي الزلزلة او الساعة او كل مرضعة اضمرها قبل الذكر تهويلا للامر
وترويعا للنفس تذهل بسبب ذلك كل مرضعة اي بالفعل اي تنسى وتغفل
حائرة مدهوشة والعامل في يوم تذهل فان قيل لم قال تعالى مرضعة
ولم يقل مرضع اجيب بان المرضعة هي التي في حال الارضاع ملقمة ثديها
للطفل والمرضع التي شانها ان ترضع وان لم تباشر الارضاع في حال
وصفها به فقال مرضعة ليدل على ان ذلك الهول اذا فوجئت به هذه وقد
القمت ثديها نزعته من فيه لما يلحقها من الدهشة عما ارضعت عن ارضاعها
او عن الذي ارضعته وهو الطفل فما اما مصدرية او موصولة وتضع كل
ذات حمل حملها اي تسقطه قبل التمام رعبا وفزعا تنبيه هذا ظاهر على
القول الثاني وهو قول علقمة والشعبي على ان ذلك يكون عند طلوع الشمس من
مغربها واما على قول الاول وهو قول الحسن على ان ذلك يوم كيف يكون ذلك
فقيل هو تصويرها قاله البيضاوي وقال البقاعي في المرضعة هي من ماتت
مع ابنها رضيعا وفي ذات الحمل من ماتت حاملا فان كل احد يموت على ما كان عليه
وهذا اولى فاني بينا حال كتابتي في هذا المحل حضر عندي سيدي عبد الوهاب
الشعراني نفعنا الله ببركاته فذكرت له هذين القولين فانشرح صدري لترجيح
هذا الثاني وذلك يوم عاشورا من شهر الله المحرم سنة ست وخمسين
وتسعمائة وعن الحسن تذهل المرضعة عن ولدها لغير فطام وتضع الحامل ما في
بطنها لغير تمام ويؤيده ان هذه الزلزلة تكون قبل البعث ما روي عن ابي سعيد الخدري
انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل يوم القيمة
يا آدم فيقول لبيك وسعديك زاد في رواية والخير في يديك فينادي بصوت
ان الله يامرك ان تخرج من ذريتك بعثا الى النار قال يا رب وما بعث النار قال
من كل الف تسعمائة وتسعة وتسعون فحينئذ تضع الحوامل حملها ويشيب
الوليد وساق بقية الاية وهي وترى الناس سكارى اي لما هم فيه من الدهش والحيرة
ثم بين الله تعالى ان ذلك ليس بسكر حقيقة بقوله تعالى وما هم بسكارى اي من الشراب
ولما نفى ان يكونوا سكارى من الشراب اثبت ما اوجب لهم تلك الحالة بقوله

ولكن عذاب الله ذي العزة والجبروت شديد فهو الذي اوجب ان يظن بهم السكر لان
هوله اذهب عقولهم وطير تمييزهم ثم الحديث عند اخر الاية فشق ذلك على الناس
حتى تغيرت وجوههم مزاد في رواية قالوا يا رسول الله اينا ذلك الواحد فقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم من ياجوج وماجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ومنكم
واحد ثم انتم في الناس كالشعرة السوداء في الثور الابيض وكالشعرة البيضاء
في الثور الاسود وفي رواية كالرقمة في ذراع الحمار واني ارجو ان تكونوا ربع اهل الجنة
فكبرنا ثم قال ثلث اهل الجنة فكبرنا ثم قال شطر اهل الجنة فكبرنا وفي رواية اني
لارجو ان تكونوا ثلثي اهل الجنة روي عمران بن حصين ان هاتين الايتين نزلتا في
غزوة بني المصطلق ليلا فنادي رسول الله صلى الله عليه وسلم فحثوا المطي حتى
كانوا حول رسول الله صلى الله عليه وسلم فقراهما رسول الله صلى الله عليه
وسلم عليهم ولم يزالوا باكين من تلك الليلة فلما اصبحوا لم يحطوا السروج
عن الدواب ولم يضربوا الخيام وقت النزول ولم يطبخوا قدرا وكانوا ما بين
حزين وباك ومتفكر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اي يوم ذلك قالوا
الله ورسوله اعلم قال ذلك يوم يقول الله لادم قم فابعث بعث النار وذكر
نحو حديث ابي حديث وزاد فيه ثم قال يدخل من امتي سبعون الفا الجنة
بغير حساب قال عمر سبعون الفا قال نعم ومع كل واحد سبعون الفا وقرا حمزة
والكسائي بفتح السين وسكون الكاف فيهما والباقون بضم السين وفتح
الكاف وبعد الكاف الف وامال الالف بعد الراء ابو عمرو وحمزة والكسائي
محضة وورش بين بين والباقون بالفتح ونزل في النضر بن الحارث وكان كثير الجدل وكان
يقول الملائكة بنات الله والقران اساطير الاولين وكان ينكر البعث واحياء من صار
ترابا ومن الناس اي المكذبين من لا يسعى في اعلاء نفسه وتهذيبها فيكذب
فيوثق بسوء عمله واعماله لانه يجادل في الله اي في قدرته على ذلك اليوم وفي
غير ذلك بعد ان جاءه العلم بها اجتراء على سلطانه العظيم بغير علم بل بالباطل
الذي هو جهل صرف فيترك اتباع الهداة ويتبع بغاية جهده في ضلاله كل شيطان
مخترق بالسوء مبعدا باللعن مريد اي متجرد للفساد ولا شغل له غيره قال
البيضاوي واصله العري اي عن الساتر كتب اي قدر وقضي على سبيل الحتم
الذي لا بد منه تعبيرا باللازم عن الملزوم عليه اي على ذلك الشيطان انه
اي الشان من تولاه اي فعل معه فعل الولي مع وليه باتباعه والاقبال
على ما يزينه فانه يضله بما يبغض اليه من الطاعات فيخطي سبيل الخير
ويهديه اي بما يزين له من الشهوات الحاملة على الزلات الى عذاب السعير
اي النار ثم الزم الحجة منكري البعث بقوله تعالى يا ايها الناس اي كافة
ويجوز ان يكون بالمنكر فقط اي ان كنتم في ريب اي شك وتهمة وحاجة الى
البيان من البعث وهو قيام الاجسام بارواحها كما كانت قبل مماتها

فتفكروا في خلقكم الاول لتعلموا ان القادر على خلقكم اولا قادر على خلقكم ثانيا
ثم انه سبحانه وتعالى ذكر مراتب الخلقة الاولى امورا سبعة المرتبة الاولى قوله تعالى
فانا خلقناكم بقدرتنا التي لا يتعاظمها شي من تراب لم يسبق له اتصاف بالحياة
وفي الخلق من تراب وجهان احدهما لانا خلقنا اصلكم وهو ادم عليه السلام من تراب
كما قال تعالى كمثل ادم خلقه من تراب الثاني من الاغذية والاغذية اما حيوان واما
نبات وغذا الحيوان ينتهي الى النبات قطعا للتسلسل انما يتولد من الارض والما
فصح قوله تعالى انا خلقناكم من تراب المرتبة الثانية قوله تعالى ثم من نطفة
وحالها ابعد شي عن حال التراب فانها بيضا سايلة لزجة صافية كما قال تعالى من
ماء دافق واصلها الما القليل قاله البغوي واصل النطفة الصب قاله البيضاوي
المرتبة الثالثة قوله تعالى ثم من علقة اي قطعة دم حمرا جامدة ليس فيها اهلية
للسيلان ولا شك ان بين الما وبين الدم الجامد مباينة شديدة المرتبة الرابعة
قوله تعالى ثم من مضغة اي قطعة لحم صغيرة وهي في الاصل قدر ما يمضغ مخلقة
اي مسواة لا نقص فيها ولا عيب يقال السواك والعود سواه وملسه من
قولهم صخرة خلقا اذا كانت ملسا وغير مخلقة اي غير مسواه فكان
الله تعالى يخلق المضغ متفاوتة منها ما هو كامل الخلقة واملس من العيوب
ومنها ما هو على عكس ذلك فيتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس في خلقهم
وصورهم وطولهم وقصرهم وتمامهم ونقصانهم هذا قول قتادة والضحاك
وقال مجاهد المخلقة الولد الذي يخرج حيا وغير مخلقة السقط وقال
قوم المخلقة المصورة وغير المخلقة غير المصورة وهو الذي يبقى لحما من غير
تخطيط وتشكل واحتجوا بما روى علقمة عن عبد الله بن مسعود موقوفا عليه
قال ان النطفة اذا استقرت في الرحم اخذها ملك بكفه وقال اي رب مخلقة
او غير مخلقة فان قال غير مخلقة قذفها في الرحم دما ولم تكن نسمة وان قال
مخلقة قال الملك اي رب ذكر ام انثى اشقي ام سعيد ما الاجل ما العمل ما الرزق
باي ارض تموت فيقال له اذهب الى ام الكتاب فانك تجد فيها كل ذلك فيذهب
فيجدها في ام الكتاب فينسخها فلا يزال معه حتى ياتي على اخر صفتها والذي
اخرجاه في الصحيحين قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو
الصادق المصدوق ان خلق احدكم يجمع في بطن امه اربعين يوما نطفة ثم
يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله ملكا يكتب
رزقه واجله وعمله وشقي او سعيد ثم ينفخ فيه الروح فو الذي لا اله غيره
ان احدكم ليعمل بعمل اهل الجنة حتى لا يبقى بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه
الكتاب فيعمل بعمل اهل النار فيدخلها وان احدكم ليعمل بعمل اهل النار حتى
ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل اهل الجنة فيدخلها
فكانه تعالى يقول انما نقلناكم من حال الى حال ومن خلقة الى خلقة لنبين لكم

هذا التدريج قدرتنا وحكمتنا وان من قدر على البشر من التراب والما وقدر على
ان يجعل النطفة عظاما قدر على اعادة ما ابداه بل هو ادخل في القدرة
من تلك واهون في القياس وورود الفعل غير معدى الى المبين اعلام بان افعاله
هذه يتبين بها من قدرته وعلمه ما لا يحيط به الوصف ولا ينتهي به الذكر
ونقر في الارحام اي من ذلك الذي خلقناه ما نشا الى اجل مسمى هو وقت
الوضع وادناه بعد ستة اشهر واقصاه اربع سنين بحسب قوة الارحام وضعفها
وقوة المخلقات وضعفها وكثرة ما يغتذي به من الدما وقلته الى غير ذلك من احوال
وشؤون لا يعلمها الا باريها جلت قدرته وتعالت عظمته وما لم نشا اقراره
مجة الارحام واسقطته دون التمام او نخرقه فيضمحل المرتبة الخامسة
قوله تعالى ثم نخرجكم طفلا وهو معطوف على نبين ومعناه خلقناكم مدرجين هذا
التدريج لغرضين احدهما ان نبين قدرتنا والثاني ان نقر في الارحام من نقر حتى
تولد وا في حال الطفولية من صغر الجثة وضعف البدن والسمع والبصر وجميع
الحواس لئلا تهلكوا امهاتكم بكبر اجرامكم وعظم اجسامكم المرتبة السادسة
قوله تعالى ثم اي عند اجلكم لتبلغوا بهذا الانتقال في اسنان الاجسام
من الرضاع الى المراهقة الى البلوغ الى الكهولة اشدكم اي الكمال والقوة وهو
ما بين الثلاثين الى الاربعين جمع شدة كالانعم جمع نعمة كانه شدة في الامور المرتبة
السابعة قوله تعالى ومنكم من يتوفى اي عند بلوغ الاشد او قبله ومنكم
من يرد بالشيخوخة وبناه للمجهول اشارة الى سهولته عليه لاستبعاده
لولا تكرار المشاهدة عند الناظر لتلك القوة والنشاط وحسن التواصل
بين اعضائه والارتباط الى ارذل اي اخس العمر وهو سن الهرم فينقص
جميع قواه لكيلا يعلم من بعد علم كان اوتيه شيئا لبعود كهيئته الاولى
في اوان الطفولية من سخافة العقل وقلة الفهم فينسى ما علمه وينكر من عرفه
حتى يسال عنه من ساعته يقول لك من هذا فيقول فلان فما يلبث لحظة الا
سالك عنه فان قيل هذه الحالة لا تحصل للمومنين لقوله تعالى ثم رددناه
اسفل سافلين الا الذين امنوا وعملوا الصالحات اجيب بان معنى قوله
تعالى ثم رددناه اسفل سافلين هو دلالة على الذم فالمراد به ما يجري مجرى
العقوبة ولذلك قال الله تعالى الا الذين امنوا وعملوا الصالحات
لكن قال عكرمة من قرا القران لم يصر الى هذه الحالة وقد علم بعود الانسان
في ذهاب العلم وصغر الجسم الى نحو ما كان عليه في ابتدا الخلق قطعا ان الذي اعاده
الى ذلك قادر على اعادته بعد الممات ولما تم هذا الدليل على الساعة بحكم المشاهد مات
واضح الناتج وكان اول الايجاد فيه غير مشاهد ذكر تعالى دليلا اخر
على البعث مشاهدا بقوله تعالى وترى الارض هامدة اي يابسة ساكنة
سكون الميت فاذا انزلنا عليها بما لنا من القدرة عليها الما اهتزت اي تحركت

وتأملت لإخراج النبات **وربت** اي ارتفعت وذلك اول ما يظهر منها للعين
وزادت ونمت بما يخرج منها من النبات الناشئ عن التراب والماء وقوله تعالى
وانبتت مجاز لان الله تعالى هو المنبت واضيف الى الارض توسعا اي انبتت
بتقديرنا لانها المنبتة **من كل زوج** اي صنف **بهيج** اي حسن نضير من
اشتات النبات في اختلاف الوانها وطعومها وروائحها واشكالها ومنافعها
ومقاديرها قال الجلال المحلي من زائدة ولم ار من ذكر ذلك من المفسرين
تنبيه في الآية اشارة الى ان النبات كما يتوجه من نقص الى كمال فكذلك الانسان
المومن يترقى من نقص الى كمال ففي المعاد يصل الى كماله الذي اعد له من البقا
والغنى والعلم والصفا والخلود في دار السلام مبرا عن عوارض هذا العالم ولما
قرر سبحانه هذين الدليلين رتب عليهما ما هو المطلوب والنتيجة وذكر امورا
خمسة احدها قوله تعالى **ذلك** اي المذكور من بدء الخلق الى آخر احيا الارض
بان اي بسبب ان تعلموا ان **الله هو** الجامع لاوصاف الكمال **الحق** اي وحده
اي الثابت الدائم وما سواه فان ثانيها قوله تعالى **وانه يحي الموتى** اي
قادر على ذلك والا لما احيى النطفة والارض الميتة ثالثها قوله تعالى
وانه على كل شي من الخلق وغيره **قدير** انما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كن
فيكون رابعها قوله تعالى **وان الساعة** التي تقدم ذكرها وتقام التحذير منها
وهي حشر الخلائق كلهم **آتية لا ريب** اي لا شك **فيها** اي بوجه من الوجوه
مما دل عليها مما لا سبيل الى انكاره بقول من لا مرد لقوله وهو حكيم لا يخلف
ميعاده ولا يسوغ بوجه ان يترك عباده بغير حساب خامسها قوله تعالى
وان الله يبعث بالاحيا **من في القبور** بمقتضى وعده الذي لا يبدل
الخلف وقد وعد الساعة والبعث فلا بد ان يفي بما وعد ونزل في ابي
جهل بن هشام كما قاله ابن عباس **ومن الناس من يجادل** اي بغاية جهده
في الله اي في قدرته وما يجمعه هذا الاسم الشريف من صفاته بعد هذا
البيان الذي لا مثل له ولا خفاء فيه **بغير علم** اتاه عن الله تعالى على لسان
احد من اصطفاه اعم من ان يكون كتابا او غيره **ولا هدى** ارشده اليه اعم من
كونه بضرورة او استدلال **ولا كتاب منير** له نور منه صح لديه انه من
الله تعالى ومن المعلوم انه بانتفاء هذه الثلاثة لا يكون جداله الا بالباطل
وقيل قوله تعالى ومن الناس مكرر كما كرر سائر الاقاصيص وقيل الاول في
المقلدين وقوله تعالى **ثاني عطفه** حال لاوي عنقه تكبرا عن الايمان
كما قال تعالى واذا تتلى عليه اياتنا ولى مستكبرا والعطف في الاصل
الجانب عن يمين او شمال وقوله تعالى **ليضل عن سبيل الله** علة للجدال وقرا
ابن كثير وابو عمرو بفتح اليا والباقون بضمها فان قيل على قراة الضم ما كان
غرضه في جداله الضلال لغيره عن سبيل الله فكيف علل به وما كان

على قراة الفتح مهتديا حتى اذا جادل خرج بالجدال عن الهدى الى الضلال اجيب
عن الاول بان جداله لما ادى الى الضلال جعل كانه غرضه وعن الثاني بان الهدى
لما كان معرضا فتركه واعرض عنه واقبل على الجدال الباطل جعله كالخارج
من الهدى الى الضلالة ولما ذكر فعله وثمرته ذكر ما اعد له عليه في الدنيا
بقوله تعالى **له في الدنيا خزي** اي اهانة وذل وان طال زمن استدراجه فتبعه
حق على الله ان لا يرتفع شي في الدنيا الا وضعه وما اعد له في الاخرة بقوله تعالى
ونذيقه يوم القيامة الذي يجمع فيه الخلائق بالاحيا بعد الموت **عذاب**
الحريق اي الاحراق بالنار وعن الحسن قال بلغني ان احدهم يحرق في اليوم سبعين
الف مرة ويقال له حقيقة او مجازا **ذلك** اي العذاب العظيم **بما قدمت يداك** اي
بعملك ولكن جرت عادة العرب ان تضيف الاعمال الى اليد لانها الة اكثر العمل واضافه
الى ما يؤدي اليهما اكثر **وان** اي وبسبب ان **الله ليس بظلام** اي بذي ظلم ما
للعبيد وانما هو مجازيهم على اعمالهم او ان المبالغة لكثرة العبيد
ونزل في قوم من الاعراب كانوا يقدمون المدينة مهاجرين من باديتهم
فكان احدهم اذا قدم المدينة فصح بها جسمه ونتجت بها فرسه مهرا وولدت
امراته غلاما وكثر ماله قال هذا دين حسن وقد اصبت به خيرا واطمان
له وان كان بخلافه قال ما اصبت الا شرا فينقلب عن دينه **ومن الناس**
من يعبد الله اي يعمل على سبيل الاستمرار والتجدد بما امر الله به من
طاعته **على حرف** فهو متزلزل كتزلزل من يكون على حرف شفير او جبل او غيره
لا استقرار له وكالذي على طرف من العسكر فان راى غنيمة استمر وان فرهم
خوفا طار وفر وذلك معنى قوله تعالى **فان اصابه خير** اي من الدنيا **اطمأن**
به اي بسببه وثبت على ما هو عليه **وان اصابته فتنة** اي محنة وسقم
في نفسه وماله **انقلب على وجهه** اي رجع الى الكفر وعن ابي سعيد الخدري
ان رجلا من اليهود اسلم فاصابته مصائب فتشاءم بالاسلام فاتى
النبي صلى الله عليه وسلم فقال اقلني فقال ان الاسلام لا يقال فنزلت
ولما كان انقلابه هذا مفسدا لدنياه ولآخرته قال تعالى **خسر الدنيا**
بفوات ما امله منها ويكون ذلك سبب التقتير عليه قال تعالى ولو انهم
اقاموا التوراة والانجيل وما انزل اليهم من ربهم لاكلوا من فوقهم
ومن تحت ارجلهم وروي ان الرجل ليحرم الرزق بذنب يصيبه
والآخرة بالكفر ثم عظم مصيبته بقوله تعالى **ذلك** اي الامر العظيم
هو اي لا غيره **الخسران المبين** اي البين اذ لا خسران مثله بين هذا
الخسران الذي رده على ما كان فيه قبل الايمان الحرمي بقوله تعالى **يدعو** اي
يعبد حقيقة او مجازا **من دون الله** اي غيره من الصنم **ما لا يضره** ان لم
يعبده **وما لا ينفعه** ان عبده **ذلك** اي الدعا **هو الضلال البعيد** عن الحق

والرشاد استعير الضلال البعيد من ابعد في التيه ضلالا فطالت وبعدت مسافة
ضلاله ولما كان الاحسان جالبا للانسان لان القلوب جبلت على حب من احسن
اليها بين ان ما قيل في جلب النفع انما هو على سبيل الفرض فقال تعالى يدعو لمن
اي من عبادته ضره بكونه معبودا لانه يوجب القتل والخزي في الدنيا والعذاب في
الاخرة اقرب من نفعه الذي يتوقع منه بعبادته وهو الشفاعة والتوسل
بها الى الله تعالى تنبيه على ما تقرر ان اللام في لمن زائدة كما قال الجلال المحلي فان
قيل الضر والنفع منفيان عن الاصنام مثبتان لها في الايتين وهذا متناقض
اجيب بان المعنى اذا حصل ذهب هذا الوهم وذلك ان الله تعالى سفه الكافر
بانه يعبد جمادا لا يملك ضرا ولا نفعا وهو يعتقد فيه بجهله وضلاله انه يستشفع
به حين يستشفع به يوم القيامة يقوم هذا الكافر بدعا وصراخ حين يرى
استضراره بالاصنام ودخوله النار بعبادته ولا يرى اثر الشفاعة
التي ادعاها لها وقيل الاية الاولى في الاصنام والثانية في الروسا وهم
الذين كانوا يفزعون اليهم بدليل قوله تعالى لبئس المولى اي الناصر هو
ولبئس العشير اي الصاحب قال الرازي وهذا الوصف بالروسا
اليق لان ذلك لا يكاد يستعمل في الاوثان فبين تعالى انهم يعدلون عن
عبادة الله الى عبادة الاصنام والى طاعة الروسا ولما بين سبحانه وتعالى
حال الكفار عقبه بحال المومنين بقوله تعالى ان الله اي الجامع لجميع صفات
الكمال المنزه عن جميع شوائب النقص يدخل الذين امنوا بالله ورسله
وعملوا تصديقا لايمانهم الصالحات من الفروض والنوافل الخالصة
الشاهدة بثباتهم في الايمان جنات تجري من تحتها اي من اي مكان
من ارضها الانهار ولما بين تعالى حال الفريقين قال تعالى
ان الله اي المحيط بكل شي قدرة وعلما يفعل ما يريد من اكرام من يطيعه
واهانة من يعصيه لا دافع له ولا مانع وقوله تعالى من كان يظن
ان لن ينصره الله في الدنيا والاخرة فيه اختصار والمعنى ان الله ناصر
رسله في الدنيا والاخرة فمن كان يظن خلاف ذلك ويتوقعه من غيظه فالضمير
راجع الى النبي صلى الله عليه وسلم فان قيل لم يجر له ذكر في هذه الاية اجيب
بان فيها ما يدل عليه وهو ذكر الايمان في قوله تعالى ان الله يدخل الذين امنوا
والايمان لا يتم الا بالله ورسوله وقيل الضمير راجع الى كل من في اول
الاية لانه المذكور ومن حق الكناية ان ترجع الى المذكور اذا امكن ذلك وعلى
هذا المراد بالنصر الرزق قال ابو عبيدة وقف علينا سائل من بني بكر
فقال من ينصرني نصره الله اي من يعطيني اعطاه الله فكانه قال من كان يظن
ان لن يرزقه الله في الدنيا والاخرة فليمدد بسبب اي بحبل الى السماء اي
سقف بيته يشده فيه وفي عنقه ثم ليقطع اي ليختنق به بان يقطع

نفسه من الارض كما في الصحاح وقيل فليمدد حبلا من سما الدنيا وليصعد عليه
فيجتهد في دفع نصر النبي صلى الله عليه وسلم على الاول او يحصل رزقه على الثاني
وقرا ورش وابو عمرو وابن عامر بكسر اللام والباقون بسكونها فلينظر ببصره
وبصيرته هل يذهبن وان اجتهد كيده وعدم نصرة النبي صلى الله عليه
وسلم او في تحصيل رزقه ما يغيظ من ذلك والمعنى فليختنق غيظا فلا
بد من نصرته صلى الله عليه وسلم واعلا كلمته وان ذلك لا يغير القسمة
فان الارزاق بيد الله لا تنال الا بمشيئة الله سبحانه وهذا كما يقال لمن ادبر
عنه امر فجزع اضرب براسك الجدار اذا لم ترض منه غيظا ونحو ذلك والحاصل
انه اذا لم يصبر طوعا صبر كرها واختلف في سبب نزول هذه الاية على القول
الاول فذكروا فيها وجوها احدها كان قوم من المسلمين لشدة غيظهم على
الكفار يستبطئون ما وعد الله ورسوله من النصر فنزلت ثانيها قال
مقاتل نزلت في نفر من اسد وغطفان قالوا نخاف ان الله لا ينصر محمدا فينقطع
الذي بيننا وبين حلفائنا من اليهود فلا يميرونا ثالثها ان حساده واعداه
كثيرة وكانوا يتوقعون ان لا ينصره ولا يعينه على اعدايه فمتى شاهدوا
ان الله نصره غاظهم ذلك وكذلك اي ومثل ما انزلنا هذه الايات
بيان حكمها واظهار اسرارها انزلناه اي القران وقوله تعالى ايات
بينات اي معجز نظمها كما كان معجزا حكمها حال وقوله تعالى وان الله
اي الموصوف بالاكرام كما هو موصوف بالانتقام يهدي اي بايانه
من يريد اي هدايته او تثبيته على الهدى معطوف على محل انزلناه
ولما قال تعالى وان الله يهدي من يريد اتبعه بمن يهديه ومن لا يهديه
وبدا بالقسم الاول بقوله ان الذين امنوا بالله ورسوله وعبر بالفعل
ليشمل الاقرار باللسان الذي هو ادنى وجوه الايمان ثم شرع في القسم الثاني
بقوله تعالى والذين هادوا اي انتحلوا دين اليهودية والصابئين وهم فرقة من
النصارى سميت بذلك قيل لنسبتها الى صابي عم نوح عليه السلام
وقيل لخروجهم عن دين الى دين اخر واطلاق الصابية على هذا هو المشهور
وتارة يوافقونهم على دينهم فتحل مناكحتهم وتارة يخالفونهم فلا تحل
مناكحتهم وتطلق ايضا على قوم اقدم من النصارى يعبدون الكواكب
السبعة ويضيفون الاثار اليها وينفون الصانع المختار فهولاء
لا تحل مناكحتهم وقد افتى الاصطخري والمحاملي بقتلهم لما استفتى
القاهر الفقهاء فيهم فبذلوا له اموالا كثيرة فتركهم والبلاد بيدهم
وقرا نافع بالياء التحتية بعد البا والباقون بهمزة مكسورة بعد الموحدة
والنصارى اي الذين انتحلوا دين النصرانية والمجوس قال قتادة هم
عبدة الشمس والقمر والنيران قال والذين اشركوا هم عبدة الاوثان

قال مقاتل الاديان كلها ستة واحد للرحمن وهو الاسلام وخمسة للشيطان
وقيل خمسة اربعة للشيطان وواحد للرحمن بجعل الصابئين مع النصارى
لانهم نوع منهم كما مر على المشهور وقد تقدم الكلام على هذه الاية في سورة البقرة
ان الله الذي هو احكم الحاكمين يفصل بينهم يوم القيمة بادخال المؤمنين
الجنة وغيرهم النار وادخلت ان على ان كل واحد من جزءي الجملة لزيادة التاكيد
ونحوه قول جرير ان الخليفة ان الله سربله ❊ سربال ملك به ترجى الخواتيم
ثم علل ذلك بقوله تعالى ان الله اي الجامع لجميع صفات الكمال على كل شيء من
الاشياء كلها شهيد اي عالم به مشاهده الم تر اي تعلم ان الله يسجد له
اي يخضع منقادا لامره مسخرا لما يريد منه تسخير من هو في غاية الاجتهاد في
العبادة والاخلاص فيها من في السموات ومن في الارض ان خصصت بذلك
العاقل لانهم خضوع غيره من باب اولى وان ادخلت غير العاقل فبالتغليب ثم نبه
باشرف ما ذكر بما لا يعقل لان كلا منها عبد من دون الله او عبد شيء منه فقال تعالى
والشمس والقمر والنجوم من الاجرام العلوية فعبد الشمس حمير والقمر كنانة
والدبران تميم والشعرى لخم والثريا طي وعطارد اسد قاله ابو حيان روي عن عمرو
ابن دينار قال سمعت رجلا يطوف بالبيت ويبكي فاذا هو طاوس فقال اعجبت
من بكائي قلت نعم قال ورب الكعبة ان هذا القمر ليبكي من خشية الله ولا ذنب
له ثم اتبع ذلك اعلى الذوات السفلية فقال والجبال اي التي اتخذت
منها الاصنام والشجر اي التي عبد بعضها والدواب اي التي عبد منها البقر
كل هذه الاشياء تنقاد لامر الله ولا تتأبى عن تدبيره وكثير من الناس اي
المؤمنون بزيادة على الخضوع سجد سجودا هو منه عبادة مشروعة تحق
له الثواب وكثير اي من الناس حق عليه العذاب وهم الكافرون لانهم ابوا السجود
المتوقف على الايمان ومن يهن الله اي يشقه فما له من مكرم اي مسعد لانه
لا قدرة لغير الله اصلا ان الله اي الملك الاعظم يفعل ما يشاء من الاكرام
والاهانة لا مانع له من ذلك نقل عن علي رضي الله تعالى عنه انه قيل له ان رجلا
يتكلم في المشيئة فقال له علي يا عبد الله خلقك الله لما يشاء او لما شئت
قال بل لما يشاء قال فيمرضك اذا شاء او اذا شئت قال بل اذا شاء قال
فيشفيك اذا شاء او اذا شئت قال بل اذا شاء قال فيدخلك حيث شئت
او حيث يشاء قال بل حيث يشاء قال والله لو قلت غير ذلك لضربت الذي
فيه عيناك بالسيف ولما بين تعالى ان الناس قسمان منهم من يسجد لله ومنهم
من حق عليه العذاب ذكر كيفية اختصامهم بقوله تعالى هذان خصمان اي
المؤمنون خصم والكفار الخمسة خصم وهو يطلق على الواحد والجماعة
وقرأ ابن كثير بتشديد النون والباقون بالتخفيف اختصموا اي اوقعوا
الخصومة بغاية الجهد في ربهم اي دينه روي عن قيس بن عبادة قال

سمعت

سمعت ابا ذر يقول يقسم قسما ان هذه الاية هذان خصمان اختصموا في ربهم
نزلت في الذين برزوا يوم بدر حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث وعتبة وشيبة ابني
ابن ربيعة والوليد بن عتبة اخرجاه في الصحيحين وعن ابن عباس قال لما بارز علي
وحمزة وعبيدة وشيبة وعتبة والوليد قالوا لهم تكلموا نعرفكم قال انا علي
وهذا حمزة وهذا عبيدة فقالوا اكفاء كرام فقال علي ادعوكم الى الله والى رسوله
صلى الله عليه وسلم فقال عتبة هلم للمبارزة فبارز علي شيبة فلم يلبث ان قتله
وبارز حمزة عتبة فقتله وبارز عبيدة الوليد فصعب عليه فاتى علي فقتله
فنزلت وقال قتادة نزلت الاية في المسلمين واهل الكتاب فقال اهل الكتاب
نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم ونحن اولى بالله منكم قال المسلمون كتابنا
يقضي على الكتب كلها ونبينا صلى الله عليه وسلم خاتم الانبياء فنحن اولى بالله منكم
وعن ابن عباس انها نزلت كذلك لكن قال اهل الكتاب نحن اولى بالله واقدم
منكم كتابا ونبينا قبل نبيكم وقال المسلمون نحن احق بالله منكم
امنا بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم وامنا بنبيكم وما انزل الله من كتاب وانتم
تعرفون نبينا وكتابنا ثم تركتموه وكفرتم به حسدا فهذا خصومتهم في ربهم
وقيل المؤمنون والكافرون من اي ملة كانوا فالمؤمنون خصم والكافرون خصم
وقيل الخصمان الجنة والنار لما روي عن ابي هريرة انه قال قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم تحاجت الجنة والنار فقالت النار اوثرت بالمتكبرين والمتجبرين
وقالت الجنة فما لي لا يدخلني الا ضعفاء الناس وسقطهم فقال عز وجل للجنة
انت رحمتي ارحم بك من اشاء من عبادي وقال للنار انما انت عذابي اعذب بك
من اشاء من عبادي ولكل واحدة منكما ملؤها وعن عكرمة فقالت النار خلقني
الله لعقوبته وقالت الجنة خلقني الله لرحمته وهذا القول بعيد عن السياق
لان الله تعالى ذكر جزاء الخصمين بقوله تعالى فالذين كفروا قطعت اي قدرت
لهم على مقادير جثتهم ثياب من نار نيرانا تحيط بهم احاطة الثياب سابغة
عليهم كما كانوا يسبلون الثياب في الدنيا تفاخرا وتكبرا وعن ابراهيم التيمي انه
قال سبحان من قطع من النار ثيابا وعن سعيد بن جبير قال قطعت من
نحاس وليس من الانية شيء اذا احمي اشد حرارة منه وقال في قوله يصب اي
اذا دخلوها من فوق رؤسهم الحميم قال ابن النحاس يذاب على رؤسهم ولكن
المشهور انه الماء الحار وعن ابي سعيد لو سقطت منه نقطة على جبال الدنيا
لاذابتها والجملة حال من الضمير في لهم او خبر ثان وقال ابو عمرو في الوصل بكسر
الهاء والميم وحمزة على اصله في الوقف على رؤسهم بتسهيل الهمزة يصهر
اي يذاب به من شدة حرارته ما في بطونهم من شحم وغيره والجلود فيكون اثره
في الباطن والظاهر سواء وقال ابن عباس يسقون ماء اذا دخل في بطونهم
اذابها والجلود مع البطون ولهم مقامع جمع مقمعة بكسر ثم فتح وهو عمود

حديد وقيل سوط يضرب به الوجه والراس ليرد المضروب عن مراده ردا عنيفا ثم نفى المجاز بقوله تعالى **من حديد** اي يقمعون بها روى ابو سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لو ان مقمعا من حديد وضع في الارض فاجتمع الثقلان ما اقلوه من الارض ولو ضرب الجبل بمقمع من حديد لتفتت ثم عاد كما كان **كلما ارادوا ان يخرجوا منها** اي من تلك الثياب او النار **من غم** اي كلما حاولوا الخروج من النار لما يلحقهم من الغم والكرب الذي ياخذ بانفسهم **اعيدوا فيها** اي ردوا اليها بالمقامع وعن الحسن انهم يضربون بلهب النار فترفعهم حتى اذا كانوا في اعلاها ضربوا بالمقامع فهووا فيها سبعين خريفا وعن الفضيل بن عياض قال والله ما طمعوا في الخروج لان الارجل مقيدة والايدي ولكن يرفعهم لهبها وتردهم المقامع وعن الحسن قال كان عمر يقول اكثروا ذكر النار فان حرها شديد وقعرها بعيد وان مقامعها من حديد **و** قيل لهم **ذوقوا عذاب الحريق** اي البالغ في نهاية الاحراق ولما ذكر تعالى مال احد الخصمين وهم الكافرون اتبعه مال الاخر وهم المؤمنون وغير الاسلوب فيه حيث لم يقل والذين امنوا عطفا على الذين كفروا واسند الادخال فيه الى الله تعالى واكده بان احمادا لحال المؤمنين وتعظيما لشانهم فقال **ان الله** الذي له الامر كله **يدخل الذين امنوا** بالله ورسله **وعملوا** تصديقا لايمانهم **الصالحات** من الفروض والنوافل الشاهدة بثباتهم في الايمان **جنات تجري** اي دائما **من تحتها الانهار** اي المياه الواسعة اينما اريدت من ارضها جرت لك نهر في مقابلة ما يجري من فوق روس اهل النار عن معاوية عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان في الجنة بحر الماء وبحر العسل وبحر اللبن وبحر الخمر ثم تشقق الانهار بعد اخرجه الترمذي وقال حديث صحيح **يحلون فيها** من حليت المراة اذا البست الحلي في مقابلة ما يزال من بواطن الكفرة وظواهرهم وقوله تعالى **من اساور** صفة مفعول محذوف اي حليا من اساور ومن زائدة او تبعيضية واساور جمع اسورة وجمع سوار ولما كان المقصود الحث على التقوى الحاملة على الانغمار بالفضل شوق اليه باعلى ما يعرف من الحلية فقال **من ذهب** وقوله تعالى **ولؤلؤا** معطوف على اساور لا على ذهب لانهم لم يعهدوا السوار منه الا ان يراد المرصعة وعن ابي موسى الاشعري قال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال جنتان من فضة انيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب انيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين ان ينظروا الى ربهم الا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن وعن ابي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان عليهم التيجان ادنى لؤلؤة منها لتضيء ما بين المشرق والمغرب اخرجه الترمذي وقال حديث غريب وقرا نافع وعاصم بنصب الهمزة الثانية مع التنوين عطفا على محل اساور او اضمار الناصب مثل ويؤتون والباقون بالخفض مع التنوين وابدل الهمزة

الاولى الساكنة حرف مد السوسي وابو بكر هذا حالة الوصل واما الوقف فحمزة يبدل الاولى واوا وكذا الثانية تبدل واوا وله ايضا فيها الروم وقوله تعالى **ولباسهم فيها حرير** وهو الابريسم المحرم لبسه على الرجال المكلفين في الدنيا في مقابلة ثياب الكفار كما كان لبس الكفار في الدنيا حريرا ولباس المومنين دون ذلك وقد ورد في الصحيحين عن عبد الله بن الزبير عن عمر رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لا تلبسوا الحرير فان من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الاخرة قال ابن كثير قال عبد الله بن الزبير ومن لم يلبس الحرير في الاخرة لم يدخل الجنة قال الله تعالى ولباسهم فيها حرير اهـ وفي الصحيحين ايضا عن عمر رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال انما يلبس هذه من لا خلاق له في الاخرة قال البقاعي فيوقع التشبه بالكفار في لباسهم ان يلحقهم الله بهم فلا يموت مسلما اهـ والاولى ان يحمل ذلك على انه لا يلبسه مع السابقين فان من مات على الاسلام لا بد من دخوله الجنة وعلى من استحله من الرجال المكلفين **وهدوا** اي في الدنيا **الى الطيب من القول** قال ابن عباس هو شهادة ان لا اله الا الله وقيل هو لا اله الا الله والله اكبر والحمد لله وسبحان الله وقال السدي هو القران وقال عطا هو قول اهل الجنة الحمد لله الذي صدقنا وعده **وهدوا الى صراط الحميد** اي طريق الله المحمود وهو دينه فكان فعلهم حسنا كما كان قولهم حسنا فدخلوا الجنة التي هي اشرف دار عند خير جار وحلوا فيها اشرف الحلي كما تحلوا في الدنيا باشرف الطرائق عكس الكفار فانهم اثروا الفاني لحضوره واعرضوا عن الباقي مع شرفه لغيابه فدخلوا نارا كلما ارادوا ان يخرجوا منها اعيدوا فيها ثم ذكر تعالى بعد ما فصل بين الفريقين حرمة البيت وعظم جرم من صد عنه فقال تعالى **ان الذين كفروا** اي اوقعوا هذا الفعل الخبيث وصح عطف **ويصدون** وان كان مضارعا على الماضي لان المضارع قد لا يلاحظ منه زمان معين من حال او استقبال بل يكون المقصود منه الدلالة على مجرد الاستمرار كما يقال فلان يحسن الى الفقرا لا يراد حال ولا استقبال وانما يراد استمرار وجود الاحسان منه والصدود منهم مستمر دائم للناس **عن سبيل الله** اي طاعته بانقسامهم طرق مكة يقول بعضهم لمن يمر به خرج فينا ساحر واخر يقول شاعر واخر يقول كاهن فلا تسمعوا منه فانه يريد ان يردكم عن دينكم حتى قال من اسلم لم يزل وابي حتى جعلت في اذني الكرسف مخافة ان اسمع شيئا من كلامهم وكانوا يؤذون من اسلم الى غير ذلك من اعمالهم **و** يصدون عن **المسجد الحرام** ان تقام شعائره من الطواف بالبيت والصلاة والحج والاعتمار ممن هو اهله ذلك من اوليائه ثم وصفه بما يبين شديد ظلمهم في الصد عنه بقوله تعالى **الذي جعلناه** بما لنا من العظمة **للناس** اي كلهم ثم بين

ثم بين حصله لهم بقوله تعالى سوا العاكف اي المقيم فيه والبادي اي الطاري من
البادية وهو الجاي اليه من غربه وقال بعضهم يدخل فيه العاكف الغريب
اذا جاه للتعبد وان لم يكن من اهله قال الزمخشري وقد استشهد بهذا
اصحاب ابي حنيفة قايلين ان المراد بالمسجد الحرام مكة على امتناع جواز بيع دور
مكة واجارتها انتهي وهو ايضاً مذهب ابن عمر وعمر بن عبد العزيز واسحق الحنظلي
المعروف بابن راهويه قال البيضاوي وهو مع ضعفه معارض بقوله
تعالى الذين اخرجوا من ديارهم وشري عمر دار السجن فيها من غير نكير انتهي
ووجه الرازي الضعف بقوله لان العاكف انما يراد به الملازم للمسجد المتعكف
فيه على الدوام وفي الاكثر ولا يلزم ما ذكره ويحتمل ان يراد بالعاكف المجاور للمسجد
المتمكن في كل وقت من الاوقات من التعبد فيه ولا وجه لصرف الكلام عن ظاهره
مع بذل هذه الاحتمالات اه واستدل ايضاً للجواز بقوله صلى الله عليه وسلم
لما قال له اسامة بن زيد يا رسول الله اتنزل غدا بدارك بمكة قال وهل ترك لنا
عقيل من رباع او دور وكان عقيل ورث ابا طالب دون علي وجعفر لانهما كانا
مسلمين ولا يورث الا ما كان الميت مالكا له قال الروياني ويكره بيعها واجارتها
للخروج من الخلاف ونازعه النووي في مجموعه وقال انه خلاف الاولى لانه لم يرد
فيه نهي مقصود والاول كما قال الزركشي هو المنصوص بل اعترض على النووي فانه
صرح بكراهة بيع المصحف والشطرنج ولم يرد في ذلك نهي مقصود تنبيه
محل الخلاف بين العلماء في بيع نفس الارض اما البنا فهو مملوك يجوز بيعه بلا خلاف
اي اذا لم يكن من اجزا ارضها قيل ان اسحاق الحنظلي ناظر الشافعي رضي الله عنه
بمكة في بيع دور مكة فاستدل الشافعي بما مر واستدل هو على المنع بقول
حدثني بعض التابعين بانها لا تباع فقال له الشافعي لو قام غيرك مقامك
لامرت بعرك اذنيه اقول لك قال الله ورسوله تقول حدثني بعض التابعين
وقال الرازي قال اسحاق فلما علمت ان الحجة لزمتني تركت قولي وقرا حفص
سوا بالنصب على انه ثاني مفعولي جعلناه اي جعلناه مستويا العاكف فيه
والبادي والباقون بالرفع على ان الجملة مفعول ثان لجعلناه ويكون للناس من
الحال ويصح ان يكون حالا من المستكن في للناس بجعله مفعولا ثانيا لجعلناه
وقرا ورش وابو عمرو البادي باثبات اليا وصلا ووقفا وحذفها الباقون
وقفا ووصلا وحذفها الباقون وقفا ووصلا ومن يرد فيه اي المسجد الحرام
بالحاد بظلم اي بميل الى الظلم والالحاد العدول عن القصد واصله الحاد
الحافر وقيل الالحاد فيه هو الشرك وعبادة غير الله وقيل هو كل شي منهي
عنه من قول او فعل حتى شتم الخادم وقيل هو دخول الحرم من غير احرام
او ارتكاب شي من محظورات الاحرام من قتل صيد او قطع شجر وقال ابن عباس
هو ان تقتل فيه من لا يقتلك او تظلم فيه من لا يظلمك وقال مجاهد هو

تضاعف السيئات بمكة كما تضاعف الحسنات وقال سعيد بن جبير احتكار الطعام
بمكة بدليل ما روي يعلي بن امية ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال احتكار الطعام
في الحرم الحاد وعن عطا قول الرجل في المبايعة لا والله بلى والله وعن عبد الله بن عمر
انه كان في المبايعة فسطاطان احدهما في الحل والاخر في الحرم فاذا اراد ان يعاتب
اهله عاتبهم في الحل فقيل له كما تحدث ان من الالحاد فيه ان يقول الرجل
لا والله بلى والله تنبيه قوله بالحاد بظلم حالان مترادفان ومفعول يرد
متروك ليتناول كل متناول كانه قال ومن يرد فيه مرادا اما عادلا عن القصد
ظالما نذقه من عذاب اليم اي مولم اي بعضه وخبر ان محذوف لدلالة جواب
الشرط عليه تقديره ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام
نذيقهم من عذاب اليم فكل من ارتكب فيه ذنبا فهو كذلك فينبغي لمن كان فيه
ان يضبط نفسه ويسلك طريق السداد والعدل في جميع ما يهم به
ويقصده ولما ذكر تعالى الفريقين وجزا كل وختم بذكر البيت اتبعه التذكير
به فقال تعالى واذ اي واذكر اذ بوانا لابراهيم مكان البيت اي
جعلنا له مكان البيت مباة اي مرجعا يرجع اليه للعمارة والعبادة فان البيت
رفع الى السماء ايام الطوفان وكان من ياقوتة حمرا فاعلم ابراهيم عليه السلام
مكانه بريح يقال لها الخجوج كشفت ما حوله فبناه على اسه القديم وقيل
بعث الله تعالى سحابة بقدر البيت فقامت بحيال البيت وفيها راس يتكلم
يا ابراهيم ابن على قدري فبني عليه وعن عطا بن ابي رباح قال لما اهبط الله ادم
عليه السلام كان رجلاه في الارض وراسه في السما يسمع اهل السما ودعاهم
وانس اليهم فهابت الملايكة منه حتى شكت الى الله تعالى في دعايها الى الله تعالى
وفي صلاتها فاخفضه الله الى الارض فلما فقد ما كان يسمع منهم استوحش
وقيل اول من بنا البيت ابراهيم لما روي وورد في الصحيحين عن ابي ذر قال
قلت يا رسول الله اي مسجد وضع اول قال المسجد الحرام قلت ثم اي
قال بيت المقدس قلت كم بينهما قال اربعون سنة ثم فسر التبوية
بقوله تعالى ان لا تشرك بي شيا فابتدا باس العبادة وراسها وعطف
على النهي قوله تعالى وطهر بيتي عن كل ما لا يليق من الاوثان والاقذار
وطواف عريان به كما كانت العرب تفعل به للطايفين اي الذين يطوفون
بالبيت فان قيل كيف يكون النهي عن الشرك والامر بتطهير البيت تفسير
التبوية اجيب بان التبوية لما كانت مقصودة من اجل العبادة فكانه
قيل تعبدنا ابراهيم قلنا له لا تشرك بي شيا وطهر بيتي للطايفين وقال
ابن عباس للطايفين بالبيت من غير اهله والقايمين اي المقيمين والركع
السجود اي المصلين من الكل وقال غيره القايمون هم المصلون لان
المصلي لا بد ان يكون في صلاته جامعا بين القيام والركوع والسجود

قال البيضاوي ولعله عبر عن الصلاة باركانها للدلالة على ان كل واحد
منها مستقل باقتضاء ذلك كيف وقد اجتمعت **وأذن في الناس** اي اعلمهم
وناد فيهم **بالحج** وهو قصد البيت على سبيل التكرار للعبادة المخصوصة
بالمشاعر المخصوصة وفي المامور بذلك قولان احدهما وعليه اكثر المفسرين
ان ابراهيم عليه السلام قالوا لما فرغ من بناء البيت قال الله تعالى له اذن في
الناس بالحج قال يا رب وما يبلغ صوتي قال عليك الاذان وعلى البلاغ فصعد
ابراهيم الصفا وفي رواية اخرى ابا قبيس وفي اخرى على المقام قال ابراهيم
كيف اقول قال جبريل قل لبيك اللهم لبيك فهو اول من لبى وفي رواية
صعد على الصفا فقال يا ايها الناس ان الله كتب عليكم حج هذا البيت العتيق
فسمعه ما بين السما والارض فما بقي شي سمع صوته الا اقبل يلبي يقول لبيك اللهم
لبيك وفي رواية اخرى ان الله يدعوكم الى حج بيته الحرام ليثيبكم به الجنة ويجيركم
من النار فاجابه يومئذ من كان في اصلاب الرجال وارحام النسا وكل من وصل
اليه صوته من حجر او شجر او ابله او تراب قال مجاهد فما حج انسان ولا يحج احد حتى
تقوم الساعة الا وقد اسمعه ذلك النداء فمن اجاب مرة حج مرة ومن اجاب مرتين
او اكثر فيحج مرتين او اكثر بذلك المقدار وفي رواية فنادى على جبل ابي قبيس يا ايها
الناس ان ربكم بنى بيتا واوجب الحج عليكم اليه فاجيبوا ربكم والتفت بوجهه
يمينا وشمالا وشرقا وغربا فاجابه كل من كتب له الحج من اصلاب الرجال وارحام
الامهات لبيك اللهم لبيك وعن ابن عباس قال لما امر الله ابراهيم بالاذان تواضعت
له الجبال وخفضت وارتفعت له القرى القول الثاني ان المامور بذلك هو
النبي صلى الله عليه وسلم وهو قول الحسن واختاره اكثر المعتزلة واحتجوا عليه
بان ما جا في القران وامكن حمله على ان محمدا صلى الله عليه وسلم هو المخاطب
به فهو اولى لان قوله تعالى واذ بوانا تقديره واذكر يا محمد اذ بوانا فهو في حكم المذكور
فاذا قال تعالى واذن فاليه يرجع الخطاب امر ان يفعل ذلك في حجة الوداع
روي عن ابي هريرة قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال
يا ايها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا وجواب الامر **ياتوك** اي ياتوا بيتك
الذي بنيته لذلك مجيبين لصوتك باذنك سامعين طايعين مخبتين
خاشعين من اقطار السموات والارض كما يجيبون صوت الداعي من قبلنا اذا
دعاهم بعد الموت بمثل ذلك **رجالا** اي مشاة على ارجلهم جمع راجل
كقايم وقيام **وركبانا على كل ضامر** اي بعير مهزول وهو يطلق على
الذكر والانثى تنبيه على كل ضامر حال معطوف على حال كانه قال رجالا وركبانا
وقوله تعالى **ياتين** صفة لكل ضامر لانه في معنى الجمع **من كل فج** اي طريق
واسع بين جبلين **عميق** اي بعيد روى سعيد بن جبير باسناده عن
النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الحاج الراكب له بكل خطوة تخطوها

راحلة سبعون حسنة وللماشي سبعماية من حسنات الحرم قيل يا رسول
الله وما حسنات الحرم قال كل حسنة بماية الف حسنة وفي هذا دلالة
على ان المشي افضل من الركوب وفي ذلك خلاف بين الايمة محله كتب الفقه
ولما كان الانسان ميالا الى الفوايد مستشرفا الى تحصيل الفوايد طلب
الاتيان بما يرغبه سبحانه من فضله ما يقصده من امر المعاش بقوله تعالى **ليشهدوا**
اي يحضروا واحضروا اتاما **منافع لهم** واختلف في تلك المنافع فبعضهم
حملها على منافع الدنيا وهي ان يتجروا في ايام الحج وبعضهم حملها على منافع الاخرة
وهي العفو والمغفرة وبعضهم حملها على الامرين جميعا وهو كما قال الرازي
اولى فياتون لتلك المنافع يتنقلون من مشعر من مشاعر الحج ومن مشهد الى
مشهد مجموعين بالدعوة خاشعين بالهيبة خايفين من السطوة راجين
المغفرة ثم يتفرقون الى منازلهم ومواطنهم ويتوجهون الى مساكنهم كالسايرين
الى موقف الحشر يوم البعث والنشر المتفرقين الى دار النعيم والجحيم فيا ايها
المصدقون بان خليلنا ابراهيم عليه السلام نادى بالحج فاجابه بقدرتنا كرامة
له من اراد الله تعالى حجه على بعد اقطارهم وتناي ديارهم ممن كان موجودا في
ذلك الزمان وممن كان في ظهور الابا والامهات الاقربين والابعدين صدقوا
ان الداعي من قبلنا بالنفخ في الصور ويجيبه كل من كان على ظهرها ممن حفظنا
له جسده او سلطنا عليه الارض فمزقناه حتى صار ترابا وما بين ذلك لان
الكل علينا يسير قال الزمخشري وعن ابي حنيفة رحمه الله انه كان
يفاضل بين العبادات قبل ان يحج فلما حج فضل الحج على العبادة كلها لما شاهد
من تلك الخصايص ولما كانت المنافع لا تطيب ولا تتم الا بالتقوى وكان الحامل
على التقوى ذكر الله تعالى قال تعالى **ويذكروا اسم الله** اي الجامع لجميع الكمالات
بالتكبير وغيره عند الذبح وغيره وقيل كنى بالذكر عن الذبح لان ذبح المسلمين لا
ينفك عنه تنبيها على ان المقصود مما يتقرب به الى الله تعالى ان يذكر اسمه واختلف
في الايام المعلومات في قوله تعالى **في ايام معلومات** فالذي عليه اكثر المفسرين
وهو اختيار الشافعي وابي حنيفة انه عشر ذي الحجة واحتجوا بانها معلومة
عند الناس بحرصهم على علمها من اجل ان وقت الحج في اخرها ثم للمنافع اوقات
من العشر معروفة كيوم عرفة والمشعر الحرام ولليلة الذبايح وقت منها وهو يوم
النحر وعن ابن عباس انها ايام التشريق وقيل يوم عرفة الى اخر ايام التشريق
واستدل لهذا بقوله تعالى **على ما رزقهم من بهيمة الانعام** وهي الابل
والبقر والغنم من الهدايا والضحايا اي يذكروا الله تعالى عند نحرها ونحر
الضحايا والهدايا تكون في هذه الايام وتقدم الكلام على الايام المعدودات
في سورة البقرة عند قوله تعالى واذكروا الله في ايام معدودات وقوله تعالى
فكلوا منها اي من لحومها امر اباحة وذلك ان الجاهلية كانوا لا ياكلون

من لحوم هداياهم شيئا فامر الله بخلافهم واتفقوا العلماء على ان الهدي اذا كان تطوعا يجوز للمهدي ان يأكل منه وكذلك اضحية التطوع لما روي عن جابر بن عبد الله في قصة حجة الوداع فاتى علي ببدن من اليمن وساق رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة بدنة فنحر منها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا وستين بدنة ونحر علي ما غبر اي ما بقي واشركه في بدنه ثم امر من كل بدنة ببضعة اي بقطعة فجعلت في قدر فطبخت فاكل من لحمها وشرب من مرقها اخرجه مسلم واختلفوا في الهدي الواجب بالشرع مثل التمتع والقران والدم الواجب بافساد الحج وفوته وجزاء الصيد هل يجوز للمهدي ان يأكل شيئا منه قال الشافعي رضي الله عنه لا يأكل منه شيئا وكذلك ما اوجبه على نفسه بالنذر وقال ابن عمر رضي الله عنهما لا يأكل من جزاء الصيد والنذر ويأكل مما سوى ذلك وبه قال احمد واسحق وقال مالك يأكل من هدي التمتع ومن كل هدي وجب عليه الا من فدية الاذى وجزاء الصيد والنذر وعن اصحاب ابي حنيفة انه يأكل من كل دم التمتع والقران ولا يأكل من واجب سواهما وقوله تعالى واطعموا البائس اي الذي اصابه بؤس او شدة الفقير اي المحتاج امر ايجاب وقد قيل به في الاول ثم ليقضوا تفثهم اي يزيلوا اوساخهم وشعثهم كقص الشارب والاظفار ونتف الابط والاستحداد عند الاحلال وليوفوا نذورهم من الهدايا والضحايا وليطوفوا طواف الافاضة الذي به تمام التحلل بالبيت العتيق اي القديم لانه اول بيت وضع للناس وقال ابن عباس سمي عتيقا لان الله تعالى اعتقه من تسليط الجبابرة فكم من جبار سار اليه ليهدمه فمنعه الله تعالى منه فان قيل قد تسلط عليه الحجاج فلم يمنع اجيب بانه ما قصد التسلط على البيت وانما تحصن به ابن الزبير فاحتال لاخراجه ثم بناه ولما تسلط عليه ابرهة فعل به ما فعل وقيل لان الله تعالى اعتقه من الغرق فانه رفع في ايام الطوفان قال مجاهد لانه لم يملك قط وقيل بيت كريم اي العتيق بمعنى الكريم من قولهم عتق الخيل والطير والطواف ينقسم الى ثلاثة هذا ويدخل وقته بعد الوقوف وهذا لا يجبر بدم لانه ركن الثاني طواف الوداع ووقته عند ارادة السفر من مكة وهو واجب يجبر تركه بدم الثالث طواف القدوم وهو مسنون للحاج او الحلال اذا قدم مكة روت عائشة رضي الله عنها ان اول شيء بدأ به حين قدم النبي صلى الله عليه وسلم انه توضأ ثم طاف ثم لم يكن عمرة ثم حج ابو بكر وعمر مثله وقرأ ابن ذكوان وليوفوا بكسر اللام فيهما والباقون باسكانها وفتح ابو بكر الواو من وليوفوا وشدد الفاء وقوله تعالى ذلك خبر مبتدأ مقدر اي الامر والشأن ذلك المذكور كما يقدم الكاتب جملة من كتابه في بعض المعاني ثم اذا اراد الخوض

وليطوفوا ٣

سنة في

في معنى اخر قال هذا وقد كان كذا ومن يعظم اي بغاية جهده حرمات الله ذي الجلال والاكرام كلها وهي ما لا يحل انتهاكه من مناسك الحج وغيرها وقيل الحرمات هنا مناسك الحج وتعظيمها اقامتها واتمامها وعن زيد بن اسلم الحرمات خمس الكعبة الحرام والمسجد الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام والمحرم حتى يحل فهو اي التعظيم الحامل له على امتثال الامر فيها على وجهه واجتناب المنهي عنه كالذبح بذكر اسم غير الله والطواف عريانا خير كائن له عند ربه اي الذي احسن اليه كل ما فيه من النعم في الاخرة ومن انتهكها فهو شر عليه عند ربه ثم انه تعالى بين احكام الحج بقوله تعالى واحلت لكم الانعام اي اكلها بعد الذبح وهي الابل والبقر والغنم الا ما يتلى اي على سبيل التجدد مستمرا عليكم تحريمه في قوله تعالى حرمت عليكم الميتة الاية والاستثناء منقطع ويجوز ان يكون متصلا والتحريم لما عرض من الموت ونحوه فحافظوا على حدوده واياكم ان تحرموا مما احل شيئا كتحريم عبدة الاوثان البحيرة والسائبة وغير ذلك وان تحلوا مما حرم الله شيئا كاحلالهم اكل الموقوذة والميتة وغير ذلك ولما فهم من ذلك حل السوائب ونحوها وتحريم المذبوح للانصاب وكان سبب ذلك كله الاوثان تسبب عنه قوله تعالى فاجتنبوا اي بغاية الجهد اقتداء بابيكم ابراهيم عليه السلام الذي تقدم الايماء له بمثل ذلك عند جعل البيت له مباءة الرجس اي القذر الذي من حقه ان يجتنب من غير امر ثم بينه وميزه بقوله تعالى من الاوثان اي الذي هو الاوثان كما يجتنب الانجاس فهو بيان للرجس وتمييز له كقولك عندي عشرون من الدراهم وسمى الاوثان رجسا وكذا الخمر والميسر والازلام على طريق التشبيه يعني انكم كما تنفرون بطباعكم من الرجس وتجتنبونه فعليكم ان تنفروا من هذه الاشياء مثل تلك النفرة ونبه على هذا المعنى بقوله تعالى رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه جعل العلة في اجتنابه انه رجس والرجس مجتنب وقوله تعالى واجتنبوا قول الزور تعميم بعد تخصيص فان عبادة الاوثان رأس الزور لان المشرك زاعم ان الوثن تحق له العبادة كانه قال فاجتنبوا عبادة الاوثان التي هي رأس الزور واجتنبوا قول الزور كله لا تقربوا منه شيئا لتماديه في القبح والسماجة وما ظنك بشيء من قبيل عبادة الاوثان والزور من الزور من الازورار وهو الانحراف كما ان الافك من افكه اذا صرفه فان الكذب منحرف مصروف عن الواقع وقيل قول الزور قولهم هذا حلال وهذا حرام وما اشبه ذلك من افترائهم وقيل هو قول المشركين في تلبيتهم لبيك لا شريك لك الا شريكا هو لك تملكه وما ملك وقيل هو شهادة الزور لما روى ابو داود والترمذي انه صلى الله عليه وسلم صلى الصبح فلما سلم قام قائما واستقبل الناس بوجهه الكريم وقال

عدلت شهادة الاشراك بالله قالها ثلاثا وتلى هذه الاية وقوله تعالى حنفاء لله
اي مسلمين عادلين عن كل دين سوى دينه غير مشركين به تاكيد لما قبله وهما
حالان من الواو ومن يشرك اي يوقع شيئا من الشرك بالله الذي له العظمة كلها
بشيء من الاشياء في وقت من الاوقات فكانما خر اي سقط من السما لعلو ما كان
فيه من اوج التوحيد وسفول ما انحط عليه من حضيض الاشراك فتخطفه
الطير اي تاخذه بسرعة وهو نازل في الهوى قبل ان يصل الى الارض او تهوي
به الريح اي حين لم تجد في الهوى ما يهلكه في مكان من الارض سحيق
اي بعيد فهو لا يرجى خلاصه تنبيه قال الزمخشري يجوز في هذا
التشبيه ان يكون من المركب والمفرق فان كان تشبيها مركبا كانه قال من اشرك
بالله فقد اهلك نفسه هلاكا ليس بعده هلاك بان صور حاله بصورة
حال من خر من السما فتخطفه الطير فتفرق مزعا في حواصلها او عصفت
به الريح حتى هوت به في بعض المطارح البعيدة وان كان مفرقا فقد شبه الايمان
في علوه بالسماء والذي ترك الايمان واشرك بالله بالساقط من السما والاهواء
التي تتوزع افكاره بالطير المختطفة والشيطان الذي يطرح به في وادي
الضلالة بالريح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة اهـ وقوله
يطرح به الباء مزيدة للتاكيد قال الجوهري طوحه اي توهه وذهب
به هاهنا وهاهنا وقرا نافع بفتح الخاء وتشديد الطاء والباقون باسكان
الخاء وتخفيف الطاء ثم عظم ما تقدم من التوحيد وما هو مسبب عنه بالاشارة
باداة البعد فقال تعالى ذلك اي الامر الكبير العظيم ذلك فمن رعاه فاز ومن
حاد عنه خاب ثم عطف عليه بما هو اعم من هذا القدر فقال تعالى ومن يعظم
شعائر الله جمع شعيرة وهي البدن التي تهدى للحرم لانها من معالم الحج بان يختار
عظام الاجرام حسانا سمانا غالية الاثمان ويترك المكاس في شرائها فقد
كانوا يغالون في ثلاث ويكرهون المكاس فيهن الهدي والاضحية والرقبة
وروى ابن عمر عن ابيه رضي الله عنهما انه اهدى نجيبة طلبت منه بثلثمائة
دينار فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم اذ ابيعها واشتري بثمنها بدنا
فنهاه عن ذلك وقال اهدها واهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة بدنة
فيها جمل لابي جهل في انفه برة من ذهب وكان ابن عمر يسوق البدن مجللة
بالقباطي فيتصدق بلحومها وجلالها ويعتقد ان طاعة الله في التقرب بها
واهدائها الى بيته المعظم امر عظيم لا بد ان يقام به ويسارع فيه فانها اي
تعظيمها ناشئ من تقوى القلوب من للابتداء فان جعلت تبعيضية
فلا بد من حذف تقديره فان تعظيمها من افعال ذوي تقوى القلوب
فحذفت هذه المضافات ولا يستقيم المعنى الا بها لانه لا بد من راجع الى الجزاء
الذي ليرتبط وانما ذكرت القلوب لانها مراكز التقوى الذي اذا ثبتت فيها وتمكنت ظهر

اثرها

اثرها في سائر الاعضاء وسميت بذلك البدن شعائر لاشعارها بما يعرف به انها هدي
كطعن حديدة بسنامها قاله البقاعي ولعله ماخوذ من الشعر لانها اذا
جرحت قطع شيء من شعرها وازيل عن محل الجرح فيكون من الازالة لكم فيها اي
البدن منافع كركوبها والحمل عليها بما لا يضرها وشرب لبنها ومن احتاج الى
ظهرها ركب ومن احتاج الى لبنها شرب وقال اصحاب الراي لا يركبها الا اذا
اضطر اليها الى اجل مسمى وهو وقت نحرها ثم محلها اي مكان حل نحرها
الى البيت العتيق اي عنده والمراد الحرم جميعه وقيل المراد بالشعائر المناسك
ومشاهد الحج وبالمنافع الاجر والثواب في قضاء المناسك الى انقضاء اجالها ومحلها
محل الناس في احرامهم الى البيت يطوفون به بعد طواف الزيارة ولكل امة
اي جماعة مؤمنة سلفت قبلكم جعلنا منسكا اي متعبدا وقربانا يتقربون
به الى الله تعالى وقرا حمزة والكسائي منسكا هنا بكسر السين في الموضعين
فيكون بمعنى الموضع والباقون بفتحها مصدر بمعنى النسك ليذكروا
اسم الله اي الملك الاعلى وحده على ذبائحهم وقرابينهم لانه الرازق لهم وحده
فيقولون عند النحر الله اكبر لا اله الا الله والله اكبر اللهم منك واليك ثم علل
الذكر بالنعمة تنبيها على التفكر فيها فقال على ما رزقهم من بهيمة الانعام
فوجب شكره لذلك عليهم وفيه تنبيه على ان القربان يجب ان يكون من
الانعام اله واحد اي الذي شرع هذه المناسك كلها فالهكم وان
اختلفت فروع شرائعه ونسخ بعضها بعضا واذا كان واحدا وجب تخصيصه
بالعبادة فلذا قال تعالى فله وحده اسلموا اي انقادوا بجميع ظواهركم
وبواطنكم في كل ما امر به او نهى عنه وبشر المخبتين اي المطمئنين المتواضعين
من الخبت وهو المطمئن من الارض وقيل هم الذين لا يظلمون واذا ظلموا لم
ينتصروا ثم بين علاماتهم بقوله تعالى الذين اذا ذكر الله اي الذي له الجلال
والجمال وجلت خافت خوفا مزعجا قلوبهم فيظهر عليها الخشوع والتواضع
لله تعالى والصابرين الذين صار الصبر عادتهم على ما اصابهم من الكلف
والمصائب ولما كان ذلك قد يشغل عن الصلاة قال تعالى والمقيمي الصلاة
في اوقاتها والمحافظة عليها وان حصل لهم من المشاق بافعال الحج وغيره ما
عسى ان يحصل ولذلك عبر بالوصف دون الفعل اشارة انه لا يقيمها
على الوجه المشروع مع تلك المشاق والشواغل الا راسخ في حبها لما تمكن
من حبها في قلوبهم والخوف من الغفلة عنها كانهم دائما في صلاة ومما
رزقناهم ينفقون في وجوه الخير من الهدايا التي يغالون في اثمانها
وغير ذلك احسانا الى خلق الله تعالى ولما قدم تعالى الحث على التقرب بالانعام
كلها وكانت الابل اعظمها خلقا واجلها في انفسهم اجرا امر بخصها
بالذكر فقال تعالى والبدن اي الابل المعروفة جمع بدنة كخشب وخشبة

واتصالها بنقل بغيره **جعلناها لكم من شعائر الله** اي من اعلام دينه التي شرعها تعالى وقيل لانها تشعر بحديدة في سنامها ليعلم ذلك انها هدي **لكم فيها خير** اي نفع في الدنيا وثواب في العقبى كما قال ابن عباس دنيا واخرى وروي الترمذي وحسنه عن عائشة رضي الله تعالى عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما عمل ابن ادم يوم النحر احب الى الله من هراقة الدم وانه ليؤتى يوم القيمة بقرونها واظلافها واشعارها وان الدم ليقع من الله بمكان قبل ان يقع الى الارض فطيبوا بها نفسا وروي الدارقطني في السنن عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما انفقت الورق في شي افضل من نحيرة في يوم عيد وعن بعض السلف انه لم يملك الا تسعة دنانير فاشترى بها بدنة فقيل له في ذلك فقال سمعت ربي يقول لكم فيها خير **فاذكروا اسم الله عليها** اي على ذبحها بالتكبير حال كونها **صواف** اي قايمة على ثلاث معقولة اليد اليسرى لان البدنة تعقل احدى يديها فتقوم على ثلاث **فاذا وجبت جنوبها** اي سقطت سقوطا بردت به بزوال ارواحها فلا حركة اصلا من وجب الحايط وجبه اذا سقط ووجبت الشمس وجبة غربت قال ابن كثير وقد جا في حديث مرفوع ولا تعجلوا النفوس ان تزهق وقوله تعالى **فاذا وجبت جنوبها** اي اذا كانت تطوعا امر اباحة دفعا لما قد ظن انه قد يحرم الاكل منها للامر بتقريبها لله تعالى **فاطعموا القانع** اي المتعرض للسوال بخشوع وانكسار **والمعتر** اي السايل وقيل بالعكس وهو قول الشافعي رحمه الله تعالى قال في كتاب اختلاف الحديث والقانع السايل والمعتر هو الزاير وقيل القانع هو الجالس في بيته المتعفف الذي يقنع بما يعطى ولا يسال ولا يتعرض والمعتر المتعرض وقيل القانع هو المسكين والمعتر الذي ليس بمسكين ولا يكون له ذبيحة فيجي الى القوم فيتعرض لهم فياكل لاجل لحمهم **كذلك** اي مثل هذا التسخير العظيم الذي وصفناه من نحرها قياما **سخرناها** بعظمتنا التي لولاها ما كان ذلك **لكم** وذللناها لكم والا فهي مع عظمها وقوتها تاتونها منقادة فتعقلونها وتحبسونها ولو شينا جعلناها وحشية لم تطق ولم تكن باعجز من بعض الوحش التي هي اصغر منها جرما واقل قوة **لعلكم تشكرون** انعامنا عليكم لتعرفوا ان ما ذللها لكم الا الله تعالى فيكون حالكم حال من يرجو شكره بان لا تحرموا منها الا ما حرم عليكم ولا تحلوا منها الا ما احل لكم وتهدوا منها ما حث على اهدايه وتنصرفوا بحسب ما امركم ولما حث تعالى على التقرب بها مذكورا اسمه عليها قال تعالى **لن ينال الله** الذي له صفات الكمال **لحومها** المأكولة **ولا دماوها** المهراقة لا يرفعان اليه **ولكن يناله التقوى منكم** اي يرفع

اليه

وهي آذ تطعن

اليه منكم العمل الصالح الخالص له مع الايمان كما قال تعالى والعمل الصالح يرفعه اي يقبله وقيل كان اهل الجاهلية اذا نحروا البدن نضحوا الدما حول البيت ولطخوه بالدم فلما حج المسلمون ارادوا مثل ذلك فنزلت ثم كرر سبحانه وتعالى التنبيه على عظيم تسخيرها مع ما اوجب عليهم به بقوله تعالى **كذلك** اي التسخير العظيم **سخرها لكم** بعظمته وغناه عنكم **لتكبروا الله على ما هداكم** اي ارشدكم لمعالم دينه ومناسك حجه كان تقولوا الله اكبر على ما هدانا والحمد لله على ما اولانا فاختص الكلام بانه تضمن التكبير يعني الشكر وعدي تعديته ثم وعد من امتثل الامر بقوله تعالى **وبشر المحسنين** اي المخلصين فيما ياتونه ويذرونه كما قال تعالى من قبل وبشر المخبتين والمحسن هو الذي يفعل الحسن من الاعمال ويتمسك بها فيصير محسنا الى نفسه بتوفير الثواب عليه وقال ابن عباس الموحدين وقوله تعالى **ان الله** اي الذي لا كفو له **يدفع عن الذين امنوا** وقرا ابن كثير وابو عمرو بفتح اليا وسكون الدال وفتح الفا والباقون بضم اليا وفتح الدال وبعدها الف وكسر الفا اي يبالغ في الدفع مبالغة من يبالغ فيه ولم يذكر الله تعالى ما يدفعه عنهم حتى يكون اعظم وافخم واعم وان كان في الحقيقة انه يدفع باس المشركين فلذلك قال تعالى بعده **ان الله** اي الذي له صفات الكمال **لا يحب** اي لا يكرم كما يفعل المحب **كل خوان** في امانته **كفور** لنعمته وهم المشركون قال ابن عباس خانوا الله فجعلوا معه شريكا وكفروا نعمه فنبه بذلك على انه يدفع عن المومنين كيد من هذه صفته وقال مقاتل يدفع عن الذين امنوا بمكة حين امر المومنين بالكف عن كفار مكة قبل الهجرة حين اذوهم فاستاذنوا النبي صلى الله عليه وسلم في قتلهم سرا فنهاهم عن ذلك ثم اذن الله تعالى لهم في قتالهم بقوله **اذن للذين يقاتلون** اي المشركين والماذون فيه وهو القتال محذوف لدلالة يقاتلون عليه **بانهم** اي بسبب انهم **ظلموا** فكانوا ياتونه صلى الله عليه وسلم بين مضروب ومشجوج يتظلمون اليه فيقول لهم اصبروا فاني لم اومر بالقتال حتى هاجر فانزلت وهي اول اية نزلت في القتال بعد ما نهى عنه في نيف وسبعين اية وقيل نزلت في قوم باعيانهم مهاجرين من مكة الى المدينة فاعترضهم مشركو مكة فاذن لهم في قتال الكفار الذين يمنعونهم من الهجرة بانهم ظلموا واعتدوا عليهم بالايذا وقرا نافع وابو عمرو وعاصم بضم الهمزة والباقون بفتحها ولما كان التقدير فان الله اراد اظهار دينه بهم عطف عليه قوله تعالى **وان الله** اي الذي هو الملك الاعلى **على نصرهم لقدير** وفي ذلك وعد من الله بنصر المومنين ثم وصفهم بقوله تعالى **الذين اخرجوا من ديارهم** الى الشعب والحبشة والمدينة **بغير حق** اوجب ذلك ما اخرجوا **الا ان يقولوا** اي بقولهم **ربنا الله** وهذا القول حق والاخراج به اخراج

بغير حق ونظير ذلك قوله تعالى هل تنقمون منا الا ان امنا بالله تنبيه الذين
اخرجوا مجرور نعت للذين يقاتلون او بدل منه او منصوب على المدح او مرفوع
خبر مبتدا محذوف ولولا دفع الله اي المحيط بكل شيء علما الناس بعضهم ببعض
اي بتسليط المسلمين منهم على الكافرين بالمجاهدة لاستولى المشركون على
اهل الملل المختلفة في ازمنتهم وعلى متعبداتهم كما قال تعالى لهدمت اي
خربت صوامع وهي معابد صغار للرهبان مرتفعة وبيع كنائس للنصارى
وصلوات اي كنائس اليهود وسميت بها لانه يصلى فيها وقيل هي كلمة
معربة اصلها بالعبرانية صلوثا ومساجد للمسلمين يذكر فيها اي هذه
المواضع المذكورة اسم الله العلي العظيم كثيرا وتنقطع العبادات بخرابها
وقيل الضمير يرجع للمساجد فقط تشريفا لها بان ذكر الله يحصل فيها كثيرا
فان قيل لم قدم الصوامع والبيع على المساجد اجيب بانها اقدم في الوجود في الذكر
وقيل اخرها في الذكر كما في قوله تعالى ومنهم سابق بالخيرات ولان الذكر
اخر العمل فلما كان نبينا صلى الله عليه وسلم خير الرسل وامته خير الامم
لا جرم كانوا اخرهم ولذلك قال صلى الله عليه وسلم نحن الاخرون
والسابقون وقيل اخرها لتكون بعيدة عن الهدم قريبة من الذكر وقرا نافع
وابن كثير لهدمت بتخفيف الدال والباقون بتشديدها واظهر التاء عند
الصاد نافع وابن كثير وعاصم وادغمها الباقون ولينصرن الله اي الملك
الاعظم من ينصره اي ينصر دينه واولياءه كائنا من كان منهم او من غيرهم
وقد انجز الله تعالى وعده بان سلط الله المهاجرين والانصار على صناديد
العرب واكاسرة العجم وقياصرتهم واورثهم ارضهم وديارهم ان الله اي
الذي لا كفؤ له لقوي اي على ما يريد عزيز اي منيع في سلطانه وقدرته
وقوله تعالى الذين ان مكناهم اي بما لنا من القدرة في الارض باعلائهم على
ضدهم اقاموا الصلاة اي التي هي عماد الدين الدالة على المراقبة والاعراض
عن تحصيل الفاني واتوا الزكاة اي المؤذنة في الزهد في الحاصل منه المؤذنة
بعمل النفس للرحيل وامروا بالمعروف اي الذي امر الله تعالى به ورسوله
به ونهوا عن المنكر اي الذي نهى الله ورسوله عنه وصف للذين هاجروا
وهو اخبار من الله تعالى بظهر الغيب عما ستكون عليه سيرة المهاجرين
والانصار رضي الله تعالى عنهم وعن عثمان رضي الله عنه هذا والله ثنا
قبل بلاء يريد ان الله تعالى اثنى عليهم قبل ان يحدثوا من الخير ما احدثوا
تنبيه في ذلك دليل على صحة خلافة الائمة الاربعة الخلفاء الراشدين اذ لم
يستجمع ذلك غيرهم من المهاجرين واذا ثبت ذلك وجب ان يكونوا على الحق
ولا يجوز حمل الاية على امير المؤمنين علي وحده لان الاية دالة على الجمع وعن
الحسن هم امة محمد صلى الله عليه وسلم وقيل الذين منصوب بدل من قوله

ينصره

ينصره ولله اي الملك الاعلى عاقبة الامور اي اخر امور الخلق ومصيرها اليه
في الاخرة فلا يكون لاحد فيها امر حتى انه لا ينطق احد الا باذن منه ولما بين
سبحانه وتعالى فيما تقدم اخراج الكفار للمؤمنين من ديارهم بغير حق واذن
في مقاتلتهم وضمن للرسول صلى الله عليه وسلم النصرة وبين ان لله عاقبة
الامور اردف ذلك بما يجري مجرى التسلية للنبي صلى الله عليه وسلم في الصبر
على ما هم عليه من اذيته واذية المؤمنين بالتكذيب وغيره فقال تعالى وان
يكذبوك فقد كذبت قبلهم اي قبل قومك قوم نوح وتانيث قوم باعتبار
المعنى وتحقير المكذبين في قدرته وان كانوا من اشد الناس وعاد اي ذو
الابدان الشداد قوم هود وثمود اولوا الابنية الطوال في السهول والجبال
قوم صالح وقوم ابراهيم المتجبرون المتكبرون وقوم لوط الانجاس بما لم
يسبقهم اليه احد من الناس واصحاب مدين ارباب الاموال المجموعة من خزائن
الضلال فانت يا اشرف الخلق لست باوحدي في التكذيب فان هؤلاء
قد كذبوا رسلهم قبل قومك ولما كان موسى عليه السلام قد اتى من الايات
المرئية ثم المسموعة بما لم يات بمثله احد ممن تقدمه فكان تكذيبه في
غاية البعد غير سبحانه وتعالى الاسلوب تنبيها على ذلك وعلى ان الذين
اطبقوا على تكذيبه القبط واما قومه فما كذبه منهم الا اناس يسير فقال
تعالى وكذب موسى وفي ذلك ايضا تعظيم للتاسية وتفخيم للتسلية
فامليت للكافرين اي امهلتهم بتاخير العذاب عنهم الى الوقت الذي ضربته
لهم وعبر عن طول الامهال باداة التراخي لزيادة التاسية فقال تعالى
ثم اخذتهم اخذ عزيز مقتدر ثم نبه سبحانه وتعالى بالاستفهام في قوله
تعالى فكيف كان نكير اي انكاري لافعالهم على انه كان في اخذهم عبر وعجائب
واهوال وغرائب حيث ابدلهم بالنعمة محنة وبالحياة هلاكا وبالعمارة
خرابا والاستفهام للتقرير اي هو واقع موقعه فليحذر هؤلاء الذين اتيتهم
باعظم ما اتى به رسول قومه مثل ذلك فان لم يؤمنوا بك فعلت بهم كما فعلت
بهؤلاء وان كانوا امكن الناس فلا يحزنك امرهم تنبيه اثبت ورش الياء بعد
الراء من نكير في الوصل وحذفها الباقون وقفا ووصلا فكاين اي وكم من قرية
وقيل معنى كاين رب وقوله تعالى اهلكتها قراه ابو عمرو بعد الكاف بتاء فوقية
مضمومة والباقون بعد الكاف بنون وبعدها الف والمراد اهلها بدليل قوله تعالى
وهي اي والحال انها ظالمة اي اهلها بكفرهم ويحتمل ان يكون المراد اهلاك
نفس القرية فيدخل تحته هلاك من فيها لان العذاب النازل اذا بلغ ان
يهلك القرية فصيرها منهدمة حصل هلاك من فيها وان كان الاول اقرب فهي اي
فتسبب عن اهلاكها انها خاوية اي منهدمة ساقطة على اي جدرانها
عروشها اي سقوفها اذ كل مرتفع اظلك من سقف بيت او خيمة او ظلة او كرم

فهو عرش والخاوي الساقط من خوى النجم اذا سقط او الخالي من خوى المنزل
اذا خلي من اهله وخوى بطن الحامل تنبيه قوله على عروشها لا يخلو ان يتعلق
بخاوية فيكون المعنى انها ساقطة على عروشها سقوفها اي تقصفت الاخشاب
اولا من كثرة الامطار وغير ذلك من الاضرار فسقطت ثم سقط عليها الجدران
فسقطت فوق السقوف او خالية مع بقاء عروشها وسلامتها واما ان يكون
خبرا بعد خبر كانه قيل وهي خاوية وهي على عروشها اي قائمة مظلة على عراصها
على معنى ان السقوف سقطت الى الارض فصارت في قرار الحيطان مائلة فهي
مشرفة على السقوف الساقطة وقوله فهي خاوية جملة معطوفة على
اهلكناها لا على وهي ظالمة فانها حال كما قدرته والاهلاك ليس حال خرابها
فلا محل لها ان نصبت كان بمقدر يفسره اهلكناها لانها معطوفة على جملة
اهلكناها كما مر وهي مفسرة لا محل لها وان رفعت كاين بالابتدا فمحلها رفع
خبرا ثانيا لكاين والخبر الاول اهلكناها **وكم من بئر معطلة** اي متروكة
بموت اهلها **وقصر مشيد** اي رفيع خال بموت اهله تنبيه علم مما قدرته
ان بئر معطوف على قرية وهو يقوي على ان عروشها بمعنى مع او جه وروي ان
هذه بئر نزل عليها صالح مع اربعة الاف نفر ممن امن به ونجاهم الله تعالى
من العذاب وهم بحضرموت وانما سميت به لان صالحا حين حضرها مات
وثم بلدة عند البئر اسمها حاضورا بناها قوم صالح وامروا عليهم جلهس
بن جلاس واقاموا بها زمانا ثم كفروا وعبدوا صنما وارسل الله تعالى
اليهم حنظلة بن صفوان فقتلوه فاهلكهم الله تعالى وعطل بئرهم وخرب
قصورهم وقوله تعالى **افلم يسيروا** اي كفار مكة **في الارض** يحتمل انهم
لم يسافروا فحثوا على السفر ليروا مصارع من اهلكهم الله تعالى بكفرهم
ويشاهدوا اثارهم فيعتبروا وان يكونوا قد سافروا وارادوا ذلك ولكن
لم يعتبروا فجعلوا كان لم يسافروا ولم يروا **فتكون** اي فتسبب عن سيرهم
ان يكون **لهم قلوب** واعية **يعقلون بها** ما رأوه بابصارهم مما نزل بالمكذبين
قبلهم **او** اي او يكون لهم ان كان عمى الابصار كما دل عليه جعل هذا قسيما
آذان يسمعون بها اخبارهم بالاهلاك وخراب الديار فيعتبروا **فانها** اي
القصة **لا تعمى الابصار** ويجوز ان يكون الضمير مبهما تفسره الابصار
وفي تعمى راجع اليه والمعنى ان ابصارهم صحيحة سالمة لا عمى فيها وانما العمى
بقلوبهم كما قال تعالى **ولكن تعمى القلوب التي في الصدور** ولا يعتد
بعمى الابصار فكانه ليس بعمى بالاضافة الى عمى القلوب فان قيل اي فائدة
في ذكر الصدور اجيب بان الذي تعورف واعتقد ان العمى على الحقيقة مكان
البصر وهو ان تصاب الحدقة بما يطمس نورها واستعماله في القلب استعارة
ومثل فلما اريد اثبات ما هو خلاف المعتقد من نسبة العمى الى القلوب حقيقة

ونفيه عن الابصار احتاج هذا التصوير الى زيادة تعيين وفضل تعريف ليتقرر
ان مكان العمى هو القلوب لا الابصار كما تقول ليس المضا للسيف ولكنه للسانك
الذي بين فكيك فقولك الذي بين فكيك تقرير لما ادعيته للسانه وتثبيت لان
محل المضا هو هو لا غير فكانك قلت ما نفيت المضا عن السيف واثبته للسانك
فلتة ولا سهوا مني ولكن تعمدت به اياه بعينه تعمدا قيل لما نزل قوله تعالى
ومن كان في هذه اعمى فهو في الاخرة اعمى قال ابن ام مكتوم يا رسول الله انا
في الدنيا اعمى افاكون في الاخرة اعمى فنزلت **ويستعجلونك بالعذاب** الذي
توعدتهم به تكذيبا واستهزاء **و** الحال انه **لن يخلف الله** اي الذي لا كفوء له **وعده**
لامتناع الخلف في خبره سبحانه وتعالى فيصيبهم ما وعدهم به ولو بعد حين
لكنه تعالى حليم لا يعجل بالعقوبة وقد انجزه يوم بدر **وان يوما عند ربك**
اي المحسن اليك بتأخير العذاب عنهم اكراما لك من ايام الاخرة بالعذاب
كالف سنة مما تعدون في الدنيا وطول ايامه حقيقة او من حيث
ان ايام الشدائد مستطالة وقرا ابن كثير وحمزة والكسائي بالياء على الغيبة
والباقون بالتاء على الخطاب **وكاين من قرية امليت لها** اي امهلتها كما امهلتكم **وهي
ظالمة** كظلمكم بالاستعجال وغيره **ثم اخذتها** اي بالعذاب والمراد اهلها **والي
المصير** اي المرجع فينقطع كل حكم دون حكمي ففيه وعيد وتهديد فان قيل
لم قال فكاين من قرية اهلكناها بالفاء وقال هنا بالواو اجيب بان الاولى
وقعت بدلا عن قوله فكيف كان نكير واما هذه فحكمها حكم ما تقدمها من الجملتين
المعطوفتين بالواو اعني قوله تعالى ولن يخلف الله وعده وان يوما عند
ربك كالف سنة مما تعدون ولما كان الاستعجال لا يطلب من الرسول
وانما يطلب من المرسل امره الله تعالى بان يديم لهم التخويف والانذار بقوله
تعالى **قل** اي لهم ولا يصدنك عن دعائهم ما اخبرناك به عنهم من عنادهم
يا ايها الناس اي جميعا من قومك وغيرهم **انما انا لكم نذير مبين** اي بين
الانذار والاقتصار على الانذار مع عموم الخطاب وذكر الفريقين لان
صدر الكلام ومساقه للمشركين وانما ذكر المؤمنين وثوابهم بقوله
فالذين امنوا اي اقروا بالايمان **وعملوا** اي تصديقا لدعواهم لذلك
الصالحات لهم مغفرة لما فرط منهم **ورزق** اي في الدنيا بالغنائم
وغيرها وفي الاخرة بما لا عين رات ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب
بشر **كريم** اي لا خسة فيه ولا دناءة بانقطاع ولا غيره زيادة في
غيظهم ولما كان في سياق الانذار قال معبرا بالماضي زيادة في التخويف
والذين سعوا اي اوقعوا السعي ولو مرة واحدة **في اياتنا** اي القرآن
بابطالها **معاجزين** من اتبع النبي صلى الله عليه وسلم اي يثبطونهم الى العجز
ويثبطونهم عن الايمان او مقدرين عجزنا عنهم وقرا ابن كثير وابو عمرو

بتشديد الجيم بعد العين على انها حال مقدرة والباقون بالف بعد العين وتخفيف
الجيم اي مسابقين مشاقين للساعين فيها بالقبول اولئك البعدا المبغضا
اصحاب الجحيم اي النار استخفافا بما سعوا فيكبهم فيها ليعلموا انهم هم العاجزون
ولما لاح من ذلك ان الشيطان القي للكفار شبها يفاخرون بها مجادلهم في دين الله
الذي امر رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم باظهاره وتقريره واشهاره عطف
عليه تسلية له صلى الله عليه وسلم قوله تعالى وما ارسلنا اي بعظمتنا من
قبلك ثم اكد الاستغراق بقوله تعالى من رسول وهو نبي امر بالتبليغ ولا
نبي وهو من لم يومر بالتبليغ وهذا المشهور بمعنى ارسلنا او حينا فالنبي اعم من
الرسول ويدل عليه ما رواه الامام احمد انه صلى الله عليه وسلم سئل
عن الانبيا فقال مائة الف واربع وعشرون الفا قيل فكم الرسل فقال ثلاثمائة
وثلاثة عشر جما غفيرا وقيل كما هو ظاهر الاية الرسول من جمع الى المعجزة كتابا
منزلا عليه والنبي غير الرسول من لا كتاب له وقيل يمكن حمل الاية عليه ايضا
والرسول من ياتيه الكتاب والنبي يقال له ومن يوحي اليه في المنام الا اذا تمنى
اي تلي على الناس ما امره الله تعالى به او حدثهم به واشتهى في نفسه ان
يقبلوه حرصا منه على ايمانهم شفقة عليهم القي الشيطان
من التشبيه والتخيلات في امنيته اي فيما تلاه او حدث به واشتهى
ما يلقفه منه اولياؤه فيجادلون به اهل الطاعة ليضلوهم وان الشياطين
ليوحون الى اوليائهم ليجادلوكم وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين
الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا كما يفعل
هولاء فيما يفترونه به في وجه الشريعة اصولا وفروعا من قولهم في القرآن
شعر وسحر وكهانة وقولهم لو شاء الله ما اشركنا ولا اباؤنا وقولهم هولاء شفعاؤنا
وقولهم انما قتل الله بالموت حتف انفه اولى بالاكل مما ذبح وقولهم نحن اهل الله
وسكان حرمه ولا نخرج من الحرم فنقف بالحج بالمشعر الحرام ونقف الناس
بعرفة ونحن نطوف بثيابنا وكذا من ولدناه واما غيرنا فلا يطوف الا عريانا
ذكرا كان او انثى الا ان نعطيه احدنا ما يلبسه ونحو ذلك مما يريدون ان
يطفئوا نور الله تعالى وكذا انا وبلايا الباطنية والاتحادية وقولهم وانظارهم
التي الحدوا فيها يضل الله بها من يشاء ثم يمحوها ممن اراد من عباده وما ارادوا
من امره فينسخ اي فيتسبب عن الاية انه ينسخ الله المحيط بكل شيء علما
وقدرة ما يلقي الشيطان فيبطله بايضاح امره ثم يحكم الله اياته اي ثم يجعلها
جلية فيما يريد منها وادل دليل على ان هذا هو المراد مع الافتتاح بالمهاجرة في
الايات الختام بقوله عطفا على ما تقديره فالله على ما يشاء قدير والله عليم
باحوال الخلق حكيم بما يفعله بهم وقيل انه صلى الله عليه وسلم حدث نفسه
بزوال المسكنة فنزلت وقال ابن عباس ومجاهد وكعب القرظي وغيرهما من المفسرين

لما راي رسول الله صلى الله عليه وسلم اعراض قومه عنه وشق عليه ما راى من مباعدتهم عما
جاءهم به تمنى في نفسه ان ياتيهم من الله ما يقارب بينه وبين قومه وذلك لحرصه على
ايمانهم فجلس ذات يوم في ناد من اندية قريش كثير اهله واحب يومئذ ان لا ياتيه
من الله شيء ينفروا عنه وتمنى ذلك فانزل الله تعالى سورة والنجم اذا هوى فقراها
رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ افرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة
الاخرى وسوس اليه الشيطان حتى سبق لسانه سهوا الى ان قال تلك الغرانيق
العلى وان شفاعتهن لترتجى ففرح المشركون ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم
في قراءة السورة كلها وسجد في اخرها وسجد المسلمون لسجوده وسجد جميع من
في المسجد من المشركين فلم يبق في المسجد مومن ولا كافر الا سجد سوى الوليد
ابن المغيرة وابو احيحة سعيد بن العاص فانهما اخذا حفنة من البطحا ورفعاها
على جبهتهما وسجدا عليها لانهما كانا شيخين كبيرين فلم يستطيعا السجود
وقد تفرقت قريش وقد سرهم ما سمعوا وقالوا قد ذكر محمد الهتنا باحسن الذكر
وقالوا قد عرفنا ان الله يحيي ويميت ويرزق ولكن هذه الهتنا تشفع لنا عنده
فاذا جعل لهم محمد نصيبا فنحن معه فلما امسى رسول الله صلى الله عليه وسلم
اتاه جبريل فقال يا محمد ماذا صنعت لقد تلوت على الناس ما لم اتك به
عن الله عز وجل سبحانه وتعالى فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم حزنا شديدا
وخاف من الله خوفا شديدا فانزل الله تعالى هذه الاية تعزية وكان به رحيما
وسمع بذلك من كان بارض الحبشة من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وبلغهم
سجود قريش وقيل قد اسلمت ارض مكة فرجع اكثرهم الى عشائرهم وقالوا هم
احب الينا حتى اذا دنوا من مكة بلغهم ان الذي كانوا يتحدثون من اسلام اهل
مكة كان باطلا فلم يدخل احد منهم الا بجوار ومستخفيا فلما نزلت هذه
الاية قالت قريش ندم محمد على ما ذكر من منزلة الهتنا عند الله فغير ذلك قال
الرازي هذه رواية عامة المفسرين الظاهريين اما اهل التحقيق فقد
قالوا هذه الرواية باطلة موضوعة واحتجوا على البطلان بالقرآن والسنة
والمعقول اما القرآن فوجوه احدها قوله تعالى ولو تقول علينا بعض
الاقاويل لاخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ثانيها قوله تعالى
قل ما يكون لي ان ابدله من تلقاء نفسي ان اتبع الا ما يوحى الي ثالثها قوله
تعالى وما ينطق عن الهوى واما السنة فمنها ما روي عن محمد بن خزيمة انه
انه سئل عن هذه القصة فقال هذا من وضع الزنادقة وصنف فيها
كتابا وقال البيهقي هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل فقد روى
البخاري في صحيحه انه صلى الله عليه وسلم قرا سورة والنجم وسجد فيها
وسجد المسلمون والكفار والانس والجن وليس فيه حديث الغرانيق
واما المعقول فمن وجوه احدها ان من جوز على النبي صلى الله عليه صلى الله

عليه وسلم لتعظيم الاوثان فقد كفر لان من المعلوم بالضرورة ان من معظم سعيه كان في نفي
الاوثان ثانيها قوله فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله اياته وازالة ما يلقيه
الشيطان عن الرسول صلى الله عليه وسلم اقوى من نسخ هذه الايات التي تنفي الشبهة
معها فاذا اراد الله تعالى احكام الايات لئلا يلتبس ما ليس بقران قرانا فبان يمنع
الشيطان من ذلك اصلا اولى ثالثها وهو اقوى الوجوه لو جوزنا ذلك ارتفع
الامان عن شرعه وجوزنا في كل واحد من الاحكام والشرايع ان يكون ذلك
فيبطل قوله تعالى بلغ ما انزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته
والله يعصمك من الناس فانه لا فرق في العقل بين النقصان عن الوحي
وبين الزيادة فيه وزاد الرازي ادلة اخرى على ذلك ثم قال وقد عرفنا
ان هذه القصة موضوعة اكثر ما في الباب ان جمعا من المفسرين ذكروها
وخبر الواحد لا يعارض الدلايل العقلية والنقلية المتواترة انتهى وهذا هو
الذي يطمئن اليه القلب وان اطنب ابن حجر العسقلاني في تصحيحها ثم قال
وحينئذ فيتعين تاويل ما وقع فيها مما يستنكر وهو قوله القى الشيطان على
لسانه تلك الغرانيق الخ او وعلى القول بها فقد سلك العلماء في ذلك
مسالك احسنها ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يرتل القران فارتصد
الشيطان في سكتة من السكتات ونطق بتلك الكلمات محاكيا
نغمته بحيث يسمعه من دنا اليه فظنها من قوله واشاعها وقال
البيضاوي بعد ان ذكر هذه القصة وهو مردود عند المحققين وان صح
فابتلاء يتميز به الثابت على الايمان عن المتزلزل فيه قال ابن الاثير
والغرانيق هي الاصنام وهي في الاصل الذكور من طير الماء واحدها غرنيق
وغرنوق سمي به لبياضه قالوا وكانوا يزعمون ان الاصنام تقربهم من الله
وتشفع لهم فشبهت بالطيور التي تعلو الى السماء وترتفع وقيل تمنى قراءة
كقول حسان في قول عثمان بن عفان

تمنى كتاب الله اول ليلة * تمني داود الزبور على رسل

اي على تان وتمهل ولما ذكر سبحانه وتعالى ما حكم به من تمكين الشيطان
من هذا الالقاء ذكر العلة في ذلك بقوله تعالى ليجعل ما يلقي الشيطان
اي في المتلو والمحدث به من تلك الشبه في قلوب اوليايه على التفسير
الاول وعلى الثاني وغيره يؤول بما يليق به فتنة اي اختبارا وامتحانا
للذين في قلوبهم مرض اي شك ونفاق والقاسية ٣/ اي جلاف
لكونهم في شقاق غير مستوفي صوب لله بمعاجزتهم في الايات بتلك الشبهة التي
تلقفوها من الشيطان وجادلوا بها اولياء الرحمن بعيد عن الصواب ولتصغى
اليه افئدة الذين لا يؤمنون بالاخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون
وعلى ثبوت ذكر القصة وجرى عليه الجلال المحلي قال انهم في ضلال فطويل

اي الجافية قلوبهم عن قبول الحق [illegible] وان الظالمين [illegible] لفي شقاق بعيد

مع

مع النبي والمومنين حيث جرى على لسانه ذكر الهتهم بما يرضيهم ثم ابطل
ذلك وليعلم الذين اوتوا العلم باتقان حججه واحكام براهينه وضعف
شبه المعاجزين انه اي النبي الذي تلوته او تحدثت به الحق اي الثابت
الذي لا يمكن زواله من ربك اي المحسن اليك بتعليمك اياه فيؤمنوا به
لما ظهر لهم من صحته بما ظهر من ضعف تلك الشبهة فتخبت اي تطمئن
وتخضع له قلوبهم وتسكن به نفوسهم وان الله بجلاله وعظمته
لهادي الذين امنوا في جميع ما يلقيه اولياء الشيطان الى صراط مستقيم اي
قويم وهو الاسلام يصلون به الى معرفة بطلانه حتى لا تلحقهم حيرة
ولا يعتريهم شبهة فيوصلهم ذلك الى سعادة الدارين ولا يزال الذين كفروا
اي وجد منهم الكفر وطبعوا عليه في مرية اي شك منه قال ابن جريج
اي من القران وقيل مما القى الشيطان على رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقولون فما باله ذكرها بخير ثم ارتد عنها وقيل من الدين وهو الصراط المستقيم
حتى تاتيهم الساعة اي القيامة وقيل اشراطها وقيل الموت بغتة اي فجاة
او ياتيهم عذاب يوم عقيم قال عكرمة والضحاك لا ليل له وهو يوم القيامة
والاكثرون على انه يوم بدر وسمي يوما عقيما لانه لم يكن في ذلك للكفار
خير كالريح العقيم التي لا تاتي بخير وقيل انه لا مثل له في عظم امره لقتال الملا بكة
فيه ويقوي التفسير الاول قوله تعالى الملك يومئذ اي يوم القيامة لله اي
المحيط بجميع صفات الكمال وحده ولما كان كانه قيل ما معنى اختصاصه به
وكل الايام له قيل يحكم بينهم اي المومنين والكافرين بالامر الفصل الذي
لا حكم فيه ظاهرا ولا باطنا لغيره كما يرونه الان بل يمشي فيه الامر على اتم قوانين
العدل فالذين امنوا وعملوا اي وصدقوا دعواهم الايمان بان عملوا
الصالحات وهي ما امرهم الله به في جنات النعيم فضلا منه ورحمة لهم
بما رحمهم الله تعالى من توفيقهم للاعمال الصالحة والذين كفروا اي ستروا
ما اعطيناهم من المعرفة بالادلة على وحدانيتنا وكذبوا باياتنا اي ساعين
بما اعطيناهم من الفهم في تعجيزها بالمجادلة بما يوحي اليهم اولياؤهم
من الشياطين من الشبه فاولئك البعداء عن اسباب الكرم لهم عذاب مهين
اي شديد بسبب ما سعوا في اهانة اياتنا مريدين من اعزاز انفسهم
بمغالبتنا والتكبر عن اياتنا فان قيل لم ادخل الفاء في خبر الثاني دون الاول
اجيب بان في ذلك تنبيها على ان اثابة المومنين بالجنة تفضل من الله تعالى وان عقاب
الكافرين مسبب عن اعمالهم ولذلك قال لهم عذاب ولم يقل هم في عذاب ولما كان المومنون
في حصر مع الكفار رغبهم الله تعالى في الهجرة بقوله تعالى والذين هاجروا في سبيل الله اي
فارقوا اوطانهم وعشايرهم في طاعة الله وطلب رضاه من مكة الى المدينة ثم
قتلوا في الجهاد بعد الهجرة وقرا ابن عامر بالتشديد بالتاء والباقون بالتخفيف

والحق به مطلق الموت فضلا منه بقوله تعالى او ماتوا اي من غير قتل ليرزقنهم الله
اي الجامع لصفات الكمال رزقا حسنا هو رزق الجنة من غير تفارق ارواحهم
اشباحهم لانهم احياء عند ربهم وان الله اي الملك الاعلى القادر على الاحياء
كما قدر على الاماتة لهو خير الرازقين فانه يرزق بغير حساب يرزق
الخلق عامة البر منهم والفاجر فان قيل الرازق في الحقيقة هو الله تعالى
لا رازق للخلق غيره فكيف قال لهو خير الرازقين اجيب بان غير الله يسمى
رازقا على المجاز كقولهم رزق السلطان الجيش اي اعطاهم ارزاقهم
وان كان الرازق في الحقيقة هو الله تعالى ولما كان الرزق لا يتم الا بحسن الدار
وكان ذلك من افضل الرزق قال تعالى دالا على ختام التي قبل ليدخلنهم
مدخلا يرضونه هو الجنة يكرمون به بما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر
على قلب بشر ولا ينالهم فيها مكروه وقيل هو خيمة في الجنة من درة بيضاء
لها سبعون الف مصراع وقرأ نافع بفتح الميم اي دخولا ومكان دخول والباقون
بالضم اي ادخالا ومكان ادخال وان الله اي الذي عمت رحمته وتمت
عظمته لعليم اي بمقاصدهم وما عملوا بما يرضيه وغيره حليم عما
قصروا فيه من طاعته وما فرطوا في جنبه تعالى فلا يعاجل احدا بالعقوبة
روي ان طوائف من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا يا نبي الله
هؤلاء الذين قتلوا قد علمنا ما اعطاهم الله تعالى من الخير ونحن نجاهد
معك كما جاهدوا فما لنا ان متنا معك فانزل الله تعالى هاتين الآيتين
ذلك اي الامر المقدر من صفات الله تعالى الذي قصصناه عليك ذلك
ومن عاقب اي جازى من المؤمنين بمثل ما عوقب به ظلما من المشركين
اي قتلهم كما قاتلوه في الشهر الحرام ثم بغي عليه اي ظلم باخراجه من
منزله قال مقاتل نزلت في قوم من المشركين اتوا قوما من المسلمين
لليلتين بقيتا من محرم فقال بعضهم لبعض ان اصحاب محمد يكرهون
القتال في الشهر الحرام فاحملوا عليهم فناشدهم المسلمون وكرهوا
قتالهم وسألوهم ان يكفوا عن القتال لاجل الشهر الحرام فأبى المشركون
فقاتلوهم فذلك بغيهم عليهم وثبت المسلمون لهم فنصرهم الله تعالى
عليهم فذلك قوله لينصرنه الله اي الذي لا كفؤ له ان الله اي الذي
احاط بكل شيء قدرة وعلما لعفو عن المؤمنين غفور لهم فان قيل لم سمي
ابتداء فعلهم عقوبة مع ان العقاب من العقب وقيل هو منتف في الابتداء
اجيب بانه اطلق عليه ذلك للتعلق الذي بينه وبين الثاني
كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها يخادعون الله وهو خادعهم وكما
في قولهم كما تدين تدان فان قيل كيف طابق ذكر العفو الغفور هذا الموضع
مع ان ذلك الفعل جائز للمؤمنين لانهم مظلومون اجيب بان المنتصر

لما اتبع

لما اتبع هواه في الانتقام واعرض عما ندب الله تعالى له بقوله تعالى ولمن صبر وغفر
ان ذلك لمن عزم الامور وبقوله تعالى فمن عفا واصلح فاجره على الله وبقوله تعالى وان
تعفوا اقرب للتقوى فكان في اعراضه عما ندب اليه نوع اساءة فكانه تعالى قال
عفوت عن هذه الاساءة وغفرتها له فاني انا الذي اذنت له فيها وفي ذكر العفو
تنبيه على انه تعالى قادر على العقوبة اذ لا يوصف بالعفو الا القادر على ضده
ذلك اي النصر بان الله اي المتصف بجميع صفات الكمال يولج اي يدخل لاجل
مصالح العباد المسيء والمحسن الليل في النهار فيمحو ظلامه بضيائه ولو شاء
الله تعالى مؤاخذة الناس لجعله سرمدا فتعطلت مصالح النهار وبان يدخل كلا
منهما ويولج النهار في الليل فيمحو ضياءه بظلامه ولولا ذلك لتعطلت
مصالح الليل او بان يدخل كلا منهما في الآخر بان يزيد فيه وذلك من اثر قدرته
التي بها النصر وان الله بجلاله وعظمته سميع لكل ما يقال بصير بكل
ما يفعل دائم الاتصاف بذلك فهو غير محتاج الى سكون الليل ليسمع ولا الضياء
النهار ليبصر لانه سبحانه وتعالى منزه عن الاعراض ولما وصف سبحانه وتعالى نفسه
بما ليس لغيره علله بقوله تعالى ذلك اي الاتصاف بتمام القدرة وشمول
العلم بان الله اي القادر على كل ما اراده هو وحده الحق اي الثابت الواجب
الوجود وان ما يدعون اي يعبد المشركون من دونه وهو الاصنام
هو الباطل الزائل وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وشعبة بالتاء على الخطاب
للمشركين والباقون بالياء على الغيبة وان ذلك مقطوعة من ما في الرسم وان
الله لكونه هو الحق الذي لا كفؤ له هو وحده العلي اي العالي عن كل شيء
بقدرته الكبير وكل ما سواه سافل حقير تحت قهره وامره ثم انه سبحانه
وتعالى استدل على كمال قدرته بامور ستة الاول قوله تعالى الم تر اي
ايها المخاطب ان الله اي المحيط قدرة وعلما انزل من السماء ماء اي مطرا
بان يرسل رياحا فتثير سحابا فتمطر على الارض الملساء فتصبح الارض اي
بعد ان كانت مسودة يابسة جامدة ميتة مخضرة حية يانعة مهتزة
نامية بما فيها رزقا للعباد وعمارة البلاد فان قيل لم قال تعالى فتصبح ولم
يقل فاصبحت اجيب بان ذلك لنكتة وهي افادة بقاء المطر عاما بعد
زمان كما يقول انعم علي فلان عام كذا فاروح واغدو شاكرا له ولو قلت
رحت وغدوت شاكرا له لم يقع ذلك الموقع فان قيل لم رفع ولم ينصب
جوابا للاستفهام اجيب بانه لو نصب لاعطى عكس ما هو الغرض
لان معناه انتفاء الاخضرار ووجه ذلك بان النصب بتقدير ان وهو
علم للاستقبال فيجعل الفعل منتفيا والرفع جزم باثباته ومثاله ان تقول
لصاحبك الم تر اني انعمت عليك فلم تشكر فان نصبته فانت ناف لشكره
شاك تفريطه فيه وان رفعته فانت مثبت لشكره وهذا وامثاله

مما يجب ان يرغب له من اتسم بالعلم في علم الاعراب و توفر اهله ان الله اي
الذي له تمام النعم وكمال العلم لطيف بعباده في اخراج النبات بالماء خبير اي
بمصالح الخلق ومنافعهم فانه مطلع على السرائر وان دقت فلا يستبعد عليه
احياء من اراد بعد موته وقال ابن عباس لطيف بارزاق عباده خبير بما
في قلوبهم من القنوط الامر الثاني قوله تعالى له ما اي ايها المخاطب في
السموات اي التي انزل منها الماء وما في الارض اي التي استقر فيها ملكا
وخلقا وان الله اي الذي له الاحاطة التامة لهو اي وحده الغني في ذاته
عن كل شيء الحميد اي المستوجب للحمد بصفاته وافعاله الامر الثالث
قوله تعالى الم تر اي ايها المخاطب ان الله ذي الجلال والاكرام سخر لكم
فضلا منه ما في الارض كله من مسالكها وفجاجها وما فيها من حيوان وجماد
وزرع وثمار فلولا تسخيره تعالى الابل والبقر مع قوتهما حتى ذللهما للضعيف
من الناس لما انتفع بها احد منهم الامر الرابع قوله تعالى والفلك اي وسخر
لكم الفلك السفن ثم بين تسخيرها بقوله تجري في البحر اي العجاج المتلاطم
بالامواج بريح طيبة للركوب والحمل بامره اي باذنه الامر الخامس قوله
تعالى ويمسك السماء اي كراهة ان تقع على الارض التي تحتها مع علوها
وعظمها وكونها بغير عمد فيهلكوا الا باذنه اي بمشيئته فيقع ذلك يوم
القيامة حين يريد طي هذا العالم وايجاد عالم البقاء ان الله اي الذي له
الخلق والامر بالناس على ظلمهم لرؤوف اي بما يحفظ من سرائرهم
رحيم اي حيث هيأ لهم اسباب الاستدلال وفتح لهم ابواب المنافع
ودفع عنهم ابواب المضار وهو اي وحده الذي احياكم اي عن الجمادية
بعد ان اوجدكم من العدم ثم يميتكم اي عند انقضاء آجالكم لكون
الموت واعظا لاولي الابصار منكم ثم يحييكم اي يوم البعث للثواب
والعقاب واظهار العدل في الجزاء ان الانسان اي المشرك لكفور
اي لبليغ الكفر حيث لم يشكر على هذه النعم المحيطة به فيوحد الله وقال
ابن عباس هو الاسود بن عبد الاسد وابو جهل والعاص وابي بن خلف قال
الرازي والاولى تعميمه في كل المنكرين لكل امة اي في كل زمان جعلنا
منسكا قال ابن عباس شريعة اي متعبدا هم ناسكوه اي عاملون
بها وروي عنه انه قال عيدا وقال مجاهد وقتادة موضع قربان يذبحون
فيه وقيل موضع عبادة وقرا حمزة والكسائي منسكا بكسر السين
والباقون بفتحها فلا ينازعنك في الامر اي امر الذبائح نزلت في بديل بن ورقاء
وبشر بن سفيان ويزيد بن خنيس قالوا لاصحاب النبي صلى الله عليه
وسلم ما لكم تاكلون مما تقتلون ولا تاكلون مما قتله الله يعنون الميتة
وقال الزجاج هو نهي له صلى الله عليه وسلم عن منازعتهم كما تقول

لعل الامر السادس قوله وهو الذي احياكم

يضاربك

يضاربك فلان فلا تضاربه وهذا جائز في الفعل الذي لا يكون الا بين اثنين
معناه لا تنازعهم انت وادع اي واوقع الدعوة لجميع الخلق الى ربك المحسن
اليك اي الى دينه ثم علل ذلك بقوله انك مؤكدا له لجحد ما عندهم من الانكار
لعلى هدى اي دين واضح مستقيم هو دين الاسلام وان جادلوك اي في
امر الدين بعد ان ظهر الحق ولزمتهم الحجة فقل الله اي الملك المحيط بالعز
والعلم اعلم بما تعملون من المجادلة الباطلة وغيرها فيجازيكم عليه وعلى
هذا وعيد فيه رفق وكان ذلك قبل الامر بالقتال ولما امر الله تعالى بالاعراض
عنهم وكان ذلك شديدا على النفس لتشوقها الى النصرة رجاه في ذلك
بقوله تعالى مسليا فاتحا بذكر الاسم الله اي الذي لا كفو له يحكم بينكم اي
بينك مع اتباعك وبينهم يوم القيامة الذي هو يوم التغابن فيما كنتم فيه
تختلفون في امر الدين ومن نصر ذلك اليوم لم يبال بما حصل به قوله وسيعلم
الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون قال البغوي والاختلاف ذهاب كل
واحد من الخصمين الى خلاف ما ذهب اليه الاخر الم تعلم ان الله بجلال عزه
وعظيم سلطانه يعلم ما في السماء والارض فلا يخفى عليه شيء ان ذلك اي ما ذكر
في كتاب كتب فيه كل شيء حكم بوقوعه قبل وقوعه وكتب جزاءه وهو اللوح
المحفوظ ان ذلك اي علم ما ذكر على الله وحده يسير اي سهل لان علمه
مقتضى ذاته المتعلق بكل المعلومات على السواء ويعبدون اي المشركون
على سبيل التجديد والاستمرار من دون الله اي من ادنى رتبة من رتبته الذي
قامت به جميع الدلائل على احتوائه على جميع صفات الكمال وتنزهه عن
شوائب النقص وهو الاصنام ما لم ينزل به سلطانا اي حجة واحدة من حجج
وما ليس لهم به علم حصل لهم من ضرورة العقل واستدلاله انها الحجة
وما للظالمين اي الذين وضعوا التعبد في غير موضعه لارتكابهم هذا الامر
العظيم الخطر واكد النفي واستغرق المنفي باثبات الجار فقال تعالى من نصير
اي ينصرهم من الله لا مما اشركوه به ولا من غيره فيدفع عنهم عذابه او يقرر
مذهبهم واذا تتلى اي على سبيل التجديد والمبالغة من اي تال كان عليهم
آياتنا اي من القرآن حال كونها بينات لا خفاء فيها عند من له بصيرة
مما دعت اليه من الاصول والفروع تعرف في وجوه الذين كفروا اي تلبسوا
بالكفر المنكر اي الانكار الذي هو منكر في نفسه فيظهر اثره في وجوههم
من الكراهة والعبوس لما حصل لهم من الغيظ ثم بين ما لاح في وجوههم بقوله
تعالى يكادون يسطون اي يوقعون السطوة بالبطش والعنف بالذين يتلون
عليهم آياتنا اي الدالة على اسمائنا الحسنى وصفاتنا العليا القاضية بوحدانيتنا نيتنا
مع كونها بينات في غاية الوضوح في انها كلام ما فيها من الحكم والبلاغة التي عجزوا
عنها ثم امر الله رسوله صلى الله عليه وسلم ان ينبئهم بالوعيد بقوله تعالى

قل أفأنبئكم اي فاخبركم خبرا اعظمها بشر من ذلكم اي باكره اليكم من القرآن
المتلو عليكم وقوله تعالى النار كانه جواب سائل قال ما هو فقيل النار
اي هو النار ويجوز ان يكون مبتدأ خبره وعدها الله الذين كفروا جزاء لهم
فبئس الموعد هي وبئس المصير اي النار ولما بين تعالى انه لا حجة لعابد غيره
اتبعه بان الحجة قائمة على ان ذلك الغير في غاية الحقارة فقال تعالى مناديا
اهل العقل منها عاما يا ايها الناس ضرب مثل اي حاصله بان من عبدتموه من الاصنام
احقر منكم فاستمعوا له اي انصتوا له وتدبروه ثم فسره بقوله تعالى
ان الذين تدعون اي تعبدون وتدعونهم في حوائجكم وتجعلونهم الهة من
دون الله اي الملك الاعلى من هذه الاصنام التي انتم بها مغترون لن
يخلقوا ذبابا اي لا قدرة لهم على ذلك في زمن من الازمان على حال من الاحوال
مع صغره فكيف بما هو اكبر منه ولو اجتمعوا اي الذين زعمتموهم شركاء له اي الخلق
فهم فهنا امثالكم تنبيه محل ولو اجتمعوا له النصب على الحال
كانه قال تعالى يستحيل ان يخلقوا الذباب مشروطا عليهم اجتماعهم
لخلقه وتعاونهم عليه وهذا من ابلغ ما انزل الله تعالى في تجهيل قريش واستركاك
عقولهم والشهادة على ان الشيطان قد خزمهم بخزائمه حيث وصفوا بالالهية
التي تقتضي الاقتدار على المقدورات كلها والاحاطة بالمعلومات كلها ما نمن
اخرها صورا وتماثيل يستحيل منها ان يقدر على اقل ما خلقه الله تعالى واذله
واصغره واحقره ولو اجتمعوا له وتساندوا وادل من ذلك على عجزهم وانتفاء
قدرتهم ان هذا الخلق الاذل لو اختطف منهم شيئا فاجتمعوا على ان
يستخلصوه منه لم يقدروا كما قال تعالى وان يسلبهم الذباب اي الذي
تقدم انهم لا قدرة لهم على خلقه وهو غاية الحقارة شيئا اي من الاشياء
جل او قل لا يستنقذوه منه لعجزهم فكيف يعبدون شركاء لله هذا الامر مستقر
عجزه بضرب مثل تنبيه الذباب مفرد وجمعه القليل والكثير ذباب
مثل غراب واغربة وغربان وعن ابن عباس انهم كانوا يطلون الاصنام بالزعفران
ورؤوسها بالعسل ويغلقون عليها الابواب فيدخل الذباب من الكوى فياكله
وعن ابن زيد كانوا يحلون الاصنام باليواقيت واللآلي وانواع الجواهر
ويطيبونها بالوان الطيب فربما يسقط شيء منها فياخذه طائر او ذباب فلا تقدر
الالهة على استرداده ضعف الطالب قال الضحاك هو العابد والمطلوب
المعبود وقال ابن عباس الطالب الذباب والمطلوب هو الصنم وقيل
على العكس الطالب الصنم والمطلوب الذباب اي طلب الصنم ان يخلق الذباب
لعجز عنه ولما انتج هذا جهلهم بالله عبر عنه بقوله تعالى والمطلوب اي الذي
له الكمال كله ما قدروا الله اي ما عظموه حق تعظيمه وما عرفوه حق معرفته
ولا وصفوه حق وصفه حيث اشركوا به ما لا يمتنع من الذباب

ولا ينتصف منه ان الله اي الجامع لصفات الكمال لقوي على خلق الممكنات باسرها
عزيز اي لا يغلبه شيء والهتهم التي يعبدونها عاجزة عن اقلها مقهورة
مرادها قال الكلبي في هذه الاية وفي نظائرها في سورة الانعام انها
نزلت في جماعة من اليهود مالك بن الصيف وكعب بن الاشرف وكعب بن اسد وغيرهم
حيث قالوا ان الله تعالى لما فرغ من خلق السموات والارض واجناس خلقها استلقى
واستراح ووضع احدى رجليه على الاخرى فنزلت هذه الاية تكذيبا لهم
ونزل قوله تعالى وما مسنا من لغوب قال الرازي واعلم ان منشأ هذه
الشبهات هو القول بالتشبيه فيجب تنزيه ذات الله عن مشابهة سائر
الذوات خلاف ما يقوله المشبهة وتنزيه صفاته عن مشابهة سائر الصفات
خلاف ما يقوله الكرامية وتنزيه افعاله عن مشابهة سائر الافعال
اعني في الغرض والداعي واستحقاق المدح والذم خلاف ما يقوله المعتزلة قال
ابو القاسم الانصاري رحمه الله تعالى فهو سبحانه وتعالى جبار النعت عزيز
الوصف فالاوهام لا تصوره والافكار لا تقدره والعقول لا تمثله والازمنة
لا تدركه والجهات لا تحويه ولا تحده صمدي الذات سرمدي الصفات
ولما ذكر سبحانه وتعالى بالالهيات ذكر ما يتعلق بالنبوات بقوله تعالى الله اي
الملك الاعلى يصطفي اي يختار ويخلص من الملائكة رسلا كجبرائيل وميكائيل
واسرافيل وعزرائيل عليهم السلام ومن الناس كابراهيم وموسى وعيسى
ومحمد صلى الله عليه وسلم عليهم نزلت حين قال المشركون أأنزل عليه الذكر
من بيننا فاخبر تعالى ان الاختيار اليه يختار من يشاء من خلقه ان الله اي
الذي له الجلال والجمال سميع لمقالتهم بصير بمن يتخذه رسولا يعلم
ما بين ايديهم اي الرسل وما خلفهم اي علمه محيط بما هم مطلعون عليه
وبما غاب عنهم فلا يفعلون شيئا الا باذنه والى الله اي وحده ترجع بغاية
السهولة الامور يوم يتجلى لفصل القضاء فيكون امره ظاهرا لا خفاء فيه ولا يصدر
شيء من الاشياء الا على وجه العدل الظاهر لكل احد ولا يكون لاحد التفات الى
غيره وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي بفتح التاء وكسر الجيم والباقون بضم التاء وكسر
الجيم والباقون بضم التاء وفتح الجيم ولما اثبت سبحانه وتعالى ان الملك والامر
له وحده خاطب المقبلين على دينه وهم الخلص من الناس بقوله تعالى يا ايها
الذين آمنوا اي تلبسوا بالايمان اركعوا تصديقا لايمانكم واسجدوا اي صلوا
الصلاة التي شرعتها لكم فانها راس العبادة ليكون دليلا على صدقكم في
الاقرار بالايمان تنبيه انما خص هذين الركنين في التعبير عن الصلاة
لانهما لمخالفتهما الهيئات المعتادة هما الدالان على الخضوع فحسن التعبير
بهما وذكر عن ابن عباس ان الناس كانوا في اول الاسلام يركعون ولا يسجدون
وقيل كان الناس اول ما اسلموا يسجدون بلا ركوع ويركعون بلا سجود

ربكم اي المحسن اليكم بكل نعمة دينية ودنيوية وما ترغبون من العبادة صح

حتى نزلت هذه الاية ولما خص افضل العبادة عمم بقوله تعالى واعبدوا اي بانواع
العبادة ايتها ماقد تكون اعم منها ماصورته صورتها او قد تكون بدنية فقال
وافعلوا الخير اي كله من القرب كصلة الارحام وعيادة المريض ونحو ذلك
من معالي الاخلاق بنية وبغير نية حتى يكون ذلك لكم عادة فيخف عليكم
عمله لله تعالى قال ابو حيان بدا تعالى بخاص اي وهو الصلاة ثم بعام
وهو واعبدوا ربكم ثم باعم وهو وافعلوا الخير لعلكم تفلحون اي افعلوا هذا
كله وانتم راجون الفلاح وهو الفوز بالبقاء في الجنة طامعون فيه مستيقنين
ولا تتكلوا على اعمالكم وقال الامام ابو القاسم الانصاري لعل كلمة الترجي
تشعر بان الانسان قل ما يخلو في اداء فريضة من تقصير وليس هو على يقين
من ان الذي اتى به هو مقبول عند الله والعواقب ايضا مستورة وكل ميسر
لما خلق له تنبيه اختلف في سجود التلاوة عند قراءة هذه الاية
فذهب قوم الى انه يسجد عندها وهو عمر وعلي وابن عمر وابن مسعود
وابن عباس وبه قال ابن المبارك والشافعي واسحاق واحمد لظاهر
ما فيها من الامر بالسجود وقول البيضاوي ولقوله صلى الله عليه وسلم
فضلت سورة الحج بسجدتين من لم يسجدهما فلا يقراها حديث ضعيف
رواه الترمذي وضعفه وذهب قوم الى انه لا يسجد وهو قول سفيان
الثوري وقول ابي حنيفة واصحابه لانهم يقولون قرن الركوع بالسجود
في ذلك فدل ذلك على انها سجدة صلاة لا سجدة تلاوة ولما كان
الجهاد اساس العبادة وهو مع كونه حقيقة في جهاد الكفار صالح لان
يعم كل امر بمعروف ونهي عن منكر باليد والنفس بالقول والفعل
بالسيف وغيره وكل اجتهاد في تهذيب النفس واخلاص العمل ختم
به فقال تعالى وجاهدوا في الله اي لله ومن اجل اعدا دينه الظاهرة كاهل
الزيغ والباطنة كالهوى والنفس قول البيضاوي وعنه عليه الصلاة
والسلام انه رجع من غزوة تبوك فقال رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر
حديث رواه البيهقي وضعف اسناده وقال غيره لا اصل له قيل اراد بالاصغر
جهاد الكفار وبالاكبر جهاد النفس حق جهاده اي باستفراغ الطاقة
في كل ما امر به من جهاد العدو والنفس على الوجه الذي امر به من الحج والغزو
وغيرهما فان قيل ما وجه هذه الاضافة وكان الظاهر حق الجهاد في الله او
حق جهادكم في الله كما قال تعالى وجاهدوا في الله اجيب بان الاضافة تكون
بادنى ملابسة واختصاص فلما كان الجهاد مختصا بالله من حيث انه مفعول لاجله
ومن اجله صحت اضافته اليه وعن مجاهد عن الكلبي ان هذه الاية منسوخة
بقوله تعالى فاتقوا الله ما استطعتم ولما امر الله تعالى بهذه الاوامر انتهى بما يبعث
ما يجب تركه وهو كالتعليل لما قبله فقال تعالى هو اجتباكم اي اختاركم لدينه

ولنصرته وجعل الرسالة فيكم والرسول منكم وجعله اشرف الرسل وجعل دينه اكرم
الاديان وكتابه اعظم الكتب وجعلكم لكونكم اتباعه خير الامم وما جعل عليكم
في الدين اي الذي اختاره لكم من حرج اي ضيق وشدة وتوان المؤمن لا يبتلى
بشيء من الذنوب لا جعل الله له منه مخرجا بعضها بالتوبة وبعضها برد المظالم
والقصاص وبعضها بانواع الكفارات من الامراض والمصائب وغير ذلك فليس
في دين الاسلام ما لا يجد العبد سبيلا الى الخلاص من الذنوب ومن العقاب
لو فرض وسهله عند الضرورات كالقصر والتيمم واكل الميتة والفطر للمرض
والسفر وغير ذلك قال صلى الله عليه وسلم اذا امرتكم بامر فاتوا منه
ما استطعتم رواه البخاري وعن ابن عباس انه قال الحرج ما كان على بني اسرائيل
من الاصار التي كانت عليهم وضعها الله تعالى عن هذه الامة وقوله تعالى
ملة ابيكم منصوب بنزع الخافض الكاف او على المصدر بفعل دل عليه مضمون
ما قبله بحذف المضاف اي وسع دينكم توسعة ملة ابيكم او الاغراء اي
اتبعوا ملة ابيكم او على الاختصاص اي اعني بالدين ملة ابيكم كقولك
الحمد لله الحميد وقوله تعالى ابراهيم عطف بيان فان قيل لم يكن ابراهيم
ابا للامة كلها اجيب بانه ابو رسول الله صلى الله عليه وسلم
وكان ابا لامته لان امة الرسول في حكم اولاده واختلف في عود ضمير
هو على قولين احدهما انه يعود على ابراهيم عليه السلام وان لكل نبي دعوة مستجابة
ودعوة ابراهيم عليه السلام ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا امة مسلمة لك
فاستجاب الله تعالى له فجعلها محمدا صلى الله عليه وسلم وامته والثاني انه
يعود الى الله في قوله تعالى هو اجتباكم وروى عطا عن ابن عباس انه قال ان الله
تعالى سماكم المسلمين من قبل اي في كل الكتب المنزلة التي نزلت
قبل انزال هذا القران وفي هذا اي وسماكم في هذا القران الذي انزل
عليكم من بعد انزال تلك الكتب وهذا القول كما قال الرازي اقرب لان الله تعالى
قال ليكون الرسول شهيدا عليكم اي يوم القيامة انه بلغكم وتكونوا شهداء
على الناس اي ان رسلهم بلغتهم فبين الله تعالى سماهم بذلك لهذا الغرض وهذا
لا يليق الا بالله تعالى وانما كانوا شهداء لسائر الانبياء لانهم لم يفرقوا بين احد
منهم وعلموا ان اخبارهم من كتابهم على لسان نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم
فلذلك صحت شهادتهم وقبلها الحاكم العدل وعن كعب اعطيت هذه الامة
ثلاثا لم يعطهن الا الانبياء جعلهم شهداء على الناس وما جعل عليكم في الدين من حرج
وقال تعالى ادعوني استجب لكم وعن ابي حاتم عن ابن زيد انه قال لم يذكر الله
بالايمان والاسلام غير هذه الامة ذكرهما وكررهما جميعا ولم نسمع بامة ذكرت
بالاسلام والايمان قبلها غيرها وعن مكحول ان النبي صلى الله عليه وسلم قال
تسمى الله عز وجل باسمين سمى بهما امتي هو السلام وسمى امتي المسلمين

هو المومن وسمي امتي المومنين تنبيه في الاية دليل على ان شهادة غير المسلم ليست مقبولة
ولما نديهم تعالى ليكونوا خير الامم تسبب عن ذلك قوله تعالى **فاقيموا الصلوة**
اي التي اركان قلوبكم وصلة ما بينكم وبين ربكم اي داوموا عليها **واتوا الزكوة**
التي هي مطهرة ابدانكم ووصلة بينكم وبين اخوانكم **واعتصموا بالله** اي المحيط في
بجميع الكمال في جميع ما امركم به من المناسك التي تقدمت وغيرها ثم علل ذلك
اهليته بقوله تعالى **هو** اي وحده **مولاكم** اي المتولي لجميع اموركم فهو
ينصركم على كل من يعاديكم بحيث انكم تتمكنوا من اظهار هذا الدين من مناسك الحج
وغيرها ثم علل الامر بالاعتصام وتوحده بالولاية بقوله تعالى **فنعم المولى** اي
هو **ونعم النصير** اي الناصر لكم لانه تعالى اذا تولى احدا كفاه كل ما اهمه واذا
نصر احدا علاه عن كل من خاصمه ولا يزال العبد يتقرب الي بالنوافل حتى احبه
فاذا احببته الحديث انه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت وهذا نتيجة التقوى
وما قبله من افعال الطاعة دليلها فقد انطبق اخر السورة على اولها وارد معظمها
على مطلعها وقول البيضاوي تبعا للزمخشري عن النبي صلى الله عليه وسلم
من قرا سورة الحج اعطي من الاجر كحجة حجها وعمرة اعتمرها بعدد من حج واعتمر فيما
فيما مضى وفيما بقي حديث موضوع

سورة المؤمنون مكية وهي مائة وثماني

او تسع عشرة اية والف وثمانماية واربعون كلمة واربعة الاف وثمانماية حرف
بسم الله الذي له الامر كله **الرحمن** الذي عم انعامه **الرحيم** الذي
خص من اراد بالايمان عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال كان رسول الله
صلى الله عليه وسلم اذا انزل عليه الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل فانزل عليه
يوما فمكث ساعة حتى سري عنه فاستقبل القبلة ورفع يديه فقال اللهم
زدنا ولا تنقصنا واكرمنا ولا تهنا واعطنا ولا تحرمنا واثرنا ولا تؤثر علينا
اللهم ارضنا وارض عنا ثم قال لقد انزل علي عشر ايات من اقامهن دخل الجنة
ثم قرا **قد افلح المومنون** حتى ختم العشر ايات قال ابن عباس قد سعد
المصدقون بالتوحيد وبقوا في الجنة وقيل الفلاح البقا والنجاة روى هذا
الحديث الترمذي وغيره وانكره النسائي وغيره تنبيه قال الزمخشري
قد تقتضيه لما هي تثبت المتوقع ولم تنفيه ولا شك ان المومنين كانوا
متوقعين لمثل هذه البشارة وهي الاخبار بثبات الفلاح لهم فخوطبوا
بما دل على ثبات ما توقعوه فان قيل ما المومن اجيب بانه في اللغة المصدق
واما في الشريعة فقد اختلف فيه على قولين احدهما ان كل من نطق بالشهادتين
مواطيا قلبه ولسانه فهو مومن والاخر انه صفة مدح لا يستحقها الا البر
التقي دون الفاسق ثم انه تعالى حكم بحصول الفلاح لمن كان مستجمعا



لصفات سبعة الصفة الاولى كونهم مومنين الصفة الثانية المذكورة في قوله تعالى
الذين هم اي بضمائرهم وظواهرهم **في صلاتهم خاشعون** قال ابن عباس مخبتون
اذلاء وقيل خائفون وقيل متواضعون وعن قتادة الخشوع الزام موضع السجود
روى الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين انه كان صلى الله عليه وسلم
كان يصلي رافعا بصره الى السماء فلما نزلت هذه الاية رمى ببصره الى نحو مسجده
اي موضع سجوده وكان الرجل اذا قام الى الصلاة هاب الرحمن ان يشد بصره الى
شيء او يحدث بشيء من شان الدنيا وقيل هو جمع الهمة لها والاعراض عما
سواها ومن الخشوع ان يستعمل الادب فيتوقى كف الثوب والعبث بجسده
وثيابه والتشبيك والالتفات والتمطي والتثاوب والتغميض وتغطية الفم
والسدل والفرقعة والاختصار وتقليب الحصى روى الترمذي لكن بسند
ضعيف انه صلى الله عليه وسلم ابصر رجلا يعبث بلحيته في الصلاة فقال
لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه ونظر الحسن الى رجل يعبث بالحصى وهو
يقول اللهم زوجني الحور العين فقال بئس الخاطب انت تخطب وانت تعبث
تنبيه قال كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي الى العقوبة اسرع وعن
معاذ بن جبل من عرف من على يمينه وشماله وهو في الصلاة فلا صلاة له
وقال من لم تنهه الصلاة عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله الا بعدا فينبغي
للشخص ان يحافظ في صلاته ليوقعها على التمام فان بعض العلما اختار عدم
الامامة فقيل له في ذلك فقال اخاف ان تركت الفاتحة ان يعاتبني الشافعي
وان قراتها يعاتبني ابو حنيفة فاخترت عدم الامامة طلبا للخلاص من
هذا الخلاف فان قيل لم اضيفت الصلاة اليهم اجيب بان الصلاة وصلة
بين الله وبين عباده والمصلي هو المنتفع بها وحده وهي عدته وذخيرته فهي
صلاته واما الله تعالى فهو غني متعال عن الحاجة اليها والانتفاع بها الصفة
الثالثة المذكورة في قوله تعالى **والذين هم** اي بضمائرهم التي تتبعها ظواهرهم
عن اللغو قال ابن عباس عن الشرك **معرضون** اي تاركون وقال الحسن
عن المعاصي وقال الزجاج هو كل باطل ولهو وما لا يجمل من القول والفعل
وقيل هو كل ما لا يعني الشخص من قول او فعل وهو ما يستحق ان يسقط
ويلغى فمدحهم الله تعالى بانهم يعرضون عن هذا اللغو والاعراض عنه هو بان لا
يفعله ولا يرضى به ولا يخالط من ياتيه كما قال تعالى واذا مروا باللغو مروا كراما
اي اذا سمعوا الكلام القبيح اكرموا انفسهم عن الدخول فيه الصفة
الرابعة المذكورة في قوله تعالى **والذين هم للزكاة فاعلون**
اي مودون تنبيه الزكاة اسم مشترك بين عين ومعنى فالعين هو القدر
الذي يخرجه المزكي من النصاب الى المستحق والمعنى فعل المزكي الذي هو التزكية
وهو المراد هنا لانه ما من مصدر الا ويعبر عن معناه بالفعل ويقال لمحدثه فاعل

تقول للضارب فاعل الضرب وللقاتل فاعل القتل وللمزكي فاعل التزكية ويجوز
ان يراد بالزكاة العين وتقدير مضاف محذوف وهو الاداء وقيل الزكاة هنا هو
العمل الصالح لان هذه السورة مكية وانما فرضت الزكاة بالمدينة سنة اثنين
من الهجرة قال البقاعي والظاهر ان التي فرضت بالمدينة انها ذات النصب
وان اصل الزكاة كان واجبا بمكة كما قال تعالى في سورة الانعام واتوا حقه
يوم حصاده انتهى الصفة الخامسة المذكورة في قوله تعالى
والذين هم لفروجهم في الجماع ومقدماته حافظون اي دايما لا يتبعونها
شهوتها والفرج اسم لسوأة الرجل والمراة وحفظه التعفف عن الحرام
ثم استثنى من ذلك قوله تعالى الا على ازواجهم اللاتي استحقوا بضاعهن
بعقد النكاح ولعلو الذكر عبر بعلى ونظيره كان زياد على البصرة اي واليا
عليها ومنها قولهم فلانة تحت فلان ومن ثم سميت المراة فراشا وقيل على
بمعنى من وجرى على ذلك البغوي او ما ملكت ايمانهم رقابه من الاما
فان قيل هلا قال تعالى ومن ملكت اجيب بانه انما عبر بما يعبر به لما
مما لا يعقل لنقصهن عن الحراير الناقصات عن الذكور ولانه اجتمع فيها وصفان
احدهما الانوثة وهي مظنة نقصان العقل والاخرى كونها بحيث تباع
وتشترى كسائر السلع قال البغوي والاية في الرجال خاصة لان المراة
لا يجوز لها ان تستمتع بفرج مملوكها فانهم غير ملومين على ذلك اذا كان
على وجه اذن فيه الشرع دون الاتيان في غير المأتي وفي حال الحيض
والنفاس او نحو ذلك كوطء الامة قبل الاستبراء فانه حرام ومن
فعله فانه ملوم فمن ابتغى اي طلب متعديا وراء ذلك العظيم المنفعة
الذي وقع استثناؤه بزنا او لواط او استمناء بيد او بهيمة او غيرها
فاولئك المبعدون من الفلاح هم العادون اي البالغون في تعدي
الحدود عن سعيد بن جبير قال عذب الله تعالى امة كانوا يعبثون
بمذاكيرهم في ايديهم وقيل يحشرون وايديهم حبالى الصفة السادسة
المذكورة في قوله تعالى والذين هم لاماناتهم اي في الفروج وغيرها سواء كانت
بينهم وبين الله كالصلاة والصيام او بينهم وبين الخلق كالودايع والبضايع
او في المعاني الباطنة كالاخلاص والصدق وعهدهم راعون اي حافظون
بالرعاية والقيام والاصلاح والعهد ما عقده الشخص على نفسه فيما يقربه
الى ربه ويقع ايضا على ما امر الله به كقوله تعالى الذين قالوا ان الله عهد
الينا تنبيه يسمى الشيء المؤتمن عليه والمعاهد عليه امانة وعهدا
ومنه قوله تعالى ان الله يامركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها وقال تعالى
وتخونوا اماناتكم وانما يؤدي العيون لا المعاني ويخاف عليه المؤمنين
بالامانة في نفسها وقال ابن كثير لاماناتهم بغير الف بين النون والتاء

على الافراد

على الافراد لامن الالتباس ولانها في الاصل مصدر والباقون بالالف على
الجمع الصفة السابعة المذكورة في قوله تعالى والذين هم على صلواتهم
تهم
اي وصفوا بالخشوع فيها يحافظون اي يواظبون عليها ولا يتركون
شيا من مفروضاتها ولا مسنوناتها يجتهدون في كمالها جهدهم
ويؤدونها في اوقاتها ويقيمون اركانها فان قيل كيف كرر الصلاة اولا
واخرا اجيب بانهما ذكران مختلفان فليس بتكرير وصفوا اولا بالخشوع
في صلاتهم واخرا بالمحافظة عليها وذلك ان لا يسهوا عنها ويؤدونها
في اوقاتها ويقيمون اركانها ويوكلوا انفسهم بالاهتمام بها وبما ينبغي ان
يتم به اوصافها وايضا فقد وحدت اولا ليفاد الخشوع في جنس الصلاة
اي صلاة كانت وجمعت اخرا على غير قراءة حمزة والكسائي فان غيرهما
قرا بالجمع واما هما فقرآ بالافراد لتفاد المحافظة على اعدادها وهي الصلوات
الخمس والسنن المرتبة مع كل صلاة وصلاة الجمعة وصلاة الجنازة
والعيدين والكسوف والاستسقاء والوتر والضحى وصلاة التسبيح
وصلاة الحاجة وغيرها من النوافل ولما ذكر تعالى مجموع هذه الصفات العظيمة
ختم جزاءهم بقوله تعالى اولئك اي البالغون من الاحسان اعلى مكان هم
الوارثون اي المستحقون لهذا الوصف فيرثون منازل اهل الجنة
من الجنة روي عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم ما منكم من احد الا وله منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار
فان مات ودخل النار ورث اهل الجنة منزله وقال مجاهد لكل
واحد منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار فان مات ودخل النار فاما
المؤمن فيبني منزله الذي له في الجنة ويهدم منزله الذي له في النار واما
الكافر فيهدم منزله الذي له في الجنة ويبني منزله الذي له في النار وقال
بعض المفسرين معنى الوراثة هو ان يؤول امرهم الى الجنة وينالوها
كما يؤول امر الميراث الى الوارث الذين يرثون الفردوس وهو اعلى الجنة عن
عبادة بن الصامت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في الجنة مائة
درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والارض والفردوس اعلاها درجة
منها تفجر انهار الجنة الاربعة ومن فوقها يكون عرش الرحمن فاذا سالتم الله
فاسالوه الفردوس اللهم بجاه محمد صلى الله عليه وسلم ان تجعلنا
ووالدينا واحبابنا من اهله هم فيها خالدون اي لا يخرجون منها
ولا يموتون وانث الفردوس بقوله تعالى فيها على تاويل الجنة وهو البستان
الواسع الجامع لاصناف الثمر روي ان الله تعالى بنى جنة الفردوس لبنة
من ذهب ولبنة من فضة وجعل خلالها المسك الاذفر وفي رواية
ولبنة من مسك مذري وغرس فيها من جيد الفاكهة وجيد الريحان

وروي ان الله تعالى خلق ثلاثة اشياء بيده خلق ادم بيده وكتب التوراة بيده
وغرس الفردوس بيده ثم قال وعزتي لا يدخلها مدمن خمر ولا ديوث
والمراد ان الله تعالى لم يكل ذلك الى غيره من ملك من الملائكة والجنة مخلوقة
الآن قال تعالى اعدت للمتقين ولما امر بجنته وتعلق بالعبادات
في هذه الايات والاشتغال بعبادة الله لا يصح الا بعد معرفة الله تعالى
عقبها بذكر ما يدل على وجوده واتصافه بصفات الجلال والوحدانية
فذكر من الدلائل انواعا الاول الاستدلال بتقليب الانسان في ادوار
الخلقة وادوار الفطرة وهي تسعة مراتب الاولى قوله تعالى ولقد
خلقنا الانسان اي ادم من سلالة من سللت الشيء من الشيء اي
استخرجته منه وهو خلاصته وقال ابن عباس السلالة صفوة
الماء وقوله تعالى من طين متعلق بسلالة وقيل المراد بالانسان
هذا النوع والسلالة قال مجاهد من بني ادم وقال عكرمة هو الماء
يسيل من الظهر والعرب تسمي النطفة سلالة والولد سليلا
وسلالة لانهما مسلولان منه المرتبة الثانية قوله تعالى ثم جعلناه
اي نسله بحذف المضاف نطفة اي منيا من الصلب والترائب بان
بان خلقناه منهما في قرار مكين اي مستقر حصين هو الرحم نعته مكين
في الاصل صفة للمستقر في الرحم وصف به المحل للمبالغة كما عبر عنه بالقرار
المرتبة الثالثة قوله تعالى ثم اي بعد تراخ في الزمان وعلو في الرتبة والعظمة
خلقنا اي بما لنا من العظمة النطفة اي البيضاء جدا علقة حمراء دما
غليظا اشد بياض الحمرة جامدا غليظا المرتبة الرابعة فخلقنا اي بما لنا
من القوة والقدرة العظيمة العلقة مضغة اي لحمة قدر ما يمضغ
لا شكل فيها ولا تخطيط المرتبة الخامسة قوله تعالى فخلقنا المضغة
اي بتقليبها بما شئنا لها من الحرارة والامور اللطيفة الغامضة
عظاما من راس ورجلين وما بينهما المرتبة السادسة قوله تعالى فكسونا
بما لنا من قوة الاختراع تلك العظام لحما مما ولدنا منها ترجيعا لحالها
قبل كونها عظاما فسترنا تلك العظام وقويناها وشددناها بالروابط
والاعصاب وقرا ابن عامر وابو بكر عظما والعظم بفتح العين واسكان
الظاء من غير الف على التوحيد اكتفاء باسم الجنس عن الجمع والباقون بكسر
العين وفتح الظاء والف بعدها على الجمع قال الجلال المحلي وخلقنا في المواضع
الثلاثة بمعنى صيرنا المرتبة السابعة قوله تعالى ثم انشاناه اي
هذا المحدث عند بعضنا خلقا اخر اي خلقا مباينا للخلق الاول
مباينة ما ابعدها حيث جعله حيوانا وكان جمادا وناطقا وكان ابكم
وسميعا وكان اصم وبصيرا وكان اعمى واكمه واودع ظاهره وباطنه بل كل

عضو من اعضائه وكل جزء من اجزائه عجائب فطره وغرائب حكمه لا يدرك بوصف
الواصف ولا تبلغ بشرح الشارح وثم ولما بين الخلقين من التفاوت قال
الزمخشري وقد احتج ابو حنيفة رحمه الله في من غصب بيضة فافرخت
عنده فقال يضمن البيضة ولا يرد الفرخ لانه خلق اخر سوى البيضة
انتهى ولما كان هذا التفصيل لتطوير الانسان سببا عظيما لتعظيم
الخالق قال تعالى فتبارك الله اي تنزه عن كل شائبة نقص وحاز
كل صفات الكمال واشار الى جمال الانسان بقوله تعالى احسن الخالقين
اي المقدرين او المميزين اي احسن محذوف اي خلقا روي عن عمر رضي الله عنه
ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغ قوله خلقا اخر فتبارك الله احسن
الخالقين وروي ان عبد الله بن سعد بن ابي سرح كان يكتب لرسول الله صلى
الله عليه وسلم فنطق بذلك قبل املائه فقال له صلى الله عليه وسلم اكتب رسول الله
هذا فنزلت فقال عبد الله ان كان محمد نبيا يوحى اليه فانا نبي يوحى الي فلحق
بمكة كافرا ثم اسلم يوم الفتح وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس انه قال لما نزلت
هذه الاية قال عمر بن الخطاب فتبارك الله احسن الخالقين فقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم هكذا انزلت يا عمر وكان عمر يقول وافقني ربي في اربع
الصلاة خلف وضرب الحجاب على النسوة وقولي لهن او ليبدلنه الله خيرا منكن
فنزل قوله تعالى عسى ربه ان طلقكن والرابع قلت فتبارك الله احسن
الخالقين فقال هكذا انزلت قال العارفون هذه الواقعة كانت سبب
السعادة لعمر والشقاوة لعبد الله بن سعد بن ابي سرح فانه قيل انه
مات كافرا قال تعالى يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا المرتبة الثامنة قوله
تعالى ثم انكم بعد ذلك اي الامر العظيم من الوصف بالحياة والمد في العمر في
اجال متفاوتة ما بين طفل ورضيع ومحتلم شديد وشاب نشيط وكهل
عظيم وشيخ هرم الى ما بين ذلك من شؤون لا يحيط به الا اللطيف الخبير لميتون
اي صائرون الى الموت لا محالة ولذلك ذكر النعت الذي للثبوت وهو ميت
دون اسم الفاعل وهو مائت فانه للحدوث لا للثبوت المرتبة التاسعة قوله
تعالى ثم انكم يوم القيامة اي الذي يجمع فيه جميع الخلائق تبعثون
للحساب والجزاء النوع الثاني من الدلائل الاستدلال بخلق السموات
وهو قوله تعالى ولقد خلقنا فوقكم في جميع جهة الفوق في ارتفاع لا تدركونه
حق الادراك اي سموات سبع طرائق اي سموات جمع طريقة لانها
طرق الملائكة ومتقلباتهم وقيل الافلاك لانها طرائق الكواكب فيها مسيرها
وقيل لانها طارق بعضها فوق بعض كطارقة النعل وكل شيء فوقه مثله فهو
طريقه وما كنا اي بما لنا من العظمة عن الخلق اي الذي خلقناه تحتها
غافلين اي ان تسقط عليهم فتهلكهم بل نمسكها كاينة ويمسك السماء

ان تقع على الارض الا باذنه ولا يهملها امرها بل يحفظها عن الزوال والاختلاف
وتدابير امرها حتى يبلغ منتهى امرها وما قدر لها من الكمال حسب ما اقتضت الحكمة
وتعلقت به المشيئة النوع الثالث من الدلايل الاستدلال بنزول الامطار وكيفية
تاثيرها في النبات وهو قوله تعالى وانزلنا من السماء اي من جرمها وهو ظاهر اللفظ
وعليه اكثر المفسرين ومن السحاب وسماه سماء لعلوه ماء بقدر اي بتقدير ما
يكفيهم لمعاشهم في الزرع والغرس والشرب وانواع المنفعة ويسلمون معه من
المضرة اذ لو كان فوق ذلك لاغرقت البحار الامطار ولو كان دون ذلك لادى
جفاف النبات والاشجار كقوله تعالى فسلكه ينابيع في الارض فاسكناه اي
فجعلناه ثابتا مستقرا في الارض وعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم
ان الله تعالى انزل من الجنة خمسة انهار سيحون نهر الهند وجيحون نهر بلخ
ودجلة والفرات نهر العراق والنيل نهر مصر انزلها الله من عين واحدة
من عيون الجنة من اسفل درجة من درجاتها على جناحي جبريل فاستودعها الجبال
واجراها في الارض وجعل فيها منافع للناس من اصناف معايشهم فاذا كان
عند خروج ياجوج وماجوج ارسل الله تعالى جبريل فرفع من الارض القرآن
والعلم كله والحجر الاسود من ركن البيت ومقام ابراهيم وتابوت موسى بما فيه
وهذه الانهار الخمسة فيرفع كل ذلك الى السماء وذلك قوله تعالى وانا
على ذهاب به لقادرون فقدرتي في نهاية العظمة فانا كما قدرنا على ايجاده
واختراعه نقدر على رفعه وازالته فاذا رفعت هذه الاشياء كلها من الارض
فقد اهلها خير الدين والدنيا قال البغوي وروى هذا الحديث الامام حسن
ابن سفيان عن عثمان بن سعيد عن سابق الاسكندري عن مسلمة بن علي عن مقاتل
ابن حيان ثم نبه في تنكير ذهاب ايماء الى كثرة طرقه وفيه ايذان باقتدار المذهب
وانه لا يتعايا عليه شيء اذا اراده وهو ابلغ في الايعاد من قوله تعالى قل
ارايتم ان اصبح ماؤكم غورا فمن ياتيكم بماء معين فعلى العباد ان يستعظموا
النعمة في الماء ويقيدوها بالشكر الدائم ويخافوا نفادها اذا لم تشكر ثم
انه سبحانه وتعالى نبه على عظيم نعمته بخلق الماء ذكر بعده هذه النعم الحاصلة
من الماء بقوله تعالى فانشانا اي فاخرجنا واحيينا لكم خاصة لانا به
اي بذلك الماء الذي جعلنا منه كل شيء حي جنات اي بساتين
من نخيل واعناب صرح بهذين الصنفين لشرفهما ولانهما اكثر ما عند
العرب من الثمار وسمى الاول باسم شجرته لكثرة ما فيها من المنافع المقصودة
بخلاف الثاني فانما المقصود من شجرته واشار الى غيرهما بقوله تعالى لكم اي
خاصة فيها اي الجنات فواكه كثيرة تتفكهون بها ومنها اي
ومن الجنات من ثمارها وزروعها تاكلون رطبا ويابسا وتمرا وزبيبا
وقوله تعالى وشجرة عطف على جنات اي وانشانا لكم شجرة اي زيتونة

تخرج

تخرج من طور سيناء وهو الجبل الذي كلم الله تعالى عليه موسى بن عمران عليه
السلام بين مصر وايلة وقيل بفلسطين وفي رواية اخرى طور سينين ولا
يخلو اما ان يضاف فيه الطور الى بقعة اسمها سيناء وسينون واما ان يكون اسما
للجبل مركبا من مضاف ومضاف اليه كامرئ القيس وكبعلبك فيمن اضاف فمن كسر
سين سيناء وهو نافع وابن كثير وابو عمرو فقد منع الصرف للتعريف والعجمة والتانيث
لانها بقعة وفعلاء لا تكون الفه للتانيث كعلباء وحرباء ومن قرا بفتح السين وهم الباقون
فلم يصرفه لان الف التانيث كصحراء قال مجاهد معناه البركة من جبل مبارك
وقال قتادة معناه الحسن اي الجبل الحسن وقال الضحاك هو بالنبطية
ومعناه الحسن وقال عكرمة بالحبشية وقال مقاتل كل جبل فيه اشجار مثمرة
فهو سيناء وسينين بلغة النبط وقرا ابن كثير وابو عمرو تنبت بضم التاء الفوقية
وكسر الباء الموحدة من الرباعي والباقون بفتح الفوقية وضم الموحدة من الثلاثي
فقوله تعالى بالدهن تكون الباء على الاول زائدة وعلى الثاني معدية قال
وانما اضافها الله تعالى الى هذا الجبل لان منه تشعب في البلاد وانتشر ولان معظمها
هناك قاله بعض المفسرين وانما عرف الدهن لانه اجل الادهان واكملها وهو في
الاصل مائع لزج خفيف يتقطع ولا يختلط بالماء الذي هو اصله فيسرج ويد
به وقوله تعالى وصبغ للآكلين عطف على الدهن اي ادام يصبغ
اللقمة بغمسها فيه وهو الزيت قيل انها اول شجرة نبتت بعد الطوفان
ووصفها الله تعالى بالبركة في قوله تعالى توقد من شجرة مباركة النوع
الرابع من الدلايل الاستدلال بانواع الحيوانات وهو قوله تعالى وان
لكم في الانعام وهي الابل والبقر والغنم لعبرة عظيمة تعتبرون
بها وتستدلون بها على البعث وغيره نسقيكم مما في بطونها اي
اللبن نجعله لكم شرابا نافعا للبدن موافقا للشهوة تلتذون به من بين
الفرث والدم ولكم فيها اي جماعة الانعام وقدم الجار لعظم منافعها
حتى كان غيرها عدم منافع كثيرة باستعمالها لما يراد منها ما لا يتيسر
من اصغر منها وباولادها واصوافها واوبارها واشعارها وغير ذلك من
اثارها ومنها تاكلون اي وكما تنتفعون بها وهي حية تنتفعون بها
بعد الذبح ايضا بسهولة من غير امتناع ما من شيء من ذلك ولو شاء
لمنعها وسلطها عليكم ولو شاء لجعل لحمها لا ينضج او جعله قذرا لا يوكل
ولكنه بقدرته وعلمه هياها لما ذكر وقوله وعليها اي الانعام الصالحة
للحمل وهي الابل والبقر وقيل المراد بالابل خاصة لانها هي المحمول عليها
في العادة وقرنها بالفلك التي هي السفن في قوله تعالى وعلى الفلك تحملون
لانها سفاين البر فكما يحمل على الفلك في البحر فيحمل على هذه في البر قال ذو الرمة
في المعنى • سفينة بر تحت خدي زمامها • قال الزمخشري يريد

صيدحة اي ناقته لان اسمها كان صيدح قال
رايت الناس ينتجعون غيثا . فقلت لصيدح انتجعي بلالا .
يريد بلال ابن بردة الاشعري والي الكوفة ولما بين سبحانه وتعالى دلايل
التوحيد اردفها بذكر القصص كما هو العادة في ساير السور بقصة نوح
عليه السلام فقال تعالى ولقد ارسلنا اي بما لنا من العظمة نوحا وهو
الاب الثاني بعد ادم عليهما السلام وكان اسمه يشكر وسمي
نوحا لوجوه احدها لكثرة ما ناح على نفسه حين دعا على قومه بالهلاك
فاهلكهم الله تعالى بالطوفان فندم على ذلك ثانيها لمراجعته ربه في شان ابنه
ثالثها انه مر بكلب مجذوم فقال له اخسا يا قبيح فعوتب على ذلك الى قومه
وهم جميع اهل الارض لتواصل ما بينهم لكونهم على لغة واحدة محصورين
لانه ارسل الى الخلق كافة لان ذلك من خصايص نبينا محمد صلى الله عليه وسلم
وعلى جميع الانبيا فقال اي فتسبب عن ذلك ان قال يا قوم ترفقا
بهم اعبدوا الله وحده لانه الهكم وحده لاستحقاقه لجميع خلال الكمال
واستانف على سبيل التعليل فقال ما لكم من اله اي معبود بحق غيره
فلا تعبدوا سواه أفلا تتقون اي افلا تخافون عقوبته ان عبدتم غيره
فلا تعبدوا سواه وقرا الكسائي بكسر الراء والها والباقون بضمهما فقال اي
فتسبب عن ذلك ان كذبوه بان قال الملأ اي الاشراف الذين تملا رويتهم
الصدور عظمة الذين كفروا من قومه لعوامهم ما هذا اي نوح عليه السلام
الا بشر مثلكم اي فلا يعلم ما لا تعلمون فانكروا ان يكون بعض البشر نبيا
ولم ينكروا ان يكون بعض الطين انسانا وبعض الما علقة وبعض العلقة
مضغة الى اخره فكانه قيل ما حمله على ذلك فقالوا يريد ان يتفضل
يتكلف الفضل بادعاء مثل هذا عليكم لتكونوا اتباعا له ولا خصوصية
له بذلك ولو شاء الله اي الملك الاعلى الارسال اليكم وعدم عبادة غيره لانزل
كذلك ملائكة رسلا بابلاغ الوحي الينا قال الزمخشري وما اعجب شان
الضلال لم يرضوا للنبوة ببشر وقد رضوا للالهية بحجر ما سمعنا بهذا اي
الذي دعا اليه نوح من التوحيد في اباءنا الاولين اي الامم الماضية ان
اي ما هو الا رجل به جنة اي جنون ولاجله يقول ما يدعيه فتربصوا به
اي فتسبب عن الحكم بجنونه انا نامركم بالكف عنه لانه لا حرج على
جنونه حتى حين اي الى حين لعله يفيق او يموت فكانه قيل فما قال فقيل
قال عند ما ايس من فلاحهم رب انصرني اي اعني عليهم بما كذبون
اي بسبب تكذيبهم لي فان تكذيب الرسول استخفاف بالمرسل فاوحينا
اي فتسبب عن دعايه انا اوحينا اليه ان اصنع الفلك اي السفينة
باعيننا اي انه لا يغيب عنا شي من امرك ولا من امرهم وانت تعرف

قدرتنا على كل شي فثق بحفظنا ولا تخف شيا من امرهم لما روي انه لما اوحي اليه
ان يصنعها على مثال جؤجؤ الطاير قال الجوهري جؤجؤ الطاير والسفينة صدرها
والجمع الجاجي ولما كان لا يعلم الصفة قال تعالى ووحينا اي وامرنا وتعليمنا
كيف يصنع فان جبريل علمه عمل السفينة ووصف كيفية اتخاذها وقد
تقدم الكلام عليها في سورة هود فاذا جاء امرنا اي بالهلاك عقب فراغه
منه او بالركوب وفار التنور قال ابن عباس وجه الارض وفي القاموس
الكانون يخبز فيه ووجه الارض وعن قتادة انه اشرف موضع في الارض اي
اعلاه وعن علي طلوع الفجر وعن الحسن انه الموضع المنخفض من السفينة الذي
يسيل الما اليه وقيل هو مثل كقولهم حمي الوطيس والاقرب كما قال الرازي
وعليه اكثر المفسرين هو التنور المعروف تنور الخباز فيكون له فيه اية
روي انه قيل لنوح اذا رايت الما يفور في التنور فاركب انت ومن معك في
السفينة فلما نبع الما من التنور اخبرته امراته فركب وقيل كان تنور ادم
وكان من حجارة فصار الى نوح واختلف في مكانه فعن الشعبي في مسجد
الكوفة عن يمين الداخل مما يلي باب كندة وكان نوح عمل السفينة وسط
المسجد وقيل بالشام بموضع يقال له عين وردة وقيل بالهند وقرا
قالون والبزي وابو عمرو باسقاط الهمزة الاولى من الهمزتين المفتوحتين
من كلمتين وحقق الاولى وسهل الثانية ورش وقنبل فاسلك اي فادخل
فيها اي السفينة من كل زوجين من الحيوان اثنين ذكرا وانثى وقرا
حفص بتنوين اللام من كل اي من كل نوع زوجين فزوجين مفعول واثنين
تاكيد والباقون بغير تنوين واثنين مفعول ومن متعلق باسلك وفي
القصة ان الله تعالى حشر لنوح السباع والطير وغيرهما فجعل يضرب بيديه
في كل جنس فتقع يده اليمنى على الذكر واليسرى على الانثى فيحملهما في السفينة
وروي انه لم يحمل الا ما يلد ويبيض واهلك اي واهل بيتك من
زوجتك واولادك الا من سبق عليه القول منهم بالهلاك وهو زوجته
وولده كنعان بخلاف سام وحام ويافث فحملهم وزوجاتهم الثلاثة
وفي سورة هود ومن امن وما امن معه الا قليل قيل كانوا ستة رجال
ونساهم وقيل جميع من كان في السفينة ثمانية وسبعون نصفهم رجال
ونصفهم نساء ولا تخاطبني اي في السوال في النجاة في الذين ظلموا اي كفروا
ثم علل ذلك بقوله تعالى انهم مغرقون اي قد حتم الامر عليهم لظلمهم
بالاشراك والمعاصي ومن هذا شانه لا يشفع له فانه تعالى بعد ان
امهلهم الدهر المتطاول فلم يزيدوا الا ضلالا ولزمتهم الحجة البالغة
لم يبق الا ان يجعلوا عبرة للمعتبرين ونحن نكرمك عن سوال لا يقبل
ولقد بالغ سبحانه وتعالى حيث اتبع النهي عنه الامر بالحمد على هلاكهم

والنجاة منهم بقوله تعالى فاذا استويت اي اعتدلت انت ومن معك اي البشر
وغيرهم على الفلك ففرغت من امتثال الامر في الحمل فقل الحمد لله اي الذي
لا كفؤ له لانه مختص بصفات الحمد الذي نجانا بحملنا فيه من القوم اي الاعدا الاعـ
الظالمين اي الكافرين كقوله تعالى فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد
لله رب العالمين تنبيه انما قال تعالى فقل ولم يقل فقولوا لان نوحا كان
لهم نبيا واماما فكان قوله قولا لهم مع ما فيه من الاشعار بفضل النبوة
واظهار كبرياء الربوبية وان رتبة تلك المخاطبة لا يترقى اليها الا ملك او نبي
ولما اشار له بهذا القول الى السلامة بالحمل اتبعه بالاشارة الى الوعد
باسكان الارض بقوله تعالى وقل رب انزلني في الفلك ثم في الارض وفي
كل منزل تنزلني فيه وتورثني اياه منزلا مباركا اي يبارك له فيه وبعطا
الزيادة في خير الدارين وقرا ابو بكر بفتح الميم وكسر الزاي اي امكان
النزول والباقون بضم الميم وفتح الزاي اي امكان النزول والباقون بضم
الميم وفتح الزاي مصدرا او اسم مكان ثم ان الله تعالى امره ان يشفع
الدعاء بالثناء عليه المطابق لمسئلته وهو قوله تعالى وانت خير المنزلين
ما ذكر لانك تكفي نزيلك كل ملم وتعطيه كل امر ولما كانت هذه القصة
من اغرب القصص حث على تدبرها بقوله تعالى ان في ذلك اي الامر العظيم
من امر نوح والسفينة واهلاك الكفار لآيات اي دلالات على قدرة
الله تعالى وصدق الانبياء في ان المؤمنين هم المفلحون وانهم الوارثون
للارض بعد الظالمين وان عظمت شوكتهم واشتدت صولتهم وان كنا
بما لنا من العظمة والوصف الثابت الدال على تمام القدرة لمبتلين اي لفاعلين
فعل الخبير المختبر لعبادنا بارسال الرسل ليظهر في عالم الشهادة الصالح
منهم من غيره ثم نبتلي الصالحين منهم بما يزيد حسناتهم وينقص سيآتهم
ويعلي درجاتهم ثم يجعل لهم كما قال تعالى والعاقبة للمتقين تنبيه ان هي
المخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشان واللام هي الفارقة القصة و
الثانية قصة هود وقيل قصة صالح عليهما السلام المذكورة في قوله تعالى
ثم انشأنا اي احدثنا واحيينا من بعدهم اي من بعد اهلاكهم قرنا
اي قوما آخرين هم عاد وقيل قوم هود وقيل ثمود قوم صالح فارسلنا
اي تعقيبا لانشائهم وتسبيبا عنه انا ارسلنا فيهم رسولا منهم هو هود
وقيل صالح قال البغوي والاول هو الاظهر اي وهو المروي عن ابن عباس
ويشهد له حكاية الله قول هود على اثر قصة نوح في سورة الاعراف وسورة
هود والشعراء ثم بين تعالى ما ارسل به بقوله تعالى ان اعبدوا الله اي وحده
لانه لا مكافئ له ثم دل على الاستغراق بقوله تعالى ما لكم من اله غيره افلا تتقون
اي هذه الحال التي انتم عليها مخافة عقابه فيؤمنون وقرا نافع وابن كثير

وابن عامر

وابن عامر بضم النون في الوصل والباقون بكسرها والقراء في غيره ذكرت قريبا وقال الملأ
اي الاشراف التي تملا رؤيتهم الصدور من قومه الذين كفروا اي غطوا ما يعرفون
مراد له من التوحيد والانتقام من المشركين وكذبوا بلقاء الآخرة اي بالمصير
اليها واترفناهم اي والحال انا بما لنا من العظمة نعمناهم في الحياة الدنيا بالاموال
والاولاد وكثرة السرور يخاطبون اتباعهم ما هذا اشاروا اليه تحقيرا له
عند المخاطبين الا بشر مثلكم في الخلق والحال ثم وصفوه بما يوهم المساواة
في كل وصف فقالوا يأكل مما تأكلون منه اي من طعام الدنيا ويشرب مما تشربون
اي من شرابها فكيف يكون رسولا دونكم وقولهم ولئن اللام لام قسم اي والله
لئن اطعتم بشرا مثلكم اي فيما يأمركم به انكم اذا اي ان اطعتموه لخاسرون
اي مغبونون لكونكم فضلتم مثلكم عليكم بما يدعيه ثم بينوا انكارهم بقولهم
ايعدكم انكم اذا متم ففارقت ارواحكم اجسادكم وكنتم اي وكانت
اجسادكم ترابا باستيلاء التراب على ما دون عظامها وعظاما مجردة عن
اللحوم والاعصاب انكم مخرجون اي من تلك الحالة التي صرتم اليها فراجعون
الى ما كنتم عليه من الحياة على ما كان لكم من الاجسام تنبيه قوله تعالى
مخرجون خبر انكم الاولى وانكم الثانية تاكيد لها لما طال الفصل ثم استانفوا
التصريح بما دل عليه الكلام من استبعاد ذلك فقالوا هيهات هيهات
اسم فعل ماض بمعنى مصدر اي بعد بعد جدا وقال ابن عباس هي كلمة
بعد اي بعيد ثم كانه قيل لاي شيء هذا الاستبعاد فقيل لما توعدون من الاخراج
من القبور فان قيل لما توعدون هو المستبعد ومن حقه ان يرفع بهيهات
كما ارتفع به في قوله فهيهات هيهات العقيق واهله فما هذه اللام اجيب
بان الزجاج قال في تفسيره البعد لما توعدون فنزل منزلة المصدر
ويصح ان تكون اللام لبيان المستبعد ما هو بعد التصويت بكلمة الاستبعاد
كما جاءت اللام في هيت لك لبيان المهيت به وان اللام زايدة للبيان فائدة
وقف البزي والكسائي على هيهات الاولى والثانية بالهاء والباقون
بالتاء على المرسوم وقولهم ان هي ضمير لا يعلم ما يعني به الا بما يتلوه من
بيانه واصله ان الحياة الا حياتنا الدنيا ثم وضع هي موضع الحياة لان
الخبر يدل عليها ويبينها ومنه هي النفس تتحمل ما حملت والمعنى لا حياة الا
هذه الحياة لان ان النافية دخلت على هي التي في معنى الحياة الدالة
على الجنس فنفتها لا التي نفت ما بعدها نفي الجنس نموت ونحيى اي يموت
منا من هو موجود ويحيا اخرون بعدهم وقيل يموت قوم ويحيى قوم وقيل
تموت الآباء ويحيى الابناء وقيل في الآية تقديم وتأخير اي نحيى ونموت
لانهم كانوا ينكرون البعث بعد الموت كما قالوا وما نحن بمبعوثين بعد الموت
فكانه قيل فما هذا الكلام الذي يقوله فقيل كذب ثم حصروا امره في الكذب

فقالوا ان اي ما هو الا رجل افترى اي تعمد على الله اي الملك الاعلى كذبا
فلا نلتفت اليه وما نحن له بمؤمنين اي بمصدقين فيما يخبرنا به من البعث
والرسالة فكانه قيل فما قال فقيل قال رب انصرني اي ايها المحسن الي بالرسالة
وبارسالي اليهم وغيره من انواع النعم بما كذبون اي اوقع لي النصر فقال عما قليل
فاجابه ربه بان ليصبحن من الزمان وما زائدة واكد قلته بزيادة
ما ليصبحن اي ليصيرن نادمين اي على كفرهم وتكذيبهم اذا عاينوا العذاب
فاخذتهم الصيحة اي صيحة العذاب والهلاك كائنة بالحق اي الامر
الثابت من العذاب الذي لا يمكن مدافعته لهم ولا لغيرهم غير الله تعالى فماتوا
وقيل صيحة جبريل عليه السلام ويكون القوم ثمود على الخلاف السابق فجعلناهم
بسبب الصيحة غثاء اي مطروحين ميتين كما تطرح الغثاء شبهوا في دمارهم
بالغثاء وهو حميل السيل مما بلي واسود من الورق والعيدان ومنه فجعله غثاء
احوى اي اسود يابسا ولما كان هلاكهم على هذا الوجه سببا لهوانهم عبر
عنه بقوله تعالى فبعدا اي هلاكا وطردا من الرحمة للقوم الظالمين الذين
وضعوا قوتهم التي كان يجب عليهم بذلها في نصر الرسل في خذلانهم
تنبيه يحتمل هذا الدعاء عليهم والاخبار عنهم ووضع الظاهر موضع
ضميرهم للتعليل وبعدا وسحقا ودفرا ونحوها مصادر موضوعة
مواضع افعالها وهي من جملة المصادر التي قال سيبويه نصبت بافعال لا
يستعمل اظهارها القصة الثالثة المذكورة في قوله تعالى ثم انشانا اي
بعظمتنا التي لا يغيرها تقديم ولا تاخير من بعدهم اي من بعد من قدمنا
ذكره من نوح والقرون الذي بعده قرونا اي اقواما اخرين فهو سبحانه
وتعالى تارة يقص علينا في القران مفصلا كما تقدم وتارة يقص مجملا كما هنا
وقيل المراد قصة لوط وشعيب وايوب ويوسف عليهم السلام
وعن ابن عباس بني اسرائيل ثم انه تعالى اخبر بانه لم يعجل على احد منهم
قبل الاجل الذي اجله له بقوله تعالى ما تسبق من امة اجلها اي الذي
قدر لها بان تموت قبله وما يستاخرون عنه تنبيه ذكر الضمير بعد تانيثه
رعاية للمعنى ومن زائدة ثم ارسلنا رسلنا تترا اي متتابعين بين كل
اثنين زمان طويل وقرا ابو عمرو رسلنا بسكون السين والباقون
برفعها وقرا ابن كثير وابو عمرو في الوصل بتنوين الراء على انه مصدر
بمعنى التواتر وقع حالا والباقون بغير تنوين ولما كان كانه قيل ماذا فعل
كلما جاء امة رسولها اي بما امرناه من التوحيد كذبوه اي كما فعل هؤلاء
بك لما امرتهم بذلك تنبيه اضاف الرسول مع الارسال الى المرسل ومع
المجيء الى المرسل اليهم لان الارسال الذي هو مبدا الامر
منه والمجيء الذي هو منتهاه اليهم وقرا نافع وابن كثير وابو عمرو

تحقيق

تحقيق الاولى وتسهيل الثانية بين الهمزة والواو والباقون بتحقيقهما وهم على
مراتبهم في المد فاتبعنا القرون بسبب تكذيبهم بعضهم بعضا في الاهلاك
فلم يبق عند الناس منهم الا اخبارهم كما قال تعالى وجعلناهم احاديث اي
اخبارا يسمعونها ويتعجب منها ليكونوا عظة للمستبصرين فيعلموا انه لا يفلح
الكافرون ولا يخيب المؤمنون وما احسن قول القائل
• ولا شيء يدوم فكن حديثا • جميل الذكر فالدنيا حديث •
والاحاديث يكون اسم جمع للحديث ومنه احاديث رسول الله صلى الله
عليه وسلم ويكون جمعا للاحدوثة التي هي مثل الاعجوبة والاضحوكة
وهي ما يتحدث به الناس تلهيا وتعجبا وهو المراد هنا ولما تسبب عن تكذيبهم
هلاكهم المقتضي لبعدهم قال تعالى فبعدا لقوم
لا يؤمنون اي لا يوجد منهم ايمان وان جرت عليهم الفصول
الاربعة لانه لا مزاج لهم معتدل القصة الرابعة قصة موسى عليه السلام
المذكورة في قوله تعالى ثم ارسلنا اي بما لنا من العظمة موسى واخاه هارون
باياتنا قال ابن عباس الايات التسع وهي العصا واليد والجراد والقمل
والضفادع والدم والبحر والسنين ونقص الثمرات وسلطان مبين اي
حجة بينة وهي العصا وافردها بالذكر لانها قد تعلق بها معجزات
شتى من انقلابها حية وتلقفها ما افكته السحرة وانفلاق البحر وانفجار
العيون من الحجر بضربها وكونها حارسا وشمعة وشجرة خضراء مثمرة ودلوا
ورشا فجعلت كانها ليست بعضا لما استبدت به من الفضائل
فلذلك عطفت عليها كقوله تعالى من كان عدوا لله وملائكته ورسله
وجبريل وميكال ويجوز ان يراد بالايات نفس تلك المعجزات وبالسلطان
المبين كيفية دلالتها على الصدق وذلك لانها وان شاركت ايات سائر
الانبيا في كونها ايات فقد فارقتها في قوة دلالتها على قول موسى عليه السلام
وان يراد بالسلطان المبين المعجزات وبالايات الحجج وان يراد بها المعجزات فانها
ايات النبوة وحجة بينة على ما يدعيه النبي قال الرازي واعلم ان الاية تدل على
ان معجزات موسى كانت معجزات هرون ايضا وان النبوة كما كانت مشتركة
بينهما فكذلك المعجزات الى فرعون وملائه اي وقومه ولكن لما كان الاطراف
لا يخالفون الاشراف عدهم عدما ومن الواضح ان التقدير ان اعبدوا الله ما لكم
من اله غيره واشار بقوله تعالى فاستكبروا الى انهم وجدوا الكبر عن الاتباع
فيما دعوه اليه عقب الابلاغ من غير تامل ولا تثبت وطلبوا ان لا يكونوا تحت
امر من دعاهم واشار بالكون الى فساد جبلتهم بقوله تعالى وكانوا قوما
عالين اي متكبرين قاهرين غيرهم بالظلم ولما تسبب عن استكبارهم
وعلوهم انكارهم للاتباع قال تعالى فقالوا انؤمن اي بالله مصدقين

اي لبشرين مثلنا اي في البشرية والماكل والمشرب وغيرهما مما يعتري البشر كان كمن تقدمهم وقومهما اي والحال ان قومهما بني اسرائيل لنا عابدون خضوعا وتذللا اي في غاية الذل والانقياد كالعبيد فنحن اعلا منهما بهذا ولانه كان يدعي الالهية فادعى للناس العبادة وان طاعتهم له عبادة على الحقيقة فكذبوهما اي فرعون وملأه موسى وهرون فكانوا اي فرعون وملأه بسبب تكذيبهم من المهلكين اي بالغرق ببحر قلزم ولم تغن عنهم قوتهم في انفسهم ثم قوتهم على خصوص بني اسرائيل واستعبادهم ولا ضر بني اسرائيل ضعفهم عند قتالهم ولا ذلهم لهم وصغارهم في ايديهم ولما كان ضلال بني اسرائيل بعد انقاذهم من عبودية فرعون وقومه العجب قال تعالى تسلية لنبيه صلى الله عليه وسلم ولقد آتينا اي بعظمتنا موسى الكتاب اي التوراة لعلهم اي قوم موسى وهرون عليهما السلام يهتدون من الضلالة الى المعارف والاحكام ولا يصح عود الضمير الى فرعون وملائه لان التوراة انما اوتيها بنو اسرائيل بعد اغراق فرعون وملئه بدليل قوله تعالى ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما اهلكنا القرون الاولى القصة الخامسة قصة عيسى عليه السلام المذكورة في قوله وجعلنا اي بعظمتنا وقدرتنا ابن مريم نسبة اليها تحقيقا لكونه لا اب له وكونه بشرا محمولا في البطن مولودا لا يصلح لرتبة الالهية وزاد في تحقيق ذلك بقوله وامه وقال تعالى آية ولم يقل آيتين لان الآية فيهما واحدة ولادته من غير فحل ويحتمل ان الآية الاولى حذفت لدلالة الثانية عليها والتقدير وجعلنا ابن مريم آية وامه آية لانها حملته لان الله تعالى جعل في رحمها آية من غير ذكر وقال الحسن قد تكلمت في صغرها كما تكلم عيسى وهو قولها هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب ولم تلتقم ثديا قط تنبيه قال بعض المفسرين ولعل في ذلك اشارة الى انه تكملت ابنية القدرة على ايجاد الانسان بكل اعتبار من غير ذكر ولا انثى وهو آدم عليه السلام ومن الزوجين وهو بقية الناس ذكر بلا انثى وهي حوا عليها السلام ومن انثى بلا ذكر وهو عيسى عليه السلام ومن الزوجين وهو بقية الناس وآويناهما اي بعظمتنا الى ربوة اي مكان عال من الارض تنبيه قد اختلف في هذه الربوة فقال عطا عن ابن عباس هي بيت المقدس وهو قول قتادة وكعب قال كعب هي اقرب الارض الى السما بثمانية عشر ميلا وقال عبد الله ابن سلام هي دمشق وقال ابو هريرة هي الرملة وقال السدي هي ارض فلسطين وقال ابن زيد هي مصر وقرا ابن عامر وعاصم بفتح الراء والباقون بضم الراء ذات قرار اي منبسطة مستوية واسعة يستقر عليها ساكنوها ومعين اي ماء جار ظاهر تراه العيون

تنبيه

تنبيه قد اختلف في زيادة ميم معين واصالتها فوجه من جعله مفعولا انه مدرك بالعين لظهوره من عانه اذا ادركه بعينه نحو ركبه اذا ضربه بركبته ووجه من جعله فعيلا انه نفاع لظهوره وجريه من الماعون وهو المنفعة قيل سبب الايوا انها مرت بابنها الى الربوة وبقيت بها اثني عشر سنة ثم رجعت الى اهلها بعد ما مات ملكهم وههنا آخر القصص وقد اختلف في المخاطب في قوله تعالى يا ايها الرسل كلوا من الطيبات على وجوه احدها انه محمد صلى الله عليه وسلم وحده على مذهب العرب في مخاطبة الواحد بلفظ الجماعة ثانيها انه عيسى عليه السلام لانه روي ان عيسى عليه السلام كان ياكل من غزل امه ثالثها انه كل رسول خوطب بذلك ووصي به لانه تعالى في الازل متكلم امر ناه ولا يشترط في الامر وجود المامورين بل الخطاب ان لا على تقدير وجود المخاطبين فقول البيضاوي لا على انهم خوطبوا بذلك دفعة لانهم ارسلوا في ازمنة مختلفة على معنى ان كلا منهم خوطب به في زمانه تبع فيه الكشاف فان المعتزلة انكروا قدم الكلام فحملوا الآية على خلاف ظاهرها وانت خبير بان عدم اشتراط ما ذكر انما هو في التعلق المعنوي لا التنجيزي الذي الكلام فيه فانه مشروط فيه ذلك وانما خاطب جميع الرسل ووصوا به حقيق ان يوخذ به ويعمل عليه وهذا كما قال الرازي اقرب لانه روي عن ام عبد الله اخت شداد بن اوس انها بعثت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدح من لبن في شدة الحر عند فطره وهو صائم فرده صلى الله عليه وسلم الى الرسول انى لك هذا فقالت من شاة لي ثم رده صلى الله عليه وسلم وقال من اين هذه الشاة فقالت اشتريتها من مالي فاخذه ثم انها جاءته وقالت يا رسول الله لم رددته فقال صلى الله عليه وسلم بذلك امرت الرسل ان لا تاكل الا طيبا ولا تعمل الا صالحا والمراد بالطيب الحلال وقيل الطيب الرزق الحلال وصاف وقوام فالحلال الذي لا يعصى الله فيه والصافي هو الذي لا ينسى الله فيه والقوام هو الذي يمسك النفس ويحفظ العقل وقيل المراد بالطيب المستلذ اي ما تستلذه النفس من الماكل والفواكه ويشهد له مجيئه على عقب قوله تعالى وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين واعلم انه سبحانه وتعالى قال للمرسلين يا ايها الرسل كلوا من الطيبات وقال للمؤمنين يا ايها الذين امنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ودل سبحانه وتعالى على ان الحلال عون على الطاعة بقوله تعالى واعملوا صالحا فرضا ونفلا سرا وجهرا غير خائفين من احد غير الله تعالى ثم حثهم على دوام المراقبة بقوله تعالى اني بما تعملون عليم اي بالغ العلم فاجازيكم عليه وقرا وان هذه بكسر الهمزة الكوفيون على الاستئناف والباقون بفتحها واعلموا ان هذه اي ملة

الاسلام وخفف النون شاكية ابن عامر وشددها مفتوحة الباقون امتكم اي
دينكم ايها المخاطبون اي يجب ان تكونوا عليها حال كونها امة واحدة لا شتات
فيها اصلا فما دامت موحدة فهي مرضية وانا ربكم اي المحسن اليكم بالخلق والرزق
وحدي فمن وحدني نجا ومن اشرك معي غيري هلك فاتقون اي فاحذرون
فتقطعوا اي الامم وانما اضمرهم لوضوح ارادتهم لان الاية التي قبلها قد صرحت
بان الانبيا ومن تجانسهم امة واحدة لا اختلاف بينها فعلم قطعا ان الضمير للامم
ومن نشا بعدهم ولذلك كان النظر الى الامر الذي كان واحدا اهم فقدم قوله
امرهم اي دينهم بعد ان كان النظر الى الامر الذي يجمعها متصلا بينهم وقوله
تعالى زبرا حال من فاعل تقطعوا اي احزابا متخالفين فصاروا فرقا كاليهود
والنصارى والمجوس وغيرهم من الاديان المختلفة جمع زبور بمعنى الفرقة
وقيل معنى زبرا كتبا اي تمسك كل قوم بكتاب فامنوا به وكفروا بما سواه من
الكتب كل حزب اي فرقة من المتحزبين بما لديهم اي عندهم من ضلال وهدى
وقرا حمزة بضم الها والباقون بكسرها فرحون اي مسرورون فضلا
عن انهم راضون وقوله تعالى فذرهم خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم اي
اتركهم كما تركهم في غمرتهم اي ضلالتهم شبهها بالماء الذي يغمر القامة
لانهم مغمورون فيها حتى حين اي الى ان يقتلوا او يموتوا تسلية لرسول الله
صلى الله عليه وسلم بذلك ونهي عن الاستعجال بعذابهم والجزع من تاخيره ولما
كان الموجب لغرورهم ظنهم ان حالهم في بسط الارزاق من الاموال
والاولاد حالة رضى عنهم انكر ذلك عليهم تنبيها لمن سبقت له السعادة
وكتب له الحسنى وزيادة وقوله تعالى ايحسبون اي لضعف عقولهم
وقرا ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين والباقون بكسرها انما نمدهم به اي
نعطيهم ونجعله مددا لهم من مال يسرهم لهم وبنين تمتعهم بهم ثم اخبر
عن ان يقولهم له تعالى نسارع اي نعجل لهم اي به في الخيرات لا نفعل ذلك
بل لا يشعرون انهم في غاية البعد عن الخيرات ستدرجهم من حيث لا يعلمون
وقال تعالى فلا تعجبك اموالهم ولا اولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة
الدنيا وتزهق انفسهم وهم كافرون وروي عن يزيد بن ميسرة انه قال
اوحى الله الى نبي من الانبياء ايفرح عبدي ان ابسط له الدنيا وهو ابعد
له مني ويجزع ان اقبض عنه الدنيا وهو اقرب له مني وعن الحسن انه لما اتي عمر
بسوار كسرى فاخذه ووضعه في يد سراقة بن مالك فبلغ منكبه فقال عمر
اللهم اني قد علمت ان نبيك عليه الصلاة والسلام كان يحب ان يصيب
مالا لينفقه في سبيلك فزويت ذلك عنه ثم ان ابا بكر كان يحب ذلك
اللهم لا يكون ذلك مكرا منك بي ثم تلا ايحسبون الاية ولما ذكر اهل الافتراق
ذكر اهل الوفاق ووصفهم باربع صفات الاولى قوله تعالى ان الذين هم اي

بواطنهم من خشية ربهم اي الخوف العظيم من المحسن اليهم المنعم عليهم مشفقون
اي دائمو الحذر الصفة الثانية قوله تعالى والذين هم بايات ربهم اي القران
يؤمنون اي يصدقون الصفة الثالثة قوله تعالى والذين هم بربهم اي الذي
لا محسن اليهم غيره لا يشركون اي شيئا من شرك في وقت من الاوقات كما لم
يشركه في الاحسان اليهم احد ولما اثبت لهم الايمان الخالص نفى
عنهم العجب بقوله تعالى والذين يؤتون اي يعطون ما اتوا اي اعطوا من الصدقة
والاعمال الصالحة وهذه الصفة الرابعة وقلوبهم وجلة اي شديدة الخوف
ان لا يقبل منهم ولا ينجيهم من عذاب الله ثم علل ذلك بقوله تعالى انهم
الى ربهم اي الذي طال احسانه اليهم راجعون بالبعث فيجازيهم
على النقير والقطمير ويجزيهم بكل قليل وكثير وهو الناقد البصير ولا تنفع
هناك الندامة وليس هناك الا الحكم العدل والحكم القاطع من جهة مالك
الملك قال الحسن البصري المؤمن جمع ايمانا وخشية والمنافق جمع
اساءة وامنا ثم اثبت لهم ما اثبت لهم ما افهم ان ضده لاضدادهم بقوله تعالى
اولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون اي يبادرون الى الاعمال
الصالحة قبل الموت ولما ذكر تعالى كيفية اعمال المؤمنين المخلصين انه ذكر
تعالى لا يكلف احدا فوق طاقته بقوله تعالى ولا نكلف نفسا الا وسعها
اي طاقتها فمن لم يستطع ان يصلي قائما فليصل مضطجعا ومن لم يستطع
ان يصوم رمضان فليفطر لان مبنى المخلوق على العجز ولدينا اي وعندنا
كتاب ينطق بالحق بما عملته كل نفس وهو اللوح المحفوظ يسطر
فيه الاعمال وقيل كتب الحفظة ونظيره قوله تعالى هذا كتابنا ينطق عليكم
بالحق وقوله تعالى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها فشبه تعالى
الكتاب بمن يصدر عنه الكتاب البيان فان الكتاب لا ينطق لكنه يعرف
بما فيه كما يعرف بنطق الناطق اذا كان محقا فان قيل فما فائدة ذلك الكتاب
مع ان الله تعالى يعلم ذلك اذ لا يخفى عليه ذلك خافية اجيب بان الله تعالى
يفعل ما يشا وقد يكون في ذلك حكمة لا يطلع عليها الا هو وهم اي الخلق
كلهم لا يظلمون اي لا ينقص من حسناتهم ولا يزاد في سيئاتهم ثم ذكر حال
الكفار فقال تعالى بل قلوبهم اي الكفرة من الخلق في غمرة اي جهالة
قد اغرقتها من هذا اي القران او الذي وصف به حال هولاء ومن كتاب
الحفظة ولهم اعمال من دون ذلك المذكور للمؤمنين هم اي الكفار
لها اي تلك الاعمال الخبيثة عاملون اي لا بد ان يعملوها فيعذبون
عليها لما سبق لهم من الشقاوة حتى اذا اخذنا مترفيهم اي روسائهم
واغنياءهم بالعذاب قال ابن عباس هو بالسيف يوم بدر وقيل هو الجوع
دعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اللهم اشدد وطاتك

على مصر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف فابتلاهم الله تعالى بالقحط حتى اكلوا الكلاب والجيف والعظام المحرقة والقد والاولاد **اذا هم يجأرون** اي يصيحون ويستغيثون ويجزعون واصل الجؤار رفع الصوت بالتضرع قاله البغوي فكانه قيل فهل يقبل اعتذارهم او يرحم انكسارهم فقيل لا بل يقال لهم بلسان الحال او المقال **لا تجأروا اليوم** فان الجؤار غير نافع لكم ثم علل ذلك بقوله تعالى **انكم منا لا تنصرون** اي بوجه من الوجوه ومن عدم نصرنا لم يجد له ناصرا فلا فائدة للجؤار الا اظهار الجزع ثم علل عدم نصرهم لهم بقوله تعالى **قد كانت اياتي** اي من القران **تتلى عليكم** اي من اوليائي وهم الهداة النصحاء **فكنتم** كونا هو كالجبلة **على اعقابكم** عند تلاوتها **تنكصون** اي تعرضون مدبرين عن سماعها والعمل بها والنكوص الرجوع الى القهقرى **مستكبرين** عن الايمان واختلف في عود الضمير في **به** فقال ابن عباس بالبيت الحرام وشهرة استكبارهم وافتخارهم بانهم قوامه اغنى عن سبق ذكره وذلك انهم يقولون نحن اهل حرم الله وجيران بيته فلا يظهر علينا احد ولا نخاف احدا فيأمنون فيه وسائر الناس في الخوف وقيل بالقران فلا يؤمنوا به وقوله تعالى **سامرا** نصب على الحال اي جماعة يتحدثون بالليل حول البيت وقوله تعالى **تهجرون** قراءة نافع بضم التاء وكسر الجيم من الاهجار وهو الافحاش اي تفحشون ويقولون الخنا ذكر انهم كانوا يسبون النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه والباقون بفتح التاء وضم الجيم اي يعرضون عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الايمان وعن القران ويرفضونها ويسمون القران سحرا وشعرا ثم انه تعالى لما وصف حالهم رد عليهم بان بين ان اقدامهم على هذه الامور لا بد ان تكون لاحد امور اربعة احدها ان لا يتأملوا في دليل نبوته وهو المراد بقوله تعالى **افلم يدبروا القول** اي القران الدال على صدق النبي صلى الله عليه وسلم واصل يدبروا يتدبروا فادغمت التاء في الدال ثانيها ان يعتقدوا ان ما جاء به الرسول امر على خلاف العادة وهو المراد من قوله تعالى **ام جاءهم** اي القران في هذا القول **ما لم يات اباءهم الاولين** والذين قبل اسماعيل ونحوه ثالثها ان لا يكونوا عالمين بامانته وحسن حاله قبل ادعائه النبوة وهو المراد من قوله تعالى **ام لم يعرفوا رسولهم** اي الذي اتاهم بهذا القول الذي لا قول مثله وهم يعرفون نسبه وصدقه وامانته وما جاء من معاني الاخلاق حتى انهم لا يجدون فيه حقيقة الحقائق نقيصة يذكرونها ولا وصمة يستحلونها كما دلت عليه الاحاديث الصحاح منها حديث ابي سفيان بن حرب الذي في اول البخاري في سؤال هرقل ملك الروم له عن شانه صلى الله عليه وسلم وقد انفقت كلمتهم عليه بتسميته الامين **فهم** اي فتسبب عن جهلهم به انهم **له** اي نفسه او القول الذي

اي به **منكرون** فيكونوا من جهل الحق لجهل حال الاتي به وفي هذا غاية التوبيخ لهم لجهلهم وتبغا ونهم بانهم يعرفون انه اصدق الخلق واعلاهم في كل معنى جميل ثم كذبوه رابعها ان يعتقدوا فيه الجنون فيقولون انما يحمله على ادعاء الرسالة جنونه وهو المراد من قوله تعالى **ام يقولون** اي بعد تدبر ما اتى به وعدم عثورهم فيه على وجه من وجوه الطعن **به** اي رسولهم **جنة** اي جنون فلا يوثق به ولما كانت هذه الاقسام منفية عنه فانهم اعرف الناس بهذا النبي الكريم وانه اكملهم خلقا واشرفهم خلقا واطهرهم شيما واعظمهم هما وارجحهم عقلا وامتنهم رايا وارصنهم قولا واصوبهم فعلا اضرب عنها وقال تعالى **بل** اي انهم لم يتكلموا عند سماع الايات ويسمروا ويهجروا الاعتقاد شيء مما مضى وانما فعلوا ذلك لان هذا الرسول الكريم **جاءهم بالحق** اي القران المشتمل على التوحيد وشرايع الاسلام وقال الجلال المحلي الاستفهام فيه للتقرير بالحق من صدق النبي ومجيء الرسول للامم الماضية ومعرفة رسولهم بالصدق والامانة وان لا جنون به وبل للانتقال **واكثرهم** اي والحال ان اكثرهم **للحق كارهون** متابعة للاهوا الردية والشهوات البهيمية عنادا وانما قيد تعالى الحكم بالاكثر لان بعضهم تركه جهلا وتقليدا وخوفا من ان يقال صبا وبعضهم يتبعه توفيقا من الله تعالى او تاييدا ثم بين تعالى ان اتباع الهوى يؤدي الى الفساد العظيم بقوله تعالى **ولو اتبع الحق** اي القران **اهواءهم** بان جاء بما يهوونه من الشرك والولد لله تعالى الله عن ذلك **لفسدت السموات** على علوها واحكامها **والارض** على كثافتها وانتظامها **ومن فيهن** على كثرتهم وانتشارهم وقوتهم اي خرجت عن نظامها المشاهد بسبب ادعائهم تعدد الالهة لوجود التمانع في الشيء عادة عند تعدد الحاكم كما سبق تقريره في قوله تعالى لو كان فيهما الهة الا الله لفسدتا **بل اتيناهم** بعظمتنا **بذكرهم** اي بالقران الذي فيه ذكرهم وشرفهم وقيل بالذكر الذي تمنوه بقولهم لو ان عندنا ذكرا من الاولين **فهم عن ذكرهم** اي الذي هو شرفهم **معرضون** لا يلتفتون اليه ثم بين تعالى ان النبي صلى الله عليه وسلم لا يطمع فيهم حتى يكون ذلك سببا لنفرتهم بقوله تعالى **ام تسألهم** اي على ما جئتهم به **خرجا** اي اجرا وقرا حمزة والكسائي بفتح الراء وبعدها الف والباقون بسكون الراء ولما كان الانكار معناه النفي حسن موقع فاء السبب في قوله تعالى **فخراج ربك** اي رزقه في الدنيا وثوابه في العقبى **خير** لسعته ودوامه ففيه مندوحة لك عن عطائهم وقرا ابن عامر بسكون الراء والباقون بفتحها والف بعدها قال ابو عمرو بن العلاء الخرج ما تبرعت به والخراج ما لزمك اداؤه قال الزمخشري والوجه ان الخرج اخص من الخراج كقولك خراج القرية وخرج الكرة اي الرقبة زيادة اللفظ لزيادة المعنى ولذلك حسنت قراءة من قرا خرجا

جبلة

فخراج ربك يعني ام تسالهم على هدايتك لهم قليلا من عطا الخلق فالكثير من عطا
الخالق خير وقوله تعالى وهو خير الرازقين تقرير لخيرية خراجه ولما نفى سبحانه
ونفى طريقة القوم انها نصيحة ما جا به الرسول بقوله تعالى وانك لتدعوهم
الى صراط مستقيم تشهد العقول السليمة على استقامته لا عوج فيه
يوجب اتهامهم له كما تشهد لديه العقول الصحيحة فمن سلكه اوصله
الى الغرض فحاز كل شرف تنبيه قد الزمهم الله تعالى الحجة في هذه الايات
وقطع معاذيرهم وعللهم فان الذي ارسل اليهم رجل معروف امره وحاله
مخبور سره وعلنه خليق بان يجتبى مثله للرسالة من بين ظهرانيهم
وانه لم يعارض له حتى يدعي مثل هذه الدعوى العظيمة بباطل ولم يجعل
له سلما الى النيل من دنياهم واستعطاء اموالهم ولم يدعهم الا الى دين
الاسلام الذي هو الصراط المستقيم الا ابراز المكنون من ادوائهم وهو
اخلالهم بالتدبر والتامل من غير برهان وان الذين لا يؤمنون بالاخرة
اي بالبعث والثواب والعقاب عن الصراط اي الذي لا صراط غيره
لانه لا موصل الى المقصد غيره لناكبون اي عادلون منحرفون في سائر احوالهم
على غير منهج اصلا بل خبط عشوى ولو رحمناهم اي عاملناهم معاملة
المرحوم في ازالة ضرورة وهو معنى قوله تعالى وكشفنا ما بهم من ضر
اي جوع اصابهم بمكة سبع سنين للجوا اي عادوا وتمادوا في طغيانهم الذي
كانوا عليه قبل هذا يعمهون اي يترددون ولقد اخذناهم بالعذاب وذلك ان
النبي صلى الله عليه وسلم دعا على قريش ان يجعل عليهم سنين كسني يوسف
فاصابهم القحط فجاء ابو سفيان الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال انشدك
الله والرحم الست تزعم انك بعثت رحمة للعالمين فقال بلى فقال قد
قتلت الاباء بالسيف والابناء بالجوع فقد اكلوا القرث والعظام والعلهز وشكا
اليه الضرع فادع الله يكشف عنا هذا القحط فدعا فكشف عنهم فانزل
الله تعالى هذه الاية تنبيه العلهز وبر يخلط بدما الحلم فيؤكل
في الجدب والعلهز ايضا القراد الضخم وشكا بعض الاعراب الى النبي صلى الله عليه
وسلم السنة فقال ولا شيء مما يؤكل الناس عندنا سوى الحنظل العامي
والعلهز الفسل وليس لنا الا اليك فرارنا واين فرار الناس الا الى
الرسل فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم واستسقى برفع هذه المحن
قال الله تعالى عنهم فما استكانوا اي خضعوا اخضعوا ما هو كالجبلة
لهم واصله طلب السكون لربهم اي المحسن اليهم عقب المحنة
وما يتضرعون اي يجددون الدعاء بالخضوع والذل والخشوع في كل
وقت بحيث يكون لهم عادة بل هم على ما جبلوا عليه من الاستكبار
والعلو حتى اذا فتحنا عليهم بابا ذا اي صاحب عذاب شديد

قال ابن عباس

قال ابن عباس يعني القتل يوم بدر وهو قول مجاهد وقيل هو الموت وقيل هو
قيام الساعة اذا هم فيه اي ذلك الباب مطروحون لا يقدرون منه على نوع
خلاص مبلسون متحيرون ايسون من كل خير ثم انه سبحانه التفت الى خطابهم
وبين عظيم نعمه من وجوه احدها ما ذكره بقوله تعالى وهو الذي انشا اي خلق
لكم يا من يكذب بالاخرة السمع بمعنى الاسماع والابصار على غير مثال سبق
لتحسوا بها ما نصب من الايات والافئدة اي التي هي مراكز العقول فتفكروا
في الايات وتستدلوا بها على الوحدانية فتكتسبوا بها اعلى من بقية الحيوان
مع فواد وهو القلب وانما خص هذه الثلاثة بالذكر لانه يتعلق بها من المنافع
الدينية والدنيوية ما لم يتعلق بغيرها فمن لم يتفكر فيما خلقت له فهو بمنزلة
عادمها كما قال عز وجل فما اغنى عنهم سمعهم ولا ابصارهم ولا افئدتهم
من شيء اذ كانوا يجحدون بايات الله ولما صدر عنهم هذه النعم وهي بحيث لا يشك
عاقل في انه لو تصور ان يعطي ادمي شيئا منها لم يقدر على مكافاته حسن تبكيتهم
وكفر النعم فقال قليلا ما تشكرون تمثلوا ولا كم هذه النعم التي لا يقدر غيره
على شيء منها مع ادعائكم انكم اشكر الناس لمن اسدى اليكم اقل ما يكون من النعم
التي يقدر على مثلها كل احد فكنتم بذلك من الحيوانات العجم صما بكما عميا قال
ابو مسلم ليس المراد ان لهم شكرا وان قل لكنه كما يقال للكفور الجاحد النعمة
ما اقل شكر فلان ثانيها ما ذكره في قوله تعالى وهو اي وحده الذي ذراكم
اي خلقكم وبثكم في الارض للتناسل واليه وحده تحشرون يوم النشور
ثالثها ما ذكره بقوله تعالى وهو اي وحده الذي من شانه انه يحيي ويميت
فلا مانع له من البعث ولا غيره مما يريد رابعها ما ذكره بقوله تعالى وله اختلاف
الليل والنهار اي التصرف فيهما بالسواد والبياض والزيادة والنقصان
افلا تعقلون اي بالنظر والتامل ان الكل منا وان قدرتنا تعم الممكنات
كلها وان البعث من جملتها فتعتبرون ولما كان معنى الاستفهام الانكاري
النفي حسن بعده قوله تعالى انهم قالوا بل قالوا اي هولاء العرب مثل
ما قال الاولون من قوم نوح ومن بعده فقالوا ذلك تقليدا للاولين
ثم حكى الشبهة عنهم من وجهين احدهما ما ذكره بقوله تعالى قالوا اي منكرين
للبعث اي متعجبين من امره ائذا متنا وكنا اي بالبلى بعد الموت ترابا
وعظاما نخرة ثم اكدوا الانكار بقولهم ائنا لمبعوثون اي لمحشورون
بعد ذلك قالوا ذلك استبعادا ولم يتاملوا انهم قبل ذلك ايضا ترابا فخلقوا
ثانيهما ما ذكره بقوله تعالى انهم قالوا لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا اي البعث
بعد الموت من قبل كانهم قالوا ان هذا الوعد كما وقع منه صلى الله عليه
وسلم فقد وقع قديما من سائر الانبياء ولم يوجد مع طول العهد وظنوا ان
الاعادة تكون في دار الدنيا ثم قالوا ان هذا الا اساطير اي الكاذب

الاولين كالاضاحيك والاعاجيب جمع اسطورة بالضم وقيل جمع اسطار جمع
سطر قاله رؤبة اي واسطار سطرن سطرا وهو مما كتبه الاولون مما لا حقيقة
له ولما انكروا البعث هذا الانكار المؤكد ونفوه هذا النفي المحتم امره الله تعالى
ان يقررهم بثلاثة اشياء هم بها مقرون ولها عارفون يلزمهم من تسليمها الاقرار
بالبعث قطعا احدها قوله تعالى قل اي مجيبا لانكارهم البعث ملزما لهم
لمن الارض اي على سعتها وكثرة عجائبها ومن فيها على كثرتهم واختلافهم
ان كنتم اي بما انتم كالجبلة لكم تعلمون اي اهلا للعلم وفيه تنبيه على
انهم انكروا شيئا لا ينكره عاقل ولما كانوا مقرين بذلك اخبر تعالى عن جوابهم
يكون من دلائل النبوة واعلام الرسالة بقوله تعالى استينافا سيقولون
اي قطعا ذلك كله لله اي المختص بصفات الكمال ثم انه تعالى امره بقوله
قل اي لهم اذا قالوا ذلك منكرا عليهم افلا تذكرون اي في ذلك المذكور
اي فطباعكم المقطوع به عندكم ما غفلتم عنه من تمام قدرته وباهر
عظمته فتصدقوا ما اخبر به من البعث الذي هو دون ذلك وتعلموا انه
لا يصلح شي منها وهو ملكه ان يكون شريكا له ولا ولدا وتعلموا ان القادر
على الخلق ابتدا قادر على الاحيا بعد الموت انه لا يصح في الحكمة اصلا
ان يترك البعث لان اقلكم لا يرضى بترك حساب عبيده والعدل بينهم وقرا
حفص وحمزة والكسائي بتخفيف الذال والباقون بالتشديد بادغام التا
الثانية في الذال ثانيها قوله تعالى قل اي لهم من رب خالق ومدبر السموات
السبع كما يشاهدون من حركاتها وسير افلاكها ورب العرش اي الكرسي
العظيم كما قال تعالى وسع كرسيه السموات والارض سيقولون
لله اي الذي له كل شي هو رب ذلك لا جواب لهم غير ذلك ولما تاكد الامر
وزاد على الوضوح حسن التهذيب على التمادي فقال تعالى قل اي منكرا
عليهم افلا تتقون اي تحذرون عبادة غيره ثالثها قوله قل امره الله
تعالى بعد ما قررهم بالعالمين العلوي والسفلي ان يقررهم بما هو اعم
واعظم وقوله تعالى من بيده اي من تحت قدرته ومشيئته ملكوت كل شي
من جن وانس وغيرهما والملكوت الملك البليغ قال ابن كثير كانت العرب
اذا كان السيد فيهم فاجار احدا لا يخفر في جواره وليس لمن دونه ان
يجير عليه لئلا يعاب عليه ولو جار ما ادفاه ولهذا قال تعالى وهو يجير اي
يمنع ويغيث من يشا فيكون من حرز على بعد ان احد على الدنو من ساحته
ولا يجار عليه اي ولا يمكن احدا ابدا ان يجير جوارا يكون مستعليا عليه
بان يكون على غير مراده بل ياخذ من اراد وان نصره جميع الخلائق ويعلي
من اراد وان تحاملت عليه كل المصائب فتبين كالشمس انه لا شريك
يمانعه ولا ولد يضارعه وان السيد العظيم الذي لا اعظم منه الذي

له الخلق

له الخلق والامر ولا معقب لحكمه وما شا كان وما لم يشا لم يكن ثم الهمهم الى المبادرة
الى الاعتراف به وهيجهم بقوله تعالى ان كنتم تعلمون اي في اعداد من يعلم ولذلك
استانف قوله تعالى سيقولون لله اي الذي بيده ذلك خاصا به تنبيه
سيقولون لله الاولى لا خلاف فيها واما الثانية والثالثة فقرا ابو عمرو
سيقولون الله بزيادة همزة الوصل مع التفخيم فيهما ورفع الها والباقون
بغير همزة الوصل مع الترقيق وكسر الها والتقدير ذلك كله لله ولما كان جوابهم
بذلك يقتضي انكار توقفهم في الاقرار بالبعث استانف قوله تعالى قل اي
لهم منكرا عليهم فانى تسحرون اي فكيف بعد اقراركم بهذا كله تخدعون
وتصرفون عن الحق وكيف يخيل لكم انه باطل ولما كان الانكار بمعنى النفي
حسن قوله تعالى بل اي ليس الامر كما يقولون اتيناهم بالحق اي بالصدق
من التوحيد والوعد بالنشور وانهم لكاذبون في كل ما ادعوه من الولد
والشريك وغيرهما مما بين القران فساده ومن اعظم كذبهم قولهم اتخذ الرحمن
ولدا ولذا قال تعالى ردا عليهم ما اتخذ الله اي الذي لا كفو له من ولد اي من
الملائكة ولا من غيرهم لما قام من الادلة على غناه وانه لا يجانسه له ولما كان
الولد اخص من مطلق الشريك قال تعالى وما كان معه اي بوجه من الوجوه
من اله يشابهه في الالوهية اذا لو كان معه اله اخر لذهب كل اله بما خلق
بالتصرف فيه وحده ليتميز ما له مما لغيره فان قيل اذا لا تدخل الا على كلام هو جزا
وجواب فكيف وقع قوله تعالى لذهب جزا وجوابا ولم يتقدمه شرط ولا سؤال
سائل اجيب بان الشرط محذوف تقديره ولو كان معه الهة وانما حذف
لدلالة قوله تعالى وما كان معه من اله عليه وهو جواب لمن معه المحاجة من
المشركين ولعلا بعضهم اي بعض الالهة على بعض اذا تخالفت اوامرهم
فلم يرض احد منهم ان يضاف ما خلقه الى غيره ولا ان يمضي فيه امر على غير
مراده كما هو مقتضى العادة فلا يكون المغلوب الها لعجزه ولا يكون مجيرا
غير مجار عليه بيده وحده ملكوت كل شي ولما طابق الدليل الالزام على نفي
الشريك نزه نفسه الشريفة بقوله تعالى ما هو نتيجة ذلك سبحان
الله اي المتصف بجميع صفات الكمال المنزه عن شائبة كل نقص عما
يصفون عما من كل ما لا يليق بجنابه المقدس من الانداد والاولاد لما
تبين من الدليل على فساده ثم اقام دليلا اخر على كماله بوصفه بقوله تعالى
عالم الغيب والشهادة اي ما غاب وما شوهد وقرا نافع وحفص وحمزة
والكسائي برفع الميم على انه خبر مبتدا محذوف تقديره هو والباقون
بالخفض على انه صفة لله ثم رتب على هذا الدليل قوله تعالى فتعالى اي تعاظم
عما يشركون معه من الالهة ثم ان الله تعالى امر نبيه صلى الله عليه
وسلم بقوله تعالى قل رب اي ايها المحسن الي اما فيه ادغام نون

ان الشرطية في ما الزائدة اي ان كان لابد ان تريني لان ما والنون للتاكيد
ما يوعدون من العذاب في الدنيا والاخرة رب فلا تجعلني باحسانك الي
في القوم الظالمين اي قرينا لهم في العذاب فان قيل كيف يجوز ان يجعل
الله نبيه صلى الله عليه وسلم المعصوم مع الظالمين حتى يطلب ان لا يجعل
معهم اجيب بانه يجوز ان يسال العبد ربه ما علم انه يفعله وان يستعيذ
به مما علم انه لا يفعله اظهارا للعبودية وتواضعا لربه واخباتا له واستغفاره
صلى الله عليه وسلم اذا قام من مجلسه سبعين مرة او مائة مرة لذلك وما
احسن قول الحسن في قول ابي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وليتكم ولست
بخيركم كان يعلم انه خيرهم ولكن المؤمن يهضم نفسه وانما ذكر ربه مرتين
مرة قبل الشرط ومرة قبل الجزاء مبالغة في التضرع وانا اي بما لنا من العظمة
على ان نريك قبل موتك ما نعدهم من العذاب لقادرون لكنا نؤخره
علما بان بعضهم او بعض اعقابهم يؤمنون وهو صادق بالقتل يوم بدر
وفتح مكة ثم كانه قال فماذا افعل فيما تفعل من امرهم فقال تعالى ادفع بالتي
هي احسن اي من الاقوال والافعال بالصفح والمداراة السيئة اذاهم
اياك وهذا قبل الامر بالقتال فهي منسوخة وقيل محكمة لان المداراة محثوث
عليها ما لم تؤد الى نقصان دين او مروءة نحن اعلم بما يصفون في حقك
وحقنا فلو شئنا منعناهم منه او عاجلناهم بالعذاب وليس احد
باغير منا فاصبر كما صبر اولوا العزم من الرسل ولما ادب سبحانه وتعالى رسوله
صلى الله عليه وسلم بانه يدفع بالتي هي احسن علمه ما يتقوى به على ذلك
قوله تعالى وقل رب اي ايها المحسن الي اعوذ بك اي التجئ اليك من
همزات الشياطين اي ان يصلوا الي بوساوسهم واصل الهمز
النخس ومنه مهماز الرائض شبه حثهم الناس على المعاصي بهمز الرائض
الدواب على المشي والجمع همزات للمرات او لتنوع الوسواس او لتعدد المضاف
اليه واعوذ بك رب اي ايها المربي لي ان يحضرون في حال من الاحوال
خصوصا حال الصلاة وقراءة القرآن وحلول الاجل لانها احرى الاحوال
وهم انما يحضرون خصوصا حال الصلاة وقراءة القرآن وانما يحضرون بسوء
ولو لم تصل وساوسهم فان بعدهم بركة وعن جبير بن مطعم قال رايت النبي
صلى الله عليه وسلم يصلي صلاة قال عمرو لا ادري اي صلاة هي فقال الله
اكبر كبيرا ثلاثا والحمد لله كثيرا ثلاثا وسبحان الله بكرة واصيلا
ثلاثا اعوذ بالله من الشيطان الرجيم من نفخه ونفثه وهمزه قال نفثه
الشعر ونفخه الكبر وهمزه الموتة اخرجه ابو داود ولان الشعر يخرج من
القلب فيلفظ به اللسان وينفثه كما ينفث الريق والمتكبر ينفخ نفسه
ويتعاظم ويجمع نفسه ويحتاج الى ان يجمع ينفخ والموتة الجنون

يصير

يصير في الدنيا كالميت ثم ان الله تعالى اخبر ان هؤلاء الكفار الذين ينكرون البعث
يسالون الرجعة الى الدنيا عند معاينة الموت بقوله تعالى حتى وهي هنا كما قال
الجلال المحلي ابتدائية او متعلقة بيصفون او بكاذبون كما قال الزمخشري وقدم
المفعول ليذهب الوهم في فاعله كل مذهب فقال اذا جاء احدهم الموت فكشف
له الغطاء وظهر له الحق ولاحت له بوارق العذاب ولم يبق في شيء من ذلك ارتياب
قال تحسرا على ما فرط فيه من الايمان والطاعة مخاطبا لملائكة العذاب
على عادة جهله ووقوفه مع المحسوس من دأب البهائم رب ارجعون اي ردوني
الى الدنيا دار العمل ويجوز ان يكون الجمع له تعالى وللملائكة او للتعظيم على
عادة مخاطبات الاكابر سيما الملوك كقوله الا فارحموني يا اله محمد وقوله فان
شئت حرمت النساء سواكم او القصد تكرير الفعل للتاكيد لانه في معنى
ارجعني ارجعني كما قيل في اطرقا وقفا فانهما في معنى قف قف واطرق اطرق
ولما كان في تلك الحالة مع وصوله الى الغرغرة ليس على القطع من الياس قال
لعلي اعمل اي لاكون على رجاء من ان اعمل صالحا فيما تركت اي ضيعت من الايمان
بالله وتوابعه فيدخل في الاعمال الاعمال البدنية والمالية وعنه صلى الله عليه
وسلم اذا عاين المؤمن الملائكة قالوا نرجعك الى الدنيا فيقول الى دار الهموم والاحزان
بل قدوما على الله واما الكافر فيقول رب ارجعون لعلي اعمل صالحا فيما تركت
قال قتادة ما تمنى ان يرجع الى اهله ولا عشيرته ولا ليجمع الدنيا ويقضي
الشهوات ولكن تمنى ان يرجع فيعمل بطاعة الله فرحم الله امرا عمل فيما تمناه الكافر
اذا راى العذاب وقال ابن كثير كان العلاء بن زياد يقول لينزل احدكم
نفسه انه قد حضره الموت واستقال ربه فاقاله فليعمل بطاعة الله تعالى
ولما كان القضاء قد قطع بانه لا يرجع ولو رجع لم يعمل بطاعة الله عز وجل ولو ردوا
لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون قال الله تعالى له ردعا وردا لكلامه
كلا اي لا يكون شيء من ذلك كانه قيل فما حكم ما قال فقيل انها كلمة والمراد
بالكلمة في اللغة الطائفة من الكلام المنتظم بعضها مع بعض رب ارجعون
الى اخره هو قائلها وقد عرف منه الخداع والكذب فهي كما عهد منه لا حقيقة
لها فلا يجاب لها ولا تسمع منه ولا يسكت عنها الا انه الحسرة عليه وتسلط
الندم ومن ورائهم اي امامهم والضمير للجماعة برزخ اي حاجز حائل بينهم
وبين الرجعة واختلف في معناه فقال مجاهد حجاب بينهم وبين الرجوع الى
الدنيا وقال قتادة بقية الدنيا وقال الضحاك البرزخ ما بين الموت
الى البعث وقيل هو الموت وقيل هو القبر هم فيه الى يوم يبعثون وهو يوم القيامة
وفي هذا اقناط كلي عن الرجوع الى الدنيا لما علم انه لا رجعة يوم البعث الى الدنيا
وانما الرجوع فيه الى حياة تكون في الاخرة فاذا نفخ في الصور اي القرن روى
سعيد بن جبير عن ابن عباس انها النفخة الاولى ونفخ في الصور فصعق من في

السموات ومن في الارض **فلا انساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون** ثم نفخ
فيه اخرى فاذا هم قيام ينظرون واقبل بعضهم على بعض يتساءلون وعن ابن
مسعود انها النفخة الثانية قال يؤخذ بيد العبد والامة يوم القيامة
فينصب على رؤس الاولين والاخرين ثم ينادي مناد هذا فلان بن فلان فمن كان
له قبله حق فلياتِ الى حقه فيفرح المرء ان يكون له حق على والده وولده او زوجته
فياخذ منه ثم قرا ابن مسعود فلا انساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون
وفي رواية عطاء عن ابن عباس انها النفخة الثانية فلا انساب بينهم اي لا يتفاخرون
بالانساب يومئذ كما كانوا يتفاخرون في الدنيا ولا يتساءلون سؤال تواصل
كما كانوا يتساءلون في الدنيا من انت ومن اي قبيلة انت ولم يرد ان الانسان
ينقطع نسبه فان قيل قد قال تعالى هنا ولا يتساءلون وقال تعالى في موضع
اخر واقبل بعضهم على بعض يتساءلون اجيب بان ابن عباس قال واقبل
ان للقيامة احوالا ومواطن ففي موطن يشتد عليهم الخوف فيشغلهم
عن عظيم الامر عن التساؤل فلا يتساءلون وفي موطن يفيقون افاقة
فيتساءلون وقيل التساؤل بعد دخول اهل الجنة الجنة واهل النار
النار **فمن ثقلت موازينه** اي بالاعمال المقبولة قال البقاعي ولعل الجمع
لان لكل عمل ميزانا يعرف انه لا يصلح له غيره وذلك ادل دليل على القدرة
فاولئك اي خاصة قال ايضا ولعله عمل ميزانا يعرف انه لا يصلح له غيره
وذلك ادل جمع للبشارة بكثرة الناجي بعد ان افرد للدلالة على كثرة الاعمال
او على عموم الوزن لكل فرد **هم المفلحون** اي الفائزون بالنجاة والدرجات
العلى **ومن خفت موازينه** لاعراضه عن تلك الاعمال المؤسسة على
الايمان **فاولئك** خاصة **الذين خسروا انفسهم** لاهلاكهم اياها باتباعهم
شهواتها في دار الاعمال وشغلها باهوائها عن مراتب الكمال وقوله تعالى
في جهنم خالدون بدل من الصلة او خبر ثان لاولئك وهي دار لا يفك
اسيرها ولا يطفى سعيرها ثم استانف قوله تعالى **تلفح** اي تغشى بشدة
حرها وسمومها ولهبها **وجوههم النار** فتحرقها فما ظنك بغيرها
واللفح كالنفخ الا انه اشد تاثيرا **وهم فيها كالحون** اي عابسون قد
شمرت شفاههم العليا والسفلى عن اسنانهم وعن ابي سعيد الخدري
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال تشويه النار فتقلص شفته
العليا حتى تبلغ وسط راسه وتسترخي شفته السفلى حتى تضرب
سرته وقوله **الم تكن اياتي** اي من القران على اضمار القول اي يقال
لهم الم تكن اياتي **تتلى عليكم** اي تتابع لكم قراءتها في الدنيا شيئا فشيئا
فكنتم بها تكذبون ثم استانف جوابه بقوله تعالى **قالوا ربنا** اي
المحسن علينا نعمه **غلبت علينا شقوتنا** اي ملكتنا بحيث صارت احوالنا موجبة

اليسو

لسوء العاقبة **وكنا** اي بما جبلنا عليه **قوما ضالين** في ذلك عن الحق اغوياء فوجبت الشقوة
فكان سببا للضلال عن طريق السعادة **ربنا** يا من عودنا بالاحسان **اخرجنا منها** اي من
النار تفضلا منك على عادة فضلك وردنا الى دار الدنيا نعمل ما يرضيك **فان عدنا** الى
مثل ذلك الضلال **فانا ظالمون** لانفسنا ثم استانف جوابهم بان **قال** لهم بلسان
مالك بعد قدر الدنيا مرتين كما يقال للكلب **اخسؤوا** اي انزجروا زجر الكلاب
وانطردوا عن مخاطبتي ساكتين سكوت هوان **فيها** اي النار **ولا تكلمون** اصلا
فانكم لستم باهل لمخاطبتي لانكم لم تزالوا متصفين بالظلم قيل ان القوم بعد ذلك لم
يتكلموا بكلمة الا الزفير والشهيق والعواء كعواء الكلاب وقال القرطبي اذا قيل لهم ذلك
انقطع رجاؤهم واقبل بعضهم ينبح في وجه بعض فاطبقت عليهم وعن ابن عباس
ان لهم ست دعوات اذا دخلوا النار قالوا ربنا ابصرنا وسمعنا فيجابون اولم تكونوا
فينادون الفا اخرجنا نعمل صالحا فيجابون اولم نعمركم فينادون الفا ربنا ارجعون فيجابون
اخسؤوا فيها ولا تكلموا ثم لا يكون لهم الا الزفير والشهيق وعواؤهم علل ذلك بقوله **انه كان** اي
كونا ثابتا **فريق** اي ناس استضعفوهم **من عبادي** وهم المؤمنون **يقولون** مع الاستمرار **ربنا**
اي ايها المحسن الينا بالخلق والرزق اي اوفقنا الايمان بجميع ما جاءتنا به الرسل
فاغفر لنا اي استر لنا زللنا **وارحمنا** اي افعل بنا فعل الراحم **وانت خير الراحمين**
لان من تخلص برحمتك من رحمته من كل شقا وهوان **فاتخذتموهم** اي فتسبب عن ذلك انكم
اتخذتموهم **سخريا** اي تسخرون منهم وتستهزئون بهم وقرا نافع وحمزة والكسائي بضم السين
والباقون بالكسر وهو مصدر سخر كالسخر الا ان في ياء النسب زيادة قوة في الفعل كما قيل
الخصوصية في الخصوص وعن الكسائي والفراء ان المكسور من الهزء والمضموم من السخرة والعبودية
اي تسخروهم واستعبدوهم قال الزمخشري والاول مذهب الخليل وسيبويه واظهر الذال
عند التاء ابن كثير وحفص والباقون بالادغام **حتى انسوكم ذكري** اي بان تذكروني
فتخافوني واضاف ذلك اليهم لانهم كانوا السبب فيه لفرط اشتغالهم بالاستهزاء بهم
وكنتم منهم تضحكون استهزاء بهم نزلت في كفار قريش كانوا يستهزئون بالفقراء
من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل بلال وعمار وصهيب وخباب ولما تشوفت
النفس بعد العلم بما فعل باعدائهم الى جزائهم قال تعالى **اني جزيتهم اليوم** اي
النعيم المقيم **بما صبروا** اي على عبادتي ولم يشغلهم عنها نيلهم باذاكم
كما يشغلكم عنها التذاذكم باهانتهم ففازوا دونكم وهو معنى قوله تعالى
انهم هم الفائزون اي بمطلوبهم الناجون من عذاب النار وقرا حمزة
والكسائي بكسر الهمزة على الاستئناف والباقون بفتحها على انه مفعول ثان
لجزيتهم ثم ان الله تعالى **قال** لهم على لسان الملك المامور بسؤالهم تبكيتا
وتوبيخا لانهم كانوا يظنون ان بعد الموت يدوم الفناء ولا اعادة فلما
حصلوا في النار وايقنوا انها دائمة وانهم فيها مخلدون سالهم **كم لبثتم في الارض**
على تلك الحال في الدنيا التي كنتم تعدونها فوزا **عدد سنين** اانتم فيها

ظالمون ولا عدائكم فانا ظالمون وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي قال كم بضم القاف
وسكون اللام على الامر للملك او لبعض رؤساء اهل النار والباقون بفتح القاف
واللام والف بينهما خبرا وتقدم توجيهه واظهر الثاء المثلثة عند التاء المثناة
نافع وابن كثير وعاصم وادغمها فيها الباقون قالوا لبثنا يوما او بعض يوم تشكون في
ذلك فان قيل كيف يصح في جوابهم ان يقولوا ذلك ولا يقع من اهل النار الكذب
اجيب بانهم نسوا ذلك لكثرة ما هم فيه من الاهوال وقد اعترفوا بهذا النسيان
حيث قالوا فاسئل العادين اي الملئكة المحصين اعمال الخلق قال ابن عباس
انساهم ما كانوا فيه من العذاب بين النفختين وقيل قالوا ذلك تصغيرا للبثهم
وتحقيرا له بالاضافة الى ما وقعوا فيه من دوام العذاب قال بعضهم لان ايام
الشقا طويلة كما ان ايام السرور قصار وقرأ ابن كثير والكسائي بفتح السين
وترك الهمز بعدها وكذا يفعل حمزة في الوقف والباقون بسكون السين وهمزة
مفتوحة بعدها قال الله تعالى على لسان الملك ان اي ما لبثتم اي في الدنيا
الا قليلا لان الواحد وان طال مكثه في الدنيا فانه يكون قليلا في جنب ما يلبث
في الاخرة لو انكم كنتم تعلمون اي عداد من يعلم في ذلك الوقت لما اثرتم
الفاني على الباقي ولا قبلتم على ما ينفعكم ولتركتم افعالكم التي لا يرضاها عاقل
ولكنكم كنتم في عداد البهائم وقرأ حمزة والكسائي قل امرا والباقون قال خبرا
ولبثتم تقدم مثله وتوجيهه قال وقل ثم وبخهم الله تعالى على لسان الملك
افحسبتم انما خلقناكم على ما لنا من العظمة وقوله تعالى عبثا اي عابثين
كقوله لاعبين مفعول له اي ما خلقناكم للعبث ولم يدعنا الى خلقكم الا حكمة
اقتضت ذلك وهي ان نتعبدكم ونكلفكم المشاق من الطاعات وترك المعاصي
وانكم حسبتم الينا لا ترجعون في الاخرة للجزاء وروى البغوي بسنده
عن انس ان رجلا مصابا مر به على ابن مسعود فرقاه في اذنه افحسبتم
انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون حتى ختم السورة فبرأ فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده لو ان رجلا موقنا
قرأها على جبل لزال وقرأ حمزة والكسائي بفتح التاء الفوقية وكسر
الجيم والباقون بضم الفوقية وفتح الجيم ثم نزه سبحانه وتعالى نفسه
عما يقوله ويصفه به المشركون بقوله تعالى فتعالى الله اي الملك الذي
له الجلال والجمال علوا كبيرا عن العبث وغيره مما لا يليق به الملك اي المحيط
باهل مملكته علما وقدرة وسياسة وحفظا ورعاية الحق اي الذي لا
يتطرق الباطل اليه من شيء في ذاته ولا في صفاته فهو متعال عن سمات
النقص فلا زوال له ولا لملكه لا اله الا هو فلا يوجد له نظير اصلا
في ذاته ولا في صفاته فهو متعال عن النقص والعبث ثم زاد في التعيين
والتاكيد والتفرد بوصفه بصفة لا يدعيها غيره بقوله تعالى رب العرش

اي السرير



اي السرير المحيط بجميع الكائنات الذي تنزل منه محكمات الاقضية والاحكام ولذا
وصفه بالكرم فقال الكريم او لنسبته الى اكرم الاكرمين ولما بين سبحانه وتعالى
ان الملك الحق لا اله الا هو اتبعه بان من ادعى مع الله الها اخر فقد ادعى باطلا بقوله
ومن يدع مع الله اي الملك الذي لا كفؤ له الها اخر بعبده لا برهان له به
اي بسبب دعائه بذلك اذا اجتهد في اقامة برهان على ذلك لم يجده ذكر
من قال ذلك فجزاؤه العقاب العظيم بقوله تعالى فانما حسابه
اي جزاؤه الذي لا يمكن زيادته ولا نقصه عند ربه اي الذي رباه ولم
يربه احد سواه الذي هو اعلم بسريرته وعلانيته فلا يخفى عليه شيء من امره
ولما فتح السورة بقوله قد افلح المؤمنون ختمها بقوله انه لا يفلح الكافرون
اي لا يسعدون فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة ولما شرح الله تعالى
احوال الكفار في جهلهم في الدنيا وعذابهم في الاخرة امر الله تعالى رسوله
عليه الصلاة والسلام بالانقطاع اليه والالتجاء الى غفرانه ورحمته
بقوله تعالى وقل رب اي ايها المحسن الي اغفر وارحم اي اكرمني
بهذين الوصفين وانت خير الراحمين فمن رحمته افلح بما توفقه له من
امثال ما اشرت اليه اول السورة فكان من المؤمنين فكان من الوارثين
الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون فقد انطبق على الاول هذا الاخر
بفوز كل مؤمن وخيبة كل كافر فنسال الله تعالى ان يكون لنا ولوالدينا
ولاحبابنا ارحم راحم وخير غافر فانه المتولي السرائر والمرجو لاصلاح الضمائر
وما رواه البيضاوي تبعا للزمخشري من انه صلى الله عليه وسلم قال
من قرأ سورة المؤمنين بشرته الملئكة بالروح والريحان وما تقر به عينه
عند نزول ملك الموت حديث موضوع وقوله ايضا تبعا للزمخشري ان اول
سورة قد افلح واخرها من كنوز العرش من عمل بثلاث ايات من اولها واتعظ
باربع ايات من اخرها فقد نجا وافلح قال شيخ شيخنا ابن حجر حافظ عصره لم اجده

سورة النور مدنية وهي ثنتان او اربع وستون اية

بسم الله الذي تمت كلمته فبهرت قدرته الرحمن الذي ظهرت الخلائق
كلها بشمول رحمته الرحيم الذي شرف من اختاره بخدمته وقوله
تعالى سورة خبر لمبتدأ محذوف تقديره هذه سورة اي عظيمة
او سورة انزلناها مبتدأ موصوف والخبر محذوف اي فيما اوحينا
اليك سورة انزلناها وقال الاخفش لا يبعد الابتداء بالنكرة فسورة
مبتدأ وانزلناها خبره ثم رغب في امتثال ما فيها مبينا ان تنوينها
للتعظيم بقوله تعالى انزلناها اي بما لنا من العظمة وتمام العلم
والقدرة وفرضناها اي قدرنا ما فيها من الحدود وقيل

وحياها عليكم وعلى من بعدكم الى قيام الساعة وقرا ابن كثير وابو عمرو بتشديد
الرا لكثرة الفروض فيها والباقون بالتخفيف **وانزلنا فيها آيات** من الحدود
والاحكام والمواعظ والامثال وغيرها **بينات** اي واضحات الدلالات
لعلكم تذكرون اي تتعظون وقرا حفص وحمزة والكسائي بتخفيف الذال
والباقون بالتشديد ثم انه تعالى ذكر في السورة احكاما الحكم الاول قوله
تعالى **الزانية والزاني** اي غير المحصنين لرجمهما بالسنة وال فيما ذكر
موصولة وهو مبتدا ولشبهه بالشرط دخلت الفا في خبره وهو
فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة اي ضربة يقال جلده ضرب
جلده ويزاد على ذلك بالسنة تغريب عام والرقيق على النصف مما ذكر
ولا رجم عليه لانه لا ينتصف واعلم ان الزنا من الكبائر ويدل عليه امور
احدها ان الله تعالى قرنه بالشرك وقتل النفس في قوله تعالى ولا يزنون
ومن يفعل ذلك يلق اثاما ثانيها قوله تعالى ولا تقربوا الزنا انه كان
فاحشة وساء سبيلا ثالثها ان الله تعالى اوجب المائة فيه بكمالها
بخلاف حد القذف وشرب الخمر وشرع فيه الرجم وروى حذيفة
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يا معشر الناس اتقوا الزنا فان فيه
ست خصال ثلاث في الدنيا وثلاث في الآخرة اما اللاتي في الدنيا
فيذهب البها ويورث الفقر وينقص العمر واما اللاتي في الآخرة فسخط
الله سبحانه وسوء الحساب وعذاب القبر النار وعن عبد الله قال
قلت يا رسول الله اي الذنب اعظم عند الله قال ان تجعل لله ندا
وهو خلقك قلت ثم اي قال ان تقتل ولدك خشية ان ياكل
معك قلت ثم اي قال ان تزني بحليلة جارك فانزل الله تعالى تصديقا
لذلك والذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم
الله الا بالحق ولا يزنون والزنا ايلاج حشفة او قدرها من الذكر
المتصل الاصلي من الآدمي الواضح ولو اشل وغير منتشر وكان ملفوفا
في خرقة بقبل محرم في نفس الامر لعينه خال عن الشبهة المسقطة
للحد مشتهى طبعا بان كان فرج آدمي حي ولا يشترط ازالة البكارة
حتى لو كانت غورا وادخل الحشفة فيها ولم تزل بكارتها ترتب عليه
حد الزنا بخلاف التحليل لا بد فيه من ازالة البكارة لقوله صلى الله عليه
وسلم حتى تذوقي عسيلته واختلف في اللواط هل يطلق عليه اسم
الزنا او لا فقال بعضهم يطلق عليه لقوله صلى الله عليه وسلم اذا اتى
الرجل الرجل فهما زانيان والذي عليه اكثر اصحابنا انه غير داخل تحت
اسم الزنا لانه لو حلف لا يزني فلاط لم يحنث والحديث محمول على الاثم
بدليل قوله صلى الله عليه وسلم اذا اتت المراة المراة فهما زانيتان

والثاني

والثاني في حده قولان اصحهما ان الفاعل ان كان محصنا فانه يرجم والا فيجلد مائة
ويغرب عاما واما المفعول فلا يتصور فيه احصان فيجلد ويغرب والقول
الثاني يقتل الفاعل والمفعول به سواء كان محصنا ام لا لما روي عن ابن عباس
انه قال من عمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به واما اتيان البهيمة
فحرام باجماع الامة واختلف في عقوبته على اقوال احدها حد الزنا فيرجم المحصن
ويجلد غيره ويغرب والثاني انه يقتل محصنا كان او غير محصن لما روي عن ابن
عباس انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من اتى بهيمة فاقتلوه واقتلوها
معه والثالث وهو الاصح انه يعزر لان الحد شرع للزجر عما تميل النفس اليه
وضعفوا حديث ابن عباس لضعف اسناده وهو وان ثبت فهو معارض
بما روي انه صلى الله عليه وسلم نهى عن ذبح الحيوان الا لماكلة واما السحق من
النسوان واتيان المراة الميتة والاستمنا باليد فلا يشرع في شيء من ذلك
الا التعزير والمقيم للحد الامام او نائبه وللسيد ان يقيم الحد على رقيقه
ولا يجوز الشفاعة في اسقاط الحد ولا تركه ولا تخفيفه كما قال تعالى **ولا
تاخذكم** اي على اي حال من الاحوال **بهما رافة** اي رحمة ورقة فتعطلوا الحدود
ولا تقيموها وقرا ابن كثير بفتح الهمزة والباقون بسكونها والسوسي على اصله
من البدل وقيل معنى الرافة ان تخففوا الضرب **في دين الله** اي الذي
شرعه لكم ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت
يدها وروي ان عمر جلد جارية له زنت فقال للجلاد اضرب ظهرها ورجليها
فقال له ابنه ولا تاخذكم بهما رافة في دين الله فقال يا بني ان الله لم يامرني
بقتلها وقد ضربت فاوجعت ثم انه سبحانه وتعالى زاد في الحض على ذلك
بقوله تعالى **ان كنتم تؤمنون بالله** الذي هو ارحم الراحمين فانه ما
شرع ذلك الا رحمة للناس عموما وللزانيين خصوصا فلا تزيدوا في الحد
ولا تنقصوا منه شيئا وفي الحديث يؤتى بوال نقص من الحدود شيئا
فيقول رحمة لعبادك فيقال انت ارحم مني فيؤمر به الى النار ويؤتى بمن
زاد سوطا فيقول لينتهوا عن معاصيك فيؤمر به الى النار وعن ابي هريرة
اقامة حد بارض خير من مطر اربعين ليلة ثم اتبع ذلك بما هو هيبة بقوله تعالى
واليوم الآخر الذي يحاسب فيه على النقير والقطمير والخفي والجلي
وليشهد اي وليحضر **عذابهما** اي حدهما اذا اقيم عليهما **طائفة
من المؤمنين** والطائفة الفرقة التي يمكن ان تكون حلقة واقلها ثلاثة
واربعة وهي صفة غالبة كانها الجماعة الحافة حول الشيء وعن ابن
عباس في تفسيرها اربعة الى اربعين رجلا من المصدقين بالله وعن
الحسن عشرة وعن قتادة ثلاثة فصاعدا وعن عكرمة رجلان فصاعدا
وعن مجاهد اقلها رجل فصاعدا وقيل رجلان وفضل قول ابن عباس

ها

لان الاربعة هي الجماعة التي يثبت بها الزنا ولا يجب على الامام حضور رجم ولا على
الشهود لانه صلى الله عليه وسلم امر برجم ماعز والغامدية ولم يحضر رجمهما
وانما خص المومنين بالحضور لان ذلك افضح والفاسق بين صلحا قوم اخجل
ويشهد له قول ابن عباس الى اربعة رجال من المصدقين بالله تنبيه الضرب
يكون بسوط لا جديد يجرح ولا خلق لا يؤلم ويفرق بين السياط على اعضائه
ولا يجمعها في موضع واحد واتفقوا على انه يتقي المهالك كالوجه والبطن
والفرج ويضرب على الراس لقول ابي بكر اضرب على الراس فان الشيطان
فيه ولا يشد يده وينزع الثياب التي تمنع الم الضرب كالفرو ولو فرق سياط
الضرب تفريقا لا يحصل به التنكيل مثل ان يضرب كل يوم سوطا او سوطين
فان فرق وضرب والالم موجود كفى وان وجد الحد على حامل لا يقام عليها حتى
تضع وترضعه حتى يفطم ويندب ان يحفر للمراة الى صدرها ان ثبت زناها
بالبينة لا باقرارها ولا يندب للرجل مطلقا وان وجب الحد على المريض نظر
ان كان يرجى زواله كصداع اخر ولا يرجى كالزمانة فلا يؤخر ولا يضرب
بالسياط بل بعثكال عليه مائة شمراخ فيقوم ذلك مقام جلده واما في
حال الحر والبرد الشديدين فان كان الحد رجما لم يؤخر لان النفس مستوفاة
وان كان جلدا اخر الى اعتدال الهوا ويقبل رجوع الزاني عن اقراره ولو
في اثناء الحد واذا مات في الحد يغسل ويكفن ويصلى عليه ويدفن
في مقابر المسلمين الحكم الثاني قوله تعالى الزاني لا ينكح
اي لا يتزوج الا زانية او مشركة اي المعلوم اتصافه
بالزنا مقصور نكاحه على زانية او مشركة والزانية لا ينكحها اي لا يتزوجها
الا زان او مشرك اي والمعلوم اتصافها بالزنا مقصور نكاحها
على زان او مشرك اذ الغالب ان المايل الى الزنا لا يرغب في نكاح الصوالح
والمسافحة لا يرغب فيها الصلحا فان المشاكلة علة الالفة والانضمام
والمخالفة سبب النفرة والافتراق وقال بعضهم الجنسية علة الضم
والمشاكلة سبب المواصلة والمخالفة توجب المباعدة وتحرم المؤالفة
وعن ابي هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال الرجل على دين خليله
فلينظر احدكم من يخالل وعن علي رضي الله تعالى عنه انه خطب اهل الكوفة
بعد ثلاثة ايام من مقدمه عليهم فقال يا اهل الكوفة قد علمنا شراركم
من خياركم فقالوا وكيف وما لك الا ثلاثة ايام فقال كان معنا شرار وخيار
فانضم خيارنا الى خياركم وشرارنا الى شراركم وعن الشعبي انه قال
ان لله ملكا موكلا بجمع الاشكال بعضها مع بعض وقال القايل
عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ● وكل قرين بالمقارن يقتدي
فان قيل لم قدمت الزانية على الزاني اولا ثم قدم عليها ثانيا اجيب

بان تلك الاية سيقت لعقوبتهما على ما جنيا والمراة هي المادة التي منها نشات
الجناية لانها لو لم تطمع الرجل ولم تمكنه لم يطمع ولم يتمكن فلما كانت اصلا
واولا في ذلك بدي بذكرها واما الثانية فمسوقة بذكر النكاح والرجل
اصل فيه لانه الراغب فيه والخاطب ومنه يبدء الطلب وحرم ذلك اي
نكاح الزاني والزانية تحريما لا مشوبة فيها على المومنين واختلف العلما
في معنى الاية وحكمها فقال قوم منهم مجاهد وعطاء وقتادة والزهري والشعبي
ورواية عن ابن عباس قدم المهاجرون المدينة وفيهم فقرا لا مال لهم ولا عشاير
وبالمدينة نسا بغايا هن يومئذ اخصب اهل المدينة فرغب ناس من
فقرا المدينة المسلمين في نكاحهن لينفقن عليهم فاستاذنوا رسول الله
صلى الله عليه وسلم في ذلك فنزلت هذه الاية وحرم ذلك على المومنين ان
يتزوجوا تلك البغايا لانهن كن مشركات وقال عكرمة نزلت في نسا كن
بمكة والمدينة لهن رايات يعرفن منهن ام مهزول داية السايب بن ابي
السايب المخزومي وكان الرجل ينكح الزانية في الجاهلية يتخذها ماكلة فاراد
ناس من المسلمين نكاحهن على تلك الصفة فاستاذن رجل منهم النبي
صلى الله عليه وسلم في نكاح ام مهزول فاشترطت ان تنفق عليه فنزلت
هذه الاية وروى عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده قال كان رجل يقال له مرثد
ابن ابي مرثد الغنوي وكان يحمل الاسارى من مكة حتى ياتي بهم المدينة وكانت
بمكة بغي يقال لها عناق وكانت صديقة له في الجاهلية فلما اتى مكة دعته
عناق الى نفسها فقال مرثد ان الله حرم الزنا قالت فانكحني فقال حتى اسال
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فاتيت النبي صلى الله عليه وسلم
فقلت يا رسول الله انكح عناقا فسكت فامسك رسول الله صلى الله
عليه وسلم ولم يرد شيا فنزل الزاني لا ينكح الا زانية او مشركة
والزانية لا ينكحها الا زان او مشرك فدعاني رسول الله صلى الله
عليه وسلم فقراها علي وقال لا تنكحها اخرجه الترمذي والنسائي
وابو داود بالفاظ متقاربة المعنى فعلى قول هولا كان التحريم خاصا
في حق اولئك دون سائر الناس وقال قوم منهم سعيد بن جبير
والضحاك ورواية عن ابن عباس المراد من النكاح هو الجماع ومعنى الاية
الزاني لا يزني الا بزانية او مشركة والزانية لا يزني بها الا زان
او مشرك وقال يزيد بن هارون ان جامعها وهو مستحل فهو مشرك
وان جامعها وهو محرم فهو زان وعن عائشة رضي الله عنها ان الرجل
اذا زنى بامراة ليس له ان يتزوجها لهذه الاية واذا باشرها كان
زانيا وكان ابن مسعود يحرم نكاح الزانية ويقول اذا تزوج الزاني الزانية
فهما زانيان ابدا وقال الحسن الزاني المجلود لا ينكح الا زانية مجلودة

والزانية المجلودة لا ينكحها الا زان مجلود وقال سعيد بن المسيب وجماعة منهم
الشافعي رحمه الله تعالى ان حكم الآية منسوخ وكان نكاح الزانية حراما
بهذه الآية فنسخها الله بقوله تعالى وانكحوا الايامى منكم جمع ايم
وهي من لا زوج لها فدخلت الزانية في ايامى المسلمين واحتج من جوز نكاح
الزانية بما روي عن جابر ان رجلا اتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال
يا رسول الله ان امرأتي لا تمنع يد لامس قال طلقها قال فاني احبها
وهي جميلة قال استمتع بها وفي رواية غيره امسكها اذا وقد اجاز
ابن عباس وشبهه بمن سرق ثمر شجرة ثم اشتراه وعنه صلى الله عليه
وسلم انه سئل عن ذلك فقال اوله سفاح واخره نكاح وعن عمر انه
ضرب رجلا وامرأة زنيا وحرص ان يجمع بينهما فابى الغلام ولما نفر سبحانه
وتعالى عن نكاح من اتصف بالزنا من رجل او امرأة نهى عن الرمي به فقال
والذين يرمون اي بالزنا **المحصنات** جمع محصنة وهي هنا المسلمة
الحرة المكلفة العفيفة وهذا هو الحكم الثالث والذي يدل على ان
المراد الرمي بالزنا امور احدها تقدم ذكر الزنا ثانيها انه تعالى ذكر
المحصنات وهن العفايف فدل ذلك على ان المراد بالرمي رميها بضد
ذلك ثالثها انعقاد الاجماع على انه لا يجب الجلد بالرمي بغير الزنا فوجب
ان يكون المراد هو الرمي بالزنا رابعها قوله تعالى **ثم لم ياتوا** اي الى الحكام
باربعة شهداء اي ذكورا ومعلوم ان هذا العدد من الشهود غير شرط
الا في الزنا وشرط القاذف الذي يحد بسبب القذف التكليف
والاختيار والتزام الاحكام والعلم بالتحريم وعدم اذن المقذوف
وان يكون غير اصل والفاظ القذف تنقسم الى صريح وكناية وتعريض
فمن الصريح قوله لرجل او امرأة زنيت او زنيت او يا زاني او يا زانية
ولو كسر التاء في خطاب الرجل وفتحها في خطاب المرأة او زنيت في الجبل
ومن الكناية زنات وزنات في الجبل بالهمز فان نوى بذلك القذف كان قذفا
والا فلا ومن التعريض يا ابن الحلال واما انا فلست بزان فهذا ليس
بقذف وان نواه فان قيل اذا كان ذلك القذف يشمل الذكر والانثى
فلم كانت الآية الكريمة في الاناث فقط اجيب بان الكلام في حقهن اشنع
وتنبيها على عظم حق ام المومنين عائشة رضي الله تعالى عنها وحد القاذف
الحر ثمانون كما قال تعالى **فاجلدوهم** اي ايها المومنون من الائمة ونوابهم
ثمانين جلدة لكل واحد منهم لكل محصنة وحد القاذف الرقيق
ولو مبعضا او مكاتبا اربعون جلدة على النصف من الحر لآية النساء
فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب فهذه الآية مخصوصة
بتلك اذ لا فرق بين الذكر والانثى ولا بين حد الزنا ولا حد القذف

ويدل

ويدل على ان المراد بالآية الاحرار قوله تعالى **ولا تقبلوا لهم** اي بعد قذفهم
شهادة اي شهادة كانت **ابدا** للحكم بافترائهم لان العبد لا تقبل
شهادته وان لم يقذف ولما كان التقدير انهم قد افتروا عطف عليه تحذيرا من
الاقدام عليه عن غير تثبت **واولئك** اي الذين تقدم ذمهم بالقذف نزلت
رتبتهم جدا **هم الفاسقون** اي المحكوم بفسقهم الثابت لهم هذا الوصف
وان كان القاذف منهم محقا في نفس الامر وفي ذلك دليل على ان القذف من
الكبائر لان اسم الفسق لا يقع الا على صاحب كبيرة واختلف العلماء
في شهادة القاذف بعد التوبة وحكم هذا الاستثناء المذكور في قوله
الا الذين تابوا اي رجعوا عما وقعوا فيه من القذف وغيره وندموا عليه وعزموا
على ان لا يعودوا **من بعد ذلك** اي الامر الذي اوجب ابعادهم فذهب قوم
الى ان القاذف ترد شهادته بنفس القذف فاذا تاب واصلح حاله
كما قال تعالى **واصلحوا** اي بعد التوبة بمضي مدة يظن بها حسن الحال
وهي سنة يختبر بها حال التائب بالفصول الاربعة التي تكشف الطباع
فان الله اي الذي له صفة الكمال **غفور** اي ستور لهم ما قدموا بع
عليه لرجوعهم عنه **رحيم** اي يفعل بهم من الاكرام فعل الراحم
بالمرحوم في قبول الشهادة وقبلت شهادته سواء قبل الحد وبعده
وزال عنه اسم الفسق وقالوا هذا الاستثناء يرجع الى رد الشهادة والى
الفسق ويروى ذلك عن ابن عمر وابن عباس وجمع من الصحابة وبه
قال مالك والشافعي وذهب قوم الى ان شهادة المحدود في القذف
لا تقبل ابدا وان تاب وقالوا الاستثناء يرجع الى قوله واولئك هم الفاسقون
ويروى ذلك عن النخعي وشريح وبه قال اصحاب الرأي قالوا بنفس
القذف لا ترد شهادته ما لم يحد قال الشافعي هو قبل ان يحد شر منه
حين يحد لان الحدود كفارات فكيف يردونها في احسن حاليه وذهب
الشعبي الى ان حد القذف يسقط بالتوبة فان قيل اذا قلتم بالاول
فما معنى قوله ابدا اجيب بان معنى ابدا ما دام مصرا على القذف لان ابدا
كل انسان مدته على ما يليق بحاله كما يقال لا تقبل شهادة الكافر ابدا
يراد بذلك ما دام على كفره فاذا اسلم قبلت شهادته تنبيهات
الاقرار بالزنا هل يثبت بشهادة رجلين او اربع كالزنا فيه قولان اصحهما
انه يثبت برجلين بخلاف فعل الزنا لان الفعل يغمض الاطلاع عليه
واذا شهد على فعل الزنا يجب ان يذكر الزاني ومن زنا بها لانه قد يراه على
جارية لابنه فيظنه زنا يوجب الحد وان يقول في شهادته رايت
ذكره يدخل في فرجها وان لم يقل داخل الميل في المكحلة لكن قولهم ذلك
اولى فلو شهدوا مطلقا انه زنا لم يقبلوا لانهم ربما يرون المفاخذة

زنا ويشترطان يفسر في اقراره كالشهود ويصح رجوعه عن الاقرار ولو في اثنا
الحد كما مر ولا فرق في قبول الشهادة بين ان يجي الشهود متفرقين او مجتمعين
كما قال الشافعي وقال ابو حنيفة اذا شهدوا متفرقين لا يثبت وعليهم حد
القذف ولو شهد على الزنا اقل من اربعة او اربعة وفيهم الزوج لم يثبت
الزنا وعليهم الحد لان شهادة الزوج لا تقبل في حق زوجته قال ابن الرفعة
في الكفاية لامرين احدهما ان الزنا تعرض لمحل حق الزوج فان الزاني يستمتع
بالمنافع المستحقة فشهادته في حقها تتضمن اثبات جناية الغير على ما هو
مستحق له فلم تسمع كما اذا شهد انه جنا على عبده والثاني من شهد بزناها و
فقد شهادته دالة على اظهار العداوة لان زناها يوغر صدره بتلطيخ
فراشه وادخال العار عليه وعلى ولده وهو ابلغ من مولم الضرب فاوحش
السب ولو قذف رجل وجا باربعة فساق شهدوا على المقذوف بالزنا
لم يحدوا لان شرائط الشهادة بالزنا قد وجدت عند القاضي الا انه
لم تقبل شهادتهم لاجل التهمة فلما اعتبرنا التهمة في نفي الحد عن المشهود
عليه فكذلك اوجبنا اعتبارها في نفي الحد عنهم ولما كان لفظ المحصنات
عاما للزوجات وكان لهن غير حكم ما تقدم وهو الحكم الرابع اورده بقوله
تعالى والذين يرمون اي بالزنا ازواجهم اي من المؤمنات والكافرات
الحرائر والاما ولم يكن لهم شهداء يشهدون على صحة ما قالوه الا انفسهم
اي غير انفسهم وهذا ربما افهم انه اذا كان الزوج احد الاربعة كفى وهذا
المفهوم كونه حكاية واقعة لا شهود فيها وقوله تعالى في الاية قبلها
ثم لم ياتوا باربعة شهدا فانه يقتضي كون الشهداء غير الرامي بالزنا ولعله
استثناه من الشهدا لان لعانه يكون بلفظ الشهادة ومذهب الشافعي
انه لا يقبل في ذلك كما قدمناه فشهادة احدهم اي فالواجب شهادة
احدهم على من رماها او فعليهم شهادة احدهم اربع شهادات
من خمس في مقابلة اربعة شهدا بالله اي مقرونة بهذا الاسم
الكريم الاعظم الموجب لاستحضار جميع صفات الجلال والجمال انه
لمن الصادقين اي فيما قذفها وقرا حفص وحمزة والكسائي برفع العين
على خبر شهادة والباقون بنصبها على المصدر والخامسة ان لعنت
الله اي الملك الاعظم عليه اي القاذف نفسه ان كان من الكاذبين
فيما رماها به وقرا نافع بتخفيف ان ساكنة ورفع لعنة والباقون بتشديد
النون منصوبة ونصب لعنة ورسمت لعنت مجرورة فوقف عليها بالهاء ابن
كثير وابو عمرو والكسائي ووقف الباقون بالتاء واذا وقف الكسائي امال
الهاء هذا لعان الرجل وحكمه سقوط حد القذف عليه وحصول
الفرقة بنفسه فرقة فسخ عندنا لقوله صلى الله عليه وسلم المتلاعنان

لايجتمعان

لا يجتمعان ابدا وبتفريق الحاكم فرقة طلاق عند ابي حنيفة ونفي الولد ان تعرض
له فيه وبثبوت حد الزنا على المراة بقوله تعالى ويدرؤا اي يدفع عنها اي
المقذوفة العذاب اي المعهود وهو الحد الذي اوجبه عليها كما تقدم
ان تشهد اربع شهادات من خمس بالله الذي له جميع الاسما الحسنى
والصفات العليا كما تقدم في الزوج انه لمن الكاذبين فيما قاله عنها
والخامسة من الشهادات ان غضب الله الذي له الامر كله عليها
ان كان من الصادقين اي فيما رماها به روى البخاري في تفسيره وغيره
عن ابن عباس ان هلال بن امية قذف امراته عند النبي صلى الله عليه وسلم
بشريك بن سحما فقال النبي صلى الله عليه وسلم البينة او حد في ظهرك
فقال يا رسول الله اذا راى احدنا على امراته رجلا ينطلق يلتمس البينة
فجعل النبي صلى الله [عليه] وسلم البينة او حد في ظهرك فقال هلال بن امية
والذي بعثك بالحق اني لصادق ولينزلن الله ما يبرئ ظهري من الحد
فنزل جبريل عليه السلام وانزل عليه والذين يرمون ازواجهم حتى
بلغ ان كان من الصادقين فانصرف النبي صلى الله عليه وسلم فارسل اليهما
فجا فقام هلال بن امية فشهد والنبي صلى الله عليه وسلم يقول والله
يعلم ان احدكما كاذب فهل منكما تائب ثم قامت فشهدت فلما كانت عند
الخامسة وقفوها وقالوا انها موجبة فتلكات ونكصت حتى ظننا
انها ترجع ثم قالت لا افضح قومي سائر اليوم فمضت وقال النبي صلى الله
عليه وسلم ابصروها فان جات به اكحل العينين سابغ الاليتين
خدلج الساقين فهو لشريك بن سحما فجات به كذلك فقال النبي صلى الله
عليه وسلم لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شان وقد روى البخاري
ايضا عن سهل بن سعد ان سبب نزول قصة مثل هذه لعويمر رضي الله
تعالى عنه وقد تقدم انه لا يمتنع ان يكون للاية الواحدة عدة اسباب
معا او متفرقة تنبيه خصت المراة بالغضب لانه ابلغ من اللعن
الذي هو الطرد لانه قد يكون بسبب غير الغضب وسبب التغليظ
عليها الحث على اعترافها بالحق لما يعتضد الزوج من القرينة من انه لا يتجشم
فضيحة اهله المستلزم لفضيحته الا وهو صادق ولانها مادة
الفساد وخالطة الانساب ويشترط في اللعان امر القاضي وتلقين
كلماته في الجانبين فيقول قل اشهد بالله الى اخره لان اللعان يمين واليمين
لا يعتد بها قبل استحلاف القاضي وان غلب فيه معنى الشهادة وهي
لا تودى عنده الا باذنه وان يتاخر لعانها عن لعانه لان لعانها لاسقاط الحد
الذي وجب عليها بلعان الزوج كما مر علم مما مر ويلاعن اخرس باشارة
مفهمة او كتابة ويكرر كتب كلمة الشهادة اربعا او يكتبها مرة ويشير

ايها اربعا ويصح اللعان بالعجمية وان عرف العربية ويشترط الولاء بين الكلمات الخمس
فيؤثر الفصل الطويل ولا يشترط الولاء بين لعان الزوجين ولو بدل لفظ
شهادة بحلف ونحوه او لفظ غضب بلعن او عكسه او ذكر قبل تمام الشهادة
لم يصح ذلك ويصح اذ تلاعنا قائمين وان يغلظ اللعان بزمان وهو بعد عصر
الجمعة فيؤخر اليه ان لم يكن طلب اكيد والا فبعد عصر اي يوم كان وبمكان عند
اشرف بلد اللعان فبمكة بين الركن الاسود والمقام وهو المسمى بالحطيم
والمدينة على المنبر وبيت المقدس عند الصخرة وغيرها على منبر الجامع وتلاعن
حائض بباب المسجد وذمي في بيعة للنصارى وكنيسة لليهود وبيت نار
المجوس لانهم يعظمونه لا بيت اصنام وثني لا حرمة له وقرا حفص والخامسة
الاخيرة بالنصب والباقون بالرفع وقرا نافع بتخفيف النون ساكنة وكسر
الضاد ورفع الهاء من الاسم الجليل والباقون بتشديد النون منصوبة
ونصب الضاد وخفض الهاء ولما حرم سبحانه وتعالى بهذه الجمل الاعراض
والانساب فصان بذلك الدماء والاموال علم ان التقدير فلولا انه خير
الغافرين وخير الراحمين لما فعل بكم ذلك ولافتضح المذنبون واظهر سرائر
المستخفين ففسد النظام فعطف على هذا الذي علم تقديره قوله تعالى
ولولا فضل الله اي بما له من الكرم والاتصاف بصفات الكمال عليكم
ورحمته اي بكم بالستر في ذلك وان الله اي الذي احاط بكل شيء قدرة
وعلما تواب بقبول التوبة في ذلك وغيره حكيم بحكم الامور
فيمنعها من الفساد بما يتم من عواقب الامور لتنفضح كل عارض ولم يوجب
اربعة تشهد استر الكم الحكم الخامس قصة الافك المذكورة
في قوله تعالى ان الذين جاؤا بالافك اي اسوا الكذب سمي افكا لكونه مصروفا
عن الحق من قولهم افك الشيء اذا صرفه عن ذلك جهة وذلك ان عائشة
رضي الله عنها وعن ابويها كانت تستحق الثناء لما كانت عليه من الحصانة
والشرف والعفة والكرم فمن رماها بسوء فقد قلب الامر عن احسن
وجوهه الى اقبح قصاياه فان قيل لم ترك تسميتها اجيب بانه ترك
تنزيها لها عن هذا المقام وابعادا لصون جانبها العلي عن هذا المراد
وقوله تعالى عصبة خبران اي جماعة اقلهم عشرة واكثرهم اربعون
وكذا العصابة وقوله تعالى منكم خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وابي
بكر وعائشة وصفوان ممن يعد عندكم في عداد المسلمين يريد عبد الله بن ابي
وزيد بن رفاعة وحسان بن ثابت ومسطح بن اثاثة وحمنة بنت جحش
ومن ساعدهم وقوله تعالى لا تحسبوه شرا لكم مستانف اي لا تظنوا انه
فتنة ولا يصدقه احد بل هو خير لكم لاكتسابكم به الثواب العظيم
لانه كان بلاء مبينا ومحنة ظاهرة وظهور كرامتكم على الله بانزال ثماني عشرة اية

في برائتكم وتعظيم شانكم وتهويل الوعيد لمن تكلم فيكم والثناء على من ظن بكم خيرا
كل واحدة منها مستقلة بما هو تعظيم لشان رسول الله صلى الله عليه وسلم
وتسلية له وتبرية لام المؤمنين رضوان الله تعالى عليها وتطهير لاهل البيت
وتهويل لمن تكلم في ذلك او سمع به فلم تمجه اذناه وعدة الطاف للسامعين
والتالين الى يوم القيمة وفوائد دينية واحكام واداب لا تخفى على متاملها
ولما كان شفاء غيظ الانسان اعظم من انتصار الملك الديان له على ذلك (علق)
بقوله تعالى لكل امرئ منهم اي الافكين ما اكتسب بخوضه
فيه من الاثم الموجب لشقائه والذي تولى كبره اي معظمه منهم اي
من الخائضين وهو ابن ابي فانه بدا به واذاعه عداوة لرسول الله صلى الله
عليه وسلم او هو وحسان ومسطح فانهما تابعاه بالتصريح به والذي بمعنى
الذين على هذا له عذاب عظيم في الاخرة او في الدنيا بان جلدوا وصار ابن
ابي مطرودا بالنفاق اعمى اشل اليدين ومسطح مكفوف البصر تنبيه
قصة الافك معروفة في الصحيح والسنن وغيرها شهيرة جدا ولكن نذكر
منها طرفا تبركا بذكر النبي صلى الله عليه وسلم وبذكر السيدة عائشة وابويها
رضي الله تعالى عنهم فنقول عن عائشة رضي الله تعالى عنها انها قالت كان
رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا اراد سفرا اقرع بين ازواجه فايتهن خرج
سهمها خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معه قالت عائشة فاقرع
بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه
وسلم بعد ما انزل الحجاب تحت الحمل في هودج فانزل فيه فسرنا حتى
اذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته تلك وقفل ودنونا من
المدينة قافلين فاذن ليلة بالرحيل فقمت حين اذنوا بالرحيل فمشيت
حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شاني اقبلت الى رحلي فلمست صدري
واذا عقد لي من جزع اظفار قد انقطع فرجعت فالتمست عقدي فحبسني
ابتغاؤه قالت واقبل الرهط الذين يرحلون بي فاحتملوا هودجي فرحلوه
على بعيري الذي كنت اركب عليه وهم يحسبون اني فيه وكان النساء اذ
ذاك خفافا لم يبدلن ولم يغشهن اللحم انما ياكلن العلقة من الطعام (العلقة)
فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه وكنت جارية حديثة
السن فبعثوا الجمل وساروا ووجدت عقدي بعد ما سار الجيش
فجئت منازلهم وليس منهم داع ولا مجيب فتيممت منزلي الذي كنت فيه (فتيممت)
وظننت انهم سيفقدوني فيرجعون الي فبينا انا جالسة في منزلي غلبتني
عيني فنمت وكان صفوان بن معطل السلمي ثم الذكواني رضي الله تعالى عنه
قد عرس من وراء الجيش فادلج فاصبح عند منزلي فراى سواد انسان نائم
فعرفني حين رآني وكان يراني قبل الحجاب فاستيقظت باسترجاعه

حين عرفني فخمرت وجهي بجلبابي ووالله ما كلمني بكلمة ولا سمعت منه كلمة
غير استرجاعه وهوى حتى اناخ راحلته فوطئ على يدها فقمت اليها فركبتها
فانطلق يقود بي الراحلة حتى اتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين في نحو الظهيرة
وهم نزول قالت فهلك من هلك وكان الذي تولى كبر الافك عبد الله بن ابي
ابن سلول فقدمنا المدينة فاشتكيت بها شهرا والناس يفيضون في قول اصحاب
الافك ولا اشعر بشيء من ذلك وهو يريبني في وجعي اني لا اعرف من رسول الله
صلى الله عليه وسلم اللطف الذي كنت ارى منه حين اشتكي انما يدخل فيسلم
ثم يقول كيف تيكم ثم ينصرف فذلك الذي يريبني منه ولا اشعر بالشر حتى
نقهت فخرجت انا وام مسطح قبل المناصع وكان متبرزنا وكنا لا نخرج الا ليلا
وذلك قبل ان نتخذ الكنف قريبا من بيوتنا وامرنا امر العرب الاول في البرية
وكنا نتأذى بالكنف ان نتخذها عند بيوتنا فانطلقت انا وام مسطح حين فرغنا
من شأننا نمشي فعثرت ام مسطح في مرطها فقالت تعس مسطح فقلت لها بئس
ما قلت اتسبين رجلا شهد بدرا فقالت يا هنتاه اولم تسمعي ما قال قالت
وما قال فاخبرتني بقول اهل الافك فازددت مرضا على مرضي فلما رجعت
الى بيتي دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال كيف تيكم فقلت له اتأذن لي ان
آتي ابوي قالت وانا اريد ان استيقن الخبر من قبلهما قالت فاذن لي رسول الله
صلى الله عليه وسلم فاتيت ابوي فقلت لامي يا اماه ماذا يتحدث الناس قالت
يا بنية هوني عليك فوالله ما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها لها
ضرائر الا اكثرن عليها قالت فقلت سبحان الله ولقد تحدث الناس بهذا قالت
فبكيت تلك الليلة حتى اصبحت لا يرقأ لي دمع ولا اكتحل بنوم ثم اصبحت ابكي
قالت فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن ابي طالب واسامة بن زيد
حين استلبث الوحي يسألهما ويستشيرهما في فراق اهله قالت فاما اسامة
فاشار على النبي صلى الله عليه وسلم بما يعلم من براءة اهله وبالذي يعلم لهم في
نفسه من الود فقال اسامة هم اهلك يا رسول الله لم يضيق الله عليك
ولا نعلم والله الا خيرا وقال يا رسول وأما علي انه صح
والنساء سواها كثير واسأل الجارية تصدقك قالت فدعا رسول الله صلى
الله عليه وسلم بريرة فقال اي بريرة هل رايت من شيء يريبك قالت والذي
بعثك بالحق نبيا ان رايت عليها امرا قط اغمصه اكثر من انها جارية حديثة
السن تنام عن عجين اهلها فتأتي الداجن فتأكله قالت فقام رسول الله
صلى الله عليه وسلم من يومه فاستعذر من عبد الله بن ابي بن سلول فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يا معشر المسلمين من يعذرني
من رجل قد بلغني اذاه في اهلي والله ما علمت على اهلي الا خيرا وقد ذكروا
رجلا ما علمت عليه الا خيرا ولم يدخل على اهلي الا معي قالت فقام سعد اخو
بني عبد الاشهل فقال انا يا رسول الله اعذرك فان كان من الاوس

ضربت

ضربت عنقه وان كان من اخواننا من الخزرج امرتنا ففعلنا فيه امرك فقام سعد بن
عبادة وهو سيد الخزرج قالت وكان قبل ذلك رجلا صالحا فاخذته الحمية
ولكن حملته
فقال لسعد كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ولو كان من رهطك
ما احببت ان تقتل فقام اسيد بن حضير بن عم سعد فقال لسعد بن عبادة
كذبت لعمر الله لنقتلنه فانك منافق تجادل عن المنافقين قالت فثار الحيان
الاوس والخزرج حتى هموا ان يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على
المنبر يخفضهم حتى سكتوا وسكت قالت فبكيت يومي ذلك كله لا يرقأ لي
دمع ولا اكتحل بنوم قالت واصبح ابواي عندي وقد بكيت ليلتين ويوما لا اكتحل
بنوم ولا يرقأ لي دمع حتى اني لاظن ان البكاء فالق كبدي فبينما ابواي جالسان
عندي وانا ابكي فاستأذنت علي امرأة من الانصار فاذنت لها فجلست تبكي معي
قالت فبينما نحن على ذلك اذ دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ثم
جلس قالت ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها وقد لبث شهرا لا يوحى اليه
في شأني بشيء قالت فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس ثم قال
اما بعد يا عائشة انه بلغني عنك كذا وكذا فان كنت بريئة فسيبرئك الله
وان كنت المت بذنب فاستغفري الله وتوبي اليه فان العبد اذا اعترف
اذا اعترف ثم تاب تاب الله عليه قالت فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم
مقالته قلص دمعي حتى لا احس منه قطرة فقلت لابي اجب رسول الله صلى الله
عليه وسلم فيما قال فقال اني والله لا ادري ما اقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم
قلت لامي اجيبي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال فقالت امي والله ما ادري
ما اقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت وانا جارية حديثة السن لا اقرأ
من القرآن كثيرا والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في انفسكم
وصدقتم به فلئن قلت لكم اني بريئة لا تصدقوني فوالله لا اجد لي ولكم مثلا
الا كما قال العبد الصالح ابو يوسف ولم اذكر اسمه حين قال فصبر جميل
والله المستعان على ما تصفون ثم تحولت واضطجعت على فراشي والله يعلم حينئذ
اني بريئة والله مبرئي ببراءتي ولكن والله ما كنت اظن ان الله في شأني وحيا يتلى
لشأني في نفسي كان احقر ان يتكلم الله تعالى في بامر ولكن كنت ارجو ان يرى رسول
الله صلى الله عليه وسلم في النوم رؤيا يبرئني الله بها فوالله ما رام رسول الله
صلى الله عليه وسلم مجلسه ولا خرج احد من اهل البيت حتى انزل الله تعالى على نبيه
فاخذه ما كان يأخذه عند الوحي من البرحاء حتى انه ليتحدر منه العرق مثل الجمان
في اليوم الشاتي من ثقل الذي انزل عليه فسجي بثوب فوالله ما سري عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم حتى ظننت ان نفس ابوي ستخرجان فرقا ان يأتي الله بتحقيق
ما قال الناس فلما سري عنه وهو يضحك فكان اول كلمة تكلم بها ان قال ابشري
يا عائشة قد برأك الله فكنت اشد ما كنت غضبا فقال لي ابواي قومي اليه

عنك والله لا اقوم اليه ولا احمده ولا احمدكما ولا احمد الا الله الذي انزل براءتي لقد سمعتموه فما انكرتموه ولا غيرتموه وانزل الله تعالى ان الذين جاؤا بالافك الايات كلها فقال ابو بكر والله لا انفق على مسطح بعد الذي قال لعايشة ما قال فانزل الله ولا يأتل اولوا الفضل منكم الى قوله والله غفور رحيم قال ابو بكر بلى والله اني لاحب ان يغفر الله لي فرجع النفقة التي كان ينفقها عليه قال والله اني لا انزعها منه ابدا قالت عايشة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسال زينب بنت جحش عن امري فقال لزينب ما علمت او رايت فقالت يا رسول الله احمي سمعي وبصري والله ما علمت الا خيرا قالت عايشة وهي التي تساميني من ازواج النبي صلى الله عليه وسلم فعصمها الله بالورع قالت عايشة والله ان الرجل الذي قيل له ما قيل ليقول سبحان الله فوالذي نفسي بيده ما كشفت كنف انثى قط قالت ثم قتل بعد ذلك في سبيل الله ولما نزل عذري قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك وتلى القرآن وضرب عبد الله بن ابي ومسطح وحسان وحمنة الحد قال عروة وكانت عايشة تكره ان يسب عندها حسان وتقول انه الذي قال

فان ابي ووالده وعرضي · لعرض محمد منكم وقاء

وقال الحافظ ابو عمر بن عبد البر في الاستيعاب وانكر قوم ان يكون حسان خاض في الافك وجلد فيه وروي عن عايشة انها برأته من ذلك انتهى وقال غيره والله لا اظن به ذلك اصلا وان جاءت تسميته في الصحيح فقد يخطي الثقة لاسباب لا تحصى كما يعرف ذلك من مارس نقد الاخبار وكيف يظن به ذلك ولا شغل له الا مدح النبي صلى الله عليه وسلم والمدافعة عنه والذم لاعدايه وقد شهد له النبي صلى الله عليه وسلم ان جبريل معه وهو القايل يمدح عايشة ويكذب من نقل عنه ذلك

حصان رزان ما تزن بريبة · وتصبح غرثى من لحوم الغوافل
حليلة خير الناس دينا ومنصبا · نبي الهدى والمكرمات الفواضل
عقيلة حي من لوي بن غالب · كرام المساعي مجدها غير زايل
مهذبة قد طيب الله خيمها · وطهرها من كل شين وباطل
وان كان ما بلغت عني قلته · فلا رفعت سوطي الي اناملي
فكيف وودي ما حييت ونصرتي · لال رسول الله زين المحافل
له رتبة عال على الناس فضلها · تقاصر عنها سورة المتطاول

وفي هذا القدر كفاية لاولي الالباب فان في هذه القصة لمن اعتبر ما أتت اهل الافك استمروا في هذا اكثر من شهر والله تعالى عالم بما يقولون وان قولهم يكاد يبطل الا ان كان احب خلقه اليه وهو قادر على تكذيبهم اول ما خاضوا فيه ولكنه سبحانه اراد للناس رفعة الدرجات ولاخرين الهلكات ولا باس ببيان غريب هذه الالفاظ التي وقعت في هذه القصة من كلام عايشة وغيرها قوله آذن اي اعلم بالرحيل قولها فقدت عقدا لي من جزع

اظفار

اظفار وهو نوع من الخرز وهو الجزع اليماني المعروف وقولها لم يهبلن اي لم يكثر عليهن من السمن فيثقلن قولها انما ياكلن العلقة من الطعام وهو بضم العين اي البلغة من الطعام وهو قدر ما يمسك من الرمق من قولها ليس بها منهم داع ولا مجيب اي ليس لها احد لا من يدعو ولا من يرد جوابا قولها فتيممت اي قصدت قولها فدعرس من وراء الجيش فادلج التعريس نزول المسافر بالليل للراحة والادلاج بالتشديد سير اخر الليل وبالتخفيف سير الليل كله وقولها باسترجاعه هو القايل انا لله وانا اليه راجعون قولها خمرت اي غطيت وجهي بجلبابي اي ازاري وقولها موغرين في نحر الظهيرة الوغر شدة الحر وكذلك نحر الظهيرة اي اوله قولها والناس يفيضون اي يخوضون ويتحدثون قولها وهو يريبني يقال رابني الشي يريبني اي تشككت فيه قولها ولا ارى من النبي اللطف اي الرفق بها في الافعال الرفق وفي الاقوال لين الكلام قولها حين نقهت اي افقت من المرض والمناصع المواضع الخالية تقضى فيها الحاجة من غايط وبول واصله المكان الواسع الخالي والمرط كسا من صوف او خز قولها تعس مسطح اي عثر قولها يا هنتاه اي بلهاء كانها تشبهها الى البلة قولها وقلة المعرفة قولها لا يرقى اي لا ينقطع وقوله بريرة ان رايت بمعنى النفي اي ما رايت منها امرا اغمصه عليها بالصاد المهملة اي اعيبه والداجن الشاة التي تالف البيت وتقيم به قوله صلى الله عليه وسلم من يعذرني اي انا الكافي على سو صنيعه ان عاقبت او عاقبت فلا يلومني على ذلك قولها ولكن حملته الحمية اي حمله الغضب والانفة والتعصب على الجهل للقرابة قولها فثار الحيان اي ثاروا ونهضوا للقتال والمخاصمة وقولها فلم يزل يخفضهم اي يهون عليهم ويسكت وقوله صلى الله عليه وسلم ان كنت الممت قيل هو من اللمم وهو صغار الذنوب قيل معناه مقاربة الذنب من غير فعل قولها قلص دمعي اي انقطع جريانه قوله ما رام اي ما برح من مكانه والبرحا الشدة والجمانة الدر وجمعه جمان فسري عنه اي كشف عنه وقول زينب احمي سمعي وبصري اي امنعهما اي اخبر بما لم اسمع ولم ابصر قولها وهي التي كانت تساميني من السمو وهو العلو والغلبة فعصمها الله تعالى اي منعها الله من الوقوع في الشر بالورع وقول الرجل ما كشفت كنف انثى اي ستر انثى وقول حسان في عايشة حصان بفتح الحاء امراة حصان اي متعففة رزان اي ثابتة ما تزن اي ترمى ولا تتهم بريبة اي امر يريب الناس وتصبح غرثى اي جايعة الموت والغرث الجوع من لحوم الغوافل جمع غافلة والمعنى انها لا تغتاب احدا ممن هو غافل وقرا الا تحسبوه وتحسبون ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين والباقون بكسرها ولما اخبر سبحانه وتعالى بعقاب اهل الافك وكان في المومنين من سمعه وسكت وفهم من سمعه

فيتحدث به متعجبا من قايله او مستبشا في امره ومنهم من اكذبه ابعده فقال سبحانه
وتعالى مستانفا محرضا لولا اي هلا ولم لا اذ اي حين سمعتموه ايها
المدعون للايمان ظن المومنون اي منكم والمومنات وكان الاصل ظننتم اي ايها
العصبة ولكنه التفت الى الغيبة تنبيها على التوبيخ وصرح بالنساء تنبيه على
الوصف المقتضي لحسن الظن تخويفا للذي ظن السوء من سوء الخاتمة بانفسهم
حقيقة خيرا وهم دون من كذب عليها فقطعوا ببراءتها لان الانسان لا يظن
في الناس الا ما هو متصف به او باخوانهم لان المومنين كالجسد الواحد وذلك
نحو ما يروى ان ابا ايوب الانصاري قال لام ايوب الا تريين ما يقال فقالت لو
كنت بدل صفوان كنت تظن بحرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم سوءا قال
لا قالت ولو كنت انا بدل عايشة ما خنت رسول الله صلى الله عليه وسلم
فعايشة خير مني وصفوان خير منك وقالوا هذا افك مبين اي كذب مبين
فان قيل هلا قيل لولا اذ سمعتموه ظننتم بانفسكم خيرا وقلتم ولم عدل
عن الخطاب الى الغيبة وعن الضمير الى الظاهر اجيب بان ذلك مبالغة في
التوبيخ على طريقة الالتفات وليصرح بلفظ الايمان دالا على ان الاشتراك فيه
مقتضي ان لا يصدق مومن على اخيه ولا مومنة على اختها قول عايب ولا طاعن
وفيه تنبيه على ان حق المومن اذا سمع قالة في اخيه ان يبني الامر فيها على
الظن لا على الشك وان يقول على ما فيه بناء على ظنه بالمومن الخير هذا افك
مبين هكذا اللفظ المصرح ببراءة ساحته لا يقول كما يقول المستيقن المطلع
على حقيقة الحال وهذا من الادب الحسن الذي قل القايم به والحافظ له
وليتك تجد من يسمع فيسكت ولا يشيع ما يسمعه باخوانه ثم علل ذلك
سبحانه وتعالى اي كذب الافكين ان قالوا موبخا لمن اختلقه واذاعه ملتفتا
لمريد به الظن الخير لولا اي هلا ولم لا جاءوا عليه باربعة شهداء كما تقدم ان
القذف لا يباح الا بها فاذ اي حين لم ياتوا بالشهداء اي الموصوفين
فاولئك اي البعداء من الصواب عند الله هم الكاذبون قد جعل الله
الفصلة بين الرمي الصادق والرمي الكاذب بثبوت شهادة الشهود
الاربعة وانتفائها والذين رموا عايشة لم تكن لهم بينة على قولهم فقامت
عليهم الحجة وكانوا عند الله في حكمه وشريعته كاذبين وهذا توبيخ وتعنيف
للذين سمعوا الافك فلم يجدوا في دفعه وانكاره واحتجاج عليهم بما هو
ظاهر مكشوف في الشرع من وجوب تكذيب القاذف بغير بينة في التنكيل
به اذا قذف امراة محصنة من عرض نساء المسلمين فكيف بام المومنين الصد
يقة بنت الصديق حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحبيبة حبيب رب
العالمين ولما بين الله سبحانه وتعالى الدليل على كذب الخايضين في هذا الكلام
وانهم استحقوا الملام قال عاطفا على لولا الماضية التي للتحضيض ولولا

التي

هي لامتناع الشيء لوجود غيره فضل الله اي المحيط بصفات الكمال عليكم ورحمته
اي معاملته لكم بمزيد الانعام والاكرام اللازم للرحمة في الدنيا بقبول التوبة
والمعاملة بالحلم والاخرة بالعفو عن من يريد ان يعفو عنه لمسكم اي
عاجلا فيما افضتم اي ايها العصبة اي خضتم فيه من حديث الافك
عذاب عظيم اي يحتقر معه اللوم والجلد فان ما في الرسم مفصولة
من ما كما ذكر ثم بين تعالى وقت حلول العذاب وزمان تعجيله بقوله تعالى اذ اي
مسكم حين تلقونه اي تجتهدون في تلقي اي قبول هذا الكلام الفاحش
القبيح بالسنتكم اي يرويه بعضكم عن بعض وذلك ان الرجل منهم
يلقى الرجل فيقول بلغني كذا وكذا يتلقونه تلقيا يلقيه بعضهم الى بعض
وحذفت من الفعل احدى التاءين وتقولون بافواهكم اي كلاما مختصا بالافواه
فهو كلام لا حقيقة له ولا يمكن ارتسامه في القلب بنوع دليل واكد
هذا المعنى بقوله تعالى ما ليس لكم به علم اي بوجه من الوجوه وتنكيره للتحقير
فان قيل القول لا يكون الا بالفم فما معنى قوله تعالى بافواهكم اجيب بان معناه ان الشيء المعلوم
يكون علمه في القلب فيترجم عنه اللسان ولكن هذا الافك ليس الا قولا يجري على
السنتكم ويدور في افواهكم من غير ترجمة عن علم به في القلب كقوله تعالى يقولون
بافواههم ما ليس في قلوبهم وتحسبونه بدليل سكوتكم عن انكاره هينا
اي لا اثم فيه وهو اي والحال انه عند الله اي الذي لا يبلغ احد مقدار عظمته
عظيم في الوزر واستجرار العذاب فهذه ثلاثة اثام مرتبة علق بها مس
العذاب العظيم تلقي الافك بالسنتهم والتحدث به من غير تحقق واستصغار
لذلك وهو عند الله عظيم ولولا اي وهلا ولم لا اذ اي حين سمعتموه
قلتم من غير توقف ولا تلعثم ما يكون اي ما يكون ينبغي وما يصح لنا
ان نتكلم بهذا اي القول المخصوص ويجوز ان تكون الاشارة الى نوعه
فان قذف احاد الناس محرم فكيف بمن اختارها العليم الحكيم لصحبة اكمل الخلق
فان قيل كيف جاز الفصل بين لولا وقلتم اجيب بان الظروف تنزل من الشيء
منزلة نفسه لوقوعه فيها وانها لا انفكاك له عنها فلذلك يتسع فيها ما لا يتسع
في غيرها فان قيل اي فايدة في تقديم الظرف حتى اوقع فاصلا اجيب بان الفايدة
فيه بيان ان الواجب عليهم ان يتفادوا اول ما سمعوا بالافك عن التكلم به فلما كان
ذكر الوقت اهم وجب التقديم فان قيل ما معنى يكون والكلام بدونه صحيح لو قيل
ما لنا ان نتكلم بهذا اجيب بان معناه ينبغي ويصح اي ما ينبغي لنا ان نتكلم بها
وما يصح لنا كما تقدم تقريره ونحوه ما يكون لي ان اقول ما ليس لي بحق وقوله
تعالى سبحانك تعجب من ان يخطر ذلك بالبال في حال من الاحوال فان قيل ما معنى
التعجب في كلمة التسبيح اجيب بان الاصل في ذلك ان يسبح الله تعالى
عند روية التعجب من صنايعه ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه وقيل تنزيه

بمؤمنة عن ان رضي بظلم هولاء القذفة وعن ان لا يعاقبهم وعن ان تكون حرمة نبيه
صلى الله عليه وسلم فاجرة قال البيضاوي فان فجورها ينفر عنه ويخل بمقصود
الزواج بخلاف كفرها فانه لا ينفر اي ولهذا كانت امراة نوح ولوط كافرتين وهذا
يقتضي حل نكاح الكتابية مع انها لا تحل له صلى الله عليه وسلم لانها تكره صحبته
ولانه اشرف من ان يضع ماءه في رحم كافرة بنكاح ولقوله تعالى وازواجه امهاتهم
ولا يجوز ان تكون الكافرة ام المؤمنين ولخبر سالت ربي ان لا ازوج الا من كان
معي في الجنة فاعطاني رواه الحاكم وصحح اسناده اما التسري بالكافرة فلا
يحرم فانه صلى الله عليه وسلم تسرى بريحانة وكانت يهودية من بني قريظة
ولا يشكل تعليلهم السابق من انه اشرف ان يضع ماءه في رحم كافرة لان القصد بالنكاح
اصالة التوالد فاحتيط له وبانه يلزم فيه ان تكون الزوجة المشركة ام المؤمنين
بخلاف الملك فيهما **هذا بهتان** اي كذب يبهت من يواجه به ويحيره لشدة ما
يفعل في القوى الباطنة لانه في غاية الغفلة عنه لكونه ابعد الناس منه بقوله
عظيم لعظمة المبهوت عليه فان حقارة الذنوب وعظمها باعتبار متعلقاتها
ولما كان هذا كله وعظا لهم واستصلاحا زجره بقوله **يعظكم الله** اي يرقق قلوبكم
الذي له الكمال كله فيمهل بحلمه ولا يهمل بحكمه **ان** اي كراهة ان **تعودوا لمثله ابدا**
ان كنتم اي ما دمتم احياء مكلفين ثم عظم هذا الوعظ بقوله تعالى **مؤمنين**
اي متصفين بالايمان راسخين فيه فانكم لا تعودون فان الايمان يمنع عنه وهذا
تهييج وتقريع لا انه يخرج عن الايمان كما تقول المعتزلة فان قيل هل يجوز ان يسمى
الله واعظا لقوله يعظكم الله اجيب بانه لا يجوز كما قاله الرازي قال كما لا يجوز
ان يسمى معلما لقوله تعالى الرحمن علم القرآن لان اسماء الله توقيفية **ويبين**
الله اي بما له من صفات الكمال والاكرام **لكم الايات** اي الدالة على الشرائع
ومحاسن الاداب كي تتعظوا وتتادبوا **والله** اي المحيط بجميع الكمال **عليم**
اي بما يامر وينهى عنه **حكيم** لا يضع شيئا الا في احكم مواضعه وان دق
عليكم فهم ذلك فلا تتوقفوا في امر من امره ولما كان من اعظم الوعظ بيان
ما يستحق على الذنب من العقاب بينه بقوله تعالى **ان الذين يحبون** اي يريدون
وعبر بالحب اشارة الى انه لا يرتكب هذا مع شناعته الا محب له ولا يحبه الا
بعيد عن الاستقامة **ان تشيع** اي تنتشر بالقول او الفعل **الفاحشة**
لفعله الكبيرة القبيح **في الذين آمنوا** اي بسبب نسبتها اليهم وهم العصبة
وقيل المنافقون **لهم عذاب اليم** اي في الدنيا اي بالحد للقذف **والآخرة** اي
اي بالنار لحق الله تعالى ان لم يتب **والله** اي المستجمع لصفات الجلال والجمال
يعلم اي له العلم التام فهو يعلم مقادير الاشياء ما ظهر منها وما بطن وما الحكمة
في اظهاره او ستره او غير ذلك من جميع الامور **وانتم لا تعلمون** اي ليس علمكم
انفسكم فاعملوا بما علمكم ولا تتجاوزوا ولا تتضلوا وقيل معناه يعلم ما في قلب

يحب

من يحب الفاحشة يجازيه بعلمها وانتم لا تعلمون ذلك وقيل والله يعلم انتفاء الفاحشة عنهم
وانتم ايها العصبة لا تعلمون وجودها فيهم وقوله تعالى **ولولا فضل الله عليكم ورحمته**
اي بكم تكرير للمنة بترك المعاجلة للعقاب للدلالة على عظم الجريمة ولذا عطف عليه
وان الله اي الذي له القدرة التامة فسبقت رحمته غضبه **رؤوف رحيم**
على حصول فضله ورحمته وجواب لولا محذوف كانه قال لعذبكم واستاصلكم
لكنه رؤوف رحيم قال ابن عباس الخطاب لحسان ومسطح وحمنة قال الرازي
ويجوز ان يكون الخطاب عاما وقيل الجواب في قوله تعالى ما زكى منكم من احد وقرأ نافع
وابن كثير وابن عامر وحفص رؤوف بمد الهمزة والباقون بقصرها **يا ايها الذين آمنوا**
لا تتبعوا خطوات اي طرق **الشيطان** بتزيينه اي لا تسلكوا مسالكه في
اشاعة الفاحشة ولا في غيرها **ومن يتبع خطوات الشيطان فانه** اي المتبع
يامر بالفحشاء اي بالقبائح من الافعال **والمنكر** اي ما انكره الشرع وهو كل
ما يكرهه الله تعالى وقرا قنبل وابن عامر وحفص والكسائي بضم الطاء والباقون
بالسكون **ولولا فضل الله** اي الذي لا اله غيره **عليكم ورحمته** اي بكم بتوفيق
التوبة الماحية للذنوب وشرع الحدود المكفرة لها **ما زكى** اي ما طهر من ذنبها
منكم من احد ابدا اخر الدهر والاية عند بعض المفسرين على العموم قالوا اخبر
الله لولا فضله ورحمته ما صلح منكم من احد وقال ابن عباس للذين خاضوا
في الافك ومعناه ما طهر من هذا الذنب ولا صلح امره بعد الذي فعل بالتوبة
منه **ولكن الله** اي العليم باحوال خلقه **يزكي** اي يطهر **من يشاء** من الذنوب
بقبول التوبة منها **والله سميع** اي لاقوالهم **عليم** اي بما في قلوبهم **ولا**
ياتل اي يحلف افتعال من الالية وهو القسم **اولوا الفضل** اي اصحاب
الغنى **منكم والسعة ان** اي ان لا **يؤتوا اولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل**
الله وليعفوا وليصفحوا عنهم في ذلك **الا تحبون ان يغفر الله لكم** اي على عفوكم
وصفحكم واحسانكم الى من اساء اليكم قال المفسرون نزلت هذه الاية في ابي بكر
حيث حلف انه لا ينفق على مسطح وهو ابن خالة ابي بكر وكان يتيما في حجره وكان
ينفق عليه فلما فرط منه ما فرط قال لهم ابو بكر قوموا لستم مني ولست منكم
وكفى ذلك داعيا في المنع فان الانسان اذا احسن الى قريبه وكافاه بالاساءة
كان اشد عليه مما اذا صدرت الاساءة من اجنبي قال الشاعر
وظلم ذوي القربى اشد مضاضة * على المرء من وقع الحسام المهند
فقال له مسطح نشدتك الله والاسلام والقرابة لا تحوجنا الى احد فما كان
لنا اول الامر من ذنب فقال الم تتكلم فقال قد كان بعض ذلك تعجبا من قول
حسان فلم يقبل عذره وقال انطلقوا ايها القوم فان الله لم يجعل لكم عذرا
ولا فرجا فخرجوا لا يدرون اين يذهبون واين يتوجهون من الارض وناس من
الصحابة اقسموا ان لا يتصدقوا على من تكلم بشيء من الافك فبعث رسول الله

صلى الله عليه وسلم الى ابي بكر وقرا عليه الاية فلما وصل الى قوله الا تحبون ان يغفر الله لكم والله غفور رحيم اي مع كمال قدرته فتخلقوا باخلاقه قال بلى يا رب اني احب ان يغفر لي فذهب ابو بكر الى بيته وارسل الى مسطح واصحابه وقال قبلت ما انزل الله تعالى على الراس والعين وانما فعلت بكم ما فعلت ان يسخط الله عليكم اما اذا عفي عنكم فمرحبا وجعل له مثلي ما كان له وقال والله لا انزعها ابدا وذلك من اعظم انواع المجاهدة ولا شك ان هذا اعظم من مجاهدة الكفار لان هذا مجاهدة مع النفس وذلك مجاهدة مع الكفار ومجاهدة النفس اشق ولهذا روي انه صلى الله عليه وسلم قال رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر ان الذين يرمون المحصنات اي العفايف الغافلات اي عن الفواحش وعن السليمات الصدور النقيات القلوب بان لا يقع في قلوبهن فعلها اللاتي ليس فيهن دها ولا مكر لانهن لم يجربن الامور ولم يرزن الاحوال فلا يفطن كما تفطن المجربات العرافات قال القايل

ولقد لهوت بطفلة ميالة ۞ بلهاء تطلعني على اسرارها ۞

وكذلك البله من الرجال في قوله صلى الله عليه وسلم اكثر اهل الجنة البله وقيل البله هم الراضون بنعيم الجنة والفطناء لم يرضوا الا الى وجهه الكريم المومنات بالله ورسوله لعنوا في الدنيا والاخرة اي عذبوا في الدنيا بالحد وفي الاخرة بالنار ولهم عذاب عظيم لعظم ذنوبهم قال مقاتل هذا خاص في عبد الله بن ابي المنافق وروي انه قيل لسعيد بن جبير من قذف مومنة يلعنه الله في الدنيا والاخرة قال ذلك لعايشة خاصة قال الزمخشري ولو قلبت القران كله وفتشت عما اوعد به العصاة لم تر ان الله عز وجل قد غلظ في شي تغليظه في افك عايشة رضوان الله عليها ولا انزل من الايات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد والعقاب البليغ والزجر العنيف واستعظام ما ركب من ذلك واستفظاع ما اقدم عليه ما انزل فيه على طرق مختلفة واساليب مفتنة كل واحد منها كاف في بابه ولو لم تنزل الا هذه الثلاث ايات لكفى به حيث جعل القذفة ملعونين في الدارين جميعا وتوعدهم بالعذاب العظيم في الاخرة وبان السنتهم وايديهم وارجلهم تشهد عليهم كما قال تعالى يوم تشهد عليهم السنتهم وايديهم وارجلهم بما كانوا يعملون اي من قول وفعل وهو يوم القيمة بما افكوا وبهتوا وانه يوفيهم جزاءهم الحق كما قال تعالى يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق اي جزاءهم الواجب الذين هم اهله ويعلمون عند ذلك ان الله هو الحق المبين حيث حقق لهم جزاء الذي كانوا يشكون فيه فاوجز في ذلك واشبع وفصل واجمل واكد وكرر وجاء بما لم يقع في وعيد المشركين وعبدة الاوثان الا ما هو دونه في الفظاعة وما ذاك الا لامر وعن ابن عباس انه قال بالبصرة يوم عرفة وكان يسال عن تفسير القران حتى سيل عن هذه الايات فقال من اذنب ذنبا ثم تاب منه قبلت توبته الا من خاض في امر عايشة وهذا منه مبالغة

ونعظيم

وتعظيم لامر الافك ولقد برا الله تعالى اربعة باربعة برا يوسف عليه السلام بلسان الشاهد وشهد شاهد من اهلها وبرا موسى من قول اليهود فيه بالحجر الذي ذهب بثوبه وبرا مريم بانطاق ولدها حين نادى من تحتها اني عبد الله وبرا عايشة بهذه الايات العظام في كتابه المعجز المتلو على وجه الدهر مثل هذه التبرية بهذه المبالغات فانظر كيف بينها وبين تبرية هولاء وما ذاك الا لاظهار علو منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم والتنبيه على انافة محل سيد ولد ادم وخيرة الاولين والاخرين وحجة الله على العالمين ومن اراد ان يتحقق عظمة شانه وتقدم قدمه واحرازه لقصب السبق دون كل سابق فليتلق ذلك من ايات الافك وليتامل كيف غضب الله تعالى له في حرمته وكيف بالغ في نفي التهمة عن حجابه وقال قوم لعايشة وازواج النبي صلى الله عليه وسلم لم يذكر في قذفهن توبة ومن ذكر في قذفهن اول السورة توبة غيرهن فان قيل ان كانت عايشة هي المرادة فكيف قيل المحصنات اجيب بانها لما كانت ام المومنين جمعت ارادة لها ولبناتها من نساء الامة الموصوفات بالاحصان والغفلة والايمان ولذا قيل ان هذا حكم كل قاذف ما لم يتب فان قيل ما معنى قوله تعالى هو الحق المبين اجيب بان معناه ذو الحق المبين اي العادل الظاهر العدل الذي لا ظلم في حكمه والحق الذي لا يوصف بباطل ومن هذه صفته كان له ان يجازي المحسن على احسانه والمسي على اساته فحق مثله ان يتقى ويجتنب محارمه وقرا يشهد حمزة والكسائي بالياء التحتية والباقون بالفوقية ويوم ناصبه الاستقرار الذي تعلق به لهم وقرا ابو عمرو يوفيهم الله بكسر الها والميم وحمزة والكسائي بضم الها والميم والباقون بكسر الها وضم الميم هذا كله في الوصل واما الوقف فالجميع بكسر الها وسكون الميم الخبيثات اي من الزانيات والكلمات للخبيثين من الناس والخبيثون اي من الناس للخبيثات اي مما ذكر والطيبات اي مما ذكر للطيبين اي من الناس والطيبون اي منهم للطيبات اي مما ذكر فالذي يليق بالخبيث مثله وبالطيب مثله اي الطيبون والطيبات من الناس ومنهم صفوان وعايشة ذكرهما بلفظ الجمع كقوله تعالى فان كان له اخوة اي اخوان اولئك اي الطيبين والطيبات من النساء على الاول ولصفوان وعايشة على الثاني لهم مغفرة اي عفو عن الذنوب ورزق كريم هو الجنة وروي ان عايشة رضي الله تعالى عنها كانت تفتخر باشياء اعطيتها لم تعطها امراة غيرها منها ان جبريل عليه السلام اتى بصورتها في سرقة من حرير وقال هذه زوجتك وروي انه اتى بصورتها في راحته ومنها انه صلى الله عليه وسلم لم يتزوج بكرا غيرها ومنها انه قبض صلى الله عليه وسلم وراسه في حجرها ومنها انه دفن في بيتها ومنها انه كان ينزل عليه الوحي وهو معها في لحافه ومنها ان براءتها نزلت من السما

اوليك

هذا الكلام ... صفوان وعايشة ... اي الطيبات من النساء ... وصفوان الخ

ومنها انها ابنة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصديقته وخلقت طيبة ووعدت بمغفرة ورزق كريم وكان مسروق اذا روى عن عائشة قال حدثتني الصديقة بنت الصديق حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم المبراة من السماء. الحكم الخامس ما ذكره تعالى يا ايها الذين امنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم اي التي تسكنونها فان الموجر والمعير لا يدخلان الا باذن وقرا ورش وابو عمرو وحفص بضم البا الموحدة والباقون بكسرها وفي قوله تعالى حتى تستانسوا وجهان احدهما من الاستيناس الظاهر الذي هو خلاف الاستيحاش لان الذي يطرق باب غيره لا يدري ايوذن له ام لا فهو كالمستوحش من خفاء الحال عليه فاذا اذن له استانس فالمعنى حتى يوذن لكم كقوله تعالى لا تدخلوا بيوت النبي الا ان يوذن لكم وهذا من باب الكناية والارداف لان هذا النوع من الاستيناس بمعنى الاستعلام والاستكشاف استفعال من انس الشي اذا ابصره ظاهرا مكشوفا والمعنى تستعلموا وتستكشفوا الحال هل يراد دخولكم ام لا ومنه قولهم استانس هل ترى احدا واستانست فلم ار احدا اي تعرفت واستعلمت وقال الخليل الاستيناس الاستبصار من قوله انست نارا اي ابصرت وقيل هو ان يتكلم بالتسبيحة والتكبيرة والتحميدة ويتنحنح يوذن اهل البيت وعن ابي ايوب الانصاري قال يا رسول الله ما الاستيناس قال يتكلم الرجل وتسلموا على اهلها كان يقول الواحد السلام عليكم ادخل ثلاث مرات فان اذن له والا رجع قال قتادة الاولى للتسميع والثانية ليتهيا والثالثة ان شاء اذن وان شاء رد وهذا من محاسن الاداب فانه اول مرة ربما منعهم بعض الاشغال من الاذن وفي الثانية ربما كان هناك مانع يقتضي المنع فان لم يجب في الثالثة يستدل بعدم الاذن على مانع ولهذا الاولى في الاستيذان ثلاثا ان لا تكون متصلة بل يكون بين كل واحدة والاخرى وقت ما ولا بد من اذن صريح اذا كان الداخل اجنبيا او قريبا غير محرم سوا كان الباب مغلقا ام لا وان كان محرما فان كان ساكنا مع صاحبه فيه لم يلزمه الاستيذان ولكن عليه ان يشعره بدخوله بتنحنح او شدة وطي او نحو ذلك ليستتر العريان فان لم يكن ساكنا فان كان الباب مغلقا لم يدخل الا باذن وان كان مفتوحا فوجهان والارجح الاستيذان وعن ابي موسى الاشعري انه اتى باب عمر فقال السلام عليكم ادخل قالها ثلاثا ثم رجع وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الاستيذان ثلاثا واستاذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال االج فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لامراة يقال لها روضة قومي الى هذا فعلميه فانه لا يحسن ان يستاذن قولي له يقول السلام عليكم ادخل فسمعها الرجل فقالها فقال ادخل وكان اهل الجاهلية

يقول

يقول الرجل منهم اذا دخل بيتا غير بيته حييتم صباحا وحييتم مساء ثم يدخل فربما اصاب صاحب البيت مع امراته في لحاف واحد فصد الله عن ذلك وعلم الاحسن الاجمل وكم من باب من ابواب الدين هو عند الناس كالشريعة المنسوخة قد تركوا العمل به وباب الاستيذان من ذلك قال الزمخشري بينا انت في بيتك اذ رعف عليك الباب بواحد من غير استيذان ولا تحية من تحيات اسلام ولا جاهلية وهو ممن سمع ما انزل الله فيه وما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن اين الاذن الواعية ذلكم خير لكم اي من تحية الجاهلية ومن ان تدخلوا من غير استيذان روي ان رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم استاذن على امي قال نعم قال انها ليس لها خادم غيري استاذن عليها كلما دخلت قال اتحب ان تراها عريانة قال الرجل لا قال فاستاذن وقوله تعالى لعلكم تذكرون متعلق بمحذوف اي انزل عليكم وقيل لكم هذا ارادة ان تذكروا وتتعظوا وتعملوا بما امرتم به في باب الاستيذان وقرا حفص وحمزة والكسائي بتخفيف الذال والباقون بالتشديد فان لم تجدوا فيها اي البيوت احدا ياذن لكم في دخلها فلا تدخلوها حتى يوذن لكم اي حتى ياتي من ياذن لكم فان المانع من الدخول ليس الاطلاع على العورات فقط وانما شرع لئلا يوقف على الاحوال التي يطويها الناس في العادة عن غيرهم ويتحفظوا من اطلاع احد عليها ولانه تصرف في ملك غيرك فلا بد ان يكون برضاه والا اشبه الغصب والتغلب وان قيل لكم ارجعوا اي بعد الاستيذان فارجعوا اي اذا كان في البيت احد وقال لكم ارجعوا فارجعوا هو اي الرجوع ازكى اي اطهر واصلح لكم من الوقوف على الابواب منتظرين لان هذا مما يجلب الكراهة ويقدح في قلوب الناس خصوصا اذا كانوا ذوي مروة مرتاضين بالاداب الحسنة واذا نهي عن ذلك لادائه الى الكراهة وجب الانتهاء عن كل ما يؤدي اليها من قرع الباب بعنف والتصييح بصاحب الدار وغير ذلك مما يدخل في عادات من لم يتهذب من اكثر الناس وعن ابي عبيد رحمه الله تعالى ما قرعت بابا على عالم قط وكفى بقصة بني اسد زاجرة وما نزل فيها من قوله تعالى ان الذين ينادونك من وراء الحجرات اكثرهم لا يعقلون وعن قتادة اذا لم يوذن له لا يقعد على الباب فان للناس حاجات وان حضر ولم يستاذن وقعد على الباب منتظرا جاز كان ابن عباس ياتي باب الانصاري لطلب الحديث فيقعد على الباب حتى يخرج ولا يستاذن فيخرج الرجل فيقول يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم لو اخبرتني فيقول هكذا امرنا ان نطلب العلم واذا وقف فلا ينظر من شق الباب اذا كان الباب مردودا لما روي عن ابي هريرة رضي الله عنه انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من اطلع في بيت قوم فقد حل لهم ان يفقؤوا عينه وفي رواية النسائي

قال لو ان امرا اطلع عليك فحذفته ففقات عينه ما كان عليك جناح ولو عرض امر في دار من حريق او هدم او هجوم سارق او ظهور منكر يجب انكاره جاز الدخول بغير اذن والله اي الذي لا يخفى عليه شي بما تعملون من الدخول باذن وبغير اذن عليم فيجازيكم عليه ولما نزلت اية الاستيذان قال ابو بكر كيف بالبيوت التي بين مكة والمدينة والشام على ظهر الطريق ليس فيها انسان فانزل الله تعالى ليس عليكم جناح اي اثم ان تدخلوا بيوتا غير مسكونة اي بغير استيذان وذلك انه بيوت الخانات والربط المسبلة فيها متاع اي منفعة لكم والمنفعة فيها بالنزول وانواع المتاع والاتقاء من الحر والبرد ونحو ذلك وقال ابن زيد هي بيوت التجار وحوانيتهم التي بالاسواق اذن وكان ابن سيرين اذا جا الى حانوت السوق السلام عليكم ادخل ثم يلج وقال عطا هي البيوت الخربة والمتاع هو قضا الحاجات فيها من البول والغائط وذلك استثنا من الحكم السابق لشموله البيوت المسكونة وغيرها والله يعلم ما تبدون اي تظهرون وما تكتمون اي تخفون في دخول غير بيوتكم من قصد صلاح او غيره وفي ذلك وعيد لمن دخل لفساد ونطلع على عورات وسياتي انهم اذا دخلوا بيوتهم سلموا انفسهم والحكم التابع بحكم النظر المذكور في قوله تعالى قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم اي عما لا يحل لهم نظره ويحفظوا فروجهم اي عما لا يحل لهم نظره فعله بها تنبيه من للتبعيض والمراد غض البصر عما لا يحل كما مر والاقتصار به على ما يحل وجوز الاخفش ان تكون زائدة واباه سيبويه فان قيل لم دخلت من في غض البصر دون حفظ الفرج اجيب بان في ذلك دلالة على ان المراد ان امر النظر اوسع بدليل جواز النظر للمحارم فيما عدا بين السرة والركبة واما امر الفروج فالامر فيه ضيق وكفاك فرقا ان ابيح النظر الا ما استثني منها وحظر الجماع الا ما استثني منه ويجوز ان يراد مع حفظها عن الافضا الى ما لا يحل حفظها عن الابدا وعن ابن زيد كل ما في القران من حفظ الفرج فهو عن الزنا الا هذا فانه اراد الاستتار فان قيل قدم غض البصر على حفظ الفرج اجيب بان البلوى فيه اشد وروي عن جرير بن عبد الله قال سالت النبي صلى الله عليه وسلم عن نظر الفجاة فقال اصرف بصرك وعن بريدة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي يا علي لا تتبع النظرة النظرة فان لك الاولى وليست لك الثانية اخرجه ابو داود والترمذي وعن ابي سعيد الخدري ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا ينظر الرجل الى عورة الرجل ولا المراة الى عورة المراة ولا يفضي الرجل الى الرجل في ثوب واحد ولا تفضي المراة الى المراة في ثوب واحد ذلك اي غض البصر وحفظ الفرج ازكى اي خير لهم لما فيه من البعد عن الريبة سئل الشبلي رحمه الله تعالى عن قوله تعالى يغضوا من ابصارهم فقال ابصار الرؤوس عن المحرمات وابصار القلوب عن المحرمات

ثم اخبر

ثم اخبر سبحانه وتعالى بانه خبير باحوالهم وافعالهم بقوله تعالى ان الله اي الذي لا يخفى عليه شي خبير بما يصنعون بسائر حواسهم وجوارحهم فعليهم اذا عرفوا ذلك ان يكونوا منه على تقوى وحذر في كل حركة وسكون وقل للمؤمنات يغضضن من ابصارهن عما لا يحل لهن نظره ويحفظن فروجهن عما لا يحل فعله بها روي عن ام سلمة انها قالت كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده ميمونة بنت الحارث اذ اقبل ابن ام مكتوم فدخل عليه وذلك بعد ما امرنا بالحجاب فقال صلى الله عليه وسلم احتجبا منه فقلت يا رسول الله اليس هو اعمى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم افعميا وان انتما تبصران ولا يبدين اي يظهرن زينتهن اي لغير محرم والزينة خفية وظاهرة فالخفية مثل الخلخال والخضاب في الرجل والسوار في المعصم والقرط في الاذن والقلائد في العنق فلا يجوز للمراة اظهارها ولا يجوز للاجنبي النظر اليها والمراد من الزينة مواضعها من البدن وذكر الزينة للمبالغة في الامر بالصون والستر لان هذه الزينة واقعة على مواضع من الجسد لا يحل النظر اليها الا ما ظهر منها اي الزينة الظاهرة اختلف اهل العلم في هذه الزينة استثناها الله تعالى فقال سعيد بن جبير وجماعة هي الوجه والكفان وقال ابن مسعود هي الثياب قال ابن عباس هي الكحل والخاتم والخضاب في الكف فما كان من الزينة الظاهرة يجوز للاجنبي النظر اليها ان لم يخف فتنة في احد وجهين عليه الاكثر وانما رخص في هذا القدر للمراة ان تبديه من بدنها لانه ليس بعورة في الصلاة وسائر بدنها عورة فيها ولان سترها فيه حرج فان المراة لا تجد بدا من مزاولة الاشيا بيديها ومن الحاجة الى كشف وجهها خصوصا في الشهادة والمحاكمة والنكاح وتضطر الى المشي في الطرقات وخاصة الفقيرات والوجه الثاني يحرم لانه محل الفتنة ورجح حسما للباب وليضربن بخمرهن على جيوبهن اي يسترن الرؤوس والاعناق والصدور بالمقانع فان جيوبهن كانت واسعة تبدو منها نحورهن وصدورهن وما حواليها وكن يسدلن الخمر من ورائهن فتبقى مكشوفة فامرن بان يسدلنها من قدامهن حتى تغطيها ويجوز ان يراد بالجيوب الصدور تسمية لما يليها وبلابسها ومنه قولهم ناصح الجيب بالنون والصاد اي سليم الصدر وقولك ضربت بخمارها على جيبها كقولك ضربت بيدي على الحائط اذا وضعتها عليه قالت عائشة رضي الله تعالى عنها رحم الله تعالى نساء المهاجرات لما انزل الله وليضربن بخمرهن على جيوبهن شققن مروطهن فاختمرن منها والمرط كساء من صوف او خز او كتان وقيل هو الازار وقيل الدرع وقرا نافع وابو عمرو وهشام وعاصم بضم الجيم والباقون بكسرها وكرر قوله تعالى ولا يبدين زينتهن لبيان من يحل له الابدا ومن لا يحل له اي الزينة الخفية التي لم يبح لهن كشفها

وللصلاة ولا للاجانب وهي ما عدا الوجه والكفين **الا لبعولتهن** اي فانهم المقصودون
بالزينة ولهم ان ينظروا الى جميع بدنهن حتى الفرج ولو الدبر بكره وقال ابن عباس
لا يضعن الجلباب والخمار الا لازواجهن **او اباءهن او اباء بعولتهن
او ابناءهن او ابناء بعولتهن او اخوانهن او بني اخوانهن او بني اخواتهن**
فيجوز لهولاء ان ينظروا الى الزينة الخفية ولا ينظرون الى ما بين السرة والركبة
وانما سومح في الزينة الخفية لاولئك المذكورين للحاجة المضطرة الى مداخلتهم
ومخالطتهم ولقلة الفتنة من جهاتهم في الاسفار للنزول والركوب وغيره ذلك
او نساءهن اي المومنات فان الكافرات لا يتحرجن عن وصفهن للرجال فلا يجوز
للمسلمة ان تتجرد من ثيابها عند الكافرة لانها اجنبية في الدين فكانت كالرجل
الاجنبي لكن يجوز ان يرى منها ما يبدو عند المهنة وقد كتب عمر الى ابي عبيدة
ابن الجراح ان يمنع نساء اهل الكتاب ان يدخلن الحمامات مع المسلمات وقيل
النساء كلهن وللعلماء في ذلك خلاف تنبيه العورات على اربعة اقسام
عورة الرجل مع الرجل وعورة المراة مع المراة وعورة المراة مع الرجل وعورة
الرجل مع المراة فاما عورة الرجل مع الرجل فيجوز له ان ينظر الى جميع بدنه
ما عدا ما بين السرة والركبة وكذلك المراة مع المراة واما المراة مع الرجل
او الرجل مع المراة فلا ينظر احدهما من الاخر شيا وقيل يجوز للاجنبي ان
ينظر وجهها وكفيها اذا امن الفتنة ولم يكن شهوة وقيل يجوز لها ان تنظر
منه ما عدا ما بين السرة والركبة ويجوز لمن اراد ان يخطب حرة ان ينظر
وجهها وكفيها وهي تنظر منه اذا ارادت ان تتزوج به ما عدا ما بين السرة والركبة
وان اراد ان يتزوج بامة جاز ان ينظر منها ما عدا السرة والركبة ويحرم ان ينظر
بشهوة ويحرم النظر بشهوة لكل منظور اليه الا لمن اراد ان يتزوج بها والا الحليلة
ويباح النظر من الاجنبي لمعاملة وشهادة حتى يجوز النظر الى الفرج للشهادة
على الزنا والولادة والى الثدي للشهادة على الارضاع وتعليم ومداواة لاجل
بقدر الحاجة وكلما حرم نظره متصلا حرم نظره منفصلا كشعر عانة من رجل
او قلامة ظفر من اجنبية ويحرم اضطجاع رجلين او امراتين في ثوب واحد اذا كانا
عاريين وان كان كل منهما في جانب من الفراش للخبر المتقدم ويجب التفريق
بين ابن عشر سنين واخوته واخواته في المضجع اذا كانا عاريين ويسن مصافحة
الرجلين والمراتين لخبر ما من مسلمين يلتقيان ويتصافحان الا غفر لهما قبل ان
يتفرقا ويكره مصافحة من به عاهة كجذام او برص والمعانقة والتقبيل
والتقبيل في الراس للنهي عن ذلك الا القادم من سفر او تباعد عهد ويسن
تقبيل الطفل ولو لغيره ويسن تقبيل يد الحي الصالح ولا باس بتقبيل وجه
الميت الصالح او علم او زهد ونحو ذلك ويكره لغنا او وجاهة او نحو ذلك
وقوله تعالى **او ما ملكت ايمانهن** تم الاباء والعبيد فيحل نظر العبد العفيف

شفقة

غر

غير المبعض والمشترك والمكاتب الى سيدته العفيفة ولما روى ابو داوود انه صلى الله
عليه وسلم اتى فاطمة بعبد وهبه لها وعليها ثوب اذا قنعت به راسها لم يبلغ
رجليها واذا غطت رجليها لم يبلغ راسها فلما راها النبي صلى الله عليه وسلم وما تلقى
قال صلى الله عليه وسلم انه ليس عليك باس انما هو ابوك وغلامك وعن عائشة
انها قالت لعبدها ذكوان انك اذا وضعتني في القبر وخرجت فانت حر اما الغا
والمبعض والمشترك والمكاتب فكالاجنبي بل قيل ان المراد بالاية الاما وعبد
المراة كالاجنبي وبه قال ابن المسيب اخرا وقال لا يغرنكم اية النور فان المراد بها
الاما **او التابعين** اي الذين يتبعون القوم ليصيبوا من فضل طعامهم **غير
اولي الاربة** اي اصحاب الحاجة الى النسا **من الرجال** اي ليس لهم همة الى ذلك
ولا حاجة الى النسا لانهم بله لا يعرفون شيا من امرهن وقيل هم شيوخ
صلحا اذا كانوا معهن غضوا ابصارهم وقيل هم الممسوحون سوا كان حرا
ام لا وهو ذاهب الذكر والانثيين اما ذاهب الذكر فقط او الانثيين فقط
فكالفحل وعن ابي حنيفة لا يحل امساك الخصيان واستخدامهم وبيعهم وشراؤهم
قال الزمخشري فان قلت روي انه اهدي لرسول الله صلى الله عليه وسلم خصي فقبل
قلت لا يقبل الا فيما تعم به البلوى الاحديث مكشوف وان صح فلعله قبله ليعتقه
او لسبب من الاسباب انتهى وعندنا يجوز جميع ذلك ان لا مانع منه وقيل
المراد باولي الاربة المخنث وقرا ابن عامر وشعبة بنصب الراء على الاستثناء
والحال والباقون بكسرها على الوصفية وقوله تعالى **او الطفل** بمعنى الاطفال
وضع الواحد موضع الجمع لانه يفيد الجنس ويبينه ما بعده وهو قوله تعالى
الذين لم يظهروا اي لم يطلعوا **على عورات النسا** للجماع فيجوز لهن ان يبدين لهم ما عدا
ما بين السرة والركبة قال امام الحرمين اذا لم يبلغ الطفل حدا يحكي ما يراه فكالعدم
او بلغه من غير شهوة فكالمحرم او بشهوة فكالبالغ **ولا يضربن بارجلهن ليعلم ما
يخفين من زينتهن** وذلك ان المراة كانت تضرب برجليها الارض ليتقعقع
خلخالها فيعلم انها ذات خلخال وقيل كانت تضرب باحدى رجليها على
الاخرى ليعلم انها ذات خلخالين فنهين عن ذلك لان ذلك يورث ميلا في الرجال
واذا وقع النهي عن اظهار صوت الخلخال والحلي علم بذلك ان النهي عن اظهار موضع
الحلي ابلغ وابلغ واوامر الله ونواهيه في كل باب لا يكاد العبد الضعيف
يقدر على مراعاتها وان ضبط نفسه واجتهد ولا يخلو من تقصير يقع منه
فلذلك قال تعالى **وتوبوا الى الله** اي الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو
عن السيئات **جميعا ايه المومنون** اي مما وقع لكم من النظر الممنوع منه ومن
غيره ومن شروط التوبة ان يقلع الشخص عن الذنب ويندم على ما مضى ويعزم على
ان لا يعود ويرد الحقوق الى اهلها وقرا ابن عامر في الوصل ايه المومنون بضم
الهاء لانها كانت مفتوحة لوقوعها قبل الالف فلما سقطت الالف لالتقاء الساكنين

سيق

ل

اتبعت حركتها حركة ما قبلها والباقون بفتحها واما الوقف فوقف ابو عمرو والكسائي
بلا الف بعدها ووقف الباقون على الهاء ساكنة **لعلكم تفلحون** ان تنجون من ذلك
بقبول التوبة منه وفي الاية تغليب الذكور على الاناث وعن ابن عباس توبوا عما كنتم
تفعلون في الجاهلية لعلكم تسعدون في الدنيا والاخرة فان قيل على هذا قد صحت
التوبة بالاسلام لانه يجب ما قبله فما معنى هذه التوبة اجيب بان بعض العلماء
قال من اذنب ذنبا ثم تاب عنه لزمه كلما ذكره ان يجدد التوبة لانه يلزمه ان
يستمر على ندمه وعزمه الى ان يلقى الله تعالى والذي عليه الاكثر انه لا يجب عليه
تجديدها وعن ابي بردة انه سمع الاغر يحدث ابن عمر انه سمع رسول الله صلى
الله عليه وسلم يقول يا ايها الناس توبوا الى ربكم فاني اتوب الى ربي كل يوم مائة
مرة وعن ابن عمر قال كنا نعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المجلس يقول
رب اغفر لي وتب علي انك انت التواب الغفور مائة مرة وعن ابي هريرة ان رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال من تاب قبل طلوع الشمس من مغربها تاب الله
عليه وعن انس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الله افرح بتوبة
عبده من احدكم يسقط على بعيره وقد اضله في ارض فلاة ولما نهى عما عسى يفضي
الى السفاح المخل بالنسب المقتضي للالفة وحسن التربية ومزيد الشفقة
المودية الى بقاء النوع بعد الزجر عنه مبالغة فيه عقبه بالحكم النافع وهو
الامر بالنكاح المذكور في قوله تعالى **وانكحوا الايامى منكم** جمع ايم والايامى
واليتامى اصلهما ايايم ويتايم فقلبا والايم هي من ليس لها زوج بكرا كانت
او ثيبا ومن ليس له امراة فيشمل ذلك الذكر والانثى قال الشاعر

فان تنكحي انكح وان تتايمي ۞ وان كنت افتى منكم اتايم

اي اقرب الى الشباب منك وعنه صلى الله عليه وسلم اللهم انا نعوذ بك من
العيمة والغيمة والايمة والقرم والقزم فالعيمة شهوة اللبن والغيمة
العطش والايمة شهوة النكاح مع الخلو من الزوجة والقرم البخل والقزم
شهوة اللحم وهذا في الاحرار والحرائر واما غيرهم فهو قوله تعالى **والصالحين**
اي المومنين **من عبادكم** وهو من جموع عبد **وامائكم** والخطاب للاولياء والسادة
وهذا الامر امر ندب فيستحب لمن تاقت نفسه بالنكاح ووجد اهبته ان
يتزوج ومن لم يجد اهبته استحب له ان يكسر شهوته بالصوم لما ورد انه
صلى الله عليه وسلم قال يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة
فليتزوج فانه اغض للبصر واحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم
فانه له وجاء اي قاطع لشهوته لان الوجاء بكسر الواو نوع من الخصاء وهو ان
ترض عروق الانثيين وتترك الخصيتين كما هما فشبه الصوم في قطعه
شهوة النكاح بالوجاء الذي يقطع النسل والباءة بالمد مؤن النكاح وهي
المهر والكسوة فصل التمكين ونفقة يومه فان لم تنكسر بالصوم لا يكرهها

قوله بالرفع لانه جواب ... وما يتعلق به ... الذي ... الايامى ... الزوج ...

بالكافور ونحوه بل يتزوج ويكره لغير التائق ان وجد الاهبة او احدهما وكان به علة
كهرم فان وجدها ولا علة به وهو غير تائق فالتخلي للعبادة افضل من النكاح ان
كان متعبدا فان لم يتعبد فالنكاح افضل من تركه لقوله صلى الله عليه وسلم من
احب فطرتي فليستن بسنتي وهي النكاح وعنه صلى الله عليه وسلم من كان له
ما يتزوج به فلم يتزوج فليس منا وعنه صلى الله عليه وسلم اذا تزوج احدكم عج
شيطانه يا ويله عصم ابن ادم مني ثلثي دينه والاحاديث في ذلك كثيرة
وربما كان واجب الترك اذا ادى الى معصية او مفسدة وعنه صلى الله عليه
وسلم اذا اتى على امتي مائة وثمانون سنة فقد حلت لهم العزوبة والعزلة
والترهب على رؤوس الجبال وفي رواية ياتي على الناس زمان لا تنال المعيشة
فيه الا بالمعصية فاذا كان ذلك الزمان حلت العزوبة ويندب النكاح للمراة
التائقة وفي معناها المحتاجة الى النفقة والخائفة من اقتحام الفجرة ويستحب
ان تكون المنكوحة بكرا الا لعذر لقوله صلى الله عليه وسلم هلا بكرا تلاعبها وتلاعبك
ولودا لقوله صلى الله عليه وسلم تزوجوا الولود الودود فاني مكاثر بكم الامم
يوم القيامة وفي رواية يا عياض لا تزوجن عجوزا ولا عاقرا فاني مكاثر دينة
لما روى عبد الله بن عمر انه صلى الله عليه وسلم قال الدنيا متاع وخير متاعها
المراة الصالحة وقيل المراد بالصالحين الصالحون للنكاح والقيام بحقوقه
وقوله تعالى **ان يكونوا** اي الاحرار **فقراء يغنهم الله** اي بالتزوج **من
فضله** رد لما عسى يمنع من النكاح والمعنى لا يمنعهن فقر الخاطب
والمخطوبة من النكاح المناكحة فان في فضل الله غنية عن المال فانه
غاد ورائح او وعد من الله بالاغناء لقوله صلى الله عليه وسلم اطلبوا
الغنا في هذه الاية لكن ينبغي ان يكون شريطة الله تعالى غير منسية
في هذا الموعد ونظائره وهي مشيئته ولا يشاء الحكيم الا ما اقتضته
الحكمة ونحوه ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب
وقد جاءت الشريطة منصوصة في قوله تعالى وان خفتم عيلة فسوف
يغنيكم الله من فضله ان شاء ان الله عليم حكيم ومن لم ينس هذه الشريطة
لم ينتصب معترضا بعزب كان غنيا فافقره النكاح وبفاسق تاب واتقى
الله تعالى وكان له شيء ففني واصبح مسكينا وورد التمسوا الرزق
بالنكاح وشكى الى النبي صلى الله عليه وسلم رجل الحاجة فقال عليك
بالباءة اي النكاح وعن عمر رضي الله عنه عجبت لمن يبتغي الغنا بغير النكاح
والله تعالى يقول ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله وحكي انه
قال عجبت لمن لا يطلب الغنا بالباءة وقال طلحة بن مطرف تزوجوا
فانه اوسع لكم في رزقكم واوسع في اخلاقكم ويزيد الله في مروتكم
قال الزمخشري ولقد كان عندنا رجل رازح الحال ثم رايت بعد سنين

عبد

وثنا نعمت حاله وحسنت مسالته فقال كنت في اول امري على ما علمت
وذلك قبل ان ارزق ولدا فلما رزقت بكر ولدي تواخيت عن الفقر فلما ولد لي
الثاني ازددت خيرا فلما تتاموا ثلاثة صب الله علي الخير صبا فاصبحت الى ما ترى
والله اي الذي له الملك كله **واسع** اي ذو سعة لخلقه لا تنفد نعمه اذ لا
تنتهي قدرته **عليم** بهم يبسط الرزق لمن يشا ويقدر ولما ذكر تعالى تزويج الحراير
والاما ذكر حال من يعجز عن ذلك بقوله **وليستعفف الذين لا يجدون
نكاحا** اي وليجتهد في طلب العفة عن الزنا والحرام الذين لا يجدون ما ينكحون به من
مهر ونفقة يوم التمكين وكسوة فصله وقيل لا يجدون ما ينكحون **حتى
يغنيهم الله** اي يوسع عليهم **من فضله** فينكحون ولما ذكر تعالى النكاح الصالحين
من العبيد والاماء حث على كتابتهم بالحكم التاسع وهو الامر بالكتابة المذكورة
في قوله تعالى **والذين يبتغون الكتاب** اي يطلبون المكاتبة **مما ملكت ايمانكم**
اي العبيد والاما **فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا** اي امانة وقدرة على
الكسب لاداء مال الكتابة سبب نزول هذه الاية ما روي ان غلاما لحويطب
بن عبد العزى يقال له الصبيح سال مولاه ان يكاتبه فابى فانزل الله هذه
الاية فكاتبه حويطب على مائة دينار ووهب له منها عشرين فاداها وقتل
يوم حنين في الحرب واركانها اربعة رقيق وصيغة وعوض وسيد وشرط
السيد كونه مختارا اهل تبرع وولاء وكتابة مريض مرض الموت
محسوبة من الثلث فان خلف مثلي قيمته صحت الكتابة في كله او مثل
قيمته صحت في ثلثيه او لم يخلف غيره صحت في ثلثه وشرط في الرقيق اختيار
وعدم صبي وجنون وان لا يتعلق به حق لازم وشرط في الصيغة
لفظ يشعر بالكتابة كان يقول السيد لمملوكه كاتبتك على الفين في شهرين
كل شهر الف فاذا اديتهما فانت حر فيقول قبلت ذلك فلا يصح عقدها
الا موجلا منجما بنجمين فاكثر كما جرى عليه الصحابة فمن بعدهم ولا بد من
بيان قدر العوض وصفته وعدد النجوم وقسط كل نجم فلا يجوز عند الشافعي
بنجم واحد ولا حالا لان العبد لا يملك شيا فيعقده حالا مانع من حصول
الغرض لانه لا يقدر على ادا البدل عاجلا وعند ابي حنيفة يجوز حالا وموجلا
ومنجما وغير منجم لان الله تعالى لم يذكر التنجيم وقياسا على سائر العقود
وهي سنة لا واجبة وان طلبها الرقيق لئلا يتعطل اثر الملك ويتحكم
المماليك على الملاك بطلب رقيق امين قوي على الكسب وبهما فسر الشافعي
الخير في الاية واعتبرت الامانة لئلا يضيع ما يحصله فلا يعتق والطلب
والقدرة على الكسب ليوثق بتحصيل النجوم روي انه صلى الله عليه وسلم قال
ثلاث حق على الله عونهم المكاتب الذي يريد الادا والناكح يريد العفاف
والمجاهد في سبيل الله فان فقدت هذه الشروط او بعضها فمباحة ه

او لا يئوي رجا العتق بها ولا يكره بحال لانها عند فقد ما ذكره فقد يفضي الى
العتق نعم ان كان الرقيق فاسقا بسرقة او نحوها وعلم سيده انه لو كاتبه مع العجز
عن الكسب اكتسب بطريق الفسق لم يبعد تحريمها لتضمنها التمكين
من الفساد ويصح على عوض قليل وكثير ويجب ان يحط عنه قبل عتقه متمولا
من النجوم او يدفعه اليه من جنسها او من غيرها كما قال تعالى **واتوهم** امر
للسادة **من مال الله الذي اتاكم** ما تستعينون به في ادا ما التزموه
لكم وفي معنى الايتا حط شي متمول مما التزموه بل الحط اولى من الدفع لان القصد
بالحط الاعانة على العتق وهي محققة فيه موهومة في الدفع اذ قد يصرف
المدفوع في جهة اخرى وكون ذلك في النجم الاخير اولى منه فيما قبله لانه اقرب
الى العتق روي ان عمر رضي الله تعالى عنه كاتب عبدا له يكنى ابا امية وهو اول
عبد كوتب في الاسلام فاتاه باول نجم فدفعه اليه عمر وقال استعن به على
كتابتك فقال لو اخرته الى اخر نجم فقال اخاف ان لا ادرك ذلك وكونه ربعا من
النجوم اولى فان لم تسمح به نفسه فكونه سبعا اولى روي حط الربع النسائي
وغيره وحط السبع مالك عن ابن عمر وعند ابي حنيفة امر للمسلمين
على جهة الوجوب باعانة الكاتبين واعطائهم سهمهم الذي جعل الله لهم من بيت
المال لقوله وفي الرقاب ولما بين تعالى ما يصح من تزويج العبيد والاما
اتبع ذلك بالحكم العاشر وهو الاكراه على الزنا المذكور في قوله تعالى **ولا تكرهوا
فتياتكم** اي امائكم **على البغا** اي الزنا كان لعبد الله بن ابي راس المنافقين
ست جوار معاذة ومسيكة واميمة وعمرة واروى وقتيلة يكرههن على البغا
وضرب عليهن ضرايب فشكت ثنتان منهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم
فنزلت وكذلك كانوا يفعلون في الجاهلية يواجرون اماءهم فلما جا الاسلام قالت
مسيكة لمعاذة ان هذا الامر الذي نحن فيه لا يخلو من وجهين فان يك خيرا
فقد استكثرنا منه وان يك شرا فقد ان لنا ان ندعه فانزل الله هذه
الاية وروي انه جات احدى الجاريتين ببرد وجات الاخرى بدينار فقال لهما
ارجعا فازنيا فقالا والله لا نفعل قد جا الاسلام وحرم الزنا فاتيا رسول الله صلى
الله عليه وسلم وشكيا اليه فنزلت ويكنى بالفتى والفتاة عن العبد والامة وفي
الحديث لا يقل احدكم فتاي وفتاتي ولا يقل عبدي وامتي **ان اردن تحصنا**
اي تعففا عنه وهذه الارادة محل الاكراه فلا مفهوم للشرط لان الاكراه
لا يتصور الا عند ارادة التحصن فاما اذا لم ترد المراة التحصن فانها تبغي بالطبع
طوعا وكلمة ان وايثارها على اذا ايذان بان الباغيات كن يفعلن ذلك برغبة
وطواعية منهن وان ما وجد من معاذة ومسيكة من خبر الشاذ النادر
ولان الكلام ورد على سبب وهو الذي ذكر في سبب نزول الاية فخرج النهي على
سبب صورة صفة السبب وان لم تكن شرطا فيه وقال الحسين بن الفضل

في الاية تقديم وتاخير تقديرها وانكحوا الايامي منكم ان اردن تحصنا ولا تكرهوا على
البغاء لتبتغوا عرض الحياة الدنيا اي تطلبوا من اموال الدنيا بلبسهن واولادهن
ومن يكرههن فان الله من بعد اكراههن غفور اي لهن رحيم بهن وكان
الحسن اذا قرا هذه الاية قال لهن والله لهن اي لا للمكره الا اذا تاب فان قيل
ان الكراهة عزيمة فلا حاجة الى المغفرة اجيب بان الزنا لا يباح بالاكراه
فهي اثمة لكن لا حد عليها للاكراه ولما ذكر تعالى في هذه السورة هذه
الاحكام وصف القران بصفات ثلاث احدها قوله تعالى ولقد انزلنا اليكم
ايات مبينات اي الايات التي بينت في هذه السورة واوضحت فيها الاحكام
والحدود وقرا ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي بكسر اليا التحتية والباقون
بفتحها لانها واضحات تصدقها الكتب المتقدمة والعقول المستقيمة من بين
بمعنى تبين اولانها بينت الاحكام والحدود وثانيها قوله تعالى ومثلا من الذين
خلوا من قبلكم اي من جنس امثالهم اي قصة عجيبة
مثل قصصهم وهي قصة عائشة رضي الله عنها فانها كقصة يوسف ومريم
عليهما السلام ثالثها قوله تعالى وموعظة للمتقين اي ما وعظ به في قوله
تعالى ولا تاخذكم بهما رافة في دين الله وقوله تعالى لولا اذ سمعتموه ظن المومنون
الى اخره وفي قوله تعالى ولولا اذ سمعتموه قلتم الى اخره وفي قوله تعالى
يعظكم الله ان تعودوا لمثله الى اخره وتخصيصها بالمتقين لانهم المنتفعون
بها واختلف في قوله تعالى الله نور السموات والارض فقال ابن عباس
الله هادي اهل السموات والارض فهم بنوره الى الحق يهتدون وبهدايته
من حيرة الضلال ينجون وقال الضحاك منور السموات والارض فقال نور
السما بالملائكة ونور الارض بالانبيا وقال مجاهد مدبر السموات
والارض وقال ابي بن كعب والحسن وابو العالية مزين السموات
والارض زين السما بالشمس والقمر والنجوم وزين الارض بالانبيا والعلما
والمومنين ويقال بالنبات والاشجار وقيل معناه الانوار كلها منه كما يقال
فلان رحمة اي منه الرحمة وقد يذكر مثل هذا اللفظ على طريق المدح
كما قال القايل اذا سار عبد الله من مرو ليلة • فقد سار منها نورها وجمالها
وسبب هذا الاختلاف ان النور في الاصل كيفية تدركها الباصرة
اولا وبواسطتها سائر المبصرات كالكيفية الفايضة من النيران على الاجرام
الكثيفة المحاذية لها وهو بهذا المعنى لا يصح اطلاقه على الله تعالى الا على
ضرب من التجوز كالامثلة المتقدمة او على تقدير مضاف كقولك زيد
كرم وجود ثم تقول ينعش الناس بكرمه وجوده والمعنى ذو نور السموات
والارض الحق شبه بالنور في ظهوره وبيانه كقوله تعالى الله ولي الذين
امنوا يخرجهم من الظلمات الى النور اي من الباطل الى الحق واضاف النور

الي السموات

الي السموات والارض لاحد معنيين اما للدلالة على سعة اشراقه وفشو
اضاءته حتى تضيء له السموات والارض واما ان يراد اهل السموات والارض
وانهم يستضيئون به واختلف ايضا في معنى قوله تعالى مثل نوره فقال ابن
عباس مثل نوره الذي اعطى المومن اي مثل نور الله في قلب المومن وهو النور الذي
يهتدي به كما قال تعالى فهو على نور من ربه وقال الحسن وزيد بن اسلم
اراد بالنور القران وقال سعيد بن جبير والضحاك هو محمد صلى الله عليه وسلم
وقيل اراد بالنور الطاعة سمى طاعة الله نورا واضاف هذه الانوار الى نفسه
تفضلا اي صفة نوره العجيبة الشان في الاضاءة كمشكاة اي كصفة
مشكاة وهي الكوة في الجدار غير النافذة فيها مصباح اي سراج ضخم
ثاقب المصباح في زجاجة اي قنديل من زجاج شامي ازهر وانما ذكر الزجاجة
لان النور وضوء النار فيها ابين من كل شيء وضوءه يزيد في الزجاج ثم وصف الزجاجة
بقوله تعالى الزجاجة كانها اي النور فيها كوكب دري اي مضي شبهها في
الضوء باحدى الدراري من الكواكب الخمسة العظام وهي المشتري
والزهرة والمريخ وزحل وعطارد فان قيل لم شبهها بالكوكب ولم يشبهها
بالشمس والقمر اجيب بانهما يلحقهما الخسوف والكسوف والكواكب
لا يلحقها خسوف ولا كسوف وقرا ابو عمرو والكسائي بكسر الدال من الدرء
بمعنى الدفع لدفعه الظلام والباقون بضمها منسوب الى الدر اللولو في
صفائه وحسنه وان كان الكوكب اكثر صفا من الدر لكنه يفضل الكوكب
بصفائه كما يفضل الدر سائر الحب وهمز مع المد ابو عمرو وشعبة
وحمزة والكسائي والباقون بغير همز وكل من اهل الهمز على مرتبته في المد
توقد من شجرة مباركة زيتونة اي ابتدا ثقوبه من شجرة
الزيتون المتكاثر نفعه بان رويت فتيلة المصباح بزيت الشجرة
وهي شجرة كثيرة البركة وفيها منافع كثيرة لان الزيت يسرج به ويدهن
به وهو ادام وهو اصفى الادهان واضوءها والزيتون فاكهة ولا
يحتاج في استخراج زيته الى عصار بل كل احد يستخرجه وجاء في الحديث
عليكم بهذه الشجرة زيت الزيتون فتداووا به فانها مصحة من الباسور
وقرا ابن كثير وابو عمرو بفتح التا والواو وتشديد القاف على وزن تفعل
على الماضي اي المصباح وقرا ابو بكر وحمزة والكسائي بضم التا الفوقية
وتخفيف القاف اي الزجاجة اي نارها لان الزجاجة لا توقد والباقون
بضم التحتية وتخفيف القاف اي المصباح لا شرقية ولا غربية
اي ليست شرقية وحدها لا يصيبها الشمس اذا غربت ولا غربية
وحدها لا يصيبها الشمس اذا طلعت بل هي ضاحية للشمس
طول النهار تصيبها الشمس عند طلوعها وعند غروبها فتكون

الشاهير
وعنوده

شرقية وغربية تاخذ حظها من الامرين فيكون زيتها اضوا وهذا كما يقال
فلان ليس باسود ولا بابيض خالص بل اجتمع فيه كل واحد منهما وهذا الرمان
ليس بحلو ولا حامض اي اجتمع فيه الحلاوة والحموضة هذا قول ابن
عباس والاكثرين وقال السدي وجماعة معناه ليست في مقنأة
لا تصيبها الشمس ولا في مضحاة لا يصيبها الظل فهي لا تضرها شمس ولا
ظل والمقنأة بقاف فنون فهمزة وهي بفتح النون وضمها المكان الذي
لا تطلع عليه الشمس وهو قول البيضاوي تبعا للزمخشري وفي الحديث
لا خير في شجرة ولا نبات في مقنأة ولا خير فيهما في مضحاة قال ابن حجر
العسقلاني لم اجده وقيل معناه انها معتدلة ليست في شرق
يصيبها الحر ولا غرب يضرها البرد وقيل معناه هي شامية لان الشام
وسط الارض لا شرقي ولا غربي وقيل ليست من اشجار الدنيا لانها لو
كانت في الدنيا لكانت شرقية او غربية وانما هو مثل ضربه الله تعالى لنوره
يكاد زيتها اي من صفائه **ولو لم تمسسه نار** اي يكاد يتلألأ
ويضيء بنفسه من غير نار **نور على نور** اي نور المصباح على نور الزجاجة
تنبيه اختلف اهل العلم في معنى هذا التمثيل فقال بعضهم
وقع التمثيل لنور محمد صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس لكعب الاحبار
اخبرني عن قوله تعالى كمشكاة فقال كعب هذا مثل ضربه الله تعالى
لنبيه صلى الله عليه وسلم فالمشكاة صدره والزجاجة قلبه والمصباح
فيه النبوة توقد من شجرة مباركة هي شجرة النبوة يكاد نور محمد وامره يتبين
للناس ولو لم يتكلم انه نبي كما يكاد ذلك الزيت يضيء ولو لم تمسسه نار
وروى سالم عن عمر في هذه الاية قال المشكاة جوف محمد صلى الله عليه وسلم
والزجاجة قلبه والمصباح النور الذي جعله الله فيه لا شرقية ولا غربية
لا يهودي ولا نصراني توقد من شجرة مباركة ابراهيم نور على نور نور
قلب ابراهيم ونور قلب محمد صلى الله عليه وسلم وقال محمد بن كعب
القرظي المشكاة ابراهيم والزجاجة اسماعيل والمصباح محمد صلى
الله عليه وسلم سماه الله مصباحا كما سماه سراجا فقال تعالى وسراجا
منيرا توقد من شجرة مباركة وهو ابراهيم عليه السلام سماه مباركا
لان اكثر الانبياء من صلبه لا شرقية ولا غربية يعني ابراهيم لم يكن
يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما لان اليهود تصلي قبل
المغرب والنصارى قبل المشرق يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه
نار تكاد محاسن محمد صلى الله عليه وسلم تظهر للناس قبل ان اوحي اليه
نور على نور نبي من نسل نبي نور محمد على نور ابراهيم وقال بعضهم
وقع هذا التمثيل لنور قلب المؤمن روى ابو العالية عن ابي بن كعب قال

٣ مثل نوره م

هذا

هذا مثل المؤمن والمشكاة نفسه والزجاجة صدره والمصباح ما جعل الله
من القرآن والايمان في قلبه توقد من شجرة مباركة وهي الاخلاص لله وحده فمثله
مثل شجرة التف بها الشجر فهي خضراء ناعمة لا تصيبها الشمس لا اذا طلعت ولا
اذا غربت فكذلك المؤمن قد احترس من ان يصيبه شيء من الفتن فهو بين
اربع خلال ان اعطي شكر وان ابتلي صبر وان حكم عدل وان قال صدق
يكاد زيتها يضيء اي يكاد قلب المؤمن يعرف الحق قبل ان يتبين له لموافقته
اياه نور على نور قال ابي فهو يتقلب في خمسة انوار قوله نور
وعمله نور ومدخله نور ومخرجه نور ومصيره الى النور يوم القيامة
قال ابن عباس هذا مثل نور الله وهداه في قلب المؤمن كما يكاد الزيت
الصافي يضيء قبل ان تمسه النار فاذا مسته النار ازداد ضوءا على
ضوئه كذلك يكاد قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل ان ياتيه العلم فاذا جاءه
العلم ازداد هدى على هدى ونورا على نور وقال الكلبي قوله تعالى
نور على نور يعني ايمان المؤمن وعمله وقال السدي نور الايمان ونور القرآن
وقال الحسن وابن زيد هذا مثل للقرآن فالمصباح هو القرآن فكما
يستضاء بالمصباح يهتدى بالقرآن والزجاجة قلب المؤمن والمشكاة
فمه ولسانه والشجرة المباركة شجرة الوحي يكاد زيتها يعني تكاد حجة
القرآن تتضح وان لم يقرأ نور على نور يعني القرآن نور من الله تعالى لخلقه
مع ما اقام لهم من الدلائل والاعلام قبل نزول القرآن فازدادوا بذلك نورا
على نور **يهدي الله لنوره** قال ابن عباس دين الاسلام وقيل القرآن
من يشاء فان الاسباب بدون مشيئته لاغية وقيل يوفق الله
لاصابة الحق من نظر وتدبر بعين عقله والانصاف من نفسه ولم
يذهب عن الجادة الموصلة اليه يمينا وشمالا ومن لم يتدبر فهو كالاعمى
سواء عليه الليل الدامس وضحوة النهار الشامس **ويضرب** اي
يبين **الله الامثال للناس** تقريبا للافهام وتسهيلا للادراك **والله بكل شيء
عليم** معقولا كان او محسوسا ظاهرا كان او خفيا وفيه وعد ووعيد
لمن تدبرها ولمن لم يكترث بها وقوله تعالى **في بيوت** يتعلق بما قبله اي
كمشكاة في بعض بيوت الله وهي المساجد كانه قيل مثل نوره كما ترى
في المسجد نور المشكاة التي من صفتها كيت وكيت او بما بعده وهو يسبح
اي يسبح رجال في بيوت وفي قوله فيها تكرير لقوله في بيوت كقوله زيد
في الدار جالس فيها او بمحذوف كقوله تعالى في تسع آيات اي سبحوا في
بيوت والبيوت هي المساجد قال سعيد بن جبير عن ابن عباس
قال المساجد بيوت الله في الارض وهي تضيء لاهل السماء كما تضيء
النجوم لاهل الارض وقيل المراد بالبيوت المساجد الثلاثة وقيل المراد اربعة

مساجد لم يبنها الا نبي الكعبة بناها ابراهيم واسمعيل عليهما السلام
فجعلاها قبلة وبيت المقدس بناه داوود وسليمان عليهما السلام ومسجد
المدينة ومسجد قبا بناهما النبي صلى الله عليه وسلم واتى فيها بجمع الكثرة دون
جمع القلة للتعظيم اذن الله ان ترفع قال مجاهد تبنى نظيره
قوله تعالى واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت وقال الحسن تعظم فلا
يذكر فيها الفحش من القول وتطهر من الانجاس والاقذار وقوله تعالى
ويذكر فيها اسمه عام فيما يتضمن ذكره حتى المذاكرة في افعاله
والمباحثة في احكامه وقال ابن عباس يتلى فيها كتابه يسبح اي يصلي
له فيها بالغدو والاصال اي بالغداة والعشي قال اهل التفسير
اراد به الصلوات المفروضة فالتي تودي في الغداة صلاة الفجر والتي
تودي بالاصال صلاة الظهر والعصر والعشائين لان اسم الاصيل
يقع على هذا الوقت وقيل اراد به الصبح والعصر قال صلى الله عليه
وسلم من صلى البردين دخل الجنة اراد صلاة الصبح وصلاة العصر
وقال ابن عباس التسبيح بالغدو صلاة الضحى وروي من مشى الى صلاة
مكتوبة وهو متطهر فاجره كاجر الحاج المحرم ومن مشى الى تسبيح الضحى
لا ينصبه الا اياه فاجره كاجر المعتمر وصلاة على اثر صلاة لا لغو
بينهما كتاب في عليين وقرا ابن عامر وشعبة بفتح البا الموحدة
والباقون بكسرها رجال لا تلهيهم اي تشغلهم تجارة اي معاملة
رابحة وقيل المراد بالتجارة الشرا لقوله تعالى ولا بيع عن ذكر الله
لا اطلاق لاسم الجنس على النوع كما تقول رزق فلان تجارة صالحة
اذا اتجه له بيع صالح او شرا وعلى الاول ذكر مبالغة للتعميم بعد التخصيص
وقيل التجارة لاهل الجلب يقول اتجر فلان في كذا اذا جلب
تنبيه قوله تعالى رجال فاعل يسبح بكسر البا وعلى فتحها نايب الفاعل
له ورجال فاعل فعل مقدر جواب سوال مقدر كانه قيل من يسبحه
وحذف من قوله تعالى واقام الصلاة الها تخفيفا اي واقامة الصلاة
والمراد اداوها في وقتها لان من اخر الصلاة عن وقتها لا يكون من مقيمي
الصلاة واعاد ذكر اقامة الصلاة مع ان المراد من ذكر الله الصلوات
الخمس لانه تعالى اراد باقام الصلاة هذه المواقيت روي سالم عن
ابن عمر انه كان في السوق فاقيمت الصلاة فقام الناس وغلقوا
حوانيتهم فدخلوا المسجد قال ابن عمر فيهم نزلت الاية وايتا الزكاة
قال ابن عباس اذا حضر وقت ادا الزكاة لم يحبسوها اي فيخرجون
ما يجب اخراجه من المال للمستحقين وقيل هي الاعمال الصالحة ومع
ما هم عليه يخافون يوما هو يوم القيامة تتقلب اي تضطرب

فيه القلوب بين النجاة والهلاك والابصار بين ناحية اليمين والشمال
وقيل تتقلب القلوب كما كانت عليه في الدنيا من الشك الى اليقين وتنفتح
الابصار من الاغطية وقوله تعالى ليجزيهم الله متعلق بيسبح او بلا
تلهيهم او يخافون احسن ما عملوا اي ما عملوا من الطاعات فرضها ونفلها
اي ثوابه الموعود لهم من الجنة واحسن بمعنى حسن ويزيدهم من فضله
ما لم يستحقوه باعمالهم مما لا عين رات ولا اذن سمعت وقوله تعالى والله
يرزق من يشا بغير حساب تقرير للزيادة وتنبيه على كمال القدرة ونفاذ
المشية وسعة الاحسان وكمال جوده فكانه سبحانه وتعالى لما وصفهم
بالجد والاجتهاد في الطاعة ومع ذلك يكونون في نهاية الخوف فالله سبحانه وتعالى
يعطيهم الثواب العظيم على طاعتهم ويزيدهم الفضل الذي لا حد له في مقابلة
قوله تعالى والذين كفروا اعمالهم كسراب اي لحالهم على ضد
ذلك فان اعمالهم التي يحسبونها صالحة نافعة عند الله يجدونها
لاغية مخيبة في العاقبة كسراب وهو ما يرى في الفلاة وقت الضحى الاكبر
شبيها بالما الجاري وليس بما ولكن الذي ينظر اليه من بعيد يظنه
ما جاريا وقيل هو الشعاع الذي يرى نصف النهار في شدة الحر في
البراري يخيل للناظر انه الما السارب اي الجاري فاذا قرب منه انفش
فلم ير شيا واما الال انما يكون اول النهار وكانه ما بين السما والارض
قال البغوي والال ما ارتفع من الارض وهو شعاع يجري بين
السما والارض بالغدوات شبه الملاة يرفع الشخوص يرى فيه الصغير
كبيرا والقصير طويلا والرقراق يكون بالعشا وهو ما يرقرق بين
السراب اي جا وذهب وقوله تعالى بقيعة جمع قاع وهو ارض
سهلة مطمينة قد انفرجت عنها الجبال والاكام قاله في القاموس
وقيل القيعة بمعنى القاع وهو الارض المستوية المنبسطة ويكون
فيه السراب وقال الفرا جمع قاع كجار وجيرة وقال الفارسي جمعه
قيعة وقيعان يحسبه اي يظنه الظمان اي العطشان الشديد
العطش من ضعف العقل ما فيقصده ولا يزال سايرا حتى اذا جاءه
اي ما قدر انه ما وقيل جا الى موضع السراب لم يجده شيا مما حسبه
ووجه الشبه ان الذي جا به الكافر ان كان من افعال البر فهو لا يستحق
عليه ثوابا مع انه يعتقد ان له ثوابا فكيف كان فهو يعتقد ان له
ثوابا عند الله فاذا وافا عرصة القيامة ولم يجد الثواب ووجد العقاب
العظيم عظمت حسرته وتناهى غمه فشبه حاله بحال الظمان الذي
اشتدت حاجته الى الما فاذا شاهد السراب في البر تعلق قلبه به فاذا
جاءه لم يجده شيا فكذلك حال الكافر يحسب ان عمله نافعه فاذا

٢ وفيها ع

احكم الي عمله لم يجده شيا ولا ينفعه وقال مجاهد السراب عمل الكافر واتيانه
اياه موته ومفارقة الدنيا فان قيل قوله تعالى حتى اذا جاءه يدل على كونه شيا
وقوله تعالى لم يجده شيا مناقض له اجيب بان معناه لم نجد شيا نافعا
كما يقال فلان ما عمل شيا وان كان قد اجتهد او انه اذا جا موضع السراب لم
يجد السراب لان السراب يرى من بعيد بسبب الكثافة كانه ضباب وهبا
فاذا قرب منه رق وانتشر وصار كالهوا ووجد الله عنده اي وجد عقاب
الله الذي توعد به الكافر او وجد زبانية الله او وجد محاسبا اياه او قدم
على الله فوفاه حسابه اي جزا عمله قيل نزلت في عتبة بن ربيعة كان قد
تعبد ولبس المسوح والتمس الدين في الجاهلية ثم كفر في الاسلام قال
ابن الخازن والاصح ان الاية عامة في جميع الكفار والله سريع الحساب
لانه تعالى عالم بجميع المعلومات فلا يشغله محاسبة واحد عن واحد وفي
هذا رد على المشبهة بتجسيم الله تعالى لانه تعالى لو كان متكلما بالة كما يقولون
لما صح ذلك وقوله تعالى او كظلمات عطف على كسراب على حذف مضاف
واحد تقديره او كذي ظلمات ودل على هذا المضاف قوله تعالى اذا اخرج يده
لم يكد يراها فالكناية تعود الى المضاف المحذوف وهو قول ابي علي وقال
غيره على حذف مضافين تقديره او كاعمال ذي ظلمات فقدر ذي ليصح عود
الضمير اليه في قوله تعالى اذا اخرج يده وقدر اعمال الكافر باعمال صاحب
الظلمة اذ لا معنى لتشبيه العمل بصاحب الظلمة واو للتخيير فان اعمالهم
لكونها لاغية لا منفعة لها كالسراب ولكونها خالية عن نور الحق
كالظلمات المتراكمة من لج البحر والامواج والسحاب او للتنويع فان
اعمالهم كانت حسنة فكالسراب وان كانت قبيحة فكالظلمات
او للتقسيم باعتبار وقتين فانها كالظلمات في الدنيا وكالسراب في الاخرة
وقوله تعالى في بحر لجي صفة لظلمات فيتعلق بمحذوف واللجي منسوب الى
اللج وهو معظم البحر وقيل منسوب الى اللجة بالتا وهو ايضا
معظمه فاللجي هو العميق الكثير الماء وقوله تعالى يغشاه اي يغطي هذا
البحر ويعلوه موج كاين من فوقه اي امواج مترادفة متراكمة
من فوقه اي الموج الثاني المركوم وقوله تعالى سحاب اي غيم غطى النجوم
وحجب انوارها صفة اخرى لبحر وقوله تعالى ظلمات اي من البحر
والموجين والسحاب خبر مبتدا مضمر تقديره هذه ظلمات او تلك ظلمات
ويجوز ان يكون ظلمات مبتدا والجملة من قوله تعالى بعضها فوق بعض خبر
الجواب فان قيل لا مسوغ للابتدا بهذه النكرة اجيب بانها موصوفة
تقديرا اي ظلمات كثيرة متكاثفة وقرا البزي سحاب ظلمات
والبزي جعل الموج المتراكم غير السحاب واما قنبل فانه جعل ظلمات بدلا

من ظلمات

من ظلمات الاولى والباقون بتنوين ظلمات وسحاب بالرفع فيهما اذا اخرج اي الكاين
في هذا البحر بدلالة المعنى وان لم يجر له ذكر يده وهو اقرب ما يرى اليه في هذه
الظلمات لم يكد يراها اي الكاين فيها ان لم يقرب من رويتها فضلا عن ان يراها
كقول ذي الرمة • اذا غير النأي • اي البعد وفي نسخة الهجر لم يكد رسيس الهوى •
اي ثابته بمعنى الهوى الثابت عن حب مية يبرح اي يزول والمعنى لم يقرب من البراح
فضلا عن ان يبرح تنبيه في كيفية هذا التشبيه وجوه احدها قال
الحسن ان الله تعالى ذكر ثلاثة انواع من الظلمات ظلمة البحر وظلمة الامواج
وظلمة السحاب كذا الكافر له ظلمات ثلاث ظلمة الاعتقاد وظلمة القول
وظلمة العمل ثانيها قال ابن عباس شبه قلبه وسمعه وبصره بهذه الظلمات
الثلاث ثالثها ان الكافر لا يدري ولا يدري انه لا يدري ويعتقد انه يدري
فهذه المراتب الثلاث شبه تلك الظلمات الثلاث رابعها قلب مظلم في
صدر مظلم في جسد مظلم خامسها ان هذه الظلمات متراكمة فكذا الكافر
لشدة اصراره على كفره قد تراكمت عليه الضلالات حتى لو ذكر عنده اظهر
الدلايل لم يفهمه ومن لم يجعل الله اي الملك الاعظم له نورا فما له من نور
قال ابن عباس من لم يجعل الله له دينا وايمانا فلا دين له وقيل من لم يهده
الله فلا هادي له لانه تعالى قادر على ما يريد ولما وصف تعالى انوار قلوب
المومنين وظلمات قلوب الجاهلين اتبع ذلك بدلايل التوحيد بقوله تعالى
الم تر اي تعلم علما يشبه المشاهدة في اليقين والوثاقة بالوحي
والاستدلال ان الله اي الحايز لصفات الكمال يسبح له اي ينزهه
عن صفة كل نقص من في السموات والارض لان التسبيح لا يرى بالبصر
بل يعلم بالقلب وهذا استفهام والمراد منه التقرير والبيان وهذا التسبيح
اما ان يكون المراد منه دلالة بخلق هذه الاشيا على كونه تعالى منزها
عن النقايص موصوفا بنعوت الجلال او يكون المراد منه في حق البعض
الدلالة على التنزيه وفي حق الباقين النطق باللسان قال الرازي
والاول اقرب لان القسم الثاني متعذر لان في الارض من لا يكون
مكلفا لا يسبحون بهذا المعنى والمكلفون منهم من لا يسبح ايضا بهذا
المعنى كالكفار واما القسم الثاني وهو ان يقال ان من في السموات وهم
الملايكة يسبحون باللسان واما الذين في الارض فمنهم من يسبح على لسان
الدلالة فهذا يقتضي استعمال اللفظ الواحد في الحقيقة والمجاز معا
وهو غير جايز عند اكثر العلما فلم يبق الا القسم الاول وهو ان هذه الاشيا
مشتركة في ان اجسامها وصفاتها دالة على تنزيه الله تعالى وقدرته
والهيته وتوحيده وعدله فسمي ذلك تنزيها توسعا فان قيل فالتسبيح
بهذا المعنى حاصل لجميع المخلوقات فما وجه تخصيصه هنا بالعقلا

احبب بان خلق العقلا اشد دلالة على وجود الصانع سبحانه وتعالى لان
العجايب والغرايب في خلقهم اكثر وهي العقل والنطق والفهم ولما كان امر الطير
دلالة اعجب ولانها قد تكون بين السما والارض فتكون خارجة عن حكم من قبلها خصها
بالذكر من جملة الحيوان بقوله تعالى **والطير صافات** اي باسطات اجنحتها في جو
السما لاشبهة في انه لا يمسكها الا الله تعالى وامساكه لها في الجو مع انها اجرام
ثقيلة وتقديره لها فيه على القبض والبسط حجة قاطعة على كمال قدرته تعالى
واختلف في عود الضماير في قوله تعالى **كل** اي من المخلوقات **قد علم صلاته وتسبيحه**
على قولين احدهما انها كلها عايدة على كل اي كل قد علم هو صلاة نفسه وتسبيحها
قال ابن عادل وهذا اولى لتتوافق الضماير ثانيهما ان الضمير في علم عايد الى
الله تعالى وفي صلاته وتسبيحه عايد على كل ويدل عليه قوله تعالى **والله
عليم بما يفعلون** اي المحيط علما وقدرة وقيل ان ضرب اجنحة الطير صلاته
وتسبيحه وهذا يويد ان المراد من التسبيح دلالة على هذه الامور على التنزيه لا
النطق باللسان **روي** ان ابا ثابت قال كنت جالسا عند ابي جعفر
الباقر فقال لي اتدري ما تقول هذه العصافير عند طلوع الشمس وبعد
طلوعها قال فانهن يقدسن ربهن ويسالنه قوت يومهن وقال
بعض العلما انا نشاهد من الطيور وساير الحيوانات اعمالا لطيفة يعجز عنها
كثير من العقلا واذا كان كذلك فلم لا يجوز ان يلهمها معرفته ودعاه وتسبيحه
وبيان ذلك انه تعالى الهمها الاعمال اللطيفة بوجوه احدها ان الدب يرمي
بالحجارة وياخذ العصا ويرمي الانسان حتى يتوهم انه مات فيتركه وربما عاد
يشمه ويتجسس نفسه ويصعد الشجرة اخف صعود ويهشم الجوز بين
كفيه تعريضا بالواحدة وصدمة بالاخرى ثم ينفخ فيه فيذرا قشره
ويتغذى به ويحكى عن الفار في سرقته ثانيها امر النحل وما له من الرياسة
والبيوت المسدسة التي لا يتمكن من فعلها افاضل المهندسين ثالثها
انتقال الكراكي من طرف من اطراف العالم الى الطرف الاخر طلبا لما يوافقها
من الاهوية ويقال من خواص الخيل ان كل واحد يعرف صوت الفرس الذي
قاتله وقتاما والتماسيح تفتح افواهها الطاير يقع عليها يقال له القطقاط
وينظف ما بين اسنانها وعلى راس ذلك الطير كالشوكة فاذا هم التمساح
بالتقام ذلك الطاير تاذى من تلك الشوكة فيفتح فاه فيخرج ذلك الطاير
والسلحفاة تتناول بعد اكل الحية صعترا جبليا ثم تعود وقد عوفيت
من ذلك **وحكى** بعض الثقات المجربين للصيد انه شاهد الحبارى
يقاتل الافعى وينهزم عنها الى بقلة يتناول منها ثم يعود ولا يزال كذلك
وكان ذلك الشخص قاعدا في كن وكانت البقلة قريبة من مسكنها
فلما اشتغل الحبارى بالافعى قلع البقلة فعاد الحبارى الى منبتها فلم يجد

فاخذ بيده ور

امور عجيبة

فاخذ بيده ورحول منبتها دورانا متتابعا حتى خر فعلم الشخص انه يعالج باكلها من
اللسعة وتلك البقلة هي الجرجير البري وابن عرس يستظهر في مقاتلة الحية
باكل السذاب فان النكهة السذابية تنفر عنها الافعى والكلاب اذا مرضت بطونها
اكلت سنبل القمح واذا جرحت داوت الجراحة بالصعتر الجبلي رابعها القنفذ
تحس بالشمال والجنوب قبل الهبوب فتغير المدخل الى جحرها وكان رجل
بالقسطنطينية قد اثري بسبب انه ينذر بالرياح قبل هبوبها وينفع الناس
بانذاره وكان السبب فيه قنفذ في داره يفعل الصنيع المذكور فيستدل
به والخطاف صناع في اتخاذ العش من الطين وقطع الخشب فان اعوزه
الطين ابتل وتمرغ في التراب ليحمل جناحاه قدرا من الطين واذا فرخ بالغ في تعهد
الفراخ وياخذ زرقها بمنقارها وترميها من العش والغرانيق تصعد في
الجو عند الطيران فان حجب بعضها عن بعض سحاب او ضباب احدثت عن
اجنحتها خفيفا مسموعا يتبع به بعضها بعضا واذا باتت على جبل فانها
تضع راسها تحت اجنحتها الا القايد فانه ينام مكشوف الراس فيسرع
انتباهه واذا سمع جرسا صاح وحال النمل في الذهاب الى مواضعها على
خط مستقيم يحفظ بعضها بعضا امر عجيب واذا كشف عن بيوتها الساتر
الذي كان يسترها وكان تحته بيض لها فان كل نملة تاخذ بيضة في فمها
وتذهب في اسرع وقت والاستقصا في هذا الباب مذكور في كتاب طبايع
الحيوان والمقصود من ذلك ان الفضلا من العقلا يعجزون عن امثال ذلك
الحيل واذا كان كذلك فلم لا يجوز ان يقال انها تسبح الله تعالى وتثني عليه
واذا كانت غير عارفة بساير الامور التي تعرفها الناس ويويد هذا قوله
تعالى ولكن لا تفقهون تسبيحهم وقوله صلى الله عليه وسلم ان نوحا عليه
السلام اوصى ابنه عند موته بلا اله الا الله فان السموات السبع والارضين
السبع لو كن في حلقة مبهمة قصمتهن وسبحان الله وبحمده فانها صلاة
كل شي وبها يرزق كل شي وقال الغزالي في الاحيا روي ان رجلا جا الى
النبي صلى الله عليه وسلم فقال تولت عني الدنيا وقلت ذات يدي فقال له
رسول الله صلى الله عليه وسلم فاين انت من صلاة الملايكة وتسبيح الخلايق
وبها يرزقون فقال قلت وماهي يا رسول الله قال قل سبحان الله وبحمده
سبحان الله العظيم استغفر الله ماية مرة ما بين طلوع الفجر الى ان تصلي
الصبح تاتيك الدنيا راغمة صاغرة ويخلق الله عز وجل من كل كلمة ملكا
يسبح الله الى يوم القيمة لك ثوابه ثم نبه سبحانه وتعالى بقوله تعالى **ولله
ملك السموات والارض** على ان الكل منه لان كل ما سواه ممكن ومحدث
والممكن والمحدث لا يوجد الا عند الانتها الى القديم الواجب الوجود ويدخل
في هذا جميع الاجرام والاعراض وافعال العباد واحوالهم وخواطرهم

نها

صئين



وفي قوله تعالى وان الى الله اي الذي له الاحاطة بكل شي المصير دليل على
المعاد وانه لابد من مصير الكل اليه بعد الفنا والرؤية في قوله تعالى الم تر
ببصرك ان الله اي ذي الجلال والجمال يزجي سحابا اي يسوقه برفق بعد
ان انشاه من العدم تارة من السفل وتارة من العلو ضعيفا رقيقا متفرقا
قال ابو حيان وهو اسم جنس واحده سحابة والمعنى يسوق سحابة الى
سحابة وهو معنى قوله تعالى ثم يؤلف بينه اي بين اجزائه بعد ان كان
قطعا في جهات مختلفة فيجعل القطع المتفرقة قطعة واحدة ثم يجعله
ركاما في غاية العظمة متراكما بعضه على بعض بعد ان كان في غاية الرقة
فترى اي في ذلك الحالة المستمرة الودق اي المطر يخرج من خلاله
اي من فتوحه التي حدثت بالتراكم وانعصار بعضه من بعض فان قيل
بين انما يدخل على مثنى فما فوقه فلم دخلت هنا على مفرد اجيب
بان المراد بالسحاب الجنس فعاد الضمير على حكمه او على حذف مضاف اي بين
اجزائه كما مر وبين قطعه فان كل قطعة سحابة وقرا السوسي فترى في الوصل
بالامالة بخلاف عنه والباقون بالفتح واما في الوقف فابو عمرو وحمزة
والكسائي بالامالة محضة وورش بين بين والباقون بالفتح وينزل من السما
اي من الغمام وكل ما علا فهو سما من جبال فيها اي في السما وهي السحاب
الذي صار بعد تراكمه كالجبال وقوله تعالى من برد بيان للجبال والمفعول
محذوف اي ينزل مبتدا من السما من جبال فيها من برد بردا فمن الاولى
لابتدا الغاية باتفاق والثانية للتبعيض والثالثة للبيان ويجوز
ان تكون الثانية لابتدا الغاية ايضا ومجرورها بدل من الاولى باعادة العامل
والتقدير وينزل من جبال اي من جبال فيها فهو بدل اشتمال والاخرة
للتبعيض واقع موقع المفعول قال فان قيل ما معنى من جبال فيها من
برد بان فيه معنيين اجيب احدهما ان يخلق الله في السما جبال برد كما خلق
في الارض جبال حجر وليس في العقل قاطع يمنعه الثاني ان تريد الكثرة
بذكر الجبال كما يقال فلان يملك جبالا من ذهب وقرا ابن كثير وابو عمرو
بسكون النون واخفاها عند الزاي وتخفيف الزاي والباقون بفتح النون
وتشديد الزاي ثم بين تعالى ان ذلك باختياره وارادته بقوله تعالى
فيصيب به اي بكل من البرد والمطر على وجه النعمة او الرحمة من يشا
اي من الناس وغيرهم ويصرفه عن من يشا صرفه عنه فائدة عن مقطوعة
من من في الرسم ثم نبه تعالى على ما هو غاية في العجب في ذلك مما في الماء من النور
الذي ربما نزل منه صاعقة فاحرقت ما لا يحرق النار بقوله تعالى يكاد اي
يقرب سنا برقه وهو اضطراب النور في خلاله يذهب اي هو ملتبسا
بالابصار اي الناظرة له اي يخطفها لشدة لمعانه وتلالئه فتكون قوة

البرق

البرق دليلا على تكاثف السحاب ويبشر بقوة المطر وينذر بنزول الصواعق واعلم
ان البرق الذي صفته كذلك لابد وان يكون نارا عظيمة خالصة والنار ضد الماء والبرد
فظهوره يقتضي ظهور الضد من الضد وذلك لا يمكن الا بقدرة قادر حكيم ثم ذكر
تعالى ما هو دال على الاختيار بقوله تعالى من جملة ما يشتمل على ما مضى وزيادة
يقلب الله اي الذي له الامر كله بتحويل الضيا ظلاما والظلام ضيا والنقص
تارة والزيادة اخرى مع المطر تارة والصحو اخرى الليل والنهار فينشا عن ذلك
التقلب من الحر والبرد والنمو والتوبيع واليبس ما يبهر العقول ولهذا قال
منبها على النتيجة ان في ذلك اي الامر العظيم الذي ذكر من جميع ما تقدم لعبرة
اي دلالة على وجود الصانع القديم وكمال قدرته واحاطة علمه ونفاذ مشيئته
وتنزهه عن الحاجة وما يفضي اليها لاولي الابصار اي لاصحاب البصائر على
قدرة الله تعالى وتوحيده ولما استدل تعالى اولا باحوال السما والارض وثانيا
بالاثار العلوية استدل ثالثا باحوال الحيوانات بقوله والله اي الذي له
العلم الكامل والقدرة الشاملة خلق كل دابة اي حيوان من ما وقراه
حمزة والكسائي بالف بعد الخا وكسر اللام ورفع القاف وكسر لام كل والباقون
بفتح الخا واللام ولا الف بينهما ونصب لام كل فان قيل كثير من الحيوانات
لم يخلق من الماء كالملائكة خلقوا من النور وهم اعظم من الحيوانات عددا
وكذا الجن وهم مخلوقون من النار وخلق ادم من التراب كما قال تعالى خلقه من
تراب وخلق عيسى من الريح كما قال تعالى فنفخنا فيه من روحنا وترى كثيرا
من الحيوانات يتولد لا من نطفة اجيب بوجوه احسنها ما قاله القفال
ان من صلة كل دابة وليس هو من صلة خلق والمعنى كل دابة متولدة من
الما فهي مخلوقة لله تعالى ثانيها ان اصل جميع المخلوقات من الما على ما روي
ان اول ما خلق الله جوهرة فنظر اليها بعين الهيبة فصارت ما ثم من
ذلك الما خلق النار والهوى والنور والمقصود من هذه الاية بيان
اصل الخلقة وكان اصل الخلقة الما فلهذا ذكره الله تعالى ثالثها المراد
من الدابة التي تدب على وجه الارض ومسكنها فتخرج الملائكة والجن
رابعها لما كان الغالب من هذه الحيوانات كونها مخلوقة من الما اما لانها
متولدة من النطفة واما انها لا تعيش الا بالما اطلق عليها لفظ كل تنزيلا
للغالب منزلة الكل فان قيل لم نكر الما في قوله تعالى من ما وعرفه في كل شي
حي اجيب انه جا هنا منكرا لان المعنى خلق كل دابة من نوع من الما
مختصا بتلك الدابة وعرفه بقوله تعالى من الما كل شي حي لان المقصود
هناك كونهم مخلوقين من هذا الجنس وههنا بيان ان ذلك الجنس ينقسم
الى انواع كثيرة فمنهم اي الدواب من يمشي على بطنه كالحية والحيتان
والديدان واستعير المشي للزحف على البطن كما قالوا في الامر المستمر

قدمني هذا الامر وتبالد ملأت ما مشي له امرا وسمي بذلك للمشاكلة لذكر الزاحف
مع الماشي ومنهم من يمشي على رجلين اي فقط كالادمي والطير ومنهم
من يمشي على اربع اي من الايدي والارجل كالنعم والوحش فان قيل لم قصد
القسمة في هذه الثلاثة انواع من المشي وقد نجد من يمشي على اكثر من اربع
كالعناكب والعقارب والحيوان الذي له اربع واربعون رجلا الذي يسمى
دخال الاذن اجيب بان هذا القسم الذي لم يذكر كالنادر ملحقا
بالعدم وقال النقاش انه اكتفى بذكر ما يمشي على اربع مشيه وكثرة
الارجل لبعض الحيوان ذلك في الخلقة لا يحتاج ذلك الحيوان في مشيه
الى جميعها وبان قوله تعالى يخلق الله ما يشاء كالتنبيه على سائر الاقسام
فان قيل لم جاءت الاجناس الثلاثة على هذا الترتيب اجيب بانه قدم
ما هو اعرب في القدرة وهو الماشي بغير آلة مشي من له اربع ارجل او قوائم
ثم الماشي على رجلين ثم الماشي على اربع تنبيه انما اطلق من على غير العاقل
لاختلاطه بالعاقل في المفصل بمن وهو هو كل دابة وكان التعبير بمن اولى
ليوافق اللفظ ولما كانت هذه الادلة ناظرة الى البعث اتم نظر وكانوا منكرين
له اكد ذلك قوله تعالى ان الله اي الذي له الكمال المطلق على كل شيء من
ذلك وغيره قدير لانه القادر على الكل والعالم بالكل فهو المطلع على
احوال هذه الحيوانات فاي عقل يقف عليها واي خاطر يصل الى ذرة من
اسرارها بل هو الذي يخلق ما يشاء كيف يشاء ولا يمنعه منه مانع ولما اتضح
بهذا ما له من صفات الكمال والتنزه عن كل شائبة نقص وقامت ادلة الوحدانية
على ساق واتسقت براهين الالوهية اي اتساق قال تعالى مترجما لتلك الادلة
لقد انزلنا في هذه السورة وما تقدمها بما لنا من العظمة آيات اي بما لنا
من الحكم والاحكام والادلة والامثال مبينات للحقائق بانواع الدلائل
التي لا خفاء بها والله اي الملك الاعظم يهدي من يشاء من عباده الى صراط
طريق مستقيم وهو دين الاسلام الموصل الى دار الحق والفوز بالجنة
ولما ذكر تعالى دلائل التوحيد اتبعه بذكر قوم اعترفوا بالدين بالسنتهم
ولكنهم لم يقبلوه بقلوبهم فقال تعالى ويقولون اي الذين ذمهم الله
تعالى آمنا بالله اي الذي اوضح لنا جلاله وعظمته وكماله وبالرسول
اي الذي علمنا كمال رسالته وعمومها بما قام عليها من الادلة واطعنا
اي واوجدنا الطاعة لله ورسوله ثم عظم المخالفة بين الفعل والقول
باداة البعد فقال تعالى ثم يتولى اي يرتد بارتكاب القلب ويعرض
عن طاعة الله ورسوله ضلالا لانهم نفي عن الحق فريق منهم اي ناس
يقصدون الفرقة من هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة وهم معرضون اي
القول السديد المؤكد مع الله الذي هو اكبر من كل شيء ومع رسوله

من بعد ذلك

الذي

الذي هو اشرف الخلائق وما اولئك اي البعداء البغضاء الذين صاروا بتوليهم
في محل البعد بالمؤمنين اي المعهودين الموافق قلوبهم السنتهم فان قيل انه تعالى
حكى عن كلهم انهم يقولون آمنا ثم حكى عن فريق منهم التولي [illegible] اجيب
بان قوله تعالى وما اولئك بالمؤمنين راجع الى الذين تولوا لا الى الجملة الاولى
ولو رجع الى الجملة الاولى لصح ويكون معنى قوله تعالى ثم يتولى فريق منهم
اي يرجع هذا الفريق الى الباقي فيظهر بعضهم الى بعض الرجوع كما
اظهروه ولما فضحهم بما اخفوه من توليهم نعى عليهم ما اظهروه فقال
تعالى معبرا باداة التحقيق واذا دعوا اي الفريق اي الذين ادعوا الايمان
من اي داع كان الى الله اي الى ما نصبه الملك الاعظم من احكامه
ورسوله وافرد الضمير في قوله تعالى ليحكم وقد تقدمه اسمان وهما
الله ورسوله فهو كقوله تعالى والله ورسوله احق ان يرضوه لان حكم
رسوله هو حكمه قال الزمخشري كقولك اعجبني زيد وكرمه تريد كرم
زيد ومنه ومنهل من الفلا في اوسطه غلسته قبل القطا وفرطه
اي قبل فرط القطا بينهم اي بما اراه الله اذا فريق منهم اي ناس
مجبولون على الاذى معرضون اي فاجؤا الاعراض اذا كان الحق عليهم
لعلمهم بانك لا تحكم لهم وهو شرح للتولي ومبالغة فيه
وان يكن لهم اي على سبيل الفرض الحق اي بلا شبهة يأتوا اليه
اي الرسول مذعنين اي منقادين لعلمهم انه يحكم لهم لانهم يعلمون
انه دائر مع الحق لهم وعليهم فليس انقيادهم لطاعة الله ورسوله
تنبيه قوله تعالى اليه يجوز تعلقه بيأتوا لان اتى وجاء قد جاءا معديين
بالى ويجوز ان يتعلق بمذعنين لانه بمعنى مسرعين في الطاعة وصححه
الزمخشري قال لتقدم صلته ودلالته على الاختصاص ومذعنين
ثم قسم الله تعالى الامر في صدورهم عن حكومته صلى الله عليه وسلم
اذا كان الحق عليهم بين ان يكونوا مرضى القلوب بقوله تعالى أفي قلوبهم
مرض اي نوع فساد من اصل الفطرة يحملهم على الضلال او مرتابين في
نبوته بقوله تعالى ام ارتابوا اي بان رأوا منك تهمة فزال ثقتهم ويقينهم
بك او خائفين الحيف في قضائه بقوله تعالى ام يخافون ان يحيف
الله اي الغني عن كل شيء لان له كل شيء عليهم ورسوله اي الذي
لا ينطق عن الهوى ثم اضرب عن القسمين الاخيرين لتحقق القسم الاول
بقوله تعالى بل اولئك اي البعداء البغضاء هم الظالمون اي الكاملون
في الظلم ووجه التقسيم ان امتناعهم اما لخلل فيهم او في الحاكم والثاني
اما ان يكون محققا عندهم او متوقعا وكلاهما باطل لان منصب
نبوته وفرط امانته تمنعه فتعين الاول فظلمهم يعم خلل عقيدتهم وميل نفوسهم

٣ قلوبهم [illegible]

الى الحيف وضمير الفصل لنفي ذلك عن غيرهم فان قيل اذا خيف ان يحيف الله
عليهم ورسوله فقد ارتابوا في الدين واذا ارتابوا ففي قلوبهم مرض فالكل
واحد فاي فائدة في التعديد اجيب بان قوله تعالى أفي قلوبهم مرض
اشار به الى النفاق وقوله تعالى ام ارتابوا اشار الى انهم بلغوا في حب الدنيا
الى حيث يتركون الدين بسببه فان قيل هذه الثلاثة متغايرة ولكنها
متلازمة فكيف ادخل عليها كلمة ام اجيب بانه تعالى نبههم على
كل واحد من هذه الاوصاف فكان في قلوبهم مرض وهو النفاق وكان فيها
شك وارتياب وكانوا يخافون الحيف من الرسول من ذلك كله واختلفوا
في سبب نزولها فقال مقاتل نزلت في بشر المنافق وكان قد خاصم يهوديا
في ارض فقال اليهودي نتحاكم الى محمد صلى الله عليه وسلم وقال المنافق
نتحاكم الى كعب بن الاشرف فان محمدا يحيف علينا فانزل الله تعالى هذه
الاية وقد مضت قصتها في سورة النساء وقال الضحاك نزلت في
المغيرة بن وائل كان بينه وبين علي رضي الله تعالى عنه ارض تقاسماها
فوقع الى علي ما لا يصيبه الماء الا بمشقة فقال المغيرة بعني ارضك فباعها
اياه فقيل للمغيرة اخذت سبخة لا ينالها الماء فقال لعلي اقبض ارضك
فانما اشتريتها ان رضيتها ولم ارضها فقال علي بل اشتريتها ورضيتها
وقبضتها وعرفت حالها لا اقبلها منك ودعاه الى ان يخاصمه الى رسول
الله صلى الله عليه وسلم فقال المغيرة اما محمد فلا اتيه ولا احاكم اليه
فانه يبغضني وانا اخاف ان يحيف علي فنزلت الاية وقال الحسن نزلت
في المنافقين الذين كانوا يظهرون الايمان ويسرون الكفر ولما نفى تعالى
عنهم الايمان الكامل بما وصفهم به كانه سئل عن المؤمنين فقال تعالى
انما كان اي دائما قول المؤمنين اي الغريقين في ذلك الوصف
اذا دعوا اي من اي داع كان الى الله اي الى ما انزل الملك الذي
لا كفوء له من احكامه ورسوله الذي لا ينطق عن الهوى ليحكم اي الرسول
بينهم بما اراه الله تعالى في اي حكومة من الحكومات لهم او عليهم ٣ اي الرسول بينهم صح
ان يقولوا سمعنا اي الدعا واطعنا اي بالاجابة لله ولرسوله صلى
الله عليه وسلم وهذا ليس على طريق الخبر ولكنه تعليم ادب الشرع
بمعنى ان المؤمنين ينبغي ان يكونوا هكذا واولئك اي العالو الرتبة
هم المفلحون الذين وصفهم الله تعالى في اول المؤمنين وهذا على عادته
تعالى في اتباع ذكر المحق والمبطل والتنبيه على ما ينبغي بعد انكاره لما لا
ينبغي ولما رتب تعالى الفلاح على هذا النوع الخاص اتبعه عموم الطاعة بقوله
تعالى ومن يطع الله الذي له الامر كله ورسوله اي فيما ساءه وسره ويخش
الله اي فيما صدر عنه من الذنوب في الماضي ليحمله ذلك على دأبها في الباقي

ويتقه اي الله فيما بقي من عمره بان يجعل بينه وبين ما يسخطه وقاية من المباحات
فيتركها ورعا فاولئك اي العالو الرتبة هم الفائزون بما لا عين رأت ولا اذن
سمعت من النعيم المقيم وعن ابن عباس في تفسير هذه الاية ومن يطع الله
تعالى ورسوله فيما ساءه وسره ويخش الله اي فيما عمل من الذنوب فيما مضى
ويتقه فيما بقي وعن بعضهم انه سئل عنها فقال هي كافية لمن عمل بهذه الاية
وقرأ ابو عمرو وشعبة وخلاد بسكون الها بخلاف عن خلاد وقالون باختلاس
كسرة الها وحفص بسكون القاف وقصر كسرة الها والباقون وخلاد في
احد وجهيه باشباع كسرة الها ولما ذكر تعالى ما رتب على الطاعة الظاهرة
التي هي دليل الانقياد الباطن ذكر حال المنافقين بقوله تعالى واقسموا بالله
الذي له الكمال المطلق وقوله تعالى جهد ايمانهم جهد اليمين بلغ اقصى
وسعها وذلك انه بالغ في اليمين وبلغ غاية سببها ووكادتها وعن ابن عباس
من قال بالله فقد اجهد في اليمين لئن امرتهم اي امرا من الامور ليخرجن
مما هم ملتبسون به من خلافه كائنا ما كان وذلك ان المنافقين كانوا يقولون
لرسول الله صلى الله عليه وسلم اينما كنت نكن معك لئن خرجت خرجنا ولئن
اقمت اقمنا وان امرتنا بالجهاد جاهدنا فقال الله تعالى قل اي لهم لا تقسموا
اي لا تحلفوا فان العلم بما انتم عليه لا يحتاج الى الاقسام وههنا تم الكلام
ولو كان قسمهم صادقا لما نهوا عنه لان من حلف على القيام بالبر لا ينهى عنه
فثبت ان قسمهم كان لنفاقهم وكان باطنهم يخالف ظاهرهم ومن نوى
الغدر لا الوفا فقسمه قبيح قال المتنبي

وفي يمينك فيما انت واعده ... ما دل انك في الميعاد متهم

وفي رفع قوله تعالى طاعة معروفة ثلاثة اوجه احدها انه خبر مبتدأ
مضمر تقديره امرنا طاعة او المطلوب طاعة ثانيها انه مبتدأ والخبر
محذوف اي امثل او اولى او خير اي طاعة معروفة للنبي خير من قسمكم
الذي لا تصدقون فيه ثالثها طاعة مبتدأ اي هذه الحقيقة طاعة
ومعروفة هي الخبر اي معروفة منكم ومن غيركم وارادة الحقيقة هو الذي
سوغ الابتداء بها مع تنكير لفظها لان العموم الذي يصلح له كان لو ان
اعرف المعارف والمعنى ان الطاعة وان اجتهد العبد في اخفائها لا بد
ان تظهر مخائلها على شمائله وكذا المعصية لان ما اسر عبد سريرة الا
البسه الله رداءها روى الطبراني عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال
لو ان رجلا دخل بيتا في جوف بيت فادى هناك عملا اوشك الناس ان
يتحدثوا به وما من عامل عمل عملا الا كساه الله رداء عمله ان كان خيرا فخير
وان كان شرا فشر وعن سعيد لو ان احدا عمل في صخرة صما ليس لها باب
ولا كوة لخرج عمله للناس كائنا من كان ان الله اي الذي له الاحاطة

بكل شيء خبير بما تعملون اي لا يخفى عليه شيء من سرائركم فانه فاضحكم لا محالة
ومجازيكم على نفاقكم ولما نبه تعالى على خداعهم واشار الى عدم الاغترار بايمانهم
من غير رغبتهم ورهبتهم مشيرا الى الاعراض عن عقوبتهم بقوله تعالى قل
اي لهم اطيعوا الله اي الذي له الكمال المطلق واطيعوا الرسول اي الذي
له الرسالة المطلقة ظاهرا وباطنا وقوله تعالى فان تولوا اي عن طاعته
بحذف احدى التائين خطاب لهم اي فان تتولوا فما ضررتموه وانما ضررتم انفسكم
فانما عليه اي محمد صلى الله عليه وسلم ما حمل اي ما حمله الله تعالى
من اداء الرسالة واذا ادى فقد خرج عن عهدة التكليف وعليكم اي واما
انتم فعليكم ما حملتم اي ما كلفتم من التلقي بالقبول والاذعان فان لم تفعلوا
وتوليتم فقد عرضتم نفوسكم لسخط الله وعذابه وان اطعتموه فقد
احرزتم نصيبكم من الخروج عن الضلالة الى الهدى فالنفع والضر عائد اليكم
وان تطيعوه بالاقبال على ما يامركم به تهتدوا اي الى كل خير وما على الرسول
اي من جهة غيره الا البلاغ اي وما الرسول الا ناصح وهاد وما عليه الا ان
يبلغ ما له نفع في قبولكم ولا عليه ضرر في توليكم والبلاغ بمعنى التبليغ
كالاداء بمعنى التادية ومعنى م كونه مقرونا بالايات والمعجزات روي المبين
انه صلى الله عليه وسلم قال على المنبر من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير
ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله والتحدث بنعمة الله شكر وتركه كفر
والجماعة رحمة والفرقة عذاب وقال ابو امامة الباهلي عليكم بالسواد
الاعظم فقال رجل ما السواد الاعظم فنادى ابو امامة هذه الاية
في سورة النور فان تولوا فانما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وقوله تعالى
وعد الله اي الذي له الاحاطة بكل شيء الذين آمنوا منكم وعملوا اي تصديقا
لايمانهم الصالحات خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وللامة او له ولمن معه
ومن للبيان ثم اكد غاية التاكيد بلام القسم لما عند اكثر الناس من الريب
في ذلك بقوله تعالى ليستخلفنهم في الارض اي ارض العرب والعجم بان يمد
زمانهم وينفذ احكامهم فيجعلهم متصرفين في الارض تصرف الملوك في مماليكهم
كما استخلف الذين من قبلهم اي من الامم من بني اسرائيل وغيرهم من كل من حصلت
له مكنة وظفر على الاعداء بعد الضعف الشديد كما كتب في الزبور ان الارض
يرثها عبادي الصالحون وكما قال موسى عليه السلام ان الارض لله يورثها
من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين وقرا ابو بكر بضم التاء الفوقية وكسر
اللام والباقون بفتح التاء واللام وليمكنن لهم اي في الباطن والظاهر دينهم الذي
ارتضى لهم وهو دين الاسلام وتمكينه تثبيته وتوكيده واضافته اليهم
اشارة الى رسوخ اقدامهم فيه وانه الذي لا ينسخ لما بشرهم بالتمكين اشارهم
الى مقداره بقوله تعالى وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا اي الذي كانوا عليه ما



وذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه مكثوا بمكة عشر سنين خائفين ولما
هاجروا كانوا بالمدينة يصبحون في السلاح ويمسون فيه فقال رجل ما يأتي علينا
يوم نامن فيه ونضع السلاح فقال صلى الله عليه وسلم لا تغبرون الا يسيرا حتى
يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبيا ليس فيه حديدة
وانجز الله تعالى وعده واظهرهم على جزيرة العرب وافتتحوا بعد بلاد المشرق
والمغرب ومزقوا ملك الاكاسرة وملكوا خزائنهم واستولوا على الدنيا
واستعبدوا ابناء القياصرة وملكوا شرقا وغربا مملكة لم تحصل قبلهم
لامة من الامم كما قال صلى الله عليه وسلم ان الله زوى لي الارض فرايت
مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك امتي ما زوي لي منها ولما قتلوا عثمان
رضي الله تعالى عنه وخرجوا على علي ثم ابنه الحسن نزع الله ذلك الامر كما اشير
اليه بمن وتنكير امنا وجا الخوف واستمر متطاولا ولا يزداد قليلا الى ان صار
في زماننا هذا الى امر عظيم وذلك تصديقا لقوله عليه افضل الصلاة
والسلام الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم يملك الله من يشاء فتصير
ملكا ثم تصير بزيزي قطع سبيل وسفك دما واخذ الاموال بغير حقها
والثلاثون خلافة ابي بكر سنتان وخلافة عمر عشرة وخلافة عثمان اثنا
عشر وخلافة علي ستة والبزيزي بكسر الباء وتشديد الزاي الاولى
والقصر السلب والتغلب وقوله قطع السبيل نصب اما عطف بيان
لقوله بزيزي او بدل منه وقرا ابن كثير وابو بكر بسكون الباء الموحدة
وتخفيف الدال والباقون بفتح الموحدة وتشديد الدال ثم اتبع ذلك
نتيجة بقوله تعالى تعليلا للتمكين وما معه يعبدونني اي وحدهم
وقوله تعالى لا يشركون بي شيئا حال من واو يعبدونني غير مشركين
فان قيل فما محل يعبدونني اجيب بانه مستانف لا محل له كان
قائلا قال ما لهم مستخلفين ويؤمنون فقال يعبدونني ويجوز
ان يكون حالا عن وعدهم اي وعدهم الله ذلك في حال عبادتهم واخلاصهم
فمحله النصب ولما كان التقدير فمن ثبت على دين الاسلام وانقاد
لاحكامه واستقام نال هذه البشرى عطف عليه قوله تعالى
ومن كفر اي ارتد وكفر هذه النعمة بعد ذلك اي بعد الوعد
او الخلافة فاولئك اي البعداء من الخير هم الفاسقون اي الخارجون
عن الدين خروجا كاملا لا يقبل معه معذرة ولا يقال لصاحبه
عثرة بل يقام عليهم الاحكام بالقتل وغيره ولا يراعى منهم ملام
ولا تؤخذ بهم رافة عند انتقام كما تقدم اول السورة فيمن لزمه
الجلد وقيل المراد بالكفر كفران النعمة لا الكفر بالله وقوله تعالى
فاولئك هم الفاسقون اي العاصون لله وقوله تعالى واقيموا الصلاة

اي فانها قوام ما بينكم وبين ربكم معطوف على واطيعوا الله واطيعوا الرسول قال الزمخشري
وليس ببعيد ان يقع بين المعطوف والمعطوف عليه فاصل وان طال لان حق
المعطوف ان يكون غير المعطوف عليه وآتوا الزكاة فانها نظام ما بينكم وبين اخوانكم
واطيعوا الرسول اي في كل حال يامركم به وكررت طاعة الرسول تاكيدا لوجوبها
لعلكم ترحمون اي لتكونوا على رجاء من الرحمة ممن لا راحم في الحقيقة غيره والفاعل في
قوله تعالى لا تحسبن ضمير المخاطب اي لا تحسبن ايها الطالب الذين كفروا
اي وان ازدادت كثرتهم على العدو وتجاوزت عظمتهم الحد معجزين لاهل ودنا
وقبلنا في الارض اي فانهم ماخوذون لا محالة وقرا ابن عامر وحمزة بالياء
الغيبة وقال النحاس ما علمت احدا من اهل العربية بصريا ولا كوفيا الا وهو يلحن
قراءة حمزة فمنهم من يقول هي لحن لانه لم يات الا بمفعول واحد ليحسبن واجيب
عن ذلك من وجهين احدهما ان المفعول الاول محذوف تقديره ولا يحسبن الذين
كفروا معجزين الا اذا حذف احد المفعولين ضعيف عند البصريين ومنه قول عنترة
ولقد نزلت فلا تظني غيره ❊ مني بمنزلة المحب المكرم اي تظني غيره واقعا الثاني ان
المفعولين هما قوله معجزين في الارض قاله الكوفيون وقرا الباقون بالتاء على الخطاب
وفتح السين ابن عامر وعاصم وحمزة وكسرها الباقون وقوله تعالى وماواهم النار اي
مسكنهم معطوف على لا تحسبن الذين كفروا معجزين كانه قيل الذين كفروا لا يفوتون
اهل ودنا ولا يفوتونا وماواهم النار والمراد بهم المقسمون عليه بالله جهد ايمانهم
ولما كانت سكنى الشي لا تبعد المصير اليه قال تعالى ولبئس المصير اي المرجع
مصيرها فكيف اذا كان على وجه السكنى واختلف في سبب نزول قوله تعالى
يا ايها الذين آمنوا ليستاذنكم الذين ملكت ايمانكم الاية فقال ابن عباس
وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم غلاما من الانصار يقال له مدلج بن عمرو والى عمر
رضي الله عنه وقت الظهيرة ليدعوه فدخل فراى عمر بحالة كره عمر رؤيته ذلك
فنزلت وقال مقاتل نزلت في اسماء بنت مرثد كان لها غلام كبير فدخل عليها في
وقت فكرهته فاتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت ان خدمنا وغلماننا
يدخلون علينا في حال نكرهها فنزلت واللام في ليستاذنكم للامر وملكت اليمين
يشمل العبيد والاما قال بعض المفسرين هذا الخطاب وان كان ظاهره للرجال
فالمراد به الرجال والنساء لان التذكير يغلب على التانيث قال الرازي والاولى
عندي ان الحكم ثابت في النساء بطريق الاولى لان النساء في باب العورة اشد
حالا من الرجال فهو كتحريم الضرب بالقياس على حرمة التافيف وقال ابن عباس
هي في الرجال والنساء البالغين اوما قارب البلوغ يستاذنون على كل حال في الليل
والنهار للدخول عليكم كراهة الاطلاع على عوراتكم والنظر بذلك الى مساتيكم
واختلف العلماء في هذا الامر فقيل للندب وقيل للوجوب واستظهر والذين اي
وليستاذنكم الذين ظهروا على عورات النساء ولكنهم لم يبلغوا الحلم وتبديلتقا

منكم

منكم ليخرج الكفار والارقا وعبر عن البلوغ بالاحتلام لانه اقوى دلائله ثلاث مرات
في اليوم والليلة وقيل ثلاث استئذانات في كل مرة فان لم يحصل الاذن رجع المستاذن
كما تقدم المرة الاولى من الاوقات الثلاث من قبل صلاة الفجر لانه وقت القيام من
المضاجع وطرح ثياب النوم المرة الثانية وحين تضعون ثيابكم اي التي للخروج بين
الناس من الظهيرة اي شدة الحر وهو انتصاف النهار والمرة الثالثة من بعد
صلاة العشاء لانه وقت الانفصال من ثياب اليقظة والاتصال بثياب النوم
وخص هذه الاوقات لانها ساعات الخلوة ووضع الثياب والالتحاف باللحاف
واثبت من في الموضعين دلالة على قرب الزمن من الوقت المذكور لضبطه واسقطها
في الاوسط دلالة على استغراقه لانه غير منضبط ثم علل ذلك بقوله تعالى
ثلاث عورات اي اختلالات في الستر والتحفظ لكم لانها من ساعات وضع
الثياب والخلوة قال البيضاوي واصل العورة الخلل ومنها اعور المكان ورجل
اعور اي اذا بدا فيه خلل اهـ وسميت هذه الاوقات عورات لان الانسان
يضع فيها ثيابه فربما بدت عورته وقرا ابو بكر وحمزة والكسائي في الوصل ثلاث بالنصب
بتقدير اوقات منصوبا بدلا من محل ما قبله قام المضاف اليه مقامه والباقون
بالرفع على انها خبر مبتدا مقدر بعده مضاف وقام المضاف اليه مقامه اي هي
اوقات ويجوز ويجوز ان يكون مبتدا وخبره ما بعده ثم بين سبحانه وتعالى
حكم ما عدا ذلك بقوله تعالى مستانفا ليس عليكم اي في ترك الامر ولا عليهم
اي ولا المماليك والصبيان في ترك الاستئذان جناح اي اثم واصل الميل
في الدخول عليكم في جميع الساعات بعدهن اي بعد هذه الاوقات الثلاثة
اذا هجموا عليكم ثم علل الاباحة في غيرها مخرجا لغيرهم بقوله تعالى طوافون عليكم
اي لعمل ما تحتاجون في الخدمة كما انتم طوافون عليهم لعمل ما يصلحهم ويصلحكم في
الاستخدام بعضكم طواف على بعض لعمل ما يعجز عن الاخر او يشق عليه فلو عم
الامر بالاستئذان لادى الى الحرج فان قيل بم رفع بعضكم على بعض اجيب بانه رفع بالابتدا
وخبره على بعض طواف على بعض وحذف لان طوافون يدل عليه ويجوز ان يرتفع بيطوف
مضمرا لتلك الدلالة كذلك اي كما بين ما ذكر يبين الله اي بما له من احاطة العلم
والقدرة لكم ايها الامة الايات في الاحكام وغيرها بعلمه وحكمته والله اي
الذي له الاحاطة العامة بكل شي عليم بكل شي حكيم فيما يريده فلا يقدر احد
على نقضه وختم الاية بهذا الوصف يدل على انها محكمة لم تنسخ واختلف في ذلك
فقال الزمخشري عن ابن عباس انه قال اية لا يؤمن بها اكثر الناس اية الاذن
واني لامر جاريتي ان تستاذن علي وساله عطا استاذن على اختي قال نعم وان كانت
في حجرك تمونها وتلا هذه الاية وعنه ثلاث ايات جحدهن الناس الاذن كله وقوله
تعالى ان اكرمكم عند الله اتقاكم فقال الناس اعظمكم بيتا واذا حضر القسمة وعن
ابن مسعود عليكم ان تستاذنوا على ابائكم وامهاتكم واخواتكم وعن الشعبي

ليست منسوخة ولكن الناس تهاونوا بها وقال قوم هي منسوخة روى البغوي
عن ابن عباس انه قال لم يكن للقوم ستور ولا حجاب فكان الخدم والولايد يدخلون
فربما يرون منهم ما لا يحبون فامروا بالاستيذان وقد بسط الله الرزق واتخذ
الناس الستور فلعل الرواية اختلفت عن ابن عباس ولما بين تعالى حكم الصبيان
والارقا الذين هم اطوع للامر واقبل لكل خير اتبعه حكم البالغين من الاحرار
بقوله تعالى واذا بلغ الاطفال منكم الحلم اي اذا بلغ اطفالكم الاحرار
بلوغ السن الذي يكون فيه انزال المني سوا راى منيا ام لا واختلف في ذلك
السن فقال عامة العلما هو خمسة عشر سنة اي قمرية تحديدية لا فرق
في ذلك بين الذكر وغيره وهو ثماني عشر سنة في الغلام وسبع عشرة في
الجارية وعن علي رضي الله عنه انه يعتبر القامة ويقدره خمسة اشبار روية اخذ
الفرزدق في قوله ماذا مذ عقدت يداه ازاره وسما فادرك خمسة الاشبار
واعتبر هذا الانبات اي للعانة وعن عثمان رضي الله تعالى عنه انه سال عن غلام
له فقال هل اخضر ازاره اي نبت شعر عانته اسند الاخضرار الي الازار
على المجاز ولانهما اشتمل عليه الازار ونبات العانة الخشنة عندنا علامة على
بلوغ ولد الكافر فقط اما اذا راى المني في وقت امكانه وهو استكمال تسع سنين
قمرية فانا نحكم ببلوغه سوا كان ذكرا ام انثى مسلما ام كافرا واما الخنثى
فلا بد ان يمني من فرجيه او يحيض بالفرج ويمني من الذكر فليستاذنوا اي على
غيرهم في جميع الاوقات كما استاذن الذين من قبلهم اي من الاحرار الكبار
الذين جعلوا قسيما للمماليك فلا يستدل بذلك الارقا فلا يستدل بذلك على
ان العبد البالغ يستاذن على سيدته وقيل الذين كانوا مع ابرهيم وموسى
عليهما السلام كذلك اي كما بين لكم ما ذكر يبين الله اي الذي له الاحاطة
والقدرة لكم ايها الامة اياته اي دلالاته والله اي الذي يعلم السر
واخفى عليم اي باحوال خلقه حكيم اي فيما دبرهم قال سعيد بن المسيب
يستاذن الرجل على امه فانما انزلت هذه الاية في ذلك وسئل حذيفة
ايستاذن الرجل على والدته قال نعم ان لم تفعل رايت منها ما تكره وعن انس لما
كانت صبيحة احتلمت دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم فاخبرته اني احتلمت
فقال لا تدخل على النسا فما اتى علي يوم كان اشد منه ولما ذكر تعالى اقبال
النسا في تعيين حكم الحجاب اتبعه الحكم عند ادبار النسا في انتفا الظاهر
من النسا بقوله تعالى والقواعد من النسا اي اللاتي قعدن عن
الولد والحيض من الكبر فلا يلدن ولا يحضن واحدتهن قاعد بلا ها
وقيل قعدن عن الازواج وهو معنى قوله اللاتي لا يرجون نكاحا
اي لا يردن النكاح لكبرهن قال ابن قتيبة سميت المراة قاعدا اذا كبرت لانها
تكثر القعود وقال ربيعة هن العجز اللواتي اذا راهن الرجل استقذرهن

فامامن كان فيها بقية من جمال وهي محل الشهوة فلا تدخل في هذه الاية فليس عليهن
جناح اي حرج في ان يضعن ثيابهن اي الظاهرة فوق الثياب الساترة بحضرة
الرجال كالجلباب والردا والقناع والخمار فلا يجوز وضعه لما فيه من كشف العورة
غير متبرجات بزينة اي من غير ان يردن بوضع الجلباب والردا الاظهار زينتهن
ثم ان الزينة الخفية في قوله تعالى ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن او غير قاصدات
بالوضع التبرج والتبرج هو ان تظهر المراة محاسن ما ينبغي لها ان تستره ولما
ذكر الله تعالى الجائز عقبه بالمستحب بعثا منه على اختيار افضل الاعمال
واحسنها بقوله تعالى وان يستعففن اي فلا يلقين الردا والجلباب خير لهن
من الالقا كقوله تعالى وان تعفوا اقرب للتقوى وان تصدقوا لانه ابعد من التهمة
والله اي الذي جلت عظمته سميع لقولكم عليم بما في قلوبكم واختلف في سبب
نزول قوله تعالى ليس على الاعمى حرج اي في مواكلة غيره ولا على الاعرج حرج
ولا على المريض حرج كذلك فقال ابن عباس لما انزل الله تعالى يا ايها الذين امنوا
لا تاكلوا اموالكم بينكم بالباطل تحرج المسلمون عن مواكلة المرضى والزمنى والعمي
والعرج وقالوا الطعام افضل الاموال وقد نهانا الله تعالى عن اكل المال بالباطل
والاعمى لا يبصر موضع الطعام الطيب والاعرج لا يتمكن من الجلوس ولا يستطيع
المزاحمة والمريض يضعف عن التناول فلا يستوفي من الطعام حقه فانزل
الله تعالى هذه الاية وعلى هذا تكون على بمعنى في اي ليس في الاعمى اي ليس عليكم
في مواكلة الاعمى والاعرج والمريض حرج وقال سعيد بن جبير والضحاك
وغيرهما كان العرجان والعميان والمرضى يتنزهون عن مواكلة الاصحا لان الناس
يستقذرون منهم ويكرهون مواكلتهم وعن عكرمة كانت الانصار في انفسها
قذارة فكانت لا تاكل من هذه البيوت اذا استغنوا وكان هولا يقولون الاعمى
ربما اكل اكثر وربما سبقت يده الي ما سبقت عين اكيله اليه وهو لا يشعر والاعرج
ربما اخذ في مجلسه مكان اثنين بجلسه علي جليسه والمريض لا يخلو عن رايحة
تؤذي او جرح يبص ونحو ذلك فنزلت وقال مجاهد نزلت الاية ترخيصا لهولا
في الاكل من بيوت من سمي الله في هذه الاية وذلك ان هولا كانوا يدخلون محل الرجل
لطلب الطعام فاذا لم يكن عنده ما يطعمهم ذهب بهم الي بيت ابيه وبيت امه وبعض من سمى
الله تعالى في هذه الاية فكان من اهل الزمانة يتحرجون من هذا الطعام ويقولون
بنا الي بيت غيره فنزلت الاية وقال سعيد بن المسيب كان المسلمون اذا
غزوا خلفوا امنا لهم ويدفعون اليهم مفاتيح ابوابهم ويقولون قد احللنا
لكم ان تاكلوا مما في بيوتنا فكانوا يتحرجون من ذلك ويقولون لا ندخلها وهم غيب
فانزل الله هذه الاية رخصة لهم وقال الحسن نزلت رخصة لهولا في التخلف
عن الجهاد وقال تم الكلام عند قوله ولا على المريض حرج وقوله تعالى ولا على
انفسكم ان تاكلوا من بيوتكم كلام مستانف منقطع عما قبله فان قيل

ج

اي فايدة في اباحة اكل الانسان طعامه في بيته اجيب بان المراد من البيوت التي فيها ازواجكم وعيالكم فيدخل فيه بيوت الاولاد لان بيت ولده كبيته قال صلى الله عليه وسلم انت ومالك لابيك وقال صلى الله عليه وسلم ان اطيب ما ياكل المرء من كسبه وان ولده من كسبه وقيل لما نزل قوله تعالى ولا تاكلوا اموالكم بينكم بالباطل قالوا لا يحل لاحد منا ان ياكل عند احد فانزل الله تعالى ولا على انفسكم ان تاكلوا من بيوتكم اي لا حرج عليكم ان تاكلوا من بيوتكم **او بيوت اباءكم** اي وان بعدت انسابهم قال البقاعي ولعله جمع ذلك فانهم اباكم وحرمتهم منكم **او بيوت امهاتكم** كذلك وقدم الاب لانه اجل وهو حاكم بيته دايما والمال له **او بيوت اخوانكم** اي من الابوين او الاب او الام بالنسب او الرضاع فانهم من اولى من رضيه بذلك بعد الوالدين لانهم منكم وهم اوليا بيوتهم **او بيوت اخواتكم** فانهن بعدهم من ان ولي البيت اذا كن من زوجات الزوج **او بيوت اعمامكم** فانهم شقايق اباءكم سوا كانوا اشقا لاب ام لام ولو افرد العم لتوهم انه الشقيق فقط فانه احق بالاسم **او بيوت عماتكم** فانهن بعد الاعمام لضعفهن ولانهن ربما كان اوليه بيوتهن الازواج **او بيوت اخوالكم** لانهم شقايق امهاتكم **او بيوت خالاتكم** اخرهن لما ذكر في العمات **او ما ملكتم مفاتحه** قال ابن عباس عني بذلك وكيل الرجل وقيمه في ضيعته وماشيته لا باس عليه ان ياكل من ثمر ضيعته ويشرب من لبن ماشيته ولا يحمل ولا يدخر وملك المفاتيح كونها في يده وحفظه وقال الضحاك يعني من بيوت عبيدكم ومماليككم لان السيد يملك منزل عبده والمفاتيح الخزاين لقوله تعالى وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ويجوز ان يكون الذي يفتح به وقال عكرمة اذا ملك الرجل المفتاح فهو خازن فلا باس ان يطعم الشي اليسير وقال السدي الرجل يولي طعامه غيره ويقوم عليه فلا باس ان ياكل منه وقيل اوما ملكتم مفاتحه ما خزنتموه عندكم وقال مجاهد وقتادة من بيوت انفسكم مما اختزنتم وملكتم **او صديقكم** اي او بيوت اصدقائكم والصديق هو الذي صدق في المودة ويكون واحدا وجمعا وكذا الخليط والقطين والعدو وقال ابن عباس نزلت في الحارث بن عمرو خرج غازيا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلف مالك بن زيد على اهله فلما رجع وجده مجهودا فساله عن حاله فقال تحرجت ان اكل طعامك بغير اذنك فانزل الله هذه الاية يحكى عن الحسن انه دخل داره واذا حلقه من اصدقايه وقد استلوا سلالا من تحت سريره فيها الخبيص واطايب الاطعمة وهم مكبون عليها ياكلون فتهللت اسارير وجهه سرورا وضحك وقال هكذا وجدناهم يريد كبرا الصحابة ومن لقيهم من البدريين وكان الرجل منهم يدخل دار صديقه وهو غايب فيسال جاريته كيسه فياخذ ما شاء فاذا احضر مولاها

فاخبرته

فاخبرته اعتقها سرورا بذلك وعن جعفر بن محمد من عظم حرمة الصديق ان جعله الله من الانس والثقة والانبساط وطرح الحشمة بمنزلة النفس والاب والاخ والابن وعن ابن عباس الصديق اكبر من الوالدين ان الجهنميين لما استغاثوا لم يستغيثوا بالاباء والامهات بل قالوا فما لنا من شافعين ولا صديق حميم والمعنى يجوز الاكل من بيوت من ذكروا وان لم يحضروا اذا علم رضا صاحب البيت باذن او قرينة ظاهرة الحال فان ذلك يقوم مقام الاذن الصريح ولذلك خصص هولا فانهم يعتادون التبسط بينهم وربما سمج الاستيذان وثقل كمن قدم اليه طعام فاستاذن صاحبه في الاكل منه فان قيل اذا كان ذلك لا بد من العلم بالرضا فحينئذ لا فرق بينهم وبين غيرهم اجيب بان هولا يكفي فيهم ادنى قرينة بل ينبغي ان يشترط فيهم ان لا يعلم عدم الرضى بخلاف غيرهم لا بد منه من صريح الاذن او قرينة قوية هذا ما ظهر لي ولم ار من تعرض لذلك وكان الحسن وقتادة يريان دخول الرجل بيت صديقه والاكل من طعامه بغير اذنه لهذه الاية واحتج ابو حنيفة بهذه الاية على ان من سرق من ذي رحم محرم انه لا يقطع لان الله تعالى اباح لهم الاكل من بيوتهم ودخولها بغير اذنه فان قيل فيلزم ان لا يقطع اذا من سرق من مال صديقه اجيب بان من سرق من ماله لا يكون صديقا له وقيل ان هذا كان اول الاسلام ثم نسخ فلا دليل له فيه وقرا بيوتكم وبيوت وبيوتا ورش وابو عمرو وحفص بضم البا الموحدة والباقون بالكسر وقرا حمزة والكسائي امهاتكم في الوصل بكسر الهمزة والباقون بالضم وكسر الميم حمزة وفتحها الباقون ولما ذكر تعالى معدن الاكل ذكر حاله بقوله تعالى **ليس عليكم جناح** اي اثم **ان تاكلوا جميعا** اي مجتمعين **او اشتاتا** اي متفرقين واختلف في سبب نزول هذه الاية فقال الاكثرون نزلت في بني ليث بن عمرو وكانوا يتحرجون ان ياكل الرجل وحده فربما قعد منتظرا نهاره الى الليل فان لم يجد من يواكله اكل ضرورة وقال عطا عن ابن عباس كان الغني يدخل على الفقير من ذوي قرابته وصداقته فيدعوه الى طعامه فيقول والله اني لا جنح ان اكل معك وانا غني وانت فقير فنزلت هذه الاية وقال عكرمة وابو صالح نزلت في قوم من الانصار كانوا لا ياكلون اذا نزل بهم ضيف الا مع ضيفهم فرخص لهم في ان ياكلوا كيف شاوا مجتمعين او اشتاتا متفرقين وقال الكلبي كانوا اذا اجتمعوا لياكلوا طعاما عزلوا للاعمى طعاما وحده وكذلك الزمن والمريض فبين الله تعالى لهم ان ذلك غير واجب وقيل تحرجوا عن الاجتماع على الطعام لاختلاف الناس في الاكل وزيادة بعضهم على بعض تنبيه جميعا حال من فاعل تاكلوا واشتاتا تثنية شتى روي ان رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم انا ناكل ولا نشبع قال فلعلكم تاكلون متفرقين اجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله عليه يبارك لكم فيه

قوله جناح

وروي انه صلى الله عليه وسلم قال كلوا جميعا ولا تفرقوا واذكروا اسم الله فان البركة مع الجماعة ولما بين تعالى مواطن الاكل وكيفيته ذكر الحال التي يكون عليها الداخل الى تلك المواطن او غيرها بقوله تعالى فاذا دخلتم اي بسبب ذلك او غيره بيوتا اي من هذه البيوت فسلموا على انفسكم اي على اهلها الذين هم منكم دينا وقرابة جعل نفس المسلمين كالنفس الواحدة كقوله تعالى ولا تقتلوا انفسكم وقال ابن عباس اذا لم يكن في البيت احد فليقل السلام علينا من ربنا وقال قتادة اذا دخلت بيتك فسلم على اهلك فهم احق من سلمت عليهم واذا دخلت بيتا لا احد فيه فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين حدثنا ان الملائكة ترد عليه تحية من عند الله اي ثابتة بامره مشروعة من لدنه مباركة اي لانه يرجى بها زيادة الخير والثواب طيبة اي تطيب بها نفس المستمع والتحية طلب سلامة وحياة للمسلم عليه والمحيا من عند الله ووصفها بالبركة والطيب لانها دعوة مومن لمومن يرجى بها من الله تعالى الخير وطيب الرزق وعن انس رضي الله تعالى عنه قال خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين وروي تسع سنين فما قال لي لشيء فعلته لم فعلته ولا قال لي لشيء كسرته لم كسرته وكنت واقفا على راسه اصب الماء على يديه فرفع راسه فقال الا اعلمك ثلاث خصال تنتفع بها قلت بلى بابي انت وامي يا رسول الله قال متى لقيت من امتي احدا فسلم عليه يطل عمرك واذا دخلت بيتك فسلم عليهم يكثر خير بيتك وصل صلاة الضحى فانها صلاة الابرار الاوابين تحية منصوب على المصدر من معنى فسلموا فهو من باب قعدت جلوسا فكانه قال فحيوا تحية وقال القفال وان كان في البيت اهل الذمة فليقل السلام على من اتبع الهدى وكرر قوله تعالى كذلك يبين الله اي الذي احاط بكل شيء علما لكم الايات ثالثا لمزيد التاكيد وتفخيم الاحكام المختتمة به وفصل الاولين بما هو المقتضي لذلك وهذا بما هو المقصود فقال تعالى لعلكم تعقلون اي عن الله امره ونهيه وادبه ولما كان امر الرسول صلى الله عليه وسلم اجل موطن يجب الاقامة فيه ويحرم ما عداه من الاوطان قال تعالى انما المومنون اي الكاملون في الايمان الذين امنوا بالله اي الملك الاعلى ورسوله اي ظاهرا وباطنا واذا كانوا معه اي الرسول صلى الله عليه وسلم على امر جامع اي يجمعهم من حرب حضرت او صلاة جمعة او عيد او جماعة او تشاور في امر نزل ووصف الامر بالجمع للمبالغة او من الاسناد المجازي لانه لما كان سببا في جمعهم نسب الفعل اليه مجازا لم يذهبوا اي يتفرقوا عنه ولم ينصرفوا عما اجتمعوا له من بعد حتى يستاذنوه قال الكلبي كان النبي صلى الله عليه وسلم يعرض في خطبته بالمنافقين ويعيبهم فينظر المنافق يمينا وشمالا فاذا لم يرهم احد انسلوا وخرجوا ولم يصلوا وان ابصرهم احد ثبتوا وصلوا خوفا فنزلت هذه الاية فكان المومن

بعد

بعد نزولها لا يخرج لحاجة حتى يستاذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان المنافقون يخرجون بغير اذن قال مجاهد واذن الامام يوم الجمعة ان يشير بيده قال اهل العلم كذلك كل امر اجتمع عليه المسلمون مع الامام لا يخالفونه ولا يرجعون عنه الا باذن وهذا اذا لم يكن سبب يمنعه من المقام كان يكونوا في المسجد فتحيض منهم امراة او يجنب رجل او يعرض له مرض فلا يحتاج الى الاستيذان ولما كان اعتبار الاذن ن كالمصدق لصحة كمال الايمان والمميز للمخلص منه اعاده موكدا على اسلوب ابلغ بقوله تعالى ان الذين يستاذنونك اي تعظيما لك ورعاية للادب اولئك اي العالو الرتبة الذين يومنون بالله اي الذي له الامر كله ورسوله فانه يفيد ان المستاذن مومن لا محالة وان الذاهب بغير اذن ليس كذلك ولما قصرهم على الاستيذان تسبب عن ذلك اعلامه صلى الله عليه وسلم بما يفعل اذ ذاك بقوله تعالى فاذا استاذنوك لبعض شانهم وهو ما تشتد الحاجة اليه فاذن لمن شئت منهم بالانصراف اي ان شئت فاذن وان شئت فلا تاذن ففي ذلك تفويض الامر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم واستدل به على ان بعض الاحكام مفوض الى رايه قال الضحاك ومقاتل المراد عمر بن الخطاب في ذلك انه استاذن في غزوة تبوك في الرجوع الى اهله فاذن له وقال انطلق فوالله ما انت بمنافق يريد ان يسمع المنافقين ذلك الكلام قالوا ما بال محمد اذا استاذن اصحابه اذن لهم واذا استاذناه ابى فوالله ما نراه يعدل قال ابن عباس ان عمر استاذن النبي صلى الله عليه وسلم في العمرة فاذن له وقال يا ابا حفص لا تنسانا في صالح دعائك ولما كان في الاستيذان ولو لعذر قصور لان فيه تقديما لامر الدنيا على امر الدين امره الله تعالى بان يستغفر لهم بقوله تعالى واستغفر لهم الله اي الذي له الامر كله بعد الاذن ليكون تقديمك شاملا لمن صحت دعواه وغيرهم على ذلك ترغيبا في الاستغفار وتطييبا لقلوب اهل الاوزار بقوله تعالى ان الله اي الذي لا يخفى عليه شيء غفور اي لفرطات العباد رحيم اي بالتيسير عليهم ولما اظهرت هذه السورة بعمومها وهذه الايات بخصوصها من شرف الرسول ما ابهر العقول صرح بتفخيم شانه وتعظيم مقامه بقوله تعالى لا تجعلوا يا ايها الذين امنوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا قال سعيد بن جبير ومجاهد عنه معناه لا تنادوه باسمه فتقولوا يا محمد ولا بكنيته فتقولوا يا ابا القاسم بل نادوه وخاطبوه بالتوقير فقولوا يا رسول الله يا نبي الله وعلى هذا يكون المصدر مضافا للمفعول وقال المبرد والقفال لا تجعلوا دعاءه اياكم كدعاء بعضكم لبعض فتتباطؤون عنه كما يتباطأ بعضكم عن بعض اذا دعاه لامر بل يجب عليكم المبادرة لامره ويؤيده قوله تعالى فليحذر الذين يخالفون عن امره وعلى هذا يكون المصدر مضافا للفاعل وقال ابن عباس احذروا دعاء الرسول عليكم اذا اسخطتموه فان دعاءه موجب ليس كدعاء غيره وروي عنه ايضا لا ترفعوا اصواتكم في دعائه وهو المراد

من قوله تعالى ان الذين يغضون اصواتهم عند رسول الله وقول المبرد كما قال ابن عادل
اقرب لنظم الاية ولما كان بعضهم يظهر الموافقة ويبطن المخالفة حذر من ذلك
بقوله تعالى قد يعلم الله اي الذي لا يخفى عليه خافية الذين يتسللون منكم اي
ينسلون قليلا قليلا ليجعلوا ذهابهم في غاية الخفا ونظير تسلل تدرج وتدخل
وقوله تعالى لواذا حال اي ملاوذين واللواذ والملاوذة التستر يقال لاوذ
فلان بكذا اذا استتر به وقال ابن عباس اي يلوذ بعضهم ببعض وذلك
ان المنافقين كانوا يثقل عليهم المقام في المسجد يوم الجمعة لا سيما في خطبة
النبي صلى الله عليه وسلم فكانوا يلوذون ببعض اصحابه فيخرجون من
المسجد في استتار وقد للتحقيق وتسبب عن علمه تعالى قوله تعالى
فليحذر اي يوقع الحذر الذين يخالفون عن امره اي يعرضون عن امر رسول
الله صلى الله عليه وسلم وينصرفون عنه بغير اذنه وقال ابو بكر الرازي
الضمير في امره لله لانه يليه وقال الجلال المحلي الله ورسوله وكل صحيح
فان في مخالفة امر احدهما مخالفة امر الاخر ان اي بان تصيبهم فتنة قال مجاهد
اي بلاء في الدنيا وعن ابن عباس فتنة قتل وعن عطا زلازل واهوال وعن جعفر
ابن محمد سلط الله عليهم سلطان جائر او يصيبهم عذاب اليم اي وجيع
في الاخرة تنبيه الاية تدل على ان الامر للوجوب لان تارك المامور مخالف
للامر ومخالف الامر يستحق العذاب ولا معنى للوجوب الا ذلك ولما اقام
تعالى الادلة على انه نور السموات والارض وختم بالتحذير لكل مخالف انتج
ذلك ان له كل شيء فقال تعالى الا ان لله ما في السموات والارض خلقا وملكا
وعبيدا فان قيل ما فائدة ذكر عبيدا بعد ملكا اجيب بانه انما ذكره لئلا يتوهم
ان ملكا لما لا يعقل فقط ولما كانت احوالهم من جملة ما هو له وانها بخلقه قال
تعالى قد يعلم ما انتم اي ايها المكلفون عليه اي من الموافقة والمخالفة
والاخلاص والنفاق وانما اكد علمه بقد لتاكيد الوعيد وذلك ان قد اذا
دخلت على المضارع كانت بمعنى ربما فوافقت ربما في خروجها الى معنى التكثير
في نحو قول بعضهم فانه يمس مهجور الفنا فربما اقام به بعد الوفود وفود
ونحو قول زهير اخي ثقة لا تهلك الخمر ماله ولكنه قد يهلك المال نائله
والمعنى ان جميع ما في السموات والارض مختص به تعالى فكيف يخفى عليه احوال
المنافقين وان كانوا يجتهدون في سترها عن العيون واخفائها وقوله تعالى
ويوم اي ويعلم يوم يرجعون اليه فيه التفات عن الخطاب اي متى يكون
او ويوم يرجع المنافقون اليه للجزا فينبئهم اي فيتسبب عن ذلك
انه يخبرهم بما عملوا اي من الخير والشر فيجازيهم عليه والله اي الذي لا يخفى
عليه خافية بكل شيء اي من اعمالهم وغيرها عليم عن عائشة رضي الله عنها
وعن ابويها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تنزلوا النساء الغرف

ولا تعلموهن

ولا تعلموهن الكتابة وعلموهن الغزل وسورة النور اخرجه ابو عبد الله بن البيع
في صحيحه واما قول البيضاوي تبعا للكشاف من قرا سورة النور اعطي من
الاجر عشر حسنات بعدد كل مؤمن ومؤمنة فيما مضى وفيما بقي فهو موضوع

سورة الفرقان مكية

الا قوله تعالى والذين لا يدعون مع الله الها اخر الى رحيما فمدني
وآيها سبع وسبعون اية وثمانمائة واثنان وسبعون كلمة وعدد حروفها
ثلاثة الاف وسبعمائة وثمانون حرفا بسم الله الذي له الحجة البالغة
الرحمن الذي عم الخلق بنعمه الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء تبارك
قال الزجاج تفاعل من البركة وهي كثرة الخير وزيادته ومنه تبارك الله
وفيه معنيان تزايد خيره وتزايد عن كل شيء وتعالى عنه في صفاته وافعاله
وعن ابن عباس كان معناه جاء بكل خير وبركة وقال الضحاك تبارك تعاظم ولا
يستعمل الا لله تعالى ولا يتصرف فيه ثم وصف ذاته الشريفة بما يدل على ذلك
بقوله تعالى الذي نزل الفرقان اي القران والفرقان مصدر فرق بين الشيئين
اذا فصل بينهما وسمي به القران لفصله بين الحق والباطل ولانه لم ينزل جملة
واحدة ولكن مفروقا مفصولا بين بعضه وبعض في الانزال الا ترى قوله تعالى
وقرانا فرقناه لتقراه على الناس على مكث على عبده اي محمد صلى الله عليه
وسلم واضافه الى نفسه اضافة تشريف وفي عود ضمير ليكون ثلاثة
اوجه احدها يعود على الذي نزل اي ليكون الذي نزل الفرقان نذيرا الثاني
انه يعود على الفرقان اي ليكون الفرقان نذيرا واضاف الانذار اليه كما اضاف
الهداية اليه في قوله تعالى ان هذا القران يهدي قال ابن عادل وهذا
وهذا بعيد لان المنذر والنذير من صفات الفاعل المخوف ووصف القران
به مجاز وحمل الكلام على الحقيقة اولى الثالث يعود على عبده اي ليكون عبده
محمد صلى الله عليه وسلم للعالمين نذيرا اي وبشيرا وهذا احسن الوجوه
معنى وصناعة لقربه مما يعود عليه والضمير يعود على اقرب مذكور وللعالمين
متعلق بنذيرا وانما قدم لاجل الفواصل ونذيرا بمعنى منذرا اي مخوف ويجوز
ان يكون مصدرا بمعنى الانذار كالنكير بمعنى الانكار ومنه قوله تعالى فكيف
كان عذابي ونذر تنبيه المراد بالعالمين قال البقاعي المكلفين كلهم
من الجن والانس والملائكة انتهى ولكن في ارساله الى الملائكة خلاف بين
العلما فقد نقل الجلال المحلي في شرحه على جمع الجوامع الاجماع على انه لم يرسل
اليهم وغيره صرح بانه ارسل اليهم ومن حفظ حجة على من لم يحفظ فان
قيل قوله تعالى تبارك يدل على كثرة الخير والبركة فالمذكور عقبه لا بد وان
يكون سببا لكثرة الخير والمنافع والانذار يوجب الغم والخوف فكيف يليق

كأنه كلما كانت البالغة في تاديب الولد اكثر صح

ذكره بهذا الموضع اجيب بان الانذار يجري مجري تاديب الوالد اكثر كان رجوع
الخلق الي الله تعالي اكثر وكانت السعادة الاخروية اتم واكثر وهذا
كالتنبيه علي انه لا التفات الي المنافع العاجلة لانه تعالي لما وصف نفسه
بانه يعطي الخيرات الكثيرة لم يذكر الا منافع الدين ولم يذكر منافع الدنيا البتة
وقوله تعالي الذي له ملك السموات والارض اشارة الي احتياج هذه المخلوقات
اليه سبحانه وتعالي حال حدوثها وانه تعالي هو المتصرف فيها بقاء فلا انكار
ان يرسل رسولا الي كل من فيهما تنبيه يجوز في الذي الرفع نعتا للذي
الاول او بيانا او بدلا او خبر المبتدا المحذوف او النصب علي المدح وما بعده
تدل من تمام الصلة فليس اجنبيا فلا يضر الفصل به بين الموصول الاول
والثاني اذا جعلت الثاني تابعا له ولم يتخذ ولدا اي هو الفرد ابدا ولا يصح
ان يكون غيره تعالي معبودا او وارثا للملك عنه وهذا رد علي النصارى ولم يكن له
شريك في الملك اي هو المنفرد بالالوهية واذا عرف العبد ذلك انقطع
رجاؤه عن كل من سواه ولم يشتغل قلبه الا برحمته واحسانه فلا يضر الفصل
به بين الموصول الاول والثاني وفيه رد علي الوثنية والقائلين بعبادة
النجوم والاوثان ولما نفي تعالي الشريك فكان قائلا يقول ههنا اقوام يعترفون
بنفي الشريك والشركاء والانداد ومع ذلك يقولون بخلق افعال
انفسهم فرد الله تعالي بقوله وخلق كل شيء اي من شانه ان يخلق ومنها افعال
العباد والخلق هنا بمعني الاحداث اي احدث كل شيء اي احداثا مراعا
فيه التقدير والنفوذ فقدره تقديرا اي هياه لما يصلح له مثاله انه خلق
الانسان علي هذا الشكل المقدر الذي تراه فقدره للتكاليف والمصالح
المنوطة به في بابي الدين والدنيا وكذلك كل حيوان وجماد جاء به علي
الجبلة المستوية المقدرة وسمي احداث الله خلقا لانه لا يحدث شيئا
لحكمة الا وجه التقدير من غير تفاوت فاذا قيل خلق الله كذا فهو بمنزلة
قولك احدث واوجد من غير نظر الي وجه الاشتقاق فكانه قيل واوجد
كل شيء فقدره تقديرا في ايجاده ولم يوجده متفاوتا ولو حمل خلق كل شيء
علي معناه الاصلي من التقدير لصار الكلام وقدر كل شيء فقدره فلم يصر له
كثير فائدة وقيل فجعل له غاية ومنتهى ومعناه فقدره للبقاء الي امد
معلوم واختلف في عود الضمير في قوله تعالي واتخذوا من دونه اي الله غيره
الهة علي ثلاثة اوجه احدها انه يعود علي الكفار الذي تضمنهم لفظ
العالمين ثانيها انه يعود علي من ادعى لله شريكا وولدا لدلالة قوله
تعالي ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ثالثها انه يعود علي المنذر
لدلالة نذيرا عليهم ولما وصف نفسه سبحانه وتعالي بصفات الجلال
والعزة والعلو اردفه بتزييف مذهب من يعبد غيره من وجوه منها انها

ليست

لا يستطيعون ضرا

ليست خالقة للاشياء بقوله تعالي لا يخلقون شيئا والاله يجب ان يكون قادرا علي
الخلق والايجاد ومنها انها مخلوقة بقوله تعالي وهم يخلقون والمخلوق محتاج
والاله يجب ان يكون غنيا وغلب العقلاء علي غيرهم لان الكفار كانوا يعبدون
العقلاء كعزير والمسيح والملائكة وغيرهم كالكواكب والاصنام التي ينحتونها
ويصورونها ومنها انها لا تملك لانفسها ضرا ولا نفعا بقوله تعالي ولا
يملكون اي لا يستطيعون لانفسهم ضرا اي دفعه ولا نفعا اي
جلبه ومن كان كذلك فليس باله ومنها انها لا تقدر علي موت ولا حياة ولا
نشور بقوله تعالي ولا يملكون موتا ولا حياة اي اماتة لاحد واحياء لاحد
ولا نشورا اي بعثا للاموات فيجب ان يكون المعبود قادرا علي ايصال
الثواب الي المطيعين والعقاب الي العصاة فمن لا يكون كذلك يجب ان لا يصلح
للالهية تنبيه احتج اهل السنة بقوله تعالي لا يخلقون شيئا علي ان
فعل العبد مخلوق لله تعالي لانه تعالي عاب هولاء الكفار من حيث عبدوا ما لا
يخلق شيئا وذلك يدل علي ان من خلق يستحق ان يعبد فلو كان العبد خالقا
لكان معبودا الها ولما تكلم تعالي اولا علي التوحيد وثانيا في الرد علي عبدة غير
تكلم ثالثا في مسئلة النبوة وحكي شبه الكفار في انكار نبوة محمد صلى
الله عليه وسلم الشبهة الاولي قوله تعالي وقال الذين كفروا اي ستروا ما
الوصف الذي حملهم علي هذا القول وهو ستر ما ظهر لهم واخبرهم
والاجتهاد في اخفائه ان اي ما هذا اي القرآن الا افك اي كذب
مصروف عن وجهه افتراه اي اختلقه محمد صلى الله عليه وسلم واعانه
عليه اي القرآن قوم آخرون اي من غير قومه وهم اليهود فانهم يقولون
يلقون اليه اخبار الامم وهو يعبر عنها بعبارته وقيل عداس مولي حويطب
ابن عبد العزى ويسار مولي العلاء بن الحضرمي وابو فكيهة الرومي كانوا
بمكة من اهل الكتاب فزعم المشركون ان محمدا ياخذ منهم فرد الله تعالي
عليهم بقوله تعالي فقد جاءوا اي فعلوا هذه المقالة ظلما وهو جعل
الكلام المعجز افكا مختلقا متلقفا من اليهود وجعلوا العربي يتلقن من
العجمي الرومي كلاما عربيا اعجز بفصاحته جميع فصحاء العرب وزورا اي
بهتوه بنسبة ما هو بري منه اليه وقرا ابن كثير وابن ذكوان وعاصم
باظهار الدال والباقون بالادغام تنبيه جاء واتي يستعملان في معني فعل
فيعديان تعديته وظلما مفعول به وقيل انه علي اسقاط الخافض
اي جاءوا بظلم الشبهة الثانية قوله تعالي وقالوا اساطير الاولين اي
ما سطره الاولون من اكاذيبهم جمع اسطورة بالضم كاحدوثة او اسطار
اكتتبها اي تطلب كتابتها له من ذلك القوم واخذها والمعني
ان هذا القرآن ليس من الله انما هو مما سطره الاولون الاول كاحاديث

رستم واستعفد يسار وانتسخها محمد من اهل الكتاب فهي اي فتسبب عن
تكلفه ذلك انها تملى عليه اي تقرا عليه ليحفظها بكرة قبل ان تنتشر الناس
واصيلا اي عشيا يأوون الى مساكنهم او دايما ليتكلف حفظها بالانتساخ
لانه امي لا يقدر ان يكون من الكتاب او ليكتب وهذا كما ترى لا يقوله
من له مسكة في عقل او مروءة كيف يدعوهم الى المعارضة ولو بسورة من
مثله ومنهم الكتاب والشعراء والبلغاء والخطباء وهم اكثر منه مالا واعظم اعوانا
ولا يقدرون على شيء منه فان قيل كيف قيل اكتتبها فهي تملى عليه وانما يقال
امليت عليه فهو يكتبها اجيب بوجهين احدهما اراد اكتتابها
وطلبه فهي تملى اي تلقى عليه من كتاب ليحفظها لان صورة الالقاء على الحافظ
كصورة الالقاء على الكاتب وقرا قالون وابو عمرو والكسائي بسكون
الهاء والباقون بكسرها ثم امر الله تعالى بجوابهم بقوله تعالى قل اي ردا
على بطلان ما قالوه وتهديدا لهم انزله الذي يعلم السر اي الغيب في السموات
والارض لانه اعجزكم عن آخركم بفصاحته وتضمنه اخبارا عن مغيبات مستقبلة
واشياء مكنونة لا يعلمها الا عالم الاسرار فكيف تجعلونه اساطير الاولين مع علمكم
ان ما تقولونه باطل وزور وكذلك باطن رسول الله صلى الله عليه وسلم وبراءته
مما تبهتونه وهو يجازيكم على ما علم منكم وعلم منه فان قيل كيف يطابق هذا قوله
تعالى انه كان اي ازلا وابدا غفورا رحيما اجيب بانه لما كان ما تقدمه
في معنى الوعيد عقبه بما يدل على القدرة عليه لانه لا يوصف بالرحمة والمغفرة
الا القادر على العقوبة او هو تنبيه على انهم استوجبوا بمكابرتهم هذه
ان يصب عليهم العذاب صبا ولكن صرف ذلك عنهم لانه غفور رحيم
يمهل ولا يعجل الشبهة الثالثة قوله وقالوا ما لهذا الرسول اي ما لهذا الذي
يزعم الرسالة وفيه استهانة وتهكم وتصغير لشانه وتسميته بالرسول
سخرية منهم كانهم قالوا ما لهذا الزاعم انه رسول ونحوه قول فرعون ان
رسولكم الذي ارسل اليكم لمجنون اي ان صح انه رسول الله فما باله حاله مثل
حالنا ياكل الطعام اي كما ناكل ويمشي اي يتردد في الاسواق لطلب
المعاش كما نمشي فلا يجوز ان يمتاز عنا بالنبوة يعنون انه يجب ان يكون
ملكا مستغنيا عن الاكل والشرب والتردد والتعيش وكذلك
كانوا يقولون له لست انت بملك لانك تاكل الطعام والملك لا ياكل
ولان الملك لا يتسوق وانت تتسوق وما قالوه فاسد لان اكله الطعام
لكونه آدميا ومشيه في الاسواق لتواضعه وكان ذلك صفته في التوراة
ولم يكن صخابا في الاسواق وليس شيء من ذلك ينافي النبوة ولانه لم يدع انه
ملك من الملوك ثم نزلوا عن اقتراحهم ان يكون ملكا الى اقتراح ان يكون
انسانا معه ملك حتى يتساندا في الانذار والتخويف فقالوا لولا اي هلا

انزل اليه ملك اي يصدقه ويشهد له فيكون معه نذيرا اي داعيا ثم
نزلوا ايضا الى انه لم يكن مرفودا بملك فليكن مرفودا بكنز فقالوا او يلقى اليه
كنز اي ينزل عليه كنز من السما ينفقه فلا يحتاج الى المشي في الاسواق
لطلب المعاش ثم نزلوا فاقتنعوا بان يكون رجلا له بستان فقالوا او تكون له
جنة اي بستان ياكل منها اي ان لم يلق اليه كنز فلا اقل ان يكون له بستان
كالمياسير فيتعيش بريعه وقرا حمزة والكسائي بالنون اي ناكل نحن منها فيكون
له مزية علينا بها والباقون بالياء وقوله تعالى وقال الظالمون وضع فيه الظاهر
موضع المضمر اذ الاصل وقالوا تسجيلا عليهم بالظلم فيما قالوا ان اي ما
تتبعون الا رجلا مسحورا اي مخدوعا مغلوبا على عقله وقيل مصروفا عن
الحق ولما انهى تعالى ما ذكر من اقوالهم الناشئة عن ضلالهم التفت سبحانه
وتعالى الى رسوله صلى الله عليه وسلم مسليا له بقوله تعالى انظر اي يا افضل
الخلق كيف ضربوا لك الامثال اي بالمسحور والمحتاج الى ما ينفقه والى
ملك يقوم معه بالامر فضلوا اي بذلك عن جميع طرق الهدى فلا يستطيعون
اي في الحال ولا في المآل بسبب الضلال سبيلا اي سلوك سبيل الموصلة الى
ما يستحق ان يقصد بل هم في مجاهل موحشة وفيافي مهلكة ولما بين انهم
لا علم لهم ولا قدرة اثبت لنفسه سبحانه وتعالى ما يستحق من الكمال
الذي يفيض به على من يشاء من عباده ما يشاء بقوله تعالى تبارك اي ثبت
ثباتا مقترنا باليمن والبركة لا ثبات الا هو الذي ان شاء فانه لا مكره له
جعل لك اي في الدنيا خيرا من ذلك اي من الذي قالوه على طريق التهكم
من الكنز والبستان وقوله تعالى جنات بدل من خيرا ويجوز ان يكون منصوبا
باضمار اعني ثم وصفها بقوله تعالى تجري من تحتها الانهار اي تكون ارضها
عيونا نابعة اي موضع اريد منه اجراء نهر جرى فهي لا تزال ريا تغني صاحبها عن
كل حاجة ولا تحوجه في استمرارها الى سقي ويجعل لك قصورا ايضا وهي جمع
قصر وهي المسكن الرفيع قال المفسرون القصور هي البيوت المشيدة
والعرب تسمي كل بيت مشيد قصرا ويحتمل ان يكون لكل جنة قصر ليكون
مسكنا ومتنزها ويجوز ان تكون القصور مجموعة وقال مجاهد ان شاء
جعل لك جنات في الآخرة وقصورا في الدنيا ولم يشا سبحانه وتعالى ما اشار اليه
في هذه الآية الشريفة في هذه الدنيا الفانية واخره الى الآخرة الباقية وقد عرض
عليه سبحانه وتعالى عليه الصلاة والسلام ما شاء من ذلك فاباه روي عنه
عليه الصلاة والسلام انه قال عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبا فقلت
لا يا رب اشبع يوما واجوع يوما او قال ثلاثا او نحو هذا فاذا جعت تضرعت
اليك واذا شبعت حمدتك وشكرتك وعن عائشة رضي الله عنها قالت
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو شئت لسارت معي جبال مكة الذهب

جاني ملك فقال ان ربك يقرا عليك السلام ويقول ان شئت نبيا عبدا وان شئت
نبيا ملكا فنظرت الى جبريل عليه السلام فاشار الي ان ضع نفسك فقلت نبيا
عبدا قال وكان النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك لا ياكل متكيا ويقول
اكل كما ياكل العبد واجلس كما يجلس العبد وعن ابن عباس قال بينما رسول الله
صلى الله عليه وسلم وجبريل عليه السلام معه فقال جبريل عليه السلام
هذا ملك قد نزل من السما استاذن ربه في زيارتك فلم يلبث الا قليلا حتى جا
الملك الموت وسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ان الله يخيرك ان
يعطيك مفاتيح كل شيء لم يعطه احدا قبلك ولن يعطيه احدا بعدك
من غير ان ينقصك مما ادخر لك شيا فقال صلى الله عليه وسلم بل يجمعها لي في
الاخرة فنزل تبارك الذي ان شاء الاية وقرا ابن كثير وابن عامر وشعبة
برفع اللام من يجعل وفيه وجهان احدهما انه مستانف والثاني انه معطوف
على جواب الشرط لان الشرط اذا وقع ماضيا جاز في جوابه الجزم والرفع
كقوله وان اتاه خليل يوم مسئلة • يقول لا غايب مالي ولا حرم
والباقون بالجزم ويجوز في يجعل لك اذا ادغمت ان تكون اللام في تقدير
الجزم والرفع ثم اضرب سبحانه وتعالى عن كلامهم في حق رسوله بقوله تعالى
بل اي لا تظنوا انهم كذبوا بما جيت به لانهم لا يعتقدون فيك
كذبا بل كذبوا بالساعة اي القيامة فقصرت انظارهم على الحطام الدنيوي
وظنوا ان الكرامة انما هي بالمال فلا يرجون ثوابا ولا عقابا فلا يتكلفون النظر
ولهذا لا ينتفعون بما يورد عليهم من الدلايل واعتدنا اي والحال انا اعتدنا
اي هيانا من العظمة لمن كذب هولا وغيرهم بالساعة سعيرا اي نارا شديدة
الاتقاد بما اعطوا الحريق في قلوب من كذبوهم من الانبيا واتباعهم وعن
الحسن ان السعير اسم من اسما جهنم تنبيه احتج اهل السنة على ان الجنة
مخلوقة بقوله تعالى للمتقين وعلى ان النار التي هي دار العقاب مخلوقة بهذه الاية
اذا راتهم من مكان بعيد وهو اقصى ما يمكن رويتها منه وقال الكلبي والسدي
من مسيرة عام وقيل من مسيرة ماية سنة روي انه صلى الله عليه وسلم
قال من كذب علي متعمدا فليتبوا بين عيني جهنم مقعدا قالوا وهل لها
من عينين قال نعم الم تسمع قوله تعالى اذا راتهم من مكان بعيد وقال البيضاوي
تبعا للزمخشري اذا كانت بمراي منهم كقوله عليه السلام لا ترا انارهما
لا يتراايا بحيث تكون احداهما بمراي من الاخرى على المجاز انتهى هذا تاويل للمعتزلة
بنا منهم على ان الروية مشروطة بالحياة بخلاف الاشاعرة فانهم يجوزون
رويتها كغيظها وزفيرها في قوله تعالى سمعوا لها تغيظا اي غليانا كالغضبان
اذا غلى صدره من الغضب وزفيرا اي صوتا شديدا اذ لا امتناع في ان
تكون زايية مغتاظة زافرة واشار البيضاوي الى ذلك بعد ما ذكر بقوله

هذا



هذا وان الحياة لما لم تكن مشروطة عندنا بالبنية امكن ان يخلق فيها حياة فترى
وتتغيظ وتزفر وقال الجلال المحلي وسماع التغيظ رويته وعلمه اهـ وقال
عبد الله بن عمير ان جهنم يوم القيمة زفرة فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل
الا خر لوجهه وقيل اذا راتهم زبانيتها تغيظوا وزفروا غضبا على الكفار
وشهوة للانتقام منهم نسب اليها على حذف المضاف واذا القوا اي طرح
طرح اهانة منها اي النار مكانا ثم وصفه تعالى بقوله تعالى ضيقا زيادة
في فظاعتها قال ابن عباس يضيق عليهم كما يضيق الزج في الرمح مقرنين
اي مصفدين قرنت ايديهم الى اعناقهم في الاغلال وقد قيل الكرب مع
الضيق كما ان الروح مع السعة ولذلك وصف تعالى الجنة بان عرضها السموات
والارض وجا في حديث ان لكل مومن من القصور والجنان كذا وكذا ولقد
جمع الله على اهل النار انواع الضيق والارهاق حيث القاهم في مكان ضيق
يتراصون فيه تراصا كما مر عن ابن عباس انه يضيق عليهم كما يضيق الزج
في الرمح وهو منقول ايضا عن ابن عمر وسيل النبي صلى الله عليه وسلم
عن ذلك فقال والذي نفسي بيده انهم يستكرهون في النار كما يستكره
الوتد في الحايط وهم مع ذلك مسلسلون مقرنون في السلاسل قرنت
ايديهم الى اعناقهم وقيل يقرن مع كل كافر شيطانه في سلسلة في ارجلهم
تنبيه مكانا منصوب على الظرف ومنها في محل نصب على الحال من مكانا
لانه في الاصل صفة له ومقرنين حال من مفعول القوا وقرا ابن كثير ضيقا
بسكون اليا والباقون بكسر اليا مشددة دعوا هنالك اي في ذلك المكان
البغيض البعيد عن الرفق ثبورا قال ابن عباس ويلا وقال الضحاك
هلاكا فيقولون واثبوراه هذا حينك وزمانك لانه لا منادم لهم غيره
وليس يحضر احدا منهم سواه قال البغوي وفي الحديث ان اول من يكسى
حلة من النار ابليس فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه وذريته من
خلفه وهو يقول واثبوراه وهم ينادون يا ثبورهم حتى يقفوا على النار
فيقال لهم لا تدعوا اليوم ايها الكفار ثبورا واحدا لانكم لا تموتون اذا
حلت بكم اسباب الهلاك وادعوا ثبورا كثيرا اي هلاككم اكثر من ان تدعوا
مرة واحدة وادعوا ادعية كثيرة وقال الكلبي نزل هذا كله في ابي جهل والكفار
الذين ذكروا تلك الشبه ولما وصف تعالى العقاب المعد للمكذبين بالساعة
اتبعه بما يوكد الحسرة والندامة بقوله تعالى قل اي لهولا البعدا
البغضا اذلك اي المذكور من الوعيد وصفة النار خيرام جنة الخلد
اي الاقامة الدايمة التي وعد المتقون اي وعدها الله تعالى لهم فالرا
الى الموصول وهو ها محذوف اي وعدها فان قيل كيف يقال العذاب
خيرام جنة الخلد وهل يجوز ان يقول القايل السكر احلى ام الصبر

نخة

جع

أجيب بانها تحسن في معرض التقريع مما اذا اعطى السيد عبده مالا فتمرد وابى
واستكبر فضربه فيقول له هذا خير ام ذلك قال ابو مسلم جنة الخلد
هي التي لا ينقطع نعيمها والخلد والخلود سوا كالشكر والشكور قال تعالى لا نريد
منكم جزاء ولا شكورا فان قيل الجنة اسم لدار الخلد فاي فايدة في قوله تعالى
جنة الخلد اجيب بان الاضافة قد تكون للتبيين وقد تكون لبيان صفة
الكمال كقوله تعالى الله الخالق الباري وهذا من هذا البيان او للتمييز عن جنات
الدنيا ثم حقق تعالى امرها تاكيدا للبشارة بقوله تعالى كانت لهم جزاء اي ثوابا
على اعمالهم بفضل الله وكرمه ومصيرا اي مرجعا فان قيل ان الجنة ستصير
للمتقين جزاء ومصيرا لكنها بعد ما صارت كذلك فلم قال الله تعالى كانت اجيب
من وجهين الاول اي ما وعد الله تعالى فهو في تحققه كالواقع الثاني انه
كان مكتوبا في اللوح المحفوظ قبل ان يخلقهم الله تعالى بازمنة متطاولة ان
الجنة جزاؤهم ومصيرهم فان قيل لم جمع تعالى بين الجزاء والمصير اجيب
بان ذلك كقوله تعالى نعم الثواب وحسنت مرتفقا فمدح الثواب
ومكانه كما قال بئس الشراب وساءت مرتفقا فذم العقاب ومكانه
لان النعيم لا يتم للمتنعم الا بطيب المكان وسعته وموافقته للمراد والشهوة
والا انتقص وكذلك العقاب يتضاعف بقباحة الموضع وضيقه
وظلمته فلذلك ذكر المصير مع ذكر الجزاء تنبيه التقي يشمل من اتقى
الكفر وان لم يتق المعاصي وان كان غيره اكمل ثم ذكر تعالى نعيمهم فيها بعد
ان ذكر نعيمهم بقوله تعالى لهم فيها اي الجنة ما يشاؤن من كل ما
تشتهيه انفسهم كما قال تعالى ولكم فيها ما تشتهي انفسكم وفيها
ما تشتهي الانفس فان قيل اهل الدرجات النازلة اذا شاهدوا الدرجات
العالية لابد وان يريدوها فاذا سألوها ربهم فان اعطاها لهم لم يبق فرق
بين الناقص والكامل تفاوت في الدرجة وان لم يعطها لهم قدح ذلك في قوله
تعالى لهم فيها ما يشاؤن اجيب بان الله تعالى يزيل هذا الخاطر عن قلوب
اهل الجنة ويشتغلون بما هم فيه من اللذات عن الالتفات الى حال غيرهم وقوله
تعالى خالدين منصوب على الحال اما من فاعل ما يشاؤن واما من فاعل
لهم لوقوعه خبرا او العايد على ما محذوف لهم فيها الذي يشاؤنه حال كونهم خالدين
وقوله تعالى كان على ربك اي وعدهم ما ذكر وعدا يدل على ان الجنة جعلت
بحكم التفضل الوعد لا بحكم الاستحقاق وقوله تعالى مسؤلا اي
مطلوبا اختلف في السايل والاكثر على ان المؤمنين سألوا ربهم في الدنيا حين
قالوا ربنا واتنا ما وعدتنا على رسلك روي انه صلى الله عليه وسلم قال ما منكم
من يدعو بدعوة ليس فيها اسم ولا قطيعة رحم الا اعطاه بها احدى ثلاث
اما ان يعجل له دعوته واما ان يدخرها له في الاخرة واما ان يصرف عنه من السوء

مثلها

مثلها قالوا اذا نكثر قال الله اكثر ويروى انه يدعى بالمؤمن يوم القيامة حتى
يوقفه تعالى بين يديه فيقول عبدي اني امرتك ان تدعوني ووعدتك ان
استجيب لك فهل كنت تدعوني فيقول نعم يا رب فيقول اما انك لم تدعني
بدعوة الا استجبت لك اليس دعوتني يوم كذا وكذا لغم نزل بك ان
افرج عنك ففرجت عنك فيقول نعم يا رب فيقول اني عجلتها لك في الدنيا
ودعوتني يوم كذا وكذا لغم نزل بك ان افرج عنك فلم تر فرجا قال نعم يا رب
فيقول اني ادخرت لك بها في الجنة كذا وكذا قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم فلا يدع الله دعوة دعا بها عبده المؤمن الا بين
لها اما ان يكون عجل له في الدنيا واما ان يكون ادخر له بها في الاخرة فيقول
المؤمن في ذلك المقام يا ليته لم يكن عجل له شيء من دعائه وروي لا تعجلوا في
الدعاء فانه لا يهلك مع الدعاء احد وروي ادعوا الله وانتم موقنون بالاجابة
وروي يستجاب لاحدكم ما لم يعجل يقول دعوت فلم يستجب لي وروي
لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع باثم او قطيعة رحم وما لم يستعجل قيل
يا رسول الله ما الاستعجال قال يقول قد دعوت فلم يستجب لي فيستحسر
او يمل عند ذلك ويدع الدعاء فليدع الانسان وهو موقن بالاجابة وقال
محمد بن كعب القرظي الطلب من الملائكة للمؤمنين بقولهم ربنا وادخلهم جنات — سالوا ربهم للمؤمنين ح
عدن التي وعدتهم وقيل ان المكلفين سألوه بلسان الحال لانهم لما تحملوا
المشقة الشديدة في طاعة الله كان ذلك قائما مقام السؤال قال المتنبي
وفي النفس حاجات وفيك فطانة ۞ سكوتي كلام عندها وخطاب ۞
ولما ذكر تعالى حالهم في الساعة معه اتبعه ذكر حالهم مع معبوداتهم من
دون الله تعالى فقال تعالى ويوم اي واذكر لهم يوم يحشرهم اي المشركين
وقرأ ابن كثير وحفص بالياء والباقون بالنون واختلف في المراد بقوله
تعالى وما يعبدون من دون الله اي غيره فقال الاكثرون من الملائكة والجن
والمسيح وعزير وغيرهم وقال عكرمة والضحاك والكلبي من الاصنام
فقيل لهم كيف يخاطب الله الجماد بقوله تعالى فيقول أأنتم اضللتم عبادي هؤلاء
اي اوقعتموهم في الضلال بامركم اياهم بعبادتكم ام هم ضلوا السبيل اي
اي طريق الحق بانفسهم فاجابوا بوجهين احدهما ان الله تعالى يخلق الحياة
فيها ويخاطبها الثاني ان يكون ذلك بالكلام النفساني لا بالقول اللساني
بل بلسان الحال كما ذكره بعضهم في تسبيح الجماد والايدي والارجل
ويجوز ان يكون السؤال عاما لهم جميعا فان قيل كيف صح استعمال
ما في العقلاء اجيب على الاول بانه اريد به الوصف كانه قيل ومعبوديهم
الا تراك تقول اذا اردت السؤال عن صفة زيد ما زيد اطويل ام قصير
افقيه ام طبيب وقال تعالى والسماء وما بناها ولا انتم عابدون ما اعبد

واما على القول فواضح واما على القول الثالث فلتغير العاقل لغلبة عباده او تحقيرًا
فان قيل ما فايدة هذا السؤال مع انه تعالى كان عالما في الازل بحال المسؤل عنه
اجيب بان هذا سؤال تقريع للمشركين كما قيل لعيسى عليه السلام أانت
قلت للناس اتخذوني وامي الهين من دون الله وقرا فيقول ابن عامر بالنون والباقون
بالياء وقرا أانتم نافع وابن كثير بتسهيل الثانية ولا الف بينها وبين الاولى
ولورش وجه آخر وهو ابدال الثانية الفا وهشام بتسهيل الثانية وتحقيقها
مع الادخال والباقون بتحقيقهما قالوا سبحانك اي تنزيها لك عما لا يليق بك
او تعجبا مما قيل لهم لانهم اما ملايكة او انبيا معصومون فما ابعدهم عن الاضلال
الذي هو مختص بابليس وجنوده او جمادات وهي لا تقدر على شي او اشعار
بانهم الموسومون بتسبيحه وتحميده فكيف يليق بهم اضلال لعبيده ما كان
ينبغي اي يستقيم لنا ان نتخذ اي نتكلف ان ناخذ باختيارنا من غير ارادة
منك من دونك اي غيرك من اولياء للعصمة او لعدم القدرة فكيف
يستقيم لنا ان نامر بعبادتنا فان قيل ما فايدة انتم وهم وهلا قيل
قيل اضللتم عبادي هولاء ام هم ضلوا السبيل اجيب بان
السؤال على الفعل ووجوده لانه لولا وجوده لما توجه هذا العتاب وانما
هو عن متوليه فلا بد من ذكره وايلايه حرف الاستفهام لانه المسؤل عنه
تنبيه من اوليا مفعول اول ومن زايدة لتاكيد النفي وما قبله المفعول
الثاني ولما تضمن كلامهم انا لم نضلهم ولم نحملهم على الضلال حسن الاستدراك
بقولهم ولكن متعتهم وآباءهم وهو ان ذكروا سببه اي انعمت عليهم
وعلى آبائهم من قبلهم بانواع النعم والصحة وطول العمر في الدنيا فجعلوا
ذلك ذريعة الى اضلالهم عكس المقصد حتى نسوا الذكر اي تركوا الايمان
بالقران وقيل تركوا ذكرك وغفلوا عنه وكانوا اي في علمك بما قضيت عليهم
في الازل قوما بورا اي هلكى وهو مصدر وصف به ولذلك يستوي
فيه الواحد والجمع او جمع باير كعايذ وعوذ وقوله فقد كذبوكم فيه
التفات الى العبدة بالاحتجاج والالزام على حذف القول والمعنى فقد
كذب العابدين المعبودين بما اي بسبب ما تقولون اي انها الالهة
من انهم يستحقون العبادة وانهم يشفعون لكم وانهم اضلوكم ولما
تسبب عن تخليهم عن عبدتهم انهم لا نفع في ايديهم ولا ضر قال تعالى
فما تستطيعون اي المعبودون صرفا اي لشي من الاشياء عن احد
من الناس لا انتم ولا غيركم من عذاب ولا غيره بوجه حيلة ولا شفاعة
ولا مفاداة ولا نصرا اي منعا لكم من الله ان اراد بكم سوءا وهذا الكثير
قوله تعالى لا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا وقرا حفص بالتاء على
الخطاب والباقون بالياء الغيبة ومن يظلم منكم اي بالشرك ايها المكلفون

نذقه

نذقه بما لنا من العظمة عذابا كبيرا اي شديدا في الدنيا بالقتل والاسر وضرب
الجزية وفي الاخرة بنار جهنم روي الضحاك عن ابن عباس انه قال لما عير المشركون
رسول الله صلى الله عليه وسلم بقولهم مال هذا الرسول الى اخره انزل الله
تعالى وما ارسلنا قبلك اي يا اشرف الخلق احدا من المرسلين الا وحالهم
انهم ليأكلون الطعام كما تاكل ويأكل غيرك من الادميين ويمشون
في الاسواق كما تفعل فهي عادة مستمرة من الله تعالى في كل رسله وهم يعلمون
ذلك بالسماع من اخبارهم وهذا تاكيد من الله تعالى لا يكذبونه
صلى الله عليه وسلم وقيل معنى الاية وما ارسلنا قبلك من المرسلين الا
قيل لهم مثل هذا انهم يأكلون الطعام ويمشون في الاسواق كما قال
تعالى في موضع اخر ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك وجعلنا
اي بالعطا والمنع بما لنا من العظمة بعضكم ايها الناس لبعض فتنة اي بلية
والمعنى انه تعالى ابتلى المرسلين بالمرسل اليهم ومناصبتهم لهم العداوة
وباقوالهم الخارجة عن حد الانصاف وجعل الغني فتنة للفقير والصحيح
فتنة للمريض والشريف فتنة للوضيع يقول الثاني في كل مالي لا اكون
مثل الاول وقال ابن عباس جعلت بعضكم بلاء لبعض لتصبروا على ما تسمعون
منهم وترون من خلافهم وتتبعوا الهدى وقال مقاتل نزلت هذه
الاية في ابي جهل والوليد بن عقبة والعاص بن وايل والنضر بن الحارث وذلك
انهم رأوا ابا ذر وابن مسعود وعمارا وبلالا وصهيبا وعامر بن فهيرة
وذويهم قد اسلموا قبلهم فقالوا انسلم ونكون مثل هولاء وقيل جعلناك
فتنة لهم لانك لو كنت غنيا صاحب كنوز وجنات لكان ميلهم اليك وطاعتهم
لك للدنيا او ممزوجة بالدنيا فانما بعثناك فقيرا لتكون طاعة من يطيعك
خالصة لوجه الله تعالى من غير طمع دنيوي وقوله تعالى اتصبرون اي على
ما تسمعون مما ابتليتم به استفهام بمعنى الامر اي اصبروا وكان ربك اي
المحسن اليك احسانا لم يحسنه الى احد سواك لا سيما بجعلك نبيا عبدا
بصيرا اي بكل شي وهو عالم بالامتحان قبل الامتحان لم يفده ذلك
علما لم يكن عنده ونحن نعلم ذلك علم شهادة كما يعلم علم غيب لتقوم عليهم
الحجة بذلك فلا يضيقن صدرك ولا تستخفنك اقاويلهم فان في صبرك
عليها سعادتك وفوزك في الدارين روي انه صلى الله عليه وسلم
قال اذا نظر احدكم الى من فضل عليه في المال والجسم فلينظر الى من
هو دونه في المال والجسم وروي انظروا الى من هو اسفل منكم ولا
تنظروا الى من هو فوقكم حذرا ان لا تزدروا نعمة الله عليكم الشبهة
الرابعة لمنكري محمد صلى الله عليه وسلم قوله تعالى وقال الذين لا يرجون لقاءنا
اي لا يخافون البعث قال الفرا الرجا بمعنى الخوف لغة تهامة ومنه

قوله تعالى ما لكم لا ترجون لله وقارا اي لا تخافون لله عظمة لولا اي هلا ولم
لا انزل اي على اي وجه كان من اي منزل كان علينا الملائكة كما انزلت عليه
فيما يزعم فكانوا رسلنا الينا او مخبرنا بما يصدقه او نرى ربنا بما له علينا من
الاحسان وما لنا نحن من العظمة والقوة بالاموال وغيرها فيامرنا بما يريد من غير
حاجة الى واسطة قال الله تعالى ردا عليهم لقد استكبروا اي تعظموا
في شان انفسهم اي اضمروا الاستكبار عن الحق وهو الكفر والعناد
في قلوبهم واعتقدوه كما قال تعالى ان في صدورهم الا كبر ما هم
ببالغيه وعتوا اي تجاوزوا الحد في الظلم عتوا كبيرا اي بالغا اقصى
مراتبه حيث عاينوا المعجزات الظاهرة فاعرضوا عنها واقترحوا لانفسهم
الخبيثة ما سدت دونه مطامح النفوس القدسية واللام جواب قسم
محذوف وفي فحوى هذا الفعل دليل على التعجب من غير لفظ التعجب
الا ترى ان المعنى ما اشد استكبارهم وما اكبر عتوهم ثم بين تعالى
لهم حالهم عند بعض ما طلبوا بقوله تعالى يوم يرون الملائكة اي يوم
القيمة وقال ابن عباس عند الموت لا بشرى اي من البشر اصلا
يومئذ وقوله تعالى للمجرمين اي الكافرين اما ظاهر في موضع ضمير
واما لانه عام فقد تناولهم بعمومه بخلاف المومنين فلهم البشرى
بالجنة تنبيه في نصب يوم اوجه احدها انه منصوب باضمار فعل
يدل عليه قوله تعالى لا بشرى اي يمنعون البشرى يوم يرون الثاني
باذكر فيكون مفعولا به الثالث يعذبون مقدرا ولا يجوز ان يعمل فيه
نفس البشرى لوجهين احدهما انها مصدر والمصدر لا يعمل فيما
قبله والثاني انها منفية بلا وما بعد لا لا يعمل فيما قبلها وقوله تعالى
ويقولون اي في ذلك الوقت حجرا محجورا عطف على المدلول اي
ويقولون الكفرة هذه الكلمة استعاذة وطلبا من الله تعالى ان يمنع
لقاء الملائكة عنهم مع انهم كانوا يطلبون نزول الملائكة ويقترحونه
وهم اذا راوهم عند الموت اي يوم القيمة كرهوا لقاءهم وفزعوا
منهم لانهم لا يلقونهم الا بما يكرهون وقالوا عند رؤيتهم ما كانوا يقولونه
عند لقاء العدو والشدة النازلة او نحو ذلك حجرا محجورا يضعونها موضع
الاستعاذة منهم يقولون ذلك اذا عاينوا الملائكة قال سيبويه
يقول الرجل للرجل تفعل كذا وكذا فيقول حجرا وهي من حجره اذا منعه لان
المستعيذ طالب من الله تعالى ان يمنع المكروه عنه فلا يلحقه وكان
المعنى اسال الله ان يمنع ذلك منعا ويحجره حجرا وقال ابن عباس تقول
الملائكة حراما محرما ان يدخل الجنة الا من قال لا اله الا الله وقيل
اذا خرج الكفار من قبورهم تقول لهم الملائكة حرام محرم عليكم ان تكون

لكم البشرى ولما كان المريد لابطال شيء لشدة كراهته له لا يقنع في ابطاله
بغيره بل ياتيه بنفسه فيبطله عبر تعالى بقوله تعالى وقدمنا بما لنا من
القدرة الباهرة في ذلك اليوم الذي يرون فيه الملائكة سواء كان في الدنيا ام في
الاخرة الى ما عملوا من عمل اي من مكارم الاخلاق من الجود وصلة الرحم واغاثة
الملهوف ونحو ذلك فجعلناه لكونه لم يوسس على الايمان وانما هو للهوى والشيطان
هباء وهو ما يرى في شعاع الشمس الداخل من كوة مما يشبه الغبار
منثورا اي مفرقا اي مثله في عدم النفع اذ لا ثواب فيه لعدم شرطه ويجازون
عليه في الدنيا فتكون النار مستقرهم ومقيلهم ولهذا بين حال اضدادهم
وهم المومنون بقوله تعالى اصحاب الجنة يومئذ اي يوم اذ يرون الملائكة
خير مستقرا اي من الكفار واحسن مقيلا منهم والمستقر المكان الذي يكونون
فيه في اكثر اوقاتهم مستقرين يتجالسون ويتحادثون والمقيل المكان الذي
ياوون اليه للاسترواح الى ازواجهم والتمتع بمغازلتهن وملامستهن
كما ان المترفهين في الدنيا يعيشون على ذلك الترتيب روي انه يفرغ من
الحساب في نصف ذلك اليوم فيقيل اهل الجنة في الجنة واهل النار في النار
وقال ابن عباس في هذه الاية الحساب في ذلك اليوم في اوله وقال يوم
القيمة يقصر على المومنين حتى يكون كما بين العصر الى غروب الشمس تنبيه
في افعل هاهنا قولان احدهما انها على بابها من التفضيل والمعنى ان المومنين
خير في الاخرة مستقرا من مستقر الكفار واحسن مقيلا من مقيلهم لو فرض
ان يكون لهم ذلك او على انهم خير في الاخرة منهم في الدنيا والثاني ان يكون
لمجرد الوصف من غير مفاضلة وفي معنى ذلك قوله تعالى ان اصحاب الجنة اليوم في
شغل فاكهون هم وازواجهم في ظلال على الارائك متكئون ذكروا في تفسير
الشغل افتضاض الابكار وانما سمي مكان دعتهم واستراحتهم الى الحور مقيلا
مع انه لا نوم في الجنة على سبيل التشبيه ثم عطف تعالى على قوله يوم يرون
قوله تعالى ويوم تشقق السماء اي كل سماء بالغمام اي كما تشقق الارض
بالنبات فيخرج من خلال شقوقها وهو غيم ابيض رقيق مثل الضبابة ولم يكن
الا لبني اسرائيل في تيههم تنبيه في هذه الباء ثلاثة اوجه احدها انها
سببية اي بسبب الغمام يعني بسبب طلوعه منها ونحوه السماء منفطر به
كانه الذي تنشق به السماء الثاني انها للحال اي ملتبسة بالغمام الثالث انها
بمعنى عن اي عن الغمام كقوله تعالى يوم تشقق الارض عنهم سراعا والباء
وعن يتعاقبان تقول رميت عن القوس ورميت بالقوس وقرا ابو عمرو والكوفيون
بتخفيف الشين والباقون بتشديدها ثم اشار تعالى الى جهل من طلب

نزول الملائكة دفعة واحدة بقوله تعالى **ونزل الملائكة تنزيلا** اي بالتدريج بامر ربهم
لا يمكنهم التخلف عنه بامر من الامور ولغيرهم من الذين طلبوا ان يروهم في حال واحد
تنزيلا اي وبايديهم صحايف الاعمال قال ابن عباس تنشق السما الدنيا
فينزل اهلها وهم اكثر ممن في الارض من الجن والانس ثم تنشق السما الثانية
فينزل اهلها وهم اكثر من اهل سما الدنيا واهل الارض جنا وانسا ثم كذلك حتى
تنشق السماء السابعة واهل كل سما يزيدون على اهل السما التي
قبلها ثم ينزل الكروبيون ثم حملة العرش فان قيل ثبت ان نسبة الارض
الى السما الدنيا كحلقة في فلاة فكيف يسع الارض هولاء اجاب بعض المفسرين
بان الملائكة تكون في الغمام والغمام يكون في مقر الملائكة ويجوز ان الله تعالى
يوسع الارض حتى تسع الجميع وقرا ابن كثير بنونين الاولى مضمومة والثانية
ساكنة وتخفيف الزاي ورفع اللام ونصب الملائكة والباقون بنون واحدة
وشدة ورفع اللام ونصب الملائكة ثم بين تعالى ان ذلك اليوم لا يقضي فيه
غيره بقوله تعالى **الملك يومئذ** اذ تنشق السما بالغمام ثم وصف الملك
بقوله تعالى **الحق** اي الثابت ثباتا لا يمكن زواله ثم اخبر عنه بقوله
تعالى **للرحمن** اي العام الرحمة في الدارين ومن عموم رحمته وحقية ملكه
ان يسر قلوب اهل وده بتعذيب اهل عداوته الذين عادوهم فيه لتضييعهم
الحق باتباع الباطل ولولا اتصافه بالرحمة لم يدخل احد الجنة فان قيل
مثل هذا الملك لم يكن قط الا للرحمن فما الفائدة بقوله تعالى يومئذ
اجيب بان في ذلك اليوم لا مالك له سواه لا في الصورة ولا في المعنى
تخضع له الملوك وتعنو له الوجوه وتذل له الجبابرة بخلاف سائر الايام
وكان اي ذلك اليوم الذي تظهر فيه الملائكة الذين طلب الكفار رؤيتهم **يوما على
الكافرين عسيرا** اي شديد العسر والاستعسار تنبيه هذا الخطاب
يدل على انه لا يكون على المومنين عسيرا جاء في الحديث انه يهون يوم القيامة على
المومن حتى يكون اخف عليه من صلاة مكتوبة صلاها في الدنيا وقوله تعالى
ويوم يعض الظالم اي المشرك لفرط تاسفه لما يرى فيه من الاهوال معمول
لمحذوف او معطوف على يوم تنشق وال في الظالم يحتمل العهد والجنس لكن قال
ابن عباس اراد بالظالم عقبة بن ابي معيط بن امية بن عبد شمس كان لا يقدم من
سفر الا صنع طعاما ودعا اليه جيرانه واشراف قومه وكان يكثر مجالسة النبي
صلى الله عليه وسلم فلما قرب الطعام قال النبي صلى الله عليه وسلم ما انا باكل
طعامك حتى تشهد ان لا اله الا الله واني رسول الله فقال عقبة اشهد ان
لا اله الا الله واشهد ان محمدا رسول الله فاكل صلى الله عليه وسلم من طعامه وكان

عقبة

عقبة صديقا لابي بن خلف فلما اتى ابي بن خلف قال يا عقبة صبات قال لا والله ما صبات
ولكن دخل علي رجل فابى ان ياكل طعامي الا ان اشهد له فاستحييت ان يخرج من بيتي
ولم ياكل طعامي فشهدت له فطعم والشهادة ليست في نفسي فقال ما انا بالذي
ارضى منك ابدا الا ان تاتيه وتبصق في وجهه وتطا قفاه وتلطم عينه
فوجده ساجدا في دار الندوة ففعل ذلك عقبة فقال صلى الله عليه وسلم
لا القاك خارجا عن مكة الا علوت راسك بالسيف فقتل عقبة يوم بدر صبرا
امر عليا رضي الله عنه فقتله وقيل عاصم بن ثابت بن اقلح الانصاري واما ابي بن خلف
فقتله النبي صلى الله عليه وسلم بيده يوم احد طعنه في المبارزة فرجع الى مكة ومات
قال الضحاك لما بصق عقبة في وجه النبي صلى الله عليه وسلم عاد بصاقه في
وجهه فاحترق خداه فكان اثر ذلك في وجهه حتى مات وقال الشعبي
كان عقبة خليل امية فاسلم عقبة فقال امية وجهي من وجهك حرام ان تابعت
محمدا فكفر وارتد فانزل الله تعالى ويوم يعض الظالم اي عقبة **على يديه** قال
الضحاك ياكل يديه الى المرفق ثم تنبت ولا يزال هكذا كلما اكلها نبتت وقال
المحققون هذه اللفظة للتحسر والغم يقال عض انامله وعض على يديه وهو بشر
حال كونه مع هذا الفعل **يقول** اي يجدد في كل لحظة قوله **يا ليتني اتخذت**
اي ارغمت نفسي وكلفتها ان آخذ في الدنيا **مع الرسول** اي محمد صلى الله
عليه وسلم **سبيلا** اي طريقا الى الهدى ولما تاسف على مجانبة الرسول
ندم على مصادقة غيره بقوله **يا ويلتى** اي يا هلاكي الذي ليس لي منه مناص
غيره لانه ليس بحضرتي سواه **ليتني لم اتخذ فلانا خليلا** اي ابيا خليلا اي صديقا
او قرينا في اعماله لما علم من سوء عاقبتها فكنى عن اسمه وان اريد به الجنس فكل من
اتخذ من المضلين خليلا كان لخليله اسم علم لا محالة فجعله كناية عنه وقرا ابو
بكر بفتح الياء والباقون بالسكون واظهر الذال عند التاء ابن كثير وحفص
وادغمها الباقون ثم استانف قوله الذي يتوقع كل سامع ان يقوله **لقد**
اي والله لقد **اضلني عن الذكر** اي عمى علي طريق القران الذي لا ذكر في الحقيقة
غيره وصرفني عنه والجملة في موضع العلة لما قبلها **بعد اذ جاءني** ولم يكن لي
منه مانع ردني عن الايمان به وقرا نافع وابن ذكوان وعاصم باظهار الذال والباقون
بالادغام وقوله تعالى **وكان الشيطان** اشارة الى الخليل سماه شيطانا
لانه اضله كما يضل الشيطان او الى كل من كان سببا في الضلال من عتاة
الجن والانس **للانسان خذولا** اي شديد الخذلان يورده ثم يسلمه
الى اكره ما يكون لا ينصره ولو اراد ما استطاع بل هو في شر من ذلك
لان عليه اثمه في نفسه ومثل اثم من اضله تنبيه حكم هذه الاية

نام في كل خليلين او متحابين اجتمعا على معصية الله تعالى قال صلى الله عليه
وسلم مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك
اما ان يحذيك واما ان تبتاع منه واما ان تجد ريحا طيبة ونافخ الكير اما ان
يحرق ثيابك واما ان تجد ريحا خبيثة وقال صلى الله عليه وسلم المرء على دين خليله
فلينظر احدكم من يخالل وقال صلى الله عليه وسلم لا تصاحب الا مومنا ولا
ياكل طعامك الا تقي ولما ذكرت اقوال الكفارة كرقول رسوله محمد صلى الله عليه
وسلم بقوله تعالى وقال الرسول يا رب اي ايها المحسن الي بانواع الاحسان وعبر
باداة البعد هضما لنفسه ومبالغة في التضرع ان قومي اي قريشا الذين
لهم قوة ومنعة اتخذوا هذا القرآن اي المقتضي للاجتماع عليه والمبادرة اليه
مهجورا اي متروكا بعيدا لم يؤمنوا به ولم يتقبلوه واعرضوا عن استماعه
تنبيه اشار بصيغة الافتعال الى انهم عالجوا انفسهم في تركه علاجا
كثيرا لما يرون من حسن نظمه وبديع فنونه من لذيذ معانيه ورايق اساليبه
ولطيف عجايبه وبديع غرايبه واكثر المفسرين على ان هذا القول وقع من النبي
صلى الله عليه وسلم وقال ابو مسلم بل المراد انه يقوله في الاخرة كقوله تعالى
فكيف اذا جينا من كل امة بشهيد الاية والاول اولى لان قوله تعالى وكذلك
اي كما جعلنا لك عدوا من مشركي قومك جعلنا لكل نبي من الانبيا قبلك رفعة
لدرجاتهم عدوا من المجرمين اي المشركين تسلية له صلى الله عليه وسلم كانه
تعالى يقول له اصبر كما صبروا ولا يكون ذلك الا اذا وقع القول منه وكفى بربك
اي المحسن اليك هاديا اي يهدي بك من قضي بسعادته ونصيرا اي ينصرك
على من حكم بشقاوته تنبيه احتج اهل السنة بهذه الاية على انه تعالى
خلق الخير والشر في قوله لكل نبي عدوا يدل على ان تلك العداوة من جعل
الله تعالى وتلك العداوة كفر فان قيل قوله تعالى وقال الرسول يا رب
ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا كقول نوح عليه السلام رب اني دعوت
قومي ليلا ونهارا فلم يزدهم دعاءي الا فرارا فكان المقصود من هذا انزال العذاب
فكذلك ما هنا فكيف يليق هذا بمن وصفه الله تعالى بالرحمة في قوله وما ارسلناك
الا رحمة للعالمين اجيب بان نوحا عليه السلام لما ذكر ذلك دعا عليهم واما النبي
صلى الله عليه وسلم لما ذكر هذا لم يدع عليهم بل انتظر فلما قال تعالى وكذلك
جعلنا لكل نبي عدوا فكان ذلك كالامر له بالصبر على ذلك وترك الدعا عليهم فترقا
الشبهة الخامسة لمنكري النبوة ما حكاه الله تعالى عنهم بقوله تعالى
وقال الذين كفروا اي غطوا اعداوة وحسدا ما تشهد عقولهم بصحته من ان
القرآن كلام الله لاعجازه لهم مفرقا فضلا عن كونه مجتمعا لولا اي هلا

نزل عليه القرآن اي انزل الخبر بمعنى اخبر ليلايناقض قولهم جملة واكدوا بقولهم
واحدة اي من اوله الى اخره كما انزلت التوراة على موسى والانجيل على عيسى والزبور
على داوود عليهم السلام تحقق انه من عند الله ويزول عنا ما نتوهمه من انه هو الذي
يرتبه قليلا قليلا وهذا الاعتراض في غاية السقوط لان الاعجاز لا يختلف
بنزوله جملة او متفرقا مع ان للتفريق فوايد منها ما اشار اليه تعالى بقوله تعالى
لنثبت اي انزلناه شيئا فشيئا على هذا الوجه المعظم الذي انكروه كذلك
اي نقوي به فوادك اي قلبك فتعيه وتحفظه لان المتلقن انما يقوي قلبه
على حفظ العلم شيئا بعد شي جزا عقب جزء ولو القي عليه جملة واحدة لتعيا
بحفظه والرسول صلى الله عليه وسلم فارقت حاله حال داوود وموسى وعيسى حيث
كان اميا لا يقرا ولا يكتب وهم كانوا قاريين كاتبين فلم يكن له بد من التلقن والتحفظ
فانزل عليه منجما في عشرين سنة وقيل في ثلاث وعشرين سنة وايضا كان
ينزل على حسب الحوادث وجوابات السايلين ولان بعضه منسوخ وبعضه
ناسخ ولا يتاتى ذلك الا فيما انزل مفرقا فان قيل ذلك في كذلك يجب ان يكون
اشارة الى شي تقدمه والذي تقدم هو انزاله جملة فكيف فسر بكذلك
انزلناه مفرقا بان الاشارة الى الانزال مفرقا لا الى جملة والدليل على فساد
هذا الاعتراض ايضا انهم عجزوا ان ياتوا بنجم واحد من نجومه وتحدوا بسورة
واحدة من اقصر السور فابرزوا صفحة عجزهم وسجلوا به على انفسهم حتى لاذوا بالمناصبة
وفزعوا الى المجادلة ثم قالوا هلا انزل جملة واحدة كانهم قدروا على تفاريقه حتى
قدروا على جملته وقوله تعالى ورتلناه ترتيلا معطوف على الفعل الذي تعلق
به كذلك كانه قال تعالى كذلك فرقناه ورتلناه ومعنى ترتيله قال ابن عباس
بيناه بيانا والترتيل التبيين في ترسل وتثبت وقال السدي فصلناه
تفصيلا وقال مجاهد بعضه في اثر بعض وقال الحسن تفريقا اية
بعد اية ووقفة عقب وقفة ويجوز ان يكون المعنى وامرنا بترتيل قراءته وذلك
قوله تعالى ورتل القرآن ترتيلا اي اقراه بترسل وتثبت ومنه حديث عايشة
في صفة قراءته لا كسردكم هذا لو اراد السامع ان يعد حروفه لعدها وقيل هو ان
نزله مع كونه متفرقا على تمكث وتمهل في مدة متباعدة وهي عشرون سنة
ولم تفرقه في مدة متقاربة ولما كان التقدير قد بطل ما اتوا به من هذا الاعتراض
عطف عليه ولا ياتونك يا اشرف الخلق اي المشركون بمثل اي باعتراض
في ابطال امرك يجعلون به العقول الضعفا يجتهدون في تنميقه وتحسينه
وتدقيقه حتى يصير عندهم في غاية الحسن والرشاقة لفظا ومعنى
الا جيناك في جوابه بالحق اي الذي لا محيد عنه فينزهق ما اتوا به

صبة

لبطلانه فسمّي ما يوردون من الشبه مثلاً وسمّي ما يدفع به الشبه حقاً واحسن
اي من مثلهم تفسيرا اي بيانا وتفصيلا ولما كان التفسير هو الكشف
عما يدل عليه الكلام وضع موضع معناه فقالوا تفسير هذا الكلام كيت وكيت
كما قيل معناه كذا وكذا ولا يأتونك بحال صفة عجيبة يقولون هلا كانت
هذه صفتك وحالتك نحو ان يقرن بك ملك ينذر معك او يلقى اليك كنز
او يكون لك جنة او ينزل عليك القرآن جملة واحدة الا اعطيناك
نحن من الاحوال ما يحق لك في حكمتنا ومشيئتنا ان نعطاه وما هو احسن
تكشيفا لما بعثت عليه ودلالة على صحته ثم بين حال هؤلاء المعاندين
في الاخرة بقوله تعالى الذين اي هم الذين يحشرون اي يجمعون
ويرامشين مقلوبين على وجوههم مسحوبين الى جهنم كما انهم لم
ينظروا في الدنيا بعين الانصاف فان الاخرة مرآة الدنيا مهما تمنا راه
هناك كما ان الدنيا مزرعة الاخرة مهما عمل فيها جني ثمره هناك روي البخاري
ان رجلا قال يا نبي الله يحشر الكافر على وجهه يوم القيمة قال الذي
امشاه على الرجلين في الدنيا قادر على ان يمشيه على وجهه يوم القيمة وروى
البيهقي يحشر الناس يوم القيمة على ثلاثة اصناف صنف على الدواب
وصنف على الوجوه وصنف على الاقدام ولما وصف تعالى المتقين في وصف
القرآن بهذا الوصف استأنف الاخبار عنهم بقوله تعالى اولئك اي
البعداء البغضاء شر اي شر الخلق اي شر الخلق مكانا هو جهنم واضل سبيلا
اي اخطأ طريقا من غيرهم وهو كفرهم قال تعالى وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا
من المجرمين وذكر تعالى ذلك في معرض التسلية له صلى الله عليه وسلم
ذكر قصص جماعة من الانبيا وعرفه تكذيب اممهم زيادة في تسليته
القصة الاولى قصة موسى عليه السلام المذكورة في قوله تعالى
ولقد اتينا بما لنا من العظمة موسى الكتاب اي التوراة وجعلنا معه
اخاه هرون وزيرا اي معينا فان قيل كونه وزيرا كالمنافي لكونه شريكاله
في النبوة والرسالة اجيب بانه لا منافاة بين النبوة والرسالة والوزارة
فقد كان يبعث في الزمن الواحد انبيا يومرون بان يوازر بعضهم بعضا
تنبيه هرون بدل او بيان او منصوب على القطع ووزيرا مفعول ثان
وقيل حال والمفعول الثاني معه ويدل على رسالة هرون عليه السلام
قوله تعالى فقلنا اذهبا الى القوم اي الذين فيهم قوة وقدرة على ما يحاولونه
وهم القبط فرعون وقومه الذين كذبوا باياتنا فذهبا اليهم بالرسالة
فكذبوهما فدمرناهم تدميرا اي اهلكناهم اهلاكا اي فانت يا محمد ليس

اول من كذب من الرسل فلك اسوة بمن قبلك فان قيل الفاء للتعقيب والاهلاك
لم يحصل عقب بعثة موسى وهرون اليهم بل بعد مدة مديدة اجيب
بان فاء التعقيب محمولة على هذا الحكم باهلاك على الوقوع او على انه على ارادة اختصار
القصة فاقتصر على حاشيتيها اولها واخرها لانهما المقصود من القصة بطولها
اعني الزام الحجة ببعثة الرسل واستحقاق التدمير بتكذيبهم تنبيه
قوله تعالى كذبوا باياتنا ان حملنا تكذيب الايات على الايات الالهية فهو ظاهر
وان حملناه على تكذيب ايات النبوة فاللفظ وان كان للماضي فالمراد به
المستقبل القصة الثانية قصة نوح عليه السلام المذكورة
في قوله تعالى وقوم اي ودمرنا قوم نوح لما كذبوا الرسل لانهم كذبوا نوحا ومن
قبله من الرسل صريحا او كان تكذيبهم لواحد منهم تكذيبا للجميع بالقوة لان
المعجزات هي البرهان على صدقهم وهي متساوية لا اقدام في كونها خوارق لا يقدر
على معارضتها فالتكذيب بشيء منها تكذيب للجميع او لم يروا بعثة الرسل اصلا
كالبراهمة وهم قوم يمنعون بعثة الرسل نسبوا الى رجل يقال له برهام قد مهد لهم
ذلك وقرره في عقولهم ولانهم عللوا تكذيبهم بانه من البشر فلزمهم تكذيب
كل رسول من البشر ثم بين تعالى تدميرهم بقوله تعالى اغرقناهم قال الكلبي
امطرنا عليهم من السما اربعين يوما واخرج ما الارض ايضا في تلك الاربعين
فصارت الارض بحرا واحدا وجعلناهم اي قوم نوح في ذلك للناس اية اي
لمن بعدهم عبرة ليعتبر كل من سلك طريقهم واعتدنا اي هيأنا في الاخرة للظالمين
اي الكافرين وكان الاصل لهم ولكنه تعالى اظهر تعميما وتعليقا للحكم بالوصف
عذابا اليما اي مولما سوى ما حل بهم في الدنيا القصة الثالثة
قصة هود عليه السلام المذكور في قوله تعالى وعادا اي ودمرنا عادا قوم هود
بالريح القصة الرابعة المذكورة في قوله تعالى وثمود اي ودمرنا ثمودا
قوم صالح بالصيحة القصة الخامسة المذكورة في قوله تعالى
واصحاب الرس اي البير التي هي غير مطوية اي مبنية قال ابن جرير
والرس في كلام العرب كل محفور مثل البير والقبر اي ودمرناهم بالخسف واختلف
في نبيهم فقيل شعيب وقيل غيره كانوا قعودا حولها فانهارت بهم وبمنازلهم
فهلكوا جميعا وقال الكلبي الرس بير بفلج اليمامة قتلوا نبيهم فاهلكهم
الله تعالى وفلج بفتح الفا واللام والجيم قرية عظيمة بناحية اليمن من مساكن
عاد وبسكون اللام واد قريب من البصرة وقيل الاخدود وقيل بير بانطاكية
قتلوا فيها حبيب النجار وقيل اصحاب حنظلة بن صفوان كانوا مبتلين بالعنقا
وهي اعظم ما يكون من الطير سميت بذلك لطول عنقها وكانت تسكن جبلهم

الذي يقال له فيح قيل بموتا فوقية بخا معجمة او مهملة وبيا تحتية وجيم وهي تنقض
على صبيانهم فتختطفهم ان اعوزها الصيد فدعا عليها حنظلة فاصابتها الصاعقة
ثم انهم قتلوه فاهلكوا وقرونا اي ودمرنا قرونا بين ذلك اي الامر العظيم
المذكور وهو بين كل اثنين من هذه الامم وقد يذكر الذاكر اشيا مختلفة ثم
يشير اليها بذلك ويحسب الحاسب اعدادا متكاثرة ثم يقول فذلك كيت
وكيت على معنى فذلك المحسوب او المعدود ثم قال كثيرا وناهيكم بما
يقول فيه سبحانه وتعالى كثيرا استدل البغوي في تفسير امة وسطا
في البقرة عن ابي سعيد الخدري قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم
يوما بعد صلاة العصر فما ترك شيا الى يوم القيمة الا ذكره في مقامه ذلك
حتى اذا كانت الشمس على رؤس النخل واطراف الحيطان فقال انه لم يبق في الدنيا
فيما مضى الا كما بقي من يومكم هذا الا وان هذه الامة توفي سبعين امة هي
اخرها واكرمها على الله عز وجل ثم انه تعالى قال تسلية لنبيه صلى الله عليه
وسلم وتأسية وبيانا لرتبته بالعفو عن امته وكلا اي من هذه الامم ضربنا
اي بينا له الامثال حتى وضح له السبيل وقام من غير شبهة الدليل
وكلا تبرنا تتبيرا اي اهلكنا اهلاكا وقال الاخفش كسرنا
تكسيرا وقال الزجاج كل شي كسرته وفتته فقد تبرته ولقد اتوا اي
هؤلاء المكذبون من قومك على القرية التي امطرت اي وقع امطارها ممن لا يقدر
على الامطار سواه بالحجارة وكذا قال تعالى مطر السوء مصدر ساء وهي قرى
قوم لوط قال البغوي كانت خمس قرى فاهلك الله تعالى اربعا منها لعملهم
الفاحشة ونجت واحدة منهن وهي صغر وكان اهلها لا يعملون العمل الخبيث
فان قيل لم عبر تعالى بالقرية وهي قرى اجيب بانه تعالى قال ذلك
تحقيرا لشانها في جنب قدرته تعالى لمن يريد عذابه ودلالة على جمع الفاحشة
لهم حتى كانوا كانهم شي واحد وقوله تعالى افلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون اي لا يخافون
نشورا اي بعثا بعد الموت لانه استقر في انفسهم اعتقادهم التكذيب
بالاخرة واستمروا عليه قرنا بعد قرن حتى تمكن ذلك منهم تمكنا لا ينفع معه
الاعتبار الا لمن شاء الله واذا راوك اي مع ما يعلمون من صدق حديثك
وكرم افعالك ولم تاتهم بمعجزة فكيف وقد اتيتهم بما بهر العقول ان اي ما يتخذونك
الا هزوا اي مهزوا بك وعبر تعالى بالمصدر اشارة الى مبالغتهم في الاستهزاء
مع شدة بعده صلى الله عليه وسلم عن ذلك يقولون اهذا الذي بعث الله رسولا اي
في دعواه محتقرين له ان تاتيه الرسالة وقولهم ان مخففة من الثقيلة
اي انه كاد ليضلنا اي يصرفنا عن الهتنا اي عن عبادتها بفرط اجتهاده

في الدعا

في الدعا الى التوحيد وكثرة ما يورده مما يسبق الى الذهن انها حجج ومعجزات لولا ان صبرنا
اي ثباتنا من الاجتماع والتعاضد عليها اي على التمسك بعبادتها قال الله تعالى
وسوف يعلمون اي في حال لا ينفعهم فيه العلم وان طالت مدة الامهال في التمكين
حين يرون العذاب عيانا في الاخرة من اضل سبيلا اي اخطا طريقا انحن ام المؤمنون
ولما كان صلى الله عليه وسلم حريصا على رجوعهم ولزوم ما ينفعهم واجتناب ما
يضرهم سلاه تعالى بقوله تعالى معجبا من حالهم ارايت اي اخبرني من اتخذ
الهه هواه اي اطاعه وبنى عليه دينه لا يسمع حجة ولا ينظر دليلا فان قيل
لم اخر هواه والاصل قولك اتخذ الهوى الها اجيب بان ما هو الا تقديم المفعول
الثاني على الاول للعناية كما تقول علمت منطلقا زيدا لفضل عنايتك بالمنطلق
ولما كان لا يقدر على صرف الهوى الا الله تعالى سبب عن شدة حرصه على هدايتهم
قوله تعالى افانت تكون عليه وكيلا اي حافظا تحفظه من اتباع هواه لا قدرة لك
على ذلك ام تحسب ان اكثرهم اي هؤلاء المدعوين يسمعون اي سماع من ينزجر
ولو كان غير عاقل كالبهايم او يعقلون اي ما يرون وان لم يكن لهم سمع حتى يطمع
في رجوعهم باختيارهم من غير قسر فان قيل انه تعالى لما نفى عنهم السمع والعقل
فكيف ذمهم على الاعراض عن الدين وكيف بعث اليهم الرسول فان من شرط التكليف
العقل اجيب بانه ليس المراد انهم لا يعقلون شيا بل المراد انهم لم ينتفعوا بذلك
العقل فهو كقول الرجل لغيره اذا لم يفهم انما انت اعمى واصم فان قيل لم خص الاكثر
بذلك دون الكل اجيب بانه كان فيهم من امن ومنهم من عقل الحق وكابر استكبارا
وخوفا على الرياسة ولما كان هذا الاستفهام مفيدا للنفي استانف ما افهمه
بقوله تعالى ان اي ما هم الا كالانعام اي في عدم انتفاعهم بقرع الايات
اذانهم وعدم تدبرهم فيما شاهدوا من الدلايل والمعجزات بل هم اضل اي منها
سبيلا لانها تنقاد لمن يتعهدها وتميز من يحسن اليها ممن يسي اليها وتطلب
ما ينفعها وتجتنب ما يضرها وتهتدي لمراعيها ومشاربها وهؤلاء لا ينقادون
لربهم ولا يعرفون احسانه اليهم من اساءة الشيطان الذي هو عدوهم ولا يطلبون
الثواب الذي هو اعظم المنافع ولا الحق الذي هو المشرع الهني ولا يتقون العقاب
الذي هو اشد المضار والمهالك ولا يهتدون للحق الذي هو المشرع الهني
والعذب الروي ولما بين تعالى جهل المعرضين عن دلايل التوحيد وبين فساد
طريقتهم ذكر انواعا من الدلايل على وجود الصانع اولها الاستدلال بالنظر الى
حال الظل مخاطبا راس المخلصين الناظرين هذا النظر حثا لاهل وده على مثل
ذلك بقوله تعالى الم تر الى ربك اي صنعه وقدرته
كيف مد الظل وهو ما بين طلوع الفجر الى طلوع الشمس جعله ممدودا

اولم يكن معه شمس وان كان بينهما فرق وهو الليل لانه ظل الارض الممدود على قرب من
نصف وجهها مدة يحجب نور الشمس عما قابل وجهها من الارض حتى امتد بساطه
وضرب فسطاطه كما حجب ظل ضلالهم انوار عقولهم وغفلة طباعهم نفوذ اسماعهم ولو
شاء لجعله اي الظل ساكنا اي دائما لا يزول ولا تذهبه الشمس لاصقا باصل
كل مظل من جبل وبنا وشجر منبسط فلم ينتفع به احد سمى انبساط الظل وامتداده
تحركا منه وعدم ذلك سكونا لكنه تعالى لم يشا بل جعله متحركا كما يسوق الشمس له وقال
ابو عبيدة الظل ما نسخته الشمس وهو بالغداة والفيء ما نسخ الشمس وهو بعد
الزوال سمي فيا لانه فا من جانب المشرق الى جانب المغرب ثم جعلنا الشمس عليه اي
الظل دليلا اي ان الناس يستدلون بالشمس واحوالها في مسيرها على احوال
الظل من كونه ثابتا في مكان وزايلا ومتسعا ومتقلصا فلو لم تكن الشمس
لما عرف الظل ولولا النور لما عرفت الظلمة وتعرف الاشيا باضدادها ثم قبضناه
اي الظل الينا اي الى الجهة التي اردنا لا يقدر احد غيرنا ان يحوله الى جهة غيرها
والقبض جمع المنبسط من الشي معناه ان الظل يعم جميع الارض قبل طلوع
الشمس فاذا طلعت قبض الله الظل قبضا يسيرا اي على مهل وفي هذا القبض
اليسير شيا بعد شي من المنافع ما لا يعد ولا يحصر ولو قبض دفعة واحدة
لتعطلت اكثر مرافق الناس بالظل والشمس جميعا وقيل المراد من قبضها يسيرا
قبضها عند قيام الساعة وذلك بقبض اسبابها وهي الاجرام التي تلقي الظلال وقوله
تعالى يسير كقوله تعالى حشر علينا يسير فان قيل ثم في هذين الموضعين كيف موقعها
اجيب بان موقعها بيان تفاضل الامور الثلاثة كان الثاني اعظم من الاول
والثالث اعظم منهما تشبيها لتباعد ما بينهما في الفضل لتباعد ما بينهما
في الفضل لتباعد ما بينهما في الوقت ولما تضمنت هذه الاية الليل والنهار وهو النوع
الثاني قال تعالى مصرحا بهما وهو اي ربك اي المحسن اليك وحده الذي
جعل دليلا على الحق واظهارا للنعمة على الخلق الليل الذي تكامل به مد الظل
لباسا اي ساترا للاشيا يشبه ظلامه اللباس في ستره والنوم سباتا اي راحة
للابدان بقطع المشاغل عبارة عن كونه موتا اصغر طاويا لما كان من الاحساس
قاطعا عما كان من الشعور والتقلب فيه دلايل لاهل البصاير قال البغوي وغيره
واصل السبت القطع وفي جعله تعالى لذلك من الفوايد الدينية ما لا يعد ولا
يحصى وكذا في قوله تعالى وجعل النهار نشورا اي منشورا فيه لابتغا الرزق
وغيره وفي ذلك اشارة الى ان النوم واليقظة انموذج للموت والنشور وحكي ان لقمان
قال لابنه يا بني كما تنام فتوقظ كذلك تموت فتنشر ثم ذكر النوع الثالث
بقوله تعالى وهو الذي اي وحده ارسل الرياح وقراة ابن كثير بالافراد لارادة

الجنس

الجنس وقراءة الباقون بالجمع لكونها تارة صبا وتارة دبورا وتارة شمالا وتارة جنوبا
وغير ذلك ويسن الدعا عند هبوب الريح ويكره سبها لخبر الريح من روح الله تاتي
بالرحمة وتاتي بالعذاب فاذا رايتموها فلا تسبوها واسالوا الله خيرها واستعيذوا
بالله من شرها رواه ابو داود وغيره باسناد حسن وقوله تعالى نشرا قراة نافع وابن
كثير وابو عمرو بضم النون والشين اي ناشرات السحاب وقراة ابن عامر بضم النون
وسكون الشين على التخفيف وقراة عاصم بالبا الموحدة مضمومة وسكون الشين
جمع بشور بمعنى مبشر وقراة حمزة والكسائي بفتح النون والشين اي ناشرا
السحاب على انه مصدر وصف به بين يدي رحمته اي قدام المطر ولما كان الما
مستتبعا عما تحمله الريح من السحاب اتبعه به بقوله تعالى وانزلنا اي بما لنا من العظمة
من السما اي السحاب او الجرم المعهود ما ثم ابدل منه بيانا للنعمة به فقال تعالى
طهورا اي طاهرا في نفسه مطهرا لغيره كما قال تعالى في اية اخرى ليطهركم به كالوضو
لما يتوضا به فهو اسم لما يتطهر به كالسحور اسم لما يتسحر به والفطور اسم
لما يفطر به قال صلى الله عليه وسلم في البحر هو الطهور ماؤه الحل ميتته اراد
به المطهر فالما مطهر لانه يطهر الانسان من الحدث والخبث وذهب بعض الايمة
الى ان الطهور هو الطاهر حتى جوز ازالة النجاسة بالمايعات الطاهرة مثل الخل
ورد بانه لو جاز ازالة النجاسة بها لجاز ازالة الحدث بها وذهب بعض منهم الى ان
الطهور ما يتكرر منه التطهير كالصبور اسم لما يتكرر منه الصبر والشكور اسم لما يتكرر
منه الشكر حتى جوز الوضو بالما الذي توضا به مرة بعد مرة ورد بان نقول بانه اسم
للالة كسحور اسم لما يتسحر به كما مر فيجوز ان يكون طهور كذلك ولو سلم اقتضاوه
التكرر فالمراد جمعا بين الادلة فان الصحابة رضي الله عنهم لم يجمعوا في اسفارهم
القليلة الما بل عدلوا الى التيمم ثبوت ذلك لخسيس الما او في المحل الذي مر عليه
فانه يطهر كل جزء منه لنحيي به اي الما بلدة ميتا بالنبات وذكر ميتا
باعتبار المكان ونسقيه اي الما وهو من اسقاه مزيد سقاه وهما لغتان قال
ابن القطاع سقيتك شرابا واسقيتك والله تعالى اسقى عباده وارضه مما
خلقنا انعاما اي ابلا وبقرا وغنما واناسي كثيرا جمع انسان واصله اناسين
فابدلت النون يا وادغمت فيها اليا او جمع انسي وقدم تعالى النبات لان به حياة
الانعام والانعام على الاناسي لان بها كمال حياته فان قيل لم خص الانعام من
بين ما خلق من الحيوان اجيب بان الطير والوحش تبعد في طلب الما فلا
يعوزها الشرب بخلاف الانعام ولانها قنية الاناسي وعامة منافعهم متعلقة
بها فكان الانعام بسقي انعامهم كالانعام بسقيهم فان قيل لم نكر الانعام
والاناسي ووصفها بالكثرة اجيب بان جل الناس منيخون بالقرب من الاودية

والانهار ومنابع الماء فهم غنية عن سقي السماء وثم كثير منهم لا يعيشون الا بما نزل
الله من رحمته وسقيا سمائه وكذلك قوله تعالى واحيينا به بلدة ميتا يريد بعض
بلادهما ولا المتبعدين عن مظان الماء واختلف في عود الهاء لماذا في قوله تعالى ولقد
صرفناه بينهم على ثلاثة اوجه احدها انها ترجع الى المطر اي صرفنا نزول الماء
من وابل وطل وغير ذلك مرة ببلد ومرة ببلد اخرى قال ابن عباس ما عام
بامطر من عام ولكن الله يصرفه في الارض وقرا هذه الآية وهذا كما روي مرفوعا ما من
ساعة ليل او نهار الا والسما تمطر فيه يصرفه الله حيث يشاء وروي عن ابن مسعود
يرفعه قال ليس سنة بامطر من اخرى ولكن الله قسم هذه الارزاق
فجعلها في السماء الدنيا في هذا القطر ينزل منه كل سنة بكيل معلوم ووزن
معلوم واذا عمل قوم بالمعاصي حول الله ذلك الى غيرهم فان عصوا جميعا صرف
الله ذلك الى الفيافي والبحار وروي ان الملائكة يعرفون عدد المطر ومقداره في
كل عام لانه لا يختلف ولكن يختلف فيه البلاد فانيها قال ابو مسلم الضمير
راجع الى المطر والسحاب والاظلال وسائر ما ذكر الله من الادلة وثالثها
هذا القول بين الناس في القرآن وفي سائر الكتب والصحف التي انزلت على الرسل
عليهم الصلاة والسلام وهو ذكر انشاء السحاب وانزال المطر ليذكروا
اي ليتفكروا ويعلموا كمال القدرة وحق النعمة في ذلك ويقوموا بشكره تنبيه
اصل يذكروا يتذكروا ادغمت التاء في الذال وقراءة حمزة والكسائي بسكون الذال
ورفع الكاف مخففة والباقون بفتح الذال والكاف مشددتين فابى اي لم يرد
اكثر الناس اي بعبادتهم الا كفورا اي جحود النعمة وقلة الاكتراث لها
وكفرانهم هو انهم اذا مطروا بنوء كذا وهو بفتح النون وهمز اخره وقت النجم على
عادة العرب في اضافة المطر الى الانواء فكره ان يقول ذلك لايهامه ان النوء فاعل
المطر حقيقة فان اعتقد انه الفاعل له حقيقة كفر وعن زيد بن خالد الجهني
قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية في اثر
سماء كانت من الليل فلما انصرف اقبل على الناس فقال هل تدرون ماذا قال ربكم
قالوا الله ورسوله اعلم قال اصبح من عبادي مومن بي وكافر فاما من قال مطرنا
بفضل الله ورحمته فذلك مومن بي وكافر بالكوكب واما من قال مطرنا بنوء
كذا وكذا فذلك كافر بي مومن بالكوكب وافاد تعليق الحكم بالباء انه لو قال مطرنا
في نوء كذا لم يكره ونقل الشافعي عن بعض الصحابة انه كان يقول عند المطر مطرنا بنوء
الفتح ثم يقرا ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ولو شئنا لبعثنا اي
اي بما لنا من العظمة ونفوذ الكلمة في كل قرية نذيرا اي رسولا ينذرهم
من البشر او من الملائكة او غيرهم كما قسمنا المطر عليها وانما قصرنا الامر عليك

وعظمناك واجللناك وفضلناك على سائر الرسل فلا تطع الكافرين فيما يقصدونه من
التغيير على الدعاء به بما يبدونه من المقترحات او يظهرون لك من المداهنة او من التلوين
صادع الانذار ويخيلون لك انك لو قللت منه رجوا ان يوافقوك وقابل ذلك بالتشدد
والتصبر وجاهدهم اي بالدعاء به اي القرآن الذي تقدم التحدث عنه في قوله تعالى
ولقد صرفناه او بترك طاعتهم المدلول عليه بقوله تعالى فلا تطع او بالسيف والاقرب
الاول لان السورة مكية والامر بالقتال ورد بعد الهجرة بزمان جهادا كبيرا اي جامعا
لكل المجاهدات الظاهرة والباطنة لان في ذلك اقبال كثير من الناس اليك واجتماعهم
عليك فيقوى امرك ويعظم خطبك وتضعف شوكتهم وتنكسر سورتهم فان مجاهدة
السفهاء بالحجج اكبر من مجاهدة الاعداء بالسيف ثم ذكر النوع الرابع بقوله تعالى وهو
اي وحده الذي مرج البحرين اي المائين الواسعين الكبيرين بان خلاهما متجاورين
متلاصقين وهو بقدرته تعالى يفصل بينهما ويمنع التمازج هذا عذب اي حلو
سائغ فرات اي شديد العذوبة بالغ الغاية فيها حتى يضرب الى الحلاوة لا فرق بين
ما كان منه على وجه الارض وما كان في بطنها وهذا ملح اي شديد الملوحة اجاج
اي محرق بملوحته ومرارته لا يصلح لشيء ولا شرب تنبيه اشار تعالى باداة
القرب في الموصفين تنبيها على وجود الموصفين مع شدة المقاربة لا يلتبس احدهما
بالآخر حتى كانه اذا احتفر على شاطئ البحر الملح بالقرب جدا منه خرج الماء عذبا وجعل
اي الله تعالى بينهما برزخا اي حاجزا من قدرته مانعا من اختلاطهما
ثم انه تعالى اتم تقرير النعمة في منعهما الاختلاط بالكلمة التي جرت عادتهم بقولها
عند التعوذ تنبيها لكل منهما بالتعوذ بقوله تعالى وحجرا محجورا فكان كل
واحد من البحرين يتعوذ من صاحبه ويقول له ذلك كما قال تعالى لا يبغيان اي لا يبغي
احدهما على صاحبه بالملوحة فانتفى البغي كالتعوذ ثم هنا ثم جعل كل واحد منهما في
صورة الباغي على صاحبه فهو يتعوذ منه وهو من احسن الاستعارات واشهدها
على البلاغة فان قيل لا وجود للبحر العذب فكيف ذكره الله تعالى هنا اجيب
بان المراد منه الاودية العظام كالنيل وجيحون ومن البحر الاجاج البحار الكبار
ثم ذكر النوع الخامس بقوله تعالى وهو اي وحده الذي خلق من الماء اي المني
من الرجل والمراة بشرا اي انسانا فجعله اي بعد ذلك بالتطوير في اطوار
الخلقة والتدوير في ادوات التربية نسبا اي ذكرا ينسب اليه وصهرا اي
انثى يصاهر بها فقسم هذا الماء بعد التطوير الى ذكور وانثى كما جعل ذلك الماء
قسمين عذبا وملحا ونحو هذا قوله تعالى فجعل منه الزوجين الذكر
والانثى وقيل النسب ما لا يحل نكاحه والصهر ما يحل نكاحه فالنسب
ما يوجب الحرمة والصهر ما لا يوجبها قال البغوي وقيل وهو الصحيح

النسب من القرابة والصهر والخلطة التي تشبه القرابة وهو النسب المحرم للنكاح وقد
ذكر الله انه حرم بالنسب سبعا في قوله تعالى حرمت عليكم امهاتكم وكان ربك اي
المحسن اليك بارسالك وانزال هذا الذكر اليك قديرا حيث خلق من مادة واحدة
بشرا ذا اعضا مختلفة وطبايع متباعدة وجعله قسمين ذكرا وانثى وربما يخلق من
نطفة واحدة نوعين ذكرا وانثى فهو يوفق من يشاء فيجعله عذب المذاق سهل
الاخلاق ويخذل من يشا فيجعله مر الاخلاق كثير الشقاق عريقا في النفاق
ولما ذكر تعالى دلايل التوحيد عاد الى تهجين سيرتهم فقال تعالى ويعبدون اي
هولاء الكفرة من دون الله اي ممن يعلمون انه غير الرب كذا دون الله المستجمع لصفات
الكمال والعظمة بحيث انه لا ضر ولا نفع الا وهو بيده ما لا ينفعهم بوجه من
الوجوه ان عبدوه في ازالة كربة ولا يضرهم في ازالة نعمة من نعم الله تعالى
عليهم ان تركوه وكان الكافر اي مع علمه بضعفه وعجزه على ربه اي
المحسن اليه لا غيره ظهيرا اي معينا للشيطان من الانس والجن على اوليا الله
وروي انها نزلت في ابي جهل ويجوز ان يريد بالظهير الجماعة كقوله تعالى والملايكة
بعد ذلك ظهير كما جا الصديق وعلى هذا فالخليط المراد بالخليط يكون المراد به
بالكافر الجنس فان بعضهم مظاهر لبعض على اطفاء نور الله قال تعالى
واخوانهم يمدونهم في الغي وهذا اولى لان خصوص السبب لا يقدح في عموم
اللفظ ولانه اوفق لظاهر قوله ويعبدون من دون الله وقيل معناه وكان الذي
يفعل هذا الفعل وهو عبادة ما لا ينفع ولا يضر على ربه هينا مهينا من قولهم
ظهرت به اذا خلفته خلف ظهرك لا يلتفت اليه وهو نحو قوله تعالى اولئك
لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم ولما كان التقدير
تسلية له صلى الله عليه وسلم فما لزم ما نامرك به ولا يزد همك بردهم عن ما نامرك
فيه فانا ما ارسلناك عليهم وكيلا عطف عليه قوله تعالى وما ارسلناك
يا اشرف الخلق بما لنا من العظمة الا مبشرا بالثواب على الايمان والطاعة ونذيرا
اي مخوفا بالعقاب على الكفر والمعصية ثم كانه قيل فماذا اقول
لهم اذا طعنوا في الرسالة فقال تعالى قل اي لهم يا اكرم الخلق حقيقة واعدلهم
طريقا محتجا عليهم بازالة ما يكون موقعا للتهمة ما اسالكم عليه
اي على تبليغ ما ارسلت به من اجر تتهموني اي ادعوكم لاجله اذ لا غرض لي
الا نفعكم ثم اكد هذا المعنى بقوله تعالى مستثنيا لان الاستثنا معيار العموم
الا من اي الاجر من شاء ان يتخذ اي نفسه ويخالف هواه ويجعل له
الى ربه سبيلا فانه اذا اهتدى بهداية ربه كان لي مثل اجره لا ينفع لي من
جهتكم الا هذا فان سميتم هذا اجرا فهو مطلق لي ولا مرية في انه لا ينقص

احدا

احدا شيئا من دنياه فلا فايدة من الاولى انه لا طمع له اصلا في شي ينقصهم والثانية
اظهار الشفقة البالغة حيث لم يعتد بمنفعتهم الموصلة لهم الى ربهم
ثوابا لنفسه وقيل الاستثنا منقطع اي لكن من يشا ان يتخذ الى ربه سبيلا
فليفعل وجرى على هذا الجلال المحلي وقال ابن عادل في الاول نظر لانه لم
يسند السوال المنفي في الظاهر الى الله تعالى انما اسنده الى المخاطبين
فكيف يصح هذا التقدير انتهى وقرا قالون والبزي وابو عمرو باسقاط الهمزة الاولى
مع المد والقصر وسهل ورش وقنبل الثانية ولهما ايضا ابدالها الفا والباقون
بتحقيق الهمزتين ولما بين تعالى ان الكفار متظاهرون على اذيته وامره
ان لا يطلب منهم اجرا امره ان يتوكل عليه في دفع جميع المضار وفي جلب جميع المنافع
فقوله تعالى وتوكل اي اظهر العجز والضعف واستسلم واعتمد في امرك كله
ولا سيما في مواجهتهم بالانذار وفي ردهم عن عنادهم على الحي الذي لا يموت
فلا ضياع لمن توكل عليه فانه الحقيق بان يتوكل عليه دون الاحيا الذين يموتون
فانهم اذا ماتوا ضاع من توكل عليهم وعن بعض السلف انه قراها فقال
لا يصح لذي عقل ان يثق بعدها بمخلوق وسبح ملتبسا بحمده اي نزهه
عن كل نقص مثبتا له كل كمال وقيل صل له شكرا على نعمه وقيل قل سبحان
الله والحمد لله وحده وعلى هذا اقتصر الجلال المحلي وكفى به بذنوب عباده
اي ما ظهر منها وما بطن وكل ما سواه عبده خبيرا اي عالما مطلعا فلا يخفى
عليه شي منها وان دق فلا يحتج عليك اذا امنوا او ان كفروا وهذه الكلمة يراد بها
المبالغة يقال كفى بالعلم جمالا وكفى بالادب مالا وهو بمعنى حسبك اي لا تحتاج
ج
معه الى غيره لانه تعالى خبير باحوالهم قادر على مكافاتهم وهذا وعيد شديد
ولما امر تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ان يتوكل عليه وصف نفسه تعالى بامور
منها انه حي لا يموت ومنها انه عالم بجميع المعلومات ومنها انه قادر على كل الممكنات
وهو قوله تعالى الذي خلق السموات والارض على عظمهما وما بينهما
من الفضا والعناصر والعباد واعمالهم من الذنوب وغيرها الا يعلم من خلق وقوله
تعالى في ستة ايام اي من ايام الدنيا تعجيب للغبي الجاهل وتدريب للفطن
العالم في الحلم والاناة والصبر على عبادة الله تعالى في دعوتهم فان قيل الايام عبارة
عن حركة الشمس في السموات فقبل السموات لا ايام فكيف قال تعالى
خلقها في ستة ايام اجيب بانه تعالى خلقها في مدة مقدارها هذه المدة فان قيل
يلزم على هذا قدم الزمان وهو ممنوع اجيب بان الله تعالى خلق هذه المدة اولا
ثم خلق السموات والارض فيها بمقدار ستة ايام فلا يلزم من ذلك قدم الزمان
وقيل في ستة من ايام الآخرة كل يوم مقداره الف سنة وهو بعيد لان التعريف

لابد وان يكون بامر معلوم لا بامر مجهول فان قيل لم قدر الخلق والايجاد بهذا المقدار
اجيب بانه يجب على المكلف ان يقطع الطمع عن مثل هذا فانه بحر لا ساحل
له ومن ذلك تقدير الملئكة الذين هم اصحاب النار بتسعة عشر وحملة العرش
بثمانية والشهور باثني عشر والسموات بالسبع وعدد الصلوات ومقادير
النصب في الزكوات والحدود والكفارات فالاقرار بكل ما قال الله حق هو الدين
والواجب ترك البحث عن هذه الاشياء وقد نص الله تعالى على ذلك في قوله
تعالى وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين اوتوا
الكتاب ويزداد الذين امنوا ايمانا ولا يرتاب الذين اوتوا الكتاب والمؤمنون
وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا اراد الله بهذا مثلا ثم قال
تعالى وما يعلم جنود ربك الا هو وهذا جواب ايضا في انه لم لم يخلقها في لحظة
وهو قادر على ذلك وعن سعيد بن جبير انما خلقها في ستة ايام وهو قادر
ان يخلقها في لحظة تعليما لخلقه الرفق والتثبت قيل اجتمع خلقها يوم
الجمعة فجعله الله تعالى عيدا للمسلمين وعن مجاهد اول الايام يوم الاحد
واخرها الجمعة ولما كان هذا الملك امرا باهرا اشار اليه باداة التراخي فقال
تعالى **ثم استوى على العرش** اي شرع في التدبير لهذا الملك الذي اخترعه
واوجده ولا يجوز ان يفسر بالاستقرار لانه يقتضي التغير الذي هو دليل الحدوث
ويقتضي التركيب وكل ذلك على الله تعالى محال فان قيل يلزم من ذلك ان
يكون خلق العرش بعد خلق السموات وقد قال تعالى وكان عرشه على الماء
اجيب بان كلمة ثم ما دخلت على خلق العرش بل على رفعه على السموات
وهو في اللغة سرير الملك وفي رفع قوله تعالى **الرحمن** اوجه احدها انه خبر
الذي خلق او مبتدا مضمر اي هو الرحمن ولهذا اجاز الزجاج وغيره الوقف
على العرش ثم يبتدي الرحمن اي هو الرحمن الذي لا ينبغي السجود والتعظيم
الا له او يكون بدلا من الضمير في استوى وعلى هذا اقتصر الجلال المحلي واختلف
في معنى الفا في قوله تعالى **فاسئل به** على قولين احدهما هي على بابها وهي
متعلقة بالسوال والمراد بقوله تعالى **خبيرا** اي عالما يخبرك بحقيقته
هو الله تعالى ويكون من التجريد كقولك رايت به اسدا اي برؤيته انتهى قال الكلبي
فقوله به يعود الى ما ذكر من خلق السموات والارض والاستوى
على العرش والباء من صلة الخبير وذلك الخبير هو الله تعالى لانه لا دليل في
العقل على كيفية خلق السموات والارض والاستوا على العرش ولا
يعلمها احد الا الله تعالى والثاني ان تكون الباء بمعنى عن اما مطلقا واما
مع السوال خاصة كهذه الاية وكقول علقمة بن عبدة

وماجعلنا اصحاب النار الا ملئكة م

فان تسألوني بالنساء فانني * خبير بادواء النساء طبيب
والضمير في به لله وخبيرا من صفات الملك وهو جبريل عليه السلام وعن
ابن عباس ان ذلك الخبير هو جبريل وانما قدم لرؤس الاي وحسن النظم
وقال ابن جرير الباء في به صلة والمعنى فاسأله خبيرا وخبيرا نصب
على الحال وقيل به يجري مجرى القسم كقوله تعالى واتقوا الله الذي
تساءلون به وقيل فاسئل بهذا الاسم من يخبرك من اهل الكتاب حيث تعرف
من يكتمه ومن ثم كانوا يقولون ما نعرف الرحمن الا الذي باليمامة
يعنون مسيلمة الكذاب وكان يقال له رحمن اليمامة وقيل فاسئل بسبب
سؤالك اياه خبيرا عن هذه الامور وكل امر تريده يجبرا فيخبرك بحقيقة
امره ابتدا وحالا ومالا فلا يضيق صدرك بسبب هولا المدعوين فانه
ما ارسلك اليهم الا وهو عالم بهم فسيعلو كعبك عليهم ويحسن لك
العاقبة وقرا ابن كثير والكسائي بالنقل وكذا يقرا حمزة في الوقف له
والباقون بسكون السين وفتح الهمزة ولما ذكر تعالى احسانه اليهم
وانعامه عليهم ذكر ما ابدوه من كفرهم في موضع شكرهم بقوله تعالى
واذا قيل لهم اي من اي قائل قال لهولاء الذين يتقلبون في نعمه **اسجدوا**
اي احضعوا بالصلاة وغيرها **للرحمن** اي الذي لا نعمة لكم الا منه **قالوا**
وما الرحمن متجاهلين في معرفته فضلا عن كفر نعمته معبرين باداة ما لا يعقل
وزادهم اي هذا الامر الواضح المقتضي للاقبال والسكون شكر النعم وطمعا
في الزيادة **نفورا** اي عن الايمان والسجود تنبيه هذه السجدة
من عزائم سجود التلاوة فيسن للقاري والسامع والمستمع ان يسجد
عند قراءتها وسماعها وقرا واذا قيل لهم هشام والكسائي بالاشمام
وضم القاف مع سكون الياء والباقون بكسر القاف وقرا لما تامرنا حمزة
والكسائي بالياء التحتية والباقون بالتاء الفوقية وابدل ورش والسوسي
الهمزة وقفا ووصلا وحمزة وقفا لا وصلا ولما حكى تعالى عن الكفار
مزيد النفرة عن السجود وذكروا ما لو تفكروا فيه لعرفوا وجوب السجود
والعبادة للرحمن قال عز من قائل **تبارك** اي ثبت ثباتا لا نظير له
الذي جعل في السماء التي تقدم انه اخترعها واختلف في معنى قوله
تعالى **بروجا** فقال الزجاج ومجاهد وقتادة هي النجوم الكبار سميت
بروجا لظهورها وقال عطية العوفي هي القصور فيها الحرس كما قال
تعالى ولو كنتم في بروج مشيدة وقال عطاء عن ابن عباس هي
الاثني عشر التي هي منازل الكواكب السبعة السيارة وهي الحمل
والثور والجوزا والسرطان والاسد والسنبلة والميزان والعقرب
والقوس والجدي والدلو والحوت فالحمل والعقرب بيتا المريخ

قال ابن الشيخ انما عبر بما دون من لانهم ارادوا به الصفة دون الموصوف فانهم جهلوا مسمى هذا الاسم [illegible] انكارا وتجاهلا [illegible] على الله الا ان [illegible] فالاستفهام للانكار [illegible] ما لا يعقل صح

والثور والميزان بيتا الزهرة والجوزا والسنبلة بيتا عطارد والسرطان بيت
القمر والاسد بيت الشمس والقوس والحوت بيتا المشتري والجدي والدلو
بيتا زحل وهذه البروج مقسومة على الطبايع فيكون نصيب كل واحد منها
ثلاثة بروج تسمي المثلثات فالحمل والاسد والقوس مثلثة نارية والثور
والسنبلة والجدي مثلثة ارضية والجوزا والميزان والدلو مثلثة هوائية
والسرطان والعقرب والحوت مثلثة مائية وجعل فيها اي السماء
وقيل البروج سراجا اي شمسا وقرا حمزة والكسائي بضم السين
والراء على الجمع للتنبيه على عظمته في ذلك بحيث انه اعظم من الوف
من السرج وهو قائم مقام الوصف كما في الذي بعده كما سياتي وقيل
المراد بالجمع الشمس والكواكب الكبار والباقون بكسر السين
وفتح الراء والف بعدها على التوحيد وقمرا منيرا اي مضيا بالليل
ولما ذكر تعالى هاتين الايتين ذكر ما هما اياته بقوله تعالى وهو الذي جعل
الليل اي الذي ايته القمر والنهار اي الذي ايته الشمس خلفة
اي ذوي حالة معروفة في الاختلاف فيأتي هذا خلف ذاك بضد
حاله من الاوصاف وقال ابن عباس والحسن يعني خلفا وعوضا
يقوم احدهما مقام صاحبه فمن فاته عمله في احدهما قضاه في الاخر
قال شقيق جاء رجل الى عمر بن الخطاب قال فاتتني الصلاة الليلة
قال ادرك ما فاتك من ليلتك في نهارك فان الله عز وجل جعل
الليل والنهار خلفة لمن اراد ان يذكر اي يتذكر الاء الله
تعالى ويتفكر في صنعه فيعلم انه لا بد من صانع حكيم واجب الذات
رحيم على العباد وقرا حمزة بسكون الذال وضم الكاف مخففة من
ذكر بمعني تذكر والباقون بفتح الذال والكاف مشددتين او اراد
شكورا اي شكر نعمة ربه عليه من الاتيان بكل منهما بعد الاخر لاجتنا
ثمراته ولو جعل احدهما دائما لفاتت مصالح الاخر وحصلت السامة
به والملل منه والتواني في الامور المقدرة بالاوقات وفتر العزم
الذي انما تثيره لتداركها وقت اخر وغير ذلك من الامور التي احكمها
العلي الكبير وعن الحسن من فاته عمله من التذكر والشكر بالنهار كان له
في الليل مستعتب ولما ذكر عباده الذين خذلهم بتسليط الشيطان
عليهم فصاروا حزب الشيطان ولم يشفهم الى السجود من استماعه
اسمه ابدا اباها انهم لهواهم عنه اشار الى عباده الذين اخلصهم لنفسه
بقوله تعالى وعباد الرحمن فاضافهم اليه رفعة لهم وان كان الخلق
كلهم عباده واصنافهم الى وصف الرحمة الابلغ الذي انكره اولياء
تبشيرا لهم ثم وصفهم بضد ما وصف به المتكبرين عن السجود

اشارة



دخول

اشارة الى انهم تخلقوا من هذه الصفة التي اضيفوا اليها بصفات كثيرة
الصفة الاولى قوله تعالى الذين يمشون وقوله تعالى على الارض
تذكيرا بما يصيرون اليه وحثا على السعي في معالي الاخلاق هونا اي
هينين او مشيا هينا مصدر وصف به مبالغة والهون الرفق واللين
ومنه الحديث احبب حبيبك هونا ما وقوله المؤمنون هينون لينون
والمثل اذا عز اخوك فهن والمعنى اذا عاسر فياسر والمعنى انهم يمشون
بسكينة وتواضع ووقار لا يضربون باقدامهم ولا يخفقون بنعالهم
اشرا وبطرا ولذلك كره بعض العلماء الركوب في الاسواق لقوله تعالى
ويمشون في الاسواق تنبيه عباد مرفوع بالابتدا وفي خبره وجهان
احدهما الجملة الاخيرة في اخر السورة اولئك يجزون وبه بدا الزمخشري
والذين يمشون وما بعده صفات للمبتدا والثاني ان الخبر يمشون
الصفة الثانية واذا خاطبهم الجاهلون اي بما يكرهون
قالوا سلاما اي تسلما منكم اي لا نجاهلكم ومتاركة لا خير بيننا ولا شر
اي نتسلم منكم تسلما فاقيم السلام مقام التسليم وقيل قالوا سدادا
من القول يسلمون فيه من الاثم والايذا وليس المراد التحية لان
المؤمنين لم يؤمروا بالسلام على المشركين وعن ابي العالية نسختها
اية القتال ولا حاجة الى ادعاء النسخ باية القتال ولا غيرها لان الاغضا
عن السفها وترك المقابلة مستحسن في الادب والمروة والشريعة
واسلم للعرض والورع واطلق الخطاب اعلاما بان اكثر خصال
الجاهل وهو الذي يخالف العلم والحكمة والجهل وهو السفه
وقلة الادب من قوله

الا لا يجهلن احد علينا ٭ فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ولما ذكر تعالى ما بينهم وبين الخلق ذكر ما بينهم وبينه وهي الصفة الثالثة
بقوله تعالى والذين يبيتون من البيتوتة قال الزجاج كل من ادركه
الليل قيل بات وان لم ينم كما يقال بات فلان قلقا والمعني يبيتون لربهم
اي المحسن اليهم سجدا على وجوههم في الصلاة وقدمه لانه نهي الخضوع
واخره عنه قوله تعالى وقياما اي على اقدامهم وان كان تطويل القيام افضل
افضل للروي وخصص البيتوتة لان العبادة بالليل اشق وابعد من
الريا قال الزمخشري والظاهر انه وصف لهم باحياء الليل او اكثره
وقيل من قرا شيا من القران في صلاة وان قل فقد بات ساجدا
وقائما وقيل هما الركعتان بعد المغرب والركعتان بعد العشا وعن
عثمان بن عفان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى
عشاء الاخرة في جماعة كان كقيام نصف ليلة ولما ذكر تعالى

تهذيبهم للخلق والخالق وصفهم الله تعالى انهم مع ذلك خائفون وجلون
وهي الصفة الرابعة بقوله تعالى والذين يقولون ربنا
اي يا ربنا اصرف عنا عذاب جهنم قال ابن عباس يقولون في
سجودهم وقيامهم هذا القول ثم علل سؤالهم بقوله تعالى ان عذابها كان
اي كونا جبلت عليه غراما اي هلاكا وخسرانا ملحا لازما لا ينفك عنه كما
قال • ان يعاقب يكن غراما وان يعط • جزيلا فانه لا يبالي • ومنه
الغريم لملازمته والحاجة فهم مبتهلون الى الله تعالى في صرف العذاب
عنهم لعدم اعتدادهم باعمالهم ووثوقهم على استمرارهم احوالهم
ولما ثبت عنهم هذا الوصف قوله تعالى انها ساءت اي تناهت
في كل ما يحصل منه سوء وهي في معنى بئست في جمع المذام
مستقرا اي موضع استقرار ومقاما اي موضع اقامة تنبيه
ساءت في حكم بئست كما مر ففيها ضمير مبهم يفسره مستقرا
والمخصوص بالذم محذوف معناه ساءت مستقرا ومقاما هي وهذا
الضمير هو الذي ربط الجملة باسم ان وجعلها خبرا لها ويجوز ان
تكون ساءت بمعنى احزنت ففيها ضمير اسم ان ومستقرا حال
او تمييز والتعليلان يصح ان يكونا متداخلين ومترادفين وان
يكونا من كلام الله تعالى وحكاية لقولهم ولما ذكر تعالى اقوالهم
وافعالهم اتبع ذلك بذكر انفاقهم وهو الصفة الخامسة بقوله تعالى
والذين اذا انفقوا اي للخلق او الخالق في واجب او مستحب او مباح
لم يسرفوا اي لم يجاوزوا الحد في النفقة بالتبذير فيضيعوا
الاموال في غير حقها ولم يقتروا اي لم يضيقوا وكان اي انفاقهم
بين ذلك اي الاسراف والتقتير قواما اي وسطا تنبيه
اسم كان ضمير يعود على الانفاق المفهوم من قوله تعالى انفقوا وخبرها
قواما وبين ذلك معمول له وقيل غير ذلك وذكر المفسرون في الاسراف
والتقتير وجوها احدها قال الرازي وهو الاقوى وصفهم
بالقصد الذي هو بين الغلو والتقصير وبمثله امر صلى الله عليه وسلم
بقوله تعالى ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط
اذ يقال ما عال من اقتصد وسأل رجل بعض العلماء ما البناء الذي لا سرف
فيه قال ما سترك من الشمس واكنك من المطر قال فما الطعام
الذي لا سرف فيه قال ما سد الجوعة قال فما اللباس الذي لا سرف فيه
قال ما ستر عورتك وادفاك من البرد ثانيها وهو قول ابن عباس
الاسراف النفقة في معصية الله تعالى والاقتار منع حق الله تعالى
وقال مجاهد لو انفق احد مثل جبل ابي قبيس ذهبا في طاعة الله

لم يكن سرفا

لم يكن سرفا ولو انفق صاعا في معصية الله تعالى كان سرفا وقال
الحسن لم ينفقوا في معاصي الله ولم يمسكوا عن ما ينبغي وانشدوا
ذهاب المال في حمد وخير • ذهاب لا يقال له ذهاب •
وسمع رجل رجلا يقول لا خير في الاسراف فقال لا اسراف في الخير
وعن عمر بن عبد العزيز انه شكر عبد الملك بن مروان حين زوجه
ابنته واحسن اليه فقال وصلت الرحم وفعلت وصنعت وجاء
بكلام حسن فقال ابن لعبد الملك انما هو كلام اعد لهذا المقام فسكت
عبد الملك فلما كان بعد ايام دخل عليه والابن حاضر فسأله عن
نفقته واحواله فقال النفقة بين السيئتين فعرف عبد الملك انه اراد ما في
هذه الاية فقال لابنه يا بني اهذا ايضا مما اعد وثالثها السرف مجاوزة
الحد في التنعم والتوسع في الدنيا وان كان من حلال لانه يؤدي الى الخيلاء
وكسر قلوب الفقراء فكانت الصحابة لا ياكلون طعاما للتنعم واللذة
ولا يلبسون ثوبا للجمال والزينة ولكن كانوا ياكلون ما يسد
جوعتهم ويعينهم على عبادة ربهم ويلبسون ما يستر عوراتهم
من الحر والبرد وقال عمر بن الخطاب كفى سرفا ان لا يشتهي الرجل
شيئا الا اشتراه فاكله وقرأ نافع وابن عامر يقتروا بضم التحتية
وكسر الفوقية من اقتر وابن كثير وابو عمرو بفتح التحتية وكسر
الفوقية والكوفيون بفتح التحتية وضم الفوقية ولما ذكر
تعالى ما تحلوا به من اصول الطاعات اتبعه بذكر ما تخلوا عنه من
امور المعاصي التي هي الفحشاء والمنكر وهي الصفة السادسة
بقوله تعالى والذين لا يدعون اي رحمة لانفسهم واستعمالا للعدل
مع الله اي الذي اختص بصفات الكمال الها آخر اي دعاء جليا
بالعبادة ولا خفيا بالرياء ولما نفى عنهم ما يوجب قتل انفسهم
بخساراتهم اياها اتبعه نفي قتل غيرهم بقوله تعالى ولا يقتلون
النفس رحمة للخلق وطاعة للخالق ولما كان من الانفس ما لا حرمة
له بين المراد بقوله تعالى التي حرم الله اي منع من قتلها الا بالحق
اي بان يفعل ما يبيح قتلها ولما ذكر القتل الجلي اتبعه الخفي
بتضييع نسب الولد بقوله تعالى ولا يزنون اي رحمة للمزني
بها ولاقاربها ان تنتهك حرماتهم مع رحمته لنفسه على ان الزنا
جار الى القتل والفتن وفيه التسبب الى ايجاد نفس بالباطل كما ان
القتل تسبب الى اعدامها بذلك وقد روي في الصحيح عن عبد الله بن
مسعود انه سأل النبي صلى الله عليه وسلم اي الذنب اعظم وفي رواية
اكبر عند الله قال ان تدعو لله ندا وهو خلقك قال ثم اي قال ان تقتل

ولدك مخافة ان يطعم معك قال ثم اي قال ان تزاني حليلة جارك فانزل
الله تعالى تصديق ذلك والذين لا يدعون مع الله الها آخر الاية وقد
استشكل تصديق الاية للخبر من حيث ان الذي فيه قتل خاص وزنا خاص
والتقييد بكونه اكبر والذي فيها مطلق القتل والزنا من غير تعرض لعظم
ولا اشكال لانها انطقت بتعظيم ذلك من سبعة اوجه الاول
الاعتراض بين المبتدا الذي هو وعباد وما عطف عليه والخبر الذي
هو اولئك يجزون الغرفة على احد الروايتين بذكر هولا الثلاثة خاصة
وذلك دال على مزيد الاهتمام الدال على الاعظام الثاني الاشارة باداة
البعد في قوله تعالى **ومن يفعل ذلك** اي الفعل العظيم القبيح مع قرب
المذكورات فدل على ان البعد في رتبتها فهو اشارة جميع ما تقدم
لانه بمعنى ما ذكر فلذلك وحد وادغم لام يفعل في الذال ابو الحارث
والباقون بالاظهار الثالث التعبير باللقا مع المصدر المزيد الدال
على زيادة المعنى في قوله تعالى **يلق اثاما** دون يأثم ويلقى اثما
اي جزاءه الرابع التقييد بالمضاعفة في قوله تعالى مستانفا **يضاعف**
اي بأسهل امر **له العذاب** جزاما اتبع نفسه هواها الخامس التهويل
بقوله تعالى **يوم القيامة** الذي هو اهول من غيره بما لا يقاس السادس
الاخبار بالخلود الذي اقل درجاته ان يكون مكثا طويلا بقوله تعالى
ويخلد فيه وقرا يضاعف ويخلد ابن عامر وشعبة برفع الفا والدال
والباقون بجزمهما واسقط الالف من يضاعف مع تشديد العين
ابن كثير وابن عامر فالجزم على انها بدلا من يلق بدل اشتمال والرفع
على الاستيناف السابع التصريح بقوله تعالى **مهانا** فلما عظم
الامر من هذه الاوجه علم ان كلا من هذه الذنوب كبير واذا
كان الاعم كبيرا كان الاخص المذكور اعظم من مطلق الاعم لانه زاد عليه
بما صار به خاصا فثبت بهذا انها كبائر وان قتل الولد والزنا بحليلة
الجار اكبر لما ذكر فوضح وجه تصديق الاية للخبر وقرا حفص مع ابن
كثير بصلة الها بيا من فيه قبل مهانا فان قيل ذكر ان من صفات
عباد الرحمن صفات حسنة فكيف يليق بعد ذلك ان يطهرهم
عن الامور العظيمة مثل الشرك والقتل والزنا فلو كان الترتيب
بالعكس كان اولى اجيب بان الموصوف بتلك الصفات السابقة
قد يكون متمسكا بالشرك تدينا وبقتل الموودة تدينا وبالزنا تدينا
فبين تعالى ان المرء لا يصير بتلك الخصال وحدها من عباد الرحمن
حتى يجتنب تلك الكبائر واجاب الحسن بان المقصود من ذلك
التنبيه على الفرق بين سيرة المسلمين وسيرة الكفار كانه قال

وعباد

وعباد الرحمن الذين لا يدعون مع الله الها آخر وانتم تدعون ولا يقتلون
وانتم تقتلون الموودة ولا يزنون وانتم تزنون ولما اتم الله تعالى تهديد
الكفار الفجار على هذه الاوزار اتبعه ترغيب الابرار الى العزيز الغفار
بقوله تعالى **الا من تاب** اي رجع الى الله عن كل شي مما كان فيه من هذه
النقائص **وآمن** اي اوجد الاساس الذي لا يثبت عمل بدونه وهو
الايمان واكد رجوعه بقوله تعالى **وعمل عملا صالحا** اي
موسسا على اساس الايمان فان قيل العمل الصالح يدخل
فيه التوبة والايمان فذكرهما قبل العمل الصالح مستغنى عنه
اجيب بانهما افردا بالذكر لعلو شانهما تنبيه اختلف في هذا
الاستثنا على وجهين احدهما انه استثنا متصل وهو ما عليه
الجمهور لانه من الجنس والثاني انه منقطع ورجحه ابو حيان
معللا بان المستثنى منه محكوم عليه بانه يضاعف له العذاب
فيصير التقدير الا من تاب وامن وعمل عملا صالحا فلا يضاعف له العذاب
ولا يلزم من انتفاء التضعيف انتفاء العذاب غير المضعف بخلافه
في المنقطع فان التقدير لكن من تاب الى آخره فلا يلقى عذابا البتة ووجه
كلام الجمهور بان ما ذكر ليس بلازم اذ المقصود بان من فعل كذا
فانه يحل به ما ذكر الا ان يتوبوا اما اصابة اصل العذاب وعدمه
فلا تعرض في الاية له ثم زاد تعالى في الترغيب في الاتيان بالفا
رابطا للجزا بالشرط تدليلا على انه سببه فقال تعالى **فاولئك** اي العالو
المنزلة **يبدل الله** اي الذي له العظمة والكبريا **سيئاتهم حسنات** قال
ابن عباس ومجاهد هذا التبديل في الدنيا فيبدل الله تعالى قبائح
اعمالهم في الشرك محاسن الاعمال في الاسلام فيبدلهم بالشرك ايمانا
وبقتل المومنين قتل المشركين وبالزنا احصانا وعفة فكانه تعالى
يبشرهم بتوفيقهم لهذه الاعمال الصالحة فيستوجبوا بها الثوا
ب وقال الزجاج السيئة بعينها لا تصير حسنة فالتاويل
ان السيئة تمحى بالتوبة وتكتب الحسنة مع التوبة والكافر يحبط
الله تعالى عمله ويثبت عليه السيئات وقال سعيد بن المسيب
ومكحول ان الله يمحو السيئة عن العبد ويثبت له بدلها الحسنة بحكم
هذه الاية وهذا هو ظاهر الاية ويدل له ما روى ابو هريرة ان رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال اني لاعلم آخر رجل يخرج من النار
رجل يوتى به يوم القيمة فيقال اعرضوا عليه صغار ذنوبه فيقال له
عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا وعملت يوم كذا وكذا كذا وكذا فيقول
نعم فلا يستطيع ان ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه ان تعرض عليه

وارفعوا عنه كبارها فيعرض عليه صغارها صح

فيقال له ان لك مكان كل سيئة حسنة فيقول يا رب قد عملت اشيا لا اراها
ههنا قال ابو هريرة فلقد رايت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك
حتى بدت نواجذه وكان الله الذي له الجلال والاكرام على الاطلاق
ازلا وابدا غفورا اي ستورا الذنوب كل من تاب بهذا الشرط رحيما به
بان يعامله بالاكرام كما يعامل المرحوم فيعطيه مكان كل سيئة حسنة
روى البخاري عن ابن عباس ان هذه الاية نزلت في اهل الشرك لما نزل صدرها
قال اهل مكة فقد عدلنا بالله وقتلنا النفس التي حرم الله واتينا
الفواحش فانزل الله الا من تاب الى رحيما روى البخاري في التفسير
ان ناسا من اهل الشرك كانوا قد قتلوا واكثروا وزنوا واكثروا فاتوا
محمدا صلى الله عليه وسلم فقالوا ان الذي تدعو اليه لحسن لو تخبرنا ان لما
عملناه كفارة فنزلت هذه الاية ونزل قل يا عبادي الذين اسرفوا على
انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ومن تاب اي عن ذنوبه غير ما ذكر
وعمل تصديقا لادعائه التوبة صالحا ولو كان كل من نيته وعمله ضعيفا
ورغب سبحانه وتعالى في ذلك بقوله تعالى معلما انه يصل الى الله به
فانه يتوب اي يرجع واصلا الى الله اي الذي له صفات الكمال
متابا اي رجوعا مرضيا عند الله بان يرغبه الله تعالى في الاعمال
الصالحة فلا يزال كل يوم في زيادة في نيته وعمله فيخف عليه ما كان
ثقيلا ويتيسر عليه ما كان عسيرا او يسهل عليه ما كان صعبا كما في
ان الذين امنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم ولا يزال كذلك
حتى يحبه فيكون سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي
يبطش بها ورجله التي يمشي بها بان يوفقه للخير فلا يسمع الا ما يرضيه
وهكذا ولما وصف سبحانه عباده بانهم تحلوا باصول الفضائل وتخلوا
عن امهات الرذائل ورغب في التوبة لان الانسان لعجزه لا ينفك عن
النقص مدحهم بصفة اخرى وهي الصفة السابعة
المذكورة في قوله تعالى والذين لا يشهدون اي لا يحضرون الزور اي
القول المنحرف عن الصدق كذبا كان او مقاربا له فضلا عن ان يتفوهوا
فيه او يقروا عليه في مواعظ عيسى بن مريم عليه السلام اياكم
ومجالس الخطائين ويحتمل ان لا يشهدون شهادة الزور بحذف
المضاف واقيم المضاف اليه مقامه وعن قتادة مجالس الباطل وعن
ابن الحنفية اللهو والغنا وعن مجاهد اعياد المشركين ثم عطف
عليه ما هو اعم منه بقوله تعالى واذا مروا باللغو اي الذي ينبغي
ان يطرح من الكلام القبيح وغيره مروا كراما اي امرين
بالمعروف ناهين عن المنكر اي ان تعلق بهم امر او نهي

فان لم

فان لم يتعلق بهم كانوا معرضين عنه مكرمين انفسهم عن الوقوف عليه
والخوض فيه كقوله تعالى واذا سمعوا اللغو اعرضوا عنه وقالوا لنا اعمالنا
ولكم اعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين ومن ذلك الاغضا
عن الفواحش والصفح عن الذنوب والكناية عما يستهجن التصريح به
وعن الحسن لم تسفههم المعاصي وقيل اذا سمعوا من الكفار الاذى
اعرضوا عنه ثم ذكر الصفة الثامنة بقوله تعالى والذين
اذا ذكروا اي ذكرهم غيرهم كائنا من كان لانهم يعرفون الحق بنفسه
لا بقائله بايات ربهم اي الذي وفقهم لتذكر احسانه اليهم
في حسن تربيته لهم بالاعتبار بالايات المرئية والمسموعة لم
يخروا اي لم يسقطوا عليها صما اي غير واعين لها وعميانا اي
غير مستبصرين لما فيها كمن لا يسمع ولا يبصر كابي جهل والاخنس
ابن شريق بل خروا سامعين باذان واعية مبصرين بعيون راعية
فالمراد من النفي نفي الحال وهي صما وعميانا دون الفعل وهي الخرور
فالمراد نفي القيد دون المقيد كما تقول لا يلقاني زيد مسلما هو نفي
للسلام لا للقا الصفة التاسعة المذكورة في قوله تعالى
والذين يقولون اي علما منهم بعد اتصافهم بجميع ما مضى انهم اهل
للامامة ربنا هب لنا من ازواجنا اللاتي قرنتهن بنا كما فعلت
لنبيك محمد صلى الله عليه وسلم فمدحت ازواجه في كلامك القديم
وجعلت مدحهن يتلى على تعاقب الازمان والسنين وذرياتنا قرة اعين
لنا بان نراهم مطيعين لك ولا شي اسر للمومن من ان يرى حبيبه يطيع
الله تعالى وعن محمد بن كعب ليس شي اقر لعين المومن من ان يرى
زوجته واولاده مطيعين لله وعن ابن عباس هو الولد اذا راه يكتب
الفقه وخصوا الازواج والذرية بذلك لان الاقربين اولى بالمعروف
تنبيه من في قوله تعالى من ازواجنا يحتمل ان تكون بيانية كانه
قيل هب لنا قرة اعين ثم بينت القرة وفسرت بقوله من ازواجنا وذرياتنا
ومعناه ان تجعلهم لنا قرة اعين وهو من قولهم رايت منك اسدا اي
انت اسد وان تكون ابتدائية على معنى هب لنا من جهتهم ما تقر به
عيوننا من طاعة واصلاح وانما جمع القلة في اعين لان المتقين الذين
يعملون الطاعة ويسرون بها قليلون في جنب العاصين وقيل سالوا
ان يلحق الله تعالى بهم ازواجهم وذرياتهم في الجنة ليتم لهم سرورهم
ووحد القرة لانها مصدر واصلها من القر لان العرب تتاذى من الحر وتستروح ح
الى البرد وتذكر قرة العين عند السرور بارد وعند الحزن حار وقال الازهري
معنى قرة العين ان يصادف قلبه من يرضاه فتقر عينه عن النظر الى غيره

وقرا نافع وابن كثير وابن عامر وحفص بالف بعد الياء على الجمع والباقون بغير
الف على الافراد **واجعلنا للمتقين اماما** اي ايمة يقتدى بنا في امر الدين
باضافة العلم والتوفيق للعمل فاكتفى بالواحد لدلالته على الجنس ولعدم
اللبس كقوله تعالى ثم يخرجكم طفلا او اراد واجعل كل واحد منا
اماما او اراد وانه جمع كصايم وصيام او ارادوا اجعلنا اماما واحدا
لاتحادنا واتفاق كلمتنا وعن بعضهم في الاية ما يدل على ان الرياسة في الدين
يجب ان تطلب ويرغب فيها وقال الحسن نقتدي بالمتقين ويقتدي
المتقون بنا وقيل هذا من المقلوب اي واجعل المتقين لنا اماما واجعلنا
مؤتمين مقتدين بهم وهو قول مجاهد وقيل نزلت هذه الايات في العشرة
المبشرين بالجنة ولما بين تعالى صفات المتقين المخلصين بين بعده احسانه
اليهم بقوله تعالى **اوليك** اي العالوا الرتبة العظيموا المنزلة **يجزون**
اي فضلا من الله تعالى على ما وفقهم له من هذه الاعمال الزاكية
والاحوال الصافية **الغرفة** اي الغرفات وهي العلالي في الجنة فوحد
اقتصارا على الواحد الدال على الجنس والدليل على ذلك قوله تعالى وهم في
الغرفات امنون وقيل هي من اسما الجنة ولما كانت القرب في غاية التعب
لمنافاتها لشهوات النفس وهواها وطبع البدن رغب فيها بان جعلها سببا
لهذا الجزا بقوله تعالى **بما صبروا** اي اوقعوا الصبر على امر ربهم ومرارة غربتهم
بين الجاهلين في افعالهم واقوالهم واحوالهم وغير ذلك من معالي خلالهم
ولما كان المنزل لا يطيب الا بالكرامة والسلامة قال تعالى **ويلقون فيها**
اي الغرفة **تحية** اي دعا بالحياة من بعضهم لبعض ومن الملايكة الذين لا
يرد دعاوهم ولا يمتري في اخبارهم لانهم عن الله ينطقون وذلك على وجه
الاكرام والاعظام فكان ما اماتهم عاد الشيطان وقيل ملكا وقيل بقادايما
وسلاما اي من الله والملايكة وغيرهم وسلامة من كل افة مكان ما اصابهم
بالمصايب اللهم وفقنا لطاعتك واجعلنا من اهل رحمتك وارزقنا ما
رزقتهم في دار رضوانك يا ارحم الراحمين وقرا حمزة والكسايي وشعبة
بفتح اليا وسكون اللام وتخفيف القاف من لقي كما قال تعالى فسوف يلقون
غيا والباقون بضم اليا وفتح اللام وتشديد القاف اي يجعلهم الله تعالى
لاقين باي امر كما قال تعالى ولقاهم نضرة وسرورا **خالدين فيها** اي
الغرفة لا يموتون ولا يخرجون مكان ما ازعجوهم من ديارهم حتى هاجروا
ودل على علو امرها وعظيم قدرها بابراز مدحها في معرض التعجب بقوله
تعالى **حسنت** اي ما احسنها **مستقرا** اي موضع استقرار
ومقاما اي موضع اقامة وهذا مقابل ساءت ومثله في الاعراب
ولما شرح الله تعالى صفات المتقين واثنى عليهم من اجلها وشرح ثوابهم

امر

امر رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى **قل** اي لكفار مكة **ما يعبؤا** اي ما
يصنع **بكم** اي ايها الكافرون من عبات الجيش اي وبعد ربكم **ربي** اي المحسن
الي واليكم برحمانيته المخصص لي بالاحسان برحيميته وانما خصه
بالاضافة لاعترافه دونهم **لولا دعاوكم** اي عبادتكم وما متضمنة معنى
الاستفهام وهي في محل النصب وهي عبارة عن المصدر كانه قيل واي عبا
يعبؤ بكم لولا عبادتكم وطاعتكم اياه كما قال تعالى وما خلقت الجن والانس
الا ليعبدون **فقد كذبتم** بما اخبرتكم به حيث خالفتموه وهذا معنى قول
ابن عباس ومجاهد وقال قوم ما يعبا ما يبالي بمغفرتكم ربي لولا دعاوكم
اي نداوكم في الشدايد كما قال تعالى فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله
مخلصين له الدين وقال تعالى فاخذناهم بالباسا والضرا لعلهم
يضرعون ويجوز ان تكون ما نافية وجرى على ذلك الجلال المحلي **فسوف**
اي فتسبب عن تكذيبكم انه يجازيكم على ذلك ولكنه مع قدرته وقوته
واختياره لا يعاجلكم بل **يكون** جزاء هذا التكذيب عذابا نقضا
ما ضربه لكم من الاجال **لزاما** اي لازما يحيق بكم لا محالة فاعتدوا
وتهيؤا لذلك اليوم فكل ات قريب وكل بعيد عندكم قريب عنده
وعن مجاهد هو القتل يوم بدر وانه لوزم بين القتلى لزاما قتل منهم
سبعون واسر سبعون وعن ابن مسعود خمس قد مضين الدخان
والقمر والروم والبطشة واللزام وما رواه البيضاوي تبعا للزمخشري
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه من قرا سورة الفرقان لقي الله تعالى
وهو مومن بان الساعة اتية لا ريب فيها وادخل الجنة بغير
حساب حديث موضوع • تم الجزء الثاني من تفسير
القران العظيم للشيخ الامام العالم العلامة
والبحر الفهامة من هو في الدنيا سعيد وفي
الاخرة شهيد محمد الشربيني
الخطيب نفعنا الله به وبعلومه
في الدين والدنيا والاخرة
واحشرنا في زمرته
ونفعنا به والمسلمين
امين امين
امين
تم وكمل
بحمد
الله
وعونه
امين